مناهج البحث والتأليف في القصص القرآني

(دراسة تحليلية نقدية)



الدكتور أحمد نوفل

الجامعة الأردنية

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يليق بجلاله...

والصلاة والسلام على محمد وصحبه وآله...

اللهم أطلق عقلنا من عقاله...

مُقَدِّمَة

موضوع القصص القرآني موضوع مهم، وجذب للتأليف فيه المئات من الكتاب والمؤلفين، منهم من كرر ومنهم من أبدع وأجاد.

وعلى أهمية الموضوع وحيويته وتجدده، لم أرَ مَنْ أفرد مناهج التأليف في القصص القرآني بكتاب خاص.

وقد درّست القصص القرآني منذ ثلاثين سنة ونيف، وظللت على اتصال بكتبه. فرأيت أن أقوم بدراسة للمكتبة القصصية القرآنية على الجملة، وأُعرِّف بها كتاباً كتاباً، بجمع بين التعريف بالكتاب عن طريق تلخيصه وإيجازه للقارئ فكأنما قد قرأه، وبيان منهج الكاتب في تأليف كتابه، وأبين كذلك رأيي فيما أقرأ؛ وقد أُخطئ في نقدي وقد أُصيب، وقد يكون الصواب بخلاف رأي الكاتب ورأيي، لكن العلم ارتقاء لا يتوقف، وصعود لا يفتر، وآراء يدلي بها أصحابها ثم يُستدرك على المستدرك، وهكذا إلى أن يرث الله الأرض والناس.

وقد جمعت بين القديم والحديث فلم أرتب على الزمن، وإن كان لذلك وجاهة، ولكني شكلت حتى لا يكون إملال ولا تنميط، وجمعت قديماً إلى حديث فالموضوع واحد، وإن تباعدت بالمؤلفين الأزمان.

وقد بدأت حديثي بالتعريف بالمنهج، ثم بينت أن مناهج التأليف في القصص القرآني تتراوح بين ثلاثة مناهج حسب ما أرى:

١. المنهج السردي.

٢. المنهج التحليلي.

٣. المنهج السرد-تحليلي.

وبينت أنه لا يليق بالقصة القرآنية العظيمة إلاّ المنهج التحليلي، وأن المنهج السردي كان مَدخلاً للإسرائيليات منه تسربت وأفسدت.

وأنه قد آن الأوان للمراجعة الشاملة، وغربلة التراث، فتراثنا كنز معرفي هائل فيه بعض "زوان"، فلو نقي من شوائبه لغدا ثروة سائغة، ومصدراً غير محدود، لعطاء فكري، وأساس لنهوض علمي طال الحديث عنه. وتأخر البدء به.

وأخيراً أقول: هذا الجهد هو جهد المقل، ونظراتي في الكتب نظـرات بسـيطة، لكـني وجدت فراغاً فحاولت أن أملأه ووجدت فسحة فحاولت شغلها عسى أن يتصدى لدراسة هـذا الموضوع من هو أسدُّ نظراً، وأقوم قولاً، وأعمق فكراً، وأخلص نقداً.

والله يوفقنا جميعاً لخدمة كتابه، وبخاصة لب لبابه، القصص القرآني...

د. أحمد نوفل

المقدمات

المنهج في اللغة:

في مفردات الراغب: النهج: الطريق الواضح، ونهج الأمر وأنهج: وضح [1].

وفي معجم المقاييس: النهج والمنهج: الطريق [2].

وفي الأساس: أخذ النهج والمنهج والمنهاج، وطريق نهج [3].

قال الشاعر:

ولقد أضاء لك الطريق وأنهجت   منه المسالك، والهدى يُعدي

وفي اللسان: طرق نهجة سبيل منهج.

وفي التنزيل: ﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾.

وفي حديث العباس: "لم يمت رسول الله حتى ترككم على طريق ناهجة" أي بينة واضحة [4].

وفي معنى نهج قال في مختار الصحاح: النهج والمنهج: المذهب، والمنهاج: الطريق الواضح ونهج الطريق: أبانه وأوضحه، ونهجه أيضاً سلكه [5].

والنهج: الطريق العامر، وهو المنهاج [6].

قال الكميت:

واستشتت بنا مصادر شتى   بعد نهج السبيل ذي الآرام

والناهجة: الواضحة البينة، وقد نهج الأمر وانهج لغتان، إذا وضح، وطريق نهج أي بين [7].

المنهج في الاصطلاح:

---

١ – مفردات الراغب الأصفهاني. مادة نهج.

٢ – معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٢–ص٥٢٨.

٣ – أساس البلاغة للزمخشري ج٢–ص٤٨٤.

٤ – لسان العرب لابن منظور ج٤–ص٣٠٠، وارجع إلى النهاية في غريب الحديث ج٥–ص١٣٣.

٥ – مختار الصحاح ج١–ص٢٨٤ .

٦ – الغريب لابن سلام ج٣–ص٢٧٨.

٧ – الغريب للخطابي ج١–ص٦١٧، ج٢–ص٢٤١.

قال الدكتور بدوي: "كلمة المنهج استعملها أفلاطون بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة. كما نجدها كذلك عند أرسطو أحياناً كثيرة بمعنى (بحث)".

والمعنى الاشتقاقي (اللغوي) الأصلي لها يدل على الطريق أو المنهج المؤدي إلى الغرض المطلوب، خلال المصاعب والعقبات.

ولكنه لم يأخذ معناه الحالي، أي بمعنى أنه: "طائفة من القواعد العامة المصوغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم". إلاّ ابتداءً من عصر النهضة الأوروبية.

ويعرفه الباحثون المنطقيون في القرن التاسع عشر بأنه:

"فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين".

فثمة إذن نوعان من المنهج: أحدهما للكشف عن الحقيقة، ويسمى منهج التحليل، والآخر وهو الخاص بتعليمها للآخرين، يسمى التركيب أو منهج التأليف ...".

يقول بدوي: "وبذا تكونت فكرة المنهج الاصطلاحي المستعمل اليوم ومعناه: الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"[1].

ويسأل الدكتور محمود محمد قاسم: ما المنهج؟ ثم يجيب فيقول: "يقدم قاموس الفلسفة الذي أشرف على نشره (رونز) أكثر من تعريف للمنهج، أولها أنه: إجراء يستخدم في بلوغ غاية محددة".

وهو نفس التعريف الذي يقدمه المعجم الفلسفي: "وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة"[2].

وثاني تعريفات (رونز): "أساليب معروفة لنا تستخدم في عملية تحصيل المعرفة الخاصة بموضوع معين".

وثالثها: "علم صياغة القواعد الخاصة بإجراء ما".

---

١ – عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ص٣، ط٣، الكويت: وكالة المطبوعات. وقد نقل تعريف بدوي واعتمده كل من د. طلال المجذوب في كتابه منهج البحث وإعداده، ص١٧؛ وطلعت همام في مناهج البحث العلمي، ص٥.

٢ – مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، مادة منهج، ص١٩٥ عن الدكتور محمد قاسم.

ويعرف (باتل) المنهج بصفة عامة بأنه: "التركيب الصائب للعمليات العقلية التي نقوم بها بصدد الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها"[١].

أما المنهج العلمي فيمكن تعريفه بأنه: "تحليل منسق وتنظيم للمبادئ والعمليات العقلية والتجريبية التي توجه بالضرورة البحث العلمي، أو ما تؤلفه بنية العلوم الخاصة"[٢].

وأشار الدكتور قاسم إلى استخدام المنهج العلمي لعمليتين رئيسيتين هما: الاستقراء والاستنباط، أو التحليل والتركيب[٣].

يقول د. غازي عناية معرفاً منهج البحث: "القانون أو المبدأ أو القاعدة التي تحكم أي محاولة للدراسة العلمية وفي أي مجال"[٤].

ويعرفه الدكتور صلاح الخالدي بأنه: "الخطة العلمية الموضوعية المحددة المرسومة الدقيقة، التي يتعرف عليها الباحث أو الدارس، ويقف على قواعدها وأسسها، ويلتزم بها، لتكون دراسته دراسة علمية منهجية موضوعية صحيحة"[٥].

ومعلوم -بالضرورة- أن لكل علم منهجه المتناسب معه والمتناسق المنسجم مع طبيعته، فعلم الاجتماع يمكن أن يكون منهج درسه ملاحظة الظواهر واستقراؤها، ثم تحليلها، بينما العلوم البحتة يمكن أن يكون المنهج الأوفق لها هو المنهج التجريبي. والفلسفة والرياضيات والمنطق لا يتصور أن يكون منهجها هو المنهج التجريبي.

---

١ - د. محمد محمود قاسم: المدخل إلى مناهج البحث العلمي ص٥٢، بيروت ط١، دار النهضة العربية ١٩٩٩م.

٢ - المرجع السابق نفس الصفحة.

٣ - المرجع السابق، ص٥٤.

٤ - د.غازي عناية: مناهج البحث، ص٧٥-ص٧٧. و مناهج البحث العلمي في الإسلام، ص٧٩-ص٨١.

٥ - د. صلاح الخالدي : تعريف الدارسين بمناهج المفسرين ص١٢ . وارجع إلى تعريفات أخرى في مراجع أخرى إن شئت: الوجيز في مناهج البحث العلمي للدكتور عاصم الأعرجي، ص١١. واتجاهات التجديد في تفسير القرآن في مصر للدكتور محمد الشريف، ص٦٧-ص٦٨. وتاريخ الحديث ومناهج المحدثين للدكتور محمود عبيدات، ص٢١. والسلف والسلفيون لإبراهيم العسعس، ص٧، وقال: "المنهج: طريق محدد يعتمد على خطة واعية. أو هو طائفة من القواعد العامة التي تنظم المعلومات والأفكار من أجل الوصول إلى الحقيقة العلمية. وفهد الرومي في اتجاهات التفسير ج١-ص٢٢.

والنقد الأدبي والفني منهجه الذوق والانطباعية والتحليل، وهكذا تتعدد العلوم وميادينها وتتعدد مناهجها.

وعموماً فإن الدراسات الإنسانية لها منهجها الخاص، وإن كانت بطبيعة الحال يمكن أن تستفيد من العلوم المختلفة ومناهجها، ويبقى لها طبيعتها الخاصة ومنهجها الخاص.

فالنفس والتربية لا يمكن أن نستخدم معها المنهج ذاته الذي نستخدمه في دراسة الجيولوجيا والكيمياء والأحياء والفيزياء.

والقرآن العظيم له منهجه الخاص في درسه وتفسيره وتحليله. فلا يحاكم إلى مناهج الدراسات العلمية أو الإنسانية، فهو كلام الله الذي لا يجوز أن يقاس بمقاييس البشر، أو أن أطبق عليه القواعد والضوابط التي أتعاطاها في تعاملي مع نصوص البشر.

فلا أطبق على القصة القرآنية معايير العمل الفني، ولا أخضعها لقواعد النقد التي يستخدمها أهل هذا الفن. فلا مجال لما زعمه بعض الكاتبين من القول بالرمزية أو الأسطورية أو القصة المتخيلة[1] والقصة القرآنية من معدن الحق بل هي هو.

أهمية المنهج:

"إن مشكلة المنهج هي مشكلة العلم في صميمه، ذلك أن شرط قيام العلم وتقدمه، أن تكون هناك طريقة صحيحة يطوى تحتها شتات الوقائع، والمفردات المبعثرة هنا وهناك، بغية تفسير ما قد يوجد بينها من روابط أو علاقات، تنظمها قوانين محددة. وإن تأخر العلوم ناشئ وفي العادة عن تأخر المناهج. بمعنى أن لا تكون هناك مناهج محددة وواضحة متفق عليها، فيسير كل عالم في فنه على غير هدى وبصيرة، يخبط خبط عشواء، دون أن يصل إلى نتيجة مفيدة، فتتعارض القضايا، وتضطرب المسائل"[2].

وقد اختار الحق سبحانه من التاريخ الإنساني ما شاء ليعرضه علينا ليكون عبرة وعظة. ولو وافقنا الزاعم على ما زعم من أسطورية القصة لانتهت، وانتهت عبرها وانتهى الكتاب... وحاشا.

---

١ - راجع خلف الله: الفن القصصي في القرآن، ص٢٠٠-ص٢١٠، ص٤٢٣، وغيرها.

٢ - عثمان علي حسن: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة، ج١-ص٢١، ط٣، الرياض: مكتبة الرشد، ١٩٩٥م.

فإذا انتقلنا من هذا العموم إلى الخصوص أي مناهج التأليف في القصص القرآني، فإننا نستطيع أن نقسم المناهج على كثرة الكتب المؤلفة، إلى منهجين اثنين:

١. السردي: وله نصيب الأسد، من حيث العدد، ومن حيث القدم والانفراد بالساحة قروناً طويلة.

٢. والمنهج التحليلي: وهو حديث زماناً، قليل الحصة في الكتب نادر الجيد.

ويمكن أن نضيف إلى هذين منهجاً ثالثاً آخذ من كل من المنهجين السابقين بطرف فنسميه لذلك: المنهج السردي-التحليلي؛ أو السرد تحليلي. وكتبه محدودة جداً، ويمكن أن يختلف فيه، ويلحق بأحد المنهجين السابقين لكني أعتمده لأنه أدق في التقسيم، وغيابه يحرم بعض الكتب من نصيبها من عدها في المنهج التحليلي ولو بشكل جزئي.

وبالمنهج السردي نبتدئ:

ومعنى السرد: الحكاية أو القص المتتابع، أي الاعتماد على رواية القصة بشكل مسترسل متتابع من البدء إلى المنتهى. من قولهم سرد الصوم إذا واصله[١] ومنه قوله تعالى: ﴿وقدر في السرد﴾ أي نسج الدروع[٢].

ولما كان القرآن الكريم في قصصه لم يعتمد الحكاية المتتالية المشاهد والمتتابعة الحلقات من البدء إلى النهاية، فإن الكتّاب اضطروا إلى اللجوء إلى الإسرائيليات لأمرين لا لأمر واحد، الأول: ملء ما توهموه فراغاً ونقصاً في المشاهد القرآنية، والأمر الثاني: ربط الحلقات تقديماً وتأخيراً، ففي قصة موسى مثلاً، أين نضع مشهد صحبته للعبد الصالح، ومشهد ذبح البقرة... الخ؟

وإن تسمية هذه الطريق بالمنهج فيه قدر كبير من (التجوز) والتسمح فليس هذا بمنهج فيه علمية، ولا تحقيق نتائج متوخاة، ولا يتبع طرائق البحث السوية، فما هو إلاّ نقول عمن لا تصح رواياتهم ولا تتصل أسانيدهم، ولا تستقيم أخبارهم مع عقل ولا نقل ولا واقع ولا تاريخ.

والعجب أن التأليف في القصص القرآني ابتدأ بهذا المنهج، وظل هو المسيطر على ساحة التأليف في القصة القرآنية، وظل هو المتبع في الفكر الإسلامي حتى الأعصر المتأخرة، فلم يظهر

---

١ - قال الجوهري: الدرع مسرودة. وسردها نسجها وهو تداخل الحلق.

٢ - في زاد المسير لابن الجوزي ج٣-ص٣٤٩: حلق الدرع (يقصد تضيقها) من قولهم سرد الكلام إذا تابع بينه. وكذا قال الجواهري. وقال: قيل لأعرابي عن الأشهر الحرم فقال: ثلاثة سرد وواحد فرد، الصحاح ج٢-ص٤٨٧.

المنهج التحليلي الذي يليق بمقام القصة القرآنية العظيم إلاّ في الخمسين سنة الماضية... ومازال في البواكير والبدايات... وإن كانت هناك محاولات طيبة، ومجهودات متميزة سنقف عليها في وقتها إن شاء الله.

وهذا الذي سميناه عجباً، ربما لا يكون عجيباً، إذا حاولنا التماس تفسير أو تبرير لهذا السلوك، فقد ظن القوم أن هذا هو المنهج، وغرهم بعض النصوص التي تجيز الرواية عن بني إسرائيل، تلك النصوص التي ظلمت من حيث منهجية الفهم، واستقامة القصد والتصور، فلا يعقل أن ترجمة الحديث الشريف: وحدثوا عن بني إسرائيل... قصد بها ما جرى في واقع الفكر الإسلامي والتأليف في القصص القرآني.

إن الأخذ عنهم قد دمر الفكر الإسلامي والعقل المسلم -فيما أزعم وأرى- فهل يعقل أن النبي الكريم وهو الذي جاء ليرفع عنا الإصر، قذف بنا في مستنقع أخبار بني إسرائيل. وألقى بنا في تيه حكاياهم وخرافاهم؟

إن الحديث -في ضوء النتائج- يجب أن ينحى في فهمه منحى غير المنحى الذي انتحاه العقل المسلم، إذ استجاز الرواية عن هؤلاء، بلا ضوابط تقريباً.

المهم أن المنهج السردي -وهو ليس الأليق بالقصة القرآنية- ظل المسيطر والمستحوذ على المكتبة القصصية ردحاً طويلاً من الزمان، بل الزمان الذي قطعه الفكر الإسلامي كله حتى اليوم...!

إن سبق هذا المنهج من حيث الزمان جعله معياراً لمن يأتون بعده وصار هو المنوال الذي ينسج اللاحق عليه كما نسج السابق... ويعتبر أن هذا هو (المنهج) الذي لا منهج سواه. بل أبلغ من هذا في المصاب، أنه صار إذا خالف أحد عن هذا المنهج نظر إليه باستغراب، وكأنه خالف المعلوم بالضرورة، وخرج عن النهج السوي الذي ينبغي أن يسير عليه القصص القرآني، والكاتبون في القصص القرآني.

وإذا جئنا نؤرخ لهذا المنهج، فإنّا نقول انه منذ البدء كان هذا المنهج. أعني منذ بدء التأليف في التفسير أو القصة القرآنية. ومنذ بدء الأخذ عن الإسرائيليات، وأزعم أنه بدأ منذ عهد التابعين، واتسع آناً بعد آن وحيناً بعد حين... حتى اتسع الخرق على الراقع...

أما الأمثلة عليه والشواهد له فمكتبة القصة القرآنية كلها إلاّ استثناءات طفيفة هنا وهناك، ولكن لا بد من تحديد وتعيين، فهذا التعميم لا يغني ولا يُسمن ولا يُعين. وهذه بعض نماذج من الشواهد على هذا المنهج:

١- تفسير الطبري، وتاريخ الأمم والملوك للطبري.

٢- تاريخ ابن كثير، وقصص الأنبياء لابن كثير، والبداية والنهاية له.

٣- عرائس المجالس للثعالبي.

٤- قصص الأنبياء لمحمد بن عبد الله الكسائي.

٥- الكشف والبيان للثعلبي.

٦- لباب التأويل للخازن.

٧- النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين للجزائري.

ومن الكتب الحديثة المؤلفة وفق المنهج السردي (والمعتمدة على الإسرائيليات):

١- قصص القرآن: لمحمد جاد المولى ورفقائه.

٢- تأويل الأحاديث: ولي الله الدهلوي.

٣- نظرات في أحسن القصص للدكتور المرحوم: محمد السيد الوكيل.

٤- قصص القرآن، والقصص في الديانات الأخرى: للدكتور خالد صناديقي.

٥- الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل: للدكتور محمد وصفي.

٦- حياة سليمان: محمود شلبي.

٧- سليمان: عبد الرحمن الرفاعي.

٨- القرآن وأنباء الأنبياء: محمد فتحي قورة.

٩- حياة يحيى: محمود شلبي.

١٠- الأنبياء في القرآن: محمود الشرقاوي.

١١- قصص الأنبياء في القرآن الكريم، مجمع البيان الحديث: سميح عاطف الزين.

١٢- أحسن القصص: علي فكري.

١٣- حياة وأخلاق الأنبياء: أحمد الصباحي عوض الله.

١٤- أنبياء الله والحياة المعاصرة: د. عبد الغني عبود.

١٥- حياة إبراهيم: محمود شلبي.

١٦- حياة آدم: محمود شلبي.

١٧- حياة يوسف: محمود شلبي.

١٨- حياة موسى: محمود شلبي... الخ.

أما المنهج التحليلي:

فنقصد به المنهج الذي يتعاطى مع النص القرآني المتعلق بالقصص، ثم لا ينشغل بالروايات، التي هي من خارج النص وإنما هي محض إسرائيليات. بل يجعل همه هو النص كلماته وحروفه وترتيبه ومراميه ودلالاته وإشاراته وما يستنتج منه من دروس وعبر.

وهذا المنهج يمكن أن نقسمه إلى قسمين أو شعبتين: قسم ينشغل بالدراسات المتعلقة بالقصة القرآنية: أغراضها وخصائصها وعناصرها وما إلى ذلك مما يتعلق بها. ولعل من خير من مثل هذا وأسبقه من حيث الزمان كتاب: التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ومنه كذلك سيكولوجية القصة في القرآن للدكتور التهامي نقرة، وغيرها من الكتب...

ولولا انحراف وانجراف الدكتور خلف الله عن السبيل كله لكان في عداد هذا الفريق... ولكنه درس ما ظاهره القصة القرآنية... وليس في الحقيقة كذلك.

وأما القسم الثاني من شعب هذا المنهج فالذي يتعاطى مع النص ألفاظه وحروفه وتراكيبه وما يتضمن من دلالات، ولعل خير أو من خير من مثّل هذا المنهج -فيما أرى بطبيعة الحال- كتاب الدكتور حسن باجودة: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف. فقد التزم النص القرآني ولم يعده، ولم يتجاوز عنه، ولم يخرج إلى الدائرة الإسرائيلية قيد شبر، بل انضبط في حدود النص... واستنتج من النص كنوزاً دلالية ومعرفية هائلة دون الاحتياج إلى الإسرائيليات.

ومن هذا القبيل: نظرات تحليلية في القصة القرآنية للمرحوم محمد المجذوب. وهو وإن كان صغير الحجم لكنه كبير النفع والفائدة، وهو الآخر لم يخرج عن حدود النص، بل التزم درسه وفحصه واكتناه مكنوناته ودلالاته.

ومن الكتب الجيدة المعدودة من درر هذا المنهج، كتاب المرحوم عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، وإنّا وإن كنا نأخذ عليه هنات هنا وهناك، لكنه يظل من عيون الكتب المؤلفة وفق المنهج التحليلي ونظرته بخاصة إلى قضية التكرار تسجل بالذهب. وخلاصة نظرته أو نظريته -وبحق ما يرى- أنه لا تكرار في القصة القرآنية، ولكنه عرض

للمشهد من زوايا متعددة، بحيث إذا ضممنا الأجزاء إلى بعضها؛ تكامل المشهد، واتسقت الصورة وما تكررت"[1].

والمنهج التحليلي عموماً ليس شيئاً واحداً، أو يتم وفق منظور واحد وإنما ينصبغ توجه صاحب المنهج بتخصص الدارس.

فالدكتور باجودة المتخصص في اللغة انصبغ تحليله ومنهجه بصبغة تخصصه، فجاءت النكهة اللغوية واضحة والذوق البياني سافراً...

ويمكن أن ينصبغ المنهج بالتحليل العقلي والتاريخي والفكري والفلسفي مثلما هو الحال مع دراسات العقاد عن إبراهيم أبي الأنبياء والمسيح عليهم السلام.

ويمكن أن تغلب الدراسات الاقتصادية والإدارية على التحليل كما هو الحال بالنسبة لكتاب الدكتور عبد العزيز كامل -رحمه الله- عن يوسف وذلك تحت عنوان مواقف إسلامية. ونظرات الدكتور جمال عبده في سورة يوسف في كتابه: دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية.

وقد تغلب الناحية الجغرافية والمكانية على وجهة التحليل أو وجه التحليل كما هو الشأن في دراسات الدكتور عبد العليم خضر: مفاهيم جغرافية في القصص القرآني.

وكتاب محمود محمد قاسم: من جغرافية القصص القرآني – مصر ليست مصر.

وقد تغلب الناحية التاريخية كما هو الحال مع دراسة الأستاذ محمد خير رمضان يوسف عن ذي القرنين... فقد استغرقت مساحة الكتاب في البحث عن هذه الشخصية التاريخية من تكون؟

وكذلك كتاب أبي الكلام أزاد: ويسألونك عن ذي القرنين.

أما المنهج الثالث الذي أسميناه السردتحليلي:

فهو آخذ من كلا المنهجين، مستمد من الطريقتين: ولعل الكتاب الذي يمثل أوفى تمثيل هذا المنهج، فيما أرى، كتاب العلامة المرحوم الشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي: مؤتمر تفسير سورة يوسف. والكتاب يقع في مجلدين كبيرين. والكتاب تحفة معرفية موسوعية فيها اللغة

---

١ – ومن كتب هذا القسم كتاب: محمود السيد حسن: صور من الإعجاز في القصص القرآني.

والتاريخ والعقيدة والاجتماع والفلسفة والأديان والشعوب والجغرافيا والأخلاق والسياسة... الخ.

وإنما عددته -من زاوية- مادا إلى السرد، ماتاً إلى المنهج السردي من جهة أنه آخذ بالروايات الإسرائيلية، معتمد اياها، صانع الأحداث وفقها...

وأما أنه تحليلي النظرة والمنهج، فأنه يتعاطى مع النص بشكل تكاملي يأخذه من زواياه العديدة كما ذكرت آنفا... فهو من خير من حلل النص ووقف على مراميه ودقائقه ومعانيه.

والكتاب الثاني الذي أمثل به للمنهج السردتحليلي كتاب المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء. فهو كذلك آخذ من كل منهج من المنهجين بطرف. فجمع إلى السرد التحليل، فاعتمد الروايات بل والإسرائيليات منها ولكنه أيضاً جاءت فيه لفتات تحليلية ولغوية وتاريخية، في غاية الجودة والإفادة والإتقان، والإجادة والإحسان.

ولسنا بصدد الحديث عن مآخذ الكتاب والهنات الموجودة فيه... فليس التفصيل عن كل الكتب التي ذكرنا، هذه العجالة التي ذكرناها للاستشهاد وإنما التفصيل يلحق تباعاً في استعراض هذه الكتب، والنية منعقدة، إن كان في العمر بقية، أن نستعرض المكتبة القصصية القرآنية -ما أمكن- كتاباً كتاباً حتى نأتي على جلها أو كلها... إن أعان الله.

وأما الدكتور التهامي نقرة، فإنه نحا منحى غير المنحى الذي نحيناه وقسم المناهج غير التقسيم الذي ارتضيناه وقسمناه، فتحت عنوان البحوث السابقة وطرقها قال: "لقد تناول قصص القرآن بالشرح والتحليل والدرس كثير من المفسرين والمؤرخين والباحثين قديماً وحديثاً، سواء في كتب التفسير أو التاريخ أو كتب مفردة... ولكنهم كانوا مختلفين في طرقهم اختلافاً يمكن تصنيفه وتقسيمه إلى أربع طرق:

١- طريقة التبسيط (البسط) والتفصيل:

وذلك باستقصاء ظروف القصة وجزئياتها وكل ما يتصل بها من مواقف وأحداث مع تحديد زمانها ومكانها وتعيين أشخاصها.

وجل من سلك هذا المسلك من المفسرين والمؤرخين كان همه الاستقصاء والإحاطة لإشباع رغبات المتطلعين إلى هذا القصص الديني، وخاصة ما يتعلق منه بتاريخ بدء الخليقة والأنبياء والأمم الغابرة، دون أن يتحرى فيما يروي من أخبار، ويجمع من نقول امتزجت في أكثر الأحيان بالخرافات والأساطير والإسرائيليات.

فمن كتب التفسير: جامع البيان للطبري -والكشف والبيان لأحمد الثعالبي ولباب التأويل للخازن، والسراج المنير للشربيني.

ومن كتب التاريخ: تاريخ الأمم والملوك للطبري، والكامل لابن الأثير ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري.

ومن الكتب المفردة: بدء الخلق وقصص الأنبياء لعمارة الفارسي (مخطوط)، وعرائس المجالس للنيسابوري (الثعالبي) وقصص الأنبياء للكسائي... الخ.

٢- طريقة التحليل في حدود النص القرآني:

وذلك بتوضيح ما في القصة من إشارات وعبر، والإجابة على ما أثير فيها من مشكلات وشبهات،... الخ.

وأصحاب هذا المنهج يعتمدون غالباً تفسير القرآن بالقرآن والسنة والأثر الصحيح. وإذا أوردوا بعض الأخبار في القصة عن أصحاب السير فإما لأنها متواترة مشهورة (!!)[١] تلائم حقائق القرآن والسنة، وإما لأنها مزيفة تحتاج إلى الرد والتنبيه.

ومن كتب التفسير القديمة: تفسير ابن كثير، وتفسير الرازي، والكشاف للزمخشري، وتفسير البيضاوي، والمنار والظلال والتحرير والتنوير.

ومن كتب التاريخ القديمة والحديثة: البداية والنهاية لابن كثير وقصص القرآن لجاد المولى، وقصص الأنبياء للنجار.

ومن الكتب الحديثة (يوسف) لأبي الخشب و(موسى) لأحمد الجبالي، و(دعوة الرسل) للعدوي[٢].

٣- طريقة التبسيط والتيسير:

وذلك بعرض القصة القرآنية في أسلوب بسيط، ولغة سهلة لا تحتاج إلى جهد. ومن الكتب الحديثة: القصص القرآني لسيد قطب والسحار، وقصص الأنبياء لبرانق.

٤- طريقة الدراسة للقصص القرآني:

---

١ - واضح أن الكاتب لا يريد هذه المصطلحات بمعانيها، وإنما يقصد أنها مروية في الصحيح... وحتى هذا فإنه غالباً غير صحيح -أي ادعاء الكاتب-.

٢ - لا نسلم مع الكاتب بأن هذه الكتب أو معظمها خالية من الإسرائيليات أو ملتزمة بالقرآن والسنة.. بل جلها مما روى الإسرائيليات.

وذلك بتحليل منهجه، وإبراز خصائصه، والبحث عما أثير فيه من قضايا وشبهات، وما قدمه بعض المستشرقين وغيرهم من تساؤلات واعتراضات كمصدر القصص القرآني. ومطابقته للتاريخ، وما يبدو فيه من تعارض. وهذه الطريقة هي أشد اتصالاً بموضوع البحث.

لذلك نرى من المفيد أن نشير بإيجاز إلى أهم القضايا والجوانب التي درستها في هـــذا القصص كتب مفردة أو فصول خاصة.

فمن الكتب المفردة: الفن القصصي في القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله، وأشار إلى رفض العلماء له. وقد جعل المؤلف الفن الأدبي في القصة أساساً لدراسته.

القصص القرآني في منطوقه ومفهومه لعبد الكريم الخطيب. ومنهجه كما يقول: التزام النص القرآني.

ومن الفصول والمقالات: القصة في القرآن من كتاب التصوير الفني في القرآن لسيد قطب؛ بيّن فيه خضوع القصة للغرض الديني، والتكرار وخصائص القصة القرآنية، والمفاجـــأة، والفجوات... الخ.

وأشار إلى المقدمة السابعة في الجزء الأول من التحرير والتنوير التي تكلم فيهـــا ابـــن عاشور عن القصة القرآنية حيث عرفها بأنها: "خبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها"، ثم استخلص منها الشيخ عشر فوائد للقصة. ثم بين فوائد التكرار.

ثم أشار الكاتب إلى كتاب "المعجزة الكبرى" لأبي زهرة، وبين أن القصص بيان لحقائق الإسلام.

ثم ذكر الكاتب عدداً من الكتب والفصول من كتب، ومن ذلك: اليهود في القـــرآن لطبارة، والقرآن والقصص للبشير النيفر، والقصص القرآني للأستاذ الحداد، وهو الجزء الثاني من كتابه "القرآن والكتاب" وتعرض فيه إلى قضية التاريخ والتمثيل وأن القصص القرآني جمع بينهما (نظرية خلف الله...).

وأن القرآن ناقل عن القصص التوراتي (استفادها خلف الله بطريقته -تعليق مني) وأن في التكرار تعارضاً...!!

ثم ذكر الكاتب بلاشير وكتابه "معضلة محمد" وفيه فصل عن مصدر القـــصص وأنـــه يهودي مسيحي...!!

وفصل: مناهج الناس في فهم القصص من كتاب تفسير القرآن لشلتوت. وتعرض فيه إلى منحى الشيخ عبده في تخريج قصة بني إسرائيل تخريجاً لا تساعد عليه اللغة كما انتقد شلتوت المؤولين من المتصوفة.

وكتاب الخطيب: قضية الألوهية... الخ[1].

مناهج الناس في فهم القصص القرآني:

تحت هذا العنوان قال الشيخ شلتوت: "يجدر بنا أن نقف وقفة نبين فيها مناهج الناس في شأن هام يتعلق بفهم القصص القرآني، فإن مما قيل في هذا القصص: إن كثيراً مما قصه القرآن لم يكن معروفاً من قبل لا في الكتب الإلهية ولا في الآثار التاريخية".

وقد خرّج الشيخ محمد عبده هذه القصة "قصة البقرة" على أنها نوع من التشريع الذي كان موجوداً في زمن بني إسرائيل لغرض الوصول إلى معرفة القاتل المجهول في هذه الحادثة. وشد أزره في ذلك الأستاذ الشيخ رشيد رضا، حيث ساق نصوص التوراة الواردة في هذا التشريع الذي يشير إليه.

قال الأستاذ الإمام: "يقول أهل الشبهات في القرآن: إن بني إسرائيل لا يعرفون هذه القصة، إذ لا وجود لها في التوراة، فمن أين جاء بها القرآن؟".

ونقول: إن القرآن جاء بها من عند الله الذي يقول في بني إسرائيل المتأخرين أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به، وأنهم لم يؤتوا إلاّ نصيباً من الكتاب، على أن هذا الحكم منصوص في التوراة، وهو أنه إذا قتل قتيل، ولم يعرف قاتله: فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول، في واد دائم السيلان، ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل على العجلة التي كسر عنقها في الوادي، ثم يقولون إن أيدينا لم تسفك هذا الدم، اغفر لشعبك إسرائيل.

ويتمتمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل، ويراد بذلك حقن الدماء، فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هي السبب فيه.

رأي الشيخ رشيد رضا:

---

١ - د. التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص٢٩-ص٤٥، باختصار وتصرف.

ويقول الأستاذ رشيد رضا: "إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلقة بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع. وذكر الشيخ النص كاملاً".

ثم قال الشيخ رشيد: "والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القتل إذا وجد القتيل قرب بلد، ولم يعرف قاتله، ليعرف الجاني من غيره".

فمن غسل يديه بريء ومن لم يغسل ثبتت عليه الجناية. ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي يحييها بمثل هذه الأحكام.

وهذا الإحياء على حد قوله تعالى: ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ وقوله: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين. ثم قال: ﴿ويريكم آياته﴾ بما يفصل بها في الخصومات، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات، فهو كقوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾[1].

وعقب الشيخ شلتوت على كلام الشيخين بقوله: "والذي حمل الأستاذ الإمام على هذا فيما نظن هو رغبته في التخلص من الاعتراض الذي ذكره بعض المستشرقين من وجود النص التشريعي الذي أشار إليه الشيخ بمعناه، ونقله الشيخ رشيد بنصه".

ثم قال تحت عنوان: "تأويل الشيخين لا تساعد عليه اللغة ولا السياق".

هذا صنيعهما. وبهذا يتبين أنهما توافقا على أن الآيات مسوقة لبيان حكم تشريعي لا لبيان حادث تاريخي، ولكننا إذا نظرنا إلى النص في هذه الآيات، وما ذيل الكلام من قوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها... لعلكم تعقلون. ثم قست قلوبكم...﴾.

وجدنا هذا النص إن لم يمنع من إرادة الحكم التشريعي فلا أقل من أن يبعده إبعاداً، وذلك بأن كلمة (اضربوه) واضحة في أن يضرب المقتول ببعض البقرة المذبوحة. وليس في الكلام إشارة تتعلق بالقاتل الخفي، ولا إشارة إلى غسل أيدي أهل الحي من دماء البقرة[2].

وقوله تعالى: ﴿كذلك يحي الله الموتى﴾ يدل على أن الإحياء المشبه به وهو الإحياء في هذا المقام -إحياء حقيقي بعد موت تسلب فيه الروح، وليس إحياءً حكمياً يحصل بمعرفة القاتل

---

١ - تفسير شلتوت ص٤٢–ص٤٣. وراجع تفسير المنار.

٢ - تفسير القرآن الكريم، ص٤٣–ص٤٤.

والاقتصاص منه- حتى تكون بمثابة ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ كما يريد الشيخان، ولو كان الأمر كما يقرران، لما صح تقرير إحياء الموتى للبعث والجزاء بهذا النوع من الإحياء الحكمي المجازي، ولو أن قائلاً قال: "إن الله يحي النفوس الجاهلة بالعلم، وكذلك يحي الموتى من قبورهم"، لما كان هذا التشبيه والقياس سائغاً وأن قوله تعالى: ﴿ويريكم آياته﴾ لواضح في الإراءة البصرية للآيات الكونية، لا في الإراءة العقلية للأحكام الشرعية، حتى يكون من قبيل ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾.

وإن قوله بعد ذلك: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ...﴾ ليدل على أنهم رأوا حالة مادية من شأنها أن تؤثر في النفوس، ومن شأن القلوب أن ترق لها وأن تتجرد من القسوة والعناد عندها، ومع ذلك لقد قسوا واشتدت قسوتهم، وكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد، وكل هذا لا يتفق مع ما يريد الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعي. فهذا الحمل تأويل منهما، لكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة، وما هو المعهود من كلام العرب"[1].

منهج المؤولين للقصص ورأينا فيه:

هذا أحد المناهج التي عرفناها للناس في فهم القصص القرآني، وهو صرف الكلام عن مدلوله اللغوي إلى معنى آخر دون ما يدعو إلى هذا التأويل، وصاحبه قد يحكّم فيه مجرد الاستبعاد لما يؤديه الكلام من المعنى الظاهر، وكثيراً ما يقصده بعض الباحثين دفعاً لما يثيره خصوم القرآن على القرآن، ويدخل في هذا القسم تأويل إحياء الموتى المنسوب لعيسى بالإحياء الروحي، وحمل النمل في قصة سليمان على أنه قبيلة ضعيفة، وتأويل الكواكب في قصة إبراهيم بأنها جواهر نورانية نورها عقلي لا حسي، وما نقله البيضاوي عن بعض الصوفية: "المائدة هاهنا عبارة عن حقائق المعارف، فإنها غذاء الروح، كما أن الأطعمة غذاء البدن، وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها فقال لهم عيسى: إن كنتم حصلتم الإيمان، فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها، فلم يكفوا عن السؤال وألحوا فيه، فسأل لأجل اقتراحهم، فبين الله أن إنزاله إياها سهل ولكن فيه خطر

وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمل ولا يستقر، فيضل به ضلالاً بعيداً".

---

١ - تفسير القرآن الكريم: شلتوت، ص٤٤-ص٤٥.

وهذا المنهج هو من طريقة التأويل التي أسسها الباطنية في القرآن الكريم صرفوه[1] بها عن دلالته العربية، وفيه احتفاظ بمدلول الكلام وواقع يدل عليه، ولكنه صرف للفظ عن معناه الوضعي إلى هذا المعنى الواقعي الذي يزعمه المؤول مدلولاً للكلام.

والرأي في هذه الطريقة أنه يجب أن يطبق عليها قانون التأويل، الذي يتلخص في أنه إذا كان التأويل لا يقضي على أصل ديني ولا يمس عقيدة ثابتة، وهو في الوقت نفسه يحتفظ للعبارة القرآنية بواقع تعبر عنه تعبيراً صادقاً، وكانت اللغة تسمح به، فإنه يكون مقبولاً من الجهتين الدينية واللغوية. وإذا لم تسمح به اللغة فهو مرفوض من هذه الجهة صادر عن جهل من صاحبه بالتأويل، ومرفوض أيضاً من جهة ما يلزمه من الحكم بصدور التلبيس من الله -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- أما إذا كان بقضي على أصل ديني أو يمس عقيدة فإنه يكون مرفوضاً أيضاً من الوجهة الدينية[2].

منهج القائلين بالتخييل:

أما المنهج الثاني من المناهج التي عرفناها للناس في فهم القصص القرآني فهو يتفق مع المنهج الأول من ناحية، ويخالفه في ناحية، إذ هو صرف للألفاظ عن معانيها الحقيقية كما في المنهج الأول، ولكن لا إلى واقع يزعم ويدعي أنه مراد، وإنما إلى تخييل ما ليس بواقع واقعاً. فلا يلزم فيه الصدق ولا أن يكون إخباراً بما حصل. وإنما هو ضرب من القول شبيه بما يوضع من حكايات بين أشخاص مفروضين، أو على ألسنة الطيور والحيوان، للإيحاء فقط بمغزى الحكايات من الإرشاد إلى فضيلة، والحث عليها، والتحذير من رذيلة والتنفير منها.

وقد حكى ابن تيمية في أول كتابه: "بيان موافقة صريح المعقول صحيح المنقول" أن جماعة الفلاسفة جعلت ما رأته بعقولها أصلاً لما جاء به الأنبياء، فما وافق قانونهم قبلوه وما خالفه رفضوه. قال: "ومنهم أهل الوهم والتخييل الذين يقولون: إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر. وعن الجنة والنار والملائكة بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون ويتوهمون من أن الأبدان تعاد، وأن لهم نعيماً محسوساً وعقاباً محسوساً وإن كان الأمر ليس كذلك في نفس الأمر.

---

١ ... المطبوع عرفوه، والصحيح ما أثبتناه، وكذلك قوله انكشفت قبل سطر، والصحيح انكشف.

٢ - شلتوت: ص٤٥-ص٤٦.

لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون ويتخيلون من أن الأمر هكذا، وإن كان هذا كذباً، فهو كذب لمصلحة الجمهور إذ كانت دعوهم ومصلحتهم لا تمكن إلاّ بهذه الطريقة".

ولا شك -يعقب شلتوت- أن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط والادعاء، فقد اقتحمت قدسيته، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه، وتزلزلت قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار.

وشبيه بهذا ما فعله قوم زعموا أن ما جاء في الكتاب الكريم من الآيات الدالة على أن الله يعلم جزئيات الأشياء لا يراد به معناه الظاهر، وإنما سيق ليورث رغبة ورهبة في نفوس الناس، وفي هؤلاء يقول الإمام الغزالي: "وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل ولكن قالوا: لما كان صلاح الخلق في أن يعتقدوا أن الله عالم بما يجري عليها جاز للرسول أن يفهمهم ذلك، وليس بكاذب من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحه وأن لم يكن كما قاله. وهذا القول باطل قطعاً".

ويجب إجلال مقام الألوهية والنبوة كما يقول الغزالي وشلتوت، عن هذه الرذيلة، ففي الصدق وإصلاح الناس مندوحة عن الكذب [1].

منهج المسرفين في قبول الروايات:

أما المنهج الثالث: فهو منهج جمهور المفسرين، ويقوم على الإفراط في تحكيم الروايات الواردة من طرق مختلفة في فهم القصة القرآنية، واعتبار كل ما ورد متصلاً بالقصة بياناً وتفصيلاً لما جاء في القرآن، كما اتخذ الفقهاء الأحاديث المتصلة بآيات التشريع بياناً وتفصيلاً أو تكميلاً لما ورد في الآيات من أحكام، وكما اعتبر الفقهاء الأحاديث مصدراً ثانياً للتشريع، اعتبر هؤلاء الروايات الواردة في القصة مصدراً ثانياً للقصة بعد القرآن الكريم.

والرأي السليم أنه إذا صح اتخاذ الأحاديث التشريعية مصدراً ثانياً للأحكام مبيناً أو مفصلاً أو مكملاً، لأن العلماء بحثوها وميزوا صحيحها من ضعيفها، فلا يصح ذلك في الروايات القصصية لأنها لم تبحث كما بحثت هذه، فهذا المنهج فيه إفراط أيّ إفراط، وذلك يتمثل في كثير من كتب التفسير حينما تصل إلى قصص الأنبياء مع أممهم، كما نراه في حالة بني إسرائيل في التيه، وكما نراه في وصف المائدة التي أنزلها الله، ولنضرب تفسير أبي السعود، وقد يكون من المقلين في الرواية مثلاً في هذا، إذ يقول في وصف المائدة وما عليها من طعام: "والصحيح الذي عليه جماهير

---

١ - شلتوت: ص٤٦-ص٤٧.

الأمة ومشاهير الأئمة، أنها قد نزلت، روي أنه عليه السلام لما دعا بما دعا، وأجيب بما أجيب، إذ بسفرة حمراء، نزلت بين غمامتين، غمامة من فوقها وغمامة من تحتها. وهم ينظرون إليهـا، حتى سقطت في أيديهم، فبكى عيسى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عقوبة، ثم قام وتوضأ وصلى وبكى وكشف المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا بسمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك، تسيل دسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل، وحولها من ألوان البقول عدا الكرات. وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثاني عسل، وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله، أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية... الخ"[1].

المنهج الذي نختاره (المنهج الرابع):

قال شلتوت: هذه المناهج الثلاثة مترددة بين إفراط وتفريط في شأن القصص القرآني وما ينبغي أن يستقبل به حتى يحقق الغاية المقصودة من قصه على الناس بالعبرة والموعظة، وحتى يحدث التسلية للدعاة والمصلحين، وحتى يتبين للناس أنه القصص الحق المطابق للواقع الذي لا مرية فيه ولا تزيد ولا تخييل.

وعلى أساس أن الحق وسط بين باطلين نقرر المنهج الرابع، الذي يجب استقبال القصص القرآني على أساسه، وهو المنهج السليم والصراط المستقيم إن شاء الله.

وخلاصته: الوقوف عند ما ورد في القرآن الكريم، مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها وإفادتها لواقع هي تعبير صحيح عنه، دون تزيد عليه بما لم يرد فيه اعتماداً على روايات لا سند لها كما صنع المفْرطون، ودون تخيّف لمعانيها، باعتبار أن الكلام تخييل لا يعبر عن الواقع كما فعل المفرّطون، ودون صرف للألفاظ عن معانيها الوضعية إلى معان أخرى، من غير صارف يمنع إجراء الكلام على ظاهره، كما فعل أهل التأويل، الذين حرفوا كثيراً من القرآن عن مواضعه، وتنكبوا قانون العربية التي نزل بها"[2].

---

١ - القصة طويلة وفيها أن الحواريين مسخوا ثم عادوا ثم نزلت المائدة... راجعها إن شئت. قال كعب: نزلت منكوسة...!!؛ راجع شلتوت، ص٤٧-ص ٥٠.

٢ - محمود شلتوت: تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى، ص٥٠، القاهرة، ط٩: دار الشروق، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

وتحت عنوان: الكاتبون في القصص القرآني، قال الدكتور فضل عباس: تناول القصة القرآنية فئات كثيرة من العلماء، منهم المفسرون، وعلماء التاريخ، وهناك فئات أفردت القصة القرآنية بالكتابة والتأليف.

أمّا المفسرون فلم يكونوا سواء، بل أوجز بعضهم وأطنب آخرون، كما اقتصر بعضهم على الخبر الصحيح الذي ذكرته الآيات، على حين نقل آخرون ما صحّ وما لم يصحّ، فممّن أطنب في ذكر القصة القرآنية الإمام ابن جرير في كتابه "جامع البيان"، والإمام ابن كثير في تفسيره، وعلاء الدين الخازن، على حين أوجز الشيخ الزمخشري، ومدرسة أبي السعود والنسفي والبيضاوي، وتوسط آخرون.

هذا كله مع المفسرين الأقدمين، أما المفسرون المحدثون فلقد حاول أكثرهم أن يلتزم بما صحّ في ذكر القصّة القرآنية.

أما المؤرخون فبدهي أن يذكروا القصة في كتبهم، كما فعل ابن جرير في "تاريخه"، وابن الأثير في "كامله"، وان كثير في "البداية والنهاية"، ولكن ما ذكر في كتب المفسرين والمؤرخين لا يطلع عليه كثير من الناس، إنما يطّلع عليه من يقرأون هذه الكتب، وهي كتب مطولة بالطبع، لذلك كان لا بدّ من إفراد القصص القرآني أو قصص الأنبياء عليهم السلام في مؤلفات خاصة، فأفردت كتب قديماً وحديثاً، لكن الكتاب الذي اشتهر كثيراً بين الناس قديماً "عرائس المجالس" لأبي إسحاق أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالثعلبي (توفي ٤٢٧ هجرية)، وهذا الكتاب محشو بالإسرائيليات، وظلّ هذا الكتاب يُقرأ حيناً من الدهر، دون أن يكون له منافس، وذلك إلى أول الثلاثينيات من هذا القرن، حيث كتب العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار —وهو من كبار علماء الأزهر— كتاب قصص الأنبياء.

ثم عرف الشيخ فضل عباس بكتاب الشيخ النجار، وعرف بكتاب جاد المولى "قصص القرآن"، وذلك بشكلٍ سريع، وعرج على كتاب خلف الله "الفن القصصي في القرآن" الذي آثار زوبعة، لما فيه من تعد على كتاب الله وتحد لمشاعر المسلمين.

ثم عرف بكتاب عبد الكريم الخطيب "القصص القرآني في منطوقه ومفهومه"، وعرف بكتابه الآخر "القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور وذلك في أربع صفحات وثلاث لسابقه.

وعرف بكتاب "سيكولوجية القصة في القرآن" للتهامي نقرة، ثم "نظـرات في أحـسن القصص" للدكتور محمد السيد الوكيل[١].

وفي كتابه الآخر "القصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته"، ذكر الشيخ فضل عباس تحت عنوان (شبهات حول القصة القرآنية)، ذكر القائلين بالخيال: وهو صاحب كتاب "الفـن القصـصي"، وملخص نظريته أنه يزعم أن القصص القرآني لا ينبغي أن نفهمه على أنه حقائق، ثم رد الـشيخ عليه.

ثم تكلم عن القائلين بالتأويل وذكر الشيخ محمد عبده، وذكر الشيخ نماذج لهذا التأويل وردَّ عليها، وذلك من قصة آدم.

ثم ذكر ثالثاً المفتونين بالنظريات، وذكر منهم مصطفى محمود في محاولته للفهم العصري للقرآن وردَّ عليه كذلك[٢]

---

١ - أ. د. فضل عباس: قصص القرآن الكريم، ص١٥-ص٣٣، ط١، عمان: دار الفرقان، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢ - د. فضل عباس: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص٤٢٤-ص٤٤٢، عمان: دار الفرقان، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

الكتاب الأول

النبوات وما يتعلق بها

تأليف: الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي
تحقيق: د. أحمد حجازي السَّقَّا

دار الكليات الأزهرية
القاهرة

دار ابن زيدون
بيروت

ط١، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م

النبوات وما يتعلق بها للإمام الرازي:

هذا كتاب المفروض فيه أنه كتاب في العقيدة، وبالذات عقيدة النبوات. وهي إحدى أركان الإيمان. لكن الرازي بطريقته أحاله إلى كتاب في الفلسفة والمنطق، ومعرضاً أو مسرحاً لعرض شبهات الفلاسفة والزنادقة والمبطلين.

وعلى ما هي عادة الرازي رحمه الله، والتي انتقدها عليه كل قارئيه أنه يطيل في الشبهة ويختزل في ردها، فلربما علقت الشبهة بالعقل والقلب أكثر مما يقتنع القارئ بالرد. وهو يعرض الشبهة بإخلاص لا أظن أن صاحبها لو عرضها كان يتقن ويفتن في عرضها كما فعل نيابة عنه الرازي.

ومن أهم الملاحظات على الرازي أنه يكتب للمتفلسفة وهم قلة نادرة ولا يكتب لجمهور الأمة. وهو يكتب بلغة الفلسفة ومنطقها وبرودها. ولا يكتب بمنهج القرآن الذي يخاطب الفطرة والكينونة كلها وليس العقل وحده.

ومن الملاحظ على الرازي طول عنوان الفصل، فأحياناً يستغرق ثلاثة أسطر.

وكم ظلم العقل إذ جعلوا مدار حججهم في مقاومة الدين التقبيح والتحسين العقليين، ولعل هذه المبالغة من أسرار نفور الدهماء من عوام المسلمين إذا ذكر العقل، فهم يظنونه عقل الفلاسفة، إياهم.

ولو زعم زاعم أن الكتاب في موضوع غير موضوع النبوات كما هو عنوانه لما كان بعيداً عن الصواب، فإن الرازي رحمه الله شرّق وغرب وأبعد وما قرب، والحق كان في متناول أصابعه، فأبى إلاّ أن يطوّف بنا إلى سور الصين ثم يرجعنا إلى حيث كنا واقفين. وهذا الوصف يصدق على الأقل على ثلثي الكتاب فكلها شبهات ومنطق مقلوب في الجدال في قضايا خارج الموضوع، وإن كانت تمتّ له على بعد شديد.

والكتاب يصلح مرآة نعرف منها ماذا كان يدور في العالم الإسلامي من أفكار ومذاهب وفلسفات، فهو في تاريخ الفكر ودراسة المجتمع المسلم مُعين أي معين... وهو من ناحية اخرى صورة ناطقة لما جنت وتجني الفلسفة، وكم تخسر العقيدة الإسلامية بالذات إن حادت عن منهج الله في طريقة عرضها وتناولها...!

وهو بعد كتاب في القصة القرآنية من حيث انه يتعرض لبحث موضوع الأنبياء الذين هم صلب موضوع القصص القرآني. لكن طريقة التناول والدرس والعرض بعيدة عن روح القصص القرآني بعداً شديداً.

النبوات:

يقع الكتاب في أربع وستين ومائتي صفحة. وثلاثة أقسام: القسم الأول خمسة عشر فصلاً والثاني سبعة فصول والثالث ستة فصول. هذا سوى مقدمة تضمنت خمسة مباحث، كتبها المحقق: أحمد السّقّا.

المبحث الأول: في إثبات النبوة، ضرورة النبوة.

وهذا المبحث عشر صفحات؛ ومما قال فيه المحقق السقا: "إن الله لم يكل الإنسان إلى عقله وحده لتنظيم سلوكه في الحياة، لأن معنى الخير في نظر إنسان قد يختلف معناه عند إنسان آخر. وكذلك الشر والفلاسفة -وهم المستنيرون- مختلفون في معنى الخير والشر واللذة والألم والسعادة والشقاء.

والعقل وإن كان قادراً على التمييز بين الحسن والقبح في فترة، لا يقدر على التمييز كل سني حياته، فعقل المجرب غير عقل غير المجرب، وعقل العالم غير عقل الجاهل. من أجل ذلك أرسل الله الرسل رحمة بالناس لتنظيم معاشهم، ولئلا ينكروا وجود ربهم بسبب وسوسة الشيطان وإلقاء الشبه في عقول الناس.

ويمتاز النبي عن سائر البشر بالعقل الراجح والخلق العظيم، من قبل النبوة وبعدها وقد بيّن الله في القرآن طرق إعلام مقاصده للرسل، وهي ثلاثة طرق: الوحي، الكلام من وراء حجاب، وإرسال الرسل.

وإذا أراد الله أن يخاطب البشر، اصطفى إنساناً من جنس البشر، وكلمه بكلامه، وأمره أن يبلغ هذا الكلام للبشر. وقد ميز الله الأنبياء بالمعجزات وذكر الكاتب شروط المعجزة وهي أربعة: كونها من الله، مطابقة لدعوى النبي، وعقب دعوته، وناقضة للعادة.

أما معجزة النبي محمد فلم تكن حسية، ولكن القرآن هو معجزته، فهو أُمي، والكتاب الذي جاء به يدل على علوم لا ينكرها عالم.

وقد وردت في القرآن آيات متشابهات، مثل "وانشق القمر" فهل هو حقيقة أو مجاز. النص يحتملهما.

والقرآن معجزة للعرب وللعالم بأمرين: الأسلوب الفصيح. والمعاني الصحيحة. والناس لا يقدرون على الإتيان بمثله لأنه أعلى من مستواهم".

المبحث الثاني: في النبوة عند علماء بني إسرائيل.

ويمتد هذا المبحث على مدى عشر صفحات من ص١٨-ص٢٨ يقول فيه الدكتور حجازي كاتب هذه المقدمات: يعترف علماء بني إسرائيل بالوحي، وبالنبوة. ويقولون: إن الأنبياء من قبل موسى لم يكونوا مشرعين، وإنما كانوا هادين داعين.

ومن بعد موسى ظهر في بني إسرائيل أنبياء. معلمين وليسوا مشرعين. إذ موسى -على ما في التوراة- هو صاحب الشريعة. حتى يأتي نبي من غير بني إسرائيل بشرع إلهي جديد، ويعطون هذا النبي المنتظر لقب مسيا أي "المسيح" والمسلمون يقولون انه محمد صلى الله عليه وسلم.

والوحي عندهم أنواع: الوحي يقظة ومناماً، والكلام من وراء حجاب، وإرسال رسول.

وفي مواصفات المصطفى للنبوة ينقل الكاتب عن موسى بن ميمون في كتابه: دلالة الحائرين: "إن الله يختار من يشاء، وقد يختار رجلاً شريراً (!!) إلاّ أن الله يرده خيّراً...".

وحقيقة النبوة أنها فيض من الله بوساطة العقل الفعّال على القوة الناطقة أولاً، ثم على القوة المتخيلة بعد ذلك (للأسف هذا القول نقله كالببغاوات من يسمون الفلاسفة المسلمين).

ثم بين ابن ميمون أن شريعة موسى لبني إسرائيل إلى الأبد. (ولا أدري ما الحكمة من هذا الفصل الذي كله نقل عن ابن ميمون اليهودي.وكلام ابن ميمون غير مأمون).

ويتهم الكاتب حجازي ابن ميمون بتحريف الكلم عن مواضعه، وذلك خلال كلام ابن ميمون عن المسيح المنتظر، إذ حاول ابن ميمون أن يجعله من بني إسرائيل. والنصارى يزعمون أنه عيسى، واليهود يزعمون أنه لم يظهر وأنه سيكون من بني إسرائيل، والمسلمون يقولون: إنه محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينقل الكاتب عن سفر ارمياء في الإصحاح الثالث العشرين ما يفيد كذب أنبياء بني إسرائيل (!!) والنص هو من ضمن نص طويل: "من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق في كل الأرض".

وفي إصحاح آخر: "والأنبياء تنبأوا ببعل". وفي إصحاح آخر: "بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمي...". لقد اعترف ارمياء بأن الأنبياء ساووا العرافين في الكذب.

ثم قال الكاتب: إن فلاسفة اليهود ادعوا نظرية الفيض لتبرير كذب أنبياء اليهود(!!).

المبحث الثالث: في نسخ الشرائع.

استغرق هذا المبحث سبع عشرة صفحة من ص٢٩ - ص٤٦ بدأه بعنوان: القرآن ناسخ للتوراة: قال تحت هذا العنوان: إن الإسلام هو الدين الناسخ لما سبق من الأديان، والقرآن نـ بنسخ الإنجيل، لأن المسيح صرّح بوضوح أن شريعته هي الأحكام التي جاءت بها التوراة. فالنصرانية ليست ديانة مستقلة. فمهمة المسيح هي التبليغ والبيان.

عيسى ومحمد مصدقان للتوراة: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ سورة الصف: ٦.
والقرآن مصدق للتوراة ومهيمن عليها، فالمسيح متبع، ومحمد ناسخ.

أما معنى قول المسيح: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ فيرى الكاتب أنه مما حرمه الأحبار، وينقل عن القرطبي ما يؤيد هذا.

ثم يشرح الكاتب معنى كلمة الإنجيل، وأنه كلمة يونانية معناه البشرى المفرحة، وذاك هو قرب ظهور محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم أشار إلى تحريف بولس اليهودي أقوال يسوع، وذكر من ذلك أن بولس وضع لهم: أن أي إنسان يدخل النصرانية لا يجبره أحد على تغيير عاداته حتى لو كانت وثنية. يقول بولس: "الدعوة التي دعي فيها كل واحد، فليلبث فيها". ومن هنا دعا بولس إلى عدم الختان، والنص: يقول بولس: هكذا أنا آمر في جميع الكنائس -ليس يسوع-: "ليس الختان شيئاً...".

وفي رسالة بولس إلى تيطس طلب من النصارى أن يطيعوا السلاطين وأصحاب الرياسات والذي سنه بولس أن النصرانية ديانة روحية، والذي سنه المسيح أن المسيحية روحية ومادية كديانة موسى.

من هنا لا يحق لأهل الكتاب أن يستبعدوا نسخ القرآن لأحكام التوراة. لأن كتبهم تشهد بوقوع النسخ في شرائع الله... والتوراة تصرح بنسخ الشرائع، فإن موسى قال عن النبي المنتظر: "تسمعون له وتطيعون"، أي أنه صرح بنسخ أحكام.

ثم فسر الكاتب الآية: ﴿ما ننسخ من آية﴾، بأنها نسخ شريعة أو انسينا شريعة كانت موجودة، نأت بالخير أو بالمثل، فلماذا يا أهل الكتاب تستبعدون النسخ؟ أليست شريعتكم ناسخة لما قبلها؟

وبولس يعترف بنسخ الشرائع، فإن يوم السبت مقدس عند اليهود بنص التوراة، والنصارى نسخوا حرمة السبت، وقدسوا يوم الأحد. ولما جادل اليهود النصارى في شأن السبت، قال بولس إنه ألغي ما كان محرماً في السبت، فلماذا يستبعدون النسخ؟ على أن النسخ واقع في الشرائع لا في العقائد.

ثم يسأل الكاتب: لماذا اختلفت عقيدة النصارى؟ ويجيب: أن وحدانية الله منصوص عليها في التوراة والأناجيل، وعقيدة التجسيم التي يقول بها الأرثوذكس، وعقيدة تعدد الآلهة كما عند الكاثوليك ابتدعها النصارى في المجامع (نيقية ٣٢٥م والقسطنطينية ٣٨١م...).

ثم تطرق إلى النسخ في القرآن وجعل له عنواناً يوضح موقف الكاتب: القرآن كله محكم. ثم ذكر أمثلة على آيات قيل بنسخها وفند ذلك، من ذلك: ﴿فاقتلوا المشركين﴾، ﴿فاعفوا... ﴾وتحريم الخمر. ويختم هذا المبحث بقوله: نرجو علماء المسلمين أن يعيدوا النظر في تفسير القرآن على أساس أنه محكم ولا نسخ فيه، حتى لا تتعطل أحكام الله بحجة النسخ، وحتى لا ينفذ الطاعنون إلى القرآن. وأحالنا إلى كتابه: لا نسخ في القرآن.

والذي أراه وقوع النسخ في ندرة بحيث لا تصل الآيات المنسوخة عدد أصابع اليد، ونحيل القاريء إلى عدة أبحاث لي في النسخ.

المبحث الرابع: في علم السحر.

هذا المبحث يقع أيضاً في سبع عشرة صفحة كسابقه. فهو يقع ما بين ص٤٧-ص٦٤ والعنوان الأول الذي يصادفنا في هذا المبحث: النبوة والسحر، وفيه يقول: إثبات النبوة نفي للسحر، لأن النبوة تستلزمها المعجزات، والمعجزات والسحر من الأمور الخارقة للعادة فيثبت النبوة بالمعجزات، وينفي السحر لأنه لا اصل له ولا حقيقة.

وذكر مثالاً نبوة موسى عليه السلام، والمعجزات التي أجراها الله على يديه، فتحولت العصا إلى ثعبان حقيقي.

أما فعل السحرة فلم يغير حقائق الأشياء، وإنما خيل إلى الناس... والتوراة حرمت السحر، والنص: "لا تدع ساحرة تعيش". والسحر حيل لطيفة وخفة يد وسرعة حركة، هذا هو السحر المعروف طول الزمان.

ثم تكلم الكاتب عن تأثير الشياطين، ولا نعيد ما قال، ففيه ما لا نقره عليه ولا نريد أن ندخل معه في جدل في مسألة هامشية حول الجن والشياطين واختلاطهم بعالم الإنس فندع كل هذا...

ثم قال: علماء اليهود هم الذين ابتدعوا السحر. وقال في تفصيل هذا: إن الفسقة من علماء اليهود أيام كانوا في مدينة بابل في سبي نبوخذ نصر المشهور سنة ٥٨٦ ق.م ابتدعوا السحر بالاستعانة بالشياطين ليؤلفوا أو يخلفوا بين الأزواج، ليستولوا على أموال الناس. فهم يعتبرون الأميين أي غير اليهود كالكلاب النجسة لا كرامة لهم ولا احترام.

وادعى اليهود أن الله أرسل ملكين هما هاروت وماروت ليعلما اليهود السحر لأنهم أبناء الله وأحباؤه، وزعموا أن سليمان كان يتعاطى السحر، وأنه كان كافراً لأنه استخدم السحر في الضرر.

ثم أضاف اليهود إلى السحر حكاية الكواكب وأثرها في تدبير العالم، وكانت بابل صابئة تعبد الكواكب، ومن هنا جعلوا لكل كوكب عملاً...

ولما طال الزمن بهذه الإشاعة -يقول الكاتب-، واليهود دائبون على تأكيدها في كل مكان يحلون فيه لأخذ أموال الناس، اعتقد الناس أن للسحر تأثيراً، والباطل إذا طال أمده ظنه الناس حقا، ونفى الكاتب السحر والطلسمات جميعاً، وحق ما يقول، ثم قال: لو كان للسحر حقيقة لبطلت المعجزات والنبوات، ولو كان للأفلاك أي تأثير لحدث في العالم ما لا يريده الله.

ثم تكلم الكاتب عن السحر عند اليونان، وأن الإسكندر لما فتح بلاد الشام، نقل إلى اليونان كتباً ألفها اليهود تثبت أن للسحر تأثيراً في حياة الناس، وذكرت كتب التاريخ أن علماء اليهود كان لهم تأثير في بلاد اليونان قبل الإسكندر وبعده. وينقل عن الإصحاح التاسع عشر من سفر أعمال الرسل أن اليهود المعزّمين بأفسس (مدينة يونانية)، شرعوا يسمون على الذين بهم الأرواح الشريرة باسم الرب يسوع، فأجاب الروح الشرير: "أما يسوع فانا أعرفه، وبولس فانا أعلمه، أما أنتم فمن أنتم؟... الخ".

ثم تكلم عن السحر في كتب العرب، وكيف أن اليهود كان لهم تأثير في بلاد العرب وكذلك في بلاد الغرب واليونان، والروم ومصر والحبشة، وفي بلاد العرب تحدثوا عن السحر الذي ابتدعوه، وظن الناس أن للسحر تأثيراً في الناس والأجساد. وشب على هذا الظن الصغير، ومات عليه الكبير. ومن هنا كان العرب يشبهون كل شيء عجيب بالسحر، حتى قالوا هذا عن القرآن.

ثم قال: وإشاعة اليهود عن السحر في العالم قد أضرت بالناس، حتى أن قياصرة الروم ضاقوا ذرعاً بهم وطلبوا قتل المشتغلين بالسحر.

وأما عن القرآن فإنه ينفي تأثير السحر. وضمن حديثه تحت هذا العنوان فإنه فسر آيات سورة البقرة المتكلمة عن هاروت وماروت، فقال إن اليهود ادعوا دعاوى باطلة، لخصها فيما يلي:

١- إن سليمان نبي الله كفر (حاشاه)

٢- إن الله أنزل السحر على الملكين هاروت وماروت.

٣- هاروت وماروت علما البعض السحر

٤- علماء اليهود الذين تعلموا من الملكين يستطيعون أن يضروا من أرادوا بوساطة السحر.

والله كذّب هذه الدعاوى فنفى أن سليمان كفر ونفى أنه أنزل على الملكين أي شيء. ونفى ما ادعى العلماء اليهود أن هاروت وماروت علّما البعض و...

وقال نصاً: "وقد رد الله على هذه الدعوى ونفاها بما النافية، وعطف النفي على ما قبله، فقال: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلمون...﴾ ".

قال الكاتب: لقد نفى القرآن تعليم الملكين لأي أحد بقوله تعالى: ﴿وما يعلّمان من أحد﴾ وكل ما يترتب على دعوى أن الملكين علّما، فهو منفي بنفي أن الملكين علّما. ومثل هذا التعبير - ولله المثل الأعلى- مثل قولك لصاحبك: "ما دخلت مكة، حتى تقول: إنني رأيت الكعبة، فتطلب مني أن أصفها لك". فإن نفي الدخول هو نفي للرؤية وهو نفي للوصف.

(وأقول إن كلام الدكتور حجازي السقا وجيه المقصد ولا يخلو من منطق، ولكنه لا ينسجم مع ما يدل عليه ظاهر الكلام في النص الكريم، وقياسه ومثله ليته يصح، لكنه مع الفارق، والذي أراه أن ما بمعنى الذي، لا ما النافية، والذي أراه بإيجاز أن الملكين علّما ليحذر الناس من السحر، فتعلم الناس السحر ليضروا بعضهم... مع أن الملائكة حذرت من أن هذا العلم سلاح ذو

حدين قد يستخدم في الوعي على أساليب السحرة، وقد يستخدم في المضرة كما هو جارٍ على أيدي السحرة...).

ونعود إلى الكاتب الذي يواصل النفي، فيقول: وادعى العلماء رابعـا -يقـصد علمـاء اليهود- أنهم يقدرون على الضرر بواسطة السحر، فرد الله هذه الدعوى بقوله: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلاّ بإذن الله...﴾ .

ثم عقب على تفسيره هو للنص الكريم بقوله: وعلى هذا التفسير يتبين للناس أن الله قد رد كيد اليهود إلى نحورهم، ونفى ما ادعوه وأشاعوه من تأثير للسحر وأثبت أن السحر لا حقيقة لـه، ولا تأثير له.

علماء اليهود يشوشون على حكم القرآن في السحر:

قال الكاتب محقق كتاب النبوات الدكتور السقا تحت هذا العنوان: والفسقة من علمـاء اليهود عز عليهم أن يُكذِّب الله دعاويهم في السحر، التي يأكلون بها السحت، فتزيّا نفر منهم بزي علماء المسلمين، وألقوا أحاديث تشكك الناس في الدين، ونسبوها إلى النبي صلى الله عليه وسـلم. وركبوا لحديثهم الأسانيد.

والحديث المبيّن أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سحره يهودي ليس حديثاً مفسراً لآيات من القرآن، وإنما هو من الأحاديث الصحيحة عند قوم، وغير الصحيحة عند آخرين. وإذا اضطربت الآراء، حسم الاضطراب ناحية الأصلح.

ثم ذكر حديث البخاري عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر، حتى كان يري أنه يأتِي النساء ولا يأتيهن. قـال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر. وباقي الحديث معروف مشهور أن ملكين أخبراه أنه مطعوم وأن الطعم في بئر... فاستخرجها فشفاه الله...

يقول الكاتب: لو سلمنا بصحته لجوزنا الشك في القرآن، ولرفعنا الثقة من كلام الـنبي صلى الله عليه وسلم، والله تعالى قال له: ﴿والله يعصمك من الناس﴾، ومن يعصمه الله لا يـضره سحر ولا غيره، ولو سلمنا الحديث لصدقنا دعوى الكفار التي حكاها القرآن عنهم: ﴿إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً﴾. وإذا كان النبي غير معصوم من الشياطين فما بال عوام المسلمين؟.

(ونقول: إننا مع الكاتب تماماً في كل الذي قال، ونطمئن الغيورين على البخاري أننا معهم كلياً في غيرهم، ولكن ألا فلتغاروا أكثر على صاحب الحديث منكم على راويه، ولأن يخطئ البخاري في حديث وهو بشر غير معصوم خير من أن تنسبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه وقع تحت تأثير سحر يهود. وليس هذا من باب تجرئة العوام على الحديث كما يحاول البعض أن يفلسف الأمور، بل هو من باب الدفاع عن هذا الحمى الطهور المقدس أن لا ينسب إلى الدين العظيم ورسوله الكريم والقرآن المبين ما لا يجوز وما لا يحسن وما لا يليق. ورد حديث متناً —وهو أمر لا بدعة فيه— خير من فتح باب للشر لا حد له...).

الخلاف بين العلماء في عقوبة الساحر والساحرة :

ذكر الكاتب الخلاف في حكم قتل الساحر والساحرة وان مالك وأحمد قالوا بقتلهما، وقال أبو حنيفة: لا يقتل. وأوجب الشافعي على من قتل الساحر الدية. والخلاصة التي يراها الكاتب أن الساحر لا يقتل لأن القرآن لم ينص على قتله.

(وأقول: هذا منسجم مع موقف الدكتور السقا الذي يرى أن السحر لا أثر له، فكيف يقتل على لا شيء ؟).

تحضير الأرواح :

انتقل المحقق إلى هذا الموضوع بعد السحر، ونقل عن الرازي الخلاف في تحضير الأرواح، والحق أن الأرواح لا تحضر. ونقل عن ابن تيمية كلاماً في تلبيس الشياطين على المتصوفة.

المبحث الخامس: في كرامات الأولياء.

قال السقا: الكرامة ليست أمراً خارقاً للعادة. وذكر تفريق العلماء بين: المعجزة، والسحر، والكرامة. باعتبارها جميعاً خارقة للعادة. ثم ينفي الدكتور المحقق السقا أن الكرامة أمر خارق للعادة.

ثم تكلم الكاتب عن أولياء الله، وأنهم الذين عرفوه سبحانه وآمنوا به وبشريعته وعملوا بها، وقد أعد الله لأوليائه البشرى واطمئنان القلوب والهداية إلى العمل المفيد، وأشار إلى أن الصحابة وهم خير الخلق بعد الرسل ما ظهر على أيديهم خوارق، وأما الملائكة في بدر فما كانوا إلاّ للبشرى والطمأنينة. وقد أثبت القرآن أن الملائكة تتزل على المؤمنين للتثبيت، والشياطين على الفسقة للإغواء. والملائكة تتزل من غير أن تُرى.

ثم تكلم عن الكرامات في نظر المتصوفة. وقال إن الذين أنكروا كراما ت الأولياء من علماء المسلمين لم ينكروا البشرى. وهذا غير كرامات الأولياء التي يتحدث عنها المتصوفة. وذكر بعض الروايات عن السيد البدوي. وعن الجيلي. وقال: في كتاب الطبقات الكبرى للشعراني من أمثال هذه النصوص كثير يدل على غفلة أصابت أهل الإسلام في عصور حالكة السواد.

وقد ذكر الكاتب من القصص ما لا نحتاج لذكره، وكله خوارق لا يصدقها عاقل كأن يصعد الجيلي وراء ملك الموت ليرد روح مريد، فيدرك ملك الموت فيتنازعان... الخ. وما أصدق كلمة الكاتب عن غفلة أهل الإسلام في الأعصر الحالكة.

وبعد انتهاء المقدمات أو المباحث الخمسة، ابتدأ كتاب الرازي بالصفحة التاسعة والسبعين.

والقسم الأول: في النبوات.

والفصل الأول منه في شرح مذاهب الناس في هذا الباب. بدأ الرازي هذا الفصل بذكر فرق منكري النبوات، وذكر أهم أربع فرق:

١- الذين قالوا: إله العالم موجب بالذات، لا فاعل بالاختيار. ثم شرح الرازي هذا فقال: من أنكر كون الله فاعلاً مختاراً فقد انسد عليه باب إثبات النبوات. وهذه طريقة الفلاسفة.

٢- الذين سلموا أن إله العالم فاعل مختار، ولكنهم أنكروا الأمر والنهي والتكليف. وبالتالي يبطل عندهم القول بالنبوة.

٣- الذين سلموا أن اله العالم أمر عباده بأشياء ونهاهم عن أشياء، إلاّ أنهم قالوا: العقول وحدها كافية في معرفة التكاليف. فلم يكن في بعثة الأنبياء فائدة.

٤- الذين قالوا: لا طريق لنا إلى معرفة نبوة الأنبياء إلاّ بواسطة المعجزات. والمعجزات لا دلالة فيها على صدق الأنبياء، فحينئذ يلزم فساد القول بالنبوة.

ثم على طريقة الرازي في السبر والتقسيم، قسّم الذين أنكروا المعجزات إلى خمس فرق أو ست فرق. ولا نطيل بذكرها. والحمد لله الذي نجانا من تعويصات الفلاسفة ولزوم أقوالهم.

الفصل الثاني: في حكاية شبهات من أنكر النبوات، بناء على نفي التكليف.

بدأ الرازي كلامه في هذا الفصل كصنيعه في السابق بتقسيم المنكرين إلى فرق، فقال: إعلم أن المنكرين للتكليف فريقان: منهم من يبني ذلك الإنكار على القول بالجبر، ومنهم من ينكر التكليف بناء على طرق أخرى.

وابتدأ الرازي بالفريق الأول وساق حججه بأمانة وحرارة وحماسة وكأنه هو المتبني لهـذا الرأي، وهو ليس كذلك بالطبع، إنما هي طريقة الرازي، وأراها مبالغة حتى قيل فيه: انه يفـصل في الشبهة ويجمل في الرد، وحتى يمكن أن يقال: إن الشبهة تعلق بالذهن لكثرة ما يحشد لها من الأدلة أكثر مما يعلق رده المقتضب.

نعود إلى الرازي وبيانه لوجهة نظر الفريق الأول، ولاحظ كيف يعرض وجهتهم: الفريـق الأول: الذين بنوا إنكار التكليف على الجبر، فقالوا: القول بالجبر حق. فالقول بانكار التكليف حق، والقول بإنكار النبوة حق. فهذه مقدمات ثلاث.

المقدمة الأولى : في بيان أن القول بالجبر حق.

ثم ساق الرازي حججهم بالتفصيل الممل، والمنطق الذي يزخرفونه، ولا ننقل ترهاتهم وإنما نكتب هذا لنبين حجم المشكلة منذ وقت مبكر، فهذه الفرق الضالة كانت تعيش داخـل مجتمـع مسلم، وتمارس زندقتها وإضلالها مستغلة الحرية والأريحية، التي يوفرها المجتمع المسلم، فقامت تبث سمومها، وعلماؤنا يسجلون أقوالها، وكأنها مذاهب إسلامية، وما هي إلاَّ فرق ضالة مضلة محتمية ربما بإسلام ظاهري تصطنعه لترو ج سلعتها من التضليل.

وهل يخطر ببالك أن الرازي ساق خمسة عشر وجهاً ليعرض وجهة نظر هؤلاء، وكان أولى به أن يجمل إن كان ولا بد، وقد استغرقت هذه الهرطقات ثماني صفحات قال في ختامها معبراً عنهم فثبت بهذه الوجوه الخمسة عشر أن القول بالجبر حق، ثم أشار الرازي أن للكلام تماماً في باب قادم. ورد الرازي على ذلك في أقل من صفحتين، وبنفس المنطق الذهني الجامد البارد. ولاحظ مـشكلة الرازي في إيجازه المخل جداً إذ قال... (وأذكر نموذجاً من ردوده) واستمع: "وهذه الشبهة في نفي النبوات، قد حكاها الله في القرآن مراراً، وهو قوله تعالى: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنـا ولا حرمنا من شيء، كذلك قال الذين من قبلهم، حتى ذاقوا بأسنا﴾ والله أعلم" .!!

الفصل الثالث: في تقرير شبهات من ينكر التكليف لا بالبناء على مسالة الجبر.

وابتدأ الفصل بإعلم المعهودة منه: "إعلم أن هذه الطائفة ذكروا الشبهات مـن وجـوه، والشبهة الأولى: قالوا: إما أن يكون حكم العقل في التحسين والتقبيح معتبرا. وإما أن لا يكـون، على التقديرين، فالقول بالتكليف والنبوة باطل". ثم فصل هذه الشبهة من وجوه. يا لصبر الـرازي على مثل هذا الباطل المر!.

وفي ردوده لا تدري هو يدنيك من الحق أم يقصيك، ويعمق الشبهة أم يردها، سامح الله الرازي وعفا عنه وعن من تسلحوا بمثل هذا السلاح ليحموا حوزة الدين.

واستمع إليه في الحجة الرابعة من شبهات المناطقة الزنادقة يقول في عرضها انه تعالى كان قادراً على أن يخلق الكل في الجنة، وأن يوصلهم إلى الخيرات والدرجات، وأن يحميهم عن منازل الآفات، والمخالفات. فلو أراد بهم خيراً لخلقهم على هذه الصفة، ولما لم يفعل ذلك، بل سلط عليهم الشهوات والشبهات، وملأ العالم من الشياطين. علمنا أنه ما أراد بهم خيراً، وإذا كان الأمر كذلك، امتنع أن يقال: إنه كلفهم لأجل التعريض للمصالح.

أما الأول: وهو أنه كلفهم لا لغرض ولا مصلحة. فهذا عبث. والعبث قبيح في العقول. ونحن إنما نتكلم على تسليم أن يكون تحسين العقل وتقبيحه معتبراً في أفعال الله وفي أحكامه، وجب الجزم بفساد التكليف وبفساد بعثة الأنبياء والرسل.

والقسم الثاني: وهو أن يكون الحق هو أن تحسين العقل وتقبيحه باطل، وغير معتبر في أفعال الله وأحكامه، فعلى هذا التقدير كان القول بفساد التكليف والبعثة أظهر.

ويواصل بما هو أشنع، ثم يختم الفصل بهذا !! ويترك الكلام على عواهنه بلا رد.

الفصل الرابع: في تقرير شبهات المنكرين للنبوات بالبناء على أن العقل كاف في معرفة التكليف وذلك يوجب سقوط القول بالبعثة والرسالة.

ويبتدئ الرازي هذا الفصل بقوله: وتقرير كلام هذه الطائفة أن يقال: القول بصحة البعثة. إما أن يحصل مع القول بتحسين العقل وتقبيحه، أو مع إبطال هذا الأصل. القسمان باطلان. فكان القول بالبعثة باطلاً... الخ.

(أقول: وهذا إما أنه من باب الرياضة العقلية، وبئست الرياضة، وبئس التقسيم المنطقي، وبئس المنطق الصوري. وإما أنه من باب مَنْطَقة الباطل وزخرفة الزيف ليروج عند الدهماء والمتشككين، ويكون عرض الرازي له وقد كان مغموراً مطموراً فأشهره، يكون صنيعاً بئيساً كذلك. فَمَنْ قَبْل الرازي كان يطلع على مثل هذه الهرطقات؟.

وما أسهل أن يتحكموا ويقرروا: باطل. إذاً فما ترتب عليه فهو باطل. وكأن بيدهم ميزان الحق والعدل. على كل حال فإن الرازي بعد عرض الشبهة طفق يرد عليها.

وما بنا حاجة لمعرفة تفاصيل الشبهة ولا تفاصيل الرد عليها. فالنبوة رحمة إلهية لا يستغني البشر عنها، والعقول وحدها إن حملناها تفسير الكون وما بعد الكون والتشريع للحياة، حملناها فوق ما تطيق بكثير جداً. كمن يريد أن يسحب جبلاً بسيارة !.

وفوق كل كلام ومنطق فإن النبوة واقع لا يدفعه مجانين بأفواههم، ولا مغرضون بدسهم. ومن يترك الشمس طالعةً في رابعة النهار، ثم يلتفت إلى أدلة من يقيم الأدلة على أن الشمس لم تخلق بعد ؟!

والعجب أن الرازي يختم الفصل بتقرير الشبهة، وكان الصنيع الأحكم والأسدّ الأصوب أن يختم بنقض الشبهة).

واستمع إليه في نهاية الفصل يقول: وعند هذا نقول: حكم الأنبياء والرسل، إن كان على وفق حكم العقل، ففي حكم العقل غنية (!!) وإذا كان على خلافه، كان الفرع معارضاً للأصل، وعند وقوع التعارض بين الأصل والفرع، كان ترجيح الأصل على الفرع أولى من هذه، فثبت أن حكم العقل يجب أن يكون راجحاً على كل التقديرات. وهذا الكلام على تقدير أن يكون تحسين العقل وتقبيحه معتبراً في معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله، أما إذا قلنا أن تحسين العقل وتقبيحه غير معتبر فالقول بفساد البعثة والنبوة الزم وأظهر على ما بيناه في الطريقة المتقدمة. والله أعلم. (عجبي!) وعجب من الفلاسفة إذ جعلوا الأصل العقل والفرع الدين والشرع.!

الفصل الخامس: في حكاية شبهات من يقول: القول بخرق العادات محال.

بدأ الرازي فصله هذا بقوله: إعلم أنه قبل الخوض في هذا النوع من الشبهات، لا بد من التنبيه على مذاهب الخلق فيه فنقول: أما أبو الحسن الأشعري فإنه جوز انخراق العادات من كل الوجوه، وبيّن أدلته.

وأما الفلاسفة فإنهم أطبقوا على إنكار خوارق العادات. وذكر مذهبهم وفصّل شبهاتهم ومن المنطق الذي ينعدم فيه أي منطق قولهم بجواز حدوث إنسان بالتولد لا بالتوالد. وتفصيل ذلك عندهم أن البدن يولد من مقادير مخصوصة من العناصر الأربعة، وبالمختصر يمكن أن تتجمع هذه العناصر فيتكون الإنسان...

(هذا مذهب من يقول بعدم انخراق العادات، أما تجمع العناصر الأربعة فممكن، ولعمري هذا من أعجب العجب، والعناصر الأربعة المزعومة ليست خليطاً تكون منه رمل أو صخر أو

كوارتز، وإنما إنسان بمشاعر ونفس وعقل وقلب وخيال وذكريات وتطلعات وروح وقابليات... الخ، فمن أين للعناصر مثل هذه الإمكانات؟ وفعلاً إن الكفر عمى وعناد... وسامح الله (مرة أخرى) الرازي على ما نغّصنا به من مذاهب الفلاسفة.

ووجدت المحقق الذي أجاد في المقدمات اكتفى في ثنايا الكتاب بإثبات الفروق بين النسخ ولا تعليق ولا شرح...).

نعود للرازي الذي قال: وأما المعتزلة -وهو خصمهم الألد فلا تنس- فكلامهم في هذا الباب مضطرب جداً. فتارة يجوّزون، وأخرى يمنعون.

وأفهمنا الرازي أن هذه هي مذاهب الناس في هذا الموضوع، ثم طفق يسرد حجج أو شبهات القائلين بالعدم، فلا ندخل في متاهة الكلام الذي مضْغ الصخر أهون منه. والمشكل أن الرازي أنهى فصله هذا بتقرير شبهات المانعين خرق العادات، فتبطل بالتالي المعجزات. ثم لم ينس اللازمة. والله أعلم. (عجبي مئة مرة !)

الفصل السادس: في شبهات القائلين بأن المعجزات لا يمكن أن يعلم أنها حدثت بفعل الله وتخليقه، وبيان أنه متى تعذر العلم بذلك امتنع الاستدلال بها على صدق المدعي.

وأعرض عليك شيئاً من الشبهات الكثيرة التي عرضها في هذا الفصل: الاحتمال السادس: اتفقت الفلاسفة والصابئة (المبطلون كلهم) على أن الأفلاك والكواكب أحياء ناطقة (هذا هو التحكم بعينه فهل سمعوها؟) مطلعة على جميع أحوال العالم (فهل أخبرتهم أنها مطلعة ؟) فلا يمتنع إذاً أن يكون خالق المعجزات هو الكواكب. (يعني أنهم يريدون أن ننكر الإله العظيم الحكيم الذي نعلم، ونفر إلى إله مجهول لم نعلم عنه شيئاً ولا عندنا منه كتاب ولا رسول. ويبدو أن للمدرسة الماركسية جذوراً عميقة، وأن مدرسة الإلحاد وجدت تلامذة من وقت مبكر).

الفصل السابع: في حكاية شبهات القائلين بأن على تقدير أن يثبت أن خالق المعجزات هو الله سبحانه، إلاّ أن ذلك لا يدل على أنه إنما خلقها لأجل تصديق المدعي للرسالة.

ومعلومة لديكم -غدت- طريقته في تفصيل الشبهات بإخلاص، واستعراض الاحتمالات ثم الردود ودحض الردود، في رياضة عقلية ممجوجة مستثقلة.

الفصل الثامن: في حكاية دلائل من استدل بظهور المعجز على صدق المدعي.

وكنا نظن من العنوان أنه سينصر الحق بمنطق محبب قريب، فاسمع ماذا قال: قالوا: إن الملك العظيم، إذا جلس في المحفل العظيم، ثم قام واحد من القوم، وقال: يا أيها الناس، إني رسول هـذا الملك إليكم. ثم قال: يا أيها الملك إن كنت صادقاً في هذا القول، فخالف عادتك، وقم من سـرير مملكتك. فإذا رأى الناس أن ذلك الملك أتى بذلك الفعل الذي التمسه المدعي علموا قطعاً أنه إنما فعل ذلك تصديقاً لذلك المدعي، وإذا ثبت هذا في الشاهد، وجب أن يكـون الحـال كـذلك في الغائب. فثبت أن خلق المعجز يدل على التصديق.

فهل تظنون أنه ترك القول يمضي؟ لا. فأردف: والاعتراض عليه من وجهـين: أجملـهما الرازي ثم فصلهما. فما ذكره في فقرة فنّده ونسفه في صفحات.

وفعلاً إن الطريق الذي طوله في العادة ميل يصبح في الفلسفة ألف ميل، ولا يـسلكه إلاّ المساطيل والمهابيل.

الفصل التاسع: في تقرير نوع آخر من الشبهات في بيان أن ظهور الفعل الخارق للعادة، الموافق للدعوى، مع عدم المعارضة، لا يدل على صدق المدعي.

وذكر على تأييد هذه الشبهة أربع شبهات، وعدداً من التفصيلات، وردود الاعتراضات ونوجز لننتقل إلى الفصل العاشر الذي عنوانه

الفصل العاشر: في أن بتقدير أن يكون المعجز قائماً مقام ما إذا صدقه الله على سـبيل التصريح. فهل يلزم من هذا كون المدعي صادقاً؟

وأظن أن التمحل غير خاف. فهل لاحظتم قوله: إن الله صدق المدعي تصريحاً، ثم المناقضة في آخر العنوان في السؤال: فهل يلزم كون المدعي صادقاً؟ وهو الذي قال قبـل كلمـات: إن الله صدقه تصريحاً (عجبي !) ولا عجب على الرازي فقد طفق فوراً يعدد الشبهات، وذكر أربعاً منها، وسامحونا إذا أتحفناكم بالرابعة منها على سبيل الاستنارة أو الاستمارة أو الاستدارة أو الاسـتعارة: "الشبهة الرابعة: مدار كلام القائلين بأن تصديق الكاذب، محال على الله، على أن الكذب قبـيح، (وهو من الله تعالى) (هكذا النص والأقواس) إلاّ أنا بينا: أن هذه القاعدة: مبنية على القول بتحسين العقل وتقبيحه، وقد عرفت أنه كلام إقناعي ضعيف جداً، فكان المبني عليه أيضاً ضعيفاً.

الفصل الحادي عشر : الطعن في التواتر.

وهل تتصور أنه ذكر في نقض التواتر أو الطعن فيه شبهات عشرة. وأجاب عنها إجابات لا أراها شافية. وحتى هذه الردود فقد رد عليها لينهي الفصل بتقرير الشبهة، بقوله: وعلى هذا التقدير، فالاعتماد على مجرد خبر التواتر لا يفيد العلم اليقين، فهذا تقرير هذه الشبهة من هذه الوجوه. وههنا وجوه كثيرة سوى ما ذكرنا في ضعف التواتر، ذكرناها في كتاب "المحصّل" (محصّل أفكار المتقدمين والمتأخرين) وفي كتاب "الأربعين في أصول الدين" فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى هذه الكتب. والله أعلم.

الفصل الثاني عشر: في تقرير شبهة من يقول: أن الله تعالى لو أرسل رسولاً إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة.

وقد ذكر عدداً من الوجوه في تقرير هذه الشبهة منها: أن كون الرسول من الملائكة أفضى إلى الغرض، وأن انقياد الناس له أتم، ووثوق الناس بصدقه أقوى، والنبوة أعظم المناصب والرسول الملائكي بها أليق. ثم رد هذه الشبهات، ثم رد على الردود ليختم بأن هذا تقرير كلام هذه الطائفة والله أعلم.

الفصل الثالث عشر: في البحث عن الطريق الذي به يعرف الرسول كونه رسولاً من عند الله.

بدأ الفصل الذي كنا نظنه أيضاً ليس مواصلة للشبهات وإذ به يخيب ظننا فيقول: قال الطاعنون في المعجزات: هب أن الأمة يعرفون بواسطة المعجزات كون الرسول صادقاً أما الرسول فكيف يعرف كونه رسولاً؟

وأقول: إن الشيطان لا عمل له بعد جهد الفلاسفة في التخيل والتمحل وافتعال المشكلات.

الفصل الرابع عشر: في الشبهات المبنية على أنه ظهر على الأنبياء أعمال تقدح في صحة نبوتهم.

وفي تقرير الشبهة ذكر النسخ وأن الرسل تنسخ شرائعهم شرائع المتقدمين، واعتبر هذا مدخلاً للطعن... والمدخل الثاني: التفاوت في الشرائع... الخ.

الفصل الخامس عشر: في الإشارة إلى أجوبة هذه الشبهات.

الحمد لله على السلامة. وأخيراً... وبعد أربعة عشر فصلاً ومئة وستين صفحة وصلنا بعد كل هذا إلى "الإشارة" إلى الأجوبة، لا الأجوبة. فانتبه يا رعاك الله !.

يقول الرازي غفر الله لنا وله: إعلم، أنا وإن بالغنا في حكاية هذه الشبهات، (لا لم تبالغ ولا حاجة !) إلاّ أن العاقل إذا أحكم معرفة أصول ثلاثة، ووقف على قوتها، زالت عنه هذه الشبهات بأسرها.

الأصل الأول: أن نقول: لا شك أن القول بإثبات النبوات، فرع على إثبات القول بالفاعل المختار.

ثم ذكر الأدلة على صحة هذا الأصل. وأطال إلى حد الإملال وبالطريقة إياها.

الأصل الثاني: لا يمتنع أن يكون الشيء معلوم الجواز والإمكان، ومع ذلك فإنه يكون الجزم والقطع حاصلاً بأنه لم يوجد، ولم يحصل.

وضرب المثل بأن إذا رأيت زيداً، ثم أغمضت ونظرت ثانية علمت بالضرورة أن الذي تراه عين الذي رأيته، مع أن التجويز القطعي قائم بكونه مغايراً لذلك الأول.

ثم فصل وأطال، ومن ضمن ما قال: والقسم الثالث: أن يقال: مؤثر العالم فاعل مختار فعلى هذا التقدير: القول بأن أفنى الشخص الأول في تلك اللحظة اللطيفة، وأوجد شخصاً آخر يماثله من كل الوجوه محتمل.

فيثبت هذا البرهان القاطع (هكذا !!): أن تجويز هذا المعنى قائم على جميع التقديرات.

وأقول: الحمد لله الذي عافانا، فهل هذا برهان قاطع، إنه لا قاطع ولا نافع ولا ساطع ولا جامع ولا مانع !.

ثم ختم فقال: واعلم انك إذا عرفت حقيقة الحال في هذا المثال، أمكنك معرفة أمثلة خارجة عن الحد والإحصاء، موافقة لهذا المطلوب. (!!)

الأصل الثالث: أن تعلم أن تحسين العقل وتقبيحه باطل، لا عبرة به، ولا التفات إليه، في أفعال الله، وفي أحكامه.

(وهل لاحظت أن الأصل الثاني والثالث قابلة للمنازعة فيها وبقوة؟ فالبنيان كله يا طويل العمر على شفا...) ثم إن المسألة نسبياً لا تصل من حيث الصفحات ١٠% وقال فوراً: وإذا عرفت هذه الأصول الثلاثة، فحينئذ يظهر القول بصحة النبوات، ولا يبقى فيه شك ولا شبهة.

(وبالله عليك قل لي: أبعد جبل الشبهات تأتي هذه الحصاة من الرازي يثاقل بها ذلك الجبل من الباطل؟ وبعد ذلك التفصيل الذي انبهرت معه أنفاس الرازي وأنفاسنا من بعده، يأتينا الآن بإجمال مخل في سطور معدودات ليقول: إن هذه العصا السحرية ستبطل سحرهم، وتنهي إفكهم وتلقف ما يأفكون وما يقولون...؟ ويا ما أضيع قضية نصرها الفلسفة بهذه الطريقة !)

القسم الثاني من كتاب النبوات: في تقرير القول بالنبوة على طريق آخر وهو قدرة النبي على تكميل الناقصين.

الفصل الأول : في تمييز هذا الطريق عن الطريق المتقدم.

قال: اعلم أن القائلين بالنبوات فريقان: أحدهما: الذين يقولون: إن ظهور المعجزات على يده، يدل على صدقه. والثاني: أن نعرف أولاً أن الحق والصدق في الاعتقادات ما هو. وأن الصواب في الأعمال ما هو. فإذا عرفنا ذلك ثم رأينا إنسانا يدعو الخلق إلى الدين الحق، ورأينا أن لقوله أثرا قويا في صرف الخلق من الباطل إلى الحق، عرفنا أنه نبي صادق.

هذه المقدمة الواضحة السلسة القريبة، أبى الرازي إلاّ أن يعوصها، وكان اليسر عيب ونقطة قدح وذم، ينبغي التخلص منها، ووصمة ينبغي إزاحتها فوراً... فطفق يعقد المسائل، واستمع: المقدمة الأولى: إعلم أن كمال حال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به. والمراد منه: أن كمال حاله محصور في أمرين: أحدهما: أن تصير قوته النظرية كاملة بحيث يتجلى فيها صور الأشياء، وحقائقها، تجلياً كاملاً تاماً، مبرأ من الخطأ والزلل. والثاني: أن تصير قوته العملية كاملة بحيث تحصل لصاحبها ملكة يقدر بها على الإتيان بالأعمال الصالحة...

المقدمة الرابعة: أن النقصان وان كان شاملاً للخلق، عاماً فيهم، إلاّ أنه لا بد وأن يوجد فيهم شخص كامل بعيد عن النقصان والدليل عليه وجوه: الأول: أن الكمال والنقصان واقع في الخلق على مراتب مختلفة، فنشاهد أشخاصاً بلغوا في جانب النقص وقلة الإدراك إلى حيث قربوا من البهائم، فلا بد أن يوجد شخص في آخر مراتب الإنسانية، وأول مراتب الملكية (الملائكية يعني). الثاني: إن الاستقراء يدل على ما ذكرناه. وذلك لأن الجسم العنصري جنس تحته ثلاثة أنواع: المعدن، والنبات، والحيوان. وصريح العقل يشهد بأن أشرف هؤلاء الثلاثة: الحيوان. وصريح العقل يشهد بأن أشرف أنواع الحيوان الإنسان.

والإنسان تحته أصناف كثيرة: الزنج والهند والعرب والروم والإفرنج والترك. ولا شك أن أفضل أصناف الإنسان وأقربهم إلى الكمال: سكان وسط المعمورة، وهم سكان الموضع المسمى بابرانشهر. وهؤلاء مختلفون في الكمال، ولا شك أنه يحصل فيهم شخص واحد هو أفضلهم وأكملهم. ثم إن الصوفية يسمونه بقطب العالم ولقد صدقوا فيه... الخ... الخ...

وهذه سقطة من الرازي لا تقبل، فليس ثمة عنصر خير من عنصر ولا لون أقرب إلى الخير من لون ولا عرق أشرف من عرق. ولا أمة هي بطبيعتها أفضل من أمة. وإن كان مفضلاً ولا بد. فالأمة التي خرّجت سيد البشر صلى الله عليه وسلم وصحابته الغرر... على أنا لا نقول بهذه النظرية أصلاً...

وما قطب العالم الذي صدق فيه الصوفية؟ وإنهم يعنون والرازي أعلم منا بما يقولون أن لهذا القطب تصرفاً في الكون...

ونكتفي بهذا القدر من هذا الفصل ومن النقاش.

الفصل الثاني: في أن القرآن يدل على أن هذا الطريق هو الطريق الأكمل والأفضل في إثبات النبوة.

(عليك نور... فلمَ نلف وندور، ونتردى في الديجور، والحق منا على لا أقول مرمى العصا أو الحصا بل هو أقرب. إنه فطرة فطرنا الله عليها، وهي فطرة لا تنطفئ ولا تتبدل على مر الدهور، وهي جذوة في داخلنا، حتى وإن عراها أو علاها رماد، فإنها تحت الرماد تضطرم وتمور...).

قال الرازي في هذا الفصل: إعلم أنا سنذكر سوراً من القرآن ونفسرها (والله زمان...) ليظهر من ذلك التفسير صحة هذا الطريق الذي سلكناه. وهذا هو الحق بعينه، وهو المؤثر لا الفلسفة ونهجها المتعثر. فمنها يقول الرازي أي من السور: سورة سبّح (أي الأعلى) وقد شرح: خلق فسوى، وقدر فهدى، ومما قال: نبه بهذين الضابطين على ما لا نهاية له من العجائب.

وفي نهاية تفسير السورة، وسورة العصر، وبعض آيات الإسراء والشعراء قال في ختام حديثه عن آيات الشعراء: الشاعر إنما يدعو إلى الطمع في الدنيا، وإلى الترغيب في اللذات البدنية، أما أنا -أي النبي- فأدعو إلى الله وإلى الدار الآخرة. فامتنع أن يكون الناصر والمعين في هذه الطريقة هو الشيطان فظهر الفرق.

وقد ظهر بهذه الآيات أن الطريق الذي ذكرناه في إثبات النبوة هو الطريق الأكمل والأفضل. (كلام جميل).

الفصل الثالث: في صفة هذه الدعوة إلى الله.

اعلم أن النبوة عبارة عن دعوة الخلق من الاشتغال بالخلق، إلى خدمة الحق، ومن الاشتغال بالدنيا، إلى الإقبال على الآخرة. (وهو كلام في منتهى الجمال...).

لكن الرازي لا يطيق مفارقة الفلسفة طويلاً فلا بد من عود قريب، فطفق يفلسف ما قال ويعقده ويبعده عن المتناول.

ومن الكلام الجميل الذي قاله: لا يليق بصاحب الدعوة إيراد هذه المطالب كما يورده أهل الجدل والاستدلال (لا فض فوك).

ثم قال: وبالجملة: فأحسن الطرق في دعوة الخلق إلى عبودية الحق، هو الطريق الذي جاء به سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم. وأشار إلى التعظيم لله دون الخوض في التفصيل. وهذا هو القسم الأول من المباحث المتعلقة بالدين.

وأما القسم الثاني: ما يتعلق باليوم الحاضر. وذلك أن يكون العبد مشتغل الزمان بخدمة المعبود. وتلك الخدمة إما أن تعتبر في القلب وهي المعارف والعلوم. وإما بالبدن، وهو الإتيان بالطاعات البدنية. وإما بالمال... والقسم الثالث: ما يتعلق باليوم المستقبل.

ومهمات الأنبياء في هذه الأقسام على قسمين: الأول: إزالة ما لا ينبغي. والثاني: تحصيل ما ينبغي. فلهذا السبب ذكر الله في القرآن هذه المراتب وهي سبعة:

<u>المرتبة الأولى</u>: إزالة ما لا ينبغي، وهو المراد بالتقى، فلهذا بدأ الله بذكره ﴿هدى للمتقين﴾.

وأما سائر المراتب فهي تحصيل ما ينبغي، وأشرف ما يتعلق بالإنسان النفس، فالبدن، فالمال... ولهذا ذكر بعد ﴿هدى للمتقين﴾ قوله: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ لأن محله القلب، ثم ﴿ويقيمون الصلاة﴾ لأنها تتعلق بالبدن، وآخره ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ لأنه يتعلق بالمال. ولما ذكر هذه الأحوال المتعلقة بالإلهيات، أردفها بذكر مرتبتين متعلقتين بالنبوات فقال: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ إشارة إلى الإيمان بالرسول الحاضر، ثم قال: ﴿وما أنزل من قبلك﴾ إشارة إلى الإيمان بالمتقدمين...

ثم <u>المرتبة السابعة</u>: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ وبهذا تمت المطالب وكملت المصالح، فقال بعده: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.

الفصل الرابع: في بيان أن محمداً عليه الصلاة والسلام أفضل من جميع الأنبياء والرسل.

بدأ بتذكيرنا بما سبق من تقرير مهمة النبوة في الفصل السابق ليبني عليها أن تأثير دعوة موسى كانت مقصورة على بني إسرائيل، وأما دعوة عيسى فكأنه لم يظهر لها تأثير إلاّ في القليل القليل. ثم أن أتباعه أظهروا أشنع الكفر بالتثليث.

وأما دعوة محمد فقد وصلت إلى أكثر بلاد المعمورة. وهي دعوة إلى التوحيد والتنزيه.

الفصل الخامس: في بيان أن إثبات النبوة بهذا الطريق أقوى وأكمل من إثباتها بالمعجزات.

ملخص ما قال في هذا أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان طبيباً حاذقاً في علاج أمراض الأرواح، فنقل الناس من الباطل إلى الحق...

الفصل السادس: في تقرير طريقة الفلاسفة في كيفية ظهور المعجزات على الأنبياء عليهم السلام.

أعادنا في هذا الفصل إلى الفلسفة من جديد وأقسام النفس والحواس الظاهرة والقوة المتخيلة، ثم المنامات الصادقة والكاذبة، وكيفية الإخبار عن الغيب...

الفصل السابع: صفحة واحدة في حكاية قول الفلاسفة في السبب الذي لأجله يقدر الأنبياء والأولياء على الإتيان بالمعجزات.

القسم الثالث: في الكلام في السحر وأقسامه:

جعل الرازي لهذا القسم مقدمة في أنواع السحر وذكر عشرة منها، ومنها: السحر المبني على قوة الوهم وتصفية النفس. والمبني على خواص الأدوية المعدنية... والنباتية والحيوانية، والمبني على العزائم والرقى، والمبني على الاستعانة بالأرواح، والمبني على خفة اليد، والمبني على الخداع... الخ... وختم الأنواع بقوله: واعلم أن شيئاً من هذه الأقسام لا يتم ولا يكمل إلاّ عند الاستعانة بالسحر المبني على النجوم، ولو قدر الساحر على أن يجمع أنواعاً كثيرة منها كان أقوى وأكمل.

وواضح من هذا أن الرازي (وهو من هو) يؤمن بحقيقة السحر وتأثيره وأن شيئاً منه مبني على النجوم !!

أما الفصل الأول من هذا القسم فهو في الطلاسم.

والفصل الثاني: في صعوبة هذا العلم.

والفصل الثالث: في الوقوف على طبائع الأجرام الفلكية والطريق الذي حصل به هذا الوقوف.

والفصل الرابع : في الشرائط الكلية المعتبرة في رعاية هذا النوع .

والفصل الخامس: في أحوال المؤثرات العلوية: النوع الأول: البحث عن أنواع الكواكب.

وقسمها إلى سيارات وثوابت والسيارات أطبقوا على أنها مؤثرات في أحوال هذا العالم. أما الثوابت فلا يليق بها أن تكون عللاً للحوادث. وهو خبط لا معنى له. ثم دخل في البحث في أحوال القمر.

وأنهى الرازي الكتاب بالطالع. ونقل عن زرادشت وعن منجمين وعمن هب ودب. ونختم تقريرنا هذا بختام كتابه لنعلم بم أراد الرازي أن ينهي كتابه عن النبوات: النوع الرابع من أحوال القمر: يقوى العمل يوم الأحد، إذا كان القمر متصلاً بالشمس. وفي الاثنين إذا كان متصلاً بالزهرة، وفي الثلاثاء إذا كان متصلا بالمريخ، وفي الأربعاء إذا كان متصلاً بعطارد. وفي الخميس إذا كان متصلاً بالمشتري، وفي الجمعة إذا كان متصلاً بالزهرة، وفي السبت إذا كان متصلاً بزحل. وأما الأحوال والشروط للعمل والطالع: أن تجعل الطالع برجاً موافقاً للعمل ثم فصّل ولا نفصل. وإذا كان العمل للاناث فليكن الطالع برج أنثى، وإن كان للذكور فبرج ذكر. ثم اجعل أعمال الحب في أول الشهر، وأعمال البغض في آخر الشهر. ونعرف طالع الشخص الذي يراد تهييجه، فإن كان نارياً فاعمل له عملا يتعلق بالنار، وإن كان هوائياً فاعمل له عملاً يتعلق بالهواء، وعلى هذا القياس.

واعلم أن هذه الأعمال السحرية منها نارية مثل أن تكتب العزيمة على الحديد ثم توضع في النار، ومثل أن تصب الخمر العتيق والنفط الأبيض، والأدوية الحارة في كوز الفقاع، ويوضع في النار ويقرأ عليه العزيمة، ومنها هوائية مثل تطيير العصفور. ومثل: النفث في العقد ومنها مائية وهو مثل: غسل الرجلين بمياه مخصوصة وصبها على من تريد تهييجه. والله أعلم بحقيقة هذه الأمور.

وعجباً من الرازي رحمه الله، وهو ذو العقل الكبير أن يتكلم في الطالع والعمل والسحر والأبراج وما إليه.

وعجب آخر أن يضمها إلى كتاب النبوات حيث لا نسب لها بهذا الموضوع ولا علاقة.

ورحم الله الإمام الرازي .

الكتاب الثاني:

تأويل الأحاديث

تأليف: ولي الله الدَّهلوي

تحقيق: غلام مصطفى القاسمي

حيدر آباد: الباكستان: أكاديمية الشاه ولي الله الدَّهلوي ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م

تأويل الأحاديث لولي الله الدهلوي:

هذا كتاب آخر في القصص القرآني وهو صغير الحجم يتكون من مقدمة المرتب وعدد صفحاتها ٣٥ صفحة، ومن مقدمة الكاتب وموضوعه وعدد صفحاتها ١٠٨.

في مقدمة المرتب (غلام مصطفى القاسمي) بدأ بقوله: "من الخطأ ما يقوله البروفيسور أوليري أن التصوف بدأ بتكوين عقائده وفلسفته منذ عهد ذي النون المصري وانتهى هذا الدور بقيام جلال الدين الرومي، فأما ما جاء بعد هذه الفترة فشرح وتعليق ليس إلاّ.

ويؤيد هذا ما قاله عبد اللطيف الطيباوي بأن تاريخ التصوف يعد الآن تاريخ نزاع وعراك مع السنة... فالمرتب يرد على هذا ويدافع بأن هناك ما هو أفضل مما كتبه الأقدمون وهو كتابات الشيخ الدهلوي ثم يستفيض في الشرح عن الشيخ وما أكرمه الله به من الفصاحة في اللغة العربية وعلوم الفقه والحديث والتفسير والعقائد ثم يقارن بين مؤلف الشيخ (تأويل الأحاديث) الذي يقول عنه انه كتاب منفرد في بابه حجمه صغير ومعناه كبير لا يوازيه شيء من مؤلفات عظام لكبار أعلام في علوم القرآن ويقارن بينه وبين كتاب فصوص الحكم لمحي الدين بن عربي، الذي ليس بمثابة هذا التأليف.

ثم يبدأ المرتب بشرح معنى (التأويل): حيث يقول: ظاهر ما قال في القاموس يدل على أن التأويل والتفسير واحد حيث يقول (وأول الكلام تأويلا وتأوله دبره وقدره وفسره).

يقول شارحه العلامة الزبيدي الحنفي (وظاهر المصنف أن التأويل والتفسير واحد... ثم يتابع معنى التأويل وينقل عن الراغب وجمع الجوامع وابن الجوزي وعبيد الله السندي).

يبدأ المرتب بتحليل كتاب (تأويل الأحاديث) مبتدئا بتأويل أحاديث آدم: حيث يقول: إن قصة آدم وردت في سور عدة وهي أول قصة وردت في أوائل سورة البقرة وهي تشتمل على عدة مسائل، إخبار الله بخلقه خليفة في الأرض... وأمر الملائكة بالسجود له، وخلق حواء، وإسكانهما الجنة وإضلال الشيطان لهما. وهبوطهما إلى الأرض...

ويقول انه لا حاجة لنا إلى سرد ما كتبه أكثر المفسرين في هذه الأسئلة لأن أكثر ما كتبوه نقول وحكايات على لسان بني إسرائيل.

والمؤلف الإمام له نظرية خاصة في شرح قصص الأنبياء وتأويلها في تأويل الأحاديث فانه لا يسرد القصة بتمامها بل يشير في كل واقعة إلى تعبير تلك الحادثة ووجه خصوصيتها وفي كل خارق يشير إلى الأسباب الخفية له لان العالم عالم الأسباب لا تخلو كل حادثة عن سبب ما ولو ضعيفاً لا تدركه

عقول العامة. فمعجزات الأنبياء وإن كانت خارقة للعادة وخالية عن السبب الظاهر ولكنها لا تخلو عن سبب خفي يعرفه الخواص من أهل العلم وذوي البصيرة.

ثم نبهنا المحقق والمقدم أن كل ما يشير اليه المؤلف من تعبير الأحاديث والقصص المنزلة في كلامه تعالى فمبناه على مصطلحه في إنزال العلم من الله على البشر بلسان البشر (فان الله ينزل العلم على البشر في مرتبة التجلي والتدلي لا في درجة الإطلاق التي هي مرتبة الذات ثم نبهنا المقدم إلى أن المؤلف الإمام لا يسلّم المجاز والكناية). وإن له اصطلاحه الخاص الذي يسميه (التجوز الطبيعي) وفسره بمحاكمة حادثة وواقعة منتظمة. ثم خاض بنا في مصطلحات صوفية متعلقة بالأحوال الطارئة على نفوس الكمّل. وأن الواقعة المنتظمة في عالم المثال حكمها حكم المنام !! وكذلك الحوادث الواقعة في العالم كلها منامات !! ولها أصول وأشباح. (هل فهمتم شيئا؟ وهل أدركتم سر نهوض العالم الإسلامي؟!).

ثم ضرب المثال على هذا النهج والمنوال الخاص بالكاتب، من قصة آدم، فقال: إن الله أراد أن يجعل في الأرض خليفة، (وخلقه في فلسفته! عبارة عن ظهور إمام نوع الإنسان في الناسوت بطلبه !. وليس عنده بخل وضنى!) ثم يفسر لنا كيف سأل الملائكة عن خلق من يفسد بعد أن أخبرهم الله بذلك. وأنه كان أن اشتبهت عليهم الحكمة.

وقال بعد ذلك: واعلم أن آدم عليه السلام قد أحاطت به حقيقة من عالم المثال يعبر عنها بالجنة، فعومل معاملة أهل الجنة، وصار جسدا مثاليا. والمتجسد المثالي (!) ليس له استقرار في الأرض (يعني إيه ؟). فانسد له باب كونه خليفة في الأرض (!) وكل ما ظهر له بعد ذلك من التقريبات... !! المهم أن الكاتب يصف كل ما حصل من الوساوس والأكل والإخراج من الجنة بأنه "كله منام ورؤيا".

ثم قال المقدم أن المؤلف لم يصرح بكون الجنة في الأرض أم علوية لكن العلامة السندي شارح فلسفة الدهلوي صرح بكونها أرضية. وأن صحابة سبقوا إلى هذا القول.

(وأقول: إن الصحابة لم يسبقوا إلى القول بحكاية المنامات هذه !)

وأما المراد بالملائكة الذين سجدوا فليس كل الملائكة وإنما (تعبيره): الملأ السافل فقط!! (وأقول: هل ضاقت اللغة إلاّ عن هذه الكلمة المستهجنة؟) وأن المؤلف صرح بذلك في كتابه (الخير الكثير) (الله اعلم !!). ثم قال المقدم: وبه (أي بهذا القول العظيم) يفك العقدة في قوله تعالى: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ والاستثناء متصل فتعرّف. (هل فهمتم شيناً؟).

ويقول المقدم: إن المؤلف صرح بهذا في كتاب "حجة الله البالغة" وأنه بهذا يخالف المتكلمين...

ويقول المقدم: أن المؤلف كان يداري أهل زمانه (باطنية يعني) ويتأول بأن ملائكة الملأ الأعلى تمثلوا بالملأ السافل (مرة أخرى) عند الأمر بالسجود للملائكة، فصار السجود من جميع الملائكة. (يعني بالبلدي أن الذين سجدوا هم الجن والاستثناء على هذا متصل: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس﴾، وإن المؤلف كان يداري جمهرة الأمة المسلمة -لا المتكلمين- فيقول كلاما فيه تقية وباطنية أن الملائكة سجدت تأسيا بالجن... وهو فيما أرى مدخل خطير، وليس اجتهاداً يمكن أن نجد له مندوحة وفسحة).

ثم ينتقل بنا المؤلف، والمحقق بعده، إلى عنوان هو: خلق حواء، ﴿وخلق منها زوجها﴾ يقول: هذه العبارة محتملة لآن تكون خلقت من ضلع، أما عند المؤلف فهي مخلوقة من تخيل آدم. وتأمل عبارته العجيبة في عدم توفيقها: (فآدم كانت فيه طبيعة شهوية فاشتاق إلى أنثى من جنسه شوقا قوياً، فتخيل صورة الأنثى تخيلاً حثيثاً فوُجدت من تخيله).

ثم نقل المحقق عن السندي شارح المؤلف بأن الأحاديث الواردة في خلق حواء من ضلع آدم كلها مراسيل، واهية، وهي حكايات بني إسرائيل. ولم يعلق الشارح على قولة الكاتب، بل زاد الطين بلة والداء علة إذ قال: إن زوجة آدم وجدت لا بنطفة آدم (صحيح)، بل إن إمام النوع الإنساني المتمثل في الملكوت قد أودع فيه قوة الرجولية والأنوثية (!!).

(ولست ادري من أين جاء المؤلف بحكاية التخيل الحثيثة، وهل هذه خاصة بآدم، أم قابلة للتكرار؟ وهل يقر الشرع أمثال هذا؟ أم أنه لا يبالي؟ ومن أين للشارح أن آدم أودع فيه قوة الرجولية والأنوثية؟ وما الذي يترتب على هذا؟ وما علاقة هذا بخلق حواء؟).

ثم يقول الشارح: أن آدم تحير بين أمر الله ووسوسة الشيطان، وأن الله كنى عن التحير والتردد بالنسيان، ثم هاجت في صدره داعية شهوية فأكل.

ثم انتقل إلى قصة إدريس. وذكر أن القرآن ذكره بأمور وصفه بها أحدها أنه كان ﴿صديقا نبياً﴾، وثانيها ﴿ورفعناه مكاناً علياً...﴾ . وذكر لنا أن اسمه مشتق من "الدرس" أي لكثرة دراسة الكتب (!!) ثم ينقل لنا عن علامة هندي أنه زار كبير البراهمة في "بنارس"، وكان له اهتمام بالقرآن، فقال أن: "ريس" بلسان البراهمة: الرسول، وأن "ديو" عظيم، و"اد" معناه الأول: فإدريس معناه: أول الرسول. (ومن قال أن القرآن بلسان هندي أو هيروغليفي؟!).

ثم قال المحقق: يقول المؤلف الإمام :كان إدريس في ابتداء أمره من شيعة آدم يقفو أثره في العلوم الإنسانية، وكان كما له يومئذ التجرد إلى أحكام الصورة الإنسانية، ثم ترقى إلى حكمة إنسلاخية... (وبقطع النظر عن المصطلحات الصوفية الموغلة في الإغراب والإغراق، من أين للمؤلف "الإمام" هذه المعلومات والمتابعات، وما هي الحكمة الإنسلاخية؟).

وقد تكرم المحقق علينا وتلطف فشرح لنا هذه المصطلحات فأوقعنا في أسوأ مما كنا فيه، واستمع: والانسلاخ عند المصنف قهر العين على تمثلاته (!) بحيث تصير كالمعدوم، ويكون كما كان في الأزل... ثم إلى نقطة اللاهوت، ثم تنزل إلى علوم طبيعية، وإلهية، ونجومية، وطبية، وارتفاقية، ثم بورك في تلك العلوم، فنشأت ملة المجوس (!!). (بالله ما هذا؟ وأين الدين في ما سطر وكتب؟ وأين الإسلام الحق وأين القرآن؟ ومن أين للمؤلف وشارحه أن ملة المجوس كانت حقة وأنها نشأت عن علوم مباركة ؟!).

نوح عليه السلام :

لنوح عند المؤلف كمال آخر وراء النبوة (!!) (وما الكمال الذي وراء النبوة؟) قال: وهو الاقتراب بالكائنات السفلية. (!)

ثم ذكر لنا أن نوحاً كان قوياً وكذلك قومه وأن قوة القوم جنحت بهم إلى الحيوانية، فجاءت شريعتهم قوية تكسر حدة مزاجهم (من أين له هذا؟) ولاحظ من الكاتب رائحة الجبرية، وهي غير غريبة على تفكير الصوفية، يقول: فانعقد عليهم الغضب في الملأ الأعلى، وقضى هلاكهم، فوجب في حكمة الله الإنذار. (!)

وتأمل التالي فإني أراه ملغّماً: وكان التدبير الإلهي ينتظر واقعة عظيمة من وقائع الجو (!!) (هل لاحظت ينتظر؟!) يعذب قوم نوح فيها. حتى إذا توافقت الأسباب السماوية والأرضية على طوفان عام مائي نفذ الله عند ذلك قضاءه. (!!)

هود عليه السلام :

كان هود ينذر قومه ويذكر لهم قوم نوح. ولما كان جو الأحقاف مائلاً إلى اليبوسة والسخونة، كان أقرب وجوه العذاب في حقهم الطوفان الهوائي... ولما كان مسكن ثمود المغارات والجبال كان أقرب التعذيبات في حقهم الزلازل. (يريد أن يقول إن العذاب منسجم مع السكن. فلماذا لا يكون الأقرب أن يكون منسجماً مع الذنب؟!).

ثم قال: كل شرّ في الملكوت فإنه يتمثل بصورة حيوان (!) (من قال؟)، لأن الشرور لها مناسبة جبلّية بالحيوانات (!!)، فظهر شرورهم بدعوة صالح بصورة ناقة فلما قتلوها تروّح الشر وجاء الطوفان. (لا تستغرب اللغة فهي عجمة المؤلف والشارح وعجمة الصوفية).

إبراهيم عليه السلام :

بين لنا في بداية حديثه أن أفراد الإنسان مختلفون في ظهور الأخلاق والملكات وأن إبراهيم كان خارجاً إلى الفطرة (!) (هكذا)، وإبراهيم عند المؤلف (هكذا عبارة المحقق!) كان إماماً، وبحسب هذا الخلق يترشح عليه علوم إلهية، ولحق بالملأ الأعلى وانعكس عليه النور منهم، وفي ضمنه تيسر له التوجه إلى الرحموت فلذلك جعل إماماً. فلما بلغ أشده آتاه الله الحكمة، وانكشفت عليه فطرته، فلما رأى الكوكب والقمر والشمس آفلات تذكر (!) منها أن ربه بريء عن أحكام الأجسام. فأشرق عليه الحق.

ثم فسر لنا كيف كانت النار برداً فقال: أفاض الله على النار هيئة باردة في ضمن ريح هبت عليها من الطبقة الزمهريرية، حملت برودة شديدة فغيرت النار فحصل من تصادمهما هواء طيب (والسؤال البدهي المكرور: من أين؟) ثم ذكر القصة المكرورة المشهورة من اعتراض "الجبار" إبراهيم من أجل زوجه سارة، فأوحى الله إلى الملائكة أن يدخلوا في جسد الجبار من قبل الريح المنبعث في البدن فتشنجت يده... الخ. (يبدو أن المؤلف حريص على تفسير الأمور بالأسباب...).

ثم ذكر غيرة سارة (لتوافق الغيرة مراد الحق في أن يكون إسماعيل سادن البيت) فأسكن إبراهيم هاجر وابنها في أرض قفر... الخ.

ثم قال: لما كان إبراهيم إمام الفطرة، عد من الملائكة المقربين (!) (خلط) ونودي من كوة إمام نوع الإنسان... ثم قال: إعلم أن لله ألسنة شتى (هكذا بالنص) فكلم إبراهيم بلسانين: تجوز وحقيقة ثم أن الله أمر إبراهيم أن اذبح ابنك، أي كبشاً بلسان التجوز، فانصاع فكلمه الله بلسان الحقيقة: قد صدقت الرؤيا. يعني أتيت بتعبير الرؤيا، وإنما هو ذبح الكبش. (وكل هذا لا حاجة له ولا دليل عليه، ولا يقال اعتقاداً أن لله ألسنة، ولا وجاهة لقوله بلسان التجوز، يعني كأن إبراهيم لم يفهم مراد ربه على الحقيقة!).

لوط عليه السلام :

ولم يأت على جديد في قصة لوط اللهم إلاّ قوله في نهايتها: نزل العذاب برجفة شديدة من الأرض، وانعقاد مادة المطر (يعني بَرد وليس حجارة كما هو نص القرآن؟!) والرياح والبرد حجارة من سجيل.

يوسف عليه السلام :

ظاهر القصة يشتمل على رؤياه في المنام وأنه كان أثيراً عند أبيه. ولكن عند المؤلف (إي والله هكذا) في حادثته عنايات...

ويقول في ثنايا الكلام: إن بيت إبراهيم فيه استعداد لإحداث الانقلابات في العالم، هكذا، فبيت إسحق وبيت يعقوب قد تقدما في العمل، ثم تأتي نبوة موسى، ثم خلافة داود وسليمان. ولذلك يجب فعل ذلك، أن يكون في هذا البيت رتبة ودرجة من العلوم السياسية. (هكذا)

وقال في ثنايا الكلام ما نصه: لما راودته المرأة عن نفسه، وهو شاب قوي المزاج(!!) فهمت به وهم بها أظهر الله له برهاناً عظيماً فهاج من قلبه داعي عصمته، فأبطل داعي مزاجه، وان قويت فمثل له في خياله أبوه الذي كان يعتقد فيه أنه من شعائر الله (!!) ثم شرح ما قال المؤلف: أن البرهان الذي رآه يوسف هو تصوره حضوره بين يدي الرب؛ لأنه كان محسناً فتجلى الرب في تجل، مثلاً رأى صورة أبيه ورأى في قلبه التجلي الإلهي (!!).

(ولست أدري ماذا يعني بالضبط، وإن كان ظاهر النص مصيبة فهل عنى أنه تجلي الرب في صورة الوالد، فكنا كالمسيحية وحلول المسيح، أم هل عنى غير ذلك؟ وهذه إحدى مشكلات الباطنية من الفرق الصوفية...! يوقعك في حيص بيص فلا تفهم ما يريد، وفي ظل هذا الغموض يتسللون لواذاً وينسحبون من المواقف والتبعات!).

ثم نقل عن السندي أنّ لولا تفيد الامتناع، وذكر اعتراض النحويين على جواب لولا وتأخره ثم قال: ونحن لا نتقيد بمذهب نحو خاص في بيان معاني القرآن، ولا نحتاج إليه أصلاً. (طبعاً من كان يفسر عن اللوح ففيم يحتاج النحو بل وفيم يحتاج اللغة كلها؟!)

أيوب عليه السلام :

جاء بعد إبراهيم في قول وقبله بمئة سنة في قوله(!)، ثم فسر لنا: ﴿اركض برجلك﴾: هذا عناية من الأسباب بالأسباب الأرضية، فأنبع عيناً من خاصيتها إزالة الجذام (يا حفيظ!) ومن أين جاء بقصة الجذام؟

شعيب عليه السلام:

وفي قصة شعبب قال: انتظرت الحكمة (هكذا) حتى إذا احتبس المطر مدة طويلة واشتد الحر، جاء أمر الله فهب عليهم، ثم بورك في تلك الرياح (بالنص) فصارت ناراً وصيح بهم فاهلكوا.

موسى وهارون عليهما السلام:

وأما معجزة العصا واليد البيضاء فالتحقيق فيهما عند المؤلف أن عالم المثال قد يظهر في جسم طبيعي فيحصل له حكم المثال، ويغلب عليه الكون المثالي، فصار عصا ناسوتياً، وصارت شعبتها (!) لحي الثعبان، وكذا اليد التي كانت فيها لمعة فصارت بعينها نوراً.

ثم يفسر طلب موسى رؤية الله فيقول: "لما رأى موسى أن العناية توجهت إليه، وأنه قد حصل له تشبه قوي بالملأ الأعلى سأل الله أن يريه"، وتصوير هذه الرؤية عند المؤلف أن تحدق النفس الكلية في طائفة من العنصر الخامس (!!) وتتصوره فيه جسماً نورانياً يحاكي مبلغ معرفة موسى بربه (!!). وما صدر هذا من موسى عليه السلام إلاّ لمعرفته بتصرفات النفس الأولى (!) (وما النفس الأولى ؟!).

وتأمل المصيبة التالية: وطلب قوم موسى ما طلب موسى لانعكاس حالة شوقية إلى مظاهر النفس الكلية منه (!) في قلوبهم، فتجلى الحق في صورة صاعقة فأتلفهم.

(مشكلة لغة القوم. وألغام تعبيراتهم. وتجديف أقوالهم. فمن قال أن قوم موسى انعكس شوقه عليهم؟ ومَن النفس الكلية؟ وهل نحن أمام وحدة الوجود من جديد؟ وهل نحن أمام النظريات الفلسفية اليونانية من القول بالعقول العشرة، والعقل الأول، والنفس الأولى وما إلى ذلك؟ ومن قال أن الله يتجسد أو يتمثل في صورة صاعقة أو سواها؟ مصائب بعضها فوق بعض. أو أنا لا نستحق مثل هذه الإتحافات!).

شمويل وداود وسليمان ويونس عليهم السلام:

وأولاً ليس في القرآن شمويل. وفي قصة طالوت يذكر الاستيلاء على التابوت من قبل الفلسطينيين وأن الله ابتلاهم بالقحط فألهمت الملائكة أنما ابتلوا لأجل التابوت، فلم يزالوا -أي الفلسطينيين- ينحونه حتى وصل إلى بني إسرائيل. (ولا أدري سر تعليل الكاتب كل شئ خارق بتفسير منطقي غير خارق، فنص القرآن أن الملائكة هي التي أتت بالتابوت، فمن أين بتنحية الفلسطينيين للتابوت من قراهم حتى وصل إلى بني إسرائيل؟).

ثم ذكر قصة منح نصف ملك طالوت لمن يقتل جالوت وأن يتزوج من ابنته، وهي إسرائيليات لا قيمة لها...

ثم ذكر من قصص داود أن بصره وقع على امرأة جميلة فأحبها حباً شديداً... وكان رجلاً عظيم الباه (ياه! يا جماعة اتقوا الله!) محباً للنساء لقوة مزاجه، فأساء الأدب في ابتغاء نكاحها (حاشا لله ووالله ما أساء الأدب إلاّ المؤلف الذي يقول عن نبي كريم: أساء الأدب: وحاشاه. صلى عليه الله!) ثم ذكر قصة المختصمين وأنهم ملائكة ففطن داود...

وتكلم بكلام عظيم آخر في موضوع البيت المقدس وبنائه... فليراجعه من شاء.

ثم ذكر أن بني إسرائيل اعتدوا في السبت زمن داود (لا دليل!)، فاصطادوا السمك، فمسخهم الله قردة، (تأمل التعليل العليل) وذلك بأن جعل السمك فاسد المزاج (!!) متعفن الطبيعة، فلما أكلوها سرى سوء المزاج فيهم، وتغيرت أبدانهم، ونبت الشعر، وصاروا قردة...!!

وفي قصة سليمان قال: إن الريح كانت تحمله حيث يشاء (القرآن لم يقل) وفي ثنايا السرد قال: إن الله خلع عرش بلقيس عن الأحكام الناسوتية، وأعطى له حكم المثال (هل هي فلسفة أفلاطونية ؟)، ثم ألبسه الناسوت ! (للعرش، يا راجل!) في هذا المكان لدعوة عبد صالح من أصحاب سليمان.

ثم كاد سليمان كيداً يعرف به عقل بلقيس وجمالها لأنه كان يريد التزوج بها (في كل قصة قصة حب وزواج. وما هكذا قصص القران!) فنكر العرش فعرفته بلقيس، ورأى ساقها فرأى أحسن امرأة !!.

وعطف قصة يونس على قصة سليمان فقال: ثم إن قوماً (بنينوى) طغوا وبغوا فكانت حكمة الله أن يأمر إشعيا (!) عليه السلام نبي ذلك الزمان أن يقوم بالإنذار ولو بواسطة رجل من شيعته، فبعث يونس وإنما خصه لأن وجوده كان من وجود الله (سبحان الله ! ماذا يقول هذا الرجل؟) وعنايته، لأنه ولد بعد أن كبر والداه، فالتوى فيه العناية. (يا لطيف!) ثم ذكر قصة زواج من جديد (!!) ثم قال: وبالجملة فكانت العناية الإلهية ملتوية في نسمته (العياذ بالله من هذه التعبيرات الملتوية!)، فلذلك اختاره إشعيا للرسالة فجبنته عن مقاومة الجبابرة (أين حسن الاختيار إذاً ؟)، وكره أمر النبي (أعوذ بالله) كراهة طبيعية لا كراهة عقل. (والله ما في هذا الكلام ذرة من عقل ولا من حسن فطرة ولا طبيعة !). ويتابع: فاكتسبت نفسه من ذلك صبغة غليظة فعاقبه الله فضلت امرأته عن الطريق، وذهب الموج بولده، وأكلت الذئب ولده الآخر (فيلم هندي). (والمؤلف هندي بطبيعة الحال!)، فتألم وتاب إلى الله وترك الرفاهية واستقام على طريق الدعوة، فلما دعا قومه إلى التوحيد كذبوه وآذوه فدعا الله أن

يهلكهم، فاكتسبت نفسه (أي يونس) هيئة شبيهة بالقتل بغير حق (أي بدعائه عليهم بالهلاك)، فنظر الله إليه وهو بتلك الهيئة، فالتوى عليه الهلاك، فكان له وقائع. (ولا أدري ولعه الشديد بالالتواء ما سره؟ وما معنى عبارته الملتوية ؟).

وأما القوم فإنهم لما عاينوا العذاب تابوا وقبل الله توبتهم، وسوّل الشيطان ليونس (هكذا) أن القوم كذبوه. ففر منهم، فلما أبق اكتسبت نفسه هيئة أخرى، فركب سفينة فهاجت الأمواج، فـألقى نفسه في البحر (!!) فالتقمه الحوت فسبّح فتاب الله عليه، فقذفه الحوت بالعراء، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين لئلا يقع عليه الذباب (!!) ووقع في قلوب الوحش أن يرضعوه بأن خيل إليها أنه ولـدها، وقوي يونس. فيبست اليقطينة وذهبت الظبية. فحزنت عليهما، فأوحى الله إليه: يا يونس تبكي علـى يقطينة لم تسقها وعلى ظبية لم ترزقها، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون؟ (والله نحن نبكي على أحوال أمة هذه أقوال علمائها ؟!) ثم زاد تفاصيل تافهة نعرض عنها...

زكريا ومريم ويحيى وعيسى عليهم السلام:

يبتدئ بذكر عقم حنّة وقصة الحمامة التي هيجت قلبها للولد. وكيف أن المخيلـة تـأثرت، فأثرت في الجنين!! فصارت مريم مباركة (يا ناس!) فيها مزاج من أمزجة الفحول (أعوذ بالله من مثـل هذه العقول أو العجول).

ثم يقول: وكانت أنثى مذكرة (!) حذو المؤنث من الرجال (عوذاً بالله) وذلك لما التوى(!) في وجودها من التطلع إلى الله والرجاء منه (يارب غفرانك) واجتمع الهمة على ذلك حتى نفذت في القوة المصورة.

وتقبل الله مريم للمحررية (هكذا) التي ليست إلاّ للغلمان لأنها مباركة مذكرة (بالله علـيكم أمثل هذا يعقل؟ وهل لهذا علاقة بالدين أو بالعقل أو بالكتاب المبين وقصصه؟).

ثم إن مريم حاضت في أيام سريان قوى الروحانيات في تلك البقعة (ما هذا؟ إن هذا عيـار لا يحتمل!)، فلما طهرت انتبذت إلى مكان بعيد من الناس لتغتسل، أسدلت ستراً، ونزعت ثيابها، فأرسل الله إليها جبرئيل في صورة شاب سوى الخلق ممتلئاً شباباً وجمالاً، فرأته مريم وهي شابة قويـة المـزاج، فخافت على نفسها الفساد، والتجأت إلى الله بقلبها ليعصمها، فكانت لها حالة عجيبة! (العجيب فهمك يا مولانا وكتابتك!) أما الطبيعة فحصل لها ما يحصل عند الجماع (قل لنا بالله من أين علمت هذا؟) من

ثوران القوى النسلية، كما أن النظر ربما كان سبباً للإنزال، (والحمد لله أننا لسنا من مدرسة التحليل النفسي لفرويد، وإلاّ لقلنا عن المؤلف شيئا كثيرا...)

ثم قال كلاما أغلظ من كل ما سبق، نعوذ بالله منه ونمسك القلم عنه ثم قال إنه كان شبيهاً بجبريل (!!) في جبلته... وختم بذكر الهيئة المثالية، ورفعه إلى السماء...

ثم في فصل طويل يستغرق ربع الكتاب تكلم عن "تأويل أحاديث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم". ولسنا نرى سيرة النبي صلى الله عليه من قصص القرآن، فهي خارجة عن الموضوع، حسب مصطلحنا في قصص القرآن، فلا نطيل بالنقل مما قال في سيرته صلى الله عليه وسلم، وقد تكونت لنا ملامح منهجه من خلال ما كتب سابقاً، فلو لم نذكر مما تبقى شيئاً ما نقص من منهج الكاتب ومحددات هذا المنهج شيء. لكن من أعجب ما قال في ثنايا كلامه: وقال ابن الماجشون، وهو من أئمة الهدى(!): إن الله تعالى لا يتحول يوم القيامة من صورة إلى صورة ولكن يراه الناس في صور شتى. ثم مثل لنا ذلك كيف يكون. ولسنا نحتاج أمثلته، والرد بمنتهى البساطة أن هذا مما لا دليل عليه! ومما قال من العجائب التي يفهم منها وحدة الوجود: "إعلم أن العالم عندنا شخص واحد، له جسد واحد. ونفس واحدة، متعلقة به، ونظم واحد لتدبير نفسه لجسده.

ولم يذكر من السيرة شيئاً سوى الكلام عن المرايا والنظر فيها والانعكاسات، ليبرر الخلط الذي يقول...

ويختم كتابه بهذه السطور ننقلها لنختم بها تقريرنا عن هذا الكتاب المشحون بالتصوف المتطرف المنحرف المنصرف عن جادة الحق إلى متاهات الباطنية والتخريف والضلال: "وليست صورة الإنسان هي الإنسان، ولكنها مظهرها ومنصتها، فإن نظرت إلى الصورة، من حيث أنها نشأة عرضية، وأنها شيء قائم بالذهن، كانت أبعد شيء من حقيقة الإنسان، وإن نظرت إليها نظراً ينفذ منها إلى ما وراءها من حقيقة الإنسان، لم ينتبه التفاتك إلاّ إلى تلك الحقيقة وكانت الصورة كالزجاجة. لا تلتفت إليها أصلاً (وما علاقة هذا بالسيرة !) وكذلك كانت الشريعة، داخلة في أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وعلومه من وجه، خارجة عنها متعلقة بها من وجه آخر، ولا نحكم عليها أنها من باب التدلي وإنها تنزل للحقيقة المسماة بنبي الانبياء (!) إلاّ من الوجه الآخر فعليك بالتدبر (وهل هذا قرآن حتى نتدبره؟ وما فيه من المعاني حتى يتدبر؟) وبالجملة (يقول): فهذا النظم مراعى في جسد النفس (افهم!) الكلية كما يرعى التدبير المنبجس من النوع في الفرد فلا يتحقق شيء من الحوادث إلاّ بحسب ذلك. والله أعلم.

الكتاب الثالث:

قصص الأنبياء / المجلد الثاني

تأليف: محمد بن عبد الله الكسائي

تصحيح: إسحق بن شاؤول أيزنبرغ

طبع في ليدن، هولندا، ١٩٢٢م

قصص الأنبياء للكسائي:

يقع الكتاب في خمس وسبعين صفحة، ومصحح الكتاب يهودي، لذا فإنه نشر الكتاب بغلاف عبري، ولكنها من الموافقات، فمضمون الكتاب جله من الإسرائيليات.

وتبتدئ الإسرائيليات من مقدمة الكتاب، فعن كعب (!): خلق الله درة بيضاء في عظم السماوات والأرضين، لها سبعون ألف لسان، تسبح الله بكل لسان من تلك الألسن بسبعين ألف لغة، قال كعب: ولها عيون لو ألقيت فيها الجبال الرواسي ما كانت إلاّ كذبابات في البحر الأعظم... الخ.

ثم ابتدأ بحديث هابيل وقابيل (!) وذكر قصة آدم معهما إذ كان يحبهما أكثر من سائر بنيه، ثم دعاهما لتقديم قربان، فقدم هابيل من الغنم كبشاً سميناً، وقدم قابيل زرعاً فنزلت نار فأكلت قربان هابيل... الخ... ثم قص مقتل الأخ لأخيه.

ثم حمل آدم ولده هابيل على عنقه وبكى عليه أربعين يوماً، فبشره الله بغلام يشبهه، فحملت حواء بشيث، وسرّي عنهما، وكان على وجه شيث نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى كتفه شامة خضراء... الخ.

ثم إن آدم حضرته الوفاة فسأل الله ما الموت؟ فقال الله: إنه أشد مرارة من السم القاتل... الخ.

ثم ذكر من قصة إدريس ما هو أشد إغراباً وإدهاشاً، وكأنَّا في مباراة في الغرائب والأشد غرائبية. ومن ذلك أن إدريس دخل الجنة فقال له ملك الموت: أخرج حتى أقبض روحك.

فقال: أيخرج من يدخل فيها؟ فحاجه في ذلك، فقال ملك الموت: يا رب، إدريس في موضع لا أدخله، فقال: إن عبدي إدريس حاجك في الكلام فاتركه في جنتي. فذلك قوله تعالى (!): ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً. ورفعناه مكاناً علياً﴾ . (ولا علاقة قطعاً لهذه القصة بالآيات).

ثم انتقل إلى قصة نوح، فقال: كان إدريس قبل أن يرفع ترك في الأرض ولداً يقال له متوشلخ، فتزوج من متوشلخا (!!) فولدت له ولداً، كان قوياً يقلع شجرة عظيمة بضربة من يده، وعلى وجهه نور نبينا، وكان يكتم إيمانه (!) (ممن ؟) فخرج إلى البرية فإذا هو بامرأة في نهاية الجمال ترعى غنماً، فتعجب منها وسألها عن اسمها فقالت: قينوش بنت راكيل (!) بن عويل بن

لامك بن قابيل بن آدم، فقال لها: ألك زوج؟ فقالت: لا، فقال: كم سنك، فقالت مئة وثمانون. فقال: لو كنت بالغة لتزوجت بك وكان البلوغ متين... فقالت ومن أنت؟ فلم يقل إني من أولاد شيث للعداوة التي بين أولاد شيث وأولاد قابيل (!!). فقالت: إن كنت تريد الزواج فإن عمري منتين وعشرين سنة فاخطبني من أبي، فتزوجها فولدت له نوحاً... وضعته في غار خوفاً من ملك... الخ...

وهي قصص كما ترى لا يقبلها عقل ولا ذوق ولا نقل. ولا تمت لا لقرآن ولا لسنة ولا كتاب منير ولا منطق حكيم.

ثم يصف عيون نوح وخصره وعنقه وقامته... الخ.

ثم ذكر لنا أن الملك زمن نوح كثّر الأصنام من خمسة إلى ألف وسبعمائة واتخذ لها معبداً من رخام طوله ألف ذراع وعرضه كذلك...

فبعث الله نوحاً نبيا إلى قومه... ويصف معاصي القوم بما لا يعقل.

ثم آمنت بنوح امرأة اسمها عمورة فتزوجها فولدت له: سام وحام ويافث وثلاث بنات: حصورة وميشورة ومحبورة، ثم آمنت به امرأة من قومه يقال لها والعة فتزوجها فولدت: يافث (غير الأول) وكنعان، ثم ارتدّت...

وكان نوح يدعو قومه كل يوم فيضربونه ويرمونه على المزابل (!!) ثم مات الملك وجاء ابنه، وكان أعتى.

(وإنما أنقل مثل هذه النقول حتى لا يبكي على الإسرائيليات باك، ولا يحس بفقدها أحد. فهي ما زادتنا إلاّ خبالاً وضلالاً ووبالاً، فعلام يبكيها الباكون ؟!)

ثم وصف سفينة نوح وأنها ألف ذراع طولاً (ناقلة طائرات) وخمسمائة عرضاً، وثلاثمائة سمكاً، وبناها في شهر (هذا الحجم يحتاج إلى قرن !).

وجعل نوح رأس السفينة كرأس الطاووس (ما شاء الله) وعنقها كعنق النسر ووجهها كوجه الحمامة. ومنقارها كمنقار الباز... (الخ الحيوانات...).

ثم يدخل في تفاصيل عن حج نوح، وتنور آدم، والهوام التي أدخلها إلى السفينة... والقرعة التي جرت بين الحيوانات. وكيف قسم الطبقات على الحيوانات... (ليست طبقية الناس إياهم. إنما طبقية الحيوانات... فانتبه).

ويمضي الكتاب على هذه الشاكلة في وصف صنيع الملائكة، ملائكة الماء والأرض، وان الله أمر ملائكة الأرض أن تمسك الدنيا لئلا تتقلع من أصولها (!!).

والملائكة قلعت البيت ورفعته إلى السماء، وأن الحجر الأسود كان أبيض من الثلج. وإنما اسودّ خوفاً من الطوفان (!).

ثم قسم نوح الأرض بين أولاده (!!) (وأين باقي ركاب السفينة ؟!).

فأعطى سام (أبا العرب) الحجاز واليمن والشام، وحام بلاد المغرب فهو أبو السودان، ويافث المشرق فهو أبو الترك.

وانتقل إلى قصة ابراهيم، وأنه ولد في زمان ملك كان يذبح الأطفال، وذكر غرائب تصلح لكل شيء إلاّ لقصص القرآن.

ولم ينس أن يتحفنا بقصة البعوضة والنمرود... فليرجع إليها من يحب الغرائب. ثم نقل عن كعب الأحبار قصة سارة والملك... ثم غيرة سارة من هاجر، ثم زيارة إبراهيم لإسماعيل وقد كبر وتزوج... الخ.

ثم ذكر من أخبار يوسف عليه السلام أن اليهود كانوا يخفون قصته، وأنهم سمعوا النبي يقرأ سورة يوسف فسألوه من أين لك هذا؟ فقال من عند الله أخبرني بها فقالوا صدقت. فصاروا يكتبون قصة يوسف بالذهب على ألواح الفضة (ناس شرفاء ومؤمنون !).

ثم ذكر حديث أيوب عن كعب الأحبار ووهب بن منبه (لازم !)، وكيف أن امرأة أيوب بعد النعيم اشتغلت خادمة في البيوت، ثم أن رحمة (امرأة أيوب) حملت زوجها بعد ما لَفّته إلى قرية أخرى لعلها تكون أرحم من قريته... وكيف أن ابليس كان يرافقه في كل خطوة، ويحاول أن يهد من عزمه...

ثم فصّل ما عوض الله به أيوب من ألوان النعيم والأنعام والأموال... ثم ابتدأ في قصة شعيب، وبدأ بالنقل عن كعب الأحبار.

ثم قصة موسى... ويسير على نفس النهج من الروايات الأسطورية، ومما قال: إن موسى خرج ببني إسرائيل من مصر، وكان عددهم ستمائة ألف كلهم من ولد يعقوب (أقول: وهذا يخالف الآية: ﴿إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون﴾).

ثم قال إن الذين عبدوا العجل ستنا ألف، وإن من قُتل منهم سبعون ألفاً، ثم ذكر قصة اغتسال موسى والحجر والثياب... ثم ذكر قصة الجبارين في فلسطين.

وبعد ذلك أتحفنا بحديث بلعام بن باعوراء وقارون...

ثم قصة يونس بن متى، ونقلها عن كعب الأحبار، وأنه كان بمدينة بيت المقدس: وكان أبوه من أهل بيت النبوة (!) واسم امرأته صدقة، عاشر زوجته بعد سبعين سنة ليلة عاشوراء(!) فوضعت يونس.

ثم أمر يونس بخطبة ابنة زكريا بن يحيى (!) فقدم إليه حيث هو. فتزوج ابنته، وارتحل بعد ثلاثة أيام. ثم أن ملكا اسمه ثعلب بن شارد (!!) وكان بنينوى وغزا بني إسرائيل، وقتل منهم خلقاً، فطلب الله من يونس أن يذهب لنينوى، فقال: ابعث غيري (ألا تشم رائحة بني إسرائيل من وراء الرواية بل وكل الروايات ؟) فقيل له: امض ولا تخالف، فذهب، ووصل إلى شاطئ دجلة. فأكل الذئب ابنه الأكبر. وغرق ماله، وضاعت زوجته... ودخل نينوى (!!) ثم دعوته للقوم في نينوى، وخروج يونس ورميه في البحر، ولبثه أربعين يوماً في بطن الحوت (!!) فلما خرج من بطنه بعث له ظبية ترضعه كالطفل، وشجرة يقطين تحتها يستظل فظل أربعين يوما ثم ذهبت الظبية وجفت الشجرة فبكى يونس. فقيل له: تبكي على اليقطين، ولا تبكي على مئة ألف من عبادي؟! أو يزيدون، ثم ذهب إلى قرية فاستضافه فخّار (صانع فخّار) فأوصى الله ليونس مرة أن يكسر فخّاره فقال: أنت رجل أحمق (؟!) ثم إن مزارعاً أضافه فأوحى الله إليه أنه يريد أن يرسل الجراد على زرعه... الخ.

ثم قص قصة عيسى عن كعب ووهب... وبه ختم القصص الخرافية المسماة زوراً قصص أنبياء أو قصص القرآن.

تعالى الله عماً يضاف إلى آياته وإلى حملة رسالاته.

الكتاب الرابع:

مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: قصة ذي القرنين

تأليف: د. عبد العليم عبد الرحمن خضر

ط١، جدة، دار الشروق ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

منهج الكتاب ومنطلقاته:

وضع الكاتب ثلاثة احتمالات لشخصية ذي القرنين: الإسكندر (مقدونيا). إفريقس، الحميري (اليمن)، قورش (فارس). وفي كل واحد من هؤلاء كان يناقش ويسرد كل الاحتمالات على ضوء المحددات القرآنية:

- مواصفات الشخص (العدل، الحزم، الإيمان، الإصلاح...).
- رحلة الغرب التي وصل فيها إلى العين الحمئة...
- رحلة الشرق التي وصل فيها إلى مضيق جبلي...
- القبائل المتوحشة : يأجوج ومأجوج...
- بناء السد.

فعندما ابتدأ بالإسكندر ناقش كل هذه الاحتمالات فوجد أنه أخضع بلاده مقدونيا (اليونان) لكنه لم يتجه غرباً... وأنه خاض فتوحات في الشرق وصلت الصين... وساهم في بناء سور الصين (على قول ضعيف) وأنه بنى سداً... لكنه ليس هو المعني بالشخصية القرآنية لأن الإسكندر مفسد متكبر... الخ.

وكذلك صنع بالحميري: فوجد أنه خاض حروباً وفتح فتوحاً في الشرق والغرب وبنى سد مأرب... لكنه ليس هو المعني .

وذو القرنين قورش (الفارسي) فتح فتوحاً في الغرب فانتصر على اليونان، وفي الشرق، وبنى سداً، بل إن تمثالاً له وضع الكاتب صورته (وهي عند أبي الكلام أزاد على كل حال) تبينه وقد وضع على رأسه تاجاً بقرنين... وأن هناك قبائل متوحشة في زمانه... وأنه كان صالحاً مصلحاً، فالمواصفات القرآنية تنطبق عليه.

وقد جاء الكتاب مزوداً بعشرات من الصور والخرائط ومليئاً بالمعلومات الجغرافية والتاريخية التي كانت تعرض "لأدنى ملابسة" بالموضوع، وأقل علاقة... ورجع فيه كاتبه إلى عشرات كثيرة من المراجع العربية والأجنبية.

ويلاحظ على الكتاب والكاتب التكرار...

تعريف عام بالكتاب:

يقع الكتاب في ثلاث عشرة صفحة وأربعمئة، وثمانية فصول، واستغرقت الفهارس (أعلام، أماكن، أمم، آيات، أحاديث) سبعين صفحة كاملة أي سدس الكتاب.

وقدم للكتاب بمقدمة استغرقت عشر صفحات، ومما قال فيها: القرآن معجز في كل شيء، ومن هذا انتقل إلى أن حياة الإنسان بدأت بقصة (وذكر قصة ابني آدم وسماهما)، وأشار إلى طبيعة الإنسان. ثم قال: وتوالت التجارب، وتشابكت خيوط الأحداث لتنسج قصصاً، أبطالها بنو الإنسان ومسرحها الأرض.

ثم أشار إلى القصص المخترع الذي نسجته الخيالات والأوهام، وكانت الأسطورة وتعدد الآلهة، وعبر الإنسان عن القصة بكلمات، ولقد رافقت القصة الإنسان في جميع مراحل حياته.

ومن أوائل الشعوب التي عاشت القصة العرب، بل إن حياتهم قصة طويلة. وقد وجدت تشابهاً عميقاً بين مقدمة كاتبنا ومقدمة كتاب عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني، دونما إشارة.

يقول: وبمرور الزمن زاد رصيد الأساطير، وجاءت الأديان فرفعت منزلة الإنسان وعلمته كيف يتخلص من الأوهام.

ومن هذا انتقل إلى قصة ذي القرنين، وأنها جاءت لتثبت صدق النبوة... وقد حددت الآيات شخصيته دون تحديد اسمه. ثم ذكر الاحتمالات التي ذكرها المفسرون في تحديد شخصيته، وأن هناك احتمالاً بأنه من حمير وأنه شَمّر بن عمرو، واحتمال يقول أنه من اليونان (الإسكندر)، واحتمال أنه قورش.

ثم يشير إلى الصعوبات في تحقيق كل احتمال. ثم ذكر الملامح التي حددها القرآن لشخصيته:

- أنه عبد صالح يدعو للخير.
- أن الله مكن له بصورة غير عادية.
- أنه بلغ مغرب الشمس.
- أن يكون أخضع قوماً عند العين الحمئة.
- أن يكون حازماً مع من عاند رحيماً بالمؤمن.
- أن يكون بلغ مطلع الشمس.
- أن يكون وجد أقواماً بدائية.

- أن يكون بلغ الإقليم الجبلي الذي يقسمه مضيق وعر إلى سدين.
- أن يكون شاهد يأجوج ومأجوج.

يقول انه عندما يطبق هذه الضوابط أو الخطوط الرئيسية في الشخصية على الاحتمالات يجد البون واسعاً، ورجح أن الأقرب أنه قورش، وقال أن أبا الكلام علامة الهند سبقه إلى هذا.

ثم ذكر أنه استعرض المفاهيم الجغرافية على ضوء الإشارات القرآنية.

ثم إن الكاتب ذكر الموارد الاقتصادية لذي القرنين، والعلاقات الدولية، وعناصر المناخ، وملامح المدنية القديمة، والأهداف الاستراتيجية من وراء تشييد السدود، وقال إن دراسته لها جانبها العلمي (النظري) والتطبيقي.

وتأمل أن يكون جهده أو محاولته مقدمة لمنهج جغرافي إسلامي... نحو استخلاص العبر والمفاهيم من القصص القرآني.

الفصل الأول: ذو القرنين في القرآن والتفسير.

وقد استغرق سبعاً وعشرين صفحة، من ص٢١–ص٤٨. وابتداه بقوله: لا يزال تحدي القرآن وسيظل مستمراً، وهي سمة من سمات إعجازه، تثبت أنه كلام الله.

ثم يستعرض آيات قصة ذي القرنين وتفسيرها من التفاسير. وأورد السؤال الشهير لقريش واليهود الذي تحدوا به نبينا صلى الله عليه وسلم. ثم أشار إلى حديث في جواب سؤال السائلين يرفع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ونقل عن ابن كثير أنه لا يصح رفعه بل هو من الإسرائيليات.

ويتعجب ابن كثير من تضمين أبي زرعة الرازي هذا الحديث كاملاً غير منقوص في كتابه "دلائل النبوة" والحديث المزعوم يشير إلى أن المقصود بالآيات هو الإسكندر المقدوني.

وذكر قولاً آخر عن ابن كثير أنه عبد صالح طاف بالبيت زمن إبراهيم.

ونقل في الهامش عن أحمد حسين شرف الدين في كتابه اليمن عبر التاريخ، ص١٤١، قوله: لعله الإسكندر الأكبر المقدوني الذي ولد في بيلا في مقدونيا باليونان سنة ٣٥٦ ق.م. وكانت أولى غزواته اختراق نهر الدانوب حيث كانت قبائل متوحشة كان لها يد في اغتيال والده فيليب.

ثم اقتحم مضيق الدردنيل، وطارد السفن الفارسية وبنى الإسكندرية، وواصل فتوحاته إلى فارس وأفغانستان وبنى فيها سمرقند (أوزبكستان الآن) ثم وصل بابل وجال المحيط الهندي وتوفي وعمره (٣٣) سنة.

ثم أشار إلى دائرة المعارف الأميركية، ج١، ص٣٦٠–ص٣٧٠، حيث ورد بها عشرون من عظماء أوروبا يحملون اسم الإسكندر.

ويواصل النقل عن ابن كثير في تفسيره وتاريخه، ويذكر الأقوال أنه كان ملكاً من الملوك العادلين. وقيل كان نبياً، وقيل رسولاً، وقيل كان ملكاً من الملائكة (منسوب إلى عمر ولا يصح قطعا) وذكره السهيلي.

وروى وكيع عن إسرائيل عن مجاهد عن عبد الله بن عمر: كان نبياً، قال ابن كثير: وروى ابن عساكر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا أدري أتبّع كان لعيناً أم لا، ولا أدري ذو القرنين كان نبياً أم لا. ويستغرب ابن كثير هذا الحديث. والنكارة واضحة جدا فيما نرى. ويروي عن ابن عباس: كان ملكاً صالحاً. وكان الخضر وزيره !!

وأما تسميته فيذكر ابن كثير في تعليلها عن وهب بن منبه أنه كان له قرنان من نحاس (لا ندري كيف، المهم أن ابن كثير يضعفه) وقيل لأنه ملك فارس والروم. وقيل لأنه بلغ قرني الشمس. وقال الحسن: كانت له غديرتان.

وبعد كل هذا ينقل ابن كثير أنه جاء في حديث أنه كان من حمير وأمه رومية. وذكر شعراً. ونقل ابن كثير عن الدارقطني أن اسمه هرمس ونقل أنه الإسكندر.

ثم نقل الكاتب عن السيوطي في دره المنثور أن اليهود قالوا للنبي: أخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة إلاّ في مكان؟ قال ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين... الخ.

وروى السيوطي عن علي (!!) أنه لم يكن نبياً ولا ملكاً ولكن كان عبداً صالحاً أحب الله فأحبه، ونصح لله فنصحه.

ونقل المؤلف عن الشربيني (صاحب التفسير) أنه انقرض في زمانه قرنان من الناس فسمي ذا القرنين. وذكر أقوالاً وأسماء كثيرة فلا نطيل.

ثم ذكر عن أبي الكلام أنه قورش، واستشهاد آزاد بالتمثال لذي القرنين.

ثم ينقل عن صاحب الظلال أن النص القرآني لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين ولا عن زمانه ولا مكانه، وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، ونقل صاحب الظلال عن البيروني أنه كان من حمير لأن حمير تلقب ملوكها بذي.

ويرجح صاحب الظلال أن مغرب الشمس كان عند مصب أحد الأنهار حيث يكثر الطين.

مظاهر التمكين في الأرض:

ثم ينقل عن المفسرين تفسير قوله تعالى: ﴿إنّا مكنا له في الأرض﴾. وأن معناها: أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب، ولهذا ملك المشارق والمغارب، ودانت له البلاد.

أما إيتاء الأسباب في قوله تعالى: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ فيقول عن المفسرين: آتيناه في كل شيء أراده بلاغاً، وفي كل شيء توجه إليه وصلة توصله إلى هذا الشيء بالعلم والقدرة والآلة (طنطاوي جوهري).

ثم ينقل حواراً بين معاوية وكعب الأحبار حول ذي القرنين، يقول معاوية عن كعب: "إن كنّا لنبلو عليه الكذب". فصحفه إسرائيليات، لا حاجة لنا إلى شيء منها كما يقول الكاتب.

ثم ينقل الكاتب عن ابن كثير استشهاده على كذب كعب الأحبار في تأويله.

مغرب الشمس: في الآية إشارة إلى أن ذا القرنين سلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب. هكذا يرى ابن كثير. ويردد نفس القول طنطاوي جوهري: البلاد التي لا بلاد بعدها يمكن أن تغرب عليها الشمس. وذلك عند بحر الظلمات (الأطلسي). وينقل عن ابن كثير استبعاده لإسرائيليات في هذا الموطن بالذات .

العين الحمئة: ينقل في تفسيرها عن ابن كثير أن ذا القرنين شاهد الشمس تغرب في البحر المحيط. وينقل عن سعيد بن جبير عن كعب الأحبار قسمه أنه ما من أحد يقرأ هذه الآية كما هي في التوراة إلا ابن عباس ! ولاحظ مغالطات كعب... فهو أولاً يزعم أن للآية نظيراً في التوراة وهو ما لا نراه. ولم يتعرض الكاتب لهذا بتعليق. ثم ثانيا: لماذا ابن عباس ينفرد عن سائر الناس؟ هذا لا يصح قطعاً.

وذكر رواية أخرى عن كعب عند ابن أبي حاتم، وأن مثل هذه الآية في التوراة !!

أما القوم الذين عند العين الحمئة، فينقل عن السهيلي أنهم أهل جورجيا. وأما مشرق الشمس فيقول أن ذا القرنين حينما أراد بلاد المشرق سلك طريقاً يوصل إليه ﴿أتبع سبباً﴾ وذكر رواية إسرائيلية أن ذا القرنين عاش (١٦٠٠) سنة !! (لو أن المسلمين قالوها لقامت الدنيا..). وينقل عن طنطاوي جوهري عن القوم الذين وجدهم أنهم قوم لا لباس لهم فهم عراة في العراء. وذكر روايات عن ابن كثير لا تقبل. وأما السدّان، فإن ذا القرنين سلك الطريق الموصل إلى مرتفعات السلاسل الجبلية في أرمينية وأذربيجان...

ثم يسأل من هم يأجوج ومأجوج؟ وفي الجواب يذكر أنه ثبت في الصحيحين أن الله يقول يا آدم: "ابعث بعث النار... من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون، ثم يقول: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلاّ كثرتاه: يأجوج ومأجوج...".

وينقل عن النووي في شرح مسلم أن هؤلاء مخلوقون من آدم وليس من حواء... ويستنكره ابن كثير، ويقول: غريب جداً. ويقول الكاتب: إنه مدسوس. وهو كذلك. وفي مسند أحمد عن سمرة أن الرسول قال: "ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك". ويذكر قولاً في تعليل تسمية الترك لأنهم تركوا من وراء السد...

ثم ذكر أن ابن جرير ذكر عن وهب بن منبه حديثاً طويلاً عجيباً في السد ويستغربه ابن كثير... وينقل عن جوهري أن مأجوج ويأجوج مأخوذ من أججت النار... الخ.

ويذكر حديث الصحيحين: "ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق". وفي سند الحديث أربع نسوة.

وينهي الكاتب هذا الفصل بما يسميه: التصور العلمي لخطوات البحث حسب منهج القرآن والتفسير، ويذكر النقاط:

١- جاءت القصة لإثبات صدق النبي.

٢- القصة لعبد صالح مكّن له.

٣- قيام ذي القرنين بحملة حربية غرباً... واحتكاكه بشعوب مختلفة.

٤- عند العين الحمئة أقوام شجاعة.

٥- خضعت هذه الشعوب لذي القرنين.

٦- قيام حملة أخرى باتجاه الشرق.

٧- في الشرق وجد صحراء عارية من أي غطاء نباتي.

٨- المسلك الجغرافي.

٩- السلالات البشرية الهمجية وقت ذي القرنين.

١٠- سد ذي القرنين التاريخي: جغرافية السد ووصف له.

الفصل الثاني: التحليل العلمي لخطوات البحث.

وهذا الفصل والفصل الثالث يستغرقان نصف الكتاب وأكثر، فالثاني يقع في نيف وثمانين صفحة من ص٤٩-ص١٣٢، والثالث في نيف وتسعين.

وقد قسم الكاتب الفصل الثاني إلى خمسة مباحث، وقبل المبحث الأول تحدث فيما يشبه المقدمة للفصل وجعل عنوانها: التحليل العلمي لخطوات البحث:

صدق النبوة: وتكلم فيه عن التعاون بين اليهود والعرب لإحراج النبي صلى الله عليه وسلم بالأسئلة، ولا ثقافة تاريخية عند النبي، فإجابته بالتالي وحي قطعاً من السماء. ويستشهد بأقوال لأجانب ينقلها عن وحيد الدين خان في كتابه حياة محمد يذكر فيها صدقه عليه الصلاة والسلام.

ثم يذكر احتمالات: من يكون ذا القرنين؟ ويحاول أن يطبق المعايير التي استخلصها من القرآن.

وفي المبحث الأول يناقش الاحتمال الأول وهو الإسكندر وينقل عن ابن سينا قوله فيه أنه ممن دانت له أصقاع الأرض.

ثم يذكر الروايات التاريخية عن قتاله مع الفرس وبنائه الإسكندرية ووصوله الهند، وحكمه مصر وأنه أدار مملكته على أسس سليمة وكفاءة، وقد أوتي من أسباب القوة والشجاعة.

ثم ذكر من حنكته كيف انتصر في جبال الإسكندرونة على جيش دارا (داريوش) الذي كان عدده ٦٠٠,٠٠٠. ويطيل الكاتب في معارك الإسكندر مع الفرس، وتفصيل تكوين جيش الفرس، بما أعدّه استطرادا أو خروجاً عن الموضوع.

ثم نقل الإسكندر المعركة إلى بلاد الفرس، ثم تجاوزها إلى نهر سيحون ثم الهند، وسلك طريق هندوكوش (جبال بأفغانستان)، وعبر نهر السند إلى البنجاب وقوبل بترحاب، ثم انتصر على بوروس في معركة فيلة صعبة ووصل نهر الكنج، ثم قفل راجعاً بالسفن عبر خليج عمان فالخليج الذي سماه الإسكندر الخليج الفارسي.

باختصار: إن الإسكندر قد مُكّن له في الأرض، ومثله كثير، لكن المواصفات القرآنية لا تنطبق عليه.

وفي المبحث الثاني ناقش الكاتب قضية أو سؤالاً مفاده: هل سلك الإسكندر طريقاً نحو الغرب؟. ثم في الإجابة نقل روايات عن إبراهيم عليه السلام وأنه التقى بذي القرنين في موسم الحج، ثم قال الكاتب: إن زمان إبراهيم عليه السلام بعيد عن زمان الإسكندر. وفي رأيي أن هذا النقاش خارجٌ عن الموضوع، لأن الذي زعم أنه زامن إبراهيم عليه السلام لم يزعم أنه الإسكندر حتى يناقش هذا

النقاش. ثم أطال في النقول التاريخية المثبتة مزامنة إبراهيم للهكسوس الذين هم حوالي سنة (١٦٧٥ ق.م) والإسكندر مات (سنة ٣٢٣ ق.م).

ثم ناقش روايات أنه ملك من الملائكة أو نبي، وفندها. ووصف الأقوال التي زعمت بأن الإسكندر بعد فتوح الهند اتجه إلى المغرب. أنها أقوال بلا أسانيد تاريخية.

وبذكر روايات عن وهب بن منبه ينقلها الدياربكري، لا تعدو كونها خرافات وخزعبلات أنه رجل من الروم كان صالحاً دعا إلى الله... الخ.

وفي المبحث الثالث، ناقش الكاتب سؤالاً: هل كان رحيماً مع من آمن؟ وذكر من الروايات ما يثبت بطشه وقتله الآلاف... وأنه دعا في آخر أيامه إلى السجود له... وإن كان تاريخه لا يخلو من لمحات مشرقة كما نقل الكاتب عن الشهرستاني.

بل إن هناك متناقضات في سيرته، وأقول: إن التناقض إما عائد إلى اضطراب شخصية الإسكندر أو إلى تناقض الروايات والرواة.

وفي المبحث الرابع، ناقش السؤال: هل سلك الإسكندر معبراً نحو الشرق؟ ويقول في الجواب: إن الإسكندر ما قام بغزوات إلاّ صوب الشرق ليحقق حلم أبيه في سحق الفرس وتكوين إمبراطوريته في الشرق.

وينقل عن هـ. ج. ولز أن الإسكندر لم يحدث أي تغيير خلال مدته (٦سنوات) عندما حكم الإمبراطورية الإيرانية، بل بقيت الإدارات على ما كانت عليه منذ عهد قورش وأنه أمر ببناء سبع عشرة مدينة باسم الإسكندرية، ولكنه خرب صور فاضعف التجارة، وأنه صبغ الشرق بالصبغة اليونانية، وأنه كان السبب في استمرار الحروب بين الشرق والغرب قرابة تسعة قرون.

ثم ذكر الكاتب عدة معابر عبرها الإسكندر في فتوحه نقلاً عن المسالك والممالك لابن خرداذبة وتقويم البلدان لأبي الفداء. وذكر فتوحه في مصر بتفصيل لا أرى له محلاً. ثم أفاض في تاريخ الإسكندرية ووصف الإسكندرية بما لا علاقة له بالسؤال المعنون للمبحث. ثم وصف مسالكه في الهندوكوش. ثم أفاض في وصف أقاليم إيران ومناخها وأمطارها... وكل ذلك لا محل له فيما أرى.

ثم يصل الكاتب إلى منطقة صحراوية مر بها الإسكندر بها قبائل من العراة وهي عارية من النبات تسكنها قبائل مغولية، وأن الحرارة تصل نهاراً إلى ٨٢ مْ وأن الأهالي كانوا يحفرون جحوراً يختبئون فيها من الحر، فإذا غابت الشمس هاموا على وجوههم يبحثون عن جذور النباتات. فوصف هذه القبائل ينطبق على ما وصفت الآيات ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾.

وليس الهدف دراسة الجغرافية الاجتماعية للشعوب من هذه الآية... كما يقول الكاتب، وإنما إجابة سؤال من سأل عن ذي القرنين.

المبحث الخامس: هل سلك الإسكندر معبراً ثالثاً نحو منطقة جبلية وعرة تسكنها جماعات بدائية؟ هل أقام الإسكندر هناك سداً؟

يورد الكاتب رأياً للبيروني يقول فيه أن الاسكندر وصل الصين وسلك معبراً جبلياً في سلاسل الهملايا العملاقة.

يقول الكاتب: أما أن الإسكندر عبر ممر خيبر إلى البنجاب فهذا ثابت، أما الذي يحتاج إلى أدلة فوصوله الصين وبناؤه سداً هناك. وبعد أن يبحث الممرات إلى الصين، يناقش ما يسميه دراسة السلالات البشرية بالإقليم، ويسأل: هل هناك قبائل متوحشة بالفعل؟ يقول في الجواب أن الأقاليم المجاورة لمنغوليا (حيث سور الصين العظيم) أراض صحراوية كان أهلها يغيرون على الصين وسهولها الخضراء فبنى ملوك الصين هذا السور، واسم التتر كان يطلق على المغول وهم تلك القبائل التي تسكن صحراء جوبي.

وينقل قول بعض المؤرخين أن ملك الصين استعان بالإسكندر في بناء سد على واد الترك (المغول). ويذكر ابن خرداذبة أن السد الذي بناه هو السد الذي ذكره القرآن، ويقول الكاتب أنه بعيد عن الصواب.

ثم يناقش الكاتب قضية السد، فيقول إن سور الصين مبني من الطوب والحجارة، وسد ذي القرنين من المعدن.

وسور الصين يمتد آلاف الكيلومترات، وسد ذي القرنين كان لسد ثغرة أو فتحة... ثم إن الإسكندر مات قبل أن يوضع حجر واحد في سور الصين.

ثم يخلص إلى تقرير أن الإسكندر لم يبن السد المعدني، ولم يتجه غرباً، ولم يكن صالحاً، فالإسكندر ليس هو ذا القرنين.

ثم يبتدئ الكاتب في بحث الاحتمال الثاني وهو أن ذا القرنين هو: شمر بن عمر بن إفريقيش الحميري. ويناقش هذا القول في ضوء الأسئلة نفسها: هل مكن الله له في الأرض؟ هل سلك طريقاً نحو مغرب الشمس؟ هل كان رحيماً؟ ما معالم مسلكه نحو المشرق؟ هل بنى سداً؟ وهل تنطبق مواصفات السد مع ما في القرآن؟

الفصل الثالث:

والمبحث الأول منه مع السؤال الأول: هل مكّن الله للحميري في الأرض؟ ثم نقل بعض المعلومات عن الدولة الحميرية.

وقال إن كثيراً من المؤرخين يميلون إلى تحديد العصر الحميري ببداية سنة ١١٥ ق.م. وواكب ذلك انتقال عاصمة السبأيين إلى ريدان (ظفار)... والحميريون فرع من السبأيين. ولقبوا بأذواء جمع ذو، وكبيرهم ذو ريدان... وكان للسبأيين فضل في نقل التجارة إلى مصر والشام .. وجمع الثروات وشيدوا القصور..

فلما خبا مجدهم تسلم الراية منهم أبناء ظفار وهم من حمير وحمير من السبأيين.. وتختلف دولة حمير عن دولة سبأ بأنها دولة فاتحة. ويعتبر ذو نواس نهاية دولة حمير التي أفل نجمها سنة ٥٥٠ م، وبذلك تكون حكمت ٦٤٠ سنة.

ثم استعرض ملوك حمير في قوائم تاريخية، كل ملك وكم حكم وما حكم. ثم يقول: لعله من المسلم أنه ليس في تاريخ الأمم أعقد من تاريخ اليمن. يقول ابن خلدون: وفي أنساب التابعة تخليط واختلاف.. وقد ذكر تُبّع في القرآن ﴿أهم خير أم قوم تُبّع...﴾

وتحكي الروايات أن تُبّع رجل من حمير سار بالجيوش حتى وصل الحيرة وأتى سمرقند (سميت باسمه) وأنه هو شمر.

ثم يرد الكاتب بأن هذا من خيال الإخباريين من أمثال وهب بن منبه (يمني) وأن زعم الإخباريين أنه ملك الأرض لا أساس له. ثم يدلل على عدم غزوه فارس بما يلي: حُكْم شمر المذكور مزامن لحكم امرئ القيس ملك الحيرة الذي كان عاملاً لملك الفرس وكان باسمه يحكم كل بادية الشام حتى الخليج وجنوب العراق والحجاز والجزيرة. ثم يصف الكاتب الطريق من مكة إلى البصرة محطة محطة، ولا داعي.

وبعد طول تفصيل في طرق التجارة والبحوث الجغرافية التاريخية وصل إلى نتيجة: لم يصل شمر الحميري إلى مشرق الشمس. وأن الله لم يمكن شمر بالصورة التي ذكرها القرآن.

والعرب أيضاً لم يغزو بلاد الروم (أي جهة الغرب). وأن العرب لم يفعلوا ذلك ولم يكن لهم عز إلاّ بالإسلام كما قال الكاتب بحق. ثم يشرح مناخ اليمن وجغرافيتها وأمطارها ومساحتها وحدودها وجيولوجيتها وأنها سميت اليمن الخضراء واليمن السعيدة **(Arabia Felix)** (كما عند اليونان) ثم

تكلم عن ثروات اليمن وما حباها الله. ثم سد اليمن التاريخي، وهل هو سد ذي القرنين؟ ويقول إن السد على عظمة هندسته وبنائه من الحجارة وليس من المعادن كما ذكر القرآن.

وفي مبحث مستقل أعاد موضوع السد من جديد سائلاً هل كان بناء السد من الحديد؟ والجواب واضح لأن الآثار ما زالت ماثلة وأنه سد حجري، لكن الكاتب كتب صفحات في هذه النقطة بالذات. ثم استعرض سدود اليمن بلا داعي فيما أرى.

ثم في مبحث ثان سأل السؤال التالي: هل شيد السد في مضيق جبلي؟ والجواب نعم. وفي مبحث ثالث سأل عمن قام ببناء هذا السد... وأن الحميري المقصود لم يبنه. ثم يسأل هل كانت وظيفة السد وقف غزو القبائل المتوحشة؟ ويجيب بأن وظيفته حجز مياه الأمطار... واستشهد بنصوص تاريخية.

ثم ختم هذا الفصل بتقرير أن قورش ليس من حمير، فقال: من كل ما سبق (وهو كثير) يمكن التوصل إلى الآتي: ملوك حمير لم يقم أحد منهم برحلة إلى مغرب الشمس. ولم يبلغ واحد منهم مشرق الشمس. ولم يبن أحدهم سداً في وجه يأجوج ومأجوج، ولم يكن السد من المعادن. ولم تنطبق مواصفات ذي القرنين القرآني على واحد من ملوك حمير.

وبهذا ينتقل إلى الاحتمال الثالث: أنه قورش.

الفصل الرابع: الاحتمال الثالث: قورش الإخميني.

ويستغرق هذا الفصل أقل من ستين صفحة من ص٢٢٥-ص٢٨٢. يبتدئ الفصل بسؤال من هو قورش؟ وهل مكن الله له في الأرض؟

ويجيب بأن العالم الشرقي كان مقسماً بين ميديا وبابل إلى أن جاء قورش فبرز الإخمينيون قوة ثالثة ورثت القوتين وحكمت العالم بأسره. وينقل عن أبي الكلام أن قورش هو الذي تطلع إليه الناس لينقذهم في القرن ٦ ق.م. فانتصر على اليونان وبلغ مغرب الشمس، والعين الحمئة، وبلغ مطلع الشمس، وأدب يأجوج ومأجوج وبنى السد. وقد خلده شعبه بتمثال فوق رأسه تاج له قرنان تشبهاً بالرعاة الذين التفوا حوله في بداية ظهوره.

ويقول هيرودوت (المؤرخ اليوناني) إن قورش أصبح أعظم ملوك عصره ثم يذكر حكاية أقرب إلى الأساطير عن الطفل (قورش) الذي أراد جده الملك قتله حتى لا ينافسه، وكيف نجا... وكيف

عاد إلى أبيه قمبيز. وبعد موت قمبيز خلف قورش الذي وحد فارس وثار على الميديين (جده لأمه منهم).

وفي المبحث الأول سأل: هل مكن الله لقورش؟ وينقل عن أبي الكلام أزاد في الجواب ربطه بين التمكين ليوسف ولذي القرنين وأنه تمكين غير عادي. ومن مظاهر التمكين ثورته على الميديين، وتوحيده لفارس. والقضاء على الدولة الليدية، والانتصار على الجيش الكلداني، والاستيلاء على آسيا وامتد ملكه إلى البحر المتوسط واقترب من أبواب مصر. ووصل ملكه من بحر قزوين إلى بحيرة آرال. والوثائق. يقول المؤلف ترجح أنه بنى السد.

المبحث الثاني: هل قام قورش برحلة نحو مغرب الشمس؟ والجواب، يقول الكاتب، نعم. حيث وصل ليديا، تركيا حاليا. التقى جيش ليديا وقورش في طبرية، ولم تحسم المعركة، وحل الشتاء، فسرح ملك ليديا الجند، فتبعهم قورش إلى مغرب الشمس واستولى على ليديا، وكان رحيما مع الملوك المهزومين، وقد توقف عند بحر ايجة (خليج أزمير)، حيث يصب نهر جديس وهو ذو مياه عكرة محملة بالطين البركاني والتراب الأحمر من هضبة الأناضول. فتلك هي العين الحمئة.

المبحث الثالث: دراسات جغرافية بشرية في القصص القرآني. يطلق على الإقليم الذي وصله قورش عند العين الحمئة (أيونية) وهو الإقليم الغربي من آسيا الصغرى المطل على الدردنيل وبحر أيجة، وهناك جزر هي معبر اليونانيين منذ بدء تاريخهم، ويسكن في تلك المناطق أقوام ذات شجاعة وبأس...

يقول أفلاطون: "لقد انتشرنا نحن اليونان على شواطئ البحر الأبيض كما تنتشر الضفادع على ضفاف الغدير".

الفصل الخامس: أخلاق قورش هل تنطبق على صفات العبد الصالح؟

سقطت ليديا ومدنها في يد قورش، فعفا عن المغلوبين المظلومين، ويقول المؤرخون إن قورش كان ملكاً يتصف بالعقل والحزم والرأفة والعدل... بل إنهم يعدونه أول من أرسى الأسس الأخلاقية في العالم القديم، وأرسى أسلوبا في معاملة الممالك المغلوبة... ويرون كذلك أنه واحد من بين شخصين أو ثلاثة ظلت أسماؤهم حية في التاريخ، وأثنى عليه كثيراً أنبياء بنى إسرائيل.

ومما صنعه قورش لليهود (ولذلك سألوا عنه): أصدر نداء في السنة الأولى لملكه يسمح لهم (بعد سبعين سنة)، بالرجوع إلى أرضهم، وإعادة بناء الهيكل، وأعطاهم مالاً وكان دانيال في بلاط قورش (سفر دانيال).

وينقل عن أبي الكلام أنه وجد في العهد القديم، ويصدقه الكاتب، أي بتحققه، فيقول: وتحققت رؤيا دانيال التي شاهد فيها أن الكبش ذا القرنين ينطح بقرنيه في الغرب والشرق والجنوب، أي يحوز انتصارات باهرة في الجهات الثلاث...

ثم اتجه قورش إلى الشرق بعد فتح ليديا. وقد كانت تعيش هناك قبائل صحراوية. وفصل في فتوحه في أقاليم فارس، ويبدو أن قورش لم يعبر جبال هندوكوش وإنما انعطف جنوبا إلى بلوشستان لتأديب القبائل على حدود فارس.

ويتحدث عن مناخات الأقاليم وأمطارها والأجناس البشرية في رحلة مطلع الشمس. ويصف الإقليم الذي وصله في رحلة مطلع الشمس بأنه من أقاليم الجفاف المطلق منذ خمسة آلاف سنة... فلم يكن على وجه الأرض نبات.

ينتهي الطريق الذي يسلكه قورش إلى منطقة جبلية وعرة تمثل حائطا جبليا يحول دون وصول القبائل الهمجية باستثناء ثغرة (مضيق جبلي) كان الغزاة يعبرونها... فسدها قورش (منطقة داغستان الآن) (داغ: جبل).

ثم اتجه إلى بابل للاستيلاء عليها ففعل، ودخل قورش فقبل يدي الإله (مردوك !!). وحيا بشوع الثاني الملك قورش بعد انتصاره كمنقذ لليهود. سيقودهم إلى فلسطين ويعيد يهوه إلى معبده في القدس... وفعلا حصل. ثم فصل في الأقاليم القوقازية حتى نهر قورش.

الفصل السادس: السلالات البشرية الهمجية في عصر ذي القرنين.

هذا فصل يتكون من ست عشرة صفحة. يقول فيه أن القرآن أطلق على هؤلاء اسم: يأجوج ومأجوج. يقول الكاتب إن هذا مأخوذ من أجيج النار، والمغول والتتار هم المقصودون بهذا الاسم. يقول الكاتب وبعد عهد جنكيز حل اسم مغول محل التتر. وقد انتشر المغول في الأرض عدة مرات على فترات، الانتشارالأول منها كان سنة ٥٠٠٠ ق.م. والثاني يبدأ سنة ١٥٠٠-١٠٠٠ ق.م. والثالث حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م، والرابع كما في حساب أزاد سنة ٥٠٠ ق.م.

والخامس إغارتهم على الصين حيث بنى سور الصين ليصدهم، والسادس قضاؤهم على الدولة الرومانية في القرن الرابع ميلادية. وكان الدور الأخير هجوم جنكيز على الحضارة الإسلامية من منغوليا. فهذه القبائل مفسدون في الأرض...

وكانت هذه القبائل زمن قورش (القرن السادس ق.م.) تسكن المنحدرات الشمالية والجنوبية لسلاسل الجبال القوقازية، وذكر من القبائل القوقازية (إبزاخ، بزادوغ، شابسوغ...) وكان اعتصامهم بذرى جبال القوقاز مدعاة لاحتفاظهم بسلالاتهم. وقد جرح قورش في مطاردة هذه القبائل بعد أن أتم السد ثم مات.

ثم يتحدث عن سد ذي القرنين الذي سد الثغرة في جبال القوقاز ويحول دون عبور قبائل المغول.

ثم فرق الكاتب بين سدين، باب الأبواب قرب دربند، وسد مضيق داريال الذي ينطبق على ما جاء في القرآن.

ويكتفي الكاتب الذي عودنا على التطويل بسطر وحيد يقول: فالسد جسم حديدي رهيب استغرق إنشاؤه عشر سنوات... موجود فعلاً في فتحة داريال بجبال القوقاز التي كانت تغير منها القبائل المتوحشة على جنوب القوقاز وشرق البحر الأسود، وغرب بحر قزوين.

الفَصل السّابع: التحضر البشري في عهد ذي القرنين.

هل كانت فارس على درجة من التحضر والتقدم بما يوفر لها الخبرة الهندسية لتشييد السدود والأعمال العمرانية؟ يجيب عن هذا في هذا الفصل الذي استغرق ست عشرة صفحة، كسابقه تماماً.

يقول: لفارس حضارتها الخاصة بلا شك. ولم تقتبس فارس من مصر. وإنما نقلوا من بابل. لقد امتاز الفرس بفن البناء والتصميم الهندسي وبقايا هذا موجودة في برسوبوليس... وأماكن أخرى.

وتحت عنوان دراسات سكانية يتحدث عن العمالة في قصة ذي القرنين، وعن القوة البشرية وعدد السكان، ويدخل في تقديرات وحسابات تخرج عن الموضوع، فيقدر عدد العمال بمئة ألف...

ثم يتكلم عن المواد الخام التي شيد منها سد ذي القرنين. فيتحدث عن وجود الحديد بكميات ضخمة في أذربيجان (باكو مدينة صناعة الصلب الآن) أما أرمينية فغنية بالنحاس... والفحم والأخشاب (هناك شركة سيمنس الآن لاستخراج النحاس في أرمينية). ثم يتحدث عن الثروة الحيوانية اللازمة للنقل والجر، (نقل المعادن اللازمة).

ويتحدث عن الأمن الغذائي اللازم لتشييد السد. ويقول: إن الجغرافيا التاريخية تقول أنه وجدت قوارير مملوءة بالحبوب، وكانت أرمينيا مستودع غلال كبير، والسمك يكثر في بحيراتها، وأوديتها مزدحمة بالأشجار المثمرة... أي أن الأمن الغذائي كان مكفولاً.

ثم يعود ليطرح من جديد: سد كورش التاريخي هل هو الذي ذكر في القرآن؟ ولكنه يطرح جديداً في هذه المعالجة إذ يتكلم عن انحسار بحر قزوين عن أقدام جبال القوقاز، فعاد التدفق البشري بعد ١٠٠٠ سنة.

ثم ترك الموضوع ليتحدث عن الحكم العربي الإسلامي لهذه المنطقة، ثم انتقل إلى ثورة الإمام شامل الداغستاني، وأفاعيل الروس بالمسلمين. وختم الفصل بقوله: التغييرات الطبيعية لم تنل من السد شيئاً... غير أن جسم الجبال الصخري تآكل... وجسم السد الحديدي النحاسي ظل شامخاً حتى الآن لا يستطيع أحد أن يظهره أو ينقبه...!!

الفصل الثامن:

بلا عنوان تركه الكاتب ويقع هذا الفصل الختامي في أربع عشرة صفحة من ص٣١٩- ص٣٣٣. يقول في هذا الفصل: عقيدة الإسلام في يسرها وبساطتها تتلخص في أن لهذا الكون إلهاً واحداً لا شريك له، له القوة المطلقة، والإرادة... وأنه شاء للبشر الإصلاح منذ هبط آدم حيث أرسل الرسل وآخرهم محمد عليهم السلام. والأديان رفعت مكانة الإنسان، والرسالة الإسلامية هي خاتمتها، وقد زود الرسل بالمعجزات، ومعجزة محمد القرآن...

وأعاد الكاتب مسائل سورة الكهف التي سألها العرب (أو ملقنوهم) ونزل الوحي بإجابة السماء.

والقرآن بإخباره عن ذي القرنين كان معجزاً، وقد أبان معالم شخصيته. (وذكر من المراجع التي تكلمت عن شخصيته: د. محمد يوسف موسي: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه ص٩٨-ص١٢٩. د. التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن ص١٩٦؛ ص٢٦٠؛ ص٤٢١. عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه: ص٤٨؛ ص٢٨٨؛ ص٣٤٩. ومحمود زهران: قصص من القرآن ص٢١٩؛ ص٢٢٣. وأبو الكلام أزاد: ويسألونك عن ذي القرنين ص٢٣٨، ص٢٤٢).

لقد قال القرآن عنه إنه مُمكَّن له من الله، وأنه عبد صالح طيب، اجتمعت له قوة العقل والجسم والإقدام. وقال عنه هيرودوت أنه كان ملكاً كريماً يبذل العدل للمظلومين... وقال عنه التاريخ انه عفا عن كل الملوك الذين هزمهم في ميديا وليديا... وشهد العهد القديم بعدل قورش ورحمته. وقال عنه زينوفن: "كان ملكاً عاقلاً رحيماً... اجتمعت فيه مع نبل الملوك فضائل الحكماء...

همته تفوق عظمته، وجوده يغلب جلالته، خدمة الإنسانية شعاره، وبذل العدل للمظلومين ديدنه... حل فيه محل الكبر والعجب: التواضع والسماحة...".

ثم تحت عنوان: منهج القرآن في معالجة قصة ذي القرنين قال: كل ما ورد في القرآن من قصص لا يحيد عن الحق والموضوعية والشمولية وعدم التفاصيل فالقرآن بما يطويه... وما يتركه من فجوات ينفرد بمنهجه القصصي (قارن بسفر دانيال).

ثم أعاد في الصفحات الأخيرة من كتابه نفي أن يكون ذو القرنين هو الإسكندر أو الملك اليمني... وأنه إن كان وقع خطأ فعلى عاتق المفسرين ولا دخل للقرآن به.

والقرآن لم يحدد شخصه وإنما حدد مواصفاته وترك للبحوث والكشوف أن تسفر عنه.

وبناء على معطيات القرآن والتاريخ... فإن رأي أبي الكلام أنه قورش هو الصحيح والكلام الذي ينطبق.

وأما الحدث فكثيراً ما يعرض في القرآن مجرداً عن الزمان والمكان... وأما الحركة في القصة القرآنية فقد جاءت في قصة ذي القرنين مقرونة بالقوة والاندفاع نحو مغرب الشمس حيث لا حدود إلاّ البحر، والزحف نحو مطلع الشمس، والاتجاه صوب الشمال، وبناء السد... حيث صهرت المعادن... وهذه الحركة في معناها الشامل نمط فريد ملأ القصة بالحياة وبعث في الأحداث نبضات الموعظة الحسنة...

وكانت المواقف المختلفة متفاعلة والسياق ديناميكيا والوصف غاية في الدقة والإعجاز.

وأما الحوار فرسم معالم شخصية ذي القرنين وعبر عن خواطره النفسية لقد اختار اللقطات الموحية... وجاء الحوار باعثاً للحياة والحركة في الحدث... مظهراً للمغزى موديا للغرض كاشفاً عن الشخصية.

إنه القرآن الذي أبدع الله فيه من فنون القول ما أعجز أهل البيان عن معارضته وأودع فيه من بليغ المعاني وروعة الإشارات العلمية والعقلية ما لم ولن تبلغ إليه عقول البشر... فكان الوحي نفس المعجزة... والمعجزة نفس الوحي...

تلك قصة ذي القرنين في رؤية جغرافية وتحليل تاريخي بسيط .

والكتاب عموماً جيد، علمي، فيه جهد وساحة معرفية رحبة، يصدر عنها الكاتب والكتاب، وإنك لتحترم الجهد حتى لو اختلفت مع الكاتب في الرأي، فكيف إذا كنت متفقا؟

الكتاب الخامس:

التحليل النفسي للأنبياء

تأليف: عبد الله كمال

ط١، القاهرة، دار الخيَّال، ١٩٩٦م التحليل النفسي للأنبياء / عبد الله كمال.

في الكتاب والكاتب مشكلة عميقة في الصميم، أن الكاتب يكتب عن الأنبيـاء، كمـا يكتب عن المشاهير من الفنانين والسياسيين والشخصيات الاجتماعية. ومن هنا يأتي كلامه كأنـه التجديف، أو قريب منه، والتطاول أو نحو منه. ويكتب بلا تمكن في الثقافة الدينية، وهنا مشكلة عامة أن الدين –كما يظن كثير من الكاتبين– حقل مشاع، يمكن لأي كاتب أن يكتب في ميدانه، وأن يدخل حقله، وأن يعمل عقله كما يشاء، وأن يستخدم اللغة في الذي يكتب كمـا يهـوى ويريد.

ولقد نشر كتابه فصولاً في مجلة روزاليوسف... مصوَّراً...!! وهذا وحده كفيل بأن تفهم الجو الذي تنشر فيه قصص الأنبياء... مجلة روزاليوسف، وما أدراك ما روزاليوسف...؟! صاحبتها والمجلة ومنهجها.

وما مثل روزاليوسف وقصص الأنبياء، إلاّ كعربي في ألمانيا كان يملك ملهى ليلياً ويـدير فيه أسطوانات عليها قراءة لمصطفى إسماعيل، القارئ المشهور رحمه الله، حنيناً منه للعروبة والثقافة الإسلامية...

ثم كيف ينشر قصصه مع الصور؟! هنا مشكلة ثانية. والكاتب وتعبيراته مشكلة ثالثـة. استمع إليه ماذا يقول عن إبراهيم –على سبيل المثال–: إبراهيم تجاوز نقطة الخـوف إلى طلـب البرهان من السماء لإقناعه بما تبلغه به...!!

وأظن أن الاعتراض واضح، فكيف يتشكك إبراهيم في وحي ربه حتى يحتاج إلى برهان ؟ ومن أين له –أي الكاتب– هذا، وما مصدره، ومن أين أخذه وكيف سولت له نفـسه مثلـه؟! ولندخل في جو الكتاب بلغته وعبارته بدقة –إن شاء الله–.

الكاتب هو الصحفي المشهور في روزاليوسف، ولذلك جاء أسلوبه متـأثراً بالأسـلوب الصحفي، من الإثارة، والعبارة المشكلة، وتعمد التهويل... والعناوين الجذابة، كأنما يضع عنوانـاً لفيلم سينما أو مسرحية، تعالى الله، وحاشا لكلامه.

تعريف عام:

يقع الكتاب في خمس وسبعين ومئة صفحة. كان يسمي كل مبحث: التحليل... وبعـد الإهداء وبعد الشكر الذي شكر فيه من ضمن من شكر ناشر الكتاب الصباغ الذي وافق علـى نشر هذا الكتاب المعبأ بالألغام (يا لطيف).

ثم عنون لمقدمته بعنوان: مقدمة لم يكتبها نبي (نحن مطمئنون من هذه لكنا نخاف أن تكون من كتابة شيطان، والله يستر).

ومن ضمن ما قال في المقدمة: الإيمان ضد الجهل، الإيمان معرفة والشرك جهل، والوثنية تخلف، والتطرف كالشرك جهل. والغلو... عقل مقفول، والاعتدال مرونة وتفتح.

ثم قال: إن الله لم يضع حداً أمام المعرفة وخلق الكون بلا حدود (!). ولو أن الله أراد أن يضع حدوداً على العقل، لاختصر الكون في الكرة الأرضية.

وقال إن كتابه محاولة لجعل العقل مفتوحاً لمحاربة الجهل دون مساس بالعقيدة. وأنه مع الإيمان ضد الجهل وضد الكفر، ومع المعرفة.

إنه محاولة لقراءة قصص الأنبياء بطريقة مختلفة، دون أي تشكيك. يقول وحين نشر قسم من الكتاب في روزاليوسف "بالصورة" (هكذا قال) صدم البعض ولم تعجب غيرهم هذه الطريقة الخاصة... وتساءل البعض عن الهدف من المنهج هذا... واتهم البعض الكاتب بالمروق. ثم ذكر بعض ما وصله.

إن النبوة ليست حالة شخص وإله ورسالة... (لاحظ التعبير)، لكنها أيضاً أمم وجغرافيا وثورات... وهي ليست أساطير (شكراً...!)، ومجرد روايات دينية (!)، إنها أبعد من ذلك بكثير.

لذا فإن النبوة يجب أن تدرس من كافة الجوانب "بما فيها النفسي"، والتحليل النفسي لا يعني على الإطلاق أن هناك توصيفاً مرضياً لحالة نفسية... وليس هبوطاً بهم إلى مصاف البشر الذين لا يوحى إليهم.

إنه يغوص في قصص الأنبياء، ويغوص في نفسية شعوبهم، من آمن ومن كفر، ثم عرّف النبوة بأنها اصطفاء من الله وهي تعبير عن الأنباء والأعلام ومن مهمة الكتاب أن يرصد السمات السيكولوجية لحالة النبوة من القرآن والعهدين.

من بين الأحوال حالة اليتم التي لازمت كل الأنبياء (!) (إبراهيم يُتم إجباري) هكذا يقول... ولذا فإن اليتيم يربى بعيداً عن الرعاية الطبيعية المفترضة... واليتم يؤدي إلى وجود أب بديل أو أم بديلة...

هذه الحالة الاجتماعية لفتت نظر (آيزنشتات) فكتب مقاله المعروف: "فقد أحد الأبوين والعبقرية"، وحين فحص حالات ٦٩٩ فرداً مشهوراً اتضح أن تكرار اليتم بينهم كبير. لقد كان ربع هؤلاء العباقرة فقدوا أحد والديهم عند عمر الخامسة عشرة ونصفهم فقدوا أحد والديهم عند

عمر الثلاثين (!)، و ١٠% منهم فقد والديهم معاً قبل سن الحادية والعشرين. وأثبت أن نسبة اليتم بين العباقرة تزيد بدرجة كبيرة على نسبتها في المجموعات الأخرى. والمجموعة الوحيدة القريبة من العباقرة في حالة اليتم هي مجموعة الجانحين... ثم نقل عن كتاب العبقرية والقيادة والإبداع لسايمنتن، قريباً من السابق.

ثم تكلم عن حالة تلقي الوحي، التي قال عنها في حق نبينا: "إن حالة الصدمة والخوف التي تصل إلى حد الرعب وعدم التصديق بشكل مباشر وسريع كما حدث في قصة النبي محمد... وقد تكون الحالة خاصة جداً بل ومنتظرة كما في قصة إبراهيم، الذي تجاوز نقطة الخوف إلى طلب البرهان من السماء لإقناعه بما تبلغه به (!)".

وفي حالة النبي موسى ، كانت لحظة تلقي الوحي فرصة كي يعوض ما يعانيه من قصور خاص في طريقة النطق...

النبي بشر خاص، ليس أرضياً بشكل كامل، وليس سماوياً... تتنازعه صفتان، وهو يصل إلى حالة التوازن عن طريق السماء. لقد تجلى التنازع في حالة المسيح (!).

إن حالة القلق والتوتر والخوف من الجديد، هي الحالة التي تعتري الشعوب عند تلقي الرسالة. وهذه الحالات يمكن أن نطبق عليها ما قاله فرويد حين قال: "أن القلق هو رد فعل حالة خطر، والقلق الموضوعي هو رد فعل على خطر خارجي معروف... والقلق العصابي هو رد فعل لخطر غريزي داخلي".

لقد كان كل من نمروذ، وأبو لهب، ويهوذا، وفرعون، يعانون من قلق موضوعي في قصص إبراهيم ومحمد وعيسى وموسى (عليهم السلام).

ولكن السؤال: هل يتحول النبي إلى الغرور (لاحظ السؤال والجلافة) بسبب المساندة السماوية له بالمعجزات؟ وهل تجعل منه المعجزة شخصاً آخر يتناسى الرسالة ويتعامل مع حالة الإعجاز بشكل دائم؟ الإجابة هي بالنفي بالطبع. (إذاً فلم كان السؤال؟ ولم الطريقة الاستفزازية؟). ثم أشار إلى ارتباط قصص إبراهيم وموسى بالمعجزات.

ثم أشار إلى أننا نواجه حالة هجرة في قصص الأنبياء. ويقول أن مما ساعد الأنبياء على الهجرة حالة البداوة (!). وأن النبي المهاجر كان يجد من يستمع له لأن قومه لم يسمحوا ليتيم أن يشكل وضعاً، ويصف أتباع النبي في المهجر بأنهم أتباع رأوا النبي بعد أن تلقى الرسالة، ولم يروه قبلها.

ويبين أن من بين أسباب رفض المجتمع للرسالة، أنها تتعارض مع المصالح السائدة والنبوة والزعامة السياسية نوع من القيادة. والقيادة حالة نفسية... والقيادة لها شخصيات تكون دائماً في وضع متميز، أو ما يسميه علماء النفس: "النمط العبقري".

ثم بين لماذا اختار الكاتب هذه الشخصيات التي اختارها، فقال إنه اختارهم إما من أولي العزم، أو أن القصة فيها أبعاد نفسية... وقال أن يوسف من عائلة توصف بـ "التفكك الأسري" (كلام سمج، وتحميل للمواقف أكثر مما تحتمل والبحث عن ألفاظ تستفز قصداً، إن الأولاد ظلوا مرتبطين بأبيهم حتى آخر حدث) ثم زعم أن قصة نوح تبدأ بخيانة زوجية (معاذ الله، وقاتل الله هكذا كتّاب يخبطون في تيه وعمه ويهرفون بما لا يعرفون. إنما هي خيانة الكفر والعقيدة لا خيانة الشرف والعرض).

ووصف حالة النبي قبل الرسالة بالانطواء (ليس الانطواء بل هو الترفع عن الإسفاف والهبوط، وقد كان النبي قبل النبوة محط ثقة واحترام كبيرين).

واختار أن يفتتح بقابيل (التسمية من عنده) لأنه النموذج النفسي الأول الذي ورثنا جميعاً عديداً من خصائصه... (!) (إنما تتكلم عن نفسك ولم نوكلك...).

وفي عنوان صحفي عنون للقصة الأولى:

١- الملعون: قابيل القاتل في سبيل امرأة !

وينقل عن القرطبي حكاية التوائم، وأن حواء كانت تلد في كل بطن غلاماً وفتاة إلاّ (شيسا) (لعلها شيثاً والكاتب يكتب باللهجة المصرية) الذي ولدته منفرداً، وجملة ما حملت به حواء عشرون بطناً، أولهم كان قابيل وتوأمته "إقليما" وآخرهم عبد المغيث، وتوأمته أم المغيث، ومن بعده هابيل، وتوأمته "لبودا ". وإن كان من حق كل الذكور أن يتزوجوا من أي أنثى إلاّ توأمتهم... فإنها لا تحل له. (هذه التفصيلات والأسماء لم تشر القصة القرآنية إلى شيء منها لكن مشكلة الكاتب أنه يعتبر هذه التفصيلات كلها من القصة القرآنية طالما أنها وردت في مرجع إسلامي. أو كما قال هو: حتى لو وردت في الكتابين السابقين).

ويواصل الكاتب والصحفي نقل الخبر وإن قابيل انبهر بتوأمته، وأصر على أن يتزوجها معلناً حالة التمرد على أحكام السماء. إنها أولى الملاحظات النفسية في الدنيا، وأول حادثة عصيان

بعد عصيان آدم، وأول إعجاب بجمال امرأة، وأول قتال على أنثى. (هو بنى كل هذه الأوليات على الإسرائيليات، والقرآن لم يذكر هذا لا من قريب ولا من بعيد...).

قال آدم لابنه أن زواجه من "إقليما" يخالف أمر الله لكن قابيل لم يصدق. (تلك من الإسرائيليات، وهذه من أين؟ يبدو أنها من مفتريات عبد الله...) وقال لأبيه: إنك تحب هابيل أكثر مني وتريد أن تخصه بإقليما... فطلب آدم أن يقربا قرباناً. (وهذا لا معنى له فالحرام حرام ولا يحتاج إلى إقناع وتدليل). من الواضح أن قابيل كان يعيش حالة انبهار تام بجمال توأمته. (من الواضح للأستاذ وليس واضحاً لنا). إننا هنا أمام عديد من الصفات النفسية... إننا هنا أمام حالة عشق. وشعور بالاضطهاد لدى قابيل... ويتساءل الكاتب عن مشاعر "لبودا" التي يرفضها قابيل لأنها دميمة؟ هل أحبطت؟ هل أصيبت بالاكتئاب؟

(دخلنا في عالم القصة والرواية والسينما والمسرح وخرجنا من عالم القصة القرآنية وعبرها ودروسها وتكثيفها القضايا).

ثم يذكر أن هناك تفسيراً آخر هو أن قابيل ولد في الجنة، وكما قال "تركي علي الربيعو" في كتابه "المقدس والعنف والجنس في الميثولوجيا الإسلامية"، يبني تحليله على أن قابيل ابن الجنة، فبين قابيل وهابيل مسافة تاريخية وحضارية. (هل لاحظت حكاية الميثولوجيا الإسلامية؟ أرأيت الخلط المتعمد بين القصة القرآنية ونقل المسلمين عن أساطير التوراة؟ وهل أدركنا خطر الإسرائيليات؟).

الأول مقدس والثاني مدنس وعليه أن يبحث عن كفارة تطهره. الأول ينتمي لمبدأ اللذة والثاني إلى مبدأ الواقع. (هذا السيد خلط الأوراق فمن الأول ومن الثاني؟ ومن المقدس ومن المدنس؟ ومن أين جاءنا بحكاية المقدس والمدنس؟ وما مبدأ اللذة والواقع؟ وأين رائحة الثقافة الإسلامية مجرد الرائحة في هذه الكتابات؟).

الأول (الذي هو ابن الجنة على رأي السيد الربيعو ومن نقل عنه) لا يعرف حدوداً ولا مسافات بين عقله وغرائزه ولا انفصاماً في شخصه، لأن العمليات العقلية عنده متحدة في أنا اللذة، والكون بالنسبة له مسرح لتحقيق رغائبه... بينما الثاني ينتمي لمبدأ الواقع الذي يقوم على نكران الغرائز، أو لنقل تنظيمها وفق قواعد...

إن التحول من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع كان قد مثل أكبر صدمة حضارية لقابيل، الذي طرد لأنه أول زان بمحرم ونفي، والنفي وجه آخر للقتل. (من أين هذه الجواهر العظيمة والتحف العلمية والفنية...!؟ وهكذا فليكن المنهج العلمي، وإلا فلا...؟!!).

هذا هو رأي "الربيعو" الذي يقوم على أساس أن قابيل ابن الجنة وهابيل ابن الأرض، وهو ما لا يوجد دليل واضح عليه (يقول كمال).

هناك تفسير آخر أو لنقل تحليل نفسي مواز... يقول "يونج" في كتابه "الإله اليهودي، بحث في علاقة الدين بعلم النفس": "أن هابيل كان يعجل بالهروب من الأرض من عالم الأشرار... بينما قابيل كان عليه أن يبقى في الأرض ويذوق لعنة تقدميته (!) في العالم البعيد عن السماء من جهة، وضعفه الأخلاقي من جهة". إن قابيل كان نسخة من الشيطان... بينما أخوه أقرب لأبيه.

كان قابيل صدامياً، عنيفاً، يضمر الشر، ويؤمن بأن ما يريده هو الذي سيتحقق. ثم يقول الكاتب: أن قابيل الذي كان يريد أن يصبح الفائز الأول بامرأة جميلة. أصبح المخالف الأول، وأول قاتل، وأول خاسر وأول نادم وورثنا نحن أبناؤه هذه الصفات (كرر هذه الحكاية مرات وهي جزء من التصور الكنسي وعقيدة حمل الخطيئة عن الآخرين لا علاقة لها بالدين... كل الدين).

لقد تحول قابيل إلى معذب دائم، وهي الحالة التي عبر عنها حديث مسلم: "لا تقتل نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل".

وينقل عن عبد السلام بدوي في كتابه "من أنباء الرسل" نفيه أن يكون قد حمل جثة أخيه أربعين سنة كما يقول هواة الحشو، ويقول كمال: أنهم بحاجة لتحليل نفسي.

ثم يعرج على دفن أخيه تقليداً للغراب، فيقول بأن هذا يدل على ضعف الذكاء وقلة الحيلة وهي أمور طبيعية عند الإنسان الأول... (!).

ذلك الندم لم يمنع قابيل من أن يتزوج أخته التي دفع مهرها من دماء أخيه إنه أسير إقليما أكثر من استسلامه لمشاعر الألم.

ويقول المفسرون (يقول المؤلف): إن قابيل صحب "إقليما" هارباً إلى جنوب الجزيرة العربية خزيا ورعباً...

ثم يفسر الكاتب لنا أن الهرب كان محاولة منه لبناء مجتمع جديد يبعد عن المكان الذي تورط فيه، كان هروباً من عذاب الضمير، ومحاولة للاستمتاع بإقليما بعيداً عن أي شيء يذكره بالتاريخ القديم، وهكذا كان المهاجر الأول.

ثم يكمل لنا الكاتب القصة عن الثعلبي في قصصه (قصص الأنبياء) فيقول: كان لقابيل ولد أعمى، ولهذا الأعمى ولد، فقال ابن الأعمى لأبيه: هذا أبوك قابيل يا أبي فرمى الأعمى أباه قابيل بسهم فقتله. فقال له ابنه: إنه أبوك... كيف تقتله؟ فلطمه الأعمى فمات. فقال الأعمى: ويل لي... قتلت أبي برميتي وقتلت ولدي بلطمتي. (لمَ لمْ يكملها الكاتب بالمرة فيقول أن الأعمى انتحر أو قتلته زوجته وفرت مع من تحب؟ حكاية من حكايات ألف ليلة وما عادت قصة قرآنية) إنه مجتمع القتل... ثم الندم...

هكذا يختم الكاتب تحليله. ومشكلة في منهجه ومنطلقه أنه اعتبر الروايات قصة قرآنية، وهذا خطأ في صلب المنهج، يجعل المنطلق خاطئاً، فيجعل الوصول إلى نتائج سليمة مستحيلاً...

٢- المجنون: النبي نوح ضد اليأس:

هذا هو عنوان القصة الثانية، ولا ندري بعد من المجنون.

يدخل الكاتب إلى موضوعه بقوله: إن أهم ما في قصة نوح أنه تمتع طوال عمره بصفة المقاومة والصمود، ثم فسر المقاومة بأنها مقاومة اليأس والسخرية والحرب المضادة، وقاوم الرغبة في أن يترك الدعوة إلى أي شيء آخر رغم أن السماء لم تمنحه المعجزة المنقذة إلاّ في نهاية عمره. (من أين له أن نوحاً كان يحدث نفسه بترك الدعوة ؟! ولاحظ أيضاً أنه لا يعبر عن الله إلاّ بكلمة السماء. وثالثاً كم كان تعبيره جافياً بقوله : لم تمنحه. ولعله رابعاً يقصد أن معجزته إنما هي الطوفان، وليس كذلك). ثم يبين لنا لمَ سمي نوحاً فيقول لأنه كان معذباً، وأنه سمي نوحاً لكثرة نواحه.

وبقي متمسكاً بالرسالة "سبعة قرون". (الله يقول: ﴿ألف سنة إلاّ خمسين عاماً﴾ فمن أين للمؤلف حسبته هذه؟!). وربما بسبب هذا العذاب الطويل أصبح نوح واحداً من الأنبياء الخمسة الذين تصفهم السماء (!!) بأنهم أولو العزم.

ثم يرى أن المعجزة هي الطوفان. (وليس كذلك بل الطوفان هو العقاب الذي يأتي بعد التكذيب ولسنا ندري ما المعجزة التي خص بها وإن كنا نؤمن بضرورة وجودها ...).

ويرى أن قصة حياة نوح كانت معجزة. ثم يبين لنا اسمه على النقل عن الإسرائيليات وأنه ابن لأول ابن .. الخ. ويقول أنه آدم الثاني: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾. وهو واحد من الأنبياء

الذين أثنى عليهم القرآن بوضوح، وبشكل متكرر. وحسب الترتيب التاريخي فإن نوحاً كان أول نبي اتهم بالجنون، ووصف بالكذب... (إذاً هو كان يقصد نوحاً من هذا العنوان القبيح: الجنون).

ثم يقول: إن أتباعه هم الفقراء، فالنبوة كانت دائماً نصير الفقراء ومرتبطة دائماً بالمستضعفين... وفي المقابل كانت تعاني مقاومة حادة من السلطة... ويقول: إن طول رسالة نوح كان وسيلة للتنقية، فزوجته ارتدت عن الدين لأنها لم تستطع المقاومة (معلومة لا سند لها ولا دليل).

وأخيراً يطلب نوح العقاب لقومه... وربما كان هذا الطلب تعبيراً عن شهوة الانتقام.. (التعبيرات جافية ولا لزوم لها). إذاً (يقول) أخيراً طلب نوح العقاب. طلب المعجزة (المعجزة غير العقاب) وبدأ نوح وأبناؤه الثلاثة (؟!) بناء قارب النجاة ...

وأبت السماء إلاّ أن تتأخر أربعين سنة أخرى، بقيت خلالها السفينة في الصحراء (هذه مشكلة من يكتبون بلا تمكن أنهم يخلطون القصص القرآني بقصص التوراة بالحكايات الشعبية ثم يقولون هذا هو قصص القرآن، ويستنتجون ويستخرجون القواعد ويطلقون الأحكام على هذا النسيج المختلط، صنيع عجيب).

وامتلأت السفينة بالقاذورات والأوساخ، وينقل عن القرطبي أن زوجته سألته: أما ينصرك ربك؟ قال: نعم، قالت: متى؟ قال: إذا فار التنور فخرجت إلى قومها تؤكد جنونه، يقول القرطبي: فهذه خيانتها. (ليقل القرطبي وليقل نقلة الإسرائيليات ما شاءوا فإن هذا ليس بمجال من قصص الكتاب المعجز).

٣- المتمرد: النبي إبراهيم رسول الشك !!

(هكذا العنوان تماماً، والإثارة واضحة، على الطريقة الصحفية، لكن غير اللائق ولا المقبول أن يتكلم عن الأنبياء كما يتكلم عن الفنانين... أو نجوم الكرة).

يبتدئ الفصل أو هذا المبحث أو هذه القصة هو لم يسم بقوله: النبوة تمرد. محاولة دائمة لهدم جدران معبد الواقع.

مشروع ديني للثورة المدعومة من السماء، والنبي زعيم متمرد لا يخشى الفشل. (مشكلة المصطلحات والتعبيرات مشكلة، فما يليق في حديث صحفي في موضوعات عادية لا يليق بالأنبياء أعظم الخلق على الإطلاق).

الزعيم في تمرده ينتظر حتى يصبح لديه عدد ملائم من الأتباع. والنبي غير الزعيم في تمرده، فهو يبدأ التنفيذ في نفس الوقت الذي يكون فيه قد بدأ مرحلة التبشير. أي نبي كان يصطدم بدولة... أو بكيان سياسي له مصالح تسانده (أفكار...) وأي نبي كان دائماً يعلن التحدي السافر للدولة يحاربها بالضرب في عمق المشروع الذي تستند إليه... بنسف دينها الذي بني عليه النظام السياسي.

ثم يطبق هذه النظرية على محمد والمسيح وموسى وابراهيم عليهم السلام ويقول أن إبراهيم كان هو الذي وضع بذور التمرد الأول... كان قبله متمردون لكنه مثل ذروة التحدي... من هنا كانت الأهمية النفسية والسياسية لإبراهيم. وأنه تمتع بشخصية ذات منزلة عند الأديان الثلاثة. وينقل عن سيد القمني في كتابه "النبي ابراهيم والتاريخ المجهول": "أنه عند العبريين أهم الآباء للشعب العبري، وعند المسيحيين الجد الأعلى ليسوع وعند المسلمين خليل الله أبو الأنبياء...".

هذا الأب كان تمرده في الأساس ضد الأب.

وينقل عن العقاد قوله: "عند قدماء السريان يسمون إبرام حبيب الله أو حبيب الأب". ثم أشار إلى التردد في أن آزر أبوه أو عمه... (الذي نراه أنه أبوه ونقف عند نص القرآن، ولا نتركه لروايات إسرائيلية لا تصح ونقلة ضعفة...).

ثم ينقل عن القرطبي حكاية أن إبراهيم سأل أمه من ربي؟ قالت أبوك... الخ. (وهي قصة لا تصح لا من قريب ولا من بعيد).

وقد أشار الكاتب إلى ذلك فقال: لا أصل ديني لهذه الرواية، فلا تصلح للاستخدام في التحليل النفسي (ما شاء الله...!).

وينقل عن القمني من جديد أن الدارس للأساطير وتاريخ الأديان يلحظ المبالغة، (ولاحظ جمع الأساطير مع تاريخ الأديان عند القمني، وكان قميناً أن يفك ارتباطهما).

ثم يذكر الكاتب بعض هذه الإضافات والتهويلات كرواية أن الأصنام نكست رؤوسها مذ حملت به أمه، وأن ملك زمانه رأى رؤيا... الخ...

ثم يذكر قصة ميلاد إبراهيم (من خارج القصص القرآني كما يقول هو) ثم ينقل عن العقاد أن التوحيد لم يكن مجهولاً قبل إبراهيم، ويشير إلى أخناتون ودعوته... التي كانت دعوة من القصر، ولكن دعوة إبراهيم من خارج القصر...

ثم يخوض الكاتب بنا بحراً من الشك إذ يزعم أن إبراهيم في بداية قصته أو بداية حياته وضع في حالة تحفز عقلي، وإطار من التوتر، وحالة الشك. الشك بمعناه الأخلاقي والسيكولوجي (يعني ماذا ؟) الشك الكامل الشامل.

ثم ينقل عن يوسف ميخائيل أسعد في كتابه: "سيكولوجية الشك" قوله: "إن وجود اختيارات متعددة في الموقف الواحد، يجعل كل واحد من تلك الاختيارات موضع شك..."، ثم يطبق الكاتب هذا القول على مشهد الكواكب والقمر والشمس من قصة إبراهيم في سورة الأنعام... (وهو بالقطع –في رأينا وفي الحق فيما نعتقد– كان مشهداً من الحجاج مع قومه بدليل: ﴿وتلك حجتنا...﴾ وغير ذلك، أما الكاتب فيدعم بها نظريته في الشك).

وتأمل هذا التعليق الذي هو في منتهى التغليق من الكاتب: "ولكنه قبل أن يصل الى حالة التفكير في الإيمان بالشمس، يرفض القمر ويعلن حالة التعب النفسي، والإجهاد الذهني... قائلاً: ﴿لئن لم يهدني ربي...﴾... الخ. إن الذي يقوله الكاتب يزيد الذي نقول وينقض الذي يقول، فالصورة في ذهن إبراهيم واضحة، وهو يعرف ربه، لكنه يمشي إلى آخر الشوط مع هؤلاء المتبلدين.

وتأمل كذلك هذه العبارة يعلق بها الكاتب على القصة السابقة: "كان ذلك نوعاً من المواقف التي هي في منتصف الطريق... لا تؤمن بما سبق، ولكنها لم تصل إلى الحقيقة بعد. إلا انها وصلت إلى نتيجة مريحة ولو مؤقتة: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً...﴾. هذه المرحلة التي مر بها رسول الشك (!!) تؤكد أن الله لم يمنح وحيه لمن تجمدت عقولهم، وقبل الوحي يأتي الإلهام الداخلي.

وينقل عن ميخائيل أسعد في كتابه: "سيكولوجية الإلهام" قوله: "هناك من يبررون الإلهام بأنه حالة غيبية مرتبطة بقوة روحية، وهناك من يفسره بتأثير الكائنات على الحواس... ومن يفسره بأنه حالة سيكولوجية، ويذكر ميخائيل مواصفات الإلهام: فهو أولاً خروج عن الخطوط التي رسمت من قبل ثم ثانياً هو جوهرة يستحيل صنعها عن قصد".

ويستنتج الكاتب من قول قوم إبراهيم: ﴿سمعنا فتى...﴾ أن عمره كان ست عشرة سنة.

ثم يبني على موقف منقول لا أساس له ولا أصول، وذلك حوار بين جبريل وإبراهيم عليهما السلام وقت بعث إبراهيم في المنام... أن ابراهيم قال: إذا بعثت إلى نمرود فإنه سيقتلني،

قال جبريل: فإن الله يحييك، فقال: أرني كيف تحيي الموتى؟ لم يقف صامتا أمـــام الـــدليل الإنفـــي الشفوي... وقرر أن يرى عمليا... (هذا ليس من التحليل النفسي ولكنه من التجهيل والتضليل).

ثم يقول في تعليقه على ذبح الطاووس والحمامة والغراب والديك وبعثها: "هذا عذابـــه وانطفأت نيران شكه". (هذا كله إسقاط مما في نفس الكاتب لا يجوز أن يسقط على أنبيـــاء الله).

يقول: وصل الخليل إلى اليقين...

ثم ذكر لنا بعض ما جاء في صحائف إبراهيم.

ثم يعلق على مشهد إبراهيم مع أبيه: أن الأب طرح بديل العنف ضد الحـــوار... لقـــد أدرك النبي وهو ينشر أفكار الثورة الدينية السياسية أن الخوف يمنع الناس من الإيمان... فقـــدم بديل الخوف... الأمن.

وانتبه لهذا التسريب لما يريد الكاتب من تجديف وتخريب: "التحدي الثوري من صفات السياسيين، والسياسة تعرف الكذب، وقد لجأ إبراهيم إلى الحيلة: ﴿إني سقيم﴾. (هـــل وصـــلت الدسيسة؟ يريد أن يقول أن إبراهيم كذب وحاشاه...).

وعقدت المحاكمة الفكرية الهامة في تاريخ البشرية... واحدة من أبرز محـــاكم التفتـــيش (يعلق على تحطيم الأصنام ومساءلة قومه).

ثم يركز على الجدال والسخرية في شخصية إبراهيم عليه السلام. ويقول مصورا المحاكمة ومعلقا: انتهت المناقشة مع الملك وصدر الحكم: ﴿حرقوه...﴾، إننا هنا مرة أخرى أمام واحدة من العلامات النفسية... ألا وهي الوصول إلى مأزق حاد بانتظار معجزة كي تضع حلا للموقف.

وخرج إبراهيم منتصرا ليس فقط على نمروذ ولكن على محاولات الشك في نفـــسه (لا أدري من أين اخترع حكاية الشك هذه، وهل كان هو في نفس إبراهيم؟ هنا يُعمل الكاتب خياله القصصي أو الصحفي، ويملأ فراغات في عقله ونفسه كما تهوى نفسه لا كما هو الوقع الذي يليق بنبي هو خليل الله).

ثم يصف هجرته، وانفصاله عن ابن أخيه لوط كي لا يختلفا علـــى مـــساحات الرعـــي والزراعة (من أين هذه أيضا، أهي النظرية الماركسية في تفسير التاريخ حتى تاريخ الأنبيـــاء، وأن العلاقات الاقتصادية هي أساس كل شيء...).

ثم يتوقف عند حديث البخاري أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات (حديث الشفاعة) ويثير الكاتب عدة دلالات كما يسميها، فيقول: الكذب ضد النبوة وحين يكذب نـــبي يعطـــل ســـير

الرسالة، والكذب لم يحدث سوى مرتين (يقول): الأولى مع يونس والثانية في قصة ابراهيم. (لسنا نسلم بشيء من هذا، أما ما زعم عن يونس فليس فيه أي اثر وأما ما نسب إلى إبراهيم، فأهون أن نقول أخطأ راوٍ من أن نقول: كذب ابراهيم).

ويقرن في الكذبة الثالثة (بزعمه) بين ما في الحديث وما في التوراة. وينقل عن سيد القمني في كتابه: "إبراهيم: التاريخ المجهول" قوله: "أن هذه الواقعة فيها لغط كثير هدفها إلقاء اللوم على أنبياء الشرق، وأن إبراهيم نزل مصر دون أمر من الله، متناسين أن سارة كانت في السبعين..." الخ.

وينقل عن صابر طليحة في كتابه "التاريخ اليهودي العام": "أن هذا النص التوراتي يعني دون مواربة أن الفرعون تزوج المرأة والرواية تعني أن النبي — حاشا — كان جبانا... الخ).

وينقل عن عبد السلام بدوي تتمة القصة من الحديث (أن سارة توجهت إلى الملك بأمر زوجها، وأنها دعت الله فيبست يد فرعون... الخ، من أنباء الرسل).

ثم يشير إلى قصة إسماعيل ومعجزة حفظه من الله وأن المعجزة كانت علاجا لعقدة الذنب (!) التي نشأت عندما تلقى إبراهيم الوحي. (يفترض الكاتب القصة أو يقترضها من الإسرائيليات ثم يبني عليها ما شاء من التحليلات والتهويلات).

ثم يلخص قصة ابراهيم في أنه رسول الشك والجهل والتمرد والتحدي والقوة: لا يؤمن حتى يحصل على الدليل، عانى من عذاب الطيور !! تعب حتى وصل اليقين أنه النبي السياسي الثائر الباحث دائما عن معجزة !!

٤- المعذب: لوط... نبي بلا أتباع:

يبتدئ الكاتب قصة هذا النبي الكريم، بقوله: "على خلاف أنبياء كثيرين كانت دعوة النبي لوط موجهة أساساً لمحاربة الفجور الجنسي..."

لكنه لم ينجح في إقناع قومه حتى جاء الحل السماوي بنهاية مأساوية ملائمة. ثم يفسر الشذوذ بأنه ناتج عن عقد ومشاكل نفسية —ولكنه لا يفهم كيف يصاب شعب بالشذوذ؟—.

والواقع أن تلك كانت حالة تمرد جماعي على كافة قوانين الطبيعة البشرية. ثم ينقل عن الدكتور عادل المدني قوله: "أن أي نبي لديه صفات (الكاريزما) أي القدرة على التأثير في الآخرين

إيجاباً... لكن هناك بعض الاستثناءات من بعض الصفات، فموسى لم يكن بليغاً، ولوط لم يستطع إقناع قومه". (ليس عن ضعف في موهبته ولكن عن فجور وغلظ في قومه وأمته).

ويقول المدني: "هناك رسول يؤثر بالكلمة، أو بالفعل، أو بالمعجزة وفي قصة لوط كانت المعجزة هي العقاب السماوي". (نكرر أن هذه ليست المعجزة، إنما المعجزة هي الدليل الذي يسوقه النبي لقومه ليؤمنوا، لا العذاب الذي يسوقه الله ليهلكهم).

ثم يسأل الكاتب سؤالاً سمجاً غليظاً وقحاً إذ يقول: "لماذا لم يكن النبي لوط شاذاً مثل قومه؟ ما الذي أنجاه وبناته من مرض الشعب؟ بينما حدث هذا لزوجته؟".

ثم يفسر بأن لوطاً ليس من القوم وإنما هو مهاجر، لكن أحداً (يقول هو) لم يذكر لماذا اختار لوط هؤلاء القوم ليعيش بينهم؟

وينقل تفاصيل عن عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء عن قطعهم الطريق... وحكايات يرويها كان يقول أن سارة أرسلت اليعازر كبير عبيد ابراهيم فشجه أحدهم بحجر وطالبه بأجرة على الشجة !!

ثم ينقل عن الدكتور المدني كيف نجا النبي من فعل قومه فيقول في تفسير ذلك: "إن كل فرد كتب له من قبل الخليقة كيف سيعيش وتم الإعداد له قدرياً...". (ألم ندخل في منطقة الجبرية القدرية ؟!).

وينقل عن المدني في مقابلة تفسيره لمَ لم يتأثر بالقوم... ويقول الكاتب أن الزوجة هي التي سربت أخبار الضيوف (الملائكة).

إن القصة بعد ذلك دخلت مرحلة مختلفة. مرحلة المعجزات. نجت البنتان وهلكت الزوجة. وهلكت سدوم وعمورة (!) لقد كانت المعجزة. المعجزة التي تأتي حين يعجز الأنبياء(!).

٥- الهارب: موسى... النبي الوسيط!

تأمل كيف يبتدئ الكاتب القصة بالإثارة الصحفية: "رفض النبي موسى عرض الله عليه بأن يكون نبياً". هكذا تقول التوراة (ولتقل التوراة ولماذا تقرر أنت في أول حديثك؟) ويتابع: "وبالرغم أن هذا المنطق مرفوض إسلامياً إلاّ أن التوراة ترى أن الله تفاوض مع عبده، إلى أن توصلا لاتفاق في النهاية...".

وينقل عن الدكتور محمد خليفة حسن في كتابه "تاريخ النبوة الإسرائيلية": "أن موسى لم يقبل الدعوة إلاّ بعد أن وقع غضب الرب. تقول التوراة: فحمي غضب الرب على موسى، وقال: أليس هرون اللاوي أخاك أنا أعلم أنه هو يتكلم.. فتكلمه وتضع الكلمات في فمه، وأنا أكون مع فمك ومع فمه، وأنت تكون له إلهاً !!" (تعالى الله عما يقول المجرمون. وينقل هؤلاء الكتبة المأفونون !).

ويواصل النقل عن الدكتور خليفة في معرض حديثه عن الأعراض السيكولوجية للتجربة النبوية (إذا كانت هذه هي مستندات التحليل السيكولوجي فأنعم به وأكرم من تحليل سيكولوجي !؟!).

(ثم أن هذا الخلط المتعمد بين قصة قرآنية ونسيج توراتيّ واه لا أظنه يخلو من مقاصد...).

وينقل عن التوراة كيف رأى النار في العليقة (!) وخاف أن ينظر إلى الله (!). ويبني الأستاذ ومن ينقل عنه التحليل على نقول التوراة ونصوصها وكأنها حقائق واقعة. إنهم أسسوا بنيانهم على شفا جرف هار.

ثم ينتقل الكاتب إلى الرواية القرآنية التي تخلو من أوهام التوراة. (فلمَ البدء من التوراة والاستفاضة مع التوراة ؟).

في القرآن كان النبي يطلب ولا يتفاوض. ثم يفسر كيف جاءت العاهة (ثقل النطق) لموسى.

ثم ينقل عن المحلل النفسي اليهودي فرويد تصوره الذي بناه على أساس أن الدين أسطورة وأن شخصية موسى قد لا تكون حقيقية، يقول الكاتب ومع خلافنا معه إلاّ أنه يجب أن نعرض لنظريته بالتفصيل: أولاً: لتوضيح حجم الخلاف العقدي. وثانيا: لأن فرويد ذو أهمية علمية بالغة. ثالثاً: لأنه الوحيد الذي وضع كتاباً كاملاً عن التحليل النفسي لنبي. في كتابه "موسى والتوحيد". وينقل أقواله... التي منها: الصفات الأسطورية للأبطال. وأن البطل إنسان يقف ضد أبيه وأسرة البطل في الأساطير أسرة نبيلة وأخرى عادية (في حالة موسى واضح) ويرى فرويد أن ديانة موسى جزء من الديانة المصرية.

ويعلق المترجم لفرويد بأنه منطلق أن الدين وضع اجتماعي، وظاهرة التدين المتكررة تجزم بأن الدين موحى به من مصدر خارجي للإنسان، والمصدر الداخلي هو المتلقي...

ويرد الكاتب على فرويد ردوداً جميلة ملخصها أن فرويد بنى نظريته كلها على افتراض ثم يقف الكاتب عند القصة في القرآن... ويعود لفرويد...

ويقول في الختام: إن اليهود اتعبوا الأنبياء، وهكذا عرضنا قصة موسى الذي قبل أنه رفض رسالة الرب والذي وصف في الإسلام بكليم الله، والذي كان يتيماً (من أين ؟) والذي خاف والذي كان مجددا وسريع الغضب، ولم تمنعه إعاقة لسانه من ابلاغ رسالة... كنا نروي قصة نبي الله بمنظور نفسي.

٦- الجميل: يوسف... النبي المدلل !!

يأبى الكاتب إلاّ أن يكون كما هو. مثيراً للغبار. خالطاً، خابطاً فيبتدئ حديثه عن القصة بأنها مما يعشق الناس سماعه في مناسبات التعزية، ولغاية الآن لا مشكلة، لكن استمع إلى تفسيره: تعكس هذه الظاهرة حالة تعامل نفسي مع قصص القرآن، حالة ميل للحديث في الجنس في إطار حلال من خلال الآيات واجترار أحاسيس الإغراء عندما يكرر المقرئون ﴿هيت لك﴾ بالسبع قراءات ضاربين على أوتار الجنس...

ثم يستدرك فيقول لنا: إن هناك قيماً عديدة في حكاية هذا النبي الشاب... وحب الأب لابن ما هي المدخل الحقيقي (!) في حكاية (!) النبي يوسف والزاوية الملائمة لتفسير القصة نفسياً، فيما يعرف في علم النفس بمشكلة (السينريروم) أي التنافس على حب الأب أو الأم. وهذا الذي يجعل الناس يشاركون في القصة لأنهم يعانون من نفس المشكلة والمأساة العائلية اليومية... هذه المشكلة التي تعود إلى قابيل وهابيل...

ثم يدخل في الإسرائيليات، فيعقوب توأم العيص من رفقة... الخ. ثم يفسر هذا الموقف (المشكوك فيه أصلاً) يفسره تفسيراً عائلياً نفسيا...

ثم يتزوج ليا القبيحة. ثم راحيل التي لا تنجب، ثم بلهى، ثم زلفى وكل واحدة وما ولدت. ثم ولدت راحيل يوسف وماتت في ولادة بنيامين (ولا أدري ما الذي يدفعنا للإسرائيليات؟).

ثم يصف كيف دلل يعقوب يوسف !! ثم ينقل عن عادل المدني أن يوسف كان قادراً على صنع علاقة أفضل مع أبيه. ونقل عنه في حوار معه: القاعدة في قصة يوسف هي التنافس بين الأخوة.

ثم يتكلم عن الهجرة القسرية ليوسف، ورفض حب امرأة العزيز كان كما فسر له الدكتور المدني لأسباب دينية.

ومعالجة الكاتب لهذه القصة أضعف المعالجات، فقد بنى معظمها على الإسرائيليات، والمتعلق بالقرآن، وقف فيه عند مشهدين أو نحو ذلك وغالبها حوار مع المدني.

٧- صانع المعجزات: النبي عيسى معاناة الحالة الاجتماعية.

ولد المسيح بدون أب، فآمن المسلمون بأنه ثمرة معجزة ربانية، وقال المسيحيون ابن الله، وقال اليهود الأقاويل... وقد اختار الله له أماً مميزة من أسرة مميزة.

ثم دخل في الإسرائيليات أن أم مريم، رأت طائراً يرعى فرخه فاشتهت الولد... الخ. ثم نقل عن ابن كثير قيام مريم في العبادة حتى تفطرت قدماها... الخ.

ثم نقل عن مالينوفسكي عالم الانتروبولوجيا أن بناء الحضارة يعود إلى عقدة ذنب كبرى. ونقل عن فرويد في كتابه "الحرب والحضارة والحب والموت" الفكرة نفسها.

وفي "موسى والتوحيد" لفرويد قال عن المسيح: أن اليهود يعانون من عقدة ذنب دينية فادحة هي أنهم قتلوا الأب الإله... وكانت النتيجة هي التكفير عن عقدة الذنب بالبحث عن ابن الإله...

ويقول فرويد: أن غرور اليهود واقتناعهم بأنهم الشعب المقرب من الله جعلهم يظنون أنهم على حق...

وينقل عن سيريل بيرت في كتابه "علم النفس الديني" قوله: "الإنسان كأي طفل. يشعر بأنه هبة من أب وأم، هذا الطفل في حياته الأخلاقية مشغول بثالوث هو أبوه وأمه ونفسه... ومن هنا فإن أغلب الديانات القديمة تتركز حول مجموعة ثلاثية من الآلهة وخير مثال على ذلك: أسطورة الأب أوزيريس والأم ايزيس والابن حورس...".

وينقل عن يونج في كتابه "الإله اليهودي": "كان اختيار مريم وعاء طاهر لميلاد (...) المقبل". ويفسر الكاتب كلام يونج بأن مريم تحولت إلى نوع من البشر في نظر الأتباع في معزل عن عامة البشر، بل رفعوها إلى مرتبة الآلهة، ولن يكون ابنها بالتالي واحداً من الناس...

ثم يدخل في القصص القرآني بعد هذه التهويمات النفسية المدخولة... والدخيلة. وحتى فيما يسميه هو قصص قرآني يلجأ فوراً إلى الإسرائيليات فحكاية الملك -بالكسر- الذي يتعقب

المواليد، وابن خالها العابد يوسف النجار، الذي لا يكاد يصدق حملها بلا زواج فيسأل: أيكــون زرع بلا بذر؟ ويذكر اتهام اليهود بأنه حمل من يوسف النجار.

وينقل عن خالد محمد خالد في كتابه "محمد والمسيح – معاً على الطريق": "أن فلسطين أرض تحمل شعباً متعدد القسمات يعاني أهلها حقداً على الغــزاة واليهــود كــانوا ينتظــرون المخلص...".

لقد ظل اليهود ينادونه يا ابن البغية، ولذا كان هو يرد عليهم: يا أبناء الأفاعي، كمــا يقول الدكتور المدني. ثم ذكر الكاتب عن الإنجيل قصة امرأتين: الأولى جاء بها اليهود ليرجموها فقال من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر. والثانية مريم المجدلية تحترف الدعارة وتابت علــى يــد المسيح.

ثم ينقل عن يونج تفسيراته التي قال عنها المؤلف نفسه: أنه يعامل المسيح بنفس الطريقة التي عامله بها اليهود.

٨- الفقير: النبي محمد والأب البديل...

ونحن لا نعد سيرة محمد عليه السلام من القصص القرآني: ونحن بالتالي بين أن لا نتعرض لما قال تحت هذا المبحث أو نوجزه كما فعلنا بسابقاته وإن كنا نختلف في المنهج مع الكاتب.

على كل حال فإنه يركز على الثروة التي افتقدها النبي، وينقل عن الغزالي في فقه السيرة ما يستخدمه هو بقوله: إن النشأة تؤثر في الشخص ولو كان نبياً، ثم يتعرض لمفاسد البيئة، وينتقل إلى الحديث عن أسرة النبي وأنهم كانوا حسب تعبيره أنصاف أنبياء، ويتعرض لقصة فداء عبد الله. ثم ركز على يتم النبي، وينقل عن العقاد في "عبقرية محمد" انبهاره بالجمال كما قال وعن عائــشة عبد الرحمن بنت الشاطئ في كتابها "أم النبي". والأب البديل الذي جعله في العنوان هــو عبــد المطلب، بدل عبد الله. ولقد أطال في موضوع اليتم أكثر من نصف مادة المبحث.

ثم تكلم عن زواجه من خديجة رضي الله عنها، وتلقي الوحي وموقفها...

٩- الألغاز: النبوة والجنون...

هذا هو المبحث في سبع صفحات يفرق فيه بين النبوة والجنون (!) وأن سلاح الــرفض كان دائماً يشرع في وجههم بتهمة الجنون.. وينقل عن العقاد في كتابه "مطلع النور".

ثم سأل لماذا توقفت أو اقتصرت النبوة على الذكور؟ وينقل عن ابن حزم أن هناك نبيات بمعنى تلقي الوحي لا التبليغ. ولا تتوقف الألغاز، فهي تمتد أيضاً إلى الأصول الاجتماعية لكل نبي.

هذه نظرات سريعة في كتاب لا يخلو سطر منه من إشكال، بل إن صاحبه نفسه قال عنه: إنه معبأ بالألغام. وختمه بالألغاز.

وأظن أن من مشكلات الكاتب: الخلفية الثقافية، وهي ذات شقين، فليس الرجل يملك خلفية ثقافية دينية تمكنه من الكتابة في موضوع متخصص. وفي ذات الوقت يملك خلفية غير دينية، وأثرت عليه مهنته فطبعت أسلوبه بحب الإثارة ولو على حساب توقير الأنبياء.

الكتاب السادس:

الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني

تأليف: د. عبد المرضي زكريا

ط١، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ١٩٩٧م

الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني / د. عبد المرضي زكريا

تعريف عام بالكتاب:

يقع الكتاب في خمس وستين صفحة ومائتين، وتمهيد استغرق خمساً وعشرين من الصفحات، ويقع في بابين. كل باب أربعة فصول، وخاتمة في ثماني صفحات.

لغة الكتاب جيدة وهو فني متخصص، فيه جدة وعمق، ليس تكراراً للموجود -وندر الذي لا يعيد إنتاج الموجود-.

كتب مقدمة الكتاب الأستاذ الدكتور سعد دعبيس، الأستاذ بقسم اللغة العربية. ومما جاء في المقدمة قوله: "تكاد القصة تستأثر بالأدب المنثور كله. ومنذ بدأت الإنسانية تصور تاريخها قصصاً شعرياً ملحمياً لدى هوميروس وغيره حتى الآن، والإنسان يلجأ إلى القصة ليصور فيها رؤيته للحياة والموت. وموقفه من أحداث المجتمع وقضايا العالم". ثم ذكر قصصاً كان لها دور حاسم في تاريخ التطور الفكري العالمي؛ ومن ذلك: الحرب والسلام لتولستوي، واميل لجان جاك روسو، والكوميديا الإنسانية لبلزاك، والأخوة الأعداء لدوستويفسكي.

ثم ينتقل إلى الكتاب الذي يقدم له فيبرز من وجوه أهميته أنه محاولة لإنصاف قضية الفن في الإسلام، إذ يرى بعض النقاد أن فن القصص فن أوروبي.

وننتقل إلى مقدمة المؤلف الذي يقول بدوره: "إن الطبيعة الإنسانية شغوفة بالقصص إلى حد كبير، وأن حياة الإنسان على الأرض قد بدأت بقصة. وأن خطوات الإنسان الأولى كانت مصحوبة بالقصة، ويشير إلى أن الأساطير التي عند الشعوب هي التي تولّد عنها ما عرف بعد باسم القصة".

وينقل عن المرحوم عبد الكريم الخطيب قوله في القصص القرآني: "لقد أصبحت الفنون كلها اليوم من وراء القصة".

ونظراً لأهمية القصص فإن القرآن عوّل عليه، ثم يقول إنه في هذا البحث يريد أن يبين إلى أي حد كانت القصة القرآنية محللة للنفس الإنسانية، بكل سماتها وأبعادها كاشفة عن نزعاتها وما يدور في خلجات نفوس أصحابها، ويذكر أخوة يوسف، وفرعون،... الخ.

لقد صوّرت القصة القرآنية واقع الشخصية، كما رسمت واقع الحياة، ولقد اشتمل القصص القرآني على ما لم يشتمل عليه غيره من التشويق، على الرغم من قيامه على الحق المطلق، ومن ثم تعددت أغراض القصة القرآنية، وجاء مغزى القصة ملائماً للهدف العام للقرآن. وهذا الهدف هو إصلاح حياة

الإنسان بكافة جوانبها... وبذلك تكون حياة الإنسان في الكون ذات مغزى، وتستقيم نظرته للحياة وفلسفته في الكون.

إن دراسة الحوار في القصة القرآنية، وبيان طرقه، والوقوف على نماذج حوارية، وتحليل هذه النماذج، وإبراز مهمة الحوار، وأثره النفسي، ثم إبراز أهم الخصائص الفنية التي يتميز بها حوار القصة القرآنية... كل هذا وغيره يمكّن من الوقوف على ما في قصص القرآن من إعجاز...

ودراسة الشخصية وأنماطها ونماذجها المختلفة، ثم أبعاد هذه الشخصيات. وكيفية رسم القرآن لشخصيات قصصه. وارتباط الشخصيات بعناصر القصة الأخرى كالأحداث، والمكان والزمان، كل ذلك يمكّن من الوقوف على طريقة القصص القرآني في رسم الشخصية. كما أن القصة كانت من أقوى الوسائل في الدعوة. كل ذلك جعل الكاتب يكتب في هذا الميدان.

ثم يبين بعد ذلك كيف امتزجت القصة في كتابات عدد من كتّابنا بالإسرائيليات؛ ويمثّل بابن جرير والثعلبي والخازن، وكتب التاريخ: كتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير. وغيرها من كتب الأدب: كنهاية الأرب للنويري... كل ذلك علق به إسرائيليات.

ثم عرج على من كتبوا بأسلوب شيق ونبهوا إلى الإسرائيليات، ومثّل بالرازي. وابن كثير والكشاف للزمخشري، والمنار، والظلال، ونوه بخاصة بالتصوير الفني والفصل القيم الذي تضمنه عن القصة في القرآن.

ثم أشار إلى الدراسات التي خصصت كتباً للقصة القرآنية كجاد المولى، والنجّار. وقطب والسحّار. وبرانق، وعبد الكريم الخطيب في كتابه "القصص القرآني في منطوقه ومفهومه" وقد التزم بالنهج الأدبي التذوقي.

وذكر أطروحة خلف الله "الفن القصصي في القرآن"، وما أثارت من إشكالات. إلاّ أن الدراسات على كثرتها، يقول: "لم تحط بجزئيات البناء في القصة القرآنية، إلاّ أنها تلقي الضوء على بعض جوانب عظمة القرآن".

وقد آن الأوان كما يرى الكاتب لمزيد من الدراسات والبحوث الأدبية والنفسية والاجتماعية التي تلقي بعض الضوء على القصة القرآنية...

ثم يشير إلى الصعوبات التي واجهها أو واجهته، ومنها حجم المادة العلمية التي تضخمت وتنوع المصادر... الخ.

ثم يقول إنه اعتمد عدة مناهج في دراسته منها: التحليلي، ونبه إلى كثرة الاستشهاد وتجنب الإسرائيليات... وقال: "إنها علم لا ينفع وجهل لا يضر". وينوه إلى أنه كان ينبغي أن ينوه من نقلوا هذه الإسرائيليات بتجريحها أو تضعيفها.

ثم يذكر أنه قسّم الدراسة إلى بابين: الأول: طرق الحوار في قصص القرآن. والفصل الأول من هذا الباب جعله للحوار بين اللغة والاصطلاح. والفصل الثاني للمغزى الديني للحوار في القصة القرآنية. والثالث: الحوار وأثره النفسي في القصة القرآنية، والرابع: السمات الفنية للحوار في قصص القرآن.

والباب الثاني بعنوان: أنماط الشخصية في القصة القرآنية. والفصل الأول: الأحداث، والثاني: رسم الشخصية، والثالث: النموذج بين الرجل والمرأة، والرابع: بين الخير والشر.

ثم يشكر الدكتور يوسف نوفل، والدكتور سعد دعبيس، والدكتور علي الحديدي. ثم في التمهيد يتكلم عن القصة في اللغة والاصطلاح؛ وفي اللغة ينقل عن ابن منظور في اللسان: قصصت الشيء: تتبعت أثره، شيئاً بعد شيء، ومنه: ﴿وقالت لأخته قصّيه﴾. والقصة: الخبر، وتقصص الخبر تتبعه، وجمع بين المعنيين فقال: "القاص يقص القصص لاتباعه خبراً بعد خبر".

أما مفهوم القصة عند أهل الأدب فهي ذلك الفن الذي يتميز عن غيره من الفنون الأدبية الأخرى بجملة من السمات والمميزات والخصائص، والشروط التي وضعها النقاد لهذا الفن الأدبي.

ومما تجدر الإشارة إليه أن القرآن قد تحدث عن الأخبار التي وقعت للأقوام والأمم السابقة في الماضي وسماها قصصاً.

وتأسيساً على ما تقدم نلحظ أن الاستعمال القرآني لكلمة القصة يتفق تمام الاتفاق والاشتقاق اللغوي لأصل الكلمة، والذي لا يعدو أن يكون تتبع الأثر، ورواية الخبر، ويختلف الأصل الاشتقاقي اللغوي لكلمة القصة عن المفهوم الاصطلاحي المتعارف عليه في الآداب الإنسانية.

وإن من التعسف أن نساوي بين المصطلحين؛ وإذا كان القرآن قد استخدم المصطلح اللغوي للقصة فلا يجوز التسوية بين مصطلح القصة القرآنية، والقصة الفنية.

ثم انتقل بعد التمهيد إلى الباب الأول وعنوانه كما مر: (الحوار في قصص القرآن الكريم) ويستغرق مائة صفحة بالتمام. والفصل الأول من هذا الباب بعنوان: (الحوار بين اللغة والاصطلاح)؛ واستغرق أربع عشرة صفحة.

ونبه في بداية الفصل إلى أن كلمة الحوار ترتبط بكلمتين أخريين هما: الجدل والمناقشة. ومنه انتقل إلى ما قال صاحب اللسان في مادة حور؛ فقال: الحوْر: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، وحار إلى

الشيء وعنه حوراً ومحاراً ومحارة وحُوراً: رجع عنه وإليه. ويقال: الباطل في حور أي في رجوع. ويقال: كلمته فما رجع إلي حواراً ومحاورة وحويراً ومحورة أي جواباً. وأحار عليه جوابه: ردّه. واستحاره: استنطقه، والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

أما الزمخشري في أساس البلاغة فقال: "حاورته: راجعته الكلام. وهو حسن الحوار. وكلمته فما ردّ علي محوراً، وما أحار جواباً". ومنه قول الأخطل:

هلا ربعت فتسأل الأطلالا   ولقد سألت فما أحرن سؤالا

ومن المجاز: قلقت محاوره: إذا اضطربت أحواله، ويقال: وما يعيش فلان بأحور؛ أي بعقل صاف، ومنه قول عروة بن الورد:

وما أنس من شيء فلا أنس قولها   لجارتها ما إن يعيش بأحورا

ثم ينقل عن الدكتور شوقي ضيف في كتابه: (تجديد النحو)، معنى الجملة الحوارية فيقول: "هي الجملة المجاب بها في حوار قصصي، أو المردود بها على استفهام في كلام متصل ويكثر ذلك في القصص، وفي أساليبه عامة أثناء الحوار وهو واضح في سورة يوسف.

ثم يخلص ويلخص أن مادة حور في المعاجم تدور حول الرجوع والمراودة في الكلام. ومن ثم فإن المحاورة هي المراجعة في الكلام.

ثم ينتقل إلى معنى الجدل، ومعناه عند ابن منظور: شدة الفتل، ومنه: جدلت الحبل: فتلته فتلاً محكماً، والجدل: الصرْع -طعنه فجدله أو فانجدل: أي سقط-. والجدل: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، يقال: جادلت الرجل فجدلته أي غلبته، ورجل جدل أي قوي في الخصومة، وفي الحديث: ما أوتي الجدل قوم إلاّ ضلوا.

والجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والجدال المحمود ما كان لنصرة الحق، والمذموم ما كان طلب مغالبة الحق لنصرة الباطل. وسورة المجادلة سورة قرآنية. ثم خلص من جولة المعاجم في هذه المادة إلى أن المعاني تدور حول اثنين: الشدة والقوة، واللدد في الخصومة، ويمكن دمجهما في معنى واحد كما يقول.

ويتباين هذا المدلول -بما فيه من الشدة- عن لفظ الحوار بما تعنيه هذه الكلمة من مراجعة الكلام بين طرفين، مراجعة قائمة على اللين واللطف لا على القسوة والعنف؛ فهي أخذ وعطاء ينتهي بقناعة أحد الطرفين وتسليمه بأحكام القضية المتحاور فيها.

والفرق بين الحوار والجدل يكمن في طبيعة الموقف، كما يكمن في الغاية. من الحوار أو الجدال.

ثم يذكر مواطن هذه المادة في القرآن الكريم أي مادة الجدال. ويلاحظ أن معظم الآيات مكية.

ثم ينتقل لكلمة المناقشة، وتستعمل مرادفة للحوار، يقول: هو استعمال خاطئ. وفي اللسان: ناقشه الحساب: استقصاه. وذكر الحديث: من نوقش الحساب عذب. وأصل المناقشة من نقش الشوكة إذا استخرجها.

ثم نقل عن الدكتور عبد الحليم حفني في كتابه "أسلوب المحاورة في القرآن" قوله في تخطئة استعمال المناقشة بمعنى المحاورة: "يستخدمها الكتّاب والمثقفون مرادفة للمحاورة، وهذا الخطأ نشأ من الشيوع، وما أكثر ما تجني العامية على الفصحى...".

ثم ينتقل إلى مفهوم الحوار في الحياة ومجالاتها من سياسية وأدبية، ويبدأ بمفهوم الحوار في الأدب، فيقول: "إن المبدع يصب أفكاره، ويجسد رؤيته عن طريق اللغة، فاللغة هي القالب الذي يصب فيه المبدع أفكاره".

ومعلوم أن لغة الشعر غير لغة النثر، ومن ثم تختلف لغة الحوار في الشعر عنها في الفن القصصي والمسرحي، فأهداف الحوار متباينة في كل.

وكلما كان الحوار مركزاً وجيزاً كان متميزاً؛ "لأن ألد أعداء الحوار الإطالة"؛ كما يقول توفيق الحكيم في "فن الأدب".

ويقول الدكتور يوسف نوفل في كتابه "تطور لغة الحوار في المسرح المصري المعاصر": "إن الإطالة في الحوار قد تكون محمودة، إن كانت لملحظ، وقد لا تكون محمودة...".

ثم يشير إلى الفروق بين الحوار في لغة المسرح والرواية. وينقل عن الدكتور غنيمي هلال في "النقد الأدبي الحديث": "الجملة في الحوار المسرحي وضعت أصلاً لتقال لا لتقرأ، لكن الحوار في القصة صنع ليقرأ لا ليقال".

ثم يعاود النقل عن توفيق الحكيم بأن الحوار تقع عليه كل الأعباء، وهو يلون المواقف بألوانها المناسبة، والحوار لا تقف مهمته عند رسم الحوادث وتلوين المواقف، بل هو الذي يعول عليه في تكوين الشخصيات.

ثم نقل عن الدكتور يوسف نوفل حول دور الحوار في المسرحية إذ قال: "ويسهم الحوار في بناء الشخصية الأساسية والثانوية، ورسمها والتدرج بها، وليس للمسرحية إلاّ الحوار المرتبط بالفعل أو الحدث، سواء أكان هذا الحوار تقريراً مباشراً أم حواراً يستعين بالصورة الفنية، وهنا نجد الحوار –بوجه عام– مكوناً للسمات النفسية والاجتماعية للشخصية... وللحوار وظيفة فنية تتصل بالتنبؤ الفني، والتكهن بلحظة التنوير، بما يقدمه من رموز وتفسير وتعليل وربط وتحليل في بناء درامي متماسك...".

وانتقل من هذا إلى الحوار في المجال السياسي؛ حيث قال: إنه لا يبالغ إن قال إن هذه الكلمة غدت الأكثر شيوعاً في المجال السياسي، فتطالعنا الصحف بالعناوين الرئيسية وكلها تدور حول الحوار من مثل: (الرئيس يدعو إلى الحوار، لا بديل لحل المشكلات إلاّ بالحوار. دعوة أطراف النزاع إلى الحوار... الخ).

ثم ينقل عن إلياس مرقص قوله: "كان حلم الفلسفة الأول: تأسيس العلاقات بين البشر لا على القوة، كما كان واقع الحال --ولا يزال– بل على العقل كما يتطلب المثال...".

ثم يشير إلى أن منطق الدول هو منطق القوة، لكن الإنسانية بعد حربين تأخذ منحى رشديا وحضاريا أي حواريا.

ويشير من بعد إلى أن أمتنا وما تعانيه من تفكك وضعف يعزى ذلك كله إلى افتقاد الأمة منطق الحوار، وهو منطق عقلي رشيد.

ثم ينقل عن الدكتور أحمد كمال أبو المجد في كتاب (حوار لا مواجهة): "ويبقى في النهاية أن الحوار حول الدين وقضاياه أجدر وأولى من كل حوار. بالتزام عفة اللسان والقلم والحرص على صون الكرامة، وتقديم حسن الظن بالنية والقصد".

وينقل قول الدكتور رشدي فكّار: "الإسلام هو أول الأديان التي دعت إلى الحوار الحضاري بين أصحاب الديانات والحضارات الأخرى...".

ونبه فكّار إلى "ضرورة أن تكون غاية الحوار هي التسامي بالإنسان ورفعة النفس، وإذا لم يكن كذلك فسوف تتحول الأرض إلى غابة كبيرة...".

ثم انتقل إلى الحوار في مجال التربية وعلم النفس.

وينقل عن باولو فرايري صاحب كتاب (تعليم المقهورين) مصطلح (التعليم الحواري) وهي نظرية من نظريات التعليم، وينقل عن مترجم الكتاب يوسف نور عوض: "إن هذا المصطلح: هو ضرب من الوعي بالواقع الإنساني، فالإنسان عندما يتبين واقعه يدخل في علاقة حوارية مع نفسه وزملائه والعالم الذي يعيش فيه".

يقول فرايري: "إن منهج طرح المشكلات يعتبر الحوار أساساً من أجل فهم العالم ويساعد منهج التعليم الحواري على الإبداع والفهم والتبصر بحقائق الوجود، وبالتالي فإنه يحقق إنسانية الإنسان".

الفصل الثاني: الحوار ومغزاه الديني في القصة القرآنية:

ويقع في تسع عشرة صفحة، من ص٤٥-ص٦٤. "يؤدي الحوار دورا في خلق الحركة في القصة القرآنية، وتلوينها بصور متعددة"؛ يقول المؤلف في مقدمة هذا الفصل...

ولا ريب أنه عن طريق الحوار تتبادل الشخصيات المواقف، وتنمو الأحداث في القصة ويحتدم الصراع.

ومما يتميز به الحوار في القصة القرآنية، تلك الذاتية التي يحتفظ بها الحوار لشخصيات المتحاورين والمتجادلين في القصة... وتعقب القصة...

إن الهدف العام للقرآن هو إصلاح الحياة بكامل جوانبها من سياسية وفكرية ونفسية واجتماعية... إصلاحا تتحقق فيه كرامة الإنسان وإنسانيته -كما أرادها الله- ووفقا لهذا يعرف الإنسان ماهيته في الوجود، وفلسفته في الكون، وغايته في الحياة.

ثم يستعرض الكاتب عدة مشاهد من سورة الأعراف، من قصة نوح، وهود، وصالح، وشعيب عليهم السلام.

ويلتفت إلى التقاء المشاهد الحوارية في اتفاق الأنبياء وتلاقيهم في دعوتهم لأقوامهم إلى التوحيد. ويظهر من عبارة ﴿يا قوم...﴾ الحرص على كسب مشاعر من يخاطبونهم، وفيها ما يدل على اللين والتعطف والتلطف، وما يستميل القلوب، ثم يعرض الحوار القضية الأساسية:﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...﴾ ويحاول النبي من خلال المحاورة أن يستفيد من كل المؤثرات النفسية، وأن يدخل إلى نفوس قومه من جميع الزوايا، ثم يعلن كل نبي في صراحة أن ما يعبده القوم من دون الله عدو له... كما قال أبو الأنبياء.

ومن هنا يدخل في مشهد من سورة الشعراء لإبراهيم مع قومه. ثم يحلل هذا المشهد فيقول: "إنه تدرج مع قومه وعلمهم عن طريق الحوار، والحوار منطق يعتمد على العقل، وعن طريقه يصل الإنسان إلى الحقيقة".

ويلاحظ أن الحوار يتسم بالعرض السريع المباشر، وعلى الرغم من قصر الموقف فإنه يحتوي على كل أجزاء الموقف الحواري.

ثم يستشهد بالحوار في قصة آدم في سورة الحجر والبقرة؛ ففي الحجر إعلان عن المادة التي سيخلق منها آدم، بينما لا نجد ذكرا لهذه المادة في سورة البقرة. ثم هذه الإرهاصات في سورة البقرة في الملأ الأعلى بظهور خلق جديد هو آدم، وموقف الملائكة...

ثم لفت النظر إلى التعبير بـ (خالق، جاعل) فالفعل خلق يدل على إيجاد بعد عدم، أما جعل ففيه التصيير والانتقال.

ففي الحجر إشارة إلى الخلق، وفي البقرة إشارة إلى الجعل لأن الأمر يتعلق بالخلافة وهو أمر متجدد ومتواصل...

ثم ذكر السور التي ذكرت قصة آدم وهي السبع المعروفة: البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص...

ثم يلحظ الكاتب التكرار اللفظي في خمسة مواضع، وفي موضعين: الحجر وص. وللتكرار دلالته التأكيدية في إظهار التقدير لآدم.

وبالمناسبة فإن الكاتب لا يرى نظرية نفي التكرار، بل يتبنى إثبات التكرار لما فيه من ملاحظ، وسيرد معنا عدد من مواقفه المفيدة هذا.

ثم أشار إلى أن التنوع سمة من سمات الحوار في القصة القرآنية جاء وفق مقتضى الحال.

ويتوقف قليلاً عند الحوار في سورة البقرة وكيف جاء مفصلاً -نسبيا-، ويشير إلى الحوار بين الله والملائكة، فالطرفان المتحاوران: هما الله والملائكة، ومكان الحوار: الملأ الأعلى. وقضية الحوار: هي تكريم آدم، والحوار يتضمن كثيرا من الحكم والدلالات والتوجيهات، ومنها ما ينقله عن النجار: "إن الله قد يحجب سر حكمته عن أقرب خلقه إليه. وإن عناية الله إن توجهت إلى يسير القدْر غدا جليله كما حصل مع الإنسان".

ثم أشار إلى الخلاف في الاستفهام: (أتجعل؟ وكيف علّم الملائكة؟) وقال: "من الخير أن نحترم صمت القرآن في مثل هذه القضايا".

ثم ينقد من بين من ينقل عنهم كلاماً للأستاذ توفيق محمد سبع في كتابه (قيم حضارية في القرآن). حيث يقول السبع: "يُستشف من روح الحوار أن الملائكة كانوا حراصاً على أن ينتزعوا لأنفسهم حق الخلافة، فهم بهذا الاعتبار عنصر منافس للإنسان... ظل الملائكة متشبثين برأيهم متمسكين باستخلافهم..."، ثم يعلل قول الأستاذ سبع بأنه متأثر بالتفاسير المتأثرة بالإسرائيليات، فهو يصف الملائكة بصفات بعيدة عن صفاتهم وطبيعتهم...

ثم يشير إلى الذي سماه صاحب التصوير -الفجوات-، دون أن يذكره، ويشير إلى الغرض نفسه الذي نبه إليه التصوير، أن ثمة فراغات في ثنايا الحوار، وأن المتتبع يستطيع أن يسد تلك الفراغات بعقله وخياله.

ثم ينتقل إلى مشهد حواري من قصة موسى من سورة طه والشعراء... وكيف أُرسل موسى وهارون إلى فرعون، في المشهدين. وينبه الكاتب إلى أنه بالرغم من اتفاق موضوع الحوار إلاّ أنه يتبع أسلوباً حوارياً مختلفاً عن الأساليب الحوارية السابقة، إنه يتبع أسلوب التلقين لعبده موسى وهارون. ونقل عن كتاب سيكولوجية القصة في القرآن للدكتور التهامي قوله: "وقد جمع هذا الأسلوب من الدعوة الإلهية بين الترغيب والاستمالة، وبين التهديد والتحذير...". فحبكة الحوار واضحة أشد الوضوح في المشهدين السابقين من قصة موسى.

وينقل عن عبد الكريم الخطيب قوله إن "القصص القرآني يؤدي بكلماته ما لا يؤديه التشخيص والتجسيم والتمثيل...".

ولقد فضح اخوة يوسف ما جاء على ألسنتهم وهم يدبرون المؤامرة للانتقام من يوسف. وفضح فرعون، و... كل ذلك بالحوار.

ويختم الفصل بقوله: "ما أروع تصوير القرآن لغرور قوم هود ثم بيان عاقبة هذا الغرور. وما أبدع منهج القرآن وبلاغته في إخراج الحدث، وتصوير الوقائع والتعقيب؛ لتحقيق العظات من قصص القرآن...".

الفصل الثالث: الحوار وأثره النفسي في القصة القرآنية.

ويقع في خمس وعشرين صفحة من ص٦٧-ص٩٢. يقول في مطلع الفصل: "إن قصص القرآن متناسق في منهجه النفسي مع منهج القرآن. والقرآن لكي يحقق كل أغراضه يعرض الفكرة الواحدة بأساليب مختلفة، وهذه سمة أسلوبية للقرآن وهذه الأساليب تخاطب كل المؤثرات في الإنسان. فقصص تثير التفكير في حين، والمشاعر والانفعالات في أحيان...".

وتحت عنوان: (الحوار وانفعالات الإنسان) قال: "حوى القرآن وفق ترتيب نزوله على أخبار دون حوار، ثم تدرج الحوار بتدرج أسلوب الدعوة، واستعداد العقل الإنساني لتلقي المعرفة والجدل".

ثم بدأ بالتفصيل، وتحت عنوان (انفعال الطرافة والمرح) مثل بقصة إبراهيم في سورة الأنعام حين أراه الله الملكوت...

ثم نقل عن الرازي: "إن من الناس من قال إن الحوار والمناظرة، كان بعد البلوغ. ومنهم من قال إنه كان قبل البلوغ، واتفق أكثر المحققين على فساد القول الأول...".

وأقول: إن الرازي أدخلنا في غير الجو المطلوب، فما موضوعنا البلوغ وعدمه، إنما الموضوع هل كانت هذه محاورة أو كان من إبراهيم بحثا عن الإله الحق؟! والحق الذي لا مجال لمرية فيه أنه كان من باب الحجاج بنص الكتاب: ﴿وتلك حجتنا...﴾ وبدليل: ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده...﴾ الخ.

ويعلق كاتبنا على كلام الرازي بأنه يرى فساد القول الأول لأنه يتعارض وعصمة الأنبياء والقول بربوبية النجم كفر، وهو مُحق، لو لم يربط قوله بالرازي، إذ القول الأول عند الرازي –كما نقل باحثنا– هو البلوغ، والثاني عدمه. فلا علاقة لهذا بما قاله الكاتب الكريم... وإن كان كلامه صحيحا منسجماً مع ما نرى بطبيعة الحال.

ثم إن عنوان الكاتب: الطرافة والمرح، لا أجد له مدخلاً ولا محلاً –فيما أرى–، وقد يكون له –خارج ما نرى– محل.

ثم يشير الكاتب إلى اتباع ابراهيم التدرج العقلي والنفسي، وعن سخرية ابراهيم بقوله: ﴿لا أحب الآفلين﴾.

ثم ينقل عن الدكتور عثمان نجاتي في كتابه (القرآن وعلم النفس)، قوله: "إن هذا الحوار يكشف عن خطوات التفكير العلمي في حل المشكلات، فالخليل شعر بالمشكلة، ثم جمع البيانات الكافية، ثم وضع الفروض، ورابعا قوّم الفروض ووصل للهدف المنشود".

ولم يفت باحثنا أن ينبه إلى بعض الملاحظ اللغوية كزيادة الواو والتاء في ملكوت... وذلك بغرض المبالغة.

ثم لفتنا إلى ارتباط الجمل الحوارية ببعضها. وإلى غلبة الزمن الماضي على الحوار. وإلى تكرار حرف (الفاء) ليدل على الترتيب والتعقيب.

ثم لفتنا إلى لفتة عن الرازي في قول ابراهيم للشمس: ﴿هذا ربي﴾، وعلل عن الرازي بأقوال منها أنه يقصد النور (أي التذكير) ومنها أنه مراعاة للأدب مع الله فلم يقل هذه ربي. واختار الكاتب الأول. ولسنا نرى رأيه بل مراعاة الأدب أليق وأجمل.

ثم انتقل الكاتب إلى مشهد آخر من مشاهد إثارة الطرافة والمرح، ومن قصة إبراهيم أيضا ولكن من سورة الأنبياء. ولفتنا إلى مقصد الاستفهام: ﴿ما هذه التماثيل ..؟﴾ وأن الغرض البلاغي كما

يقول الزمخشري: تجاهل لهم وتغاب، ليحقر آلهتهم مع علمه بإجلالهم لها...، "وما أقبح التقليد" كما يقول صاحب الكشاف.

ثم لفتنا إلى تضمن مشهد سورة الأنبياء لصورة من صور الحوار هي المناجاة أو الحوار النفسي، ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين﴾.

ثم لفتنا إلى: "غلبة الزمن الماضي في القصة، ثم إفادة ﴿ولقد آتينا...﴾ للمكانة السامية لإبراهيم، ثم في نسبة الفعل إلى الكبير من الأصنام سخرية وإنكار، وصورة فنية تثير في النفس انفعال الطرافة والمرح".

يصرّ الكاتب على حكاية الطرافة والمرح. وما من مجال لمثل هذا الانفعال، ولكنها السخرية المرّة التي تريد إيقاظ كامن العقل.

ثم يتوقف عند بعض اللفتات اللغوية: " ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا﴾ وما في الاستفهام من تقديم وتأخير وينقل عن عبد القاهر أن هذا الباب كثير الفوائد جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية. فلو دخلت الهمزة على الفعل لكان الشك في الفعل، ولكن دخولها على الاسم (أأنت) جعل الشك في الفاعل".

ثم ينقل عن الكشاف حكاية التعريض وإلزام الحجة وضرب لذلك المثل بأنه: "لو سألك شخص وأنت خطاط: أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أميّ لا يحسن إلاّ خرمشة فاسدة، فقلت له بل كتبته أنت".

ثم تحت عنوان: محاكمة إبراهيم وانفعال الخوف قال: "يبدأ المشهد بتساؤل: (من فعل هذا ؟)"، ثم يقول: "إن القرآن ترك للخصوم الفرصة أن يعبروا... ويتأزم الموقف إذ أيقنوا أن الفاعل إبراهيم". ثم ينقل عن الدكتور الطيب النجار في (تاريخ الأنبياء) قوله عن جدال ابراهيم إنه: "جدال لم يخطر لهم على بال. إذ وصل بهم إلى طريق مسدود. فوقفوا جامدين حين ألقى إبراهيم التهمة على كبيرهم وطلبهم أن يسألوه...".

"ولما لم تعد لهم حجة لجأوا إلى القوة الغاشمة، ثم يشير إلى شعور الخوف لو لم يكن لإبراهيم نصير، لكن المولى نصيره... وقد نصره، فكانت النار برداً وسلاماً.

ثالثاً: انفعال الشفقة والرحمة:

ويستشهد له بمشهد الصافات، ومن قصة إبراهيم أيضاً مشهد الذبيح. ويلفتنا الكاتب إلى أن المشهد الحواري يعتمد أسلوب الحكاية، ونقلها على ألسنة الشخوص... وهو حوار قصير في غاية التركيز. لكنه يصور القضية.

ثم يشير في الهامش إلى محاولة اليهود جر الشرف إليهم بجعل الذبيح إسحق. ونقل عن أبي شهبة تفنيد ذلك.

ثم ينقل عن الدكتور عبد الحليم حفني في كتابه (أسلوب المحاورة في القرآن)، أن المشهد يفيض بمشاعر كثيرة في هذا الموقف الرهيب، وما يحتاجه هذا الموقف من قوة هائلة لمغالبة النفس وما يصطرع فيها من غريزة الأبوة، وعاطفة الرحمة بالولد".

"إن الصراع هنا ليس بين الإيمان والكفر"، كما يقول الكاتب، "ولكنه صراع من نوع خاص: صراع مجاهدة نفسية: حيث يندفع إبراهيم في التنفيذ وابنه، امتثالاً لأمر الله... وهما في غاية الرضا".

وينقل عن جاد المولى تفاصيل لا محل لها كقول إسماعيل: "اشحذ شفرتك، وأسرع إمرارها... الخ". وينقلها الطيب النجار كذلك والنسفي، ويعلق الكاتب بأن القرآن لم يتضمن هذه التفاصيل، وتعليقه صحيح في محله.

إن قصد الرؤيا كان امتحان إبراهيم. ثم ينقل عن ثروت أباظة في كتابه (السرد القصصي في القرآن) قوله: "إن هذه القصة تحقق شروط القصة القصيرة من وحدة الزمان ووحدة الموضوع. وألاّ تكون كثيرة الأشخاص، وأن تكون ذات بداية ونهاية، وأن تكون مركزة، وذات حبكة فنية، وتتسم بما يسميه النقاد: لحظة التنوير". ويقول: "في ستين كلمة اكتملت قصة معجزة. البداية: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾، والقمة: ﴿افعل ما تؤمر﴾، والنهاية: ﴿وفديناه...﴾. ويثني الكاتب على أباظة.

لكنه لا يرتضي المقارنة غير المتكافئة بين الإعجاز الإلهي والإبداع البشري؛ لذا يقول الكاتب انه لا يميل إلى الربط أو يميل إلى عدم الربط بين القصة القرآنية، والقصة الفنية الحديثة لأن معنى ذلك أننا نعرض القرآن على قواعد وضعها البشر لنحكم من خلالها على فنية القرآن وبلاغته.

ثم ينقل عن الدكتور محمد بلتاجي في كتابه (دراسات في التفسير) تعليقه على الدكتور طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) إذ قرر أن القرآن استخدم أسطورة اختلقها يهود شبه الجزيرة لإثبات صلتهم بالعرب.

ثم يذكر الكاتب تأثر خلف الله بذات النظرية: "إذ يذكر أن من بين أنواع قصص القرآن: القصة الأسطورية (**Mythology**)".

ثم ينقل عن الدكتور أحمد كمال زكي في كتابه (الأساطير)، ما هي الأسطورة؟ وأنها ترتبط ببدايات الإنسان حيث كان يمارس السحر في طقوسهم سعياً لتفسير الظواهر الطبيعية.

ثم ينقل عن الخطيب في كتابه (القصص القرآني)، بأنه لو عَلقت شبهة بالقصة لانسحبت على كل القرآن. وهو كلام صحيح، وكلام خلف الله وأستاذه أبطل الباطل.

رابعاً : أثر مجادلة إبراهيم لملك زمانه:

في ختام الحديث عن أثر الحوار في القصة القرآنية في إثارة انفعالات النفس البشرية يعرض محاورة إبراهيم والملك الطاغية، التي كان لها أثر بالغ في إثارة قلق خصمه واضطرابه.

ويقفنا وقفات لغوية مع الاستفهام وأنه للتعجب والإنكار ﴿ألم تر...﴾ ، ثم ينقل عن المنار شبهة سوء الفهم لمفهوم الإحياء والإماتة عند الملك، وينقل عن اللسان معنى بهت أنه انقطع وسكت متحيراً.

الفصل الرابع: السمات الفنية للحوار في قصص القرآن.

من ص٩٥-ص١٢١.

أول السمات: التعدد بين طرفي المحاورة في القصص القرآني:

فليس الإنسان هو مصدر الحوار. ثم يشير إلى حوار بين الله والملائكة، وبين الله والإنسان -كما سماه- ومثّل له بالذي مر على قرية -وليس كما قال- بل هو حوار مع ملك أرسله الله، وإن لم يسجل النص ذلك، لكنه يُفهم ضمناً.

ومثّل للحوار هذا بالحوار بين الله ورسله، ثم بين الله وإبليس، وبين الملائكة والناس (مريم)، وبين الإنسان والإنسان، والإنسان والطير (سليمان).

السمة الثانية: التنوع في الموضوعات:

فلم يقتصر على العقيدة بل شمل جوانب الحياة سياسية واجتماعية ودينية، ثم يمثل بحوار موسى والخضر، فقد جاء حاثاً على طلب العلم، وينقل عن فضل الله في كتابه: (الحوار في القرآن) بعض الفوائد كالتواضع في طلب العلم.

ويعلق الكاتب على حوار الله والملائكة في قصة آدم بقوله: "وهذا جانب من جوانب الحياة الديمقراطية وحرية الرأي"، وأقول: لقد ابتعد وهو الحريص عن الجادة، فلا يصح أن يقال لكلام الله وإخباره الملائكة بأنه ديمقراطية.

ثم مثل بالحوار السياسي من سورة النمل.

السمة الثالثة: التنوع في أسلوب الحوار في قصص القرآن:

فيجمل في موطن ويفصل في موطن، وكما يقول الخطيب: "لم يلتزم القرآن نهجا واحدا في إقامة البناء الحواري، لهذا نجد القرآن يذهب بالأسلوب الحواري كل مذهب ويلونه ألوانا مختلفة".

ثم يمثل بمشهد حواري من سورة القصص بين موسى (وابنتي شعيب كما قال)، وكيف أن الحوار فيه شيء من التفصيل. ثم انتقل إلى مشهد من قصة يوسف (المراودة).

ثم قال: "وأسلوب الحوار في القصة القرآنية يتسم بما يتصف به أسلوب القرآن من قوة وفخامة وبلاغة وإعجاز، وكانت ألفاظ الحوار في غاية الاحترام، حتى مع المخالفين والمعاندين".

والحوار في كثير من مشاهده يمثل شخصية المتحاورين... وفي هذا يرد على خلف الله الذي قال: "إن أسلوب القرآن في التعبير عن أفكار الأنبياء والأقوام لا يشاكل الواقع".

ثم مثل بحوار بين موسى وفرعون وكيف مثّل الحوار شخصية المتحاورين. ثم نبه الى ان التنوع في أسلوب الحوار أدى إلى التنوع في الجملة الخبرية والإنشانية الواردة في قصص الأنبياء وكان لهذا التنوع دلالته اللغوية والبلاغية. وتوالي الجمل الخبرية في قصص الأنبياء والتي يغلب عليها الزمن الماضي له دلالته البلاغية. ويمثل بقصة يوسف: ﴿وجاءت سيارة...﴾... الخ.

وينقل عن محمود السيد حسن في كتابه (روائع الإعجاز في القصص القرآني) قوله تعقيبا على قوله تعالى: ﴿والله عليم بما يعملون﴾: "وهو وعيد شديد لمن كان فعْله سببا لما وقع فيه يوسف من محن...".

ثم تحدث عن الانتقال إلى الأسلوب الإنشاني الحواري من الجملة الحوارية الخبرية وأسلوب الإنشاء الطلبي مثل: الأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء، والأمر ممن هو أدنى إلى الأعلى: دعاء، وهو كثير في قصص الأنبياء: ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً...﴾، ﴿قال رب اغفر لي ولأخي...﴾، ﴿رب أوزعني أن أشكر...﴾، ﴿وقال نوح رب لا تذر...﴾.

ثم تكلم عن الاستفهام بأداة (أنّى) على لسان كثير من الأنبياء وغيرهم. ومنه إلى الاستفهام بالهمزة، ثم إلى أسلوب النهي: ﴿لا توجل...﴾، ﴿ولا تقربا...﴾.

السمة الرابعة: اعتماد الحوار على العقل:

حيث تُعرض الحقائق على الخصم، وكلها مسلّمات بديهية لا تقبل الجدل أو الإنكار كما في محاورة صالح مع قومه: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم...﴾.

وبالإضافة إلى ما ذكر فإن الحوار في القصة القرآنية يتسم بتحريك المؤثرات الإنسانية بصفة عامة. فالحوار يثير الأحاسيس الطبيعية كالحب والكره والحزن والفرح، ويثير المؤثرات العقلية والنفسية. ولعل تكرار القصة في سور مختلفة يؤكد على أن أحدث نظريات الإعلام سبق إليها القرآن، كما يقول زهير الأعرجي في كتابه (دراسات في الإعلام) حيث يرى أن نجاح الإعلام اعتمد على الإلحاح والمتابعة والملاحقة.

ثم سجل الكاتب في ختام الفصل ملاحظتين: "عمد خصوم الأنبياء إلى تحقيرهم وأشياعهم والاستهزاء بهم كما في سورة هود والشعراء ﴿ما نراك إلاّ بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا...﴾ ". والملاحظة الثانية: "بث الرعب في نفس الرسول واتباعه عن طريق التهديد والوعيد ﴿لأقطعن أيديكم...﴾ ".

الباب الثاني:

ويستغرق نصف الكتاب تماماً أي حوالي مئة وعشرين صفحة من ص١٢٧-ص ٢٤٧.

الفصل الأول: الأحداث في القصة القرآنية:

ويستغرق سبع عشرة صفحة، ومما قال فيه: "ترتبط الأحداث القصصية فيما بينها ارتباطاً وثيقاً، كما أن الارتباط تام ووثيق بين الحدث والشخصية. وقد جاء الحدث ملائماً للهدف؛ وقد جاء الحدث القصصي مثيراً لانفعالات النفس محركاً عواطفها تجاه مغزى القصة... ليس لأن الأحداث من فعل الله فحسب. بل بتصويرها الفني...". كما يقول الدكتور التهامي نقرة في (سيكولوجية القصة).

ويقول الباحث إن للزمان والمكان أثرهما الواضح في سير الأحداث، وينقل عن الخطيب قوله: "إن القصص القرآني ينظر إلى عنصر الزمن على أنه اليد الحاملة للأحداث والمحركة لها...".

والقرآن في قصصه جاء مسايراً لسير الحادثة، فإذا تطلب سير الحادثة ذكر العنصر الزمني ذكرت القصة العنصر الزمني، ويستشهد بمشهدين من قصة يوسف ذكرهما الخطيب: ﴿عشاءً يبكون﴾، ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾. وقد يذكر الزمن صريحاً وقد يذكر تلميحاً.

ثم يقول: "إن العنصر المكاني كالزماني للارتباط الوثيق بين العنصرين من حيث الذكر وعدمه... فيذكر إذا استدعى الموقف... والعكس".

ثم يستشهد بمشهد الطور ونبوة موسى. ثم يسجل ملاحظتين: أن المكان في القصص القرآني يذكر في أغلب الأحيان بلا حدود. وقد يذكر في ندرة محدداً.

ثم رد على خلف الله الذي قال: "إن القرآن لم يقصد إلى التاريخ وأهم مقوماته من زمان ومكان..."، ويقول: "إن التمسك بالتاريخ خطر على النبي وعلى القرآن، بل هو جدير -على قول خلف الله- أن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن كما كفروا بالتوراة". ثم رد الكاتب بأنه ليس في القرآن حقيقة واحدة تتعارض مع الحقائق التاريخية، ورد عليه بأنه منطلق من مقياس باطل وهو عدم حديث اليهود وغيرهم عن أحداث القصة القرآنية.

ثم زعم خلف الله... بأن القصة القرآنية لا توصف بتصديق ولا بتكذيب !!. ثم يرد الكاتب عليه ببعض النصوص من مثل: "إن هذا لهو القصص الحق"، وما شابهه ثم يحيله إلى بحث للدكتور عفت الشرقاوي (في فلسفة الحضارة الإسلامية).

ومن ضمن النصوص التي استشهد بها الكاتب هذا النص عن الشرقاوي: "وهكذا يثبت القرآن للتاريخ معنى معيناً على الإنسان أن يتلمسه دائماً ليعرف وجوده، وهذا المعنى يرتبط بقانون سماوي نافذ في التاريخ حتماً يصفه القرآن بأنه سنة الله أي طريقته...".

ثم يحيله إلى مالك بن نبي وكتابه (الظاهرة القرآنية) ودراسته المقارنة لقصة يوسف في التوراة والقرآن.

ثم يشير الكاتب إلى التسلسل في الأحداث في القصة القرآنية والترابط الوثيق فيما بينها من ناحية، وبين التسلسل الزمني من ناحية أخرى، ثم أشار إلى تطور الشخصية بتطور الزمن، ثم استشهد بقصة موسى من مولده. ثم قال: "وتعد سورة هود من خير النماذج الدالة على تسلسل الأحداث وترابطها. وقد تتتابع الأحداث سريعاً، ولهذا مغزاه ومنه إثارة انفعالات النفس البشرية".

ثم قسم الأحداث إلى: أحداث مألوفة عادية، وتحتشد القصة القرآنية بعدد منها مما يحصل للشخصيات المحورية أو الثانوية. وأحداث غير مألوفة كالمعجزات، وضرب لها أمثلة. ونوع ثالث من الأحداث قال فيه: أحداث تدخلت فيها قدرة الله لحكمة خاصة. واستشهد بقصة موسى. ونار إبراهيم.

الفصل الثاني : رسم الشخصية في القصة القرآنية .

ويقع في تسع عشرة صفحة من ص١٤٧–ص١٦٦. يذكرنا بأن عنصري القصة البارزين هما: الشخصية والحدث. والشخصية مركز الأفكار والمجال الذي تدور حوله الأحداث، فالأفكار تحيا في الشخصية كما ينقل عن الدكتور عبد الفتاح عثمان في كتابه (بناء الرواية).

والشخصية في القصة القرآنية لها نماذج متعددة. وينقل عن الدكتور الطاهر مكـي في كتابه (القصة القصيرة، دراسة ومختارات)، قوله: "وتجيء الشخصية في القصة القرآنية مبهمة أو غامضة، وتكون من الأناس رجالاً ونساء، ومن الطيور والحشرات، أو أرواحاً خفية من الملائكة والشياطين والجان...".

فهناك نماذج الأخيار ونماذج الأشرار، وهناك النساء، فالقرآن حفل بنماذج إنسانية تمثل الجنس البشري كله، وجعلها نماذج صالحة لكل زمان ومكان... وهي نماذج حية شاخصة نراها بأعيننا وفي حياتنا...

ثم أشار إلى سيد قطب في تصويره الفني وفصل (نماذج إنسانية). وذكر أنماطاً. وقال: "هذه نماذج من بين ثلاثين نموذجاً في التصوير الفني".

وبعد الحديث عن نماذج الشخصية يتحدث الكاتب عن سلوك الشخصية في قصص القرآن والقرآن لم يعرض إلاّ ما هو مهم منها... ويمثّل بقصة آدم، وكيف عرض الأكل من الشجرة الذي يدل على الضعف.

وشخصيات الرسل تسيرها المبادئ، وقد تومئ القصة إلى سلوك معين، وينقل عن الطاهر المكي في (القصة القصيرة) بعض هذه الإيماءات كعصبية موسى، وحِلم إبراهيم، وحصافة يوسف، وهي أوصاف أعتقد أنه نقلها عن التصوير الفني، ثم ينفي الكاتب وصف العصبي عن موسى، وهو محق في ذلك.

ويستشهد بمشهد من قصة نوح في سورة هود وكيف تحرى القرآن الدقة المتناهية في انتقاء ألفاظه، ورسم شخصياته بحيث يظهر الحوار القصصي في صورة جلية تجعل المشهد كله شاخصاً أمام أعيننا.

وينقل عن محمود السيد حسن في كتابه (روائع الإعجاز في القصص القرآني)، وعن الطيب النجار حول هذه المعاني.

ثم يذكر مثالاً آخر من قصة فتية الكهف. وكما هو متوقع رجع إلى صاحب التصوير الذي لعله من خير من تكلم في هذا المشهد.

ثم ينتقل إلى مشاهد من قصة مريم، ليخلص إلى أن الألفاظ تلعب دوراً أساسياً في تمثيل الحادثة، ورسم الشخصية. ورسم الشخصية يعد لوناً من ألوان التصوير.

ثم يبرز أن القُصّاص أبرزوا الجانب الفسيولوجي للشخصية، والقرآن لم يهتم بهذا البعد إلاّ نادراً في إشارة عابرة، أو لمحة خاطفة... وأما البعدان الآخران النفسي والفكري أو الاجتماعي فهما واضحان في قصص القرآن أشد الوضوح.

ثم يشير إلى التحديات الشخصية التي قام بها خصوم الدعوة، حيث أرادوا تشويه صورة النبي في نظر الناس، ووصفه بالصفات التي تجعل منه إنساناً عادياً كوصفه بالشاعر، أو بالساحر، أو الكاهن. ولكن هيهات !.

ثم ذكر العديد من السور التي ذكرت هذا... ثم خلص إلى أن القرآن بما صور الظواهر الدينية والعقلية والاجتماعية أبلغ تصوير لكل قوم، كان المرجع في معرفة هذه الجوانب عند قوم كل رسول والجانب العقدي عند الرسل وأن سيرة الرسل السابقين تمثل جزءاً من سيرته صلى الله عليه وسلم.

ثم يخلص كذلك إلى أن القصص القرآني يعكس بوضوح البعد النفسي للشخصية أيّاً كانت كما يعكس في الوقت نفسه نفسية المجتمع... ثم ينقل عن الدكتور عز الدين إسماعيل في كتابه (الأدب وفنونه): "تقسيمه الشخصيات إلى نوعين: الشخصية الجاهزة أو المسطحة (**Flat character**)، وهي الشخصية المكتملة التي تظهر في القصة دون أن يحدث في تكوينها أي تغير، وإنما يحدث التغيير في علاقاتها بالشخصيات الأخرى فحسب، أما تصرفاتها فلها دائماً طابع واحد. والنوع الثاني: الشخصية النامية (**Round character**)، وهي الشخصية التي يتم تكوينها بتمام القصة".

ثم ينقل عن الدكتور عبد الفتاح عثمان في كتابه (بناء الرواية) تصنيفاً آخر إذ يقول: "والشخصية لها تصنيفات عديدة، بعضها يتعلق بموقع الشخصية من الأحداث. وقدراتها على النمو وإدارة حركة الصراع، وبعضها يرتبط بموقف الشخصية من الأحداث إيجاباً أو سلباً وبعضها الثالث يتصل بتعبير الشخصية عن الإنسان الفردي أو النموذج الاجتماعي".

ثم يضرب المثل بشخصية يوسف، وما سماه احتدام الصراع بين العقل والعاطفة في مشهد مراودة امرأة العزيز له.

ثم أكد مرة أخرى أن القصة القرآنية نمط مستقل منفرد قائم بذاته من حيث اللغة والحوار والأحداث والشخصيات، والشخصية في القصة القرآنية تعد شخصية بسيطة؛ لأنها تتسم بالوضوح والبساطة...

كذلك، فإن الشخصية من حيث السلوك ثابتة لا تتغير ومعروف سلوكها للقارئ، بحيث لا يمكن للقارئ أن يتوقع تغيراً جوهرياً في موقف الشخصية وسلوكها إزاء الأحداث؛ ثم ضرب المثل بثبات

الأنبياء. أقول: هذا قول للكاتب لا يسلم له، ولعل شخصية امرأة العزيز، والسحرة، واخوة يوسف، تنقض بيسر، أو على الأقل تعدل، ما يقول. فهذه شخصيات خاصة السحرة وامرأة العزيز تغيرت من نقيض إلى نقيض... لكن يصدق كلامه على الأغلب...

ثم يقول: "إن الشخصية في القصة القرآنية نموذجية تصدق على أفراد كثيرين (تمثل نموذجاً) في كل زمان ومكان".

ثم ينقل عن الدكتور نجيب الكيلاني (الروائي الإسلامي المعروف) قوله: "إن الشخصية الواقعية (المنتجة من الواقع المعاصر أو التاريخي) لها جاذبيتها، أما الشخصية التي صنعت من الوهم فغير مقنعة...".

ويؤيد الباحث هذا، وينقل عن عبد الكريم الخطيب ما يؤيده كذلك، وكيف ذكر القرآن الشخصيات بأسمائها، ثم كيف نرى وحدة الحركة بين الشخصية وأعمالها التي تصدر عنها. والشخصية في القصة القرآنية بما تمثله من قيم واتجاهات مما يساعد في إصلاح الفاسدين وفتح باب الأمل أمام اليائسين.

ثم يعرّض بالآداب الغربية التي أضفت البطولة على الشخصيات العليلة فأفسدت فلم يعد يرى الناس في هذا إلاّ جمالاً ومثالاً... كما يقول الكيلاني -رحمه الله-.

الفصل الثالث: النموذج بين الرجل والمرأة:

هذا أطول فصول الكتاب، فقد نيّف على الأربعين، ووقع ما بين ص١٦٩-ص٢١٢. يبتدئ الفصل بالحديث عما سبق ذكره من اهتمام القرآن لا بالبعد الجسمي للشخصية وإنما بالكشف عن سلوك الشخصية ودوافعها وانفعالاتها، وابتدأ النماذج بآدم (نموذج الجنس البشري) وقسم قصته إلى مشاهد حسب ترتيب المصحف: البقرة، فالأعراف، فطه...

وتلتقي المشاهد بسكناه الجنة، ووسوسة إبليس بالكون من الملائكة، ومن الخالدين. ويعود إلى خلف الله من جديد، وتقسيمه القصص (يبدو أن قصص القرآن هو المراد) إلى: قصة تاريخية، وقصة تمثيلية، وقصة أسطورية، وقصة الخطيئة.

ويصنف الشجرة إلى شجرتين: الشجرة (فقط)، وشجرة الخلد. ثم يشير إلى أن العقاد ألف كتاباً بعنوان (المرأة في القرآن) أفرد فيه فصلاً بعنوان: (هذه الشجرة) ولم يشر إلى تقسيم. وقول خلف الله عموماً لا يحتاج إلى رد.

وينقل في ختام الحديث عن آدم عن عفت الشرقاوي في كتابه (فلسفة الحضارة الإسلامية): "كثيراً ما ينسى الإنسان -كما نسي آدم- أمام الرغبة في الخلود والبقاء والخوف من الفناء. ويرى الشقاء هو شقاء الخوف من الفناء...".

ثم يمثل بشخصية ابراهيم لأنه من أولي العزم، ولأنه أبو الأنبياء، ولأن القرآن يحتج على مشركي العرب بأحواله. ثم يستعرض بعض مشاهد قصته من سورة مريم، ثم الصافات -مناظرته لقومه-. وكيف كشف الحوار في المشهدين عن البعد النفسي لإبراهيم، وقلقه على أبيه وقومه من عبادة الأصنام... كما في سورة إبراهيم كذلك.

ثم مشهد الحوار في سورة البقرة، ثم ينقل عن الدكتور التهامي وصفه لشخصية ابراهيم بالمثالية في الحصافة والإخلاص والامتثال لأمر الله.

نموذج ثالث: موسى عليه السلام. ويبدأ من سورة القصص؛ حيث يصور هذا المشهد حياته بعد طور النشأة، وكيف عرف أصوله، وفي لمحة يشير القرآن إلى قوته: ﴿فوكزه...﴾. ثم يجيب بما قال الرازي عن قتل المصري.

ثم ينتقل إلى مشهد مدين... ولفتة إلى القوة من جديد. ومشهد ثالث من سورة الأعراف حين رجع غضبان أسفا. ويرد ما قال الدكتور التهامي من اندفاع موسى وعصبيته. وهو قول قاله من قبل صاحب التصوير رحمه الله.

ثم ينتقل إلى نموذج آخر: نموذج فرعون؛ وما يتسم به من زهو وغرور وذكر عدة آيات من عدة سور تمثل شخصيته، وكيف أن هذه المشاهد تنقل لنا واقع شخصية فرعون، وصدى هذا الواقع في المجتمع.

ثم يعرج على شخصية عدة رجال لم يذكر القرآن أسماءهم كصاحب موسى، والرجل المؤمن. ثم يتكلم عن الشخصية في المثل ويشير إلى خلاف الخطيب وشلتوت حول واقعية تلك الشخصيات. ويرجح كفة الخطيب من القول بواقعية الشخصيات.

ثم ينتقل إلى نماذج المرأة في القصة القرآنية؛ والنموذج الأول: امرأة عمران. والثاني: مريم مثال الكمال والعفة، والنموذج الثالث: امرأة فرعون. ونموذج رابع: امرأة نوح. وخامس ويسميه: نموذج الأنثى (سورة القصص-مدين). النموذج السادس: المرأة الملكة (سورة النمل)، والنموذج السابع: المرأة التي استبد بها الحب وغلبها الهوى (امرأة العزيز) ويطيل في هذا النموذج ويذكر الكتب التي تكلمت عن قصة يوسف.

الفصل الرابع والأخير: النموذج بين الخير والشر في القصة القرآنية:

ويقع في أربع وعشرين صفحة، من ص٢١٥–ص٢٣٩. في بداية الفصل يتحدث عن الثنائية في الحياة، والوجود، فالخير يقابله الشر، والفرح يقابله الحزن، والحياة يقابلها الموت، ثم ينقل عن الخطيب قوله: "عن هذه الثنائية نشأ التلازم بين الخير والشر، فإذا ذكر الخير ذكر معه الشر، وظهرا معاً في مجال الفكر متقابلين تقابل الصورة وسالبها...".

ويرى العقاد: "إن معرفة الإنسان للشيطان وهو رمز الشر، كانت فاتحة خير، ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبل أن يعرف الشيطان بصفاته وأعماله وقدرته ومقاصده..."؛ وذلك في كتاب العقاد (إبليس).

وينقل عن ابن مسكويه في تهذيبه أن الفضائل لا تحصل لنا إلاّ بعد التطهر من الرذائل ثم يبتدئ في عرض النماذج، ومن نماذج الأخيار كل الأنبياء ومن دعا بدعوتهم. ونماذج الأشرار عديدة، وتنطبق سمات الأشرار في القصة القرآنية على سماتهم في الحياة بصفة عامة، ومن هؤلاء من سماهم القرآن كفرعون وهامان وقارون وإبليس... وقد اتسمت شخصياتهم بالعناد والضلال والمكابرة، والانحراف...".

والنموذج الأول الذي عرضه للخير والشر: نموذج ابني آدم. وصراع هذه القصة يأخذ طابعاً خاصاً، فهو صراع عنيف وصل إلى حد ارتكاب جريمة شنعاء. أما الحوار فإنه يجعل المشهد حاضراً. وتكلم عن بعض اللفتات اللغوية (بسطت، باسط) ثم تحدث عن سمات الخيّر من الأخوين وأنها: النصح، والتذكير، وامتثال أمر الله والسماحة والوداعة. وسمات الآخر: الأثرة والأنانية والحسد والعدوان، وإشباع رغبة التسلط والاندفاع إلى الشر.

النموذج الثاني: لقمان. ولخص ما تضمنت وصيته: عدم الشرك، والشكر، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، وعدم التكبر، والاعتدال في المشي، وخفض الصوت.

ومن نماذج الشر يعرض شخصية قارون. وتمثل النموذج الإنساني العام للأشرار والنتيجة المتوقعة هي نتيجة حتمية يكشف عنها حوار الأخيار مع الأشرار.

النموذج الثالث: قصة صاحب الجنتين، إنه نموذج الشخصية الشريرة بكل سماتها.

والنموذج الرابع: شخصية إبليس، وقصته تستعرض الصراع العنيف والعداوة بينه وبين أولاد آدم.

وفي الخاتمة التي جاءت في خمس صفحات لخص في تسع نقاط ما جاء في بحثه:

١- يتمشى مفهوم القصة في اللغة مع الاستعمال القرآني.

٢- الحوار والجدال والمناقشة والفروق بينها.

٣- للحوار في القصة القرآنية مغزاه الديني، فهو يحقق أغراض القصة.

٤- للحوار في القصة القرآنية أثره النفسي العميق في نفوس المتحاورين.

٥- تميز الحوار في القصة القرآنية بجملة من السمات الفنية أو الخصائص.

٦- ترتبط أحداث القصة القرآنية ارتباطاً وثيقاً بشخصياتها.

٧- نماذج الرجال في قصص القرآن كثيرة، منهم الرسل ودعاة الحق، ودعاة الباطل والنكرة، والرجل المثل. ونماذج المرأة متعددة: المؤمنة في بيت الطاغية والعكس والمنحرفة الخارجة عن طبيعتها، والتقية النقية كمريم، والملكة المرأة، والمرأة العاشقة.

٨- شخصية الرجل والمرأة في القصة القرآنية نادراً ما يظهر فيها البعد الجسمي.

٩- ذكر القرآن أسماء الشخصيات من الرجال كالأنبياء، والكفار، ولم يذكر من النساء سوى مريم.

وبعد، فهذا كتاب جيد، فيه جهد ظاهر، ووفرة مراجع، وذوق في الاختيار، وجدة في الطرح، واختصاص وفنية، ومصطلح، وليس إنشاءً... ولا تكراراً، وهنات بسيطة نبهت إليها.

الكتاب السابع:

من جغرافية القصص القرآني
مصر ليست مصر، وغيرها

تأليف: محمود بن عبد الرؤوف القاسم

ط ١، المكتبة الإسلامية، عمان-الأردن، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م

من جغرافية القصص القرآني: مصر ليست مصر، وغيرها / محمود بـن عبـد الـرؤوف القاسم.

يقع الكتاب في سبعة فصول وثلاثمائة صفحة عدا أربع صفحات. يستغرق الفصل الثالث الذي يحمل الكتاب عنوانه الفرعي (مصر ليست مصر) يستغرق ربع الكتاب تماما، بينما يقصر الفصل الأخير إلى ما دون العشرين صفحة، والفصل الثاني ثلاث عشرة صفحة... بل إن الفصل الأول لم يبلغ سـبع صفحات.

تبدو نبرة الكاتب الحادة في التنويه الذي ضمّنه في الصفحة الثالثة في سطور معدودة قال فيها: "هذه البحوث ليست مقدمة للجهلة ولا للخرافيين ولا لعمي البصائر الذين تستوي عندهم الظلمـات والنور".

ثم دعا الله في فقرة ثانية "أن يخلص الأمة من الجهل المركب، ومـن الأسـلوب الخـرافي في التفكير".

ثم في الصفحة السابعة عنون بـ (لافتة) على طريقة لافتات أحمد مطر، وإن كان الأسـلوب قريبا إلى حد التماهي مع أسلوب جودت سعيد، وطريقته في إثارة الأسئلة، وحتى في الآيات التي يتخذها منطلقات كبيرة ومعالم رئيسة، من قبل: ﴿سنريهم آياتنا﴾، ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾، ﴿قل سـيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ وحتى (الاستفزاز) في السؤال اعتمد فيه طريقة جودت سعيد، فهو يقول عن آية ﴿قل سيروا...﴾ هل هذه الآية موجودة في القرآن؟

والتركيز على التفكير والفهم هي قضايا التركيز عند جودت، ورفض التفكير الخوارقي.

وفي الفصل الأول يواصل ذات الأسئلة على ذات الآية الأخيرة: ﴿قل سيروا...﴾ وبالطريقة إياها التي ألمحنا إليها... هل هذا السؤال للسنونو؟ قطعاً إنه ليس للثعالب... الخ.

ثم يحشد الآيات الآمرة بالسير في الأرض... فيذكر ثلاث عشرة آية... في إحـدى عـشرة سورة.

ثم يذكر الآيات المتكلمة عن تكذيب قوم نوح، ثم قوم هود، فقوم صالح، فقوم لوط، سـردا أولاً، ولا يفوته أن ينوه، ويحق ما يقول، أن مكان قوم لوط ليس البحر الميت كما يقول (التوراتيون) – الأقواس من عندنا–.

ثم يشير إلى آيات الشعراء في تكذيب قوم شعيب له. ثم يذكر بعض الآيات المتكلمة عن فرعون وقومه.

ويبدأ الحديث عن قوم فرعون بآية يونس: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ الآية:٩٢، ليخلص منها إلى أن المسلمين غافلون.

ويقول إن اليهود يبحثون عن آثار قصص التوراة، ولن يعثروا، لسبب بسيط هو أن أكثر نصوص التوراة ملفق... ليخلص إلى بيت القصيد: "تلفيق في تلفيق في تلفيق، تلفيق بفرض الأسماء التوراتية على بلاد وأماكن ما عرف تاريخها هذه الأسماء، في تلفيق من التعليلات والفرضيات، في التلفيق الذي قدموه واتبعناهم في الأخذ به، وهو الذي كان وراء تزوير كامل لتاريخ الشرق الأوسط". - وسامحونا على تكرار التلفيق، فهكذا وردنا من المصدر !-.

ثم نعى على بعض علماء يدافعون عن المفاهيم التوراتية، على أنها جزء من الآيات أو الواقع التاريخي. ومن هنا كانت الغفلة الكاملة عن الآيات البينات للحوادث القرآنية، ذات الشواهد القائمة من آثارها الباقية... وأن إمكان التحقق ممكن بإحدى وسائل ثلاث حددها: زيارة تعرف، أو قراءة الرُقُم بمعزل عن المسلمات، أو حفريات تظهر ما عفا عليه التراب.

والفصل الثاني عنوانه: طوفان نوح:

وقد بدأ بذكر الآيات المتكلمة عن الطوفان ليخلص منها إلى أن الطوفان كان محلياً ولم يكن عالمياً، وهو صحيح، ثم يذكر قاعدة أن الأصل في النص القرآني التعميم ما لم يقم دليل على التخصيص.

ثم يخلص إلى أن فكرة عموم الطوفان متداولة على ألسنة أهل الكتاب، ليخلص إلى أن نوحاً وقومه كانوا في جزيرة كبيرة يحيط بها البحر الواسع من جميع جهاتها، ولا سبيل للنجاة منها إلاّ بالسفينة، يريد أن يقول أنه لو كانت حوالي نوح وقومه أرض متصلة لأمر بالهجرة سراً كما حصل مع موسى وقومه، ومع لوط ومن آمن به.

ثم يدخل في الجغرافيا، ليسأل: أين موقع هذه الجزيرة؟ ثم يعلن أن القرآن بكل معطياته هو الحقيقة التي يبحث عنها البشر، وأن نتائج البحوث الأثرية والجيولوجية ستؤكد قول الله : ﴿سنريهم آياتنا...﴾.

ثم يعرج على آلهة قوم نوح التي ذكرتها سورة نوح: (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) ويستنتج أن هذه الأسماء عربية، إذاً فهم كانوا عرباً يتكلمون العربية.

ثم ذكر كل إله من هذه الآلهة ومَن عبده من العرب. فسواع بينبع عبدته هذيل وهدمه عمرو بن العاص، ويغوث في الجوف بين نجران ومأرب، وعبدته مذحج ومراد وجاء به عمرو بن لحي من جرش، وكذلك يعوق، وأما نسر فبحمير. ويستدل بهذا كله أن الأصنام وأغلبها جاء من (جرش) أن (جرش) لم يمر بها الطوفان.

ثم يستنطق النصوص بشيء من التعسف -فيما أرى- إذ يرى أن قوم هود قبيلة واحدة، وكذلك قوم صالح، أما قوم نوح فلم يسمهم القرآن باسم، فهم إذاً ليسوا قبيلة متميزة، وإنما مجموعة قبائل يجمعهم كيان واحد، ويسكنون قرى كثيرة، بعث نوح في أمها.

ومن هذا التحكم يخلص إلى تحكم آخر، تحكم جغرافي: قوم نوح يسكنون جزيرة كبيرة، وكانوا شعباً عربياً يتألف من قبائل، يتكلمون لغة عربية، لهم آلهة مشتركة مع القبائل العربية، (أخذ هذا من قوله: ﴿... آلهتكم، ولا تذرن وداً ولا سواعاً...﴾ فهم إذاً لهم آلهة خاصة، وآلهة مشتركة مع العرب !.

ثم يخلص إلى أنه بناءً على هذه المعلومات، (ويحيلنا إلى المستقبل) فيقول: وريثما تأتي البحوث الآثارية والجيولوجية لتبت في الموضوع، نستطيع أن نخمن تلك الجزيرة ضمن احتمالات: (ونحن كنا قد خمناها سلفاً مذ قال أن السفينة كانت ضرورية لأن أرض قوم نوح كانت جزيرة كبيرة):

١- أن نجداً والحجاز واليمن -كما يقول الجيولوجيون- كانت جزيرة محاطة ببحر. وينقل عن ياقوت الحموي بيتاً من الشعر لأبي صعترة يذكر فيه الجودي، ثم يعود لأسلوب همز (من المهماز) المسلمين إلى البحث عن هذا الجودي.

٢- يقولون إن خليج البصرة كان ممتداً حتى الموصل (زمن يونس)، فالعراق أيضاً كانت محاطة بالبحر، واحتمال أن تكون هي بلد الطوفان، وفيها الجودي، كالجزيرة تماماً.

٣- ثم جوز في ضعف أن تكون الأردن هي هذه الجزيرة وأن يكون فيها جودي نسي اسمه.

٤- ومن الجائز أن تكون سيناء. وكرر ما قاله في الأردن أن أحد جبالها جودي... ثم رجح الأول من الأقوال.

ثم ينتهي إلى عجيبة: أن السفينة موجودة حتى الآن في مكان ما فوق جبل الجودي في نجد، ودليله: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾.

ثم يقول في استشراف: "إن اكتشاف سفينة نوح سوف يسبب نقلة نوعية واسعة جداً في معرفة تاريخ الإنسانية الديني والاجتماعي والحضاري والسياسي".

ثم يردف القصة بصفحة عن قوم لوط وأنه ﴿ولقد تركنا منها آية﴾، ﴿وتركنا فيها آيــة﴾ ولا يوجد في البحر الميت أي أثر لتلك الآية، فهي في إحدى الطرق الذاهبة من مكة، ولا أظنها بعيدة عنها، وآثارها التي تدل عليها بينة باقية ؟!

وهو تحكم فيما أرى، شديد، فالذي ترك آية هو القصة، فهل يعقل أن الله ترك آيــة ماديــة أثارية، وهي لم تكتشف حتى الآن، فهل الآية كل هذه السنين والقرون معطلة، أم أن الآية باقية وعاملة في القصة...؟! ثم ما الذي حشر مكة في قصة لوط وقومه ؟!

لسنا ظلاميين ولا خرافيين ولا عمي بصائر، على رأي الكاتب، ولكن لنترك التحديــد، إذاً، حتى تتم الكشوف الجيولوجية والآثارية، ولنبق في حدود القصة وعبرها المعنوية، دون تحديــد المواقــع الجغرافية، لا على النمط التوراتي، ولا على النمط المقترح من كاتبنا.

نخلص إلى الفصل الثالث وهو لب الكتاب حجماً وجهداً ومنهجاً، ولب المغالطات والــتحكم فيما أرى، لا من باب التعصب، فنحن والله نفرح لكل فكر جديد، وندافع عن حقه في الوجود، وجميل أن يكون وراءه منهج ولا يكون صادراً عن أحكام مسبقة، ولا تعصب، واعتــداد، وتــسفيه للــرأي المخالف...

الفصل الثالث عنوانه: مصر ليست مصر.

وهو من صفحة ٣٩-١٥٠. ويبتدئه بتقرير: "إن مصر النيل ليست مصر القرآن". والأدلة في رأيه هي:

١- إن مصر النيل -يقرر الأستاذ- لم يكن اسمها مصر في تلك الأزمنة، وإنما كان الناس يــسمونها القبط، أو إيجيبت (تحوير للفظة القبط)، وهي (بدورها) كلمة محرفة من نطق آشوري للفــظ قبطي قديم هو (حاكابتاح) وقد ورد (إيجيبتوس) في شعر هوميروس.

يقرر الأستاذ بعد رحلته مع التحريفات والاحتمالات أن الأقباط كانوا يسمون بلادهم (طاو) بمعنى الأرض السوداء، والأرض الصحراوية أو الحمــراء: (دشــرت) ومنــها (**Desert**) الإنجليزية.

ثم يقرر مرة أخرى: "وطبعاً، هذه الحقيقة -كون القبط ما كان اسمها مصر- هي وحدها كافية للدلالة على أن مصر هي غير القبط.

ثم يفترض أن مترجمي التوراة هم أول من أطلق اسم مصر على أرض القبط ثم صار مدلول مصر وإيجيبت مع الوقت واحداً. وقبل الإسلام بقرنين أو ثلاثة كان اسم مصر قد استقر نهائيا علماً على بلاد القبط.

٢- أن أوراق البردى والرقم والآثار المكتشفة تغطي تاريخ القبط منذ (٣٠٠٠ سنة ق.م)، حتى الاحتلال اليوناني، لم يرد فيها قصة يوسف، ويستنتج من هذا أن مصر ليست هي الحالية.

٣- لم تذكر البرديات سبع السنين الزرع والعجاف... والنتيجة هي السابقة.

٤- أن عقيدة الإسلام (عقيدة يوسف) غريبة كل الغرابة عن أهل القبط... وأن قبول المصريين له ثم لأبيه وأخوته وكلهم أنبياء (!!)، يقول الكاتب وهو مخطئ طبعاً يدل -في رأيه- على أنهم كانوا يؤمنون بالله (إذاً في نظره ليست البلاد التي حصلت فيها قصة يوسف هي مصر).

٥- ما قيل في قصة يوسف يقال في قصة موسى وليس في حفريات مصر ما يدل على اسم موسى.

٦- لم يرد أن القبط كانوا يؤمنون بديانة شبيهة بالديانة التي كانت ديانة فرعون والتي ذكرتها الآيات القرآنية...

٧- فرعون اسم لمن كان يحكم مصر. وليس في البرديات ما يدل على هذا الاسم أو اللقب.

٨- قصة السحرة ليس في البرديات ما يدل عليها، إذاً ليست في مصر.

٩- تعذيب فرعون لبني إسرائيل ليس في البرديات ما يدل عليه.

١٠- لم يرد في البرديات أي ذكر لكلمة إسرائيل أو عبرانيين.

١١- من الآية ﴿أليس لي ملك مصر﴾ يستنتج الكاتب أن عاصمة مصر كانت مدينة ساحلية تقع على ساحل بحر لا نهر، وأن أنهاراً كانت تخترقها، (أما البحر في توهمه فأخذه من قوله: ﴿فاقذفيه في اليم﴾، ونرد عليه بان اليم هو الماء).

وإن كان الكاتب يزعم أن هذا التخريج الذي قلناه تعسف، فالنيل نهر لا بحر. ونقول أن اليم لم ترد إلاّ في قصة موسى. . مما يرجح على الأقل وجهة النظر.

١٢- لم يرد في السجلات القبطية (ما اكتشف منها) أي إشارة لغرق فرعون.

١٣- أن غرق فرعون وجنوده كفيل بإحداث تغيرات جوهرية، وهذا ما لم يحدث في القبط في تلك الأزمنة.

١٤- دمرت مصر بعد غرق فرعون تدميراً شاملاً (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه) ولم يرد فيما اكتشف من نصوص ما يدل على ذلك.

١٥- كان فرعون موسى يلقب بذي الأوتاد، ولم يرد في البرديات مثل هذا. ونقول: أن لقب ذي الأوتاد أطلقه عليه القرآن.

١٦- من الممكن أن تنسى حادثة، أما أن تضيع رغم ضخامتها، فهذا أمر غير معقول.

هذه الملاحظات (يقول) تدل دلالة أكيدة على أن مصر الحالية ليست هي مصر القرآن. إذاً فأين مصر القرآن؟ (يسأل) وقبل أن يجيب يضيف استنتاجاً من الآية: ﴿وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير﴾ أنه ضروري أن يكون خلا منذرون كثر لكنهم من النوع الذي يأتي ومعه الرجل والرجلان، يقصد إلى القول أن موسى ليس منهم ولكن أنبياء القبط غير أنبياء مصر القرآن.

ويستغرق الجواب عن سؤال: أين مصر القرآن أزيد من ثلاثين صفحة. ويبدأ الإجابة بملاحظات لغوية، ينقلها عن الدكتور مصطفى العبادي:

١- للكلمات السامية في اللغات المختلفة جذر مشترك يتكون من ثلاثة أحرف ساكنة.

٢- حروف العلة لم تكن تكتب في اللغات السامية القديمة. كما يجب أن ننتبه إلى أن قراءات النقوش يقوم بها باحثون غربيون غريبون عن اللغات العروبية.

ولذلك يجب أن يقوم بهذه القراءات علماء عروبيون درسوا اللغات العروبية كالسريانية التي هي لغة قرى في القلمون، ولغة الآثوريين، والكلدانية والحبشية والقبطية.

ثم يورد مجموعة من النصوص عن الدكتور جواد علي في كتابه (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)، ويحاول أن يستنطق النص بقرار مسبق، أن مصر هي غير القبط.

ثم يورد نصاً عن الدكتور مصطفى العبادي أن نقشا يمنياً يفيد أن حرباً وقعت بين اليمن ومصرن (مصر)، يستنتج منه أن مصر شمال اليمن.

ثم يذكر عن جواد علي نصاً مفاده: "إن (برعو) ملك أرض مصري ورد ذكره في ثورة أسدود (سنة ٧١١ ق.م). وورد ذكر (مصري) في أخبار (سنحريب) ملك آشور. وكان ملك مصري وملك ملوخة (مليحة يقول في الهامش) قد قاما بمساعدة اليهود ضد سنحريب".

ثم ينقل عن (ونكلر) أن كل ما ورد في النصوص الآشورية عن (مصري) وملوك أرض مصر أنه إنما قصد به هذه المقاطعة العربية.

ولا إشكال في هذا (يقول) على القرآن، وإنما على التفسيرات المعتمدة رؤية التوراة.

ثم (حسب جواد علي) إن حدود مصر الشمالية تمتد من الخط الواصل بين العقبة ومعان، وتنتهي في الجنوب عند تيماء، فمصر عنده جزء من الشام.

ثم ينقل عن (كمال الصليبي) أحد أشهر من يتبنون هذا الرأي، أن التوراة المحكية بعد موت العبرية التوراتية أصبحت هي التي تقرأ بها الكتب المقدسة اليهودية، ثم أضيف التصويت الخاص للغة العبرية بعد غياب العبرية بأكثر من ألف سنة (التوراة جاءت من جزيرة العرب).

ثم يتكلم عن الإضافات التي أُلحقت بالتوراة كدليل على العبث بها وعدم مصداقيتها التاريخية، كأن ينقل النص: "فمات هناك موسى في أرض مؤاب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم".

ثم ينقل من سفر الخروج: "فارتحل بنو إسرائيل نحو ستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد والنساء، وصعد معهم لفيف كثير أيضاً من غنم وبقر ومواش وافرة جداً...".

ويسأل هو: لو كان الرجال ستمائة ألف فلماذا لم يقفوا في وجه فرعون وجنوده وكم كان هؤلاء؟ إن هذا العدد كان بإمكانه أن يحتل العالم القديم كله.

ثم ينقل عن التوراة أن فرعون زوج يوسف من ابنة كاهن أون...

وينقل عن الشيخ حمد الجاسر من كتابه (المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية): "أن بطليموس ذكر في جغرافية مدينة أون، وأنها على ساحل بلاد العرب السعيدة فيما وراء خليج آيلة... وهي الآن عين أونة أو عينونة". ويستنتج الكاتب من هذا أن مصر القرآن تقع على السواحل الحجازية الشمالية.

ولاحظ أنه أولاً شككنا في مصداقية التوراة، ثم اعتمدها في استنتاجه وجعل مجرد اسم أون وتشابهه مع قرية على الساحل الحجازي فيصلاً في تعيين أن مصر في الحجاز.

وهكذا يواصل نقل النصوص وتوظيفها على هذا النحو... ويطابق بين الأسماء الواردة في التوراة ونظيراتها (ولو من أي وجه لقاء) في جزيرة العرب ليصل إلى نتيجته المقصودة.

ثم يتعسف في فهم الآية وما يستنتج منها: ﴿فألقيه في اليم﴾ يقول: لو كانت مصر القرآن مصر القبط لقال ألقيه في النهر، بينما مصر القرآن بلد واقع على ساحل البحر -أخذاً من الآية- ولم يخطر له للحظة أن اليم هو النيل، والمصريون يسمونه البحر حتى الآن، ثم أقول له أن مصر في حدها الشمالي واقعة على البحر، (ونسيت إسكندرية ليه؟).

وكذا يستنتج من قصة موسى والعبد الصالح في (مجمع البحرين). واستنتاج آخر يستنتجه أن موسى والعبد الصالح كانا يتكلمان لغة واحدة. فلو كانت مصر هي القبط لكان مسيرهما على شاطئ النيل !! تحكم عجيب.

وتأمل هذا التحكم والتجاهل في قوله: "وانطلاقاً من أن مجمع البحرين هو مضيق باب المندب الذي تتفق جغرافيته مع نصوص القصة (كيف ؟!)، ومع منطق الأحداث التاريخية (لماذا؟!) واستبعاداً أن يكون مضيق جبل طارق (ولمَ هذه القفزة البعيدة؟)، لبعده الجغرافي، بالإضافة إلى الانقطاع الحضاري، واستبعاداً لمضيق البسفور، ونستبعد سلفاً (يقول) أن يكون مضيق تيران ملتقى خليج العقبة. وذلك لوقوعه في مملكة مصر، ولأنه لا يحتاج للوصول إليه إلى حقب.

ونقول له: إن قول موسى: ﴿أو أمضي حقبا﴾ افتراضي. أي إن لزم. وليس بالضرورة أن يحتاج إلى هذه الحقب. كأن تقول: لابد أن اشتري هذا الكتاب الذي يتكلم عن جغرافية القصص القرآني ولو بوزنه ذهباً وجواهر... وهو متاح دون ذلك الثمن.

ثم يعين أن اللقاء كان في قرى اليمن .

ثم يستشهد بآية ﴿تزرعون سبع سنين دأبا﴾ ويرى استحالة انطباقها على أرض مصر القبط.

ثم يحيل القارئ إلى آثار مدفونة (افتراضية بالطبع) في عينونة. وأنها ستضع الدنيا أمام الحقيقة (!!) وستقدم للدنيا برهاناً جديداً أن القرآن كلام الله.

ثم يستشهد بحديث النبي عليه السلام عن سيدات نساء الجنة ويذكر منهن: (آسيا بنت مزاحم) امرأة فرعون (رواه الحاكم وآخرون)، يقول: نستأنس من عروبة زوجته عروبته هو (أي فرعون).

(هذا المكسب الوحيد الذي نكسبه من هذا البحث أننا ضممنا فرعون إلى الصف العربي، وهذه غنيمة ضخمة نفحنا بها الكاتب!!).

ثم ينقل عن الطبري في قصة يوسف هذا النص: "فلما تمت ليوسف ثلاثون استوزره فرعون (!!) ملك مصر واسمه الريان بن الوليد بن... الخ. ثم ملك بعده قابوس بن مصعب بن... الخ".

ثم يذكر عن ابن اسحق نصاً مشابهاً. فملوك مصر إذاً من العماليق وهذه الأسماء لا أثر لها في (القبط).

وأقول: فاته أن هذه الأسماء لا سند لها، ويكفي أن الطبري يسميه فرعون، والقرآن ما ذكره إلاّ باسم الملك لتعلم إسرانيلية المصدر.

ثم ينقل عن التوراة أن اليهود لبثوا بمصر (٤٣٠) أربعمائة وثلاثين سنة، فلو كانت مصر هي القبط لظهرت اللغة القبطية في التوراة...

بينما التوراة لا يوجد فيها إلاّ كلمات عربية. ونسي هو أن التوراة –كما قال لنا– غابت ألف سنة ثم كتبت.

ثم يدخل في مبحث جديد بعنوان:

جغرافية مصر:

ويحددها على هذا النحو: من الغرب البحر الأحمر. ومن الشرق سلسلة جبال الشفا (في الكتاب خريطة مرفقة تبين أن جبال الشفا شرق البحر الأحمر. وهي سلسلة الجبال الغربية للسعودية)، ومن الشمال جبل اللوز (كما في الخارطة يقع شمال الشفا)، ومن الجنوب أملج (جنوب الوجه)، فمصر باختصار هي شريط غرب السعودية يمتد من خليج العقبة إلى ينبع.

ثم يستنتج (عجباً) من الآية: ﴿أليس لي ملك مصر﴾ أن مصر ليست القبط. لأنها لو كانت كذلك لقال: وهذا النهر يجري من تحتي، إنما هي أنهار في شمال جزيرة العرب ويستشهد بالحديث: تعود بلاد العرب مروجا وأنهارا.

ثم يتكلم عن (العاصمة) ويبدأ بفرضيات ينهيها بأقواها في رأيه: "أن تكون العاصمة قد هجرت وخربت وأنها قائمة في مكان ما بين (مقنا) و(ضبا)، (مواقع غرب السعودية)، وهذه الخربة المفترضة – يقول– يجب (!) أن يكون اسمها الأصلي (مصر) لأن كل النصوص الواردة توحي أن اسم العاصمة مصر ومنه أخذت الدولة اسمها.

لاحظ التحكم: خربة مفترضة، واسمها مفترض، بل يجب أن يكون مصر. وثالثا أن الدولة أخذت اسمها من العاصمة، وكل هذا بالافتراض. أليس هذا هو التحكم والتعسف والقفز إلى النتائج؟

علما بأننا لا ندافع عن رأي معين، وإنما نتكلم في منهجية البحث بقطع النظر عن مصر أين تكون.

ثم يفترض عجباً هو: إمكان أن تكون مصر تحولت أو تحرفت عن كلمة (شرمة) (مكان بالجزيرة).

ثم يحيلنا إلى المجهول من جديد إذ يقول: "والتنقيبات الآثارية "سوف" نوضح كثيرا من الأمور".

ثم يخرج كلمة فرعون (فرع أون) أي ابن أون، وأون مدينة بالجزيرة.

ثم يأخذنا في جولة مطولة في أسماء المدن والأودية المنتهية بـــ (أن) و (ون) وأنهما لهجتان لحرف واحد (فالسريانية تلفظ الألف واو: بوب، باب).

وأن أون سميت باسم الإله وأن فرعون (ابن الإله)... وعبارته: "لا أستبعد أن تكون كلمــة "أون" في أصل سابق لفظ الجلالة، واستناداً إلى هذه الركائز (!!) يكون القول بأن كلمة فرعون هي في الأصل (فرع أون) هو بناء وطيد على أسس صلبة".

ولم يفته أن يعرج على الصوفية ذماً وقدحاً استطراداً من الانتساب إلى سلالة الرسول، كمــا انتسب فرعون...

ثم يتكلم عن الطور ويسأل أين يقع، ويجيب أنه من الشمال إلى الجنوب على طــول خلــيج العقبة. ويحيلنا من جديد إلى التنقيبات الآثارية (عجّل الله فرجها ومخرجها) على حد قوله.

وفي فصل ثالث يناقش مواقع مقنا ومليحة ودلمون. وأن التصحر كان وراء انتهاء مصر، وغزو من (الآثوريين والبابليين) كان كذلك وراء هذه النهاية لمصر.

ثم ألحق الفصل بنداء: "أيها العرب، إن تاريخكم القديم الذي تقرأونه في الكتب مزور أكثره، إن لم يكن كله. أيها العرب ! أنقذوا تاريخكم القديم، بل تاريخ الإنسانية والحقيقة".

ولا ينسى أن يحيلنا إلى المجهول المستقبلي: "فلو أثبتت البحوث الجيولوجية أن ما أسميناه خليج مليحة كان موجوداً لصارت (البدع) منافسة (للشرمة) أيهما مصر، وأرجح أن هــذا الخلــيج كــان موجوداً، كما أرجح أن الشرمة هي مصر، وفي الحقيقة أني أعتقد هذا".

هو يقول هذا، وهو حر أن يعتقد ما يشاء، لكن لا يسقطه على القصص القرآني.

والفصل الخامس من الكتاب بعنوان: (مدين)، وهو يوظفه لذات الغرض أن مــصر ليــست مصر، فمعلوم أن موسى عليه السلام خرج من مصر إلى مدين طلباً للنجاة. ويجب أن تكون مدين بلدة يصعب ويندر التنقل بينها وبين مصر.

ثم يستنتج من نص القرآن ﴿ماء مدين﴾ أنه ماء واحد، وأنه يستوعب أمة، أي جماعة تسقي في آن واحد. ثم يقول: يجب أن نفتش عن ماء مدين...

ثم يستنتج أن مدين تعتمد على الرعي، وأن موسى ورد ماء مدين بعد الظهر، والظل ظل أي شيء كان، وأن الوقت كان صيفاً أو أوائل الخريف، ثم يلجأ إلى حمد الجاسر لينقل قوله في مدين: "وأنها الأرض الممتدة من طرف خليج العقبة شمالاً إلى قرب ميناء الوجه جنوباً، وقديماً كانت تشمل قسماً من فلسطين وسيناء...".

وينقل نقولاً مطولة عن عدة كتب كالبلخي في معجم البلدان والمقريزي في الخطط، والفاسي، وحمود القتامي، الذين يشيرون إلى أن مدين هي منطقة (البدع) وينقل مثل ذلك عن الخياري، والدرعي، وعبد الغني النابلسي، ولا يعجبه من كلامهم شيء باعتبار أن هذه المنطقة التي يسمونها مدين هـي في نظره جزء من مصر (مصره هو) ولا يعقل أن ينتقل موسى من مصر إلى مصر.

ولكنه يرى أن هذه المنطقة صارت مدين بعدما صارت القبط مصر ! ثم يقرر ببساطة أن هذا التغيير في الأسماء ليس بدعاً في التاريخ. ويقرر: مادامت هذه ليست مدين لأنها مصر فأين مدين؟.

ويشير أولاً إلى اختلاف مدين شعيب عن مدين موسى... لاحتمال أن تكون مدين شـعيب ظلت خرائب بعد هلاكها بالصيحة. والبحوث الآثارية سوف تكون الفصل..وعسى أن تكون قريبة !

ثم يخلص إلى أن مدين يجب أن يكون التنقل بينها وبين مصر نادراً، وهذا يقتـضي -حـسب المنطق الإنساني الواقعي- أن تكون بلدة غير ذات أهمية، ويجب أن تكون في مكان صحراوي أو شـبه صحراوي.

ويخلص إلى استنتاج أن الطريق الذي سلكه موسى هو طريق وادي عفـال، وأن مـدين في الشمال من سيناء، ويقول أنه لاحظ في تنقله بين عمان والعقبة وجود لافتتين باسم مدين... على يمـين الذاهب من معان إلى العقبة على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً عن معان. وبعدها بعشرة كيلومترات لافتـة أخرى، ثم يقص علينا رحلاته وسفراته إلى جنوب الأردن بحثاً عن مدين وأنه لم يوفق.

الفصل السادس: إرم ذات العماد: ينقل عن حمد الجاسر ومعجم البلدان لـياقوت واللـسان وجواد علي أن إرم، جبل من جبال حسمى من ديار جذام بين إيلة وسيناء، وأرض حسمى كما يقـول جواد علي أرض الحويطات، بها جبل يقال له الآن رم، ورم هذا أعلى جبال الأردن (١٧٥٤م) ويقف عند قوله تعالى: ﴿إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ وينقل عن الـدكتور صـلاح الـدين البحيري قوله: "تنفرد صحراء حسمى عن سائر جهات الإقليم الصحراوي الداخلي بأشكال أرضـية جمعت بين تضاد المناسيب والمنحدرات، وبين براعة الألوان، وتنوع صور اللاند سكيب بـشكل فـتن الإنسان العربي منذ أن اتخذت قوافله من هذه الأرض بوابة لولوج شمالي شبه الجزيرة العربية، وما برح الأمر كذلك حتى اليوم، حيث يعتبر وادي رم من عجائب الطبيعة التي يقبل السياح على مشاهدتها من كافة جهات العالم". (جغرافية الأردن).

ثم ينقل عن المفسرين أن الأحقاف، بمنطقة الشحر باليمن. ثم ينفي هذا بقوله تعالى: ﴿فلمـا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم...﴾ وهذا الوصف ينطبق على رم، ويرجحها كذلك بقوله تعالى: ﴿أتبنون

بكل ريع آية تعبثون ﴾ وينقل عن ابن كثير أن الريع المكان المرتفع عند جواد الطرق، يقول وهذا منطبق على رم.

ويضيف في نهاية الفصل صوراً فوتوغرافية وخرائط يؤكد بها أن وادي رم هو مكان إرم ذات العماد. والفصل حيوي وجيد في عمومه.

-والفصل السابع والأخير من الكتاب بعنوان: الإفسادان. ويستغرق خمس عشرة صفحة، يتكلم فيه عن إفساد بني إسرائيل الذي أوردته سورة الإسراء، ويبدأ القضية بسؤال لمن الخطاب موجـــه في الآيات؟ وهو المفتاح الخطأ في ظني، أقصد أن الإجابة الخاطئة التي أجابها الكاتب هي التي انحرفت ببحثه عن مداره ومساره وأخرجته عن الصواب.

فهو يقول: أن الخطاب موجه إلى المسلمين، ويعيب على الذين يجعلونه موجهاً إلى بني إسرائيل، وتأمل كيف يصبح النص على طريقته في الفهم: الخطاب كله -يقول موجه لنا نحن المسلمين باستثناء: ﴿لتفسدن...ولتعلن﴾ يقول: "ومع هذا التوضيح يصبح معنى الآيات واضحاً". وأقول: إنه عقّد الموضوع وما وضحه.

يقول (وتأمل وتعجب): "فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم يا مسلمون، ثم رددنا لكم الكرة يا مسلمون، وأمددناكم -يا مسلمون- بأموال وبنين... ويستنتج: إذا فالإفساد الأول والثاني لم يحـــدثا قبل نزول القرآن.

فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم: بانتشار الانحلال بفعل المكر الماركسي بين كثير من المسلمين، وفشو الصوفية في الذين يظنون أنفسهم ملتزمين بالإسلام، والفهم المزيف للواقع لدى كـــل المسلمين، ومنهم المسكون بالكتاب والسنة.

وليتبروا يدمروا- ما علا المسلمون تدميراً. وما الخلاص للمسلمين من هذا؟ إنـــه ﴿عـــسى ربكم أن يرحمكم...﴾ .

ونحن الآن في الإفساد الأول، والإفساد الثاني: الدجال ملك اليهود. وإن عدتم عدنا: ســـيعود المسلمون إلى الإفساد بعد انقضاء الإفساد الثاني. وأما عباداً لنا فيرجح أن اللفـــظ مطلـــق ولا يفيـــد التشريف.

والواقع عكس ما قال، وهذا من أوهن فصول الكتاب.

الكتاب الثامن:

سلسلة أعلام قرآنية:

الخضر بين الواقع والتهويل

تأليف: محمد خير رمضان يوسف

ط ١، دار المصحف: دمشق، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

الخضر بين الواقع والتهويل / محمد خير رمضان يوسف:

دور المؤلف كما قال هو -في كتابه هذا- التنقيب والجمع، والترجيح أحياناً. والأقوال مضطربة، متناقضة، لا جامع بينها، ففي اسمه قرابة عشرة أقوال، وفي أبيه مثل ذلك، وفي كونه نبياً أو ولياً مذاهب وآراء... وكل نقطة فيها بحر من الخلاف.

ويغلب على الكتاب الطابع الصوفي، فالمؤلف صوفي النشأة والنزعة، وكثير من النقول عن الكتب الصوفية.

وأغلب الكتاب دائر على روايات ضعيفة بادية الضعف لأول وهلة، وكان الكاتب في كثير من الأحيان يبين ضعفها.

تعريف عام بالكتاب:

هو الكتاب الأول لمؤلفه الذي هو خريج كلية الشريعة. ويقع الكتاب في ثمان وستين صفحة وثلاثمائة. قسّمه إلى ستة فصول، وتحت كل فصل عناوين فرعية عديدة. قدم للكتاب الشيخ علوان حقي بمقدمة، ثم الشيخ إبراهيم البوطي بمقدمة، ثم الشيخ عدنان حقي ليقدم بمقدمة ثالثة عن الخضر، هذا سوى مقدمة المؤلف. فالفصل الأول يبتدئ بعد أربعين صفحة.

يقول الشيخ علوان في المقدمة الأولى: "إن مرد تقديسنا (!) للخضر هو إيماننا بكتاب الله. حتى إن موسى ليحار من تفسير أعماله. ثم يعرفنا بأن المؤلف من المترددين عليه في حلقات الدرس والذكر".

أما تقريظ البوطي فقال فيه: "إن هذا الكتاب أول كتاب تقع عليه أعين القراء من نوعه وموضوعه، وإن المؤلف جمعه عن أبي العباس الخضر من مراجع يعز على طالب العلم منالها إلاّ بعد مشقة".

أما المقدمة الثالثة لعدنان حقي فقال فيها: "أمْر الخضر من الغيبيات التي توافرت عليها الأدلة من الكتاب والسنة، وإن الماديين يصعب عليهم الإيمان بالخوارق"، ثم أشار إلى كتاب للدكتور محمد صبحي أبو غنيمة في كتابه: (نظرة في أعماق الإنسان)، يشير فيه إلى اضطراب الماديين حول الأسباب الغيبية للأمراض. ثم قال: "إن خوارق الخضر تتردد بين الكرامة والمعجزات، فإن قلنا إنها معجزات فهو نبي، وإن قلنا إنها كرامات فهو ولي".

ثم استأنس الشيخ بكلام لوالده مفاده: "أنه لو كان ولياً لما أظهر الكرامة فحيث أنه أظهرها فهو نبي" !!.

أما في المقدمة الرابعة التي هي للمؤلف فبدأها بالأسئلة: "من هو الخضر؟ ومتى ولد؟ وهل هو شخصية حقيقية أم خيالية !؟ وهل هو حي يرزق؟ وهل صحيح أنه يلتقي بالناس؟". يقول: "إنما تساؤلات لا أجوبة لها كافية يعتمد عليها ويحسم بها الخلاف". ثم ذكر لنا (قصته مع الخضر) وأن الحديث عنه رافقه منذ الصغر. ثم بين أن عمله في الكتاب لا يعدو التنقيب، والتحقيق والتدقيق، وهو لم يعثر على كتاب خاص عن الخضر فأراد أن يكون كتابه مرجعاً عنه.

وقال إنه اعتمد كثيراً على روح المعاني للآلوسي. ثم أمهات كتب التفسير. وفي التمهيد ذكر المؤلف كتباً عن الخضر لكنها غير موجودة، وذكرها كشف الظنون وذيله، منها: عجالة المنتظر في شرح حال الخضر لابن الجوزي (٥٩٧هـ)، وقصة الخضر لأحمد البساطي (٨٤٣هـ)، والزهر النضر في أنباء الخضر لابن حجر (٨٥٢هـ)، والقول المنتصر على الدعاوى الفارغة بحياة أبي العباس الخضر لابن الأهدل اليمني (٨٥٥هـ)، والقطب النضر في حال الخضر للخيضري (٨٩٤هـ)، والوجه النضر في ترجيح نبوة الخضر للسيوطي (٩١١هـ)، والروض النضر للكلام عن الخضر للكرمي المقدسي (١٠٣٣هـ)، والقول الدال على حياة الخضر ووجود الأبدال لنوح الرومي (١٠٧٠هـ)، وكشف الخدر عن حال الخضر للخادمي (١١٧٦هـ)، والجواب المحرر في الكشف عن حال الخضر والإسكندر للسفاريني (١١٨٨هـ)، وشذا العطر في سيدنا إلياس والخضر لابن المنير الدمشقي (١٣٤٢هـ).

ثم قال الكاتب إنه بعد الفراغ من طبع الكتاب وقع على فصل طويل عن الخضر في الإصابة لابن حجر، سيستفيد منه في طبعة قادمة.

ثم نبهنا تحت عنوان (عزيزي القارئ) ألاّ نندهش إذا رأينا أموراً غير عادية لأننا في صحبة الخضر.

الفصل الأول: اسمه ولقبه.

بعد هذه المقدمات التي استغرقت أربعين صفحة كما أسلفنا، يبتدئ الفصل الأول ويشمل: اسمه ونسبه، لقبه، كنيته.

أما اسمه فقال إنه مختلف فيه. ونقل عن معارف ابن قتيبة أنه: بليان بن ملكان. وذكر أسماء أخرى عن النووي في تهذيب الأسماء، والبداية والنهاية، ومنها: (إيليا، معمر، وارميا، وخضرون، وبليا، وعامر، وأحمد).

واختلفوا في اسم أبيه. ونقل عن فتح الباري عدة أسماء: (ملكان، كليان، عاييل، قابل، فرعون، ابن بنت فرعون، طيفاء، مالك).

وذكر عن الدارقطني وابن عساكر أنه ابن آدم لصلبه... وهو منقطع كما قال ابن كثير. وذكر السجستاني: أنه ابن قابيل. وأوصل وهب نسبه إلى سام. وعن ابن المسيب: "أن أمه رومية وأباه فارسي. وإلياس أخوه لامه".

ثم نقل عن الآلوسي بعد كل هذا أنه لم يصح عنده شيء من هذه الأقوال. ونأسف أن كثيراً من معارفنا من هذا القبيل، قال وقيل... ثم لا تصمد للبحث والنظر والتحليل والتعليل.

أما الخضر فلقبه كما أخرج البخاري عن رسول الله أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء. وفسروا الفروة بأنها الأرض. وكنيته أبو العباس.

الفصل الثاني: بداية حياته.

من ص٥١–ص٥٥ أي أن الفصل دون الأربع صفحات. ذكر عدة روايات عن الطبري منها أنه كان على مقدمة ذي القرنين أيام إبراهيم. وفي رواية أنه والإسكندر ابنا خالة (لاحظ التباعد الزمني). ويعلق الكاتب بأنه قول جاهل لأن الإسكندر بعد موسى بألف سنة.

وزعم وهب أنه من بني إسرائيل واسمه أورميا بن خلقيا، ولم يقبله الطبري. وروى في البداية والنهاية أنه كان حصوراً. وفي القرطبي أنه شرب من عين الحياة. (انظر كيف يقبل العقل المسلم هذه الخرافات الإسرائيلية؟ وما هي عين الحياة؟!).

الفصل الثالث: هل الخضر نبي أم لا؟

ص٥٩–ص٨٣. قال الماوردي: هو ولي، وقيل هو نبي. وقيل من الملائكة. قال ابن كثير: "وهذا غريب جداً". وغلّطه كذلك النووي.

والجمهور على أن الخضر نبي. وقال غير الجمهور: "إنه رسول". وقال آخرون: "إنه ولي". وعليه كثير، وهو عند الصوفية المحققين ولي لا نبي. قال النووي: "القول بولايته خلاف المختار". وقال الرملي في فتاواه: "هو نبي، لقوله: ﴿وما فعلته عن أمري...﴾ ".

وقال أبو عمرو بن الصلاح: "هو نبي، اختلفوا في رسالته". وقال ابن عربي في فتوحاته: "إنه رسول". وقال الآلوسي: "هو مرجوح". وقال الثعالبي: "نبي معمر محجوب عن الأبصار".

قال المؤلف: "القول برسالته لا يستقيم لأن عليه واجب التبليغ. فهو ليس برسول". والمؤلف منطلق من مفهوم مغلوط: أن النبي لا يبلغ، وهذا غير صحيح، فلئن كان التبليغ واجباً في حق المؤمن والمسلم العادي أفلا يكون واجباً في حق نبي؟ فالرسول والنبي من حيث البلاغ شيء واحد، ولكن في نظرنا يفترقان من حيث أن الرسول آتى بوحي جديد، وليس كذلك النبي.

أما دلائل النبوة التي يذكرها المؤلف فقوله تعالى: ﴿آتيناه رحمة...﴾. فسّروا الرحمة بالنبوة. وذكر المؤلف أن الرحمة قد تعني عند المفسرين عدة معان، وذكر نماذج... لكنه رجح قول الجمهور أنها النبوة.

وليس صحيحاً في نظري. فهو نبي من طريق غير هذا الدليل. واستدل كذلك بقوله تعالى: ﴿وما فعلته عن أمري...﴾. قال القرطبي: "هو نبي".

قال ابن كثير: "فيه دلالة (في الآية) لمن قال بنبوته". ثم ذكر دلائل من قال بالولاية، وردهم على دلائل النبوة. ثم رد على من قال بالولاية.

ثم خلص إلى: "إن نفاة نبوة الخضر لا تنهض أدلتهم حجة على مدعاهم. أي الراجح نبوته". ثم ذكر من الردود أن الإلهام ليس حجة واسند مثل ذلك للشعراني والسهرندي (ولعله السرهندي). ثم خلص إلى قضية حكم الاعتقاد بنبوة الخضر، وأنه لا يكفر من قال بعدم نبوته لعدم توافر التواتر.

ثم دخل في تفصيلات الأقوال في العلم اللدني، ونقل عن الشعراني "إن الفقهاء وأهل الحجاب يطلقون عليه العلم الباطن".

"المهم (يقول المؤلف) أن العلم الذي أوتيه الخضر لم يفقه فيه موسى. ولذلك فقد غدت القصة مضرب المثل عند العلماء في تبيين آداب العالم والمتعلم". ثم نقل عن الآلوسي: "أن علم موسى أزيد في علم الشريعة والخضر أزيد بعلم الحقيقة".

الفصل الرابع: موسى والخضر. (موسى والعبد الصالح من هما؟)

هذا الفصل قرابة مائة صفحة فهو قريب من ثلث الكتاب. يبتدئ الفصل بحديث البخاري عن الخضر، وفيه أن سعيد بن جبير، قال: "قلت لابن عباس: (أن نوفاً البكالي) (ابن امرأة كعب الأحبار) (يروي له عن كعب) يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل". قال ابن عباس: "كذب عدو الله".

حدثنا أبي بن كعب أنع سمع رسول الله يقول: "إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه. فأوحى الله اليه: أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك...".

واحتج بالقول على صحة قولنا (أي أنه موسى موسى): "إن الله ما ذكر موسى إلاّ أراد صاحب التوراة". وهذا صحيح.

وأهل الكتاب يزعمون أن موسى هذا ليس موسى بني إسرائيل. ثم يقول: "إن قصة موسى والخضر هي قصة الحياة وقصة الكون (عن الندوي)".

وقد كرر الكاتب في هذا الفصل حديث موسى والخضر مرات عديدة... ثم نقل سرد القصة عن جاد المولى. ثم فسر الآيات في أكثر من خمسين صفحة من الكتاب أي حوالي سدسه. ثم أعقب بوصايا الخضر في صفحات عدة.

ثم نقل عن الغزالي قوله: "وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار". ثم ذكر دروس القصة وذكر خمسين درساً كلها ظاهر. ونقل عن الندوي: "إن القصة تحد للتفكير المادي". وكلام الندوي طيب نفيس.

الفصل الخامس: الخضر هل هو حي أم ميت؟

ذكر عن النووي أنه اختلف في حياة الخضر. فقال أكثر العلماء: "إنه حي". قال: "وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح... وحكاياهم في رؤيته والاجتماع به مشهورة لا تحصى. (شرح صحيح مسلم)".

وقال إسماعيل حقي: "والأكثرون على أنه موجود. وهذا متفق عليه عند الصوفية والشيخ الأكبر (ابن عربي) ومكي، والحكيم الترمذي، وقد ثبت وجوده، فلا يكون عدمه إلاّ بدليل". وقال الثعالبي: "إنه لا يموت إلاّ في آخر الزمان عند رفع القرآن".

وقال ابن الصلاح: "هو حي عند جماهير العلماء، والعامة معهم في ذلك، وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين". وابن كثير في البداية قال: "فالجمهور على أنه باق إلى اليوم". وابن حجر الهيتمي المكي: "المعتمد هو حياته". وصاحب إرشاد الساري: "والأكثرون على حياته، واتفق عليه سادات الصوفية: كابن أدهم، وبشر الحافي، والكرخي، والسقطي، والجنيد، وبه قال عمر بن عبد العزيز".

وقال اليافعي: "كون الخضر حياً هو الذي قطع به الأولياء. وفي تفسير سر بقائه إلى اليوم أنه دفن آدم بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوة أبيه آدم بطول الحياة". (هل فهمت شيئاً...!!).

وقيل: "شرب من عين الحياة". (أين محلها؟ هذه خرافات اليهود..!!) وقد روى هذا وهب بن منبه (عرف السبب...).

وقال الدارقطني: "مد للخضر في أجله حتى يكذب الدجال". قال معمر: "بلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه".

قال ابن كثير: "وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري". إلاّ أن ابن كثير قال: "وقول معمر وغيره: بلغني، ليس فيه حجة". ثم ذكر الرد على من قال بحياته.

ومن الردود: أنه لو صح بقاء بشر إلى قرب خراب الدنيا لكان ذلك من العجائب وكان خبره في القرآن مذكوراً. وأن هذا القول، قول على الله بغير علم. وأنه لو كان موجوداً لشاهده الناس.

قال ابن كثير: "رجّح السهيلي بقاءه، وحكاه عن الأكثرين، وأما اجتماعه بالنبي وتعزيته لأهل البيت فمروي من طرق صحاح (!!)". ورد ابن الجوزي على من قال ببقائه (البداية والنهاية).

ثم ذكر أبياتاً للسيوطي يذكر فيها السؤال والجواب نظماً، ومنها:

من بعد حمدي دائماً وثنائي	ثم الصلاة لسيد النجباء
للناس خلف شاع في خضر وهل	أودى قديماً أو حيي ببقاء
ولكل قول حجة مشهورة	تسمو على الجوزاء في العلياء
هذا جواب ابن السيوطي الذي	يرجو من الرحمن خير جزاء

ثم ذكر أدلة من قال بموت الخضر، ومنهم البخاري والحربي وابن المنادي، وابن الجوزي، وابن حزم، وابن العربي المالكي، وابن الفراء وأبو حيان... وقد انتصر لهذا الرأي ابن الجوزي في كتابه: عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر. ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد...﴾.

ثم إنه قد أخذ الميثاق على النبين أن يؤمنوا بمحمد، فكما قال البخاري: "لو كان في زمن النبي لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه صلى الله عليه وسلم". وقد روى أحمد أنه لو كان موسى حياً لما وسعه إلاّ اتباع النبي...

ثبت في الصحيحين من قوله عليه الصلاة والسلام: "أرأيتم ليلتكم هذه فإنه إلى مئة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد".

قال ابن الجوزي: "فهذه الأحاديث وغيرها تقطع دابر دعوى حياة الخضر". ثم ذكر من الأدلة قوله عليه السلام: "لا نبي بعدي". وناقشه إسماعيل حقي. ثم ذكر الردود على الردود... على عادة علمائنا...

ثم نقل عن القاشاني قوله: "الخضر كناية عن البسط وإلياس عن القبض". وقال الشاذلي: "إن الخضر مقام لا إنسان". وقال: "لكل ولي خضر هو تمثل روح ولايته (الطبقات الكبرى للشعراني)".

ثم عنون: (رأي السادة الصوفية)، وتحته ذكر عن الفتوحات المكية: "اعلم أن الله تعالى في كل نوع من المخلوقات خصائص وصفوة، وأعلى الخواص فيه من العباد والرسل. بمعنى أن المقام الذي أرسل منه، أعلى منزلة عند الله من سائر المقامات، وهم الأقطاب والأئمة والأوتاد، الذين يحفظ الله بهم العالم، ويصون بهم بيت الدين القائم بالأركان الأربعة: الرسالة، والنبوة، والولاية، والإيمان... وأبقى الله بعد وفاته عليه السلام من الرسل الأحياء بأجسادهم في هذه الدار أربعة: إدريس وإلياس وعيسى والخضر... وكلهم الأوتاد واثنان منهم الإمامان، وواحد منهم القطب. وبالواحد منهم يحفظ الله الإيمان، وبالثاني الولاية. وبالثالث النبوة، وبالرابع الرسالة، وبالمجموع الدين الحنيفي، والقطب من هؤلاء لا يموت أبداً، أي: لا يصعق. وهذه المعرفة لا يعرفها من أهل طريقتنا إلاّ الأفراد الأمناء... فكونوا لها قابلين، وبها مؤمنين، ولا تحرموا التصديق بها، فتحرموا خيرها".

أقول: وكلام ابن عربي خطير، ورائحة الشرك منه تفوح، وتقديم الولاية على الرسالة واضح، وكيف أن القطب لا يموت أبداً ؟!.

ثم تحت عنوان: (كيف نوفق بين آراء العلماء) قال: "أين نضع حجج وبراهين العلماء الذين ذكروا موت الخضر؟ وهناك من ذكر أنه حي يلتقي بالناس؟ وفيهم من العلماء من لا يشك بأقوالهم؟ أمثال النووي والغزالي وابن عبد العزيز وابن الصلاح؟ ماذا نفعل بهذه الأقوال المتكررة من رؤية الخضر، وأقوال العلماء الذين يرون موته. وهي تشع حجة وبياناً ؟" (أيّ الوجهتان تشعان حجة وبياناً..!؟).

(هل انتبهت إلى صنيع المؤلف؟ وكيف عنون: (كيف نوفق بين آراء العلماء؟) لقد حكّم مسار البحث بالتوفيق لا بالترجيح، لينفذ ما يريد...).

نعود إليه يفسر اجتماع الأولياء بالخضر بأنه اجتماع نوراني من رؤية المثال لا في علم الشهود كما يرى النبي عليه السلام. والله أعلم. هكذا أنهى الكاتب القضية.

ومر على أسئلة خطيرة كبيرة بمنتهى البساطة في سطرين في عجالة لفّق فيها أو وفّق كما قال بين الأقوال.

وأقول: أما أنه حي فمما لا سبيل إليه... فأين هو؟ ولماذا هو حي؟ وما هي مهماته؟ ولماذا يخرق السنن والنواميس؟ أسئلة كثيرة...

الفصل السادس: هل يلتقي الخضر بالناس؟

كنت أعتقد أن المكان الطبيعي لهذا فيما مضى، لكن الكاتب أفرد هذا بفصل خاص. وقد أعاد فيه ما قاله مرات من أول الكتاب: "أنه ابن آدم، وأنه وأنه..." فكرر وأعاد...

ثم طمأننا إلى أنه لن يعجل في جواب القضية وفي الحكم في المسألة بل "سنمضي معاً في مخطط البحث... وللقارئ أن يميز ويحكم".

ثم يذكر رواية عن الأصفهاني من أعرق الإسرائيليات، فلا نذكرها. يعلق عليه ابن كثير بأنه ليس مرفوعاً بل هو موقوف !!.

ثم يذكر التقاءه بإلياس، وأعاد الأقوال مرة أخرى بخلودهما... وذكر عن الهروي أنهما يلتقيان في كل عام. (وهو يرفع الحديث ورفعه منكر) ثم ذكر لقاءه بموسى. (وهذا قطعي لوروده في القرآن، لكن وضعه في هذا السياق مشكل).

ثم علق: "فهل يعتبر الغافلون؟ وهل ينتبه النائمون؟. ألا ما أكثر العبر، وما أقل الاعتبار !" (لم نفهم. يريد أن يقول ماذا ؟).

وأعاد حديث البخاري للمرة... (لم أعدّ... لكن بشكل ملفت غير مقبول). ثم ذكر رابعاً ما ورد من لقائه بالرسول عليه السلام وذكر عدة أحاديث !! وأغلبها منكرات ولا أصل لها كما يقول الكاتب...

وتحت عنوان: (هل الخضر من الصحابة ؟) قال: "لم يصح في حديث اجتماع الخضر بالنبي عليه السلام ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولا موته". (قول الحافظ العراقي وقال المؤلف: لم أر أحسن منه). وأقول: هو لم ير أحسن منه لأن الكاتب يريد أن يبقي القضية غير محددة ولا منضبطة، وهذا يساعده أتم المساعدة !.

وأعاد تحت عنوان: (ما ورد عن لقاءاته بمن بعد الرسول)، أعاد الروايات والأقوال التي مرت ومر مثلها، فلم يكن له داع. فأعاد رواية التعزية للمرة الثالثة (ربما). وناقش الروايات نقاشاً (فنياً) أقصد حديثياً جيداً... وغالبها أو كلها في إسنادها مجاهيل...

ثم ذكر اجتماعه بالخلفاء، واجتماعه بالعلماء والأولياء والعارفين. والروايات كلها ضعيفة (أقصد متروكة) أما الروايات والنقول عن العارفين فأفاض فيها منهم من حج معه ومنهم من دخل بغداد معه... ثم ذكر قائمة طويلة ممن كان يلتقي بالخضر.

وذكر عدداً كبيراً ممن التقى به وحمله السلامات إلى العارفين... واستمع لهذه الرواية واكتم أنفاسك: "قيل لبعض العارفين: بلغنا أنك ترى الخضر. فتبسم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب..!!" (إحياء علوم الدين).

ونقل القشيري عن بعضهم أنه أراد الخضر منه أن يصحبه فأبى، فسئل عن ذلك فقال: "خفت أن يفسد علي توكلي". (!!)

ثم يذكر ثامناً لقاءه بالعامة -بعد عشرات الروايات عن اللقاءات مع الخاصة- وأعاد قول النووي ببقائه...

ومن الروايات أو التحف، أخرج الطبراني: "أن رجلاً دخل على أحمد وعنده جمعٌ، فقال: من منكم أحمد بن حنبل؟ فقال: ها أنا. فقال: جئتك من أربعمائة فرسخ براً وبحراً، أتاني آت. فقال: تعرف أحمد؟ قلت: لا. قال: فأت بغداد وسل عنه، فإذا رأيته، فقل: الخضر يقرؤك السلام، ويقول: إن ساكن السماء الذي على عرشه راضٍ عنك، والملائكة راضون عنك، بما صبرت نفسك لله".

وأقول: إن الأمة طالما قبلت مثل هذه الروايات فهي في شر حال. فأولاً لـمَ يقطع الرجل أربعمائة فرسخ؟ ليبلغ السلام؟ فليبلغه الخضر بنفسه... وأن الله لم يبلغ الصحابة مثل هذا أفيبلغ أحمد؟

ولم يفت الكاتب أن يضع لنا (شروط الاجتماع بالخضر) لمن يريد التقدم نحو هذا الأمر. أول الشروط: أن لا يكون على بدعة. (والكلام كله في البدعة). ثم ألاّ يحرص على الدنيا، وأن يكون سليم الصدر، ثم ذكر من أوصاف الخضر.

آراء في اللقاءات:

هذا عنوان آخر من مباحث الكتاب. ذكر فيه أن الروايات أغلبها لا يخلو من ضعف في الإسناد (فقط... ضعف...!) وقصاراها (!) أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره.

وفي الختام أو الخاتمة قال: "الذين قالوا بموته لم يصح لديهم دليل، والذين ذهبوا إلى حياته قالوا: طالما لم يرد حديث في حياته أو مماته فما المانع من أن يكون حياً؟ سيما وقد قال به علماء أعلام؟ وعلى الذي يرجح موته (يقول الكاتب) أن لا يتشبث بالتعنت".

ويفسر سبب انتشار ذكر الخضر، ويذكر من الأسباب: "دخلت قصص إسرائيلية كثيرة إلى كتبنا التاريخية وتفاسيرنا، وكثر الوعظ بها وتسوهل في أمرها حتى روجت أخبار كثيرة لا أساس لها... وحجتهم في هذا: قوله عليه السلام: "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج". لكن صيغة الأمر قد خرجت عن مقتضى الظاهر إلى إباحة الرواية لا إباحة الاعتقاد. ومن أسباب ذلك أيضاً: القصاصون".

وأخيراً يقول بطريقة لا تحسم ولا تشفي: "إنه لم يرد عن استمرار حياة الخضر أي حديث صحيح. والذين يقولون بحياة الخضر مستندهم ما يشاع عنه من خوارق ولقاءات... تلك الحكايات التي تلقاها معظم العلماء (!!) بالقبول، ولم ينكروها، لوجود أدلتها في الجملة... مع عدم تحقق موته. لهذا اطمأنت العامة إلى هذه الأخبار.

لكن العقل المجرد (!!) عندما يطل من نافذته المحدودة (لاحظ) قد لا يسلم بهذه الظاهرة. فيتردد في الإدلاء برأيه... أيقدم أم يحجم.

ومهما يرد في شأن الخضر فلا سبيل إلى نكران ذاته وكثير من أحواله الغريبة التي خفيت على موسى. (!)

أما موته فإن قامت عليه أدلة قطعية فكل نفس ذائقة الموت وما لم تقم تلك الأدلة فلا مانع عقلاً ونقلاً من أن تستمر حياته، لوجود أصناف من الخلق كذلك، والله أعلم".

وختم كلامه بالآية: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلاّ في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾. وأشهد أن الكاتب فنان في اصطناع أنه يقف في الحياد، وهو منحاز من أول الأمر، وحتى في صياغة الآراء يصوغها بطريقة تجعل الرأيين رأياً واحداً. وهل لاحظت كيف جعل رأي الذي يقول بموته ينتهي إلى القول بحياته كالقول الأول.

وهل لاحظت أن الآية جاءت ليزيد بها وجهته ؟! وقد كان يشتد في النفي أحياناً ليصل إلى الإثبات عبر مركب النفي. فأكرر براعة الكاتب، وأنه في ادعائه الحياد كان ذكياً، ومقْنعاً... (بسكون القاف).

والكتاب بعد كل هذا نموذج لما صنعت الروايات، والإسرائيليات بالذات من مخرقة وصناعة عقل خرافي خوارقي أغرق الأمة في بحر الظلمات وأوقعها في مستنقع الأساطير والخرافات... وما بنا حاجة إلى كل هذا الجهد ولا كل هذه الروايات، فيكفينا ما ذكر القرآن من قصة موسى والعبد الصالح، ولو أراد القرآن تسميته لسماه، ولو كان في اسمه أية مصلحة للأمة لذكره كتاب الخلود.

الكتاب التاسع:

الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام

تأليف: الدكتور حسن محمّد باجودة

ط٢، جدة: مطبوعات تهامة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م

الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام / الدكتور حسن محمّد باجودة:

تعريف عام بالكتاب:

يقع الكتاب في ٥٦٧ سبع وستين وخمسمئة صفحة. ومؤلفه هو الدكتور حسن باجودة أستاذ الدراسات القرآنية البيانية بجامعة أم القرى، واختصاصه لغة عربية. وقد طبع الكتاب في طبعته الأولى في مصر سنة ١٩٧٤، فبين الأولى والثانية حوالي عشر سنوات... مع أن الكتاب جيد ونفيس، ولكن المؤلف كما يقول شغل عن إعادة الطبع بسلسلة كتبه عن عشر سور وأكثر دراسة موضوعية، وهي مريم، يس، الإسراء، الفرقان، العاديات، النازعات، الحاقة، الرعد، محمد، الفاتحة، والأحزاب.

ويقول أن الكتاب أثار الكثير من النقاش في الأوساط المختلفة، وقد حاز الكتاب جائزة البحث العلمي لجامعة الملك عبد العزيز سنة ١٩٧٤، وأبلغ المؤلف أن الكتاب يترجم إلى اللغة الإنجليزية.

ويضرب المؤلف مثلاً على اللفتات اللغوية ودقائق الفروق بلفظتي جاء وأتى، فيقول: "إن جاء للزمن القريب، وأتى تدل على البعد الزماني، ويستشهد بالآية ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾.

وفي مقدمة الطبعة الأولى يبين أن الكتاب يتكون من أربعة فصول:

في الفصل الأول: بين وحدة الأحداث الموضوعية في السورة بشقيها القصصي والتعقيبي، في ضوء فهم الوحدة الموضوعية، بأن يكون العمل متماسكاً بحيث أن كل جزئية تفضي إلى التي تليها. وعرج في هذا الفصل على جمع القرآن بين الناحيتين الفنية والدينية وأن الأولى في خدمة الثانية. وأن الغرض تثبيت فؤاد النبي. وأن القسم الأول حقق غرضه في نغم موسيقي قصصي مؤثر في الوجدان محرك للعقل، والثاني (التعقيبي) حقق غرضه في نغم موسيقي آخر، وكان نصيب العقل فيه موفوراً..

وفي الفصل الثاني درس الشخصيات التي لها دور فعّال في دفع أحداث القصة إلى الأمام. وفيه بيّن كيف تطورت الشخصيات.

وأفرد الفصل الثالث لدراسة شخصية يوسف.

والرابع كان من شقين؛ الأول: المجتمعات في سورة يوسف. والثاني: الدروس.

ولم يفته في نهاية مقدمته أن يبين أنه لم يحمّل حرفاً واحداً في كتاب الله فوق ما يحتمل. والآن إلى عرض الكتاب.

الفصل الأول: وحدة الأحداث الموضوعية في سورة يوسف.

هذا الفصل اثنتان وأربعون صفحة من ص٣٥-ص٧٧. بيّن في البداية أهمية الوحدة الموضوعية في العمل الأدبي. ثم عرّف الوحدة الموضوعية بأنها "أن يكون العمل الفني متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك بحيث أن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف أي جزئية لأن العمل يستغني عنها، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها".

ثم أشار إلى تكون قصة يوسف من قسمين: القصصي، والتعقيبي. وابتدأ بعرض القسم القصصي، فقال إن القصة ابتدأت بالإشارة إلى الرؤيا التي رآها يوسف... ولم يفته بالطبع أن يشير إلى دور الرؤيا في القصة في هذه السورة. وأن الشخصيات التي تدور حولها القصة قد ذكرت منذ البداية، وهناك إشارة إلى الصراع المنتظر حينما نصح يعقوب ابنه ألاّ يقص رؤياه على اخوته.

ثم يشير إلى محاولة أخوة يوسف لأخذه، وتعلل أبيهم بالذئب، فعندما يدعي الأخوة مستقبلاً أن الذئب أكل يوسف فلن تكون الدعوى غريبة. إن النفس مهيأة لتلقي مثل هذا... وكذلك السيارة والالتقاط والبيع... كل ذلك متوقع في ذلك العصر.

وننتقل مع العنوان التالي: يوسف في بيت العزيز، إلى مشهد آخر من عرض القصة، فقد وصل يوسف إلى مصر. وأكرمه عزيزها، وأوصى زوجه بإكرامه. وتشير الآيات المتحدثة عن هذا المشهد إلى ما آتاه الله ليوسف من حكمة ستنقذه من الورطة التي سيقع فيها، وهي المراودة. لقد أنقذه عقله، ثم شهادة الشاهد، وأحق الله الحق وأزهق الباطل.

ثم بيّن الكاتب ما دار بين النسوة من حديث عن امرأة العزيز وأنه طبيعي من نسوة عشن في مجتمع عابث. وخير دليل على مجون ذلك المجتمع أن العزيز لم يفكر في مجرد التفريق بين امرأته والفتى. ثم كان ما كان من جمع النسوة وكسب امرأة العزيز الجولة، ثم كان ما كان من سجنه هروباً من التهم التي لحقت بها.

وفي السجن يكون دور مهم للرؤيا، حين قصّ الفتيان على يوسف ما رأيا. ثم رؤيا الملك التي جعلها الله سبباً لخروجه من السجن بعد أن لبث فيه بضع سنين.

ويصبح يوسف بعد تعبير رؤيا الملك وشهادة النسوة أمام الملك يصبح عزيز مصر. وتمضي السنين الخصبة ثم سنوات الشدة التي جاءت بإخوته من فلسطين إلى مصر، ومن الطبيعي أن يعرفهم، ومن الطبيعي أن ينكروه لأنه لا يخطر ببالهم أن يكون في هذا المركز. ويشترط يوسف للمرة القادمة أن

يحضروا أخاهم ويضع لهم المغريات في رحالهم ليعودوا، وتنجح خطته في استقدام أخوته، ويرسلهم أبوهم بعد مواثيق يأخذها وبعد رفض في البداية...

ولا يفوت الكاتب في أثناء السرد أن يطعّم هذا السرد بشيء من اللفتات بين فينة وفينة. كأن يقف عند ﴿وإنّا له لحافظون﴾. فيقول عنهم: إنهم صادقون كل الصدق هنا. ولم يكونوا كذلك في أول القصة... يشير إلى تطور الظروف وتطور الشخصيات والنفسيات.

ويقارن كذلك بين موقفي يعقوب إذ أرسل يوسف وإذ أرسل أخاه فهو لم يرسله هذه المرة إلاّ بعد المواثيق، لأنه سبقت له معهم تجربة.

ويشير إلى رحمة يعقوب بأبنائه -مع ما صنعوا- إذ أوصاهم بالدخول من أبواب متفرقة.

رحلة الأخوة الثانية إلى مصر (ص٥٠):

يصف الكاتب رحلة الأخوة كما قصها القرآن، ويصف كيف احتفظ يوسف بأخيه بوضع الصواع في رحله، وفي أثناء سير السرد يتعرض بشيء من التحليل لنفسية الأخوة فيقول: إذا استثنينا معاملتهم ليوسف وشقيقه، فإنهم كانوا آية في النبل وحسن الخلق، وقولهم: ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له...﴾ إنما استفزوا لقولهم من اتهامهم بالسرقة: أيتها العير إنكم لسارقون.

ولا تغيب اللفتات التحليلية الفنية يبثها الكاتب في ثنايا العرض من مثل: "إن جو المجاعة يظل يلعب دوره، وإن الحاجة إلى الطعام تفرض معجماً لغوياً من نوع معين".

وهكذا تعقيب جميل في كل مجموعة من الآيات، أو وراء كل آية، وأحياناً من جو اللفظة الواحدة والكلمة المفردة. ويعلق التعليق العام: "وهكذا يفي السياق بالغرضين الديني والفني معاً". وهي من عبارات صاحب التصوير وإن لم يأت إشارة إليها باعتبارها ملكاً عاماً.

ثم يعلق على مساومات الأخوة ليوسف أن يحتجز واحداً منهم بدل أخيهم المتهم بالسرقة ورفض يوسف، يقول الكاتب: "وما دام شعور الأخوة تجاه يوسف مازال سيئاً فمعنى هذا أنهم يستحقون كل عقاب نفسي يحل بهم، ومعنى هذا أنه لم يحن الوقت كي يكشف يوسف عن حقيقة نفسه".

ويطرح قضية معقباً على ابيضاض عيني يعقوب: "وقد يقول قائل: وما ذنب يعقوب يتعذب كل هذا العذاب من أجل خطأ ارتكبه أبناؤه؟ وهو سؤال وجيه". والجواب عليه يقول المؤلف: "أن يوسف إنما كان يتصرف بوحي من الله. وهذا ابتلاء من الله".

وتأمل هذه اللفتة الجميلة تعقيباً على قول يعقوب: ﴿اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه..﴾: " وإزاء هذا الطلب لا نجد الأخوة ينبسون ببنت شفة فليس هناك أدنى إشارة إلى أكذوبة الفتك بيوسف..."، "وإن وضع الأخوة من الوجهة النفسية لا يسمح لهم أن يرددوا ما قالوه... إن يعقوب لم يصدق قولهم حين كان حزنه طفلاً فكيف يصدقه وقد شب حزنه واستفحل؟".

ويختم هذه المجموعة من التعليقات على الآيات: "وهكذا يتضح لنا أن الأخوة أخذوا في العودة حثيثاً للأرومة الطيبة.. وأن هذه العودة خير مهيىء لأنفسنا لتوقع كشف يوسف لإخوته عن نفسه".

وتحت عنوان: رحلة الأخوة الثالثة إلى مصر:

قال المؤلف: "والآن نتساءل: أين سيتوجه الأخوة؟ إن والدهم يأمرهم بالبحث عن يوسف ولم يحدد لهم المكان... لكنه يقول لهم: ﴿من يوسف وأخيه﴾. لقد تحددت الوجهة إذاً. وبعد رحلة شاقة يصلون، ويكشفون عما لحق بهم، ويكشف يوسف لأخوته عن حقيقته. ويكون منهم الاعتراف الجماعي بالخطأ.

ولا يفوته في كل موقف أن يعاود الثناء على الأخوة... فلطالما جرّحهم وجرّمهم الكتّاب !! وها قد جاء من يكتب عنهم بإنصاف، بل بما هو أزيد: "وإن معدن هؤلاء الأخوة النقي هو جعلهم يعودون إلى الخط المستقيم...".

ثم يذكر انتقال يعقوب إلى مصر، ومعجزة عودة البصر بعد كفه.. أو ما يشبهه، يقول الكاتب وقد غلبته صنعته الفنية واللغوية أو قل تخصصه: "وفي المشهد الأخير ينفرد يوسف عليه السلام بالحديث الدال على خلقه العظيم وشكره للمنعم وتواضعه الجم".

ثم يتكلم عن الآيات التي جاءت تعقيباً على قصة يوسف وقد جاءت خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم: "﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم ...﴾. إن هذه الجزئية تشير إلى إجماع الأخوة على إلقاء يوسف في الجب، وقد كان يوسف محور القصة من أولها إلى آخرها... وهذا الرأي يعتبر حجر الزاوية في قصة يوسف. وقد كان طبيعياً أن تأتي هذه الجزئية... التي تدل على أن النبي إنما عرف كل هذه الأمور عن طريق الوحي. ثم استحضر الكاتب نظيرات هذه الآية في القرآن الكريم... مما يثبت ربانية المصدر لهذه القصص. ثم ربط بين الآية الموطئة للقصة والآية التعقيبية، والعلاقة الواضحة بين الآيتين، يقصد قوله: ﴿إنّا أنزلناه قرآناً عربياً...﴾، ﴿نحن نقص...﴾ . وقوله:

﴿وما كنت لديهم...﴾ . ولفت النظر إلى"كنت" المشتركة بين الآيتين في البدء والختام. أي: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾، ﴿وما كنت...﴾ . ثم فسر الغافل بأنه الذي يجهل تماماً أن ذلك الشيء يمكن أن يوجد أصلاً.

ثم لفت النظر إلى العنت الذي لقيه النبي بمكة، وأن هذه القصة وسائر القصص إنما جاءت لتثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم.

وهكذا يتضح لنا التماسك العضوي بين قسمي السورة... القصصي والتعقيبي. وهكذا تم في القسم القصصي الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية، وثبت أن الناحية الفنية وسيلة للناحية الدينية وأنه يستحيل أن تفصل عن الأخرى.

ويفرد "القسم التعقيبي" بعنوان مستقل. ويبين من خلال تفسير الآيات الترابط القائم بينها والتسلسل المتدرج.

ولا بأس أن أذكر تفسيره لواحدة من الآيات التي ربما اختلفت فيها الأفهام والنظرات والعبارات: ﴿حتى إذا استيأس الرسل...﴾ قال: "حتى صار حال الرسل إلى يأس، وظنوا أن أنفسهم التي منتهم بالنصر السريع قد كذبتهم لانصراف قومهم عنهم، وعدم إصغائهم إليهم، إذا بفرج الله يجيء دون مقدمات، ونصره يحل دفعة واحدة...".

ويلفت نظرنا بخاصة إلى الآية الجامعة في ختام السورة: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة...﴾ .

ثم قال في ختام هذا المبحث أو هذه الصفحات: "وقد حقق القسم الأول القصصي من السورة (غرض التثبيت) بطريق غير مباشر في صورة النهايات السعيدة لجل شخصيات القصة، وفي صورة الإشارات المتعددة إلى أن العاقبة للمتقين... بينما حقق القسم الثاني تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بطريق مباشر يعتبر تطوراً طبيعياً للطريق الأول، وضرورياً أيضاً.

فإذا كان الطريق الأول حقق غرضه في نغم موسيقي قصصي مؤثر في الوجدان محرك للعقل، فإن الطريق الثاني الذي يعتبر تطوراً طبيعياً للأول، والذي كان نصيب العقل فيه موفوراً حقق غرضه في نغم موسيقي آخر، متمش مع هذا التطور، ترتاح له النفس المدركة لضرورة هذا التنويع وقيمته".

وإذ كنا تبينا الوحدة الموضوعية في قصة يوسف من زاوية تطور الأحداث الطبيعي، فإن لتطور الشخصيات الطبيعي، وبخاصة في القسم القصصي دوره الأكيد في تحقيق هذه الوحدة الموضوعية. وهذا هو موضوع الفصل الثاني:

الفصل الثاني: الشخصيات وأدوارها في تحقيق الوحدة الموضوعية.

هذا الفصل نصف الكتاب، فهو يمتد من الصفحات ٨٠-٣٣٢، أي ما يساوي ٢٥٢ صفحة تماماً.

يقول في بداية الفصل: "الشخصيات في قصة يوسف متنوعة وتختلف مدة ظهورها حسب الأدوار التي تقوم بها. فهناك الشخصيات التي تستمر أدوارها من بداية القصة حتى نهايتها، كيوسف عليه السلام، محور القصة، ويعقوب والأخوة " وإن غاب يعقوب والاخوة في كثير من المشاهد.

وهناك بعض الشخصيات ذات الأدوار الخاطفة، أو التي اكتفي بمجرد الإشارة إليها. كالملأ في قوله تعالى: ﴿يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي...﴾، والفتيان والمؤذن. ويبتدئ الكاتب بـ:

أولاً: شخصيات الفئة الثانية.

السيارة وواردهم: ولا نفصّل ما قال الكاتب. بل نذكر سطراً واحداً في ختام حديثه عنهم: "ولأمر يريده الله لم يدر بخلد أحد منهم مجرد التفكير في أن هذا الغلام له أهل. وفي الإمكان إرجاعه إليهم. وقد يفهم من جملة وأسروه أن عدد هؤلاء التجار محدود. ولذلك اتفقوا على إخفانه وبيعه في أول سوق وهو مصر".

عزيز مصر وامرأته ونسوة المدينة: يقول المؤلف: "بسبب تفاعل هذه المجموعة من الشخصيات، بالدرجة الأولى حول قضية معينة جمعنا بينها في الدراسة.

أما العزيز فيبدو من خلال الآية: ﴿أكرمي مثواه...﴾ نبيلاً طيب القلب رحيماً، بعيد النظر. إنه يطلب من امرأته أن تتعهده -لا من غيرها-، وقد تفرس فيه أنه من معدن متميز.

وكل لفظة لها دلالتها، والمؤلف لا تفوته مثل هذه اللفتات الجميلة، من مثل الوقوف عند ﴿عسى أن ينفعنا﴾، إنه يرجو أن يكون واقع الغلام مستقبلاً موافقاً لفراسته، وهو يقدم النفع على اتخاذه ولداً ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ...﴾.

ثم ينتقل بالحديث إلى امرأة العزيز فيبدأ بالسؤال: هل نفّذت الوصية؟ ثم يجيب بشرح مشهد المراودة. وعلى نفس الطريق تستوقفه أي الكاتب كل لفظة، من مثل ﴿التي هو في بيتها...﴾ يستفاد منها أنها هي المسؤولة عن كل ما حدث، لأن الفتى في بيتها هي، ولم يكن له بيت أساساً، ولأنها صاحبة السلطة في ذلك البيت... الخ.

ويقف عند ﴿واستبقا الباب...﴾ فيقول: "لقد تمت عملية سباق عنيف، هو يجري فراراً من الفحشاء، وهي تجري فراراً إليها...". وهو يقف عند كل كلمة لتؤدي إلى النتيجة التي يريدها النص وهي تبرئة يوسف فهو يقف عند إفراد الباب، وتغليقها للأبواب، فهو قصد الباب الرئيس، بدلالة أنه وجد سيدها عند الباب...

ويقف عند تركيز المرأة على العقاب لاعتقادها بضمان لصوق التهمة بيوسف... ومرت بالتهمة عرضاً: ﴿سوءاً...﴾ ، وهي لم تذكر اسم يوسف صراحة، ولا صفته... لذات التعليل السابق.

ثم يقف عند كلام النسوة، ويستخرج دلالاته، ويناقش روايات المفسرين عنهن. وهذا مثال من تعليقاته ولفتاته على الآيات، قال معلقاً على قول النسوة ﴿إنّا لنراها...﴾ : "فنحن بصدد "أن" التي تفيد التوكيد، ولام التوكيد الداخلة على الفعل "نرى" ولفظة الضلال البعيدة المغزى، والصفة "مبين" الدالة على الضلال الواضح البين". ويعلق مطولا على لفظة ﴿اخرج...﴾ . ثم يعلق على قول المرأة ﴿فذلكن الذي...﴾ ، فيقول: "ذلك يشار بها إلى البعيد، بعداً بيناً، ثم أدخلت نون التوكيد على لمتنني... وبما أن لومهن زال، لأن السبب الموجب قد زال، وتحول عذلهن إلى عذر، فإنها انتقلت إلى الاعتراف صراحة...".

وينقل عن الزمخشري تعلقيه على ﴿فاستعصم...﴾ : "الاعتصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، فهو في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها".

ومن تعليقاته اللطيفة قوله على القول الذي جاء على لسان الملك ﴿ما خطبكن إذ راودتن...﴾ . يقول: "قد يقول قائل: لعل الملك من باب الأدب عمم الاتهام للنسوة فجاء على لسانه هذا. ونحن نربأ بهذا الملك العادل الذي اتضحت له القضية تمام الوضوح، ودور كل شخصية فيها، أن يتهم جماعة النسوة بما جنته امرأة العزيز فقط... الخ".

ثم يتكلم عن اعتراف امرأة العزيز، فيقول: "قولها "الآن" كأنها تفصل به بين فترتين، تتميز ثانيتهما بما ليس في الأولى... وقولها "أنا راودته": نحن بصدد اعتراف، إذا نظر إليه من زاوية اعتبر تطوراً، وإذا نظر إليه من أخرى اعتبر جديداً. والاعتراف الأول لم ينتفع منه يوسف، أما هذا فله دور في تبيين الحق...". قولها ﴿وإنه لمن الصادقين﴾ فيه تشابه مع ما جاء على لسان الشاهد، وكان كلامه مازال يدوي في أذنيها وقد استيقظ ضميرها. إن هناك استيقاظ ضمير جماعي، ومن امرأة العزيز أكثر... وبهذا انتهت أدوارهن، ولا شك أنها نهاية طيبة سعيدة".

ثم يتكلم الكاتب عن شخصية الشاهد : ومن خلال تحليل كلامه الذي ذكره القرآن يقول: "الفكر والحق شيء والهوى والرغبة شيء آخر، وكان العدل يقتضي المقابلة المنطقية، فإن كانت براءتها تثبت لو قد القميص من قبل، فإن براءته تثبت لو قد من دبر. ويقف عند مخاطبة الشاهد لامرأة العزيز بصيغة جمع النسوة: ﴿إنه من كيدكن...﴾ وذلك من أدبه ولطفه...

ثم يتكلم عن شخصية الفتيين صاحبي السجن : ويحلل كلمات الآيات المتحدثة عن ذلك في ثمان من الصفحات.

ثم يتحدث عن الملك وملئه : في تسع صفحات، ومن ألطف ما قال فيها: "إن الرجل العظيم الذي تصدر منه كل هذه التصرفات الحسنة، لا يمكن أن إلاّ يقدر الرسالة العظيمة التي جاء بها يوسف عليه السلام...".

الشخصيات الرئيسية في قصة يوسف:

يستغرق الكلام على هذه الشخصيات، منتي صفحة أي حوالي ٤٥٪ من الكتاب. وهو في هذا الجزء من الفصل الثاني يلخص أو يعيد عرض قصة يوسف من جديد. ولا يخلو بالقطع حديثه من لفتات في منتهى الجودة والجدة والجمال.

يقول الكاتب في مفتتح حديثه عن الشخصيات الرئيسية: "يعقوب وآله الذين لهم في هذه السورة النصيب الأوفى". وأشار إلى أن القرآن ذكر اسمين يعقوب ويوسف، وأبهم باقي الأسماء، يقول: "وقد جاءت في كتب التفسير أي تلك الأسماء". (وأقول: إنها محض نقل عن الإسرائيليات لا وزن لها يعتد به...).

وفي سورة يوسف أكثر من إشارة إلى الأدوار الإيجابية الخاطفة لبقية آل يعقوب، الذين لم يحددوا على وجه الدقة... وكل الشخصيات الرئيسية، ذات الأدوار الإيجابية من آل يعقوب قد حددها الآية التي جاءت على لسان يوسف حينما قص رؤياه على أبيه.

ويتبين منذ البدء أن الأخوة لا يضمرون ليوسف وداً، يتبدى هذا من قول يعقوب: ﴿لا تقصص رؤياك على إخوتك...﴾

ويبتدئ الحديث عن شخصية يعقوب وأخوة يوسف بعد توطئة استغرقت قرابة خمس صفحات. وعلى نهجه وطريقته في تحليل النص وتأمل كل لفظة ينظر الكاتب في نصوص القصة ويحاول استخراج المعاني واللفتات، كأن يقول تعقيباً على ﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة...﴾ : "إن الحسد

ليجعلهم يؤثرون أنفسهم بضميرين لجماعة المتكلم، ولا يعطون الصغيرين حقا. وإن الشعور بالوزن الذاتي ليبدو في القمة في قوله تعالى: ﴿ونحن عصبة...﴾ ".

ومن أجمل لفتاته قوله تعقيباً على قولهم ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه...﴾ ، قال: "يتضح أن هؤلاء الأخوة لا يبدون شراً محضا. إنهم وإن كانوا يمثلون الشر في قمته، إلاّ أنهم في الوقت نفسه يمثلون الخير في أول بذوره. وإن من أقوى الأدلة على ذلك أن أصحاب الرأي بقتل يوسف وأصحاب الرأي بطرحه أرضاً، قد تنازلوا عن رأييهم، لرأي من قال بالقائه في الجب". وهو في سبيل دفاعه المجيد عن الأخوة -وهو محق- يوظف كل لفظة وكل ضمير... فهو تستوقفه "ال" التعريف في "الجب"... ولم يأت منكراً مثل "أرضاً" ذلك أن هذا الأخ يقدم الاقتراح الذي يضمن به التخلص من يوسف دون أن يناله أي سوء. ومعناه ألقوه في غيابة الجب المعهود لنا جميعاً...

ثم يضع عنواناً لخطوة تالية في القصة: إغراء الأخوة يعقوب بأخذ يوسف تنفيذاً للمؤامرة. ويستوقفه ﴿ما لك لا تأمنا...﴾ وأن هذا يدل على عدم الائتمان شامل للماضي والحاضر، وربما انسحب على المستقبل. ويعلق على قول يعقوب : ﴿إني ليحزنني...﴾ فيقول: "إن نبي الله الصادق القول ينقل إلى أبنائه بأمانة ما في قلبه. وفي جواب يعقوب لا نلمح إلى إشارة إلى قولهم ﴿ما لك لا تأمنا...﴾ وجعل كلامه خاصاً بجواب الطلب ﴿أرسله...﴾ وكذلك أغفل الأخوة في كلامهم رداً عليه أغفلوا الشق الأول كما أغفل هو جواب الشق الأول...".

وتتوالى اللفتات الجميلة التي لو جئت أثبتها لأطلت هذا التعريف الوجيز.

ويتكلم عن إجماعهم على أخذ يوسف، والتماسهم العذر ليبرروا فعلتهم بأنه أكله الذئب... وتفكيرهم في العذر دليل على أنهم يحسبون لأبيهم حساباً كبيراً...

ثم يتكلم عن "النبأ الجلل" الذي وصل إلى يعقوب. وأي وقت اختاروا لإبلاغ النبأ؟ إنه حلكة الليل لأن الظلام مسعف لهم على إخفاء حقيقة ملامحهم. وإتاحة الفرصة لأصواتهم العالية بالبكاء أن تلعب دورها.

ويذكر ثلاثة عشر سبباً لطيفاً جعلت يعقوب لا يصدق دعوى أكل الذئب ليوسف. ويعلق على قول يعقوب ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً...﴾ لا يعين يعقوب ذلك الأمر بل جاء به في صيغة التنكير، إذ لم يكن بإمكانه تعيينه... وبالرغم من حرقة قلبه، فإنا نجده يتكلم أهون الكلام وأعفه، وأنه قادر على التحكم في نفسه كل القدرة، في لحظة هي أحلك لحظات حياته...

ثم يتكلم عن رحلا ت الأخوة إلى مصر في المرات الثلاث... واستغرق ذلك أكثر من مئة وخمسين صفحة... سار فيها على النهج ذاته من استنطاق الكلمات، وتأمل العبارات، واستكناه مرامي الكلام والغايات المتقصدة منه. وتتواصل اللفتات، فعند قوله ﴿أبواب متفرقة﴾ يقول: "ويلاحظ أنه يقول في صفة الأبواب متفرقة، ولا يقول متعددة، فقد تكون متعددة ولكنها متقاربة". ثم يذكر ستة أسباب لهذه الوصية.

وفي ثنايا السرد وشرح الآيات يلفتنا الكاتب إلى سؤال لطيف: "لماذا لم يربط الأخوة بين وضع الثمن في رحالهم ووضع الصواع في رحل أخيهم؟ أليس من حقهم أن يعقدوا نوعاً من العلاقة ؟"

ويتكلم في تسع نقاط لطيفة كذلك عن سر إضافة الصواع إلى الملك. وهكذا تتوالى الصفحات والآيات وتتوالى اللفتات، ومما استوقف الكاتب قسم الأخوة للمصريين ﴿تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد...﴾ وهو يرى أنها تفيد التعجب إضافة على ما تفيده من القسم. وهي لفتة زمخشرية ينقلها الكاتب عن الكشاف.

وأحياناً يطيل الكاتب التوقف عند موقف معين أو كلمة معينة، مثل مشهد سؤال القافلة عن الصواع الذي استغرق أربع عشرة صفحة. ولكنها مليئة دسمة جميلة ممتعة مفيدة، فيها العقل واللغة والنفس...

وتحت عنوان "الانكسار النفسي يتمكن من الأخوة" يصف ما حدث للأخوة بعد ثبوت التهمة عليهم (على الظاهر)، فهم لم يناقشوا نوع الحكم، مما يدل على تمسكهم بشريعتهم، وكيف رجوا يوسف بـ ﴿يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً...﴾ فهو الذي سيفتقده والده لا هم. ويكثر الكاتب من ذكر اسم بنيامين الأخ الآخر ليوسف، وما عندنا دليل على هذا الاسم إلاَ من بني إسرائيل.

كل كلمة تدل على الانكسار النفسي، فنداء يا أيها العزيز تمثل ارتفاعاً سامقاً لمكانة العزيز أظهره انكسار أنفس الأخوة وانخفاض معنوياتهم.

وانكسار في الرحلة الثالثة كان أظهر إذ قالوا ﴿يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضر...﴾ ولا يفوت الكاتب أن يربط لفظة استعملت في موطن في القصة ثم استعملت في آخر أن يستدعي الموقف الثاني أو الآخر، مثل قولة يوسف: ﴿معاذ الله أن نأخذ إلاَ...﴾ يقول: "وهو القول الذي استعمله حينما راودته امرأة العزيز، وهناك نتبين منه أنه موقف الرفض العنيف. وهنا يستعمل هذا القول نفسه

للدلالة نفسها رداً على طلب الأخوة دلالة على رفضه العنيف". وهذا اللفظ لم يستخدم في القرآن إلاّ في هذين الموضعين...

ثم يتكلم عن انشقاق كبير الأخوة على أخوته. ويقف عند لفظة "استيأسوا" ويقول: "إن في هذه السورة ميلاً إلى استعمال هذه الصيغة، ذات الدلالات، ونعتقد أن من أسباب ذلك نقل إحساس الشخصيات العميق وتفاعلها مع الأحداث".

ثم يحصي الكاتب المواقف التي أفاضت الشخصيات فيها بالحديث وهي: موقف يعقوب من يوسف عندما قص عليه رؤياه. موقف يوسف من الفتيين في السجن. وأخطأ الكاتب في الموقف الثالث إذ عده ليوسف إذ قال الكاتب: "الموقف الذي نرجح أنه ليوسف، وذلك من قوله تعالى ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه...﴾ . (وهذا قطعاً كلام امرأة العزيز، وسامح الله المؤلف، كيف وهو ذو الذائقة البيانية يقع هذه الوقعة، فكيف يقول يوسف والموقف موقف اتهام: وما أبرئ نفسي؟ وأين يوسف؟ إنه لم يكن حاضراً حتى ينسب الكلام إليه. وقد رجعت إلى الوراء مئة وخمسين صفحة لأجد الكاتب عند الكلام على هذه الآيات لم ينسبها لقائل بل انشغل بقوله: "فإن قرئت (ليعلم...) في صيغة المبني للمعلوم فمعنى هذا أن العزيز ما زال على قيد الحياة... الخ وهو مخطئ -أي الكاتب- مرة أخرى فالمقصود أن يعلم يوسف لا العزيز... وعفا الله عن كاتبنا باجودة...).

موقف يوسف بعد أن منّ الله بجمع الشمل.

موقف الأخ الأكبر بعد ثبوت تهمة السرقة على الأخ...

ثم يذكر الكاتب عدة "ملاحظات على قول الأخ الأكبر وفعله"، فيقول: "تضمنت الآية لفظ "كبير" في قوله تعالى ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا...﴾ الذي نتبين منه (أي اللفظ) أن شخصية هذا الأخ تتطور تطوراً طبيعياً تجاه الخير والصلاح... يجيء على لسانه "ألم تعلموا" بالمضارع، دون الماضي: "أما علمتم" مع حرف التحقيق: "قد" في قوله ﴿قد أخذ عليكم...﴾ مما يعكس رغبته في أن يكون علمهم حاضراً.

جاء على لسانه "أن أباكم" دون "أن أبانا"، وهذا يفسر إحساسه بالورطة التي هم فيها.

يشير الكاتب إلى "قد" التي تبين حرص الأخ الكبير وانفعاله العنيف، كما لا يخفى أن قوله "من الله" دوره البعيد كذلك. ويسير في هذه الملاحظات حتى تبلغ... ثلاثاً وعشرين، وقعت في ست عشرة صفحة.

ثم ينتقل إلى مشهد آخر: يعقوب وتسعة من أبنائه... وقول يعقوب عندما جاءته الأخبار غير السارة: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ . إن لفظ جميعاً مسعف لضمير جماعة الغائبين... (الماح إلى يوسف). وقول الكاتب: ونستطيع أن نفهم أن الأخوة الذين هزهم المصائب هزاً، وعصرهم الآلام عصراً، قد أصبحوا لبقين في الحديث إلى والدهم المكلوم، لطيفي المعالجة للمسألة الشائكة التي هم بصددها.

ويعقب على كلمة يعقوب: "فصبر جميل". وهي ذاتها التي استخدمها في المصاب الأول. وسأل: كيف يكون الصبر الذي هو مر جميلاً؟ إنه يكون كذلك عند ذوي النفوس المطمئنة التي تتذوق الحلاوة، النتيجة النهائية لحلاوة الصبر... لهذا هي تفطن لمواطن الجمال حيث لا يرى الآخرون إلاّ القبح.

ويعقب على قوله ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ ، فيقول: إن الآمال تتلاشى مع الأيام، ولكن أمل يعقوب لا يزداد مع الأيام إلاّ قوة. وهل يستغرب الشيء من معدنه؟

وهل ينبت الخطيّ إلاّ وشيجه وتغرس إلاّ في منابتها النخل

ويلتفت الكاتب إلى دور الأحرف في التعبير فيستوقفه الواو والفاء في كل من ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ فيقول: "إن فرقاً جوهرياً في الدور الأبلغ الذي تلعبه الفاء هنا والواو. إن الواو لو جاءت هنا لكان دورها تقريراً ولا تضيف جديداً. أما الفاء فإنها تضيف جديداً. وإن التحول من حرف إلى حرف يثير الانتباه. وإن ابيضاض العين سبب في مزيد من الحزن. وهكذا يتضح الفرق بين الواو والفاء. والأخيرة تنفرد بأنها تضيف جديداً، وتشير إلى أن ابيضاض العين سبب في حزن جديد فكان للفاء فضلاً جديداً في تحديد معنى اللفظ "كظيم"... الخ".

ويقف وقفة لطيفة عند قول الأخوة لأبيهم ﴿ تالله تفتأ تذكر...﴾ . ويستخرج منها هذه اللفتة: "فدل ذلك على أنهم دائمو المتابعة لوالدهم الحبيب، وكلهم آذان لما يخرج من شفتيه ومن بين جنبيه من كلمات وزفرات..."

ويقف عند ﴿اذهبوا فتحسسوا...﴾ يقول: "فإذا انتقلنا إلى هذه الجملة ازداد الأمل وضوحاً وإشراقاً، فالتحسس طلب الأخبار في الخير، فيعقوب الآن كله أمل واطمئنان وثقة في أن يوسف ما زال حياً يرزق، وفي حالة حسنة... ويقف عند الفاء، ولِمَ لم تكن وتحسسوا... والجواب على ذلك أنه لو جاء "اذهبوا وتحسسوا" لتساوى الذهاب والتحسس في الأهمية... الخ.

ويقف عند قوله ﴿من يوسف وأخيه...﴾ إن هذا الترتيب روعي فيه حبه ليوسف والإيمان المطلق في قدرة القادر على كل شيء، وبما أن المحن قد بلغت أوجها، فإن الإيمان بالعلي القدير يجب أن يبلغ أوجه...

ويستوقفه أن الأخوة لا ينبسون رداً على والدهم ببنت شفة... ولا نراهم إلاّ واقفين بانكسار أمام العزيز...

إن الموقف المتطور ليعقوب، لا يقتصر على الصبر الجميل، وإنما يشمل الأمل والتفاؤل العجيبين... وفيما يتصل بالأبناء فإن الموقف المتطور لهم يبدو واضحاً جلياً في تجاوبهم الإنساني النبيل، وتعاطفهم مع والدهم.

ويتكلم بعد ذلك عن أخوة يوسف في مصر للمرة الثالثة... ويلفته الانكسار النفسي للأخوة، ويلفته تطور آخر للأخوة تجاه الخير والصلاح، وقد بدأنا نلمس منهم إقبالاً على الله، ويقارن بين قوليهم ﴿إنا لنراك من المحسنين...﴾ و ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ .

ويشير إلى شخصية يعقوب الطيب القلب، الصافي الضمير، النقي السريرة، وكيف أسهم بقسط وافر في تطورهم السريع... وإن موقف الأخوة خير مهيىء لأنفسنا للانتقال مع الأخوة إلى قمة الخير والصلاح...

ويتحدث بشكل جد موفق عن مواجهة الأخوة ليوسف قبل كشف يوسف حقيقة نفسه، فيقول: "من أي زوايا الكلام الأربع يستطيع الأخوة مفاتحة العزيز؟". ثم يضع احتمالات لمدخل للكلام ويستبعد كل مدخل. ثم يقول: "لم تبق سوى زاوية الطعام والكيل ودراهمهم وضر أهلهم". وهذه الجزنية تدل على ثقتهم في كرم العزيز، وتدل ثانياً على الشدة التي كانوا فيها، وانكسار الروح المعنوية للأخوة، وتدل رابعاً على تقوى الأخوة وصلاحهم (إذ يبينون رداءة دراهمهم).

ثم يحلل كلمات الأخوة بعد كشف يوسف نفسه حين قالوا ﴿تالله لقد آثرك الله علينا، وإن كنا لخاطئين...﴾ وكيف أن الكلام الأول ممهد للاعتذار الصريح والاعتراف بالخطأ... ويبقى مشهدان للأخوة يظهرون فيهما أحدهما مع يعقوب والثاني مع يوسف في مصر. وهناك أربعة مشاهد يظهر فيها يعقوب ويذكرها الكاتب.

ويتكلم عن قول يعقوب ﴿إني لأجد ريح يوسف...﴾ فيقول: "إن اليأس لم يتسرب إلى نفس يعقوب وقتاً من الأوقات منذ النبأ الجلل حتى هذه اللحظة. وإنما كان أمله يتجه صعداً وباستمرار حتى

جرى على لسانه ما جرى. إن وجدان ريح يوسف معجزة ليعقوب وارتداد البصر بإلقاء القميص معجزة ليوسف".

ويتوقف عند "سوف استغفر لكم..." ويعلل استخدام سوف بأنه تعمد تأجيل الدعاء حتى يتوج فرحه بلقائه الفعلي بابنه الحبيب. وهي تدل على عقاب صامت لأبنائه.

الفصل الثالث: شخصية يوسف عليه السلام.

يستغرق هذا الفصل مئة وثلاثاً وثلاثين صفحة من ص٣٣٣-ص ٤٦٧. هذه هي الشخصية المحورية والمحركة لكل شخصيات القصة بلا استثناء بطريق مباشر وغير مباشر. ويستعرض الشخصيات بالتفصيل.

وقسم حياة هذه الشخصية إلى ثلاث مراحل: مرحلة الغلام المحبوب من والده. مرحلة اختبار الله له بالابتلاء. مرحلة اختبار الله له بالنعماء.

ثم يستعرض المرحلة الأولى ويقف عند ما ورد فيها من آيات ﴿إني رأيت...﴾ ويقع في هذا الفصل بعض تكرار لمشاهد كانت مرت في استعراض شخصيات القصة في الفصل السابق.

ويتبع الأولى بالمرحلة الثانية وقد استغرقت قرابة الثمانين صفحة، بينما الأولى تحدث عنها في عشر صفحات. ويقسم هذه المرحلة إلى قسمين: بيت العزيز والسجن. وهو -أي الكاتب- يسير على النهج ذاته من تحليل النصوص لغوياً وبيانياً ونفسياً، وبشكل طيب وعميق وفيه جدة وطرافة وجمال.

ونختلف مع الكاتب في مواطن قليلة، من مثل قوله في الآية ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾ فهو يرى أن يوسف يقصد العزيز. والذي نراه أن يوسف يقصد أنه ربي الله أحسن مثواي وحيثما وردت الرب على لسانه مضافة إلى ضميره فهي تعني الله، ولا نسويه في هذا بغيره...

ويتكلم عن "يوسف في السجن" في خمس وخمسين صفحة من ص٣٧٢-ص٤٢٦. تستوقفه كلمات كثيرة بطبيعة الحال، وأنا أختار بعض وقفاته عند بعض ما استوقفه، فاستوقفه أولاً ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه...﴾ فيقف عند حرف العطف "ثم"، ثم عند هؤلاء الذين "بدا لهم" ومن يكونون، ثم يقول (كما نورد الوقوف عند لفظة "الآيات" فلم تكن آية واحدة، بل آيات وآيات... الخ) كما نورد الوقوف عند "ليسجننه"... الخ.

وهكذا تتوالى التوقفات عند الكلمات، تزيد الكتاب ألقاً وجمالاً... يقول: "ولنا وقفة عند كلمة "قوم" وتنكيرها لأنه كان حريصاً على كسب قلبي الفتيين... الخ. ويستوقفه الاستفهام ﴿أأرباب

متفرقون خير...؟﴾. ويقف مطولاً عند الآيتين التعقيبتين ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه...﴾ ويرددهما بين احتمالين أن يكونا من قول امرأة العزيز، وأن يكونا من قول يوسف ويقول أن امرأة العزيز لم تكن مهيأة وقتاً من الأوقات لأن يصدر منها معان كهذه... وأن المهيأ هو يوسف... الخ.

وقد ناقشت هذا من قبل، فالكاتب كرره، والصواب بل القطع أن امرأة العزيز القائلة لأنه لا ينسجم أن يتهم يوسف نفسه في موضع الاتهام إذ يقول: "وما أبريء نفسي...". والتواضع ليس محله موطن التهمة والشبهة...

ويكتب الكاتب ست ملاحظات على قول يوسف ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾، منها خلو منصب العزيز. وعزة الإسلام.

المرحلة الثالثة في حياة يوسف:

مرحلة اختباره بالنعماء. ص٤٢٧-ص٤٦٧. بتعيين يوسف في منصب عزيز مصر تبدأ المرحلة الهادئة والرخاء في حياته عليه السلام. وقد استغرق حديث الكاتب عن هذه المرحلة أربعين صفحة. ويعيد الحديث عن مصر التي أصبحت محط أنظار ومهوى أفئدة المحيطين حين اشتدت المجاعة بالمنطقة.

ويعيد الحديث عن رحلات الأخوة إلى مصر. ولا نعني بالإعادة أنه يعيد العرض ذاته، لا، ولكنه يعرضه من زاوية أخرى وبتحليل جديد، لكنه يظل يتحدث عن المشاهد ذاتها ففيها التقاء بالتأكيد. ولو عرضت مرة واحدة لكان أولى.

ويبين الكاتب كيف لم يذع اسم يوسف، ويعزو ذلك إلى شيوع وصف العزيز، وإلى أن لغة أبناء يعقوب غير شعب مصر، فلم يتح لهم أن يتغلغلوا في أحاديث الناس.

ويتحدث بتوفيق عن الدور الإيجابي لوضع الثمن في رحالهم لتشجيعهم على العودة. ولكنه في الوقت نفسه يعاقبهم عقاباً نفسياً بطلب إحضار أخيهم.

ويعيد وصف الأخوة بأنهم في قمة الصلاح، باستثناء معاملتهم للشقيقين. ويفصل في المواقف المتعددة للعقاب النفسي للأخوة... وأن الوصول بهم إلى النهاية السعيدة إنما تم لحسن تحريك يوسف للأحداث، وحسن تلقي يعقوب لها، وكل ذلك تم بإرادة الله.

ثم يقف مطولاً عند مشهد كشف يوسف لنفسه بمجرد ذكر اسم يوسف على لسانه، ويسأل الكاتب: "ولماذا لا يمكن أن يتفوه بهذا الاسم صراحة إلاّ صاحبه؟". ويقول: "إن استفهامه، وطريقة

الاستفهام، يوحيان بالمعرفة التامة بما فعل الأخوة". ولفته جميلة بل رائعة في قوله تعقيباً على قول يوسف: "بيوسف وأخيه"، يقول: "ألا يبدو عليه التأثر التام لاضطراره لذكر ما لا بد منه؟ ألا يبدو في تعبيره اللطف البعيد المدى والرقة والتسامح؟ ألا نتبين التوافق الإلهامي في الترتيب بين ما قال وما قال الوالد: "فتحسسوا من يوسف وأخيه" ؟".

وأن يوسف بهذا العطف بالواو —وهنا بيت القصيد فيما أرى- يريد أن يلطف من فعلنا بمساواته بفعلنا بأخيه. ثم كأنه يعتذر عنهم إذ قال: "إذ أنتم جاهلون". ويقف أيضاً وقفة ممتعة عند الاستفهام: "أئنك"، بعدما ثبت لهم أنه يوسف. يقول إن الاستفهام قد جاء لطرد ما سقط على أنفسهم من غرابة المفاجأة.

ثم يعفو يوسف عن أخوته، ويكون هذا دليلاً على أن ما قاموا به تجاهه كان نزوة طارئة باغراء من الشيطان، ليصدق الكاتب نظرته ونظريته عن طيب معدن الاخوة، وهي نظرة صائبة حقة... ثم يستدعي موقف النبي محمد صلى الله عليه وسلم من قريش...

ويقول في تعقيبه على كلمات يوسف ﴿قد آتيتني من الملك...﴾، أنه عليه السلام يضرب لنا المثل الأعلى في النجاح الباهر الذي يمكن أن يحققه رجل الدين في المجالين: الدنيوي والديني. أنه جمع بين الحسنيين. وهذا درس بليغ بأن صلاح الدنيا من صلاح الدين. وأن لسان حاله يقول: إن الخطأ كل الخطأ أن يفصل الدين عن الدولة.

وتستوقفه "من" التي تكررت مرتين: "من الملك" ، "من تأويل الأحاديث". ويستوقفه "وألحقني بالصالحين"، وما فيه من تواضع، الذي يفهم منه أن الإلحاق تفضل من الله. "ويا له من أدب، ويا له من تواضع، ويا له من درس بليغ نافع يلقيه نبي الله يوسف على أمة الإسلام". ويا لها من لفتات رائعة موفقة من كاتب مجد مبدع موفق.

الفصل الرابع : أ. المجتمعات في سورة يوسف.

ب. الدروس المستفادة من سورة يوسف.

يستغرق هذا الفصل بمبحثيه أربعين صفحة. ثلاثة عشر للأول، والباقي للثاني. يقول في المبحث الأول أن سورة يوسف بشقيها القصصي والتعقيبي قد عرضت للعديد من المجتمعات. ففي الشق القصصي عرضت للمجتمعين الشامي والمصري. وأعطتنا شيئاً من المعلومات عن روح ذلك العصر. وفي الشق الثاني إشارة إلى المجتمع المكي وموقف العرب من دعوة النبي محمد صلى الله عليه

وسلم، ثم الانتقال إلى الأمم السابقة التي اتخذت موقفاً مشابهاً لموقف المكيين والعرب بعامة، إذ انقسموا في كل العصور كما انقسم هؤلاء إلى فرقتين: القليلة وهم المؤمنون، والكثيرة وهم المكذبون. وكان النصر دائماً حليف جند الله.

ومع أن القسم التعقيبي في سورة يوسف يشير إلى كثير من المجتمعات، إلاّ أننا بحكم تشابهها يمكن أن تكون صورها قريبة من مجتمع الجزيرة العربية في فجر الدعوة الإسلامية. وعلى ذلك يمكن اعتبار مجتمع الجزيرة رمزاً للمجتمعات السابقة. ثم يقسم الكاتب المجتمع العربي إلى ثلاثة أقسام:

- أهل القرى، وهم الذين لهم ذوق حضاري، وهؤلاء هم الذين يبعث فيهم الرسل.
- الذين لهم من الحضارة والبداوة نصيب وهؤلاء لا يقبلون الدعوة سريعاً ولا يدفعونها طويلاً.
- الأعراب الموغلون في البداوة، وقد ذم القرآن معظمهم ومدح بعضهم.

فإذا تحولنا إلى القسم القصصي، اتضح أنه يعطينا بعض ملامح العصر، وبعض ملامح المجتمعين: الشامي والمصري. ومن ملامح العصر: الرؤى. ومن الملامح: الحركة التجارية الدائبة. والتعامل مع الرقيق.

أما المجتمع الشامي فلم تعرض السورة إلاّ بيت يعقوب. بينما تعرض للعديد من الشخصيات المصرية المتنوعة. ويعقوب ويوسف يمثلان الجانب المشرق في المجتمع الشامي، ونتبين الأثر المشرق ليعقوب في أبنائه. ثم يعيد الحديث عن أخوة يوسف مرة أخرى لكن بإيجاز.

أما المجتمع المصري، فإن السورة تتعرض لشخصيات عديدة فيه، تنتمي إلى طبقات اجتماعية مختلفة. لذلك أمكن أخذ صورة واضحة عن المجتمع المصري. فالسورة تعرض لرأس البلاد، ومن يليه، ولشخصيات تنتمي إلى طبقات عدة، فبدا المجتمع أكثر تكاملاً. والملك رجل حازم حليم حسن التصرف حكيم... وقد سبق الحديث عنه... ثم الطبقة التالية للملك العزيز، ثم الملأ... الخ.

ويبدو أن المرأة أساءت استعمال الحرية التي منحت لها. ويبدو أن كثيراً من الأمور يسيّرها النساء. ويبدو أن هناك طبقات فوق القانون فامرأة العزيز لا تحاسب. ويسجن البريء.

ثم هناك من يمثلون الشخصيات العامة: فنجد أنفسنا أمام الخباز والفلاح. ويبدو المجتمع على درجة عالية من الحضارة، أخذ الكاتب ذلك من استعمال السكاكين. وأما العقيدة فواضح فيها الشرك ﴿أأربابٌ متفرقون...﴾. ولهذا أراد الله ليوسف أن يكون في مصر لإخراج القوم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد.

ثم في المبحث الأخير من الكتاب تعرض لدروس سورة يوسف:

١- القرآن عربي: وتعرض فيه إلى ما قيل من عجمة بعض الكلمات... التي تعربت بالاستعمال قبل نزول القرآن. واستغرق هذا الدرس سبع صفحات .

٢- أحسن القصص: قصص القرآن جزء كبير منه. والقصص دليل على ربانية القرآن.

٣- الرؤيا الصادقة.

٤- إخلاص النصيحة (نصيحة يعقوب ليوسف...).

٥- الحسد.

٦- يعقوب أب مثالي.

٧- والله غالب على أمره.

٨- الاختلاط بين الجنسين.

٩- ومن يتق الله يجعل له مخرجاً.

١٠- الوفاء والأمانة.

١١- التضحية في سبيل الرسالة بكل غال.

١٢- الصراحة الكافية.

١٣- الجهر بالحق...

١٤- اليأس والإيمان لا يجتمعان... الخ.

ثم يلحق الكاتب الكتاب بمعجم مفهرس لكل ألفاظ سورة يوسف، وقد استغرق ستاً وأربعين صفحة.

ثم خاتمة في صفحة أعاد فيها ذكر فصول الكتاب فحسب. ثم فهرست بأهم المصادر والمراجع وهي سبعة: البحر المحيط، والكشاف، والبخاري، ومؤتمر سورة يوسف، والظلال، والإتقان، وسيرة ابن هشام.

الكتاب العاشر

من إعجاز القرآن الكريم العلمي والسنة النبوية الشريفة:

سُلَيْمان

بين حقائق التلفزة وعلم التقنية

تأليف: عبد الرحمن الرفاعي

ط١، القاهرة: مكتبة مدبولي الصغير، ١٩٩٧م.

سُلَيْمان بين حقائق التلفزة وعلم التقنية / عبد الرحمن الرفاعي:

الكتاب أي كتاب عالم مجهول، والاسم لا يعبر أحياناً عن المضمون. والكتاب الذي بين يدي الآن عنوانه غريب، ولعل المطالعة تكشف سر هذا العنوان، لنفهم ماذا قصد بحقائق التلفزة.

وقراءة الكتب اكتشاف، وقد يكون المكتشف قارة مليئة بصور الجمال وكنوز المعادن، وقد يكون أمراً غير ذي بال...

والقراءة بعد مغامرة، وخير جليس هو الكتاب، وهو أقرب الأصحاب إن أحسنا الانتقاء والاختيار، وإلاّ فالخيبة والخسران.

والكتاب الذي بين أيدينا يقول صاحبه أنه يدور حول كلمة (تماثيل) الواردة في قصة سليمان... وهذا هو المحور.

ولما كان الأنبياء يحاربون التماثيل: فلابد أن للتماثيل معنى آخر، ثم اكتشف الأستاذ أنه البث التلفزي (التلفزيوني).

والأستاذ وضع كتابه تحت عنوان: الإعجاز العلمي... وما ثَمّ في الكتاب ما تصدق تسميته بالإعجاز العلمي... ولكنه الاستعجال العلمي.

وفي الكتاب تكرار لا يطيقه إلاّ أولو العزم والتحمل. وتكلف وتمحل وتحميل الأمور ما لا تحتمله بوجه من الوجوه لا من قريب ولا من بعيد.

ولعلي لم أشعر بضيق -بلغ حد الاختناق- وقبض وصل إلى مرحلة لا تطاق، من قراءة كتاب أو أوراق، كما حصل لي من قراءة هذا الكتاب: وما فيه من معان ظنها صاحبها فتحا وما هي إلاّ الإغلاق...

ومعذرة للقارئ والكاتب إن كنت ضمنت كتابتي كلمات فيها شيء من العامية أو كثير من التهكم والسخرية، فالمقام لا يسمح بأكثر من هذا، لأن الاستخفاف بالقارئ عند كاتبنا قد بلغ مداه، فكان جزاء الاستخفاف الاستخفاف والإستسخاف الإستسخاف، والبادئ أسخف و...

وقد اضطررت إلى الأسلوب الساخر، لعله يكون بين وقفات جادة محطة استراحة وترويح أو تراويح على أمل ألاّ يكون تباريح. فهذا الكتاب من نوع: الطاقة التي يأتي منها الريح الأحسن أن تسدها وتستريح. والكاتب الفصيح... يجعل الجمهور يصيح.

يقع الكتاب في خمس وسبعين ومئتي صفحة. قسمه إلى عناوين لا إلى فصول، فعنوان منها: الإطار الديني، ثم الإطار اللغوي، ثم إطار عام الجانب العلمي...

قدم للكتاب الأستاذ محمد عبده اليماني الوزير السعودي السابق للإعلام لكن التقديم موقع بتاريخ ١٩٨٩ والكتاب مطبوع بتاريخ ١٩٩٧... ولا تفسير.

بعد مقدمة يماني يقدم الكاتب لكتابه، ويشير في المقدمة إلى أن خلود القرآن هو إعجاز (إعجاز السير مع تغير الأزمنة والأمكنة، ومراعاته لكل هذه التغيرات) على حسب تعبيره.

حتى جاء عصرنا عصر العلم. وقد تحير الكاتب، يقول: "من لفظة (تماثيل)"، ووقف عندها طويلاً، فوجد في التفاسير شبه إجماع على أن الجن صنعوا هذه التماثيل أو نحتوها من الخشب والنحاس لبعض شخوص الأنبياء والملائكة والصالحين، ليستأنس بها قومه في المسجد، ويقول فزادت دهشته فهذا هو الشرك بعينه، ومما زاد في حيرته أن لفظ تماثيل وارد في سياق المن. فالله يرسل الرسل لمحاربة الشرك...

ثم قال: "أن الله هداه ونور له الطريق، وذلك بوقوعه على حديث لابن عباس أنه بعد أن صنعت التماثيل، دعا الله أن ينفخ فيها الروح لتكون أقوى على الخدمة..."، من هذه الإشارة كانت الانطلاقة (المباركة).

وأن ابن عباس بهذه الإشارة ألمح إلى عدة أشياء منها أن يقرب مفهوم ما فهمه عنها من علم رسول الله عليه السلام، لمفهوم وعقلية العامة من الناس، ولمفهوم ما وصل إليه عصره وبيئته... ولأنه أراد أن يبتعد بمعناها في هذا السياق عما يتبادر إلى الذهنية في تلك الفترة... ولعله أحس أنها تماثيل فيها معنى الحياة والحركة فقال ما قال... وكيف لا وهو ترجمان القرآن ؟!! (العلامات من المؤلف).

ثم يبين لنا لماذا اعتمد على هذه الروايات مع أنها غير موثقة، فيقول أن عدم رواية الرواة لها لبعدها عن العقلية في تلك الفترة (مع أنهم نقلوا عجائب وغرائب). ولفتنا إلى أنه يجب الاهتمام بهذه الإشارات لما فيها من كشف علمي ثم طلب منا ألاّ نصدر أي حكم حتى نفرغ من آخر سطر أو كلمة (هكذا طلب وسنفعل بناء على الطلب). ثم بين لنا أنه بدأ الكتاب سنة ١٤٠٥ هـ وما انتهى منه إلاّ سنة ١٤١٠هـ، وقال أن القارئ سيلاحظ أن الرجوع إلى المراجع لا يساوي أكثر

من ٠,٠٠١ ٠٠٪ واحد في الألف [١]، لعدم توفر مكتبة في جيزان والباقي اجتهادات شخصية وفقه الله (أو غير ذلك، لا نحكم حتى ننتهي).

ثم بين أن خطته في الكتاب هي خطة وسط بين خطط أكثر الكتب السلفية كالرازي وبين خطة الدكتور زكي مبارك في النثر الفني.

ثم أعاد لنا أنه انطلق من لفظة في كتاب الله، وأعادنا إلى الإعجاز العلمي... ثم شرح لنا الخطة وبدأ بالإطار الديني، وموقف الأنبياء من التماثيل، ولم يكن الأمر بتصوير الأنبياء والملائكة... وهو يعلم أن طائفة من الناس كانت تعبد ذلك؟ ثم عرج على النسْخ وشرع من قبلنا...

أما الإطار اللغوي فشرح مادة مثل وتماثيل في القواميس.

ثم عودة للجانب الديني. وأخيراً صرح بالمقصود الذي خمّناه من أول الكتاب أو من العنوان: أن التماثيل هي البث التلفزيوني باستخدام الطاقة الشمسية.

تلفزة تريك خفايا قلب الإنسان وروحه... نصوص تدلنا على الرقي الفكري والحضاري، وكيف أن استخدام الجن لهذه الطاقة كان المحرك الرئيسي لكل ما عملوه من حيل صناعية. (يبدو أن الأخ متأثر بأفلام الكرتون والخيال العلمي ! وهذا ليس حكماً ولكن مداعبة).

ثم انتقل إلى كون سليمان زعيماً كان عصره عصر تقنية ورقي صناعي والبث التلفزي، والبراهين على ذلك من الكتاب والسنة (لو يتركون القرآن والسنة ولا يدخلونهما في متاهات ودهاليز لا علاقة للقرآن ولا للسنة بها).

ثم انتقل إلى قضية النقل الصوتي، واستخدام الطاقة. وأن معجزة الريح تحققت اليوم بركوب الطائرة (يا سلام !)، فلمَ لا تتحقق منة التماثيل؟ (سؤال غريب لا نجيب عليهَ !!).

وإذا فتح اليوم من علوم الكون للكفرة، فلماذا لا يكون الله قد فتح مثلها من العلوم للأنبياء؟ (سؤال وجيه نترك جوابه للأستاذ).

ثم بشرنا في نهاية المقدمة ببحوث له تالية لهذا البحث وهي: (الجن بين إشارات القرآن الكريم... وفيزيائية العلم التطبيقي) و(السحر بين براهين القرآن الكريم... وتحليلات الفيزياء الكيميائية) و(العين بين الإثبات القرآني والفيزياء الإشعاعية).

---

١ - حساباً هذا غلط. وعلى العموم هو غلط من ناحية واقع الكتاب.

يقول وبهذا يكون قد أدى بعض الشيء لخدمة الدين والقرآن والسنة... (والله أعلم !) وإن كنا نقترح على الكاتب الكريم أن يفيض علينا من فيض فتوحه ويكمل السلسلة فيكتب مثلاً: (الحسد بين آيات القرآن وأحاديث السنة وعلم الباراسيكولوجي) و(أفلام ستار ترك بين الخيالات العلمية والحقائق الكونية والدوافع التجارية)...!!

العنوان الأول أو الفصل الأول (إن سميناه): الإطار الديني.

وفي عنوان فرعي: وحدة العقيدة الإسلامية والرسل عليهم السلام. من ص١٩-ص٤٣.

يقول: "إن العقيدة التي أرسل بها جميع الأنبياء واحدة، ودعوتهم واحدة: تخليص التوحيد من أي شائبة شرك...".

ثم عاد إلى لفظة التماثيل، وماذا تعني، وموقف الدين منها وموقف الأنبياء وماذا تعني هذه الإشارة القرآنية.

ثم استعرض التفاسير في تفسير معنى هذه اللفظة، وجعل ذلك تحت عنوان: لفظة تماثيل وأمهات التفاسير. وكلها مجمعة على أن التماثيل هي التماثيل.

ثم بين موقف الدين من التماثيل، وأنه الوعيد الشديد، لما فيه من مضاهاة خلق الله، وفيه انحراف عن عبادة الله وكذلك بدأ الشرك...

ثم أعاد أن الأنبياء حرب على الشرك، وسليمان واحد منهم لا يخرج عنهم.

ثم ينقل عن الشوكاني، أو بتعبيره: في تفاسير بعض العلماء الأتقياء (مع أن التقوى لا علاقة لها بالموضوع وعلمها عند الله إنما نناقش قضية علمية) قوله: "قيل كانت هذه التماثيل صور أنبياء وملائكة وصالحين يصورونها في المساجد ليراها الناس، فيزدادوا عبادة واجتهاداً واستدل بهذا أن التصوير كان مباحاً...". وكلام الشوكاني أنها صور أنبياء وملائكة لا يصح بحال، وأنها وضعت في المساجد لا دليل عليه. ومن أين يصورون الملائكة ؟؟

فالكاتب بنى كتابه كله على هذا التفسير، ولو أنه توصل إلى أن هذا من الشوكاني لا يصح ولا يقبل لما رأينا كتابه، ولا تعبنا في قراءته، ولارتحنا من وعثاء السفر، وكآبة الكتابة، وسوء الفكر... والمنظر والمنقلب... ومن كتب.

ثم سأل مجموعة من الأسئلة تتلخص كلها وتدور حول أن الملائكة يعلمون خطر الأوثان... ودار كثيراً، وأعاد وكرر أنه لا يعقل أن التماثيل هي هذه الصور لمن ذكر، ربما كررها

عشرين مرة... وأن هذا يتنافى مع قدسية المساجد ثم ناقش قضية جواز ذلك في شرع من قبلنا، وعرج على النسخ وقال أنه قضية طويلة ! وأن النسخ لا يكون في أصول الدين، والتماثيل تتعلق بأصل. (واضح أن الكاتب (يقنّي) للموضوع تقنية ليصل إلى نظريته العظيمة).

والآن !! (يقول الكاتب في شبه أذان): قد تقرر بتوفيق الله وقدرته (الله أعلم!) أن لفظة تماثيل ليست كما قيل فيها، ولكنها لدلالة كبيرة وعظيمة وبإيحاء ذي مرام، ولأسباب متنوعة...

ثم كرر للمرة (لا أذكر) حكاية أن الكلمة في سياق الامتنان (ربما عشر مرات) أن الأربعين صفحة السابقة كلها دوران في دوران، ولف وجعجعة بلا طحين، تتلخص في كلمة: أن لفظة التماثيل ليست على معناها ! والسلام ! وأن لها معنى جديداً هو الذي من أجله ألف الأستاذ كتابه...

ثم نبهنا إلى أنه قبل أن يتحفنا بالمعنى يجب أن نقرأ الآية كاملة، وأعاد (أي والله) مرة أخرى سياق النعم والامتنان.

لماذا نحن هكذا. لا نعرف المنهجية، ولا القراءة ولا الكتابة، ولماذا نؤلف الكتاب من غير تملك الأدوات ؟!

إذاً فلفظة تماثيل نعمة (أي والله مرة أخرى، وتحملوا معنا واصبروا).

ثم نبهنا إلى أنه يجب قبل أن نعرف ما فتح الله على الأخ، أن نعرف الجن (بسم الله الرحمن الرحيم)، ومع الجن في إشارة سريعة عرفنا الأخ بالجن وأنهم أجسام هوائية، كما قال الرازي قادرة على التشكل، وأنهم عالم غير عالم الأنس والملائكة، كما في كتاب عالم الجن والشياطين. هؤلاء هم الجن، يعني فسر الماء بالماء.

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ثم يقول الأخ أنه حضر لنا مفاجأة، كما فوجئ هو (استعدوا وشدوا الأحزمة وانتظروا حدث الموسم، والخبر الصاعقة، والسبق الصحفي، والخبطة العلمية والزلزال الكبير، والاكتشاف الخطير، أيها الناس استمعوا وعوا، وليخبر الغائب منكم الحاضر، الآن سيزاح الستار عن المعنى الجديد، الآن): "إن هذه التماثيل ما هي إلاّ البث والإرسال التلفزي !...". الله أكبر...!!

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا عم رفاعي جدد مجدنا العربي

لا أدري هل سجل الأخ براءة الاكتشاف أو الاختراع الجديد حتى لا يسرق ؟! "إنها الإشارة الأولى (يقول)، والانطلاقة الأولى لهذه التقنية والرقي والتطور الحضاري...".

ثم رجع إلى معنى تماثيل، (ارحمنا يا مولانا، صبرنا كثيرا).

وهكذا انتقلنا إلى رحبة المعاني اللغوية في عنوان:

الجانب اللغوي.

"ماذا تقول المعاجم؟"، يسأل الأستاذ ويجيب، فعجبنا له، وياله من مجيب نجيب، يقول هي مادة طويلة (فعلاً هي حكاية طويلة حكايتنا معك).

وبعد أن استعرض القواميس لجأ إلى المنجد، وأجاب الذي يمكن أن يعترض على المنجد بأنه سيأخذ ما لا اعتراض عليه (يفلتر يعني، واشرب وأنت مطمئن).

قال (المنجد والأستاذ المستنجد): "وتمثيلاً أو تمثالاً -بالفتح- الشيء بالشيء: شبهه بـه وجعله مثله... والمحدثون (بسكون الحاء) يقولون: مثّل الرواية أي عرضها على المسرح... ودوراً في الرواية (أضف ومثّل): لبس أحد أبطالها وتشبه به في حركاته وأعماله... ومثل بـلاده: قـام مقامها... والاسم في كلها التمثيل، وهو اسم منقول عن المصدر... الخ وبالكسر... الخ...".

وبعد هذا يحلل الأستاذ، فيقول: "صيغة تمثال بالفتح صيغة حية متحركـة"... وذكـر: ﴿فتمثل لها...﴾.

ثم تكلف تكلفاً ثقيلاً ولف ودار، واستنتج استنتاجات عظيمة أن جبريل حـي (أو أني لست أفهم عليه ما يريد، استمع وافهم عني وعنك): "إذاً فالآية الكريمة تقـول: "فتمثـل لهـا" تمثيلاً... (أرأيت الاستنتاج إذاً ؟ ثم من أين أضاف تمثيلاً ؟) "من روحنا"... إذن فهو روح (هكذا والله !) بل هي (هكذا أيضاً...) الأصل في كل حياة (هل فهمت شيئاً، وعلام تعود هي؟ ولمـاذا انتقل إلى هي بعد الكلام عن جبريل إذ كان يقول فهو روح. وإذ به يقول هي حياة).

نعود للنص: "وأيضاً "فأرسلنا "... الإرسال ترى لمن يكون؟ للحي أو هو للجمـاد؟؟؟ (هكذا العلامات) أليس هو حي ناطق ورسول أمين (هكذا النص) وهنا قد تسأل (هو يقول) ولم لا يكون التمثيل تمثالاً ؟ (هل استوعبت السؤال؟) أقول لك (هو يقول): ومـن هـو المرسـل ؟؟؟ (هكذا) أليس هو جبريل ؟!!! (إسراف !) وجبريل حاشاه أن يكون تمثالاً بالكسر... فهو منزه عن ذلك...". (هكذا التأليف. تعلموا يا عالم وقلدونا!).

وهذه الحياة (يواصل الأحجية) أيضاً بنص اللغة، كما أثبتها صاحب اللسان... ألم يقـل (بلى قال. صدقناك): ومثل له الشيء صوره حتى كأنه ينظر إليه... وامتثلـه هـو تـصوره...

وتصوري للشيء... ترى أتصوري له يكون بكل صفاته وسماته وحركاته وأفعاله، أم أتصوره ميتاً جامداً ؟

لست أدري ؟!! (الكلام كله للمؤلف العظيم – بالكسر–).

(ويواصل النقل عن اللسان؛ إذاً مرجع الكتاب ليس الآية وإنما اللسان والمنجد). يقول: "وظل شيء تمثاله" وهنا نسأل (العبقري يسأل): هل الظل ساكن، أم أنه متحرك؟ وكيف يكون ساكناً... حتى مع الساكن... والقرآن يقول: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً...﴾.

إذاً (للمرة... عدّ أنت) فالظل شيء متحرك. (يا سلام! إيه العظمة دي كلها)، وهذا ما أشار إليه المنجد، حينما قال: والمحدثون يقولون: مثّل الرواية أي عرضها على المسرح...

إذاً (أي والله مرة أخرى) فتمثال بالفتح ذو دلالات حية متحركة، بعكس تمثال بالكسر... ساكن ذو دلالات ساكنة... كما رأينا (هو رأى) بنص القرآن واللغة...

ثم يردف بحديث حتى يكمل الاستدلال (القرآن والمنجد والحديث): "رأيت الجنة والنار ممثلين في قبلة الجدار..." (عمدة القاري) . إذاً (أي والله هذه أيضاً): فالجنة والنار مثلت له في الجدار... (هل رأيت تفسير الماء بالماء كم هو عظيم واستنتاج فخيم؟) ثم استوقفته كلمة "عُرض الجدار" في الحديث، فيسأل: وبالله (هو يستحلف) ما الذي يعنيه لفظ عرض من معان؟ ألم يقولون (هكذا والله): "عرضت الجند عرض العين إذا أمررتهم عليك ونظرت في حالهم... واعترض الجند قائدهم عرضهم واحداً واحداً... وعرضت له الشيء أظهرته...".

(أرأيت العظمة العريضة؟ هل لك من اعتراض؟ إني أعترض على الأستاذ وعلى عرضه للموضوع وأضرب بكلامه عُرض الحائط. فما رأي الأستاذ بهذا العرض؟).

إذاً (من جديد ...!!) فهي حركة لا سكون. (ما شاء الله...!)

وفي رواية للحديث عند مسلم: "لقد صورت لي الجنة". وهذه الرواية (يقول) جعلت العلماء يدخلون في جدل ونقاش طويل أوجزه العيني في عمدته بقوله: "فإن قلت: إن انطباع الصورة، إنما يكون في الأجسام الصقيلة... قلت: هذا من حيث العادة، فلا يمتنع خرق العادة...".

وهنا سؤال (للأستاذ): ترى لم اختلف هؤلاء العلماء عند رواية مسلم وقبلها كان الأمر طبيعياً؟ (سؤال وجيز).

(ثم يجيب الأستاذ العزيز): "عندما ابتعد اللفظ "صُوِّرت" عن دائرة المعنى السابق "مُثّلت"... والذي كان قد انطبع في أذهان العلماء (ليس الأستاذ فقط) وهو لفظ ذو حركة وحياة... وتوقفوا عندما أحسوا أن طبيعة اللفظ قد غيرت صورته... ثم يسأل: هل يختلف لفظ "صُوِّرت" عن لفظ "مُثّلت"؟ هل هو لفظ حركي ؟؟؟ (هكذا) إذاً فلِمَ اختلفوا ؟؟؟ (لا تلمني فهي منه وليست مني) أم أنه لفظ سكوني فاختلفوا ؟؟؟

وهنا نترك الإجابة للجهة المعنية بالقضية، وهي اللغة فماذا تقول؟ ثم ينقل لنا الأستاذ معاني "صور" وتستعمل بمعنى الصفة ومنه الحديث: "أتاني الليلة ربي في أحسن صورة". وقال ابن الأثير: "الصورة ترد على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء..."، وقال المصنف في البصائر: "الصورة ما ينتقش به الإنسان".

والثاني معقول يدركه الخاصة دون العامة. وقوله عليه السلام: "إن الله خلق آدم على صورته..."، أراد بها ما خص الإنسان به من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة...

إذاً فاللغة تقول لنا: هذه هي أهم معاني الصورة. (الماء بالماء). إذاً (لا تضجر وتحمَّل) فمن هنا تحس أن الصورة ذات مدلول حركي... وذات مدلول سكوني. إذاً (للمرة المئة) فالرؤية خارجية وهذا يتلاءم مع ما مثلت لي...

وبناء على ما تقدم من نصوص قرآنية وأحاديث ومعاني لغوية وتحليل (وهنا المشكل الثقيل فالنصوص ليس فيها المشكلة إنما التحليل هو الذي أتانا بكل أمر وبيل...) يتضح لنا –بعد التحليل– أن تَمثال بالفتح صيغة حركية (تاني؟!). إذاً (...) فتِمثال بالكسر هو المحرم. (اكسر الجرة وراء هكذا موضوع)

ثم انتقل إلى "صيغة الجمع".

يقول ثبت لنا بعون الله وتوفيقه (أحسن الله عزاءنا) أن تَمثال بالفتح غيره بالكسر.

إذاً (...) فهما مختلفان في الدلالة (الله...!!).

ولا بد أن يكون هناك ما يشير إلى المقصود منهما...

إذا (...) فماذا يقول القرآن عن هذه القضية ؟؟؟!!! (لِمَ كل هذا ؟). وردت في القرآن هذه اللفظة مرتين: ﴿ما هذه التماثيل...﴾ و﴿من محاريب وتماثيل...﴾.

أظن (يقول) –والله أعلم بالقصد والصواب– (كررها المؤلف مئة مرة) أنه بعد هذا، قد ظهر الحق وبان (اظهر وبان وعليك الأمان... وقل كمان) فتمثال قد ورد مجموعاً في هاتين الآيتين،

ولا تدري ما المقصود فيهما صيغة الفتح أو صيغة الكسر... لكن يقول الأستاذ إنه بالتأمل والقرائن فإن الأولى في سياق ذم التماثيل، إذاً فهي بالكسر. أما الآية الثانية فهي في سياق المن (للمرة الثلاثين)، إذاً فهي معرض المدح.

إذاً فالقول القائل إن ذلك كان جائزاً في ملة من سبقنا فهو قول مردود.

إذا فما الذي تعنيه هذه التماثيل التي مفردها تمثال -بالفتح-؟ ثم يطلب منا ألاّ نصدر أي حكم (سبق السيف الطلب) حتى تقرأ هذا الكتاب و... أيضا قراءة البحث (الجن بين إشارات...) سبق ذكره. (نحن مستعجلون في الانتهاء من قراءة هذا وتوبة...).

ثم عاد ليكرر أو يقرر أن لفظة تماثيل لفظة حركية... حيوية... وليست جامدة سكونية... بناء على ما ذكرناه (أو ما تحكمنا فيه تحكماً ولوينا فيه أعناق الأشياء والنصوص والجن) فهي تعني البث.

ثم أعاد مرة أخرى حديث الجن وقدرتهم، في تكرار ورتابة لا توصف. ولم يفته أن ينقل عن ابن تيمية في موضوع الجن.

ثم يسال بعد استعراض قوة الجن فأين المهارة التي اختصوا بها؟ ثم انتقل من علم "المندل " (هذا تعبيره) إلى الشيء البرّاق -بتشديد- الذي هو البث التلفزي... (والحق أقول: من أندر ما رأيت في حياتي من أمثلة التحكم واللّي).

ونقل عن الشيوخ أن الجن الذين يحضّرونهم (انتقلنا من العلم إلى الجن...) يروهم شيئاً براقاً مثل الماء والزجاج ويمثلون له فيه ما يطلب من الأخبار. ثم بنى عليه أن الزجاج هو الشاشة والماء هو الموجات... (هل هكذا تورد الإبل والمواشي؟ وهل هكذا هو البحث الجنّي والبث العلمي؟).

ثم عنون: لمَ كان العلماء يستبعدون مثل ذلك؟ يجيب أنه ظهر له -بتوفيق من الله- (الله أعلم) أن العلماء كانوا يستبعدون هذا هروباً من نسبة السحر إلى سليمان. (أما الآن وبعد اكتشاف الأستاذ فنستطيع أن نكشف المغطى دون أن يُتهم سليمان. فالحمد لله وشكراً للأستاذ من بعد).

ثم يقول: إن العلماء هربوا من شبهة السحر فوقعوا في الشرك الأكبر وهو التماثيل، ثم خرّجوا هذا بأنه كان جائزاً. (يا سلام...! ولولا أن الأستاذ هُدي لكنا في ضلالة حتى هذا الحين...!).

ثم نقل عن ابن تيمية أنواع التعامل مع الجن والجائز من صور التعامل. وبعد أن ذكر الأنواع الثلاثة قال يفسر الماء: إذاً فالتعامل مع الجن ثلاثة أنواع.

ثم أشار إلى "الإرسال" الذي كان زمن عمر (لما نادى يا سارية). ثم عاد للقول إن سليمان استخدم الجن في صالح الأمة. إذاً فاستخدام سليمان كان من المباح .

ثم تعرض لحديث لابن عباس نقله الشوكاني مفاده أن سليمان كان يدعو بعد صنع التماثيل: يا رب انفخ فيها الروح، فإنها أقوى على الخدمة. (علماً بأنه سخر له الجن والشياطين كل بناء وغواص). (أين العقل أيها الناس؟).

ولو كانت الصور التلفزيونية موجودة زمن ابن عباس لكان له حديث عظيم. (الحمد لله أنها لم تكن).

ثم عاود للمرة الألف القول أن التماثيل فيها حركة... (يا لضياع الوقت). إذاً فهي تختلف عما قالوا... وأن التماثيل بعد الروح أقدر على الخدمة.

من هذه الإجابة نخرج (خرجنا بالفعل من حدود العقل والنقل، استغفر الله) بلطيفة مهمة جداً جداً –والحمد لله– (بالنص)، وهي أن هذه التماثيل كانت تعملها الجن لسليمان (اكتشاف عظيم ومهم ولا معنى له) من أجل الخدمة. إذاً فالجن كانت تعمل لسليمان أعمالاً خارقة. (هل تصدق أنه يعيد هكذا؟).

ثم يسأل لِمَ الإصرار على أن هذه التماثيل هي من البث التلفزي؟ ويكرر في الجواب ربما للمرة الألف أنه بتوفيق من الله وعونه هدي إلى هذا... ونحتاج إلى صبر أيوب في القراءة حتى نحتمل ثقل الأسلوب...

يقول: "أن سليمان حكيم، وعنده العلم، وأن الجن ربما أعطوه معلومات مضللة، مجرد دسيسة... فالواجب التأكد... فكانت ضرورة العمل التلفزي (هل خطر ببالك أو ببال جن سليمان مثل هذا الخيال –بالياء–؟) وهذا يجعلنا نقول –بتوفيق الله وعونه– إن الجن عرفوا الرقي الحضاري"(...!!).

ويستميحنا الكاتب عذراً أن كان أطال علينا. ويقص علينا بعد العذر مهام الجن –تاني– وأنه طلب منهم أعمال بلا صوت. (منعاً للتلوث الضوضائي أظن). فأخبروه عن الجني "صخر" فاستعان سليمان بخبراته...!

ثم اكتشف الكاتب الطاقة الشمسية (أي أنها كانت تستخدم). يقول: فأنت ترى معي (نحن لا نرى ما ترى يا أستاذ) كيف استخدمت الجن شتى أنواع المعادن... والتي غالباً ما تستعمل موادها في صناعة شاشة التلفزيون... (هل رأيت في العجب مثل هذا... وفعلاً من يعش رجباً يرى عجباً ونحن الآن ويا للعجب في أول رجب...!!)

لِمَ كانت الإضاءة؟ يجيب بعون من الله وتوفيق ورحمة (أي نعم كله): إن الإضاءة ناتجة من امتزاج المواد...

وينقل لنا عن عرائس المجالس الذي لم ير الأنس والجن كتاباً أغرق في الإسرائيليات والمفتريات منه... ومما ينقل أنه بنى بيتاً إذا دخله البار -بتشديد- استبان خياله ابيض... وإذا دخله الفاجر استبان خياله أسود.. (فعلاً الأستاذ محق -بكسر الحاء-). "ونصب في زاوية المسجد عصا أبنوس مَن مسها من أولاد الأنبياء لم يضره منها شيء، ومن مسها غيرهم احترقت يده". عن عرائس المجالس (وما أدراك ما عرائس المجالس؟!)

إذاً فهم استخدموا هذه الأنواع الإشعاعية قبلنا.

وبعد هذا (يقول): أيحق لنا أن نجادل (الأستاذ) فيما سبق من استخدام سليمان للبث؟ ثم يقف وقفة تحليلية مع عرائس المجالس وقصة الجني "صخر" (اسمه هكذا) وبعد الاستعراض يقول: نخرج بأن صخراً ما هو إلاّ رمز لأسس الرقي والتقدم... فكيف نستغرب بعد ذلك استخدام سليمان للبث التلفزي.

ثم يصف كرسي سليمان والعجائب التي فيه. وبحمد الله وتوفيقه (مرة أخرى) رجع للطاقة.

إطار عام:

الجانب العلمي: نقل لنا عن نشرة من وزارة المعارف السعودية كيف يعمل التلفزيون. إذاً فهو صندوق (وكررها بعد سطر).

ثم عاد للفظة تماثيل (للمرة الألف) ولِمَ وردت بصيغة الجمع؟ ويجيب بأن الصورة التلفزية -بتوفيق الله وعونه- متى تتابعت أدت إلى التمثيل أي الحركة.

إذاً فصيغة الجمع -تماثيل- أعطتنا -بحمد الله وتوفيقه- المغزى والمفتاح. تماثيل: صور وتصوير تلفزي.

إذاً فالعرض حركي !! (يا رب أعنا على الاصطبار لمثل هذا التكرار والابتكار في المعاني والكشوف والفتوح والأنوار!!)

إذاً فالتوازن بين العنصر المادي والروحي سر عمارة الأرض.

ثم عاد (الله شهيد) للمرة التي لا تحصى أن التماثيل في سياق المن.

ورجع لبساط الريح أو رجع على بساط الريح. (زي بعضه طالما الأمور خارج العقل والمنطق واللغة والعلم والفكر والمقاييس فليقل من شاء ما شاء...)

ثم نقل عن شلبي قوله: أن بساط الريح حقيقة، ثم فسر لنا الريح وتسخيرها بمحركات الطائرات.

ثم يفسر لنا عين القطر بأنها النحاس (لم يقل العلماء إلاّ هذا) ولكن بمارات الأستاذ حيث قال والذي عندي -بتوفيق الله وعونه- ليس معارضة للبخاري فأين أنا منه؟ ولكن تلمساً للحقيقة وبما ألهمني الله وفتح به علي. (وهو في التفاسير افتح أي تفسير يفتح عليك)

وهو قالها بعد صفحة: ذهب كثير من أئمة التفسير إلى أن القطر هو النحاس. (فأين الذي فتحه الله عليك من بين الناس؟!)

إذاً (الله وكيل هكذا) فالقطر هو النحاس. (اصبر وتحمل وتوكل)

إذاً فمن الفوائد استخدام النحاس في الصناعة. (...!!)

إذاً فالله أعطى سليمان منبع الحديد ومنبع النحاس وهما أساس الصناعات الثقيلة. ثم فسر الجفان بالأحواض الضخمة يصهر فيها الحديد.

إذاً فهي دولة تعج بالصناعات.

ثم عودة مع لفظة تماثيل (يبدو أن الأمر لم يعد يحتمل، ولذلك سنفارق الكتاب غير آسفين)

ماذا تفيد في جو كله منن؟ (ماذا أقول لك ؟)

ماذا في لفظة تماثيل من حياة؟ (كيف يطيق الأستاذ من نفسه هذا التكرار؟) ثم استعرض (بلا مناسبة) الآيات التي تتكلم عن سليمان في القرآن.

ثم ينقل عن الظلال ما تبقى في تفسير الآيات. ولا ينسى اتحافنا بلفتة منه بين محطة ومحطة فيقول: إذاً فالريح قد أدت عملاً خارقاً بنقل البساط.

إذاً فلا بد من عمل تنافسي. (إذاً لا بد من إنهاء هذا العمل الذي نقوم به لأنه اقترب من العبث)

إذاً فهو عطاء إلهي، إذاً فهو حق .

ثم منة إذاً .. مكرورة بلا معنى .

إذاً فالتماثيل...

إذاً فعمل التماثيل...

ثم (والله صحيح) عودة لقضية البث التلفزي !! (عنوان)

ومن ضمن الكلام قال: إذاً فما هو الشعاع؟ ثم أجاب: إذاً فذلك الإشعاع عبارة عن تحول تلك الأرواح الفلكية عند تعلقها بالكواكب إلى أرواح لطيفة إشعاعية. (فهمت شي؟)

ثم يدخل في هلوسات ابن عربي والقاشاني ينقلها عن الشلبي، فما عرفنا المؤلف سلفياً أم صوفياً أم أنه هو لا يعرف نفسه، وينقل بلا فهم ولا وعي. المهم أنه يقول: ثم يكشف الإمام سراً جميلاً فيقول: إنما الكون خيال... وهو حق في الحقيقة... (افهم...!)

وهل تتوقع عنواناً جديداً (ستفاجأ): عودة لصيغة تماثيل !!

ثم ذكر هو الآية ﴿أف لكم﴾... (هل فهمت؟)

ثم نقل عن العرائس أن سليمان أمر الجن فصوروا لبلقيس صورة أبيها (بث حي) لأنها وهي زوجة لسليمان كان يصيبها حزن. ثم ذكر أنها كانت تسجد لأبيها هي ومن معها في غيبة سليمان !!.

ثم كشف لنا عن العلاقة بين "المندل" -بالميم- (أي والله !) والبث التلفزي. ثم طمأننا إلى أن رسولنا لن تنقل صورته لأنه نور لا ضوء. (يا عقلاء العالم!)

ونختم فعلاً قبل أن يصاب الأوزون بثقب لا يلتئم بعده أبداً...

يقول الأخ في الختام، ونقول الكلمة نفسها له: "هذا هو الإبداع...".

الكتاب الحادي عشر

حياة سليمان

تأليف: محمــود شــلبي

ط١، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

حياة سليمان / محمود شلبي.

تعريف عام بالكتاب:

يقع الكتاب في ثمانين وثلاثمائة صفحة، لم يقسمه إلى فصول، ولا إلى مباحث، وإنما يدع العنوان الذي يضعه يحل محل الفصل أو المبحث.

كان يضع في صفحة: ووهبنا لداود سليمان... قالت نملة... الخ.

فهو يأخذ عناوينه من الآيات، لكنه نضّد كتابه كدواوين الشعر إذ يضع في السطر عدة كلمات، ويملأ باقي السطر بالنقاط. كأنك تقرأ في ديوان من دواوين شعراء الانفلات من التفعيلة.

ولو جئت أحصي كلمات كل صفحة لعددت لك عشرات الصفحات لا تحتوي إلاّ على بضع عشرات من الكلمات؛ أحصيت صفحة كاملة فيها بضع وخمسون كلمة.

فصفحة (٧) مثلاً فيها مئة كلمة، والصفحة الأولى بعدها هي (ص١١) وعدد كلماتها نفس العدد تقريباً، بينما (ص١٤) عدد كلماتها أربعون، والصفحة التالية لها هي صفحة (ص١٧) (هل وصلت الرسالة ؟!) وعدد الكلمات أيضاً بنفس المعدل، صفحة (٢٥) عدد كلماتها أربعون، والصفحة التالية لها (ص٢٩) وهكذا قل في سائر صفحات الكتاب.

هذه ملاحظة حتى يفهم الكتّاب أن القارئ لا يريد أن يشتري ورقاً فارغاً. وإن جئت للحق، فإن الورق الفارغ أحسن من الكلام الفارغ الذي ملأ به الكاتب كتابه، حاشا لكلام الله بالطبع.

الصفحة الأولى هي (ص١١) وهكذا جاءت:

"كما وقع... (في سطر).

الاختيار على يوسف (هكذا): الاختيار... على يوسف... من دون اخوته...

وقع الاختيار... على سليمان... من دون اخوته...

وكما كان يوسف أصغر اخوته...

كان سليمان من أصغر اخوته ....".

وهكذا يسير الكتاب، وتسير المقارنات العميقة والفكر اللماح، والثقافة الغزيرة، واللغة الرصينة !! وخليها على الله.

ثم بدأ البحر يتعمق، وأخذنا دوار البحر نحن القارئين "المساكين" استمع:

"إن تمام الحقيقة الداودية... في تمام الحقيقة السليمانية...

وكمال الشخصية الداوودية... في ظهور الشخصية السليمانية...

كما كان تمام الحقيقة اليعقوبية... في ظهور الحقيقة اليوسفية...

تجد الإشارة إلى ذلك في قوله: ﴿ويتم نعمته عليك...﴾.

إن تمام داود... في ظهور سليمان...

كما أن تمام سليمان... كان في ظهور داود...

ناموس مطرد متكرر...". ونضيف عليه: وسنة من سنن الله... فتأمل وتفكر.

هكذا نقلت لك بالصوت والصورة، والنقطة والسطر هذه التحفة الفنية الفكرية، العلمية الثقافية، والمتعة البصرية السمعية الكونية الحضارية العالمية الإنسانية... الخ...!! على أن الكاتب لم يقل لنا: "إن تمام الحقيقة المحمدية... كان في...". هذا كلام بلا معنى ولا طعم.

ثم انتقل السيد إلى عنوان جديد، وفاكهة ناضجة مفيدة جديدة، عنون لها بجزء من آية قرآنية لتكتسب قوة وجمالاً. كما تضع قلادة من الماس على عنق ميت (إن الزينة للأحياء يا أستاذ!) -المهم- عد بنا إلى النص: "الفطنة... (هكذا)

أو الذكاء...

أو العبقرية...

أو الإدراك السريع للأمور...".

عفواً ما هذا؟ يقول الأستاذ: "شرط يتحتم وجوده فيمن يقع عليه اختيار الله".

وهي شرط، أقول، فيمن يكتب لعباد الله.

"ما هي هذه القصة الجميلة؟

وما هو هذا الحكم العظيم الذي شرفه الله بشهوده؟

الله؟!

يشهد هذا الحكم؟!

فما هو هذا الحكم؟!". هكذا الابتزاز وإلاّ فلا... أليس هذا من الفطنة؟ ثم شرح الكاتب العظيم لنا القصة بطريقته ولغته:

"فدهش القوم لجراءة الغلام !

وانتظروا صامتين ما وراءه !". (من أين لك هذا يا أيها الأستاذ العظيم).

"ما أعظم تلك القضية...

لقد حيزت لها العظمة من أطرافها...

الله يشهدها...

والقاضي داود...

وعضو هيئة الحكمة سليمان...". (ولم يقل لنا الكاتب من كان الكاتب ومن الحاجب؟)

وقد اكتفيت بالسطور المنقطة فسأعود إلى السطر المرصوص، توفيراً لمالكم ووقـــتكم... وإن كان الكاتب لم يعد بالطبع، بل ظل إلى آخر قرش في جيوبنا يكتب بالشكل المنقط السابق... أقصد إلى آخر (صفعة).

ثم عنوان جديد: "شاخ... (هكذا) الملك داود... ولزم الفراش...". ثم قص علينا قصة من خياله الخصب أو من جراب الإسرائيليات الذي لا ينضب: " كيف أن (أدونيا) أحد أبناء داود (يقول الأستاذ) أراد أن يهتبل فرصة... إلاّ أن الملك حسم الفتنة ودعا صادوق الكاهن، وناثـــان النبي، وطلب منهم أن يركبوا سليمان على البغلة (ليس سليمان بن عبد الملك إنما سليمان الملك) وأن يترلوا به إلى جيحون وليمسحه هناك الكاهن صادوق وناثان النبي ملكاً، واضربوا بـــالبوق، وقولوا ليحي الملك...". (يقصد: يعيش الملك ! لمن لم "يلقط")

"وهتف الشعب يحي الملك... وأفلتت الفرصة من أدونيا... وعظم الرب سليمان جـــداً وجعل عليه جلالاً ملكياً". (عبارة التوراة ولغتها الركيكة حافظ عليها الأستاذ).

ثم عنوان جديد: عبقرية سليمان. وتحت هذا العنوان أخبرنا عن "زانيتين اختصمتا عنده في ولدين مات أحدهما... الخ".

يا رجل... هل جعلت أول العهد وافتتاح الحكم بهذه القضية؟ هلاّ أخرتها؟ أين أنت من حسن المطلع؟ وفي القصة ذات السطرين يكتبها الأستاذ في أربع صفحات، وقبلها وبعدها أربـــع أخرى من الورق الأبيض غير المقوى...!!

وتحت عنوان: الملك. عاد بنا إلى أدونيا. وكيف بدأ يتدلل... ثم يقتل أدونيا في نفس اليوم وغيّر سليمان قائد الجيش في نفس اليوم، وغيّر الكاهن، ولماذا نعرض بلغتنا: خذها من فم الكاتب أو من كمه: "إنها حركة تطهير (انقلاب يعني، وغير أبيض)... القضاء على رأس الفتنة... وتغيير في المناصب العليا (بالنص والله)... والملك هو الملك... له مقتضيات... ولـــه ضـــرورات... ولـــه حتميات...". (ثم فراغ معهود).

ثم عنوان جديد: ولقد فتنا سليمان. (لقد فتنتنا كتابة الأستاذ حتى فنينا عن أنفسنا وغبنا عن وعينا، وغُبنّا في وقتنا...)

يختار الأستاذ في تفسير فتنة سليمان ما اختار الرازي أنه مرض مرضاً شديداً، ويقارنه – بذكاء– بمرض الرسول عليه السلام: "مرض النبي الملك... حتى صار جسداً شبه ميت... تحول إلى لا شيء... ثم رد الله عافيته...". (لقد كتمنا أنفاسنا، وبلغ بنا الجزع والهلع منتهاه، ثم سرّى عنا الأستاذ، وقال لنا): "لقد خرج من التجربة... أعظم نوراً وحكمة!" (شكراً).

ثم انتقل بنا إلى عنوان جديد: "رب... اغفر لي... وهب لي..." (هكذا)، ثم قال: "أمرهم... وراء العقول... لأن الأنبياء مرايا التجلي الإلهي... الكامل... كل منهم بحر لا يتناهى...". (هل تتوقع هذه المقدمة لماذا؟ وعلى ماذا؟)

هذه المقدمة مدخل لبيان أهمية دعاء سليمان: ﴿رب اغفر لي وهب لي...﴾.

وتأمل بالله عليك ما يأتي: "قال رب اغفر لي... أولاً: اغفر لي... اغفر لي... ما قدمت وما أخرت... اغفر لي... ما كان مني... وما سوف يكون... إنه يطلب... مما أعطاه الله... لخاتم النبيين...". ثم يقول: "ليغفر لك الله... والمغفرة مراتب لا تحصى... فلزم أن تكون المغفرة مراتب شتى... ولكن... هؤلاء الأنبياء... علام يستغفرون...؟ ومم يستغفرون؟! وقد ثبت عنهم أنهم دائماً يستغفرون... يستغفرون... عما كان منهم... حين كانوا هناك... فإذا قال سليمان... رب ... اغفر... لي... فإنه كلما صعد... إلى مقام... استغفر ربه... ومن هنا كان الأنبياء... أكثر الناس استغفاراً... فكانوا دائمي الاستغفار... استغفارهم... استغفار أنوار... أما استغفارنا... فاستغفار الخروج من الظلمات... رب اغفر لي... فلما غفر له...".

هل قرأت في العربية أو في اللاتينية مثل هذه البلاغة؟! وهل أشرقت عليك مثل هذه الأنوار؟ هل صدمت بمثل هذا التكرار؟! وهل ذقت مثل هذه الحلاوة، ورأيت مثل هذه الطلاوة؟ هل الأستاذ يكتب شعراً؟ وهل هو شعر حر؟ أم شعر مر؟ المهم إقرأ بعد سطور مما أتحفتك به هذه التحفة الجديدة: "أنظر... إلى الجمال الشعشعاني؟! ...(إي والله هكذا). ما هذا... كيف هذا... ؟! (هذا من الكاتب). هب لي... إنك أنت الوهاب... وملك الملوك... إذا وهب... لا تسألن عن السبب...".

لقد بطل العجب، لأننا لم نفهم السبب، لماذا الأستاذ يقطع كلماته، هل يحسب أنها من عيون الشعر والأدب، وأنها ستدخل ديوان حماسة العرب؟! ثم ختم فصله بخريدة فريدة عن ابن

عربي لا تفهم منها شيئاً: "لو نبهنا على المقام السليماني على تمامه، لرأيت أمراً يهولك الإطــلاع عليه..". (ليتك فعلت كنا رأينا عجباً، وقضينا أرباً، لكن سامحك الله حرمتنا من فيوض الأنوار... كنا اتبعنا سبباً ورأينا عجباً... وصمنا رجباً... مسكينة الثقافة الإسلامية، كيف يتطاول إلى مقامها من ليس بأهل).

وفي عنوانه: فسخرنا له الريح... جلس الكاتب يحسب المسافة التي تقطعها الريح فتبين له أنها: (١٥٠٠) كم في اليوم، فعلاً (الفاضي) يحسب سرعة الريح، نسيت هذا ذهابا ومثلها إياباً.

"وهذا يفسر لنا عجائب بساط الريح..." (هذا قول الأستاذ ولم يستأذن من فريــد)، ثم قال: "والذي أميل إليه أن بساط الريح... حقيقة... إن بساط الريح... حقيقة (التكرار ليس خطأ مطبعياً) فالذي أميل إليه... أن بساط الريح حقيقة". (لا يوجد خطأ في الطباعة).

قال المؤلف (شلبي): "قال صاحب تفسير (الفواتح الإلهية): "وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير... كان معسكره مائة فرسخ... خمسة وعشرون للإنس... وخمسة وعشرون للجن... وخمسة وعشرون للطير... وخمسة وعشرون للوحش... وكان سليمان يأمر الريح فترفعه فوق رؤوسهم مشرفاً عليهم... فبينما هو يسير مع عسكره سمع حراثاً يقول: لقــد أوتي آل داود ملكاً. فقال سليمان: لتسبيحة واحدة يتقبلها الله خير مما أوتي آل داود". وأقول (شلبي): مثل هذا القصص، قصص حق... تناقله أئمة أعلام. ثم يشبه ما فعله سليمان بما يفعله الملوك الآن... حــين يركبون طائرة هليوكبتر... (بالنص) ويستعرضون منها جيوشهم...". (ومن قال إن الشيوخ غير مثقفين ؟!) ثم ينتقل بنا الشيخ قائلاً: "فها هي سفن الفضاء: حقيقة. ونقول للذين استنكروا بساط الريح (عيب !) ها هي سفن الفضاء تحقق ما لم يحققه بساط الريح لسليمان (مــشكلة) فكيــف يستبعدون بساط الريح ؟!".

ومبحث تسخير الجن أخذ منه ثلاث عشرة صفحة يكرر فيها ويزيد، ويقطع الكلمــات ولا جديد، ومهماتهم معروفة؛ لكنه اللت والمط ونفخ الكتاب بما لا طائل ولا خبَّ تحته.

﴿وأسلنا له عين القطر...﴾، لما قطعها الأستاذ على طريقة الكلمات الضائعة، ومربعات الكلمات المتقاطعة؛ استغرقت منه قرابة تسع صفحات، ولا شيء فيها لا يؤخذ ولا يرد عليه.

ثم أفرد لحديث البخاري عن نبينا عليه السلام: "لولا دعوة أخي ســليمان..."، وهــو حديث معروف، أفرد له مبحثاً خاصاً.

ثم ننتقل إلى (استعراض سلاح الفرسان). الذي بين فيه الكاتب رحمة سليمان بالخيل، فقال: "ما أعظم الأنبياء (سطر). وما أكرم الأنبياء (سطر). حتى الخيل لم تحرم من رحمة سليمان (سطر). الأنبياء مستودعات للرحمة (سطر) أتعجب أن تسري الرحمة منه إلى الخيل (سطر)".

ثم توقف عند الآية ﴿وما كفر سليمان...﴾.

ثم سليمان يبني البيت، وقد بين لنا فيه أن بناءه استغرق سبع سنين وافتتحه سليمان رسمياً (كيف ؟ لم يقل لنا) ودعا إلى حفل الافتتاح كل الشعب... رؤساء ومرؤوسين، وكان يوم الافتتاح عيداً. (وعطلة رسمية، ومنقول نقلاً حياً).

ثم قال الأستاذ: "فاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق، وتكلم بثلاثة آلاف مثل وكانت نشائده ألفاً وخمساً !!". ثم فصّل لنا البيت وحيطانه وأطواله ونوع الخشب والذهب الذي وضع فيه...

ثم بين لنا أن هذه صورة تفصيلية نقلها من مراجع أهل الكتاب. وفي مبحث تال بين عظمة قصور سليمان... وفصّل السقوف والأروقة.

ولم يأخذ في الكتاب شيء ما أخذت النملة؛ فقد خصص لها عشرين صفحة (للنملة !).

ودعنا نشنف آذانك بهدير البحر وأمواجه، يقول الأستاذ معقباً على قوله تعالى: ﴿وقالا الحمد لله الذي فضلنا...﴾: "بحر موّاج... يموج بالجمال موجاً... تلكم الآية الجميلة... ضم موجة سليمان... إلى موجة داود... واعتبرهما موجاً واحداً... كالبحر الزخار... تتعالى فيه ملايين الموجات... كل موجة لها هديرها... فإذا سكن البحر... عادت الأمواج بحراً واحداً... فإن قيل: لماذا اعتبر داود وسليمان موجة واحدة؟...".

هل رأيت أجمل من هذا التكرار؟! هل رأيت أثقل من هذه الإعادة لكلمة موجة (عشر مرات) في خمسة أسطر؟ وهكذا قل في الصفحة التالية؛ قضاها يكرر كلمة (علماً). والتالية يكرر كلمة (الحمد لله). وفي تالية كرر (ورث) ثماني مرات.

ثم نقف مع (العقل) ومع الأستاذ، يقول: " ﴿عُلّمنا منطق الطير﴾... ها هنا... نلغي عقولنا فوراً... ونفكر بقلوبنا... لأن العقل ها هنا صفراً (هكذا)... كيف؟ العقل يقول: لا أدري !... وأخرى قد تمزق عقلك تمزيقاً (يا لطيف، اللهم احرسنا واجمع شمل عقولنا). ما هي هذه المزقة؟ يقول: إن سليمان كان يعلم منطق الريح ! (حاسب على عقلك، هل تمزق؟!) فماذا هو

قاتل عقلك؟ (يسأل) إننا نسبح بقلوبنا (سكّن السين)... لا بعقولنا... في بحر ﴿عُلّمنا منطق الطير﴾... ولكن الذي لا تطيقه العقول: كيف علم منطق هؤلاء جميعاً... إنها حيرة العقل... ولكن القلب يقول: آمنا به كل من عند ربنا...".

"وننتقل الآن (يقول الأستاذ) إلى تلك الجميلة الرائعة... التي اسمها نملة !!". (ما هذا الغزل يا أستاذ ؟) استمع ما يأتي: "أحبها... (لا تسيء الظن الأستاذ يحب النملة) لأن الله اختارها... من بين ملايين النمل... وهذا شرف لم يظفر به كثير من خلق الله... أحبها (مرة ثانية، والنملة هي هي) لأن التجلي الإلهي في أصغر شيء... كالتجلي في أكبر شيء... أحبها (للمرة الثالثة) لأنها اضطرت (!) نبياً إلى الضحك...".

ثم كرر في صفحتين كلمة نمل سبع عشرة مرة. فإذا علِمْنا أن معدل عدد الكلمات هو (١٧٠) كلمة في الصفحتين، فإن النسبة هي ١٠%، لكلمة نملة إلى سائر الكلام. (...!!)

وبعد النملة حدثنا عن الهدهد وقصة ملكة اليمن في مئة وثلاثين صفحة فقط... (نصفها فراغات).

وتحت عنوان: بلقيس، شرح لنا الأستاذ كيف وصل الملك إليها، ذلك أن والدها مات فآل ملكه إلى ابن أخ له، وكان فاحشاً، فأرادها، فواعدته، فقتلته فصار الملك إليها... (أولاً من أين هذا؟ وثانياً ما الفائدة؟ وأين هذا من القصة؟).

ثم فصّل لنا ملكها، فقال: "كان تحت يدها أربعمائة ملك. (يا مولانا، هل يقبل عقلك هذا أم أنه تمزق مع حكاية الريح وذهب مع الريح؟ إذاً عوضك الله خيراً). وكان لها ثلاثمائة وزير (في أمريكا أقل من عشرين وزيراً، ويبدو أنه كلما مسخت الدولة كثر وزراؤها).

ثم فصّل لنا في قصرها وعرشها بما لا نفع فيه ولا حصيلة منه، وهل يعقل الأستاذ أن طول العرش ثمانون ذراعاً؟؟ يقول الأستاذ: "ولا يبعد مثل هذا... فالمرأة امرأة دائماً... تحول كل شيء إلى زينة...".

ثم وصف لنا كيف جلست على العرش يفوح عطرها... وأحست في أعماقها... بغريزة الأنوثة... الخ (ما علاقة هذا بالقصة؟).

"عجائب الأستاذ الكبير الهدهد لا تدركها العقول". (يقول الأستاذ مع التقطيع). ثم بين استغراب الهدهد من عبادة القوم للشمس، وكرر الشمس تسع مرات في حوالي خمس وأربعين كلمة بمعدل الخمس تقريباً، يكرر كلمة واحدة. يا لصبر الأستاذ على نفسه!

ثم كرر "السجود" أربع عشرة مرة في صفحتين من صفحاته الفارغة. ولن أكرر تكرارات الأستاذ، لكن قس على ما قلت... وامض إلى آخر الكتاب.

ونحب أن نتوقف مع الأستاذ عند جلسة الملكة مع مجلس النواب للرد على الكتاب، ولندع الأستاذ ينقل لنا في بث حي ومباشر من قاعة المجلس (حافظ على تصور الكلمات المقطعة أي كل كلمة وراءها ثلاث نقاط بالعدد): "قاعة العرش خالية تماماً في انتظار الجلسة التاريخية الخطيرة. يتصدر القاعة عرش الملكة... وقد صفت على جانبيه مقاعد الوزراء. النوافذ ازدانت بالستائر الفاخرة... وفي أعلى ستارة اختبأ الهدهد (الأستاذ شايفه). (يصرخ الأستاذ) والآن تصفيق حاد. تدخل الملكة، وبدأ المدعوون يتوافدون (يقول الأستاذ وما زال في عربة النقل ومعه الميكروفون): حضر رئيس الوزراء والوزراء... حضر قائد عام القوات المسلحة. وحضر المستشارون الملكيون. (لا أدري إن كان الأستاذ راعى البروتوكول في النقل، على كل سامحه الله إذا لخبط في البروتوكول. الرهبة . الأستاذ معذور. حاجة تلخم): وحضر شيوخ القبائل... أخذ رجالات الدولة مجالسهم.

وفجأة... (وهنا صرخ الأستاذ وليس هناك) نفخ النافخون في الأبواق، دخلت الملكة إلى القاعة... تتلألأ اللآلئ على تاجها... ويفوح العطر (كيف شم العطر وهو في عربة النقل؟) سارت إلى كرسي العرش... (النقل خطوة خطوة، ووكالات الأنباء حاضرة، فلاشات الكاميرات تلمع...) أومأت تحيي الحاضرين بابتسامتها (العذبة، وتصفيق لمدة خمس دقائق) تصمت القاعة... ثم تكلمت بلقيس..."

وهكذا يتم الأستاذ النقل، الذي سنواصله معكم في النشرة الأخيرة إن شاء الله، أما الآن فإلى الفقرة التالية في البرنامج...

"هدايا الملكة إلى سليمان"، ويفصل الأستاذ فيها بما لا طائل تحته ولا فوقه ولا عن جنبيه... ولا ننقله حتى لا نعكر مزاجكم بعد نقل الجلسة في مجلس النواب...

ثم رجع الأستاذ إلى حكاية الجمال الشعشعاني (إي والله الشعشعاني) ليس من خطأ مطبعي!

ثم وصف لنا بالنقل الحي والمباشر على الطريقة السابقة كيف استقبلت بلقيس الوفد، يقول (حافظ على التقطيع لأن الجمال من غير تقطيع يضيع). "بلقيس تجلس على عرشها... ورجالات الدولة من حولها... الجميع ينظرون إلى جمالها... ثم يغضون البصر خوفاً من جلالها (قطع

كل كلمة). (المهم أنهم استأذنوا) فأومأت إليهم في دلال (في دلال يا أستاذ ؟!، هل هذا وقتـــه؟) فقال رئيس الوفد: لقد أعلن سليمان الحرب".

ثم يصف لنا كيف قدمت بلقيس على سليمان... وما الهدايا التي حملتها معهـــا (حمولـــة طائرة جامبو).

وننتقل إلى الذي أحضر العرش حيث يرجح الأستاذ أنه من الإنس، فقد قرر أحد العارفين (يقول الأستاذ ولم يقل لنا من هو هذا العارف طيب ما أنت عارف) قرر وقال: "رجل صالح واحد أقوى من مملكة الجن بأسرها !" (يا سلام!).

ولم أطق صبراً على حكاية العد، فقد عدت إليها فعددت كلمة "شكر" في نصف صفحة (الله وكيل) فكانت ثلاث عشرة مرة، هل هذا معقول؟

ثم نتوقف في محطة أخرى، لا للتزود ولكن —لنستمع إلى نقل آخر حي ومباشر— استقبال سليمان للملكة: "قاعة العرش فسيحة... في صدرها عرش سليمان. وعن يمين عرشه عرش بلقيس، أرض قاعة العرش من زجاج شفاف تجري من تحته المياه الملونة (ملونة غير ملوثة)... فيها أنـــواع الأسماك والضفادع (ضفادع ! هذه في المستنقعات يا أستاذ سامحك الله). كانت الملكـــة في زينـــة ملكية (لم ينقل لنا الأستاذ لون الثوب، ربما كان أزرق تركواز والا ايه يا أستاذ ؟)".

إلى أن قال: "وتزوجها سليمان. وأحبها حباً شديداً. (حولها الأستاذ إلى فلم مـــصري). وصار يزورها في اليمن كل شهر مرة (مش كل سنة) يقيم عندها ثلاثة أيام. كانت هذه هي الوقائع (الأستاذ يقول وليس أنا). قصة سليمان وبلقيس... كما وردت في كتاب الله العزيز (أمـــا هـــذه ففيها نظر) سجلناها مؤسسة على صريح الآيات (الكلام للأستاذ كذلك وعلى ذمته) مبرأة مـــن أقاصيص القصاص (بعد كل هذا) وتهاويل الحكايات (لو أني نقلت لكم ما قاله في العرش والهدايا لما صدقتموه).

ثم يتكرم علينا الأستاذ بمعلومة أن هذا كان في منتصف مدة حكم سليمان الذي اســـتمر أربعين سنة، أي بحسبة بسيطة سنة ٢٠ من الحكم السليماني.

تدمير البيت (يقصد الهيكل).

يقول: "مات سليمان... وكان ما كان... وتطاول الزمان...".

ثم تكلم الكاتب عن إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين: مرة بمخالفة أحكام التوراة وقتل شعيا... ومرة بقتل يحيى وزكريا وقصد قتل عيسى عليهم السلام، كل ذلك من أعظم الجرائم عند الله. ولتستكبرن عتواً وعناداً على الأنبياء استهانة واستخفافاً... علواً كبيراً: بحيث لا تعدونهم من العقلاء بل تسفهونهم وتكذبونهم. فاعلموا أيها المسرفون أننا ننتقم منكم في النشأة الأولى لكل جريمة صدرت عنكم من الجريمتين العظيمتين... فإذا جاء وعد انتقام أولاهما سلطنا عليكم عباداً لنا منتقمين منكم... أولي بأس شديد وصولة قاهرة... فجاسوا: تجسسوا. وترددوا لطلبكم... من خلال الديار: وسطها للقتل والاستئصال... وكان وعداً مفعولاً: حقاً عليه إنجازه. وذلك حين استولى بختنصر عليهم فقتل كبارهم وسبى صغارهم... وخرب بلدانهم وحرق التوراة... وخرب الأقصى. ثم أعدنا الصولة لكم على أعدائكم وجعلناكم في الكرة الثانية أكثر نفيراً من الكرة الأولى وأكثر جنداً منها.

إن أحسنتم لبني نوعكم وآمنتم بالله لتزكية نفوسكم، وإن أسأتم لهؤلاء وكفرتم فلها أي وبال إساءتكم عائد عليها... فإذا جاء وقت انتقام الجريمة الأخيرة بعثنا عليكم أيضاً عباداً لنا أولي بأس وبطش قيل إنه ملك الفرس جودرز. ليسوءوا وجوهكم بحيث تظهر الإساءة على وجوهكم. وليدخلوا المسجد ويخربوه كما خربوه أول مرة في استيلاء بختنصر... وإن عدتم ثالثاً عدنا إلى الانتقام ثالثاً...".

هذه هي الآيات التي سجلت تدمير بيت المقدس الذي بناه سليمان. وهذا هو مختصر تفسيرها[1]. ثم طفق ينقل من التاريخ [2]. ولسنا نرى رأيه ولكن نترك نقاشه.

سليمان كما يراه ابن عربي:

وضع الكاتب العنوان: (ابن العربي) تمويهاً على ما أعتقد، فابن العربي ثقة بعكس ابن عربي ثم قال إن القصد من هذا النقل لابن عربي والقاشاني شارحه هو أن نضيف إلى حياة سليمان آفاقاً جديدة ونظرة عالية غير تلك النظرات التقليدية إلى حياة الأنبياء:

وقد عنون ابن عربي لكلامه بعنوان: (فص حكمة رحمانية في كلمة سليمانية)، ومما قال فيها وهي في عدة صفحات (هذا المبحث ٣٥ صفحة): "والعمل منقسم على ثمانية أعضاء من

---

١ - حياة سليمان، محمود شلبي ص٢٨٥-ص٢٨٩.

٢ - حياة سلمان، ص٢٨٩-ص٢٩٥.

الإنسان، وقد أخبر الحق أنه هوية كل عضو، فلم يكن العامل غير الحق، والصورة للعبد، والهوية مندرجة فيه أي في اسمه، لا غير: أي هوية العبد هو حقيقة الله، أدرجت في اسمه، فالعبد اسم الله وهويته المسماة هو الله...".

ثم يقول الشيخ الأكبر (يقول الشيخ الأصغر فيما ينقله عن الأكبر): "لأنه تعالى (الله) عين ما ظهر وسمّي خلقاً، وبه كان الاسم الظاهر، والآخر للعبد وبكونه لم يكن ثم كان. أي وبسبب أن هذا العبد لم يكن ثم كان، تحقق بالآخرية من هذه الحيثية فهو الآخر، وفي مادته فسمي الله بالآخر.

وبتوقف ظهوره عليه، وصدور العمل منه، كان الاسم الباطن والأول: فالأعمال الصادرة عن العبد ظاهراً، صادرة عن الحق باطناً، وفي الحقيقة تحقق للحق الاسم الأول والباطن من غيب هوية العبد فإن الحق هو العامل به وفيه. فإذا رأيت الخلق رأيت الأول والآخر والظاهر والباطن. وهذه معرفة لا يغيب عنها سليمان. بل هي من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده يعني الظهور به في عالم الشهادة. يعني أن سليمان كان عارفاً بأن الله هو العامل بسليمان ما يصدر عنه...".

وفي موضوع انتقال عرش بلقيس يقول ابن عربي بكشف سر المعجزة: "فما قطع العرش مسافة، ولا زويت له أرض، لمن فهم...".

ثم يقول عن علم سليمان وداود: "فكان علم داود علماً مؤتى آتاه الله... وعلم سليمان علم الله في المسألة إذ كان هو الحاكم بلا واسطة...".

ثم يقول في موضوع الصرح والعرش كلاماً لا ينضبط –قصداً– ولا يُفهم... يقول ابن عربي وشارحه: "قالت كأنه هو وصدقت، يعني أنه تقيد الوجود في الصورة العرشية عند سليمان ولم يكن إعادة العين، ولا نقل الوجود المشهود في سبأ إلى مجلس سليمان. فإن ذلك محال، بل إعدام لذلك الشكل في سبأ وإيجاد لمثله عند سليمان. فهو إيجاد لمثل لا إيجاد لعين. فقولها كأنه هو صادق". ثم يقول ابن عربي: "إن بلقيس كانت أفقه من فرعون. الانقياد لله (هكذا). كما كنا نحن على الصراط المستقيم الذي الرب تعالى عليه...".

"ثم يكشف الإمام الأكبر (يقول المؤلف) سراً جميلاً (السر جميل)". فيقول: "إنما الكون خيال. وهو حق في الحقيقة. والذي يفهم هذا. حاز أسرار الطريقة".

ثم أعاد لنا مرة ثانية بعد كلام ابن عربي أقواله في: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً...﴾. ويبدو أن نفحات القاشاني على كلام ابن عربي هيجت قريحة الشلبي ليستأنف الكلام

من جديد. وقد تزود بوقود وطاقة من فيض القاشاني وابن عربي. ثم قال لنـــا: "راجـــع هـــذا في الفصول السابقة". (فلِمَ ذكرته في خمس صفحات؟)

وفي آخر ثلاثين صفحة ينقل من التوراة والمزامير والأمثال التي في الإصحاحات...

ثم يذكر "وفاة سليمان بعد عام كامل واقفاً متكئاً على عصاه (دون دليل). فصدر بيـــان رسمي من الدولة (رجع الأستاذ لمهمته الإعلامية) أن الملك مات منذ عام... وأن قدرة الله أمسكته طيلة هذا العام... فكبر المؤمنون... وتبين أن الجن لا يعلمون الغيب... ودفن سليمان مع آبائه في مدينة داود".

هكذا يختم الكتاب والحمد لله أن انتهينا منه.

الكتاب الثاني عشر

حياة موسى

تأليف: محمـــود شـــلبي

ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

حياة موسى / محمود شلبي.

تعريف عام بالكتاب:

هذه هي الطبعة الثانية لهذا الكتاب، وذلك سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، وأظنه (أو بالتأكيد) قد طبع طبعات بعدها. فالتعطش للقصص القرآني شديد والعلم عند العامة بسيط، وكل شيء يروج، حتى مثل هذا الكتاب.

يقع الكتاب في خمسمئة وخمسين صفحة، لكنها على طريقة الكاتب إذ يملأ نصف الصفحة بالنقاط، وفي كل سطر كلمة أو بعض كلمات... والعنوان صفحة أو عدة صفحات، وبين كل عنوان وعنوان فراغ عدة صفحات. والباقي عند القارئ.

في المقدمة يقول إن حياة موسى أكبر منه -بالتأكيد-، ويقول: وأعلى من فهمي، وشيء لا أستطيعه، ولا ينبغي لي أن أتوجه إليه (ليتك التزمت كلامك) ولكن يا رب هو عليك هين وبك يستطاع... ومنك يستطاب.

ثم دعا الله الذي منّ عليه بحياة... وعدد عدداً من الأنبياء: آدم، وإبراهيم ويوسف، وداود، وسليمان، وأيوب، ويحيى، ورسول الله... امنن علي... بحياة موسى.

وسأل الله أن يجعل فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ثم ثلاث صفحات فراغ إلاّ من عنوان: يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

ليبتدئ الكتاب ص١١ بعنوان: مهما يقال... وعلى طريقة دواوين الشعر طفق يقطع أسطره في كل سطر كلمتين وثلاث كلمات وخمساً... ليقول كلمتين: إن فرعون كان يقتل الأبناء ويستحيي البنات... ثم ثلاث صفحات فراغ اخرى... لنصادف عنواناً: الجبروت. ليترجمها لنا بلغة العصر: الديكتاتورية...

فنحن الآن في ص١٥، ولم يمر بنا سوى مئة كلمة أو نحوها. مما يكون مثله في صفحة واحدة. لولا التقطيع، والورق الأبيض المتروك، ونفخ الكتب بهذه الطريقة ليرتفع ثمنها، والله المستعان...

المهم. يقول لنا في العنوان الجديد... إن الحقير الملقب فرعون (هكذا) جدير أن يدرس... وتحلل نفسيته... لأنه يمثل نفسية الجبابرة... ولأنه ظاهرة متكررة في التاريخ... ولعل هذا هو السر في إفاضة الكتاب المجيد في سرد قصته... تنبيهاً للناس إلى خطورة الدكتاتورية.

ويستمر الكاتب في طريقته... طريقة الشعر المنثور، ونثر الكلمات كل ثلاث في سطر أو أزيد قليلاً. ليقول لنا في صفحة تالية أنه حول الشعب إلى نعاج، ودمر آدميتهم، وأن منطق هـذا الحقير (مرة أخرى) منطق آلهة لا منطق بشر.

وأن المنافقين من حاشيته يحرضونه: أتسكت على هؤلاء ليفسدوا...؟

فماذا كان منطق اللعين؟ (يسأل الكاتب). ويجيب بما في الآية: ﴿سنقتّل أبناءهم...﴾ وهذا في الصفحة التالية بالطبع. ويعلق على ﴿وإنّا فوقهم قاهرون﴾ ليملأ باقي الصفحة. ويعيد خمس مرات كلمة قاهرون، وأربع مرات يكرر... فوقهم. وأربع مرات الإجرام، وعندما أقول في صفحة فإنما أعني مئة كلمة، فلا تنس.

ثم ينهال عليه بوصف: التافه، المنتن، وتبلغ به الحقارة... الخ السمفونية.

وتبتدئ الصفحة التالية من ص٢١، ليكرر كلمة الصعوبة ٤ مرات خلال ثلاثين كلمة. واستمع واستمتع، واقرأ وارتق ذوقاً وبياناً وتبياناً: الصعوبة كل الصعوبة... ولا تنس أن تضع بعد كل كلمة عدة نقاط...

والثقل كل الثقل، والعسر كل العسر، والحمل كل الحمل ليست في النبوة. ولو بقيت النبوة نظرة فلسفية ما كانت هناك صعوبة... إنما الصعوبة أن تواجه الناس بالنبوة. أن تدعو الناس ومنهم الحمير والبغال والخنازير... والجعارين (!) وأسفل من ذلك. أن تواجه هـذه النوعيات وتدعوهم إلى الجمال (بفتح الجيم طبعاً) هنا العسر.

ثم دخل في صفحتين من الإنشاء في عظم بلاء الأنبياء. ثم عقب على مشهد من قصة يوسف ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾، فقال: إن الأنبياء غرباء حتى عن أولادهم. ثم قال: لغتهم... أسيادي (!)... وقرة عيني... الأنبياء أجمل لغة... وأحلى تعبير. (هكذا بالنص والتقطيع) إنها من جوامع الكلم. تموج منها بحار المعرفة. (كل جملة في سطر فلا تنس طريقة الكاتب) وتتفجر منها آلاف النواميس الإلهية (!). (هذا غير واضح في فهمي الضعيف !)

وشميم الأرواح... لغة فوق لغاتنا... يا أهل الحجاب. (فاهم أنت وهو؟!)

ثم ثلاث صفحات من الفراغ ثم عنوان: ولقد... مننا... على موسى... وهـارون؟!... (أحاول النقل بالنقطة)

وفي بدء الحديث فرق بين عطاء المنة ورزق العمل. فإذا فهمنا هذا... دخلنا إلى الكوكب المنير... الذي اسمه موسى... فأدهشنا أمر عجيب... ولقد مننا على موسى وهارون. ها هنا سر مكنون ؟! مننا. (وانتهت الصفحة هل تصدق؟)

موسى منة من الله... (نقط بين كل كلمة وكلمة).

وهل تصدق أنه كرر كلمة منة ومنن اثنتي عشرة مرة ضمن حوالي ستين كلمة. ويصنع الصنيع نفسه في الصفحة التالية فيكرر منة ومنن بنفس الطريقة، ويهوم نفس التهاويم. ثم يقول وسط حقل التهاويم والتكرارات:

من كان... عدواً... لي... فهو أوتوماتيك (هكذا والله !)... عدواً (أي والله هكذا)... لموسى. (وهكذا يكون التأليف...! وحصوة في عين الذي لا يصلي على النبي !) التعبير جميل... جميل. يقول الكاتب الجميل أقصد الجليل.

وفي صفحتين تاليتين يستمر الكلام عن المنن بالتنقيط وكلمة في السطر، وتقطيع الآية كل عدة كلمات في سطر.

ثم قرابة الثلاث صفحات (بياض) ثم عنوان: ارضعيه... فإذا خفت عليه... فالقيه؟...

ولا شيء تحت العنوان ثم عنوان جديد... نبديء ونعيد (قطّع ونقّط) يقول كاتبنا النحرير: كما قلنا مراراً... نكرر تكراراً... إن حياة الأنبياء... حياة أنوار...، وأن الناس حجبت بالوقائع والحوادث التاريخية (!) عن نورهم الوهاج. (!)

والكتاب (القرآن) يلفتنا إلى أنوار الأنبياء أكثر من وقائعهم (هذا رأي الأستاذ) ثم يقطع الآية أن أرضعيه التي جعلها عنواناً يقطعها على أربعة أسطر وتنتهي الصفحة.

ويكرر حكاية الأنوار في الصفحة التالية، ويعيد قصة قتل فرعون للأولاد واستحياء النساء، وأن أم موسى لما ولدته حارت كيف يخفى أمره على مخابرات فرعون، (الكتابة بروح العصر ولغة العصر !) ويذكر لنا في الصفحة التالية أن اسم أم موسى هو (يوكابد)، والقرآن يقول لها لا تخافي، ويسأل: هذا تكليف بما لا يطاق فكيف يطلب إلى أم هالعة (!) ألاَّ تخاف؟

ثم يطمئننا إلى أنه جاءها الإمداد... ثم قال: إن هذا المشهد... أشهد (وأنا معه أشهد) (واسمع يا مولانا أنت أيضاً حتى تشهد مثلما شهد مولانا المبجل المسدّد)... أشهد... أنه أنوار من فوقها أنوار... يقف العقل أمامه... كأنه حمار! (هكذا والله بالنص وعلامة التعجب) (وهكذا

فليكن التعليف آسف التأليف!) وإلاّ، (يواصل أخونا العارف الواصل): وإلاّ فنبئني أيها السيد العقل: ما مدى فهمكم في تلكم الأسرار؟ (فاهم يا...)

ثم صفحتان من الفراغ الذي هو أفضل من المكتوب، ثم عنوان مقطع:

اقذفيه... في... التابوت ؟!... (تماماً بالشكل والنقط)

ويصف الأمر بأنه: أمر لا معقول... بل وراء اللامعقول... (القبول بمثل هذا هو اللامعقول) ارميه... يا يوكابد !... (والله إننا نكابد يا مولانا ! من تحمل أسلوبكم !)

إن الأمر ارميه... يثير الرعب أكثر من رعب الذبح. فماذا تختار؟

هذه حيرة العظماء... عظماء الأولياء... وعظماء الأنبياء... وعظماء أمهات الأنبياء. (لا أدري لم جمع كل هؤلاء؟) وفي الصفحتين التاليتين يعيد الكلام نفسه.

ثم يعلق على: يأخذه عدو لي... فيقول: كأنه يراد أن يقال: خذ هذه البندقية وأفرغها في صدرك (!) ثم يقول بعد هذا مباشرة: إن فرعون كان مضروباً من الداخل (لا تستعجل سينبئك الكاتب بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) وأعني بضرب الداخل أن امرأته كانت عاقراً (هل يخطر هذا ببالك أو ببال الجن؟) ثم يصف لنا جمال الغلام (لم يشر أحد إلى جمال موسى غير عمنا الشلبي).

وفي عنوانين متتاليين: وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً. (و) مستحيل... ثم مستحيل...

قال يفك لنا طلاسم هذا المستحيل وأنه يعني استحالة أن يوجد تعبير أشمل وأكمل من: "وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً". لأن الذي خلق هو الذي يتكلم، (حكمة عظيمة!) طفل عمره ثلاثة شهور في صندوق فوق الماء. مشهد توحيد تجريدي. (هل فهمت؟) وانتهت الصفحة!. ثم قال في التالية: لتسقط قوانين الأسباب (وهتفت الجماهير المحتشدة وقد غابت الألباب وتوارت بالحجاب: تسقط الأسباب، وكل ما ينبغي أن يسقط... من ال...) ثم طفق بعقله العظيم يرسم السيناريوهات المنتظرة للطفل والصندوق: فلربما دخل الليل... وافترس تمساح وليدها (هل خطرت ببالك؟ إيه العظمة دي كلها؟)... أو أخذه الصبيان ليلعبوا به... أو سرقه لصوص البحار. (يقصد القراصنة أبو عين وأبو رجل وأبو عصبة...)

ثم أقسم الكاتب أن دموعه تتحدر من روعة ذلك المشهد الجميل (لا تفريق بين الجمال والمشهد المؤثر أو الخطير أو...)

ثم طمأننا إلى أن الله تعالى أغلق أمواج الظلام من قلبها (هكذا) وفتح أمواج النور من قلبها. ثم عنوان: وحرمنا... عليه... المراضع ؟!...

يقول الكاتب تحت هذا العنوان في صفحة لو رصت لما زادت عن ثلاثة أسطر: من قبل ؟! (سطر) من قبل خلق السماوات حرمنا عليه المراضع. هذه أمور نبديها.. ولا نبتـديها... في كلمة من قبل... إعجاز الإعجاز... التحريم تكويني. ثم في الصفحات التالية يرسم سيناريو وحواراً لدخول البنت وغرضها أن تدلهم على مرضعة. وأن اسم البنت هو مريم (عرفنا الآن فقط اسـم أخت موسى. أضف إلى علمك) وبعد طول حوار لا أنقله أسرع بك إلى خبر المخصصات الملكية لأم موسى. وأن موسى سار مع أمه في موكب ملكي.

ثم ثلاث صفحات فارغة، فعنوان: ألم نربك فينا وليداً... ثم عنوان... قرة عين... يطمئننا فيه إلى أن أم موسى انتقلت هي هذه المرة إلى القصر الملكي.

فصار موسى بذلك قرة عين لطرفين متضادين (حلوة منك) لكن لاحظ هذا التقرير المليء بالتكرير: قدرة... لا تكون إلاّ من القادر المقتدر القدير.. الذي هو على كل شيء قدير.

ثم أعلمنا أن رجال الكهنوت يقومون بتعليم موسى... أرقى ثقافات العصر (لغة العصر!) هذا في الظاهر، وفي الباطن (ولتصنع على عيني). ثم فسر القوي الأمين من باب الاستطراد بـأن القوي... (الظاهر)... قوة الشخصية... والأمين... (الباطن) باطن الشخصية... وأن الأمين هـي صفة الأنبياء. وقد نطقوا أهل مكة بذلك (هكذا).

ثم أرانا ما رأى موسى من دسائس وفساد القصر، وعجائب مخابرات هامان. ثم يشير إلى قول فرعون ممتناً على موسى ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾... ويلفتنا إلى ما ارتكب موسى من قتـل في مراجعة فرعون له، وأن المحكوم عليه بالإعدام في جريمة قتل لا يمكن أن يتحول إلى رسول. هكذا يريد أن يحطم فرعون شخصية موسى كما يقول الكاتب. وانتهى المبحث.

لينقلنا بعد الفراغ المعهود إلى عنوان جديد: مؤامرة... لقتل... موسى ؟!...

في الصفحة الأولى من العنوان يقطع الآية الكريمة: "ودخل المدينة... مبين" ويفسر المدينة في الصفحة التالية بأنها العاصمة (مهم)، والغفلة القيلولة (!) ثم يعرض مشهد قتل المصري بطريقته. ها هو يفاجأ... ها هو رجل مصري... ها هو يضربه... ها هو الإسرائيلي... ها هـو... الخ. ثم أفاض في مشتقات ومرادفات ومقاربات وكزه: لكز، ونكز، وهز، ولهز... الخ.

ثم يصف الكاتب موسى عليه السلام بأنه: البطل الذي تعده الأقدار لحمل الأثقال (على المجاز). إن موسى سيضرب هذا النظام ويقضي عليه بضربة واحدة. وتحولت قضية قتل المصري إلى

قضية سياسية (اشتغلت بها وسائل الإعلام...!) ثم يعيد الكاتب المشهد من جديد لكن تحت عنوان: قال المفسرون.

ويرى المفسرون والناقل عنهم أن الذي قال: أتريد أن تقتلني هو الإسرائيلي. (وهو ما نستبعده)

وبالطريقة الصحفية يواصل الصحفي أقصد الكاتب عرض المشهد في صفحات:

إنها جريمة اليوم... وحديث الساعة... وثورة شعب...، ويواصل الكاتب تقطيع الكلمات ورشها على وجه الصفحة:

واكتشف أمر القاتل... إنه موسى... هل سيقتله فرعون... سوف نرى...

قضية سياسية... حساسة جداً... موسى هو القاتل... هكذا (عناوين المانشيتات.) الشعب هائج ينادي: الموت لموسى... اجتماع عاجل للبلاط ومجلس الوزراء... (ومجلس الشعب) رأس فرعون الاجتماع الخطير (وتواصل الصحف تغطية الأخبار.موسم)

ثم يصف لنا مجيء الرجل يسعى ليحذر موسى بنفس الطريقة. ويقول: الشعب كله يتهامس.. أين موسى؟... الأجهزة كلها تطارده... إنه عدو الشعب الأول. هنالك كان موسى... وحده... بين الصحارى والجبال... تطارده دولة بأجمعها... ونادى موسى من أعماق فؤاده: رب نجني من القوم الظالمين.

ثم ثلاث صفحات بيضاء على ما جرت به العادة، ثم عنوان منقط: فجاءته... إحداهما... تمشي على استحياء ؟! ... (ولا أدري لم في كل عنوان استفهام وتعجب؟!)

ثم عنوان آخر: العظمة الموسوية... لا نستطيع التحليق إلى مستواها (أكيد... ولا مستوى غيرها). ثم يصفه بالبطل، ويقطع بعض الآيات: فجاءته إحداهما. ثم يصلي ويسلم على موسى لتنتهي الصفحة. وفي الصفحة التالية يعود إلى الحديث عن نجاة البطل من أجهزة المخابرات التابعة لهامان.

ويقول: دولة قائمة على المخابرات. للقصر مخابراته الخاصة... وهامان له مخابراته... دولة بوليسية (الميكروفون ما يزال مع الكاتب فلا تظنن الظنونا).

ثم يعقب على "وفتناك فتوناً". فيقول بأسلوبه المتميز: وصهرناك... في نار البلاء... صهراً من بعده صهر... من بعده صهر... لتخرج نقياً.

ويدخل بنا في متاهات القصّاص في موضوع مدين: وكان شعيب قد كف بصره لكثرة بكائه. ففي القصة (أي قصة؟) أنه بكى فذهب بصره، فرده الله، فبكى، فكف، فرد الله بصره، (واستمر الكاتب وأكتفي بهذا القدر...) فأوحى الله إليه: لِمَ تبكي يا شعيب؟ إن كان بكاؤك خوف النار فقد أمنتك. وإن كان لأجل الجنة فقد أبحتها لك. قال: إنما أبكي شوقاً إليك. فأوحى الله إليه: لأجل ذلك أخدمتك نبيي وكليمي عشر حجج (لم يخطر ببال كاتبنا ومن نقل عنهم أن موسى لم يكن نبي بعد؟ وما علاقة الشوق إلى الله بخدمة موسى؟) ويواصل السرد بطريقته من الإنشاء... والتهويم والنقل، ولا ينسى أن يطعم كل ذلك بنفحات من النقول الصوفية: ورد بظاهره ماء مدين، وورد بقلبه موارد الأنس والروح. والموارد مختلفة، فموارد القلب، رياض البسط بكشوفات المحاضرة، فيطربون بأنواع الملاطفة. وموارد الأرواح مشاهد الأرواح، فيكاشفون بأنوار المشاهدة، فيغيبون عن كل إحساس بالنفس. وموارد الأسرار ساحات التوحيد... وعند ذلك الولاية لله فلا نفس ولا حس، ولا قلب ولا أنس... استهلاك في الصمدية وفناء بالكلية.

(ولست أدري ما الذي يدفع الشلبي إلى هذه النقول، المشكلة التي توحي بالحلول ووحدة الوجود؟ وهل يعقل ما ينقل؟ وإذا كان لا يعقله فكيف ينقله؟ وإذا كان يعقله فكيف ينقله؟)

ثم يحدثنا عن الصخرة التي تحتاج أربعين رجلاً لإزاحتها. ونحاها موسى وحده. ولا أدري أيضاً لم يقفل البئر بصخرة تحتاج إلى جيش لزحزحتها، وكل يوم على هذا المنوال. ثم شطح شطحات عدة لا مجال للشطح وراءها كلها، ولكن ننقل طرفاً منها، من ذلك: قال عند قوله: ثم تولى إلى الظل: تولى إلى ظل الأنس وروح البسط واستقلال السر بحقيقة الوجود. وقال عند قوله تعالى: "إني لما أنزلت إلي من خير فقير"، رب زدني فقراً (؟!) فإن فقري إليك يوجب استغنائي بك. (وهذا من العجب. فإن المؤمن لا يطلب نزول البلاء به. بل إنه يتعوذ بالله من الفقر والكفر. ويكفي اقترانهما...)

وينقل دون أن ينسب، وهي كلمات عليها مسحة القشيري يقول تعليقاً على قوله تعالى: ﴿رب إني لما أنزلت إي من خير فقير﴾: "هذا مقام الافتقار، ومن قبل كان في مقام الانكسار حين قتل نفساً... وكان في مقام الاضطرار... حين خرج خائفاً يترقب. وها هو الآن في مقام الافتقار. ناداه من افتقاره ومن انكساره ومن اضطراره فلنعم المجيبون". وهو كلام كما ترى في غاية الجودة...! لكنه كما تزين عروساً من قش.

ثم ذكر القصة التي لا معنى لها ولا سند، قصة سير موسى وراء الفتاة فجعلت الرياح تكشف عن مفاتنها... الخ.

ثم بعد المعهود من الفراغ الممتد على ثلاث صفحات يتحفنا بعنوان: دخل موسى... وتحت العنوان: فوجد في انتظاره مائدة عليها أطايب الطعام...

ولسنا نرى بمجال تحويل القصة القرآنية إلى سيناريو قصة فنية يتصرف فيها الكاتب كما يهوى ويدخل فيها من التفصيلات ما يريد. فهو يقول مثلاً: قال الشيخ وهو يرحب بضيفه العظيم: الطعام أولاً... ثم نتحدث ما شئت ونحن على الطعام. وجعل موسى يأكل ولكن في زهد الأنبياء... الخ. وهذه التفصيلات ليست من القصة القرآنية في شيء. وليس بطلب من دارس القصص القرآني أن يؤلف قصة على قصة أو يحولها إلى سيناريو ويعطي نفسه حرية التصرف في النص. وتأمل المساحة الواسعة من حرية التصرف، والنص على النص في قول الشلبي: أوجست الفتاة أن تنقضي الضيافة... ويذهب الفتى... وتفلت الفرصة... فألقت باقتراحها... يا أبت استأجره... وكانت قنبلة فجرتها الفتاة الرائعة (هكذا)... فزع الشيخ: أنى لهذه معرفة صفات الشاب؟... الخ ...

واختار موسى التي دعته... (وأنى للشيخ شلبي أن يعرف من اختار موسى؟ وهل لو تركها على ما هي في القصة القرآنية كان يفوتنا شيء؟) لا بل إنه ذهب أبعد إذ يقول إن الخطبة بينهما قد وقعت من قبل، إذ عبرت عن إعجابها به، والإعجاب أول الحب...!! (أن تحول القصص القرآنية إلى قصة عادية فهذه جناية غير عادية!)

وبعد الثلاث صفحات البيضاء المعهودة والمحسوبة على القارئ يفجؤنا الكاتب بعنوان: أشهد...

يقول تحته عن نفسه: "إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً (مع تقطيع الكلمات ووضع نقاط بين كلمة وكلمة...) ثم فسر: إذ يممت وجهي إلى الأنبياء لأكتب عنهم. إنهم لا يُدركون". هذا ليقول لنا إنه لم يستطع تصوير لحظة إنبائه عليه السلام.

ولكنه يعود إلى تصوير ما عجز عن تصويره فيقول لنا إن موسى اشتاق إلى أرض الوطن، فخرج مع زوجه وأولاده وغنمه... وفي ليلة شاتية... رياحها عاتية... وبردها زمهرير... ضل موسى طريقه... وفاجأ الطلق امرأته... الخ. وهي تفصيلات ما من سبيل إليها.

ثم نقل عن القشيري: "يا موسى المتحير في بيداء الطلب... اطلبني من هذه الشجرة الموقدة... ولا تستبعد ظهوري فيها... (!!) حتى انكشف لك منها (!) (هذا كلام يشتم منه رائحة الحلول...)

إني وإن ظهرت على هذه الصورة المطلوبة لك ظاهراً... أنا مطلوبك الحقيقي حقيقة... فالآن ارتفعت الحجب والقيود... وتحققت بمقام الكشف والشهود...

فاخلع نعليك واسترح عن الطلب بعد وجدان الأرب... إنك بالواد المقدس عن رذائل الأغيار.

طوى: أي طويت عنك التوجه إلى الغير.

ثم قال القشيري يقارن بين شجرة موسى وشجرة آدم: شتان بين شجرة وشجرة، شجرة آدم عندها ظهور محنته وفتنته، وشجرة موسى وعندها افتتاح نبوته ورسالته.

أنا اخترتك... من بين المكاشفين... للتوجه إلى بحر الحقيقة.

وتعليقاً على قوله: "فاعبدني وأقم الصلاة لذكري" قال: تخلق بأخلاقي... وتوجه نحوي بعموم أعضائك وجوارحك... لتذكرني بها... حتى انكشف لك من كل منها...

"إن الساعة" قال عنها: إن ساعة الانكشاف التام... حاصلة دائماً في كل آن... لكن...

وهي تمويهات كما ترى منها ما يخرج النص عن مقاصده بالكلية، ويعطي لكلام الله من المعاني ما لا صلة له به، وتأويل القيامة تأويل غير مستساغ لا اعتقاداً ولا لغة، فكيف تصبح الساعة التي موعدها محدد، هي ساعة الانكشاف الحاصلة دائماً ؟!

ثم أعقب الكاتب نقوله عن القشيري بنقل عن أهل الكتاب، حيث جاء ثم: "وظهر له ملاك الرب بلهيب نار، من وسط عليقة: فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق. فلما رأى الرب أنه (موسى) مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى. هاأنذا..." الخ !!

ولم يعلق على عليقة أهل الكتاب أي تعليق، فلا ندري لم قصها، وما موقفه منها، ولكنه قال ما يشعر ولو من زاوية ما إلى نوع من الاعتداد، إذ قال: "وأقول: ليس لي قول في مثل هذه الأمور... التي تعلو على العقول".

ثم صفحات بيضاء ثلاث على العادة ثم عنوان: منظر من المناظر الإلهية: وقد أعاد فيه مشهد النار... وتأمل منه هذه القطعة البيانية يقول فيها عن موسى:

"ويرقى... ثم يرقى... ثم يرقى... إلى ما شاء الله أن يرقى... ويقــرب ثم يقــرب... ثم يقرب... وناديناه... وقربناه. لما ناديناه... قربناه... إنه يقرب... ثم يقرب... ثم يقرب إلى ما شاء الله".

هل رأيت مثل هذا البيان، ونظير هذه البلاغة: في ثلاثين كلمة: ٨ مرات يرقى، ٧ مرات يقرب، ثم عنوان آخر: اسلك يدك... مفاجأة أخرى.

ثم يفعل ذلك بطريقته، وأنقل لك من ذلك: العصا... ثعبان... سيخيفك يا فرعــون... والبرهان الثاني... ظهور شيء من حقيقة موسى... إنه نور... مغطى بجسد. سنرفع الغطاء عن جزء من جسده، يده، يظهر النور... أقوى من نور الشمس (القرآن ما قال هذا !)

ثم الفراغ المعهود. فعنوان: لا تخافي... لا تخف... لا تخافا. هناك مفتاح.

وتحت عنوان هناك مفتاح قال من ضمن ما قال: مفتاح أعمق من المحيط... وأبعد مــن السماء. مفتاح رهيب عجيب. هذا المفتاح... (لن تحزروه) هو تركيبة الخوف التي تنــتظم قــوم موسى والتي ورثها موسى.

(ولا نريد أن نعلق على المفتاح الذي هو بعمق المحيط وأعمق. كيف؟ لا تفــتح فمــك. واعتقد أنه لا يقال إن موسى ورث الخوف. فهو الرسول الشجاع. لكن الخوف الفطري الطبيعي لا شيء فيه وليس يرثه الإنسان، إنما يخلق فيه). وفي عدة صفحات تالية لم يخرج عن هذا الــذي نقلته لك. فقد جمع الآيات ليثبت نظريته. وما هو بمستطيع.

ثم الصفحات البيضاء ثم عنوان: اضرب بعصاك... وعنوان: سر آخر. وفيه قال: ما دام فرعون يعتمد على القهر... فهو كلب... (هكذا بالنص ولا تسل ما وجه الربط) لا يعامــل إلاّ بالعصا. فلنبعثن موسى ليؤدبه بالعصا... الخ. ويتجلى الكاتب في ظلال معناه العظيم.

ثم عنوان: اذهبا... إلى فرعون... إنه طغى؟!... صدر الأمر الأعلى.

يقول انتقل موسى من نبي إلى نبي رسول. (وأقول: إنه نبئ وأرسل في ذات اللحظة فمـا من نقلة على ما يقول كاتبنا...) ثم يفسر الكاتب الآيات بطريقة إنشائية يــسيرة، ولا بــد مــن إضافات لا دليل عليها، كقوله: وزيراً: ظهيراً. هارون أخي: إذ هو أخي الأكبر (من أين عرف؟) وختم المبحث بقوله: لقد دقت ساعة الخلاص. وها هو النبي الرسول البطل يستعد لقيادة المعركة. أكبر معركة في التاريخ. وها هي شارة الانطلاق... تدوي في الآفاق. فأتياه...

ثم عنوان: يا فرعون إني رسول من رب العالمين؟!...

ويرسم سيناريو للمشهد بما أعطى لنفسه من حرية التصرف. فيقول: ها هو فرعون يجلس على كرسيه (وهو لا ينسى تنسيق المقاعد...) عن يمينه الأمراء، وعن يساره هامان والوزراء...

ويوزع الآيات على المشهد من سور مختلفة، ويوزعها على المشهد الحواري. ولا ينسى أن يضيف بماراته الخاصة، وإضافاته التي يطلق فيها العنان لنفسه، كأن ينطق فرعون بهذه الكلمات: "لو قد ذبحتك وليداً... لارتحت من ثرثرتك... ثم نظر فرعون إلى هارون في استخفاف: وما شأنك أنت الآخر؟ أرسول أنت كذلك؟ أنت أيضاً صرت رسولاً؟ شيء يثير الضحك".

وأقول: شيء يثير الامتعاض الشديد، والألم، فكيف يخرج من القصة القرآنية إلى قصة من تأليفه هو، وكيف يدمج مشاهده بمشاهد الكلام الرباني؟ كان يكفيه أن يحلل النص لا أن يكتب نصاً على النص. لكن التحليل يحتاج إلى مَلَكات، ومثل الحشو الذي يحشره وسط الكلام الرباني يستطيعه كل من حمل قلماً...

والكاتب يحاول أن يزين كتابته بشيء من الأسلوب الأدبي الذي ليس له فيه الملكة المتمكنة وإنما هي كلمات يستخدمها وغالباً ما تكون غير مواتية ولا هي في موضعها. كأن يقول: وكان بين القمتين... قمة النور... وقمة الظلمات هذا الحوار الخالد. ويضع آيات سورة طه في شكل مسرحي (تعالى الله وحاشا لكلامه)، فرعون: فمن ربكما... ؟ موسى: ربنا الذي أعطى... الخ. وهكذا...

ويصف سخرية فرعون من موسى بالقاتلة، ولست أدري قاتلة لمن؟

وذلك في تعليقه على قول فرعون: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. ويقول: رسولكم أنتم أما أنا ففوق هذه الهذيانات وهذا الجنون... والجنون فنون. والكلام من الكاتب أقصد حتى والجنون فنون، فهذا أيضا من الكاتب. ولا أدري لهذه العبارة محلاً.

ويكرر: وكان حواراً خالداً. ثم يقول: ثم يصدر فرعون أعجب أمر في التاريخ. يصدره إلى الرجل الرهيب هامان: فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً. ولا ينسى ولا يفوت الفرصة في إضافة مشاهد من عنده أو من عندهم، كله واحد، إذ يقول: بنى الصرح، ثم صعد فرعون وصوب سهماً إلى السماء، ورمى به، فعاد إليه النصل مخضبا بالدم. اسمع يا هذا الذي اسمه موسى. لأجعلنك ضمن الألوف التي تضج بها سجوني. ولن تخرج منها إلاّ إلى القبر. وسجد هامان وقال لفرعون: إلهي. ألقه إلي (يقصد موسى) أجعله أنيناً يتلوى... وانتهى المبحث. ولم أدر ما أنيناً؟ اكتم أنينك من هكذا كتابة.

ثم في مبحث جديد بعنوان: أولو جئتك بشيء مبين... يقول بلغت الوقاحة من اللعين منتهاها... الخ. ولا أظن أنّا بحاجة لمثل هذه التعبيرات حتى نصور تأله فرعون، وحنقنا منه. ثم يصف كيف انقلبت العصا ثعباناً يثور ويفور... ويصيح في فحيح. (ولا يصح إلاّ الصحيح!) وهاجمهم جميعاً (من أين هذا؟) ويفتح فمه الرهيب ليبتلعهم ففروا منه... وهو يصر على التهامهم (لماذا لم يفعل؟) ثم توجه الثعبان إلى فرعون ففر... ولم ينته الكاتب إلاّ بوصف كيف أحدث فرعون !؟ من الخوف.

ولعمر الحق إن هذا لإسفاف واستخفاف بالعقول، وعدم توقير لكلمات الكتاب العظيم. ولا نكرر القول أن هذا دلالة الإفلاس من مَلَكة تحليل النص وتذوقه إلى النقل الذي يستطيعه كل نقال وشيال...

وانتظر من الكاتب المفاجأة التالية: وبينما الجميع يولولون ويركب بعضهم قفا بعض تضخم الثعبان وفغر فاه ليبتلع القصر بمن فيه وما فيه... فأمسك موسى بالثعبان. (بالله يا معشر الإنس والجان من أين علم هذا الأستاذ الفنان أن فم الثعبان كان يستطيع بلع القصر بالسكان؟ هل هذا في القرآن؟ أم هو من تلبيس الشيطان؟ ليخرجنا عن مقاصد روائع البيان؟!)

ويصف لنا معجزة اليد فيقول: أدخل موسى يده في عبه ثم نزعها فإذا هي تتشعشع بشعاع يطمس شعاع الشمس... فإذا هم لا يستطيعون النظر إلى شعاعها من شدة إشعاعها. (هل رأيت مثل هذا الكلام الشعشعاني، أو قرأت مثله في مثنوي جلال الدين الإيراني؟)

وفي مبحث جديد أو عنوان تال يصف لنا ما كان في يوم الزينة وهو عند كاتبنا أعظم عيد مقدس قومي (!!) عند المصريين. وفي نقل حي ومباشر باشر الكاتب ينقل لنا: فرعون الرهيب على المنصة الملكية المقدسة (من قدسها؟!)... ودخل الكاتب في تفاصيل لباسه: وقد أخذ زينته... وعليه تاج الملك... والنياشين تحلي صدره... وعاد ليصف الميمنة والميسرة. وأماكن جلوس الجمهور... الخ.

أما ساحة العرض الرئيسية... فقد اصطف فيها في القوس المواجه للمنصة الرئيسية حيث يجلس الملك المقدس، اصطف فيها (١٢٠٠٠) من رجال السحر (اكرر الرقم اثنا عشر ألفاً) أما في الخارج عن يمين الساحة (أشهد عرضهم؟) فقد احتشدت القوات المسلحة. استعداداً للاستعراض العسكري... احتشدت الدولة... واحتشد الشعب... واسمحوا لنا أن نقتطف من كلام مراسلنا هناك الأستاذ شلبي بعض اللقطات والوقفات واللفتات والوصفات:

في الساعة العاشرة... وهو أنسب الأوقات للاستعراضات الكبرى في مصر... دوى صوت الأبواق يعلن بدء الاستعراض العظيم لأقوى وأكبر قوة ضاربة في العالم... وعلى رأس الناس فرعون الرهيب... وعلى رأس بني إسرائيل شيوخ بني إسرائيل... وقد حرص فرعون على حضورهم لإذلالهم (لا تسل من أين ؟). ويواصل مراسلنا أو كاتبنا الوصف أو القصف: هو ذا موسى... وحيداً... يقف في الساحة... وفي يده عصاه... (وانفعل المذيع مراسلنا وعلا صوته...)

ودقت الأبواق... ودخلت قوات الفرسان بخيولها الذهبية (ولا حصان أسود!) وكانت مناورة بارعة من فرعون (هذا من ضمن تقرير المراسل...) وتقدم كبير السحرة... فتقهقر كبير السحرة (لا أدري لم تقهقر بعد التقدم؟) فقال: أئن لنا لأجراً... فتبسم فرعون تبسم الآلهة (بالذمة ده كلام ؟) وقال: نعم.

ويعقب على إلقاء السحرة: وصفق فرعون، بل وبالأحرى وبالنص: وضج فرعون بالتصفيق الحاد. ودوت الأكف كلها بالتصفيق وبنو إسرائيل يصفقون خوفاً...

وعلى الفور نفذ الكليم الأمر الأعلى الصادر إليه، فألقى عصاه... فابتلع الثعبان جميع ما في الساحة من ثعابين... ثم تحرك الثعبان ليبتلع الملايين. (يا راجل !)

وألقي (١٢٠٠٠) عالم كبير سجداً لمن؟ لرب العالمين. هكذا ختم كاتبنا الوصّافة مشهده. ليفتح الستارة عن مشهد جديد يتصرف فيه كما يريد، فنادى فرعون هامان فأشار هذا إلى الشرطة العسكرية فأحاطوا بالسحرة فألهبوا ظهورهم بالسياط. فقال فرعون: هذه مؤامرة لقلب نظام الحكم... فصدر الأمر. لقد قتل فرعون جميع علماء البلاد بكلمة... (١٢٠٠٠) عالم عليم... صلبوا... أبشع صور الإعدام... والملايين المحتشدة صامتة... والعلماء العارفون كأنهم إلى عرس يذهبون.

وفي مبحث تال يعرفنا أن السحرة كانوا طبقة أكابر العلماء، أخذ هذا من كلمة "سحار عليم" والطاغية يخاف أن تكون المعارضة لحكمه في الطبقة المثقفة. فأمر بقتل العلماء جميعا. فهي خطة جهنمية وليس مجرد بطش. (هل رأيتم الحكمة والتجلي؟!)

ويختم مبحثه بقوله تعقيباً على قول موسى: ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ أي ملعوناً.. أي مصاباً بجنون العظمة..!

ويدخل بنا في روضة جديدة من رياضه، وغيضة من غياضه، وفيْضة من فيوضاته، و... فيقول: التقطت بطولة موسى قلوب الشباب. والبطولة مغناطيس (وكهرباء كمان) يلتقط أفئدة

الشباب. الأعداء بهرهم حين قهرهم. والأصدقاء والأنصار ازدادوا تعلقاً به وصار موسى بطلاً أسطوريا...! (لا أدري من أين يهتدي الكاتب إلى مثل هذه الكنوز الأسطورية؟)

لقد بدأ تنظيم المقاومة السرية...

وكان لابد من شن حرب الدعاية. فأمر زبانيته بحشد الشعب كله (كنا أمس في حشد ومهرجان. تاني.) فحشر فنادى . ثم خطب (....) خطاباً مستفيضاً (....) ويعاود البث ... فيقول: ولعب بعقولهم. فجددوا الولاء (يا راجل قبل ساعة كانوا متعلقين بموسى !) وتعالت الهتافات: الموت للخونة... (اقشعر بدني لتصور هدير الجماهير الذي لم نعرفه منذ...) مصر للمصريين (أيوه يا أستاذ) لا مكان للخونة. ثم أعلن خطته الجهنميّة: سنقتل أبناءهم...

وهاهي خطة المقاومة السرية: اتخذوا بيوتاً وتعبدوا فيها... تنظيم عجيب... وترابط أعجب... (هل رأيت أعجب؟)

إن الأعداء (أعداء فرعون) يتجمعون وعلى رأسهم قائد من أخطر القادة السياسيين. فلا مناص من إزالة هذه الزعامة: ذروني أقتل موسى...

وتتواصل وقفات الأستاذ على الشاكلة السابقة... يصور عذاب بني إسرائيل الذين يرون قصتهم: قصة يائسة... وليلاً طويلاً وموسى يصبرهم: والعاقبة للمتقين...

فماذا كان من فرعون؟ دعا إلى اجتماع سري عاجل، فتوافد الأمراء إلى مكان سري (معروف طبعاً) من قصوره المنتشرة في كل مكان. ويصف لنا مشهد فرعون الذي بدا وجهه كأنه رؤوس الشياطين فقال: إن عرش الفراعنة يميد. فماذا تفعلون؟ قالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه. فصاح: يا لكم من أغبياء. أنترك الساحر الحقير؟ فرعبوا هنالك (أي المصريون) وخشوا أن يفجر قتل موسى الثورة في بني إسرائيل... (!!)

ثم صاح فرعون: أريد قراراً إجماعياً بقتل موسى. فانتفض أمير كبير السن هو ابن عم فرعون (لم يسمه الكاتب سامحه الله) وقذف في وجه فرعون بقوله كأنه شواظ من نار: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم يذكر آيات سورة غافر ويعلق عليها على طريقته.

في تسع آيات... هذا هو عنوان المبحث الجديد. وفيه يقول: إن الإجرام صفة أصيلة في فرعون وقومه. فقد كانوا شعباً وحكومة مجرمين. فموسى عندهم ساحر. يقول هذا معلقاً على موقفهم من الآيات التي ساقها الله على يدي موسى. ويفصل الكاتب التسع آيات المفصّلات. وينقل ذلك من سفر الخروج ليفصل لنا آية الدم: "ثم قال الرب لموسى: قلب فرعون غليظ. أبى أن

يطلق الشعب. اذهب إلى فرعون في الصباح. إنه يخرج إلى الماء. وقف للقائه على حافة النهر. والعصا التي تحولت حية تأخذها في يدك. تقول له: هو ذا حتى الآن لم تسمع. هكذا يقول الرب: بهذا تعرف أني أنا الرب. ها أنا أضرب بالعصا التي في يدي على الماء الذي في النهر فيتحول دماً ويموت السمك وينتن، فيعاف المصريون أن يشربوا... فيكون دم في كل أرض مصر في الأخشاب وفي الأحجار... الخ".

هذا كله والذي تركناه عبر عنه القرآن الكريم بكلمة واحدة: "والدم". فشتان بين كتاب لفقه البشر وكتاب من تنزيل الحكيم الحميد، ولا أدري لم يتحفنا الكاتب بهذه التفاصيل الركيكة المكررة المملة التي لا نملك على شيء منها أي دليل، سوى كلمة الدم التي وردت عندنا. ويعلق الكاتب على نقوله المملة: هذه صورة تفصيلية لآية الدم... كما وردت عند أهل الكتاب.

وفي المبحث التالي يكلمنا كاتبنا عن آسيا امرأة فرعون. (والقرآن لم يسم كما تعلمون) وتعاود كاتبنا مهنته في وصف المشاهد فيقول: ومن الجالسات في مقصورة الأسرة المالكة المقدسة (لا أدري إصراره على المقدسة ويكررها؟!) امرأة وجهها كالقمر (أشهد حسنها؟) وحسنها... أجمل نساء زمانها... إنها الملكة... زوجة الملك المقدس (ثاني!؟). إنها آسية بنت مزاحم (عربية هي إذاً؟!) يقول الكاتب إنها ألقيت ساجدة مع السحرة... لكن بقلبها. (يا سلام... ما هذه المفاجآت؟ ومن أين لأخينا هذه المعلومات؟)

واكتشف فرعون أن امرأته آمنت. هنالك عذبها عذاباً لم يعذبه أحداً. وقتلها قتلاً رهيباً (لم نسمع!) واستشهد الكاتب بآية من سورة التحريم، وهي لا تفيد ما ذكر.

وذكر حديث البخاري: "كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلاّ آسيا امرأة فرعون ومريم بنت عمران" .

ونقل عن القرطبي أن الصحيح أن مريم نبية (وهو ليس في نظرنا بصحيح، والعجب لِمَ ينقله الكاتب وليس موضوعه؟) وأما آسيا فلم يرد ما يدل على نبوتها.

وفي حديث أحمد ذكر أربع نسوة (كاملات): مريم وآسية وخديجة وفاطمة... ورواه النسائي والترمذي.

ولا أدري من أين نقل تفاصيل إعدامها، فقد قال: فلما تبين إيمانها لفرعون، أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد، وألقاها في الشمس، وأمر بصخرة عظيمة فتلقى عليها، فقالت: رب ابن لي

عندك بيتاً في الجنة. فأبصرت بيتها في الجنة، وانتزع الله روحها. فالقيت الصخرة عليها وليس في جسدها روح... الخ.

ثم قص علينا إعدامُ أخرى وهي هذه المرة ماشطة بنت فرعون، ونقل عن ابن الأثير القصة وذلك أن مشطها وقع فقالت باسم الله... فدعت بنت فرعون أباها فامر بتنور نحاس ليعذبها وأولادها... فامر بها وأولادها فألقوا في التنور. ومن أراد التفصيلات فليرجع إلى الكتاب وإلى من ينقل عنهم الكتاب، ومن أراد القصة القرآنية فلا يرجع إلاّ إلى القرآن.

ثم فصل الكاتب آية الضفادع... يقول إن المصريين فوجئوا بالبلاد وقد غطاها الضفادع. وفسروا ذلك بأنه سحر. وينقل عن التوراة تفاصيل قصة الضفادع ومن ذلك: "ولما كملت سبعة أيام بعدما ضرب الرب النهر، قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبي ليعبدوني. وإن كنت تأبى أن تطلقهم منها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع. فيفيض النهر ضفادع... عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع... فقال الرب لموسى قل لهارون (لماذا هارون؟) مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقي والآجام وأصعد الضفادع على أرض مصر. فمد هارون يده... فصعدت الضفادع.

ثم يقول موسى لفرعون حدد الوقت الذي يصلي فيه موسى لأجل فرعون وشعبه ليرفع الضفادع (أختصر بلغتي حتى لا نطيل) فقال غداً. فصرخ موسى إلى الرب من أجل الضفادع (ولست أدري لم الصراخ؟) ولاحظ قلة أدب بني يهود في قولهم: "ففعل الرب كقول موسى. فماتت الضفادع"... الخ.

ومن آية الضفادع ينتقل الكاتب ليفصل آية القمّل. وكل واحدة من هذه جاءت في القرآن كلمة، وعند صاحبنا جاءت مبحثاً بعنوان وصفحات والقمّل عنده السوس تنخر محاصيلهم. وبعد ذكر آراء يقول: في الأمر سعة. (الله يوسع عليك من نعيمه يا عم شلبي...) (ولا يحتاج القمّل إلى بحث!)

ويعاود النقل عن التوراة وبنفس الكيفيات: هارون يضرب الأرض بالعصا، ليصير تراب الأرض بعوضاً. وبأسلوب التوراة الثقيل الركيك قالت: وكان البعوض على الناس وعلى البهائم. فقال العرافون لفرعون: هذا إصبع الله... الخ.

ثم نقل عن التوراة قصة الذبان: فدخلت ذبان كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده... وفي كل أرض مصر خربت الأرض من الذبان.

وأعاد القصة من دعاء موسى إلى الرب وفعل الرب كقول موسى. فلم تبق واحـــدة. ولم يفت الكاتب أن يغتاب الذباب ويقول: والذباب حشرة ثقيلة بغيضة...! ونقلك عن الإسرائيليات أثقل من الذباب...!!

ثم فصل آية الطوفان فقال: قيل هو الموت وقيل هو المطر. ورجح قول الطبري أنه أمر من الله طاف بهم. وما بنا من حاجة إلى تفسير المفسر. وتعريف المعرف، وتوضيح الواضح. فالطوفان هو الطوفان.

ويعيد النقل عن التوراة بنفس الخطوات ونفس النقل ونفس الرتابة. والجديد أن مواشي المصريين ماتت ولم يمت لبني إسرائيل واحدة.

ونفس قول الرب لموسى أن يقول لهارون... (ضروري). ولكن هذه المرة: خذا من الرماد ليذره نحو السماء أمام عيني فرعون ليصير غباراً على كل أرض مصر. فيصير على الناس وعلـــى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر. (الجمرة يعني). ثم يفصل لنا ما ليس في القرآن من آيات. وكيف ضرب البرد مصر وفي وسط البرد نار. وكيف ضرب موسم الكتان والشعير. وأما الحنطة والقطاني فلم تضرب لأنها كانت متأخرة (هكذا توراتهم ونقلة أخبارهم...)

ويبدو أن تفسير الطوفان بالمطر منقول عن التوراة لا عن اللغة العربية، وإلاّ فإن معـــنى الطوفان واضح كما أسلفنا. وما بنا من حاجة لهذه النقول. لكنه الشيخ المولع بالتفصيلات وملء الصفحات، ونفخ الكتاب.

ثم يعود فيفصل لنا آية الجراد، وكم هو ممل أن يعيد الخطوات بالحذافير للمرة...

ثم يذكر لنا آية الظلام ولا أدري من أين أتى بالكلام، أو من أين اقتبسه أو اختلـــسه في الظلام.. آه نعم... لقد عرفنا إنه ينقل عن التوراة المحرفة المملوءة بالأعاجيب التي تدهش هـــواة الإسرائيليات وجمع الترهات... وملخص ذلك الذي لم يذكره القرآن أن موسى مد يده إلى السماء فكان ظلام دامس عم أرض مصر. ثم قال فرعون لموسى: لا تر وجهي إنك يوم ترى وجهي تموت.

وصدر الأمر بالخروج كما قال الكاتب تحت عنوان: صراخ عظيم في كل أرض مـــصر. (عنوان صحفي)

ثم ينقل عن التوراة: فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر من فرعون حتى البهائم وكان صراخ عظيم في مصر...!! لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميـــت. فطلـــب فرعون خروجهم. (والكاتب ينقل ما يعاكس القرآن وهو لا يدري ما ينقل ولا ما يقول) ثم يفصل

كيف أمر موسى شعبه بسلب أمتعة المصريين (حاشا!) وتنص التوراة وناقلها أن الخارجين كانوا ستمئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد (يعني يا مولانا مليون ونصف مثلاً) يحرص بنو إسرائيل وهم قلة من فضل الله أن يكثروا أنفسهم والشيخ يشايعهم وينقل باطلهم ومبالغتهم. أتدري ما مليون في ذلك الوقت ؟!)

قد تورط الشيخ بنقله عن التوراة فاضطر إلى رسم سيناريو ليخرج نفسه من المأزق. فقال: فبعد أن طرد اللعين بني إسرائيل وذهبوا بعيداً استأسد مرة أخرى وقرر أن يعيدهم. والقرآن يا مولانا بين أن موسى تلقى أمراً من الله بالسير ليلاً سراً، فلماذا تخالف القرآن ثم تتفتق عبقريتك عن محاولات تلفيق معتسفة مفتعلة متكلفة ؟!

ويواصل شيخنا العلامة النقالة نقوله عن التوراة المكتوبة بأيدي بني إسرائيل: جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه وهم نازلون عند البحر. ورفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم (هكذا) فصرخ بنو إسرائيل إلى الرب. (يا مولانا كف عن الصراخ ونقله) وقالوا لموسى: أخذتنا لنموت في البرية، لأن نخدم المصريين خير من أن نموت في البرية ؟ (يعني لا قيمة عندهم للحرية. هذه هي القضية.)

ثم قال الرب: الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون (انتبه جيداً !!) وقال الرب: أتمجد بفرعون وجيشه بمركباته وفرسانه (هكذا البلاغة يا نقلة!).

فلما رأى الشعب ما فعل الرب بالمصريين (تقول التوراة بعد اختصار...) لما رأوا آمنوا بالرب وبموسى (يعني أنهم بنص التوراة لم يكونوا آمنوا بعد... عجبي!). ثم يذكر مولانا المبجل آيات القرآن بعد صفحات التوراة ويعقب: وكان منظراً أخيراً... يثير الضحك... (هكذا بالنص والنقطة..) وهو يحاول أن ينجو من الموت المحقق...!!

وجاء عنوان آخر: آلآن وقد عصيت... وعنوان فرعي: آخر ألعوبة... ثم أكمل لعبها اللعين أنه حاول أن يخادع. يقصد أن يتكلم عن مشهد إيمانه عندما وجد الغرق. وضمن كلامه قال: لقد ضحك على موسى أكثر من مرة. وهو تعبير غير لائق فالله يمد الحبل لهم، وفرعون لا يضحك على رسول الله. فلماذا لا يلعب تلك اللعبة هذه المرة يقول المؤلف العظيم، وتعبير غير موفق، فالأمر جد خطير، وفرعون يغرق وهو لا يفكر في اللعب، وإنما يفكر في إنقاذ نفسه بالدعاء مخلصاً، لكنه فات الوقت.

يقول: قال مخادعاً... وهذا غير صحيح، فيما أرى، فإن الله وصف دعاء المضطرين في مثل هذه الحالات: ﴿دعوا الله مخلصين له الدين...﴾ فأين دقة تعبير القرآن. من كلام أمثال مؤلفنا.

ثم يعيب الكاتب على فرعون أنه لم يقل لا إله إلاّ الله، وإنما قال: إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل. ويعلق على سؤال الله لفرعون: آلآن...، فيقول: جمالها رفيع منيع جميع (ونسي أخونا وصف بديع) يقصد الكاتب كلمة "آلآن".

ويعلق على "وكنت من المفسدين" فيقول: لا بد من استئصالك أيها الجرثومة الغضة! وعند "ننجيك" قال: نأمر البحر بإلقائك جيفة منتنة بجسمك النجس... ولا داعي في نظري لكل هذه الكلمات، فتكفينا كلمات القرآن: "فاليوم ننجيك ببدنك..." وأعظم بها...

ثم يصف الكاتب قصة موسى وفرعون بأنها أعظم قصة في التاريخ وأضخم صراع خالد بين الحق والباطل ويزيدها ضخامة وفخامة... وكلمات كاتبنا الفخمة لا تعني شيئاً... فالقصة القرآنية عظيمة من غير هذه الكلمات الكبيرة... الضخامة والفخامة. ولا يزيد فرعون شيئاً وصفه الكائن العفن المتعفن ! والمجرم الأكبر الأكبر!

ثم ينتقل الكاتب إلى قصة موسى مع بني إسرائيل، فيقول: الحرية قبل الإيمان. فمن لا حرية له لا إيمان له. فالحرية هي المناخ الحتمي لنمو شجرة الإيمان الطيبة. ومن هنا كانت مهمة موسى تحرير ذلك الشعب ليتمكنوا من العبادة.

وقال: الحرية للإيمان... كالهواء للإنسان. (ما شاء الله كلام جميل والفكرة حلوة). ثم قال وقد أبى أن يستمر على نسق موفق: فليفهم هذا الأغبياء من المؤمنين والمؤمنات..!!

ثم ذكر أول مشكلة واجهت موسى وهي ناشئة عن ذلهم: أنهم طلبوا إلهاً... صنماً. ثم تكلم عن آيات الله على بني إسرائيل من طلب الماء وإنزال المن والسلوى. ونقل عن التوراة نقلاً مطولاً.

ثم تكلم عن مقامات الكليم. وقوله: رب أرني أنظر إليك. وينقل عن تمويمات الباطنية دون عزو، إذ يقول: فلما أفاق موسى عن وله وسكره... وانكشف من ربه بما انكشف... من أنه لا يرى الله إلاّ الله...

وبعدما عرفتك الآن يا ربي... عرفاناً أكمل... وانكشفت منك انكشافاً أتم... بحيث لم انكشف مثله من قبل. وأنا أول المؤمنين... إذ لا اعتداد لإيماني بك من قبل (وهو غير صحيح البتة). ثم نقل عن التوراة: "أعطيك لوحي الحجارة والشريعة !!" وكان منظر مجد الرب كنار آكلة

على رأس الجبل (ولا أدري ماذا أعجب الناقل من هذا؟) ثم أعطي موسى عند فراغه من الكلام معه (!) لوحي الشهادة لوحي حجر مكتوبين بإصبع الله. (ولم يعلق أخونا. يعني أنه يوافق ! وهو كلام لا يستقيم ولا يصح نقله إلاّ مع التعليق).

ثم تكلم عن مشهد عبادة العجل على يد السامري، ولم يزد على ذكر الآيات وتفسير بسيط لها مع إضافات من الإسرائيليات حيث كان ممكناً، كأن يقول: "ثم حفروا حفرة واسعة. وجعلوا يلقون فيها ما حملوا من الذهب... الذي سلبوه من المصريين... الخ" ...

ثم تحدث عن: فاقتلوا أنفسكم. ويعيد قصة عبادة العجل من جديد بما لا داعي له. ثم ينقل عن التوراة قصة المذبحة. ومن ذلك: "هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه. ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل.

ويعلق الكاتب: ثلاثة آلاف (كأنه حقيقة!). لقد كانت مذبحة... حمام دم... ثم يشبه هذا الحادث في تاريخ دعوة موسى بحادث في تاريخ دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، حادث حروب الردة.

ولا أدري وجه الشبه. فحروب الردة رد تمرد على الدولة. ولماذا هذا القياس العجيب المشكل ؟! ثم يفصل مشهد أخذ الصاعقة لخيار بني إسرائيل وينقله عن ابن الأثير الذي ينقله بدوره عن الإسرائيليات. ويذكر الآيات ويفسرها بطريقته.

ثم سأل هل عند أهل الكتاب شيء؟ ثم نقل ليجيب. ولن ننقل ما نقل فقد أتخمنا.

ثم يصف مشهد التيه أربعين سنة. وينقل عن التوراة مطولاً ويصر على أنهم ستمئة ألف (رجال فقط).

ثم كلمنا عن قارون المجرم البليونير (هكذا) ونقل القصة عن التوراة. وفيها إسفاف ما كان أغناه عنه، من ذلك: فاغتاظ موسى جداً وقال للرب: لا تلتفت إلى تقدمتهما...

وقال: خذوا كل واحد مجمرته واجعلوا فيها بخوراً وقدموا أمام الرب كل واحد مجمرته.

وقال موسى أيضاً (في توراتهم): ولكن إن ابتدع الرب بدعة وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم. تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب ! وخرجت نار من عند الرب وأكلت الرجال الخ...

ثم علق الكاتب العظيم: كل هذه التفاصيل أجملها القرآن وسجلها. وما هو بصحيح هذا القول. ثم يكلمنا عن لقاء موسى والخضر. وابتدأ بالحديث المشهور المعروف أن موسى سئل من أعلم أهل الأرض؟... الخ. ولا جديد في الفصل.

وينقل عن التوراة أنه مات في السنة الأربعين للخروج في الأول من الشهر الخامس. وعند موت موسى قال: إن الله امره أن يصعد إلى جبل نبو الذي في أرض مؤاب الذي قبالة أريحا وقال له: مت في الجبل الذي تصعد عليه كما مات أخوك في جبل هور. وقال له الرب: هذه الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب... الخ. ولم يعلق الكاتب على هذا الدس الخطير. وهذا منه عجيب بل شنيع وغريب.

ثم كلمنا في فصل عن موسى في السماء السادسة وفيه ذكر حديث المعراج كل كلمة في سطر. ثم فصل آخر احتجاج آدم وموسى وذكر الحديث الذي رواه البخاري. ويعلق: وكان لقاء رائعاً جميلاً... (يا مولانا الرائع والجميل ليس في هذا المقام!)

ثم عنوان: صورة موسى... وفيه يتناقض فمرة يقول: نحيف... خفيف اللحم. وبعد سطر: أسمر... ضخم الجسم. وفي لغة عصرية (هو يقول): جسيم الصدر ضامر البطن... باختصار صورته صورة بطل فيه جمال النبوة وجلال الرسالة. (وهذا كله من أين وما الداعي له؟)

ثم في ستين صفحة كاملة يتحفنا بنقول عن ابن عربي (الذي يكتبه الكاتب إما للتزوير وإما جهلاً: ابن العربي). وانقل لك مما نقل لتعلم أي ناقل هو، وإن كان يفهم ما ينقل فمصيبة، وإن كان لا بفهم فمصيبة أيضاً...

ويصف ابن عربي بالإمام الأكبر والعارف الجليل، ويسأل للتهويل: وما أدراك ما ابن العربي إذا تحدث؟! إنه أفق أعلى يضيف إلى فهمنا فهماً... ويرفع مستوانا الفكري وهذا خير عظيم. (سننظر!)

وقد زاد الكاشاني (بتشيعه الغالي وباطنيته وتصوفه المزعوم الأمور تعقيداً على تعقيد) (أقول).

يقول الكاشاني: "الإمام لقب من ألقاب الخلافة. وقد صرح هارون بذلك. وقد بقيت الإمامة في نسله إلى الآن (عهد ليصل لبيت قصيده). يقول: وهي الخلافة المقيدة، أي الإمامة بالوساطة، كما كانت لخلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله الإمامة المطلقة لكونه نبياً، كإمامة المهدي عليه السلام، (وانتبه للآتي): والمراد بالمطلقة التي لا واسطة بين صاحبها وبين الله

(!!)، وله رتبة التقدم والتحكم في الوجود". (هذا الكلام الذي بشرنا المؤلف بأنه سيرفع من مستوانا ولا أدري هل رفع من مستواه هو؟)

يقول الشيخ الأكبر (!) من كتابه الفريد (يقصد الفصوص: فصوص الحكم): "اعلم أن وجود هارون كان من حضرة الرحموت. ولما كانت نبوته من حضرة الرحمة قال: يا ابن أم. وسبب ذلك عدم التثبت في النظر (يقصد موسى) في الالواح، فلو نظر فيها نظر تثبت لوجد فيها الهدى والرحمة.

(وانظر هذه المعضلة القادمة القاصمة): قال: وكان موسى أعلم بالأمر من هرون، لأنه علم ما عبده أصحاب العجل، لعلمه بأن الله قضى ألاّ يعبدوا إلاّ إياه (هل فهمت؟) (إن لم تفهم استمع التالي فهو يوضح مقصده الباطني): وما حكم الله بشيء إلاّ وقع. والعارف من يرى الحق في كل شيء (يقصد حتى في عبادة العجل!)، بل يراه عين كل شيء.

(وانظر شرح الكاشاني كيف يؤكد المعاني التي قلناها ويرفع الغطاء عن الوجه الشيطاني لهذا الذي يزعم تصوفاً وعلم معاني) يقول: المعبود ليس محصوراً في صورة بل هو ما في الصور كلها من الحق، لأن العبادة لا يستحقها إلاّ الله (هذه الكلمة الصحيحة توضع ذراً للرماد، وليبني عليها قناطر من الباطل...) الله الذي هو عين الكل (افهم!)، وله هوية جميع الصور (تفضل !). أما كونه كفراً، فلكونه سراً (!!) يتعين على الحق المتعين". (ولست أدري ما حاجتنا إلى هذه السفسطات والشطحات والتهويمات والطلّسمات ؟!)

يقول كاتبنا (أي الشلبي إن كنت نسيت): ثم يتشعشع (!) الشيخ الأكبر ويقول: "وما سمي المال مالاً إلاّ لكونه بالذات يميل القلوب بالعبادة. فهو المقصود الأعظم المعظم في القلوب، لما فيها من الافتقار إليه (واضح؟) وليس للصور بقاء، فلا بد من ذهاب صورة العجل، لو لم يستعجل موسى بحرقه (ما اقتراح الشيخ الأكبر؟... لم نفهمه ؟)

فغلبت عليه الغيرة فحرقه. ثم نسف رماد تلك الصورة في اليم. وقال له: انظر إلى إلهك. فسماه إلهاً بطريق التنبيه للتعليم (!)، لما علم أنه بعض المجالي الإلهية" (!!)

(أيها المدافعون عن المخرفين والمخربين، هذا يقول أن في العجل بعض المجالي الإلهية فهل بقي بعد هذا من مجال للدفاع؟)

قال الشارح (الكاشاني): "اعلم أن الأنبياء كلهم صور الحقائق الإلهية النورانية الروحانية والفراعنة صور الحقائق النفسانية الظلمانية. لهذا كانت العداوة بين الرسل والفراعنة. لكنهم

مختلفون في التعينات الإنسانية لاختلاف الأسماء الإلهية فيهم (!)، مع اتحادهم في الوجهة والمعارف الحقانية والتوحيد وأصول الدين القيم". (لا أظن أن في الدنيا أضل من هذا الضلال الذي يريد الكاتب أن يرفع من مستوانا به.)

ويعلق كاتبنا العظيم الشلباني على كلام القاشاني، فيقول: أسرار وأنوار وأغوار وبحار عميقة عميقة (بين الكلمة والكلمة دائماً نقاط وبحار فلا تنس!) إن القاشاني يعلو ويعلو. يقول كاتبنا، ويؤكد: هم القوم لا يشقى جليسهم. (والله يا عم شلبي أخشى عليك من شعشعاقم وإشعاعاقم الضارة أن تصيبك لوثة باطنيتهم وأن تضل وتشقى)

ونواصل مع الكاشاني من حيث توقفنا إذ يجعل المؤمن والكافر شيئاً واحداً، يعود ليؤكد قوله إذ يقول: فإنهم في ذلك كنفس واحدة على آل واحد لرب واحد هو رب الأرباب (!) فالحق الواحد يتجلى لكل منهم على صورة الاسم الغالب عليهم.

وبعد هويمات طويلة لابن عربي يصل إلى مربط النعامة والفرس والحمار إذ يقول معالناً غير مسار: "فكان عدم قدرة إدراع هرون بالفعل أن ينفذ في أصحاب العجل بالتسليط على العجل كما سلط موسى عليه، كلمة من الله الظاهرة في الوجود، ليعبد في كل صورة (!!) وإن ذهبت تلك الصورة بعد ذلك، فما ذهبت إلاّ بعدما تلبست عند عابدها بالألوهية. ولهذا ما بقي نوع من الأنواع إلاّ وعبد. إما عبادة تأله وإما عبادة تسخير". ثم شرح الكاشاني في هذا المعنى الشعشعاني والإتحاف السني الفيضاني، فقال، ويا لهول ما قال: "يعني أن الحق المعبود المطلق الذي أمر ألاّ يعبد إلاّ إياه لما ظهر بنور الوجود في كل نوع من الأنواع بل في كل شخص، لزم أن يعبد في تلك الصورة". (واضح؟!)

ويواصل ابن عربي (يتبادلون رشقنا بكفرياقم): "وما عبد شيء من العالم إلاّ بعد التلبس بالرفعة عند العابد. والظهور بالدرجة في قلبه. ولذلك يسمى الحق رفيع الدرجات. فإنه قضى ألاّ نعبد إلاّ إياه في درجات كثيرة مختلفة أعطت كل درجة مجلى إلهياً عبد فيها. وأعظم مجلى عبد فيه وأعلاه الهوى". (هل هذا موقفه؟ أم هذا وصف الواقع؟ أم هذا تقرير؟ أم ماذا؟)

هذه المتاهة هي الباطنية التي تجعل صاحبها يترلق كالزنبق فلا يقبض عليه متلبساً بالزندقة والكفر !

ثم يقول عن الهوى: فهو أعظم معبود (!!) فإنه لا يعبد شيء إلاّ به (يا ناس!) ولا يعبد هو إلاّ بذاته. وفيه أقول (ابن عربي يقول):

وحق الهوى أن الهوى سبب الهوى   ولولا الهوى في القلب ما عبد الهوى

(هل هذا موقف رجل يذم الهوى أم يعلي من شأنه ويقدسه ويعبده ؟!... فسّر كما هوى).

ويشرح الكاشاني بما يزيد المعاني التباساً وتعويصاً واستعصاء على الأذهان، إذ يقول عن الهوى: وأما عند العارف فهو أعظم مجلى عبد فيه (عارف ايه؟) ثم فسر البيت الضلالي فقال: "اقسم بحق العشق الأمدي". (أرأيت كيف يسوقون الهبل على الشعب الملخوم المسكين؟)

ويقول: ولولا الهوى الباطن في القلب ما عبد الهوى الظاهر في النفس (افهم !) لأنه عينه تنزل عن التعين القلبي إلى التعين النفسي مع أمدية عينه في الكل. (!!) يقول ابن عربي بعد ذلك: "حتى إن عبادة الله كانت عن هوى أيضاً. لأنه لو لم يقع ذلك في الجناب المقدس هوى وهو الإرادة بمحبة، ما عبد الله ولا آثره على غيره". (أرأيت التلاعب بالعقول والكلمات والشطحات والضلالات؟!)

ويشرح الكاشاني معبرا عن مذهبه الحلولاني: "فبسريان الوحدة في الوجود، تسري المحبة فيه. فكل هوى كان أقرب إلى الحب الكلي (!) كان أشرف (بالشين)، وصاحبه أعلى مقاماً. والحقيقة من حيث هي هي واحدة". (هل هؤلاء من بني مجنون أم من بني صهيون أم من أتباع الشيطان الملعون؟)

يقول: فتحير بين كونه حقاً وبين كونه باطلاً (ذابت الفوارق عند هؤلاء الفواسق) يقول: والحق مطلع على أنه لا يعبد في الجهة العليا والسفلى بهواه إلاّ إياه. (أين أنت يا عم شلبي؟ لم اختفيت؟ لا تعليق ولا صوت ولا صورة ولا همهمة؟) ثم صرح (بالحاء): إذ ليس في الوجود شيء إلاّ وهو عين الحق. وهو الله في السماوات وفي الأرض. وقوله عليه السلام: لو دلى أحدكم بحبل لهبط على الله. (والله لا يقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم !)

ويقول قاتله الله: حتى أن الحق المطلق لم يعبد إلاّ بالهوى.

ثم يقول الشلبي: ثم يقول شيخ العارفين (أو شيخ الأبالسة أجمعين): "والذي عنده أدنى تنبه يحار لاتحاد الهوى. بل لأمدية الهوى". (!!)

ثم قال يفصح عن باطنيته وضلاله، ويقرر قناعته، ولا يصف واقع العباد والعبادة: "والعارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه". ولذلك سموه كلهم إلها مع اسمه الخاص بحجر أو شجر أو حيوان...

والألوهة مرتبة تخيل العابد له أنها مرتبة معبودة. وهي على الحقيقة مجلى الحق لبصر هذا العابد المعتكف على هذا المعبود في هذا المجلى المختص.

ولهذا قال من لم يعرف مقاله جهالة: ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى.

كما قالوا: أجعل الآلهة إلها واحداً. فما أنكروه، بل تعجبوا من ذلك. مع علمهم أنهم إنما عبدوا الله فيها بحكم سلطان التجلي (!!) الذي عرفوه منهم.

وجهله المنكر (يقصد الرسول ؟!) الذي لا علم له بما تجلى الله. وستره العارف المكمل". (!) ثم يقول ابن عربي (يصر الكاتب على وضع ال ..): وهو يدرك الأبصار لسريانه في أعيان الأشياء (!!) وهو اللطيف الخبير. والخبرة ذوق (تأمل!!) والذوق تجل (!) والتجلي في الصور فلا بد منها ولا بد منه. فلا بد أن يعبده من رآه بهواه. إن فهمت". (هذا كله كلام بن عربي) وعلى الله قصد السبيل... (بعد كل هذا التضليل. يقول: وعلى الله قصد السبيل.)

هذا كله (أقصد مع اختصاره، نقله الشلبي عن ابن عربي أو ابن عربي عن شلبي، طالما أن الكل متجل في الكل، فهي لخمة "بالخاء") أقول هذا كله في هارون.

والذي يأتي: فص حكمة علوية في كلمة موسوية. يقول ابن عربي في طلاسمه الباطنية: "حكمة قتل الأبناء من أجل موسى، ليعود عليه بالإمداد حياة كل من قتل من أجله. فكان موسى مجموع حياة من قتل على أنه هو. (افهم !) وهذا اختصاص إلهي بموسى. وحكم موسى كثيرة (!) وأنا إن شاء الله (هو يقول) أسرد منها على قدر ما يقع به الأمر الإلهي في خاطري (!). فكان هذا أول ما شوفهت به من هذا الباب (وصدق كما قال ابن عباس لأمثاله: وان الشياطين ليوحون إلى أوليانهم...) فما ولد موسى إلاّ وهو مجموع أرواح كثيرة (شيء من التناسخ والحلول...) وأما حكمة إلقائه في التابوت ورميه في اليم. فالتابوت ناسوته، واليم ما حصل له من العلم بواسطة هذا الجسم (أقرب شيء من خمر المسيحيين وخبزهم الذي يتحول إلى لحم المسيح ودمه... وخلط عجيب). كذلك تدبير الحق العالم (يقول). وما دبره إلاّ به (لمن يرجع الضمير ؟!) قال الكاشاني: أي بالعالم. (تصبح العبارة وما دبر الله العالم إلاّ بالعالم.. فالعالم مدبر مدبِّر.) أو بصورته".

يقول الكاتب الفذ، ثم يلقي الشيخ الأكبر بحكمه تترى (!! أو بحجارته على رؤوسنا): "وأما قولنا بصورته أعني صورة العالم: فأعني به الأسماء الحسنى والصفات العُلى التي تسمى الحق بها. فما وصل إلينا من اسم، إلاّ وجدنا ذلك الاسم وروحه في العالم. فما دبر العالم إلاّ بصورة العالم". (افهموا يا عالم...)

ثم شرح الكاشاني: "فإن صور العالم مظاهر الأسماء والصفات فهي صوره الحقيقية الباطنة. فما دبر الله ظواهر العالم إلاّ ببواطنه" (هكذا علم الباطن أو الكفر من الباطن).

ثم يقول الشيخ الأكبر (يقول شيخنا الشلبي الأصغر): ولذلك قال في خلق آدم الذي هو البرنامج الجامع لنعوت الحضرة الإلهية التي هي الذات والصفات والأفعال: إن الله خلق آدم على صورته (العياذ بالله من هذا الضلال الثقيل !) فأوجد في هذا المختصر الشريف الذي هو الإنسان الكامل جميع الأسماء الإلهية. يقول شلبي: ثم يتشعشع الشيخ الأكبر ابن عربي (وكأنه فاهم حاجة . عجبي!): للجنين المنة على أمه... ثم يدخل بنا ابن عجبي في متاهات الظاهر والباطن. فقتل القبطي ألهمه الله به ووفقه له في سره وإن لم يعلم بذلك. (وعلمه ابن عجبي)

ثم قال: الوجود منه أزلي، وغير أزلي. فالأزلي وجود الحق نفسه. وغير الأزلي وجود الحق بصور العالم الثابت (ليس العالم الثالث!) فيسمى حدوثاً لأنه ظهر بعضه لبعضه (!!). فافهم. (يقول ابن الأعجم.)

ثم يقف ابن عجمي عند قوله تعالى: "فوهب لي ربي حكماً" فيقول: يريد الخلافة. "وجعلني من المرسلين": يريد الرسالة فما كل رسول خليفة فالخليفة صاحب السيف والعزل والولاية (!) والرسول ليس كذلك.

وأما حكمة سؤال فرعون عن الماهية الإلهية بقوله: وما رب العالمين، فلم يكن عن جهل وإنما عن اختبار. (ثم يدخل فرعون في سجال باطني مع موسى) وذلك ضمن تعليق ابن... على قوله تعالى: "إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون" أي مستور عنه علم ما سألته عنه. فالسؤال صحيح على مذهب أهل الحق. (الذين هم ابن عربي وفرعون...!)

ويواصل: وجواب موسى جعل الله (قاتل الله قائل هذا) عين ما ظهر به من صور العالم. كأنه قال: الذي يظهر فيه صور العالمين. ويبين أن موسى كان يجيب وهو يعلم أن فرعون يعلم ذلك ويصف جواب موسى بأنه جواب لأهل الكشف وأهل العقل. فظهر موسى بالوجهين (!). فلما جعل موسى المسؤول عنه عين العالم: "وما رب العالمين" خاطبه فرعون بهذا اللسان. (يعني لم يقل "ومن" رب العالمين بل قال "وما" إشارة إلى ما فهم. ساء ما يفهمون ويحكمون ويضللون).

يقول: والقوم لا يشعرون. (أي بالسجال الباطني بين موسى وفرعون) أما قوله: "لأجعلنك من المسجونين" فيقول (هذا المجنون): والسين في السجن من حروف الزوائد أي

لأسترنك. فإنك أجبت بما أيدتني (يعني هناك تناغم تام بين موسى وفرعون!) يقول الشارح: فإن فرعون كان غالياً من غلاة الموحدة. (هل فهمت يا معود؟!)

ثم يفضل ابن عربي فرعون على موسى في علمه الباطني إذ يقول: ومرتبتي الآن التحكم فيك يا موسى بالفعل، وأنا أنت بالعين (موسى وفرعون وحدة واحدة) وغيرك بالرتبة. فلما فهم ذلك موسى منه أعطاه حقه...الخ.

فألقى موسى عصاه وهي صورة ما عصى به فرعون موسى، فإذا هي ثعبان مبين أي حية ظاهرة فانقلبت المعصية التي هي السيئة طاعة أي حسنة. كما قال تعالى: "يبدل الله سيئاتهم حسنات"... فظهر الحكم هنا عينا متميزة في جوهر واحد.

(فاهم يا عم شلبي ما يقول الذين أكثرت عنهم النقول؟ إنهم يقولون لك إن فرعون عاص في الظاهر، مثل موسى في الباطن فلا كفر ولا إيمان إنما المسألة تجليات، هل تجليت يا عم شلبي ؟)

ثم يتورط (ابن...) في مصيبة إذ يقول: إن فرعون صاحب الوقت وهو الخليفة بالسيف. وإن جار في العرف الناموسي (!) لذلك قال: أنا ربكم الأعلى. وإن كان الكل أرباباً(!!) ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لم ينكروه. (سامع يا عم عجبي أنت وابن شلبي. لقد اتحدت بينكم الحلولات والناسوت والجاكوت والفلكوت والبرشوت) (يقول لك حتى لا تنقل عن هذا الضلالي إن كنت نقلت في حال غير صحو): وأقروا له بذلك -أي السحرة- فقالوا: فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. فالدولة لك فصح قوله أنا ربكم الأعلى (!) وإن كان عين الحق فالصورة لفرعون.

(بالله عليكم أيتجرأ إبليس هذه الجرأة ؟!) فصلب فرعون السحرة بعين حق في صورة باطل إذ لا تبديل لكلمات الله. وليست كلمات الله سوى أعيان الموجودات.!)

ثم يقول ابن شلبي: ثم يقول الشيخ ابن عربي: وأما حكمة التجلي في صورة النار. فلأنها كانت بغية موسى. فتجلى له في مطلوبه. ليقبل عليه ولا يعرض عنه. فإنه لو تجلى في غير صورة مطلوبه اعرض (!!) لاجتماع همه على مطلوب خاص. ولو أعرض لعاد عمله عليه (الفهم) فأعرض عنه الحق، وهو مصطفى مقرب. فمن قربه أنه تجلى له في مطلوبه وهو لا يعلم.

ثم قال ابن شلبي: وقد حذفنا من كلامهما (شيخي الضلال) شيئاً قليلاً قد يفهم على غير وجهه (الحق على من ؟) من بعض القراء الذين لا صبر لهم (أنت من أي الفريقين؟) إنها مجرد آفاق عليا (بل هي دركات سفلى من آفاق) تضيف إلى الكتاب نوعاً جديداً من التفكير. (هي أضافت

صفعات أو صفحات جديدة ليس لك فيها إلاّ النقل وقبضت ثمنها). فإن شئت أقررت ابن شلبي (يقول)، وإن شئت خالفته. (فلا تثريب عليك، يقول.)

وكيف يخالف يا ابن شلبي وهو عين الحق ومجلى الأمدية؟ (استغفر الله.)

هذا مقطع من الاضمحلال الفكري والثقافي الذي وصلنا إليه. وهذا موجز للتخلف والاضطراب يظهر كم العقل في حال غياب، وكم الجهد المطلوب لرحلة الإياب إلى رحاب الكتاب. فاعتبروا يا أولي الألباب. وأدركوا هول المصاب. والحمد لله الذي أعاننا على هذا الكتاب.

وحتى يعلم ابن شلبي، وكل قارئ عربي، مدى زندقة وكفر ابن عربي، أنقل من ديوانه: ترجمان الأشواق، هذه الأبيات، وهي واضحة لا تحتاج إلى توضيح:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني [1]

واستمع إليه في فصوص الحكم يقول:

كنار موسى رآها عين حاجته ... وهو الإله ولكن ليس يدريه [2]
فوقتا يكون العبد ربا بلا شك ... ووقتا يكون العبد عبداً بلا إفك [3]

عقد الخلائق في الإله عقائداً ... وأنا اعتقدت جميع ما عقدوا [4]
فيحمدني وأحمده ... ويعبدني وأعبده [5]

ومثل هذا عنده كثير .

١- ترجمان الأشواق، ص٤٣-ص٤٤.

٢- فصوص الحكم، ج١، ص٢١٣.

٣- نفسه، ج١، ص٩٠.

٤- نفسه، ج٢، ص٥.

٥- نفسه، ج١،ص٨٣.

الكتاب الثالث عشر

قصص الأنبياء

تأليف: ياسين الجمل

القاهرة: المركز العربي الحديث، بلا تاريخ ولا رقم طبعة.

ما أصدق في هذا الكتاب ما قال القائل:

ما زاد حنون في الإسلام خردلة   ولا أحس النصارى فقد حنون

فما زاد هذا الكتاب في المكتبة القصصية القرآنية شيئاً، ولو غاب ما نقصت المكتبة شيئاً... ولو قال أنه كتبه للأطفال لالتمسنا له بعض عذر. وهو لا يزيد على نثر موجز لبعض آيات القصة ثم يزيد من عنده شيئاً من الإسرائيليات... وهذه هي كل مهمته في هذا الكتاب.

تعريف عام بالكتاب:

يقع الكتاب في أربع عشرة صفحة ومئة، وبلا مقدمة، فقد ابتدأ بقصة آدم مباشرة. وابتدأ بقوله: خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام. وقد خلق مخلوقات من نور، الملائكة، ومخلوقات من النار، الجن، وجعلهم بين السماء والأرض (؟!)، وأراد أن يخلق آدم. فقال للملائكة: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فسألت الملائكة على وجه الاستعلام: ﴿أتجعل فيها...﴾.

وكان الملائكة بحسب طبيعتهم البريئة يعتقدون أن الغاية من الوجود هي التسبيح فرد الله عليهم: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ (!).

آدم عليه السلام :

إن آدم نوع جديد من المخلوقات. وقد خلقه الله من قبضة قبضها من جميع الأرض. ويسير في القصة على هذا النحو، ولا جديد يذكر، من أجله كان تأليف هذا الكتاب، وإذا لم يكن عندي ما أضيفه فلمَ أتخم المكتبة بزيادة كتاب؟؟

ونواصل: واستيقظ آدم ذات يوم فوجد عند رأسه امرأة جميلة تنظر إليه. (ها قد هلت الإضافات والجديد والتجديد والإبداع لا التقليد. ولكنكم تستعجلون !)

فقال لها: من أين جئت فلم تكوني هنا من قبل؟ قالت له: جئت من نفسك خلقني الله من ضلع من أضلاعك وأنت نائم. (هل الكاتب شهد الحوار فنقله لنا؟ ثم كيف علمت هي ولم يعلم هو بخلقها؟)

فقال لها آدم: فما الحكمة من خلقك؟ فقالت: لأكون سكناً لك. (يعني هي تعلم حكمة وجودها وهو الأصل ولا يعلم، من أين لك هذا وكيف علمته أنت والأمة كلها لا تعلم يا مولانا؟)

فقال آدم: الحمد لله، فقد كنت أعاني من الوحدة. (يا راجل...! من قال لك أنه كان يعاني؟ ومن أين الوحدة وهو في صحبة الملأ الأعلى؟)

ثم أطلق عليها آدم اسم حواء (هكذا الصياغة). فلما سألته الملائكة عن معنى هذا الاسم بالذات، قال: لقد خلقت مني وأنا حي ثم أتحفنا الكاتب بأن الحياة في الجنة لا مثيل لها فهي تشبه الأحلام. (تشبه...)

وقد وجد آدم السعادة كلها مع زوجته في الجنة (!) كان يتحدث معها، وكانا يلهوان في الجنة (يا راجل...!). وقد استوعب آدم وحواء الأمر الإلهي بعدم الأكل من الشجرة، لكن إبليس بدأ يمارس عمله الشرير... وأخذ يوسوس لآدم... إنك إن أكلت من هذه الشجرة فلن تموت.

بدأت هذا المسألة تشغل تفكير آدم وحواء. والإنسان ينسى، فاقتربا من الشجرة، وأكلا من ثمارها، ولم يكد ينتهي من الأكل حتى أحس بالخجل، وتغير الجو حوله... (النص يقول: "ذاقا"...) ووجد آدم نفسه عارياً، ووجد زوجته عارية. (لاحظ لطف التعبير القرآني وغلظ أخينا الجمل. فالقرآن ألمح إلى هذا بقوله: "وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة"...)

بدأ آدم يعد نفسه للصراع مع إبليس... ولما اقترب الأجل أخبر أبناءه أن الله سيرسل رسلاً لهداية الناس ثم أسلم نفسه إلى ملك الموت، وابتسم ابتسامة رقيقة لأنه مشتاق إلى لقاء ربه. (وشتان بين النهاية المفتوحة للقصة القرآنية وهذه النهاية الميتة لكاتبنا .)

نوح عليه السلام :

بعد موت آدم جاءت عدة أجيال صالحة، وكان من بين هذه الأجيال بعض الرجال عرفوا بالتقوى (بعض الرجال !)، وكانوا خمسة هم (ود، وسواع... الخ)، وبعد أن مات هؤلاء صنع الناس لهم تماثيل... (لاحظ أنه يخلط القصة القرآنية بالتفسير الوارد في الحديث...)

ثم خفيت العلة من صنع هذه التماثيل، وكانت فرصة إبليس فوسوس للناس أن هذه التماثيل آلهة. فكانت الحاجة إلى نبي. لأن التماثيل قد عبدت. فجاء نوح. وكان إنساناً طيباً صالحاً (ما هذه المعلومة ؟!) ولم يكن رجلاً غنياً ولا زعيماً، ولكنه كان نقي القلب والسريرة، وكان شاكراً لأنعم الله.

خرج نوح على قومه بدعوة الحق، وكان قومه بنو راسب (هكذا يقول الكاتب، وهؤلاء غير بني "طفاوة" الذين في قصة هبنّقة إن كنتم تذكرون هبنّقة، فالكاتب يذكرنا به غفر الله له !)،

وكان نوح أول رسول يبعث إلى أهل الأرض (نخرّجها له بأن آدم رسول لعائلة وهذا رسول قوم. ومفيش مشكلة !)

راح نوح يهدي قومه إلى عبادة الله وحده، ولم يكن قومه على استعداد لقبول هذه الدعوة المفاجئة. فلم يتبعه إلاّ الفقراء لأن هذه الدعوة ستنجيهم مما هم فيه. (تفسير رديء للإيمان وتعليل بئيس للاستجابة !).

أما طبقة الأغنياء فرفضوا الدعوة لأنهم المستفيدون من الوضع، فاعترضوا على بشرية الرسول، وأن الفقراء أتباعه. وأراد قومه أن يساوموه على الإيمان، ثم لجأ القوم إلى الشتائم: ﴿إنّا لنراك في ضلال مبين﴾.

استمرت دعوة نوح ألف سنة إلاّ خمسين عاماً. وكانت أعمار الناس طويلة وذلك لبيان معجزة نوح. (وما هي؟)

وأخيراً أوحى الحق إلى نوح أنه لن يؤمن إلاّ من قد آمن، فاطمأن قلب نوح فدعا على القوم الكافرين فاستجاب الله له (تبسيط شديد...)

نهض نوح فزرع شجراً (وهل لم يكن في الأرض غابات يا مولانا ؟!) لكي يستغل أخشاب الأشجار في صناعة السفينة، وانتظر حتى كبر الشجر فقطعه وبدأ في أعمال النجارة. (بدل هذه التفصيلات لو غصت بنا في التحليلات... أم أنه لا ملَكات ؟!)

فرغ من بناء سفينة من ثلاثة طوابق (ناقلة طائرات يعني ؟): طبقة للحيوانات، وطبقة للناس، وطبقة للطيور. (هذا من طبقات الإسرائيليات التي طبّقت شهرتها ومضرتها الآفاق والمخلوقات).

ولم يبق على الأرض حي (لا دليل على عموم الأرض !) ثم أرسل الله ريحاً على وجه الأرض (هذا كله خارج النص فلا قيمة له)، ورست السفينة على الجودي وهو اسم لمكان قديم (لم يتحفنا الجمل بمعنى مكان قديم، ولا ما معنى القدم؟ أهو كلام والسلام). وأرسل نوح حمامة للاستطلاع، فعادت وفي فمها غصن زيتون فعلم أن الأرض قد ظهرت (يا مولانا وهل لم يكن في السفينة نوافذ، ولمَ لم يخرجوا على السطح فينظروا. وهل هي غواصة راسية في أعماق المحيط؟ فكروا قبل أن تؤلفوا. وفكروا وأنتم تكتبون !)

نزل نوح وأطلق سراح كل من كان في السفينة، وأوقد ناراً وجلس هو وقومه حولها يطهون الطعام ويتحدثون ويتسامرون، وعلت الفرحة على الوجوه وعادت الحياة إلى الأرض وتجلت عظمة الحق في الطوفان.

هكذا ختم الكاتب قصة نوح. بطهو الطعام وفرحة انتظاره، بدل النص العظيم: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم...﴾ هود: ٤٨. أو: ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوماً عمين﴾ الأعراف: ٦٤.

هود عليه السلام :

وهكذا يسير الكاتب بتبسيط أو تسطيح وإيجاز مخل للقصص، يعرض القصة في صفحات، وبدل الالتزام بالنص. يؤلف من عنده هو نصاً على النص أو قل نصاً بدل النص. فيقول في قصة هود: عاد الناس مرة أخرى إلى عبادة الأصنام ونسي الناس وصية جدهم نوح، فعادوا يصنعون التماثيل ليتذكروا الصالحين. (وهذا كله لا دليل عليه...)

وكانت عاد قبيلة هود عرباً يسكنون جبال الرمل في اليمن، وكانوا عمالقة أقوياء... وكانت لهم أصنام ثلاثة: صدا وصمودا وهرا... (؟!)

قال قومه في ردهم على دعوته: إنك مجنون وقد غضبت عليك الآلهة. قال هود أنا بريء منكم ومن آلهتكم، ولقد استحققتم عذاب الله فانتظروه. ولم تعد السماء تمطر، وبدأ الجفاف. قال قوم هود: ما هذا الجفاف يا هود؟

(الكاتب يحاول أن يستنطق النص الكريم من خلال الإشارة الواردة في قوله تعالى: ﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾، فاستنتج حكاية الجفاف وهذا الحوار الجاف). وساق الله سحابة سوداء جاءتهم من واد وسماه الكاتب فقال: يقال له المغيث (الوادي يعني)، سخر الله عليهم تلك السحابة سبع ليال وثمانية أيام، فلم تدع من عاد أحداً إلاّ أهلكته، واعتزل هود والمؤمنون في حظيرة (من أين هذه الأخبار الخطيرة ؟)، واشتد هبوب الريح ومزقت الأجساد. ولم يبق من قوم هود إلاّ آثار [1].

صالح عليه السلام :

---

١ - للأسف، أن المطبوع بدون كلمة قوم. وهو خطأ مطبعي شنيع.

يسير الكاتب على نفس المنوال، فيتكلم عن عبادة القوم للأصنام، فأرسل لهم صالح عليه السلام، ليعبدوا الله وحده، وفوجئ القوم بالدعوة. (لا أدري ما وجه المفاجأة، فالرفض شيء والمفاجأة شيء). ولما كان صالح معروفاً بالحكمة قال له قومه:﴿قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾. وكانت ثمود بالحجر بين الحجاز والشام، وقد نحتوا البيوت في الجبال، ثم طلبوا معجزة، فأمر الله صخرة فانشقت وخرجت منها ناقة. (لا أصل في القرآن لحكاية الصخرة، إنما المذكور الناقة) وكانت تقاسم الناس شرابهم.

وكان لبن الناقة يكفي في اليوم الذي تشرب فيه الماء. وقد آمن البعض لهذه المعجزة وأصر آخرون على الكفر، وقد شعر هؤلاء بالحقد والكراهية نحو الناقة (هكذا يقول الكاتب). لعقد القوم اجتماعاً قالوا فيه: إن الناقة تحضر أثناء الحر في ظل الوادي البارد فتهرب المواشي إلى الحر (لماذا تهرب المواشي؟ ومن أين هذه القصة والمعلومات التفصيلية؟). إن أمامنا حل واحد هو قتل الناقة، هكذا قرروا فاختاروا تسعة رجال وجعلوا على رأسهم "قدار بن سالف". وأقبل القوم في الليل نحو الناقة وهي نائمة تضم ابنها، وهجم التسعة على الناقة وولدها، فنهضت من مكانها، فضربها "قدار" على رجلها فسقطت وانهالت عليها السهام... (يصور الأخ معركة والأمر لا يحتاج سهاماً ورماحاً ومن أين جاء الولد، ففي هذه الأسطر القليلة عدة مغالطات وإضافات على القصة القرآنية...)

المهم أن صالحاً أنذرهم ثلاثة أيام فلم يصدقوه وهموا بقتل صالح، فلما أشرقت شمس اليوم الثالث جاءتهم صيحة من فوقهم ورجفة من تحتهم، فأهلكهم الله... ونجا صالح والمؤمنون.

إبراهيم عليه السلام:

يقول في حديثه عن هذه القصة الكريمة: ظل الناس على وتيرة واحدة لا تتغير، يعبدون الأصنام (وهو مدخل كل القصص السابقة)، فأرسل الله إبراهيم بن تارح بن ناحور وكان فتى من أهل مذان آرام بالعراق (هكذا... ولا ندري ما قيمة كل هذه المعلومات التي يصرون على إتحافنا بها، ولا ندري ما دورها في نسيج القصة؟ ولمَ القرآن يسمي أباه آزر ويسميه الأخ: تارح...؟)

كان إبراهيم منذ طفولته يشاهد أباه يصنع التماثيل، فسأله عنها فقال: تماثيل الآلهة. وكان إبراهيم يهزأ بهذه التماثيل، وكان يركب على ظهورها، كما يركب على الحمار. (عرض متهافت لا سند له ولا مستند، ولا دليل من نص معتمد، سوى المروي عن كتب أضل الخلق...)

وركب يوماً على ظهر "مردوخ" كبير الآلهة. فزجره، فقال لمن هذا التمثال الكبير يا أبي؟ فقال: هذا "مردوخ" رب الأرباب.

فقال إبراهيم: إن شكله يشبه شكل الحمار... (أقول: والأصنام محقرة لا من أجل أن شكلها يشبه شكل الحمار ففي روما تماثيل متقنة تماماً... وهذا لا يغير شيئا... إنما محقرة لأنها لا تملك شيئا من خصائص الألوهية التي تزعم لها...)

ثم يرسم الكاتب سيناريو لحوار داخلي يدور في نفس إبراهيم: كيف يصنع الناس صنما ثم يعبدونه؟ هل يكون وحده على حق؟

ثم قام الكاتب يرسم سيناريو آخر لاهتداء إبراهيم(!) فقال: خرج إبراهيم، فذهب إلى الجبل ودخل إلى أحد الكهوف ليلاً، ثم جلس ورفع عينيه إلى السماء فرأى كوكبا مضيئاً في السماء، فقال: ربما يكون هذا هو الله. ولكن الكوكب غاب... (أقول: تعالى الله، وحاشا لأنبياء الله أن يصدر هذا عنهم، وكيف يعيب على قومه الشرك وهو مشرك، حاشاه؟ وكل هذا الذي صعُب على الكاتب إنما هو من باب الحجاج...)

ويواصل على هذه الشاكلة، ثم جاء الصباح ورأى الشمس... الخ. (وكأنه لم يكن رأى الشمس...! هذا يا مولانا محاجّة !).

وذهب إبراهيم بعيداً عن بيته، وبيّت في نفسه أمراً...

لقد كان لقومه يوم عيد يخرجون فيه خارج المدينة على الضفة الأخرى من النهر (!) فأراد إبراهيم أن يبين عجز الأوثان، فتوجه نحو المعبد وبيده فأس حادة. فحطم الأصنام إلاّ واحدا، وعاد القوم من احتفالهم ليؤدوا طقوسهم في المعبد وكانت المفاجأة تنتظرهم. أمر القوم بإحضاره، فانتهز إبراهيم الفرصة، فقال: كيف تعبدون آلهة لا تنطق؟

ثم وصف النار التي من حرها تتساقط الطيور وسطها، والمنجنيق الذي قذفوا به إبراهيم إلى النار، وأثناء وجوده في الهواء جاءه جبريل... (ألم يكن متسع من الوقت إلاّ وإبراهيم طائر في الهواء؟ يا قوم...!)

لما سمع نمروذ بالمعجزة أرسل إلى إبراهيم وقد خشي على عرشه. وكيف أنه ليثبت أنه يحيي ويميت قتل رجلاً وعفا عن آخر. واستكبر قوم إبراهيم ولم تؤمن إلاّ سارة فتزوجها إبراهيم فيما بعد.

سافر إبراهيم إلى أور ثم حاران، ثم فلسطين (حكاية التوراة المكرورة !). ثم ذهب إلى مصر. (وأعاد القصة المعروفة !)

ولدت هاجر إسماعيل، ثم كافأ الله سارة بإسحق. ثم ذهب بهاجر وابنها إلى مكة. وذكر قصة ذبح الكبش بعد فداء إسماعيل...

يوسف عليه السلام :

يقول الكاتب في مطلع الحديث عن قصة هذا النبي الكريم، إن الله سمى قصة يوسف أحسن القصص. (والحق أن أحسن القصص وصف جميع قصص القرآن...)

ثم قال الكاتب: إن يوسف جميل الصورة حسن الوجه (وهذا ما لم يتعرض له القرآن). وكان أحب أبناء يعقوب إليه. (تعبير القرآن مختلف فقد أتى بها على لسان الأخوة دون أن ينسبها ليعقوب أو يقررها كما صنع الكاتب)

ثم عرض القصة عرضاً على منهجه المعتاد من الإيجاز والتبسيط الذي لا جديد فيه سوى بعض الرتوش التي لا دور لها، وسوى بعض الحوارات التي ينطقها الشخصيات بلا مستند لها. من مثل قول الساقي: انظروا هذا الغلام ما أجمله وما أحسنه !. وقوله: واشتراه رئيس الشرطة (القرآن قال: العزيز). وقال لزوجته: أحضرت لك هدية عظيمة، انظري هذا الغلام ما أجمله وما أحسنه !. وعاش يوسف في بيت رئيس الشرطة (لمَ يصر أخونا على أنه رئيس الشرطة والقرآن يسميه العزيز، وهو الوصف الذي يعادل رئيس الوزراء لا مدير الشرطة...؟)

وفي أثناء العرض يقع في مخالفات من مثل: قال يوسف للخباز: إنك سوف تصلب وتأكل الطير من رأسك. (القرآن قال: أما أحدكما... ولم يعين تلطفاً وترفقاً، فافطن !)

ومخالفة أخرى إذ يرى أن مجموعة الملك ذهبت ليوسف لتفسير رؤياه، وهذا بعكس نص القرآن الذي ركز على صاحب السجن وأنه الذي نقل تعبير الرؤيا للملك. فلماذا لا يلتزم كاتبنا بالنص؟!

ووجدت الكاتب يخلط خلطاً غير مبرر كأن يقول: قال يوسف لإخوته: لن أبيع لكم شيئاً حتى تأتوني بأخيكم الموجود في مصر (!!) ولو لم يكررها الكاتب لقلنا سهو وخطأ مطبعي، لكن استمع: فرجع أخوة يوسف إلى مصر ودخلوا على أبيهم (!!) إذاً نقول: أين كان يوسف؟

وهو قبل أسطر يقول: لما حلت المجاعة توافد الناس إلى مصر فلما دخلوا على يوسف... فالكاتب لم يصحح بروفات الطباعة ولم يدقق ولم يراجع وما سر هذه العجلة؟

وخلط آخر في قوله: وظل يعقوب يبكي من الحزن على بنيامين، وتذكر يوسف مرة أخرى حتى فقد بصره. ودعك من الركاكة. فالقرآن لم يتكلم عن بكاء على بنيامين ولا غير بنيامين إنما قال: ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾.

وينهي القصة بذكر اجتماع يعقوب بيوسف، وتحققت الرؤيا التي قصها يوسف على أبيه من قبل.

موسى عليه السلام:

يبتدى بذكر نسبه فيجعل بينه وبين يعقوب ثلاثة آباء (وهو من الإسرائيليات التي لا دليل عليها ولا فائدة منها). ثم يذكر منام فرعون الذي أفزعه... وكأن هذه الرواية تبرير لقتل الأولاد، ولا ينتبه كتابنا العظام...

ثم وصف الكاتب مولد موسى وكيف وضعته أمه في صندوق وجعلت مفتاح الصندوق من داخله. (لم نفهم كيف ولا يهمنا !)

ومن الإضافات المهمة التي أضافها الكاتب إلى معلوماتنا أن الذي صنع الصندوق اسمه "حزقيل" هو مؤمن آل فرعون، وجعله من ورق البردي.

وزادنا أن أم موسى أخذت الصندوق ووضعت فيه قطناً وربطت رأس موسى ثم ألقته في الصندوق ثم ألقته في النيل. (ولا نكرر القول بأن مثل هذه الأقوال لا تضيف شيئاً، معاذ الله بل تنقصنا بتشويه منهجيتنا في التركيز على مواطن العبرة، وتشتت الذهن، وتجعلنا محاويج لبني إسرائيل أضل من على ظهر الأرض...)

ثم يرسم الكاتب سيناريو العثور على الصندوق، فيقول: انطلق الماء بموسى، يرفعه تارة ويخفضه تارة حتى أدخله بين الأشجار عند دار فرعون، وكان بالقرب من هذه الروضة مكان يغتسل فيه جواري فرعون. (هل بقيت هذه قصة قرآنية؟!)

المهم أن البنات ذهبن بموسى إلى آسية (!)، فضمته هذه إلى صدرها وبكت من الفرح (تفصيلات... وسيناريوهات... وحرية تصرف بالنص... وحذلقات .. وتفاصح لا محل له...).

ولما سمع فرعون بالخبر أقبل مسرعاً نحو الصندوق، وسأل من هذا الغلام؟ فقالت وجدناه في هذا

الصندوق، جرفه الماء إلينا. فقال: يجب أن نقتله. فصاحت في وجهه آسية: قرة عين لي ولـك... وكانت آسية لا تنجب أطفالاً، فقال لها حسناً، سنربيه في القصر...

كان موسى يبكي بكاء شديداً... لقد كان جائعاً... (هذا يا طويل العمر ليس قصص الكتاب الكريم، إنما قصص من خيال الكاتب الكريم، اكتب من خيالك كما تهوى نفسك، لكن لا تقل انك تكتب في القصص القرآني فهنا حينئذ مشكلة !)

ثم ننتقل من تفصيلات الكاتب للرضاعة في قصر فرعون أو بيت أم موسى إلى مشهد تال حيث يكز موسى الرجل فيقتله، فأسرع موسى ودفن الرجل في التراب (من أي كتاب جئتنا بحكاية الدفن في التراب يا شيخ الشباب؟!) ولم يعلم سوى العبراني بذلك. الكاتب يمهد ليقول لنا إن الذي كشف المخبوء في اليوم التالي إنما هو العبراني.

المهم، نسير مع موسى في خروجه من مصر، ويصف الكاتب الصحراء التي سار فيها بلا زاد ولا ماء ولا راحلة، وكان يأكل أوراق الشجر حيث وصل بعد ثمان ليال (ليس على هذا أثارة من علم ولا سند من كتاب منير...)

ثم ذكر لنا حكاية الصخرة (إياها) وكيف رفعها موسى (ليس زحزحة). وأعاد لنا حكاية الهواء والثوب والسير أمام موسى ثم خلفه إلى أن وصلت البنت به إلى أبيها.

ونسير مع القصة لنرى كيف يصف لنا الكاتب أن اخضرار الشجرة يشتد كلما ازداد اشتعال النار، وذلك في قصة عودة موسى من مدين، وليس في النص القرآني كما يعلم القارئ مما يقول الكاتب، لا عن اشتعال النار ولا عن الاخضرار.

وعندما قابل موسى فرعون، قال فرعون: أنت موسى قاتل القبطي؟ قال: أنا هو وأنـا رسول رب العالمين. (ما هذا الحوار؟ ولِمَ اختراع حوار مع وجود الحوار العظيم الـذي تـضمنه القرآن العظيم ؟!)

ويواصل الكاتب تصوير مشاهد وتفصيل حوارات من عنده ولا أدري لم يتجاوز النص، فيقول: قال السحرة: اطمئن يا ملك الملوك، سوف ننتصر ونهزمه شر هزيمة. (ما الجميل في هـذا الحوار وما الإضافة ؟)

وآمن السحرة، وقتل فرعون السحرة جميعاً (لو تأملت ما صنع القرآن، فلقد ألمـح إلى هذا إلماحاً دون أن يصرح به، فقال: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾)

ثم يصف خروج بني إسرائيل من مصر ليقول: وجد بنو إسرائيل أنفسهم قد ضلوا الطريق (من أين؟) وقد سد البحر الأحمر طريقهم، والجبال عن شمالهم ويمينهم عالية، وجنود فرعون يطبقون عليهم من بعيد. وهلك فرعون وجنوده في البحر في لحظات.

وأنزل الله بعد ذلك التوراة على موسى وظل موسى يدعو قومه إلى عبادة الله حتى لقي ربه.

هكذا نقلت لك ختام القصة عند الكاتب دون اختزال فهذا القفز منه لا مني.

داود عليه السلام :

يقص علينا قصة على هامش قصة داود، وكيف أن النبي صمويل كان في الرامة فطلب منه بنو إسرائيل ملكاً ليقودهم في القتال، فيعين لهم طالوت، وكان شاباً جميلاً يافعاً ولم يكن في بني إسرائيل أجمل منه (لا أدري ما هذه الكتابة؟ هل نحن ذاهبون إلى عرس أم إلى حرب وما موقع الجمال والصبا في مثل قصة طالوت؟ حسبي الله !).

أوحى الله إلى صمويل أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت من بيت المقدس. (تخليط عجيب ! وأين كان اليهود وأين كان خصمهم ؟ هذا تضييع للمعالم). وباختبار النهر نقى طالوت جيشه من ضعفاء الإرادة.

برز جالوت لجنود طالوت مرتدياً درعاً حديدياً ومعه سيفه وحربته (والقوس والنشاب والقرطاس والقلم...!). وكان جالوت يقهر الجيوش وحده. (يا عقلاء العالم...!)

ولما برز جالوت إلى داود ألقى الله في قلبه الرعب (لاحظ الصياغة المشوشة). فقال جالوت: أنت الذي تبرز إلي؟ (وقبل قليل قال أن جالوت هو الذي برز له...)، فقال داود: نعم وسوف أقتلك... قال جالوت: لأقسّمن لحمك بين السباع. (ولست أدري ما الداعي لنقل هذه الحرب النفسية الدعانية...)

أخرج داود ثلاثة أحجار ووضعها في مقلاعه وقال: باسم الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، ورمى... فسخر الله الريح فحملت الأحجار وجعلتها حجراً واحداً... (هذه حكايات في حكاية، وهوامش أكثر من النص، وتفصيلات ما لها من سند... يا معلّم جمل).

لما قتل داود جالوت عظم في أعين الناس، وعينه الملك قائداً للجيش وزوجه ابنته... (الحكاية الإسرائيلية إياها...)

وكان داود حسن الصوت بالإنشاد (!!) فقد أعطي من حسن الصوت ما لم يعط أحد من قبل حتى أن الطيور تعتكف عنده حتى تموت عطشاً والأنهار تقف... (وهل الجمال يعطل الحياة؟ وهل لاحظت المبالغات التي لا زال العقل المسلم يحتاج أن يتحرر منها، ولكنه لا يحاول..؟)

ويكلمنا كيف ألان الله الحديد لداود كأنه عجين. ونسأل الكاتب (أو العجان) لم لا تكون إلانة الحديد وفق السنن بالحرارة والأفران...؟

واشتعلت الغيرة في ملك البلاد (هل هو طالوت؟ لم يقل لنا)، وأراد أن يتخلص من داود، ولما علم داود أن الملك جهز جيشاً لمقاتلة داود والقضاء عليه، لم يشأ أن يقتله أو يؤذيه لأنه علم أنه يغار منه.

دخل داود على الملك وهو نائم وانتزع سيفه منه وقطع جزءاً من ثيابه. ولما استيقظ الملك قال له داود: كان في استطاعتي أن أقتلك وأقضي عليك، ولكني أخاف الله. واعتذر الملك لداود (نهاية سعيدة) وتولى داود الملك بعده.

ورزق الله داود سليمان. ثم قص علينا قصة القضاء في مسألة الزرع والغنم، وقصة الخصمين. واختفى الخصمان بعد قص حكايتهما في طرفة عين فتعلم داود درساً ألاّ يحكم بين الناس إلاّ بعد أن يسمع دفاع كل طرف عن نفسه.

وظل داود يعبد ربه حتى لقي ربه. وورثه سليمان.

سليمان عليه السلام :

كان يخالط المساكين (من أين ؟!) وكان أبوه يشاوره (!). نحن لا ننفي تواضع سليمان ولكنا نسأل عن مصدر هذه الكنوز، ولا ننفي أنه كان على عقل عظيم وأن أباه عليهما السلام كان يستشير ومن ضمن من يستشير ولده، لكن القصة القرآنية لم تذكر. هذا المهم. نحن لا نريد أن نؤلف قصة لا تمت إلى القصة بسبب !.

المهم . يقول الكاتب : إن سليمان كان يحب الغزو. كان لا يسمع بملك إلاّ أتاه حتى يقهره. (!!)

وكان إذا أراد الغزو بنى قاعدة خشبية ضخمة وجعل لنفسه سريراً على القاعدة، ثم يحمل الناس والدواب على تلك القاعدة ثم يأمر الريح العاصفة، فتدخل تحت تلك القاعدة فتحملها فتذهب حيث يشاء. (أمر مزعج أمر هؤلاء النقلة المعتمدين على الإسرائيليات، إنهم يخرجون بنا

من حكاية إلى حكاية ومن قصة إلى قصة، ومن رواية خيالية إلى أخرى، وهكذا... ويزعمون بعد ذلك أن الذي كانوا يعرضون من بضاعة إنما هو قصص قرآني !! فيا عجباً...!)

كان جيش سليمان من الجن والإنس والطير والوحوش والشياطين... ويوماً كان يستعرض الخيل فكاد ينسى الصلاة، فندم وصلى وأمر بإحضار الخيل ليمتحنها ويعرف ما فيها من أمراض. (مخالفات في سطر. فمن أين حكاية فوت الصلاة؟ ومن أين حكاية أمراض الخيل؟)

ثم قص علينا قصة المرأتين والطفل (وليس لها في القرآن مورد). وقص علينا استسقاء النمل الذي أغنى عن استسقاء سليمان. (هذه نملة غير النملة إياها).

ثم قص قصة الهدهد بحوار من عند المؤلف: قال سليمان: أين كنت أيها الهدهد الشقي؟ قال الهدهد: لماذا تتحدثون معي هكذا؟ إنني لم أكن ألهو وألعب. كنت في رحلة عمل. ثم وصف هدية ملكة سبأ، وكانت هدية قيمة من الجوهرات والذهب والفضة والزمرد والأحجار الكريمة... (من أين اطلع الأخ على التفصيلات؟)

بنى سليمان قصراً فوق البحر ليستقبل بلقيس (ليس في النص شيء من هذا) ودخل سليمان بيت المقدس، فبينما هو يصلي إذ رأى شجرة نابتة بين يديه. فقال: ما اسمك. قالت الخروبة. قال: ولأي شيء نبتك؟ قالت لخراب هذا المسجد. قال: ما كان الله ليخربه وأنا حي، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس، فنزعها وغرسها في حائط له.

لاحظوا حجم الخرافة في هذه القصة، وأنه لا علاقة لها بقصص القرآن ولاحظوا الحظ والنصيب، وحكاية "على وجهك" هلاكي... وهي رائحة التطير الإسرائيلية التي لا علاقة لها بالتوكل عقيدة الإسلام والمسلمين...

أيوب عليه السلام :

كان أيوب كثير المال (!). هكذا بدأ بمعلومة ليست في كتاب الله. وكان ابتلاء أيوب في جسده وأهله وماله، لم يبق من أيوب عضو سليم سوى قلبه ولسانه (!) وكان يذكر الله في ليله ونهاره. تساقط لحمه نتيجة هذا المرض (هذا لا يليق بنبي!). وكانت زوجته تفرش الرماد تحته. فشكت زوجته فقال: عشت سبعين سنة سليماً فهل قليل أن اصبر سبعين سنة؟ (ومن قال أن البلاء استمر سبعين سنة ؟!)

ومن الحوار الذي تخيله الكاتب أو نقله عمن تخيله: قال الشيطان: إن البلاء الذي أنت فيه بسببي، وأن صبرك لن ينفعك. فقال أيوب: ما تريد يا عدو الله؟

يونس عليه السلام :

كان قوم يونس يعبدون الأصنام، فلما رأى عنادهم خرج من بينهم... فاضطرب البحر فاقترع الناس على عادهم، فخرج اسم يونس؛ وأعيدت القرعة فألقي يونس في البحر وأراد الله أن يعاقبه على تسرعه، وكان الركاب يصرخون فيه (هكذا) بأن يلقي نفسه في الماء. ثم يصف على ما هو صنيع القصاص فيقول: كان منظر البحر مخيفاً الأمواج عالية مضطربة، والليل مظلم، والضباب يخفي خلفه ضوء القمر... الخ.

والتقم الحوت يونس، وكانت الكائنات تستمع تسبيح يونس في بطن الحوت (الغرائبيات تعجب الغرائبيين) واجتمعت الكائنات حول الحوت، وسمعت الملائكة تسبيح يونس، فقالوا: يا ربنا إننا نسمع صوتاً بأرض غريبة. قال تعالى: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته، وتشفعت الملائكة ليونس (هذا خروج عن النقل والعقل). وكلف الله يونس بالدعوة مرة أخرى! هكذا يختم الكاتب القصة.

ثم يقص علينا الكاتب قصة زكريا ويحيى على نفس المنهاج والمنوال من سرد الحكايات الإسرائيلية، فيذكر قصة الملك وإرادته الزواج من محرم عليه، وعدم فتوى يحيى له (وكأنه بحاجة لفتوى!)، ثم طلبها رأس يحيى (أي المرأة التي يريد زواجها). ويصف قتله بعد ذلك.

ثم يقص قصة عيسى ومريم. ثم يختم بقصة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهي ليست من القصص القرآني.

الكتاب الرابع عشر

قصص القرآن
والقصص في الديانات الأخرى
(دراسة مقارنة)

تأليف: د. خالد صناديقي

ط١، دمشق: دار طلاس، ١٩٩٦م.

قصص القرآن والقصص في الديانات الأخرى (دراسة مقارنة) / د. خالد صناديقي.

تكلم في معظم الكتاب عن قصص التوراة والأسفار والمدراش يقارنها بما ورد في القصص القرآني، ليس من مصدره القرآن العظيم، وإنما من روايات القصاص التي هي في التحليل النهائي ترجع إلى بني إسرائيل، ولذلك كان المؤلف يكتشف الموافقة والمطابقة بل والتماثل كما يعبر.

وفي الربع الأخير أو أقل قليلاً تكلم عن قصص الإنجيل، وهي المتعلقة بزكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام. وفي كل ذلك كان يعرج على أساطير الديانات الوثنية، وأساطير الشعوب القديمة، كالهندية والفارسية واليونانية وغيرها.

وقد قال هو في التعريف بكتابه على غلاف الكتاب: يتناول الأساطير والقصص في الأديان (!!). وكيف عجز الفكر الإنساني البدائي عن استيعاب فكرة الإله المجرد (!).

كما يبحث في فكرة التوحيد عبر الحضارات القديمة والأديان السماوية، وكيف تأثرت اليهودية بالزرادشتية أثناء السبي البابلي، وما الحق بالتوراة من معارف وإضافات استمدها الأحبار والحكماء من الحضارتين الكنعانية والمصرية، ثم يقارن هذا القصص بقصص الوحي الإسلامي (!)، الذي لا يسمو عليه وحي. (هو يسمو على كل وحي)، وصياغتها ضمن ضوابط تمنع اندماج المعارف الإلهية بالمعارف الدنيوية، لأن الدين الإسلامي يمتاز بعقيدة لا تعتمد على الأفكار الميثولوجية. (كنت أحس أثناء القراءة أن هذا الهدف معكوس أي أن الكاتب كان بوعي أو بغيره يحرص على اندماج المعارف الإلهية بالمعارف الدنيوية، حسب تعبيره.)

يلقي الضوء (يقول الكاتب) على دراسات المستشرقين الذين أظهروا الإسلام بصورة سطحية من خلال قصص وهمية وأفكار شاذة، ورغبات شخصية دفينة، دون الاعتماد على الحقائق.... كتاب يروي قصة التروع الديني عند الإنسان منذ أن بدأ يصل بقلبه إلى خالقه...

هكذا يقول في التعريف. لكنه -فيما نرى- وقع في أغاليط وأخاليط تجل عن الحصر. ليس أهونها استملاحه للأساطير وإطراؤه لها...

وليس أهونها جعل القصة القرآنية إنما هي ما يرويه الرواة وقسم كبير من أخبارهم لا يمكن أن يصدقه عقل ولا يقبله نقل، أو ليس هذا الصنيع يجعل القصة القرآنية في دائرة الشك والاتهام ؟!

كتابه أصنفه -إن جاز لي- في دائرة الكتب المنحرفة، وإن كان صاحبه قد بذل فيه جهداً لا ينكر ولكنه جهد في مهب الريح لا يصمد أمام التقييم العلمي.

تعريف عام بالكتاب:

يقع الكاتب في سبعين وأربعمئة صفحة، ولم يقسم الكتاب إلى فصول، وإن كان عوض عن ذلك بالعناوين فابتدأ بقصص من حياة الرسول عليه السلام (الولادة، شق الصدر، المعراج، انشقاق القمر)، واستغرق قرابة الأربعين صفحة، ثم قصص من العقائد الإسلامية (هكذا)، (الملائكة، إبليس، استماع الجن... هاروت وماروت)، ثم القصص العربية في القرآن (قصة عاد وثمود، أصحاب الفيل، الأخدود، الخضر)، وهكذا...

وفي بدء الكتاب عرفنا بنفسه وأنه من مواليد حماة، وأنه تأثر بجدته وقصصها وهاجر إلى الولايات المتحدة وله نشاط في المهجر ويقول بأن دراسة القصص الديني علمته احترام جميع الأديان، وأن هذا القصص كنز تتوارثه الأجيال.

وقد قدم لكتابه مرتضى القزويني وفيه اقتراحه على المؤلف أن يترجمه إلى الإنجليزية(!!) ثم مقدمة المؤلف وتكلم فيها عن بدء التفكير الديني في الظهور وتمتع الإنسان بملكات عقلية نفسية جعلته يتساءل من أين أتى. ونتيجة هذا البحث صار متدينا وهذا التغيير المفاجئ أنهى العصر الحجري بعد أن استمر مئة ألف عام وبدأ العصر الحديث وبنى الإنسان المدن التي صارت دولاً، كما شهد ظهور التشريعات الأولى التي قال عنها المشرعون أنها من الآلهة. وتطور فن الرسم والنحت !! وتطور الموسيقى والغناء والرقص (نعم) التي كانت تستعمل في المعابد والطقوس.

وصار لهذا الإنسان معارف، وهذه المعارف عن أئمة الفكر الديني (شامان كاهن نبي ربي شيخ). (كما يقول)

وتختلف المعارف الدينية عن الدنيوية بأن الأولى إلهامية والثانية تحصيلية وتختلط أحيانا المعارف.

وقد قبل أئمة الفكر الديني الكثير من الأفكار الدينية المسبقة وذلك قناعة منهم بأنهم ليسوا أول الملهمين. (هل لاحظت التعمية وعدم التحديد ولا ضبط المفاهيم وهو في ظني مقصود).

ثم تكلم عن الرؤى الشامانية، والشامان هو الإمام الديني للقبائل البدائية (ألاسكا، أستراليا...)، ثم عرفنا أن الإلهام الشاماني يكون بعد صيام وغالبا ما يكون رؤيا غامضة... ثم تكلم عن الإلهام في الديانات الوثنية، فقال إن الحضارات لم تخلق دياناتها وإنما العكس هو الصحيح.

ولا أدري لم هذه المقدمات التهويمية وما علاقتها بالقصة القرآنية؟! ثم كلمنا عن تشريعات جاهلية كلها مطابقة للإسلام (!!) فعن عامر بن جشم أنه أعطى للذكر مثل حظ الأنثيين، وأن الوليد بن

المغيرة حرم الخمر والأقرع حرم القمار، والوليد أول من قطع في السرقة، وأول من سن الدية منة من الإبل عبد المطلب، وقد أقر الإسلام جميع هذا (كما في صبح الأعشى يقول).

وتعدد الآلهة صورة للكثرة في النفس البشرية، فالإنسان مجموعة مشاعر (!!) ثم ينقل عن ابن عربي في فصوصه الحكمية قوله (وتأمل الزندقة والهرطقة والباطنية): "﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه﴾ أي حكم (حتى الآن ماشي). فالعالم يعلم من عبد (!) حقيقة، وفي أي صورة ظهر "المعبود الحقيقي" (حتى عبد)، وأن التفريق والكثرة في المظاهر "الإلهية" كالأعضاء "المتعددة" في الصورة المحسوسة "الواحدة"، (لاحظت التبرير للشرك وتزيينه؟!)، وكالقوى المعنوية في الصورة الروحانية، فما عبد غير الله في كل معبود "من صنم أو غيره"...

ثم قال الكاتب أنه كتبت في هذه الحضارات الكثير من الصلوات والأساطير الجميلة (!!) وكلمنا عن النبيين الوثنيين الذين لا ينطبق عليهم المفهوم الإسلامي للنبي (هكذا). ثم كلمنا أن التوحيد قديم، إلاّ أن أقدم ما نعرفه عن الديانات التوحيدية هو ما وصلنا عن التوحيد الإبراهيمي (!!) ويضيف الأخ (من عند نفسه): التوحيد الأخناتوني (!!) وقد يضيف (يقول) بعض علماء الأديان: الزرادشتية...

أما المسيحية (يقول) فبالرغم من التثليث فتعتبر من الديانات التوحيدية (بالنص). ثم يقول: في التوراة وكتبها الخمسة نجد الكثير من القصص الوثني، إلاّ أن هذا القصص قد نقي بالوحي الموسوي...!! (هل فهمت شيئاً ؟).

ثم يتكلم عن أن عزير هو الذي جمع التوراة القديمة وأضاف إليها بعض الشروحات والتفاصيل بفكر إلهامي (بالنص) (وهو لا يوثق إنما يتكلم من دماغه)، أما المسيحية (يقول) فلا نعرف من كتبها لكن الصفة الإلهامية واضحة المعالم فيها (!!).

أما الإسلام (ألطف يا لطيف) فنرى فيه بقايا واضحة من التوحيد الإبراهيمي (هل لاحظت حكاية بقايا، لا أبقى الله من الكاتب ولا من ناشره)، والكثير (هكذا) مما وصل إلى اليهودية (هل فهمت ؟!). إلاّ أن الوحي الإسلامي لا يسمو عليه وحي (شهادة عظيمة نعتز بها)، أعاد صياغة القصص التي وصلته بوحي جديد (فاهم شيء ؟) كما وضع في الوحي المحمدي (!!) ضوابط (لم يقل من وضع) تمنع اندماج المعارف الإلهية بالمعارف الدنيوية والشيطانية (كمعارف الأستاذ).

هذه هي قصة النزوع الديني (نزع الله روح الأستاذ). ثم يختم مقدمته الداهية بأبيات ابن عربي يقول ممهداً لها، ويلخص هذا القول الشيخ (!!) محي الدين (!) ابن عربي في أبياته المشهورة (!):

لقد صار قلبي قابلاً كل صورةٍ ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

وتحت عنوان: عالم المثال، عالم الخيال، عالم الرمز، قال المحروس (!): التدين أحد خصائص الإنسان الاجتماعية وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها (ما شاء الله). ثم يقول إن القصص الدينية موجودة في كل دين مارسته شعوب الأرض. إلاّ أن السيد لاحظ أن الدارسين كانوا يتعصبون كل لقصص دينه وتجريح قصص أديان غيرهم وأن المستشرقين فعلوا ذلك مع القرآن.

ثم قال قاصمة: إن الكشوفات الأثرية تبين أن قصص الشعوب القديمة لا تختلف عن القصص الديني في الكتب المقدسة. ثم يقول أنه بالرغم من عقيدته الإسلامية إلاّ أنه لم يجعل العقيدة أساسا لأي استنتاج أو مناقشة. ولا يعني هذا أن دراسته مادية (!!) (قربنا نفهم). ثم نقد فرويد الذي يرى الأساطير الدينية تشبه الأحلام في كونهما رغبات دفينة إلاّ أن الأحلام رغبات أفراد، وتلك رغبات مجتمع.

ثم نقل عن ليفي شتراوس قوله أن المنطق الذي استخدم في الأفكار الأسطورية لا يقل دقة عن منطق العلم الحديث. ويقول نفسه في كتابه "العقل الوحشي": "أن الأفكار الأسطورية والأفكار العلمية هما مستويان مختلفان تكون فيهما الطبيعة مفتوحة لتساؤلاتنا العلمية".

ويقول الكاتب أنه اعتمد في كتابه هذا على نظرية تعدد وجوه المعرفة بدلا من النظرية المادية... ثم انتقل من هذا إلى الرمز الذي لجأ إليه الإنسان للتعبير عن الأفكار التي يصعب تصويرها بشكل مباشر، والرمز كالواقع معرفة نهائية (!!) بل إن التصور الرمزي يفوق التصور الواقعي. ثم نقل عن "كانت" قوله: "الشيء في ذاته لاشيء" !!.

ثم قال: والأفضل للفكر من اللاتعبير أن يعبر بأفكار غامضة أو بالأسطورة، فما الأسطورة إلاّ مجال الإشارة عن السمو المطلق (ينقل عن كامبل في كتابه قوة الأسطورة). وينقل عن "أساطير العالم" لاسكندر اليوت قوله: "عاش في أرجاء العالم البداني أناس تفتحوا بفضل الإلهام الذي جاء من مدرسين عظماء كبوذا وموسى وزرادشت وعيسى ومحمد". ونقل عن كارل يونغ احترامه للقصص الديني، الذي يصفه يونغ باللاوعي الجمعي **Collective unconscious**. ثم فرق يونغ بين ثلاث مستويات: الوعي، اللاوعي الشخصي، اللاوعي الجمعي. (الصور الميثولوجية). ثم يشابه يونغ ما بين اللاوعي الجمعي أو الأشباح الخيالية والغرائز.

وواضح أن الكاتب يتبنى كل هذه المقولات. ثم لا يستبعد الكاتب أن يكون يونغ أخذ أكثر نظرياته عن الشيخ محيي الدين بن عربي... ثم حاول مطابقة المصطلحات والمفاهيم بينهما.

وتحت عنوان: الصورة الإلهية وعالم المثال قال: يقول الشيخ الأكبر (يقصد ابن عربي): "أن المعاني المجردة التي لا تصاحبها صور حسية يستحيل على العقل استيعابها. ولكي يمكن استيعابها يجب إعطاؤها صورا حسية، ولكن بصورة رمزية. ومن الأمثلة... الله". ولاحظ اللؤم في نقل الكاتب وتحريفه وعبارته الشائنة فيما يلي. وانتبه: "والذات الإلهية وجود مطلق التجريد، ويقترب تجريدها من مرحلة الحيرة والعجز، كما يقول الصديق !!: "العجز عن الإدراك إدراك"... هل لاحظت المقدمة والنقل والعلاقة !.

ثم يقول: يصعب بل يستحيل تصور إله كل صفاته هي تنزيهه عن الصفات. وأولاً من قال بمثل الذي تقول به؟ ثم ثانياً ما علاقة هذا بموضوع القصص؟ وأولم يكن ممكنا الدخول في الموضوع بلا هذا التشتيت؟

ثم يقول: والمعرفة المثلى للحق تعالى هي توازن بين التشبيه والتنزيه (!!). تنزهه دون تعطيل، وتشبهه بما يليق بذاته.

ولا أدري هل الكاتب يكتب عن وعي أو لاوعي شخصي (كما يقول يونغ)؟

فالإله في المجتمعات البدائية له جسد وصورة يمكن رسمها أو نحتها بصورة إنسان أو حيوان... أو خليط... وقد ينكر (ولاحظ قد) المسلم الموحد هذا النوع من التصور، ويعتبره تشويها وتحريفا... ثم يبين (أو يعمّي) أن النزوع الديني عند الإنسان، وحيرته في معرفة الذات أدى إلى التصور الميثولوجي لله، بصورة رمزية جميلة ممتعة (هكذا)، ولم يكن للإنسان القديم خيار (هكذا) عقلي آخر إلاّ إذا رفض الوجود الإلهي (!!).

يريد الكاتب أن يقول: أنه إما التصور الأسطوري للإله أو نفيه بالمرة. والأول في نظره أفضل. ولكن من وضعنا في هذا المأزق؟ إنه عقل الكاتب أو لا عقله.

ثم يدافع عن القدماء بأنهم لم يفهموا الأساطير بصورة حرفية، بل بصورة رمزية. ثم يشبه هذا الذي قاله بكليلة ودمنة، فبقطع النظر عن حدوث القصة، فإن في ثناياها حكمة، وهذا هو تماما حقيقة الأساطير (بالنص)، والأساطير الدينية ثروة (زاد الله الأستاذ من هذه الثروة وأغناه منها وأغنانا عنها)، وجزء من "خزانة الخيال". (ابن عربي). والمؤمنون (يقول) يعتزون بأساطيرهم القديمة.

وتحت عنوان: عالم الرمز والقصص القرآنية، قال: "الوحي في عالم الرمز معارف جاءت من عالم القدس، وتنزلت إلى عالم الرمز الذي كساها صور الرمزية، ثم تصورت كمعاني رمزية في قلب الموحى إليه، الذي تحدث عنها بالصور الرمزية". (هل سمعت غير رمز في رمز)

ثم عاد ليؤكد لنا من جديد أن العهد القديم رمز وذكر لنا بعض الروايات... منها رؤيا دانيال أنه رأى أربعة حيوانات: الأول كالأسد له جناحا نسر وقلب إنسان، وآخر مثل النمر له أربعة أجنحة وأربعة رؤوس... الخ". ورؤيا أخرى لدانيال أنه رأى كبشاً بقرنين يناطح تيساً له قرن... الخ.

ثم يشير إلى إمكانية أن تكون الحروف في مطالع السور من الوحي الرمزي. والتأويل نوع من الرمزية. فالفلك المشحون أرحام النساء... مثلاً. والنحل بنو هاشم ثم يخرج من بطونهم العلم.

وللصوفية تأويل رمزي لكثير من آيات القرآن: "اجعل هذا البلد آمناً" أي اجعل قلب إبراهيم أمنا من الفراق. "واجنبني وبني أن نعبد الأصنام" أي امنعني وبني أن نرى وسيلة إليك غير الافتقار. (الجنيد). والتأويل الباطني (يقول المنظوم): متمم للمعنى الظاهري (لا أتم الله لك).

ثم قال: إن المسلمين اعتبروا القصص القرآني حوادث تاريخية، ولم يجنحوا للتأويل. (لكن الكاتب جنح لها وتوكل...) واستمع إليه أو لا تستمع: "القرآن أنزل للهداية (مقدمة حلوة ونتيجة مناقضة)، وإذا أخذنا القصص بمعناها الظاهري فقط لصارت قصص القرآن تشابه قصص ألف ليلة وليلة. من كونها قصصاً مقصودة لمعناها الظاهر فقط، إن لها مغزى هو رمز القصة.

فلو أخذنا قصة يوسف بمعناها الظاهري فقط لصارت مجرد قصة غرامية بل إن المفسرين أعطوها نهاية سعيدة بتزويج زليخة من يوسف... ولكن جمال القصة في رمزيتها!!"

واستمع إلى رمزية الأستاذ أبو رمزي: "الرغبة الجنسية رغبة عارمة "ولقد همت وهم بها" (لاحظ قطع النص) ولكن الروح الدينية أقوى: لولا أن رأى برهان ربه. وسلوك طريق الحق (واستبقا الباب) قد لا يصاحبه مكاسب دنيوية، ولكن رضا الله هو المكسب الحقيقي...

ولم نفهم من رمزية الأستاذ ما هي ولا أين هي؟!

ثم يتكلم (حفظه الله من الفهم) عن رأيه (نعم عن رأيه) في واقعية القصص القرآني خاصة والقصص الديني عامة.

ثم لفتنا في جوابه إلى ضرورة التمييز بين نوعين من الواقعية: الواقعية التاريخية، وتعتمد على دراسة نصوص تاريخية وآثار قديمة (هل لاحظت اللؤم ؟). الواقعية العقائدية وتعتمد على الثقة بنصوص

دينية . والواقعية الدينية تقبل التعدد والتضارب في نصوص القصة الواحدة (هل لاحظت ألأم مـــن هذا ؟).

ثم قسم قصص القرآن إلى ثلاثة أنواع: قصص مؤكدة تاريخياً، كقصة الأخدود ومولد الرســول وحياته في مكة وهجرته... وأصحاب الفيل... وقصص خارجة عـــن المقــاييس العلميـــة (المعجــزات والخوارق). وقصص لم يثبتها التاريخ ولم ينكرها. والقصد من القصص الديني الوعظ لا التاريخ (هذا ليس مدحاً، لاحظ).

والفصل الأول (وإن لم يقسم الكاتب كتابه إلى فصول) بعنوان: قصص من حياة الرسول (ولادة، شق صدر، معراج...):

يقول لنا السيد أنه يؤمن بالمعجزات (هذا كرم منك)، ولكنه يعتقد أن معجزات كثيرة أضيفت إلى السيرة. وأن المؤلفين الجدد في السيرة تخلوا عن القصص الميثولوجية. وانه ضد هذا، ولا يهم الكاتــب آن هذه المعجزات حصلت أو لا، فهي جميلة.

ثم استعرض قصة المولد كما يرويها العوام... ثم يقارن بين ما ورد فيها وما ورد في قصة مولــد زرادشت، ومولد بوذا.

ثم يقول: ولم يكن النصارى أقل حظا من غيرهم في تنظيم ولادة المسيح، ومن الممتع أن نعلم أن المسلمين لم يكونوا أقل حبا للرسول من بقية الأمم والأديان...

ثم يتكلم عن شق الصدر (ولاحظ ما الذي اختاره هذا العبقري)، يقول: إنه في هذه القصة يختلط الواقع بالرمز بصورة ممتعة جميلة (والله لقد اختلط علينا هل الأستاذ عاقل أم يخلط).

ثم يذكر روايات لا وجه لها أن الله لما أراد أن يخلق محمداً قبض قبضة من نوره وقال لها كـــوني محمداً فصارت عمودا من نور فسجد، فقال: الحمد لله، فقال: لأجل هذا خلقتك وسميتك محمداً. ثم غمس طينة النبي في أنهار الجنة... ثم إن الله قسم نور محمد عشرة أقسام فخلق من الأول العرش، ومـــن الثــاني الكرسي، ومن الثالث اللوح، ومن الرابع القلم ومن الخامس الشمس ومن السادس القمر، ومن الـــسابع الكواكب، ومن الثامن نور المؤمنين، ومن التاسع نور القلب، ومن العاشر روح محمد.

وأنه لما خلق آدم قال إني أسمع في جبهتي نشيشاً. فقال الله: هذا تسبيح ولدك محمد. إلى أن استقر النور في عبد المطلب فكان إذا خرج إلى الصيد جاءته الأسود ليركب ظهرها إكراماً لنور محمد...

يقول: وسواء قبل المسلم هذا أو رفضه فانه يدل على عظيم حب النبي.

(ما كل هذا التخليط؟ إنه يغلف ضلاله وتغييبه للعقل بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم وهي خطة خبيثة قد تنطلي على بعض الجهلة).

ثم قال إن قصة المعراج من أمتع القصص القرآنية وأجملها (الأستاذ لا يفرق بين السيرة والقصص، بل هو يدس بعد هذا ما لم ينزل به الله سلطاناً).

ثم بعد عده المعراج من القصص القرآني نقل لنا قصة المعراج من الكتب المعروفة لدى العوام.

ثم عقَب الأستاذ بأن الصوفيين لا يعطون للعروج الجسدي أهمية (المهم قولهم) بل المهم عندهم العروج الروحي. والتصوف محاكاة للمعراج الروحي (مدد !). ثم نقل لنا (تحفة) عن شيخه الأكبر في رسالة "شجرة الكون" فقال: "لما قال الرسول: يا جبريل إلى أين. قال: ارتفع. الأين من البين. إني في هذه النوبة لا أعرف أيني. فقال محمد: ما يراد مني؟ قال: أنت مراد الإرادة، فالكل مراد لأجلك وأنت مراد لأجله... فشرّف عالم الملكوت كما شرفت عالم الملك، وشرف بقدمك قمة السماء كما شرفت أديم البطحاء !!. ثم قال: يا جبريل أين أنت مني ولي وقت لا يسعني فيه غير ربي. (وتأمل المبالغات والتعميات والباطنيات والكفريات...).

ثم قال النبي: يا رب إذا انتفى الأين فأين أضع القدم؟ (أليس هذا كله من باب: من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار؟ ثم: هل كان الرسول يتكلم بهذه الفلسفة؟).

قال: ضع القدم على القدم حتى يعلم الكل أني منزه عن الزمان والمكان والأكوان. ثم قيل له: يا محمد. مبدأ قدميك منقطع أوهام الخلائق (افهم إن كان ثم ما يفهم) يا محمد، ما دمت في سير الأين جبريل دليلك، فإذا ذهب المكان، وغبت عن الأكوان، وانتفى الأين، وارتفع البين من البين، ولم يبق إلاّ قاب قوسين، فأنا الآن دليلك... الخ".

وتأمل ما أتحفنا به عبقري آخر الزمان في ختام قصة المعراج كما هيّأها أوهامه وأوهام شيخه الباطني: "وقصة المعراج ليست حكراً على المسلمين، بل إن العروج إلى السماوات نسب إلى بعض الأنبياء".

وينقل عن التوراة أن أخنوخ عرج به إلى السماوات العشر كما في التوراة، وأن ملكين رهيبين أيقظاه من النوم وحملاه وعمره (٣٦٥) سنة، وأنه سار مع الله. فرأى ملائكة معذَبين... الخ. واخنوخ هو إدريس.

وما أدري ما قصد الكاتب العظيم من هذه القصة الخرافية ؟! هل أراد أن يقول أن المسلمين نقلوها. وأن كل تعظيمه المدعي الزائف للنبي ما هو إلاّ غطاء موهم للتشكيك، وهو الحلاوة التي يغلف بها السم.

ثم يعقد مقارنة بين قصتي المعراج في التوراة والقرآن. ثم يكلمنا عن عروج إشعيا. وعروج موسى...

ثم ختم أحداث قصة النبي صلى الله عليه وسلم بانشقاق القمر. ومما قال في هذا المبحث: يعتبر المسلمون انشقاق القمر إحدى كبار معجزات الرسول التي حدثت لتؤكد نبوة الرسول. (لم يقل المسلمون ذلك، وإنما قالوا في تفسيرها إن القمر انشق وقال آخرون: إنه سينشق)، والذين يرفضون المعجزات (يقول) يقولون: إن الله خلق الكون حسب قوانين. ومن وجهة النظر الدينية (لاحظ تعبيراته): إن نظام الكون هو إرادة الله.

ولكل معجزة (يقول): مكذب ومصدق ومبرر، والمبرر هو الذي يبررها بالقوانين.

ثم يختلق أو ينقل من المختلق قصة انقلاع شجرة بأمر النبي لطلب أهل مكة وزحفها إلى النبي صلى الله عليه وسلم... (عن نهج البلاغة ويقول: إنه لم يؤمن بمحمد إلاّ علي).

ثم جاء بقاصمة أخرى من قواصمه الكثيرة إذ قال: والمعجزات ليست حكراً على الأنبياء بل إن الكثير من المعجزات قد نسبت إلى مختلف الأولياء! ويبدو أن الأستاذ شيعي أو متشيع غال إذ ينقل أن الإمام علي رد الشمس إلى مركزها لصلاة العصر بعد أن غابت !!. وكلمته جمجمة كسرى، وأعاد إلى رجل (بضم الجيم) يده المقطوعة، وأحيا شاباً بعد أربعين يوما من موته... (الرسول لم يفعلها).

والعنوان الثاني أو الفصل الثاني إن سميناه من فصول الكتاب (السفر التعيس): قصص من العقائد الإسلامية:

ويبتدئ بالملائكة فيسال هل لهم وجود حقيقي؟ ويتكرم بأن نعم. وأن لهم مكاناً خاصاً في نفوسنا (!) وأننا نستريح لوجودهم.

ثم ينقل عن شيخه (أو شيطانه) الأكبر: "من الملائكة صنف مهيّم تجلى لهم الحق باسمه "الجميل" فهيمهم وأفناهم عن أنفسهم، فلا يعرفون نفوسهم، ولا من هاموا فيه، ولا ما هيمهم، فهم سكارى..."

هل رأيت الضلال؟ وهل دكتور مقيم في الولايات المتحدة يعتقد مثل هذا؟ وهل هذا من العقل؟ وهل هذا من الدين؟ وهل يعتقد هو هذا؟ أم أنه يمثل ويتصنع ليزيد الناس ضلالاً على ضلال؟

ولا أدري حتى الآن وقد بلغنا مئة صفحة من الكتاب أين القصص القرآني؟ إنه حتى الآن لم يذكر ولا سطراً واحداً عن القصص القرآني.

فهل اصطنع العنوان الجذاب، لاهتمام الناس بالقصص، ليشدهم إلى ضلاله المبين؟

وفي مبحث ثان (التسمية من عندنا) يعنونه بإبليس الشيطان (صديق الباحث) وتأمل السطر الأول من المبحث: أول ما ظهر الشيطان على مسرح الأقدار عندما أُمر بالسجود لآدم فأبى واستكبر.

ثم انتقل إلى الشيطان في الديانات الأخرى. ولا أدري ما محل هذه الرواية السمجة التي يرويها الدكتور: "في سفر أخنوخ: تكاثر بنو آدم وولد لهم بنات حسناوات مغريات وعندما رآهن الملائكة أبناء السماء عشقوهن... وقالوا: تعالوا نختار لأنفسنا زوجات..." الخ.

ثم أقسموا جميعاً (الملائكة) وألزموا أنفسهم بلعنة شاملة (على الدكتور) ! والنساء اللاتي حملن خلّفن عمالقة طول قامتهم ثلاثمئة ذراع... وهم العمالقة.

وزعم أن الملائكة علموا الناس صناعة الأسلحة ومساحيق التجميل. وبعد قصته التافهة عن عصيان الملائكة (حاشاهم) عاد إلى الإسلام ليفتري علينا من جديد، فقال: ولما جاء الإسلام رجع (!) إلى فكرة التوحيد الأصيلة حيث الخير والشر من الله، وبقي الشيطان رمزاً للشر، ولكن هذا الشيطان ليس إلاّ وسيلة للإرادة الإلهية (!)، والله خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، ولكنه وسيلة إلى محاب كثيرة منها إظهار كمال قدرة الله على خلق المتضادات، ومنها ظهور أسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم... الخ، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم تظهر هذه الأسماء، ومنها... (وينقل عن شرح العقيدة الطحاوية).

ثم يستشهد بكلام لجلال الدين الرومي يشبه فيها هذه المسألة بالرسام يرسم يوسف ويرسم العفاريت... الخ... (هل التمثيل واضح؟! ولله المثل الأعلى. إنه يقصد الله! قاتله الله!).

والحديث عن الشيطان هو حديث عن الشر (لا قصص قرآني حتى الآن، وإنما فلسفة ودوران).

ثم قال: سجود الملائكة لآدم وتعليمه الأسماء رمز للقدرة التي وضعها الله في الإنسان ثم قال: بالرغم من قولنا إن الشر ليس من فطرة الإنسان، إلاّ أنه من الناحية العملية فإن الشر جزء لا ينفصل من طبيعة الإنسان.

ثم رجع إلى طبيعته الملتوية إذ قال بعد نقل أبيات عن أبي نواس: "إن الذين اخذوا قصة الشيطان بمعناها الظاهري فقط وجدوا أنفسهم في مشكل ثيولوجي فكري يصعب الخلاص منه".

ثم ينقل مناظرة بين إبليس وسهل بن عبد الله التستري. ولا أظن من وضعها إلاّ الشيطان، لأن الفوز كان فيها دائماً للشيطان على سهل. وأحالنا الأخ إلى الشعراني في كتابه "الأنوار القدسية في آداب العبودية"، ولا أدري أين الأنوار ولا أين الآداب، ولا أين العبودية في هذه القصة المفتراة.

ثم استخلص عبقري الزمان من القصة المزعومة أن المشكل الذي رآه الصوفيون في لعنة إبليس الأزلية أن هذا يحدد من إطلاق الرحمة الإلهية.

ونقل عن الشهرستاني أن شبهات إبليس ذكرت في الأناجيل وضللت الناس. وذكر الشبهات الإبليسية. وواضح أن إبليس لم تخطر له هذه على بال وإنما هي من وضع أبالسة البشر.

ثم قال فيلسوف العصر: لقد أدت هذه الفلسفة (الإجابات الفلسفية عن أسئلة إبليس) إلى تغيير صورة الشيطان إلى صورة الملاك الذي ابتلاه ربه فرضي.

ونقل عن الآلوسي قوله: "الملائكة مظهر جمال الله وإبليس مظهر جلاله، ولهذا لم يجزع ولم يطلب المغفرة، لعلمه أن الله يفعل ما يريد، واستشعر ذلك من ندائه ياإبليس"... الخ.

وقد حركت قصة إبليس الموهبة الميثولوجية لعامة المسلمين فوضعوا الكثير من القصص حول الشيطان... وذكر عن كعب الأحبار روايات...

ثم أدخلنا في متاهة: هل للخير والشر وجود مستقل أم هما نفسيان؟ ثم لاحظ هذه الصياغة الشيطانية للعبارة التالية للمؤلف: "إن قصة الشيطان ليست مجرد أسطورة من أساطير الأولين (!!)، وإنما هي فكرة دينية فلسفية راقية، والذي يعتبرها مجرد قصة فقد ظلم نفسه...!!

ثم رمانا بقذيفة أخرى إذ قال: "والحديث عن الشيطان لا يتم بدون الحديث عن فكرة الشيطان عند اليزيديين". (عبدة الشيطان) (أخاف أن الكاتب..)

ثم نقل لنا من كتبهم نقولاً بنصها إذ يعتبرونه (إبليس) واحداً من الآلهة السبعة.

ثم في مبحث جديد حدثنا عن استماع الجن إلى القرآن، ولا أدري سر هذا الانتقاء العجيب! ويصف هذه القصة (حسب تعبيره) بأنها رمزية... ويقول إن القصة بالرغم من أنها تعطي بعض الأفكار والرموز إلاّ أنها تسبب حرجاً للمسلمين. (تأمل هذا الدس والالتواء)

ثم تكلم عن صورة الجن عند العرب، وإبليس والجن، ولا قصص قرآني فيما قال. ولاحظ هذه العبارة للكاتب: "وإيمان المسلمين بالجن في عصرنا يختلف باختلاف العقلية والثقافة...".

ثم انتقل إلى مبحث: التسمع إلى الملأ الأعلى.

ويبدو لي أن الكاتب يتعمد من المباحث ما هو أملأ بالروايات التي تكثر فيها الخرافات والإسرائيليات حيث يجد بغيته ويحقق طلبته...

ومن هنا رجع إلى الشياطين وتسمعهم وجاء بأعاجيب لا نذكر منها...

وانتقل من جديد إلى ميثولوجيا الشعوب في هذه المسألة.

ثم انتقل إلى قصة هاروت وماروت. يقول (لا فض إلاّ فوه): وهذه الآية غامضة المعاني ويصعب فهمها بصورة مباشرة... الخ. هل لاحظت الانتقاء ؟! وهل خمنت الدوافع من وراء هذا؟

ثم أتانا بالإسرائيليات في هذه المسألة فلا ننقلها وهي معروفة. ثم ختم غثاثاته بأغث إذ قال: إن قصة هاروت وماروت لو أخذت بمعناها الظاهر فإنها تخالف الأفكار الإسلامية التي تقول إن الملائكة لا تعصي... ولهذا فقد أنكر أصوليتها الكثير من علماء المسلمين ومنهم عياض... ونقل عن الآلوسي أن القصة تؤخذ على أنها رموز. ولاحظ تعمده الخلط بين الإسرائيليات والقصة، فهو لا يقول الروايات وإنما يصر على تكرار لفظ القصة... "إن قصة..."، "إن قصة..."، "ونلاحظ في هذه القصة..." ...الخ. ولاحظ تعبيره أنكر أصوليتها (ماذا يعني)؟

القصص العربية في القرآن: (عاد، ثمود، أصحاب الفيل، أصحاب الأخدود، الخضر):

يبتدئ القصص العربية على حد تسميته العجيبة، بقصة نبي الله هود وقوم عاد، والصحيح أن يقول وعاد، فقوم حشو.

المهم أنه يذكر الآيات التي تكلمت عن القصة، بمعنى أننا نستطيع أن نقول أن القصص القرآني قد ابتدأ.

يقول بعد ذكر الآيات أن القرآن لما ذكر قصة عاد كان قد مضى على دمارها عدة أجيال، ولكن قصصهم كانت لا تزال حية، ثم يستعرض قصتهم كما رواها السدي وابن اسحق. وتأمل المنهجية الواهنة، فلم هذا اللجوء إلى السدي وابن اسحق وهم إنما يغترفون من الإسرائيليات؟ ولِمَ لم يعمد الكاتب إلى الآيات فيحللها ويستخرج كنوزها إن كان يريد أو كان يستطيع؟

على كل حال، يستعرض ظلم عاد وقوّتهم وأن هوداً من أوسطهم نسباً. وأنه أمرهم بالتوحيد والكف عن الظلم، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا رفعه من الله مسلمهم ومشركهم، وأهل مكة يومئذ العمالقة أولاد عمليق... (تفضل!)

ثم طفق يفصل أسماء عاد كأنه دائرة أحوال مدنية، وأسماء المغنية وردة، والأخرى جرادة، وذكر أشعارهم، ينقل ذلك، وأنهم بدل أن يدعو بجوار الكعبة طفقوا يشربون ويسمعون الغناء... وفصل في الغثاثات.

ثم ذكر مصادر قصة عاد كما يقول جواد علي، أنه بالإضافة إلى ما جاء موجزاً في القرآن فالقصص الشعبي الذي من مصادره كعب الأحبار ووهب بن منبه يهوديان أسلما (!). وأن معاوية هو الذي جمع أخبار عاد لولعه بالأخبار.

وأن لورنس هو أول من ذكر آثار عاد في منطقة وبار، وذكر الرحالة الإنجليز الذين حاولوا الوصول ومنهم توماس ضو، وفيلبي. ثم فيليبس سنة (١٩٥٥)... ثم بعدهم جاء علماء أمريكان سنة (١٩٨٦)، وأنهم كشفوا آثار مدينة وبار مستعينين بالأقمار.

وهكذا تحول القصص القرآني إلى حفريات أثرية وكشافين إنجليز وأمريكان. ثم أعقب قصة هود وعاد بقصة صالح وثمود. وبدأ بذكر الآيات، ثم دخل فوراً في التفصيلات عن ابن اسحق. وتاه في لجة الأسماء والجزئيات وما لا قيمة له ولا دليل عليه. وكيف أن الملائكة قتلت من أراد قتل صالح... وأكد أن العرب تعرف عاداً وثمود. وأن موضعهم في مناطق جبلية أو هضاب ذات صخور. ويقول أنه قد عثر على الكتابات الثمودية في الأردن، كما عثر عليها في نجد وتبوك.

ثم ينتقل إلى قصة أصحاب الأخدود. وكيف أنها تتكلم عن تعذيب المسيحيين وقتلهم في نجران، كما يقول. وينقل عن بعض الكتب الأجنبية المتكلمة عن تاريخ الدولة الرومانية أن هذا حصل في زمن حكم القيصر يسطنوس (٥١٨–٥٢٧م) وأن الذي عذب النصارى الملك ذونواس (لحساب الروم كما يبدو)، وأن النجاشي قاتل ذانواس فهزم النجاشي أول مرة، ثم هزم ذانواس في المرة الثانية، وعين النجاشي أبرهة على اليمن.

ثم يستعرض عدداً مما يسميه الوثائق التاريخية المتعلقة بشهداء نجران، منها ما دونه يوحنا الأفسي المتوفى ٥٨٨م. وما كتبه السروجي بالسريانية، وغير ذلك...

ثم انتقل إلى قصة أصحاب الفيل. ولا بد من طريقته في تتبع الروايات والتفصيلات. فيبين لنا كيف صار أبرهة أشرم... وكنيسته التي بناها... وتفاصيل البناء والرخام. وعدد جنده عندما خرج إلى مكة. ومن لقي في طريقه من العرب وكيف قال له بعض زعماء العرب: إنما نحن عبيدك سماعون لك، وبعثوا معه أدلة. ثم دخل في تفاصيل ألوان الطير التي أرسلت عليهم فقيل سوداء وقيل خضراء وقيل

بيضاء... وحجم الحصى... والأشعار التي قيلت في المناسبة. ثم النصوص الأثرية، وينقل عن جواد علي أنه لو تم للأحباش في اليمن ما أرادوا لاتصل ملك الروم بملك حلفائهم، ولتغير الوضع السياسي في الجزيرة.. ولكن مكة هدمت ملك الحبشة وملك الروم وملك الفرس...

ثم انتقل إلى قصة الخضر. الذي هو في نظره شخصية إسلامية محاطة بالغموض والمعجزات. وقد كتب القصاصون عنه الكثير. (لاحظ "كتب القصاصون"، وليس مهماً ماذا في القـــرآن. مـــع أن الأخ يكلمنا عن القصص القرآني، فهل يدري ما يفعل أو لا يدري...؟! إن كان...)

ثم يطوف بنا في الروايات الخرافية ويقول: ولا نتوقع من القصاص الشهير كعب الأحبار أن يترك الخضر دون قصة عجيبة... ثم أتحفنا... ونحن لم نتوقع من كاتبنا إلاّ أن ينفحنا بغثاثاته. ثم يقول إن قـــصة الخضر في القرآن (لاحظ) حدثت في أيام موسى. وسرد القصة التي في كتبنا. ثم قال: هذه قصة الخـــضر كما وردت في القرآن. ومغزى القصة في نظره ليس تقديس الذين كشف لهم الغيب، وإنما تبيان السبب الذي من اجله طوي عنا الغيب. وختم بنص عن شيخه الأكبر في جوابه على الحكيم الترمذي: لأي شيء طوي علم القدر؟ فقال: "فيكون طيّه حتّى لا يشارك الخلق الحق في علم حقائق الأشياء... ولو علمـــت أحكام القدر لاستقل العبد بكل شيء!! (انتبه لهذا الإجرام)، وما احتاج إلى الحق في شيء، وكان الغنى له على الإطلاق، فلما كان علم القدر يؤدي إلى هذا طواه الله..." الخ.

ثم ينتقل إلى ما يعنون له بـــ:

القصص العالمية في القرآن: (أيوب، لقمان، ذو القرنين):

وتأمل كيف يفتتح الكاتب قصة أيوب: وردت قصة أيوب في سفر أيوب وهو أحد كتب اليهود. وأن أيوب من العرب (لماذا لم يلحقه بالقصص السابقة؟) الأدمونيين الذين كانت دولتهم من العقبـــة إلى البحر الميت... ومن مدنهم البترا (سلا). والقرآن جعله من ذرية إبراهيم ﴿ومن ذريته...﴾ الأنعام: ٨٤، وأشار إلى إيجاز عرض القرآن للقصة وأن سفر أيوب كتب في القرآن الخامس أو السادس ق.م.

وأنها عند العرب قصة شفوية. وقد وردتنا قصة أيوب العربية الإســـلامية عن وهب بن منبه (!) الذي قال: "إنه قرأ من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً" !!، ويتأسف الكاتب أن وهباً خلط القصة العربيـــة بالعبرية... لِمَ يتأسف وهو يخلط من أول حرف في كتابه حتى آخر حرف؟.

وتبتدئ قصة أيوب كما رواها وهب بالحديث عن الشيطان، ثم يتحدث عن قصة أيوب مع الله ومع الشيطان (تعبير الكاتب...). ثم أتحفنا بخرافة... لا أراكم الله مكروهاً. وكيف وضع أيوب على مزبلة... (ألا قاتل الله من اخترع هذا ومن اعتقده).

ثم يتحفنا بداهية أخرى إذ ينقل لنا قصة مصري قديم تشبه قصة أيوب. وينقل عن كتاب تاريخ أمريكي للشرق الأدنى القديم نقولاً يختمها: وتنتهي قصة هذا الرجل كما انتهت قصة أيوب بالغفران...

قصة لقمان الحكيم:

احتار المفسرون في نسبه، يقول اللوذعي: وكان نسبه هو همنا وقضيتنا، وفحوى القصة القرآنية عنه. ثم كلمنا عن "مجلة لقمان" التي عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (سيرة ابن هشام) ثم ذكر حكماً له. وأشعاراً كالشعر الحر، في صفحات ولم يتعرض لقصته في القرآن... وهكذا فليكن التأليف في القصص القرآني وإلاّ فلا...!!.

قصة ذي القرنين:

ينهج فيها النهج نفسه من تتبّع التفصيلات والروايات التي لا أساس لها إلاّ الاختراع والإسرائيليّات...

والرأي التاريخي عند الكاتب أنه الإسكندر الأكبر المقدوني وأطال النقول عن الآلوسي والفردوسي وتاريخ الخميس...

أما الرأي الأسطوري لمن لم يعجبه هذا فذكر الحميري... ثم يعود ليرجح الإسكندر وبه يختم.

ثم كلمنا عن عالم المثال وعالم الأحلام. ونقل عن الفتوحات المكيّة، ولا أدري ما موقع هذا في الكتاب بالضبط.

وينقل رؤيا جلجامش وتفسير أمه الكاهنة ننسون لرؤياه في قصيدة طويلة، ما محلها لست أدري.

ثم ينتقل بنا إلى فصل جديد دون أن يسميه فصلاً ويعنون له بـ:

بين القرآن والعهد القديم:

وتحت عنوان فرعي: بين الإسلام واليهوديّة يقول: إن للكثير من القصص القرآنية قصصاً شبيهة لدى اليهود. ويذكر قصة آدم وحواء...، "والقصص القرآنية قد تكون قريبة الشبه من القصص اليهودية إلاّ أنها ليست صورة مترجمة عن الأصل اليهودي، بل نجد الخلاف بينهما واضحاً في حالات كثيرة".

والعبارة كما ترى (تغم) ولكنها من أعدل ما قال في كتابه المليء بالثغرات والمنكرات.

ثم يتكلم عن خطأ المستشرقين في النظر إلى قضيّة التشابه بين قصص القرآن وما عند اليهود، ويعرج على عدد من الأنبياء: آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويوسف وداود وسليمان... فيقول بأن هذه الشخصيات ليست يهودية بحتة !! (لاحظ العبارة)، بل إن علاقة اليهود بأي من هذه الشخصيات لم تثبت تاريخيا (لاحظ المبالغة). ثم يقول عن آدم ونوح وهابيل وقابيل إن هذه شخصيات عالمية، إذ نجد مثيلاً لهذه القصص في ميثولوجيا الشعوب المختلفة في العالم. وإبراهيم شخصية عربية، وموسى رسول توحيدي مجهول الأصل والوطن(!!) اعتنق اليهود رسالته التوحيدية بعد وفاته بأجيال.

ثم ينقل عن جيمسساندرز أستاذ دراسات الكتاب المقدس في كليرمونت–كاليفورنيا، أن هناك أكثر من (٥٢٠٠) مخطوط للعهد الجديد، ليس بينها نسختان متشابهتين.

ثم انتقل إلى قصاصي العرب في الجاهلية ومنهم النعمان بن المنذر، والنضر بن الحارث. وهؤلاء القصاص عرفوا الكثير من القصص عن الشخصيات التي تسمى توراتية، ولا أدري ما علاقة هذا بموضوع القصص القرآني؟!

ثم ذكر أشعاراً كثيرة ليثبت مقولته.

ثم أتحفنا بأن المصادر العربية واليهودية اختلطت فما عدنا نعرف الأصول الحقيقية لتلك القصص. (ما شاء الله...!).

ثم أتحفنا بتحفة أخرى أن القرآن أصلح كثيراً من هذه القصص، ولخص الإصلاح القرآني في:

١- إصلاح الصورة الإلهية (لاحظ الجفاء وانعدام الذوق).

٢-- إصلاح الشخصيات الدينية.

٣- إخراج الصورة الإلهية (هكذا) من الاحتكار اليهودي.

٤- تغيير بعض أسماء الشخصيات. ونقل تبرير أهل الكتاب لتغييرهم أسماء شخصياتهم.

وتكرار الوحي من الأمور المسلمة عند المسلمين ! فالله أوحى إلى موسى "أن اخلع نعليك" ثم أنزل هذا القول في التوراة، ثم أنزل مرة ثالثة في القرآن. (افهم!)

وكل ما نقله القرآن (لاحظ التعبير) عن موسى وفرعون وغيرهم مترجم عن الأصل (انتبه!) العبري أو القبطي أو اليوناني... ليس ترجمة (هكذا والله) لهذه النصوص وإنما تنزيل لهذه القصص. (ولماذا العلك؟!).

وقد استعمل بعض المفسرين كلمة ترجمة... (وأعفانا من ذكر هؤلاء المفسرين)

قصة آدم وحواء:

يبتدأ الفصل بغصة وتنكيد إذ يبين لنا معلومات الجاهلية عن قصة الخلود والتكوين وهل هي نفسها قصة آدم، فيقول: ومن المحتمل أن العرب لم يعرفوا قصة آدم وحواء، بالتفاصيل إلاّ أن الهيكل الأساسي هو قصة الخلق والتكوين الجاهلية. وعربية هذه القصة لا شك فيها عندي. (افهم إن كان ثمة ما يفهم!)

وتشابه قصة الخلق عند العرب واليهود يؤكد وحدة المصدر الذي يسميه المصدر الإبراهيمي. ولاحظ الخلط المتعمد بين ما عند العرب والقصص القرآني وإيحاء أنهما شيء واحد، ولو من طرف خفي.

ثم انتقل إلى قصة آدم القرآنية —حسب تسميته— والقصة واضحة عدا الغموض الذي يحيط بالأسماء التي تعلمها آدم وخلق حواء الذي يشبه التوراة...

ثم يعلق على سؤال الملائكة بأن له نظيراً في المصادر اليهودية وأن ملائكة الحب رغبت في خلقه بينما عارضته ملائكة الحق... الخ.

ثم أتحفنا بقصة إحضار الطين عن وهب... وقارن بالتوراة... ثم نفخ الروح من رواياتنا (أقصد القصاص نقلة الإسرائيليات وقارن بالتوراة)، ويبدو لي أنه منهج متعمد أن يجعل القصة عندنا هي ما يرويه القصاص، وهذه بالقطع مستوحاة من الإسرائيليات، ثم يثبت التشابه، ويغض النظر عن القصص القرآني.

ثم قصة السجود عند وهب وفي المدراش. وخلق حواء على نفس النهج، وكذلك خطبة حواء حسب عنوانه، وقال: لم يرض قصاصو الإسلام واليهودية إلاّ أن يذكروا احتفالاً بهذه المناسبة... الخ. ونقل خطبة النكاح التي قالها آدم عن ابن الجوزي...

ثم قصة العصيان ودور الحية والشيطان، وأن الشجرة هي الحنطة أو التين.

ثم أتانا بخزعبلات من النوع الذي لا ينصرف في أي ظرف. كرواية أن إبليس تعبد (٣٦٠) سنة حتى يأتيه أحد بخبر آدم، حتى جاء الطاووس، فخدعه إبليس فدله على الحية...الخ. وقارن هذا بما في التوراة، وقطعاً سيكون قريباً، لأن القصّاصين فئة طفيلية عاشت على طحالب بني إسرائيل وفطرياتهم ومروياتهم...

ثم وازن بين قصة الميثاق وما عند اليهود بتكلف واضح.

ثم أشار إلى الرموز في قصة آدم...

ثم ختم الفصل بتقرير هائل واستنتاج عظيم: وهكذا نرى أن قصة آدم وحواء العربية الإسلامية !! تتطابق مع القصة التوراتية في الكثير من التفاصيل، وتختلف... وسبب التشابه تبادل القصة بين العرب واليهود أو أنها من المصدر الإبراهيمي (تبارك الله...!!).

قصة قابيل وهابيل:

قال في البداية: وردت قصة هابيل وقابيل في سورة المائدة (التزوير أن القرآن لم يسم الأسماء). ثم قال: وسأنقل القصة كما جاءت في القرآن (هل تصدق؟!) مع بعض الشروح والتفصيل ولم يبدأ من القرآن بل لم يعد له أصلاً، بل ابتدأ بالتفصيلات من روايات قصاصينا وفوراً انتقل إلى التوراة.. ليخدم غرضاً معداً مسبقاً في نفسه...

نوح والطوفان:

ذكر نوح في ٢٩ سورة، ونقل الآيات... ليخدع عقولنا لأنه لن يعتمد عليها قط. فبعد سطر من قوله: هذه هي قصة نوح كما وردت في القرآن قال مباشرة: ويشترك القرآن مع الكثير من النصوص المقدسة للأديان الأخرى. وأقدم ما وصل إلينا من قصص الطوفان هو النص البابلي. كما عثر على نص سومري للطوفان.

ثم يعرض قصة الطوفان من ملحمة جلجامش (ينقلها في عدة صفحات عن كتاب "مغامرة العقل الأولى") ثم عرج على القصة في التوراة.

ثم يعلق على مجمل نقوله من النصوص: هذه هي قصة نوح على اختلاف نصوصها... وسبب انتشارها -في تعليله- أن الطوفان قد حصل !! والباحثة ستيفاني دالي تقول: إن وجود قصة الطوفان في مختلف الحضارات سببه العثور على أصداف بحرية في مناطق جبلية !! وتفسير الكاتب أن الطوفان قد حصل بالفعل. (جيد!).

ثم ذكر مراحل قصة نوح: الدور البابلي، والدور التوحيدي، والفترة القرآنية (تأمل!). وانظر لؤم الكاتب، فبعد الفترة القرآنية زودنا بتفصيلات كيف دخل الحمار السفينة والعنز والماعز والفأر. (وكأن هذه من القصة القرآنية...!!)

ويصف الكاتب هذه الخزعبلات بالقصص الجميلة.

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

يبتدئ بمشهد إلقاء إبراهيم في النار ثم يقول: هذه القصة لم تذكر في التوراة، (لا تفرح انتظر) ولكنها من القصص اليهودية الشهيرة المتناقلة، وتتشابه القصتان إلى حد كبير مما يؤكد أنها كانت متداولة بين الوثنيين العرب واليهود. وينقل عن ابن هشام أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما دخل الكعبة وجد صورة لإبراهيم يضرب بالأزلام. (حاشاه طبعاً... لكن لمَ يذكرها الكاتب الهمام؟!). وتشمل قصص إبراهيم عن اليهود فترات متعددة من حياته، فولادته في آور، والتحريق، وتجوله في بلاد كنعان، وحروبه مع ملوك المنطقة، ودخوله مصر، وعودته إلى كنعان، وقصة ابنه إسماعيل ونبذه (!) في الصحراء مع أمه، وقصة الضحية (!)، وتدخل فيها قصة جانبية قصة أخيه لوط (المشهور أنه ابن أخيه ولا يهمنا).

وقد درس العقاد الشخصية الإبراهيمية (هكذا) في كتابه "أبو الأنبياء" وخلص إلى أن إبراهيم شخصية عربية تختلف عن أبرام الشخصية اليهودية، ثم دمجت هاتان الشخصيتان فيما بعد. (وهذا يحتاج إلى توقف طويل ونقاش، والكتاب كله مشكل ومثير للغبار).

والذي أقول (كاتبنا الهمام يقول): إن إبراهيم شخصية حقيقية لكاهن (!) نبي (تفضل..!!) عاش في منطقة الشرق الأوسط ونشر عبادة إله واحد هو الإله أيل. وبقيت دعوته بين العرب واليهود. بينما تناقل العرب قصته شفوياً دون اليهود.

واسم أبيه آزر بينما سمّته التوراة تارح، ويرجع كاتبنا (أو كاتبهم) الخلاف إلى أن الشخصيتين مختلفتان. وتذكر التوراة أن الرب غيّر اسمه (أي إبراهيم) لما كان سنه ٩٩ سنة من أبرام إلى إبراهيم. وبقيت شخصية إبراهيم العربية (!) والتي تبناها الإسلام (لاحظ التبني) فيما بعد...

إلاّ أن مفسري القرآن وشراح التوراة اتجهوا إلى توحيد الصورة الإبراهيمية (لم ندر كيف كان هذا الاتفاق ولا كيف تم التنسيق، وهل هو بترتيب أم بمصادفة!؟) وقد جنح المفسرون إلى جعل أبيه تارح وأما آزر فعمه.

ويقول كاتبنا: وبالرغم من أني أفضل (هو يفضل) الابقاء على الاسم العربي القرآني، إلاّ أني أبقيت الأسماء كما وردت عند المفسرين. (ما الحكمة؟!)

والذين يقولون من المستشرقين أن محمداً أخطأ في نسبه لم يأتوا بدليل (يقول!). والذي سيدرسه الكاتب العظيم هو إبراهيم العرب والمسلمين لا ابراهيم التوراة. (على كل حال سنرى وربنا يستر. فقد تعودنا ألاّ نصدق الكاتب ولا نطمئن له). ثم نقل عن جواد علي من تسموا من العرب باسم إبراهيم. (وما علاقة هذا؟)

ويذكر العسقلاني ثلاثة من الصحابة باسم إسماعيل.

وقد حاول يهود العربية احتكار إبراهيم. وقد ردّ عليهم القرآن. (طيب) ولكن القصص الإبراهيمية العربية واليهودية تداخلت بعد الإسلام، ولم يعد من السهل التمييز بينهما.

ثم بين الكاتب أن هوليود لا تزال تصور كيف انتصر الخير في قصة إبراهيم من خلال قصص الرجل الطائر والرجل الوطواط والرجل العنكبوت (ما شاء الله !) (ولا أدري هل الكاتب بكامل عقله أم بكامل جنونه أم يدعي الجنون؟!)

ثم يذكر تكسيره الأصنام. وبعد محاكمة شعبية (هكذا) قرروا حرقه... ثم أتحفنا بتفصيلات عما حدث بعد رميه في النار مما لا يفوت القارئ فلا نطيل به. ويقول إن هذا ليس له نظير في التوراة. لكنه يعود بعد النفي فينقل قصة إبراهيم في المدراش، وتكسيره الأصنام وسجنه ثم حرقه كما في القرآن. يقول: ومن الواضح أنها جاءت عن أصول إسلامية. (عظيم!)

ثم تحت عنوان: قصص إبراهيم الإسلامية (لاحظ غلاظة العنوان)، ذكر قصة اهتداء إبراهيم إلى خالقه (تعبير مغالط)، ولم تذكرها التوراة. ثم ذكر عدداً من القصص في جميعها يتحفنا بخزعبلات، ينقل بعضها عن كتاب: أساطير الكتاب المقدس لغيزنبرغ.

ثم يرد على أن الذبيح إسحق. وأن القصة مأخوذة من المسلمين ثم محرفة لتحابي اليهود. (مش معقول!)

ثم ذكر قصة نبذ إسماعيل وأمه في الصحراء... وذكر التفصيلات المعروفة، ثم عرج على التوراة. ثم كلمنا عن زواج إسماعيل من رعلة بنت مضاض (أشهد زواجهما؟!). وعرج على تغيير العتبة (كما عند القصاص) أو عمود الخيمة (كما في المدراش) كناية عن طلب إبراهيم تطليق زوجة إسماعيل (كلام...!!)

ثم ذكر بناءه البيت بتفصيلات ما لها من دليل. ثم فصل في الذبيح من جديد.

قصة نبي الله لوط:

ذكرت قصة لوط مع أهل سدوم في عدة سور، (القرآن لم يذكر لا سدوم ولا عمورة)، ونقل عن التوراة قصة لوط بالتفصيل.

وتنتهي القصة القرآنية بدمار قوم لوط، وفي التوراة تعيد كفر وكذب بني إسرائيل بحق نبي الله لوط مع ابنتيه (ألا قاتلهم الله !)، وأن الكبيرة ولدت مؤاب أبو المؤابيين. والثانية عمون أبو العمونيين.

ويعلق الكاتب بأن هذه عادة بني إسرائيل في إهانة أعدائهم بإعطائهم أصولاً دنيئة.

يوسف عليه السلام:

قصة يوسف من أجمل القصص العالمية. (هل لاحظت من، والعالمية). وسر جمالها (اكشف لنـــا) يكمن في الصور النفسية والشخصيات المتباينة. وتنقلنا القصة من أرض كنعـــان إلى مـــصر في رحـــلات مشوقة.

وقد وجد يوسف نفسه فجأة في الجب، ثم وجد نفسه يباع ويشترى أمام اخوته (ليـــست مـــن القرآن) وعندما استقر عند سيده جاءته مشكلة من نوع جديد، زوجة سيده التي أغرمت به، ثم لما فعـــل الصواب أثيب على عمله بالسجن.

ومن خلال القصة الرئيسية نستمتع بقصص جانبية. ثم يدخلنا في تفاصيل الأسمـــاء والزوجـــات والأولاد...

وتتميز قصة يوسف بالتتابع الزمني والروح القصصية (!!) مما يختلف (!) عـــن قـــصص بقيـــة الأنبياء... حيث تتوزع قصصهم...

ثم يعرض مشاهد القصة ويقارن بالتوراة، أما القصة القرآنية فيعرضها كما عودنا علـــى لـــسان القصاص الذين هم بدورهم يأخذون عن الإسرائيليات... فمنها وإليها. ويذكر في مشهد الهم أن التوراة تقول أن يوسف ضعفت نفسه (!) لرغبة سيدته، ولكن للحظات قليلة (هل علمت مصدر أقوال من قالوا مثل هذا القول؟!)

ولكنه شاهد أمه وخالته وأباه في رؤيا أمامه (لاحظ رواياتنا أيضاً) وعنفه أبوه قائلاً: هل سيبقى اسمك على لوحة الشرف؟ هذه الرؤيا أعادت له صوابه.

ثم ذكر ما قال الزمخشري من استجابته...

ومشهد قد قميصه قال فيه: إنه يختلف قليلا في التوراة عنه في القرآن. وقصة النسوة لا تذكرها التوراة. وقصة السجن تذكر في التوراة بتطابق كامل. وتعبير الكاتب غير دقيق، فهناك شيء من التشابه.

ويذكر مشهد السنين ومجيء الاخوة ويقارن ما بين التوراة والقصة القرآنية.

ثم مشهد الصواع. ولا تذكر التوراة شيئاً عن ابيضاض عيني يعقوب.

وإذا انتهت القصة بدعاء يوسف فهذا لم يمنع القصاص من إكمال القصة كما يريدونها. ثم نقـــل عن الشاعر الصوفي عبد الرحمن جامي (٨٨٩ هـــ) شعراً عن الفارسية "يوسف وزليخا" وهـــي إحـــدى قصص ديوانه الشهير، وطال النقل جداً...

نجاة الطفل:

يقول: قصة نجاة موسى من القتل جاءت في التوراة والقرآن. ويأبى الكاتب إلاّ إن ينسج القصة على منوال القصاصين، ولا يتوقف أبداً عند النص القرآني. فهو يبتدئ بذكر الآيات ثم لا يلوي على شيء منها. فكأنها زينة وليست من الموضوع، وحلية ليست في صلب القضية أو القصة.

وعجيب قول الكاتب: ونجد القصة نفسها تقريبا قد نسبت إلى ابراهيم عليه السلام، إذ جاء في القصص الإسلامي واليهودي أن المنجمين أخبروا نمرود بأن رجلاً سيولد على عهده ويخرب ملكه ودينه. وعندما حملت أم ابراهيم... الخ.

وهذا ليس في القرآن، لا من قريب ولا من بعيد، ولكنه عند القصاص.

وقصة قتل الأطفال تتكرر في سيرة المسيح (يقول الكاتب).

ونجد مثل هذه القصص في أساطير المجوس (قصة زرادشت !!). ونجد لها شبيهاً في الأساطير الهندية (كريشنا)، ويطيل في هذه الأساطير.

ولست تدري ما الذي يريد الكاتب أن يصل إليه من هذه المقارنات.

موسى عليه السلام:

يعتبر المسلمون النبي موسى هو أحد الأنبياء أولي العزم. وقصص موسى تتكرر في سور عدة. ثم يقول: من المتعارف عليه أن النبي موسى بعث إلى قبائل عاشت في صحراء سيناء تسميها المصادر التاريخية قبائل عبيرو.

(ولا أدري هذا المتعارف عليه، من تعارف عليه، فعندنا أن موسى بعث إلى فرعون ليطلق فرعون شعب إسرائيل: ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾. ثم لما هاجر هؤلاء من مصر أكمل موسى معهم ما كان بدأه منذ سنين طويلة في مصر).

قال: ومن المتعارف عليه (صيغة عجيبة) أنه قد عاش في منطقة فلسطين مجموعة من البشر نسميها الآن اليهود، تحت حكم سلالة ملكية استمرت ثلاثمئة عام حتى أنهاها الملك البابلي نبوخذ نصّر الذي دمر القدس ومعبد الهيكل (٥٨٦ ق.م). وسمح لهم قورش بالعودة، فعاد بعضهم وبنوا الهيكل (٥١٥ ق.م).

وبقيت الطائفة اليهودية تحت حكم الفرس إلى أن دمر الإسكندر إمبراطورية الفرس، وخضعت فلسطين لليونان، وكانت العلاقة بين الرومان واليهود تتراوح بين مد وجزر. إلى أن دمر الرومان الهيكل (٧٠ م)، وأزيل من الوجود. وعندما اعتصم اليهود في الجبال اجتاحهم الرومان واحرقوا قراهم، وحظر هدريان على اليهود السكن في أورشليم.

ثم يذكر الكاتب أن القرآن سمى اليهود بني إسرائيل، وذكر الآيات.

ثم ذكر تاريخ اليهود وتأخر اعتناقهم التوحيد، ونقل من سفر الملوك غضب الرب عليهم. لأنهم ملئوا الهيكل بالأصنام...

وخلط كثيراً اذ قال: ولفظ عبيرو قد يكون اسماً لقبيلة عربية عاشت في سيناء، وعاش بينهم النبي موسى. ولا بد أن قصص العبيرو عن النبي موسى وصلت إلى قلب الجزيرة (لابد)، وتناقلها القصاص، في نوادي العرب. ولما زاد اهتمام العرب بالنبي موسى بعد الإسلام صاروا يجمعون هذه القصص من قصاصي مشركي العرب ويهودهم... (لا بد).

ثم يقول إن الهدف من هذه الدراسة هو الاستمتاع بالصور المختلفة لهذه القصص !!. ثم يبدأ بقصة:

- ولادة موسى وإلقائه في النيل: وأنها في القرآن والتوراة. والتوراة تقول إن الذي التقط موسى بنت فرعون (بالتبني).
- وقتله المصري وهروبه إلى مدين: ذكر في القرآن وما في التوراة (يقول) يشابه بل يماثل ما في القرآن.
- وفي عنوان ثالث قال: قصته مع النبي شعيب وزواجه من ابنته. وتذكر التوراة سبع بنات، وأن الرعاة طردوهن، والتوراة تجعل والد البنات كاهن مدين.
- تكليم الله لموسى: ورد في القرآن والتوراة عودة موسى من مدين وتكليم الله إياه وإرساله... ثم ينقل عن قصاص المسلمين لِمَ لم يكن موسى فصيحاً، وأنها ذكرت في المدراش.
- موسى في مصر وقصته مع السحرة: ذكر الآيات فقط. ثم انتقل لنص المدراش.
- إخراج بني إسرائيل: يصنع صنيعه المعهود بذكر ما عندنا وما في التوراة.
- عبور البحر: يذكر الآيات فقط. ثم انتقل إلى النص اليهودي.
- انبثاق الماء من الحجر، والمن والسلوى: كذلك ذكرت في القرآن والتوراة. وكذا تظليل الغمام، وذهاب موسى للطور، وإحضار الألواح والصاعقة.
- وقصة السبعين رجلاً: كل ذلك يقول أنه مذكور هنا وهناك...
- وقصة عبادة العجل ذكر الآيات التي تحدثت عنها ثم ذكر رواية التوراة، وتأمل منها هذا النص: "ولما رأى موسى أن الشعب معرّى، وكان هارون قد عرّاه للهزء من خصومه، وقف موسى في باب

المحلة وقال: ... وليقتل كل واحد أخاه، وليقتل كل واحد صاحبه، وليقتل كل واحد قريبه..." الخ.

- وفي قصة رفض دخول بني إسرائيل أرض الجبارين يذكر الآيات ثم ينتقل إلى النص الإسرائيلي، عن دخول أرض كنعان...
- أما في قصة قارون: فقد جاء بالعجائب، وقال عنها: الأصل القرآني من سورة القصص والحشو التفسيري من ابن جرير. ثم يذكر ما في الأسفار.
- وفي قصة البقرة: ذكر النص القرآني دون تعليق وانتقل في تفصيل طويل ممل لموضوع النجاسة في التوراة. وبعد طول الحديث يقول لنا إن التطهير عملية معقدة ويكون بخلط رماد بقرة بماء التطهير، ويبدأ بإيجاد بقرة حمراء... وفصّل...

ثم قال: وهذا التعقيد والطقوس ليس من امتيازات الديانة اليهودية، وإنما نجده في أغلب الأديان الأخرى!. ثم قال: وقد حافظ الكهنة في جميع الأديان (!) والحضارات على هذه الميزات إلى أن جاء الإسلام...

ثم خلط ما في القرآن بما عندهم (أي عند اليهود) فقال: والآيات القرآنية تتحدث عن عملية تعقيد الطقوس الدينية بالنسبة لليهود فيما يتعلق بذبح بقرة المناسك، (وهو غير صادق في ذلك بل هو تعقيد نفسية اليهود).

طالوت وداود:

يرى الكاتب أن النبي المذكور في القصة هو صموئيل، وينقل عن سفر صموئيل القصة وأنها كانت في عهد القضاة، وكان بنو إسرائيل قد تعرضوا لغزوات مستمرة من الفلستينيين الذين صاروا قوة كبيرة في بلاد كنعان.

وحارب بنو إسرائيل الفلستينيين عند "أفيق" فكانت النتيجة كارثة على اليهود.

ثم عاد بنو إسرائيل لحرب أولئك ولكنهم في هذه المرة أحضروا تابوت العهد، فكانت النتيجة أسوأ، وفقدوا التابوت، ولما سمع زعيم اليهود بهذا وقع عن كرسيه فكسرت عنقه فمات... وهكذا يتحفنا بتخاريف يهود. ويكتفي بذكر سطر فيه آية ثم يعود لتفاصيل بني إسرائيل.

وفي الرامة جاء بنو إسرائيل لصموئيل أن يعين قائداً فعين شاول... ثم فصل في التابوت وخشبه... ومصرع جليات... وكيف صار داود بطل بني إسرائيل. ثم يذكر القصة المجرمة عن داود

وامرأة أوريا (قاتل الله من اختلقها). ثم يذكر قصة من سفر صمونيل عن الرجلين والغنم والبقر وكيف ربطها المسلمون بقصة سورة ص.

يقول السفر: إن الرب أرسل النبي ناثان إلى داود ليعاتبه... ثم يقول: إن التفاسير لم تشرح لنا سبب التقارب بين القصة القرآنية وقصة سفر صمونيل، وهذا التقارب أكبر من أن يترك للمصادفة. ولهذا فإني أميل (وأنت مايل) إلى القول بأن هذه الآيات القرآنية قد ذكرت قول النبي ناثان ولكن دون أن تربط هذا القول بقصة أوريا الحثي. ولا يستبعد الكاتب أن تكون قصة أوريا هي المقصودة من هذه الآيات...

ويختم القصة بأساطير لا يقبلها عقل ولا نقل. ففي تاريخ الخميس عن يزيد الرقاشي (ومثله في المدراش): خرج داود مرة ينوح على نفسه ومعه أربعون ألفاً، فمات منهم ثلاثون ألفاً، فما رجع منهم إلاّ عشرة آلاف.

وأقول إنّا لم نعهد في بني إسرائيل رقة على هذه الشاكلة، ومن ناحية أخرى: لم تكن نسبة الصالحين في يوم كهذه النسبة، ثم ثالثاً: هو ينوح على نفسه فما بال هؤلاء يخرجون معه؟ ثم رابعاً: إن مثل هذه المواقف مرشحة للتكرار فيكون داود قد قضى على الشعب اليهودي.

قصة سليمان (النبي سليمان):

اسم سليمان (يقول) ليس عبرياً، بل قد يكون عربياً، ويذكر من حكام العرب في الجاهلية سليمان بن نوفل... وغيره.

وتشبه أسطورة سليمان (ماذا يهذي هذا ؟!) غيرها من أساطير ملوك العالم كأسطورة تبّع وذي القرنين.

وشخصية سليمان القرآنية تمثل سليمان الأسطوري الأصيل، وتشابه شخصية سليمان التلمودية.

وتأمل التخاريف القادمة: وإذا قرأنا تفاسير قصص سليمان، رأينا أن كل قصة لها تفاسير متعددة، وتختلف بين واقعية وأسطورية، ومزيج...، والسبب في هذا أن القصص رمزية وغامضة، لا تفهم بدون شروحات، وهذا الاختلاف يعطي قارئ القرآن جوه الذي يحب أن يضع سليمان فيه.

لقد تابعت قصص سليمان تطورها بعد الإسلام، واشترك قصاصو المسلمين وأحبار اليهود في تطوير هذه القصص وإشباعها بالتفاصيل الدقيقة.

ولا نناقش هذا الكلام لشدة تفاهته وتهافته... فهل التفاسير الأسطورية معتمدة أم أنها مجرد واقع موجود مرفوض؟ وهل القصص القرآني يمتزج بهذه التفاسير؟ وهل أن القرآن لا يطرح قضية محددة وإنما

يطرح كلاماً مطاطاً يتصوره كل على هواه؟ وهذا التنسبق بين الأحبار والقصاص متى كان؟ وهل هو مقبول؟ وهل يغني من الحق شيئاً؟؟.

ثم استعرض القصة في التفاسير فنقل عن الآلوسي ما لا يعقل ولا يقبل. وكذا صنع في قصة ملكة سبأ. وأتحفنا بحكاية الخاتم، في قصة فتنة سليمان. ينقلها عن ابن جرير الذي يروي عن ابن عباس والنسائي. والله أعلم أن ابن عباس لا علم له بهذا. ثم نقل عن الآلوسي قصة موته وهي عجيبة أخرى وداهية إضافية.

وقال لنا إن هذه القصص مشابهة في الأساطير اليهودية (طبعا، لأن المغترفين من قدر أولئك قد اغترفوا).

ثم ذكر الأحاجي التسعة عشر التي بعثت بها ملكة سبأ، ينقلها عن الآلوسي والمدراش. ثم ذكر أعاجيب أخرى في قصة النمل.

نبي الله يونس:

عند اليهود سفر باسم يونان بن امتاي (يونس بن متى عندنا). ثم ذكر ما في التوراة من أن الرب كلفه بالذهاب إلى نينوى فلم يفعل، بل نزل يافا وهرب، فثارت عاصفة... الخ. ثم تاب الله عليه فآمن قومه...

الفصل الأخير: بين القرآن والأناجيل.

لقد سلخ الكاتب قرابة أربعمئة صفحة جلها عن التوراة وأسفارها والمدراش وما إليه، وجاء في هذا الفصل الأخير ليقارن بين قصص أنبياء المسيحية كما هي في القرآن والأناجيل.

زكريا ويحيى:

بعد أن يذكر الآيات يقول إن موسى جعل الكهانة حكراً لأبناء هرون. ولما كثروا قسمهم داود أربعاً وعشرين فرقة تتناوب خدمة بيت الرب بحيث تخدم كل فرقة أسبوعاً. وكانت أشرف مهمات الخدمة حرق البخور... الخ. ولم يكن يحق لأحد أن يقوم بهذا الشرف أكثر من مرة في حياته (!!).

وزكريا؛ يقول الإنجيل (لوقا)، حاز هذا الشرف، وأنه وامرأته كانا بارّين، وكانت امرأته اليصابات عاقراً، وكانا متقدمين في السن... فبينما كان زكريا يكهن في نوبة فرقته أمام الله (!) حسب عادة الكهنوت، أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر. وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور، فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين محرق البخور... الخ.

فلما كانت اليصابات في الشهر السادس حملت مريم بعيسى !! وبعد هذه القصة يختفي زكريا من الانجيل.

ثم يروي قصة قتل هيرود الروماني للأطفال. والمذكور حاكم روماني مشهور بقسوته، أمه عربية وأبوه من الأدمونيين (صحراء الأردن)، وكانت فلسطين تتمتع بحكم ذاتي. فطفق يبحث عن يحيى، فسأل عنه زكريا فأنكر فقتله، فخبأت مريم ولدها خوفاً عليه، ثم مات هيرود... الخ.

ثم ينتقل إلى قصة:

المسيح وأمه:

يقول هناك خلاف واسع بين مريم القرآنية ومريم الإناجيل. وأن المسيح أعطي اسماً عربياً: عيسى. والإسلام يتفق مع الإنجيل في ولادته من عذراء، ويختلف فيما وراء ذلك.

ثم تتعرض الأناجيل لقصة يوسف النجار، ولا يذكره القرآن.

وينفرد إنجيل لوقا (كتب في القرن الأول ولا يعرف من كتبه) بذكر بشارة مريم. يقول: في الشهر السادس من حمل مريم أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها الناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها... الخ. (ولكن إذا كانت حاملاً فبمَ يبشرها؟ ومن أين حملت ستة أشهر؟ القصة غامضة)

أما الأكل من النخلة فان الأناجيل الأربعة لم تذكره، وذكره إنجيل متى (غير متى). وكذلك الكلام في المهد.

وقصة الطير وإحيائها ليست مذكورة إلاّ في إنجيل توماس الطفولي... وأقدم نسخة منه محفوظة بلندن. ويقول الإنجيل إنها حصلت مع عيسى وهو طفل ابن ١٢ سنة، ويقول القرآن إنها بعد رسالته.

أما إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى فمذكور في جميع الأناجيل المعتمدة وغير المعتمدة.

وقصة المائدة هي التي بني عليها فكرة الفساد الأخير.

والصلب ذكرته الأناجيل الأربعة وينفيه القرآن. وإنجيل برنابا ينفيه. والنصارى يقولون إن إنجيل برنابا كتب في عصر متأخر كتبه أحد مسلمي الأندلس.

إلاّ أن مخطوطات نجع حمادي التي اكتشفت في الثلاثينات من هذا القرن قضت على فكرة الإجماع هذه إذ تبيّن أن للطائفة الغنوصية **Gnostic Christians** عقيدة مميزة في الصلب، ففي سفر رؤيا بطرس من مكتشفات نجع حمادي الذي يظن أنه ألف في القرن الثالث نقرأ فيه: "رأيت ما ظهر لي أنه

المسيح قد قبض عليه من قبل اليهود. وقلت: ماذا أرى يا سيدي؟ هل هو أنت الذي قبضوا عليه؟ ومن هذا الذي يضحك فوق الشجرة؟ وأجابني المخلص: أن الذي رأيته يضحك هو المسيح الحي، أما الذي تدق المسامير في يديه فهو الجسد البديل، إنه الذي صار شبهه. انظر إليه وانظر إلي". وبطرس هو أحد الحواريين...

ثم ذكر قصة صاحب ياسين، وقصة أهل الكهف يرويها عن ابن إسحق، وينقل عن روح المعاني قصة الملك دقيانوس ومدينة أفسوس (بجانب أزمير) والقصة السريانية قريبة من الذي قصه الآلوسي.

ويذكر الكاتب أن ابن اسحق وقع في مطب بنقله القصة عن المصادر السريانية، فيجعلها بين عهدي ملكين الزمن بينهما دون منتي سنة، وحاول ابن اسحق أن يوفق بين ما في القرآن والمصادر السريانية فوقع في التضارب.

ثم في الختام سأل الكاتب: من أين لمحمد الأمي كل هذه المعلومات؟

ثم عاد ونبّه إلى أن التشابه لا يعني أن محمداً أخذ عن قصص أهل الكتاب. لقد جمع القرآن وحي الكتب المنزلة قبله ونبذ ما فيها من شوائب... وأضاف إلى ذلك وحياً جديداً تنزل للمرة الأولى، وهذا القرآن هو إمام المسلمين ومرجعهم وطريقهم إلى رب العالمين.

وفي ملحق عرفنا بكتب العهد الجديد والقديم في عشرين صفحة.

الكتاب الخامس عشر

من سلسلة: في طريق الأنبياء

وجاء الطوفان

منشورات دار التوحيد، مطابع دار القبس، الكويت

وجاء الطوفان:

هذا كتيب أو رسالة دون الخمسين صفحة من القطع الصغير، الهدف منها تثقيفي، ودعوة الناس، مطبوعة في الكويت، تنشرها دار التوحيد، وهي تتبع فيما أعلم لإيران.

جعلت صفحة المدخل مزينة بالآية الكريمة: ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية، وأعتدنا للظالمين عذاباً أليما﴾ الفرقان: ٣٧.

وفي المقدمة قال الكتاب: الذي لم يسم له كاتب: الحديث عن الأنبياء يعني الحديث عن المحطات المباركة التي زودت البشرية طيلة تاريخها المديد، بالوعي العميق، وبالنسغ الحي، الذي يمدها بالخصوبة والنماء، ويقتلع من أعماقها رواسب الجهالة والضياع.

كثيراً ما أخطأت البشرية الطريق. وها هي إلى اليوم تدفع ثمن خطئها الباهظ. وستظل كذلك حتى تفطن إلى رسالة الله الهادية. ترى فيها المنهج الحقيقي الأوحد لتحقيق سعادة الإنسان.

ولقد كان كفاح الرسل شاقاً، فهم يمثلون الخط المنقذ الذي يصارع ليشق طريقه الصعب بقصد تغيير الكيانات الجاهلية...

إن مهمة الرسل المجاهدين هي تصحيح مسيرة البشرية ووضعها على الطريق كلما زلت بها قدم. ومن هنا كانت الدعوة إلى توحيد الخالق، والدعوة إلى الإيمان بالآخرة قاسماً مشتركاً بين رسالات كل الرسل.

إن تجارب الرسل في الكفاح تجارب غنية، ثم عدد بعض هؤلاء الرسل وخلص إلى أنه لا بد للمسلم اليوم من دراسة هذه التجارب الرسالية الكبيرة. ثم أشار إلى رسالة دار التوحيد في نشر الكلمة الهادية، والفكرة الإسلامية المشرقة، وأنها تبدأ هذه السلسلة بتجربة النبي نوح عليه السلام.

بعد مقدمة دار النشر لهذه السلسلة ولهذا الجزء، تأتي مقدمة أخرى عن الهوى والضلال، تقول: الكون، أبدعه الله، وخلق لكل شيء فيه نظاماً دقيقاً، وأن هذا النظام الكوني الدقيق ينتظم كل الأجزاء في هذا الكون وكمال وجود هذه الأجزاء إنما هو في استجابتها لهذا النظام الإلهي...

وإذا خرج شيء عن نظام وجوده، فإنه سيصطدم بنظام الكون، وسيؤدي إلى تحطيم هذا الشيء...

والإنسان أحد مفردات هذا الكون، أوجده الله ومنحه الإرادة، والإدراك، وما الإنسان إلاّ ذرة في هذا الوجود المتمثل لأمر الله، والإنسان باختياره وإرادته يجب ألاّ يكون نشازا في

الكون. ولكن أين حرية الإنسان؟ ويجيب الكتاب: إن الإنسان سيكون حراً تماماً حين يحقق إرادة الله في سلوكه اليومي ومواقفه الاجتماعية.

ثم تكلم عن النزاعات الإنسانية المنبثقة فيما يرى الكتاب من غريزة أساسية هي حب الذات. ثم أبرز من بين النزعات: التوق إلى الكمال. ثم قال: إن الكمال الخالد هو الله، فالفطرة دليل المرء إلى الله.

والدين أن يدين الإنسان لله بالطاعة، وأن يعبده باختيار ووعي. ولكن الفطرة لا تستطيع أن تعبر عن نفسها دائما بوضوح، فقد يطرأ عليها ما يفسدها.

إن الفرد إذا خرج عن مساره تنطفئ في نفسه تلك الشعلة المتوهجة بالخير، أما على صعيد المجتمع فانه سيغدو مرتعاً للصراع المادي والاختلاف بين إرادات الناس والاضطراب والفوضى في النظم.

إن الله الرحيم من رحمته بالخلق لم يدعهم للعقل الذي قد يغرق في الظلام والشهوات فاختار لهم من البشر أناسا هم الرسل مهمتهم أن يذكروا الناس، ليتحقق الانسجام بين إرادة الله في التكوين وإرادته في التشريع...

وفي عنوان فرعي: مع فجر البشرية، قال: في البدء كانت الفطرة. وقال: انبثقت البشرية إلى هذا الوجود. وهي تحمل في أعماقها ذلك الميل الفطري إلى معرفة ربها.

ثم بدأ الصراع بمرور الزمن، واتساع المجتمع وتشابك العلاقات، وازدياد الحاجات، فبدأت مرحلة جديدة من التنازع والصراع. ثم ينقل عن الإمام الباقر شرح الآية الكريمة ﴿وما كان الناس إلاّ أمة واحدة فاختلفوا﴾ قال: كان الناس قبل نوح أمة واحدة على فطرة الله.

وقد بلغ الكتاب أكثر من ربعه حتى الآن ولم يدخل في جو قصة نوح، سوى هذا النقل عن الباقر الذي ذكر اسم نوح عليه السلام.

ثم تحت عنوان: شمعة في الظلام. قال: وكان نوح عليه السلام أحد الذين احتفظوا بصفاء الفطرة وسلامة الفكر، وكان يسكن مع قومه في قرية على متن الفرات. (دخلنا في منطقة التحديدات والإسرائيليات...) وحددها أكثر فقال: مما يلي غرب الكوفة.

وتذكر الروايات أنه لم يكن بينه وبين آدم أكثر من عشرة أجيال (ونقول: هذا ليس من منهج القرآن، فالقرآن لو أراد أن يحدد لفعل، ولكنه ترك كل الزمن والمدد والتحديدات والأماكن تركها لأنه لا ينبني على ذلك فائدة).

وكان أغلب تلك الأجيال على التوحيد، وقد خرج المجتمع قبل نوح من مرحلة الوحدة الفطرية إلى حالة الضلال وفساد العلاقات، وتحكم الأقوياء.

ثم قال عن نوح: إن الشعور بالغربة عن القيم السائدة كان يعتمل في نفسه.

وجد نوح قومه عاكفين على أصنام لهم... ثم ذكر قصة نشأة هذه الأوثان، وروى الرواية إلى الإمام الباقر، أن (ودا) كان رجلاً صالحاً، ثم صوره الناس... إلى آخر القصة المعروفة. وكيف استدرج الشيطان الناس حتى عبدوا الأصنام التي هي تماثيل لصالحين جعلت لتذكر الناس بهم وبصلاحهم. (وهذا كله عندنا في الأحاديث الصحيحة).

ثم أشار إلى دور التفكير المادي الحسي في تجسيد المعبود، لأولئك الذين "يصعب عليهم الإدراك المجرد عن المادة، ويشق عليهم وعي التجريد الذهني في العقائد والأفكار".

ثم قال: أن إدراك وجود الخالق وراء عالم الحس يحتاج إلى لون من الإرادة الحرة الواعية، والفكر الموضوعي المتزن، والفطرة النقية...

ثم أشار الكتاب إلى أثر العقيدة الفاسدة على الواقع الاجتماعي وكيف أنشأت فساداً في العلاقات في المجتمع. فنتيجة التفكير المادي فقد الناس الإحساس الخلقي بالحياة، وغفلوا عن الحساب يوم القيامة... ثم نبع من شيوع المادية سيادة الفردية وتركز الأنانية.

وافترق المجتمع إلى فئتين: الأغنياء الأقوياء، والفقراء الضعفاء.

ويواصل الكتاب الحديث عن المجتمع وتأثره بفساد العقيدة، فيذكر سقوط القيم، وخفوت صوت الرقيب الداخلي، وانعدام الضابط القانوني، وغدا المجتمع مستنقعاً ملائماً لنمو الانحراف الأخلاقي بشكل متوحش فالخمر والفواحش وفوضى العلاقات...

ومما يزيد في شقاوة المجتمع أن نفسية الإنسان تخدرت فرضيت بالوحل الذي تتمرغ فيه، ولم تكن تشعر بأدنى توتر...

في قلب هذا المجتمع كان يعيش نوح، ثم ذكر وصفه وأحالنا إلى المجهول الذي اسمه (الروايات) فيصف أنه كان دقيق الوجه طويل اللحية، واسع العينين، وهذا كله مما لا سبيل إليه، فهو عن مصادر مجهولة، ولا ينبني عليه من الفائدة لا كثير ولا قليل.

وأعاد لنا أنه احتفظ بنقاء فطرته، وأنه كان يبيت الليالي يفكر في هذا العالم، وأن له رباً، فيهتدي نوح إلى إيمان عميق يغذيه العقل وتباركه البصيرة، لقد لمست قلب نوح شرارة الإيمان، كما يقول الكتاب، فاشتعلت جذوة الإيمان فيه إلى الأبد، وأيقظته على ملكوت الله...الخ.

وأقول: إنا لسنا بحاجة إلى الإنشاء المنعتق من جو النص، ولكنا نحتاج إلى استلهام النص القرآني واستكناه فوائده، لا الإنشاء المنفلت المهوم في تخوم بلا رسوم ولا حدود ولا معالم... قد يخطئ كاتبها وقد يصيب. إن لنا مرجعية هي القصة في القرآن فلماذا ينطق الكاتب من عنديات نفسه ويدع نص القرآن الكريم ؟!.

ثم ينقل عن الباقر (ولم يذكر آية حتى الآن من قصة نوح) قوله: إن نوحاً كان إذا أصبح وإذا أمسى قال: اللهم إني أشهدك أن ما بي من نعمة فمنك وحدك... الخ.

وينظر نوح إلى المجتمع فيحس بالمرارة تملأ نفسه، فالناس في غفلة، ويمتزج في نفسه الشعور بالغضب والشعور بالشفقة...

ويشتد في نفسه الشعور بالغربة عن مجتمعه، ويهم أن يبدأ مع قومه حركة صراع فكري عقدي لإيقاظ النفوس. ولم يذكر الكاتب حتى الآن النبوة، ولا الرسالة، لا أدري لماذا؟

ويواصل: ولكنه يجد في قومه إصراراً شرساً على الضلال، وهو فرد ضعيف يخشى أن يقتله قومه... (ليس في القصة القرآنية مثل هذا، ولا أدري لماذا الإصرار على الانفلات...) وعندئذ سيضيع نوح، يقول الكاتب. أي إن قتله قومه سيضيع كحجر صغير قذف في أعماق البحر...

فآثر أن يعتزل قومه (كل هذا القول من الكاتب خبط بلا معالم ولا دليل) ويمر الزمان، وتزيده الأيام وعياً (لقد حولها الكاتب إلى دراما وقصة عادية) ولطالما، كان يتأمل ويأسى بمرارة بالغة... وكانت تلك فترة التحضير...

وتحت عنوان: انفجر البركان. قال: إذا كانت غريزة التدين (لو قال فطرة...) قد غشيها ضباب، فان الله سيرسل من يضيء الطريق (الكاتب قال: الضوء الأحمر)، وكان نوح ممن اصطفاهم الله. ثم أحالنا إلى الروايات من جديد فقال: وتحدثنا إحدى الروايات عن اللقاء الأول الذي تلقى فيه نوح وحي الله، ويذكر حواراً مع جبريل استغرق صفحة، ولا نسجله لأنه لا يستحق التسجيل لعدم قيمته العلمية، ولأن فيه ما لا يليق بجبريل ولا النبي نوح عليهما السلام، كأن يقول: قال نوح: من أنت؟ فصاح جبريل صيحة واحدة فأجابته الملائكة بالتلبية فبقي نوح مرعوباً... من أين هذا الحوار؟ وأين النصوص من الآيات؟!

إن هذه اللحظة ستغير حياة نوح. لقد ذهب عهد العزلة.

وتحت عنوان: خط النبوة، قال الكتاب: منذ نوح سيبدأ في تاريخ البشرية خط رسالي متواصل، وسيبعث الله بعد نوح رجالاً آخرين يختارهم لحمل رسالته فيشكل هؤلاء الأنبياء بمجموعهم خطاً واحداً متكاملاً. ولكن أهم الأنبياء خمسة.

وينقل عن الصادق: سادة النبيين خمسة، ثم ينقل نصاً عن علي رضي الله عنه، واضح من لغته أنه نص ليس من القرون الأولى...

وتحت عنوان: البركان الذي لا يهدأ. قال: انطلق الرسول يحمل الأمانة والرسالة يريد أن يبدأ الصراع الضخم ليصحح مسيرة الإنسانية، ونفسه ممتلئة بوعد الله ومن المنتظر أن يبدأ النبي دعوته في الأوساط الأقل عتواً، بين الفقراء... والتغيير الاجتماعي يحتاج من القوة والإصرار، ما يناسب حجم الضلال.

لقد بدأ النبي رحلة إيقاظ الفطرة، وهو يحمل في أعماقه هماً لا يتبدل: تغيير ما بالنفوس من الأفكار والمعتقدات والعواطف. وتمر الأيام ونوح يحمل مشعل التوحيد.

أوضح نوح طبيعة وظيفته وحدود مهمته، ثم ذكر أول نص لآية من قصة نوح في الصفحة الثلاثين من الكتاب: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه أني لكم نذير مبين﴾. ﴿إني لكم رسول أمين﴾.

ومضمون رسالته: ﴿اعبدوا الله ما لكم من اله غيره﴾، ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾، ﴿إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون﴾.

ثم ذكرهم بأن الله سيعيدهم: ﴿ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾.

ورغبهم بمغفرة الله: ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾.

(لقد جاءت النصوص القرآنية بعد انحباس عند الكاتب). وبشر نوح قومه بنظام اجتماعي كامل ينبثق من هذا الفهم. ونقل عن الصادق ما يلخص رسالة نوح وأنه لم يكن فيها الحدود ولا المواريث... الخ.

ونقول ما قلناه من قبل: لا ندري من أين جاء بهذه النقول عن الصادق، ثم ما الفائدة من مثل هذا النص؟ وأين هو في القصة القرآنية ؟!

وتحت عنوان: المعارضة الجاهلة. قال: كان نوح يعرض دعوته بأسلوب لين سمح نبيل، فتصدت له الفئة المتسلطة فأنكر الملأ نبوته، وأنكروا الطبيعة البشرية للرسول: ﴿ما نراك إلاّ بشراً مثلنا﴾. ثم أنكروا عليه أن أتباعه أراذل المجتمع أي الفقراء، وأنكروا أن يكون لهؤلاء فضل عليهم،

واتهموه بالكذب... وبسماحة النبي وبثقته بربه يتلقى نوح موقف قومه المعاند المستكبر. ويذكر بعض الآيات من سورة هود. ثم ناقش دعاوى الكافرين.

وعند ذاك استعجل قومه العذاب حتى لا يوقظ صوته الفطرة المستقرة في أعماق النفوس: ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ ويرد: ﴿إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾.

ثم يهددونه بالرجم، ويشهد نوح مرحلة صعبة. ويتعرض هو وأتباعه للسخرية والاستهزاء، وعانى من بطش قومه... ونقل عن ابن عباس أن امرأته كانت تقول للناس أنه مجنون (ولا دليل بالطبع).

وتحت عنوان: المرحلة الحرجة: قال الكاتب أو الكتاب: شاء الله أن يمد في عمر نوح ليعاصر عدة أجيال يبلغهم رسالة الله. ولقد استخدم النبي عدة أساليب للعمل حسب الواقع والظروف، واشتد الأذى، وتعذيب النبي (لا دليل كذلك...) يقول: يضربونه حتى تسيل مسامعه دما. ويحتاط فيقول: كما تقول الرواية. (وهل مشكلتنا إلاّ ما تقول الروايات؟) فدعا على قومه. ويشكوهم إلى الله، وأن الصراع غير المتعادل إذا استمر سيعرض خط الهدى إلى الخطر.

ويتلقى نوح وحي السماء، ويفهم من هذا الوحي أنه إرهاصات لفعل إلهي كبير. فيؤمر نوح بالكف عن الدعوة والانقطاع عن التبليغ (النص لم يقل هذا وإنما قال: ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن...﴾) ثم يأتي الأمر بصناعة الفلك، ويمارس نوح مهنته (!!).

ثم نقل عن الروايات كيف تم صنع السفينة... ولا حاجة بنا إلى نقل هاته الروايات ولا كيف طلاها باطناً أو ظاهراً...

حتى إذا كان اليوم الموعود، وفار التنور، وعند اللحظة الكونية الحاسمة ماجت السماء بالغيوم الثقيلة، وامتلأ الفرات (هو مصرّ على المكان) غشي الطوفان الأرض فهلك من كان خارج السفينة، إن انتقام الله لا يرده أحد، ولا ينجي منه إلاّ الإيمان الصادق، ثم يشير إلى غرق زوجته وابنه، وعلق: إن الدين يعلم الإنسان أن أهله هم الذين ساروا على خط الدين، وحملوا مشعل الهداية، إن الأخوة في الله هي العلاقة السامية...

وتحت عنوان: العاقبة للمتقين، قال: رست السفينة على جبل الجودي. وغيض الماء، وكان الطوفان تحقيقا لوعد الله بنصرة الهدى. إن الإمداد الإلهي للدعاة أمر تكفل الله به، والعقاب للكافرين ينطوي على الرحمة بالمؤمنين.

والطوفان لا يعني القضاء على الصراع بين الحق والباطل... بين الهدى والضلال... بين دين الله والجاهلية... إنه يعني نهاية تجربة واحدة.

ويتنزل الإنسان إلى الأرض ليمارس وعيه في إطار الصراع بين الهدى والضلال، إن تأييد الله لخط الهدى سيستمر... كما يستمر اندحار خط الضلال...

إنه القانون الذي يحكم حركة التاريخ... قانون الصراع بين الهدى والضلال، بين الخير والشر، ويختم بالآية: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.

وبعد نقول: هذا كتيب أو رسالة لا يخلو من لفتات اجتماعية نفسية سننية، ولا يخلو من إشارات إلى التاريخ وأهميته واستخراج قوانينه. وهو مكتوب بلغة جيدة، وكاتب يبدو متمرساً، لكنه يؤخذ عليه ملاحظ ومآخذ:

١- انطلاقه في عرض القصة القرآنية منسرحاً من جو النص القرآني مستمداً من خياله وتهيؤاته، معطياً نفسه الحرية أن يكتب عن نبي كريم بلا مستند ولا دليل.

٢- اعتماده الروايات المجهولة التي تصب في نهاية المطاف في مستنقع الإسرائيليات أو تنبع منها.

٣- اعتماده روايات أهل البيت دون سواهم، ولا يذكر المراجع التي يستمد منها.

٤- هو يكتب ليسقط على القصة القرآنية أو على سرده لها ما يشاء من مفاهيم حركية تعبوية تنطلق من قيم إسلامية عامة، نعم لكنها تكتسي خصوصية شيعية واضحة لا تخفى...

المصادر والمراجع

١. إبراهيم العسعس: السلف والسلفيون: رؤية من الداخل، دون ذكر دار النشر، ١٩٩٤م.

٢. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، القاهرة: دار إحياء الكتاب، ١٩٦٣م.

٣. د. التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، تونس: الدار التونسية للتوزيع، ١٩٧٤م.

٤. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي القرشي: زاد المسير في علم التفسير، ط٣، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٤م.

٥. الجوهري، أبو النصر إسماعيل بن حماد: الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، ١٩٥٦م.

٦. د. حسن محمد باجودة: الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام، ط٣، جدة: مطبوعات تهامة، ١٩٨٣م.

٧. د. خالد صناديقي: قصص القرآن و القصص في الديانات الأخرى (دراسة مقارنة)، ط١، دمشق: دار طلاس، ١٩٩٦م.

٨. الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد: غريب الحديث، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٩٨٢م.

٩. الدهلوي، ولي الله: تأويل الأحاديث، تحقيق: غلام مصطفى القاسمي، الباكستان، حيدر أباد: أكاديمية الشاه ولي الله الدهلوي، ١٩٦٦م.

١٠. الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، ط٤، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٣٨م.

١١. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد: المفردات، تحقيق: صفوان داودي، دمشق: دار القلم، ١٩٩٢م.

١٢. الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر: أساس البلاغة، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٢م.

١٣. د. صلاح الخالدي: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، ط١، عمان: دار العقل، ١٩٩٩م.

١٤. د. طلال المجذوب: منهج البحث وإعداده: دراسة منهجية وتطبيقية، بيروت: مؤسسة عز الدين، ١٩٩٣م.
١٥. طلعت همام: سين وجيم عن مناهج البحث العلمي، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م.
١٦. د. عاصم الأعرجي: الوجيز في مناهج البحث العلمي: منظور إداري معاصر، عمان: دار الفكر، ١٩٩٥م.
١٧. عبد الله كمال: التحليل النفسي للأنبياء، ط١، القاهرة: دار الخيال، ١٩٩٦م.
١٨. عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، ط٣، الكويت: وكالة المطبوعات.
١٩. عبد الرحمن الرفاعي: سليمان بين حقائق التلفزة وعلم التقنية، ط١، القاهرة: مكتبة مدبولي الصغير، ١٩٩٧م.
٢٠. د. عبد العليم عبد الرحمن خضر: مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: قصة ذي القرنين، ط١، جدة: دار الشروق، ١٩٨١م.
٢١. د. عبد المرضي زكريا: الحوار ورسم الشخصية في القصص القرآني، ط١، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ١٩٩٧م.
٢٢. أبو عبيد، القاسم بن سلام: غريب الحديث، تحقيق: حسنين محمد محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٨٤م.
٢٣. عثمان علي حسن: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة، ط٣، الرياض: مكتبة الرشد، ١٩٩٥م.
٢٤. د. غازي عناية: مناهج البحث، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٠م.
٢٥. د. غازي عناية: مناهج البحث العلمي في الإسلام، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٠م.
٢٦. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٦م.
٢٧. الفخر الرازي، محمد بن عمر الرازي: النبوات وما يتعلق بها، تحقيق: د. أحمد السقا، ط١، القاهرة: دار الكليات الأزهرية، وبيروت: دار ابن زيدون، ١٩٨٦م.
٢٨. د. فضل حسن عباس: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ط١، عمان: دار الفرقان، ١٩٨٧م.
٢٩. د. فضل حسن عباس: قصص القرآن الكريم صدق حدث وسمو هدف إرهاف حس وتهذيب نفس، ط١، عمان: دار الفرقان، ٢٠٠٠م.

٣٠. فهد الرومي: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، ط٤، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م.
٣١. الكساني، محمد بن عبد الله: قصص الأنبياء/ المجلد الثاني، تصحيح: إسحق بن شاؤول أيزنبرغ، هولندا-ليدن، ١٩٢٢م.
٣٢. مجمع اللغة العربية -القاهرة-: المعجم الفلسفي، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريـة، ١٩٨٣م.
٣٣. محمد إبراهيم الشريف: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، ١٩٨٢م.
٣٤. محمد احمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ط٣، القاهرة: مكتبة الأنجلو المـصرية، ١٩٦٥م.
٣٥. محمد خير رمضان يوسف: الخضر بين الواقع والتهويل، دمشق: دار المصحف، ١٩٨٤م.
٣٦. محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم، ط٢، بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٣م.
٣٧. محمد محمود قاسم: المدخل إلى مناهج البحث العلمي، ط١، بـيروت: دار النهـضة العربيـة، ١٩٩٩م.
٣٨. محمود شلبي: حياة سليمان، ط١، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٦م.
٣٩. محمود شلبي: حياة موسى، ط٢، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م.
٤٠. محمود شلتوت: تفسير القرآن الكريم/ الأجزاء العشرة الأولى، ط٩، القـاهرة: دار الـشروق، ١٩٨٢م.
٤١. محمود بن عبد الرؤوف القاسم: من جغرافية القصص القرآني: مصر ليست مصر وغيرها، ط١، الأردن-عمان: المكتبة الإسلامية، ١٩٩٤م.
٤٢. د. محمود سالم عبيدات: تاريخ الحديث ومناهج المحدثين، ط١، عمان: دار المناهج، ١٩٩٧م.
٤٣. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م.
٤٤. ياسين الجمل، قصص الأنبياء، المركز العربي، بلا تاريخ ولا رقم طبعة.
٤٥. وجاء الطوفان، الكويت: منشورات دار التوحيد، مطابع دار القبس.

فهرس

مناهج البحث والتأليف
في القصص القرآني
دراسة تحليلية نقدية

الجزء الثاني

الدكتور أحمد إسماعيل نوفل
الجامعة الأردنية

مقدمة

قصص القرآن أحسن القصص، وقصص القرآن زهر تفتح عن أكمامه فجذب النحل، طوائف من الكتّاب، فكتبت عن هذا القصص مئات الكتب... لكن أكثرها من أسف لم تلتزم منهج القرآن في عرض القصص، وإنما تأثرت -قليلاً أو كثيراً- بغير منهج الكتاب الكريم، ومنهج غير القرآن الحكيم، أعني تأثرت بالإسرائيليات، التي هي من تحريف البشر وما عملته أيديهم. وطم السيل، حتى صار أغلب الكتب مؤلفاً وفق منهج الإسرائيليات، وصارت الكتب في القصة القرآنية "كإبل مئة لا تجد بينها راحلة...".

فأحببت أن أستعرض هذه المكتبة، وأبين ما فيها من كتب، وما أُلفت وفقه من مناهج، ومقدار قربها أو بعدها عن روح المنهج القرآني في عرض القصة. وذلك كله من وجهة نظري، بطبيعة الحال. ولا أدعي أنني المرجع ولا المعيار، ولا عندي الحقيقة النهائية، معاذ الله، وإنما عندي وجهة نظر أُعبّر عنها بلا تحامل، وبموضوعية أجتهد أن تكون صارمة لا تحابي ولا تنتقص...

وفي مقدمة الجزء الأول بينت أن المناهج تتوزع بشكل رئيس على ثلاثة: السردي، والتحليلي، والنهج السرد-تحليلي (أي البين بين الآخذ من المنهجين، والجامع بين الطريقتين). وهناك بينت أن السرد ترعرع والإسرائيليات إذ كانا وليدين نشآ معاً وكبرا معاً، وفي رأيي أنه لا يليق بالقصة القرآنية إلاّ المنهج الذي يتعامل معها وفق مقاصدها من العبرة والتفكر وترقية فهم سنن الاجتماع، وهذا لا يتأتى إلاّ من المنهج التحليلي.

ومشكلة المنهج السردي-الإسرائيلي، أنه صادف ميداناً خالياً فتمكن من العقول والنفوس والكتب، وأخذ حصة الأسد بين مناهج التأليف والكتب المؤلفة في القصة القرآنية.

ولا أمل في الشفاء من هذا الداء العضال -الإسرائيليات-، ونحن نستروح روائحه ونستنشق "عبيره" ونرتاح لتهويلاته ومبالغاته وحكاياته... إنما يبرأ من الداء، بإذن الله، من استشعر خطورة العلة وتعطيلها لهذا الكيان أن يقوم بوظائفه ورسالته وغاياته...

إن المنهج السردي قد عطل العقل وأضعف الروح، وأوهن الفهم، وهلهل الفكر، فآن أن تنبري للقصة عقول فذة، ذات ثقافة عالية، ومعرفة واعية بقضايا العصر وحاجات الأمة، وعندها فن الربط، ولا أقول إسقاط القصة على الواقع...

وكنت في كثير من الأحيان أضع رأيي وقولي في ثنايا المؤلف الأصلي، الـــذي أعـــرض كتابه، وأضع قولي بين قوسين تمييزاً له، وحتى لا يختلط برأي الكاتب فيُظن منه.

وقد حرصت في عرض الكتاب أن أعطي عنه فكرة ضافية وافية صافية كأنما من يقرأ هذا الإيجاز قد قرأه في الأساس، وكأنْ قد قرأ الكتاب، لأني أعلم أن كثيراً من الكتب التي عرضت لها ليست في المتناول في هذه الأيام، فالكتاب الذي يُفقد لا يعود... من أسف.

ومجموعة كتب هذا الجزء كلها من الكتب الحديثة، ليس بينها قديم، لكن الحداثة ليست شهادة تزكية ولا هي كذلك شهادة انتقاص. فمن الكتب المعروضة محلق فيه إبداع، ومنها المخفق المليء بالإسرائيليات والابتداع.

والله نسأل أن يجعل في هذا الجهد خدمة للكتاب المجيد والقصص القرآني العظيم.

الكتاب السادس عشر

سيكولوجية القصة في القرآن الكريم

تأليف: الدكتور التهامي نقرة

رسالة دكتوراه مقدمة لجامعة الجزائر سنة ١٩٧١م.

طباعة ونشر: الشركة التونسية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤م.

سيكولوجية القصة في القرآن الكريم / التهامي نقرة:

ويقع الكتاب / الرسالة في بابين الأول منهما في ستة فصول وثلاثمئة وخمس صفحات. والباب الثاني في خمسة فصول وتسعين ومئتي صفحة. فهما متوازنان.

الباب الأول سماه: قسم البحث النظري، والثاني: قسم البحث التحليلي. فهما متكاملان.

أما المقدمة فجاءت في ست وعشرين صفحة. هذا وصف لشكليات الكتاب.

أما الإشكاليات التي يطرحها الكتاب فنبدأ بمقدمته وما تضمنته من قضايا... بدأ الكاتب بمقدمته بقوله: "بدأت حياة الإنسان على الأرض بقصة...". وواضح أنه يعني قصة آدم، وكيف عرضت تجربته الأولى متمثلة في شعوره بنفسه، وفي يقظة القوى الكامنة في طبيعته المزدوجة من الخير والشر.

إنها قصة هذا الكائن الذي كرمه الله تعالى، وأودع فيه القدرة على المعرفة، واستخلفه... ثم ذكر قصة ابني آدم وكيف تجلى فيها الصراع... وكيف رسمت هذه القصة معالم شخصيتين متباينتين بالحوار الذي أظهر النفسيتين والنموذجين من البشر، أحدهما يمثل نزعة الشر والآخر يمثل نزعة الخير. ثم اتسع نطاق الصراع... إلى الكون الرحيب...

والإنسان قديم الفطرة، وكانت طفولته الإنسانية قصة مثيرة مليئة بالمخاوف. ومن هنا نشأت الأساطير التي كانت في معظمها تنبع من شعور ديني. (!)

وإذا رجعنا إلى تاريخ الفن أدركنا رجوعه إلى الشعور الديني. وينقل عن (تولستوي) قوله: "إن تقييم المشاعر الإنسانية يقوم على الأديان وحدها. وهذا التصور الديني هو الذي يقرر المشاعر التي يعبر عنها".

والأديان السماوية هي التي رفعت منزلة الإنسان في الكون، وعلمته كيف يسمو فوق ذاته. وذكر نقولاً عن (برناردشو) وعن الإنجيل والتوراة.

ثم دخل في تاريخ الأديان، ثم قال: "إن ما يكشفه العقل المحض ليس له من القدرة والتأثير مثل ما للدين". ثم نقل عن (إقبال) قوله في هذا الخصوص: "إن التفكير المجرد لم يؤثر في الإنسان إلاّ قليلاً، في حين أن الدين غير مجرى الحياة...".

فكيف إذا عرض الدين على العقل والقلب معاً في سياق قصصي؟

ثم أشار إلى أهمية الأسلوب القصصي، أن القرآن روى لنا أخبار الأمم السالفة فقدمها إلى القلب والشعور، بطرق تثير عواطف الخير، وتصرف عن نوازع الشر، وتحمل في طياتها بذور الإيمان.

ثم عاد إلى القصة عموماً من جديد، فقال إنها كانت وما زالت رفيقة الإنسان، تعبر عن آماله وآلامه، وتكشف نظرته إلى الحياة: أنها استطاعت أن تحلل النفس بما لها من أبعاد متشعبة.

وإنما يكون تأثير القصة بحسب ما يملك القاص من قدرة على إخراج القارئ من حدود نفسه إلى جوها، وعلى إدماجه في حوادثها ليعيش مع الأشخاص حياتهم وتجاربهم.

ويشير إلى انتشار القصة في عصرنا بشكل فاقت فيه أنواع الأدب الأخرى. لأن فهمها لا يحتاج إلى جهد كالشعر، ولا إرهاق كالبحث، بل إن الفكر والوجدان يتلقفان ما حملته من آراء وعواطف واتجاهات في نشوة الجمال الفني الذي تعرض فيه.

لذلك استخدمت لبث العقائد الدينية، والمذاهب الاجتماعية، والنظريات الفلسفية. فكان تأثيرها في كل ذلك عميقاً: لأنها تغترف من معين الحياة، وترتاد مجالات الفكر والعاطفة والواقع والخيال والتاريخ والدين... ولذلك ألح علماء التربية على ضرورة استخدامها...

وفي العصر الحديث تغلغلت القصة في أعماق الدين... ثم أشار إلى الفرق في الغايات والأهداف بين القصص الفلسفي والقصص القرآني.

ويمثل بعدد من القصص ذات الهدف مثل (حي بن يقظان)، و(السد) لمحمود المسعودى، و(شهرزاد) للحكيم، و(الأخوة كارامازوف) لـ "دستوفسكي" و(حذاء الشيطان) له. وهما تمثلان مأساة الشر والخير في ضوء التعاليم المسيحية.

ثم أشار إلى القصص الوجودي الذي يثير الشك والإلحاد ومثّل بـ: "كافكا" وقصصه مثل: "يأس الإنسان تجاه لا معقولية الوجود". و(الجدار) "لسارتر"، و(سوء تفاهم) "لكامو"، والقاص هنا سلبي لأنه لا يفترض حلاً، بل يعرض الشك ويكتفي بالتشاؤم.

فقصة (الغريب) للإنجليزي "كولن ولسن" التي طبعت سنة ١٩٦٥م سبع مرات، وتتمثل الغربة في إحساس الغريب بأن العالم غير حقيقي.

والكاتب الفرنسي "جيد" يرى أن لاشيء في الكون غير الإنسان، ولا قيمة في الكون لغير الإنسان. والايرلندي "بيكيت" يعبر في قصصه عن روح يائسة، فالعالم ينتظر خلاصه على يد المسيح، وهو يرى أنهم ينتظرون الفراغ وشعاره: "لاشيء أكثر حقيقة من اللاشيء".

ثم يقول الكاتب أنه قصد أن يسهب في عرض نماذج لهذا اللون من القصص الذي طغى في عصرنا: حتى كاد يقضي على القيم الروحية والأخلاقية... إذ أنه لما تزعزع الدين، فقدت الأخلاق أساسها المتين.

بينما القصص القرآني جعل لحياة الإنسان معنى لا يزول، وجعله متصلاً بحياة الكون في أوسع مدى.

ثم ينقل عن "عزت صالح" وكتابه (أصول علم النفس): "بصلاح العقيدة تصلح الأخلاق، ويستقيم النظر للحياة، إذ أن العقيدة الدينية قوة عظيمة تحرك السلوك وتوجهه ويستمد منها الإنسان في شتى ظروف الحياة ما تتخاذل دونه النزوات والأهواء، وما يكون له عوناً على البت في ما يعرض له من قضايا يغشاها الصراع النفسي بين الدوافع المختلفة".

وينقل عن "يونج" قوله: "إن كل وسائل التقدم العلمي لم تجعل من الإنسان شيئاً أكبر من حقيقته، وإنما على العكس صغرت من هذه الحقيقة، بل كادت تسحقها".

ويعلل الصدام بين الدين والعلم إلى معتقدات الكنيسة المليئة بالرموز الميثولوجية التي لابد أن تصبح يوماً ما في حالة صراع مع المعرفة.

ثم يقول الكاتب بعد أن ينقل بعض النقول عن "أداموف" تفيد تمزقه وشكه، يقول: "إن التحرر من سلطان الدين هو عبودية النفس للنزوات والأهواء، وانحرافها عن مصدر النور والهداية".

ثم يقول: "ومن هنا كان من أهم أهداف القصص القرآني إثبات عقيدة البعث".

وينقل عن بنت الشاطئ وكتابها "مقال في الإنسان"، قولها: "إن ربط الإلحاد بالرقي لا يقل سذاجة عن ربط الدين بالتخلف".

ثم يقول في ختام مقدمته: "وهكذا كان القصص القرآني وسيلة لتقرير جوهر العقيدة وتوجيه النفس إلى الله، حتى تظهر آثار التوحيد في المشاعر والتصورات، ظهورها في السلوك والتصرفات. كما كان أداة لتربية النفوس، وغرز الشعور بالسلطان الإلهي...".

وفي مقدمة ثانية سماها الكاتب: "موضوع البحث ومنهجه". واستغرقت خمس صفحات. قال: "إن دراسة القصة القرآنية وتحليلها، من حيث عوامل التأثير فيها، ومن حيث منهجها القصصي، وتحليل عناصرها من حوار وأحداث وأشخاص، يمكّن من الوقوف على ما فيها من إبداع فني يكشف عن أسرار إعجازها البياني وإقناع عقلي يلزم بالحجة، ويهدي إلى الحق، وتأثير وجداني يغذي المشاعر ويسمو بالنفس... وذلك هو موضوع البحث.

ولعل الجديد فيه -يقول- يتمثل في محاولة استخدام بعض القواعد والأصول المقررة عند علماء النفس والتربية والاجتماع، وفي استعمال المنهج التحليلي، إلى جانب البحث النظري كوسيلة لدراسة

القصة القرآنية بأكثر شمول وعمق، وربط الجانب الفني فيها بالجانب النفسي لأنهما يلتقيان في الهدف، وهو التأثير الديني".

ثم يشير إلى استخدام كلمة سيكولوجية في العنوان.

ثم يذكر تاريخ هذه المفردة وأنها في الأصل يونانية ومعناها علم النفس (سيكو: نفس) و(لوغوس: علم)، ثم أشار إلى انتشار هذا الاصطلاح في المشرق العربي في شتى الدراسات النفسية. حتى صارت كلمة سيكولوجية من أشهر المصطلحات العلمية التي ذاعت في الاستعمال العربي الحديث مثل: "سيكولوجية المجتمع، سيكولوجية التعليم، سيكولوجية الأطفال... الخ".

وقد انفصل علم النفس عن الفلسفة منذ القرن التاسع عشر، فأصبح علماً مستقلاً بذاته لما دخل المجال التجريبي والتحليلي...

يقول الكاتب: "وكان من دواعي الاختيار لهذا العنوان (سيكولوجية القصة في القرآن) اعتبار ما للمنهج التحليلي من أهمية في كل ما يتصل بالمؤثرات النفسية في هذا القصص".

يقول: "وإني إذ توخيت هذا الجانب النفسي لمعرفة عوامل التأثير في أسلوب القصص القرآني، وتوجيهاته وحججه، لمدرك دقة الموضوع وتشعبه".

قال "لوبون": "للأسلحة النفسية قدرة أعظم من المدافع. غير أن استعمال مفتاح العوامل النفسية صعب لا يتسنى إلاّ بكثير من المهارة والحذق". (فلسفة التاريخ، ص٢٦٢).

والقصة القرآنية سلاح نفسي في الدعوة إلى التوحيد، وإقناع المخالفين... فهي إذ تعرض صورا من الحياة، ولقطات منتخبة من التاريخ تسمعنا أصداء النفوس حين ترتفع في معارج الخير أو تهوي في مهاوي الشر...

ومنهج القرآن في قصصه يختلف عن قصص الكتاب المقدس.

وإذا علمنا أن أكثر القصص القرآني نزل في العهد المكي، وكان موجهاً لبناء العقيدة، أدركنا أن الجانب النفسي فيه من أهم الجوانب الجديرة بالنفس.

ثم أشار إلى تأثير القصة... أنه لابد من كشف مواطن التأثير.

والمسلمون اليوم إن تعذر عليهم إدراك أسرار الإعجاز البياني في قصص القرآن بالذوق الفطري، فليدركوه بطريقة التحليل النفسي... وهنا لابد من فهم أسلوب القرآن في إيجازه ومجازه، وكناياته وإشاراته؛ وينبغي لمن رام تحليل القصة أن يتخلص من التأثر بتحكمات أهل الرأي والإسرائيليات... الخ. وألاّ يغرق في التفصيلات...

والمقدمة الثالثة عنوانها: "البحوث السابقة وطرقها". وتقع في ست عشرة صفحة. تكلم فيها عن من بحثوا في القصص القرآني. يقول: لقد تناول قصص القرآن بالشرح والتحليل والدرس كثير من المفسرين والمؤرخين والباحثين قديماً وحديثاً، سواء في كتب التفسير ومقدماته، أو في كتب التاريخ، أو من الكتب مفردة، أو فصول خاصة. ومنهم من أفرد كتاباً لقصة واحدة من هذا القصص، أو موضوعاً واحداً فيه، لكنهم كانوا مختلفين في طرقهم اختلافاً يمكن تصنيفه وتقسيمه إلى أربع طرق:

١- طريقة التبسيط والتفصيل: وذلك باستقصاء ظروف القصة وجزنياتها وكل ما يتصل بها... وذكر من أمثلة هؤلاء: تفسير الطبري وتاريخه، وكتاب الثعلبي في التفسير والخازن والشربيني... الخ.
ومن الكتب المفردة (المتخصصة في القصص): عرائس المجالس للثعالبي وقصص الأنبياء للكسائي... الخ.

٢- طريقة التحليل في حدود النص القرآني: وذكر من الكتب القديمة والحديثة: تفسير ابن كثير والرازي والكشاف والبيضاوي والمنار والظلال وابن عاشور.
ومن كتب التاريخ: ابن كثير. وكذلك قصص الأنبياء لابن كثير وقصص القرآن لجاد المولى. (نختلف مع الكاتب في المرجعين الأخيرين فاعتمادهما على الإسرائيليات كبير).
ومن الكتب الحديثة أيضاً: قصص الأنبياء للنجار، ويوسف لإبراهيم أبو الخشب، وموسى لأحمد الجبالي، ودعوة الرسل للعدوي.

٣- طريقة التبسيط والتيسير: وذلك بعرض القصة القرآنية في أسلوب بسيط ولغة سهلة. ومن كتب هذا القسم: القصص القرآني لسيد قطب والسحار.

٤- طريقة الدراسة للقصص القرآني: وذلك بتحليل منهجه، وإبراز خصائصه، ورد الشبهات عنه، كمصدر القصص القرآني وهي القضية التي أثارها المستشرقون. وهذه الطريقة كما يقول المؤلف: "أشد الطرق اتصالاً بموضوع البحث (أي كتابه هو). وهناك كتب مفردة وفصول خاصة من كتب. درست موضوع القصص القرآني -ومثّل الكاتب لكل من هذين: فالفن القصصي لخلف الله مثال الكتب المفردة، وذكر انه أثير عليه اعتراضات- ومن الكتب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه لعبد الكريم الخطيب. ومن الفصول: القصة في القرآن من كتاب التصوير الفني لسيد قطب... الخ".

وبعد هذه التي عددها المقدمة الثالثة دخل الكاتب في الباب الأول الذي سماه: قسم البحث النظري؛ والفصل الأول منه: مصدر القصة القرآنية وابتدأ من الصفحة (٤٩) وانتهى بالصفحة (٨٤) أي أن الفصل الأول (٣٥) صفحة.

قال في مقدمة هذا الفصل: "ليس البحث عن مصدر القصة القرآنية سوى البحث عن مصدر القرآن باعتبار أن قصصه جزء لا يتجزأ منه". ويقول: "أنه مقتبس من بحث له بعنوان (القرآن والرسول)". وقال: إن البحث في هذا الموضوع قد يبدو غريباً لأنه ما كان يوماً محل جدال بين العلماء المسلمين، ولولا ما أثير من المستشرقين وغيرهم... وزعموا أن هناك تناقضاً في القصص القرآني مع نفسه، وتناقضاً مع حقائق التاريخ لزعمهم بجهل الرسول بالتاريخ. وبعضهم الآخر عزاه إلى اختلاف ظروف الرسول النفسية. وطائفة تقول: إن عمل الفنان لا يفيد الواقع التاريخي بقدر ما يعنيه التصوير الفني...".

وطائفة تزعم أن الأنباء التاريخية إنما سبيلها النقل، وقد تلقاها النبي عمن لا يوثق بأخبارهم من أهل الكتاب الشعبيين إلى غير ذلك من الافتراضات الوهمية...".

وينقل الكاتب عن كتاب (تاريخ الأديان) قوله: "كان أسلوب النبي في القرآن أول عهده بالدعوة مفعماً بالعواطف قصير العبارات، فخم الصورة، وكثيراً ما يكرر الآيات تكراراً مملاً...

فلما تقدم الزمن فقد الأسلوب منهجه الأول، وأخذ يقص في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء، مثلما تراه في قصة حب يوسف وزوجة "بوتيفار".

وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كل حرارة، وكل فن، وأغرم بالجدل مع اليهود..." [1].

ثم يؤكد الكاتب أن قضية المصدر قضية أساسية. ثم تعرض لقضية "الوحي والنبوة" وأن من لا يدرك طبيعة الوحي خرج عن المنهج...

ومن هنا كان خطأ بعض الدارسين والباحثين عند تحليلهم لنفسيات الأنبياء... فويلز (G. Wells) مثلاً يتخيل محمداً ﷺ رجلاً دفعته وساوسه في سن الكهولة إلى تأسيس دين ليعد في زمرة القديسين، فألف مجموعة عقائد خرافية، وآداب سطحية قام بنشرها في قومه فاتبعه رجال منهم..." [2].

---

١ – عن كتاب: عن القرآن لمحمد صبيح، ص١٤٤-ص١٤٧.

٢ – عن كتاب: الإسلام والثقافة العربية، ص٢٣٩.

والمستشرق الألماني (هيوبرت جريمي) يرى في كتابه (محمد) أنه كان يبشر بنوع من الاشتراكية ولا يبشر بدين جديد... ويرى (شبرنجر) النمساوي في كتابه (حياة محمد) أنه كان مصاباً بالهستيريا... و(جولدزيهر) المجري ينسب معارف النبي إلى مصدرين: اتصاله باليهود، والأحلام والرؤى... ثم تأثر هو بهذه الأفكار وصار يراها وحياً واعتقد ذلك...

و(جولدزيهر) يرى بالنهاية أن الوحي ليس إلاّ أعراضاً "باثولوجية" يصاب بها أفذاذ الرجال...[1].

و(غوستاف لوبون) لا يرى الوحي إلاّ نوبة هوس، أو إصابة بالصرع، لكنه يقول أنه لم يجد ما يقطع بهذا... ولذلك يرجح الهوس..." [2].

ثم يرد الكاتب بقوله: أن الوحي الإلهي لا يفهم حقيقته إلاّ من أوتي نصيباً من علم الاجتماع وحكمة الوجود، وسننه وأصول العقائد. وان العلماء المسيحيين ما بين إفراط وتفريط... والبحوث الخاصة بالأديان وبتطور العقائد، زودت علم النفس بالعناصر الأولى التي قام عليها علم النفس الديني، غير أنها لم تكشف إلاّ عن الظواهر الخارجية للدين كما يحياها المجتمع. ثم بين كيف افتتنت أوروبا بالمنهج التجريبي على يد (غاليليو) و(ليوناردو ديفنشي)، ثم سأل: وهل يكفي لصنف من أصناف العلوم أن يصل إلى حد كبير من الدقة والتطور حتى تفرض طريقته في البحث على الميادين الأخرى، وينتصب رائدا ومعياراً؟ إن تطور منهج من المناهج العلمية لا يعطى كمعيار خارج ميدانه [3].

وأمعن من ذلك في الخطأ الاعتقاد بأن المنهج العلمي الذي يعتمد التجربة هو المنهج العلمي الوحيد لكل شيء، إن الباحث الدقيق النظر لا يقف عند المادة ولكن يبحث ما وراء المادة [4].

ولعل البحث في الوحي السماوي يكون أجدى لو صرف إلى محتواه وما له من أثر.

أفيكون هذا القرآن لو نزل في هذا العصر لما اختلفت نظرته للكون، ولا وصاياه للإنسان، وقد حوى من كنوز المعرفة ما لم يحوه سفر، نابعاً من استعداد محمد الشخصي أو مم اقتبسه من بيئته وأسفاره من أهل الكتاب، أو بعض الأعراب؟

---

١ عن العقيدة والشريعة لمحمد يوسف موسى، ص١٢-١٣.

٢ - حضارة العرب، ص١٤١-١٤٥.

٣ - محمد عزيز الحبابي: الشخصانية الإسلامية، ص٦٩.

٤ - أحمد أمين: فيض الخاطر، ج٤، ص١٥٢.

ثم تكلم عن "آراء المستشرقين في القرآن وقصصه"، فقال: إن كثيراً من المستشرقين يكادون يتفقون في الحكم على أن القرآن ليس من عند الله، ويستدلون على ذلك بأن دراسة القصص القرآني في ضوء ما كشفت عنه وثائق العهدين التاريخية، أبانت عن مفارقات تشكك في صحته !!.

ويشير (درمغنهم) في الوحي المحمدي إلى لقائه عليه السلام بالراهب بحيرى... ويقول (جولدزيهر) أن محمداً أفاد من تاريخ العهد القديم. ويناقش الكاتب الكاتبين... ثم يقول: "وقد كان مشركو مكة يزعمون أن القصص إنما تعلمها من نصراني أعجمي...".

وقد سار الحداد في هذا الاتجاه بل هو يذهب أسوأ إذ يرى أن محمداً إنما اتصل بالكتب المنحولة لا بالكتاب المقدس الرسمي. (كأن هناك منحولاً ورسمياً...!!).

ويقول: إن العهد الثاني من الدعوة كان إسرائيلياً... ويقول إن السر الكبير في حياة محمد وثقافته الكتابية هو وجود العالم المسيحي (!) ورقة بن نوفل في جوار النبي. وهو يردد قريبا مما قال (بلاشير) و(جولدزيهر).

ويناقش الكاتب هذه الأقوال ومن ضمن ما يقول: "إن بني إسرائيل يرون الله إلهاً خاصاً ببني إسرائيل، ويشخصونه، فأين هذا مما عندنا وأين قصصنا من قصص التوراة ؟".

ومن أجمل الردود التي أوردها رد أحمد فارس شدياق: "إنه لم تكن للإنجيل عند العرب ترجمة حتى القرن الخامس الهجري، وأول نص مسيحي ترجم إلى العربية كان سنة (٤٥٢) هجري، وأول ترجمة للتوراة كانت على يد عالم يهودي يدعى الفيومي وذلك في القرن الرابع".

وبعد جولات الحداد وشبهاته وتأويلاته يسأل: هل للقرآن من مصادر ؟ ثم يقول المؤلف أي تناقض هذا ؟

وممن ذهبوا إلى أن أهل الكتاب هم مصدر القصص القرآني (لامانس) الذي قال: "حيث التفكير القرآني مسيحي، يكون التعبير يهودياً". وحنا زكريا الذي قال: "الإسلام محاولة يهودية قام بها رهبان مكة لتهويد العرب بواسطة محمد".

وأضاف المستشرق (هوجار) مصدراً جديداً هو شعر أمية بن أبي الصلت. وذكر مستشرقين آخرين ورد عليهم، فلا نطيل...

ومن ضمن ردوده الإشارة إلى الفرق في أسلوب القرآن عن الحديث.

ثم ذكر بعض الشعر المنحول الذي فيه معارضات لبعض نصوص القرآن...

وبعد الردود الطويلة يقول الكاتب: "وهكذا يتبين عند تعليل تلك المفارقات بين ماضي الحياة المحمدية وحاضرها أن القرآن لم يكن إلاّ وليد تعليم جديد، وأن البحث عن مصدر القرآن يصير غير ذي موضوع، وقد تضافرت الأدلة على أن القرآن الكريم سماوي مصدره مصدر الكتب السماوية السابقة...".

الفصل الثاني: المنهج القصصي في القرآن

استغرق هذا الفصل خمساً وعشرين صفحة من ص٨٥-ص١١٠. ومما قال في هذا الفصل: "تعد القصة القرآنية أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربي وذلك بما تهدف إليه من توحيد، وتحث عليه من خلق...".

وفي القرآن إشارات إلى دورها الأخلاقي: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾. وإذا تأملنا في الأسلوب الذي قدمت به، وما له من تأثير نفسي وفني، اتضح وجه تسميتها "بالقصة". لا استناداً إلى مدلولها اللغوي فقط، باعتبار أن أصل الاشتقاق للفظ قصة يلتقي في المعنى مع المدلول الذي انبنى عليه أصل التسمية القرآنية، وهو: الإعلام بالنبأ: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق...﴾ ، أو تتبع الأثر وتقصيه: ﴿وقالت لأخته قصيه...﴾ ، بل واعتماداً على ما في عرضها من طرق فنية... مع أن القرآن أورد أجزاء من القصة بما يفي بالغرض ولم يكن يقصد سردها كلها.

والقرآن لم يسم قصصه أخباراً لأنه لم يقدمها كما تقدم الأخبار المجردة خالية من التصوير.

ولكنه قصّ أخباراً وتخيرها من التاريخ على أساس أنها أوثق صلة بالإنسان، وأوضح دلالة على الفكر، وأعمق مغزى للغرض.

الأسلوب:

فأسلوب القرآن في القصة أن يختار لقطات حية من الوقائع التاريخية، ولا يثقلها بالتفاصيل.

ومثّل من قصة لوط في سورة هود، ثم من قصة أهل الكهف، والعرض الفني في كل، ونقل عن صاحب التصوير أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن.

الإجمال والتفصيل:

ما نزل من القرآن في بداية الدعوة كان يمتاز بعرض الأحداث في منتهى الإيجاز. وحين تطورت الدعوة ودخل الناس في دين الله برز عنصر الحوار، ومضت القصة في أناة ومهل، وكانت أكثر تبسيطا وتفصيلاً، والآيات أكثر طولاً، لأنها تتجه إلى إثارة التفكير [1].

إبراز العناصر:

ومن سمات القصص القرآني أن العناصر المألوفة للقصة من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكاني وزماني وعقدة... لا نجدها مجتمعة في القصة القرآنية، ولا موزعة توزيعا يجعل لكل منها دورا... فقد يكون القصد الإنذار والترهيب فيبرز عنصر الأحداث، وقد يكون القصد تثبيت النبي فيبرز عنصر الأشخاص. وقد يكون القصد إقناع الخصم فيبرز عنصر الحوار [2].

أما المكان والزمان، وان كانا عنصرين مهمين في القصة في العادة، فان القصة القرآنية لا يعنيها من ذكر المكان إلاّ ما جعلت من جملة الأحداث الهامة مسرحا لها كمصر في قصة يوسف.

أما العقدة فان في قصص القرآن من عوامل التشويق ما أغنى عنها.

بين القرآن والكتاب المقدس:

إن ما يتركه القصص القرآني من فجوات هو أخص ما يمتاز به منهجه القصصي، الذي يختلف شكلاً ومضموناً عن الكتاب المقدس.

فقد عنيت التوراة بتدوين التاريخ، وكان أول سفر في تاريخ الخلق منذ بدء الخليقة إلى موت يوسف.

وكذلك جاءت الأناجيل الرسمية تؤذن فواتحها بأن الغرض منها تدوين تاريخ المسيح. أما فاتحة القرآن فقد أشارت إلى أن القصد فيه الهداية...

ومن هنا كانت الأحاديث النبوية المبينة لقصص القرآن نادرة...

وإذا قارنا بين ما ورد في القرآن وما ورد في التوراة من قصص، ظهر الفرق جلياً في الأسلوب والمضمون والمحتوى.

---

١ - نقلاً عن طه حسين: مرآة الإسلام، ص١٥٠–ص١٥١. وقد تبنى الفكرة خلف الله.

٢ - هذه الفكرة موجودة بالنص تقريبا عند خلف الله ولم يشر الكاتب إليه كمرجع.

فقصة هبوط آدم من الجنة مثلا تكتسي في التوراة صبغة تشاؤمية... فقد جعلت هبوط آدم أو الإنسان إلى الأرض كمن نزل إلى الجحيم [١]، في حين أن القرآن جعل الأرض مستقراً ومتاعاً للإنسان ينبغي أن يشكر الله عليه؛ ﴿ولقد مكناكم في الأرض...﴾. لأنه ليس غريبا عنها: ﴿منها خلقناكم...﴾، ﴿والله أنبتكم من الأرض...﴾.

والأرض لم تلعن من أجل خطيئة آدم، كما في التوراة (ومن هنا حاقت اللعنة بالإنسان فكان قضاء مبرما على نوع الإنسان كله بعد آدم).

ولم يجعل القرآن الأرض ساحة عذاب، ولا المرأة سجنت فيها لأنها شريرة العنصر...

وليس من ذكر في القرآن للثعبان... وليس فيه أن خطيئة آدم تنتقل إلى أبنائه بالوراثة، كما أصبح يعتقد المسيحيون أن التعميد عندهم محو للذنوب، بحيث لو مات طفل من غير أن يعمد لكانت الخطيئة الكبرى التي ورثها عن أبيه كافية في منعه من دخول مملكة السماء.

ومبعث الخطيئة في قصة آدم كما تنص التوراة هي طموح الإنسان إلى العلم والخلود اللذين استأثر الله بهما... فهو في نظرهم ملك يكره من رعاياه أن ينفسوا عليه أسرار الحكم والبقاء، أو يتساموا إلى منازعته في المعرفة والخلود، فيبتليهم بالعجز والحرمان [٢].

ويضع الكاتب في عمودين متقابلين نصوصاً من القرآن الكريم ومن سفر التكوين من التوراة، وأنقل بعض الأسطر من السفر: "والثعبان صار حكيماً من جميع حيوان الصحراء الذي خلقه الله. فقال للمرأة: أيقيناً قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنان؟ (لم تقل لنا التوراة أين الصحراء في الجنان؟) قالت المرأة للثعبان: من ثمر شجر الجنان نأكل. لكن من ثمر الشجرة التي في وسطه قال الله: لا تأكلا منه، ولا تدنوا كي لا تموتا (هما أكلا فلم يموتا، كيف؟) قال لهما: لستما تموتان. إن الله عالم أنكما في يوم أكلكما منه تنفتح عيونكما وتصيران كالملائكة تعرفان الخير والشر أكثر. (يعني أن الله ينهاهما عما فيه خير ومصلحة، تعالى الله). فلما رأت المرأة أن الشجرة طيبة المأكل، شهية المنظر أخذت ثمرها فأكلت، وأعطت بعلها فأكل معها. وقال الله للثعبان: لمَ فعلت هذا بعلم فأنت ملعون من جميع البهائم وجميع وحش الصحراء، وعلى صدرك تسلك وترابا تأكل طول أيام حياتك (هو لا يأكل التراب) وأجعل

---

١ - هذه الفكرة يرجعها الكاتب إلى محمد إقبال: تجديد التفكير الديني، ص٩٦–ص ٩٧.

٢ - الفكرة ينقلها الكاتب عن الفلسفة القرآنية للعقاد، ص١٤٢–ص ١٤٣.

عداوة بينك وبين المرأة. وقال للمرأة: لأكثرن مشقتك، ويتسلط عليك بعلك. وقال لآدم: ملعونة الأرض بسببك".

كما يتجلى الفرق بين أسلوب القرآن والإنجيل في قصة تبشير زكريا بغلام فهي في القرآن تشترك مع قصة عيسى في الدلالة على قدرة الله...

ولم يذكر القرآن بعض التفاصيل التي وردت في إنجيل لوقا، ولا اسم زوجة زكريا. ولا مصطلحات مثل: هيكل الرب، مذبح البخور، والكهنوت... الخ.

ويصنع الصنيع نفسه الذي صنعه في قصة آدم، فيضع في عمودين متقابلين، كلام القرآن، وإنجيل لوقا، فيما يتصل بقصة زكريا ويحيى. وما ذكر في القرآن معروف فأنقل بعض ما جاء في الإنجيل: "ولم يكن لهما ولد، لان اليصابات كانت عاقراً وكان كلاهما قد طعنا في أيامهما فبينما هو يكهن في أيام ترتيب خدمته أمام الله، كعادة الكهنوت، إذ بلغته نوبة وضع البخور فدخل هيكل الرب، وكان جميع الشعب يصلون خارجا وقت البخور، فظهر له ملاك الرب قائما عن يمين مذبح البخور... الخ".

هذه نماذج يتضح بها الفرق من حيث المنهج والأسلوب، أما الفرق في المحتوى فـان الكاتب سيوضحه في الفصل الرابع...

الفصل الثالث: التكرار في قصص القرآن.

يقع هذا الفصل في أربع وأربعين صفحة من ص١١١-ص١٥٥. يبتدئ الفصل بعنوان: أسبابه، يقصد أسباب التكرار، يمهد فيه بذكر أن العرب تأصل فيهم الشرك لبعد العهد بالرسالة، فمنذ إسماعيل إلى محمد ثلاثة آلاف سنة. وكان القرآن المكي يهدف إلى إنشاء عقيدة التوحيد. ويشير إلى انتفاء وانتهاء الآيات المادية. وإن مناشدة القرآن للعقل بالنظر في الكون والنفس، والوقوف على أخبار الماضين مما يوضح السر في انتهاء النبوة ببعثة خاتم النبيين. ومثل هذا الاعتقاد قوة سيكولوجية تفتح السبيل للعلم والمعرفة. ومن هنا ندرك عظمة الرسالة المحمدية. ثم بين لماذا لم تستجب قريش، لأن في التوحيد ذهاب امتيازاتهم، ولأن في الإنسان نزوعاً إلى الإبقاء على القديم. وقد أثبت علماء النفس أن هناك حياة نفسية مظلمة مؤلفة من النزعات الخفية، والأهواء القديمة، والأحكام المكبوتة والعادات الموروثة.

والاعتقاد هو الحالة النفسية التي تعقب الحكم وتغلبه بالتكرار إلى عادة. وهو يغذّى بالعمل. والإيمان الذي لا يصحبه عمل، لا يلبث أن يصاب بالفتور... ثم نقل عن ابن القيم في المدارج أن كل آية في القرآن متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه".

وعاد إلى موضوع التكرار فقال: "فتكرار القصة في القرآن وثيق الصلة بمنهجه القصصي، إذ هو يخدم غرضين في آن: فني يتمثل في تجدد الأسلوب، والتفنن في العرض، ونفسي بما له من تأثير؛ لأن المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرر في علم النفس.

ثم أشار إلى الدعاية واعتمادها التكرار. ونقل عن مصطفى فهمي في كتابه: "الدوافع النفسية" كيفية تحول الانفعال إلى عاطفة وحاجته إلى التكرار إذ هو السبيل الوحيد.

مواطنه:

وتحت هذا العنوان قال: كان التكرار موجهاً إلى صميم العقيدة أكثر من سواها. ومن أكثر الأنبياء ذكراً موسى وإبراهيم، ثم قال الكاتب: "وفي نظري أن القرآن لم يكرر إلاّ ما كان أشد تجاوباً مع بيئة الدعوة، وأكثر استجابة لأهدافها، وخدمة لأغراضها، مثل قصص آدم ونوح وإبراهيم... الخ.

ومما يؤيد ذلك أننا لا نجد تكراراً في غير قصص الأنبياء، كقصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين، كما أنه لم يكرر من قصص الأنبياء إلاّ ما يقوي عزيمة الرسول، فقد تكررت قصة آدم وإبليس لأنها قصة الإنسانية كلها في صراعها المتجدد بين قوى الخير والشر. وتكررت قصة نوح لأنه الرائد الأول للرسل، وتكررت عاد وثمود لأنهم عرب يربطهم صلة بالبيئة النبوية. وأما قوم لوط فإن قوافل التجارة كانت تمر بديارهم. وأما قوم موسى فقد أذلهم طول الاستعباد، وأفسد طباعهم، ولأن محمداً وموسى كلاهما أوتيَ شريعة وعمل على تكوين أمة، وكلاهما كانت مهمته شاقة. وقصة موسى مع فرعون حافلة بالعظات التي لا يستغني عنها الرسول في اقتحام العقبات. ونقل عن صاحب الظلال في تعليله كثرة ورود قصصهم بأن الله علم أنهم سيكونون أعدى أعداء الأمة. ويذكر تعليل خلف الله لكثرة ذكرهم بأنهم كانوا يسيطرون على البيئة العربية من حيث التفكير الديني (!) ، ويرد الكاتب ذلك بأن الوثنية هي المسيطرة.

أغراضه:

يقول الكاتب: في رأيي أن التكرار لم يقصد به الإعجاز البياني، بقدر ما قصد به التأثير النفسي. فتكرار القصص يقصد تمكين السنن في النفوس. ومن مقاصد التكرار ترهيب الجاحدين. وبيان وحدة الأديان في أصل العقيدة. ويقتضي تقرير هذه الحقيقة أن تعرض طائفة من قصص الأنبياء متتابعة. ولا شك أننا سنلاحظ في العرض التزام القرآن لصيغة واحدة فيما حكاه من دعوة هؤلاء الرسل. فهم كما

يقول الغزالي في (نظرات في القرآن): "كأنهم خطباء في حفل واحد، اجتمعوا في أمسية موعـودة...". وهي ناحية نفسية جديرة بالاعتبار.

وهكذا نستخلص أن في تنويع قصص الأنبياء، وما يجمع بينهم من وحدة المبادئ والأهداف، أو تشابه العلل والأمراض التي تحول دون انصياع أقوامهم إلى الحق، من عوامل تأثير الإلحاح على النفس بالموعظة المتكررة... لأن ذلك بمثابة الاستقراء الذي يقيم الدليل على ثبات الحقيقة... ثم يستشهد بعدد من نصوص الآيات كما في قصص سورة الشعراء: ﴿كذّبت قوم...﴾ فهؤلاء الأقوام وجهت لهم دعـوة واحدة، وكذبوا، وكان مصيرهم واحداً رغم تباعد أزمانهم.

ثم يقول: إن قصة آدم توزعتها سبع سور، والمتأمل في المواطن التي عرضت فيها يلاحظ أنها جاءت موزعة عليها في المعاني والأسلوب والتصوير. ولعل من حكم تكرار قصة آدم إبراز كمال العناية الإلهية بالإنسان.

طريقته:

ما تكرر من قصص القرآن، ليس من التكرار الممل الذي يخل بالعمل الفني لأن الحقيقة الواحدة يطالعنا بها القرآن في مواطن مختلفة، ولكن في أثواب جديدة، مع تصرف بارع في صيغ التعبير وطـرق الأداء.

ومعظم التكرار في القصة القرآنية كان في بعض أجزائها، وكثيراً ما يأتي بعض ما ذكر منها في موطن متمماً لما ذكر منها في موطن آخر. والسياق يحدد طريقة العرض وما يعرض.

ثم عرض مثالاً من قصة موسى وفرعون في مواطن مختلفة، ونقل عن الباقلاني قوله: "إن القرآن أعاد قصة موسى على طرق شتى ووجوه مختلفة، وفواصل متنوعة، مع اتفاق المعنى ليعلم إعجازها".

ثم يبين لماذا جاءت قصة موسى مفصلة في موطن كالأعراف مثلاً، وقال إن ذلك كان لأنها أي السورة جاءت تعرض لطبيعة الكفر في نفوس البشر، بينما وردت في سورة الذاريات مـوجزة، بحيث كانت تطوى التفاصيل؛ للوصول سريعاً إلى النتيجة وهي سوء عاقبة المكذبين تصديقاً لوعد الله: ﴿إن ما توعدون لصادق..﴾.

هل في التكرار تعارض؟؟

عدَّ بعض العلماء كالزركشي والسيوطي قصص القرآن من المتشابه، وذلك لمـا يبـدو مـن اختلاف في بعض المواقف. ومثل بدعوة نوح لقومه في كل من: الأعراف، هود، المؤمنون.

فمرة يقول لهم: اعبدوا الله، ومرة يقول: ألاّ تعبدوا إلاّ الله، ونقل عن الإسكافي جوابه الكافي: "للأنبياء مقامات مع أممهم، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله، ورفض عبادة ما سواه في موقف واحد، بلفظ واحد، لا يتغير، بل الواعظ يفتن في مقاله... فمرة يقول بلفظ، ومرة يقول بغيره...

ثم ذكر تعليل الزمخشري للأوصاف المختلفة للحية في قصة موسى: "فهي في أول إلقائها حية ثم تصير ثعباناً، أو هي في جسم الثعبان وحركة الجان". (ونقول :إنها أمام فرعون ثعبان، وبين موسى وربه: حية...).

أما قصة التبشير بإسحاق مرة وإسماعيل مرة، ولإبراهيم مرة ولزوجه مرة، فذكر جواب محمد عبده وأجاب هو، بأنه ما المانع أن تكون البشرى لهما؟

وخلص الكاتب -بحق- إلى أنه ليس القصص من المتشابه. ونقل عن ابن خلدون نقله قول مجاهد: كل ما سوى الأحكام والقصص متشابه [1] (وهذه مبالغة كبيرة من ابن خلدون ومجاهد وعكرمة...).

آراء في التكرار:

ينقل رأي خلف الله الذي يرى عجز الفكر الإسلامي عن فهم الأسرار التي من أجلها كان التكرار في قصص القرآن، وذلك يرجع إلى اعتماد المذهب التاريخي في فهمه -ولو أنه أقام هذا الفهم على أساس فني أو أدبي لما وقف موقف الحيرة، ولما عد قصص القرآن من المتشابه [2] - ويرى أن العمل الفني في القصص القرآني يتمثل في تخليص العناصر التاريخية من معانيها التاريخية (!!)، وعنده أن أحداث التاريخ رتبت ترتيباً عاطفياً (!). وليس القرآن مهتماً بأن تكون القصة قائمة على الحق، بقدر ما يعنيه أن تكون مما يملك القلوب، (كأن الكاتب كان عند الله ويعلم ما في نفسه). وأفاض الكاتب في النقول عن خلف... وكيف أنه بطريقته سيحل التناقض ويرد على المستشرقين...

ويعلق الكاتب بعد ذلك بقوله: "والجمال الفني في قصص القرآن لا يعتمد على الخلق والابتكار والخيال ولكن على صدق الرواية، وإبداع العرض وجمال الأداء".

---

١ - المقدمة، ص٨٤٩.

٢ - الفن القصصي، ص٣١-ص٣٤، وقد رددنا عليه بتفصيل في محله.

ثم ينقل عن الحداد قوله إن القصص القرآني من التاريخ الشعبي الذي كان متداولاً في البيئة العربية والكتابية... ونقله القرآن بحسب العقلية الشعبية والبيئة البدائية التي نزل فيها بأسلوب أدبي، لا بأسلوب تاريخي (نفس كلمات ونظرية خلف الله...).

وفعلاً (يعقب الكاتب التعليق نفسه فيقول): "فهو في هذه النقطة متفق مع الدكتور خلف...".

ويتساءل أي الحداد: هل اقتصار الوحي على عشر روايات مكررة عشرات المرات هو من إعجاز الفن وسحر البيان؟ وهكذا فإن التكرار إعجاز عند قوم عجز عند آخرين. ويرد الكاتب: أن من لم يملك حاسة الذوق ولا ملكة النقد فلا يقبل أن يكون حكماً فيما يتجاوزه من أسرار الإعجاز البياني.

ويرى الحداد في قصص القرآن تعارضاً، بين القرآن والكتاب المقدس، وبين الآيات نفسها. أما الأول فتفسيره عنده أن القرآن كان ينقل من التاريخ الشعبي الذي يختلف عما في الكتاب المقدس. وأما النوع الثاني من التعارض فإن القصص من المتشابه، لا من محكم التنزيل. ويختم الكاتب فصله بقوله: ومن يقول بالتعارض من المحدثين فإنما يعني تناقضاً، في حين أن التناقض معدوم؛ لانعدام شروطه وهي الاختلاف بين قضيتين في الكم والجهة والكيف والاتفاق بينهما في واحدات ثمانية... وإذا أمعنا النظر في ضوء هذه القاعدة فلا تناقض.

الفصل الرابع: أنواع القصص القرآني.

هذا الفصل مئة صفحة بالضبط فهو أطول الفصول يمتد من ص١٦٥-ص٢٥٦. يقول الكاتب في مقدمة هذا الفصل: كل ما ورد في القرآن من قصص لا يحيد عن الحق، ولا يجافي الصدق. فما يتمثل فيه الصدق الواقعي هو القصص التاريخي، وما يتمثل فيه الصدق الموضوعي هو القصص التمثيلي. وقد تكون القصة التاريخية تمثيلية سيقت مساق المثل بصريح القرآن. ولا مجال للأسطورة في القرآن لأنه كلمة الله، والأسطورة خرافة اخترعها خيال الإنسان لتفسير علاقته بالوجود، وتعليل بعض الظواهر. وينقل عن محمد الغزالي -رحمه الله- قوله: "ويشبه الأساطير من بعض الوجوه ذلك القصص الديني الذي لم يقتصر فيه الرواة على ما أوردته الكتب المقدسة، بل جعلوا منه على مر العصور مرتعاً لتصوراتهم ومسرحاً لتخيلاتهم. الخرافيون هم آفة الأخبار وآفة الأديان في كل زمان. فكم من قصص ديني لو صح لما تماسك للكون نظام، ولما بقيت لقانون السببية حرمة[1].

---

١ - محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص٣١٧.

ويذكر مثالاً من هذه القصص الخرافية ما رواه الكساني في قصص الأنبياء أن يوسف قال لاخوته: العجب أن يأكل الذنب أخاكم وفيكم من يصيح بالأسد فيخرّ ميتاً وفيكم من يشق الذنب نصفين ومن... الخ.

ثم يشير إلى الالتباس الحاصل عند بعض الناس ما بين القصص القرآني وما اخترعه خيال الإنسان، لذلك ذهب خلف الله إلى أن في القرآن أساطير. وبعد أن يورد الكاتب بعض شبهات خلف الله يقول: ولا شك أن في ثبوت نسبة القرآن إلى الله ما ينفي عنه قطعاً أن يكون في قصصه أساطير، والله يقول: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾. ويدعم الكاتب كلامه ببيان مفهوم الأسطورة عند العربي وأنه غير القصص الميثولوجي لدى الأمم الأخرى.

ثم يورد الكاتب بعض الشبهات حول القصة القرآنية يوردها الرازي، وبعلق على الشبهات، وردّها كاتبنا فيقول: والاعتراضات التي أوردها الرازي لا يدانيها في قوة عرضها إجابته عليها بعبارة مقتضبة لا تفي ولا تقنع. وينبغي أن يكون التصدي مماثلاً إن لم يكن أقوى.

ويذكر الكاتب استغلال خلف الله لشبهات الرازي، ويطرح خلف الله الحل في نظرية الخلق الفني. ويعلّق خلف الله على قصص سورة النّمل بأنه كالأدب الحديث، ويضرب مثالاً بالكلب "لاسي" في فيلم غربي عن قصّة: "لاسي يعود إلى منزله". ويمثّل كذلك بكليلة ودمنة. ثمّ يردد الكاتب رأي خلف الله من وجوه:

١- أنه يراها (أي القصّة أو القصص) كالأسطورة، والأساطير القرآنيّة في رأيه هي القصص التي لم تقع، وذلك لاستحالة أن يقول أو يصدّق العقل بوقوعها. ثمّ قال خلف الله: "وإذا ما قال المستشرقون أنّ بعض القصص القرآني كقصّة أصحاب الكهف أو موسى في سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير، قلنا: ليس على القرآن في ذلك من بأس فإنما هذه السّبيل سبيل الآداب العالميّة، ويكفينا فخراً (!!). أنّ كتابنا الكريم قدّس السّنن، قعّد القواعد وسبق غيره...[1]".

وعلّق الكاتب: فإذا كان يعتبر النّملة والهدهد أسطورة، ومن باب الرّمز كما في كليلة ودمنة، فهذا ليس أسطورة لأنّه منعه من التصريح الظّروف السّياسيّة.

---

١ - خلف الله: الفن القصصي، ص٢٦٦-٢٦٧.

٢- تشبيه القصّة القرآنيّة العظيمة بقصّة الكلب "لاسي" تشبيه مفتعل بعيد عن الحقيقة (وأقول وبعيد عن الأدب والذوق والإيمان).

ثم علّق الكاتب: وما الذي يحول دون القول بأن أحداث هذه القصة من الخوارق أو المعجزات؟

٣- إن الفن القصصي في الأدب لا يجوز أن تحكّم مقاييسه في القرآن. فهو ليس كتاب أدب ابتدع الخالق فيه القصة كما يبتدع الأديب فنّه.

٤- لمَ لا يتصور العقل أن الله ألهم هذا الهدهد لتصرف سليمان؟

ثم ينقل الكاتب موقف خلف الله من قصة آدم، ويذكر شبهاته ويردّ عليه كما صنع من قبل... وباستمرار يعتمد خلف الله على شبهات الرازي التي يثيرها، يقول المؤلف: وبأدنى تأمل يظهر أن ما أراده الرازي يختلف عما اعتمده خلف الله من كلامه، فليس له أن يبني عليه أن قصة آدم وابليس فرية، فهو تخريج لا يقبله العقل.

القصص التاريخي:

تحت هذا العنوان قال المؤلف: ليست الأحداث التاريخية في القصص القرآني متسلسلة الحلقات في السرد، لأن التاريخ فيه لم يقصد لذاته، ولكن لاستخلاص العبرة منه، والتفكر في العلاقات السببية بين مقدمات الأحداث ونتائجها وفق سنن الله... وعلى هذا الأساس أخضع القرآن في قصصه وقائع التاريخ للحقائق الدينية، ثم تعرض الكاتب لتفسير القرآن للتاريخ، ونفى رأي "أوجست كونت" بتعارض الفكر العلمي والديني. فهو يرى استحالة التوفيق بين "الطريقة الوضعية"، وهي التي يبحث فيها عن طبيعة الظاهرة وسببها المباشر، وما تخضع له من قوانين اكتشفتها العلوم الرياضية والطبيعية. "والطريقة الميتافيزيقية"، وهي التي تفهم بها الظاهرة على أنها من تأثير قوة مريدة... ويعزو الكاتب موقف "أوجست كونت" بتأثره سلباً بالروح اللاهوتية التي كانت تسيطر على التاريخ. أما في القرآن فلا منافاة بين البحث عن القوانين والاعتقاد بخالقها. وينقل عن الأستاذ محمد مبارك قوله: "فهذه السنن جزء من المخطط الإلهي (لو قال التقدير الإلهي أو التدبير لكان خيراً...). إنها مخلوقة له، وليست بديلاً عنه، خلافاً لمزاعم القائلين بأن اكتشاف القوانين العلمية أغنى عن الإيمان بالله، ولما يزعم "ماركس" وغيره أن المادة أصل الوجود...

أما التفسير القرآني للتاريخ من خلال القصص فينبني على أن الحاضر هو نتيجة الماضي، وأن المستقبل متوقف على الحاضر: ﴿إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ وهذا النظام لا يمنع مبدأ الحرية والاختيار.

ونقل المؤلف عن أبي ريدة قوله: "والحقيقة أن الله وإن أوجد الإنسان حرًّا مريداً فإنه يريد أن ينبهه إلى أنه ما يزال في حضرة وجوده، داخلاً في نطاق الملك الإلهي، رغم حريته وإرادته".

ونستطيع من جهة أخرى أن نفهم كيف يتدخل الله في الكون إن شاء (تعبير جاف) فتقع الخوارق... ويضرب المثل بعدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام...[1]

وينقل عن كتاب "الله يتجلى في عصر العلم"، ومن ذلك: "الواجب أن نتلمس قدرة الله في النظام الذي خلقه، والقوانين التي أخضع لها جميع الظواهر والأشياء...[2] "

عرض القرآن للتاريخ:

وتحت هذا العنوان قال المؤلف: "إن القرآن وإن لم يلتزم فيما انتقى من أخبار التاريخ قواعد تدوينه وعرضه: كذكر زمان الواقعة ومكانها وترتيبها الزمني، فقد صاغها في أسلوب مؤثر. ويضرب المثل من قصة مدين، وما تجاوزه القرآن من التفصيلات وما ركز عليه من مواطن العبرة. وينقل عن الشيخ العدوي -رحمه الله- قوله في نهاية القصة: "وكانت قصتهم خير مثال يربط العقيدة في الله والسلوك في الحياة؛ لأن هدف العقيدة حفز النفوس إلى العمل...[3] ".

ويعلّق المؤلف على القصة بذكر أنانية الرأسمالية الطاغية، تؤكد وجودها اليوم بالاستعمار المقنع كما كانت أنانية مدين...

وعقوبة الاستئصال وإن زالت، لكن عوضتها عقوبات دنيوية من نوع آخر جرياً على سنن الله في عقاب الظالمين. وهكذا نجد لكل قصة أبعاداً...

ويقول: من الأحداث التي تتفاعل وتتشابه فيها الظروف والأسباب والنتائج نستخلص سنن الله في الأمم. وهي التي تقودنا إلى معرفة قواعد العمران، وأصول الاجتماع على أساس أن نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج.

---

١ - تاريخ الفلسفة لأبي ريدة، ص٣٨.

٢ - جون مونسما: الله يتجلى في عصر العلم، ترجمة الدمرداش سرحان، ص١٠٤.

٣ - محمد العدوي: دعوة الرسل، ص١٥٩.

يقول ديكارت: "إن فكرة السببية فكرة فطرها الله في نفوسنا. فمحال أن تكون خاطئة. وإن فطريتها دليل على صدقها[1] ".

ثم يعلّق الكاتب أن بعض السنن من مثل: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾، ﴿ولكل أمة أجل...﴾، ﴿لكل أجل كتاب﴾... الخ. ما يوحي بأصول الدراسة العلمية لحياة الجماعات البشرية. وينقل عن إقبال: "على أساس طبيعة الحياة بوصفها حركة تطويرية، وطبيعة الزمن بوصفه موجوداً في الخارج، والوجود حركة مستمرة فيه..[2] ".

السنن والظواهر العامة:

تحت هذا العنوان الفرعي قال المؤلف: جاء القصص التاريخي في القرآن مبيّناً أن مشيئة الله في خلقه إنما تنفذ حسب سنن حكيمة في السلم والحرب. فمن سار على هديها في الحرب ظفر بمشيئة الله، ولو كان ملحداً، ومن تنكبها هُزم وإن كان مؤمناً. وضرب المثل بأحد. ثم ضرب المثال بقصة طالوت، وفصّل فيها نسبياً. وذكر بعض السنن مستخرجاً اياها من القصة فقال: إنما تكون الغلبة بالإيمان الذي يبعث على الصبر والثبات والوحدة والطاعة للقائد. والدعاء المتفجر من القلوب... وهو سلاح روحي في الحروب، ومن سنن الانتصار شعور المجاهدين أنهم على الحق. أما الاستعداد المادي فمعروف، وأما الاستعداد النفسي فأعلى منازله إيمان المقاتل بأنه ينصر الحق... كما أن من السنن العامة: دفع الله الناس بعضهم ببعض...

وينقل عن صاحب المنار قوله: "يظن بعض المتطفلين على علم السنن في الاجتماع البشري أن تنازع البقاء الذي يقولون أنه سنة عامة هو من أثر الماديين في هذا العصر، وأنه مخالف لهدي الدين... وقال: إن من الناس من يظن أن معنى إسناد الشيء إلى مشيئة الله هو أن الله يفعله بلا سبب ولا جريان على سنة من سننه في نظام خلقه، وليس كذلك...[3] ".

---

١ – المنطق الحديث ومناهج البحث: ص٨١–ص٨٢.

٢ - تجديد التفكير الديني. ص١٥٩-١٦٢.

٣ – تفسير المنار، ج٢، ص٤٨٧.

ومن سنن الله في الأمم أنه إذا استشرى الفساد وانغمس الحكام في الترف كان المصير الفناء.

"ولا يهم هذه السنن إلاّ السير عليها لتؤدي نتيجتها، سواء أعلم الناس أم لم يعلموا، شأن من تناول سمّاً، فتكون له نتيجته المحتومة...[1] ".

والدارسون لقصص الأنبياء في القرآن –وهي أكثر قصصه– دراسة شاملة يلاحظون حرص القرآن على ربط الظواهر المتجانسة فيها، والانتهاء بها إلى نتائج تخضع لسنن وقوانين... وأن تطور التفكير والنفسية والشخصية في معظم مظاهره هو في الغالب نتيجة لتطور الحياة الاجتماعية لا سبب لهذا التطور. فالمجتمع الذي يقع فريسة للظلم ينحدر في هاوية الفساد، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه.

"لذلك لم تنفع موعظة الرجلين للشعب الإسرائيلي؛ لأن المرض أقوى من الدواء، فلا بد أن يتغلب عليه كما هي سنة الله في تنازع القوي والضعيف...[2] ".

ويتكلم عن بقية بني إسرائيل. ثم نقل عن مقدمة ابن خلدون قوله: "إن الأربعين سنة أقل ما يكفي لفناء جيل ونشأة جيل آخر...[3] ".

"والعلماء يقررون أن حضانة العلم خمس عشرة سنة. أما حضانة الأخلاق فمدتها أربعون سنة على الأقل...[4] ".

ومن السنن العامة التي أثبتها القرآن عقاب الكفار الذين كذّبوا الرسل. وهكذا يدعونا القرآن إلى الاعتبار بسنن الله في الأمم السابقة.

ومن هذه السنن ما يكشف عن طبيعة البشر الثابتة... ومن الظواهر العامة وحدة البشر. ووحدة الرسالات. واتفاق علل المعرضين. أما طغيان الهوى فآفة خطيرة. والمترف مريض لا يستطيع أن يقابل الحياة بما فيها من شدة ورخاء... والحياة جهاد لا يحبه المترف، في حين أن رجل الحياة لا بد أن يواجه الحياة بجميع أوضاعها وتقلباتها...[5]"

---

١ – أحمد أمين: فيض الخاطر، ج٩. ص٢٩.

٢ - دعوة الرسل للعدوي، ص١٧٨.

٣ - المقدمة: ص٢٤٩.

٤ – دعوة الرسل: ص١٧٩.

٥ – عبد المنعم خلاف: المادية الإسلامية وأبعادها، ص١٧١.

ومن هنا كان الفقراء أقرب إلى الاستجابة لدعوات الرسل، وهذا سؤال هرقل لا بي سفيان عن اتباع النبي...[1]

قال جوستاف لوبون: "قال فولتير: استمرت الديانة المسيحية مئة عام لا يدين بها إلاّ أخس الناس...[2] ".

ثم تكلم عن العصبية وكلام ابن خلدون فيها، وكلام اليهود في تفضيل أنفسهم... ثم ذكر الاعتراضات التي أثارها الأقوام على الرسل ومنها: استعجال العذاب، واستبعاد أن يكون الرسل بشرا. قال بعضهم: ما أعجب شأن أهل الضلال، لم يرضوا للنبوة ببشر، ورضوا للألوهية بحجر.

ومطالبتهم بالآيات المادية، وتهديدهم للرسل بالإخراج.

الصدق في أخبار القرآن:

تحت هذا العنوان قال الكاتب: "لا بد من الإشارة إلى أن عناية القرآن بالتاريخ هي أكثر من مجرد عرضه لأخبار مضت. والفائدة التي يعلقها القرآن على السير في الأرض هي الاعتبار بمصارع الظالمين...

ومن المستشرقين من لا يعتبر القرآن فيما قصّه من أخبار مصدراً تاريخياً يمكن الاعتماد عليه... وإنما هو هداية وموعظة. وإذا ورد في كتب التاريخ القديمة ما يخالف بعض قصص القرآن، فعلينا أن نجزم أن ما أوحاه الله هو الحق. وحاول الكاتب أن يذكر بعض الوقائع التي تصدق ما جاء في القرآن من قصص، وما أظن الأمر بحاجة...

ثم قال: وأما عدم اتفاق بعض القصص القرآني مع ما جاء في كتب العهدين، فإن القرآن هو الذي سلم من التحريف... وكلما وجدنا في الكتاب المقدس ما يعارض أيقنا بتحريف الكتاب المقدس... وذكر بعض تحريفات قصص التوراة، والإنجيل.

وخلص الكاتب إلى القول: وهكذا فإن القصص التاريخي في القرآن وإن لم يكن عرضاً تاريخياً بالمعنى المعروف، لكنه حجة لا تقبل الطعن في إثبات ما قص من وقائع تاريخية. وقد أبان وجه الحق فيما دخل على بعض القصص من زيف أو تحريف، سواء في كتب العهدين أو في كتب التاريخ القديمة.

---

١ - إبراهيم سلامة: خلق ودين، ص١٥٢.

٢ - لوبون: روح الاجتماع، ص١٤٣.

وفي القرآن إشارات لا تخلو من أصول علم التاريخ وبذور فلسفته. فعلى الدارس لقصصه ألاّ يقتصر على معرفة الوقائع بل عليه أن يعرف أسبابها ونتائجها وسننها؛ ليتعمق في فهم الحكمة التي يسير بها هذا الوجود وفق نواميس هي من صنع الله وهي على أكمل نظام، وأتقن ترتيب.

كان القرآن يهدف فيما يعرض من تاريخ إلى الهداية والإيمان، ومعالجة النفس، وأمراض المجتمع، بما لتلك الأحداث من قوة تحدث في النفس انصهاراً ووعياً ويقظة حس.

من هنا كان هذا القصص أشد تأثيراً من التاريخ؛ لأنه يمد الإنسان بسلاح الإيمان، ويعرّفه بما لله من نواميس قارّة في نظام الخلق، ومن سنن مطردة في نظام الأمم، سنن خاضعة لإرادة الله، ليست مقيدة لها، تتصل فيها الأسباب بالمسببات. ﴿لقد كان في قصصهم عبرة...﴾.

القصص التمثيلي:

أعاد في مقدمة المبحث ما قرره من قبل، بضرورة الاعتقاد "بالصدق الواقعي" الذي يتصف به القصص التاريخي، وهو أكثر قصص القرآن، و"الصدق الموضوعي" الذي يتصف به القصص التمثيلي، وهو قليل... بل أن بعضهم نفى وجوده.

وإذا جوزنا أن نحمل ما في قصص القرآن من أشياء غريبة على أنه تمثيل، أدى بنا ذلك إلى إنكار الكثير من الحقائق التي تضمنتها القصص...

ثم أشار إلى أن المعتزلة من أول القائلين بالتمثيل، والزمخشري منهم... وضرب أمثلة...

ثم ذكر أغراض التمثيل البياني، وما في القرآن من أمثال، ونقل عن ابن القيم في أعلام الموقعين قوله: "لو جاز التفريق بين المتماثلين؛ لانسدت طرق الاستدلال، والأفعال كلها أقيسة عقلية ينبه الله بها عباده على آن حكم الشيء حكم مثله... وقد ركز الله في الفطَر السوية التسوية بين المتماثلين. وتأمل قوله تعالى: ﴿ولقد مكناكم فيما إن مكناهم فيه...﴾ فهو يفيد أن حكمكم كحكمهم. وإنّا إذا كنا أهلكناهم بمعصية رسلنا، ولم يدفع عنهم ما مكنوا فيه، فأنتم كذلك،

وهو محض عدل الله... [1] ".

ثم إن الصدق في القصص التمثيلي في القرآن يلاحظ من جهتين: موضوعية وفنية. وذكر من أمثلة هذا ما في سورة يونس من قول الذين ركبوا البحر: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين...﴾ وقال: وهذا نموذج لطائفة كبيرة من الناس في كل جيل.

---

١ - إعلام الموقعين، ج١، ص١٣٠-ص١٣٢

وقال: ومن أبدع القصص التمثيلي قصة صاحب الجنتين. ونقل عن الرازي أنها مثل للكفار.

أقول: ونختلف مع الكاتب، فهذه قصة واقعية سيقت مساق المثل. كما قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون...﴾.

الفصل الخامس: جوانب المعرفة في القصص القرآني.

هذا الفصل دون العشرين صفحة، فهو يقع ما بين ص٢٥٧-ص٢٧٤. في مفتتح هذا الفصل يقول: إن الآراء العلمية المجردة. كثيراً ما تكون خالية من القوة النفسية الدافعة، فلا تفتح الطريق للوجدان...

لذلك فإن القرآن الحكيم في منهجه عامة، وفي قصصه خاصة، لم يقدم العقيدة كنظريات للبحث؛ لأن هذا لا ينشئ شيئاً في عالم النفس... ولم يقدمها كشعور مجرد يثير العواطف؛ لأن الشعور إذا لم يستند إلى مبدأ يقوده، أو فكرة تدعمه، لا يكون له قرار... وإنما قدّم العقيدة، وفيها مادة للمعرفة التي استعمل في تبليغها للفكر والوجدان ألواناً من أساليب البيان، وفن القول، وكان أبرزها وأبلغها أثراً فن القصة التي سلك فيها القرآن منهجاً قويماً لإيقاظ الفكر، والشعور.

وتناولت المعرفة الدينية فيما تناولت: الكون، والنفس أو التاريخ. ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم...﴾، ﴿قد خلت من قبلكم سنن...﴾ والسنن نستخرجها من التاريخ، لهذا كان التاريخ من أهم مصادر المعرفة. ثم أشار إلى الكون واستحقاقه الدراسة والتأمل والتدبر.

ونوح وجه قومه إلى آيات الله في الكون المحيط: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات...﴾، وكذلك موسى: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه..﴾.

وأما النفس كمصدر للمعرفة فهي منبع القوى الباطنية في الإنسان، ومناط سموه وترقيه، أو انحطاطه وترديه. ومن هنا كانت دعوة القرآن للإنسان أن ينظر في نفسه. ويعلق على قصة موسى وزواجه من بنت شعيب [1]. وما في القصة من جوانب نفسية لشخصية موسى. (وقد ذهب بعيداً فيما أرى إذ ألف قصة على القصة إذ قال: "فإن موسى لما وقع من قلب تلك الفتاة، زينت لأبيها أن يستدعيه ليشكره... الخ").

---

١ - ليست بنت شعيب، ولا الرجل الصالح الذي ورد عليه وسكن عنده هو شعيب. إنما هو رجل صالح من المؤمنين من بقايا أو من ذرية من نجا مع شعيب. فلا دليل على ما قالوا، وهناك فاصل طويل بين موسى وشعيب... فتأمل.

وأما التاريخ، فإن القصص اتجه نحو ماضي الإنسانية ليكشف عن الحقائق وراء الأحداث التاريخية، ويستخلص سنن الله...

والتاريخ مصدر من مصادر المعرفة في القصص القرآني خاصة، وذلك بما يكشف عنه هذا القصص من نتائج تتجلى فيها نهاية الصراع بين الحق والباطل، الخير والشر. ويضرب أمثلة من قصة موسى وفرعون. ويعقب بقوله: "ومن النواميس الثابتة التي يجب التسليم بها أن منهج الأفراد والأمم، وطريقتهم في التفكير والاعتقاد والسلوك، تخضع لسنن الله في تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثرات والاستجابات.

فالأمة التي تغلق قلوبها عن دواعي الهدى في الكون والنفس والتاريخ أمة ضالة، تزداد ضلالاً كلما زادت إعراضاً، فيحل عليها غضب الله...".

الفصل السادس: عرض ونقد لمنازع المفسرين.

يقع هذا الفصل في ثلاثين صفحة ما بين الصفحات ٢٧٥-٣٠٥. وابتدأه بحديث عن الإسرائيليات والقصص. قال فيه: الإنسان بطبعه تواق إلى معرفة أخبار الماضين واستقصاء قصصهم. فكان تطلع الصحابة (!!) إلى هذا اللون من القصص الذي لم يألفوه، وكان لما يجدون في أنفسهم من ميل إلى استقصاء أخباره، والوقوف على تفاصيله، مما دفعهم إلى استيضاح أهل الكتاب وبخاصة اليهود عما أجمله القرآن [١].

ثم ينقل عن ابن خلدون قولته الشهيرة: "إن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، إنما غلبت عليهم البداوة والأمية. وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكنونات، وبدء الخليقة، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب، ويستفيدونه منهم، ومن أسلم من اليهود بقي على ما عنده. فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلون. لكنها تلقيت بالقبول...[٢] ".

---

١ - الذي أراد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا على غير هذا المنهج، فقد ربوا على الناحية العملية، وعدم تتبع ما لا حاجة إليه، وعدم التكلف في الفهم، وعدم سؤال أهل الكتاب، إنما هذا حصل في الأجيال التالية.

٢ - المقدمة: ص٧٨٦.

وفي المرحلة الأولى نهى النبي عن سؤالهم، وذكر الكاتب قصة عمر وصحيفة التوراة. ونقل حديث ابن عباس في النهي عن سؤال أهل الكتاب؛ لأن كتابنا لم يشب، وهم كتبوا بأيديهم الكتاب، وقال ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم..."[1].

ثم قال الكاتب: ويبدو أنه لما زال خوف الالتباس أذن الرسول في الاستماع عنهم، فقال: "... وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج". رواه البخاري.

وقال الكاتب: من واجبنا أن نكذبهم فيما يخبرون به إذا كان منكراً في ديننا. أما ما يحتمل الصدق والكذب فلا نحكم عليه بشيء. (وأقول: بل نحكم ولا نظل في التردد، وحكمنا هو عدم الأخذ عنهم، وإقفال هذا الباب).

من هنا يتبين كيف دخلت الإسرائيليات بعد عصر الصحابة وعصر التابعين، في تفسير القصص، حتى غدت على توالي القرون، مرجعاً لأكثر المفسرين بالمأثور. والعامة يتلهفون على هذا القصص الديني، ويروقهم الاستقراء.

آفات القصص:

وتحت هذا العنوان قال الكاتب: كره الصحابة طريقة الإسرائيليات في التذكير والوعظ. وأول من قص في مسجد الرسول تميم الداري في خلافة عثمان، وكان استأذن عمر فأبى عليه؛ لأنه يعرف ولعه بالقصص، وهو الذي ذكر قصة الجساسة والدجال.

وذكر قصة علي مع الواعظ في المسجد وهو لا يعرف لا الناسخ ولا المنسوخ ولا أسباب النزول فمنعه. وعقد الطرطوشي فصلاً تحدث فيه عن بدعة القصص في المساجد. ولا تخلو بعض التفاسير القديمة من ما لا يفيد العلم به وذكر أمثلة...

ومما ذكر خبراً عن كعب يرويه الشربيني المولع بالغريب أن طاوساً صاح عند سليمان عليه السلام، فقال: أتدرون ما قال؟ قال: إنه قال: ليت الخلق لم يخلقوا... الخ.

وذكر عن وهب في المائدة غرائب. وذكر من تأويلات الشيعة والصوفية التي ادخلوها إلى القصص.

وعرض قصة البقرة التي تمثل حلقة من سلسلة أخبار بني إسرائيل، لتعريف المؤمنين بنفسية اليهود.

---

١ – رواه البخاري.

وختم هذا المبحث بنقل عن الفاضل ابن عاشور يقول فيه عن الآلوسي أنه قد فتح خرقاً جديداً يقتضي أن هنالك طريقاً جديداً لاستفادة المراد غير الألفاظ، وهو الخروج عن قواعد أهل السنة، مما أثار على تفسيره العلماء...[1] ".

الباب الثاني: قسم البحث التحليلي

يستغرق هذا الباب مئتين وخمسين صفحة، وهو مقسم إلى خمسة فصول.

الفصل الأول: تحليل القصة القرآنية:

ومما قال في هذا الفصل: القصة الفنية ككل أثر فني يترجم عن مشاعر وانفعالات امتزج صاحبها بظروفها، ومارسها، وعانى تجربة نقلها إلى مشاعر أخرى، ليست في غنى عن علم النفس الذي يرتاد هذه المجالات بحثاً وتحليلاً. وهي طريقة مألوفة لدى نقاد الأدب إذ يتوصلون إلى درس نفسية الشاعر، وتوضيح معالمها من خلال شعره...

قالت أديبة إنجليزية: "أنا لا أقرأ كتاباً من أجل القصة، بل أطالعها كدراسة نفسية للمؤلف...[2] ".

ولكن القصة القرآنية لا تخضع لهذه الطريقة من الوجهة النفسية، إلاّ من أحد جانبيها، وهو تحليلها لمعرفة عوامل التأثير فيها، ومدى استجابة القلوب لما تدعو إليه...

والقرآن لم يعرض قصصه، هذا العرض المثير ليشغل العقول بأحداثها كقضايا تاريخية، ولكن لعبرها. "والثقافة الفنية تمد المرء بما يمكن أن يسمى "إطاراً" مساعداً على تنظيم التلقي للعمل الفني وكلما ازدادت ثروتنا الفنية ازددنا قدرة على تذوق الأعمال الفنية...[3] ".

جوانب التحليل العامة:

١- شخصية صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم: وما للقصص من دور إيجابي في تثبيت فؤاده.

٢- البيئة التي نزل فيها القصص: وقد شاء الله أن يبعث كل نبي في قومه، وفي بيئته... وإن صحو العقل العربي أكبر مرشح لأن ينزل عليه القرآن. "وقد أقام القرآن التفكير الإنساني على سنن وقوانين بني عليها نظام الطبيعة، بجانب قيم غيبية بني عليها ما وراء الطبيعة... [1] ".

---

١ - التفسير ورجاله، ص١٥٦.

٢ - نقلاً عن ليون ايدل: القصة السيكولوجية، ترجمة محمود السمرة، ص٢٣١.

٣ - مصطفى سويف: الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر، ص٤٤-ص٤٥.

الإنسان: القصة القرآنية بكشفها عن سنن تجري عليها الأمور، وبتجردها عن الزمان والمكان، تعرض حقيقة إنسانية تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتعالج قضايا الإنسان، وتداوي علله المتشابهة.

ثم ضرب المثل بقصة عاد وثمود وحللها. وإن من أهم عناصر التحليل ما تثيره في النفس من خوف عذاب الله... والأمن في حمى الإيمان.

القصص والرسول:

للقصص القرآني، بما تضمنه من قيم ومثل وتوجيهات، دوره في المجتمع المعاصر لنزوله والمجتمع المسلم عامة. ولكنه كان قبل كل شيء دروساً حيَّة في نفس صاحب الدعوة وقوة دافعة له على المضيَ؛ برغم استخدام قريش ضده كل وسائل المقاومة. ولا ريب أن شعوره بتجاوب الوحي معه مما يثبت فؤاده. كما يرشده القصص إلى سنة الله في الأنبياء والأمم، وهي أن نصر الله في نهاية الطريق. فلا غرو أن نجد في هذا القصص ما يعكس نفسية الرسول والمجتمع الذي يحيط به. فهو يقول لقومه ما قال نوح: ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله...﴾. كما يجدر التنبيه إلى تلك اللفتات التي يتوجه بها الخالق إليه في أول القصص أو أثناءه أو عقبه: ﴿وهل أتاك حديث موسى...﴾، ﴿وهل أتاك نبأ...﴾، ﴿ويسألونك...﴾ وذكر خبر سورة الكهف. وذكر بعض القصص النبوي كقصة الفتى وسورة البروج.

أما تأثره بقصص القرآن فقد أعربت عنه آثاره، فقد أوذي يوماً فقال: "أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر..." مسلم. وقال عن يوسف وعن إبراهيم ما هو معروف...

الفصل الثاني: عناصر القصة في القرآن.

استغرق هذا الفصل أكثر من سبعين صفحة من ص٣٤٨ –ص٤٢٠. ومما قال فيه: أهم ما يشترك فيه القصص القرآني مع سائر القصص من عناصر هو الشخص والحدث والحوار.

أما الشخص: في هذا القصص القرآني فقد يكتفي القرآن بذكر بعض صفاته، كما جاء في قصة موسى والخضر.

وأما الحدث: فكثيراً ما يعرض مجرداً عن ذكر الزمان والمكان اللذين وقع فيهما، فإذا كان لهما مجال في سير الحادثة ذكرهما القرآن مثل: ﴿وجاءوا أباهم عشاءً يبكون...﴾.

وأما الحوار: فأهم ميزاته أنه يصوِّر الأحداث في أسلوب الحكاية تصويراً يكشف عن خبايا الصدور.

---

١ - محمد خلاف: المادية الإسلامية، ص٨٦--ص٨٨

الأحداث:

قد ينصرف الاهتمام في القصة القرآنية إلى الأحداث دون الشخصيات، فيختار القرآن منها أو من عناصر الحادثة ما يخدم الفكرة الرئيسية، ويخلق الجو النفسي الملائم.

والأحداث إما مادية كالانتقال في المواقف والزمان والمكان، أو داخلية نفسية كتحريات الخواطر والأفكار والعواطف. فهذه الحركة هي التي تجعل المشاهد حية، والأحداث نابضة، والسياق ديناميكياً، وكثيراً ما يستعين القرآن على إبرازها بعوامل:

١- الوصف الدقيق المصور.

٢- المعاني المعبرة عن المشاعر والانفعالات والأحوال النفسية.

٣- إبراز الصراع منسجماً مع المغزى العام للقصة. فأحياناً يكون الصراع مادياً، وحيناً نفسياً.

وهكذا فإن التعبير الفني للقرآن في قصصه لا يخرج في جملته عن كونه تعبيراً عن النفس.

ويعلق على ميثاق بني إسرائيل الذي أخذ عليهم واعرضوا عنه فيقول: فكان في دعم المعنى النفسي بالمظهر الحسي تعبير مشخص وتصوير لحركة مادية ونفسية.

ثم يعلق على مولد موسى فيقول عن الظلال: فالأحداث التي جرت فيها قصة مولد موسى تنكشف إرادة الله فيها، وتحدي القدر لفرعون. فكان للغيب حساب، وكان لفرعون وشيعته حساب... وذلك مما يزيد المؤمنين إيماناً.

ثم يستعرض كمثال قصة موسى في سورة القصص. ويعقب: فقد كان تدخل القدر في هذه الأحداث خفياً؛ لأن نتائجها لم تنكشف إلاّ بعد وقوعها بمدة.

وقد يبرز هذا التدخل سافراً في الأحداث التي يراد فيها التحدي بالخوارق. فتأتي نتائجها سريعة لا تقبل التريث ولا الإمهال. ومثّل بضرب الحجر بالعصا فتنفجر منه الينابيع، ونجاة إبراهيم من النار. ومثل هذا التدخل يزيد ثقة المؤمنين بربهم.

وينقل عن وليام جيمس قوله: "النفس محتاجة إلى الاعتقاد في أن العالم المشاهد وراءه عالم روحي، ولهذه الحاجة النفسية من قوة وسلطان على نفوس الذين يشعرون بها، مثل احتياج النفس إلى الاعتقاد في اطراد القوانين السببية، وما لهذه الحاجة من قوة وسلطان على نفوس العلماء التقنيين..[1]".

١ - إرادة الاعتقاد لوليام جيمس، ص١٣١–ص١٣٢

كما أن الغيب الذي تطالعنا به بعض أحداث القصص القرآني لا يناقض العقل. ويضرب مثالاً من قصة موسى والعبد الصالح، التي تكشف عن حقيقة من الغيب، يبدو فيها سير الأحداث غريباً[1].

ولو لم يتضح ما وراء تلك الأحداث من حكمة مغيبة لظلّت غامضة تثير العجب.

ولعلَّ من الطريف في هذه القصة مفاجآتها.

ولا شك أن تفتح الوجدان لهذه الأسرار الإلهية مما يفتح آفاقاً جديدة في الإحساس بما للقوى الغيبية من تأثير في مجرى الأحداث، والشعور بأن لتلك الأحداث عللاً خفية، وغايات مرسومة عن قصد وتدبير.

ومن هنا كانت عناية القرآن بالنفس البشرية أثناء عرضه للأحداث... فهو يختار من الأحداث ما كان أقواها تأثيراً في النفس، وأكثر استجابة للغرض الديني.

الشخصية:

ترد الشخصية في بعض القصص القرآني محوراً تدور حوله الأحداث فتؤثر فيها وتتأثر بها.

والقرآن لم يبرز هذا العنصر لذاته، ولكن للتأسي بالشخصية الخيرة والتنفير من الشخصية الشريرة.

لذلك لم يعن برسم الخطوط الشكلية للشخصية، وإبراز ملامحها الخارجية، وذكر الكاتب ثلاثة أنواع للشخصية: فرد، جنس أو عرق، الإنسان.

وفي القرآن شخصيات من غير البشر كالملائكة، والجن، وإبليس، وأبرز ما يلاحظ في التصوير القرآني للشخصية بصفة عامة أمانة النقل في حكاية أقوالها، ودقة التعبير عن مشاعرها، وصدق الترجمة عن خواطرها.

فهي رغم تعدد مواقفها وتنوعها في مواطن متفرقة من القرآن، لا يتناسق جمعها في موضع أو سورة؛ لانعدام الوحدة الموضوعية بينها[2]. لكنا نجد في تلك الشخصية من توافق العناصر وائتلاف الصفات، وتفاعل السمات، ما يلقي الأضواء على جوانبها النفسية. ثم ضرب المثل بشخصية إبراهيم –عليه السلام– وجعلها تحت عناوين: قصة إيمانه بالله، وذكر مشهد سورة الأنعام[3]. وقصة إيمانه بالبعث،

---

١ – محمد المجذوب: قصص وعبر، ص١٩٤

٢ – تعبير الكاتب غير ملائم، ولو قال: رغم تعدد المواقف، وكثرة المشاهد... الخ. لكن لا يليق القول أنه ليس بينها وحدة موضوعية، فهي جميعاً تشكل قصة واحدة لموسى، إبراهيم... الخ.

٣ – في الحقيقة، ليس هذا المشهد قصة إيمانه، ولكنه حجاجه مع قومه...! ولا الذي في البقرة كذلك.

وذكر مشهد سورة البقرة. وقصة افتداء ابنه بعد ابتلائه، وذكر مشهد الصافات. وقصة دعوة أبيه إلى عبادة الله، وذكر مشهد سورة مريم، وقصة زيارة الملائكة له... ثم عقّب: فمن خلال هذا القصص برزت شخصية إبراهيم المثالية، وذكر عناصر شخصيته من حصافة، ويقين، وطاعة لله، فكان أمة... وعدد باقي خصاله.

ويثني كمثال آخر بشخصية موسى عليه السلام... وينقل عن صاحب الظلال وصفه بالعصبي المزاج. (وهو ما لا نقّره البتة. ولو قال الشديد في الحق لكان أليق).

ويعقب: وهكذا نلاحظ أن إبراز سمات الشخصية في القرآن يقوم على مبدأ عام يسمى في علم النفس: "اتساق شخصية الفرد" بحيث أن سلوكه يتناغم بصفة مستمرة مع الظروف الداخلية والخارجية التي يتعرض لها، وذلك بما يحمل من خصائص معينة تلازمه من موقف لآخر، وتؤثر في سلوكه، وتحدد وجهته ونمطه... "[1].

ثم يأخذ الكاتب شخصية فرعون نموذجاً في اتجاه معاكس، وصفاته الطغيان والتكبر والمكابرة في الحق.

ويرجع طغيانه إلى اعتزازه بالقوة الغاشمة، والثروة الطائلة، والسلطان المادي. ويذكر الآيات التي فيها قصته من سور الأعراف والإسراء والنازعات والشعراء وغافر والزخرف، وتلفته لفتة جميلة في الآية: ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون...﴾ فهو يستنكف أن يجعل نفسه داخلاً في دعوة موسى أو مقصوداً بها. والنوع الثاني الذي يسميه الكاتب شخصية جنس، ولو سماه الشخصية الجمعية أو الجماعية لكان أولى، ويضرب المثل ببني إسرائيل. ويلفته أن القرآن يقص قصصهم بأسلوب الخطاب، ليدلل على أنهم متحدو الجبلة.

ويذكر من صفاتهم ما هو مشهور معروف: كالعناد والتمرد، واختلاق المعاذير للتخلي عن الواجبات، ونكث العهد ونقض الميثاق، وقسوة القلب والحسد و... الخ.

ويشير إلى دعواهم أنهم شعب الله المختار، وينقل عن عزيز الجنابي في نقض مثل هذه الدعوى قوله: "إن شرف أي إنسان مكتسب مما يقوم به لا بالانتساب..." [2].

---

١ – مصطفى سويف: الصحة النفسية، ص٦٦.

٢ – الشخصانية الإسلامية، ص ٢٦.

النوع الثالث : الإنسان: "هذا الذي أودع الله فيه مزاجاً يرتبط فيه الجسد بالروح، لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر ما دامت تسري فيه الحياة..." [1]. وقيمة الإنسان من نفخة الروح لا من قبضة الطين. وبهذه الطبيعة المزدوجة التي ركبت فيه، كان قادراً على السمو بروحه إلى الملكوت أو الهبوط بحيوانيته إلى الحضيض. إن في كيان الإنسان استعداداً للهوى والاستقامة، والضلال والانحراف.

ثم أشار إلى أن لفظ الإنسان ورد في القرآن (٦٥) مرة، وأنه في هذه المواطن "كشف عن دقائق ملامحه النفسية ونوازعه الخفية" [2].

فهو مزود بوسائل المعرفة، وذكر الآيات. وهو ضعيف في التغلب على دوافع غرائزه، وهو أناني جحود، يفزع إلى الله في البأساء ويعرض في الرخاء. واستشهد الكاتب بالآيات وهي معروفة... وهو متقلب يبطره الغنى، (وينتكس بالفقر)، عنيد مكابر.

ثم قال الكاتب: ومما عرضنا مما وصف به القرآن الإنسان، نستنتج ظاهرة عامة في تاريخ الإنسانية. وأنه لعلاج هذه الأدواء استعمل القرآن مختلف المؤثرات النفسية، ومن أبرزها قصص أنباء الأمم السالفة، وتذكير الإنسان بنعم الله. وتكرير الإشارة إلى أصل خلقه وضعفه، وتذكيره بحتمية الموت وهوان الدنيا.

وبعد هذا الذي يبدو استطراداً على سير الموضوع، عاد الكاتب ليستشهد بالقصص فذكر أن قصة قارون فيها التوفيق بين الدنيا والآخرة، وضرورة تحرير وجدان الإنسان من عبادة ما سوى الله. وبهذه الفكرة تنهي سورة القصص قصة المتألهين على الناس، السالبين لحرياتهم؛ لترجع بنا في خاتمتها إلى الإيمان بالله.

وإنا لنجد في القرآن تحليلاً جذرياً لنفسية الإنسان بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة. وقد ذكر النفس الإنسانية بكل أبعادها وقواها المختلفة التي يدرسها علم النفس التحليلي، وهي أنواع:

١- النفس السفلى: وهي التي استقرت في أعماقها مجموعة النزعات والرغبات والميول البدائية المكبوتة في اللاشعور الـ "هو". وتبقى هنالك دائمة التأثير على سلوك الفرد في حياته اليومية

---

١ - ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٥، ص٦٦.

٢ - بنت الشاطئ: مقال في الإنسان، ص١٥ -ص١٧.

من حين لآخر، محاولة التعبير بالحيل اللاشعورية كـالأحلام، وفلتـات اللـسان، والتبرير، والإسقاط...الخ [١]. ويقابلها في القرآن: النفس الأمارة بالسوء.

٢- النفس الواعية: وهي التي تواجه العالم الخارجي وتتأثر به... وتكاد تكون صورة للواقع الـذي تقره البيئة والتقاليد الاجتماعية الـ "أنا". فكل ما يصدر عنها من سلوك عـادي، أو ميـول مهذبة هو نابع من الشعور. وهذه يمكن أن تقابلها في القرآن: النفس الملهمة ﴿والنفس ومـا سواها فألهمها فجورها وتقوها﴾.

٣- النفس العليا: وهي الرقيب الداخلي الذي يقف حائلاً دون اندفاع الرغبات والميول. سـواء أكانت شعورية أم لا شعورية، أي سواء أكانت صادرة عن الـ "أنا" أم عن الـ "هـو". إذا كانت تلك الرغبات والميول تصادم القيم الأخلاقية والتعاليم الدينية التي تلقاها الفرد وتأثر بها "الأنا الأعلى". ويتكون هذا الرقيب الداخلي تكويناً لا شعورياً. وتقابلها في القرآن: "الـنفس اللوامة".

والناس مختلفون، لكن الفرق بينهم ليس فرقاً نوعياً، ولكنه فرق كيفي... فكل شخص نسخة فريدة. فكل شخص له نزعاته وشخصيته المستقلة وهو عالم قائم بذاته، وتبتدئ الشخصانية عندما يرفض الإنسان الطاعة العمياء [٢].

وقد نعى القرآن على الإنسان تبعيته الذليلة، الناشئة عن فقدان الذاتية، وندد القرآن بتعطيـل الأمم عقولهم، ورفض أقوام الأنبياء التدبر فيما جاء به أنبياؤهم.

ثم أشار الكاتب إلى النظم الحديثة ونظرتها إلى الإنسان، فواحدة ترى أنه ذاتية مستقلة، ولكن لها علاقات بالغير تحددها القوانين والأخلاق والعادات. والنظرة الثانية ترى أنه جزء من كل يذوب فيه ولا تعرف معالمه، إلاّ أنه يسهم في نشاط "الكل العام"، والأولى هي التي يراها الإسلام [٣].

ثم بعد سؤال عن: هل النظرة هذه إلى الإنسان متشائمة؟ قال: إن الإنسان أرقـى الكائنـات الحادثة، وجماله في إكمال طبيعته، وفضله في السعي للتغلب على ضروب المحن والإغراء. إن القرآن مـا

---

١ - مصطفى فهمي: الدوافع النفسية، ص١٤٥.

٢ - الشخصانية الإسلامية، ص١١-ص١٢.

٣ - ليت الكاتب نسبه إلى نظرة الإسلام مستقلة عن نظرة الرأسمالية، فلعله قصد بالأولى نظرة الرأسمالية، فإن لم يكن قصدها فأين وضعها.

قصد الحط من كرامة الإنسان، وإنما قصد بيان طبيعته. وليس معنى ذلك أن الإنسان مجبول على الشر. ففي النفس غضب وشهوة يزينان الهوى والضلال، وجهل يطمس الطرق، والآفات الخارجية تأتي من فتنة الدنيا. وقد خلق الله في الإنسان فطرة التمييز، وفطرة الإيمان. والقرآن لم يبعث على اليأس من إصلاح الإنسان، بل على العكس فإنه فتح باب التوبة، وحرّم اليأس. جاء على لسان يعقوب: ﴿ولا تيأسوا...﴾. وعلى لسان إبراهيم: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه...﴾. وأما هلاك الأقوام فما كان إلاّ بعد البيان.

ونقل عن الظلال: "اثبت الواقع التاريخي أن البشرية لا ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن، إلى المستوى الذي ترقى إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس..." [١].

ويقول لوبون: "إن الأمم تدفع بقوى خفية..." [٢]. وضرب لوبون المثل بالعرب الذين انطلقوا من صحرائهم ليفتحوا القسم الأكبر من الدنيا القديمة.

شخصية المرأة:

قال الكاتب: إن مما يجدر اعتباره في تسوية القرآن بين أفراد الإنسان، أنه لم يفرق في الحقوق الأدبية بين الرجل والمرأة فهما من نفس واحدة. فقد رفع عنها القرآن ما زعمته التوراة من لعنة الخطينة الأبدية، كما يقول العقاد. ونقل الكاتب عن التوراة، وما قال القرآن.

ثم إن المساواة تظهر في البشارة لإبراهيم ولزوجه بالولد. ويرد على خلف الله الذي يرى ذلك تناقضاً !!.

ثم يضرب مثلاً بامرأة فرعون، ونقيضها امرأة نوح وامرأة لوط. وفي هذا تأكيد المسؤولية الفردية. ثم يتكلم عن نموذج مريم في قصة مريم، وقصة أم موسى، وامرأة العزيز، ونسوة المدينة، ويطيل في هذا نسبياً.

الحوار:

إذا نظرنا في قصص القرآن بحسب ترتيب النزول لاحظنا أنه بدأ غالباً باشارات خاطفة خالية من الحوار كما في سورة الفجر والفرقان، لأن الغرض إثارة الفكر والوجدان.

ثم تدرج نحو الطول والتفصيل، فكان لا بد من أناة وتأمل، ومن هنا كان دخول عنصر الحوار الذي تدرج بالقصة إلى التفصيل. ولم يسلك الحوار بالقصة مسلك التبسط فحسب بل رسم فيها معالم

---

١ – الظلال، ج٢٩، ص١١٨–ص١٢٢.

٢ – روح الاجتماع، ص١٩٢.

الشخصيات الإنسانية بالتعبير عن خواطرهم النفسية وآرائهم، وصاغ القرآن الأقوال بأسلوبه المعجز، كما يقول ابن عاشور. وهو لا ينقل كل ما دار، وإنما يختار اللقطات الموحية التي تحقق الغرض وتكون أكثر دلالة. فعن نوح –عليه السلام– لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ولكن القرآن لم ينقل إلاّ عينات من حواره.

ويذكر الكاتب الحوار الذي في قصة آدم بين الله والملائكة، وبين الله وإبليس، وبين الإنسان والملائكة، وبين الإنسان والحيوان... والشواهد معروفة. وللحوار دور هام في القصص القرآني فهو الذي يبعث الحياة والحركة في الحدث، ويؤدي إلى الهدف، ويظهر المغزى، ويكشف عن مدى الصراع... كما أنه يترجم عن الشخصية، ويستبطن انفعالاتها. وقد يكشف القرآن عن حديث المرء لنفسه في صورة حوار، أو مناجاة...

ولا شك أن الحوار الذي يديره القرآن في دقة وحساسية لإحياء المشاهد أو تصوير الانفعالات أو الإقناع، يقتضي تنوع أساليبه وطرقه باختلاف الأشخاص وبحسب المواقف ومن أبرز هذه الأساليب:

- التقرير: وذلك بعرض الحقائق على الخصم.
- والتلقين: وذلك بتوجيه دعاة الحق إلى ما يواجهون به خصومهم.
- المحاجة: وذلك بإقامة البرهان عن طريق التحاكم إلى العقل (إبراهيم مع قومه). والتذكير بالنعم والتخويف من العذاب (موسى وقومه). ومحاولة التبرير (الاتباع والمتبوعون). والازدراء والاستخفاف (فرعون مع موسى). والوعيد والتهديد (إبراهيم وأبوه).

ونستخلص من الحوار كيف يجنح الأنبياء في تحاورهم مع قومهم إلى الترفق.

الفصل الثالث: عوامل التأثير في قصص القرآن.

يقع هذا الفصل في ثمانٍ وثمانين صفحة ما بين ص٤٢١–ص ٥٠٨. وابتدأه بعنوان فرعي: اختلاف المؤثرات في الناس، وقال فيه: جاء القصص القرآني ليبني عقيدة على أنقاض ما هدمه من باطل وخرافات رانت على القلوب، وتمكنت من العقول. وقد ارتبطت دعوة القصص إلى هذه العقيدة بثلاثة محاور وهي:

١- التعريف بالله وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً.

٢- التعريف بالطريق الموصِّل إلى صراطه المستقيم، ورسله الدالين على الطريق.

٣- التعريف باليوم الآخر.

والداعون ليسوا سواء في ملكاتهم. وعدد أصنافاً من الناس والمستويات فأصحاب النفوس المشرقة. والجدليون. وأصحاب الذوق البياني، والمتعصب، والعنيد، والسطحيون...الخ. لذلك نرى الأنبياء يتفننون في أساليب الدعوة، ترغيباً وترهيباً... والسر في تنوع عوامل التأثير في قصص القرآن تبعاً لتنوع الاستجابات في الإنسان.

فهو يخاطب العاطفة عن طريق الشعور، ويقنع العقل عن طريق الحس. ويجلب الأسماع بالتعبير البديع. ويمكن جمع هذه العوامل وحصرها في ثلاثة عناصر عامة، هي:

١- التأثير النفسي.

٢- الإقناع العقلي.

٣- الإبداع الفني.

التأثير النفسي:

يقول: لقد أغفلت كتب علم النفس حتى نهاية القرن الماضي (١٩) البحث عن الشعور الديني إلاّ لماماً، حتى يشك القارئ في وجود شيء لدى الإنسان اسمه: ظواهر دينية. ومن بحث فيها من العلماء اقتصر على القول بأنها نتيجة لحالات انفعالية [1] كما اقتصر (دوركايم) على الظواهر الخارجية للدين.

أما البحث في علم النفس الديني فلم يستوف حقه وحظه منهجياً وموضوعياً. ذلك أن البحوث السيكولوجية تهمل مسألة القيم الموضوعية للدين.

ثم ذكر عدة نقول عن علماء النفس وتفسيراتهم المختلفة للشعور الديني... وأشار إلى (فلورنوا) الذي قام بدراسات في الظواهر الدينية أطلق عليها: علم النفس الديني. ثم انتقل إلى الموضوع المباشر المتصل بالبحث وهو القصص القرآني، فقال: ولعل درس المؤثرات النفسية الدينية في القصص القرآني يكشف عن حقائق هامة في علاقة الشعور الديني بالعاطفة، وارتباط الجانب الإلهي بالنفس، لما في هذا القصص من إثارات متنوعة، وتجارب دينية، كان الإنسان محورها. ومبلغو الأديان يتوجهون إلى القلب [2]. كما في قصص القرآن.

والتحليل النفسي لبعض ما ورد في هذا القصص لا يخلو من بحوث السابقين وتفاسيرهم، وذكر أمثلة من قصة يوسف وبعض التفاسير واللفتات التي فيها. ثم من قصة موسى... ثم نوح. وفي كل ذلك

---

١ – عبد المنعم المليجي: تطور الشعور الديني عند الطفل والمراهق، ص٢٠-ص٢١

٢ – فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ج١، ص٢٤٦

ينقل عن التفاسير بما فيهم المتصوفة كالقشيري والغزالي، وقال: وعند المتصوفة يكاد يطغى الجانب النفسي في تفسير القصة القرآنية على سائر الجوانب الأخرى، ومنها ما يستساغ كالقشيري، ومنه لا. وأكثر النقل عن ابن القيم.

ومن أشد العوامل ظهوراً وتأثيراً:

١- الحضور الإلهي: فالقرآن إلهي في لفظه ومعناه. وذكر أمثلة عديدة لهذا الحضور...

٢- القدر: وقال: إن شعور الإنسان بقوة غيبية تتدخل في توجيه الأحداث، هو عنصر هام في التأثير في هذا القصص. وضرب المثل بأهل الكهف، ويوسف، وفرعون وموسى. وبين كيف كان القدر قوة روحية تثبت المؤمنين.

٣- الترغيب والترهيب والخوف والرجاء: وذكر أمثلة من قصة فرعون وما أصاب قومه... وأطال في هذا القسم.

٤- معرفة السياق والمناسبة: فقصة أصحاب الجنة في سياق تكذيب المشركين.

الجانب الانفعالي والعاطفي:

الانفعال: تجربة عابرة يمر بها الإنسان عندما يكون الدافع قوياً والاستجابات منفعلة. أما العاطفة: فهي عبارة عن اتجاه وجداني نحو موضوع معين. وتكتسب بالخبرة والتعلم وتتكون تدريجيا بعد المرور بتجارب. فهي إذا استعداد نفسي ينشأ عن تركيز مجموعة من الانفعالات حول موضوع ما.

ومن أهم العوامل التي تساعد على تكوين العواطف: التكرار والإيحاء والاقتران [1]

ولقصص القرآن أثر بليغ في توجيه العقيدة والسلوك منشؤه شعور انفعالي دافع، أو عامل وجداني مؤثر. فتأثير بعض القصص الذي يصف ما نزل بالمكذبين لرسلهم من هول العذاب أنه يحدث شعوراً بالخوف من عاقبة العصيان. وذكر أمثلة.

وقصص القرآن مليء بما يذكي العواطف ويزكي النفوس. ويذكر الإنسان بفقره إلى الله. ومن هذه المشاعر تتولد العواطف الدينية.

---

١ - مصطفى سويف: الصحة النفسية، ص٢٧٩-ص٢٨٢.

ومن عوامل تكوين العاطفة: الإيحاء، الاقتران، الإقناع:

الإيحاء: من أهم الوسائل التي تحقق الصلة بين أفراد المجتمع قابلية كل شخص للإيحاء عندما يكون مندمجا في المجتمع. وتتفاوت هذه القابلية حسب الأشخاص، وفي الشخص الواحد... ومن مظاهر الإيحاء: القابلية لسرعة التصديق، والمشاركة الوجدانية، والمحاكاة[1]

ويضرب المثل بقصة قارون، وكيف أن القوم تمنوا ما هو عليه، بفعل الإيحاء... ولكن أهل العلم لم تغرهم المظاهر. فالإيحاء سلاح ذو حدين.

الاقتران: وهو من قوانين التداعي، لوجود حالتين نفسيتين معاً في الشعور تذكر إحداهما بالأخرى. فرؤية الدار تذكر بمن فيها. والغيوم تذكر بالمطر. ونجد في القصص القرآني هذا الاقتران. فرؤية المساكن الخاوية، تذكر بمن كانوا فيها. يقول علماء النفس: إن الترابط هو الطريقة الوحيدة للتذكر.

وعقولنا تعتمد على الرؤية كثيراً؛ لأن انطباعات النظر تثبت. والصينيون يقولون: إن رؤية الشيء مرة خير من سماعه ألف مرة[2].

ويضرب المثل كيف أن القصص كان كثيراً ما يستفتح بـ "ألم ترَ" ليحول النبي إلى تجربة حية تتجسم في عمل وتتمثل في شعور.

الإقناع: يؤلف قصص القرآن على اختلاف أنواعه ومقاصده وحدة في العقيدة قوامها تجربة شعورية دينية يطمئن إليها الفكر. وهي حقيقة سيكولوجية لا بد من اعتبارها في نظرتنا إلى هذا القصص.

فإذا فحصت هذه الوقائع بعين تنظر إلى الوجود نظرة شاملة، فإنها تكشف عن إرادة تجري على سنن تثير العقل للنظر... قصد التوصل إلى إدراك الحقائق التي يعرضها القرآن على الفكر الإنساني الطبيعي المتحرر، لا الفكر المقيد بالقوالب النظرية المصطنعة، والقضايا الفلسفية الموضوعية[3]. فالأسلوب المنطقي الذي نراه مجرداً جافاً عند المتكلمين يمتزج في القرآن بالأسلوب العاطفي المثير، دون أن يكون ذلك على حساب أدلته وبراهينه. فهو يخاطب الإنسان عن طريق قضاياه ومشكلاته ليتطلع إلى معرفة الحقيقة ذات الصلة بحياته الحاضرة، ومصيره البعيد. وهو يدعو إلى النظر في الكون لاستنباط

---

١ – يوسف مراد: علم النفس العام، ص١٩٥–ص٢٠٨

٢ – التأثير في الجماهير عن طريق الخطابة، ص٦٤

٣ – تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص٦٨–ص٧٠

سننه، وللاهتداء إلى خالقه... وكل هذه الدعوات موجهة إلى قواه العاقلة... والحق أن القرآن إذ يقدم في قصصه للعقل شواهد الألوهية، فليس لتعطيله، بل لإثارة ملاحظته... فإن الملاحظة التأملية تنشئ الفكرة، والفكرة تنشئ التجربة، وتقود من الأثر إلى المؤثر، ومن التدبير إلى المدبر.

ثم نقل عن الغزالي في القسطاس المستقيم بعض طرائق القرآن مما جاء على أقيسة المنطق. وقال المؤلف إن هذا لا يخلو من تعسف.

يقول إقبال: "ظل الغزالي على الجملة تلميذاً لأرسطو في المنطق، ووضع في كتابه القسطاس بعض حجج القرآن في أقيسة المنطق الارسطي...[1] ".

وقصص القرآن مزيج من العقيدة والمعرفة، ومن العاطفة والفكر والحق والجمال. فهو يربط الأحداث بالسنن، ليجعل إدراك الأمور بالاعتماد على أصول قارة. وكثيراً ما يتخذ مادته من مشاهد الكون.

وينقل عن إقبال أيضاً: "إن العاطفة الدينية إذا استقرت ورسخت في الوجدان تصبح غنية عن المدد الفكري بقدر ما تحتاج إلى المدد العاطفي".

والقصص القرآني لا يصادم الحقائق المنطقية المسلّم بها، لأنه لم يبن أحكامه على آراء فلسفية، أو نظريات علمية تتطور.

يقول علماء الاجتماع: لا يكون التفكير منطقياً إلاّ إذا كان اجتماعياً، ولكن علماء النفس قلبوا نظريتهم فقالوا: لا تكون الحياة الاجتماعية سليمة إلاّ إذا استندت إلى التفكير المنطقي. واستشهد بآية البقرة: ﴿اتبعوا ما أنزل الله، قالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا...﴾.

ثم يذكر أمثلة من مناظرات القرآن، كمناظرة إبراهيم مع الذي آتاه الله الملك. وذم القول بذم الجدل، وقال إنه مذموم إذا استخدم في الباطل. ثم أشار إلى أن في العرب مللاً تقتضي أن يناظروا فيما يعتقدون.

ومن الأدلة على البعث ساق ما في سورة الحج، فقاس الغائب على الشاهد. ومن أوضح الأدلة في قصص القرآن آثار العقوبات في ديار أهل الشرك: ﴿فتلك بيوتهم...﴾ ومن الأدلة القياس الواضح: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم...﴾.

---

١ - تجديد التفكير الديني لإقبال، ص١٤٧.

يقول لوبون: "لا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمساواة جميع الناس أمام الله. والإسلام من أكثر الأديان ملاءمة للعقل..." [1].

ثم يختم الكاتب: وهكذا كان القصص القرآني يدفع إلى التفكير... فهدى إلى المعرفة التي يؤمن بها القلب قبل العقل.

الإبداع الفني:

إذا كانت معالم الأصالة الفنية تبرز في القصة على قدر ما تتضح الفكرة الأساسية لها، وعلى قدر اتصالها بالإنسان في جوهره وحقيقته بأسلوب جذاب، وصيغ للتعبير موحية في طرافة وامتاع وصدق، فإن إبداع الفن في القصة القرآنية على ايجازها يبدو جلياً في وحدة موضوعها وطريقة عرضها للأحداث في مشاهد حية، وأسلوب أدارتها للحوار بما يصور المعاني الذهنية وينم عن الحالات النفسية، وحسن اختيارها للموقف المثير لتوجيه القلب للعبرة. وليست وظيفة الفن إلاّ أن يخلق شيئاً حياً نابضا يؤثر في النفس والفكر.

ثم ينقل عن التصوير الفني والظلال، شيئاً عن منهج القرآن في التعبير، وتفضيله أسلوب التصوير، الذي يحيل القصة حادثاً يقع لا حادثة تروى... وأن الإبداع ليس في اللفظ والمعنى فقط، ولكن في المنهج والنظم.

ثم ذكر الكاتب عدداً من السور استغرق القصص أغلب آياتها كالكهف ومريم. وأشار إلى الفاصلة القرآنية التي تحمل شحنتين: الموسيقى، والمعنى المتمم للآية. ثم أشار إلى دور الكلمة وضرب المثل بـ "أفرغ" في الرحمة و"صب " في العذاب.

ونقل عن ابن القيم وغيره ما يعزز موضوعه في أهمية البلاغة والبيان وتأثير ذلك في النفوس.

وذكر عدداً من الشواهد من قصة يوسف ونوح، وإبراهيم، وأشار إلى التكرار والقصد منه. وأنه يرمي ترسيخ الأفكار. وأشار إلى ما أشار إليه سيّد من وجود الفجوات في المشاهد ليفسح المجال للخيال كي ينطلق حراً فيتصور...

الفصل الرابع: نظرات في قصة يوسف.

هذا الفصل قصير نسبياً بازاء عنوانه وموضوعه، فهو في ثلاث وثلاثين صفحة. يبتدى هذا الفصل بذكر سبب نزول ذكره الكشاف، ولا أظنه يصح، وذلك أن يهوداً سألوا رسول الله -صلى الله

---

١ - حضارة العرب، ص١٥٨-ص١٥٩.

عليه وسلم- لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ فترلت سورة يوسف !! ولا يتصور أن سورة طويلة تترل جواباً لمثل هذا السؤال.

ولو لم يذكره الكاتب لما نقص شيء. ثم يقول عن هذه القصة أنها أطول قصص القرآن، ويذكر تعدد شخصياتها وتلون الأحداث فيها، ويجري فيها الحوار ليناً رقيقاً، وعناصر القصة موزعة بمقدار يتطلبه الفن القصصي. وقد بنيت بناء محكماً من حيث وحدة الموضوع... واشترك فيها الفن والإحساس، فجاءت ثرية بالألوان والسمات؛ لأنها جمعت من عناصر القصة ما تفرق في غيرها. وجاء ترتيبها للأحداث في تناسق وتسلسل

وخيط الأحداث تمسك به يد العناية الإلهية من البداية إلى النهاية، فقد بدأت برؤيا وختمت بتحقيقها. بيد أن تلك الأحداث التي كان فيها للعواطف دور فعال، وانعكاسات نفسية أثرت على مواقف الأشخاص...

وتحت عنوان "سير الأحداث في القصة" قال: إنها تسير سيراً طبيعياً وفق سنن الحياة. ثم استعرض مشاهد القصة...

وتحت عنوان "الجانب النفسي في القصة" قال: قصة يوسف هي قصة الشخصية والأحداث معاً. فهي لا تسجل الواقع فحسب، ولكنها تنتصر للقيم. وقد أبرزت صراع النفس، والدارس لهذه القصة يستطيع أن يبرز شحنات نفسية من أبطال القصة، ومن بعض كلماتها وإشاراتها. فنحن نلحظ كلمة الصبر على لسان يعقوب، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف، وتوكيد الأيمان على لسان الأخوة. ثم نقل عن ماهر البقري ذكره بعض أنواع السلوك: كالتدبير والإسقاط والكذب والغيرة والقلق والاحساس بالذنب، ونحو ذلك من الحيل الشعورية.

فأخوة يوسف ظلوا ضحايا الكبت الذي عاشوه وعانوه، كي يخفوا رغبتهم في التخلص من يوسف. وكان من نتيجة هذا الكبت أن انحرفوا بتفكيرهم، فكل ما كان يهمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه، ثم ذكر صنيعهم في زعم أكل الذنب له...

وقد وقعوا في حالة التبرير كما يفعل المذنب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه ليبين لنفسه وللناس أن لسلوكه أسباباً معقولة: ﴿إنّا ذهبنا نستبق...﴾.

وإذا كان "الإسقاط" هو حيلة يسقط بها المرء نقائصه على الآخرين، فان القرآن قص علينا وصفهم لأخيهم بالسرقة: ﴿إن يسرق...﴾، وفي السورة آيات أخرى تتحدث عن أدق النظريات لعلم النفس الحديث.

وتحت عنوان "الأحلام في القصة" قال: نجد في هذه القصة عنصراً يتصل بعالم النفس فقد تضمنت أربع رؤى. ثم عدها. وأشار إلى بحوث علماء النفس ودراساتهم في موضوع الأحلام، وأشار إلى تضارب آرائهم، فمنهم من يرى أنها صور من اللاشعور البدائي ومنهم من يرى أنها تعويضية، فالأحلام عندهم ترجع إلى أحد نوعين: إما شعوري أو لاشعوري، وهذا هو ما رسب في النفس من رغبات مكبوتة، فيتخذ العقل الباطن متنفساً لهذا الكبت.

ولكن الرؤى التي في القرآن لا تنطبق على هذين، وإنما هي نوع ثالث مستقل، لم يشأ علماء النفس أن يقروه، وهو اكتشاف الغيب، والتنبؤ بالمستقبل.

ونقل عن مقدمة ابن خلدون أن النفس إذا خفت عنها شواغل الحس، بالنوم، تتعرض إلى معرفة ما تتشوق إليه... وذكر "المبشرات" في الحديث.

وتحت عنوان "بين القرآن والعهد العتيق" بيَّن الفارق الذي في القصة بين الكتابين. وذلك في المدخل، وفي الأسلوب، وفي الأحداث.

فالقرآن يضع القصة في اطار ديني، والأحداث مرتبة ترتيباً منطقياً، والنتائج مبينة على مقدمة يتقبلها العقل... أما العهد العتيق فقد وضع القصة في إطار عائلي، يحمل طابع السرد التاريخي المجرد، دون أن يشير إلى ما وراء الأحداث من عظات...

ثم وضع النص في عمودين متقابلين. وذكر الفروق. ومنها حال يعقوب عند المصاب، ففي التوراة هلع وجزع وفزع، وفي القرآن رضا وتسليم.

وفي التوراة أن الحيلة انطلت على يعقوب، بعكس ما في القرآن إذ كشف كذب الأبناء... (ومما آخذه على الكتاب والكاتب زعمه أن الهم وقع من يوسف، وهو في هذا مسبوق، لكنه غير محق).

وهكذا يستمر في المقارنة وهو أمر جيد حتى نهاية القصة. ومن الفوارق أن القرآن ذكر إحسان يوسف لأخوته أما في التوراة فإنه كلم اخوانه بجفاء واتهمهم بأنهم جواسيس ثم ختم الفصل بقوله: المتأمل في هذه القصة يدرك بعد المقارنة انفراد القرآن بالإيجاز، وإبراز المعالم الروحية...

الفصل الخامس: الجانب التربوي في قصص القرآن.

يقع هذا الفصل في خمس وخمسين صفحة من ص٥٤٣-٥٩٧. يبتدئ الفصل بعنوان فرعي هو: أثر القصص في العقيدة والسلوك، يقول فيه: قصص القرآن متناسق في منهجه التربوي مع منهج القرآن. فهو تطبيق بالمثال الحي لهذا المنهاج المتكامل؛ ذلك أن القرآن بقصصه وتوجيهه العقدي وتشريعه

وحدة متناسقة، وإن تنوعت طرقه في التعليم... لتجديد نشاط النفس بتجدد الانتقال من غرض إلى آخر في السورة الواحدة.

ثم ذكر حديث كان خلقه القرآن، وأن الرسول أسوة المسلمين كما في الآية، التي تشير إلى مذهب جليل في الأخلاق... القدوة والمثل.

ثم قال: إن أشد المواعظ تأثيراً ونفاذاً إلى القلوب ما عرض في أسلوب قصصي. وقال: إن الوسائل والأهداف ترتبط في مناهج التربية. وذكر بعد ذلك كيف تفعل القصة في النفس حين تبلغ النفس مع القصة قمة انفعالها البالغة حد الانصهار –بتعبيره– ففي قصص القرآن تربية دينية لها أثر عميق في النفوس. والحقيقة التي يؤكدها القصص القرآني أن موازين القيم والاخلاق مرتبطة بميزان الله. فالكفر ظلمة، والإيمان نور. ولا إصلاح بلا عقيدة. ولا إيمان بلا تربية. وقد عجز لوط عن اجتثاث ما تمكن من نفوس قومه من منكرات لأن منشأها عقيدة الكفر. ويفيد التحليل النفسي للعادات الفاسدة أنها تبطل بمجرد اقتلاع العقيدة. لذلك أقام القصص القرآني منهجه التربوي على العقيدة. والاعتبار بآثار الحوادث الكونية التي عذب بها المبطلون. ثم إلى عالم الغيب... فهذه العقيدة تبعث في النفس الاطمئنان والاتزان.

والدارس للقصة القرآنية يدرك الدور العظيم الذي قامت به في تربية العقيدة. وضرب المثل من قصة إبراهيم وآدم. وقصة ابني آدم.

وقد أكدت الدراسات التربوية النفسية أن الإيمان بالله وقاية من الأمراض النفسية.

وذكر من خواص العقيدة الاسلامية أنها منشئة دافعة... وختم بنقل عن "المنار" أن الإيمان الصحيح هو صاحب السلطان الأعلى على القلب والإرادة. فإن نازعه في سلطان طائف من الهوى فإنه لا يلبث أن يقهره...

تربية الأنبياء:

وتكلم فيه عن بعدين: تربية الله للأنبياء، وتربية الأنبياء لأقوامهم.

والقصص القرآني يصور ما أكرم الله به رسله من عناية، وأحاطهم من رعاية... وذكر أمثلة من مختلف القصص... ومنها ما في قصة موسى من إرساله لفرعون وكيف آنسه الله قبل إرساله وهيأه...

أما تربيتهم لأقوامهم، فهم رسل دين ومؤسسو حضارة واجتماع وأسلوب جديد في الحياة، في العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية كما يقول الندوي في كتاب النبوة والأنبياء. وقد

علمنا الرسل بما حكى القرآن في قصصهم أن المثل لا تتحقق إلاّ بتحقيق الذات. والرسل مـــزودون في معركتهم بمعرفة دقيقة للنفس ومشاربها. وهم يعرضون على أقوامهم قصص الأولين.

مسالك التربية في قصص القرآن:

للمنهج التربوي في القصص القرآني مسالك عديدة تلتقي عند نقطة هي الإيمان الذي يـــسمو بالنفس، ويكون الشخصية المتزنة التي تعمل جميع طاقاتها، وأهم القدرات التي تساعد على تحقيق التكامل القدرة على التمييز، والقدرة على ضبط النفس.

وأهم مسالك التربية في القصة القرآنية: التربية بالأحداث، وتعرف الأحداث بقوة تأثيرهـــا... وضرب الكاتب أمثلة من القصص.

ثم ثانياً بما في القصص القرآني من شخصيات مثالية كالأنبياء. جعل منهم القرآن نماذج إنسانية عالية. وضرب المثال بداود وأيوب... الخ.

وثالثاً: التربية بالحوار، والقرآن عرض لقطات من الأقوال الموحية. فيصوغها في عبارات موجزة بليغة تفيض حكمة ورشداً، أو ضلالاً وزيغاً... وذكر المثال من حوار فرعون وموسى.

علاج الذنب بالتوبة:

هذا آخر عنوان في الكتاب وجاء في تسع صفحات. وقال فيه: أهم وسائل التربيـــة القرآنيـــة لوقاية النفس من آفات الزيغ تتمثل في التحذير من غواية الشيطان. دون اللجوء إلى قتل الغرائز. ومـــن الوسائل الوقائية النفسية في القصص: الترغيب والترهيب.

ثم نقل عن ابن القيم بعض الوجدانيات حول قصة آدم ضمنها ابن القيم في مدارج السالكين.

ثم ذكر قصة داود. وحكمة القرآن في العلاج بالتوبة. وذكر استغاثة يونس، واستغفار موسى.

أما الاعتذار بالقدر فهو فرار من المسؤولية واتهام لله. فالتوبة دليل ضمني على ضرورة اللجوء إلى التنفيس.

فعلى المؤمن أن يجدد نفسه، وأن يستأنف مع ربه علاقة أفضل.

وختم الكتاب بحديث البخاري: "اللهم أنت ربي لا اله إلاّ أنت... فـــاغفر لي فإنـــه لا يغفـــر الذنوب إلاّ أنت".

الكتاب السابع عشر

ذو القرنين
القائد الفاتح والحاكم الصالح

تأليف: محمد خير رمضان يوسف

ط١، دمشق: دار القلم، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

ذو القرنين: القائد الفاتح والحاكم الصالح / محمد خير رمضان يوسف.

هذا بحث جيد، فيه منهجية وإنصاف، وأناة، وجهد وصبر، وموضوعية، واتزان، وعدم اعتساف النتائج، ولا القدوم إلى ساحة البحث بأحكام معدة معلبة جاهزة مسبقة...

ومن مزاياه دقة التوثيق والعزو، فكل قول منسوب إلى صاحبه طال النقل أم قصر، وفيه وفرة طيبة في المراجع إذ نيفت مراجع الكتاب على الأربعين ومئة مرجعاً منها القديم والحديث.

ومن مزاياه التزام النص والاحتكام إليه، كائنة ما كانت الأقوال، أو قائلوها، فالمرجع النهائي هو النص القرآني... وهذه منهجية يحترم صاحبها ويقدر له التزامه الدقيق وتقيده التام بالأصل الأصيل لهذا الدين والمصدر التاريخي الموثوق الوحيد... القرآن الكريم.

وهذا بحث يقدر الجهد فيه، ويقدر الذي اجتهد بقطع النظر أتفقت معه، أم اختلفت وإياه، فإنك تحترم جهده ودقته وحرصه .

وقد جاء متقدماً على أخيه بحث: الخضر للمؤلف نفسه، بشكل واضح، مما يعني أن الكاتب يطور نفسه وأداءه، ويثبت أقدامه على طريق البحث، ويشق لنفسه طريقاً إلى المكتبة الإسلامية والكتب ذات القيمة، ويحفر اسمه في ديوان الباحثين المتميزين. وإن كنا نأخذ عليه (أخذاً يسيراً) موقفه من الإسرائيليات الذي فيه شيء من التساهل، وإن كان موافقاً لجمهور العلماء، وكنا نتمنى أن يكون أكثر تحرزاً وتحفظاً منها خاصة وأنها ظهرت نتائجها في الواقع العملي، مما لا يحتاج معه إلى تنظير، وتقسيم نظري حول ما وافق وما سكت عنه... الخ.

وعلى العموم فهذا بحث متميز، فيه دقة وجهد ومنهجية وخدمة للموضوع لا تخفى على المطلع أو المطالع.

يقع الكتاب في اثني عشرة وأربعمئة صفحة وستة فصول. في المقدمة يقول الكاتب: الحياة معركة بين الحق والباطل. والتاريخ صفحة كبيرة، يسطر فيه أنصار الحق روعة الصبر وقوة الإيمان، ويسطر فيه أنصار الباطل غواية الضلال. والعقل يحكم على تلك الأعمال. ويصطدم العقل بظلمات من الظلم. فأكثر الحروب في التاريخ أدارها أشخاص ذوو أهواء، عشش في عقولهم الغرور. وفي المقابل كم من الأشخاص الذين سجلوا المآثر وعمروا الدنيا وفتحوها... ومن هؤلاء ذو القرنين... الذي ضرب المثل الرائع وفتح صفحة تاريخ مشرقة...

ثم قال أنه استنصح عالماً أن يؤلف عن ذي القرنين فقال: لا تفعل. لأنك لن تصل إلى نتيجة. ولكنه سار واصطدم بعقبات وصمم على المضي في البحث لدوافع عديدة منها أن يحقق الخلاف في هذه الشخصية، وملء فراغ في المكتبة الإسلامية، والكتابة في سلسلة أعلام قرآنية، وليعقد مقارنة بين القيم الإيمانية والقيم السائدة للحضارة الغربية... الخ. وجاء الفصل الأول بعنوان:

الفصل الأول: تحقيقات على هامش حياة ذي القرنين.

وابتدأ من ص١٥ واستمر حتى ص٨٠. وجاء هذا الفصل ذو الخمس والستين صفحة في مبحثين، تحت كل مبحث ما يزيد على عشرة عناوين فرعية. وجاء الأول في ثلاثين صفحة والثاني قريب منه.

وفي مقدمة المبحث الأول جاء مدخل قال فيه في شبه اعتذار للقارئ: لا تنتظر أن أتحفك بعجائب القرون وغرائب البطولات... وإنما الأمر بحث وتحليل. ولو شاء نقل كل ما كتب عن هذا الشخص (ذي القرنين) لجاء الكتاب في مجلدات.

بعد هذا دخل في عنوان فرعي جديد: ملوك الدنيا. ذكر فيه الذين حكموا الدنيا. وأن ذا القرنين منهم، وأن أمره عجب كله، فقد طاف الدنيا وبلغ المشرق والمغرب، والذي خلده هذا الكتاب العظيم... القرآن.

ولكنْ هناك آخرون طافوا الدنيا، فقد ذكر عن كثير من ملوك اليمن هذا، ولكن تاريخهم لم يثبت، ثم نقل عن معاوية قوله: ملك الأرض أربعة: سليمان بن داود، وذو القرنين، ورجل من أهل حلوان (بالعراق يقول)، ورجل آخر فقيل له الخضر. قال: لا. ونقل عن الثوري مثله، ولكنه فسر الاثنين الأخيرين وذكر أنهما: نمرود، وبخت نصر. وقد جاءت هوامش الكتاب مثقلة بالشروح عن هذه الأسماء والروايات حولها، والتعريف بالشخوص. ونقل عن القرطبي شخصاً خامساً هو المهدي.

ثم انتقل بنا المؤلف إلى عنوان جديد، هو: كتب أُلفت عن ذي القرنين. فذكر أن هناك كتباً بعنوان: الإسكندر المقدوني ذو القرنين. وهذا من مخطوطات المجمع العراقي. وللجرجاني: سيرة اسكندر في مجلدات. ولأبي إسحاق الهمداني: أخبار ذي القرنين. ولراغب الطباخ: ذو القرنين وسد الصين في (مئة صفحة)، وهو نقل عن وهب بن منبه في كتاب (التيجان). وكرر فيه أنه الصعب الحميري العربي. وأكد أن السد هو سور الصين. وكتاب مفاهيم جغرافية في القصص القرآني/ قصة ذي القرنين للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر في (٣٣٣) صفحة. ودرس ثلاثة احتمالات: شمر، والإسكندر، وكورش.

وكتاب: ويسألونك عن ذي القرنين لأبي الكلام أزاد وزير المعارف بالهند سابقاً، وهو في (١٠٠) صفحة. ويرى أنه كورش. وانتصر له الدكتور عبد العليم.

وأخبار (ذي القرنين) بعد هذا مبثوثة في التفاسير وكتب القصص. وكتب أشراط الساعة. أما من يكون، فيقول المؤلف: إن الأقوال تكاد تنحصر في ثلاثة: الإسكندر، الصعب، رجل في عهد إبراهيم، ورأي جديد أنه كورش. وقال أنه سيبحث كل واحدة من هذه الشخصيات في فصل.

وقال الكاتب: إن هناك روايات عن آراء فردية أخرى وساق منها روايات عن ابن عباس، وغيره. (وأعتقد أنها لا تصح)

ثم انتقل بنا الكاتب إلى عنوان جديد في المبحث الأول هو:

سبب لقبه بذي القرنين:

أشار الكاتب إلى ما أسماه بحر الخلافات، في موضوع سبب التسمية. (وأقول: إنه بحر جاف لا ماء فيه، ولا قضية من وراء هذا الخلاف، وأغلب الأقوال ليست ذات ائتلاف)، نعود للكاتب الذي ذكر سبب التسمية وعدد عدة وجوه:

١- أنه دعا إلى طاعة الله تعالى فضرب على قرنه الأيمن فمات فبعثه الله، فدعا فضرب على الأيسر فمات، فبعثه الله، فسمي بذي القرنين، وهو يقول: إنه مروي عن علي، رواه ابن كثير في البداية والنهاية. وأقول: (إن مثل هذه الأقوال لا تحتاج إلى تعليق، وإنني لأعد أن مجرد قبولها علامة عدم عافية، وعدم صحة في العقل المسلم، بل إن نقلها من العبث، ولولا حرصنا على أن يعرف القارىء ماذا في كتبنا لما ذكرت مثل هذه الروايات التي أثقلنا بها المؤلف في هذا العرض الملخص السريع).

بل إنه ينقل عن الإيجي (٨٩٤) أنه صح عن علي !! (وذلك في تفسير جامع البيان!). ورواه الطبري كذلك، والأغاني عن علي أيضاً، وفي تاج العروس ذكر نفس الرواية. وأقول: (يكفي أن يذكر عجيبةً من العجائب كتابٌ واحد حتى يتلقفها مئة متلقف ثم يقال: يكاد ينعقد الإجماع على أنه كيت وكيت...).

٢- وقيل لأنه بلغ المشرق والمغرب (أي قرني الشمس). ويذكر صاحب تاج العروس حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم يقوله لعلي: إن لك في الجنة بيتاً، وإنك لذو قرنيها... (ولا يحتاج مثل هذا إلى تعليق، على ما أعتقد!)

٣- وقيل لأنه كان لتاجه قرنان... الخ، وعد سبعة عشر فولا تسعة أعشارها لا تساوي شروى نقير. وعقب المؤلف عليها (أي الروايات): وفيها ما لا يصح(!!) فقط واختصرها في الأقوال الممكنة وهي التي اخترها من قبل من بين الأقوال. ومنها قول آخر أنه كان لـه ضفيرتان، وساق الشواهد الكثيرة على أن الضفيرة يقال لها قرن ثم ذكر أقوالاً كثيرة لمفسرين ومؤرخين حول ذي القرنين غالبها لا يستقيم ولا يصح، من تسخير السحاب وما إليه من أقوال... وأنه كان بعد نمرود...

ثم ذكر القول بنبوته، وقال ابن حجر: عليه ظاهر القرآن. ثم ذكر حجج من قال بنبوته، ثم ناقش الأقوال ورجح أنه غير نبي (وهو الصواب بالتأكيد). ثم ذكر قولاً عجباً وهو أنه ملَك (بفتح اللام!!) وزعم أنه مروي عن عمر. (وهذا فيما أرى من عجائب العقل المسلم). والقول الثالث أنه عبد صالح. والرابع (وأرى أنه عجيب): التوقف فيه.

والمؤلف ينقل عن صاحب الظلال ما يظنه يفيد هذا، (ولا أعتقد أن صاحب الظلال قصد هذا، وإنما قصد أنه لا ينبني على ذلك شيء فيتجاوز الخوض فيه للتركيز على النص وتحليله...).

ثم يرجح المؤلف أنه كان عبداً صالحاً. ثم ذكر الخلاف في الفترة الزمنية وأي نبي عاصره ذو القرنين. وذكر من بين الأقوال قول الأزرقي أنه أسلم على يدي إبراهيم. وقال في شرح العيني كذلك.

المبحث الثاني : تاريخ ذي القرنين .

من ص ٤٨-ص٨٠، أي أنه يقع في ثنتين وثلاثين صفحة. يقول الباحث في تمهيد هذا المبحث : إن تاريخ ذي القرنين لم يثبت منه شيء إلاّ ما ذكره الله عز وجل، وما نوه إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث قليلة جداً، مع شذرات من التاريخ نادرة. يقول: ومهمتنا أن نلملم بعض ما كتب من نثرات عن ذي القرنين، ونحاول أن نصلها ببعضها... ولم أذكر الكثير مما قيل فيه أو عنه من أساطير وخرافات وإسرائيليات لتفاهتها وقلة فائدتها.

ثم بين خطته في الفصول القادمة. وتحت عنوان تاريخ ذي القرنين قال إن أغلب الأخبار التاريخية عنه هي من رواية أهل الكتاب. والأساطير تكبر حول الشخصيات التاريخية القوية. ثم ذكر الأقوال فيه وهي لا تستحق التسجيل، ومنها عن وهب صاحب الغرائب... أقول: كل هذه الروايات التي استغرقت صفحات والكاتب قد وعدنا أن يجنبنا الأساطير والخرافات.

ثم ذكر وصية الخضر لذي القرنين... وهي أقرب إلى الحكم الشعبية والوصايا الأخلاقية...

ثم ذكر مدة لبثه. وهي كذلك روايات أغلبها أساطير فمن قائل بلبثه ألفي سنة، ونحو ذلك...

ثم ذكر أوليات منسوبة إليه، فهو من أول من لبس العمامة... وأول... ويعقب الكاتب: هذه الأخبار وكثير مثلها لا يجزم فيه الدارسون. لكن المصدر الأوثق هو القرآن وهو ميزان صحة الأخبار.

ثم عقد صفحات للإسرائيليات. وهي كل دخيل على التاريخ الإسلامي. ثم قسمها القسمة المعروفة وهي القسمة التي نعتبرها مدخل الوهن: ما وافق ما عندنا، ما خالف، المسكوت عنه. وهم يزعمون أن ما وافق يمكن أن نرويه وكذا المسكوت عنه. فلم يبق إلاّ المخالف. ولا أعلم مدخلاً لنقض البنيان مثل هذا التقسيم.

يقول الكاتب: وواضح أن القسم الأول مقبول، والمخالف مردود والآخر مسكوت عنه. وأقول: أما الأول فغير مقبول لأن ما عندنا يغنينا. وبالتطبيق العملي، ستجد أن هذا التقسيم نظري لا أساس له في الواقع العملي.

وقد طفق المؤلف يسرد أدلة المنع وأدلة جواز الرواية عن بني إسرائيل. ولن أدخل معه في نقاش. يكفي أن أحيل إلى الواقع التاريخي والدمار الفعلي الذي أحدثته الإسرائيليات والتشويه في العقل المسلم لنعلم حكم روايتها.

وهو يوجه أدلة المنع فمثلاً: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء..." قال ابن حجر: والذي يظهر أن كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم (!!) وينقل دفاع أستاذنا الدكتور الذهبي رحمه الله عن كعب ووهب (!).

وتأمل هذه الرواية يسوقها المؤلف عن كعب: في تفسير ابن كثير أن معاوية قال لكعب: أنت تقول أن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا. فقال له كعب: إن كنت قلت ذاك (!!) فإن الله تعالى قال: وآتيناه من كل شيء سبباً !! (واعجبا!). وينقل المؤلف تعليق ابن كثير وإن هذه من الإسرائيليات المحرفة وأن إيتاء ذي القرنين من كل شيء سبباً أي مما يؤتى مثله الملوك كما قال عن ملكة سبأ: وأوتيت من كل شيء...

ثم يقول الكاتب: إن المستشرقين -في دائرة المعارف الإسلامية- ردوا هذه القصة إلى الخرافات والأساطير الشعبية القديمة... وكأنها هي المصدر، والقرآن إنما يستخدمه. (وهي نظرية خلف الله!). يقول مؤلفو دائرة المعارف: يمكن تتبع القصة القرآنية وردها إلى مصادر رئيسية ثلاثة هي: ملحمة جلجامش، وقصة الإسكندر. والأسطورة اليهودية. (وهي أيضاً نظرية خلف الله باستحياء !). ويرى "نولدكه" أنه يجب البحث عن أصل هذه القصة كما عرفها السريان والعرب... ويقول المؤلف:

والتناقض العجيب هو قولهم أن العرب كانوا على علم بهذه القصة. إذاً فلماذا علّم اليهود العرب امتحان النبي بها ؟

ثم يخلص الكاتب إلى النتيجة وهي أن الإسرائيليات دخلت عامة كتبنا من تاريخ قديم وتفسير، بقصد التزود من الثقافة التاريخية، التي لم ترد في القرآن والسنة، لكن معظم هذه الأخبار كانت مشوهة غريبة.

والعجيب أن المؤلف يعود فيقول: أما حكمها من حيث القبول والرد فواضح أنها مقبولة إذا صدقها الشارع ومردودة إن كذبها، ومسكوت عنها إذا كان الشارع ساكتاً. فلا نصدق ولا نكذب.

ثم يختم بقوله: ولا نستطيع أن نلبس أخباراً ظنية على علم قرآني عظيم... هو ذو القرنين... الذي آتاه الله من كل شيء سبباً.

الفصل الثاني: الإسكندر المقدوني.

يقع هذا الفصل في ثمانين صفحة بالضبط من ص٨٣-ص١٦٢، وهي تعدل خمس الكتاب تماماً. يقول الكاتب في مقدمة هذا الفصل: ما كنت بحاجة إلى هذا الاستطراد الطويل عن الإسكندر وعقيدته، لولا أني رأيت انحرافاً في الكتابة عنه بين مؤرخينا، ومؤرخي الغرب، ولولا أني رأيت انحرافاً واضحاً في فهم الخط الواصل بينه وبين ذي القرنين، رغم وضوحه. والأدهى إصرار بعض علمائنا على أن ذا القرنين هو الإسكندر، بل الجمهور على هذا.

والقائلون بهذا القول فرق: قسم يرى أنه الإسكندر المقدوني، وقسم يفرق بين الإسكندر الرومي واليوناني، وأن الأول قديم، والآخر قبل عيسى بثلاثة قرون. وقسم ثالث يرى أنه الإسكندر وليس الإسكندر المقدوني، وفريق يرى أن الإسكندر رجل مؤمن، وفريق يرى أن القرآن لم يصرح بإيمانه.

ثم دخل الكاتب في نقول أقوال العلماء وابتدأ بالآلوسي الذي يرى أنه الإسكندر المقدوني، وناقش رواية أنه الرومي، وأنه من ولد نوح، ودخل الآلوسي في تفصيلات وإسرائيليات ونقولات وتقولات لا تسمن ولا تغني.

ثم ذكر المؤلف فريقاً من العلماء يرى أنه الإسكندر المقدوني ومنهم المسعودي في التنبيه والإشراف، والمقريزي في المواعظ والإعتبار، والثعلبي في قصص الأنبياء، واللسان لابن منظور، ونزهة

المشتاق للإدريسي، والدينوري في الأخبار الطوال، والفيروزابادي في القاموس المحيط، والنهاية لابن كثير والقاسمي في المحاسن، وغير ذلك...

ثم نقل عن الإدريسي وقائع حدثت لذي القرنين أو الإسكندر بن فيليبس، وذكر الكاتب في هامش ص٨٦ مجموعة من المشاهير الذين سموا اسكندر، ومنهم شارح أرسطو، ومنهم من قاد حملة ضد أردشير... الخ.

وقال أبو حيان الأندلسي: ذو القرنين الإسكندر المقدوني ذكره ابن إسحاق، وقال وهب: هو رومي. قال: والمشهور أنه الإسكندر.

وقال ابن الأثير: الإسكندرية بناها ذو القرنين الإسكندر. ويقول الإيجي: المشهور أنه الرومي، وكان في زمن ابراهيم، وكان قبل المسيح بثلاثمئة سنة.

وفي تفسير ابي السعود أنه الإسكندر اليوناني. وقال النيسابوري: وأصح الأقوال أن ذا القرنين هو الإسكندر الذي ملك الدنيا. وقال ابن عساكر: هو الإسكندر بن فيليبس وجعله من نسل إبراهيم. ويورد ياقوت الحموي وكذا الثعلبي قولاً أن الإسكندر ذو القرنين هو الذي جال الأرض، وبينه وبين الإسكندر الأخير دهر طويل.

ومن المعاصرين الذين قالوا بهذا: الأبياري في موسوعته والخطيب في تفسيره القرآني ووجدي.

ثم قال الكاتب إنه يرى لزاماً عليه أن يكتب عن حياة الإسكندر المقدوني. وقد فعل فنقل عن مراجع أجنبية وغيرها، وملخص ما كتبه أن الإسكندر كان سنة ٣٥٦ ق.م.، ظهرت مخايل الفتوة عليه منذ صغره، رباه أرسطو. في العشرين مات أبوه، فخلفه على مقدونيا، سار لفتح فارس وهو ابن ٢٢ سنة.

يضرب بفتوحاته المثل، أنشأ الإسكندرية، وصل إلى قزوين وأخضع القبائل هناك وبنى إسكندرية ثانية هي قندهار. أمر ببناء ألف سفينة ليخضع بلاد العرب وأفريقيا وقرطاجنة، لكن أصابته حمى مات بها وسنه ٣٣ سنة (٣٢٣ق.م.).

ثم نقل الكاتب عن ياقوت الحموي عدداً من المدن كل منها اسمه الإسكندرية، بناها الإسكندر.

ثم ذكر الكاتب صراع الإسكندر مع دارا ملك الفرس وتغلبه عليه. أُعجب به نابليون وكتب عنه في مذكراته: إنه بشرذمة قليلة فتح قارة.

ومن المؤلفين الأجانب الذين كتبوا عنه وذكرهم المؤلف: المؤرخ الأمريكي هارولد لامب وكتاب الإسكندر المقدوني... ويلخص عنه الكاتب حياة الإسكندر وكيف أن أباه فيليب كان مخمورا دائماً وأنه مات مقتولاً غدراً بطعنة في الظهر بمدية. وأما الإسكندر فمات في قصر نبوخذ نصر ونقل عن وجدي أنه مات مسموماً . ثم نقل حكماً قيلت في موته وقد جمعت له الدنيا.

ثم يذكر الكاتب ملاحظات على كتابات العلماء المسلمين عن الإسكندر، ومنها أنهم يتجنبون الإشارة إلى شركه وذكر المثل بالطبري، وذلك لاعتقادهم أنه ذو القرنين.

ويقول المؤلف: إن الإسرائيليات دخلت إلى كتابات المؤرخين المسلمين، فكانوا يذكرون قصصاً بعيدة عن الواقع. ونقل عن أحمد أمين في فجر الإسلام أن معلومات المؤرخين المسلمين عن اليونان ناقصة وظنوا تاريخها يبدأ من الإسكندر.

ونقل المؤلف عن المسعودي كلاماً يفيد هذا. ونقل عن تفسير الخازن أنه بنى السدود، ويلمح إلى أنه ذو القرنين.

وينقل مطولاً عن دائرة المعارف الإسلامية لوجدي فتوحه للهند وفارس، وبناءه (١٢) مدينة باسم الإسكندرية؛ وتقول دائرة المعارف أن الشهرزوري أظهر الإسكندر بمظهر المدافع عن العقيدة، لان لقبه "ذو القرنين" الذي اختلف في تفسيره أدى إلى اعتباره عين النبي (!!) المعروف بهذا الاسم والمذكور في القرآن، ولا يقر هذا جميع المفسرين... الخ. (ولسنا نحتاج إلى بيان أن ذا القرنين لم يقل بنبوته أحد ممن يعتد بقولهم).

وينقل المؤلف عن ياقوت الحموي تعجبه من أن يكون للإسكندر هذه الفتوح في هذه السن. ويرى المسعودي وابن الأثير أنه الذي بني الردم المذكور في القرآن. ويرى الدينوري أن الإسكندر هو ذو القرنين. ويقول صاحب المستطرف أن ذا القرنين هو الذي بنى منارة الإسكندرية العجيبة. ونقل نقولاً عن السهيلي وابن عساكر حول نفس الشخصية...

ثم نقل بعض الخرافات المروية في كتبنا عن الإسكندر.

ثم يقارن المؤلف بين المصادر الأجنبية الحديثة التي كتبت عن سيرته فيذكر عدة كتب ومسرحيات... ثم يقارن بين مصادرنا ومصادرهم. ويذكر وجوه الخلاف بين المسلمين والأجانب في سيرة الإسكندر. وأبرزها أن كتبنا لا تذكر عبادته للآلهة وشربه الخمر. ولم تذكر الكتب الأجنبية بناءه السد. وأما المحدثون كوجدي فيرون ضرورة النقل عن الأوروبيين لأنهم أعلم به.

ثم ينقل عن هارولد لامب أنه كتبت عن الإسكندر أساطير وأن كثيراً من الأمم تنازعته وادعته لنفسها.

ثم سأل الكاتب: هل الإسكندر المقدوني مؤمن ؟ يقول المؤلف: إن الأمر كله متوقف على هذا السؤال. فلا أحد يقول إن الاسكندر هو ذو القرنين إذا عرف أنه على ملة باطلة. ذلك أن الله أثنى عليه في القرآن. فمن قال أن الاسكندر رجل مؤمن لم يستبعد أن يكون ذا القرنين... ومن رأى أنه على عقيدة باطلة نفى أن يكون هو.

ثم نقل المؤلف تحقيق الآلوسي في هذه المسألة ونقده للروايات، وخلص إلى القول (أي الآلوسي): فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك أكثر المعمورة، وثبت بالتواريخ أن الذي هذا شأنه هو الإسكندر، وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر. كذا ذكره الإمام (يقصد الرازي).

ثم ذكر الآلوسي الإشكال على هذا القول أن الإسكندر تلميذ أرسطو... ثم ينفي أن يكون على مذهبه أن تتملذ عليه. وعلى طريقة القدماء، يذكر الإشكال على هذا الرد ثم يرد الاستشكال، وهكذا في سجال، وليس المجال ذكر الأقوال، المهم أن الآلوسي يخلص إلى ترجيح هذا القول من بين الأقوال... أي أنه الإسكندر. وقال:

وما علي إذا ما قلت معتقدي   دع الجهول يظن الجهل عدوانا

ثم قال: واليهود قاطبة على هذا لكنهم وقعوا في الإسكندر... الخ.

وقال المؤلف: إن أشد من انتصر لهذا القول القاسمي. ونقل قوله. وكذا يدافع عبد الكريم الخطيب عن هذا الرأي، لكنه يحتاط في نهاية قوله المطول فيقول: وسواء أكان الإسكندر أم غيره فإنه ذو سلطان متمكن، ومؤمن بالله.

ثم شرح المؤلف شيئاً من فلسفة أرسطو... لتعلم عقيدته. وملخص أقواله أنه ينكر الغيب، وينكر الخلق وإنما كل شيء عنده قديم بلا أول، والعالم لا يحتاج إلى موجد. والإله عنده علة العلل والمحرك الأول [1].

ثم نقل المؤلف نقولاً من مراجع مختلفة منها دائرة معارف القرن العشرين عن العقيدة الشركية للإسكندر... وأنه كان يعبد كل الآلهة التي يمر بها في فتوحه.

١- ارجع إلى تاريخ الفلسفة: دي بور، وأرسطو عند العرب لعبد الرحمن بدوي، وكتاب: مع الفلسفة اليونانية لشارل ذرنر، وعرض تاريخي للفلسفة لوولف... الخ.

وابن كثير يرى أن الإسكندر ليس ذا القرنين، وإنما هو إسكندر آخر بينه وبين المقدوني زمن. وينقل عن ابن القيم في الإغاثة القول ذاته. والشوكاني يراهما اثنين.

ثم ينقل المؤلف إشكالات الرازي: مدح القرآن للإسكندر يعني أن مذهب أرسطو حق... الخ. (وهو كلام باطل كما ترى مبني على غير مسلّمات..)

ويقول الندوي في كتابه عن سورة الكهف: اختلف المفسرون في شخصية ذي القرنين والذائع المشهور أنه الإسكندر. وعلق الندوي: وأرجح أن هذا القول ناشئ من عدم الإطلاع على تاريخ الإسكندر وسيرته في الحروب.

أما البخاري فقد أورد ترجمة ذي القرنين قبل إبراهيم عليه السلام (الفتح، ج٦) كأنه يوهن من زعم أنه الإسكندر المقدوني. قال ابن حجر: لأن الإسكندر كان قريباً من زمن عيسى وبين زمان إبراهيم وعيسى أكثر من ألفي سنة.

ويقول صاحب الظلال: "إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين، ولا عن زمانه، أو مكانه، وهذه هي السمة المطردة في قصص القرآن، فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود..." (الظلال، ج٤، شروق).

ولفريد وجدي رأي عجيب إذ يرى أنه طالما أن المفسرين قالوا إنه الإسكندر، فإن القرآن يثني على الجزء الحق من الفلسفة اليونانية !!. وبعد نقد رأي وجدي يبدي الكاتب رأيه فيقول: إنه لا يوجد في نص من النصوص الإسلامية إشارة إلى تعيين شخصية ذي القرنين . والذي أميل إليه أن الإسكندر ليس بذي القرنين.

الفصل الثالث: الملك الحميري ذو القرنين.

ويقع هذا الفصل أيضاً في ثمانين صفحة بالضبط، من ص١٦٥-ص٢٤٤. يقول في مقدمة الفصل إنه لا يريد أن يطيل على القاريء كما أطال في الفصلين السابقين، وأقول: ولذلك جاء هذا الفصل كسابقه بالتمام والكمال بلا زيادة ولا نقصان. وعلل عدم الإطالة بأن تاريخ ملوك حمير معلوم، وكتب عنهم الكثير، وكانت الكتابة خليطاً من المبالغة والحقيقة والأساطير.

ولم يعرف في تاريخ العرب الجاهلي أعقد من تاريخ ملوك اليمن. وأعقد ما في المسألة قولهم أن ذا القرنين المذكور في القرآن هو أحد ملوك حمير... وأنه عربي من اليمن، فتح بلاد الشرق والغرب

وبني السد وعرف بصلاحه... وأول كتاب كتب حول هذا كتاب "التيجان" الذي رواه وهب بن منبه، ففيه تاريخ التبابعة وركز على ذي القرنين.

وممن كتب فيه بإسهاب من المعاصرين: محمد راغب الطباخ -رحمه الله- في كتابه "ذو القرنين وسد الصين".

وبدأ المؤلف الأقوال بتعدد الآراء والخلافات التي ابتدأها بشعر لتبع أبو كرب (لعلها كريب):

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملك تدين له الملوك وتحشد

وذكروا أن اسمه الصعب ذي مراثد، وهو من العرب العاربة أو العرباء[1]، وبه جزم كعب الأحبار (!!).

وأنشد ابن هشام للأعشى:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً بالحنو في جدث أميم مقيم

وذكر عن كتب الأنساب أسماء أخرى للصعب فمرة هو الصعب أو أبو الصعب أو مصعب.
وينقل عن محب الدين الخطيب سر الاختلاف في الأنساب بأنه ربما مات الرجل فتزوجت امرأته فينسب الابن مرة للأول ومرة لزوج أمه الثاني... وأحياناً بسبب نزوح قبيلة عن ديارها، فينتسب الأبناء إلى القبيلة الجديدة.

وسئل كعب عن ذي القرنين، فقال: الصحيح عندنا (!) من علوم أحبارنا وأسلافنا (!!) أنه من حمير وأنه الصعب بن ذي مراثد.

ويرجح ابن حجر في اسمه أنه الصعب. وذكر الكاتب عدة شعراء قالوا أبياتاً فيها ذكر ذي القرنين.

ومما استدل به على أنه من حمير لفظ "ذو". وذو القرنين من ألقاب ملوك اليمن، وكان منهم ذو جدن وذو الكلاع وذو نواس... الخ. وقال البيروني: الأذواء يعرفون في بلاد حمير.

وينقل الآلوسي في كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أن ذا القرنين هو أبو كرب.

وذكر الكاتب أنه لن يترجم لكل من قيل عنه أنه ذو القرنين، لكنه سيتعرض من بينهم للصعب الذي ترجم له الطباخ في كتابه ذو القرنين...

١- قال المؤلف: انظر المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي، وفتح الباري.

أما الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، فقد تعرض لحياة ثلاثة منهم هم: شمر، عمر، إفريقس ويطلق عليه الصعب.

ثم ذكر الكاتب جدولاً بملوك حمير ومن مراجعه جرجي زيدان وأحمد هبو واسم كتاب كل منهما: تاريخ العرب قبل الإسلام. وكذلك في كتاب جغرافية القصص القرآني لعبد العليم خضر. وقال ابن خلدون في كتابه العبر: إن ملوك اليمن يسمون التبابعة، ومن لم يكن له شيء من الأمر يسمى ملكاً ولا يقال له تبع.

وفي تاريخ العرب قبل الإسلام للسيد سالم أن تاريخ العرب في دولة حمير فيه شك وغلو. وفي فتوحه الصين وما إليها إنه قصص خرافية.

ثم ترجم الكاتب للصعب وذلك من رواية وهب بن منبه (!) وفيه مبالغات. وفيه أن الخضر كان في جيشه فلما مات اختفى الخضر ولم يظهر إلاّ زمن موسى(!) وذكر وهب الأشعار التي قيلت فيه وفي رثائه !!.

وفي كتاب الطباخ أن العرب (الذين مع ذي القرنين) بعد أن وصلوا الصين واليابان عرجوا على أميركا.

ثم يتعرض الكاتب إلى آراء وروايات ترى أن ذا القرنين غير الصعب. وينقل نقد الآلوسي. والدكتور عبد العليم للروايات القائلة بأنه شمر... أو ياسر أنعم. ثم يذكر بعض الأساطير عن صعب. ثم ينقد الكاتب روايات وهب وغيره عن الصعب بأنها لا تتصف بالمنهجية العلمية الدقيقة. بل يغلب عليها طابع القصص الشعبي، وتتأرجح بين المبالغة والتهويل والخرافة والأسطورة، أما الحقيقة فإنها بعيدة... وقريب من هذا ما قال ابن خلدون إذ قال: وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة.

ثم نقل عن عبد القدوس الأنصاري في كتابه: بين التاريخ والآثار قريباً من هذا. ثم علق الكاتب بما سماه كلمة أخيرة. وقد رد في كلمته أن كلمة "ذو" مختصة بالعرب. وأن كثيرين سموا بذي القرنين، وذلك لإتساع فتوحهم في الشرق والغرب. وأخيراً يقول الكاتب: أنا لا أشك أن هناك ملكاً حميرياً اسمه الصعب، عاش بعد (٣٠٠)م، ولا استبعد أن يكون لقب بذي القرنين، ولكنه ليس بذي القرنين القرآني بأي شكل من الأشكال.

ذو القرنين: الفصل الرابع... كورش الإخميني.

يقع هذا الفصل في ثلاث وثلاثين صفحة من ص٢١١-ص٢٤٤، ويناقش فيه قولاً آخر في تحديد شخصية ذي القرنين، وأنه "كورش الإخميني"، وهو ما لم يتناوله أحد من مؤرخينا أو باحثينا القدماء... فهو رأي معاصر، قاد لواء الدفاع عنه أحد الأعلام في هذا العصر... إنه المرحوم أبو الكلام أزاد... وزير المعارف بالهند سابقاً... الذي اطلع على التاريخ الفارسي القديم فرأى فيه أبرز شخصية إيرانية... كورش... ورأى أن صفاته تنطبق على ذي القرنين، إذ عرف عنه العدل والإصلاح والإنسانية.

وقد أيد أبو الكلام رأيه هذا بقوة وجمع له الدلائل والبراهين، وسانده بدراسات جغرافية وبحوث أثرية... فكان بذلك بحثاً علمياً متكاملاً... وقد جمع هذه الآراء في كتابه: "ويسألونك عن ذي القرنين".

والكتّاب الذين أيدوا فكرته، وضموا إليه أصواتهم، أوردوا رأيه وأضافوا إليه دراسات ومناقشات. فكانوا بهذا يمثلون إتجاهاً جديداً له قيمته.

ويبدو أن هذه الكلمات الأخيرة من المؤلف تأتي اعتذاراً عن عدم اطلاعه المباشر على الكتاب، وإنما إطلع عليه بالواسطة أي من خلال من نقلوا عنه كالدكتور عبد العليم خضر في كتابه "جغرافية القصص...".

ثم تحدث الكاتب عن شخصية كورش ونشأته، وأنه كان سنة (٥٣٤)ق.م. وأنه خاض عدة حروب، وقد عرض المؤلف تاريخاً ممزوجاً بالأساطير...

ثم خصص صفحات لفتوحاته وحروبه، وأنه استولى على ليديا والمستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى، ثم سيطر على بعض الجزر اليونانية، ثم واصل فتوحه في المشرق حتى وصل نهر سيحون، ونهر السند، واستولى على بابل.

ثم ينقل المؤلف عن عبد العليم خضر وصف فتوحاته في المغرب عند شواطئ بحر أيجة، حيث يصب نهر غديس في خليج إزمير محملاً بالطين الذي يجرفه معه من هضبة الأناضول، وعندما وقف قورش (ذو القرنين) عند إزمير تأمل قرص الشمس وهو يسقط عند الغروب في هذا الخليج الذي يشبه العين تماماً... واختلطت حمرة الغسق الأحمر والأسود الذي يلفظه نهر غديس في عين خليج ازمير...

قال خضر: ويرجح أن تكون تلك هي العين الحمئة التي ذكرها القرآن. فميديا (تركيا) التي وصلها قورش هي مغرب الشمس.

وقد واصل زحفه إلى آسيا الصغرى لإخضاع اليونانيين... ثم إلى سواحل البحر المتوسط. ثم اتجه إلى الشرق حتى وصل نهر السند، وقد وصل خراسان وهي اليوم ضمن ثلاث دول: أفغانستان، وإيران، وتركمانستان. ووجد كورش أنه آن الأوان لتأديب القبائل المتوحشة التي كانت تغير عبر جبال القوقاز على شعوب إمارته في أذربيجان وجورجيا وأرمينيا جنوب الحائط الجبلي الرهيب الذي يسمى جبال القوقاز (يرى المؤلف خضر أن السد أقيم بين بحر الخزر والبحر الأسود، وأقيم في تسع سنوات)، وذلك السد كان في مضيق داريال.

ثم تكلم عن خصال قورش وأنه كان لا يعمل السلب والنهب، وقد أرسى الأسس الأخلاقية في العالم القديم. والذين يقرءون التوراة يألفون هذا الاسم، كما في كتاب تاريخ إيران القديم لحسن بيرينا. ثم ذكر الدلائل التي ساقها من يرون هذا الرأي:

١- أن القرآن تكلم عن ملكه بصورة استثنائية، أي أنه وصل الحكم بطريقة عجيبة بدلالة ﴿إنا مكناله...﴾ وحوادث حياته تدل على هذا.

٢- فتوحاته في المغرب والمشرق.

٣- الوثائق ترجح أن السد المقام في المكان المذكور في السياق تنطبق على ما في القرآن.

٤- العين الحمئة تنطبق على خليج إزمير الذي فتحه قورش.

٥- وجود قبائل همجية حاربها قورش (الماساجيت) (يأجوج ومأجوج).

٦- بناء السد كان يتطلب إمكانات هائلة، وهي متوفرة في المنطقة أكثر من أي مكان.

٧- قول أبي الكلام أن كتلاً من الحديد المخلوط بالنحاس موجودة في جبال القوقاز في منطقة مضيق داريال الجبلي بجمهورية جورجيا.

٨- أخلاق كورش العالية في سلمه وفي حربه.

٩- عثر على تمثال كورش وقد لبس التاج الذي له قرنان.

ثم يرد الكاتب على هذه الأدلة بأن ما قيل إنما هو ظن واجتهاد. ثم وضع بعض الملامح والمعالم ليكون البحث علمياً حقيقياً والرأي يقينياً، من ذلك:

١- لا يكون البحث علمياً حتى يتم اكتشاف جميع الحقائق المتصلة به.

٢- يلخص ما ذكره القرآن من قصة ذي القرنين ويقول أنه لابد من انطباق هذه العناصر مع واقع كورش بحيث إذا سقط ركن انهدت كل النظرية.

ويبتدى بعقيدة كورش التي يسميها الباحث "قاصمة الظهر" أي أنها كفيلة بهدم النظرية.

ويقول: إن الدكتور الخضر لم يذكر شيئاً عن عقيدته الفاسدة التي ذكرها مؤرخون آخرون. وينقل عن أبي الكلام أنه كان على مذهب زرادشت، وأنه أباح حرية التدين في البلاد المفتوحة [1].

ويقول إن مخطوطة كشفت ما سمي: وثيقة حقوق الإنسان التي أصدرها كورش إثر فتح بابل، وقد وجدت على اسطوانة من الطين المطبوخ عثر عليها سنة (١٦٧٩م) في منطقة أور في بلاد ما بين النهرين، وكتبت باللغة البابلية وفيها: أنا كورش ملك العالم، دخل جيشي العظيم بابل، وتخلص أهلها من رق الملحدين، فرح "مردوك" الإله الأكبر بأعمالي، أعدت الآلهة إلى أماكنها، وأعدت إلى سومر وآكد آلهتها، وبذلك أنهيت غضب إله الآلهة بأمر من مردوك الإله الكبير [2]. من هذه الوثيقة ينتهي الباحث خير رمضان بالضربة القاضية لأن يكون كورش هو ذا القرنين.

ويناقش المؤلف باقي الأدلة، فيقول أن وصول شخص إلى العين الحمئة أو بحر إيجة لا يعني أنه ذو القرنين. وإن توقف القبائل المغولية عن الإغارة، في الوقت الذي كان فيه كورش، لا يجزم بأنه ذو القرنين. ويقول المؤلف: إنه لم يثبت تاريخياً أن كورش بنى سداً هناك. ولم يذكر كورش في وثيقته أنه بنى سداً، ولم يورد الجيولوجيون دليلاً أن تاريخ صنع السد يعود إلى زمن كورش. ولا ننسى أن قصص الفرس كانت منتشرة بين العرب، فلماذا لم يذكر في قصص العرب ومجالسهم من أنه أعظم ملوك فارس ! فمن هو ذو القرنين؟

الفصل الخامس: ذو القرنين القرآني وكلمة في الحضارة.

يستغرق هذا الفصل خمساً وأربعين صفحة من ص٢٤٧-ص٢٩١. يخاطب الكاتب القارئ في بداية الفصل بسؤاله : لعلك لم تفاجأ عندما سميت هذا الفصل : ذو القرنين القرآني. ولا شك أن المتبادر والمقصود شخصية ذي القرنين الواردة في القرآن.

١- ينقل المؤلف عن الكاتب أحمد موسى سالم في كتابه : قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح نفي أن يكون كورش هو ذا القرنين لأن هذا زرع اليهود في أرض العرب وأعادهم إلى فلسطين من المنفى . ويرد المؤلف عليه بأن هذا تعصب قومي، فموسى سالم يوجب أن يكون ذو القرنين عربياً، ويقول المؤلف : فلندع هذه النعرات ولنقبل على البحث بعين العلم. وهو كلام جميل.

٢- عن كتاب: تونس وإيران قرون من التلاقح الحضاري، نشر سنة ١٩٧١م.

فقد تنوعت الآراء في الفصول السابقة، وأن ذا القرنين كما رأى الكاتب لم يكن واحداً من الآراء الثلاثة... بعد أن قوّضت -تعبير الكاتب- دعائم كل من ذهب إلى أنه الصعب، أو الإسكندر، أو كورش...

إنه ذو القرنين القرآني الذي لم تعرف حقيقته بعد... ولا تاريخه الصحيح. إنه علم قرآني أبرز خلد الله ذكره. إنه رجل عاش زمن إبراهيم عليه السلام. كما صححه ثقات المؤرخين. (أقول: وهذا ليس كافياً كدليل على الدعوى.) فإذا ما انطبقت شخصية تاريخية عليه، فلا مانع أن يكون هو.

ثم يقول إن اليهود ذكروه فلا بد أن يكون في التوراة، ولكنها محرفة، وملئت بالأساطير فليست مرجعاً يعتد به، ولا مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخي. وكما يقول صاحب الظلال: لم يبق إلاّ القرآن الذي حفظ من التحريف والتبديل، ولا يحاكم القرآن إلى التاريخ لأن التاريخ فاتته أشياء كثيرة . ثم هو عمل بشري يعتوره النقص، وهذا مشاهد إذ في الحادث الواحد يروى على أوجه شتى.

ثم قال الكاتب: ينبغي أن نحرص على سمعة هذه الأعلام القرآنية، ولا ندخل أنفسنا متاهات لا نعرف ماذا وراءها.

ثم يذكر آراء المؤرخين الذين ذكروا ما يخدم رأيه، فقد نقل عن الأزرقي أن ذا القرنين أسلم على يدي إبراهيم الخليل وحج معه البيت، وكذا قال الأيجي. وأنه حكم لإبراهيم بوادي السبع (بئر السبع)، وعدد عدداً من أقوال العلماء... ثم ذكر بعض الأحاديث في أخباره وكلها ضعاف.

وفي مبحث تال فسر الآيات القرآنية التي وردت في سورة الكهف. وهذا متاح في أي من كتب التفسير، وقد استغرق ذلك ثنتين وعشرين صفحة، أي نصف الفصل.

ثم ذكر بعض العبر من قصة ذي القرنين ومنها: الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات. ومعرفة سنة الله في الكون والقيام بالأسباب، وتنشيط الهمم، والمبادرة لمعالي الأمور، والإحسان للخلق، والتعفف عن أموال الرعية، والتحدث بنعمة الله، والاهتمام بتوحيد الكلمة.

أما المبحث الثاني فهو كلمة في الحضارة، وفيه ينقل كلمة لابن تيمية أنها أحسن قصص الملوك. وكما يقول المؤلف: إنه حاكم اتصف بثلاث صفات: الإيمان، العدل، العمل. وسأل الكاتب: كيف نواجه الحضارة الغربية؟ ونقل جواب جعفر شيخ إدريس وملخصه: الحكم بالإسلام. وقال فيه: إنه يعني الاستقلال والحرية. وأن أكبر مظاهر تخلفنا فقدان الحرية السياسية.

١- تنقية العلوم الإسلامية من شوائب التصورات المخالفة.

٢- دراسة الغرب.

٣- صياغة العلوم الإسلامية على أساس إسلامي.

إن التربية الحضارية في الإسلام تزيل روح الشر من النفوس... وللتربية الحضارية في الإسلام خصائص فريدة ومتميزة، ثم أنها تبني حضارة أخلاقية خيرة، ومتوازنة ومتناسقة، ومتفوقة وفيها سعادة البشرية.

إن إقامة مثل هذه الحضارة يحتاج إلى جهد جبار وكفاح طويل وتبصير الأجيال. وتلك هي سيرة ذي القرنين... الإنسان القوي العليم، الذي يسخر القوى الكونية والمادية ويملك الأسباب والوسائل ويوسع فتوحه، ويؤمن بالآخرة.

الفصل السادس: يأجوج ومأجوج وسد ذي القرنين.

يستغرق هذا الفصل قرابة الستين صفحة من ص٢٩٤-ص٣٥٢. يقول الكاتب في التمهيد لهذا الفصل: كنت أظن أن التحقيق لا يطول في هذا البحث. لكني وجدت الأمر صعباً، وكما قال الندوي: "ولا تزال أبواب الفتن والملاحم تنتظر باحثاً عالي الهمة، راسخ القدم في العلوم الدينية. عالي الكعب في التاريخ، صبوراً، سليم العقيدة، حسن القصد، فإنها من أدق العلوم...".

يقول الكاتب: فأخذت أجمع الأشتات من كتب التفسير والحديث والتاريخ والجغرافيا. وقد وردت كلمة يأجوج ومأجوج مرتين في القرآن: في الكهف والأنبياء. وقد ورد في قول رؤبة العجاج:

لو أن يأجوج ومأجوج معاً وعادَ عادٌ واستجاشوا تبعاً

ثم يشير إلى الاشتقاق وأنه من أجيج النار، أو سرعة العدو، أو الاضطراب. ثم ذكر الروايات (وهي إسرائيلية) وفي بعضها مرفوعة على أنها أحاديث (عند أحمد): ولد لنوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك. قال بعض العلماء: وهؤلاء من نسل يافث. ونقل عن ابن حجر كلاماً عجباً أنهم من أولاد آدم لا من حواء (!!)... [1].

ثم نقل ما قيل عن أوصافهم، ويقول الكاتب إن أهل الرواية لما ذكروا هذه الروايات فإنهم لم يقصدوا صحة الإثبات، بل هي مجرد أخبار على الهامش. (وهي لا تستحق التسجيل بالنسبة لنا..).

١- راجع فتح الباري، ج١٣، ص٩٥. وصحيح مسلم بشرح النووي، ج٣، ص٩٨ وهو مروي عن كعب (!!) (عرف العجب والسبب).

ومن ضمن ما نقل عن وهب عن ابن جرير. ثم نقل عن البوطي ضرورة الوقوف عند الدلالة القطعية التي ثبتت بصريح القرآن وصحيح الحديث.

وقد أشار القرآن إلى كثرقمم في قوله تعالى: وهم من كل حدب ينسلون. ثم ذكر روايات في كثرقمم (وكلها لا تصح). ومنها ما روي عن مكحول: الأرض مسيرة مئة عام وثمانون منها يأجوج ومأجوج. وعن ابن عباس: هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء. (وقد أحببت أن أطلعك على عينة مما قلت لك إنه لا يستحق الذكر وكله لا يصح). وذكر أنهم غير مؤمنين، وهم بالطبع كذلك.

ثم فصّل أنواع فسادهم. وقيل إنهم المغول، وقد بنى إمبراطور الصين سور الصين لمنع جحافلهم، وكان الدور الأخير لهم هو هجوم جنكيز خان على الحضارة الإسلامية من منغوليا. قال الطباخ: وإلى الآن يدعى سكان شمال الصين بالمغول. وذهب سيد قطب إلى أنه من الممكن أن يكون يأجوج ومأجوج هم المغول. وساق حديث: فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج... وقد وقعت غارات التتار بعدها ودمرت الخلافة.

ثم نقل عن محقق كتاب نهاية الأرب أن مأجوج هم المغول والتتر. وكانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا الصغرى من التبت جنوباً إلى المحيط المتجمد الشمالي، وغرباً إلى تركستان.

أما مكانهم فقال صاحب البدء والتاريخ: ولا يختلفون أنهم في مشارق الأرض. وكذا المسعودي. وقال في تفسير الجواهر: إنهم بإجماع مؤرخي العرب والإفرنج كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى وحدها.

وفتح يأجوج ومأجوج يعني خروجهم. وفي مسلم أن خروجهم من علامات الساعة: لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: وعدّ منها: ويأجوج ومأجوج. وفي البخاري ومسلم: "ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه...". وذكر أحاديث كثيرة.

يقول طنطاوي جوهري: الصين ثلث العالم وهي أمة واحدة، وقد ارتقت، أفلا يقال إنهم يعيدون الكرة مرة أخرى ويقلبون وجه الأرض؟ أليس ذلك هو الذي أخبر به غليوم ملك الألمان إذ قال: ويل لأوروبا من الصين.

وإن الخروج الأول كان خروجاً جزئياً لتأديب المسلمين على نومهم وجهلهم، ويكون قوله صلى الله عليه وسلم: ويل للعرب من شر قد اقترب... راجعاً للخروج الأول... الخ [1].

١- ارجع إلى تفسير الجواهر، ج٩، ص٢٠٨.

ثم يعلق المؤلف فيما يسميه كلمة توضيحية أخيرة، ويسأل: ما حقيقة يأجوج ومأجوج؟ وهل هم المغول؟ ويجيب: وأرى أن يأجوج ومأجوج لا تعني قومية معينة، وجنساً خاصاً من البشر. بل إنها كلمة تطلق على أقوام همجيين، شأنهم الفساد في الأرض. فأمة يأجوج ومأجوج علم غيبي كغيره من علامات الساعة. والخير ألاّ نخوض في غيب نجهله.

المبحث الثاني: سد ذي القرنين.

ذكر الله السد ومم يتكون، وقد ذكرت روايات بعد ذلك في أوصاف هذا السد وهي أخبار مضطربة واهية ضعيفة. ونقل بعض هذه الروايات في قياسات السد وما إلى ذلك.

أما سبب بناء السد فحجز المفسدين في الأرض عن الشعوب. أما مكان السد فيقول القاسمي رحمه الله إن السد كان موجوداً بإقليم داغستان، بين دربند وخوزار وبينهما مضيق شهير يسمى (السد) وبه موضع يسمى: باب الحديد، وهو أثر سد حديدي قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب بجبل قاف... الخ. ويقول سيد قطب: كشف سد بمقربة من مدينة ترمذ عرف بباب الحديد وقد مر به في أوائل القرن الخامس عشر العالم الإسباني (سيلدبرجر) وسجله في كتابه.

ويذكر الدكتور خضر أن جبال القوقاز سلاسل عظيمة الامتداد، كثيرة الارتفاع صعبة الاجتياز، معدومة الممرات، إلاّ في ممر واحد هو مضيق داريال في الوسط، وامتدادها من بحر قزوين إلى البحر الأسود وطولها (١٢٠٠)كم، وهي أعلى جبال أوروبا...

ويعلق المؤلف: وليس لنا أن نعين أين هذا السد وأين مكانه. ولا يوجد في القرآن ما يدل على بقائه إلى يوم القيامة. يقول الطباخ: إن هذا السد وإن كان عظيماً هائلاً متيناً يتحمل طوارق الزمن فلا بد أن يدخله الوهن... الخ.

ويقول الدكتور خضر: المواد الخام التي شيد منها السد: خامات الحديد، وتحتوي أراضي أذربيجان على معادن الحديد بكميات كبيرة، ومدينة باكو تقوم فيها صناعات الحديد والصلب، أما أرمينيا فغنية بالنحاس والحديد والرصاص... وفي جورجيا كميات ضخمة من الحديد، أما الفحم اللازم لصهر الحديد فأرمينيا فيها احتياطي كبير، والإقليم غني بالثروة الحيوانية لنقل الخامات. والطعام والشراب متوفران... الخ.

ثم تطرق الكاتب إلى باني السد، وقال: إن الذي بناه ذو القرنين، لكن من هو هذا، هنا يقع الخلاف، فالدكتور خضر يرجح أنه كورش تبعاً لأبي الكلام... لكني -يقول المؤلف- لم أر أعجب ممن قال: أجمع رواة الأمم أن الذي بنى السد الإسكندر. (يقصد الثعالبي النيسابوري في ثمار القلوب).

وفي البخاري أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنه رأى السد فقال انعته لي. فوصفه، فقال: قد رأيته. فتح الباري، ج٦، ص٢٧٤.

وقد بعث الواثق بعثة لاكتشاف السد ومعاينته (نهاية الأرب للنويري، ج١، ص٣٧٤) وقد نقل ابن خرداذبة في المسالك والممالك (يروي قصة هذا الكشف) فليرجع إليه من أراد التفصيل. وملخصه أن الرحلة استغرقت في الذهاب ستة عشر شهراً وفي الإياب اثني عشر شهراً، ومات أكثر من نصف البعثة من الرجال والبغال. ويعلق المؤلف: وهناك من يستبعد هذه الرواية، والآلوسي ممن ضعفها قال: وثقات المؤرخين على تضعيف هذا الخبر. والطباخ يرى هذه البعث أمراً محققاً. ونقل عن ابن جرير خبر بعثة أخرى.

ويرى الطباخ أنه سور الصين. ويرى الأستاذ محمد جميل نفس الرأي. وطول سور الصين ٢٤٠٠كم. ويرى المؤلف أن هذا من الأغاليط وكذلك أبو اليسر عابدين في كتابه: أغاليط المؤرخين. وسور الصين مكون من التراب والحجر. وهذا ببساطة يخالف وصف سد ذي القرنين.

ويرى أبو الكلام أزاد أن السد موجود في جمهورية جورجيا في مضيق داريال، وقد تتبعه هو من خلال استقراء التاريخ وما هو قائم فوجده منطبقاً.

ويختتم الكاتب كتابه بخاتمة في صفحتين ونصف، يقرر ويكرر فيها أن ذا القرنين ملك مؤمن صالح عادل، وأنه ليس واحداً من الشخصيات الثلاث التي زعم أنها ذو القرنين: الإسكندر، الصعب، كورش.

ويأجوج ومأجوج كلمتان تطلقان على أقوام همجية شأنها الفساد.

أما السد فمازال موجوداً. ولعل القارئ يسأل، يقول الكاتب: وماذا جنيت بعد البحث الطويل؟ ويجيب يكفي أنني بنيت بعض الحقائق في شأن هذا الرجل العظيم وتاريخه، وأزلت عن تاريخه بعض الشوائب.

ثم يتبع جهده هذا، وهو جهد منظم جيد مجهد، بفهارس الآيات والأحاديث والأشعار والأعلام والأمم والأديان والأماكن والمراجع والموضوعات.

الكتاب الثامن عشر

بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم

تأليف : كاظم الظَّواهري

ط ١، القاهرة، ١٤١٢هـ-١٩٩١م

بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم / كاظم الظّواهري.

كم في كتاب "التصوير الفني في القرآن" من بذور موضوعات لو التقطت لتحولت إلى دراسات مهمة وعظيمة. وهذا واحد من الكتّاب والكتب التقط فكرة "الفجوات بين المـــشاهد" منـــه وطورهـــا ونضجها.

وعموماً هذا كتاب جيد، تحترم استقلالية كاتبه، وكونه لا يكرر، ولا ينقل، ولا يغـــرف مـــن الإسرائيليات (إلاّ يسيراً جداً)، بل على العكس: إنه يلتزم النص والقصة القرآنية، ويعتمد منهج التحليل والدرس.

وهو يسبح ضد التيار، ويسير عكس اتجاه الريح في عدد من المسائل من ذلك مـــثلاً موضـــوع التكرار، فهو يخالف الذين ينفون وجود التكرار مثل عبد الكريم الخطيب، ومحمد قطب، وسيد قطب (ولو جزئياً)، وبكري شيخ أمين، وغيرهم، وهو يخالف الذين يعيبون وجود التكرار بطبيعة الحال كنقطة يلمـــز فيها من عظمة هذا الكتاب، ويشتق لنفسه "طريقاً ثالثاً"، يثبت وجود التكرار، ولكنه يراه وجهاً معجزاً. وهو تكرار واقع لأغراض ومقاصد ينبغي التنبه لها وتبنيها.

ومن لفتاته الجميلة مغايرة قصة آدم للنسق المعتاد، إذ كان القصص يستكمل في القرآن المكي، ثم يوجز في المدني، بينما قصة آدم جاءت أوفى حلقاتها في القرآن المدني في سورة البقرة، وذلك لمقاصد... وقد بين هو وجه ذلك.

لغة الكتاب عالية جيدة، وأسلوبه أدبي بياني جيد، وليس في عباراته مط ولا تطويل، ولذا فهـــو صعب على الإيجاز والتلخيص.

وتراه أحياناً يدخل في قضايا نحوية فنية لما تنطوي عليه من دلالات تتعلق بفنية العرض القصصي. وليس القصد النحو المجرد. مثل حذف أو ذكر جواب لما في قوله تعالى: ﴿فلمّا ذهبـــوا بـــه وأجمعـــوا أن يجعلوه...﴾، يقول: "ذهب أكثر المفسرين إلى حذف جواب لمّا، ولكننا نميل إلى غير ذلك، حيث نتـــصور المشهد كله قبل الذهاب بيوسف... حيث جعل كل الأفعال معطوفة على ذهبوا حتى قوله وجاءوا.. على معنى: ولما ذهبوا وأجمعوا وأوحينا وجاءوا قالوا...، فجعل الفعل قالوا جواباً للمّا أو أقامها مقام الجواب... الخ".

والفصل الرابع من الباب الثالث مثلاً، كله في أن التفسيرية في كلام نحوي وتفـــسيري جديـــد وعميق وجميل.

وعموماً فإن الكاتب غني القاموس، وافر المصطلحات، وحقله الدلالي والمعرفي والفني متنوع وثري... وكتابته رائقة معجبة، وفكرته واضحة وعميقة وفيها جدة وطرافة.

وهو كتاب في البلاغة والإعجاز والتصوير الفني، بقدر ما هو دراسة في القصص القرآني، ولكن من المنظور البلاغي والإعجازي والتصويري. لكن في الكتاب بعض تكرار أو شيئاً منه، لعل الذي دفع إليه، طبيعة عمل الكاتب، وإني لأظنه يعمل مدرساً، فغلبته طبيعة المدرس الذي يكرر القول حتى يفهم الطلاب فإذا كتب عاودته طبيعته، وغلبت تطبعه في ميدان الكتابة.

يقع كتاب بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم لكاظم الظواهري في أربع وثمانين وثلاثمئة صفحة، وثلاثة أبواب، في الباب الأول ستة فصول، والثاني نصفها، والأخير في خمسة فصول. وللكتاب مقدمة في حوالي عشرين صفحة، ومما جاء فيها: "لا يزال القرآن الكريم جديداً قديماً، يطلع علينا كل يوم بجديد من وجوه إعجازه. ومن يرون إعجازه في بلاغته فريق لا يرى الإعجاز إلاّ هذا، وفريق يرى أنه لا ضير أن تكون ثمة أوجه أخرى من الإعجاز".

ثم تكلم عن الإيجاز حيث قيل إنه البلاغة -أو هو رأس البلاغة-. والإيجاز في القرآن صفة عامة من صفات بلاغته. والإيجاز أبواب وأقسام، وكلها مبثوث في القرآن. والحذف من بينها له محل رفيع. وأظهر ما يكون الحذف في القرآن في قصصه. والبعض يسمي الحذف إضمارا وفريق آخر يفرق بينهما، وذكر من هؤلاء: الزركشي.

ونقل عن الدكتور محمد غنيمي هلال الذي جعل الإضمار نوعا من الحذف، نقل عنه قوله: "وطي الأحداث في القصة يسهم في بنائها وحبكتها، والإضمار النفسي بعد من أسس التصوير الفني عند بعض القصاصين المعاصرين..."، وهلال يتكلم عن القصة الفنية، لكن المؤلف يستفيد كما قال من هذه المفاهيم جميعاً، مبتكراً أو "مرتاحاً إلى" مصطلح "الإضمار القصصي" ليصف به هذا النوع من الحذف الذي يؤدي إلى تدعيم البناء القصصي، على نحو من الحرفة البديعة التي تشبه السحر، "ترى بها ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبِنْ". كما قال عبد القاهر في الدلائل.

وهذه الدراسة، يقول صاحبها، تؤكد على معنى جديد للحذف الكثير الذي يشمل القصص القرآني من أوله إلى آخره، وهو أن الحذف فيه ليس للإيجاز، بل هو لتدعيم التصوير الفني في القصة، وخلق جو العرض فيها بتكثيف أحداثها، والإبانة عن رؤوس موضوعاتها، ودقائقها، التي تؤدي إلى التحول والتصاعد في حبكتها وتكريس السياق للألفاظ والأساليب المؤدية إلى تفاعل المتلقي مع القصة لضمان أكبر

قدر من الإثارة والتأثير في هذا المتلقي قارئاً كان أو سامعاً، ليتحقق في النهاية الهدف الذي من أجله سيقت هذه القصة، وهو بالقطع هدف ديني.

وقد وضحت الدراسة، ببحث فعل الحذف في جزئيات القصة وفي بنائها، أن تدعيم التصوير القصصي هو الغاية من الحذف، ومن الإيجاز معاً، ويستدل لذلك بقوله: "وإن ثمة صوراً متطابقة في المعنى وفي الموقف القصصي، وفي أكثر جزئيات السياق، ولكن القرآن يحذف في بعضها ولا يحذف في بعضها الآخر، فكان بيان العلة في الحذف والترك دليلاً واضحاً، ودامغاً، وليس مجرد قرينة، على أنه لو كان الهدف من الحذف الإيجاز لحذف في كل. وثمة مواضع، يحذف فيها كلمة، ويزيد بجوارها جملاً... والبلاغيون يقولون عند الحذف: إيجاز. ونعم ولكن لا نقول وكفى..

ثم قال إنه وجد عند الأقدمين في هذا قليلاً، بل إن البعض جعل الحذف مدخلاً للإسرائيليات، التي سيقت لملء الفراغ.

ثم نقل عن سيد في ظلاله كيف تضخم التفسير في غير البحث عن الجمال الفني الذي هو مكمن السر الأعظم للإعجاز.

ثم أشار إلى أن الأقدمين في مواطن قليلة أشاروا إلى الحذف، وقد استعرض بعضاً منها المؤلف. ثم عقب بعد النقول: "وهكذا كانت طريقة القدماء في الإشارة إلى الظاهرة الأسلوبية، وتحليلها، وتعقبها، ولكن دون بيان ما لهذه الظاهرة من أثر فائق في البناء الفني للقصة، والفرق بين هذه الأساليب وأساليب البشر...

لقد كان الواحد منهم يستشعر فعل الحذف في السياق وفي بناء القصة وحبكتها ولكنه يفتقر إلى ثقافة وعلم بهذا الضرب من التصوير لكي يتمكن من التعليل للظاهرة الأسلوبية مسترشداً بها.

كما أنهم كثيراً ما كانوا يقتصرون على الإشارة إلى ما حذف من اللفظ، وأما ما حذف من المعنى والحدث فإنهم يغفلونه كأن لم يكن. وذلك أن مثل هذه المحذوفات يستدل عليها بتدرج الحوادث وترتبها على نحو من الإدراك لكيفية تركيب الحبكة في فن القصة أو فن المسرحية، أو ما يتفرع عليهما من الفنون، وأنى لأسلافنا أن يعرفوا ذلك... ولهم عذرهم".

ثم انتقل إلى تطور الدراسات البلاغية والنقدية في العصر الحديث، فقال: "ولا شك لدينا في أن العصر الحديث قد شهد تطوراً في الدراسات البلاغية والنقدية وفي الدراسات القرآنية، ولكن هذه الدراسات على رغم الشوط الذي قطعته، ما تزال بعيدة عن الغاية...

ومن بين عشرات الدراسات التي انقطعت للقصة القرآنية وتوفرت عليها، أقل القليل الذي يشفي علة أو ينقع غلة من الدارس المتعطش لتبين أسرار هذا القصص... ومن بين هذه الدراسات دراسة عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، وهي دراسة ممتازة، مستقصية، متعمقة. حاولت تحليل طرائق عرض القصص القرآني ودرس قضاياه. ومنها دراسة بعنوان: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، وأعيد طبعها بعنوان: روائع الإعجاز في القصص القرآني.

وهي دراسة تقليدية لم تتناول من فوائد الحذف وأسبابه إلاّ ما تطرق إليه الأقدمون ولم تلتفت إلى إشارات سيد قطب في التصوير وفي الظلال، التي تفرد بها العلامة الذي خسرته أمته، ولم تع قدره إلا بعد فوات الأوان".

ثم قال المؤلف بعد إطراء سيد: "وقد حاولت أن أفيد من لمحاته الثاقبة فكانت منارا هاديا لي إلى كثير من مرافئ القرآن الكريم".

ثم عبر الكاتب عن أمله -من خلال هذه الدراسة- أن يتمكن من استنباط قواعد أصيلة للفنون القصصية التي ازدهرت في العربية الحديثة نلقنها -بتعبيره- للقصاصين والروائيين والمسرحيين، ليتتلمذوا على أحسن القصص كمثل أعلى لهم، ويدعوا البضائع المستوردة من شرق أو من غرب. ويدركوا الفرق بين القصص الحق، وأساطير الأولين التي يتعبدونها في محاريب اليونان والرومان والأوروبيين.

ومن أجل هذه الغاية لم تتوقف هذه الدراسة عند ظاهرة الحذف وحدها، مع أنها محورها، وإنما درست جوانب كثيرة أثيرت من قبل في درس القصص القرآني، ورأينا أن ندلي فيها بدلونا -يقول- من وجهة نظر أوتيت بعض المقدرة في الإلمام بقواعد هذه الفنون الحديثة (ليته لم يحكم على عمله وترك ذلك للقارئ، وجهده عموماً طيب)، فخصصنا لها الباب الأول.

يقول إنه لم يكتف بذلك، بل رأى أن دراسة الحذف جزئياً لا تحقق الهدف الذي يسعى إليه، فدرسه مع ما يتعلق به من مسائل البلاغة كظاهرة التكرار، وظاهرة الإطناب، لنتمكن من الإدراك الصحيح والفهم الواعي لأساليب القرآن، وإدراك ما فيه من إعجاز. ثم يقول إنه اجتهد في ربط الظاهرة بمشاهد القصة وبنائها الكلي وموضوعها وترتب أحداثها المتعاقبة، وربط كل ذلك بموضوع السورة، والغاية من إيراد القصة فيها.

إن الجمع بين هذه الظواهر القرآنية في إطار دراسة واحدة هو الطريقة المثلى لإدراك العلل الأصلية لصياغة الأساليب القرآنية والتوصل إلى أسرار النظم القرآني. ثم قال إنه حاول التوفيق بين

وجهتين: ألاّ يقصر البحث على موضوعه الأصلي فنحرم من فضيلة الإشارة إلى الظواهر المتجاورة في القصة الواحدة، وألاّ نبالغ في التعميم والتشتيت والخروج على الهدف الأصلي من الدراسة.

ثم يقارن بين عمله وعمل الآخرين الذين يرون الإعجاز في القصة في الإخبار بقصص الأمم الغابرة فيقول: "واقتصارنا على الحذف من بين ضروب الإيجاز لعلة تتعلق بفن القصة. وتركيبة فن الحكاية فيه، الذي نراه مفتاح الوجه الأصلي للإعجاز في هذا القصص بعد أن كان من قبلنا يرون أن وجه الإعجاز في القصص هو الإخبار بقصص الأمم المندثرة على لسان النبي الأمي. يقول عن صنيعهم: ولا ضير فقد أحسنوا إلينا بهذا لأنهم ردونا إلى الوجه الأصلي للإعجاز القرآني وهو بيانه وما طريقة العرض هذه إلاّ من بيانه، وإنها ليعجز عن مجاراتها في فنيتها ودقتها وحرفيتها وتنويع طريق الأداء فيها، أعاظم فن القصة وأكابر كاتبيها".

وينبهنا الكاتب إلى أنه ليس من أهداف دراسته إسقاط بعض النظريات الفنية أو البلاغية، أو التوفيق بينها وبين نظريات جديدة، أو التسلق على بعض إلى بعض، وإنما هدفها محاولة التوصل إلى مقاييس جمالية لأنواع من الفنون كنا عنها غافلين، على الرغم من أن القرآن حافل بكثير منها.

ويشير إلى قول امرأة العزيز: "وما أبرئ نفسي..." الذي يزعم بعض المفسرين أنه من قول يوسف، فيقول: إن طبيعة المشهد تأباه، أي تأبى النسبة ليوسف –ثم يقول في ختام التقديم إنه لا يزعم أنه وفى الدراسة حقها، ولكنه اجتهد قدر طاقته في إبراز الفكرة، ثم ذكر بالخير جهود السابقين، وخص بالذكر سيد قطب الذي قال عنه: الذي ما طلبت شيئاً يتعلق بأساليب القرآن وطرائفه في التصوير والتعبير إلاّ وجدت عنده أكثر مما وجدت عند غيره...

الباب الأول: مناقشات كاشفة عن جوانب معجبة من خصائص القصص القرآني:

وبدأ الباب بتمهيد جاء فيه: القصة وسيلة من وسائل القرآن لتحقيق الغاية التي أنزل من أجلها، وتتلخص في:

١- إثبات أن القرآن معجزة، لا يتأتى لبشر الإتيان بمثلها، فليس هو من البشر.

٢- إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣- وحدانية الله الذي أنزل هذا القرآن وبعث هذا الرسول.

ويأتي قصص القرآن في ثنايا سوره ليحقق الغاية نفسها التي من أجلها أنزل القرآن بالإضافة إلى بعض الغايات الفردية التي تتعلق بالقصة ذاتها.

وهذا القصص فيه تصديق ما جاء به القرآن، وفيه نذير ووعيد للمكذبين من مصير مثل مصير المكذبين الغابرين، وفيه تثبيت للنبي، ببيان نصر الله لمن سبقوه. ونجد قصص القرآن مناسباً لموضوع السورة التي يرد فيها، ولذا نجد أحداثاً من القصة تعرض في سورة، ولا ترد في أخرى مع القصة نفسها، ويرد غيرها. وهكذا.

وأخيراً يأتي التركيب الفني والأسلوبي للقصة ليحقق كل هذه الأهداف مجتمعة ليمثل صورة من الإعجاز تضاف إلى ما سبق للبلاغيين بيانه من ضروب الإعجاز البياني للقرآن.

الفصل الأول: تناسب القصص القرآني وغايات التنزيل

هذا الفصل حوالي عشر صفحات، ومما جاء فيه يركز فيه -كما هو العنوان- على التناسب ما بين القصة وأغراض القرآن. والقصة والسياق الذي من أجله سيقت السورة. وضرب المثل بسورة الأعراف، وما فيها من قصص وسياق وما بين ذلك من تناسب.

يقول الكاتب في هذا الفصل: "تمتزج القصة في القرآن بموضوعاته امتزاجاً عضوياً لا يدع مجالاً للفصل بينها -أي القصة- وبين غيرها من موضوعات السورة. بل إن هذه القصة تجيء أبداً في معرض الاستشهاد على الأمر الذي تعرض له السورة في العقيدة، أو في التشريع أو غير ذلك.

وتتعدد أساليب القرآن في التخلص إلى القصة والخروج منها، وطريقة عرضها في ثنايا الموضوع غير أن القصص جميعه لا يخرج عن الغاية المرسومة وتلك هي الخصيصة الكبرى البارزة فيه: التناسب وغايات التنزيل.

فكما أن أكثر سور التنزيل تبدأ بذكر (الكتاب) وتصفه وتتحدث عنه، يكاد قصص القرآن كذلك لا يدع ذكر الكتب السماوية وما جاء فيها من الحكمة، وما أحاط بنزولها من أحوال المكذبين والمصدقين، وما آل إليه كل من الفريقين. يستوي في هذا أن تكون القصة في صورتها المجردة أو المفصلة، فالمجردة التي لا تحدد أحداثاً أو أشخاصاً، تعددت في مواطن لزم ذكرها فيها.

ثم استشهد بسورة الأعراف وكيف جاءت في مطلعها تتكلم عن الكتاب المنزل إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مذكراً إياه بما يجب عليه من التذكير والإنذار، ومذكراً بمصاير الأمم السابقة على سبيل العموم والتجريد، الذي يأتي بعده التخصيص والتفصيل: ﴿وكم من قرية أهلكناها...﴾ ليصل بذلك إلى غاية ما يراد من القصص في القرآن: ﴿فلنقصّنّ عليهم بعلم...﴾.

وذلك ليكون هذا القصص عبرة، وليكون نذيراً بين يدي عـــذاب ألــيم: ﴿والــوزن يومئــذ الحق...﴾. وهكذا تجيء القصة المجردة نموذجاً عاماً يتصدر السورة من القرآن ليبين الغرض الذي من أجله يساق القصص عموماً، وقصص السورة على وجه الخصوص، لتؤكد أن القصص في هذا الكتاب يــساق تحقيقاً لغايته الكبرى وهي بيان معجزة نبي مرسل من الله يدعو الناس لتوحيده... ﴿ولقــد مكنــاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون . ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم...﴾.

وهكذا تمضي السورة بعد ذلك في سرد قصص عدة من الأنبياء والأمم من لدن آدم مستدعياً في كل قصة ما يتناسب مع الشاهد والعبرة. وبعد سرد مجموعة قصص يتوجه بالخطاب إلى الرسول: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ ليذكر رسوله بأن غايات سوق هذا القصص طمأنته إلى أن الله يملي للظــالمين ليعذر إليهم، وأنه يواليهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون، وهو حديث شجي يهز المطلع عليه من أعماقه بما فيه من ضروب التأثير المعنوي والبياني المعجز. ثم يعقب عليه ببيان الغاية التي من أجلها يساق القصص: ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا...﴾.

فالقصة في القرآن جزء من نسيجه، وجزء من موضوعه الذي يركز عليه. والصورة المجردة من قصص الأنبياء تدلنا على أن هذا القصص لا يساق ليجعل من القرآن كتاب تاريخ... ومن وجوه تناسب القصص مع غايات التنزيل بيان قدرة الله كما في قصة إبراهيم وإحياء الموتى وأهل الكهف، ومــن هــذا القصص ما يجيء قصداً، ويفصل فيه أحداثاً وأشخاصاً لاقتضاء المقام، وهناك قصص يجــيء في معــرض التمثيل... وقد يفصح في القصة المضروبة مثلاً عن بعض أشخاصها: ﴿... امرأة نوح وامرأة لوط...﴾.

والاختصار والتجريد يأتي عادة في المواطن التي يقتضي فيها المقام التذكير بأمر أو حادثــة دون اعتراض الموضوع بقصة طويلة. ويختلف الغرض في القصة في المكي عنه في المدني، حيث غلب على المكية تناول العقيدة، والمدنية يغلب على قصصها القصر والتناسب مع أهداف التشريع مع استمرار الدعوة إلى التوحيد. وضرب المثل بقصص سورة البقرة وأن غرضه بيان صفة بــني إســرائيل، وعنــادهم وعــدم مسارعتهم. ثم في قصة الذين خرجوا من ديارهم وقصة طالوت تناسب مع قضية الجهاد.

ومن التناسب الظاهر موقع الخبر عن موسى وعيسى في صدر سورة الصف التي تحــدثت عــن أمرين: الخطاب الموجه إلى المؤمنين الذين خذلوا رسول الله يوم أحد، والثاني الدعوة إلى الجهاد.

ومن عجيب التناسب ما بين مطلع سورة سبأ المفتتحة بالحمد، وخبر مملكة سبأ وأمرهم بالشكر: ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له...﴾ وقصة داود وسليمان : ﴿اعملوا آل داود شكراً﴾.

فنجد التناسب مرة بالمعنى، ومرة بالموضوع، ومرة بالحكم، ومرة بالعبرة، ومرة باللفظ. ومرة بالضد والمقابل، ومرة بالموازنة والمقارنة،ومرة بالموازاة والمحاذاة. حتى لا نجد قصة مقحمة أو مستكرهة على موضعها. وختم الفصل بتناسب صدر سورة الإسراء، والحديث عن مفاسد بني إسرائيل.

الفصل الثاني: انتقاء الأحداث في القصة

تفضي بنا خصيصة التناسب إلى خصيصة أخرى، هي الانتقاء في الأحداث والإضراب عن بعضها جملة وتفصيلاً، أو بإحالته إلى موضع آخر من السورة أو سورة أخرى. والوظيفة التي سيقت من أجلها القصة تقتضي أمرين:

١ – عدم بتر السياق والاستغراق في القصة بما يزيد عن الحاجة.

٢ – أن يركز من أحداث القصة على ما جيء بها شاهداً عليه.

ولأن القصة يؤخذ منها فقط ما يقتضيه المقام فإن كثيراً من قصص القرآن توزع في مواطن عدة من الكتاب الكريم، وأكثر هذه القصص انتشاراً قصة موسى... وقصة إبراهيم، ثم قصة بدء الخلق... وهناك قصص وردت مرة واحدة، ومع هذا لم تخل هذه القصص من الانتقاء والحذف، مما يؤكد أن القصة لم تسق للتاريخ، وإنما لهدف محدد، ومع ذلك تتمتع بسمات فنية وأسلوبية يفتقر إليها أرفع القصص...

وقد كانت القصة في القرآن المكي أطول منها في المدني، ثم بدأت القصة تتقلص في أخريات العهد المكي لأن معظم حوادثها قد ذكرت. وأكثر قصص القرآن المدني أقرب إلى الخبر منه إلى القصة.

ثم ذكر قصة موسى مثالاً وشاهداً على أن هذا القصص كان مرتباً في عالم الغيب قبل أن يترل، وذكر ما ذكره صاحب التصوير من ورود إشارات عابرة في سورة الأعلى ثم الفجر (أي حسب ترتيب الترول) ثم النجم وهكذا... ثم يأتي التفصيل في السور التالية نزولاً: الأعراف، وطه والشعراء والقصص والبقرة والمائدة...

وكما يعتري الانتقاء أي نمط من القصص يعتريه الحذف، والعلة في الحذف تظهر في الغالب مع المقام الذي ترد فيه القصة.

ثم ضرب المثل بقصة يوسف التي لو كتبها بشر لاحتاجت مئات الصحائف. وبينما نرى فيها أخباراً كثيرة عن هذا النبي لم نجد خبراً واحداً عن نبوته أو أنه أرسل إلى قوم. إن قصة يوسف مأساة أب

وابن فرقت بينهما الأحقاد. بينما ورد مشهد من قصة يوسف في سورة غافر ضمن قصة موسى نص هناك أنه أرسل إلى المصريين، وأنه مات بين ظهرانيهم.

وعلة الانتقاء تواصل أحداث القصة الأصلية.

والمشهد الأخير من القصة مفعم بالإثارة والمهابة وبه استراحت النفوس، ووصلت إلى قمة الفرح بهذه النهاية، فليس من الحكمة أن يثار عنصر صراع جديد تنتكس بسببه مشاعر السامعين، فالقصة على هذا النحو أبلغ في التأثير، ليس فقط من الناحية الفنية والإنسانية، بل من الناحية الدينية أيضاً.

الفصل الثالث: التكرار

بدأ الكاتب هذا الفصل بتقرير أن غير واحد من العلماء تحدث عن هذه الظـاهرة، وأكثـرهم يحاول أن يدفع شبهة التكرار، وكأنها عيب... والذي يصنع هذا الصنيع حسن النية أخطأ الطريق وهو من حيث لا يحتسب يلتقي مع الذي عاب القرآن بالتكرار... لأنه مهما اجتهد لن يستطيع نفي وقوع ظاهرة التكرار. وهو يسلم بمقدمات خصمه ويدفع ببطلان نتائجه وأنى له؟ ثم يضرب أمثلة ويسأل: هل تكـرار خلق البشر عيب؟ وهل تكرار دوران الأرض عيب؟ ... الخ.

وأي تكرار يعيبون: أتكرار الألفاظ أم الأساليب أم المعاني والموضوعات والقصص؟ وفي القرآن تكرار من جميع هذه الوجوه، وهذه من مزاياه، بل من ضروب إعجازه.

إن الذي يتهم لا يقدر القرآن حق قدره. ولكن المخطئ منا -يقصد من يدافع- ليس معـذوراً، فالكلام ضربان: نثر وشعر. ونفي متزله أن يكون شعراً فهو نثر. وإذا استرحنا إلى الحقائق قلّت متاعبنـا. ليس اختلاف القرآن نابعاً من أنه ليس شعراً وليس نثراً بل من جهة أصله ومنشئة ووظيفته.

القرآن كتاب أنزل من السماء يحمل الدليل على صدق نبوة نبي. وهل مثل ما تناوله القـرآن تكفي فيه مرة أو كرة؟ وهل تدعى أمة غارقة في عبادة الأصنام مرة واحدة وتترك؟ إن هذا الكتاب ينبغي ألاّ نطبق عليه مقاييس نقد النصوص. من الذي يجرؤ على إنكار أن ما في سورة الرحمن تكرار؟ ومن ينكر تكرار " الحواميم " و " الم " في الفواتح . أما إذا تعلق الأمر بتكرار المعنى ، وهو أوغل في موضوعنا فلا بد من التسليم بوقوعه . ولكن في كل مرة تذكر الحقيقة بأسلوب مختلف أو يزاد عليها أو ينقص منها .

والقصة كسائر القرآن موظفة لتحقيق الغاية التي من أجلها نزل الكتاب وهي خاضعة لمقتضيات هذه الغاية.

والسياق والمقام الذي يستدعي القصة يملي عليها أن تناسبه، وأن يتحقق فيها عنصر الانتقاء والمقام دائماً خاضع لغاية الكتاب الكريم، وقد تتكرر المقامات أو تتشابه لتستدعي بالتالي القصة كمثال أو عبرة، أو خبراً منها، أو طرفاً على الأقل، ليؤدي هذا الغرض، وهنا تجيء القصة مناسبة للمقام الجديد.

ثم قال: "ونحن نسلم مع سيد قطب بأن أكثر ما ورد في القرآن من القصص غير مكرر بقدر ما هو متكامل، ولكن لا ننفي وجود هذا المكرر، ولا نخشاه".

وقد ورد التكرار بقصد الإكمال في مواضع، ووردت القصة التامة أو شبه التامة كيوسف. والقرآن الكريم يحفل بضروب مختلفة وأنماط متعددة من طرق عرض القصة التي لا تخضع لضابط في معين في كل ظواهرها لتنتظم في سلكه، لأن هذا ليس من مقاصد القرآن بقدر ما تخضع القصة لمقاصد القرآن، وهو ما قام سيد قطب بدرسه تحت عنوان خضوع القصة للغرض الديني. قد عرض سيد لأكثر قصص القرآن تكراراً وتكاملاً وهي قصة موسى، وعرضنا لأكثر قصصه طولاً وهي قصة يوسف، ويبقى نمط آخر يختلف في طريقة التناول وطريقة التكرار وتختلف في الغاية، وهي قصة جرت حوادثها فيما وراء حدود الزمان والمكان المعروفين، إنها قصة آدم...

فهذه القصة تساق لبيان قدرة الله وفضله، كما تساق تدليلاً على نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى...﴾ وسيقت للرد على قياس أهل مكة إذ يفضلون أنفسهم على محمد كما فضل إبليس نفسه على آدم. وتساق لقياس حال بني آدم في النسيان: نسيان التفضيل والخلافة ونعمة الله: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي...﴾ إلى قوله: ﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾.

ويساق للتدليل على المعاد: ﴿كما بدأكم تعودون﴾، وللتبكيت على اتباع عدو الله إبليس. ونظفر من هذا العرض بفائدة أخرى تضاف إلى ما نجده من اختلاف في غاية القصة وما نجده من مدى تناسبها مع ما سيقت لأجله، وذلك أننا نجد القصة في كل مرة تذكر فيها شكلاً مختلفاً في أحداثها وأسلوبها وطريقة عرضها وتسليط الأضواء على شيء معين أو أمر معين سيقت لأجله. ويضاف إلى هذا فائدة جليلة وهو أن أكثر قصص القرآن كان تمامه في القرآن المكي واختزل في المدني، أما هذه فقد انعكس الوضع فيها حيث إنها وردت في أتم صورها في سورة البقرة (الآيات ٢٩-٣٩)، والمواضع الستة الباقية في سور مكية...

بل إن هناك أمرا غريباً، هو إحالة ضمنية واردة في أول مرة نزلت فيها القصة في سورة "ص": حيث ذكرت بالإشارة فقط نبأ تلك المحاورة السماوية التي لم يتزل خبرها بعد...

ونجد محاورة إبليس التي اختزلت في البقرة بسطت في أكثر من موضع... وهكذا يتبين أن للتكرار حكماً وشأناً ووظيفة. وطرائق تطرد في تناسبها مع الغايات العامة للقرآن، وتطرد في تناسبها مع مقاصد كل سورة...

الفصل الرابع: حركة الحدث في المحاورة والسرد

معلوم أن الأحداث في القصة الفنية تتحرك بطريقين: طريق السرد وهو وصف الأحداث والأشخاص والمشاعر والانفعالات والأزمنة وغيرها، وطريق الحوار الذي ينطق به أشخاص القصة... ومعيار الجودة في كل أمران:

١- القدرة على تحريك الحدث وتصعيده في مراحله المختلفة.

٢- الإفصاح عن المعاني بدقة ودون إخلال بتقصير، أو إملال بتطويل.

وهناك أمور أخرى جانبية تتعلق بالتصوير والبراعة في إدارة الحوار وسهولة الأسلوب والذي يعنينا الآن (يقول الكاتب) هو ما يؤثر على الحبكة والحدث من أسلوب السرد والمحاورة...

ودارسو القصة يعلمون أنها لم تستكمل بعد مائتي عام من العمر، وهذان القرنان أرسيت فيهما قواعد هذا الفن، وهو عمر قصير في دنيا الفنون، لا يكفي لتأصيل قواعد فن أصيل...

ومع هذا فإن القرآن الذي ليس كمثله شيء من فنون القول، قد حفل بكنوز من النماذج العليا لهذا الفن. وإن كتاباً معجزته البيان، لا يستبعد عليه أن يأتي بألوان من فن القصة...

ثم استعرض الكاتب عدداً من كتاب القصة البشرية، استطراداً بدءاً من الإلياذة ومسرحيات اسخليوس وميلر وشكسبير وراسين وموليير، والقصص من هوجو إلى هيمنغواي، يسلم بأنها فنون راقية، لكنها مع هذا قصرت جميعاً عن جماليات الفن المثالي، ولذلك تحولت عنها الفنون الأوربية وظهرت مذاهب متعاقبة.

أما البيان الإلهي فغير خاضع لهذه الطوارئ، فلماذا نستبعد عليه أن يحفل من الظواهر الفنية المختلفة والنماذج المعجبة بأشياء لا نظير لها في آداب البشر؟

ونؤكد أن القصة القرآنية وإن خلت من نماذج من أمثال ما ذكرنا من فنون البشر، فإنها حفلت بما لا نظير له عندهم، وليس الذي يأتي به البشر معياراً للقرآن، وإنما العكس هو الصحيح. فالقرآن معيار

قواعد القصة، وكل فن آخر. وليس على قواعد فن القصة نقيس القرآن. ثم دلف الكاتب إلى موضوعه، وهو "الإيجاز"، وكيف أسهم في مجريات القصة القرآنية من تحريك للحدث وتصعيد إلى ذروته، وتكثيف الحوار، والوصف، ارتقاء به إلى ذروة الدقة التعبيرية، والقدرة الفائقة على التأثير، وتحريك المشاعر الدافقة لدى المتلقي، والقفز فوق الأحداث الفرعية غير المؤثرة، واقتناص الإشارة المعبرة عما هو مؤثر منها، وتصوير أطراف الحدث من زمان ومكان وموضوع وأشخاص بأدق صورة...

والمحاورات في الكتاب المعجز لها شأن عجيب من حيث قدرتها على بيان مدى المقاومة بين أطراف الحوار. (وإنما اختار الكاتب الحوار لأن السرد قد وفاه الباحثون حقه...) تلك المقاومة التي لابد من توافرها لكي ينشأ الموقف الذي يجسم صراعاً بين قوى مريدة، وأخرى مانعة، والمغالبة بين هذه القوى هي التي تؤدي إلى تصعيد الحدث إلى ذروة تنتهي بتغلب إحدى القوتين.

وعلى قدر قوة الصراع بين أطراف القصة تكون المقاومة في الحوار، في تناسب طردي لا ينعكس، ولا يختلف مقياسه.

ويضرب مثلاً من استسلام الأرض والسماء لأمر الله، بلا مقاومة، وكذا البشر في الميثاق الذي أخذ عليهم...

ويتوقف عند الحوار في مشهد خلق آدم، وسؤال الملائكة مع أنهم أطوع الخلق. ثم ينتقل إلى مشهد حوار إبليس، فمرة يتكلم بجرأة ﴿لم أكن لأسجد﴾ ومرة نراه ذليلاً ضعيفاً: ﴿رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾. ولنستمع إليه بعدما أجيب طلبه. وعاد إليه روح التمرد: ﴿رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض...﴾.

وهكذا نجد كل قول في المحاورة معبراً عن حالة قائله ومشاعره من الأعماق، وأن كل قول يدفع بالحدث قدماً إلى ذروته أو نهايته.

وفي مشهد حوار ابني آدم، وهو أول مشهد حوار على الأرض[1] لم ينطق القاتل إلاّ بكلمة: ﴿لأقتلنك﴾، ظل في حال من الحقد والكمد يسمع مقالة أخيه الذي يحاول أن يستل سخيمته... دون جدوى. ثم تبدأ رحلة الندم: ﴿يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب...﴾ يقول: ولنا أن نلمح في هذه القصة سرعة

---

١ - استشهد الكاتب بمشهد حوار زعمه في القبلية قبل هذا زماناً وهو مشهد: ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت... ﴾الخ. وهي قطعاً ليست في آدم وزوجه كما يوهم قول الكاتب بالسبق الزمني. بل هي في أي بشر أشرك.

حركة الحدث في تصاعده من بدايته إلى نهايته، وأن الصراع فيه عفوي انفعالي. وأن عنصر الشر كان أقل كلاماً وأكثر فعلاً. على العكس من عنصر الخير...

ويعلق على الآيات: ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم...﴾ فيقول: هكذا بسلاسة ويسر وبألفاظ قليلة، وصلنا سريعاً إلى قلب الأحداث...

ثم تجيء كلمة ﴿فطوعت﴾ لتدل على وجود صراع داخلي في نفسه، وإلاّ لقتله دون حاجة إلى تطويع...

ومن الملاحظ أن هذا الحوار خلا من تدخل عناصر غيبية لتأكيد استقلالية الإنسان... وبرز الغراب ليشد الإنسان إلى الأرض، وهكذا يتآزر الحوار مع السرد لا من أجل تصعيد الحدث فحسب، بل من اجل إبراز المشاعر المختفية وراء شخوص القصة وفي حنايا نفوسهم.

ثم ينتقل الكاتب إلى محاورات الآخرة. ولا ننقلها، لأننا نقصر حديثنا على القصص...

ثم انتقل ليتحدث عن الوصف في ثنايا القصة، وأنه إن لم يكن مما يخدم الغرض، فهو "رقعة أرجوانية" (كما في النقد الأوروبي في وصف الأساليب المفتعلة).

وفي القرآن الكريم العديد من المشاهد التي تتخلل القصص، يهتز لها الوجدان وتطرب لها الآذان، وتهفو لها القلوب أو تقشعر منها...

ثم استشهد بمشهد من قصة موسى وفرعون من سورة الدخان: ﴿... واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون. كم تركوا من جنات وعيون...﴾.

ثم انتقل إلى مشهد قصة نوح: ﴿وقيل يا أرض...﴾ الذي قال عنه الكاتب: وهذا الموقف عملت فيه الأقلام أكثر مما تعمل الأسنة بالطعان، وأدلى أكثر البلاغيين فيه بدلوهم، ولكنهم مروا به مر الكرام، بعد أن أذهلهم الإيجاز، الذي يرى الكاتب أنه جاء لأمرين:

١ - بيان قدرة الله على إنهاء هذه الأهوال بمجرد الأمر بكلمات...

٢ - إن هذه العبارات الموجزة هي أسلوب قرآني مقصود للقفز فوق الأهوال الجسيمة لينتهي إلى ما هو أولى بالتركيز، وهي قصة نوح مع ولده...

ثم عاد من جديد إلى الحوار ليركز على قاعدتي أو قاعدة: القوة والمقاومة. وليقول: لقد برزت قاعدة القوة الفاعلة، والمقاومة المولدة للصراع الذي يتنامى بالحوار على الدوام ومن خلال السرد

والوصف إذا دعت الضرورة، برزت في القصة بأساليب مختلفة تنهض وحدها لتشكل منهجا لمدرسة في حرفية القصة، وما يتفرغ عليها من فنون.

ومن هذه الوسائل:

١- توزيع السرد في أول القصة وآخرها وبين المشاهد.

وعادة ما يحمل السرد في أولها تلخيصا سريعاً لفكرة القصة، وقد يتضمن العبرة منها ظاهرة، أو مضمنة فيها: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا...﴾ ويبدأ الحوار والمقاومة والصراع، وقد يتضمن ذلك ربطاً بالحال الحاضرة.

أما في ثنايا القصة فيأتي السرد لوصف مشهد لا يغني فيه الحوار، أو لبيان تغير الحال من زمان أو مكان أو أشخاص، وهذا نرى القصة تقتصد فيه وتحذف منه ما أمكن الحذف، بل إن الحذف يأتي بأعاجيب من الفوائد للقصة...

ويأتي السرد في صياغة القصة عادة بالعبرة التي تفيدها والعقوبة التي حلت بالظالمين، وجزاء مثله للحاضرين المعاندين، ويطرد هذا الأسلوب حتى يكاد يصبح سمة من سمات الأسلوب القرآني.

٢- الحوار في المواجهات في مراحل التعرف والتصعيد والتأزم والحسم.

الحوار في القصة القرآنية دقيق في انتقاء ألفاظه، واضح في معانيه، فاعل في حفز الطرف الآخر على الرد بما يدفع الحدث قدماً إلى الأمام وصعداً إلى الذروة...

كما في الحوار بين موسى وفرعون في سورة الشعراء، وهو من أطول المحاورات في القرآن، وحوار إبراهيم مع قومه في السورة نفسها. ويتوزع الحوار والسرد في السياق بدقة متناهية بحسب المراد للمعنى وللحبكة الفنية.

٣- الحوار القافز بين المشاهد مع حذف السرد تكثيفاً للمشهد الفاعل المؤثر.

وقد تكرر هذا خاصة في طوال القصص كيوسف. حيث نجد الحوار يدور في مشهد، ويأتي إلى قول ترد فيه مناسبة مشهد آخر تال فإذا نحن في قلب المشهد التالي، ويستمر الحوار الجديد إلى نهايته، ويتم الانتقال من ذروة المشهد الأول إلى الثاني عبر الزمان والمكان والأشخاص ليلتحما حتى كأنهما مشهد واحد، ودفعاً للحدث، وحفاظاً على قوة التأثير..

٤- حذف لفظ القول استحضاراً للمشهد.

ويتعلق بدقائق الحوار ظاهرة تطرد في كثير من المشاهد ، ولا سيما القيامة : حيث ينطلق القول غير معزو إلى قائل ، إمعاناً في حضور المشهد: ﴿ هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم ...﴾ ومثل هذه الأفانين من الحذف تساعد في جعل السامع ينطلق بخياله مع ما يسمع من وصف حتى يصير وكأنه حاضر في الموقف، وفي كلمة قال أو تقول "تغريب" للمشهد. وقطع للصلة الوجدانية به: وتقليل لأثره ووجدانه (أي السامع).

٥- وهناك أفانين أخرى من الحذف في الحوار سيفصلها لاحقا.

٦- الحوار المفاجئ ممن لا ينتظر منه، وعلى غير توقع، والمفاجأة في أثناء الحوار. كنطق الطفل في المهد، أو الهدهد، أو النمل... وكلام الملائكة مع الرسل... الخ.

٧- الإجمال والتفصيل وتوزيعه في القصة الواحدة أو السورة أو في القرآن حسبما يقتضيه الحال

الفصل الخامس: التفصيل والإجمال

القرآن يبسط بعض قصصه، ويقتضب في بعض آخر، أو يبسط القصة في موضع، ويقتضبها في موضع، أو يذكر القصة مجملة ثم يشرع في تفصيلها، أو يبسط بعض مجريات القصة ثم يجمل بعضاً آخر. ولكل واحدة من هذه الحالات علة تتفق والغرض من القصة ومقاصد القرآن.

فطريقة الإجمال قبل التفصيل في سرد القصة تجيء وكأنها مرحلة العرض والتعريف بالقصة في مقدمة تسبقها، لإعداد النفوس للعرض، وقد تحوي هذه المقدمة طرفاً معجباً من القصة لتجذب السامعين، كما فعل في قصة يوسف بقص الرؤيا، ثم عرض القصة من أولها. والغالب على مقدمة القصة أن يكون الخطاب فيها موجهاً للنبي، دلالة على أن هذه القصة تساق أصلاً لأجله، إما بطريقة مباشرة لتثبيته، وإما تأييدا لدعوته... ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق...﴾، ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق...﴾.

ومن الإجمال نوع كالرمز الذي يأتي في أول القصة ليكون مفتاحها الذي تبنى عليه الحبكة كلها، وهذه ذروة الفن والحرفة في القصة، ومن هذا القبيل ما جاء في سورة يوسف في صورة رؤيا يوسف، فكانت رؤياه مفتاح القصة، وكانت آية على نبوته والقدرة على تعبير الرؤى ثم هي في نهاية القصة تتحقق على نحو يفسر هذا الرمز: الشمس والقمر والنجوم...

وقد يأتي الإجمال في خاتمة القصة ليبين العبرة منها كما في ختام سورة هود: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك...﴾.

وأبرز مواطن الإطناب في القرآن وردت في مواضع أكثرها يتعلق ببني إسرائيل وحوارهم مع أنبيائهم. فبنو إسرائيل ديدهم الشقاق. ويستعرض قصة البقرة.

وفي القصة تقديم وتأخير القصد منه اظهار عنت بني إسرائيل، وتأجيل عنصر المفاجأة. ومع أن المقصود كشف القاتل إلاّ أن النص قال: ﴿كذلك يحيي الله الموتى...﴾

ثم يستعرض مشهد دخول الأرض المقدسة في سورة المائدة. يقول: وهذه الحلقة والمحاورة فيها وضعها المسلمون الأوائل نصب أعينهم يوم بدر. (وأقول: فات الكاتب أن السورة التي فيها القصة نزلت بعد بدر...).

ثم يستعرض قصة طالوت، ويرى أنها مرت بأربعة أدوار:

١- مقدمة القصة التي لخصتها من بدايتها إلى نهايتها... وقد ركز النبي في المقدمة على أحد طلبيهم وهو الجهاد.

٢- المرحلة الأولى من تفصيلات القصة: مرحلة التعريف والتكليف حيث أخبرهم نبيهم بمن وقع عليه الاختيار. وفي هذه المرحلة كان الحوار هو أساس البناء القصصي.

فالحذف هنا يحقق اندفاع الحوار نحو الغاية قفزاً مع ضمان إعطاء الانطباع للمتلقي بحقيقة ما وقع في المرحلة المحذوفة وهو أنهم لم يقتنعوا إلاّ بهذا الدليل وهذه الآية.

٣- مرحلة التصعيد والمواجهة... وبين هذه والتي قبلها مرحلة محذوفة. إذ انتهى في السابقة إلى اختيار الملك عليهم وإقناعهم به، وبدأ هذه والجيش وراء طالوت في الطريق إلى ميدان المعركة.

وهذه المرحلة كانت سرداً إلا مقالة طالوت لهم.

٤- ذروة الحدث وبدء المعركة، وهي المرحلة الحاسمة في القصة. حيث يقف طالوت وجنوده على استعداد للقتال.

وطبيعة الحوار في مرحلة الذروة الإيجاز والاقتضاب وسرعة الإيقاع.

ثم بادر النص بتبديد حيرتنا، إلى خبر سريع يتضمن دعاء إلى الله بالنصر: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا...﴾

ويخبرنا بعد ذلك بأسلوب الماضي بما تم في مرحلة أخيرة وخاتمة سعيدة تتضمن مفاجأة، هي ظهور شخصية داود البطولية، ووراثته ملك بني إسرائيل...

ثم يستعرض مشهد موسى، والنار التي رآها، ولا يعجبه جواب المفسرين في تعليل كلام موسى الطويل، وأنه كان شوقاً...، وإنّما الجواب عنده أن موسى يبحث عن نار فلم لا يشعل عصاه؟ فجاء الجواب يشرح منافع العصا. وأيضاً فإن العصا كانت آية لموسى في فلق البحر وقبل ذلك في تحولها إلى حية لتكون معجزة يبرهن بها على صحة نبوته. ثم بضرب الحجر بها انفجر عيوناً، ثم إن هذه العصا هي التي اعتمدت عليها القصة في كثير من عناصرها: التشويق، الإثارة، التحدي، الانقلاب، والعقدة، والتأزم، والحل... ولم تكن العصا ممثلة لهذه العناصر لدينا فحسب وإنما بالنسبة لأطراف القصة أنفسهم، فالله سأل موسى ليستفرغ وظائف العصا ثم يفاجئه بما ليس في حسبانه.

من هنا يتبين لنا أن الإيجاز والإطناب والتفصيل والإجمال في القصة القرآنية له مآرب دقيقة تتعلق ببناء القصة وحبكتها على الجملة.

وختم الفصل بتقرير أربع نقاط للإجمال والتفصيل، والقصة القرآنية:

١- أن سمة المقاومة والصراع هي التي تدفع بالحوار قدماً.

٢- أن كل موطن من مواطن الإجمال أو التفصيل لها دلالتها المعنوية المؤثرة في بناء القصة وحبكتها وسير حوادثها.

٣- أن هذه القياسية والمثالية في المحاورات القرآنية هي نموذج المثل الأعلى الذي ينبغي أن نقيس عليه أعمالنا القصصية.

٤- من خلال القصص نعرف أخلاق بني إسرائيل التي أبرزها العنت والخلاف ونعرف كيف نتعامل معهم.

الفصل السادس: الطي في مجريات المحاورة والسرد

قال في هذا الفصل: يعد الإضمار القصصي من أدق الوسائل الحرفية في الأسلوب القصصي بعد اصطناع الحبكة، وهو أيضاً مفتاح هذه الحبكة. وهو أيضاً معيار دقيق للتفريق بين القصّاص المبدع المطبوع، والعالة على هذا الفن.

ولئن مرت على القصة مرحلة من تاريخها كان معيار الجودة أن ينجح الكاتب في سرد وقائع وأحداث متواصلة تقع في مدة زمنية طويلة، تستغرق أجيالاً من أبطالها. فقد ثبت الآن أن هذا النوع من القصص مضيعة للوقت، فضلاً عن افتقاره للمعالم الفنية، وقد أخذت القصة تتجه إلى التركيز وتكثيف الأحداث. فأفسحت المجال لإعمال الخيال فباتت القصة القصيرة أكثر انتشاراً وتأثيراً...

لقد رجعت القصة أخيرا إلى الأصل الذي كان ينبغي أن ترتسم خطاه، وتتتلمذ عليه وهو القرآن.

لقد تفرد أسلوب القصص في القرآن في مجال الإضمار. وأكثر العلماء تفصيلا في هذا الشأن الزركشي الذي عقد بابا في "البرهان"، فرق فيه بين الحذف والإضمار، مبيناً أن شرط المضمر بقاء أثر المقدر في اللفظ. والإضمار هو الإخفاء، والحذف الطرح. فإذا كان الإضمار هو الإخفاء. عكس الإظهار، أي أن ثمة شيئا له وجود محسوس أو معلوم، وطرأ عليه ما يدعو إلى إخفائه، بينما الإضمار في القصة هو حذف بعض مجريات القصة من سرد أو حوار عمدا لتحقيق فائدة. كتحريك الحدث، أو التشويق. أو الإثارة. أو الحفاظ على قوة الدفع، أو لعلة تتعلق بالزمان والمكان، أو تحريك حاسة التأويل لدى المتلقي.

أما وسائل القرآن وغاياته في الإضمار القصصي، فقد تعددت وتخطت حدود ذلك إلى دقائق لا نظير لها في حرفيتها واطرادها وتناسبها مع أحداث القصة ومجرياتها، وغدا لاطراده فيه أسلوبا من أساليب القص والانتقال عبر الأحداث والمشاهد. يجد السامع نفسه فيه قافزا مع الحدث قفزات، يحلق بمشاعره وأحاسيسه في آفاق من الإثارة والمتعة لا يجدها في قصة غير قصص القرآن. وهي تتراوح ما بين إضمار وصف في ثنايا سرد، أو إضمار وصف في ثنايا حوار، أو إضمار أجزاء من حوار. أو إضمار حوار في ثنايا سرد وهكذا... وبهذا كانت المحصلة النهائية قصة تامة محبوكة الأطراف في سطور قليلة أو صفحات قليلة أغنت عن الكثير.

ثم نقل عن البرهان حكم هذا الإضمار أو الحذف وأنه قد يفيد التفخيم والتعظيم لما فيه من الإبهام، ولذهاب الذهن كل مذهب، وقد يكون لطلب الإيجاز. ومنها التشجيع على الكلام ولذا سماه ابن جني شجاعة عربية. ونقل عن عبد القاهر قريباً من كلام الزركشي. وختم فصله مبينا من جديد غايات الحذف الذي يغلب أن يكون من الحدث أو المحاورة أو السرد متعلقاً بالزمان أو المكان أو الموضوع. وهي أي هذه الغايات، تتصل بالإثارة والجذب، أو الانتقال من مرحلة زمانية إلى مرحلة. أو من مكان إلى آخر، أو من رأس حدث إلى آخر، أو المحافظة على وحدة المكان، أو لتكثيف الأحداث. أو وحدة المشهد القصصي، واستدعاء الأحداث الخارجة، أو لتوزيع المشاهد القصصية أو تقسيم الفصول في القصة والخروج من أواخر الأحداث، أو افتتاح المشاهد...

وهذه كلها تظل ضئيلة القيمة عند القياس الموضوعي، والعرض على ساحة الدرس. وهذه الأخيرة أمور لم يفطن لها أحد من القدامى والمحدثين إلاّ سيد قطب وتبعه عبد الكريم الخطيب.

ثم دعا إلى مزيد من الدرس في ضوء ما استجد من حرفية وقواعد وفدت مع الفنون الحديثة وهي الآن تمثل علوماً ومدارس لها عاملوها كالمخرجين وكتاب الحوار والسيناريو، ممن يعرفون كيف يتم قطع مشهد عند نقطة معينة. ووصل ذلك بالمشهد التالي، وكيف يعبر عن اختلاف الأشخاص والأماكن بأقل إشارة ممكنة وباللمحة الذكية.

ثم أمّل أن يسقط الحاجز الذي أقامه أصحاب البلاغة من عقم سببه التفلسف والمنطق، وعندئذ تزول شبهاتٌ كثيرة أُثيرت حول القصص القرآني كالتكرار.

الباب الثاني: الإضمار في المحاورات القصصيّة وأثره في الزمان والمكان:

في تمهيد يسير أعاد أن سيد وحده تنبه إلى هذه السّمة العجيبة، وهي أن تقطع المشهد وتدخل بالقارئ في مشهد آخر تال يفصل بينهما الزمان والمكان، ويضعه فجأةً في قلب المشهد التالي طاوياً من الزمان والمكان، وحاذفاً وطاويا ومضمراً من الموضوع ما لا يكاد المتلقي يحس بأنه قد حذف، ووصف سيّد بأنه نسيج وحده في الدراسات القرآنية.

الفصل الأول: القفز بالحدث عبر الزمان والمكان معاً:

قال في هذا الفصل: هناك ظاهرة تتخلل مشاهد القصص القرآني التي يفترض أنّ أحداثها تدور في أكثر من مكان، وأنّ أحد أطراف الحوار يتنقل بين كل تلك الأماكن، ليبلغ رسالةً أو ينشر خبراً، فيكون التكليف بذلك خاتمة المشهد الأول، والرد عليها فاتحةً للمشهد التالي، وكل ما يقع بين المشهدين يُطوى.

وإذا توحدت طريقة الأداء في القصص المختلفة، فلا شك أنها توحي بأن هذا أسلوب قصصي وطريقة في الأداء التعبيري له حدوده وحرفيته وفنيته.

وأبرز هذه المواقف القصصية ما جاء في سورة طه في أكثر من موضع، حيث كان المشهد الأول في الوادي المقدس طوى، ثم انتقل إلى بلاط فرعون، ثم تلاه مشهد المباراة المشهودة، وتستمر القصة في قفزات متلاحقة.

ففي المشهد الأول يطلب موسى تعيين أخيه وزيراً معه، وهو بعيد عنه، فيجاب، ويطوي أنه بحث عنه فوجده فبلغه، فانطلقا معاً، فكانت المحاورة مع فرعون...

وبينما المشهد الأول ينتهي بقوله تعالى في تكليف موسى: ﴿إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾. إذ بنا في المشهد التالي مباشرة نسمع رد فرعون: ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾.

إن ثمة كلاماً محذوفاً من السرد ومن الحوار... لقد اختصر القرآن ذلك، وجعل القصة تنتقل من ذروة إلى ذروة مستعلية فوق التفصيلات...

مثل هذا الإضمار يأتي جنباً إلى جنب مع مواقف فيها تفصيل كما في مشهد أو حوار الحديث عن العصا..

إن اتساع الأسلوب للمذكور. وعدم اتساعه للمحذوف وراءه علل فنية تتعلق بالبناء القصصي الأمثل.

وتأتي المحاورة نهجاً بين قول وقول وسؤال وجواب وطلب وتعقيب حتى تأتي على عبارة قرب نهايتها التي ينتهي بها الموقف. وهذه العبارة تتعلق على نحو ما بعبارة أخرى ستجيء في الموقف التالي أو المشهد التالي، فتعمل الحرفة عملها في ربط تلك العبارة بنظيرتها في المشهدين...

فبينما كنا نستمع التكليف الإلهي لموسى: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى﴾ إذ بنا نفاجأ بهما يردان: ﴿قالا ربنا إننا نخاف...﴾ فيكتشف السامع أن الأسلوب قد نقله إلى مشهد جديد، وهي نقلة استغلت فيها مناسبة اللفظ المعبر عن إضافة هرون... وفي المشهد التالي نفاجأ كذلك بأنهما صارا في مواجهة فرعون متخطين كل الحجب... فكان النقص في العبارة مؤدياً إلى زيادة الحبك والربط والامتزاج بين المشاهد. وجعل العبارة الرابطة فاصلة ومازجة في آن. تلك هي الحرفة القصصية لا ما يسطرون !.

وفي سورة الشعراء يكرر الحبكة نفسها... فبينما كان التكليف: ﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ إذ بنا في الآية التالية في مكان وزمان آخرين نستمع إلى رد فرعون مباشرة بلا فاصل: ﴿قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين...﴾.

وسورة يوسف حافلة بمواقف شتى من الحذف. وقد بلغ من دقة تصميم القصة في مراحلها المختلفة أن فيها موقفاً آخر يماثله. ولكنه لم يقع فيه من الحذف ما وقع في الأول. فالموقف الأول يقع في مرحلة الذروة من القصة حيث يعود الأسباط إلى أبيهم وقد أخذ منهم أخوهم. والموقف الثاني يقع في مرحلة الانفراج حيث علموا أن العزيز الذي أخذ أخاهم هو أخوهم يوسف.

وفي حوار الاخوة في مصر يأتي قول الكبير: ﴿واسأل القرية التي كنا فيها...﴾ وإذ بنا في الآية التالية أمام يعقوب: ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً...﴾ إن الأسلوب طرح من السرد كل الفواصل لكي ينقل لنا الإحساس بتلاحق الأحداث، ويبقي حواسنا على قدر من الانفعال والتوهج.

والعبارة التي قالها يعقوب في المشهد الثاني هي التي قالها في المشهد الأول (أي حين ذهاب يوسف، وحين ذهاب أخيه)، نقلها الأسلوب القرآني بحذافيرها لتلقي بظلالها على هذه الحادثة الثانية. على الرغم من أنها ليست كالأولى، فلا بد أن تبقى الأحداث متوترة، ولو صدقهم الأب لضاعت منا عقدة القصة... وفي مشهد الانفراج لا نجد مثل هذا الحذف. فبينما حمّلهم يوسف قميصه ليلقوه على وجه أبيه. قال المشهد التاني: ﴿فلما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف...﴾ ولو كان الهدف من الحذف الإيجاز لصنع بهذا المشهد ما صنع في سابقه... وهنا طريفة جديدة أنه بينما قام الحذف في المواقف السابقة بتصعيد التوتر، هو عين ما قام به الذكر في مشهد آخر، حيث لو حذف هنا لضاع التوتر.

ففي مرحلة التأزم حيث تتلاحق الأحداث متشابكة يتلاطم بعضها ببعض كأمواج عاتية تعصف بشخوص القصة، ولا يستطيع الأسلوب أن يعبر عن هذه المرحلة إلاّ بأسلوب القفز فوق رؤوس الأحداث، والانزلاق فوق ذرى أمواجها المتلاطمة من قمة إلى قمة، أما في مرحلة الانفراج فإنه يأخذ المتلقين الهويني ويرشدهم إلى أن النهاية قريبة ولكنه لا يلقي بهم من القمة إلى السفح دفعة واحدة... وهذا أمر يطرد في الأسلوب القصصي في القرآن. هذه مواضع تتعلق بالانتقال بالحوار المتداخل عبر المكان.

ثم انتقل بنا الكاتب إلى مثال على الحوار المتداخل عبر الزمان، فنرى الحوار وقد قفز فوق مراحل زمنية دون أن يكلفنا مؤنة تعقب تلك المراحل التي أضرب عنها، وإنه أضمرها من القصة ليصلنا مباشرة بمواطن الإثارة.

ففي قصة مريم وعيسى، انتقل السياق من محاورة مريم مع رسول ربها إلى حديث عيسى لقومه في سورة آل عمران (الآيات ٤٥-٥٢). لقد قفز بنا الحديث من ذروة الإثارة في حياة السيدة مريم، إلى ذروة الإثارة في حياة عيسى ليقف بنا في قلب المشهد الذي واجه فيه نبي الله قومه. وبين المشهدين ثلاثون عاماً. حقق الحذف القفزة بينهما.

الفصل الثاني : وحدة المكان والقفز بالحدث عبر الزمان

عالج القرآن موضوع الزمان والمكان على نحو بديع، بحيث طويت الأزمان والأماكن في قصصه على نحو لا يؤثر على مجريات القصة ولا يشعر بغرابة فيها. بل إنه خدم القصة وأبرز أبدع مواقفها وأكثرها تأثيراً على اختلاف أزمانها وأماكنها دون أن يشعر المتلقي بتجاوز أو غرابة في الانتقال من زمن إلى زمن أو من مكان إلى مكان، فتجنب بذلك ما تفرضه وحدتا الزمان والمكان بالمفهوم "الكلاسي" من ضيق وحرج في العمل الأدبي... ولم يفرط في إظهار الزمان والمكان والفوارق الزمانية والمكانية في القصة

الواحدة. وأقرب هذه المشاهد إلى ما سبق ما جاء في سورة النمل في قصة سليمان مع ملكة سبأ. حيث انتهت محاورة بين سليمان والهدهد إلى تكليفه بحمل رسالة إلى اليمن، لتدور المحاورة في المشهد الثاني في قصر ملكة سبأ.

قال سليمان: ﴿اذهب بكتابي هذا فالقه إليهم...﴾. وقالت الملكة : ﴿إني ألقي إلي كتاب كريم﴾ وهكذا اتصل الحوار.

ويعلق على محاورة الهدهد لسليمان وإطالته في وصف عقيدة أهل اليمن في ذلك الوقت معلنا موقفه، وبصيغة المخاطب في بعض الكلمات: ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ في كتاب مبناه الإيجاز. لأن هذا الموقف العقدي يمثل صلب ما جاء القرآن لأجله، ولندرك في نهاية القصة أن هذا الهدهد كان سببا في تلك الهداية التي حلت بملكته ومملكتها، فمجيء مثل هذا الحديث ليس إقحاماً.

ثم قال: إن استحضار المشاهد لدى المتلقي، وكأنها تعرض عليه من خلال آلة عرض كفيل ببسط العلة الحقيقية للحذف في تلك المواقف كلها. ويعلل هو ذلك التكرار بأن معجزة يوسف كانت في تعبير الرؤى. بالإضافة إلى أن الرؤى لعبت دوراً في تصعيد الأحداث.

وقص كيف ذكر القرآن رؤيا الملك مرة ثانية على لسان الساقي، وكان من الممكن لو كان الأمر مجرد الإيجاز، حذفها، مع أن الآيات أضمرت كثيرا من الأحداث والتفصيلات... فالاختصار أو الإضمار كان قصده الاتصال بين الحدث الفرعي (رؤيا الملك) والحدث الأصلي (سجن يوسف). ثم يستخدم الكاتب "وحدة المكان" في نفي ما قاله بعض المفسرين -باستماتة- أن قول: ﴿وما أبرئ نفسي...﴾ هو منسوب إلى يوسف. يرد ذلك الكاتب بوحدة المكان. وحق ما يقول إذ يقول: والنص القرآني منذ بداية هذه المرحلة (رؤيا الملك) يتخذ بلاط الملك مرتكزا للأحداث إلى غاية المرحلة التي انتهت بتولية يوسف، لتنتقل الأحداث إلى مرحلة جديدة ومشهد آخر في زمان ومكان مختلفين.

ويتخلل هذا المشهد الطويل المفعم بالأحداث والمفاجآت، حوادث قليلة دارت خارج المكان.

وقد اعتمد القص على وحدة المكان، ولهذا فإننا لا نكاد نشعر بالانتقال أو بالغربة في هذا المشهد على الرغم من أن الحوادث أوحت بمبارحته أكثر من مرة في بعض المواضع: تبليغ الساقي رؤيا الملك، ثم رسالتي الملك، وحمل رسالة يوسف للملك. والناظر في النص يتبين له أن الحذف (والقص) قد توافر فيها على نحو غريب.

ثم لاحظ الكاتب ملاحظات: حذف كثير من الأحداث التي تقع خارج ملاط الملك. وأن الحذف يكثر في مرحلة الذروة ليقارب بين الأحداث ويحفظ عليها إثارتها وتأججها ويكثف الأحداث بالتركيز والقفز فوق ذراها. وأن الحذف يطرأ على ما يراد إضماره مما يحدث خارج مكان الحدث. وأنه تركز في هذه المرحلة على المكان أكثر من الزمان. وأن هذا الحذف يحيط بما يراد ذكره يقع خارج المكان من أجل أن يجعله في حكم ما يروي رواية من قبل من جاء بخبره، وهذا يقتصر عادة على الأحداث المؤثرة وذات التفصيلات الدقيقة التي ينبغي أن يحيط بها المشاهدون والسامعون.

ثم أطال الكاتب في نسبة هذا القول ﴿وما أبرئ نفسي...﴾ إلى يوسف. وكان فيما عرض قوياً جيداً موفقاً، ونكتفي باللمحة التي أسبقناها عن ذكر التفصيلات...

وقد يرد الحذف في الحوار المتواصل لأجل الدلالة على النقلة الزمانية، التي تجيء شديدة وعاصفة ومثيرة للانتباه أكثر من نظيرتها في الحوار المتداخل. ويضرب المثل من قصة زكريا ودعائه ربه، لننتقل في المشهد التالي إلى أمر يحيى بأخذ الكتاب بقوة (سورة مريم).

إن الأسلوب القرآني طوى السياق على نحو فني بديع، وليس القصد مجرد الإيجاز.

الفصل الثالث : فنون من الحذف لتحقيق الحضور في العرض

إن الحذف لأجل الحرفة القصصية لا يمنع أن يكون لعلة أخرى تتعلق بالغرض الديني، أو لتحقيق التكامل للعمل الفني... كالانتقال من عالم الشهادة إلى عالم الغيب: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة﴾[1].

ومن هذه اللطائف هذا الحذف في المحاورة بين موسى وربه وقد جاء للدلالة على سرعة الإجابة: ﴿فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون. فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون﴾.

ومن ألطف لطائف الحذف في المحاورة ما يقصد به الدلالة على الحديث الجانبي في المشهد بين بعض حضوره دون بعض، أو الإسرار بحديث والجهر بآخر، أو دخول شخص لم يكن حاضراً في بداية المحاورة وهذه من الأمور الحرفية الدقيقة في الكتابة القصصية والمسرحية. وضرب المثل لذلك من تآمر أخوة يوسف الذي انتهى بحديثهم مع أبيهم، وأذكر بعض النص الكريم: ﴿...وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين. قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف...﴾ فكلمة قالوا جاءت فاصلاً بين

---

١ – يقول الكاتب : كما في قصة حبيب النجار في سورة يس، والقرآن لم يسمه ولا السنة، فمن أين سماه؟ وما الفائدة المتوخاة فنياً أو دينياً من تسمينه؟ وكيف علم أنهم رسل عيسى إلى أنطاكية كما في كتابه... نقلاً عن الإسرائيليات طبعاً؟

مشهدين أو دالة على دخول الأب (أقول: أو دخولهم على الأب) وهي لم تدل على التغير بنفسها وإنما من خلال موضعها في السياق.

ومن نظائر هذا المشهد في قصة موسى: ﴿فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى﴾.

ثم ضرب مثلاً من قصة إبراهيم في سورة الأنبياء، وفصل المشهد الواحد إلى ستة مشاهد وبيّن كل موطن حذف والغرض منه.

ثم علق نقلاً عن ثروت أباظة في السرد القصصي في القرآن: "لقد حققت هذه المواضع من الحذف على هذا النحو الفريد ما يسمى عند القصاصين بجاذبية التشويق". وإنما الغرض الحقيقي من الحذف ترك الأحداث تتحرك وتتصاعد من خلال الحوار فقط، ومن أجل ترك الحدث للحوار.

إن الإبداع ليس شيئاً يسيراً، فكيف بالإعجاز ؟! هذا أمر يدركه من عانى مرارة اقتناص عناصر الإبداع الأدبي من الخيال البشري، ويعرف مثله أو أكثر منه من عانى صعوبة اقتناص عناصر الإعجاز في النص القرآني. ويحاول أن يوازن بين المواقف المتشابهة ويرصد وجوه الاتفاق والاختلاف.

ومن اللفتات الجميلة في هذا الفصل موازنة الكاتب بين: ﴿فأسرها يوسف في نفسه....﴾ وفي قصة السحرة: ﴿وأسروا النجوى﴾ وقول إبراهيم: ﴿وتالله لأكيدن أصنامكم﴾. دون أن يصرح بالإسرار. وتعليله ذلك بأن إبراهيم ضعيف وسط قوم طغاة، بينما يوسف والسحرة أقوياء فلو لم يصرح بالإسرار لما فهم.

ثم إنه لو تسرب الاعتقاد إلى نفوس السامعين أن يوسف قالها جهرة لفسدت خطته، ولذلك زاد: ﴿ولم يبدها لهم﴾ فأي انفعال يفسد الخطة... بينما إبراهيم لا يملك أن يتحدى القوم جهرة...

ومن اللفتات الحلوة أيضا تعليقه على قول إبليس: ﴿قال أأسجد لمن خلقت طيناً. قال أرأيتك هذا...﴾ فلم كرر لفظة القول. وهو يعتقد أنه لم يكن يجرؤ أن يصرح بها أمام رب العزة . أي أنه قالها سراً ثم انتقل إلى الجهر ليقول : ﴿ أرأيتك ..﴾ ولهذا أورد السياق كلمة قال بين مقالتي إبليس ، وليس ثمة ما يدعو إليها إلا أن تكون فاصلاً بين ما قيل جهارة من إبليس وما حدثته به نفسه ولم يجرؤ على الجهر به.

وقاس على هذا المثل ما ورد في قصة سليمان: ﴿قال أتمدونن بمال... قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها﴾ ويعلل تكرار الأول بأن قال الأولى كانت في حضور وفد اليمن، والثانية في الكلام مع حاشيته، فبين القولين زمن ليس بالقليل. فلئن كان المشهد واحداً فالزمان مختلف.

ثم ختم الفصل بلطيفتين كما سماهما، وهما قول موسى: ﴿أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا...﴾ وقول لوط: ﴿لو أن لي بكم قوة...﴾ وأن أمر هذا الحذف يتعلق بالحالة النفسية للقائل فالإنسان عندما ينفعل يحتبس منه الكلام.

وقد جاء في ثنايا كلامه (أي الكاتب) ما لا نقره عليه كقوله: فموسى كان في غضبه يكاد يفقد رشده...!!

ثم صور الكاتب الموقف على النحو التالي: لما قال فرعون والملأ للحق الذي جاءهم به موسى: ﴿هذا سحر...﴾ كبر على موسى وصفهم للحق بهذا، فقال: ﴿أتقولون للحق لما جاءكم...﴾ ثم استعصى عليه النطق، فسكت ليسأل مستنكراً: ﴿أسحر هذا...؟﴾ وليس بحذف، ولكنه انقطاع للدلالة على ما ذكرنا من شدة الانفعال.

وعلة حذف جواب "لو" في كلام لوط عند الكاتب هي:

١- التعبير عن مدى الألم.

٢- أن الموقف لا يحتمل أن يستعدي لوط هؤلاء على نفسه.

ثم قال: إن تطور الفنون الحديثة التي تفرعت على فنون القصة والمسرحية، ومستحدثاتها وما طلعت علينا به من أساليب عرض القصص كلها قد يسرت لنا إدراك ما لم يدركه الأقدمون من القرآن الكريم.

الباب الثالث: أثر إضمار القول والقائل والمقول في مشاهد القرآن ومحاوراته:

على عادة المؤلف يبدأ الباب بتمهيد يسير استغرق هذه المرة أطول من المعتاد، فقد بلغ ست صفحات، ومما جاء فيه: "طبيعة فن القصة تختلف عن طبيعة فن المسرحية. فالمؤلف يختفي في المسرحية ويضع الكلام على ألسنة أبطاله، أما القصة فأبطالها مقيدون لا يتركون وحدهم يتصرفون كيف يشاءون، وإنما هم مقيدون بما نص عليه المؤلف الذي يتدخل بين الحين والآخر بالسرد والوصف... في المسرحية ينهض الحوار وحده بعبء دفع الحدث، وفي القصة يتشارك الوصف مع الحوار".

ومن هذا انتقل إلى القرآن الذي قال عنه إنه يميل حيناً إلى تغليب روح الحضور في المشهد بتكثيف الحوار ونراه تارة يميل إلى تغليب روح السرد القصصي.

ثم بعد حديث عن فنية وحرفية العمل المسرحي والقصصي الصرف، قال: "ولقد سلك القرآن مسلكاً وسطاً بين هذين الفنين ومزج بينهما على نحو فريد عالج ما نسب إلى كل منهما من قصور، وسبق هذين الفنين إلى طرائق لم يتوصل إلى مثلها إلاّ بعد أن تطورت تكنولوجيا الفنون في العصر الحديث".

ثم أشار إلى المحاور الثلاثة في القصة: الزمان والمكان والموضوع. وللزمن أبعاد ثلاثة أولها: زمن وقوع الحدث في الحياة الواقعية، وثانيها زمن عرض الحدث، وثالثها الزمن النسبي وهو ما يحدده القاص أو المسرحي من زمن بين هذين الزمنين.

ولتكثيف الحدث وسائل كثيرة لم نر أبدع مما استعمل في القرآن. ومن أبرز الوسائل لفظ القول. وقد يضمر القول، فمتى يظهر ومتى يضمر؟

الفصل الأول: الوصف الناطق المعبر:

يقصد الكاتب عرض الصورة بالعدول عن الوصف إلى حكاية القول الملازم للشخص المعبر عنه بحذف لفظ القول لنجده أمامنا ناطقاً حياً معبراً. ثم ضرب أمثلة يتحول فيها الوصف إلى مشهد قصصي. منها: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلاّ هزواً أهذا الذي يذكر آلهتكم ...﴾ أي يقولون هذا. ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً...﴾ أي قائلين لهم: سيروا...

وأحياناً يعبر بالقول لينوب مناب الوصف أي بعكس السابق، ففي القصة السابقة قال الله: ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا...﴾ وهذا لسان حالهم فكأنهم قالوه بمقالهم، فالمقول في مثل هذه الآيات ينوب مناب الوصف في الإفصاح عن حال هؤلاء الكفار. فحذف القول في موطن من القصة وذكره في موطن كل ذلك لملحظ. وذكر أمثلة عديدة.

الفصل الثاني: التكثيف والإسقاط والحضور:

يقول الكاتب إنه توقف طويلاً أمام سورة هود حتى سمحت له ببعض أسرارها. والسورة عامرة بمواضع الحذف. وقد تتبع الكاتب كما قال طرائق التعبير لقصصها من جهة، وعلاقة هذه الأساليب بموضوع السورة وفاتحتها من جهة أخرى.

ثم وضع نصوصاً من سورة هود والأعراف وغافر. ثم علق عليها بقوله: "فالذي بين هذه المقتطفات ليس مجرد تقارب في الألفاظ أو المعاني وتكرار بعض المضامين القصصية، وإنما هو أمر أبعد وأدق، فإن طرائق التعبير إذا تشابهت فإنما تريد أن توجه السامع إلى ما وراء هذا التشابه، ولا سيما في

الفن القصصي الذي يستقي نماذجه من واقع حياة البشر، فيكون دائماً محملاً بالنموذج الذي يساق في مناسبة معينة في صورة معادل لموضوعي لمجريات حياة البشر، وتجري عملية إسقاط تلقائية لدى المتلقي بين الموضوعين، وهكذا الرمز أيضا، ولكن لا بد من وضع علامات لهذه المعادلة ليتم الإسقاط على النحو الذي يتغياه مؤلف القصة، وهذه العلامات إمّا من الأحداث وإمّا من الأشخاص وإمّا من الأماكن أو الأزمان وإمّا من الأسلوب. ومن اليسير في ضوء ذلك تبين العلاقة بين طريقة افتتاح سورة هود. ومجيء بداية حديثه في هذه السورة نفسها عن قصة نوح، وهي أولى قصصها: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه...﴾ ففاتحة السورة: ﴿ألاّ تعبدوا إلاّ الله إنني لكم منه نذير وبشير...﴾ دون لفظ قل. وكذلك فاتحة قصة نوح: ﴿إني لكم نذير مبين ألاّ تعبدوا إلاّ الله...﴾ دون قل.

يضاف إلى تشابه مضمون وتشابه ألفاظ: ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾. في المقدمة: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾.

وقد جاءت كل القصص في سورة هود مفتتحة بلفظ قال: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال...﴾، ﴿إلى ثمود أخاهم صالحاً قال...﴾، ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال...﴾.

ولم يرد بعد ذلك في السورة إلاّ طرف من قصة موسى جاء سرداً لا يتخلله أي محاورة، وهو من المواضع النادرة بالنسبة لقصة موسى التي يتخللها أطول المحاورات القصصية في القرآن. وقصة نوح في الأعراف جاءت مفتتحة بالقول: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال...﴾.

وكذا سائر القصص فيها، حيث اتحدت فواتح القصص الثلاث لعاد وثمود ومدين مع نظائرها في سورة هود، والتي خالفت أخواتها في سورة هود وهي قصة لوط، كذلك خالفت أخواتها في سورة الأعراف، وكذلك جاءت قصة موسى عقب هذه القصص.

إن هذا الصورة التي افتتحت بها القصص في المواضع السبعة من السورتين وهي التقديم بكلمات قليلة ثم الشروع في المحاورة مباشرة، تركت دون تعليل من المفسرين، ولا بد أن لها علة لأن أساليب القرآن ليست عبثاً.

فإذا أضيفت الخصيصة الثانية في محاورات سورة هود إلى هذه الخصيصة زادت حاجتنا إلى تفسير هذا النمط من الأساليب والبحث عن علته، وهذه الخصيصة لا نظير لها في القرآن إلاّ في موضعين، أحدهما قصد به التحول من مخاطب إلى آخر دون قطع الخطاب بوصف حركة التحول: ﴿قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين. ويا آدم اسكن...﴾. حيث جعل "الواو" مع النداء

دليلاً على تحول الخطاب من إبليس إلى آدم دون حاجة إلى اعتراض المحاورة. بالتدخل بالإشارة إلى هـذا التحول. والموضع الآخر في سورة غافر حيث جاء على لسان الرجل المؤمن: ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد...﴾، ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار...﴾.

وهذا خلاف سابقه حيث إن الحديث في الأول توجه بالنداء لغير المخاطب قبلـها. أمّـا هنـا فالمخاطب واحد بالنداءات كلها. وكذلك في سورة هود، فقد جرت المحاورة كلها في سائر القصص بمـا فيها قصة نوح على هذا المنوال حيث يتوجه النبي منهم إلى قومه بحديث يدلي فيه بحججـه... ويعطـف بعضها على بعض بقوله يا قوم... وهو ما لم يحدث في نظائرها في الأعراف. ومعنى هذا أن السورة بنـاء متكامل تنتظمه وحدة عضوية من نوع فريد، شغلنا عن أن نكتشفها انكبابنا على المعاني الجزئية...

لقد أدرك سيد العلاقة الموضوعية التي تنتظم السورة... فالبناء الموضوعي لسورة هود يهدف إلى إيضاح رسالة محمد صلى الله عليه وسلم... ويتخذ من قصص الأنبياء مثالاً على صدق هذه الدعوة. فهذا نظير هذا في مقدماته، وهو نظيره في نتائجه... ثم إن قصص الأنبياء بعد ذلك ليست شيئاً منفصلاً وإنّمـا هي جميعاً أجزاء من عرض متصل... وما حُذف من لفظ القول من قصة نوح مقصود منه الحضور الموحي بأن المشاهد الآتية تعرض كأنها وقائع حية حاضرة. والصور التالية استغنى فيها النص عن طريقة الحـذف لأن التصور قد حصل. ثم كثر العطف بـ "يا قوم" ليدل على أن المحاورات حصلت في أوقات ومناسبات وليست موقفاً واحداً. فكانت تختصر حلقات من القصة ويكتفي بالإشارة إليها في المحاورة. فحجج نـوح متعددة وفي أوقات، وكذا ردود قومه، لكن القرآن يكثّف.. ومن هنا قالوا له: ﴿قد جادلتنـا فـأكثرت جدالنا...﴾.

فالعطف في القصة يقتضي المغايرة في الزمان والمكان، وإن اتحد الموضوع. فالتوافق التام بين قصة نوح ومطلع السورة وحذف القول من قصة نوح كل ذلك ليدخلنا في ربط محكم وقياس جزئيـات بـين القصتين... ثم عطفت باقي القصص...

وهكذا يتأكد أن القرآن يستعمل من الأساليب في عرض القصة ما يؤدي إلى إخراجها في صورة عرض مثير وشائق... له من وسائل تعزيز الإدراك لدى المتلقي، وإرهاف حواسه وتحريك مـشاعره مـا يؤدي إلى تكامل عناصر التأثير... ويكفل للقصة قمة الروعة التي يتقاصر دون إدراكها عتاة أرباب الأقلام من الخلق، وبهذا يتحقق الإعجاز بأكمل معانيه وأجلاها.

ثم ذكر أمثلة عديدة على حذف القول منها قصة عيسى في آل عمران، ورفع الطور في البقرة والأعراف، وأيوب في "ص"، وغيرها.

وبينما نجد ﴿ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني...﴾ دون لفظ القول نجد ﴿ونادى نوح ربه فقال...﴾ وفي نداء ابنه حذف "فقال..."

فاختلاف أساليب القول ناشئ من اختلاف المقامات. فمقام الحديث المباشر غير مقام الوصف وغير السرد...

ومثل هذه المفارقات القصصية هي أمنية كل كاتب مبدع لما فيها من عناصر التشويق الاثارة.

الفصل الثالث: إحياء مشاهد الغيب وتجسيدها:

من خصائص المحاورات، التي لا تكاد تنشأ محاورة ثرية إلاّ بها، الصراع، وتعارض المواقف. بحيث يعتمد الحوار على قوة ومقاومة، من خلال المواقف المتعارضة، ولهذا ارتبط الحوار بالصراع في المسرح اليوناني، وعندما طبقنا هذه القاعدة على المشاهد القصصية في القرآن، وجدنا أكثر محاوراتها ثراء وتدفقاً هي تلك التي تكون بين الأنبياء ومكذبيهم، وكان أكثر ذلك ما دار بين موسى وفرعون، وبين موسى وبني إسرائيل.

ثم طبق الكاتب هذه القاعدة على مشاهد الغيب، التي تصف أهل الخير وأهل الشر، حيث تقل المحاورات أو تقصر أو تنعدم ويحل محلها الوصف مع الأخيار، وتطول المحاورات وتكثر مع الأشرار، والجديد هنا، يقول الكاتب، إن حذف لفظ القول وتوابعه، من مشاهد وصف أهل الشر كاد يصبح قاعدة فيها، وكان في المقابل قليلاً مع أهل الخير وهناك مشاهد تجمع بين الفريقين ينطلق الخطاب فيها لأهل الشر أو منهم مباشرة، وقد حذف منه لفظ القول، ولا يحدث مثله مع أهل الخير.

والمشاهد التي سيطبق عليها نظريته هذه كلها من مشاهد القيامة، وقد ذكر منها ثلاثة وثلاثين مشهداً. ومنها: ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ آل عمران. ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ الأنفال. ﴿ يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ التوبة. ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ الحج. ﴿تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ المؤمنون... الخ.

فكلها حذف منها لفظ القول، وهذه المشاهد كلها مشاهد غيبية لا سبيل إلى إدراكها بالحواس المعروفة، ولا يحدها من أطر الزمان والمكان والموضوع شيء يدخل في تصديق البشر بالوسائل المادية...

ثم أحال الكاتب إلى سيد قطب في مشاهد القيامة لتتبع العديد من هذه المشاهد. فالحذف في هذه المشاهد يقرب الصور البعيدة ويعين على تجسيدها، ويقدم دليلاً على أن ظاهرة الحذف في أساليب القرآن ما كنا لنجدها بهذه الكثرة إلاّ وهي دليل على هذا.

وأكثر هذه العبارات التي تقال لأهل النار تُلقى بأسلوب الحاضر أو الماضي كأنها واقعة أو وقعت إمعانا في الدلالة على تحقق الوقوع (مشاهد القيامة) مع ما يصاحبها من المؤثرات الأخرى، وعلى رأسها حذف القول.

ثم فصل الكاتب في بعض هذه المشاهد وما فيها من مؤثرات كأن يقول تعليقاً على آيات سورة الدخان: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس. هذا عذاب أليم. ربنا اكشف عنا العذاب...﴾. انظر إلى السياق وهو يدير محاورة حية ونحن شهودها، فيصف الجو العام بكلمات قليلة ثم ينطلق في المحاورة التي يمسك بزمامها. والعرض يبدأ بالمؤثرات، ثم يقال: ﴿هذا عذاب أليم...﴾. ولا ندري من القائل... فيجيء الرد عاجلاً من الناس: ﴿ربنا اكشف عنا...﴾ فيعلق الصوت الغيبي على مقالتهم: ﴿أنى لهم الذكرى...﴾ الخ.

ثم استعرض مشهد القيامة في سورة "ق"... ومما قال فيها: "يدلنا سياق هذه المحاورة على وجود أربعة أطراف: أولها الذات العلية وثانيها ملائكة يسوقون، منهم السائق والشهيد ثم المسوق للحساب، وأخيراً القرين تلك الشخصية المحيرة، ولكنّا لا نسمع من المحاورة إلاّ الخطاب الإلهي، وكلام القرين، ثم ينهى رب العزة عن التخاصم في حضرته، فلا بد أن ثمة أجزاء مضمرة من تلك المحاورة...الخ".

ثم يستعرض مشهد سورة الحديد وحوار المؤمنين والمنافقين في الآخرة. ليعقب بعد كل ذلك: "وهكذا نرى أن القرآن اعتمد على خاصية الإضمار اعتماداً أساسياً في تصوير المشاهد الغيبية كما فعل في تقديم قصصه، كما أنه تصرف في الأساليب بما يعضد ذلك من وجوه البلاغة، وأفانين التصوير... وتآزر فيها الوصف المسرود والمحاورة الناطقة الحية على إتمام الصورة على أكمل ما يكون التصوير الفني".

ومن أهم الوسائل اللفظية التي ساعدت على تكريس الحضور في العرض الغيبي هذا الإلحاح على العناصر الحسية وخاصة حاسة الإبصار، فكان النص يدفعنا إلى رؤية المشهد معروضاً أمامنا... ومن الوسائل المستعملة التعبير بالماضي حيث يدل على تحقق ما هو مستقبل كأنه وقع فعلاً.

ومن أعظم تلك الوسائل التي حشدها القرآن: الوصف، الذي هو بمثابة تهيئة ساحة العرض لما سيقع فيها من أحداث، أو يتبادل فيها من الحوار، ومن ذلك وصف الجنة: ﴿إن أصحاب الجنة اليـوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم...﴾... الخ. ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت...﴾.

ثم يعلق على مشهد سورة الزمر: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش...﴾ فيقول: "والمشهد القصير الرائع من مشاهد الوصف، لم يتخلله إلاّ جملة واحدة، ينطق بها قائل غير معروف: ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾.

ثم يذكر مشهد الصافات: ﴿فإنما هي زجرة واحدة... وقالوا يا ويلنا...﴾، يقـول إن "الـواو" و"قالوا" دالة على حذف.

ومن اكثر الأساليب البلاغية وروداً في هذا المجال أسلوب الاستفهام للتقرير والتوبيخ ﴿أكفرتم بعد إيمانكم...﴾، ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم...﴾، ﴿أليس هذا بالحق...﴾ ... الخ.

ومن الخصائص البارزة لهذه المحاورات الغيبية أن الحوار يحرك الحدث ويدل على الفعل الواقع في ساحة العرض، وهي من دقائق حرفة صناعة الحوار، التي تمكنه من الاستغناء عن الوصف المساعد الـذي يبتر الحدث ويقطع تسلسله في المواقف الحرجة. وورود مثل هذه الأقوال في المحاورات يضاف إلى خصيصة الإضمار، وحذف لفظ القول، فيعزز مكانة الحوار الراقي الذي بلغ من الحرفة حداً لا يدانيه فيها شيء من أفانين البشر، ويؤكد على إعجاز هذا الكتاب المبين".

الفصل الرابع: بناء المشهد القصصي بين مراتب حذف لفظ القول وتكراره:

يقول الكاتب في مطلع فصله هذا: "تبين لنا أن استعمالات لفظ القـول في مـشاهد القـرآن ومحاوراته على درجات تتراوح بين الحذف والبناء للمجهول والذكر والتكرار، وهو أيـضاً درجـات في التأثير في مجريات القصة، بالإضافة إلى المؤثرات الأسلوبية الأخرى".

وللحذف أيضاً مراتب، أدناها أن يوضع في السياق لفظ يؤدي معنى القول، كنادى وشهد ودعا وسأل. وهذه الألفاظ قد يرد معها لفظ القول صريحاً، أو لا يرد. وما ورد فيه لفظ القول مع النداء وغيره دليل على الحذف فيما لم يرد.

وقد يستعمل في هذه الأساليب "أن" المفسرة كما في قوله: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم...﴾ ﴿فناداها من تحتها أن لا تحزني...﴾، ومثلها جميع الآيات التي جاءت فيها "أن" موصولة بفعل الأمر فهـي تحتمل أن تكون "أن" فيها تفسيرية أو مصدرية، وكونها تفسيرية أقرب، ولأنها –كما يقول عضيمة– مـع

احتمال المصدرية ينبغي تقدير حرف الجر معها محذوفاً. وما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير. ثم نقل عن "الرضي" أنها يتعين أن تكون تفسيرية إذا كان بعدها دعاء...

ثم يذكر مشهداً من قصة داود في سورة سبأ: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات...﴾. فالله تعالى في هذا المشهد يخاطب الجبال قائلاً لها ومشيراً إلى داود: ﴿يا جبال أوبي معه...﴾ ثم يومئ إلى الطير بمثل ذلك، ويخبر عن الحديد. ويتوجه إلى داود بالأمر التعليمي ﴿اعمل سابغات...﴾ ثم الى داود وسليمان ومن شاء من ذريتهما: ﴿واعملوا صالحاً...﴾.

ثم ذكر أمثلة عديدة على "أن" المفسرة. منها: ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل...﴾، ﴿أن اشكر لله...﴾، ﴿أن اتخذي من الجبال بيوتاً...﴾، ﴿أن سبحوا...﴾، ﴿أن اقذفيه...﴾.

ثم ذكر لطيفة أخرى متعلقة بـ "أن" التفسيرية، يقول عنها: "نحسب أنها من أدق ما تختص به "أن" المفسرة هذه. وهي علة العدول عن صريح القول إلى التفسير بها. وهي أن ما تأتي معه من الأقوال عادة ما يصف شيئاً من الحركة أو الإشارة". وضرب المثل بقوله تعالى: ﴿يتخافتون أن لا يدخلنها...﴾ فهذا التخافت عادة ما يكون معه إشارات بالأيدي . ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا...﴾ ففيه أمارات الغمز واللمز... ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا...﴾ وكل هذا لا يظهر ما تحمله من معنى هذه الإشارات والإيماءات إذا عبر فيه بالقول، ولكن يظهر جليا مع "أن" المفسرة.

والمرتبة التالية (أي لمرتبة ذكر "أن" التفسيرية) إذا خلا الأسلوب منها: ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا...﴾، ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا... ﴾يمكن الاستدلال أن لفظ القول قد حذف بنظائره: ﴿ونادى نوح ربه فقال إن ابني من أهلي...﴾

وتلي ذلك مرتبة حذف القول مع دلالة ظاهرة في السياق على هذا الحذف. وهذا يغلب في المحاورات المطولة. كقوله: ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون...﴾ وفيها: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا...﴾.

وتلي هذه المرتبة مرتبة الحذف المتكرر للفظ القول في المحاورة الواحدة: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا...﴾.

والمرتبة الأخيرة من هذا الضرب من العرض هي ما يجيء فيه صوت غير متوقع وجوده في ساحة العرض أو المحاورة، ويذكر مشهد رؤية النار في قصة موسى من سورة طه، ويعلق عليه بقوله: "فو الله لو

كنت مكانه لظننت أنه يطلب إليّ خلع قلبي من مكانه، أو لانخلع قلبي قبل نعلي. فأي موقف هذا؟ تلك هي المفاجأة القصصية، في القصص الحق".

وثمة موضع لهذا الحذف هو أعجبها، وأبعدها عن المدارك ما لم تتجرد من انحباسها في حدود الزمان والمكان... وهو مشهد من قصة موسى في سورة طه أيضاً: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي...﴾ إلى قوله: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى...﴾.

إن ما يلاحظ في هذا المشهد للوهلة الأولى هو تلك السمة التي غلبت على كثير من المشاهد في القصص القرآني وهو مجيء خطاب من رب العزة فجأة مجرداً من الإرهاص بأنه منه... وحذف لفظ القول قبله.

وتستوقفه "الواو" قبل سؤال موسى، فيبين الكاتب أن صدر المشهد كان يتكلم عن بني إسرائيل وهم بجانب الطور. وإذ به يوجه السؤال إلى موسى وهو بين يدي رب العزة: ﴿وما أعجلك...؟﴾ ليكون المشهد كونياً جامعاً ساحته سيناء كلها، ويضم على بعد المسافة موسى وهو بجانب الطور الأيمن وبني إسرائيل حيث تركهم. فجاءت الصورة البديعة والمفارقة العجيبة على الوجه الذي يزيد عجب موسى وعجبنا معه. إننا بعقولنا القاصرة لا نكاد نتصور ساحة هذا المشهد لفرط اتساعها مكاناً، ولجمعها أكثر من زمان في آن. بل إن الخطاب الذي وجه لبني إسرائيل نستطيع أن نقول إنه موجه إليهم عبر الزمان...

وقد يجري ما يقع فيه من التكثيف مجرى التمثيل فتسقط تماماً اعتبارات الزمان والمكان والأشخاص ويبقى ظل الموضوع الذي يجري اسقاطه على الحالة الحاضرة، وضرب المثل بالزوجين في سورة الأعراف ﴿فلما أثقلت دعوا الله...﴾.

ثم ذكر من فوائد الحذف بيان تحول المتكلم بحديثه من مخاطب إلى آخر، أو للدلالة على التحول النفسي في ذات المتكلم من ثورة إلى هدوء، أو للدلالة على انقضاء زمن...

ثم ضرب عدداً من الأمثلة من قصة آدم في الأعراف (الآيات ١٨-١٩)، وقصة السحرة فيها (الآيات ١٢٥-١٢٦)، وقصة الرجل المؤمن في يس (الآيات ٢٠-٢٥)، وبني إسرائيل في طه (الآيات ٨٠-٨٣) ... الخ.

وبعد أن وضع جدولاً فيه عشرون نصاً كشواهد لنظريته في الحذف والذكر، قال: "هناك مقولتان ألححنا عليهما:

١- إن الحذف في المحاورة يحقق حضوراً في العرض.

٢- إن القول يعد سرداً، وحذفه يقوي روح العرض في القصة، وإثباته يقوي روح الرواية فيها.

ثم قال: "وعموماً فالسرد القصصي لا بأس بلفظ القول فيه لأنه يعتمد أسلوب القص والرواية، وهذان لا غنى لهما عن لفظ القول بعكس العرض للمشاهد الحاضرة".

والكاتب يستشهد بعديد من النصوص يقف فيها على لفتات في منتهى الجودة والدقة ويستخرج منها من اللطائف كل جديد معجب ومفيد. كان يقول عند التعليق على قول العزيز: ﴿إنه من كيدكن...﴾ نجد الخطاب حال حضور جميع أطرافه ودون أن يطرأ على ساحة العرض أدنى تغير يتم بسرعة خاطفة كالمباغتة المقصودة تقريراً لأمر لا ينتظر إنكاره أو يتوقع من أحد أطرافه المخالفة... هنا يصير حذف لفظ القول ضرورياً لتحقيق هذه الغايات كلها في العرض، ولو جيء به لعطل عمل ما ذكرنا... بعكس مواضع التحول من مخاطب إلى آخر...

وانظر هذا الشاهد: ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم. قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون. قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم...﴾. ففي الآيات أربعة أقوال متتالية مسندة إلى ضمير واحد. ويفسر الكاتب هذا بأن القائلين أكثر من جماعة واحدة. ثم إن الزمان والمكان مختلفان. ففي مشهد كان إبراهيم غائباً وفي الأخير كان حاضراً.

ثم ضرب مثلاً من قصة ملكة سبأ: ﴿قالت... قالت...﴾ ويفسر تكرار القول بحذف مشهد هو رد الحاشية... فوراء القول المكرر محذوف مقدر.

ثم قال إنه تتبع المفسرين فلم يجد من تكلم عن هذه المواقف إلاّ سيد قطب.

وقال بعد ذلك: "ومعلوم أن ثلاثية القول والقائل والمقول تتحرك مداً وجزراً في القرآن لحساب ثنائية العرض والرواية على نحو يطرد بانتظام تبين بجلاء فيما عرض من قصص القرآن ومشاهده، وأعظم الأساليب ما أدى غايات متعددة من خلال وسيلة واحدة. وهذا من مزايا القرآن التي تفرد بها في إبداعه الأدبي وإعجازه الأسلوبي.

الفصل الخامس (الأخير): قيمة الحذف وعمل الإضمار في البناء الفني للقصة:

ويبتدئ الفصل بسؤال: ماذا يعود به علينا هذا النوع من الدراسات؟ ويقول في الإجابة: "برغم أني وضعت يدي على أشياء، لكني ما زلت في لجة مظلمة –ويقول في الإجابة عن سؤاله-:

١- إن معجزة القرآن تمثلت في بيانه وبلاغته، وهما أمران يتعلقان بالفن.

٢- إن طريقة الأداء لا تنفصل عن الغاية التي يساق القرآن لتحقيقها.

ولهذا فإننا نقرر (مخالفين محمد قطب): إن الاستفادة بأساليب القرآن في الأداء ولا سيما في قصصه، لا تنفصل عن التوجيه الذي يحمله.

ثم عاد إلى موضوع الحذف الذي قال عنه: "إنه لولا الحذف لكان القرآن أضعاف ما هو عليه. ولقد اتسم هذا الكتاب ببلاغة عجيبة جعلها الله رأس إعجازه، وجعل لقصصه وجهاً من الإعجاز الخاص لم يكشف إلاّ في العصر الحديث، بعد أن عرف البشر معنى القصص الفني (والفن القصصي)".

ثم قال: "لنتصور كاتباً معاصراً يحاكي قصة سليمان، ثم يأخذ كاتب سيناريو القصة ليضع لها السيناريو، قصة فيها عشرات الآلاف من الكلمات، من وصف لأشخاص ونفوسهم وحكام وبلاد، وسوقة، وطبيعة، وقوافل، ومحاورات وصراعات وحلول... الخ. فإذا جئنا إلى النص القرآني للقصة نجد أحداثاً مثيرة وأعاجيب وغرائب، على الرغم من أنها لا تعدو صفحتين وكيف كان النص يقفز بين الذرى لإبقاء المطالع في حالة تنبه وتحفز، والاستعانة بعناصر المفاجأة والعناصر الغيبية وحبك العقدة وسبك الأحداث بحيث يؤدي تشابكها وتصاعدها إلى عقدة منطقية، غير مفتعلة وحل مقنع..."

ثم استعرض ما ضمته القصة من حشد هائل من عوامل البناء الفني للقصة بلغ حداً يفوق الإعجاز.

١- بدأت القصة بتعريف سليمان.

٢- تبدأ أحداث القصة بخبر الهدهد.

٣- إشارة إلى الملكة وعرشها وسيكون للعرش دور مهم.

٤- إدخال العناصر غير البشرية والخوارق.

٥- المحاورات الدقيقة المتلاحقة.

٦- تكرار لفظ القول للقائل...

٧- لم يفصل بين المحاورات إلاّ بقليل من السرد في أضيق الحدود.

٨- وصف تحركات جند سليمان وتحركات الملكة وأتباعها.

ويعلق الكاتب على ﴿فلما جاء سليمان...﴾، ﴿فلما جاءت...﴾، ﴿فلما رآه مستقراً عنده...﴾ ويفرق الكاتب بين وصف حركة البشر العاديين، ووصف حركة جند سليمان.

ويقول تعليقاً على ﴿فلما جاء سليمان...﴾: "النظر المدقق يدلنا على أن المشهد القائم في بلاط سليمان لم ينقطع..."

ثم إن الكاتب من خلال نظريته حول وحدة المشهد استطاع -كما قال- أن يحل بعض غوامض الأقوال ونسبتها إلى قائليها، فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وأوتينا العلم من قبلها...﴾ ينسبه المفسرون إلى سليمان، وهذا في رأيه يتعارض مع وحدة المشهد ومكان العرض. وفي رأيه أن القائل أحد أفراد حاشية سليمان. ثم عاد إلى قصة يوسف وقول: ﴿وما أبرئ نفسي...﴾ وبرأ يوسف منه لوحدة المشهد ومكان العرض، وأن يوسف ما زال في السجن...

ثم يقول: "إن ثمة رباطا قويا بين البناء الأسلوبي للقصة. والبناء الفني لها، والبناء الموضوعي أيضا. فهي كلها تلتحم في نسيج قوي يقدم لنا قصة متينة البناء ملتحمة الأجزاء... ثم إن القصة القرآنية ينتظمها الحدث الأصلي لها من مبتدئها إلى منتهاها... وجميع ما يعرض من أحداث وأشخاص ترى لهم عملاً يدفع الحدث قدماً إلى غايته...

ومشاهد الحركة إمّا أن تسرد بأرفع أسلوب من الوصف وأوجزه وأكثره دلالة، وإمّا أن تدخل في الحوار القافز فوق رؤوس الأحداث... وقد نهضت الحرفة العالية بأداء كل ذلك من خلال الحذف.

ولو قُدّر لحركة الإحياء في القرن الماضي أن تستمر على أصالتها، دون أن نغرق في لجة الانبهار بحضارة الغرب وأدبه، لكانت حصيلة تلك الحركة الآن فناً أدبياً راقياً...

أما الحرفة القصصية التي تجلت في القرآن، فكان يمكن أن تولد فنوناً من القصص والأدب أكثر متعة للأرواح وأكثر إفادة للعقول...

إن غاية الأدب والفن لن تتحقق إلاّ بميلاد أدب قصصي ينطلق من قاعدة قرآنية أصيلة..."

ثم ناشد البلاغيين أن يشمروا عن سواعدهم لإتمام صرح البلاغة العربية...

وبعد... فإنها لمغالطة أن ندعي أن هذه الدراسة انتهت فإن الكثير من التساؤلات مازالت... وهو يأمل أن هذه الدراسة فتحت باباً لنظرة جديدة ووضع تفسير لائق بجلال القرآن ورسل الله. والقصص القرآني ما زال وعاء لعشرات الدراسات، والبلاغة القرآنية مازالت تمدنا بكل جديد والإضمار والطي والحذف في القرآن ما زالت كثرتها تفتقد الدارس ذا الحس البلاغي المتجدد...

الكتاب التاسع عشر

القصص القرآني

من العالم المنظور وغير المنظور

تأليف: عبد الكريم الخطيب

ط ١، بيروت: دار الأصالة ومؤسسة الرسالة، ١٤٠٤ هـ-١٩٨٤م

القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور / عبد الكريم الخطيب.

تمنيت وأنا أقرأ هذا الكتاب لو أن الأستاذ عبد الكريم الخطيب رحمه الله؛ لم يكتبه. ذلك أن كتابه الأول عن القصص القرآني -برغم هنات فيه- يعد من أحسن ما كتب في القصص القرآني. ويبدو أن الأثر الطيب الذي تركه الكتاب الأول، جعل الكاتب يستثمر النجاح، كما يستثمر العسكريون الفوز في المعارك فيلاحقون عدوهم؛ وقد تنقلب المعركة لغير صالحهم.

وهذا الكتاب وكتاب "قصتا آدم ويوسف" ليسا في مستوى الكتاب الأول: "القصص القرآني في منطوقه ومفهومه". ومثلهما معه مثل إخوة في منزل واحد، أحدهما ناجح موفق محلق، والآخرون دون ذلك، مع أنهم جميعاً من أب واحد.

ويبدو أن الإنسان إذا استنزف عصارة فكره في موضوعه لا يبقى إلاّ الثفل، فيحاول أن يعتصر من جديد، فلا يخرج ما يشفي ولا ما يروي...

وإن الاكتفاء بكتاب ناجح في موضوع خير من الاكثار والاشتهار. فابن خلدون إنما خلدته مقدمته ونسي تاريخه، ولا يعرف الناس له غيرها. والشيخ الذهبي رحمه الله عرفه الناس من كتابه -اطروحته- التفسير والمفسرون، فما ضره بعدها أو بعده أن لم يكن مكثراً...

وعود للخطيب ففي الكتاب إنشاء جميل لكن الفكرة وراءه ليست بذاك العمق ولا بذاك التحليل. أضف إليه تحميل النص ما لا يحتمل ولا يمت إليه بسبيل، وقول ما لا يليق بحق الأنبياء عليهم السلام، من حيث لا يقصد بطبيعة الحال. كأن يقول عن سليمان مثلاً: "أراد الله سبحانه أن يصغر في عيني سليمان هذا الملك العريض الذي بين يديه، وأن يكسر من حدة هذا السلطان المندفع كالشهاب لا يمسكه شيء، ولا يعترض سبيله معترض، وذلك كي لا يدخل عليه الزهو والعجب... فتقف له النملة... الخ". ثم يقارن بين مملكة النمل ومملكة سليمان: "فهل تجد رعايا سليمان في ظله؛ مثل هذه الرعاية التي تجدها جماعة النمل في ظل السلطان الحكيم ؟" يقصد بالسلطان الحكيم حكم النملة. وهل تنال رعيته مثل هذا العطف والحنو الذي تناله جماعة النمل من ملكتها ؟ ويلمح إلى الجواب دون أن يصرح إذ يقول: "إن مقاييس الحكمة والرشاد لا تقاس بالكم ولا تحسب بالعدد. ومتى كانت المعاني كماً وعدداً ؟".

أو أن يقول في قصة الهدهد: "هذا الهدهد، يحاكم الآن سليمان، وينتقص قدرته، ويتهمه بالقصور عن أن يرى ما حوله، وأن يدير هذه القوى التي بين يديه..."، ثم كررها وأعادها بعد سطر

فقال: "لقد حاكم. هذا المخلوق الضعيف الأعزل، ملك الملوك في عصره.... حاكمه، وضعه موضع الاقام، وهو في أبمة ملكه. وعلى أعين الملأ من جنده...".

وهذا غير لائق كما أنه غير صحيح. فالمسألة ليست كذلك. وإنما الهدهد يدافع عن نفسه دون أن يتطاول على نبي الله. وسامح الله الشيخ الخطيب.

يقع هذا الكتاب في خمس وثمانين ومئة صفحة وثمانية مباحث ومقدمة. وهذا كتاب من عدة كتب للأستاذ في القصص القرآني ليست تقل عن ثلاثة وهو الكتاب الثامن من قضايا القرآن. يقول الشيخ عبد الكريم الخطيب رحمه الله في المقدمة: "القصص القرآني نسيج وحده. في موضوعه، وفي أسلوبه ونظمه. وفي غاياته ومقاصده. فهو في موضوعه نسيج من الصدق الخالص، وعصارة من الحقيقة المصفاة، لا تشوبه شائبة من وهم أو خيال... إنه بناء شامخ من لبنات الواقع، بلا تزويق ولا تمويه.

والإعجاز القرآني إنما يتجلى في صدق الأداء، وفي نقل الواقع وما تلتبس به من سرائر النفوس، وخلجات القلوب، وخفايا الصدور.

فأحداث القصص القرآني إنما يبعثها القرآن على الصورة التي كانت عليها لحظة وقوعها...

إن تصوير القرآن للأحداث هو نقل حي لها، لكأنها تتجسد في الزمان والمكان اللذين حملاها لحظة حدوثها فتظهر دائماً وكأنها في ساعة مولدها...

ثم قال إنه كتب كتابين سابقين في القصص، ولما كانت قصص أخرى عرض لها القرآن وبخاصة ما يتصل منها بعالم الحيوان، فقد رأى الكاتب أن يعرض لهذا القصص في بحث خاص. وأن يتناول هذا البحث أيضاً قصص بعض الشخصيات الخارقة مثل قصة ذي القرنين وموسى والعبد الصالح. ثم فرق بين الحيوان في قصص الإنسان ونظيره في قصص القرآن، أنه هنا حقيقي وهناك خيالي.

المبحث الأول: سليمان والنملة:

يبتدئ الكتاب بعد المقدمة بقصة سليمان والنملة كما هو العنوان، فقال: "جاء في سورة النمل ثلاث قصص عن سليمان. مع النملة ثم مع الهدهد، ثم مع ملكة سبأ".

وبدأ بالقصة الأولى. وذكر الآيات. وابتدأ بمناسبتها فقال: "ومناسبة هذه القصة، لقصة فرعون التي سبقت هذه الآيات من سورة النمل، هي أن الله يبتلي بنعمه من يشاء من عباده، فمنهم من يكفر، ومنهم من يتلقى هذه النعم بالشكر. ومن هؤلاء الشاكرين داود وسليمان.

لقد آتاهما الله العلم، الذي من مَلكهُ، ملك أقوى ما على الأرض من قوة... ومع هذا، فإنهما استقبلا هذه النعمة الجليلة العظيمة، بالحمد والشكر لله، وخفض الجناح لعباد الله، حتى إن سليمان وهو في أعظم مجالي قدرته وقوته، يقف بين يدي أضعف مخلوقات الله، النملة، فيأخذ منها العبرة والعظة..."

ولكنا نأخذ على الكاتب الأستاذ عبدالكريم الخطيب -رحمه الله- أنه أحيانا يحمّل اللفظ ما لا يحتمل ويعبر بما لا ينبغي. وهذا كثير وسيأتي ذكر أمثلة له في مواضعه، ولكنا نعلق الآن على ما قال عن النملة، فقال عن سليمان والنملة: "إنه يرى لها سلطاناً كسلطانه، وملكاً كملكه، وسياسة رفيقة رحيمة، أروع وأعظم من سياسته (!!) فيقول في محراب ملكها الذي يسبح فيه بحمد الله: ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك...﴾.

ومما حمّله فوق حمولته من الألفاظ قوله تعليقاً على ﴿وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثيرمن عباده...﴾ قال: "إشارة إلى أن العلم الذي كان عندهما هو -وإن علوا به كثيراً عن كثير من عباد الله- فإن في عباد الله من أوتي علماً أكثر من علمهما" ... الخ. وليس هذا من مراد النص ولا من مقصوده.

ثم علق على قوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود...﴾ فقال: "هو وراثة الملك، دون إخوته، ثم اختياره للنبوة في قومه، فالملك وراثة، والنبوة اصطفاء... وقد جمعهما الله لسليمان. ثم علق على قوله تعالى: ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون﴾ فقال: "الحشر: الجمع والحشد. والوزْع: السوق والدفع، بفعل قوة خارجة، أو طبيعة غالبة. وقد ذكر من جنوده: الجن والإنس والطير. وبهذا يكون ملك سليمان قائماً على أرض مملكته من ظاهر وخفي، وما في جوها من أجناس الطير.

وكان سليمان يستعرض جند مملكته فلا يقدر أحد على أن يخرج عن هذا السلطان الذي يزع هذه الرعايا ويأخذ من يخالف منها بالعقاب الذي يستحقه.

وفي ثماني كلمات صور الله هذا العرض العظيم، ثماني كلمات لا غير. يقوم بها هذا المشهد، الذي تعجز أدوات البيان والتصوير عن أن تأتي له بنظير، وأن تمسك بهذه الروعة، وهذا الجلال منه: فقد استدعيت كل هذه الحشود الحاشدة، وأمسكتها يد قادرة بكلمة واحـدة: ﴿يوزعـون﴾. في أحدث ما عرفت الجيوش من حراسة، وضبط، وقيادة".

ويسير في منهجه في التفسير والتصوير على هذا النهج، حتى إذا وصل إلى قولـه تعـالى: ﴿حتى إذا أتوا على واد النمل...﴾ قال: "حتى هنا إشارة إلى غاية من غايات المسيرة التي يسير إليها سليمان... بهذه الحشود... وقد انتهت به هو وجنوده إلى "واد النمل" أي قرية من قراه... حيـث يعيش النمل جماعات وفي نظام أشبه بنظام المجتمع الإنساني".

ثم يرى الكاتب ما قلناه في تقديم هذا التعريف أن الله أراد أن يصغر ملك سليمان في عينه ولسنا نرى هذا، بل هو إشادة بسليمان وعدله في ملكه وانظر ﴿وهم لا يشعرون﴾.

واستطراداً على النص طفق الكاتب يكتب ما لا مدخل له إلى الحمى، إذ قال تعقيبا علـى ﴿ادخلوا مساكنكم...﴾: "فلتأخذ الجماعة (أي النمل) حذرها، ولتدخل مـساكنها، وتتجحـر في مسارها، وإلاّ فالهلاك المحقق. من جماعة غالبة، لا تنظر إلى ما تحتها، ولا تشعر بما تصيب أو تقتـل... وهل يشعر من يسكن القصر، بما يعاني ساكن الكوخ؟ وكم في دنيا الناس من المستضعفين ممن تطؤهم أقدام الأقوياء دون أن يشعروا بهم وهم في طريقهم إلى التمكين لسلطانهم .." الخ.

ثم عجب الخطيب من المفسرين الذين شغلوا أنفسهم باسم النملة وتركوا هذه المعاني الدقيقة (أي التي التقطها هو)، وهل هي ذكر أم أنثى، واسم المكان الذي كانت فيه... وقال بحق: "إن هذا يخرج القصة عن عبرتها".

المبحث الثاني: سليمان والهدهد.

ما يكاد سليمان يخرج من موقفه مع النملة، حتى يلقاه موقف آخر، مع طائر وديع لطيف أقرب إلى النملة في لطفها، وحسن مدخلها للأمور التي تعالجها... وهو الهدهد.

وما إن يبدأ الشرح حتى تبدأ التعليقات التي لا محل لها، ولا وجه، كأن يقـول: "وكـان سليمان قد نسي هذا الموقف الذي كان فيه مع جماعة النمل منذ قليل، وزايلته تلك المـشاعر الـتي وقعت في نفسه هناك... وها هو ذا يلبس سلطان الجلال، ويمسك بـصولجان الملـك، ويـضرب بسيفه...!

ونقول: إن المسلم والمؤمن لا يفارقه التواضع لجلال الله، واستشعار العبودية لمولاه وإن ملك الدنيا في يمناه... فكيف إذا كان هذا المتحدث عنه نبي عظيم كريم كسليمان؟ ثم ما الداعي للإسقاط ورسم السيناريوهات؟ ومن أين علم أنه كان يضرب بسيفه؟ ويضرب ماذا ويضرب من؟ وليس المقام بمقام الضرب؟!.

ويواصل الشيخ الخطيب إنشاءه الجميل، وخواطره الأدبية حول الآيات، ويواصل رسم السيناريوهات والوصف القصصي والسرد الرواني، فيقول: الهدهد... هذا الطائر الوديع المسكين... لا يحضر الحفل، فيتوعده صاحب السلطان بأشد العذاب والنقمة. أما كان للهدهد عذر؟ ألا يجوز أن يكون مريضاً؟... ألا سأل سليمان عن الهدهد أولاً؟ ألا اطمأن إلى سلامته قبل أن يسأل عن تأخره؟... وهي أسئلة كما ترى فيها رائحة الاتهام لسليمان.

ثم يجيب بما يعزز التهمة فيقول: "إنه سلطة السلطان، وناموس الملك. الطاعة والولاء لحساب الطاعة والولاء، ولسلطان الهيبة والجلال...!"

ويعلق الشيخ على قول سليمان: ﴿مالي لا أرى الهدهد﴾، فيقول: هذا شأن أصحاب العلم. إذا هم التمسوا حقيقة من الحقائق فلم يجدوها بين أيديهم تشككوا أولاً في أسلوب تفكيرهم الذي لم يصل بهم إلى الحقيقة، ثم أعادوا البحث والنظر...

ويطلع الهدهد على سليمان بما لم يكن يحتسب، ويهجم عليه من عل، وهو الأعزل الضعيف، بسلطان أقوى من سلطانه، وجيش أعز وأقوى من جيشه، وعلم أكثر وأشمل من علمه.

ونعاود القول مرة أخرى: إننا لسنا في مقام المفاضلة بين علم وعلم وسلطان وسلطان، علم سليمان وعلم الهدهد، ثم الأدهى أن الشيخ الخطيب يقدم جيش الهدهد على جيش سليمان وعلمه على علمه. وما من داع لحشر الكلام في هذه الزوايا الضيقة... فليس الهدهد يهجم على سليمان من عل... وإنما هو يدافع عن نفسه... وانتهى.

ويتابع الشيخ: "ها هو الهدهد يحاكم الآن سليمان، وينتقص قدرته... الخ"

إن هذا الطائر الضعيف لم يكن مجرد مكتشف، وعالم بما لم يعلمه سليمان، وحسب، بل إنه كان داعية إلى الله، إنه لو كان للهدهد لسان لقام في الناس رسولاً يدعو إلى الله... وأنكر ضلالهم عن سبيل الله.

وتأبى المبالغة أن تفارق الشيخ رحمه الله. واستمع الآتي فهو أشد وأدهى: "إنه يدين في هذه الإنسانية الضالة، التي ينتمي إليها سليمان، باعتباره واحداً من عالم الناس". ولا أدري ما الذي يحمله على مثل هذه التفوهات والعبارات والجرح لمقام نبي كريم؟!

ثم -يقول الشيخ-: ماذا بقي لسليمان من فضل على هذا المخلوق الضعيف؟ إن دعوته كنبي لا تقوم على أكثر من هذه الدعوة التي يدعو بها الهدهد، وإن حجته على دعوته ليست بأقوى من حجة هذا الهدهد! فماذا بقي للإنسان من فضل على أضعف المخلوقات كالنملة والهدهد؟ إن جهل الإنسان بأسرار هذا الوجود، هو الذي يخيل إليه أنه سيد هذا العالم.

ثم استطرد إلى حديث جانبي عن حكمة عدم كشف أسرار الكون، وإلى ما يعانيه الغرب اليوم من قلق، والمذاهب المادية التشاؤمية التي تنظر للإنسان كحشرة كما يقول نتشة.

ثم يقول الكاتب: ونعود إلى القصة! إذا نحن كنا في استطراد بعيد... المهم عدنا، والعود أحمد، لكنه عند الشيخ رحمه الله عود إلى التجريح: فهذا سليمان، يلقى الهدهد بعد أن تلقى منه هذا الدرس القاسي، يلقاه بشيء من اللطف فيقول له: ﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين...﴾.

وسليمان يعلم أن الهدهد صادق، وكيف يعرف الهدهد الكذب وليس بينه وبين الإنسان نسب؟ وانظر هذا التعليل لقول سليمان -مع علمه كما زعم الشيخ بحقيقة موقف الهدهد-: سليمان يعلم أن الهدهد شهد بما علم، وتحدث بما رأى، ولكن سلطان الملك تجرح كبرياؤه إن هو تعرى أمام الرعية...!! فكان من السياسة أن يلقاه بهذا القول الذي ينبئ عن أن سليمان ما زال هو صاحب الدولة والسلطان... (سننظر)... إنها كلمة صاحب الأمر، وقاموس أرباب السلطان!.

وأقول: إن هذا ليس مقبولا من الشيخ لا على الجملة ولا على التفصيل. فليس سليمان عليه السلام بالذي تصدق فيه هذه التقولات، وليس بالذي تملي عليه مظهرية السلطة والملك مثل هذا التعالي!! وهل نسي الشيخ أن الرسل هم من اختارهم الله واصطفاهم ورباهم على عينه؟!

ويواصل الشيخ رشقاته، ويتطاير الرذاذ والشرر من كلماته، سامحه الله، فيقول تعليقاً على قول سليمان: "إنها كلمة جارحة، تكْلم فؤاد هذا المخلوق، وتجرح كرامته. إنه في معرض الاتهام بالكذب، وإنه لا يزال واقعا تحت سيف العقاب الراصد له".

وأكثر من هذا -يقول الشيخ- فان سليمان لم يقل له: أصدقت أم كذبت. وإنما رماه بهذه الكلمة: أم كنت من الكاذبين، أي ممن شأنهم الكذب في كل حال. إنه إحقار للهدهد. وإلقاء به إلى التراب، بعد أن ارتفع في عين الحشود بسبب ما جاء به من أنباء.

وليس الأمر على ما قال رحمه الله، فليس سليمان بالحريص على حقر جنده وتمريغهم في التراب...

المبحث الثالث: سليمان وملكة سبأ:

بعد أن سجل الآيات المتحدثة عن القصة قال: وتتصل أحداث قصة الهدهد، بأحداث قصة سليمان وملكة سبأ. فما إن يقول سليمان للهدهد: سننظر... حتى يضعه موضع الامتحان لصدق الخبر الذي جاء به اليه عن مملكة سبأ...

ويواصل الشيخ في هذا المبحث ما كان يتحدث به من وصف لشخصيات القصة ونفسياتهم، ويسقط من نفسه ما شاء على من يشاء. ويتصرف كما يريد، لا يراعي قدر من يستكلم عنه من أنبياء الله، ولا أنه يعرض آيات الله، التي ينبغي أن ننضبط في حماها أقصى درجات الانضباط، فهو يتكلم عن سليمان النبي العظيم، وكأنه في منافسة مع الهدهد، بل إن سليمان يكبته ولا يدع له فرصة غيرة وضيقاً... وإنه لكلام تضيق منه الصدور، واستمع، عسى ألاّ نكون رميناه بما ليس من قوله أو من معاني كلامه: "ولا ينتظر سليمان شاهدا يجيء به الهدهد، ليشهد له بصدق ما يقول، ولا يسمح له بمزيد من الوقت، يعرض فيه مزيداً من علمه، وبيانه وحكمته أمام هذه الرعية التي نقف كلها في خشوع بين يديه... فكيف لهذا المخلوق الضعيف أن يصول ويجول. ويعرض من علمه ما لم يكن لسليمان به علم؟ وأين إذن صولة الملك وصولجانه؟ وأين هيبته وأين سلطانه؟

لقد قطع سليمان على الهدهد السبيل إلى هذا المرتقى الذي ارتقاه. وبكلمة واحدة آمره، أنزله من هذا المكان وأزاله عنه... وسرعان ما أصبح الهدهد جنديا من جنود سليمان وخدمه... وها هو ذا يتلقى أمرا بالذهاب إلى حيث يريد منه أن يذهب: ﴿اذهب بكتابي هذا فالقه إليهم...﴾.

وإلى هنا ينتهي دور الهدهد في القصة، ويغرب وجهه الذي كان منذ لحظات الوجه الذي تعلقت به أنظار مملكة سبأ كلها، فلا يرى له أحد وجهاً بعد هذا. (جيد أنه لم يقل إن سليمان دبر له أمراً...).

ولا تعرض القصة لشيء من رحلة الهدهد إلى سبأ، وهو يحمل كتاب سليمان إلى القوم. ولا تذكر شيئاً عن ملكة سبأ، وهي تجد كتاب سليمان بين يديها، وما وقع في روعها من هذا الأمر العجيب، الذي طلع عليها من حيث لا تدري، كما لم يذكر القرآن ما كان بينها وبين أهل سرها من حديث في هذا الحدث العظيم... كل ذلك لم تعرض له القصة القرآنية...

ثم طفق الشيخ يعلل ويبين علة هذا الصنيع القصصي القرآني، وهي حكمة كان أول من سفر عن وجهها فيما أعلم صاحب التصوير الفني، في نظرية الفجوات بين المشاهد التي بينها أجلى وأوفى بيان... ثم تبعه عدد من الكتاب في قصص القرآن، المهم الآن. أن الشيخ الخطيب يعلل ذلك فيقول: "فتلك -أي الفجوات وما يقع فيها من أحداث طواها السياق- أمور مقدر لها أن تقع حتماً. على صورة أو أكثر، وفي هذا الفراغ يتحرك ذهن القاريء، وتستيقظ مشاعره، حيث يرى لزاماً عليه أن يملأ هذا الفراغ بأية صورة يجدها مناسبة لهذا المكان، وبهذا يتاح للناس. -في كل زمان ومكان- أن يتصوروا ويتخيلوا، وأن يشاركوا بهذا التصور والتخيل، في بناء القصة وألا يظلوا في عزلة عنها، غرباء عن مجريات أحداثها...

وبهذا تتقيد الخواطر بالقصة، وتتفتح لها المشاعر، ويستيقظ لها الوجدان. الأمر الذي تتكشف به مواقع العبرة والعظة منها... وإنه بحسب القرآن في مثل هذه المواقف، أن يمسك بجوهر الحقيقة التي كثيراً ما يضل عنها الناس، أو يختلفون فيها: أما الألوان والظلال مما لا يؤثر في جوهر الحقيقة فمتروك للناس أن يتصوروه على الوجه الذي يمليه عليهم واقع الحال منهم".

وتنتقل القصة إلى مشهد جديد... فهذه ملكة سبأ، قد دعت إليها وجوه القوم في مملكتها، بعد أن نظرت فيه بينها وبين خاصتها، وموضع سرها، وها هي ذي تفضي إليهم بما فيه: ﴿قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم...﴾.

ولأول مرة نعرف -نحن النظارة- (أسلوب سيد) مضمون هذا الكتاب الذي حمله الهدهد، ولن تفصح الملكة عن الأسلوب الذي بلغتها به هذه الرسالة، وفي هذا التجهيل للمصدر ما فيه من إيحاءات بأنها الملكة الساهرة، الحافظة لأمن دولتها، وأنها تملك من القوى الخفية ما يعينها على ضبط أمورها وحياطة شعبها، وهكذا يضفي على الملكة بهذه الحركة البليغة البارعة، جلالاً فوق جلالها. وروعة فوق روعة سلطانها. وإن موضوع الأبهة والجلال لمما يشغل بال الأستاذ الخطيب رحمه الله. فهو يدندن من حوله على الدوام.

ونتابع معه لفتاته التي فيها جمال، وإن كان في بعضها ما يؤخذ على الأستاذ الكبير، كأن يقول: "وفي وصف الرسالة بأنها كتاب كريم، أدب من أدب الملوك، تقابل به الملكة ما في الرسالة من أدب النبوة والملك معاً..."

إنها لم تدعهم لتلقي إليهم بهذا الخبر لمجرد العلم به، وإنما ليشاركوها الرأي فيه، وليشيروا عليها بما ينبغي أن تواجه به هذا الموقف.

﴿قالت إن الملوك...﴾... وهنا فراغ كبير تتركه القصة... ثم يترجم الشيخ الخطيب من هم الملوك فيرى، -وليس صواباً ما يرى، فيما أرى- يرى أن الملوك هم الذين حكموا دولة سليمان... مثل طالوت وداود وسليمان، وهذا يعني أن الملكة كانت على علم بأحوال سليمان ودولته، وما بين يديه من سلطان، على حين لم يكن لسليمان علم بها، وما عليه سلطانها...

وهي تخرصات لا أساس لها... فلو كانت هذه الملكة على علم بدولة سليمان وقيادالها السابقة والحالية لما قالت ما قالت... ولكنها تتكلم عن سنة تاريخية عامة، وقانون من قوانين التدافع: أن القادة العسكريين (الملوك) إذا دخلوا مدينة أو اجتاحوا حضارة اجتياحا عسكرياً وفتحاً بالقوة فإلهم سيقلبون نظامها وحضارتها ويبددون كنوزها ويدمرون تحفها...

وأما ألها تعلم وسليمان لا يعلم فهذا غريب من الأستاذ، والله يقول: ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين﴾.

ويعلق على قول الملكة: ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية...﴾ فيقول: إنها حركة تريد بها اختبار ما عند سليمان، وتستطلع بها النية التي ينتويها معها...

وتنتقل أحداث القصة من سبأ إلى بيت المقدس، في لحظة خاطفة... وها نحن أمام سليمان. ولقد وقع ما كانت تقدره الملكة، وما كانت تحذر قومها منه: ﴿إن الملوك...﴾، (أقول: لا أدري من أين جاء المؤلف بهذا، فموقف سليمان لا يمت إلى ما يقول، بل هو يدل على قمة المبادئ والتزامها، وهل رد الرشوة أمر معيب، وإفساد لحياة الشعوب؟ أم الرشوة وقبولها هو الفساد؟ وإن هدية الملكة رشوة وما هي هدية).

ثم تجري الأحداث متلاحقة... فما إن يبرح رسول الملكة مجلس سليمان حتى يسبقه سليمان إلى تنفيذ وعيده: ﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها...﴾، انظر كيف تجري الأحداث منطلقة كأنها ومضات برق خاطف. فهذه القوى الهائلة المسخرة لسليمان، تتسابق إلى تلبية ندائه...

ثم يرجح الشيخ الخطيب أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان، ويستدل لذلك بأدلة لا أراها تنهض، ولا بوجه من الوجوه، إذ قال: "إن سليمان أراد بقوله: ﴿أيكم يأتيني بعرشها...﴾ أن يلفت الملأ إلى تلك المعجزة القاهرة التي سيظهرها الله على يديه..."

(وأقول: هذا ليس دليلاً، بل إن الشيخ انطلق من نقطة الخلاف نفسها ومن قضية النزاع وكأنها هي إحدى المسلمات...)

١- إن الله سبحانه ذكر في آية سابقة أنه آتى داود وسليمان علماً... فبهذا العلم فعل سليمان ما فعل.

٢- قوله تعالى على لسان سليمان: ﴿قال هذا من فضل ربي...﴾ وهو إقرار بفضل الله عليه أن آتاه هذا العلم الذي صنع به هذه المعجزة.

وكما تلحظ فإن كل ما استدل به ليس أدلة. بل هو مناط الخلاف. فكل نقطة ترد، أما قوله: ﴿هذا من فضل ربي...﴾، فإن مجيء العرش إليه على يد جندي من جنده، هذا من فضل الله. وأما العلم الذي آتاه الله لسليمان فأعظم من إحضار العرش... إنه علم النبوة. ومعلوم أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم أعلم الناس، ولو لم يظهر على يديه خوارق...

وهذه قضية أخرى وقع فيها الشيخ فيما أرى. فهو لا يكاد يخرج من أزمة حتى يقع في أخرى، فهو يرى أن "علم الكتاب" هو ما في اللوح، واقرأ: "أما علم الكتاب الذي عند سليمان(!) فهو كتاب الله، وهو ما في اللوح المحفوظ من خزائن علمه تعالى، فمن هذا العلم يتلقى أهل العلم علمهم...!"

ثم استطرد إلى منزلة العلم فقال: وفي هذه الحادثة يتجلى فضل العلم... ورد على الذين يستغربون مثل هذه الخوارق في القصة القرآنية بأن العلم الإنساني المادي حقق ما يقرب من المعجزات، فكيف سلطان العلم الروحي؟

وبعد أن انتقل العرش، ووصلت الملكة بلاط سليمان، وأجرى سليمان بعض التغيير على عرشها، سألها: أهكذا عرشك؟ فقالت: كأنه هو... وأعجب سليمان بهذا الرد الحصيف. وعده من آيات العلم. ثم عجب سليمان كيف تملك مثل هذا العقل ولا تسلم. إنها موروثات الآباء هي التي غلبت العقل وما فيه من ذكاء. لقد حجبها عن الإيمان عبادة قومها: ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾.

وحيث وجد سليمان نفسه أمام هذا العقل الذكي من ملكة سبأ، لم يشأ أن يدخلها في دين الله بسلطانه عليها، وامتلاكه لأمرها، بل رأى أن يدخلها إلى الدين ويقودها إلى الإيمان بعقلها، فيكون هذا أقوم لدينها، وأثبت لإيمانها.

وأقول: وحتى في هذه المسألة الهامشية فإن للأستاذ تجاوزات. فمثلاً قوله: "لم يشأ أن يدخلها في الدين بسلطانه"، وهذه ليست فيما أرى مسألة خاصة بسليمان، ولكنها طبيعة الدين الإلهي على مر الأزمان، أنه لا إكراه في دخول الدين، ولا لأحد على أحد سلطان. ثم أين سلطان سليمان على

ملكة اليمن، وأين امتلاكه لأمرها على حد تعبير الشيخ، وهي ضيفة آتية في زيارة رسمية؟ المهم. نعود إلى الشيخ والسياق، واستعراضه للآيات:

﴿قيل لها ادخلي الصرح...﴾ قال: الصرح هو البناء العالي المزخرف، لأنه صريح خالص من العيوب. والممرّد: الأملس.

وقال: إنها أمام معجزة قاهرة. لا يستطيع العقل إلاّ أن يسلم بها. وقد سلّمت. وآمنت وقالت: ﴿... وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾.

وهكذا تنتهي أحداث هذه القصة بهذه النتيجة التي يحصلها العقل من مجريات الأحداث. ثم بأسلوبه الأدبي الرشيق الجميل قال يعقب على القصة: "وإذا كان مساق القصة إلى قريش، وإلى العرب، ثم إلى الناس جميعاً، فإنها بهذا الأسلوب الذي يجيء بالموعظة في رقائق من المعاني، تخطر في براعة، وخفة، وتتحرك في وداعة ولطف، فتملك المشاعر وتأسر القلوب. إن القصة بهذا الأسلوب هي رسالة قائمة بنفسها، لتدخل إلى مواقع الإقناع من العقول السليمة، فتجد برد الطمأنينة في ظلها. ثم ينفي الكاتب أن القصر من الزجاج ويسمي هذا من خرافات المفسرين. مع أن النص يقول: ﴿من قوارير﴾.

وإنما الذي ننفيه معه حكاية المرأة وصفاتها التي أراد سليمان اكتشافها فهذا ليس من أهداف قصص القرآن.

المبحث الرابع: أصحاب الكهف وكلبهم:

ثماني عشرة آية ذكرت هذه القصة. وهي واضحة المعنى لأدنى نظر وبمجرد تلاوتها. لكن لها أعماقاً بعيدة، كما يقول الخطيب، وكلما زدنا نظراً أطلعتنا على مذخورات من الأسرار التي تخلب اللب. ثم شرح الأستاذ معاني الكلمات، كالكهف، والضرب على الآذان، والربط على القلوب، والتزاور، والوصيد، والورق... الخ.

وابتدأ الحديث ببيان أهمية القصة، وكان يمكن أن تكون هذه المقدمة لا فاتحة قصة أصحاب الكهف. وإنما من أول قصة، المهم... يقول الأستاذ، وبحق ما يقول: "القصة أفضل وسيلة للتربية والتهذيب. فعن طريق العرض القصصي لحوادث القصة وأشخاصها تتفتح أشواق النفس إلى متابعة هذا العرض، وإلى المشاركة الوجدانية في مواقف القصة وأحداثها وأزمانها، حتى لكأن القارىء أو

المستمع أو المشاهد جزء منها، وواحد من أشخاصها، يأخذ الموقف الذي يرتضيه من بين مواقفها، ويعيش مع كل حدث من أحداثها، ويعيش المستمع في تجربة نفسية. تترك في كيان الإنسان آثاراً عقلية، ووجدانية، وروحية، أشبه بتلك الآثار التي يتركها الصوت على صفحة لوح التسجيل (الشريط).

ولا تبلغ القصة مبلغاً من النفس، إلاّ إذا أحكم تصويرها، وجرت على اتجاه العقل والمنطق، وتجاوبت مع واقع الناس والحياة".

والقرآن لم يغفل شأن القصة. ولو قال الشيخ: والقرآن حفل بالمواقف القصصية لكان أدق، فهي فيه وسيلة فعالة من وسائله في تقرير الحقائق، وتثبيتها في النفوس وفي تجليتها للعقول، وفي الكشف عن مواطن العبرة... وقصص القرآن قصص جاد، مساق للعبرة لا للهو...

وبعد المقدمات مدخل في جو القصة. فيقول: "وقصة أصحاب الكهف من القصص القرآني الذي خلا من عنصر المرأة، على خلاف كثير غيرها من قصص القرآن الذي كان للمرأة دور فيه...".

وسامح الله الشيخ مرة أخرى. فهذه ملاحظة لا محل لها، فالقرآن يتحدث عن دور المرأة عندما يكون ثمة ما يوجب لكنه لا يفتعل إحضارها أو تغييبها معاذ الله، وأين المرأة في قصة بقرة بني إسرائيل، أو الملأ من بني إسرائيل، أو طالوت، أو قصة الذي حاج إبراهيم، أو إبراهيم والطير، وهذا كله من سورة واحدة. وأين المرأة في قصة عاد وثمود وشعيب...

ثم يقول الشيخ: كما أن موقف أبطالها جميعاً، موقف تغلب عليه السلبية... ويأبى الشيخ رحمه الله إلاّ أن يصدم القارئ في كل صفحة، أو صفعة، فتبنيهم الإيمان منتهى الإيجاب أمّا الانسحاب من المجتمع فخشية الفتنة ولا تكافؤ في القوى، فأين السلبية؟ ثم إن الله هو الذي أنامهم هذا الزمن لتكون قصتهم آية على مر الزمن. فأين السلبية؟ ولِمَ تعمد التعبيرات الصادمة أو الصدامية؟

على كل، نعود لكلام الأستاذ فهو يقول في تعليل ما سماه بالسلبية إنه: "ليس فيه صراع ظاهر، ولا صدام محسوس بين طرفين، يقف كل منهما من صاحبه موقف الخصومة والتحدي ثم الكيد والصراع، ثم الانتهاء إلى نهاية بغلبة أحد الطرفين، وانهزام الطرف الآخر. ليس في هذه القصة شيء من هذا الصراع..." (وأقول: ليس هذا معيار الإيجابية أو السلبية...)

ما من صراع مع أية قوة من قوى الحياة، طبيعية كانت أو بشرية، بل إن الأمر لأكثر من هذا حيث ترى الأشياء كلها متعاطفة مع هؤلاء الفتية...

ثم عاد إلى خلو القصة من عنصر المرأة وبالغ فقال: "ولا شك أن خلو القصة من عنصر المرأة يفقدها كثيراً من مقومات الحياة والقوة، بما يثير ظهور المرأة من عواطف، وما يوقظ من مشاعر، فالمرأة في القصة داعية من دواعي الإثارة والتشويق لا يكاد يعرف للقصة طعم بغيرها... كما أن خلوها من الأزمات والمصادمات، يلقي عليها ظلالاً من الخمود والركود، ويعقد حولها جواً من السآمة والملل".

ثم أضاف: "فإذا خلت القصة من المرأة، ثم جاءت أحداثها -مع ذلك- سلبية كان ذلك أدعى إلى فتورها وضعفها، وزيادة البرودة فيها... فإن السلبية معناها انسحاب الأشخاص، والأحداث إلى الوراء، والاتجاه إلى حيث العزلة والانزواء، فلا تتبعهم عين، ولا يشخص إليهم شعور، ولا ينفعل بهم وجدان...

كل هذه المقدمات ليصل بنا إلى أن العرض القرآني جاء مخالفاً للتوقعات كاسراً كل الحواجز، قال: "وننظر في قصة أصحاب الكهف، كما عرضها القرآن، وقد خلت شخصياتها من المرأة، كما تجردت أحداثها من الإيجابية، ننظر في هذه القصة فنرى القرآن قد ألبسها الحياة، وخلع عليها روحاً من روحه، حتى لقد تحركت أمكنتها، ونطق صامتها، وجرت الحياة قوية دافقة في كل ما شمله موضوعها من كائنات حية وجامدة، وناطقة وصامتة...". ثم أشار إلى أن سورة الكهف فيها قصص أخرى وعددها وهي قصة الرجلين وموسى والعبد الصالح وذو القرنين... وكلها خلت من عنصر المرأة... وجميعها حوادثها خارقة.

فنومة أصحاب الكهف ثم يقظتهم بعد هذه المئات من السنين، وكذلك إحاطة التدمير بهذه الروضة الأريضة بلا مقدمات ولا أسباب، والأحداث التي يجريها الرجل الصالح، والحاجز العجيب الذي أقامه ذو القرنين... كل هذه الأحداث معجزات قاهرة...

وقصة أصحاب الكهف تجيء مع هذه القصص، وكأنها جميعاً قصة واحدة، تخدم جميعاً دعوة التوحيد...

وقصة أصحاب الكهف تعرض في صورتين: مصغرة تضغط فيها الحوادث، وتطوى فيها الأزمان والأمكنة، وهذا الملخص الموجز يثير الشوق ويحرك الرغبة للتعرف على ما وراء هذه الإشارات واللمحات. ويستخدم الخطيب لغة سيد وأسلوبه -دون أن يشير- في قوله سبق القصة تمهيد بارع، أشبه بالطرقات التي تسبق عرض القصة على مسارح التمثيل، وهو قوله: ﴿أم حسبت أن...﴾ الخ.

ثم يقول: إن أصحاب الكهف آية من آيات الله المعجبة المبثوثة في الوجود، وإنهم على ما اشتملت عليه قصتهم من آية معجبة معجزة، ليسوا بأعجب آية من آيات الله...

ثم بعد التمهيد، والعرض الموجز يبدأ عرض القصة كلها، في كلمات متناغمة، تتردد منها أصداء موسيقى خافتة عميقة، كأنها تجيء من بعد بعيد في أغوار الزمن السحيق... فتنتقل المشاعر في براعة ولطف إلى حيث الماضي الذي عاشت فيه أحداث القصة وأشخاصها والقصة بهذا التصوير الرائع المثير المعجز، تنقل القارئ إلى جوها الممتد في الزمن السحيق، من أول أن يبدأ العرض... ثم ذكر الشباب وأهميته وأنهم مطلع الثورات ومهب ريحها، وأن أصحاب الرسول شباب... ثم قال: إن في وصف القرآن لهم بأنهم فتية آمنوا بربهم، إشارة إلى أنهم اتجهوا إلى الله، ووضعوا أقدامهم على الطريق إليه، فاستقبلهم الله بألطافه على الطريق، ودفع بهم إلى مرفأ الأمن والسلامة. وقوله تعالى: ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ تأكيد للعون الذي أمدهم الله به، منذ أن اتجهت قلوبهم إليه، وانعقدت نياتهم على الإيمان به، فقد ربط الله على قلوبهم وثبت ما وقع فيها من نور الحق.

وفي التعليق على قوله تعالى: ﴿إذ قاموا...﴾ قال: إن هؤلاء الفتية، لم يقفوا عند حد النية بل تحركوا وعملوا، (فليس من سلبية إذاً.) ثم يصبحون غرباء في قومهم، إنهم قلة صالحة في مجتمع فاسد، فليطلبوا لهم وجهاً في الأرض، وإلاّ ساءت العاقبة، وتعرضوا للفتنة، إنهم إن لم يجدوا في قدرتهم أن يحولوا المجتمع، فإنهم في معرض أن يحولهم المجتمع، ومن هنا كان من السلامة أن يهاجروا ويتحولوا عن هذا المجتمع، حتى لا يغرقوا مع السفينة الغارقة... ثم استطرد إلى أحداث مناظرة لما يقول كهجرة إبراهيم، وموقف المستضعفين في سورة النساء وهم الذين قعدت بهم همتهم عن الهجرة من مواقع الفتنة...

لقد أوى الفتية إلى الكهف يختفون عن الأعين ليواصلوا الرحلة، فإذا سارت الأمور وخف الطلب والرقباء تابعوا إلى حيث ينتهي بهم المطاف إلى الجهة التي يريدونها...

ومثّل لهذا برحلة غارثور... وغير بعيد أن تكون هجرة الحبشة من وحي هذه القصة، وأن تكون الخطة التي رسمها الرسول وصاحبه في هجرتهما منظوراً فيها إلى تلك القصة...

ويعود الكاتب إلى القصة ويرسم سيناريو خروج الفتية واحداً واحداً إلى غابة فيها كهف فيه يأتلف جمعهم، وبقطع النظر عن السيناريو المرسوم، فإن اللغة التي كتب بها لغة جميلة وما هي عن الأستاذ بغريبة، فبيان الشيخ الأستاذ عبد الكريم الخطيب معروف مشهور، وقد قرأت له غالب ما كتب فأمتع بأسلوبه. وأفاد بموضوعاته...

ثم قال الأستاذ بعد أن رسم خروجهم من مدينتهم إلى كهفهم حيث يلفهم الصمت قــال: ولكن سرعان ما يتبدل الحال ويأتي القرآن بآياته المعجزة فيكشف عمّا وراء هذا الصمت من حيـــاة متدفقة، وإذا بنا بين يدي هذا الغار الموحش، إزاء مسرح يموج بالأحداث العجاب...

﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم...﴾ يقول الاستاذ: فالشمس هنا كأنها جزء من هذا الكهف، قد شغلت به عن الدنيا كلها وجعلت مدار فلكه حوله وحده، حتى لكأنها مسخرة لمن هم في هذا الكهف دون الكائنات كلها وحتى لكأنها أم حانية عليهم... إن الشمس لتفعل هذا، وكأن ذلك عن وعي وإدراك منها.

﴿تزاور عن كهفهم﴾: تميل عن كهفهم إلى جهة اليمين، فتدخل أشعتها إلى الجانب الآخر من مكانهم في الكهف وإذا مالت نحو الغروب انحازت عنهم إلى اليسار، ودخلت أشعتها من جهـــة اليمين، وهكذا يأخذ كل جنب منهم حظه من الشمس، فلا تتسلط أشعتها على جانب واحد منهم من مطلعها إلى غروبها. ﴿وهم في فجوة منه﴾: أي في مكان منخفض من الكهف، يحتفظ بشيء من حرارة الشمس لبرد الليل. ﴿ذلك من آيات الله﴾: من مبدعات حكمته وعلمه وقدرته، إذ هيأ لهم هذا المكان، وفتح عقولهم لاختيار أنسب مكان فيه لنومة طويلة تمتد مئات الـــسنين، وهـــم كـــانوا يقدرونها يوماً، أو ليلة من يوم... فهؤلاء النيام يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال... وكلبهم قائم بالحراسة في مداخل الكهف وإن كان مثلهم في سبات عميق.

إنه لمنظر عجيب، حياة تدب في هذا الموات العريض... حيث لا يقع في الوهم أن كائناً حياً يسكن إلى هذا الكهف... ﴿وكذلك بعثناهم﴾: أي كما ضربنا عليهم هذا النوم، كذلك بعثناهم من مرقدهم...

ثم يصور الكاتب كيف تصور الكلمات حال الفتية وذلك من خلال الآية: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾.

ثم كيف عندما استكمل الفتية صحوهم إذا الكلمات تأخذ جرساً مختلفاً: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة...﴾.

وينتقل المنظر من الكهف إلى المدينة، وفجأة ينكشف أمر الرجل لأهـــل المدينـــة، ويـــرى الكاتب أن الزي المختلف والنقد هما اللذان كشفاه، والنص على كل حال لم يفـــصح... ولا أرى

مانعاً من تقدير احتمالات، بطبيعة الحال... وينفي ونحن ننفي معه أن يكون مظهر الفتية قد تغير. ثم تمضي القصة: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم...﴾.

لقد اختلف رأي القوم في شأن هؤلاء الفتية، وما يصنع بهم بعد أن عرفوا حقيقة أمرهم، من نومهم هذا الزمن الطويل، ثم يقظتهم بعد هذا النوم، ثم موتهم بعد أن انكشف أمرهم، ثم انتهى الرأي إلى أن أقاموا مسجداً عليهم تكريماً لهم، ويخيل للمرء أن القصة قد انتهت وأن هذه هي خاتمتها. ولكن سرعان ما تنتقل به القصة عبر القرون وتطوف في الأمم والشعوب، فتسمع أصداء القصة تتردد في كل أفق، وتجري على ألسنة الأمم...

وإذا الأحاديث فيهم مختلفة، والأخبار عنهم متضاربة، كل يحدث بما وقع له في تصوره، مما اجتمع لديه من مختلف المقولات.

وفي قوله تعالى: ﴿أعثرنا عليهم﴾ إشارة إلى أن هذا الحدث الذي انتهى بالتقاء هؤلاء الفتية بالخلف من سلفهم الذين فروا منهم، لم يكن أمراً عارضاً يعرض للناس هكذا من غير تدبير وتقدير لكنه تدبير العزيز العليم وتقديره...

﴿ليعلموا أن وعد الله حق...﴾ بيان للحكمة الإلهية من هذا التدبير، ليعلم الناس قدرة الله على بعث الموتى وأن الساعة حق.

ويخيل للمرء أن القصة قد انتهت، ولكن ما إن يستريح لهذا الخاطر حتى تظهر المفاجأة: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم...﴾ هذا هو حديث التاريخ على فم الزمن يتناقله الناس عن هؤلاء الفتية وكم كان عددهم.

وأما قول الكاتب رحمه الله: "وأما قوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين...﴾ فهو من مقولات الذين قالوا في عدقم ما قالوا..."، أقول: وليس قول الكاتب بذي بال ولا هو بالمعقول. فهذا بيان من الله لمدة لبثهم، وما كان الله ليذر جوهر القصة وهو مدة اللبث دون بيان. فأما التفاصيل التي يسكت عنها القرآن فهي الأمور الهامشية التي لا ينبني عليها عبرة، أما هذا الزمان المتطاول فهو مكمن العبرة، أفيسكت عنه النص؟ وكم للشيخ الخطيب من اجتهادات عجيبة غريبة، وهو الأديب الأريب، وهذا منه قول غريب. ثم عرج للرد على خلف الله دون أن يسميه، لكنه ذكره بوصفه الذي اشتهر به، وهو القول بوجود الأساطير في القصص القرآني.

وخلاصة رأي خلف الله وهو معروف مشهور أن القرآن لم يذكر عددهم في دقة (!!) وإنما ردد الأمر بين ثلاثة رابعهم كلبهم وخمسة سادسهم كلبهم وسبعة ثامنهم كلبهم...

وأقول، وهذا غير صحيح، فنظرة إلى النص تنسف ما يقول، فالله قال عن القولين الأولين: ﴿رجماً بالغيب﴾، وميز القول الثالث بزيادة الواو التي فصلت بين الفتية والكلب: ﴿سبعة وثامنهم...﴾.

وقال الكاتب خلف الله أموراً أخرى لا ندخل فيها الآن، فقد رددنا عليه في مكانه، ولكن الكاتب الخطيب أطال الوقوف مع خلف في مسألة زعم خلف الله الحرص القرآني على موافقة اليهود وسأل من ضمن ما قال: كيف يكون في موافقة القرآن لمقولات اليهود المتضاربة المختلفة في عدد الفتية ما يجعل منه عند اليهود وعند المشركين دليلاً على أن القرآن وحي من عند الله؟ وسؤاله جيد وموفق. وكلام خلف الله نكد وملفق..

ثم وصف الخطيب خلف الله بأن ما هو فيه: فتنة التجديد، وشهوة الشهرة وحب الظهور ولو بالمشي بين الناس عرياناً.

ولكن الذي لم أرتضه من الخطيب أنه يرى مجهولية عدد فتية الكهف وأنه لا عبرة من وراء تحديده...

ثم أفرد الخطيب للكلام عن كلب أهل الكهف عدة صفحات.

المبحث الخامس: ذو القرنين من هو؟ وهل هو نبي؟

بعد أن سجل الآيات التي سجلت هذه القصة فسر المفردات التي احتوتها الآيات، ثم بين أن هذه القصة قصت في خمس عشرة آية من سورة الكهف، وهي قصة رجل ذي شأن عجيب، معه سلطان قلّ أن يقع لإنسان، وسمي بذي القرنين لأنه بلغ مغرب الشمس ومشرقها، والمناسبة قوية بين قصة هذا الرجل والعبد الصالح الذي جاءت قصته قبله، فكلاهما صاحب فضل ظاهر والفرق بين الرجلين أن الفضل الذي أوتيه العبد الصالح كان علماً لدنيا، وأما ذو القرنين فتمكين في الأرض وفي كل قصة من القصتين ثلاثة أحداث... وثالثاً تحركات الرجلين، ففي قصة موسى ثلاث مرات: ﴿فانطلقا...﴾ وفي قصة ذي القرنين ثلاث مرات: ﴿أتبع سبباً﴾. ورابعاً: أسباب العبد الصالح تجري على مستوى قدري، وأسباب ذي القرنين لتجري على مستوى العقل البشري.

ثم تكلم عن المقولات التي كثرت حول هذه القصة وهي ليست مما تتعلق بها العبرة.

وبعد هذا التمهيد يخلص إلى أن ذا القرنين في رأيه هو الإسكندر الأكبر ملك مقدونيا، وكم للشيخ الخطيب من خبطات وشطحات!! فقد ضم فيما يرى الشيخ بلاد اليونان كلها الى مقدونيا ثم بلغ الهند والصين شرقا ومصر والعراق وأفغانستان وإيران... الخ. ثم وصف تتلمذه لأرسطو، وذكاء الإسكندر وعبقريته. ثم قال الشيخ: وذو القرنين رجل مؤمن بالله، التقى فيه الإيمان بطبيعة قوية فكانت خطواته كلها قائمة على العدل والحق والخير. والإسكندر هو أشبه الناس بذي القرنين. وعجباً للشيخ الخطيب فأبعد الناس عن هذه الأوصاف هو الإسكندر، فكيف يراه الشيخ الأقرب؟

فأهم من توسعه في الفتوحات أن يكون مؤمناً. لكن الخطيب شغل بمساحة الدولة، عن الإيمان. والعجب للشيخ مرة أخرى وعجباً لا ينتهي إذ يقول: "إن أرسطو كان موحداً، يقول بالصانع الأول، وبالعقل الأول، وبالمحرك الأول، وبالسبب الأول" (كلها من الشيخ ونسي العلة الأولى...) ثم قال: "إلى غير ذلك من المقولات التي تجعل على الوجود قوة عاقلة، يدور في فلكها كل موجود" (ونقول للشيخ: وهل هذا هو شرط الإيمان وحدَه؟)

ويواصل: "وإذا كانت تصورات أرسطو لله يحفها الغموض، فإنها تصورات في صميمها تبلغ بمن يأخذ طريقه معها إلى التصور الصحيح للإيمان بالله..."، وهذا من الشيخ عجيب أيضا...

ثم نقل عن الآلوسي ما دعم به نظريته من أن الإسكندر هو ذو القرنين... والخطب يسير فالآلوسي والخطيب كلاهما مخطئ لا مصيب، وأقوالهما ليس لها من الصواب نصيب... وكل إنسان يخطئ ويصيب. لكن العجيب أن الخطيب وهو القادر على التمام يأبى إلاّ أن يوقع نفسه في دهاده النقص، ووهاد التخليط... ونقص القادرين على التمام حير الشعراء من المتنبي إلى أبي تمام...

ثم قال الشيخ ملخصا صفات ذي القرنين في صفتين: أنه مؤمن، وأنه أقام ملكاً عريضا على الحق... ثم نقل عن الرازي أنه من حمير. ثم قال الخازن: واختلفوا في نبوته!!
وقال النسفي هو الإسكندر.

ثم انتقل الخطيب إلى الأسباب التي كانت بين يدي ذي القرنين. وعرف الأسباب بأنها الوسائل التي يتوسل بها إلى نتائج ومسببات... ثم بين أن من الأسباب ما هو حق ومنها بخلاف ذلك. وأسباب ذي القرنين هي الأسباب الصحيحة.

ثم تكلم عن مغرب الشمس ومشرقها وما خاض فيه المفسرون. وعند مغرب الشمس وصف الله طبيعة الأرض، وفي مطلع الشمس وصف طبيعة البشر.

والجماعة التي في مغرب الشمس وقف منها موقف الداعية. والجماعة التي في مطلع الشمس وهي في مرحلة الطفولة الانسانية. فقد تجاوزها ولم يقف عندها طويلاً.

وأما الذين عند السدين فهم قد ارتفعوا قليلاً عن سابقيهم، فأخذهم بشيء من الرعاية...

ثم انتقل إلى يأجوج ومأجوج، ولم يشر القرآن إليهم بأكثر من وصف جيرانهم لهم: مفسدون في الأرض. إن هذين الاسمين في غرابتهما، وازدواجهما كانا مادة خصبة لتوليد الصور الغريبة، وتأليف الروايات المختلفة. ثم ذكر الخطيب بعض غرائب المفسرين... ثم خلص إلى أنهما من الجماعات المتخلفة التي تسبب القلق للجوار. ثم تكلم عن السد. وذكر ما ذكره القرآن.

ثم عاد في ختام القصة ليحدثنا عن التشابه بين قصة ذي القرنين وموسى والعبد الصالح. وذكر أن في القصتين تستطع وتسطع... وأن تستطع أشد من تسطع...

المبحث السادس: بين موسى والعبد الصالح.

ولا أدري لم أخر هذه القصة وهي مقدمة في الذكر عن ذي القرنين. المهم أنه يقول الأحداث تجري على غير مألوف الحياة. وهذه القصة لم تذكرها التوراة. ولذا أنكرها يهود وقد طاوعهم بعض المفسرين فقالوا: إنه موسى آخر.

ويقول الكاتب بحق إن إنكار اليهود ليس له قيمة وليس في القرآن غير موسى الذي نعرف. والقرآن مهيمن والتوراة محرفة. وليس كل ما في القرآن ذكرته التوراة.

ويعود إلى القصة ليؤكد جريانها على غير المألوف فموسى وفتاه يجاوزان الصخرة ولا يريان العبد الصالح وفي هذا درس بليغ للإيمان بالقدر. فلو انكشف للناس ما قدر لهم ما سعوا.

وثانيا إن موسى يريد تحصيل العلم وهو أكرم ما يحصله الإنسان. ثم رأى -وبحق ما رأى- أن مجمع البحرين هو ملتقى خليج السويس وخليج العقبة.

وحاول الشيخ الخطيب أن يفسر انسراب الحوت إلى البحر تفسيراً يتمشى مع السنن الجارية والذي أراه أن ثمة سنة خارقة في أمر الحوت. ولا أدل على ذلك من ﴿سرباً﴾ و﴿عجباً﴾.

وفي استئذان موسى بصحبة العبد الصالح أمور منها:

١- التلطف في الدخول إلى عالم العبد الصالح.

٢- شأن الوارد على أهل الفضل أن يقفو أثرهم.

٣- غاية الصحبة تحصيل العلم.

٤- علم العبد الصالح علمه الله إياه.

٥- هذا العلم فيه رشد.

ثم يفسر الشيخ الآيات المتكلمة عن صحبة الكريمين بأسلوبه الرائق ولغته البيانية الجميلة ثم يقول بعد ذلك: "كان لا بد للمعلم أن يكشف لتلميذه عن خفايا هذه التجربة المثيرة التي أراه منها ظاهراً لا يستقيم على أي منطق، ولا يتفق مع فهم أي عاقل..."

وفي كلمة ﴿تأويل﴾ إشارة إلى أن هذه الأحداث لا تعدو أن تكون أشبه بالأحلام التي لها مفهوم يغاير منطوقها. ويسير في تفسير الآيات بشيء من الإطالة...

المبحث السابع: الدابة التي تكلم الناس:

يقول الخطيب في سورة النمل وردت آية تحدث عن الدابة، وفيها ورد ذكر النملة التي تحدثت، وفي السورة نفسها آيات تحدث عما جرى بين سليمان والهدهد فكان ذكر هذه الدابة التي تكلم الناس مناسباً لما ذكر من عالم الحشرات، وما ذكر من عالم الطير.

ثم ذكر اختلاف الناس في الدابة وكثرة الأقوال. وذكر أحاديث في مسلم عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو. وروى الترمذي: "تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان، وعصا موسى"!! ويذكر عدداً من الأحاديث لا نطيل بذكرها فليس هذا كله من قصص القرآن. وإنما هو من أشراط الساعة. قال الخطيب: ويعتقد الشيعة أنها علي !! ونقل حديثاً عن الآلوسي. وكم للمسلمين من عجائب وغرائب!!

ونخلص إلى ما يراه الشيخ الخطيب في هذه الآية، يقول: "يخرج لكل من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر أكثر من دابة عند موته، يفهم منطقها الذي يكشف عن إيمانها بالله، وكفره هو بربه".

المبحث الثامن: من العالم غير المنظور: الجن... إبليس... الشيطان:

قال في الكتاب في هذا المبحث: ورد في القرآن في أكثر من موضع ذكر إبليس والشيطان والجن، على أنها قوى خفية تتحرك في مجال الإنسان، وتراه دون أن يراها.

إبليس والشيطان يذكران دائماً في معرض التحذير منهما، والتخويف من إغرائهما وإغوائهما إذ كان من شأنهما العداوة للإنسان، والنقمة عليه والكيد له.

ويذكر إبليس وحده في مقام دعوة الملائكة للسجود لآدم وامتناعه هو عن السجود، استكباراً وعلواً على آدم الذي خلق من طين، على حين أنه خلق من نار.

وفي كل ذلك يذكر الكاتب الآيات التي تتحدث عن المعاني التي يذكرها، وهي معروفة قريبة المنال.

ويلاحظ الكاتب أنه في كل مواطن إباء السجود كان يذكر "إبليس": دون وصف الجن أو الشيطان. مع أنه ذكر في مقام آخر أن إبليس كان من الجن، كما كان الكافرون من عالم الإنسان.

وتحدث القرآن في ثمانية وستين موضعاً عن الشيطان، وفي سبعة عشر موضعاً بلفظ الجمع الشياطين. وفي جميع هذه المواضع يجيء الحديث في مقام التحذير من الضلال والغواية: ﴿إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾. ﴿جعلنا لكل نبي عدواً شياطين...﴾ وهذه العداوة التي بين الشيطان وآدم، وذرية آدم، هي امتداد لتلك العداوة التي حملها إبليس لآدم.

وهنا يبدو الشيطان وإبليس وكأنهما اسمان لذات واحدة. فالشياطين هم الذرية المشؤومة لإبليس.

ولا أدري ما الذي يدخل الشيخ في المتاهات من جديد: وكأن به حنيناً خفياً إلى التيه، يزج به زجاً فيه، فهو يقول: "ومن جهة تتحدث آيات القرآن عن إبليس وكأنه من عالم الملائكة، حيث توجه الأمر للملائكة بالسجود، فامتثلوا جميعاً أمر ربهم إلاّ إبليس... فالاستثناء متصل: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس...﴾.

وعلى هذا نستطيع أن نقول:

١- إن إبليس كان من الملائكة، حيث دخل في الأمر الموجه من الله تعالى بالسجود لآدم، فلو لم يكن محسوباً منهم لما كان في عدم السجود منه ما يؤاخذ عليه، لأنه يكون حينئذ غير مخالف أمراً امتثلته الملائكة، ولم يتمثله هو، لأنه غير مطلوب منه، إذ كان الأمر الإلهي موجهاً إلى الملائكة... فإذا لم يكن منهم فلا سجود عليه، أما وقد عد عاصياً هذا الأمر الإلهي، فهو من عالم الملائكة، بصريح نص القرآن...!

٢- الملائكة من نور الشعلة، على حين كان الجن من نارها.

وبهذه المناسبة الجامعة من أحد طرفيها بين الملائكة والجن في خلقهم من شعلة واحدة، فكان الملائكة من نورها، وكان الجن من دخانها، بهذه النسبة دخل الجن في عالم الملائكة وحسبوا

منهم. (ظل الجنس الغريب هو الإنس. فلو قال -بالمرة- إنا خلقنا من رماد النار لكان جميع المخلوقات الثلاثة من عنصر واحد... وسامح الله الشيخ !).

٣- لم يظل إبليس من عالم الجن بل طرده الله وأخرجه منهم...

٤- بدأ إبليس منذ اللعنة التي حلت به، يتحول خلقاً آخر. فإذا هو شيطان مريد. وشيطان رجيم.

فإبليس كان من عالم الجن الذي كان من عالم الملائكة، ثم نزل إلى درجة إبليس، ثم تحول إلى شيطان... كذلك الإنسان: مؤمن، ومشرك. وكافر. أما الجن فهم على ما خلقهم الله من نار، فيهم ما في النار من خير وشر...

ويختم الخطيب كتابه بذكر ما أثار قوله عن الجن والملائكة من آراء ومناقشات، فيذكر بعض الأقوال ويرد عليها... وينتقي كلمة مطولة لمجدي كريم ويرد عليها...

وفي المناقشة التي استغرقت عشر صفحات يصر الخطيب على أقواله أن إبليس من الملائكة وأن الإستثناء متصل لا منفصل. ويذكر رواية عن ابن كثير أن من الملائكة من هم مخلوقون من نار. وكم في كتبنا من غرائب!!

ثم يعلق على النقاش بقوله: وبعد. فهذه أمور لا تتصل بالعقيدة ولا الشريعة، ما صح تصوره في العقل منها وما لا يصح، لأنها من الغيبيات التي يجب الإيمان بها... فنحن نؤمن بالملائكة، كما نؤمن بالجن...

والحمد لله رب العالمي

الكتاب العشرون

القرآن والقصة الحديثة

تأليف: محمد كامل حسن المحامي

ط١، بيروت: دار البحوث العلمية، ١٩٧٠م.

القرآن والقصة الحديثة / محمد كامل حسن المحامي:

الملاحظة الأولى على هذا الكتاب أنه منهجياً خلط بين موضوعين لا خلط بينهما، فيتكلم عن القصة الأدبية، أو القصة القصيرة، أو القصة الرومانتيكية ثم ينتقل إلى القصة القرآنية. ويهتم جداً أن يثبت أن القرآن هو الذي علم الغرب فن القصة القصيرة والرومانتيكية.

وهو عندما يؤرخ للقصة القصيرة يتحول إلى كتاب مختص يصلح أن يكون مرجعاً جامعياً أو غير ذلك لهذا النوع من الفن. فيتكلم عنها في ألمانيا وروسيا وأمريكا وفرنسا وعن الكتّاب... وكأن الكتاب فني متخصص في هذا اللون من ألوان الأدب.

وليس يشفع له أنه جعل عنوان كتابه: القرآن والقصة الحديثة... فإن العنوان قد يفهمه البعض مقارنة في الغايات، ونوعيات الشخصيات، والحدث وغير ذلك أما أن نغرق في تفصيلات عن القصة الحديثة فهذا ما لا يُفهمه العنوان.

ولكن الكتاب بعد ذلك، كتاب في التثقيف الفني سواء على صعيد القصة، أو العمل الفني عموماً، فالكاتب كما أذكر هو كاتب سيناريو متخصص ولذلك جاء كتابه مليئاً بالمصطلحات الفنية تفيد في التثقيف بمثل هذه الأمور في وسيلة أصبحت هذه الأيام هي الوسيلة الأخطر في التوجيه، والأكثر تأثيراً. وربما لا يتاح لكثير من طلاب الثقافة الإسلامية أن يطلعوا على هذه النواحي الفنية لو لم يجعل الكاتب في عنوان كتابه: "القرآن والقصة الحديثة".

والحق أن الكاتب متمكن في الناحية الفنية، وجيد في القضايا اللغوية والبلاغية.

وفي الكتاب أمور مقحمة أخرى غير ما ذكر، من ذلك فصل عن القصة العلمية لم يتكلم فيه عن قصص وإنما ذكر الآيات التي فيها إعجاز علمي أو ما هو من قبيله ثم جمعها وفسرها، ولا وجه لتناسب ما جاء في هذا الفصل من مادة مع العنوان.

يقع الكتاب في (١٦٣) ثلاث وستين صفحة ومئة، وثمانية فصول. قال في المقدمة إن فكرة الكتاب تراوده منذ زمن بعيد. وأنه ليس يدعي أنه أول من يطرق باب البحث في قصص القرآن الكريم (بالطبع). ولكن ملاحظته أن السواد الأعظم من هؤلاء المؤلفين، على الرغم من تعمقهم في النواحي الدينية واللغوية، إلاّ أنهم لم يدرسوا فن كتابة القصة أو يتابعوا تطورات هذا الفن عبر القرون التي تلت نزول القرآن. وقال: إن فن كتابة القصة ليس فناً مستحدثاً، بل هو قديم قدم الفلسفة والأدب. وقد استخدم الكهنة ورجال الدين أسلوب القصة لنشر أفكارهم... والآثار التي خلفها

المصريون أو الآشوريون أو... تعتبر أدلة حاسمة أن السرد القصصي المتضمن توجيهات دينية أو اجتماعية أو سياسية كان من أنجح الوسائل التي لجأ إليها القدماء...

وبرغم قدم فن القصة إلاّ أن الكتب التي تبحث أصوله وقواعده قليلة... وعلى الرغم من وفرة المؤلفات في الأدب والبلاغة والشعر وأصول النثر إلاّ أن أحداً لم يقدم مصنفاً يعالج فن القصة – ولا عند الغربيين كذلك–.

وحتى يستوعب القارئ موضوع البحث لا بد أن يلم –ولو عابراً– بمفهوم فن القصة، وقواعد كتابتها وأصولها الفنية، وهو ما سيقوم به المؤلف.

الفصل الأول:

وفي الفصل الأول وفّى الكاتب بوعده فتحت عنوان: ما هي القصة؟ قال: القصة وسيلة للتعبير عن الحياة أو قطاع من الحياة يتناول حادثة أو عدداً من الحوادث بينها ترابط سردي، ولها بداية ونهاية.

ثم قال: إن هذا ليس تعريفاً دقيقاً للقصة. ولكنه قريب منه. ثم بيّن أن أولى من الدخول في متاهات التعريف، والتقسيم، وحتى لا يتصور القارئ أن هذا فن معقد، فإن الكاتب تجاوز هذا، وقسم القصة إلى قسمين رئيسين: القصة الواقعية، والقصة الخيالية. والأول يتبع المدرسة الواقعية، والثاني المدرسة الخيالية أو الشاعرية أو الرومانسية. والواقعية ليس وصفاً للقصة فحسب بل إن كثيرا من الفنون تتسم بالواقعية...

وأنصار هذه المدرسة يرون أن القصة يجب أن تنقل صورة صادقة من الحياة أو الطبيعة كما هي. ويعارضه المذهب المثالي.

والواقعية في القصة تشمل:

١– واقعية الشخصيات: سواء كانت رئيسية أو ثانوية، أو من الدرجة الثالثة (جماهير ومجاميع كجموع المحاربين...)، ومعنى واقعية الشخصيات أن يكون تصرفها مطابقا لواقع الحياة...

٢– واقعية الحوار: وهو جزء حيوي من القصة. والحوار في القرآن أروع وأعظم حوار.

٣– واقعية الأسلوب: والأسلوب هنا بمفهومين: الأسلوب اللغوي. وأسلوب معالجة القصة. وأما الأسلوب اللغوي في المذهب الواقعي فيجب أن يبتعد عن تعمد التعقيد اللفظي وأن يتوخى الألفاظ السلسة المعبرة. وهذا يقتضي أن يكون عند المؤلف حصيلة لغوية. والمفروض في الكاتب

أن يجعل الألفاظ تعبيراً عن المعاني لا أن يخضع المعاني للبناء اللفظي، أو أن يمارس هوايته في استعراض ثروته اللغوية. وألفاظ القصة القرآنية إعجاز ما بعده إعجاز. فكل لفظ له معناه المحدد، وهو جزء مكمل لبناء القصة والتتابع السردي لأحداثها.

وواقعية الأسلوب لا تمنع كاتب القصة من أن يجعل أسلوبه متضمناً بعض التشبيهات الخيالية التي تساعد القارئ على أن يتصور أو يرسم بخياله صورة مطابقة للأمر الواقع الذي يريد الكاتب أن يصفه. وهذا التزاوج أو الاندماج بين الواقعية والخيال أقصى ما يصبو إليه الكاتب من نجاح.

والتشبيهات الرائعة التي تجسم الصورة الواقعية ورد كثير فيها في القرآن، ومنها قصة عاد المركزة والتي عرضت في إحدى وعشرين كلمة في سورة القمر. ومع ذلك احتوت كل عناصر القصة الهادفة المؤثرة: ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر...﴾.

والشروط التي يجب توافرها في القصة القصيرة كما وردت في دائرة المعارف البريطانية:

١- وجود هيكل سردي متصل.

٢- شمولها على أسلوب وصفي جيد.

٣- عدم الاستطراد.

٤- التشويق.

ثم طبق الكاتب هذه العناصر على قصة عاد فرآها منطبقة.

ثم رأى أنه إذا كان الكتاب يصنفون القصة إلى قسمين رئيسين، القصة الواقعية والقصة الخيالية، فإن القصص القرآني بلا استثناء تجمع بين الواقعية والخيال. (وأخشى من هذا الوصف أن تقع في اللبس الذي يوقع في التخليط والتخبيط...).

ثم شرح الكاتب عن القصة الخيالية أو الرومانسية، وقد ابتدأت في القرن ١٨ في إنجلترا وألمانيا ثم فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر، ثم في إيطاليا وأسبانيا.

وعلى الرغم من أن البعض يعتقد أن هذه القصة تقلص ظلها. إلاَ أنها عادت في طيات الموجة الرمزية. والأدب الرومانتيكي يهدف إلى تجميد المثل العليا...

ثم انتقل إلى القول: "وقد كانت المبادئ التي أرساها القرآن ملهماً لعدد كبير من الكتّاب والمؤلفين العرب الذين انتشرت قصصهم في إسبانيا في العصر الأندلسي".

يقول جيب "Gibb": "إن قصص العرب الأخلاقية والخيالية اشتهرت شهرة كبيرة في القرون الوسطى، وكانت مصدر المذهب الرومانتيكي في الأدب الغربي. ولبثت دراسة الأدب معتمدة على العرب مدة طويلة...".

ويضيف: "ولا ننسى قصص ألف ليلة وليلة، التي لا يمكن للأوروبيين أن ينكروا اقتباسهم لهذه القصص. أو كليلة ودمنة أو سطوهم على عمر الخيام".

وعلى أي حال فإن المذهب الرومانتيكي في كتابة القصة كان محاولة للخروج من نطاق الأدب الكلاسيكي الممل.

(وأرى أن كل ذلك خارج نطاق القصة القرآنية. والأخطر أن يتكلم عن القصة الرومانتيكية وكأنه يقترب منها من القصة القرآنية. وكان الأولى أن تفصل هذه في دراسة وهذه في دراسة. فلا مانع من دراسة القصة وأنواعها وفنوها ولكن في غير كتاب مخصص للقصة القرآنية...)

اقتباس قصص القرآن:

يقول الكاتب تحت هذا العنوان: "كانت قصة يوسف مصدراً لعدد من القصص التي كتبت أولاً باللغة العربية ثم نقلت إلى الإسبانية، ثم اللغات الأوروبية..."

ثم ذكر قصة (أمادس دي جولا) الأسبانية وتأثرها بقصة يوسف.

ثم نقل عن الشاعر والباحث الفرنسي شارل بيرو أن المؤلفين الأسبان كانوا ينقلون قصصهم عن الأدب العربي الذي استمد أهدافه من الدين الإسلامي، لأن القرآن يحتوى مجموعة عظيمة من القصص المحبوكة الهادفة.

ثم ذكر أهمية أسلوب القصص في التقويم والإرشاد. وأنه لجأ عدد من فلاسفة العرب كالجاحظ وأبي حيان. والعقاد وطه حسين. ثم نقل عن طه حسين في كتابه: "إسلاميات" قوله: "إن في قلوب الناس ما يحبب إليهم الأسلوب القصصي". ثم قال الكاتب: "والتعرض لقصص القرآن من حيث التصنيف إلى قصة خيالية وواقعية، يعتبر تجاوزاً عما في هذا القصص من إعجاز فني، لأنها جمعت بين الحقيقة والخيال بأسلوب ليس له مثال... ثم بين لنا أن المقصود بالأسلوب الرومانتيكي في القصص القرآني (!) ليس يعني أن بعض قصصه خيالية، بل يقصد أنه على الرغم من واقعيتها فإن أسلوبها المعجز أسبغ عليها من روعة التشبيهات ما جعلها فريدة في نوعها من حيث الجمع بين الخيالية

والواقعية. (وأقول: ولم استخدام مصطلح يثير إشكالاً ثم نضطر معه إلى نفي الإشكال، ومعالجة الخطأ، وكان الأولى ألاّ نستخدم المصطلح المشكل)

الفصل الثاني: ما هي القصة القصيرة؟

يقول: إذا اعتبرنا الواقعية والخيالية تقسيماً عاماً، فإن هناك تقسيماً آخر من ناحية الطول هو: القصة القصيرة والقصة الطويلة. والقصيرة هي التي لا تزيد كلماتها عن ألفي كلمة أو ثلاثة على أكثر تقدير. وهناك لون مستحدث يسمونه: قصة قصيرة قصيرة **Short short story**، ويسميها بعض أدباء العرب بالأقصوصة.

والحديث عن القصة القصيرة له علاقة وثيقة بالحديث عن جانب كبير من قصص القرآن. ثم أشار إلى أن كتابة القصة القصيرة أصعب من كتابة القصة الطويلة.

ثم انتقل إلى قصص القرآن ليقول: يدرك من درس تاريخ الأدب أن القرآن بسوره القصيرة المتضمنة قصصاً قصيرة معجزة أدبية لم يعهد لها العالم الثقافي مثيلاً من قبل.

ولإظهار مدى تأثر الأدب العالمي بقصص القرآن القصيرة لا بد من الإلمام بلمحة عن تاريخ القصة القصيرة. فقال: "عرف العرب القصص... ولم يعرفوه إلاّ بعد نزول القرآن.

أما قدماء المصريين فقد عالجوا القصة القصيرة بطريقة ساذجة تدور حول الخرافات. وهناك حكايات مشابهة في التاريخ الهندي والصيني. والإغريق اتخذوا الأساطير وسيلة للتوجيه، وانعكس ذلك على فلسفة أرسطو وأفلاطون.

والأدب الفارسي لم يعرف القصة القصيرة. وأشهر ما فيه "الشاهنامة" وهي قصة طويلة ألفها الفردوسي، ولقبها المؤرخ ابن الأثير بقرآن العجم، وكانت منظومة شعراً. والأدب الفارسي تأثر بالقرآن. يقول نولدكه المستشرق الألماني الذي ترجم عدداً من القصص الفارسية والعربية إلى الألمانية: "من الثابت أن هذه القصص –الفارسية– اتخذت من الدين الإسلامي وبعض قصص القرآن نهجاً ومثلاً أعلى تحاول الاقتراب منه". وترجمة "نولدكه" كانت في أوائل القرن ١٩ قبل أن ترى القصة الغربية القصيرة النور".

باختصار إن الكاتب يريد أن يصل بنا إلى أن ظهور فن القصة القصيرة مدين لقصص القرآن، وأظن أن هذا ليس باليسير تسليمه، وأظن كذلك أنه ليس بالمغنم الكبير أن ننسب إلى قرآننا هذا الفضل.

ثم يشير الكاتب إلى أن من أشهر الكتب التي انتشرت في أوروبا كتاب اسمه "مجمع التواريخ والقصص" وقد ألف في عهد السلطان السلجوقي "سنجر" سنة (٥٣٠هـ).

وقد ذهب عدد من المستشرقين منهم "وستنفلد" إلى أن القصص العربية القصيرة المستوحاة من القرآن كانت المنبع المباشر لكل محاولات كتابة القصة في أوروبا.

ثم ذكر ترجمة ابن المقفع لكليلة ودمنة، والتي أضاف إليها ما استوحاه من القرآن فلم تكن مجرد ترجمة.

ومن المستشرقين الذين بحثوا تأثير قصص القرآن في الأدب العربي وبالتالي في الأدب الغربي المستشرق (آدم متز) في كتابه: الحضارة الإسلامية.

ومما نقل عنه أن معاوية استدعى أشهر قصاص عصره من صنعاء واسمه عبيد ليقص على الناس في دمشق القصص ليلهي الناس عن السياسة. ويقول المستشرق نفسه: إن العرب زادت شفافيتهم بعد نزول القرآن. ثم ذكر أبياتاً لابن حمديس عن الشمعة وعدد "متز" من اقتبسها من الغربيين.

ميلاد القصة القصيرة في أوروبا:

كان في ألمانيا، لتقدم الطباعة فيها، فكانت مدينة ليدن [1] تغذي السوق الأوروبي الأدبي بعدد من الكتب. وأول مجموعة قصص قصيرة نشرها "هوفمان" ١٨١٤م-١٨٢١م، ثم "لودفيج". وفي روسيا كان ظهور القصة القصيرة سنة ١٨٣٤م على يد "بوشكين" ثم "جوجول". وفي نفس السنة نشر "أدجار آلان بو" قصصه. وأول من كتب القصة القصيرة وأول من كتب القصة القصيرة في فرنسا "بلزاك" و"جوتييه" و"ميريميه".

ثم يخلص إلى النتيجة المتوخاة من قبله: "ولا شك (!) في أن ظهور فن كتابة القصة القصيرة في جميع الدول الغربية في وقت واحد تقريباً وبعد ترجمة القصص العربية المستوحاة من القرآن يظهر بالدليل القاطع (!) أن فن كتابة القصة القصيرة لم يكن معروفاً لدى الأدباء الغربيين وذلك بدليل عدم ظهور أي محاولة قبل ذلك لكتابة القصة القصيرة".

وكان "أدجار آلان بو" من أوائل الكتاب الذين حاولوا أن يضعوا بعض الأسس والقواعد لكتابة القصة القصيرة، وذلك بمقال نشره في إحدى المجلات الأدبية. وأهم ما ذكره ضرورة أن يكون

---

١ - الذي أعلمه أن ليدن في هولندا.

لها مثل القصة الطويلة: فكرة محدودة وخط سير مرسوم، ثم ظهرت طائفة من كتاب القصة القصيرة مثل "فلوبير" و "جي دي موباسان" الفرنسيين وفي روسيا ظهر الكاتب "تيرجنيف"، ولكن القصة الروسية الشهيرة على الرغم من شهرتها كانت تعوزها العقدة المحبوكة، وتعتمد على الوصف الذي كان يدور في أغلبه على حياة الفلاح الروسي وعذاب الطبقة الكادحة.

وأنجح القصص القصيرة ما ينجح مؤلفها في إيجاد عقدة تثير التشويق **suspenseful climax** وهذه ليست بالأمر الهين.

ويعتبر قصص القرآن مثلاً أعلى في هذا.(!)

الفصل الثالث: التشويق في قصص القرآن:

التشويق من أهم شروط القصة الناجحة. حتى أن عدداً كبيراً من الفلاسفة طرقوا الأسلوب القصصي لمناقشة وعرض نظرياتهم الفلسفية. ومنهم ابن سينا.

وفي العصر الحديث أطلق "ول ديورانت" على مؤلفه الضخم عن تاريخ الفلسفة: "قصة الفلسفة" وعالج الفلسفات المختلفة بأسلوب القصة المشوق، فأقبل الناس على كتابه، وطبع منه أكثر من مليوني نسخة كما ترجم إلى لغات كثيرة.

والحديث عن فن التشويق متشعب. ولكنه مشوق. وقد تعرض لموضوع التشويق في قصص القرآن عدد ولكنهم مسوه مساً خفيفاً. ومن هؤلاء سيد قطب في التصوير... ومس التشويق مساً غير مباشر بحديثه عن السرد العذب والنسق المتسلسل.

والتشويق يطلق عليه في الغرب **suspense**. ولفظة **climax** أصبحت شائعة ولا سيما عند كتاب السيناريو وتترجم تجاوزاً بالعقدة، ومعناها الدقيق "القمة".

ولكن ما علاقة القمة بالتشويق فيها بطريقة تصاعدية، بمعنى أنه كلما تسلسلت أحداث القصة وقربت من نهايتها **climax** تزداد لهفة القارئ...

ولنجاح التشويق عدة شروط منها:

١- اتساق المقدمات مع النتيجة: لا بد أن تحتوي الحوادث على مفتاح حل العقدة بشكل يقبله العقل.

٢- ألاّ تكون عقدة القصة مفتعلة: بمعنى أن تكون الحوادث بطبيعتها مؤدية إلى حدوثها (العقدة) بطريقة منطقية.

٣- تجنب الأجزاء الميتة: وهي المواقف المملة. وهي وسيلة يطيل بها المؤلف نصه. والأجزاء الميتة قد تكون حواراً مملاً... أو تكون وصفاً مسهباً لا علاقة له بالهيكل السردي.

٤- تجنب العقدة المضادة (Anti-climax): وهو ما يعمد إليه بعض المؤلفين لزيادة تعقيد القصة ظناً منهم أن ذلك يضاعف التشويق.

ثم يضرب الكاتب المثل بسورة الفيل، ويطبق علها ما وضع من شروط التشويق. ثلاث وعشرون كلمة ابتدأت بأعظم أنواع التشويق الذي يسمونه: إثارة الاهتمام من أول كلمة ويطلقون عليه The first striking أي الضربة الأولى. وهذا اللون من التشويق أصعب ألوان التشويق...

ابتدأت القصة بسؤال يثير الاهتمام. وتعبير "أصحاب" وحده فيه من البلاغة والإيجاز ما يجل عن الوصف.

وجاء بعد ذلك لون آخر من التشويق وهو ذكر نهاية القصة في مبدنها، ومع الإبقاء على مسببات هذه النهاية مما يجعل اللهفة مستمرة بل متزايدة. فالآية الثانية هي: ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل؟﴾ إنها نهاية واقعة الفيل.

بعد ذلك تسرد القصة تفاصيل السر والمعجزة الإلهية في ثلاث آيات قصيرة مركزة: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول﴾.

وهكذا وصفت واقعة الفيل أبلغ وصف. واختتمت بنهاية محكمة أشد الإحكام. لقد تضمنت القصة أو السورة لوناً آخر من التشويق وهو روعة الأسلوب وما في كلماتها من توقيع موسيقي معجز.

ثم يعود الكاتب ليفصل ما طرحه من إثارة الاهتمام لأول وهلة، فيقول: لا بد من أن نستعرض الدوافع أو الكوامن النفسية التي تحرك في الإنسان الرغبة في متابعة وقائع القصة وحوادثها.

إن الدافع البديهي الأول هو إثارة غريزة من أقوى الغرائز البشرية وهي غريزة حب الاستطلاع. لقد خلق الله الإنسان وزوده بعدد من الغرائز تعينه على أداء رسالته، ومن أهمها حب الاستطلاع، وإذا سارت في خطها الطبيعي كانت خير عون للإنسان على التزود بالثقافة والعلم. فالدافع الرئيسي الأول للتشويق إثارة غريزة حب الاستطلاع.

ومن القصص القرآنية التي استهلت بهذا اللون من لتشويق قصة أصحاب الكهف. لقد ابتدأت سورة الكهف بملخص كامل لقصة أصحاب الكهف. فهل أطفأ الملخص الرغبة في معرفة

التفاصيل؟ كلا... لقد أثارت الآية الكريمة التالية اللهفة العارمة لمعرفة هذه التفاصيل، وهي: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق...﴾. وتأتي بعد ذلك التفصيلات في روعة تجعل القصة صورة مرئية مجسمة وكأن قارئها يرى شخصياتها أمامه يتحركون ويتكلمون!

يقول الكاتب بعد أن كلمنا عن خواطره في مقارنة القصة القرآنية بالسينما من حيث رسم الشخصيات واللقطات... الخ، يقول إنه اطلع على التصوير الفني لسيد فوجده يتحدث بلغة التصوير والسينما، فتحدث عن تقطيع المناظر (cutting) (وبالفرنسية Decoupage) كما تحدث عن اللقطات الكبيرة التي تستعرض منظراً يشمل السماء والجبال والأرض وهي التي يسميها المخرجون السينمائيون بانوراما Panorama.

وتحدث رحمه الله كذلك عن ناحية فنية أخرى في التصوير السينمائي لمشاهد بعض قصص القرآن وهي ما يسمى بالتناسق أو الانسجام في اللقطة.

ثم نقل عن صاحب التصوير قوله: "وعلماء البلاغة يتحدثون عن مراعاة النظير"، ويعنون منه الجانب اللفظي لأنهم لم يحاولوا أن يلحظوا جانب التصوير ونحن نأخذ تعبيرهم نفسه "مراعاة النظير" لنعنى به جانب التناسق الفني في الصورة، للمحافظة على وحدة الرسم (يقصد الكادر أو الإطار) وعلى جو المشهد، وعلى الانسجام العام.

ويعلق الكاتب: وكل هذه التعبيرات هي تعبيرات فنية بحتة خاصة بالإخراج والتصوير السينمائي. فالتناسق الفني في الصورة وهو مسألة فنية دقيقة لا يراعيها إلاّ المخرج الشاعري الحساس الذي يعاونه مدير تصوير لا يقل عنه شاعرية وإحساساً وله فوق ذلك دراية بأنواع العدسات وحساسية الفلم للضوء وفقاً للوقت الذي يتم فيه التصوير.

ثم قال: إن سيد لو درس السيناريو والإخراج لتوسع في هذا البحث وتعمق. وأن هذا مما شجعه على طر ق الموضوع آمنا من مهاجمة المتزمتين (فهو متترس بسيد).

ولا شك -يقول الكاتب- في أن المرحوم العلامة سيد قطب كان يقصد في تحليله بعض القصص القرآنية مقارنتها بالشريط السينمائي، فهو يقول عن تسلسل الحوادث في قصة هود: "ذلك أن عرض هذا الشريط يخيل للمتأمل أنه نبي واحد وأنها إنسانية واحدة على تطاول الأزمان والآماد".

ثم يعود الكاتب إلى مساره وحديثه عن التشويق بعد هذا الاستطراد، فيقول: وقصة يوسف هي الأخرى ابتدأت بالتشويق الذي بلغ أعلى درجات الإثارة. ففي الآية الثالثة وصف الله القصص القرآني بأنه أحسن القصص الهادفة التي تخرج الناس من الغفلة. وبعد هذه الآية التي تعتبر في حد ذاتها

مدعاة للتشويق، ابتدأ لون فريد من التشويق بهذه الآية : ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾.

وكانت الرؤيا وحدها كفيلة بإثارة اللهفة لمعرفة التفسير [1]. وسارت القصة بالخط البياني للتشويق في طريق تصاعدي بالآية التالية: ﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً...﴾.

لكن ما تفسير هذه الرؤيا (عند الكاتب الحلم)؟ ولماذا حذره أبوه؟ لقد أبقت طريقة السرد الرائعة الإفصاح عن السر إلى نهاية القصة الطويلة المحكمة. وبعد الاستهلال الرائع للقصة الذي تضمن تشويقاً مزدوجاً وتصاعداً بالخط البياني لذلك التشويق... انعطفت القصة لما يسمونه الآن في القصة الحديثة بالرجوع إلى الماضي (Retrospective) وذلك من أول هذه الآية: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾. (وأرى أنه لا رجوع كما عبر الكاتب، وإنما هو التقدم، بل هذه الكلمة أو هذه الآية إشارة إلى البدء في تفصيل القصة، بعد انتهاء الموجز).

إنها خطوة أخرى إلى أعلى... في الخط البياني التصاعدي للتشويق. ويقفز التشويق في تصاعده بالآيتين الكريمتين التاليتين: ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا...﴾. يا للروعة ويا لعظمة السرد... لقد ابتدأ الشريط على حد تعبير سيد بمشهد بين يوسف وأبيه، ثم نعود إلى الماضي إلى رؤية الأخوة في جو تآمري، هنا يبرز نوع رابع من التشويق على الرغم من أن القصة لم تقطع إلاّ مرحلة يسيرة جداً من مراحل هيكلها السردي. فالنوع الأول كان إثارة غريزة الاستطلاع. والثاني كان إثارة الخوف على بطل القصة، والتشويق الذي تحركه غريزة الخوف غير التشويق الذي تحركه غريزة حب الاستطلاع. أما النوع الثالث فكان بذلك التصوير الرائع لجو التآمر على القتل. وأما النوع الرابع فهو مدفوع بعاطفة الشفقة أو العطف على البطل (Sympathizing).

الفصل الرابع: الأنواع المختلفة للقصة القرآنية:

يقدم لهذا الفصل ولأنواع القصة بسطور يقول فيها: إن البحث في الأنواع المختلفة للقصة في ضوء ما استجد من الكتابات الحديثة في ميدان التأليف القصصي من مستهل القرن العشرين يجعلنا ننظر إلى القصة من عدة زوايا لتصنيف هذه الأنواع، وذكر من ذلك:

---

١ - عبر الكاتب بالحلم، وليس دقيقاً فالقرآن عبر عما لا تعبير له بالأحلام إذ قال: : ﴿أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾، بينما قال عن رؤيا يوسف: ﴿هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً...﴾.

• الأسلوب الساخر في السرد القصصي: يقول تحت هذا العنوان: إن قصص القرآن قصص ديني هادف، لكن ذلك لا يمنع من أن بعض القصص القرآنية قد ذكرت في طيات حوادثها لفتات فيها سخرية لاذعة تثير الضحك. ويضرب مثالاً لذلك طلب فرعون من هامان أن يبني له صرحا لعله يطلع إلى إله موسى... (وأظن أن مثله غير موفق. ففرعون ما قال هذا إلاّ من عمى جهله، ويضلل بذلك الجماهير، وليس يسخر).

ثم يستشهد بقصة البقرة، وأظن كذلك أن مثله غير مطابق ولا موافق. ثم استشهد بقصة نوح وقوله: ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾. (وإن القرآن وإن كان سجل هذا، لكن الموقف ليس موقف سخرية).

• وفي صدد التقسيم النوعي للقصص ذكر القصة التي تستعرض حياة شخصية من الشخصيات، ويسموها: Character story، ويشترط فيها أن يكون سرد الحوادث مستقيماً مع سير الحوادث وطبيعة تصرفات هذه الشخصية، كما يشترط أن يتناسب أسلوب الحوار مع الخط المرسوم لهذه الشخصية.

ومن الشخصيات التي عني القرآن برسمها موسى، ومن صفاته: القوة، ولثغة اللسان وعصبي المزاج. (هكذا قال وهو وصف ردده صاحب التصوير ولا نقرهما عليه، بل نقول: إنه كان قوياً في الحق). وقال: وكان عاطفياً متعصباً لنصرة قومه (كلام لا يُقر، بل هو متعصب لنصرة المظلوم المستضعف...).

وكان طيب القلب سريع الندم. ثم طبق على هذه المواصفات قتل القبطي... ثم قال عن موسى: ولبث الطابع العصبي ملازماً لموسى، ثم قال: والإنسان العصبي على قدر اندفاعه وتهوره (!) يكون متردداً...

ثم فسر الآيات من سورة القصص المتحدثة عن قصة موسى في مدين، وأسهب. ووصفها بأنها مثل أعلى للقصة العاطفية Sentimental story. (ولا نقره طبعاً على التسمية والتوصيف والتصنيف ولا على كثير مما جاء في الشرح الذي أظنه قد أخذه عن عبد الكريم الخطيب وطلب إعفاءه من ذكر المصدر).

وبزواج موسى من البنت تنتهي القصة نهاية سعيدة (Happy End) (وأقول: القصة لم تنته بل بدأت). فقصة موسى قصة عاطفية وقصة كفاح، ويعبر عنها أحياناً بقصص النجاح (Success story).

وعلى عكس شخصية موسى كانت شخصية إبراهيم (لا نقول على العكس. وإنما نقول إنها شخصيات متنوعة).

الفصل الخامس: القصة العلمية في القرآن:

يقول في مطلع الفصل إنه لا أحد قد نجح في تأليف قصة علمية. وقد رأى الكاتب أن في القرآن مثل هذا النوع.

وفي السنوات الأخيرة ظهر نوع جديد من القصص اسمه قصص الخرافات العلمية أمّا القصص عن حياة العلماء. فهذا نعده قصة حياة شخص **Biography story**.

ثم شرح لنا المقصود من خرافات علمية وأنها قصص تدور حول بعض الحقائق العلمية ولكن نتائجها مصطنعة. ويسرد لنا قصة فيلم سينمائي عن نملة دخلت مختبر عالم ذرة فتضخمت حتى بلغت ثلاثة أمتار، وكثر النمل وقام الصراع مع الإنسان وانتهى بنصر الإنسان.

ثم ذكرنا بأن "هـ. ج. ولز" كتب مجموعة من القصص تحت عنوان: توقعات **Anticipations** تخيل فيها كثيراً من الاكتشافات التي توقع تحقيقها.

ثم ذكر قصة "جيكل وهايد" والرجل الخفي **Invisible man** كأمثلة على الخيال العلمي أو ما يسميه هو: الخرافات العلمية (الخيال العلمي).

وسبب انعدام قصص علمية أن من يقوم بالاكتشافات لا يضعها في قصص وإنما في بحوث.

ثم نقل عن مستشرقين "كدرمنغم" وغيره عناية الإسلام بالعلم.

ثم استشهد بمثال على القصة العلمية قوله تعالى في الذاريات في سياق قصة ثمود: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾؛ وذكر أن "اينشتاين" يقول باتساع الكون. و"هابل" أيد نظرية اتساع الكون في كتابه الشمس والكون. ثم استعرض بعض الآيات التي فيها إشارات إلى إعجاز علمي، ولا أرى لها علاقة بالقصص، مع أن عنوان الفصل كان: القصص العلمية. فالمضمون خالف العنوان.

ثم نقل عن "ديربر" قوله: "إنني لا يمكنني أن أحصر في كتاب الآثار الواسعة التي نجمت عن قصص القرآن العلمية فإنها تستوعب مجلدات".

وأطال الأمثلة والشواهد، حتى صار الفصل أطول فصول الكتاب، وإن كان أضعف الفصول، وأبعدها عن الموضوع.

الفصل السادس: القرآن والقصّة النفسية:

قال في هذا الفصل: اذا كان القرآن انفرد بالقصة العلمية (ورأينا أنه لم يأت بشاهد...) فلا شك في أن قصصه التي عنيت بتحليل نفسية الإنسان كانت أول قصص من نوعها عرفتها الثقافة الإنسانية.

ثم طفق يتكلم عن تعرض الفلاسفة والكتاب للنفس، ولكن هؤلاء لم يبحثوا النفس بالعمق والموضوعية التي تعرضت بها قصص القرآن للنفس البشرية.

ثم عرفنا بلفظة psychology، وفروع علم النفس، وأن الناس يعتقدون خطأ أن فرويد أبو علم النفس.

ثم ذكر لنا قصة أو أسطورة إغريقية تصور القصة النفسية واسمها: "الحمار الذهبي" وملخصها أن أميرة اسمها (Psyche) كانت على قدر عظيم من الجمال. فغارت منها (فينوس)، فاستدعت ابنها (كيوبيد) ليوقع بها فوقع في غرامها، ويبني لها قصراً ويزروها في الظلام وهو الحبيب المجهول، وأعطتها أخواتها مصباحاً لترى به في الظلام وجه الحبيب المجهول، فلما نام أضاءت المصباح. فرأت وجهه وعرفته، ووقعت نقطة زيت على وجهه فاستيقظ وعاتبها لحنثها بالوعد، فيغادرها بلا رجعة، وتحاول الانتحار، وأخيراً وقعت بين يدي غريمتها (فينوس)، فاستعبدتها لتشوه جمالها، فتبحث في القصر عن حبيبها (كيوبيد) حيث يعالج من أثر الزيت الذي شوهه، فتجد صندوقاً غريباً، كانت (فينوس) وضعته في طريقها، وهي تعلم أن حب الاستطلاع سيدفعها لفتحه، ففتحته فأصيبت بنوم أبدي، وعرف (كيوبيد) بما حدث لها فحاول هو و(جوبيتر) أن يعالجاها، فيوقظانها ويتزوجها (كيوبيد).

يقول بعد أن لخص لنا القصة ولخصت تلخيصه: هذه هي القصة الإغريقية التي اقتبسوا من اسم بطلتها اللفظة التي يطلقونها على علم النفس.

ويرى "جرانت" Grant أحد فلاسفة الغرب العلاقة بين القصة وعلم النفس: "أن الأميرة أحبت روح الشخص نفسه ولم تر وجهه".

ثم يقول الكاتب: إن القصة وإن كانت مشوقة إلاّ أنها مبنية على مجموعة من الخرافات.

ويقول: إنه ذكر هذه القصة لما لها من أهمية في بيان منشأ علم النفس. ثم ذكر اهتمام الهنود والصينيين بعلم النفس، وأرجعوا كل اضطراب إلى غضب الآلهة. ولم يعرف فلاسفة الغرب البحث في النفس بشيء من الأسس العلمية إلاّ في أواخر القرن السابع عشر، ومن هؤلاء "بيكون"، و"ديكارت"، و"لوك"، حيث وضعوا الأسس الأولى لعلم النفس. وفي سنة ١٨٩٥م نشر "سيجموند

فرويد" أول كتاب له تحت عنوان: "دراسة حول الهستيريا"، وكان هذا بداية التحليل النفسي ولكنه اعتمد على التنويم المغنطيسي. وبالغ "فرويد" في تقدير الغريزة الجنسية، واعتبرها أساساً لتفسير الأحلام، بل أساس عواطف الأطفال نحو آبائهم. والذي يهمنا من هذا، يقول المؤلف، أن هذا التحليل النفسي أتاح لمؤلفي القصة أن يطرقوا نوعاً جديداً من القصص يعتمد على تحليل نفسية الأبطال.

وعلم النفس لم ينفصل عن الفلسفة إلاّ في القرن التاسع عشر. وأول من اتخذ من قصص القرآن النفسية نبراساً لبحوثه أبو حامد الغزالي. ولم يجد الغزالي الطريق ممهداً لدراسة علم النفس، لأن بعض فلاسفة العرب كانوا قد نقلوا إلى العربية بعض النظريات النفسية الغربية عن "أرسطو" كتقسيم النفوس إلى نباتية وحيوانية وإنسانية.

ومن يدرس فلسفة الغزالي يدرك مدى تأثره بالقرآن وما ذكره عن النفس. وفي كتاب "الإحياء" للغزالي يقسم دراسة النفس إلى قسمين:

القسم الأول: علم المعاملة (العلم بأحوال القلب).

القسم الثاني: علم المكاشفة.

ومن قرأ فلسفة الصلاة كما كتب الغزالي في الإحياء يتبين مدى الصلة الوثيقة بين القصص النفسية التي وردت في القرآن وبين فلسفة الغزالي. وما جاء في (المنقذ) و (الإحياء) محاولة جادة لما يسمى الآن التحليل النفسي، والغزالي هو أول من قسم أوجه النشاط النفسي إلى: ماهية السلوك، وتحليل الوظائف النفسية. وقد بحث الغزالي غريزة حب الظهور والميل إلى الاستعلاء والسيطرة وحب الجاه والغلبة والعجب والكبر وحب المدح ولو كان رياء.

والقرآن أورد لفظ النفس في ثلاثمئة وسبعة وستين موضعاً. والله أرشدنا إلى أن النفس هي التي تدخل الجنة أو تلقى في الجحيم.

والنفس المطمئنة هي المسيطرة على هواها وعلى مجموع الغرائز، وهي إشارة إلى الضمير الهادئ المستريح أو إلى التوافق بين الـ "أنا" **Ego** والنفس العليا التي تمثل الضمير والمبادئ السامية التي يسميها فرويد **Super- Ego**.

وأما كلمة القلب فأحصى أحد المستشرقين واسمه "نيكلسون" أنها وردت في (١٤٤) مئة وأربعة وأربعين موضعاً. ثم تتبع الكاتب بعض هذه المواطن.

ثم انتقل إلى القصص ليقول: ومن التصوير الرائع للحالة النفسية ما جاء في قصة هابيل وقابيل. (يأبى كاتبونا إلاّ أن يحددوا ابني آدم في شخصين باسميهما متناسين منهج القرآن في الإطلاق...).

وفي هذا السياق القصصي رسمت شخصية الأخوين رسماً متقناً من خلال الحوار المتبادل بينهما. كما أن تعبير "طوعت" يشرح ما يعتمل في نفس المجرم عندما تسهل له نفسه الخبيثة طريق الشر وتمهده أمامه فيطيعها.

وبعد هذه المرحلة النفسية التي انتهت بارتكاب جريمة القتل تنتقل القصة إلى مرحلة نفسية أخرى تظهرها الآيات التالية: ﴿فبعث الله غراباً...﴾ لقد ندم القاتل أشد الندم على جريمته.

الفصل السابع: نواح أخرى من القصص النفسية في القرآن:

قال في مطلع الفصل: عنى القرآن بوصف مظاهر الانفعالات النفسية التي تصاحب كثيراً من غرائز النفس. ثم ضرب المثل من سورة عبس، ومشهد القيامة الذي فيه، يقول: في المشهد السردي الوصفي الرائع لمشهد القيامة يرى القارئ تحليلاً نفسياً عميقاً لطائفتين من الناس: المؤمنون...، والكافرون...: "وجوه يومئذ مسفرة..."، "ووجوه يومئذ عليها غبرة..."

(وهو مشهد غير قصصي على كل حال، لكن الكاتب يتوسع في مفهوم القصة، كما رأينا في القصة العلمية، إذ يعد كل إشارة علمية داخلة تحت عنوان القصة العلمية...)

ولم يفته بطبيعة الحال أن يعرج على قصة الأعمى ﷺ حيث قال عنها: فيها سرد قصصي بديع... وهي من القصص التي يظهر فيها الرسول الإنسان...

وقد أطال الكاتب في سرد القصة... ثم قص قصة أخرى تعليقاً على قوله تعالى: ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾. وذاك الإنسان هو عتبة بن أبي لهب، وكيف دعا عليه الرسول فأكله الأسد، وفصّل فيها.

ثم فسر آيات السورة، ثم عاد إلى سرد مشهد القيامة الذي بدأ به الفصل. وعلق على ﴿يوم يفر المرء من أخيه﴾ بقوله: إن الإنسان اجتماعي بالطبع، أو "حيوان اجتماعي"، لا ينزع إلى الوحدة والفرار من الناس إلاّ إذا كان مصاباً باختلال ولذا فإن أقسى عقوبات السجن: الحبس الانفرادي.

إن البشر هناك بلايين، وكل واحد يحاول أن يهرب. وللإنسان أن يتصور قدر الاضطراب المفزع الذي ستموج به هذه البحار المتلاطمة من النفوس البشرية. هذه هي الحالة النفسية العامة للبشر بعد أن تدوي الصاخة... أو الصيحة الثانية ليوم القيامة.

ثم قال الكاتب إنه يكتفي بهذا القدر عن القصص النفسية في القرآن. وسأل الله أن يمد في عمره ليصدر كتاباً آخر أكثر شمولاً... فالقرآن أعظم ذخيرة للإنسانية.

الفصل الثامن: قصص القرآن والحب الصحيح بين الرجل والمرأة:

قال في مطلع الفصل الأخير من الكتاب (بعد أن مهد له في نهاية الفصل السابق): إن كلمة الحب هي أكثر الكلمات التي جرت بها أقلام الأدباء والفلاسفة والشعراء. وإذا أطلقت لفظة الحب يختلف مدلولها باختلاف المناسبة التي تطلق فيها.

فقد تعني حب الإنسان للدين الذي يعتنقه... أو حبه لوطنه، أو لوالديه، وأقربائه وأصدقائه.

ولكن لفظة الحب إذا أطلقت مجردة دون إشارة إلى ملابسة أو مناسبة اتجه فهمها في أغلب الأحيان إلى تلك العاطفة التي تربط الرجل بالمرأة.

ونحن إذا أردنا أن نتحدث عن الحب بين الرجل والمرأة ونتعمق في تحليل بواعثه وتعدد ألوانه سنخرج عن موضوع هذا البحث (يقول الكاتب). فقد كان الحب وما زال من أهم الموضوعات التي اشترك في بحثها الفلاسفة والأدباء وعلماء النفس والاجتماع.

وإذا أردنا أن نتحدث عن الحب الصادق بين الرجل والمرأة فيجب أن نقصر حديثنا على الحب الذي يهدف إلى الزواج... إذ من المستحيل أن يكون الحب باعثاً على السعادة إلاّ إذا كان يسكن إلى جوار قلب المحب ضمير هادئ راض مستقر.

وراحة الضمير لا تتوافر إلاّ إذا أيقن الاثنان من أن يصير حبهما هو المصير الذي يباركه الله ويرضى عنه المجتمع.

والحديث عن الحب يستتبع الحديث عن المرأة. ومن البديهي أن مركز المرأة في المجتمع والنظرة العامة إليها تحدد طبيعة العاطفة التي يمكن أن تنشأ في قلب الرجل نحوها. فمن المستحيل أن يجتمع الحب والاحتقار. لان الحب خليط من العواطف النبيلة التي يشعر بها الرجل نحو المرأة التي يحبها... ويجب أن يكون قوام هذه العواطف احترام المرأة وتقديرها. ولكن هناك فارقاً بين الاشتهاء والحب. وبعض الرجال يغلفون شهوتهم بستار زائف من الحب. والرجل الذي يفعل ذلك إمّا يخدع

نفسه أو يخدع المرأة. فالمجتمعات التي لا تحظى المرأة فيها باحترام لا يوجد فيها الحب الصادق. ثم عرج على تكريم القرآن للمرأة. واستنتج أن الحب الصادق المبني على الاحترام والتقدير المتبادل رأى النور بعد نزول القرآن الكريم.

ثم عرج على المرأة عند قدماء اليونان، فقال إنها كانت تباع وتشترى. ولم تكن عفتها أو شرفها على قيمة. وفي أساطيرهم أن "أفروديت" خانت ثلاثة أزواج ثم حملت "بكيوبيد". أي أن رمز الحب عند قدماء اليونان ثمرة علاقة غير مشروعة. ولا يوجد أكثر من ذلك امتهاناً للحب.

ثم عرج على مكانة المرأة عند قدماء الرومان. وقال إن حالها ليس بأحسن من الحال عند قدماء اليونان.

كان الرجل صاحب السلطة المطلقة، والمرأة لا إرادة لها، وكانت محل شكوك، فهي ربيبة الشيطان. فإذا وضعت طفلاً وضعته عند أقدام الرجل، فإذا رفعه نسبه إليه. أمّا إذا تركه فإنهم يلقونه في ساحة عامة أو في أحد هياكل العبادة، فإذا أخذه أحد أصبح رقيقاً، فإذا لم يأخذه أحد مات، ثم ألقي به حيث الحيوانات الميتة، ولا اعتراض للأم.

وكان للرجل الحق أن يبيع زوجته أو بنته، أو يعذبها أو يقتلها دون سؤال. ولم يمتنع ذلك إلاّ بعد قانون "جوستنيان" ٥٥٠م وظل حق البيع.

وعند القوم قاعدة أن المرأة يجب أن تظل مقيدة وقال "كاتو" عبارته المشهورة: إن القيود يجب ألاّ ترفع عن المرأة.

وقدماء المصريين وحدهم هم الذين احترموا بعض حقوق المرأة، فاعتلت العرش أحياناً "كنفرتيتي" و"حتشبسوت" و"كليوباترا". إلاّ أن اعتلاء العرش لا يعني الاحترام من عامة الشعب. فقد ظلت تعامل معاملة الأرقاء.

أما عند الهنود، فتعتبر تابعاً للرجل. بحيث يجب أن تختفي من الحياة إذا مات زوجها، فهي كالظل. فكانت تُحرق مع جثته. وظل ذلك حتى القرن ١٧ ومن المعروف أن النساء كن يقدمن للمعابد لرجال الدين، أو يذبحن كقربان لآلهة المطر.

وفي شريعة الهندوس نص يقول: "السم والأفاعي والموت والنار ليست أسوأ من المرأة".

واليهود يعتبرونها لعنة. وفي سفر أيوب: "المرأة أشد مرارة من الموت، ولا ينجو من شرها إلاّ الرجل الذي يحبه الله، وكل ألف رجل ينجو رجل واحد، ولا توجد امرأة طيبة على وجه الإطلاق".

وعند المسيحيين لبثت المرأة محتقرة وتحدث عن ذلك المستشرق الهولندي "دي جويه" في مقدمته التي كتبها وصدر بها مؤلفه في سيرة الرسول لابن هشام. وقال الأب "سوستام" (يرفعونه إلى قديس): "المرأة شر لا مفر من تجنبه، وهي مرض لعين يمرض الرجل برغبته، ومصيبة مطلية بالألوان الزاهية".

وقال القديس ترتوليان: "المرأة هي مدخل الشيطان إلى قلب الرجل ونفسه، وهي تخالف دائماً تعاليم الله، وتغري الرجل على الخروج عن دينه".

وفي القرن الخامس عشر اجتمع رجال الدين المسيحي في أوروبا في مؤتمر اشتهر باسم "مؤتمر ماكون"، وكان الموضوع: هل المخلوق المسمى المرأة جسد لا روح فيه أم إن لها روحاً؟ وأخيراً قرروا أن المرأة فيها روح جهنم ما عدا مريم.

المرأة بعد القرون الوسطى: واستمرت هذه النظرة بعد القرون الوسطى. ومن الثابت أن القانون الإنجليزي حتى سنة ١٨٠٥م كان يعطي الرجل الحق في بيع زوجته. وحدد القانون سعر المرأة بستة بنسات. وفي سنة ١٩٣١ باع رجل مفلس زوجته بمبلغ خمسمئة جنيه وكانت جميلة.

وبعد قيام الثورة الفرنسية فإن شعاراتها كانت مقصورة على الرجال. ولبثت المرأة كما هي. ولم تفز المرأة في فرنسا بحقوقها إلاّ بعد قانون سنة ١٩٣٨م، وقبل ذلك ظل القانون الفرنسي يسويها بالأبله أو الطفل أو المجنون.

والمرأة في الجاهلية معلوم شأنها. فقد كانت مبعثاً للتشاؤم...

يقول الكاتب: كان لا بد من هذا العرض لنظرة المجتمعات إلى قيمة المرأة حتى يمكن أن نستبين مدى الواقعية في قول إن الحب الصحيح المبني على الاحترام المتبادل بين الرجل والمرأة لم ير النور إلاّ بعد القرآن.

وهذا ليس مقصوراً على العرب، فالثابت أن أسبانيا تأثرت بالحضارة الإسلامية. واستشهد بكتاب لمستشرق روسي اسمه "كراتشوفسكي" وكتابه: أسبانيا المسلمة. وكذلك المستشرق الفرنسي "بروفنسال" في كتابه: الحضارة العربية في أسبانيا حيث قال: إن الرجال في أسبانيا لم يتعلموا كيفية احترام النساء إلاّ من العرب، واستشهد بكثير من الآيات تقرر حقوق النساء.

ويرجع بعض الباحثين سبب احتقار المرأة إلى أن الشعوب التي اعتنقت الدين اليهودي ثم تحولت الغالبية العظمى منها إلى الدين المسيحي كانوا يعتبرون المرأة مسؤولة عن (لعنة الخطيئة الأبدية!) لأنها تسببت في إخراج آدم.

ونزل القرآن وذكر في سرد قصصي رائع قصة آدم وحواء في أكثر من سورة، ومنها سورة البقرة والأعراف. وواضح منهما أن الشيطان وسوس لكليهما.

وفي سورة طه أن آدم هو المسؤول الأول: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً...﴾ فآدم ضعف أمام إغراء الشيطان لأنه يترع في نفسه إلى الخلود، ولذلك أغراه الشيطان بالملك الذي لا يبلى. وهكذا برأ حواء من تهمة الخطيئة الأبدية التي أخرجت آدم...

ثم إن الكاتب ذكر الآيات التي تسوي بين الرجل والمرأة في الثواب والعقاب... ثم نقل عن العقاد: "إن المعاملة القرآنية للمرأة هي دستور المرأة الخالد...".

ثم قال الكاتب: بينما لم تحظ المرأة بحق الانتخاب إلاّ في القرن العشرين يتحدث القرآن عن مبايعة المرأة وأن لها صوتاً: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك...﴾.

وبعد أن ارتفعت مترلة المرأة وأصبحت جديرة بحب الرجل المبني على الاحترام والتقدير. كان معنى ذلك أن بيت الزوجية يجب أن يكون عشاً جميلاً هادئاً لذلك الحب. أو بعبارة أخرى يجب أن تكون دعامة الزواج هي العاطفة المتبادلة التي لا يشوها الحافز المادي وحده. بل يكون قوام هذه العاطفة المودة والرحمة المتبادلة بين الزوجين.

وقد رسم القرآن لوحة جميلة لهذا الحب في آية كريمة في سورة الروم. والتعبير البليغ المذكور في الآية: ﴿خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها...﴾ إنما يعبر في عمق وشمول عن معنى الحب الصادق الصحيح الذي تهدا له النفس وتسكن. فيجد كل من الزوجين في الآخر مسكناً روحيا يطمئن إليه، ويودع فيه ما يخامره من شوق وحب ورغبة.

أما قوله: ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ فإشارة إلى ما يجب أن يكون عليه الحب الصحيح من تغليب الناحية المعنوية على مجرد الشهوات العابرة... وقد أضاف القرآن بعض المعالم الأخرى للحب الصحيح في سور عديدة منها سورة البقرة : ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾.

وهذه الآية الكريمة المكونة من ست كلمات فقط تجمع في بلاغة معجزة كل معاني الحب القوي المتين بين الرجل والمرأة. فشبهت كلاً من الزوجين باللباس... واللباس يستر عيوب الجسد وكذلك الزوج الصالح أو الزوجة الصالحة... واللباس فيه معنى الاحتياج المتبادل. واللباس يدفع حر الصيف وزمهرير الشتاء...

وعبر القرآن عن العلاقة بينهما بالميثاق الغليظ... مما يوحي بأن الله شاهد على هذا الميثاق.

ثم خاض طويلاً في الحب قبل الزواج ليصل إلى نتيجة: من المتفق عليه أن أكثر الزيجات تعرضاً للفشل هي زيجات الحب، كما أن الموت في سبيل المرأة التي يحبها الرجل يكون في كثير من الأحيان أرحم من الحياة معها بعد الزواج.

وفسر ذلك بان كلاً منهما يتصنع في مرحلة الحب ويظهر على غير حقيقته وطباعه.

ولذلك كان الحل الإسلامي في أن يرى الرجل المرأة، كما قال النبي للمغيرة: "انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما". أي أن ينشأ بينهما ما يشبه الألفة فإذا راق كل منهما في عيني الآخر دام الزواج بينهما لأن الأرواح جنود مجندة.

وبدون الرضا العاطفي المتبادل بين الرجل والمرأة لا يمكن أن يتحقق المغزى العميق العظيم الذي أشارت إليه الآيات.

إن العلاقة التي تنشأ بين الرجل والمرأة قبل الزواج تكون بطبيعتها علاقة لا تباركها أي رابطة شرعية... وأن الحب قبل الزواج مهدد باصطناع الأخلاق والطباع.

ثم عاد الكاتب في ختام الكتاب وتمنى أن يستكمل البحث في قصص القرآن، وأولها قصة يوسف وهي القصة الكاملة كما يسميها بعض الفقهاء. ثم رجا أن يعينه الله على إصدار الجزء الثاني من هذا الكتاب: "القرآن الكريم والقصة الحديثة" الذي سيفرده للحديث عن قصة يوسف.

الكتاب الحادي والعشرون

الأنبياء في القـــــرآن

تأليف: سعد صادق محمد

ط١، الرياض: دار اللواء، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

الأنبياء في القرآن / سعد صادق محمد:

يقع الكتاب في ست صفحات وثلاثمائة صفحة. وقد قدم له الأستاذ عبد الكريم الخطيب رحمه الله في سبع صفحات حتى ص١٤ من الكتاب، وقد أثنى على الكاتب بأنه يقرأ في كل أبواب المعرفة وأنه التزم في كتابه بالقرآن بحيث لا يخرج عن منطوق الآيات. وأنه أحسن عرض مادة كتابه واختيارها.

وجاءت مقدمة الكاتب للكتاب في سبع صفحات أخرى من ص١٥-ص٢٢. ومما قال فيها: إن القرآن حافل بفصول في التشريعات، وفصول في الأخلاق، وفصول للوعد والوعيد، وفصول تشرح قصص الأمم السابقة.

وقصص القرآن ليس من نوع القصص الذي عرفه الأدب في كل مراحل التاريخ. فالقصة في القرآن لها أسلوب آخر، والقصة هنا ركيزة من ركائز الدعوة، وقصص القرآن بعيد عن الأوهام.

ثم بيّن أن من منهجه تحليل الأحداث التي تضمنتها القصة، والمعجزات، وإبراز معنى العبادة.

وتحت عنوان "مدخل"، بحث الكاتب في تسع صفحات أخرى من ص٢٣-ص٣١ بحث آيات الله المعجزة التي أمد الله بها أنبياءه. وفرق بينها وبين الآيات الكونية، وهي السنن التي يسير عليها نظام الكون، وعرّج على الكرامات، وأن الكرامة أساسها الخفاء والمعجزة الإعلان. وأنه كان لابد من المعجزة ليذعن المدعوون للحق.

وفي السبع والعشرين صفحة التالية يبحث الكاتب "نشأة العقيدة عند الإنسان" نظراً لعلاقتها - كما يقول- بحديث الآيات المعجزة التي جاءت وسيلة لتصحيح العقائد.

ثم ذكر آراء علماء الأجناس حول نشأة العقيدة عند الإنسان البدائي. فمنهم من قال: إنها نشأت منحطة. إذ كانت العقيدة وليدة الخوف من أرواح ميتة. ومنهم من قال: إن العقيدة نشأت (عن) عبادة القوى الطبيعية، كالشمس والقمر، كما بعض الحيوانات. وقد صور الإنسان كل هذه القوى، وأحالنا إلى كتاب قصة الحضارة "لديورانت".

وهذه النظرية في نشأة الأديان هي المعروفة بالتطور. وجميع الأديان حسب النظرية هذه مرت بثلاثة أطوار: الأول التعدد، والثاني: كانت القبائل تميز رباً واحداً من بين سائر الأرباب، وفي الثالث: كل قبيلة تلتف حول اله واحد.

يقول المؤلف في المقدمة الثالثة هذه: ولكن هذه النظرية هدمها أصحاب نظرية التوحيد، وهم الذين قالوا إن العقيدة نشأت عند الإنسان على أساس الفطرة، ثم حدث الخلل بعد ذلك، وأحالنا إلى الدكتور النشار في كتابه نشأة الأديان والنظريات التطورية.

ثم قطع الأمر بالآية الكريمة: ﴿وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى...﴾. وقد ترك آدم أولاده على التوحيد : ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين...﴾. ثم ذكر الأحاديث المشيرة إلى الفطرة، وعقّب: وهكذا تشهد نصوص القرآن والحديث أن عقيدة التوحيد هي التي عرفها الإنسان منذ نشأته.

وفي هذه المقدمة الثالثة أعاد الحديث عن صلة المعجزات بالدعوات، وكيف أن المعجزات تدل على صدق الرسل، فلم يكن من السهولة انتزاع الجاهلية من عقيدتها. فالإيمان بالغيبيات لم يكن سهلاً أن يدخل قلوب الذين نشأوا على التقليد.

وقد تنوعت المعجزات، وذكر مثالاً معجزة موسى وعيسى عليهما السلام، ثم قال: ولما كانت العرب قد ارتقت في فصاحتها، فقد جعل الله آية محمد الكبرى إلى العرب كتاباً معجزاً هو القرآن.

ثم عرّج على طلب أقوام الرسل للآيات، من مثل: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾، ﴿وقالوا لولا نزّل عليه آية من ربه﴾.

ولكن المعاندين من قريش لم يجابوا إلى طلبهم لأن الله الذي أرسل محمد ﷺ رحمة لأمته لم يكن يريد استئصالهم إذا كذبوا: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاّ أن كذب بها الأولون...﴾. والقرآن هو المعجزة وأوضح الآيات والبراهين.

ثم في صفحة واحدة وتحت عنوان "مدخل إلى قصص الأنبياء" قال: إن العبرة والعظة تكمن في المصائر التي آل إليها ولقيها أقوام الأنبياء...

ثم دخل في موضوع قصص الأنبياء بدءاً من نوح ﷺ من ص٦٥-ص٧٨. وفي عنوان فرعي "نوح الصابر وقومه المستكبرون" قال تحت هذا العنوان: إن نوحاً كان أول رسول إلى أهل الأرض[١]. وأنه كان يواجه عداء من قومه. وأن الله أرسله إليهم بقوله تعالى: ﴿أن انذر قومك من قبل أن يأتيهم عذابٌ أليم﴾ فدعاهم إلى عبادة الله، وترك ما هم عليه، ثم ذكر جدال نوح لقومه وإصرارهم على معاندته

---

١ – نقول إن أول الأنبياء الرسل هو آدم عليه السلام، ولكن إن أردنا أول رسول إلى قوم فيصح قول المؤلف أنه نوح عليه السلام.

والكفر به، وأن نوحاً وجه أنظار قومه إلى ما أودع الله في الكون من خلق بديع، ونظام رائع، فأوغلوا في الجحود، وظاهر بعضهم بعضاً على الاستهزاء به، وردوا دعوته بدعوى بشريته: ﴿ما نـراك إلاّ بـشراً مثلنا﴾، ﴿ما هذا إلاّ بشر مثلكم...﴾.

وردوا دعوته بدعوة أن أتباعه من الأراذل (أي الطبقـات الحقـيرة): ﴿ومـا نـراك اتبعـك إلاّ الذين هم أراذلنا﴾ وأصر قومه على اللجاجة: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا...﴾ بل إنهم اتهموا نوحاً بالضلال، فرد عن نفسه التهمة: ﴿ليس بي ضلالة ولكـني رسول...﴾.

وأخيراً طلب منه قومه أن يأتيهم بالعذاب: ﴿فأتنا بما تعدنا...﴾ ثم هددوه: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾، وبعد ألف سنة إلاّ خمسين عاماً "نفد صبره" كما يقول الكاتب، وهو في الحقيقة ما نفد صبره، ولكنه دعا على قومه لان الله أخبره أنه لن يؤمن من قومه إلاّ من قد آمن. وسـجل القـرآن دعاءه: ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين﴾، ﴿رب انصرني بما كـذبون﴾، ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ ويصنع نوح الفلك لأمر الله له، ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنـور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلاّ قليل﴾.

وينهمر الماء وتتفجر الأرض به ويحاول نوح أن يشفع لابنه "كنعان"! وهنا نصطدم من المؤلـف بالإسرائيلية الأولى. فما عندنا بينة ولا برهان أن اسم ابنه كنعان، إلاّ من أخبار بني إسرائيل واهية البنيان.

ويعاتب الله نوحاً لشفاعته لابنه. وحين أدرك نوح أن العاطفة قد غلبت عليه فأنـسته الحـق، استغفر ربه.

وغرق القوم ونجى الله نوحاً والمؤمنين: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم﴾.

وملاحظاتنا على ما أورده الكاتب من قصة نوح أنه تخفف فعلاً من الإسرائيليات باستثناء الهنـه البسيطة بتسميته ابن نوح، ولكن عرضه للقصة جاء عادياً لا جديد فيه، ولا تحليل، ولا إضافة تذكر على الإطلاق...

هود وقومه عاد (ص٨١-ص٩٠):

يقول عن هود إنه رسول لأول أمة من ولد سام بن نوح، وبذلك يكون أول رسول من ذريـة نوح. وهنا تخليط وإسرائيليات. فلا دليل على أنه أول رسول ولا دليل على سام ولا على سائر الأسامي.

ثم يتكلم عن عاد وأنها كانت تقيم بالأحقاف بين اليمن وعُمان. وقد رزقها الله رزقا رغدا، ومنحهم الله بسطة في أجسامهم، وشدة في أبدانهم، ولكنهم بدلاً من أن يشكروا ربهم، راحوا يتخذون أصناماً يعظمونها، وعتوا في الأرض مفسدين. ويشاء الله أن يضع حداً لجبروت الأقوياء المفتونين. فأرسل إليهم هوداً، فدعا قومه إلى الله، وتسلح بالحلم والرزانة، وحاول ردهم عن عبادة الأصنام، فاتهموه بالسفاهة، وردها عن نفسه: ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول...﴾.

وذكرهم بنعم الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وزادهم بسطة في الخلق، ولكنهم أصروا على عنادهم وعجبوا من دعوته لهم إلى عبادة الله وحده: ﴿أجئتنا لنعبد الله وحده، ونذر ما كان يعبد آباؤنا...﴾. فاستمر قومه في عنادهم، وردوا بأنه ما جاءهم بحجة بينة، وطلبوا أن يأتيهم بالعذاب الموعود: ﴿فأتنا بما تعدنا...﴾.

وبينما هود يدعوهم وهم معرضون لمحوا سحابا يعترض السماء فظنوه سحابا سيمطرهم، وبينما هم في فرحهم إذ بالريح تسخر عليهم سبع ليال وثمانية أيام حتى اصبح القوم كلهم صرعى إذ كانت الريح : ﴿تدمر كل شيء...﴾. أما هود وصحبه فقد نجاهم الله: ﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه...﴾.

هذا الموجز لما ذكره الكاتب من قصة هود وقومه، وهو في مجمله خال من الإسرائيليات، وإن كان ذكر شيئاً من الزيادة على النص القرآني، من مثل قوله: "حملت الرياح الديار بمن فيها وألقت بهم في أماكن متفرقة". ومن مثل: "أما هودٌ وصحبه المؤمنون فقد كانت الرياح تمر أمامهم وتسفي الرمال وتقذف بأعدائهم...".

صالح وقومه ثمود (ص٩٣–ص١٠٥):

ورثت ثمود الأرض بعد عاد، فخلفوهم فيها، وعمروها أكثر مما عمروها، فبنوا القصور في السهول، ونحتوا من الجبال بيوتاً، وكانوا يتقلبون في بحبوحة من الرزق، دون أن يحمدوا الله، ويشكروا نعمه، فعبدوا غير الله، فبعث الله إليهم أخاهم صالحاً بدين الحق ليهديهم إلى عبادة الله، فأنكروا نبوته، وهو الذي كان موضع رجائهم: ﴿قد كنت فينا مرجواً قبل هذا...﴾. فانطلقوا في الحياة إفساداً وعبثاً، ولم يأبهوا بالعبرة من عاد وهي ماثلة أمامهم، وتكررت نداءات صالح لهم فلم يلتفتوا، ونبههم فلم ينتبهوا، فأرسل الله آية يؤيد بها صالحاً، ناقة لها شراب يوم ولهم شرابٌ يوم، واعترض قومه على بشريته، ثم اعترضوا سبيل من آمن به من المستضعفين، ثم ما لبثوا أن عقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، واستعجلوا عذابه، ثم تآمروا على قتل صالح: ﴿لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله...﴾، لكن الله حمى

رسوله، وأنزل عليهم صاعقة مدمرة، وصيحة من السماء، ورجفة من الأرض، فاصبحوا صرعى: ﴿واخذ الذين ظلموا الصيحة...﴾، ﴿فأخذهم الرجفة...﴾، ﴿فأخذهم صاعقة العذاب الهون...﴾. ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا...﴾.

ورأى صالح ما حل بقومه ، فتولى عنهم والأسى يملأ نفسه: ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم...﴾.

وقد وجدت أن عرضه لقصة صالح خلا من الإسرائيليات والملاحظات فلا هنات تذكر، وإنما إيجاز مقبول للقصة، لا تحليل معمقا فيه، ولكن يكفي أنه خلا مما يشين.

إبراهيم (ص١٠٩–ص١٣١):

ابتدأ القصة بعنوان إبراهيم وأهل بابل، وقد خلط إذ قال: هاجر إبراهيم من العراق حيث كان يقيم، ودخل فلسطين، وحط رحاله في بابل بأرض الكنعانيين، وكان أهل بابل لهم السلطان على ارض كنعان ولهم حضارة واسعة... الخ.

والخلط أنه جعل بابل في فلسطين، والغريب أنه وضع في الهامش أنه ينقل هذا الكلام عن الدكتور احمد شلبي في كتابه مقارنة الأديان، ج١، اليهودية، ص٢٩.

وبابل معلوم أنها في العراق، وإن كنا لا نعتمد رواية التوراة لا في قليل ولا كثير حتى في الذي غدا من المسلّمات تقريبا كهذه المعلومة المهم أن إبراهيم هاجر من بابل إلى فلسطين.

يقول الكاتب: وكان أهل بابل لهم السلطان على ارض كنعان ولهم حضارة واسعة. وأقول: هذه المعلومة التاريخية لا داعي لها، وهل كان لهم سلطان أم لم يكن ؟!

ويقول: إن حياتهم (من ؟) كان يشوبها الفساد والجهل والوثنية. في وسط هذه البيئة الفاسدة من أهل بابل عاش إبراهيم عليه السلام. والكاتب يتصور أن بابل بفلسطين كما قال قبل قليل.

ظل إبراهيم على فطرته، لم تدنس عقيدته شوانب الشرك. وآتاه الله الرشد. فقام يخلص قومه من الشرك والضلال، وكان آزر والد إبراهيم مشركا كقومه فيسأله إبراهيم: ما هذه التماثيل التي تعبدها؟ ويسأل القوم السؤال نفسه. فيكون الجواب: إنما نقلد الآباء. فيبين إبراهيم بالحجة أنها أعجز من أن تحقق رجاء، ويتلطف إبراهيم في دعوة أبيه، لكن أباه كبر عليه أن يتابع ابنه، ويغلظ له القول، فيرد ابراهيم بما يعبر عن بر البنوة...

وترك إبراهيم قومه ينصرفون إلى عيد لهم، فهدّم آلهتهم وحطّم أصنامهم. وشاهد القوم ما حل بمعبوداتهم، فتوقعوا أنه إبراهيم. وعزموا أن يترلوا به عقاباً. ويضيف الكاتب على القصة إضافات ليست من النص كأن يقول: كانت عند القوم رغبة متأججة في قصاص إبراهيم، ولم يكن إبراهيم أقل رغبة في عقد هذا المشهد... (ولسنا نملك دليلاً أن إبراهيم كان يعلم النتائج حتى تكون عنده رغبة في هذه المحاكمة).

ثم يقول: وحدث ما توقعه إبراهيم من نتيجة. (وهنا أيضا لا دليل).

ثم يقول: وبعد أن دحر باطلهم في ميدان الحجة، لجأوا إلى القوة. وأخذ القوم يجمعون الحطب. ثم دخل في تفاصيل لا داعي لها ولا دليل عليها، كأن يقول: حتى إن المرأة كانت إذا ألمّ بها مرض نذرت: إن عوفيت أن تحمل حطباً للحريق.

ثم دخل في وصف النار وألسنتها ولهبها والسحاب المنعقد فوقها من الدخان... وأقبل إبراهيم بصدر رحب وقلب مطمئن... فأحرقت النار وثاقه... (وهذه من الفلكلور لا دليل عليها من نص مأثور). المهم أن الله شاء أن يجعلها عليه برداً وسلاماً، فآمن قليل (ولا دليل).

وكان من المعاندين ملك بابل "نمروذ بن كنعان". (ولا أدري لماذا كل كافر يضاف له اسم كنعان؟!). وجادله إبراهيم، فطلب منه الملك أن يدلل على وجود ربه، فقال إبراهيم إنه الذي يحيي ويميت، فادعى الملك أنه يتساوى مع الله، فساق حجة أخرى دافعة لا سبيل معها إلى العناد والمراوغة، فقال إن الله يطلع الشمس من المشرق فإن كنت إلها فغير النظام. فلم يقو على الاستمرار.

ويكتفي من قصة إبراهيم بهذا القدر، ويترك هجرته إلى فلسطين وما بعدها من بناء البيت، ورزقه بالولد، وطلب ذبح الولد... وهذه مهمة كالتي ذكرها من فصول حياة إبراهيم بل أهم...

لوط... وقومه (ص١٣٥-ص١٤٩):

يقول الكاتب في بداية عرضه للقصة: خرج لوط مع عمه إبراهيم عليهما السلام من ارض الكلدانيين في العراق إلى أرض الكنعانيين، ثم ضاقت تلك البقعة بأغنامهما. فترح لوط حيث استقر في مدينة سدوم من مدن الأردن.

وهذه المعلومات التي أوردها الكاتب لا سند لها ولا دليل. فكيف ضاقت فلسطين بأغنام إبراهيم ولوط، وهل فلسطين قرية صغيرة؟! وهل كانت مزدحمة بالسكان؟! واسم سدوم من التوراة بلا ريب.

المهم أن قوم لوط كانوا يأتون المنكر والفواحش التي لم يُسبقوا إليها، فأرسل الله لهم لوطاً فدعاهم إلى الله وأن يدعوا ما هم عليه من فواحش...

فهددوا بطرده، فاستنصر لوط بربه، طالباً أن يترل بهم ما يستحقونه من عقاب، فبعث الله ملائكته إلى أهل تلك القرية، فترلوا أولا بدار إبراهيم، وبشروه بالغلام وعذاب المجرمين، وفي سياق الكلام قال الكاتب: ظن إبراهيم أنه لا مناص في أن لوطاً سيصيبه ما يصيب القوم.

وأقول: إن قول إبراهيم: أن فيها لوطاً لا يفيد ما فهم الكاتب.

ثم ترك الملائكة إبراهيم وساروا إلى سدوم (!) فدخلوا عليه في صورة شبان علت محياهم نضرة الحسن (!!). (هذه كلها زيادات على النص لا قيمة لها ولا دليل عليها).

ثم قال: إن قومه كانوا نبهوه ألاّ يؤوي ضعيفاً. وهذا لا دليل عليه إلاّ الروايات الواهنة التي تملأ كتب القصة وغالبها إمّا إسرائيليات أو موضوعات. وفي الهامش رجع إلى ابن كثير، وأن ابنة لوط هي التي قابلت الملائكة فأخبرت أباها بهم... الخ.

وجاء قومه... وبينما هو في محاولة صدهم، أخبره الملائكة بحقيقة مهمته، وأنهم سينقذون أهله إلاّ امرأته لأنها خائنة تشايعهم في فاحشتهم (وهذه زيادة بلا قيمة ولا دليل).

وزلزلت الأرض بالقوم حتى صار عاليها سافلها، كما أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود: ﴿جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾. ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾. هكذا هلك القوم، ونجى الله لوطاً والذين آمنوا...

شعيب وقومه (ص١٥٣–ص١٦٦):

يبتدئ القصة بقوم شعيب وكيف أنهم نشأوا على الترف والفساد في العقيدة والأخلاق والمعاملات. وبعث الله شعيباً في مدين فأمرهم بعبادة الله والعدل في الميزان، فقابل قومه دعوته بالمعارضة، وردوا عليه في استعلاء وتهكم: إن دعوتك دليل على سفاهتك، فيرد عليهم بلين ورفق. أنه لا يريد إلاّ الإصلاح، فهدده القوم، فلم يلن، وتوعدهم بأن ينتظروا العواقب، ثم هدد قومه من آمن إمّا بالردة أو القتل.

تمادى قوم شعيب في معاملاتهم، وتحدوه بأن يأتي بالعذاب فابتلاهم الله بحر شديد استمر سبعة أيام، ففروا من منازلهم، فرأوا سحابة مقبلة فراحوا يستظلون بها فرمتهم بشرر ولهب. (وهذه تفصيلات لا

دليل عليها، إنما الذي قاله الله: ﴿عذاب يوم الظلة﴾، ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾، ﴿فأخذتهم الرجفة﴾.

لقد اهلك الله الملأ الذين استكبروا من قوم شعيب جزاء كفرهم، ونجى الله شعيباً والذين آمنوا معه.

موسى وقومه بنو إسرائيل (ص١٦٩-ص٢٢٧):

فهي الأطول في الكتاب. وقد بدأ على العادة بوصف أوضاع القوم، فقال إن الله ملك فرعون مصر، فسولت له نفسه أن يتألّه... وكان له أعوان، وقد استضعف بني إسرائيل، وبينما هو سادر جاءه من يحمل نبأ مجيء مولود من بني إسرائيل يذهب ملكه على يديه (!!)

فأمر بذبح أبناء بني إسرائيل. ويشاء الله أن يولد موسى وان ينشأ في بيت فرعون. فلما علم موسى أنه من بني إسرائيل واشتدّ ساعده وقرر أن ينصر قومه، فكان أن رأى متخاصمين فقتل المصري، ثم خرج إلى مدين، فقضى فيها ثماني حجج (!) وبعد أن أتم الخدمة قرر العودة إلى مصر، وفي طريق العودة نُبئ عند الطور، وتلقى الأمر بالتوجه إلى فرعون، وزوده الله بآيتين وشد أزره بأخيه هارون، فدعا برفق، فأنكر فرعون دعوتهما، وهدد موسى، ثم كانت المباراة التي جمع لها فرعون سحرته، فألقى موسى عصاه فابتلعت سحرهم فآمن السحرة وكفر فرعون، وتهددهم، ثم هدد فرعون بتقتيل المزيد من أبناء بني إسرائيل، وضج بنو إسرائيل، فحاول موسى أن يهدئ مخاوفهم، ثم حاول فرعون قتل موسى، وهنا ظهر مؤمن آل فرعون، وتمادى فرعون في غيه، فكان أن أرسل الله الآيات، من الجوع والقحط والفيضانات والقمل والضفادع والدم... فلم يذعن فرعون وقومه، فدعى موسى على فرعون وقومه فاستجاب الله لنبيه: ﴿قد أجيبت دعوتكما...﴾.

ثم أمر الله موسى بأن يخرج بقومه، وسار فرعون بجنوده وراء موسى، وينجي الله موسى ومن معه إذ ينفلق البحر بضربة من عصا موسى بأمر الله، ثم يطبقه على فرعون وجنوده، وجعل الله فرعون عبرة لمن خلفه.

وعبر موسى ببني إسرائيل بعد لجاقهم، فتوجه بهم إلى صحراء سيناء، وظلل الله عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، ثم كانت منهم قصة عبادة العجل الذي صنعه السامري.

عيسى وقومه المصريون

ولد عيسى بالناصرة بفلسطين (وهذا بخلاف المشهور وإن كنا لا ندخل في تفصيلات. ولم نناقش بعد عنوان الكاتب: وقومه المصريون...).

وقد شاء الله أن يولد بلا أب ليكون آية لليهود الماديين وهكذا ولد عيسى بكلمة من الله ألقاها إلى مريم وروح منه، فكان هذا أصل اعتقاد اليهود في ألوهية عيسى، وتقريرهم أن الإله مركب من ثلاثة أصول. (قول الكاتب اعتقاد اليهود غير دقيق، فمعلوم أن هذه عقيدة المسيحيين وهم من غير اليهود).

الأصول الثلاثة أو الثلاثة أقانيم هي: الأب، الابن، والروح القدس. فالله الأب، والله الابن. والله الروح القدس (تعالى الله عما يقولون). وأحال الكاتب إلى كتاب عبد الكريم الخطيب مقـدم كتابـه، في كتابه: "المسيح في القران والتوراة والإنجيل".

يقول هؤلاء: أن الروح حل في مريم، فجاء عيسى من غير الطريق الطبيعي للتناسل البشري، فهو إذاً ابن الله، فيكون متحداً به وفيه، ويصبح كل من الله وعيسى عين الآخر. (وكيف يكون الابـن عـين الأب؟!) زعموا لأن الابن جزء من الأب. ثم ذكر الكاتب رد القرآن لهذا الزور، ثم يتكلم الكاتب عـن نشأة عيسى ونطقه في المهد، ثم دعوته لقومه، وكان الأحبار يدعون أنهم وسطاء بين الله والناس، فحارب عيسى هذه المزاعم، وحارب شغف اليهود بالمال، وطائفة منهم كفرت بالآخرة فكان لا بد من ردهم عن طغيانهم.

ثم عدد الكاتب آيات عيسى وهي نطقه في المهد، وخلق طير من الطين، وإبراء الأكمه والأبـرص، وإحياء الموتى، والإنباء بما هو مجهول من طعامهم، وإنزال المائدة (فهذه سبع).

وبسبب من معاندة بني إسرائيل غضب الله عليهم ولعنهم. لكن نفراً من بني إسرائيل اسـتجاب لدعوة عيسى أولئك هم الحواريون، الذين أثار إيمانهم حفيظة الكهنة، وتآمر اليهود ضد عيـسى عليـه السلام، ومع الأيام كثر أتباعه، وانتشرت دعوته، ورأى اليهود فيه خطراً داهماً، فراحوا يذيعون ضـده أقاويل البهتان، ثم حرضوا الحاكم الروماني عليه، فبحث جند الرومان عن عيسى ليقتلوه، فألقى الله شبهه على يهوذا الإسخريوطي (!) الذي وشى به، فنفذ الصلب في هذا لا في عيسى. ولما كانت رسالة عيـسى خاصة ببني إسرائيل فقد اعتبرت منتهية، برفع الله له.

ثم بحث الكاتب في معنى "التوفّي"، وأن الظاهر معناه الموت ثم رفعه إلى الله، وقيل التوفي إبـلاغ المهمة ثم رفعه جسداً وروحاً ولم يرجح الكاتب أحد الرأيين. ونقل قول شلتوت أن المطلوب منا الإيمان بأن أعداءه لم يقتلوه.

ثم تكلم عن عقيدة النصارى في الصلب، وأن صلب المسيح أساس عقيدهم. وينقل عن الخطيب في كتابه المسيح... قوله إن الله نشأت عنده بعد معصية آدم مشكلة (تعالى الله!) فهو إذا عاقب آدم كان منافيا لرحمته، وإذا تركه كان منافياً لعدله. ثم اهتدى الله (!) إلى هذه الوسيلة، أن يحل ابنه في رحم امرأة، ثم يقتله أعداؤه، ويصلبوه فداءً لخطايا البشر.

والأصل الذي وضعه الإسلام لمحاسبة الإنسان على أعماله هو: أن المسيء يتحمل نتيجة إساءته، والمحسن ينال ثواب إحسانه: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾.

فإذا عرف هذا فكيف يتحمل عيسى ذنب آدم ليمحو عنه خطيئته، بتعريض نفسه لعقوبة الصلب؟!.

والملاحظة الأولى التي نذكرها أن المصريين الذين ذكرهم الكاتب في العنوان لم يرد لهم ذكر في ثنايا البحث، ولست أدري أكان خطأ في العنوان أم هو خطأ مضمون، أملاه على الكاتب مصريته.

والملاحظة الثانية أنه اعتمد حكاية يهوذا الإسخريوطي، وليس عندنا فيها دليل ولا برهان.

والملاحظة الثالثة أن عرض الكاتب كان عادياً خلا من أي جديد طريف. اللهم إلاّ لغة متوسطة المستوى.

والملاحظة الرابعة حكاية ولادة المسيح في الناصرة.

والعنوان الأخير في الكتاب محمد ﷺ وقومه (ص٢٦١-ص٢٩٧):

ونحن نختلف مع الكاتب من حيث المبدأ والمنهج فقصة النبي محمد أو سيرته ليست تعد من القصص القرآني، فالقصص في القرآن هو أخبار الأمم السابقة: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك﴾، ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك...﴾، ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل...﴾.

على كل حال، هذا الجزء الأخير من الكتاب نعده خارجاً عن الكتاب ومضمونه، وهذه نظرة عجلى على العناوين التي تضمنها الفصل الأخير: حالة العرب قبل الإسلام، حياة محمد قبل البعثة، ثم: مقدمة (!) (هكذا) معجزات الرسل... ومعجزات محمد ﷺ: انشقاق القمر، حنين الجذع، تسبيح الحصى في كفه، الإسراء والمعراج. أما الآية الكبرى فالقرآن.

ثم تكلم عن بدء الوحي في غار حراء، وأمّية النبي وفصاحته ﷺ . النبي يدعو قومه، موقف العرب من الدعوة، صور إيذائهم للنبي ﷺ ، موقف قريش من القرآن، الإسراء والمعراج.

الكتاب الثاني والعشرون

حياة أصحاب الكهف

تأليف: محمـــود شـــلبي

ط١، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

حياة أصحاب الكهف / محمود شلبي:

يقع الكتاب في تسع وثلاثمئة صفحة، وهذا بحد ذاته منبئ عما يمكن أن يحتويه الكتاب، خاصة إذا علمنا أن صاحبه أو مؤلفه أو ملفقه لا يملك ملكة التحليل، فهو إذاً النقل والمط والتطويل. والجري وراء التفاصيل، المنقولة عن بني إسرائيل، علماً بأن الكاتب قد اخبرنا في بداية مؤلفه "الجليل" أو العليل، أنه لا مصدر للمعلومات عن أهل الكهف إلاّ ما ورد في التنزيل.

فكيف إذا طال الكتاب... أو بلغ به صاحبه هذا المبلغ من المط والتطويل ..؟ وكيف إذا علمت أن في الكتاب خمساً وسبعين صفحة بيضاء تماماً...!؟ سوى أنصاف وأثلاث الصفحات!!

يقول الكاتب في مقدمته ذات الكلام القليل، إنه لا مصدر لقصتهم إلاّ ما جاء عنهم في الكتاب، ولذا كان المنهج ها هنا (يقصد قصة فتية الكهف) ماذا قال الله عنهم وما عدا ذلك (أي ما قيل) نسوقه من باب الاستئناس، وواضح أنه يعلل لنفسه من الآن النقل عن الأضاليل، والقال والقيل، ولكن لا يقبل مثل هذا التعليل.

بدأ الكتاب صفحة ١١ بذكر الآيات الكريمة من سورة الكهف، وابتدأ العطاء العظيم من الكاتب من ص١٧ ليفهم القارئ الكريم كيف تمط الكتب اقصد كيف تؤلف أو تسمّن الكتب. والصفحة المذكورة سأعد لك كلماتها لتعرف وجهاً آخر للتجارة غير الحلال، والغش والضلال... إن في الصفحة ستين كلمة... أي ما يعادل أربعة أسطر يعني أن الكاتب "فَرَدَ" أربعة أسطر على صفحة كاملة، واللبيب من العدّ يفهم.

هذا ولم ندخل في المضمون بعد. فماذا جاء في صفحة الكاتب الأولى بقلمه السيّال أو الصيّال أو الشيّال؟

حسبت: ظننت. خطاب لسيد المرسلين. الكهف: النقب المتسع في الجبل، والرقيم: لوح من الحجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأمرهم ثم وضع على باب الكهف... وانتهت الصفحة وانتهى الإبداع. بأن عرفنا معنى الكهف ومعنى الرقيم وأن المخاطب هو النبي الكريم عليه الصلوات والتسليم.

وفي الصفحة التالية ماذا صنع؟ فسّر معنى عجبا في مثل عدد كلمات الصفحة السابقة، وخلاصته: إنكار أنهم عجب، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم. وقيل: المراد إثبات أنهم عجب. كأنه قيل: اعلم أنهم عجب.

هذه هي الصفحة الثامنة عشرة. لننتقل إلى عنوان في الصفحة ١٩: "إشعاعات" وأعاد ما قيل في الصفحة السابقة فهم عجب لمن نظر إلى آية الكهف منفردة.

ولو طرحت التكرار تكرار المشاهدة لكانت كل ذرة في العالم بلغت في التعجب، والاستبعاد وكمال البداعة (هكذا) مثل هذا، بل أغرب وأعجب!!! وعلامات تعجب. وهذه صفحة أخرى.

وفي الصفحة التالية يستمر المسلسل من الكاتب: من نظر إلى قصتهم ضمن آيات الله لم تكن عجباً... (عجباً والله من هكذا تأليف!).

وفي الصفحة التي تليها توضيح هدف الخارقة: ليفهم الأغبياء (بالباء) الذين يستبعدون البعث أن هذا شيء ممكن. تكذبون أيها الأغبياء (أغبياء جدد)؟ إذاً خذوا هذه التجربة. فلينم هؤلاء الشبان ثلاثمئة سنة. وإن شئنا أنمناهم ثلاثمئة مليون سنة. ثم بعثناهم لماذا؟ ليتساءلوا بينهم.

أول التساؤل كان بين الذين هم موضع التجربة. وانتهت صفحة أخرى. لتطالعنا صفحة كسابقاتها... عدة كلمات مرشوشة على وجه الصفحة... رشّاً (لا غشّاً) ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾. وكل الناس سوف يجيبون نفس الجواب وذكر آيات من سورة المؤمنون في الآخرة: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم...﴾.

وفي الصفحة التالية كرّر ما قاله في السابقة أن هذا جواب البشر كلّهم، وأن مدة اللبث في الكهف كمدة اللبث في القبر. وفي الصفحة التالية كرّر التجربة، وقال ما منا إلاّ وتجري فيه هذه التجربة كل يوم... ينام سبع ساعات... ثم يبعث... فيحسب أنه نام لحظة. إن إحساسه بالساعات تلاشى.

وكرر هذا في الصفحة التالية: هذا ما حدث لأهل الكهف. وإن الشعور بالزمن تعطّل وهذا ما أخبرنا عنه الحديث: لتموتنّ كما تنامون... ولتبعثنّ كما تستيقظون. وفي الصفحة التالية كرّر المعنى نفسه وقال: إن التكرار... أنسى الإنسان التجربة فلم تعد تثير اهتمامه... وذكر الآية التي تشبّه النوم بالموت: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها...﴾.

وكرّر في الصفحة التالية الفكرة نفسها وقال: ينام أكثر الناس حميراً... ويستيقظون حميراً... ثم يكون أول ما يرفعون به أصواتهم... أن ينهقوا بإنكار البعث... وإن أنكر الأصوات لصوت الحمير. ولو انتبهوا لعلموا أنهم يموتون كما ينامون...

إننا ما نزال نعجن في الكلمات نفسها، عدا ما أتحفنا به من أخبار الحمير التي كررها ثلاث مرات في سطر ونصف سوى المرة الرابعة التي فيها النهيق.

وفي الصفحتين التاليتين تكرار من جديد: ما العجب؟ كل منكم يباشر هذه التجربة بنفسه ينام ثم يبعث. فما تجربة فتية الكهف بأعجب من تجربتكم. وقال في الصفحة التالية كلمتين: إن تجربتكم اليومية أعجب من تجربة أهل الكهف.

ونحن الآن لعلمكم في الصفحة الثالثة والثلاثين، وقد نقلت لك نقلاً حيّاً ومباشراً ما جاء على لسان الكاتب أو قلمه...

الآن يتكلم الكاتب في معنى الآية الكريمة: إذ أوى الفتية إلى الكهف. فيشرح أوى بأنها التجأ الفتية إلى الكهف واتخذوه مأوى. والفتية جمع فتى.

ثم زاد على ما في النص من عنديات نفسه أو عنديات من ينقل عنهم، فقال: روي أنهم كانوا شباناً من أبناء أشراف الروم وعظمائهم... مطوقين مسورين بالذهب، ذوي ذوائب. وهذه المعلومة غير الموثقة غير موفقة، فما زادتنا فهماً في القصة، ولا عبرةً منها.

ثم فسّر في الصفحة التالية كلمة "رحمة" وأنها رحمة عظيمة لأن التنكير للتعظيم، وأن لدنك تعني التفضل، وأن رشداً تعني إصابة الطريق الموصل إلى المطلوب.

وفي الصفحة التالية بعنوان: "إشعاعات" وهذه غير تلك التي سبقت، يقول: فتية؟ ما معناها؟ وماذا فيها من أسرار وأنوار؟ معناها: الأبطال بلغة عصرنا. ومعناها: الشبّان. (عظيم فسر الماء بالماء) وأعاد أنهم كانوا من رجال القصر... الذي كان يحكمه "تراجان" (أعوذ بالله من الشيطان والجان، ولا أدري من أين أتى لنا بهذا التراجان، وهو ليس مما نص عليه القران؟) وأنهم أي الفتية كانوا في سكرة الشباب وقوته الجنونية (بالنون)، وقفوا وقالوا لتراجان: لا أيها الكلب الحقير!! (ولا أدري لم هذا اللغة المسفّة؟) ثم أفادنا أن الكهف استفاد شرفاً من شرف الحدث الذي حدث فيه، وشبّه ذلك بمقام إبراهيم، وبمسعى أم إسماعيل.

وفي عنوان فرعي: فضربنا على آذانهم، قال: أي حجاباً يمنع السماع. والمراد: أنمناهم. ثم شعشع علينا من إشعاعاته أو إشاعاته، فقال: ها هنا إشارات جميلات... بارعات الحسن فاتنات... (الكلام عن الإشارات) إن الشباب يستغيثون، فجاءت الاستجابة بقوله فضربنا، والفاء التي تشير إلى الفورية. وانتهت الإشعاعات وتوقفت.

ثم بعثناهم. فسرها بأيقظناهم من نومهم، ثم فسّر من هم "الحزبان" وقيل وقال... هم اليهود والنصارى، أو فتية الكهف، أو الفتية والحكام... وقيل... استمع وتأهب: الحزبان: الله والخلق!! بل... تعجب مما نقل أخونا وكتب.

ثم إشعاعات بموجات قصيرة قال فيها: لنعلم: لنظهر. والحزبين: الفريقين. وأعاد لنا مرة... ربما الخمسين أن نوم أهل الكهف هو ما سيحدث للناس يوم القيامة...

وعند قوله تعالى: نحن نقص عليك نبأهم قال: شروع في تفصيل ما أجمل. ولا تنس أن كل صفحة فيها ما لا يملأ ثلاثة أسطر، وهذه الطريقة يمتلئ الكتاب...

المهم أنه يقول: بالحق: أي قصصاً ملتبساً بالحق. ثم يردف بالإشعاعات، وفيها يقول: الإيمان درجات، وشتان بين مؤمن ضعيف، ومؤمن قوي، المجاهد يغير مسار الحياة. والذي يقف عند العبادات فلا قيمة له.

وزدناهم هدى: وزدناهم نوراً... وأيدناهم بروح منّا... لا شيء يثنيهم عن الحقيقة العظمى يصفعوا بها وجه الإمبراطور (طلع منين؟) ووجه الدنيا الفاجرة (!)، ولسان حالهم يقول: بولوا على الإمبراطور (لو تجنب الكاتب هذه الإسفافات والترهات والتعبيرات التي لا داعي لها). ثم قال والشباب قوة وجمال. (ولا أدري ما محل الجمال؟) وكلما كانت الفتنة أشد كان الاستعلاء عليها أشق!

إنهم فتية... إنهم عندي أبطال (ربما هذه الإعادة رقم...) وفي فُصيل تال شرح معنى ربطنا وأنه قوينا... والمراد بالقيام العزم. والشطط: البعد عن الحق.

وفي الإشعاعات التي تعقب التفسيرات قال: هاهنا مفتاح خطيرٌ جدّاً (المفتاح في جيب المؤلف...) في نواميس القلوب (المفتاح برضه) والقلب ملك الجسد. والقلوب محل التجليات (لغاية الآن والأمور ماشية. الله يستر) والأسماء إمّا أسماء جلال أو جمال. ومعنى: وربطنا على قلوبهم: زدنا نسبة تجلي أسماء الجمال (!!) (بدأنا في الكلام الذي لا وجه له...) كشفنا لهم شيئاً من تجليات جمالنا، فلما ذاقوا ذابوا!

وهل تصدق إذا قلت لك إن كلمة "جمال" ومشتقاتها تكررت سبع عشرة مرة في معدل صفحة، أما معدل مرتين في السطر فتكرر سبع مرات.

ثم ربط بين ربطنا على قلوبهم وبين ﴿ربطنا على قلبها﴾ في قصة أم موسى ليقول: إنه ناموس! ثم ربط ذلك ببدر: ﴿وليربط على قلوبكم...﴾ الله أكبر... إنه ناموس... هكذا يقول أخونا الشيخ... شلبي. يستقيم (الناموس. ليس الشيخ) عكساً وطرداً: وليربط على قلوبكم... سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب. شيء عجيب هذا الكتاب (يقول المؤلف العجيب) لا تنفد عجائبه. ثم يسأل: هل قلنا شيئاً؟ ويجيب: كلا إنها ظنون. وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً. (بارك الله فيك. ريحتنا من الرد عليك).

وفي الصفحة الحادية والثمانين يعنون: قصة أهل الكهف. ويشير إلى كتاب محمد تيسير ظبيان: أهل الكهف... وظهور المعجزة القرآنية الكبرى. ثم يلخص الكاتب ما في ذاك الكتاب، وألخص تلخيص ما لَخّص لنخلص إلى: سبب نزول السورة (وهو معروف، ولكن المؤلف يمط فيه ثلاث صفحات...).

ثم ينتقل إلى القصة في المصادر المسيحية، وأن الفتية كانوا من أتباع الديانة المسيحية. وأول من كتب قصة أصحاب الكهف بالسريانية "جيمس الساروغي" ونقلت إلى اللاتينية في القرن السادس. ثم إلى اللغات الأخرى. وإليها استند المسلمون المفسرون والمؤرخون.

ثم أكّد المؤلف (أو من ينقل عنهم) أنّ التفاسير تنقل من مصدر مسيحي إذ لم نطّلع على حديث واحد... أو قول صحابي تناول التفاصيل. فالقرآن هو المصدر الوحيد... بيد أن (وهنا المبيدات) جمهرة المفسرين والمؤرخين المسلمين تبسطوا (ولو لم يتبسطوا لكانوا انضبطوا...).

ثم عنون بـ "خلاصة القصة": أصحاب الكهف عاشوا في عهد أحد طغاة الحكام الرومان، الذي كان يجبر الرعايا على عبادة الأوثان... ولكن الفتية رفضوا ذلك، فاستعمل معهم وسائل التهديد والبطش، فالتجأوا إلى كهف قريب، وكان يصحبهم كلبهم لحراستهم، وفي الكهف عكفوا على العبادة. ثم مات الطاغية، ومضت قرون بعده حتى تولى حاكم صالح، فأيقظ الله هؤلاء في زمانه... ولما استيقظوا بعثوا أحدهم إلى المدينة ليأتيهم بالطعام، ولكن الناس اشتبهوا به ووشوا به وبعد أن استمع إلى قصته، توجه الملك إلى الكهف ليروا المعجزة فقبض الله أرواح الفتية.

وأغلب التفصيلات لا سند لها ولا فائدة من ورائها.

وفي خضمّ الأقوال المتباينة والروايات المتضاربة، برزت الحقائق الثابتة (يبشرنا المؤلف!) على أثر اكتشاف هذا الموقع في أعقاب الحفريات وأعمال التنقيب التي قامت بها الآثار الأردنية وهي حقائق تضع النقاط على الحروف، فالفتية لم يكونوا في عهد "دوقيانوس"... (هذا مهم جداً!) وإنما في عهد "تراجان" وأنهم أفاقوا من نومهم في عهد الإمبراطور الصالح "ثيودوسيوس"، وأن "تراجان" هو الذي بنى المدرج الروماني. والنقود والقرائن الأخرى تطابق فترة نومهم.

وينقل عن كتاب "ظبيان" أن بعض الأقوال في الكهف تشير إلى منطقة الأناضول والمصادر المسيحية ترى أن الكهف في أفسوس (تركيا)، ولكن هناك عدداً من الصحابة (!) والأمراء والقادة (وما دخل الأمراء والقادة؟!) يؤكدون وجود الكهف في عمّان. ثم يشرح متى بدأ التنقيب، وأين موقع الكهف بالتحديد وأنه على بعد ثمانية كيلو مترات جنوب شرق عمّان، حيث عثر على سبع جماجم أثرية وأخرى لفك حيواني. وفي أعلى الكهف فجوة، وعلى قمة الكهف آثار كنيسة بيزنطية تحوّلت إلى مسجد.

وقد اختلفت الآراء في عدد أصحاب الكهف، فاليونان واللاتين تقول سبعة، والسريان ثمانية، واليعاقبة ثلاثة. بينما يقول القرآن: ﴿قل ربي اعلم بعدقم...﴾. (وأقول تعقيبا على كلام مؤلفنا العظيم: هذا تخليط ومغالطة لنص القرآن، فالقرآن ذكر أقوال القائلين فيهم وأنها ﴿ثلاثة رابعهم كلبهم﴾، ﴿خمسة سادسهم كلبهم﴾، ثم ميّز قول المؤمنين الملتزمين بأدب الإيمان مما علّمهم وأدبهم ربهم فقالوا: ﴿سبعة وثامنهم كلبهم﴾. وقد وصف القرآن القولين الأولين بأنها ليست إلاّ ﴿رجماً بالغيب﴾ وأعطانا الإيحاء بأن القول الأخير هو الحق، ثم عقب: ﴿ربي أعلم بعدقم﴾ بعد أن أعلمنا بالقول الفصل فيهم، فالكاتب ذكر الأقوال فيها متغايرة. ولم يذكر قول المؤمنين وأخطأ في فهم الآية القرآنية).

ثم ذكر لنا المؤلف أن البحث الآثاري والتاريخي استغرق عشر سنوات. ثم ذكر من علامات أنه الكهف المقصود:

١- أن الشمس لا تتمكن من دخول الكهف. ثم فسّر لنا الكاتب العظيم ذلك تفسيراً لا يخطر على بال الجن والإنس، فقال: الحكمة في عدم دخول الشمس أن تكون الفجوة كثلاجة لحفظ أجسامهم، بينما تتغذى أجسادهم من التفاعل الأحشائي، كما نرى في كثير من الحيوانات ذوات الدم البارد. (وأقول: انقطعت التشبيهات والأوصاف وضاقت به الأرض... حتى اهتدى إلى هذا التفسير العجب).

٢- إنك ترى على وصيد الكهف صورة كلب منحوتة على الباب وهذه إشارة، وقد سجلها القرآن: وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد.

٣- إنك ترى قبورهم فتحتار أهي ستة أم سبعة أم ثمانية، لأنه لا يُعلم عددهم: ﴿ربي أعلم بعدقم﴾. (وهذا مثل سابقه في الإدهاش والإغراب).

٤- بجوار الكهف قرية مازالت تعرف باسم الرقيم أو الرجيب، باللفظ الدارج عند البدو.

٥- هناك المصلى (المسجد) الذي تركه الصالحون من أتباع عيسى مازالت آثاره قائمة وهناك سبعة أعمدة لعلها إشارة إلى عددهم؟ (هو نسي أنه قال قبل قليل إنهم لا يعلمون حتى أننا لا نحسن عد القبور...).

٦- من أهم الأدلة اختلاف الخلافة الإسلامية لهم فقد بنت عليهم مسجداً.

٧- المسلمون على مر التاريخ وهم يعتقدون هذا...

ثم قال: هذا ما اختصرناه من كتاب أهل الكهف.

ثم نعود (يقول السيد) إلى الآيات. (وكأننا كنا في غيرها). هو الآن في تفسير الآيات: ﴿هـؤلاء قومنا...﴾ ليقول: هؤلاء: اسم إشارة... وفيه تحقير لهم. لولا يأتون: تحضيض على وجه الإنكار. بسلطان بين: بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم.

ويقول السيد بعد ذلك: إن هذه المقالة يحتمل أن يكونوا قالوها بين يدي الجبار... تأكيداً للتبري من عبادة ما يدعوهم إليه، ولست أرى ما يرى. فالشباب الآن أمام الكهف أو فيه وهم يقولون هذا.

ثم أفادنا عن ابن عباس كما في مجمع البيان أنه القائل هو "يمليخاً"، ولا أدري ما الحكمة العظيمة في نقل مثل هذه الأسماء، وأن مجرد نسبتها لابن عباس لا يعني شيئاً...

ثم ختم بحديث للطبراني عن ابن عباس قال: "ما بعث الله نبيا إلاّ وهو شاب... ولا أوتي العلم عالم إلاّ وهو شاب. وقرأ: ﴿سمعنا فتى...﴾، ﴿إنهم فتية...﴾. (قلت: وهذا واقعاً ومتنا فيه نظر، فبعض العلماء ينبغ في سن متأخرة. والأنبياء يبعثون في الغالب في الأربعين، فهل هذا هو المقصود بالشباب والفتية؟ والحديث لا محل له هنا على كل حال).

واستنتج الكاتب من هذه الآية جواز الهجرة لسلامة الدين. عظيم. ثم جاءت الإشعاعات. عظماء هؤلاء الفتية، علماء... رائعون. هكذا بالنص. وهذا كله تعليقا على عدم اكتفائهم بالعزلة العقدية بل ضموا إليها العزلة الجسمية. لقد اعتزلوا الحياة وهم شباب. يقول: وكم يضحكني الذين تجاوزوا الستين حين يثرثرون عن الزهد. ولو ردوا للشباب لطرحوا الثرثرة.

ثم انتقل إلى عنوان جديد على طريقته بأن يجعل بعض آية عنواناً: ﴿وترى الشمس...﴾ وإن هذا الخطاب للرسول. أو لكل أحد. وليس المراد الرؤية ولكن المبالغة!

وحاصل التفسير أن الشمس لم تكن تصيبهم فتؤذيهم. ونقل عن الزجّاج أن هذا خرق للعادة. ولا دليل (أقول) عليه.

ثم جاءت الإشعاعات. ليعلق على ﴿ذلك من آيات الله﴾ فيقول إن الآيات كثيرة، والمعتبرون قليل. هذا المعنى الذي يريد. وهذا بيت القصيد، لكن الكاتب طفق يمط ويلت. ويطرح أسئلة. كيف لا تخرج منهم الفضلات؟ هل كانوا أيقاظاً أم رقوداً؟ ولماذا عدد السنين بالذات؟ لماذا لم يدخل عليهم أحد؟ وعلق: هذا هو القهروت... هذا هو الجبروت. من اقترب ولى فراراً ومليء رعباً. إن هناك ألف سؤال لا جواب لها إلاّ: ذلك من آيات الله (ايه العظمة؟).

ثم توقف في محطة تالية عند قوله تعالى: ﴿وتحسبهم أيقاظا...﴾ وتفسير للآيات في منتهى العظمة: وتحسبهم: تظنهم. أيقاظاً: جمع يقظ. ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هينة الناظر... كما قال غير واحد. يقصد الأخ أن فتية الكهف عيونهم مفتحة ولذلك تحسبهم أيقاظاً. وهو ما لا دليل عليه. ولماذا هذا النوم العجيب الهينة؟

ثم التفت إلى: لماذا لا يحفظهم الله بلا تقليب؟ ويجيب: بأنه اقتضت حكمته أن يكون حفظ أبدانهم بما جرت به العادة. ثم أتحفنا بالغرائب: فعن ابن عباس إنهم كانوا يقلبون كل ستة أشهر! وقيل كل سنة.

ثم روى عن الكلب أنه تبعهم فطردوه، فعاد مراراً، فقال (يعني الكلب): أنا أحب أحباء الله. ثم دخلنا في الأغرب من الغرائب: اسم الكلب. فقال المؤلف (ليس الجاحظ وإنما شلبي): واختلف في اسمه. فقيل "قطمير"، وقيل "قطمورا" (إذا كانت كلبة، أو للتدليل)، وقيل: ريان، وزعم بعضهم أنه الأسد. وروى ذلك عن ابن جريج فقال: زعموا أن كلبهم كان أسداً. ثم بعد ما رواها ابن جريج نفاها، ولا أدري ما الحكمة في الرواية والنفي: فقال: لعمر الله (لاحظ اليمين وعلى ماذا) ما كان أسداً، كان كلباً أحمر، يقال له "قطمورا". (فعلا العقل المسلم في أزمة!).

واشتهر القول بدخول هذا الكلب الجنة! أما عن حكمة نومه بالوصيد وليس معهم، لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب. ثم ذكر عن الكلب روايات أخرى نكتفي بما ذكرنا. لننتقل معه إلى الإشعاعات. ليتوقف عند ﴿تحسبهم﴾ هاهنا معجزة عجيبة. إن تقلبهم هو تقلب اليقظان! (وما تقلب اليقظان؟ نسأل شيخنا الشلبي!) إذا حاول أحد أن يدخل استحال عليه لأن الكلب يسد باب الكهف! وانتهت الإشعاعات ليعود إلى صنيعه من التفسير المبسط للآيات، ويضع ﴿رعباً﴾ في سطر خاص وبحبر غامق. إنه رعب حقيقي. رعباً يقهرك. أي أحد ينظر إليهم سوف يطلق ساقيه للريح. فوراً يمتلئ قلب الناظر رعبا، عظيما، لا يطاق... إن الرعب يملؤه إلى الأبد (من أين لك هذا؟).

ولملئت: أشد الامتلاء من الرعب، أي جاءك الرعب (أنا أنقل نقل دقة ومباشرة) كأن لسان القدرة يقول: أرعبتموهم ببطشكم، لأرعبنكم بجبروتي وبطشي.

ثم يروي حديثاً عن ابن عباس أنه غزا مع معاوية نحو الروم، فمروا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف. فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء، فقال ابن عباس: ليس ذلك لك قد منع الله من هو خير منك. فبعث معاوية رجالاً لينظروا، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم (والحديث مشكل متناً، أما سنداً فلم يكتب الأخ لا راوياً ولا مخرجاً ولا أتعب نفسه بذكر مرجع، فيكفي أنه اطلع هو عليه

من كتاب أصفر أو أخضر. والمشكل أن النبي لم يُمنع من رؤية الفتية، ولا جاءنا بذلك خبر. وإشكال آخر أن الأخ نسي أنه كان يرجح قبل صفحات كهف عمان! والإشكال الثالث لِمَ يرسل الله الريح؟ وهل هم آية خارقة باقية إلى يوم القيامة؟).

وذكر الكاتب أخباراً أخرى. ثم نتوقف عند: ﴿وكذلك بعثناهم﴾. وأن معنى بعثناهم: أيقظناهم. فالمشبه الإيقاظ. والمشبه به الإنامة ووجه الشبه كون كل منهما آية.

(والذي أراه أن الأمر ليس كذلك، فإن "كذلك" في القران كثيرة جداً منها في قصة يوسف: ﴿وكذلك مكّنّا ليوسف﴾ فأين المشبه والمشبه به ووجه الشبه؟ ليس من تشبيه بالمعنى التقليدي. وإنما المراد أنه تمكين لا أعلى منه مثل هذا التمكين الذي مكناه ليوسف مكناه في الأرض. فهو من باب تشبيه الشيء بنفسه إذا بلغ حد التمام والكمال. والله اعلم).

ثم أفادنا في ثنايا شرحه ليوم أو بعض يوم، أن المشهور أن نومهم كان غدوة، وانتباههم كان آخر النهار.

ثم استنتج من قول أحدهم: فابعثوا أحدكم بورقكم هذه، أن حمل الدراهم لا ينافي التوكل! (يا سلام!).

ولم يتركنا هنا بل انتقل بنا إلى الخواص (بتشديد الصاد لا الواو) وأن توكلهم ترك الأسباب بالكلية، ومن ضمن من ذكرهم أبو مسلم الخولاني وأنه قاد الجيوش ومشى على البحر. (ولا نعلم أيضا من أين هذا، فليته ييسر لنا المراجعة وراءه بذكر المراجع العظيمة التي يغرف منها).

ونص أحمد (يقول محمود) على جواز دخول المفاوز بغير زاد (!!) ولم يفته أن يستشهد بقصة ابراهيم وقوله لجبريل: أما إليك فلا، وهو المتداول على السن العامة، ولا أظن له أصلاً.

وتوقف عند ﴿أزكى طعاماً﴾ ليروي عن ابن عباس أن المدينة كانت تذبح للطواغيت (وكم أُلقي في ساحة ابن عباس من روايات الناس!).

ثم استنتج الكاتب الفقيه حكماً فقهياً من المسألة وهو: جواز خلط دراهم الجماعة والشراء بها والأكل من الطعام وإن تفاوتوا في الأكل... نعم لا بأس للأكول أن يزيد حصته من الدراهم. (بالله أليس حكماً عظيماً وفائدة نادرة وخريدة فريدة وقطعة رائعة وتحفة رائقة، وماسة نفيسة، وكرستالة هائلة؟ أليس كذلك؟!).

ثم لم يكتف ولم يتلطف بالوقوف عند اتحافاته لنا عند كلمة ﴿وليتلطف﴾ وإن معناها وليتكلف اللطف في المعاملة!! لم يتوقف هنا، بل تكلف وشعشع علينا من الإشعاعات فقال: إن اشرف الأحاسيس أحاسيس الذين يؤذون في سبيل الله. إن الدولة كلها تطاردهم وكل الشعب يطاردهم. إنهم أبطال حقا. ﴿إنهم فتية﴾. (ختام)

ثم نزيح الستار لنلتقي مع المؤلف المغوار في تتمة المشوار والله يعيننا على الاصطبار. المهم أن المحطة القادمة بلا انتظار هي التوقف عند: ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم﴾ ليقول الكاتب وتنهال الأفكار: إذا أفلس الباطل وعجز عن منع الحق من الانتشار لجأ إلى الاغتيال... لأن الباطل ظلام والحق نور (أو أنوار) فإذا سطع الحق تبدد الظلام وهنا عقدة المبطلين (والكفار).

الحق والباطل ضدان، فلا نهار مع الليل، ولا ليل مع النهار... إن الكفار إن يطلعوا عليكم يرجموكم (بالأحجار). إن الإكراه على الكفر قد يكون سببا لاستدراج الشيطان إلى استحسانه والاستمرار...

وبعد هذا الرائية الجيدة، نعود إلى الأشعار (آسف إلى الإشعاعات): العارف أعلى من العابد. والفتية نطقوا بالناموس: لنخرجنكم من أرضنا... أو لتعودن في ملتنا... ﴿وكذلك أعثرنا عليهم...﴾.

أنمناهم وبعثناهم... فالإشارة (يقصد في: وكذلك) إلى الإنامة والبعث... (وسبق قولنا في مثله فلا نعيده).

ليعلموا: أي ليطلع الذين أطلعناهم عليهم. بما عاينوا من أحوالهم... أن وعد الله بالبعث حق صادق، وثابت متحقق... وإن الساعة أي القيامة ينبغي ألاّ يرتاب فيها...

وفي ثنايا وأثناء الشرح أتحفنا برواية نتحفكم بموجزها، فاليكموها مع التلخيص: روي أنه بعد نوم الفتية بدهر جاء ملك مسلم، فاختلف أهل مملكته في أمر البعث، فشق ذلك عليه، فلبس المسوح. وجلس على الرماد (السكن يعني)، ثم دعا الله: أي رب، ابعث لهم آية. فقيض الله راعي غنم أدركه المطر. فلم يزل يعالج باب الكهف حتى فتحه، وأدخل غنمه. (وقد أعاد الكاتب علينا مرات أن الله يتحدى "تراجان" و"الجان" أي قد تركت الباب مفتوحا عليهم ومنعتهم منكم. راجع ص١١٥، ص ١٢٢، ص١٣٤، ص١٤١، وهو الآن مغلق. هذه المنهجية العظيمة والانسجام والكلام التمام!). نعود إلى الغنم، ولكن الكاتب ترك قصة الراعي تماما، وانشغل بالفتية الذين بعثوا في الغد من نومهم فبعثوا أحدهم بالنقود

المضروبة من عهد "تراجان"، فأراد البائع (صاحب البقالة) أن يدله الفتى على موضع الكنز... المهم أنهم انتهوا عند الملك فدعا مشيخة البلد، وكان واحد منهم عنده أسماء الفتية!!.

ثم قال الملك: أيها الناس. هذه آية بعثها الله لكم. فلما رأى الملك الفتية اعتنقهم وفرح بهم (خرجنا عن القصة ولكن الكاتب يظن أننا ما زلنا في جوها...) فبينما هم بين يديه، قالوا: نستودعك الله. والسلام عليك ورحمة الله. حفظك الله. ونعيذك من شر الإنس والجن (والإسرائيليات!!) ثم رجعوا إلى مضاجعهم. (ستار).

ثم إن الملك كفنهم في ثيابه، وجعل كلاً منهم في تابوت من ذهب (ينبغي أن تسأل دائرة الآثار الأردنية أين اخفت الصناديق؟!)، (آسف. لقد استعجلت)، فإن الملك عندما نام جاءه الفتية في المنام فقالوا لا تضعنا في توابيت الذهب، فجعلهم في توابيت من ساج. (إذاً تسأل دائرة الآثار عن توابيت الساج، بدل الذهب!).

وفي الإشعاعات شعشع علينا الكاتب الشعشعاني بأن "تراجان" ذهب إلى الجحيم. وأنه جاء "ثيودوسيوس" بأخلاقياته الإيمانية، وكان طابع الدولة تعظيم الله، وأن من شك في أمر البعث، فلينظر ما حدث للفتية. وانتهت الشعشعات...

وفي المبحث التالي بعنوان: ﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾، تعرض لحكم اتخاذ المساجد على القبور. فلا ندخل فيه.

وأما المبحث التالي فهو في عدد الفتية. قال: سيقولون: أهل الكتاب من اليهود المعاصرين له صلى الله عليه وسلم الخائضين في قصة أصحاب الكهف. رجماً بالغيب: أي رمياً بالخبر الغائب الخفي عنهم. شبه ذكر أمر من غير علم يقيني بقذف الحجر الذي لا يصيب مرماه...

ويعلق على قول سبعة وثامنهم كلبهم بقوله: قالوه عن ثبات علم، فهو الحق دون القولين. (ونسي الأخ الكريم أنه أتحفنا في مطلع كتابه أن القول الفصل: ربي أعلم بعدتهم) ثم نسب لابن عباس أنه كان يقول: أنا من أولئك القليل الذين يعلمون عدتهم. (مع أن المسألة لا تحتاج ابن عباس، فالنص القرآني ظاهر بلا التباس).

ثم ذكر أسماء الفتية على ما صح عن ابن عباس (كيف صح لا تسأل). (ولو كانت الأسماء مما يسهل كتابته لنقلتها لكم، لكن بإمكانكم إن كنتم مهتمين الرجوع إلى الكتاب على الأساطير نت، وهناك تجدون الأسماء واسم الكلب).

ثم روى عن علي رواية أخرى، وقسمهم إلى ميمنة الملك، وميسرة الملك. وأما سابعهم فالراعي. ثم توقف عند مدة لبثهم. وأن الثلاثمئة بالحساب الشمسي وزيادة التسع بالحساب القمري نقله بعضهم عن علي. (ولا يصح بالطبع).

ولا يكتفي الكاتب بهذا وهو جيد مقبول، بل يزيد عليه أنهم انتبهوا ثم عادوا للنوم مدة تسع سنين.

ثم دخل بنا الكاتب فيما سماه: الإشارة في الآيات. وهي عادة لازمة للكاتب أن يختم كتبه بالتفسير الإشاري الباطني المليء بالكفريات، وهو يشعر أو لا يشعر، لست أدري.

المهم سنرى ما عنده هنا: قال الجنيد: لا تتعجب منهم، فشأنك أعجب من شأنهم، حيث أسري بك ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وبلغ بك سدرة المنتهى. وكنت في القرب كقاب قوسين. (هذا يقتضي أن الإسراء حصل قبل نزول الكهف، وكيف يشتبه الجنيد أو شلبي؟ ثم ثانيا إن قاب قوسين أوهم الجنيد والناقل عنه أنها من الله. وما هي كذلك، بل الكلام عن جبريل).

ثم قال: الفتية: فتيان المعرفة الذين جبلوا على سجية الفتوة... فأووا إلى الكهف: للخلوة به سبحانه. (وهذا غير صحيح. فقد بين القرآن لِمَ اللجوء إلى الكهف).

فضربنا على آذانهم: كناية عن جعلهم مستغرقين فيه سبحانه، فانين عما سواه... بعثناهم: إشارة إلى ردهم إلى الصحو بعد السكر والبقاء بعد الفناء... إذ قاموا: بنا... لنا... واستدل بعض المشايخ بهذه الآية على أنه ينبغي للسالكين إذا أرادوا الذكر وتحلقوا له أن يقوموا فيذكروا قائمين!! (والنص في واد وهؤلاء في أودية أخرى...).

تزاور عن كهفهم: لئلا يكثر الضوء في الكهف فيقل معه الحضور... ومن هنا يختار أهل الخلوة مكاناً قليل الضياء. (مع أن هذا الدين يفضل النور).

ثم قال: وفي أسرار القرآن... أن في الآية إشارة إلى أن الله حفظهم عن الاحتراق في السبحات، فجعل شمس الكبرياء تزاور عن كهف قربهم ذات يمين الأزل. وذات شمال الأبد...

وهم في فجوة مشاهدة وصال مشاهدة الجمال والجلال... محروسون محفوظون عن قهر سلطان صرف الذات الأزلية التي تتلاشى الأكوان في أول بوادي إشراقها... وقيل في تأويله: إن شمس الروح أو المعرفة أو الولاية، إذا طلعت من أفق الهداية، وأشرقت في سماء الواردات. وهي حالة السكر وغلبة الوجد...

لا تنصرف في خلوتهم إلى أمر يتعلق بالعقبى، وهو جانب اليمين... وإذا غربت أي سكنت تلك القلبة، وظهرت حالة الصحو... لا تلتفت همم أرواحهم إلى أمر يتعلق بالدنيا، وهو جانب الشمال... بل تنحرف عن الجهتين إلى المولى... وهم في فراغ عما يشغلهم عن الله...

وذكر فيه أن نور ولايتهم يغلب نور الشمس ويرده عن الكهف.

(وهي مبالغات من ناحية، ثم إن مثل هذا التأويل فيه تعطيل لقانون اللغة الذي سارت عليه الأمة في فهم كتاب ربها، وفيه فتح باب واسع للشياطين ليتأولوا على هواهم وما يريدون كلام الله فيخرجوه عن مراميه...)

وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود: هم مع الخلق بأبدانهم... ومع الحق بأرواحهم... وكلبهم باسط ذراعيه: أشير بالآية إلى أن كلب نفوسهم معطلة عن الأعمال وقيل: يمكن أن يراد أن نفوسهم صارت بحيث تطيعهم جميع الأحوال وتحرسهم عما يضر.

قالوا لبثنا يوماً...: كانوا مستغرقين لا يعرفون اليوم من الأمس.. ولا القمر من الشمس. (مع أن الدين يقظة وانتباه وإحساس، والكفر ظلمة وعمى وانطماس).

ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً: نهي عن أن يخبر عن الحق بدون إذن الحق. (هذا تلبيس وباطنية). إذا نسيت: الكون بأسره حتى نفسك (!!) فإن الذكر لا يصفو إلاّ حينئذ.

ثم نقل عن الندوي رحمه الله في كتابه تأملات في سورة الكهف. ولن نكتب هنا ما قال لأننا سنخصص لكتاب الندوي مقالة خاصة بإذن الله. وقد استمر نقل الشيخ عن الشيخ حوالي خمسين صفحة من صفحات شلبي. ثم ختم بما سماه: كلمة أخيرة. حيث قال: كان في تفكيري... أن أفجر عجائب أهل الكهف تفجيرا... (طلع البارود مبرّد) وأن أناقش خلافات الروايات... فادحض بعضها... واسخر من بعضها... واضحك من تهافت بعضها ضحكاً طويلاً (غير هستيري طبعاً...).

ثم تأدباً بقول الله: فلا تمار فيهم، وتذكراً لما أوصى الله رسوله من الاقتصار في شأنهم على ما أُوحي إليه من آيات ربه... امسكت فوراً عما اعتزمت أن أثيره بشأنهم... رغم طرافته.

(ازعم أن الشيخ نفض جرابه، وأودع كتابه كل ما استطاع، وأن هذا أقصى ما يملك، لكنه لا ينقصه ذكاء الاعتذار عن قصوره الظاهر، فقام يتمحك، ويتحكك بالآية، أنه لولاها، لرأيتم العجائب، كمثل شخص رعديد يتفلت من بين الناس ليهجم على عدوه، ويتمنى ألاّ يفلتوه. وليتك انطلقت يا طويل العمر... لما كنا رأينا عجباً).

يقول: تذكرت هذا وأنا أعد العدة للهجوم الساحق الماحق... (ونقول: وجه أساطيلك إلى فلسطين لضرب معاقل بني إسرائيل...). ثم تراجعت فوراً. (يعني: ربنا سلّم. وكفى الأعداء القتال!).

(ونسأل الشيخ باستهبال: ألم تكن قرأت هذه الآية من ضمن هذه السورة قبل إعداد جيوشك الجرارة، وعساكرك، وحججك، وأقلامك، وممحاتك؟).

عاد إليّ عقلي يقول الشيخ (بعد أن فقده...). ثم يعود بعد عودة عقله من جديد: وإذا كان لأهل الكتاب عذرهم أن يطلقوا خيالهم في قصتهم لأنهم تناقلوها بالرواية عن بعضهم... فلا عذر للمسلمين أن يتناقلوا عنهم أساطيرهم... بعد أن حدثهم ربهم عن قصتهم بالحق. ومن أصدق من الله قيلا وحديثا؟

(كلام حلو وتقعيد جميل وشلبي، والشيخ شلبي أول من يخالفه بل ينقضه من القواعد، وكتابك مازال بين أيدينا لم نضعه على الرف بعد. فإذا قلّبناه وجدنا الأساطير مبناه، من مبدئه إلى منتهاه، حاشا للآيات التي كانت تتخلل ذلك...).

ثم يعتذر لمن يفعل ذلك فيقول: ولكن الإنسان هو الإنسان. يطلق خياله في كل شيء. فجاءتنا روايات عن أهل الكهف، ونقلها كثير من الرواة المسلمين عن رواة أهل الكتاب، رغم ما فيها من خيالات...

وإنّ من أعجب العجب في إعجاز القرآن أن يقول الله بعد أن قصّ قصتهم ﴿ما يعلمهم إلاّ قليل...﴾. ولكن العجب يزول... إذا علمنا أن هذا توجيه لنا جميعاً... كأنه يراد أن يقال: ما يعلمهم إلاّ قليل (الماء بالماء).

أما أكثر الناس فضحايا أوهام وأساطير... وقد جاءكم الحق من ربكم في شأنهم... فاقتصروا عليه... ولا تلتفتوا إلى الخيال...

وهو كلام يا عم شلبي في منتهى الجمال. ولكنك أنت لم تلتزم به في حال، بل تركت الحقائق وسرحت مع الخيال...

وأصلح الله الحال..

الكتاب الثالث والعشرون

قصص الأنبياء في القرآن الكريم

مجمع البيان الحديث

تأليف: سميح عاطف الزين

ط٥، بيروت: الدار الإفريقية العربية، ١٩٩٧م.

قصص الأنبياء في القرآن الكريم: مجمع البيان الحديث / سميح عاطف الزين:

ملاحظات على الكتاب:

الكتاب مكتوب بلغة أدبية جيدة. لكن الكاتب كان يستجيز لنفسه أن يكتب قصة من وحي القصة، فيرسم سيناريوهات، ويضع حواراً، ويصف الشخوص وانفعالاتهم، ويصف الأمكنة، ويحدد الأسماء، كل ذلك بلغته مستقياً المادة من الإسرائيليات، ومتخذاً من القصة متكأ ينطلق منه في تأليف قصته، وكأنه قصاص يتخذ من التاريخ مادته الأدبية أو القصصية، ثم ينطلق في فضاء الخيال يؤلف القصة. والكاتب يظن نفسه في جو النص ما زال، وفي الحقيقة يكون اشتط أو جنح به الخيال... وهذا إشكال. فإن مثل هذه الحرية التي يعطيها الفرد الكاتب لنفسه لئن جازت في موضوع القصة التاريخية، أو الشخصيات التاريخية، فإنها لا تجوز بحال في موضوع القصة القرآنية أو الشخصيات القرآنية. فهنا نص ديني رباني، لا يجوز ولا ينبغي التصرف فيه، اللهم إلاّ بالفهم والتحليل، إن سمينا هذا تصرفاً.

قصص الأنبياء / سميح الزين:

يقع الكتاب في سبعمائة صفحة إلاّ ثماني صفحات. ليس مقسماً إلى فصول، ولكن إلى عناوين.

في الصفحة الخامسة عدّد أسماء الأنبياء الخمسة والعشرين الذين ذكرهم القرآن. وقال: وعدد الأنبياء على الحقيقة لا يعلمه إلاّ الله، لأن الرسل منهم من قُص علينا ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ غافر: ٧٨، ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ النساء: ١٦٤.

وفي صفحة الغلاف وضع ثلاث آيات شعاراً للكتاب:

﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾.

﴿نحن نقص عليك احسن القصص...﴾ .

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾.

وفي مقدمة من أربع صفحات قال: يشعر الإنسان أن في أعماقه فراغاً، وأن في داخله سراً خفياً لا يستطيع كشفه... هذه المشاعر من مقومات حياتنا. فنظل مشدودين إلى غيبيات تعتبر دوافع لنا... ليكون لحياتنا معنى... ولوجودنا مغزى...

والآن حصّل الإنسان معارف كثيرة، لكنه يظل يحس في أعماقه بالفراغ، أمور جسام تشده إليها. والنفس من صنع الله. ثم إن الله بعث أنبياءه لتربية الإنسان للخلافة. وقد جسّد الأنبياء الإيمان المطلق بالله. ومعرفة الرسل خير دليل لنا إلى معرفة الحقيقة التي ننشد.

ثم بيّن أن منهجه جمع الآيات في كل قصة، ثم صوغها صياغة في قصة واحدة جامعة. ثم تحت عنوان "القصص" تكلم في التعريف اللغوي لهذه المادة وذكر حديثاً لا يصح بالقطع: "لا يقص إلاّ أمير أو مأمور أو مختال"!.

وتحت عنوان "الاعجاز القصصي" قال: وإعجاز القرآن ليس آتياً من حيث إنه احتوى أروع القصص وأحسنها لبلوغه النهاية في الفصاحة والألفاظ وحسن المعاني فحسب، بل لأنه أتى على ذكر الأمم الماضية في أعذب لفظ وأحسن نظم. وتضمن من اللطائف ما لا تتضمنه قصص العالم بأسره. ويتجلى الإعجاز القصصي بدءاً بآدم وانتهاءً بمحمد عليهم السلام.

ثم استعرض بعض مشاهد القصص على سبيل المثال على هذا الإعجاز، كإطفاء نار إبراهيم، وتسخير الطيور لداود... الخ.

ومن الإعجاز أن ترى قصة كاملة كقصة يوسف، وقصة في عدد من السور كقصة موسى. وعلى الرغم من ورود الأخبار في القرآن إلاّ أنه ليس كتاب تاريخ يورد الوقائع متتابعة. ومن هنا جاءت معظم القصص مختصرة.

ثم أعاد ذكر منهجه وأنه يتلخص في جمع وتنسيق كل ما ذكر عن الأنبياء في القرآن، مخصصين مكاناً لكل نبي، مقتصرين على الأحاديث وأقوال الصحابة، مبعدين الإسرائيليات!! (أما هذه فسنرى أن الكاتب التزمها بالحذافير والنقير والقطمير...)

وعلق على خطته بقوله: ألم يأن للإسرائيليات أن تزول من رؤوس المسلمين؟ وقال: هذا الكتاب محاولة جادة للرد على السؤال. (وأقول: من أسف أنه لم يحاول أن يلتزم سؤاله الواعي، فكانت الإجابة غير واعية على سؤال واع!).

وتحت عنوان "القصة" قال: القصة قديمة قدم التاريخ. واتخذت على مر التاريخ أشكالاً وأنواعاً مختلفةً من حيث المبنى والمعنى، حتى غدت أحد المصادر الرئيسة التي يقوم عليها التراث الحضاري للشعوب. وقد ظهرت أولاً على شكل أساطير، وقد شكلت تلك الأساطير العقائد الدينية وغير الدينية لدى تلك الشعوب. واختصت فئة الكهان والعرافين بهذه الأساطير، وساندت بها الحكام، وكان هؤلاء جميعاً سطوة على الناس، حتى باتت الشعوب موزعةً بين سلطتين ظالمتين، اصطلح على تسميتهما: السلطان الزمني والسلطان الروحي... وويل لشعب اتفق عليه حكّامه وكهّانه. كانت القصة أقوى الأسلحة بيد الحكام والكهنة.

وتحت عنوان "خرق النواميس" قال: خرق الناموس معناه الخروج على المألوف، فيأتي الفعل وكأنه خارق للطبيعة، فوق الممكن. وقد راجت حكايات خرق الناموس عن الدجالين.

وتحت عنوان "المنامات والرؤى" قال: وتدخل في باب القصص الدينية المنامات والأحلام. (وأقول: كل هذا خارج السياق، ولئن دخلت في اعتبار الواقع فإنها لا تدخل في اعتبار الدين الحق...). في البيئة الوثنية كانت المنامات وسيلة يستخدمها الحكام والكهان لتحقيق أغراضهم.

وتحت عنوان "التاريخ والقصص الديني" قال: لأمر ما لم يتعرض القرآن للتفاصيل، ولعلّ الغاية من ذلك هي الابتعاد عن القصص الأسطوري الذي طبع عقول الناس (تعليل غير مقبول، بل هو تعليل عليل...).

كانت الأساطير قد عششت في الأذهان على شكل عقيدة دينية يتوارثها الأبناء عن الأباء، وغدت التراث الفلسفي الذي تحفظه الأجيال المتلاحقة. وضرب المثل على ذلك بقصة داود، الذي تصوره بعض الكتب الدينية بالملك الشرقي الذي يعيش حياة البذخ، تحف به الزوجات، وتتجاذبه عواطفهن. وبهذا الدس تصبح الطرق إلى إخضاع الجماعات اسهل. بمثل هذا الاختلاق كثرت التفاسير في القصص القرآني، وتداخلت الأساطير بالإسرائيليات. وأخبار كعب ووهب هي الدليل على هذا الطابع الإسرائيلي في التفسير للقرآن. ثم فسر ذلك بنزعة اليهود إلى السيطرة. وإذ عرف الشعب اليهودي كيف يستطيع السيطرة على رؤوس الأموال، فقد بات سهلا أن يستغل حب الناس للمال. وليس أكثر تأثيرا في النفوس من القصص التي تروي غرائب المتعة وتصور أفانين الملذات... سيما إذا كانت القصص ممزوجة بالطابع الديني. وعَرج من هذا على السينما الأمريكية وظلها السينما العربية. وما أنتجه ذلك من إفساد الشباب.

ثم دعا الإنسان في ختام حديثه إلى المقارنة بين مضامين القصص القرآني وبين ما قدم من قصص قديمة وحديثة.

وتحت عنوان "التكوين" تكلم عن كلام القرآن عن نشأة الكون، وواضح أنّه استعار العنوان من (سفر التكوين) التوراتي. وتكلم عن الآيات التي أشارت إلى ذلك من مثل: ﴿...أنّ السماوات والأرض كانتا رتقاً...﴾ واستخرج من قوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء...﴾ أن المادة الأولى للكون هي الماء. ثم استعرض عدداً من الآيات تتعلق بخلق السماوات والأرض، وفسرها.

ثم عرِج على بعض مقالات الفلك في توضيح المجرات والسدم وما إليها، (وهو خارج الموضوع فيما أرى). واطال في شرح النظام الشمسي، وخص الأرض بمزيد من التفصيل... وعرج على الذرة،

وكيف أن أينشتاين وضع أساس العلم الحديث الذي يقول بالوحدة بين المادة والطاقة (القوة)، وبتحول المادة إلى طاقة وفنائها، وقد استنتج من خلال نظريته النسبية التي أوجدها مفهومي "الخلق والفناء"، وهذا خلافاً للنظرية القائلة أن "لا شيء في الطبيعة يخلق ولا شيء يفنى".

ثم عرج على خلق الإنسان وأطوار هذا الخلق، ووضع صور مراحل الخلق والأجنة.

وتحت عنوان "نظام الزوجية" واصل استطراداته الخارجة عن الموضوع فيما أرى، فتكلم عن التناسل، والظلمات الثلاث، والأمشاج... الخ. ثم ختم هذه القضية بقوله: إن هذا النظام العجيب، والتصميم الغريب، من خلق الإنسان، لهو الآية الكبرى على قدرة الله في الخلق. هذا هو الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وجعل أصله من طين الأرض وترابها، ومن هذا انتقل إلى قصة آدم.

آدم عليه السلام (ص٧١-ص٩١):

في هذا الموضوع قال: يحكي القرآن قصة عمارة الأرض، بعد أن أتم الله خلقها، وخاطب الملائكة بقوله: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾. ومن الطبيعي ألاّ تعلم الملائكة حكمة الاستخلاف... وقد تأكدوا أن آدم وذريته سوف يكونون مخيرين بين الفجور والتقوى، فسألوا: ﴿أتجعل فيها...﴾ فقد حصل هذا الاستشفاف للغيب من قبل الملائكة... وعندما قال الله لهم: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ زالت حيرتهم.

وعلم الله آدم الأسماء كلها أي مسميات الأشياء، لا اللغات، أي علمه حقائق الأشياء وخواصها...

ولكي يظهر الله تلك المقدرة التي وهبها لآدم، عرض أسماء الكائنات على الملائكة فقالوا ﴿سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا...﴾ فتفوق آدم بتلك المعرفة على الملائكة، وكان جديراً بالاستخلاف، وكيف لا وهو مكرم بالعقل والشعور. وإمعاناً في تكريم آدم كان سجود التكريم من الملائكة له.

وأراد الله أن يكشف حقيقة إبليس، فلما أُمر بالسجود رفض واستكبر، وتعصب بأصله، فهو إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين... فالحمية من الشيطان. وفي الرد على إبليس طفق الكاتب ينظّر أنَ أصل النار إنما هو من الأرض، فلولا الأرض لم تكن النار (ولسنا نناقشه...). ثمّ ضرب المثل بالبترول والكهرباء... وآدم وهو يستمع الحوار أدرك أن إبليس يختلف عنه... وأدرك آدم أن السيادة له بعلمه ومعرفته.

وذات يوم استيقظ ليجد عند رأسه مخلوقا من نوع آخر، وسأل: من أنت؟ فقالت: خلقني الله منك وأنت نائم. (بدأنا بالخروج عن النص، وبدأنا بكتابة نص على النص، ونستجيز لأنفسنا أن نرسم سيناريو من عندياتنا لا من كلام الله...).

ثم طفق الكاتب يشرح لنا أنهما عاشا معا يستمعان لتغريد الطيور... الخ. ثم أعاد الكاتب حكاية التوراة من أن حواء هي مدخل إبليس إلى نفس آدم، فقال: "أو ليست حواء غالية عليه ؟ ودلف إبليس إلى حواء يستهوي فيها المشاعر والعاطفة، وظنت حواء الشجرة شجرة الخلود، وكانت تلح... واكتملت أول مكيدة بكل عناصرها في حياة الإنسان.

وكان الهبوط، وعاش آدم وحواء على الأرض. ويعود الكاتب إلى القص في داخل القصة، والنص من داخل النص، فيقول: "وكان آدم متلهفاً لرؤية أبنائه، ووضعت حواء توأمين: إحداهما قابيل وأخته، والآخر هابيل وأخته. فوضع آدم البنتين مع أمهما، وترك الولدين يضربان في الأرض. فكان قابيل مزارعاً وأخوه راعياً... وانتشر رواق السلام على الأسرة... الخ. واضح أن الكاتب يدخل في القصة لا محللاً دارساً، وإنما قاصاً يسرد ويصف ويضع حواره الخاص. ويرسم شخصياته، محولاً القصة القرآنية إلى قصة مفتوحة يضيف هو إليها من عندياته ومن الشخوص ومن الحوار ما يشاء...

ثم يقول: وأوحى الله إلى آدم أن يزوج ولديه من ابنتيه... وأعاد القصة المشهورة المتداولة من تعلق قابيل بمن لا تحل له... الخ، ثم انتهى بقتله لأخيه. ويعلق الكاتب مضيفاً من خياله: "وهكذا كان الجمال سبباً للشقاق بين الأخوين" ... الخ.

فهبت على الأب الوقور رياح أوشكت أن تقتلع أشجار السعادة التي أورقت في حياته... فهداه الله إلى مخرج يطفئ به الفتنة، فطلب إليهما أن يقدما قرباناً، فأيهما تقبل قربانه كان أحق بما يريد... وقدم هابيل جملاً وقابيل قمحاً... فتقبل من هابيل، فسقط في يد قابيل... فتوعد... الخ. ويضع الكاتب سوى الحبكة التي صاغها، والربط الذي ربطه بين البنتين والقرابين، يضع حواراً بين من سماهما أو نقل أسماءهما عن الإسرائيليات، أنها قصة أخرى كما قلت تنشأ على ضفاف القصة الأصلية، ويستنبت الكاتب على شاطئ القصة قصة جديدة بشخوص وحوار وحبكة قصصية لا تَمُتّ إلى الأصلية القرآنية بصلة... اللهم إلاّ أن الكاتب جمعهما معاً موهماً إيانا أنهما شيء واحد.

وبعث الله الغرابين رحمة منه، لأن القاتل لا يستحق الوحي، فكان مقلداً للغراب. وأقول: من قال إن القصة حصلت وآدم موجود؟ إن القرآن لم يشر لهذا ولا سمى القرآن أحداً ولا ذكر البنتين، ولا خاض في تفصيلات القرابين... فكل هذا مما لا نستجيزه.

ويواصل القاص: وبعد مدة من مقتل هابيل (ليت الكاتب حدد لنا الزمن) ولدت حواء ولداً فاتخذه آدم وصياً له (!!) ووليا لعهده. (يبدو أن الكاتب يكتب بخلفيته الشيعية فتسربت فكرة الوصي. ومن أين علم أنه اتخذ وصياً ولا نص عندنا؟).

ولا ينسى الكاتب أن يواصل السرد عن قابيل فيخبرنا أنه ذهب طريداً واستقر في عدن (!!) فوسوس له إبليس بقوله: إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبدها، فانصب أنت أيضاً نارا تكون لك ولعقبك، فبنى بيت النار، وهو أول من عبد النار (!!). (وأقول: ومن أين للكاتب مثل هذه الأخبار وهو الذي بشرنا بأنه طرد الإسرائيليات من كتابه؟).

وروي (!) أن أولاده اتخذوا آلات اللهو وانهمكوا في المجون والخمر وتعاطوا الزنا والفواحش (ولو!) وقد أغرقهم الله أيام نوح (؟!). واحتاط الكاتب فأجابنا عن سؤال كنا نحبسه وهو يتردد في صدورنا ويدافع صمتنا، وذلكم هو: من أين أنجب المذكور الأولاد؟ فقال: ولا ندري، هل أولاده هم الذين أنجبتهم أخته التي ولدت معه، أم الأخت الثانية (!!). (ونقول للكاتب هلاّ أكملت من عندك!؟ فليست هذه الإضافة الوحيدة، فأنت أضفت الكثير، وبقيت هذه...!).

ثم نقل الآيات التي عرضت قصة آدم من سورة البقرة، والمائدة، والأعراف، وطه، ويس، وص، وقد صور الآيات كما هي ولم يعقب مكتفياً بالعرض الذي سبق، والذي شحنه بالإسرائيليات والعنديات.

السور القرآنية:

تحت هذا العنوان تكلم الكاتب عن المعنى اللغوي للسورة، ولا أدري لم أخره بعد قصة آدم، ولم لَم يقدمه مع سائر المقدمات؟!

وذكر الكلام المعروف في علوم القرآن من اشتقاق السورة من السور للعلو أو من السوار للإحاطة، فالسورة كالسور تحيط بجوانب الموضوع، وهي رفيعة المترلة.

ومن هذا انتقل إلى القول أن التحدي كان للخلق أن يأتوا بسورة لا بموضوع مشابه (!). ثم قال: وكان تتريل القرآن في مئة وأربع عشرة سورة توزعت بين الطوال والمتوسطة والقصار. أما المكية فتتناول العقيدة، بينما المدنية الأحكام. ولكل سورة شخصية، وهي فكرة صاحب الظلال وإن لم يشر الكاتب إليه.

ثم عرج على "التفسير الموضوعي"، وأن من أوجه عظمة القرآن أن يعمل في حياة الأمة منذ ولادتها، كما يعمل في حياة الإنسانية جميعها، ويعايش الحياة الحاضرة. وإذا كان عدد السور محدوداً، فإن الموضوعات غير محدودة. ثم عرفنا الكاتب أنه تناول تفسير القرآن موضوعياً في اثني عشر مجلداً، وأحالنا إلى كتابه أصول الفقه الميسر، وقال إنه قد أشبع التفسير الموضوعي هناك أيضاً، ويبدو أن التعريج على التفسير الموضوعي كان من أجل هذه الإحالة وتلك.

واستعرض سورة الطارق. ولا أدري لماذا. وفي الثنايا نقل نقلاً مطولاً عن أمير المؤمنين علي في فضل القرآن. والصنعة في الكلام واضحة تحيل أن تكون من كلام علي. وأعاد ذكر تفسيره هو الموضوعي للقرآن في اثني عشر مجلداً. وقال: إن التفسير الموضوعي ينطلق من الواقع. وهي فكرة لمحمد باقر الصدر، وإن لم يشر إليه.

وعرج في الطريق على "التبيين"، وذكر أن الآيات القرآنية منها مُبيِّنات ومُبيَّنات. أي بالفتح والكسر. بالفتح باعتبار من بينها، وبالكسر باعتبار ما تبينه. ثم قال ما لا يوافَق عليه: التبيين في القرآن لا يمكن أن يكون من عند الإنسان، بل هو من عند الله، ومن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ثم إن علينا بيانه﴾، ﴿لتبين للناس﴾.

وليس الأمر فيما نرى على ما فهم الأستاذ الكريم. والأمر يحتاج إلى بيان وليس موضوعنا الآن. وختم البيان بقوله: محال على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون مفسراً أو مجتهداً (!)، وهو الذي بعثه ربه ليبين (!) لا ليفسر (!).

واستكمالاً بيّن معاني التفسير والتأويل. وأن التفسير ما يختص بالمفردات. وقد ورد لفظ تفسير مرة واحدة في القرآن: ﴿وأحسن تفسيراً﴾. بينما التأويل يبين مراد المعنى، واستعرض الآيات التي ذكرت التأويل. وعرّج على آية آل عمران، وقال إن المحكم لا يحتمل التأويل. والمتشابه الذي يحتمل التأويل. وأعاد الكلام غير المسلم أن المتشابه لا يعلم تأويله إلاّ الله، وأنّا نؤمن به دون علم تأويله (!). وكرر علينا أهمية التفسير الموضوعي.

وختم هذا المبحث بقوله كما أن صورة أحد الأنبياء لا تكتمل في سورة واحدة، فالقرآن يروي حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مجمله (وهو كلام فيه مبالغة ولا يسلّم).

إدريس عليه السلام:

والكاتب يذكره قبل نوح عليهما السلام انطلاقاً من بعض الروايات، وهذا لا يسلم. على كل، ثم يقول: دعي إدريس لأنه كان كثير الدرس (وهل كان القوم عرباً ولغتهم واشتقاقهم كاشتقاقنا؟). وكان ملكاً عظيماً، وحكيماً فريداً. ولد بمصر (!!)، أرسله الله إلى ولد قابيل ليرجعوا عن غيهم. (وكان أولاد الكفار والغواة غواة بالضرورة!) فلم يصدقه أبناء قابيل، فأعلن عليهم الحرب وراح يجاهدهم في سبيل الله، حتى مكنه الله منهم. (وهذا كله روايات لا تثبت لها حقيقة)، وقيل إنه أول من اهتم بعمارة المدن. وجمع طلاب العلم ووضعهم في المنازل (سكن داخلي) وأنزل الله إليه ثلاثين صحيفة، فاطلع على معارف عن العالم والكون(!)، وقيل إنه أول من خط بالقلم، واخترع الخياطة. ولبس ثياباً من النسيج، وصب الرصاص، وصهر المعادن (وهذا كله بلا دليل!).

نوح عليه السلام:

أول نبي حمل أعباء الدعوة (!!) فآدم أبو البشرية ولكن لم يرد في القرآن أنه حمل رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض، بل كان معلماً لأبنائه... (وأقول هذا غير صحيح، فآدم نبي رسول والقرآن ألمح إلى رسالته بقوله: ﴿اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم مني هدىً...﴾ والكاتب نفسه وضعه ضمن قائمة الأنبياء، ولا ندري ما تفريق الكاتب بين النبي والرسول...).

ثم يشير إلى أن الكتب تجعل إدريس سابقاً لنوح، والبعض يستبعد ذلك، ويقول الكاتب: إن نوحاً كان في فجر البشرية، أي يريد الخروج من الإشكال، ثم أدخلنا في معمعة الإسرائيليات والمخترعات والموضوعات إذ قال: وقد ولد نوح في العام الذي مات فيه آدم. وقيل إنه بعث وهو ابن خمسين. وقيل إنه عمّر ألفا وسبعمائة، وهو ابن ملك بن متوشلخ ابن اخنوخ النبي. (وهذا النسب من أين حصل عليه الأستاذ إلاّ من الإسرائيليات التي جرد كتابه منها كما بشرنا...).

وكانت حياة نوح غاية في البساطة (!) آتاه الله طلاقة في اللسان ووضوحا في البيان، كان رزين العقل بعيد الأناة. (وأقول: كل ذلك صحيح لكنه صفة عامة بين الأنبياء، لا صفة خاصة لنوح).

ثم تكلم عن إعراض القوم بالرغم من حجج نوح. وتكلم عن قحط أصاب القوم وجفاف (ولعل الكاتب استنتجه من قوله تعالى: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً...﴾).

وطريقة الكاتب في استعراض الآيات أنه يكتب إنشاء ثم يستشهد عليه بالآيات، لكنه لا يغوص في تحليل الآيات أو تفسيرها ولا يتعمق في الاستنتاج منها، وهذا الذي نهجه هو أيسر المناهج، فتصبح الآيات مجرد شواهد على إنشاء حر طليق ينشئه الكاتب...

وحتى يخرج الكاتب من أزمة أو مشكلة كيف ينادي نوح ابنه للركوب معه في السفينة وهو كافر اهتدى إلى حكاية نفاق ابنه، فقال: فأجابه ذلك الابن الذي كان مزيف الإيمان، والذي كان يخفي في نفسه كفراً وزندقة: ﴿سآوي إلى جبل...﴾.

"وكانت عينا نوح لا تفارق ابنه كنعان (!) وهو يخوض اللجج". ولا ندري من أين جاء بالاسم، بل ندري: إنها الإسرائيليات. وأما أن عينيه ثبتت عليه، فهذا بخلاف ظاهر القرآن: ﴿وحال بينهما الموج...﴾.

"أما زوجته فلم يهتم نوح لأمرها..."، وبرر ذلك بأنه كان يعلم كفرها... وهبطت السفينة على أرض الجودي بالعراق. (أما أنها بالعراق فلا ندري، وأما الجودي فإن القرآن هو الذي ذكره).

ويختم القصة بقوله: وهكذا كانت سفينة نوح، وكان الطوفان، آيتين من آيات الله، دالتين على حقيقة الإيمان، التي حمل لواءها الإنسان منذ فجر التاريخ...

الأسلوب القرآني المعجز بوضوحه وقوته وجماله:

هذا عنوان مبحث بعد قصة نوح، وهو مثال على المنهجية المحتاجة للتعديل، فكان ينبغي أن تكون هذه ضمن المقدمات. يقول: الأسلوب معان مرتبة في ألفاظ منسقة، ووضوح الأسلوب يكون ببروز المعاني المرادة من خلال التعبير الذي أديت به. أما قوة الأسلوب فتكون باختيار الألفاظ الملائمة والمناسبة لأداء المعنى. ثم ضرب مثلاً للمعنى الرقيق الذي أدي باللفظ الرقيق: ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عيناً فيها تسمى سلسبيلاً﴾ والمعنى الشديد باللفظ الشديد: ﴿إن جهنم كانت مرصاداً، للطاغين مآباً، لابثين فيها أحقاباً...﴾.

جمال الأسلوب: هو الذي يجمع بين وضوح المعاني وقوة التعبير، ويكون باختيار أصفى العبارات وأليقها بالمعنى... ثم ذكر مراعاة المخارج والجرس.

وضرب المثل بآية الكرسي التي وضع الله فيها أربعة وعشرين لاماً، وكان لكل منها جرس لطيف لا يشبع السمع من تكراره. والذوق هو العمدة في معرفة حسن الكلمات. واستشهد بآيات قصة نوح في القمر، فوجد أن فيها سبعة قافات وسبعة كافات. في ثماني آيات.

وأما قصة نوح في الصافات، فثماني آيات أيضاً، فيها أربعة وعشرون نوناً وست عشرة لاماً، ولكن السلاسة واضحة. وفي الأعراف ست آيات، وفي يونس ثلاث آيات. وكان التفصيل في سورة

هود فجاءت القصة في أربع وعشرين آية. ثم سورة المؤمنون سبع آيات. وفي الشعراء ست عشرة آية. وآيتين في الأنبياء، والعنكبوت، والحاقة.

ثم خصص سورة كاملة باسمه في القرآن هي سورة نوح، وآياتها ثمان وعشرون. فأسلوب القرآن خاص به، ولذا قال البلغاء: العربية نثر وشعر وقرآن. لقد كان القران وسيظل معجزا إلى يوم القيامة.

هود عليه السلام (ص١٥٧-ص١٧١):

يقدم الكاتب للقصة بمقدمة أدبية، فيقول: ومضى قوم نوح، وطوهم الأمواج، إلاّ فئة قليلة آمنت، واستخلفت في الأرض، وراحت تشيد البنيان، وتؤسس العمران... وتدور عجلة الزمان ويـئن الشيطان من بطالة كادت تقتله. فيخرج من وكره ويوسوس لأحفاد أولئك الناجين. مزيناً لهم الجهالة، وكأنه يقول لهم...، ثم ذكر الحوار المتوهم الذي وسوس به الشيطان، وكان أولئك الأحفاد هم عاد. يعيشون بين اليمن وعمان، في الأحقاف وعندهم الينابيع والعيون والشجر والزرع والحدائق والجنان والازدهار والعمران... وزادهم الله بسطة في الجسم، وقوة في الأبدان...

ولم يقف ضلالهم عند السجود للأصنام، بل انحدروا في الأخلاق بالظلم والاستبداد، فأرسل الله هوداً، يرشدهم إلى الطريق، فخاطبهم بالحق والعقل والحجة والبرهان، ويعرض الكاتب على طريقته مشاهد القصة بلغته وأسلوبه، وتفصيلاته، وحواره.

المهم أن هوداً لم يفلح في ثني قومه عن ضلالهم، ومرت فترة، حبس فيها المطر وظهرت بعد مدة سحب دكناء ملأت الأجواء، فهلل القوم... هذا سحاب ممطرنا، ولم يلبثوا إلاّ قليلا حتى جاءتهم ريح عاصف، سلطت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حتى أصبح القوم صرعى، ونجا هود ومن معه، ثم انتقل هود إلى حضرموت (!).

وعقب على القصة بمبحث تحت عنوان... القرآن والمثاني، والفاتحة هي السبع المثاني: فكان مما قال: وصف القرآن نفسه بأنه مثاني، والفاتحة هي السبع المثاني. أما كونه مثاني فيثنى فيه بعض القصص: والمواعظ، ويثنى في التلاوة فلا يمل ومن القصص التي ثنيت قصة هود. فقد وردت في الأعراف في ثماني آيات، وفي سورة هود في إحدى عشرة آية، وفي الشعراء بخمس عشرة آية، وفصلت في آيتين، والذاريات والحاقة أيضا في آيتين لكل، وفي سورة القمر خمس آيات، وفي سورة الأحقاف ست آيات.

صالح عليه السلام (ص١٧٥-ص١٨٢ والتعقيب ص١٨٣-ص١٩١):

بدأ القصة بقوله: هلك قوم هود عليه السلام بذنوبهم، فأورث الله ثمود أرضهم وكانوا عربا فخلفوهم فيها، وعمروها أكثر مما عمروها وشادوا القصور، وغرسوا الحدائق، ونحتوا الجبال... (وأما أنهم سكنوا محلهم فغير مسلّم فثمود في شمال الجزيرة وعاد في جنوبها وهو سهو من الكاتب). واشتطت بهم الحياة فأرسل الله لهم صالحا، فدعاهم إلى عبادة الله، ووعظهم، فعموا وصموا، وقالوا: يا صالح كنا ندخرك لملمات الدهر وعدتنا حين يحزب الأمر، يحاولون استمالته. (لست أظن ذلك، إنما هو سخر منهم لما آل إليه في نظرهم...).

وخوفهم صالح بأس الله إن هم عصوا... ثم رسم حواراً ومشاهد بتصرف منه إذ قال إن صالحاً تحدى القوم أن يسألوا آلهتهم ويسأل إلهه، فسألوا فلم يجابوا، فسأل الله أن اخرج لنا من الصخر ناقة فخرجت. ومع ذلك لم يؤمنوا. ومع الوقت آمن بعض المستضعفين، فكان تآمر على قتل الناقة، ثم يرسم سيناريو آخر إذ يصورهم يتراجعون في كل مرة يهمون فيها بقتلها ثم استعانوا بالنساء (!)، وقال: والمرأة الجميلة إن أمرت كان عشاق الجمال طوع أمرها. وهاهي "صدوق ابنة المحيا" (!) تعرض نفسها على "مصرع بن مهرج" إن هو عقر الناقة. (ولست أدري لم هذه التفاصيل التافهة والأسماء المفتعلة السمجة!؟).

وعلى كؤوس الخمر تلاقت الهمسات (!) حول صالح وناقته، وكمن لها مصرع فرماها بسهم وابتدرها "قدار بن سالف" بالسيف ثم طعنها فنحرها... فأمهلهم ثلاثة أيام فتعجلوا، فأخذتهم الصاعقة، ورأى صالح ما حل بقومه، فتولى عنهم والأسى يملأ نفسه...

وتحت عنوان: قصة ثمود والإيجاز في القرآن الكريم، قال الكاتب: لندرك معاني القرآن، لا بد من معرفة أصول الصياغة، وصياغة اللغة لا تكون إلاّ: مساواة، أو إطناب، أو إيجاز.

- أولاً: المساواة: أن تكون المعاني بقدر الألفاظ.
- ثانياً: الإطناب: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة...﴾ وذكر صور الإطناب الأربعة:

١- خاص بعد العام: ﴿... والصلاة الوسطى...﴾.

٢- عام بعد الخاص: ﴿... ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات...﴾.

٣- التكرار: ﴿كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون﴾.

٤- التفصيل: ﴿... في خلق السماوات والأرض... واختلاف...﴾ (من هنا تفصيل).

-- ثالثا: الإيجاز: أن يكون عدد الألفاظ أقل من عدد المعاني. وإيجاز الحذف، كقوله تعالى: ﴿ولو أن قرآناً...﴾ ، وإيجاز القصر: ﴿ولكم في القصاص حياة...﴾ .

ثم طبق نظريته في الإيجاز على قصة صالح، فقال: بدأت في الأعراف (٧ آيات)، ثم إيجاز آخر في سورة هود (٨ آيات)، ثم إيجاز مختلف في الشعراء (١٨ آية)، ثم موجز في النمل (٩ آيات)، إلى أوجز في القمر (٩ آيات)، ثم أوجز في الشمس (٥ آيات).

إبراهيم عليه السلام (ص١٩٥-ص٣٠١):

كانت الجاهلية تعود، وينصرف الناس عن رسالة التوحيد، ولكن الله كان يوالي الرسل على الأمم لينقذوهم، ويكون العذاب جزاءً عادلاً للمعرضين.

وتوالت القرون حتى سنة (٢٠٠٠) ق.م. (!) عندما شهدت بابل بالعراق تكويناً حضارياً لم يسبق حيث طغت المادة وفسدت العقائد، في تلك الحقبة ظهر ملك يدعى "نمروذ بن كنعان" (!) لا يتورع عن بطش وظلم، فخضع الناس له، وكانت بابل تفيض بالخير، ويقدسون الكواكب، فكان أن رأى النمروذ في منامه أن كوكباً يطلع في بابل فيحبس ضوء القمر ويحجب نور الشمس. (وهنا لا بد من تعليق، فمن أين هذه المعلومة؟ أمن القرآن؟ القرآن محدد واضح! فمن السنة؟ والسنة بينة جلية! فمن كتب النقلة عن اليهود؟ نعم لا غير!). فأزعجته الرؤيا، ودعا الكهان لتعبيرها، فأجمعوا على أن مولوداً في مملكته سوف ينكر عبادات قومه ويدين بإله واحد. (الرؤيا خاطئة في نصها ورموزها، فالكوكب الذي يطلع لا يحجب نور القمر ولا الشمس، فليست الوثنية أقماراً ولا شموساً، فالرؤيا تخليط وأغاليط!).

وجن جنون نمروذ، فأمر بعزل النساء عن الرجال وأن تحبس الحبالى حتى يلدن (!) لكن امرأة عزمت ألاَّ تخبر عما في بطنها، إنها أم إبراهيم (!) فوضعت عند رجل بعيد في البرية في غار مهجور، وسمته "ابرأ منهم" (إبراهيم) (!!)، وظلت عند أبنها حتى نفد زادها وشرابها، فتركته في الغار (!)، وظلت الأم على هذا الحال ترعى طفلها خلسة عدة سنين (هذه قصة خارج نطاق القصة، كغصن يابس في شجرة نضرة). ويبلغ الفتوة، وكانت الوحدة داعية للتفكر، فقاده التفكير إلى ولوج باب الحقيقة.

لقد صنع الله إبراهيم على عينه، وأوسع له أحضان الكون يربيه. ويكمل الكاتب رسم سيناريو من عنده لا علاقة له بالقصة القرآنية لا من قريب ولا من بعيد سوى أنه يستخدم اسم ابراهيم عليه الصلوات والتسليم. يقول: "وجاءت أمه يوماً، تحمل معها كعادتها زاداً، فأبى أن يمد يده، وأجابها بأنه لم يعد يحتمل البقاء حبيساً في البراري..."، وتذكره أمه بنمروذ، فيصر... الخ.

ويواصل الكاتب قصته الخاصة به... دخل إبراهيم على أبيه آزر، فهب يلقاه بفرح عارم... ثم يقول: والسياق القرآني لم يأت على ذكر وشاية قامت عليه، أو تحقيق جرى معه... (وكأن القرآن ذكر كل ما أتحفنا به الكاتب من قبل!!).

ثم سأل ابراهيم أباه الذي يمتهن صناعة التماثيل... عنها وعن عبادته، فيجيبه إنها عبادة الآباء... وهي مصدر رزقي، وغداً ستحمل على كتفك عدداً منها وتدور في الأسواق لتبيعها. وشعر إبراهيم بالضيق... (أمن اليوم الأول ولا ضيافة ولا تكريم؟ وكل هذا تصورات وخيال!).

ثم صور لنا الكاتب كيف طاف إبراهيم بها ينادي: من يشتري ما لا يضره ولا ينفعه. فلم يبع شيئاً. وتصور الكاتب وقائع أخرى من مثل أن إبراهيم كان يضعها في الحمأة، ويقول تكلمي... وشكا القوم إبراهيم لأبيه...

ثم كانت نبوة إبراهيم، وبالصدق النبوي، وبحرارة الدعوة أوضح إبراهيم لأبيه طريق الخير...

ثم حاور إبراهيم قومه... وسامرهم يوماً فرأى في الأفق الغربي كوكب الزهرة (!)، وحث إبراهيم القوم على مراقبة الكوكب إلى أن يأفل، وهذا لا يصلح بأن يكون رباً. ونجحت تجربة ابراهيم. (الكاتب لم يشر إلى قوله: هذا ربي...).

وفي مرة أخرى طلع القمر وتلألأ، ثم قال لهم: هذا ربي... وبقي في مجلسه حتى دلوك الفجر (!). ثم اتخذ موقفاً جديداً بأن يعمد إلى الشمس وأعاد البرهان بأنها مثل غيرها غير جديرة بأن تعبد. ثم أعلن: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات﴾ ودهش أهل بابل من هذا التوجه الغيبي لإبراهيم. ولم يؤمنوا مع وضوح الحجة.

لم تنفع تلك الهزة العقلية التي أثارها إبراهيم مع قومه. فصمم أن يتصدى للقوم بنقد لاذع للتماثيل، وانتهى به الأمر إلى تحطيمها إلاّ الكبير أبقاه لغاية... وبعد محاكمة أعدوا للقصاص الكبير. فكانت معجزة الله الكبرى إذ نجّى إبراهيم من نارهم. ويعيد قصة جبريل ومحاورته لإبراهيم إن كان بحاجة لمساعدة... ويظل جبريل يحتضن إبراهيم حتى يوصله إلى جوف اللهب... (!). (ونقول من أين للكاتب هذه المعلومة وليست في كتاب ولا سنة ولا خبر؟).

ثم ناقش الملك نمروذ، فقال الملك: ما هذه الفتنة التي تشعلها في قومك، ومن هذا الإله الذي تدعو إليه؟ وغلب الملك، فشدد الرقابة على إبراهيم (!) فصار لا يدنو منه أحد، فهاجر إلى فلسطين، وقد أسر بذلك إلى زوجه (!) وهاجر معه لوط (صحيح لأن القرآن قاله) وأقام إبراهيم في نابلس (!) ويتصور الكاتب أن ابراهيم طلب رؤية إحياء الموتى "ليشفي غليل قلبه" (وليس كذلك).

ثم ارتحل إلى مصر، ولا يفوته أن يصف سارة بأنها كانت روعة في الجمال (!) (نحن في قصة قرآنية يا أستاذ) وقد رآها أحد البطانة يوماً في السوق فراعه فرط جمالها... فذهب تواً للملك. وأعاد الكاتب القصة إياها... ثم قال: وأقام إبراهيم في مصر ما شاء الله أن يقيم هادئ البال، راضي الحال... وزاد ماله، وكثرت أنعامه، وذاع صيته... وعاد إلى فلسطين.

ويتزوج هاجر بمشورة سارة، ويأتيه إسماعيل، ويصرف إبراهيم جل وقته يداعبه ويناجيه (!) (تفاصيل لا معنى لها). فاشتعلت الغيرة، ولم تعد سارة تطيق النظر إلى الغلام (يا ناس!)، وطلبت أن يبتعد به وبامه. وظل إبراهيم يغذ السير ويقطع الفلوات، حتى وصل مكاناً قفراً أجرد وأحس بقوة تشده إلى هذا المكان وأن سراً يجذبه إليه. فتزل فيه. ثم أسرع في العودة لأن سارة في انتظاره (!) فتشبثت هاجر بثوبه. وقبضت على خطام الدابة... (يظن سادتنا الكتاب أن القصة القرآنية حمىً مستباح نضيف إليها ما نشاء من تفاصيل وأحداث وحوارات بلا ضابط، ونملأ الفراغات بما نشاء... ليس هذا من المنهج). فقال لها: إنه أمر الله يا امرأة... (مع أنه لم يقل لنا هذا قبل قليل، بل قال: إن سراً يجذبه...).

ويقص علينا قصة نفاد الطعام من هاجر والماء، فيخرج الله لها نبع زمزم. فتأتي قبيلة جرهم فتقيم معهم على الماء... ثم كان البلاء المبين بالأمر بذبح إسماعيل، ويرسم على طريقته سيناريو للمشهد: "يا أبت اشدد رباطي حتى لا اضطرب. واكفف عني ثوبك حتى لا ينتضح من دمي شيء فتراه أمي... و...

وفي اللحظة الحرجة، يلطف الله بإبراهيم فيسلب السكين خاصية القطع (مع أن النص لم يشر، وإنما قال: وفديناه...)، وهكذا لم تحرق النار، ولم تقطع السكين. وقص علينا قصة امرأة إسماعيل وكيف ردت على إبراهيم فأساءت وكيف طلقها إسماعيل (وليس من ذلك شيء في القرآن).

ثم جاءت البشرى إبراهيم باسحق، والبشرى بدمار قوم لوط. (ويتابع الكاتب رسم سيناريوهاته: وذات يوم، وفيما كانت الشمس في كبد السماء، انتحى إبراهيم جانب خيمته يحتمي في ظلها... وراح يسترجع شريط حياته في العراق... الخ).

ثم كان الأمر بناء الكعبة. فتكون الشيخوخة الحكيمة والشباب المتدفق متعاونين على تنفيذ أمر الله.

وبطريقته الأدبية في التداعيات والاستدعاء، قام يناظر بين مشهد بناء البيت على يد إبراهيم وبناء السفينة على يد نوح، وكيف كانت السفينة نجاة المؤمنين، فالكعبة ما تزال ملاذاً وأمانا للعالمين... من هول الطوفان الذي يغرق النفوس ويقتل الضمائر.

ثم نقل عن علي في نهج البلاغة (سيد البلغاء علي، ولم يقل خير الأنبياء !!) وصـــف الكعبـــة (وهو نص مسجوع واضح الصنعة لا يتصور أنه لعلي وإن كان احتفاء الكاتب به عظيماً).

وفي التعقيب وتحت عنوان: الأحرف وأهميتها في فهم القصص قال: وضـــرب المثـــل بهمـــزة الاستفهام واحتمالات معانيها من التحقيق والإنكار والاستفهام والتعجب. و"إذ" قد تكـــون ظرفـــا أو مضافاً إليه في زمان... و"إذا" قد تكون للمفاجأة أو ظرفاً للمستقبل.

وهكذا مثل بحروف: إلاّ، إلى، أم، أمّا، إمّا، أو، والباء، بل، واللام، ولـــو، ولـــولا، ومـــن... وهكذا.

ثم ذكر السور التي ذكرت قصة إبراهيم ونقل الآيات كما هي في: البقرة، والأنعام، وهـــود، وإبراهيم، والحجر، والنحل، ومريم، والأنبياء، والـــشعراء، والعنكبـــوت، والـــصافات، والزخـــرف، والذاريات، والأعلى.

لوط عليه السلام (ص٣٠٥-ص٣٢٤):

ترك لوط عمه إبراهيم في فلسطين وارتحل إلى أرض "سدوم وعمورة" في شرق الأردن (لا نعلم لا الأسماء ولا موقعها من دليل صحيح) يدعو إلى الله. فوجد قوماً تحكمت فيهم العادات السيئة. بـــذل جهداً ليعيدهم إلى الجادة فلم يفلح. لقد ترجموا الانحراف النفسي إلى انحراف جنسي. حتى امرأته أعلنت أنها مؤمنة، ولكنها خادعت (من أين لك هذا؟) توافي القوم وتتفق معهم على محاربة الدعوة. امرأته أحد أهم الأسباب فيما يلاقي (!).

عاش لوط مدة طويلة من الزمن (!) يدعو إلى الله، ثم جاء الملائكة الثلاثة (!) للمهمة التي ندبوا إليها، وبلغ هؤلاء أسوار سدوم ساعة العصر (!!) فوقفوا إلى جانب النهر ينظرون إلى فتاة وهـــي تمـــلأ وعاءها من مائه (!!) (إن الأستاذ يتابع رسم السيناريو بطريقته المفضلة الطليقة عن النص...) ودهشت من جمالهم (!) ثم سألوها عن منزل أبيها، الذي هو لوط، فرجعت تستأذن أباها في إحـــضارهم فـــأذن. (كلام ليس له مصدر إلاّ الروايات المهزولة والحكايات المنقولة عن الأمة المرذولة!).

ويتصور حواراً، وسرداً، ووصفاً، إلى أن يصل إلى قوله لزوجته: هيا يا امرأة لقد جاءنا غربـــاء فاكتمي الأمر (!) فأشعلت ناراً على السطح تعلم القوم (!) (وهي تفاصيل أهون ما فيها أنه لا نفع فيها، وأرذل ما فيها أنها افتراء على النص).

ثم يأتي قومه. فيعرض بناته زوجات لهم ليصرفهم عن ضيوفه... وكان الضيوف يتحدثون كأنهم لا يحسون بما حولهم (!). ثم يكشفون أنهم ملائكة وأعمى الله القوم الذين جاءوا (فطمسنا أعينهم) واقتلع جبريل بطرف جناحيه ديار قوم لوط من قرارها (من أين مصدر المعلومة؟) ورفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها وهوى بها. وتعاقبت على القوم حجارة من سجيل تحمل الشهب والسم (!) وكان صراخ لوط لا يهدأ وهو يحذر أهله (سيناريو...).

وذهب قوم لوط وبقي مكانهم أثر يدل عليهم هو بحيرة هي الأشد ملوحة في الأرض، والأخفض. والملوحة من الحجارة التي هوت. (كل ذلك لا يسلم فبحيرة لوط أقدم من قصة النبي بملايين السنين...).

ثم ذكر السور التي ذكرت قصته وهي الأعراف، هود، الحجر، الأنبياء، الشعراء، النمل، العنكبوت. الصافات، القمر.

إسحق عليه السلام (ص٣٢٧-ص٣٣٢):

يبتدئ بفرحة سارة بإسحق، أي يبدأ من خارج النص، وكان الشيب قد كسا رأسها (!) ولما بلغ إسحق الرجولة زوجه أبوه (!!) فأنجبت له عدة أولاد، ثم توفاها الله (!!) فتزوج بعدها بقريبة ولدت يعقوب.

وحمل إسحق الرسالة. ثم يصور لنا وداع يعقوب لإسحق وهو يشهق بالبكاء، ثم أعاد قصة أخيه الأكبر (!) وما يكون منه من حسد، فأوصاه إسحق بالرحيل إلى العراق، ومات إسحق هانئ البال لأنه جنب أولاده فتنة الاقتتال.

يعقوب عليه السلام (ص٣٣٥-ص٣٥٠):

يبتدئ قصته من حيث أنهاها هناك، وكيف هاجر وارتحل مع الفجر حتى اشتد الحر (تفاصيل وإغراق في التفاصيل بلا دليل...) ويصف لنا حر الجو وحر الفراق حتى كادت النفس تلتهب (!). فصار يسير في الليل ويتوقف في النهار فسمي إسرائيل لسيره الليلي (!!) (السير في الليل). ويطيل الكاتب في وصف الصحراء والطرق وكأنه كان رفيق السفر، ووصف مشاعر يعقوب حتى وصل أرض آرام، فسأل عن "لابان" وهو خال يعقوب، فسأل الرعاة فدلته راعية، هي ابنة خاله، واسمها راحيل (!!) ورأى يعقوب في هذه الفتاة ما يشبه ملامح أمه (!!) فكاد يبكي (يا راجل!) وصرخ "لابان": ابن أختي في ديارنا؟! (يا مرحبا..!) ثم تزوج الكبرى "ليا" على ثلاث حجج من الرعي، ثم ماتت "ليا" بعد أن أنجبت

ستة واثنين من زلفة ثم تزوج "راحيل" بناء على وصية "ليا". (كلام بلا دليل ولا فائدة ولا معالم، ولا رائحة من علم). ثم رجع يعقوب من غربته... ولا ينسى الكاتب إخبارنا عن ولادة "راحيل" ليوسف، ثم ولدت "بلهة" طفلين: "دان" و "نفتالي" ... (لم ندري من أين جاءت "بلهة")... ومات يعقوب وهو يوصي أولاده ويسألهم عن الإسلام.

يوسف عليه السلام (ص٣٥٣-ص٣٧٤):

يقول في بدء سرده للقصة: مهما بلغ الإنسان من البيان فإنه يظل مقصراً عن أداء ما يؤديه القرآن (باه). وبالغا ما بلغ النسج القصصي من صنع البشر(!) فهو لن يكون في مستوى الأسلوب القرآني (ما هذا؟!) لأن القرآن كلام الله... فيحيلنا لذلك إلى مصدر القصة القرآن حتى تظل على رونقها، وخيراً فعل. ولكنه عاد فعدل، فقال: ولكن حتى يسهل على القارئ فإنه سيعمد إلى محاولة يسيرة في سرد وقائع القصة وفق أسلوب آدمي (!).

عاش يوسف قصة المحن والابتلاء. ويعرض الكاتب القصة بألطف مما صنع في باقي القصص من التدخل والخروج عن النص، ويختم بالنص القرآني.

أيوب عليه السلام (ص٣٧٧-ص٣٨٤):

قصة أيوب من أروع قصص الابتلاء والصبر، وهي مشهورة، حتى ليضرب به المثل، ثم حدد بلدته بأنها "نوى" من أعمال دمشق. عاش سبعين سنة عابداً منعماً، ثم سرت إشاعات أن أيوب لو نزع عنه ملكه ونعيمه سيعرض عن ذكر الله، ويكون الابتلاء، والشيطان يوسوس للجماعات: لو كان نبياً ما ابتلي. ومضت سبع سنين، وهو في المرض. ويقول لزوجته لما سألته أن يدعو: استحي أن أطلب من ربي رفع بلائي (!!). ونجح المتآمرون وفرقوا بينه وبين زوجه. (وأقول ليت الكاتب صنع هنا ما صنع في قصة يوسف، لكن شجعه على التزام النص في يوسف كون القصة في مكان واحد متتابعة ومتكاملة...). ثم يدعو ربه فتتفجر عين ماء يستقي ويغتسل منها فيشفى. وتعود المرأة لتواسيه فتجده قد عوفي (يا لمحاسن الموافقات!!) إنه أيوب (!).

شعيب عليه السلام (ص٣٨٧-ص٣٩٥):

أهل مدين عرب يسكنون أطراف معان، وكانوا مشركين، وعندهم نقص المكيال، بعث الله شعيباً رسولاً لهم، فدعاهم برفق فلم يلتفتوا، فعرفهم بأس الله فلم يفقهوا. فدعا بأن يفتح الله بينه وبينهم

ففعل. فابتلي القوم بالحر فخرجوا من ديارهم (!) وإذ سحابة فاجتمعوا تحتها (!) فرمتهم باللهب، وزلزلت الأرض تحت أقدامهم، وقد ذكرت قصته في ثلاث سور: الأعراف، هود، الشعراء.

موسى وهرون عليهما السلام (ص٣٩٩-ص٥٠٠):

يبتدئ بالخروج عن النص إذ يقول: عاش يعقوب في مصر فترة، ثم توفاه الله فحمله أولاده إلى موطنه فلسطين. ليدفنوه فيها. تنفيذاً لوصيته، ثم رجعوا إلى مصر. وتتكاثر ذريته في مصر حتى يربو عددهم على مئات الألوف (!!) وظلوا على الدين الحنيف (!) ومات يوسف. فتنكرت مصر للتوحيد. ورأى فرعون في المنام ناراً تقبل من بيت المقدس (القصة إياها وكأنها تبرر لفرعون ما يفعل!) وهذه النار تهلك فرعون -كما يرى- فغلى الحقد في قلب فرعون.

وصار يقتل الأولاد.وولد موسى، وكابدت أمه "يوكابد" خوفاً عظيماً وهي في حملها(!). وتلقيه في الماء كما هو الهاتف. ويستقر في قصر فرعون... ولا يفوته أن يُغرق في التفاصيل كيف تعلقت امرأة فرعون بالطفل، حتى إن فرعون خشي أن يفتتن هو به (!!).

ثم يقتل نفساً بعدما كبر ووعى مشكلة قومه، ويخرج إلى مدين عشر سنين. ويدخل في التفاصيل بلا دليل وكيف دفع موسى الرعاة على البئر وسقى للفتاتين...

ويعود موسى بأهله إلى مصر. وتكون نبوته، ويعيد الكاتب العلة في بيان موسى إلى الحكاية الشعبية عن الجمرة والتمرة... وهو يرى أن هرون أكبر سناً. وهي كلها أمور لا سند لها ولا دليل عليها.

وفي لقاء موسى مع فرعون يصر على أن يرسم المشهد بتفاصيله والحاضرين ومجلس كل وترتيب الحاضرين... وهو كله مما لا يلزم ولا ذكر له في القرآن الكريم وقصصه الحكيم.

وتكون المباراة العظمى بعد مجادلات... ويكون إيمان السحرة... وكان حرياً بالشعب أن يؤمن ولكنه لم يفعل، ثم يبرز مؤمن آل فرعون، داعية آخر وسط بلاط فرعون، ثم يقص الكاتب قصة فرعون، بتفصيلات من خارج النص والسياق. ثم ينقل عن الإمام علي نصاً في قصة فرعون مع موسى لا يعقل أن يكون له.

ثم نزل البلاء بفرعون وقومه، ثم كان خروج موسى ببني إسرائيل من مصر، وكان عبورهم البحر ونجاتهم، وغرق فرعون ومن معه.

ثم قص علينا الكاتب ما قص القرآن من تيه بني إسرائيل، وعلى العادة يتحفنا أو يغرقنا بتفاصيل، وكيف أن المنّ كانت تحمله طيور السلوى وترميه إليهم مغلفاً بأوراق الشجر!

ويقص قصة الطور، وظهور السامري والعودة إلى الوثنية من جديد. ثم توبة بـــني إســـرائيل، والنكول عن التوبة. ثم يعرض مشهد دخول الأرض المقدسة بتفاصيله الإسرائيلية المخترعـــة ثم انتـــهى المطاف بالتيه. ثم قص قصة البقرة. وموسى والخضر.

ثم يعرض موت موسى وهرون، إذ يموت هرون في غياب موسى (!!) وبعده بسنة مات موسى (!). وفي التعقيب على قصة موسى وهرون أشار إلى التكرار الذي لا يتناول جسم القـــصة، ولا يعيـــد سياقها، وهي فكرة "التصوير الفني" وإن لم يشر الكاتب إليه. ويختم القصة بذكر نصوصها في القرآن في ثلاثين صفحة ونيف.

ذو الكفل عليه السلام:

يرى الكاتب أو ينقل أن اسمه: "عويدايا بن ادريم" (وما أدراه؟) ولقب بذي الكفل لأنه تكفل لملك جبار إن هو تاب دخل الجنة ودفع إليه كتابا بذلك، فتاب الملك (ومثل هذا لا يصح ديناً ولا عقلاً، فمن يملك لأحد من الله شيئاً؟). وهو من أنبياء بني إسرائيل. ثم أتحفنا في أثناء السرد بقصة داخل القصة إذ قال: لما كبر هذا النبي وبات عاجزاً عن رعاية شؤون القوم، قال: من يتقبل مني ثلاثاً فاستخلفه مـــن بعدي؟ فقام رجل من عامة الناس فتعهد أن يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب، فبعثـــه الله نبيـــا. (ونقول: إن تصور مفهوم النبوة خاطئ، فالنبوة اصطفاء مباشر من الله).

داود عليه السلام (ص٥٠٧-ص٥٤٠):

بدأ القصة بذكر التابوت، وفقده، وعودته. ويسمي النبي الذي يعين طالوت وأنه "صـــمونيل" (!!) (وقطعاً هذا بلا دليل). ثم دخل في تفصيلات عرضها يطول. وانتقل بالسياق الذي يرويه هو مـــن عندياته إلى قصة داود الذي دفع به والده مع أخويه إلى الجهاد.

ويسرح بخياله في عرض قصة جالوت، في مدى من الحرية الفنية والمدى الواسع، فيصور لنا أن داود كان قبل قتل جالوت قد قتل ذئباً ودباً (!) (ما شاء الله!)، وكيف عرّف طالوت على نفسه بأنـــه داود بن إيشا من بيت لحم.

وعرج على تسبيح الطير والجبال مع داود. ثم قصة الخصمين، وأنهما ملكان (!!) جاءا لمعالجة الهوى النفسي (!!) ثم اختار داود سليمان لخلافته (!).

ثم يصف ثورة أو فتنة قام بها "إيشالوم" الداهية على داود (وهي قصة لا علاقة لها بالقـــصص القرآني). ثم يستعرض الآيات التي تكلمت عن قصة داود: البقرة، الإسراء، سبأ، ص.

سليمان عليه السلام (ص٥٤٣-ص٥٦١):

عاش في كنف أبيه داود (طبعاً)، وقد بدت عليه منذ الصغر منة الله من الفهم والفطنة. هكذا بدأ الكاتب القصة. فإذا بلغ الحادية عشرة، صار يجلس إلى جانب أبيه في مجلس القضاء(!). وقص قصة الغنم والزرع، ثم يستنتج منه استنتاجاً بعيداً فيقول: كان هذا الحادث إيذاناً بخلافة سليمان على بني إسرائيل بعد موت أبيه.

ثم يواصل الوصف التاريخي: وكانت الحروب متواصلة بين الناس، فاهتم بجيشه حتى صار من أقوى الجيوش. ومنه دلف إلى قصة الخيل وتواري الشمس بالحجاب. وانشغال سليمان عن صلاة العصر. فاشتعلت نفسه بالغضب، ونالت منه شدة الانفعال (!) فنادى: أبعدوها عني (!!) لقد فتنتني (!)، ولشدة حزنه سقط جسداً على كرسيه أي صار عاجزاً (هنا يدمج قصة بقصة!) وهزل جسده (إيش الدعوى؟!)، ويستغفر ربه فيعيد له الصحة (!) (ليست القصة هكذا ولا الأمر على ما قيل).

ثم بنى سليمان الهيكل (هنا زيادة من بني إسرائيل، فلا ذكر للهيكل في القرآن...) وقد أقامه في بيت المقدس، ثم تكلم عن قصة النمل وملكة سبأ والهدهد. ويسمي الرجل الذي أحضر العرش "آصف"، وهي بالقطع إسرائيليات أو مخترعات، وأنه كان يعلم الأسماء الحسنى(!) (وهل هو وحده؟).

وكان من عادة سليمان أن يعتكف في بيت المقدس، ودخل الهيكل وهو ابن ثلاث وخمسين. وأدركه الموت وهو متكئ والجن تروح وتجيء مسخرة حتى نخرت السوس العصا فظهر موته. ثم يذكر السور التي ذكرت قصة داود وسليمان: الأنبياء، النمل، سبأ، ص.

الأنبياء بشر يتكاملون (ص٥٦٢-ص٥٩٠):

يقول الكاتب تحت هذا العنوان: لولا القرآن لما عرفنا قصص الأنبياء على حقيقتها. وأقول فلماذا كان الكاتب يخرجنا عن القصة القرآنية إلى سرده هو؟

ثم بين أن كثيراً من المفسرين وقع بقصد أو بغير قصد فيما يجافي سير الأنبياء. وإذا كان الأنبياء فعلوا غير الأولى فإن هذا لا يعد ذنباً.

ثم قال أن الإسرائيليات تعبر عن الهوى أكثر مما تدل على العقلانية. ثم نفى قصة التسع وتسعين امرأة فيما زعموا في قصة داود. ونفى أن يكون هذا النبي الأواب الصوام عبداً لغرائزه.

ونفى في قصة سليمان تقتيل الخيل. ومن الجميل الذي قال: إذا كان سليمان لا يقدم على قتل نملة أفيقتل الخيل؟ ونفى قصة الخاتم، وأنه انحطاط فكري، وتضليل ودس. ثم قرر أن عصمة الرسل تتعلق

بالعقيدة ودليل العصمة عقلي. والدليل العقلي قائم على عصمة الأنبياء عن الكبـــائر. أمـــا الـــصغائر فخلاف.

والرسل يجري عليهم من المشاعر غضباً وخوفاً ما يجري على البشر. وضرب تحريم العسل مثلاً واستغفار الأنبياء شكر. وقد كرر هذه الفكرة. وفي نهاية المبحث كرر أن قصص الرسل على حقيقتها في هذا الكتاب، وهي بعيدة عن كل تحريف.

إلياس عليه السلام:

خلف يوشع موسى، وكان وصيه (هذه من تأثيرات فكر الشيعة على الكاتب...) وكـــان في بعلبك، ملك ظالم فتن الناس وعبدهم "بعل". فبعث الله إليهم إلياس. فأضمر الملك قتله. ثم أصيب القوم بقحط، فدعا إلياس فنزل المطر بعد انحباس، واخضر الزرع بعد يباس، فصلح أمر الناس (وهذا كله من عند الكاتب لم يقله القرآن عن إلياس. ولا أدري لمَ افتتح القصة بموسى ويوشع ولا ربط أبداً).

اليسع عليه السلام:

هو ابن عم إلياس (وما يدرينا، ولا يعنينا). وشهد الله أنه من الأخيار.

يونس عليه السلام:

بعث في نينوى بالموصل من العراق، وكان القوم قد عبدوا الأصنام كغيرهـــم مـــن الأقـــوام، واستغرب أهل نينوى تنصيب هذا الرجل نفسه رسولاً (هو لم ينصب نفسه)، فأنذرهم يـــونس عـــذاباً واقعاً، فلم يستجيبوا، ثم خرج من بين أظهرهم، فلما رحل أيقنوا من تحذيره لهم، وداخلـــهم الإيمـــان، وأغرق الكاتب في تفصيلات كيف أنه حتى الحيوانات أشفقت... ويركب يونس البحر، ثم ينتهي في بطن الحوت.

وذكرت قصته سورة يونس، والأنبياء، والصافات.

زكريا عليه السلام:

بُعث في بيت المقدس، وكان الشعب مقبلاً على الدنيا إلاّ قلة، وعاش زكريا حياة حافلة بالعبادة حتى بلغ التسعين وهو يخاف على الدين فدعا الله أن يرزقه بولد، ويكون ما شاء الله فيولد يحيى ليحمـــل الأمانة، سلام الله على زكريا إنه كان عبداً نقياً تقياً.

يحيى عليه السلام:

لقد آتاه الله الحكمة صبياً، وأعده لحمل الكتاب، وآتاه الحنان، هبة لا تكلفاً... ثم يدخل بنا الكاتب في لجة الإسرائيليات عن عشق "هيرودس" لابنة أخيه "هيروديا"، فاستنكر النبي، فأوغرت صدر عمها عليه حتى لا تحرم من الزواج من عمها، فأتاه حرسه برأسه...

مريم بنت عمران:

في منزل فقير عاش أهله الحزن والتعاسة (!!) (غفر الله لك ومن أين لك هذا؟) عاش عمران وزوجه بلا ولد... فنذرت إن هي حملت أن تهب طفلها للعبادة... فولدت مريم. فاعتذرت من الله أنها نذرت ولداً للمعبد، ثم كفل زكريا مريم وهو زوج خالتها.

عيسى عليه السلام:

على عادة الكاتب في تصوير المكان والجو، وتأليف حوار، ومشاهد، طفق يصنع الصنيع نفسه، فيصف كيف دخل جبريل على مريم، وحواراً دار بينهما، ثم يتمتم بكلمات غير مسموعة (!!). ثم نفخ في وجهها، واختفى... (!) وحملت ووضعت مريم الوليد، وتكلم في المهد، فإذا جوانب الكون كلها أصداء. (يأبى الكاتب إلاّ أن يخرج على النص ويمسرح روايته...).

ظل عيسى يتنقل بين الناصرة وبيت المقدس حتى بلغ الثلاثين (لماذا لم نعرف؟) فكانت فاتحة الوحي، ثم كانت المائدة من السماء معجزة له، ووقف له اليهود، فحرضوا عليه الروم. ووشى به يهوذا الإسخريوطي (!) وطلب الجائزة. وبينما كان المسيح محاصراً مع التلاميذ، وهو يعظهم، رفعه الله، وألقى شبهه على يهوذا، فصلب يهوذا...

ومن السور التي ذكرت قصته آل عمران، والنساء، والمائدة، والتوبة، ومريم، والأنبياء، والمؤمنون، والزخرف، والحديد، والصف.

ثم في فصل خاص يتكلم عن أهداف قصص الأنبياء، وينقل عن علي أقوالاً في المسيح، لا أظنها تصح، فهو مثلاً يقول: كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراجه القمر... دابته رجلاه، وخادمه يداه... الخ.

... وكان لا بد من الاختتام، فكان الإسلام هو آخر رسالة سماوية إلى الأرض، وكان النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.

الكتاب الرابع والعشرون

قصص الطير والحيوان في الكتـــاب والسنة

تأليف: عكاشة عبد المنان الطيـــبي

ط١، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

قصص الطير والحيوان في الكتاب والسنة / عكاشة عبد المنان الطيبي:

هذا ليس كتاباً مباشراً في القصة القرآنية ولكن فيه بعض المباحث أو العناوين تتصل بالقصة القرآنية، فعددناه من الكتب المتصلة بميداننا من أجل هذا. والكتاب عناوين عالجها الكاتب باختصار، فكل عنوان في المعدل صفحة أو صفحتين ونادراً ما يتجاوز ذلك، والملاحظة المهمة أنه لا يوثق المعلومات. اللهم إلاّ أنه يذكر الأحاديث معزوة إلى من أخرجها فقط، وقسم كبير من أحاديثه عن أحمد رحمه الله، فهو أوفر جوامع الحديث نصيباً ممن خرّج له... ولم يذكر المراجع في آخر الكتاب... مع أنه تضمن العديد من المعلومات العلمية والأدبية ليست تنشأ إنشاء ولا تروى من الحافظة... بطبيعة الحال.

يقع هذا الكتاب في أربع وأربعين وثلاثمائة صفحة، ولم يقسمه صاحبه فصولاً أو مباحث، وإنما عناوين، يستغرق العنوان صفحة أو صفحتين، ويبتدئ بذكر الحيوان حسب ما ورد إن في الكتاب وإن في السنة، ولو كلمة مفردة، ثم يثني بذكره في الأدب العربي، ثم معلومات عامة (علمية)، ثم رؤية هذا الحيوان في المنام وتعبيرها أو تفسيرها...

ولما كان موضوعنا في القصة القرآنية، فإنا سنختار ما يمت لموضوعنا ونتجاوز عما لا ينتسب لبحثنا.

الغــــراب:

ويبتدئ في الكتاب ما يمت إلينا، في الصفحة ٢٩ بعنوان الغراب وفي هذا المبحث أو العنوان قصة ابني آدم. يقول الكاتب: هذه القصة تقدم نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان، وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشر، والعدوان الصارخ الذي يثير الضمير، ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل، تكف النموذج الشرير المعتدي عن الاعتداء، وتخوفه وتردعه، عن الإقدام على الجريمة، فإذا ارتكبها وجد الجزاء العادل... كما تصون النموذج الطيب وتحفظ حرمة دمه.

ولا يحدد السياق القرآني لا زمان ولا مكان ولا أسماء القصة. والروايات عن قابيل وهابيل وأنهم هما ابنا آدم، وورود التفصيل على أن النزاع كان على أختين لهما، كل ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب، كما في العهد القديم، فقد ورد فيه الأسماء والزمان والمكان على النحو الذي تذكره الروايات.

والحديث الصحيح الوارد في هذا لم يرد فيه تفصيل: "لا تقتل نفس ظلماً إلاّ كان على ابن آدم كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل". البخاري عن ابن مسعود.

إن الحادثة وقعت في فترة طفولة الإنسان. وأنه كان أول حادث قتل عدواني متعمد، وأن الفاعل لم يكن يعرف طريقة دفن الجثث.

مثلت له سوأة الجريمة في صورها الحسية. صورة الجثة التي فارقتها الحياة. وباتت لحما يسري فيه العفن، فهو سوأة لا تطيقها النفوس.

وشاء الله أن يوقفه أمام عجزه وهو الباطش القاتل الفاتك عن أن يواري سوأة أخيه، عجزه أن يكون كالغراب... تقول الروايات: إن الغراب قتل غرابا آخر. فجعل يحفر في الارض (والنص لم يذكر قتلاً. والكاتب نفسه قال لنا قبل صفحة أن القصة القرآنية لم تحدد ولم تفصل هذه التفصيلات، وعاد مع التأصيل السابق يدخل في التفصيل) ثم وارى الغراب أخاه الغراب وأهال عليه التراب، فقال القاتل قوله، وفعل مثلما رأى الغراب يفعل.

وظاهر أن القاتل لم يكن قد رأى من قبل ميتا يدفن، وإلاّ لفعل... وظاهر كذلك أن ندمه لم يكن ندم توبة، وإلاّ لقبل الله توبته...

كما أن دفن الغراب للغراب قد يكون من عادات الغربان، وقد يكون حدثا خارقا أجراه الله.

وهنا يلتقط السياق الآثار العميقة التي تتركها في النفس رواية النبأ بهذا التسلسل، ليجعل منها ركيزة شعورية للتشريع الذي فرض لتلافي الجريمة في نفس المجرم، أو للقصاص العادل إن هو أقدم عليها بعد أن يعلم آلام القصاص التي تنتظره...

الناقة:

والعنوان الثاني الذي ينتمي إلى ما ينتمي إليه موضوعنا هو: الناقة. وذكر في مطلع بحثه الآيات من سورة الأعراف والشعراء، ثم قال: وردت قصة ثمود ونبيها صالح عليه السلام في مواضع شتى من القران الكريم... وثمود كانت القبيلة التي خلفت عاداً في القوة والتمكين في جزيرة العرب... كانت عاد في الجنوب، وثمود في الشمال. وكذبت ثمود بالنذر، كما كذبت عاد، غير معتبرة بمصرعها المعلوم في أنحاء الجزيرة.

وكان موطن ثمود في الحجر. وهي بين الحجاز والشام، وطبيعة أرضهم سهول وجبال، فقد كانوا يتخذون في السهل القصور ويتخذون في الجبال البيوت، فهي حضارة عمرانية واضحة

المعالم. وصالح يذكّرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد. وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها، ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد. وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضاً. وبذلك صاروا خلفاء ممكنين في الأرض، محكمين فيها، وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد، اغترارا بالقوة والتمكين، وأمامهم العبرة ماثلة في عاد الغابرين.

آمنت طائفة من قوم صالح واستكبرت طائفة، ونرى الملأ المستكبرين من قوم صالح يتجهون إلى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾.

وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف، ولاستنكار إيمانهم به، وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه. ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً. لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، والاطمئنان في منطقهم أنهم على يقين من أمرهم: ﴿قالوا إنّا بما أرسل به مؤمنون﴾، ومن ثم يعلن الملأ عن موقفهم في صراحة تحمل طابع التهديد: ﴿إنّا بالذي آمنتم به كافرون﴾.

وقالوا لصالح: ﴿يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنّا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾.

لقد كان لنا رجاء فيك، كنت فينا مرجواً لعلمك أو لعقلك أو لصدقك. أو لحسن تدبيرك، ولكن هذا الرجاء قد خاب... أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ إنها للقاصمة. فكل شيء يا صالح إلاّ هذا. يا لخيبة الرجاء فيك... ثم إننا لفي شك مما تدعونا إليه. شك يجعلنا نرتاب فيما تقول.

وهنا يقول صالح: يا قوم ماذا ترون إن كنت أجد في نفسي حقيقة إيماني بربي واضحة بينة، وتجعلني على يقين من أنّ هذا هو الطريق؟ وآتاني منه رحمة فاختارني لرسالته وأمدني بالخصائص التي تؤهلني لها. فمن ينصرني من الله إن عصيته فقصّرت في إبلاغكم دعوته، احتفاظا برجانكم فيّ ؟ أفنافعي هذا الرجاء وناصري من الله؟

ثم يسوق الله للقوم آية هي الناقة، التي يقول الكاتب وبحق ما يقول: ولا يذكر السياق لهذه الناقة التي أشار إليها صالح لتكون لهم آية وعلامة، ولكن في إضافتها لله ﴿هذه ناقة الله﴾ وفي تخصيصها لهم ﴿لكم آية﴾ ما يشير إلى أنها كانت ذات صفة خاصة مميزة يعلمون بها أنها آية لهم من

الله. ونكتفي بهذا دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التي تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح...

وفي سورة الشعراء: ﴿هذه الناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم. ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾.

لقد جاءكم بالناقة على شرط أن يكون الماء الذي يستقون منه يوماً للناقة، ويوماً لهم. لا يجورون عليها في يومها، ولا تجور عليهم في يومهم، ولا يختلط شرابها بشرابهم، كما لا يختلط يومها بيومهم، ولقد حذرهم أن ينالوها بسوء على الإطلاق، وإلاّ أخذهم عذاب يوم عظيم.

فماذا فعلت الآية الخارقة بالمتعنتين؟ إنها لم تكسب الإيمان في قلوبهم الجافة، ولم تطلع النور في الأرواح المظلمة، على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها، وإنهم لم يحفظوا عهدهم، ولم يوفوا بشرطهم، فعقروا الناقة، فأصبحوا نادمين.

ودل عقرهم للناقة، أي ضربهم لها بالسيف في قوائمها وقتلها على ذلك النحو، دل على فساد قلوبهم واستهتارهم، والسياق هنا لا يطيل بين إعطائهم وعقرهم إياها، لأنها لم تحدث في نفوسهم تجاه الدعوة تغيراً يذكر: ﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ فهي آخر ما بقي لكم من متاع الدنيا ومن أيام هذه الحياة: ﴿ذلك وعد غير مكذوب﴾ فهو وعد صادق لن يحيد. ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾.

فلما جاء موعد تحقيق الأمر وهو الإنذار أو الإهلاك أنجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا، نجيناه من الموت ومن الخزي، فقد كانت ميتة ثمود مخزيةً، وكان مشهدهم جاثمين في دورهم بعد الصاعقة المدوية التي تركتهم موتى على هيئتهم مشهداً مخزياً... ثم الخاتمة المعهودة تسجيل الذنب، وتشييع اللعنة، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكر ﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾.

الكبش:

انتهى أمر إبراهيم مع أبيه وقومه، ولقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسموها الجحيم، وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين، ونجّاه من كيدهم أجمعين، وقال: إني ذاهب إلى ربي... إنها الهجرة.

وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيداً، لا عقب له، وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى والصحبة والمعرفة، ليتجه إلى ربه الذي أعلن أنه ذاهب إليه، اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾، واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد، الذي يترك وراءه كل شيء، وجاء إليه بقلب سليم... ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ هو إسماعيل. وسنرى آثار حلمه الذي وصفه ربه به وهو غلام، ولنا أن نتصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهجر المقطوع من أهله وأقاربه، لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام الذي يصفه ربه بأنه حليم.

والآن آن لنا أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد في حياة إبراهيم، بل في حياة البشر أجمعين، وآن أن نقف من سياق القصة في القرآن أمام المثل الموحي الذي يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم. ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك...﴾ .

يا الله! ويا لروعة الإيمان والطاعة والتسليم. هذا إبراهيم الشيخ، المقطوع من الأهل والقرابة، المهجّر من الأرض والوطن، هاهو ذا يرزق في كبره وهرمه بغلام طالما تطلع إليه فلما جاءه غلاماً ممتازاً يشهد له ربه بأنه حليم.

وها هو ذا ما يكاد يأنس به، وصباه يتفتح، ويبلغ معه السعي، ويرافقه في الحياة... ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد، حتى يرى في منامه أنه يذبحه، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية، فماذا؟

إنه لا يتردد، ولا يخالجه إلاّ شعور الطاعة، ولا يخطر له إلاّ خاطر التسليم... نعم إنها إشارة، مجرد إشارة، وليست وحياً صريحاً، ولا أمراً مباشراً، ولكنها إشارة من ربه... وهذا يكفي... هذا يكفي... ليلبي ويستجيب، دون أن يعترض، ودون أن يسأل ربه... لماذا يا رب أذبح ابني الوحيد؟

ولكن لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب... كلا إنما هو القبول والرضا والطمأنينة والهدوء. يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب.

الأمر شاق... فهو لا يطلب إليه أن يرسل ابنه إلى معركة... إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده ذبحه. وهو مع هذا يتلقى الأمر هذا التلقي، ويعرض على ابنه هذا العرض، ويطلب إليه أن يرى في أمره، وأن يرى فيه رأيه!

أنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه وينتهي. إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر، فالأمر في حسه هكذا. ربه يريد، فليكن ما يريد. على العين والرأس وابنه ينبغي أن يعرف، وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاماً، لا قهراً واضطراراً، لينل هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم ! إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها. فماذا يكون من أمر الغلام الذي يعرض عليه الذبح، تصديقاً لرؤيا رآه أبوه ؟ إنه يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه أبوه من قبل.

﴿يا أبت...﴾ إنه يتلقى الأمر في طاعة واستسلام ورضى ويقين. ويتكلم مع أبيه في مودة وقربى، فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده بل لا يفقده أدبه ومودته ﴿افعل ما تؤمر..﴾ فهو يحس ما أحس من قبل قلب أبيه، يحس أن الرؤيا إشارة، وأن الإشارة أمر. وإنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا ارتياب.

ثم هو الأدب مع الله، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال، والاستعانة بربه على ضعفه، ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية، ومساعدته على الطاعة.

يا للأدب مع الله، ويا لروعة الإيمان، ويا لنبل الطاعة، ويا لعظمة التسليم!

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام... يخطو إلى التنفيذ: ﴿فلما أسلما وتله للجبين...﴾ .

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة، وعظمة الإيمان، وطمأنينة الرضا، وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان.

إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً، وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعاً، وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً.

ولقد أسلما. فهذا هو الإسلام في حقيقته، ثقة وطاعة ورضا وطمأنينة وتسليم. وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا، كانا قد أسلما، وحققا الأمر والتكليف، ولم يكن باقياً إلاّ أن يذبح إسماعيل وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده ربهما.

كان الابتلاء قد تم، والامتحان قد وقع، ونتائجه قد ظهرت، وغايته تحققت. ولم يعد إلاّ الألم البدني، وإلاّ الدم المسفوح والجسد الذبيح، والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء. ومتى

خلصوا له، واستعدوا للأداء بكلياقم فقد أدوا، وقد حققوا التكليف، وقد جاوزوا الامتحان بنجاح.

وعلم الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما، فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا...﴾ .

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلاً. فالله لا يريد إلاّ الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه، ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هي النفس والحياة. وأنت يا إبراهيم قد فعلت، جدت بكل شيء وبأعز شيء، وجدت به في رضى وهدوء وفي طمأنينة وفي يقين...

ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت، يفديها بذبح عظيم... ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى، ذكرى لهذه الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان... والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم، الذي تتبع ملته.

الغنم:

ورد ذكر الغنم في القرآن في عدة مواضع منها قوله تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾. وفي قوله تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى. قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى﴾.

قلت: وترك الكاتب قوله تعالى: ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب. قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾.

الذئب:

مع أن الذئب لم تقع منه أحداث تذكر، إلاّ أن الكاتب يتكلم عنه لورود ذكره في قصة يوسف، ويذكر الآيات ويفسرها، على طريقة الظلال.

الثعبان:

يذكر الآيات التي في سورة الأعراف من قصة موسى عليه السلام ثم يفسرها أيضاً على طريقة الظلال.

الجراد:

ورد لفظ الجراد في القصص في سورة الأعراف في قصة موسى، وهو من الآيات التي أرسلها الله على فرعون وقومه: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد...﴾ . وورد في مشاهد القيامة: ﴿يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر﴾.

والكاتب هنا يذكر المشهد القصصي الذي في سورة الأعراف. ويقول إنه يلتزم النص القرآني فيما ورد والسنة الصحيحة تحرزاً من الإسرائيليات، ثم ينقل رواية عن الطبري، وواضح أنها من الإسرائيليات.

القُمَّــل:

ورد ذكره ضمن قصة موسى ضمن الآيات التسعة المرسلة على بني إسرائيل وقد صنع الكاتب الصنيع نفسه هنا، إذ ذكر الآيات وفسرها بإيجاز ويتبع ذلك على ما هي العادة: ما ورد في الحديث، وغالبه عند أحمد، ثم تعبير رؤيته في المنام.

الضفادع:

ذكر في مطلع الحديث آيات سورة النمل، مع أنها لم تذكر لفظ الضفادع، وإنما فيها قوله: ﴿في تسع آيات...﴾ ، وأما لفظ الضفادع فلم يرد إلاّ في الأعراف، وقد ذكر الآيات من قبل فكأنه لم يرد أن يعيدها.

ثم فسر الآيات، وذكر الضفادع في الحديث النبوي، ثم في الأدب العربي، ثم معلومات عامة، ثم رؤية الضفادع في المنام.

البقــر:

يذكر الآيات المتحدثة عن قصة البقرة في سورة البقرة وهي الآيات ٦٧-٧٣، ثم ينقل تفسيرها عن الظلال، دون إشارة، ومما قيل: في هذه القصة القصيرة مجال للنظرة في جوانب شتى... جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة.

قال لهم نبيهم: اذبحوا بقرة، فماذا كان الجواب؟ كان سفاهة واتهامات لنبيهم بأنه يهزأ ويسخر منهم: أتتخذنا هزواً ؟

وكان رد موسى أن يستعيذ بالله، وأن يردهم برفق إلى جادة الأدب الواجب في حق الله. كان في وسعهم أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها... ولكن طبيعة الالتواء تدركهم، ... الخ.

وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار وكانوا في سعة... فتعقد عليهم الأمر وتضاعفت الشروط... وضاق مجال الاختيار.

﴿وإذ قتلتم نفساً...﴾ ، وهنا نصل إلى الجانب الثاني من جوانب القصة، جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة. وهنا يتغير السياق من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة: ﴿وإذ قتلتم...﴾ ، إلى أن يصل إلى قوله تعالى: ﴿كذلك يحي الله الموتى...﴾ ، كذلك يَمثل هذا الذي ترونه واقعاً ولا تدرون كيف وقع، ويَمثل هذا اليسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر.

ثم عرّج على البقر في الحديث النبوي وذكر أحاديث عن أحمد، ثم رؤية البقر في المنام وتعبير ذلك.

الحـــــوت:

ورد ذكر الحوت في عدد من المواضع في القصص القرآني:

١- في قصة موسى والعبد الصالح.

٢- قصة القرية التي كانت حاضرة البحر.

٣- قصة يونس في سورة الأنبياء.

٤- قصة يونس في الصافات.

٥- قصة يونس في سورة القلم.

في قصة موسى والعبد الصالح يحيي الله الحوت ويتخذ الحوت سبيله في البحر سرباً وكان ذلك آية لموسى يعرف بها موعده.

قصة أصحاب السبت: جماعة من بني إسرائيل يسكنون مدينة ساحلية، وكان بنو إسرائيل طلبوا لهم يوم راحة يتخذونه عيداً للعبادة، ولا يشتغلون فيه بشؤون المعاش، فجعل لهم السبت، ثم كان الابتلاء ليربيهم الله ويعلمهم كيف تقوى إرادتهم على المغريات والأطماع، وكيف ينهضون بعهودهم حين تصطدم بهذه المغريات والأطماع... وكان ذلك ضروريا لبني إسرائيل الذين تخلخلت شخصيتهم وطباعهم بسبب الذل الذي عاشوا فيه طويلاً، ولا بد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية، لتعتاد الصمود والثبات، فضلاً عن أن هذا ضروري لكل من يحملون دعوة الله، ويؤهلون لأمانة الخلافة في الأرض...

ولم يصمد فريق من بني إسرائيل للابتلاء الذي كتبه الله عليهم، لقد جعلت الحيتان في يوم السبت تتراءى لهم على الساحل، قريبة المأخذ، سهلة الصيد، فتفوتهم وتفلت من أيديهم بسبب حرمة السبت التي قطعوها على أنفسهم، فإذا مضى السبت وجاءتهم أيام الحل، لم يجدوا الحيتان قريبة ظاهرة، كما كانوا يجدونها في يوم الحرم.

لقد وقع ذلك، فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الاغراء، فتتهاوى عزائمهم، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم، فيحتالون الحيل للصيد في يوم السبت.

وراح فريق آخر منهم يرى ما يفعلون من الاحتيال على الله. فيحذر الفريق العاصي مغبة احتياله، وينكر عليه ما يزاوله من الاحتيال. بينما مضى فريق ثالث يقول للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: ما فائدة ما تزاولونه مع هؤلاء العصاة وهم لا يرجعون عما هم فيه؟

ويعتذر الفريق الثاني بقولهم هو واجب لله نؤديه، لنبلغ إلى الله عذرنا، ويعلم أنه قد أدينا واجبنا، ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية فيثير فيها وجدان التقوى.

قصة يونس مع الحوت: سمي يونس عليه السلام ذا النون أي صاحب الحوت لان الحوت ابتلعه ثم نبذه، وقصة ذلك أنه أرسل إلى قرية فدعا أهلها إلى الله فاستعصوا عليه، فضاق بهم صدراً، وغادرهم مغاضباً، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم، ظاناً أن الله لن يضيق عليه الأرض، فالقرى والأقوام كثيرة، والله سيوجهه إلى قوم آخرين، وقاده غضبه إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها، حتى إذا كانت في اللجة، هاج البحر، أو ثقلت السفينة، فقال الربان (أو قد قيل) إنه لا بد من إلقاء أحد ركابه لينجو سائر من فيها، فساهموا فجاء السهم على يونس فالقوه فالتقمه الحوت، فلما كان في الظلمات نادى: ﴿لا اله إلاّ أنت سبحانك...﴾ فاستجاب الله دعاءه ونجاه من الغم الذي هو فيه، ولفظه الحوت على الساحل. وفصلت حديثه ثلاث سور: الأنبياء، الصافات، القلم.

ثم ذكر الكاتب الحوت في الحديث، وذكر أربعة أحاديث كلها عن أحمد. ثم الحوت في المنام.

السلوى:

وقد ذكره في قصة بني إسرائيل.

الخنازير:

ركز الكاتب حكم تحريم أكل لحم الخنزير، ولم يذكر أنه ورد في قصة بني إسرائيل إذ مسخهم الله قردة وخنازير

القرود:

﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾، وينقل الكاتب دون إشارة أنه ليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم.

وأقول بل هو المسخ الحقيقي إلى قردة، أما مسخ الأفكار فهم قردة منذ أمد بعيد قبل هذه الحادثة.

وتكرر ذكر ذلك في قصتهم في الأعراف والمائدة.

الهدهد:

يذكر في البداية آيات سورة النمل، ثم قال أن الله سخر طائفة من الجن والطير تحت إمرة سليمان، كجنود من الإنس. ويقول: إن الطائفة التي سخرها من الطير وهبها إدراكاً خاصاً أعلى من نظائرها في أمة الطير. يبدو ذلك في قصة الهدهد الذي أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما (لا) يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم. وكان ذلك على طريق الخارقة والإعجاز. وقال: إن هدهد اليوم هو هدهد الأمس. ولكن الخارقة تقع عندما يريدها الله.

ثم يبدأ الحديث عن الآيات فيقول: يبدأ مشهد العرض العسكري العام لسليمان وجنوده. ها هو سليمان يتفقد الطير. ويتضح أنه غائب، ثم يتبين عذره. فيكون النبأ المفاجأة، ولا تستخف المفاجأة سليمان، بل يتحقق من الأمر.

ثم تسير الأحداث في وجهتها فيأخذ الهدهد كتاب سليمان، وتجد الملكة الكتاب، وتستشير ملأها في هذا الأمر... وينتهي دور الهدهد.

وأخرج الكاتب بعد ذلك عن أحمد النهي عن قتل الهدهد. ثم أتبع ذلك بالهدهد في الأدب العربي، ومن ذلك أبيات لشوقي. ثم الهدهد في المنام وأنه يدل على هد العامر وغير ذلك.

النمل:

ذكر بداية آيات سورة النمل، ثم قال: للطيور والحشرات والحيوانات وسائل للتفاهم هي لغتها ومنطقها فيما بينها: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم﴾، ولا

تكون أمماً حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها، ووسائل للتفاهم فيما بينها. ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها. وأما ما وهبه سليمان فكان شأناً خاصاً على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر... لا عن طريق المحاولة...

ثم تحول بالحديث إلى موكب سليمان... حتى إذا أتوا على وادي النمل. قالت نملة بالوسيلة التي تتفاهم بها النمل: ادخلوا مساكنكم...

هذه النملة التي قالت ذلك، لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح في الوادي(!!). ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم، تتنوع فيها الوظائف، وتؤدى كلها بنظام عجيب، يعجز البشر عن اتباع مثله، على ما أوتوا من عقل وإدراك...

فتبسم سليمان لقول النملة، إذ وصله الله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس. ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة، خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها، وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده.

ثم ثنى الكاتب بذكر النمل في السنة ومن ذلك عند أحمد أن نبياً حرق قرية نمل لأن نملة قرصته، فأوصى الله له أنها أمة تسبح. ورواه كذلك البخاري ومسلم.

ثم معلومات عامة عن النمل، وأن هناك (٨٠٠٠) نوع، وأن النملة تنمو وهي في طور اليرقة فقط، وأنها تتزوج مرة واحدة، ويمكن أن تعيش الملكة (١٥) سنة، وقطر العش ٧-١٠م، وارتفاعه عدة أمتار. وعمقه تحت سطح الأرض ٣م.

والنمل يستعبد بعضه، إذ يربي النمل الأحمر يرقات النمل الأسود وترعاها ثم يشغلها. ثم تكلم عن النمل في الأدب العربي، ومنه قصيدة للصافي النجفي من حوالي خمسين بيتاً... والنمل في المنام...

دابة الأرض:

وقد وردت في قصة سليمان عندما أكلت هذه عصاه...

الكلـــب:

قال الكاتب: فتية الكهف لا نعلم عددهم. وأقول: بل إن الله اخبرنا بذلك بطريق لطيف إذ نقض الأقوال بوصفها "رجماً بالغيب" ثم ذكر القول الحق: ﴿... سبعة وثامنهم كلبهم﴾.

هؤلاء الفتية لم يستصحبوا من جميع ما يرتفق الناس من شيء غير الكلب. ثم ذكر الكاتب أن الكلب رفيع الحال بدلالة أن القران جعله رابع الفتية حتى كان واحدا منهم. وأقول: بل هذا قول الذين وصف الله أقوالهم بما أسلفناه، أما القول الحق فهو ﴿... سبعة وثامنهم كلبهم﴾، ففصل بين الفتية وبينه بالواو التي تدل على رفيع ذوق أهل الإيمان.

وعطف الكاتب على هذه القصة التي ذكر فيها الكلب بالمدح قصة ذكر فيها الكلب بالذم، وهي قصة الذي آتاه الله آياته ثم انسلخ منها... وابتعد عنها.

ثم ذكر المواطن الذي ورد فيها ذكر الكلب في بعض الأحاديث... وقد حظي الكلب من الكتاب بمئة وخمس من الصفحات أي حوالي الثلث...

الحمار:

ورد ذكره في قصة الذي مر على قرية... وقال الكاتب: إن القران لم يفصح عن القرية ولا من هو الذي مر عليها، ولو شاء لأفصح. وقال: إن المشهد ليرتسم للحس قوياً واضحاً موحياً، مشهد الموت والبلى والخواء، يرتسم بالوصف: ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ أي محطمة على قواعدها، يرتسم من خلال مشاعر الرجل الذي مر على القرية، وهذه المشاعر ينضح بها تعبيره: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها...﴾ كيف تدب الحياة في هذا الموات؟

هذا أقصى ما يبلغه مشهد من العمق في الإحياء. ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ لم يقل له كيف، إنما أراه في عالم الواقع كيف. فالمشاعر والتأثرات تكون أحيانا من العمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي، ولا حتى بالمنطق الوجداني، ولا تعالج بالواقع العام الذي يراه العيان... إنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التي يمتلئ بها الحس، ويطمئن بها الحس، ويطمئن بها القلب دون كلام!

﴿قال كم لبثت...﴾ وما يدريه كم لبث، والإحساس بالزمن لا يكون إلاّ مع الحياة والوعي؟ على أن الحس الإنساني ليس هو المقياس الدقيق للحقيقة فهو يخدع ويضل، فيرى الزمن الطويل المديد قصيراً لملابسة طارئة، كما يرى اللحظة الصغيرة دهراً طويلاً لملابسة طارئة كذلك.

وتبعاً لطبيعة التجربة، ولكونها تجربة حسية واقعية. نتصور أنه كانت هناك آثار محسوسة تصور فعل مئة عام. هذه الآثار لم تكن في طعام الرجل ولا شرابه، فلم يكونا متعفنين. فلا بد أن الآثار كانت متمثلة في شخصه أو في حماره: ﴿وانظر إلى حمارك...﴾ ، ﴿وانظر إلى العظام...﴾ .

أية عظام؟ عظام الحمار التي تفسخت، ثم كانت الآية هي ضم هذه العظام بعضها إلى بعض وكسوها باللحم، وردها إلى الحياة، على مرأى من صاحبها الذي لم يمسه البلى، ولم يصب شرابه ولا طعامه التعفن، ليكون هذا التباين في المصاير والجميع في مكان واحد. معرضين لعوامل ومؤثرات جوية واحدة، آية أخرى على القدرة التي لا يعجزها شيء.

الفيل:

وبه يختم الكاتب كتابه. يقول: من النعم التي امتن الله بها على قريش، أن صرف عنهم أصحاب الفيل، الذين عزموا على هدم الكعبة، فأبادهم الله وخيب سعيهم. ثم ذكر الكاتب قصة ذلك. وسير أبرهة في جيشه وقد استصحب معه فيلا كبيراً يقال له محمود (!!).

ثم ذكر ما صنع عبد المطلب مع أبرهة

الكتاب الخامس والعشرون

من نبأ المرسلين :

هود ويوسف عليهما السلام

فصول في الدعوة و الدعاة

تأليف: د. حسن عيسى عبد الظاهر

ط١، الدوحة: ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

من نبأ المرسلين: هود ويوسف عليهما السلام / د. حسن عيسى عبد الظاهر:

الكتاب فيه مجهود، وفيه قدر من المنهجية، وإن كان الكاتب رسم منهجاً لخصه بالاعتماد على النصوص، لكنه في التطبيق تساهل وذكر روايات لا يمكن إلاَّ أن تكون إسرائيليات لتضمنها تفاصيل ليست في كتابنا ولا في ثابت السنة... ولكنها روايات مفسرين وقصاصين هو قال في بعضها: خرافات إسرائيلية.

أما المجهود فواضح خاصة في "الجغرافية التاريخية" إن جازت التسمية التي تضمنها الكتاب.

كان يأخذ من الآيات مباشرة، أقصد أنه ليس الاستنباط المعمق أو الاستخراج الفريد، ولكنه الأخذ القريب، ولكنه لا تكلف فيه وهذه ميزة.

فيه تفسير الآيات وتقسيم لها على طريقة التفقير (الفقرات)، وفيه شيء من التكرار... على عادة كثير من المؤلفين.

يقع الكتاب في ست وخمسين ومئتي صفحة، وعشرة فصول، وثلاثة أبواب. وتقديم موجز بين فيه أن الفصول المكون منها الكتاب تقوم على دراسة تحليلية في ضوء الكتاب والسنة لبعض جوانب الدعوة ومعالم الدعاة إلى الله، وقد تناولت ثلاثة موضوعات أساسية:

- الأول: مفهوم الدين وحقيقته وحقيقة الرسالة والمرسلين.
- والثاني: دراسة مستفيضة عن أمة ورسالة ورسول كانوا في بواكير التاريخ الإنساني وهي رسالة هود إلى عاد.
- والثالث: دراسة عن يوسف وممارسة للحياة والدعوة في إطار من الإحسان.

الباب الأول: الدعوة والدعاة إلى الله:

وفيه ثلاثة فصول. ويقع هذا الباب في ثلاثين صفحة. أما الفصل الأول فهو: الدين عند الله. بين فيه أن الدين فطرة. وذكر الآيات والأحاديث في هذا وهي معروفة.

والدين ضرورة: فهو الذي أعطى البشرية تلك الحصيلة الضخمة من الفكر والعلم والمفاهيم والقيم، كما تؤكد الدراسات الأنثروبولوجية.

والدين عند الله هو الإسلام: وذكر الآيات الكثيرة وهي معلومة. ثم فسر ما هو الإسلام.

الفصل الثاني: من معالم الرسل الدعاة.

من أصول العقائد الإيمان بالرسل. وذكر عددهم، ومن ذكر القرآن منهم. ثم قسمهم كما في آية ﴿وتلك حجتنا...﴾ أن المجموعة الأولى من جمعوا النبوة والملك (داود وسليمان، وأيوب ويوسف، وموسى وهرون). وكل اثنين من هؤلاء (ممتاز) بمزية. (وهو ينقله عن المنار).

ثم فاضل بينهم بما يمكن ألاّ نقره عليه، كقوله: والظاهر أن موسى وهارون أفضل في هداية الدين وأعباء النبوة من أيوب ويوسف وأن هذين أفضل من داود وسليمان، لجمعهم بين الشكر والصبر.

والقسم الثاني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس. وامتازوا بشدة الزهد. والقسم الثالث: إسماعيل واليسع ويونس ولوط. وأخّر ذكرهم لعدم الخصوصية.

ثم ذكر الرسل بالتفصيل ونقل نظماً عن جوهرة التوحيد:

حتم على كل ذي التكليف معرفة ... بأنبياء على التفصيل قد علموا

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ثم قال لنا إنه من جملة النقول عن المفسرين والمحدثين و... يتبين أن آدم مختلف في رسالته (!!)، وأن إدريس مختلف في رسالته (!) وفي كونه هو إلياس (!).

ثم ذكر جملة استنتاجات نلخصها فيما يلي:

١- الدعاة صنف مختار من الناس.

٢- الدعاة ملزمون بمنهج لا يحيدون عنه.

٣- ملامح الدعاة نستخلصها من القرآن من مثل: وتلك حجتنا.

وذكر أكثر من عشرة صفات استخرجها من نص الآية. ثم تكلم عن الحاجة إلى الرسل، ونقل عن زاد المعاد لابن القيم الفكرة.

الفصل الثالث: الدعوة وفقه الدعاة.

الدعوة قديمة قدم الإنسان، ولا يتصور انعدامها... وقد قص الله علينا من نبأ المرسلين. وذكر نماذج عديدة من الآيات.

أصول دعوة الرسل مطاردة الشرك، ومطاردة الانحرافات. وحول هذين قامت دراسات بشرية. وأما الشرائع فمنها أساس مشترك، ومنها ما كان علاجاً مؤقتاً.

ثم عرف العبودية بأنها اسم جامع لمراتب أربع: قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب (توكل، محبة...)، وعمل الجوارح.

والمتتبع لآي القرآن وما قصه يتبين هذه الأصول الثابتات والفروع الباسقات. وهي: الإلهيات، النبوات، الإيمان بالغيب (السمعيات)، الكونيات، الإنسانيات، الأخلاقيات.

الباب الثاني: أمة ودعوة وداعية (رسالة هود):

ويبتدئ بالفصل الرابع بناء على الفصول السابقة، وهو الفصل الأول في هذا الباب. وعنوانه: هذه الدراسة ولماذا؟

يقول إن دراسته هذه كانت لأن الله أمر بتذكر عاد ﴿واذكر أخا عاد...﴾ ، ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد...﴾ . وهي أمة من أول الحضارات في التاريخ الإنساني. وأما عوامل الهدم فيهم ففي اتجاهين: الشرك وكفر النعم. وأن الله أرسل هوداً ليقيمهم على المحجة. وأن منهج الدراسة يختلف باختلاف الدارسين.

ثم بين أن بعض أهل الأخبار ذهب إلى أن عاداً مذكورة في التوراة باسم "هدورام"، ولكن التوراة تزعم نسبه إلى (يقطان: قحطان)، وهذا لا يستقيم. وقد حاول جورجي زيدان التوفيق ولم يوفق.

ثم رجح الكاتب أنه لا عاد ولا هود ذكر في التوراة، وينقل عن الدكتور جواد علي أن المسلمين لما سألوا عن هؤلاء أنكر اليهود. والصحيح أن التوراة اهتمت بما له شأن باليهود ولم تهتم بالتواريخ العامة. وهو في هذا يرد على من يزعم أن قصص القرآن منقول عن التوراة.

ثم ذكر أن من المؤرخين وبخاصة المستشرقين يعتبر أن العرب البائدة ليست من التاريخ الحقيقي في شيء.

وفريق يرى أن عاداً حقيقة تاريخية ثابتة، وقد كشفت الآثار عن كثير من مما جاء في القرآن عن الأحقاف.

ونقل عن ابن خلدون أن مصدرنا في المعلومات عن هذه الأمم إنما هو القرآن فحسب.

ثم ذكر مواطن ذكر هود وعاد في القرآن وأنها وردت في عشرين موضعاً. كما سميت سورة باسم هود وأخرى باسم الأحقاف.

ثم عرض الكاتب نموذجا لعرض القرآن لقصة هود من سورة الأعراف وأن القــرآن لم يعرف بعاد، ولا بهود سوى أنه رسول إلى عاد، ثم لخص الدعوة في ثلاثة نقاط: اعبدوا الله، مالكم من إله غيره، أفلا تتقون.

ورد قومه بالتسفيه والتكذيب، ورد هود على ذلك، وهكذا تتوالى الردود، وصولاً إلى النهاية: نجاته وقطع دابر الذين كذبوا...

ثم ثنى بنموذج سورة هود، ويسير في هذا النموذج كما سار في السابق بدء الموضــوع بإرسال هود، وعرض دعوته (٨ عناصر)، ورتب على ذلك إرسال السماء وزيادة القــوة... ورد عاد، وإجابة هود، وصولاً إلى النهاية.

ثم توصل إلى أن العرض القرآني ليس دراسة تاريخية بالمعنى الاصطلاحي. فهي وإن طوفت حول دراسة المكان والزمان والأحداث والناس فإنما ذلك لبيان أسباب الانحراف... وكيف ركــز القرآن على هذا الهدف حتى ليبدو واضحاً أنه المحور من عرض الموضوع.

فلم يذكر القرآن نسب عاد، ولا جنسهم (ساميون أم حاميون)، ولا نوع تجمعهم (دولة، قبيلة...)، وذكر الأحقاف ولم يحدد جهة جغرافية.

وقد أجهد المفسرون والمؤرخون أنفسهم والقارئ معهم في التنقيب... أما زمن عاد فذكر القرآن أنهم خلفاء بعد قوم نوح، وأنهم سلف لثمود، لكن القرآن لم يطرح زمناً محدداً أو عــصراً لهم.

إن هدف القرآن إعطاء العبرة وبيان مسالك النجاة، وموارد الهلاك، وقد ركب المؤرخون وراء هذا الهدف الصعب والذلول، لإشباع الفضول.

أما تكرار قصة عاد وهود بخاصة والقصص بعامة فمن أهدافه: بناء الحياة على الإيمــان، وإقامة الإخاء الإنساني في ظل روابط العقيدة.

ثم نبه إلى طبيعة الدراسة واعتمادها على النصوص القرآنية وتحليلها، على ضوء ما ذكره المفسرون.

الفصل الخامس: عاد قوم هود:

ابتدأ بذكر نوح ونجاته ومن معه في السفينة وهلاك قومه بالطوفان. ومن أسف أن الكاتب بدأ بروايات تخالف المنهج الذي قرره قبل قليل، وهو الاعتماد على النصوص، فقد نقل روايــات

منها المرفوع ومنها دون ذلك، فيه تفصيل، لا غنيمة فيه، فيذكر بأن الذرية في قولـه: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ هم: (سام وحام ويافث)، وأن هؤلاء انتشروا في أرمينية والموصل والعراق وبلاد العرب. وسام كان له من الأولاد: ارم... الخ، ثم أولاد الجيل الثاني، ومن بعدهم.

والمهم أن عاداً هو كما يقول: (عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح)، وهذا كلام فيما نعتقد لا مرجع له إلاّ الإسرائيليات.

ثم ذكر القبائل المتناسلة من عاد، وسماها... ثم خلص إلى أن عاداً عربية وهي ضاربة في القدم وتكلموا العربية وعرفوا الكعبة.

ثم ذكر الأقوال في تعيين أرض عاد، وذكر أربعة أقوال:

١- موطنهم داخل الجزيرة وخارجها.

٢- اليمن.

٣- شمال الجزيرة.

٤- عمان إلى حضر موت. ويرجحه الكاتب.

ثم قال هو: إذا اعتبرنا البيت الحرام مركز دائرة نصف قطرها ١٢٠٠كم، فإنه في نطاق هذه الدائرة وقعت معظم أحداث القصص القرآني. ثم ذكر الأقوال في الأحقاف وأوصلها إلى قريب العشرة.

ووقف عند ﴿مستقبل أوديتهم﴾ ليستنتج أن منطقة الأحقاف منطقة أودية، وهذه تعزز القول الرابع كما قال. ثم وقف عند ﴿إرم ذات العماد﴾ وذكر الأقوال في العماد.

ومنهجه في استقصاء الأقوال ومطابقتها على الجغرافيا يشبه إلى حد كبير صنيع محمود قاسم في كتابه: من جغرافية القرآن.

ثم يفرق بين منهج الطبري وتركيزه على نقد السند، ومنهج ابن خلدون ونقده النص وذلك في رواية عن عبد الله بن قلابة يقول فيها إنه رأى مساكن إرم ذات العماد في حضرموت.

وقد علق الكاتب على رواية الطبري بأنها من خرافات الإسرائيليين أو أن عبد الله بن قلابة أصابته هلوسة.

ثم توقف عند عاد الأولى وعاد الآخرة وأن الأولى هي قوم هود.

الفصل السادس: معالم مجتمع عاد.

أعاد مرة أخرى أن عاداً جاءت بعد قوم نوح: ﴿خلفاء من بعد قوم نوح...﴾ وقد خصوا من النعم بكثرة الخيرات وشدة القوة. وقد كانت عاد تعلم بخبر نوح، وكان هؤلاء ما بين اليمن إلى الشام... فلم يرعوا نعمة الاستخلاف. ثم ذكر الآيات التي تكلمت عن مساكنهم: ﴿بالأحقاف..﴾ ، ﴿مستقبل أوديتهم...﴾ ، ﴿بكل ريع آية...﴾ ، ﴿وتتخذون مصانع...﴾ .

لقد جمعت أرضهم خصائص الأماكن الوحلية والصحراوية، وخصائص الوديان، وخصائص الأماكن المرتفعة... ولكنهم جحدوا.

ثم وقف عند ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾، وأنها سعة ملك. وسعة حضارة وسعة رزق، وسعة... الخ. (وقد رجع الكاتب في هذا إلى التاريخ الجغرافي للقرآن لسيد مظفر الدين).

ثم يتكلم عمّا في الآيات مما أمدهم الله من جنات وبنين... الخ.

ثم تكلم عن الديانة عند عاد، فهم يقرون بوجود الله، ولا يقرون الوحدانية، وكانوا يعظمون الكعبة، شأن العرب الجاهليين، ويعرفون الملائكة، وينكرون الآخرة، ويعصون الرسل، ويجحدون الآيات. ومما كان يصرفهم عن العقيدة ما بيدهم من أسباب واستكبارهم واغترارهم بقوهم وبطشهم وترفهم (يعتمد على الآيات).

ثم ينقل عن ابن خلدون قوله: "إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم...".

وواصل تعداد أسباب زوال ملك عاد، ومنه ما كانوا عليه من غواية، والتقليد والاتباع لكل جبار عنيد، وتعطيل المدارك.

الفصل السابع: رسول الله هود عليه السلام.

اسمه هود، ولم يذكر القرآن له نسباً مفصلاً سوى أنه "أخوهم" أي منهم، ثم ذكر الأقوال في اسمه ونسبه. وبعد أن يذكر الأقوال يقول: وأياً ما كان الأمر، فإن حقيقة هذا النسب ما دام قد سكت عند القرآن، ولم تأت به سنة صحيحة، فان الجري وراءه لا طائل معه...

وينقل عن البحر: أنه كان جميلا وكان يشبه آدم، وكان تاجراً وأنه عاش (٤٦٤) سنة، وبينه وبين ثمود مئة سنة... (وهذا كله كما ترى لا سند له ولا دليل عليه، ويناقض ما أصّله المؤلف نفسه قبل قليل).

ثم يستعرض الآيات ويقف عند الكلمات وما فيها من دلالات. فيستوقفه لفظ "أخاهم" ويذكر فيها صفحات من الأقوال، ومنها أن نوحاً لم يذكر بهذا الوصف لأن الناس لم يكونوا قد شكلوا قبائل.

واللفظ يعني أنه أخوهم في النسب والبشرية وهذا أدعى للاستجابة. وكل ما يفعله في هذا الفصل أنه يفصل الآيات في نقاط مرقمة...

ثم يتكلم عن قبر هود... وهو كذلك لا دليل عليه ويدخل فيما أصّله قبل... ثم تكلم عن عناصر الدعوة، وهو كصنيعه من قبل، فذكر: اعبدوا الله... ﴿ما لكم من إله غيره﴾ اعتبره العنصر الثاني، وذكر ما قيل من أقوال...

- وجعل العنصر الثالث: أفلا تتقون، أفلا تعقلون، إن أنتم إلاّ مفترون... والمراد به استنهاضهم ليتقوا... والاستفهام للإنكار واستبعاد عدم إيمانهم.

ثم سأل هل قال هذا في أول الدعوة؟ أم قاله في مرحلة متأخرة؟ وهل قاله موصولاً بما قبله؟ أو غير موصول أي بعد أن كذبوه؟

- العنصر الرابع: طاعة رسولهم، وموقفهم من هذا التكليف.

ثم تحت عنوان: دعوة نوح ومنهجه ومجتمع عاد، قال الكاتب:

١- وجه هود الدعوة لقومه عامة. لكنهم اعرضوا عنه وكان المتوقع العكس.

٢- ركز القرآن على صنفين من المتصدين: الملأ، والقوم. أي الخاصة والعامة.

ثم فسر الملأ ما هو؟ وذكر الأقوال المعروفة. ثم تكلم عن منطقهم وكل ذلك مباشرة من الآيات. وبين كيف كان رد الرسول. ثم تكلم عن ظاهرة الملأ في الرسالات.

- العنصر الخامس: يا قوم لا أسألكم عليه أجراً.
- العنصر السادس: الاستغفار والتوبة.

والكاتب في كل ما ذكر يشرح الآيات ويرجع إلى بعض التفاسير كالرازي وابن كثير ويقسم الآية إلى نقاط أو عناصر، كما صنع من قبل. كأن يقول: ويكون محصل هذا التكليف:

أ- أمرهم بالاستغفار.

ب- أمرهم بالتوبة عما يستقبلون.

وبين أن منهج النبي هود في الدعوة: الترغيب والترهيب.

• العنصر السابع: ولا تتولوا مجرمين.

• العنصر الثامن: ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾.

وكان يمكن أن يجعل عنواناً يستخرجه هو من الآية لا أن يدع القارئ يستخرج هو العنوان، كأن نتصور العنوان مثلاً: جزاء التكذيب. أو وقوع العذاب... الخ.

• العنصر التاسع: ﴿أتجادلونني في أسماء﴾... وبين لماذا عبر عن الأصنام بأنها أسماء... أي أنها مجرد أسماء... ودلف منها إلى النظريات البراقة، والفلسفات المزيفة...

وأعاد مرات تفسير الريع والمصانع، ربما لا أقل من خمس مرات.

وتحت عنوان: حضارة عابثة في وهم خلود زائف، قال: إنهم ما كانوا أصحاب حضارة هادفة، أو مدنية راشدة، بل بعدوا عن سبل الرشاد، ومن ذلك:

١- الاتجاه بالحضارة اتجاهاً حسياً عابثاً: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون...﴾.

٢- الاتجاه بالحياة في ظل وهم خلود زائف: ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون...﴾.

٣- الاتجاه المنحرف إلى البطش: ﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين...﴾، ﴿فاستكبروا...﴾.

٤- الإعراض عن كل توجيه: ﴿سواء علينا أوعظت...﴾ ... الخ.

الفصل الثامن: نهاية عاد.

ثم تكلم عن عاقبة عاد. وذلك في الفصل الثامن بعنوان: "نهاية عاد". وأعاد ما صنعت عاد، ثم فسر الآيات المتكلمة عن عذابهم، وأطال في أيام الحسوم، وذكر روايات الدر وغيره عن الأيام النحسات وأن الأربعاء نحس مستمر وفندها ورد عليه بمنتهى البساطة أنها ثمانية أيام لا أنها يوم واحد.

وقد استشهد بعدد من الشواهد الشعرية فكانت لا شعر فيها ولكنها كنظم الناظمين في النحو والمنطق.

ثم أتبع كل ذلك التفصيل في العذاب بذكر الآيات التي ذكرت قصة هود في القرآن الكريم كله، وهي قد مرت مفصلة من قبل... ثم أتبع بملحق ثان في أنواع الريح المهلكة. وأولها: تورنيدو: الإعصار القمعي أو الدوامي. وهو يعرف بهذا الاسم **Tornado** أو باسم **Twister** أو **Cyclone**. وهو موجود في أمريكا وأستراليا وأوربا وبعض آسيا. وسرعة الريح داخل الدوامة قد تبلغ (٨٠٠ كم/ساعة). وعدد الأعاصير في الربيع والصيف خمسة أضعاف الخريف والشتاء.

الباب الثالث: الدعوة والداعية بين الواقعية والمثالية.

(٣٣ صفحة) وفيه فصلان التاسع والعاشر.

الفصل التاسع: الحياة الإنسانية بين الواقعية والمثالية من خلال نظرات في سورة يوسف.

يبتدئ الفصل بكلام في أوضاع البشرية من الناحية الإنسانية والاجتماعية يمهد للكلام عن يوسف، والمرمى واضح فيما أتصور، فيقول: تسود المجتمع الإنساني المعاصر كثير من سمات القلق والحيرة والضياع وعدم المبالاة وغموض النظرة للمستقبل، وتبدو أكثر ما تكون في الشباب أخصب فترات العمر حيوية ونشاطاً. إذ يتأرجح بين الخضوع لواقع غير مرضي عنه وتطلع إلى مثالية تبدو كسراب. وينشد المصلحون العلاج هادفين إلى تحسين ما هو كائن، وفي جهادهم لبلوغ ذلك تقابلهم عقبات... ومن الصعاب إلف الناس... الخ.

وينتقل إلى المسلمين وحالهم مع أن سنن الله ناطقة في النفوس والمجتمعات والحضارات يقصها القرآن... ولا يركز القرآن على ما يصرف الناس عن مواطن العبرة...

وينبه إلى عدم الطفرة في العلاج بل التدرج، وإلى ضرورة عدم عرض القيم بصورة جافة وإلى الفجوة بين قول الداعي وعمله.

وقضية الإصلاح هي قضية الإنسان. فما هي الصورة المثلى للإنسان؟ حين أقام القرآن لنا نماذج أقامها بواقعها ومثاليتها. ومن هذه النماذج يوسف.

هذا هو الفصل، ولو جعله مقدمة للفصل التالي لكان أوفق إذ هو في ثلاث صفحات فقط، بينما الفصل العاشر في ثلاثين.

الفصل العاشر: يوسف عليه السلام.

يوسف كان رسولاً لقومه. تحدث في هذا عن مواطن ذكر يوسف وأنه ذكر ضمن الرسل. ودعوته في السجن. ويوسف كان قبل موسى، وهذا واضح، وأحب أبناء يعقوب...

ويصل في السرد إلى التقاط سيارة من العرب الإسماعيليين وباعوه في مصر السفلى التي كانت يومئذ في حكم الهكسوس، وذلك في زمن الملك أبوفيس أو أبيبي، وذلك في حدود سنة (١٧٢٩ ق.م.)، وتوفي بمصر في حدود (١٦٣٥ ق.م.). ولما خرج بنو إسرائيل من مصر أخذوا تابوت يوسف ودفنوه في شكيم زمن يوشع. (لخص هذا عن التحرير والتنوير).

وواضح فيما أرى أن الكاتب خرج عن منهجه هو، ولا أقول خرج عن المنهج الذي هو المنهج، فهو نفسه نبهنا على المنهج الصواب. وأنه عدم التركيز على تفصيلات خاصة إذا كانت بلا توثيق من مصادرنا، بل هي منقولة حتما عن بني إسرائيل. على كل حال، هذه من هنات الكتاب: وإن كانت يسيرة لكنها في نظري على يسرها تمس صلب المنهج...!

وتحت عنوان أدبي جميل، ولغته في كثير من المواطن كذلك. قال: طفولة بين ورد وشوك، تحفّها رياحين الورد بالنسمات الحانية المنبعثة من القلب أبوة رحيمة تحيط هذه البنوة بأريجها المعطر... ويحيط بها الشوك من خلال مجتمع الأسرة الصغير... الخ.

ثم تكلم عن النعم وما تثير من حسد وعلى رأسها محبة الناس. ونبه إلى أن يعقوب عليه السلام لم يكن مدينا بل الأبناء هم المدينون.

وهل يغلب الشر؟ قد يكون ولكن لحين. كأنه يلخص القصة. وتمضي الأحداث، يقول الكاتب بلغته الأدبية أو الشعرية إن شئت، وتمضي بالابن الصغير ضراء بعد سراء وحرمان بعد حنان. من أحضان الأب إلى طيات الجب. ومن نور العاطفة إلى ظلمات الكيد... الخ.

ثم يشير إلى النقلة التالية في حياة يوسف من قاع الجب إلى رحبة القصر. ويشير إلى حياته في بيت العزيز. ثم يشير إلى تشربه التوحيد الذي يحول بينه وبين الانحراف والتباعد عن الفطرة.

لقد واجه يوسف الغربة عن الوطن والعقيدة وواجه الأنوثة الناضجة الراغبة الملحة مع ما يتمتع هو به من شباب فاتن... عقبات شتى داخلية وخارجية... ثم استطرد بالقول: وإذا كان الشباب وهو في أخصب مراحل العمر يستشعر طاقات كبيرة فانه يحتاج لأن تكون له ضوابط لفكره وسلوكه.

أما ضوابط الفكر فالمعرفة الواعية، وأما ضوابط السلوك فإحسان التصرف. ولهذا كان الحكمة والعلمة دستوراً ليوسف. (وهو طرح فيما أرى جيد).

لقد واجه يوسف المجتمع المتراخي عن القيم بالاستمساك بنور الإيمان... والاستعصام والتعالي.

ثم أشار إلى مرحلة السجن. وأن سنة الله في الحياة أن تراوح الحياة بين الرخاء والشدة. وأشار إلى دعوته في السجن وأن نور العلم لم يخب.

ثم دخل في دروس عامة مستفادة من القصة كلها تتعلق بالدعوة والدعاة ومنها:

١ – إعداد الداعية لتحمل أعباء الرسالة ومشقاتها.

٢- إعداد الداعية ليكون قدوة في مجتمعه.

٣- إعداد (إمداد) الداعية بالثقة الكاملة في دعوته وشخصيته.

٤- التواضع لله.

٥- إعطاء المثل من نفسه لما يدعو إليه.

٦- السلوك المؤمن، وربط الناس بالدعوة.

٧- حسن التأتي للأمور وعرض الدعوة بالإقناع والحكمة.

٨- عرض الدعوة بقوة وثبات.

٩- العلم الواسع ضروري للداعية، والأفق الرحب.

ثم يعود إلى سياق القصة، فيعنون: الداعية وفقه الحياة والمجتمع. فيشير إلى مجيء مندوب الملك إلى السجن في موضوع الرؤيا... ويشير إلى تفسيرها وحساب الزمن والتخطيط في هذا التعبير. ثم مجيء المندوب ورد يوسف والتحقيق والخروج بالبراءة لا بالعفو من سجنه عليه السلام. ويحمل يوسف الأمانة بحفظ وعلم، وكما يقول كتاب "التاريخ الجغرافي للقرآن": في ظروف شدة مهلكة ومحنة مجاعة اجتاحت المنطقة.. وأشار إلى نقوش يمنية تفيد طلب اليمن القمح من مصر.

وينقل المرجع المذكور عن ابن هشام أنه وجد باليمن مقبرة مفتوحة أخرجت منها جثة امرأة مثقلة باللؤلؤ والأحجار الكريمة وعليها نقش، يقول الكاتب إن "جون فوستر" ترجمه من الحمْيرية وهذا نصه (موجزاً): "بسم الله إله حمْير. أنا تاجة ابنة ذي شفار أرسلت وكيلي إلى يوسف ولما تأخر في العودة أرسلت وصيفتي... ولما لم أجد شيئاً كان مصيري الدفن هنا... وإلى أي امرأة تفكر في التحلي بحلية من زينتي أن تلقى الميتة التي لقيتها".

ثم يشير إلى مجيء الاخوة وقدرة يوسف على الانتقام لكنه لم يفعل... ويجمع الله عليه شمله... ويحس النعمة الكبرى سابغة عليه وعلى أبيه وعلى آل يعقوب.

ثم يعنون لمبحث تال بعنوان: إطار الشخصية المتكاملة المثالية. يريد أن يقول لنا فيه إنه ليس جانب واحد من جوانب الكمال تحلى به يوسف، بل كلها متعددة... وهي تعود إلى صفة الإحسان التي ذكرها القران.

ثم يتكلم عن الإحسان... فبالإحسان أشرقت الحياة والأنفس، فكان الإطار الذي أحاط بحياة يوسف... الإحسان الذي أحاط بالإيمان منهجاً وبالإسلام تطبيقاً... وذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه...".

وبالإحسان يختم كتابه، وهذا من حسن الختام أو إحسانه، فيقول: إن استشعار الإحسان مع كل عمل يدفع الحياة وينميها على منهج سليم، وغياب معنى الإحسان أو غموضه يجعلها متاهات مظلمة...

وما أحوج حياتنا إلى إطار الإحسان يضيء لنا السبل: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

وليس الإحسان نافلة في الفكر أو السلوك بل هو أمر إلهي: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان...﴾.

ولننظر كيف انتهت بنا السورة في خواتيمها بالربط بين السرد والهدف في قوله: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾. يوسف: ١١١

فهرس

مناهج البحث والتأليف
في القصص القرآني
دراسة تحليلية نقدية

الجزء الثالث

الدكتور أحمد إسماعيل نوفل
الجامعة الأردنية

مُقدّمة

نحمد الله على ما أكرمنا به من الإيمان والإسلام، وخصنا به من القرآن خاتم الرسالات ومحمد ﷺ خاتم المرسلين، فله الحمد الذي لا ينتهي على آلائه وأفضاله، وجزيل إكرامه. ونسأله كما أكرمنا أن يرزقنا الشكر، وأن نُقدّر ما أنعم به علينا حق القدر.

ونسأله تعالى أن يصلي على معلمنا الخير. والمُبيّن لنا الذكر، وأُسوتنا وقدوتنا، وقائدنا إلى الظفر والنصر. صلى عليه الله، ما اختلف الليل والنهار، ونزل القطر، وتفتح الزهر.... وبعد.

فقد آن لأمة القرآن أن تعود إلى الحمى، وتنضو عنها روايات بني إسرائيل، التي أثقلت النص، وأبعدته عن مراده ومراميه، وأغراضه ومقاصده، وأفقدتنا منهجية هذا الكتاب.

ألم يأن للذين آمنوا بعد أربعة عشر قرناً من معاناة متصلة من جراء الإسرائيليات أرهقت القلب والروح والعقل... ألم يأن لهم أن يتخذوا قرارهم بهجر سفاهات هؤلاء وتفاهاتهم وانحرافاتهم، ورواياتهم التي أسقطوا فيها وعليها كل ما في نفسياتهم من مادية غليظة، وانعدام قيم؟

وإني لأعد هذا الأمر من أول أولويات الأمة، ومن أعظم المقاصد التي تشمر لها السواعد، وتتكاتف فيها الجهود وتتضافر العقول، وتتآزر الفهوم، وتتكاثر الدراسات والكتب والبحوث.

ومن أجل هذا الغرض كانت هذه السلسلة. التي رمنا من ورائها دراسة مكتبة القصة القرآنية، فكأنها -أي السلسلة- "ببليوغرافيا" للمكتبة، وهي في ذات الوقت نقد وتقويم، -من وجهة نظرنا بطبيعة الحال- وفوق كل ذي علم عليم، ويعلم الله أنّا ما قصدنا إلى التعالي ولا التعالم، فإني أعلم الناس بما عندي من ضعف مَلَكة وقلة بضاعة، ولكنها الأمانة أن نذود عن الحمى الأطهر، كل أذى، وإني لأعد الإسرائيليات أحد أكبر الأعداء التي انبثت كالعملاء في صفوفنا تنشر الخراب، وتباعدنا عن الصواب، وتشوش الألباب، وتكون حائلاً بيننا وبين قصص الكتاب.

والقصص القرآني أحسن القصص، فكيف يجوز لأمة هذا وصف قصصها أن ترجع إلى أرذل أمة وأقلها أمانة، ورعاية لعهد الله، الأمة المحرِّفة كلام الله، والعابثة بنص كتابها، والمتقولة على ربها!؟ أفنترك حبل الكتاب ونتعلق بالسراب؟! أنستبدل الذي هو أدنى من إسرائيلياتهم بالذي هو خير مما عندنا من الآيات وهي ما تزال حديثة عهد بربها لم تشب بالشوائب والأوشاب وحاشا لجلال كلام الله وآي الكتاب؟

هذا الهم الناصب عندي. أن تقلع أمتي عن هذا الذي عطلها وأثقلها وتعود إلى النص لا تعدوه. وقصص كتاب ربها لا تتجاوزه.

وفي هذا الجزء أربعة عشر كتاباً قمت بتلخيصها ونقدها. ستجد أن جلها -من حيث لم نتعمد الاختيار- قد بنى منهجه على الإسرائيليات.

لقد غدت الكتب المؤلفة عن القصة القرآنية، بما أثقلت وحملت من أوزار القوم، غدت كإبل مئة لا تجد بينها راحلة.

وما زال بعضنا أو كثير منا ينظّر لاستمرار الإسرائيليات عن طريق القسمة إياها. وهي قسمة ضيزى، يقصدون النظرية التي لا انطباق لها في الواقع ولا على الواقع: أي ما وافق ما عندنا وما خالف والمسكوت عنه. وهم بذا يروون معظم الإسرائيليات على اعتبار أن جلها من المسكوت. وهذا الجل غير الجليل، ما سكت عنه إلاّ لأنه لا نفع فيه. والمنهجية القرآنية العالية قصدت هذا الإغضاء والإغماض عن تفاصيل تضيع خيط العبرة وتضل عن السبيل.

والتعلة الأخرى التي يتعلل بها مروجو الإسرائيليات ومنظّرو استمرار الاستعمار الفكري والثقافي لبني إسرائيل: هي تعلة أنّ سلفنا العظماء كابن جرير وابن كثير، ومن قبلهم من تابعين، بل ومن بعض الأصحاب قد رووا ذلك، أفأنتم أفقه منهم، وأحرص على كتاب الله منهم؟

ومعاذ الله أن يخطر بالبال شيء من هذا، ولكنا تكشف لنا -بعامل التجربة وطول الزمن وكر القرون وخبرة الأجيال والدهور والتدهور المستمر في مستوى الكتاب المؤلف عن القصة القرآنية، وحاشا لجمالها وجلالها- أقول: تكشف لنا ما يجعلنا نحسم الأمر. ولا يجوز التعلل بهذه التعلة، وسلوك الأئمة الأجلّة، أن نظل في هذه العلة، والنقول السمجة المملة، أن نظل غرقى إلى الأبد. هذا لا يقول به أحد، وما ينبغي له، ولا يُقبل منه.

أمر آخر، ربما بدا في بعض ما كتبت بعض حدة وقسوة أعتذر عنها، وما كان ينبغي، لكن علم الله أنها انفعالات من يرى الحمى الأقدس يمس. والجهر بالسوء متى ظُلم النص وهيض الأصل، وانتهك جناب الكتاب، وتخطي على رسل الله، بل وكلام الله، وهضم المعنى المقصود. وصرنا نجتر معاني لا علاقة لها، وهي ملأى بكل مؤذ وضار ومباعد لنا عن الأنوار، مغرق لنا في بحار الظلمات، ولجج الإسرائيليات، ومستنقعات الشعب الأعتى عتواً في الانحراف والكفر والكذب والبوار.

فالمعذرة، للقارئ، ولمن قسونا عليهم، غفر الله لنا ولهم، ورحم الله من أفضى إلى الله منهم، ما لم يكن متعمد التخريب فهذا ليس منا ولسنا منه.

أمر آخر. لقد شملت هذه الحلقة من السلسلة كتباً كتبت في أزمان متفاوتة لكن أغلبها حديث، وبعضها جد حديث، لا يفصلنا عنه سوى سنتين أو ثلاث سنين، وبعضها بضع مئين من السنين، كالمسمى النور المبين، وهو غارق في بحر من الجهل والظلمات، لترى عيِّنة متوغلة في التوحش الإسرائيلي، وآبدة من أوابد النقل، وداهية وطامة من دواهي انحراف العقل.

وقد ضمنت هذا الكتاب صفحات تعريفية بابن عربي وفلسفته لأن بعض الكتّاب في القصص أدمن النقل عنه فرأيت أن أتبع كتابه بتعريف بهذا الرجل وفكره.

ولا أطيل في هذه المقدمة، ولكني لن أضع القلم حتى أعتذر من طول عرض بعض الكتب، ولكن بعضها قد جاوز في أصله الألف والمئتين من الصفحات ككتاب الدكتور الطنطاوي، وكنت حريصاً على إعطاء صورة وافية شافية كافية عن كل كتاب فكأنما القارئ قد قرأه.

ونختم المقدمة بتسجيل الضعف على نفسي قبل أن يسجل القارئ ذلك علي ورداءة العرض قبل أن يحكم به على عملي. ولكن على الرغم من ذلك وجدت فراغاً لا بد أن يسد. فتقدمت على العلل كلها والضعف المزمن، عل الله لا يؤاخذنا بضعفنا، ولكن يسامحنا بدافع حرصنا على كتابه، زادنا الله له فهماً وبه عملاً ودونه دفاعاً وعليه حرصاً.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا...﴾، ﴿...ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم﴾.

ربنا تقبل منا وعافنا واعف عنا وفرج عن أمتنا، ووحد سبلها على سبيلك، وسنة نبيك ﷺ والحمد لله رب العالمين.

الكتاب السادس والعشرون

حياة يونس

تأليف: محمود شلبي

ط١، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

حياة يونس / محمود شلبي:

هذا كتابٌ من حوالي عشرين كتاباً ألّفها أو لفّقها محمود شلبي حول موضوع من أعظم موضوعات الكتاب العزيز: القصص القرآني، وقد جاءت كتبه كلها حشداً من الإسرائيليات، والتصوّف الغالي على طريقة ابن عربي، وهمويمات غير منضبطة، وألفاظاً فخيمة ومعانيها سقيمة... وهويلات بلا طعم، ومبالغات قد تُرضي أرباع المتعلمين. ولوددت أني تجنّبت الكتابة بهذا الشكل... ولكن حجم إساءة الكاتب إلى الكتاب المجيد، ورسل الله الكرام عليهم الصلوات والسلام، وإساءته إلى القصة القرآنية، والى اللغة العربية، وإلى الفكر... وإلى العقل المسلم، كل ذلك جعلني متوفزاً وجعل العبارات تُشحن بهذا القدر من الحدّة والشدّة، التي ما كنت أودّها.

على كل حال... هذا تعريف موجز بالكتاب، وعرض سريع لما جاء فيه، فكأنك قرأته وما فاتك شيء بإذن الله، فما ثَم في الكتاب زيادة على ما لخّصتُه لك، إلاّ الأوراق البيضاء... والنقاط التي وزّعها الكاتب على وجه صفحاته، وإلاّ التكرار المُمل المُمض... فإلى التعريف بالكتاب، لعلّنا نحذر ونرشد إلى الصواب...

يقع الكتاب في خمس وعشرين ومئة صفحة منها أربع وأربعون بيضاء من غير سوء والباقي نصف ملآن (نصف فارغ) أو (ملآن كلام فارغ) ... والإهداء على ما هي عادة المؤلف في كل كتبه: اللهم منك وإليك.

وقد حمد الله الكاتب في المقدمة أنّ هذه القصة أو هذه الحياة أو هذا الكتاب هو الثالث عشر في سلسلة قصص الأنبياء التي جعلها الكاتب تحت عنوان: "حياة..."، وأخبرنا الكاتب أن هذه حلقة في السلسلة المباركة. (وسلسلة الأنبياء حتماً مباركة. أمّا سلسلة الكاتب فأمرٌ آخر خاضعٌ للبحث والنظر). ثم قال: إن هذه الحلقة تتحدث عن حياة ذي النّون... ذلك النبي الجميل الجليل... (ولا ندري محل وصف الجميل؟). ثم وصف عمَله وكتابته بأنّها: تترقرق إلى قلبك... سلسبيلاً جميلاً... (والله أعلم!). وبرّر ذلك فقال: لأن الأنبياء... موجٌ مقدسٌ... يموج رحمة للعالمين. (ونقول: هذا شيءٌ وكتابة الأخ الشلبي الجميل ليست بالضرورة من النوع الجميل أو الجليل أو "الجزيل"... فقد تكون من النوع العليل أو الوبيل والثقيل... وحاشا لمقام الأنبياء الجليل).

نعود إلى الكاتب الجميل أقصد الكتاب الجميل حيث يقول: فلا ينبغي لمن يكتب عنهم أن يقف عند الوقائع التاريخية... وإنّما عليه أن يغوص إلى أعماق بحارهم.. ويستخرج منها اللؤلؤ والمرجان... (وأنا أعتقد أنّ هذه من الكاتب لفتة لا أقول ذكية، وإنّما فيها من الذكاء مثقالان... فكأنّه يعتذر سلفا. فكيف يملأ كتابا عن يونُس عليه السلام والقرآن لم يقص من قصّته إلاّ بمقدار صفحة واحدة؟ ووراء ذلك فإنّ في قول الكاتب خطورة وفتحا لأبواب فيها ريحٌ عاصفٌ...).

نعود إلى الكاتب الذي علّل لقوله السابق فقال: أمّا الاكتفاء بسرد الحوادث فذلك شأن علم التاريخ... والأنبياء وراء التاريخ... (وكما أسلفت فهذا كلام قد يُوظّف من قِبَل أهل الباطل مثل: خلف الله وخليل عبد الكريم ومدرستهم...) والأنبياء وراء علم الظاهر... (قال الكاتب، والظاهر أنّ هذه توطئةٌ أخرى لما سيملأ الكاتب به كتابه من الشّطحات والتهويمات. وشدّوا الأحزمة منذ الآن. فأمامنا الكثير من المطبّات...!).

ثم، وبعد ذلك مباشرة استشهد بالآية الكريمة: ﴿الله نور السماوات والأرض... ﴾وقطّعها على نصف صفحة كاملة، "وفردها" وفرّقها كلمة كلمة كل كلمتين أو ثلاث كلمات في سطر...

ثم عقّب بعد الآية فقال: هذا مثل نوره... مثل أنبيائه... الذين هم مجالي أنواره... فالأنبياء أنوار... (هكذا بالنص والحرف...).

ثم قال الكاتب العزيز: وهاهنا يجب التركيز... إلاّ أنّه أمرٌ عزيزٌ... لذلك استسهل كثيرٌ ممن كتبوا عن الأنبياء. سرْد الوقائع... وغفلوا عن الأنوار... أمّا هو أي الكاتب المغوار أبو الأنوار، فسيحاول جهده: "شعشعة شيء من نور نبي الله يونُس..." هكذا بالحرف بلا تحريف ولا تصريف. أما كيف سيشعشع الكاتب نور نبي الله يونُس. فهذا ما سنكتشفه أو تكشف عنه الصفحات التاليات بعد المقدمة.

وعادة الكاتب أشرنا إليها في التعريف بكتب أُخرى له أنّه يترك صفحات بيضاء. طالما أنّ القارئ يدفع ثمنها، فما المشكلة. وأمّا الصفحات المطبوع عليها فسطورها معدودة، وكلماتها محدودة، وكله بحسابه. ففي صفحة كاملة: وإنّ يونُس... لَمن... المُرسلين...؟! هكذا مع الفارق أنّه وزّعها على عدّة أسطر وأخذت منه صفحة.

ونحن في الصفحة الثالثة عشرة، وابتدأها بآيات سورة الأنعام التي تبتدئ بذكر ابراهيم وتختتم بيونس ولوط وهي الآيات ٨٣–٨٦. ثم قال بعد ذكْر الآيات: قال الإمام الرباني العظيم... النخجواني (هكذا...) في تفسيره الخالد (هكذا أيضاً).

(ومعذرة إن كُنّا لم نسمع به من قبل، فنحن نخجل من أنفسنا ومن جهلنا بالمفسرين وتفاسيرهم الخالدة). المهم أنه قال: "من جملة تعظيمنا لإبراهيم ورفْعنا له درجته أنّا وهبنا له من محض فضلنا وجودنا إسحاق ويعقوب، وهدينا كُلاًّ منهما إلى توحيدنا... وهدينا نوحا جد ابراهيم... فيكون إبراهيم وارثاً لهداية نوح مُورّثاً لهداية إسحاق ويعقوب. (وحكاية التوريث فيها إشكالٌ ما كُنّا نحب استخدام هذا التعبير الذي قد يوهم الحق النّسبي والعصبي...) وإسماعيل واليسع ويونُس ولوطا، وبالجملة كُلا من هؤلاء المذكورين قد فَضّلناه بالحكمة والنُبوّة على العالَمين...

ثم سأل في الصفحة الخامسة عشرة: ماذا في هذا من إشعاعات؟ فيه أنّ يونُس من ذرية إبراهيم. وأنّه نبي من النّبيين وأنه ذروةٌ في التوحيد أي أن الكمالات الواجب توافرها في الأنبياء... متحققة فيه. فهل كان من المرسلين؟ ثم يجيب: نعم بصريح القرآن. ثمّ يسأل سؤالاً ذكيًا آخر: فكم عدد الذين أُرسل إليهم؟ والجواب (هو يقول): وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. وهل آمنوا؟ الجواب: فآمنوا فمتعناهم إلى حين (وانتهت الصفحة).

ونحن الآن في الصفحة التاسعة عشرة. وعنوان: يونان ابن أمتاي. ويقول: جاء ذكر يونس عند أهل الكتاب هكذا: يونان. ثم ينقل أربعة إصحاحات في أربع صفحات كاملة. وأقتطف من الإصحاحات غير الصحيحة بعض مقتطفات: الإصحاح الأول: وصار قول الرب إلى يونان ابن أمتاي، قائلاً: قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد عليها لأنه قد صعد شرّهم أمامي. فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب فترل إلى يافا (ولا أدري ما دخل يافا؟) ووجد سفينة ذاهبةً إلى ترشيش فدفع أُجرتها (لا يفوتهم التفاصيل، ظل أن يذكروا المبلغ). ونزل فيها ليذهب إلى ترشيش من وجه الرب (مصرون هم على قَوْلهم!) فأرسل الرب ريحاً شديدة إلى البحر فحدث نوْءٌ عظيمٌ في البحر حتى كادت السفينة تنكسر. فخاف الملاّحون وصرخوا كل واحد إلى إلهه (!!) وأمّا يونان فكان قد نزل إلى جوف السفينة ونام نوماً ثقيلاً (هكذا!). فجاء إليه رئيس النوتية وقال له: قم اصرخ إلى إلهك عسى أن يفتكر الإله فينا (هكذا بالحرف. ويظهر أن ترجمة الإنجيل ترجمة مصرية!) ثم قال يونس لهم: أنا عبراني... فأمّا الرّبّ فأعدّ حوتاً عظيماً (لاحظ أعدّ!) ليبتلع يونان. فكان يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال (لم يذكروا... وكم دقيقة!).

وفي الإصحاح الثاني: فصلّى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت. (ولولا الإطالة لذكرت لك النص الذي ذكره المؤلف، فقط لتعرف عظمة الكتاب الذي أكرمك الله به...!)، لكن اقرأ هذا السطر: لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار. فأحاط بي نهر (!) فقلت: طردت من أمام

عينيك. ولكنني أعود أنظر إلى هيكل قدسك. التف عشب البحر برأسي. نزلت إلى أسافل الجبال (!)... الخ. فقذف الحوت يونان إلى البر.

وفي الإصحاح الثالث: أنّ يونان استجاب هذه المرة فذهب إلى نينوى (نختصر!) فابتدأ يونان يدخل المدينة (هكذا) ونادى وقال: بعد أربعين يوماً تنقلب نينوى. فآمن أهل نينوى ولبسوا مُسوحاً. فلمّا رأى الله أعمالهم أنّهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلّم أن يصنعه بهم فلم يصنعه. (تعالى الله عمّا يقول هؤلاء المجرمون المُحرّفون، ولا أدري لِمَ الكاتبُ العظيمُ يُسوّد صفحاته بهذا، ونقلت لك لتَعْلم الإسفاف).

وفي الإصحاح الرابع أنّ يونان غَمّه ذلك غمّاً شديداً واغتاظ (ليه!) ثم قال يونان مُبرّراً غضبه: "بادرت إلى الهرب إلى ترشيش لأني علمت أنك إله رؤوف ورحيم بطيء الغضب وكثير الرّحمة ونادم على الشّر. فالآن خذ نفسي لأنّ موتي خَيرٌ من حياتي، فقال الرّب: هل اغتظت بالصواب؟! وأختصر وأنقل لك كلام المؤلف العظيم إذ يقول: هذه النصوص التي وردت في الكتاب المُقدّس... نقلناها حرفيّاً لنأخذ منها فكرة عن تسلسل أحداث قصة يونُس... أرأيت أنّ الكاتبَ الذي وعدنا بتجاوز التاريخ والظاهر إلى الأنوار واللآلئ والمرجان كيف صنع؟!.

وفي مبحث تال ذكر عدد الأنبياء، وذكر حديث البخاري: "ما ينبغي لعبد أن يقول أني خير من يونُس بن متّى...". ثم يفسر لنا المؤلف بأن هذا النهي من جهة أن الشيطان قد يوسوس في العقول... فهذا هو الدواء لهذا الداء. وانتهى مبحث.

ونحن الآن في الصفحة... الثالثة والثلاثين، وعنوان: يونس في المؤلفات الحديثة. (ويقصد بهذا العنوان أنه سينقل عن جاد المولى ورفقائه ما ورد في كتابهم قصص القرآن، دون أن يُسمّي المؤلفين ونقل ست صفحات، يعني من غير عظْم ما يوازي ثُمْن الكتاب!).

ثم عاد إلى مبحث جديد: إذ أبق إلى الفُلك المشحون... قطّعها في صفحة. ثم قطّع آيات سورة الصافات في صفحة كاملة.

ونحن الآن في الصفحة الثانية والأربعين. قال معقّباً على الآيات: هذه هي حياة يونُس باختصار. وعناصرها هي: يونُس من المُرسلين... هرب إلى السفينة... اقترع أهل السفينة فخرجت القرعة على يونُس... ألقوهُ إلى البحر فالتقمه الحوت... لولا أنّه كان من قمّة أهل التوحيد ما خرج من بطن الحوت، ألقاه الحوت بالعراء وهو سقيم... ثم أنبت الله عليه شجرة تظلله حتى ذهب عنه

السّقم... ثم أرسله الله إلى أهل مدينة نينوى وكان سُكّانُها أكثر من مئة ألف، آمنوا جميعاً بيـــونُس واستمتعوا بحياتهم...

هذه عناصر قصة يونس... ثم فسّر أبق وأنّها هرب. ثم قال: وقال بعض الكمّل (بالكاف طبعاً): الإباق الفرار من السيد بحيث لا يهتدي إليه طالب أي بهذا القصد... وكان هرب من قومه بغير إذن ربّه فلم يجدوه.

ثم نقل تفسير فساهم وأنه فقارع (من القرعة) وفسر المدحضين بالمغلوبين في القرعـــة. ثم أدْخلَنا في متاهة الروايات. فقال: يُرْوى أنّه وعد قومه بالعذاب وأنّه يأتيهم إلى ثلاثة أيام... فلمـــا كان اليوم الثالث خرج يونُس قبل أن يأذن الله له... ففقده قومُه... فخرجوا بـــالكبير والـــصغير والدواب... وفرّقوا بين الوالدة وولدها (انظر التفاصيل!) فشارف نزول العذاب... فعجّـــوا إلى الله... فصرف عنهم العذاب... فلما لم ير يونُس نزول العذاب استحى (هكذا) أن يرجع إلـــيهم وقال: لا أرجع إليهم كذّاباً أبداً... ومضى على وجهه... فأتى السفينة فركبها... فلمّا وصـــلت اللُّجّة وقفت بهم فقال صاحبُها: ما يمنعها أن تسير إلاّ أنّ فيكم رجلاً مشؤوماً... فاقترعوا ليلقوا من وقعت عليه القرعة في الماء... فوقعت على يونس (وكرّروا العملية) فلمّا رأى ذلك رمى بنفسه في الماء!

ثم نقل عن النخجواني (خاء فجيم) (الذي أخجلنا عدم علمه!)، فقال: أبق: هرب مـــن نزول العذاب. والمشحون المملوء. فاحتبست السفينة، فقال البحارون: إن في السفينة عبداً آبقاً... فبادروا إلى القرعة على عادتهم... فخرج باسم يونُس... فكان من المغرقين بمقتضى القرعة... ففطن يونُس فقال: أنا العبد الآبق فرمى نفسه في الماء خوفاً من غضب الله...

ثم عنوان: فالتقمه الحوت... وصفحات فراغ... ثم افتتح الكلام بـــ: يَروي الـــرواة... أقاصيص فيها أفانين من الخيال... (ليتك أتحفتنا!) في تصوير كيفية التقام الحوت ليونُس. ولكنّ الحقّ الذي لا باطل فيه... أنّ الحوتَ التقم يونُس (يا سلام. إيه العظمة؟ كأننا والماء من حولنـــا قـــومٌ جلوسٌ حولَهم ماءُ!) ثم فسّر التقمه بابتلعه. ثم أعاد القصة مرّة ثالثة وهذه المرة عن أحمد رحمه الله. لكن فيها هذه المرة زيادة نذكرها للإطراف والإتحاف ومزيداً من الألطاف، قال: رُوِي أنّه لّما وقف على شفير السفينة لِيَرْمِيَ بنفسه رأى حوتاً... قد رفع رأسه من الماء قـــدر ثلاثـــة أذرع يترقّبـــه ويترصّده... فذهب إلى ركن آخر فاستقبله الحوت... حتى استدار بالسفينة... فلمّـــا رأى ذلـــك

عرف أنه أمرٌ من الله، فطرح نفسه... فأخذه قبل أن يصل إلى الماء (هذا مُهمّ جداً حتى لا يبتل... عليه السلام!).

وقد وعدنا الكاتب بأنوار ومرجان وأزهار وأفاويح وأطيار، وجنات وأنهار من المعاني والأفكار، فما وجدنا حتى الآن إلاّ روايات من ضعيف الآثار أو موضوع الأخبار...

ثم نقل عن ابن عباس تفسير "مُليم" بأنّه المسيء والمُذنب، ثم فسّر هذا التفسير بأنه من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ثم أتحفنا عن النخجواني مرة أُخرى في معنى فالتقمه: ابتلعه على الفور بإلهام من الله. وهو نادم على فعله (تفسير مليم)... بلا نزول وحي من ربه.

وتحت عنوان "إشعاعات" (وهذه أول الومضات ثم ستهطل الأنوار والكشافات) قال: الفاء في فالتقمه للفورية. فوراً التقمه... فوراً ابتلعه... (هكذا فوراً من الكتاب بلا زيادة ولا نقصان والكتاب يفور بالمعاني ويلف ويدور...) ونواصل: يونس ينقذف في البحر... الحوت يفتح فمه... هذا يهوي... وذاك يتلقاه... ويلتقمه. أمرٌ صدر إلى الحوت... فما استطاع إلاّ الامتثال لأمر ربه وما استطاع يونُس كذلك إلاّ أن يفعل ما يريد ربه، ويونُس يعلم سنة الله في أنبيائه... لقد تعجّل عن قومه... فاستقبله بلاء شديد... وها هنا معجزة... كيف يبقى يونُس حيّاً... وكيف يتنفّس في بطن الحوت؟ (هل فطنتم أنتم إلى هذا ؟) كيف يأكل؟ كيف يبول؟ (هل خطر ببالكم؟!) وتتواصل الأسئلة... آسف... الإشعاعات (بعينين): هل ألقى بنفسه إلى البحر عرياناً أو بملابسه؟ (هل انتبهتم إلى الذكاء؟ إنّ من الإسراف أن تُلْقِي نفسك بملابسك والفقر والعُري يلُفّ أهل الهند والسند ونصف سكان الكرة...) هل فزع أو كان من الآمنين؟ ثُمّ يُجيب: استفسارات لا جواب لها... إلاّ أن تقول: إنّها معجزة عجيبة! (أرأيت التسليم والاستنتاج السليم؟!) ثم سأل: وماذا في "مُليم" من إشعاعات؟ فيها (يجيب): أنّه كان لوّاماً لنفسه، وأنه كان يرجو النّجاة فجاءه الموت...

ثم عنوان بعد فراغ وقبل فراغ: فلولا أنّه كان من المُسبّحين... ثُمّ ابتدأ الصفحة بإثارة صحفيّة: ها هنا مفاجأة... (بخط أسود أغمق من المعتاد!)... استسلم يونُس لهلاك محقق... لأنّ القانون الطبيعي أن يهضمه الحوت طعاماً شهيّاً... (وما أدراك أنّه طعامٌ شهيٌّ، وما أدراك أنّ الحيتان تتمتّع بالأكل أو أنه مجرد سد جوعة...) ولكنه فوجئ بمعجزة أُخرى (فماذا كانت المعجزة أو المعجزات السابقة؟) ثم فسّر: إنه يحيا حياة طبيعية... ثم فسّر: إنّها القدرة!

﴿فلولا أنه كان من المُسبّحين...﴾ أي الذاكرين بالتسبيح (تفسير صحيح فصيح!) وهذا الكون عند بعض (لم يقل لنا من هؤلاء البعض): قبل التقام الحوت إياه... آيام الرخاء... واستظهر أبو حيان أنه في بطن الحوت. وذكر قوله تعالى ﴿فنادى في الظلمات أنْ لا إله إلاّ أنت سبحانك...﴾ وحمله بعضهم على الذكر مُطلقاً. (ولا ندري ماذا استبطن الشيخ في مقابل ما استظهر أبو حيان؟!)، ويواصل: وبعض آخر على العبادة كذلك، وجماعة منهم ابن عباس على الصلاة بل رُوي أنه قال: كل ما في القرآن من التسبيح فهو بمعنى الصلاة... ورُوي عن الحسن غير ما ذكر (هذا هو القول السادس إن كنتم من المحصين العادّين لمعاني: من المسبّحين) نعود لرواية الحسن، فهي عند ابن أبي حاتم والبيهقي والحاكم (ألا يكفي؟) قال: لَمّا كان في بطن الحوت ظن أنه الموت... فحرك رجليه فإذا هي تتحرك (على قاعدة ديكارت: أنا أحرّك رجلي إذاً أنا موجود!) فسجد. وقال يا رب: اتخذت لك مسجداً في موضع لم يسجد فيه أحد. وذكر أقوالاً أخرى عن الذكر في الرخاء والشدة وقارن مع فرعون الذي تذكر في الشدة... ثم خرج بزبدة بعد هذا المخض الطويل والكثير فقال: والأولى حمل زمان كونه من المُسبِّحين على ما يعمّ زمان الرخاء وزمان كونه في بطن الحوت... فإن لاتصافه بذلك في كلا الزمانين مدخلاً في خروجه... (هل لاحظت المعاني الجميلة والعبارات التي كأنها قطعة حَيلة؟!).

ثم أتحفنا برواية جديدة بعد كل الروايات فقال: عن أنس مرفوعاً (يعني لمن لا يعلم مصطلحات المُحدِّثين: يرفعه إلى النبي ﷺ فهو على قوله حديث نبوي...) قال: إنه عليه السلام لما التقمه الحوت وهوى به حتى انتهى إلى ما انتهى من الأرض سمع تسبيح الأرض فنادى في الظلمات... فأقبلت الدعوة نحو العرش... فقالت الملائكة: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً من بلاد غربة. قال سبحانه: وما تدرون ما ذاكم؟ قالوا: لا يا ربنا. قال: ذاك عبدي يونُس. قالوا: الذي كُنّا لا نزال نرفع له عملاً مُتقبّلاً ودعوة مُجابة؟ قال: نعم. قالوا: يا ربنا ألا ترحم ما كان يصنع في الرخاء وتنجيه عند البلاء؟ قال: بلى. فأمر الله الحوت فلفظه. (ولا نحتاج إلى تعليق على المزعوم أنّه حديث. فلم يخرجه أحد من المُعتد بجوامعهم!) واستظهر (مرّة أُخرى جديدة) أبو حيان أن معنى لَلبث: لبقي حيّاً... وقال قتادة (أي استبطن خلاف أبي حيان خلاف بحره المحيط): لكان بطن الحوت قبراً له. وعند النخجواني (فصل الخطاب والمعاني...!): المُسبِّحين: المنكشفين بوحدة الحق وبكمال تنزّهه عن سمة الكثرة مُطلقاً...

ثم جاءت الإشعاعات (تسعى): ها هنا (أي في بطن الحوت أو المعنى في بطن المؤلف): ها هنا شيء عجيب! (ما هو العجيب والغريب أيها الأديب الأريب اللبيب؟! استمع فالمؤلف النجيب يُجيب): شهد يونُس... مشهداً جميلاً (هكذا والله)... هو في الظلمات (هذا هو الشيء الجميل) ها هو وحده (يونُس يعني...) في بطن الحوت (المعنى من بطن أفكار المؤلف) ها هو الحوت (هل تراه؟) يجري به من البحر في كل مكان... فاجتمع على يونس ظُلمة بطن الحوت... وظُلمة الليل... وظُلمة البحر حين هوى به الحوت إلى القاع... وأعجب من ذلك... أنْ جاء حوت أكبر... فابتلع الحوت الذي في بطنه يونس... (أرأيت العَجَبَ المُدهش والدهش المُعجب؟!).

ثم ختم الإشعاعات: ظلمات بعضها فوق بعض... فماذا كان من صاحب الحوت...؟ (انتظروا المفاجأة!) ونحن الآن في الصفحة الستين في محاولة لإجابة السؤال، يقول المؤلف الرّصين في مُؤلَّفه المكين، وفي الجواب يذكُر آيات سورة الأنبياء وهما آيتان ٨٧-٨٨ ﴿وذا النون إذْ ذَهب مُغاضِباً فَظنَّ أنْ لَنْ نَقدرَ عليه فنادى في الظُّلُماتِ أنْ لا إله إلاّ أنْتَ سُبْحانَك إنّي كُنْتُ مِن الظّالمين فاسْتَجبْنا له ونَجّيْناه من الغمِّ وكذلك نُنْجي المؤمنين﴾ ذا النون: أي صاحب الحوت (يفسر الكاتب) ويجمع على نينان وأنوان. مُغاضباً: غضبان على قومه. وقُرِيء مُغضَباً (لم يقل لنا من قرأ. فالقراءات كالأحاديث منها الشاذ والضعيف). نَقدر: نُضيّق. وقراءة عمر بن عبد العزيز "نقدّر" بشدّة (ليس لعمر قراءة خاصة!) وقراءة علي "يقدّر" (وهي لا تصح!) ثم قال المؤلف: بمعنى القضاء والحكم أو بمعنى التضييق. وظن معاوية أنّه من القدرة (وهذا ظن لا يخطر ببال عاقل فكيف بمعاوية؟!) ففزع (أي معاوية لا المؤلف ولا أحد من الناس) فزع إلى ابن عباس فأجابه بما ذكرناه (أي المؤلف!).

ثم ذكر الحديث الذي عند أحمد والترمذي والنسائي: "دَعْوة ذي النون... لم يَدْعُ بها مُسلمٌ ربّه في شيء قط إلاّ استجاب له".

ثم أعاد الحديث الذي ذكر الملائكة والبلاد الغريبة... ثم ذكر لنا مدة اللبث: عن قتادة: ثلاثة أيام... وهو الذي زعمته اليهود. (يعني من الكلام أنّه غير صحيح فما الصحيح وبأيّ شيء عرفنا أنّه صحيح) وعن جعفر الصادق: سبعة أيام. وروى ابن أبي حاتم: بقي أربعين يوماً. (ولم يُرجّح لنا الكاتب مُدّةً فتَركنا نتأرْجَحُ بيْن الأقوال).

ثم ذكر لنا قراءات "ننجي". ثم نقل لنا عن النخجواني (ثاني!؟) ما لا جديد فيه اللهم إلاّ عبارات وألفاظاً من مثل: فنادى: ناجى صريخاً صريعاً فجيعاً مغموراً... (هكذا!): يا من خضعت لك الرقاب... وانتكست (لعلها واندكت) دون سرادقات جلالك أعناق ذوي النُّهى والألباب...

ثم شعشعت الإشعاعات فتشعشع الجو وتشبّع وصار شعشعانيّاً مُشعًا فقال تحت عنوان إشعاعات: كم كان يبلغ حجم الحوت؟ كم مكث يونس؟ هل كان يظن أنّه سيخرج؟ هل هذا الأمر معجزة؟ هل انفرد يونس بهذا؟ هل كان هذا عقوبة... أو تربية... أو درجات؟ أسئلة كثيرة... يقول المؤلف. ويقول: كانت المفاجأة... فوجئ يونُس... أدرك يونس أنّ الله سيفعل به أمراً خارقاً... ومن قبل فوجئ يونُس بالتقام الحوت... ومفاجأةُ أُخرى حين هرب... أما الانفراد، يقول أخونا المؤلف: لم نسمع أن نبيّاً حدث له ما حدث ليونُس. (ونقول: ولم نر أن أحداً ألّف عن يونس كشلبي) أمّا كيف كانت أحاسيسه؟ (يسأل ويجيب): الله أعلم.

أما كيف عاش (يَسأل ويجيب): الأمر معجزة ولا يُقال في المعجزة كيف (أنت قلت كيف). ولو أخذنا (يقول صاحبنا): بوسطى الروايات (تذكرون الروايات الثلاث في مدة اللبث:٣، ٧، ٤٠ يوماً) وهي أنّه مكث سبعة أيام بلياليهن في بطن الحوت... (وكأنّ المسألة قرعة أو يانصيب أو اختيار أو...) فهذه المدة تُحتّم (!) أن يَطعَم فيها يونُس ويشرب (استنتاج عظيم واستظهار مهم من فهيم...) وإلاّ لهلك جوعاً (عظيم!).

ثم من طَعم وشَرب تحتّم أنْ يَقْضي الحاجة (ألم أَقُل لك إن الذكاءَ مطلوب. والتحليلَ والقياس والاستنتاجَ والاستبصارَ والاستقصاءَ والاستشعارَ وبُعدَ النّظرِ وعُمقَ الأفكارِ، كُلُّ ذلك مطلوبٌ لمنْ يَتعاطى التأليف...). فهل كان يونُس يأكلُ ويشربُ ويقضي الحاجة؟ وكيف كان يتنفّس؟ إنّها مُعجزةٌ. والمعجزةُ من أمر الله.

أمّا كم كان حجم ذلك الحوت (من منهما؟) يقول: الله أعلم، وأكبر ظني أنّه كان حوتاً عظيماً... يناسب ما يجري في داخله من أمرٍ خطيرٍ... وهو حبس نبي. (يعني سجن خمس نجوم!) أما كم لبث: فالذي أُرجّحه سبعة أيّام (لا تسل لِمَ؟) أما هل كان الأمر عقوبة أو تربية فأقول: كُلُّ أولئك...

ثمّ عنوان: اسم الله الأعظم... لم يقل فيه جديداً بل أعاد تماماً ما كان قاله من قبل. لكنّي لا أُطيق إلاّ أن أُتحفك بنفحة أو تحفة ممّا قال: فوجئ أنّه حي... فوجئ بإيقاف النواميس... فوجئ بمُكثه أيّاماً... والحوت يجري به إلى بقاعٍ لم يشهدْها قط (كان يونُس يشاهد الشُّعب المرجانيّة في أعماق البحر!) هناك ملايين الأطنان من الماء... هي كمّية الماء التي هو في أسفلها (هل خطر ببالك مسألة الوزن أو انعدام الوزن؟!) وكان النّداء... إلى ربّه رأساً... شقّت (أي الكلمات والدعوات) الحُجُب... وزحزحت الأغيار... وفجّرت الأنوار... فيها ما لا يَعلَمُه إلاّ الله من أمواج التوحيد

العُلى (أرأيت المجاز والاستعارات... وبحار كنوز المعاني، وكنوز بحار المباني... والتفسير الشعشعاني؟) ونواصل: فيها (أي الكلمات) فيها الافتقار (وعدَّد معنا كم سيكون تكرار فيها)... فيها الانكسار... فيها الاضطرار... فيها الغربة... فيها الانفراد... فيها تقطع الأسباب... فيها صراخ نبي إلى ربّه (ولا تقف عند الصراخ، فهو انفعال من الكاتب، لكن انتبه أنّه كرّر "فيها" سبع مرّات، هل عددت؟ هل لاحظت؟ بعدد الأيّام التي لبثها -كما يرى الكاتب- في بطن الحوت. أرأيت الموافقات الموفّقات؟) ونداء الأنبياء أعلى من السماء (هكذا أفادنا الكاتب...) فاستجبنا له فوراً؟ بل أسرع من فوراً... فكيف كانت الاستجابة أسرع من فوراً؟ (انتظروا الإجابة على سؤال كيف كانت الاستجابة في الحلقة القادمة...!).

المبحث التالي كان بعنوان: فنبذناه بالعراء... والنبذ طرح الشيء... والمعنى حملنا الحوت على لَفْظِه... واستدرك على الراغب أنّه أضاف... طرح الشيء لقلّة الاعتناء به، (واستدراك الكاتب يحتاج إلى استدراك، فهو لم يقصد النبذ الذي في قصّة يونس، وإنّما المعنى اللغوي من حيث المطلق...) والعراء: المكان الخالي. وهو سقيم أي ممّا ناله. قال ابن عباس: عاد بدنُه كبدن الصّبي حين يولد... أمّا النخجواني (فهذا الذي ندّخره لحسم مُعضلات المعاني...) فيقول: العراء: البادية الخالية عن مُطلق الغطاء (وما الذي أضافه؟).

ثمّ انتقل للإشعاعات التي يُطرّز بها كتابته ويُزيّن بها كلماته ويعمّق بها فحصه وبحثه، فقال ممّا قال: في هذه الآية أغوارٌ وأنهارٌ وأنوارٌ وأسرارٌ وبحارٌ... (لا تسلْ عمّا يَقصدُ بكلّ واحدة فما هو إلاّ السجعُ والترادفُ والتكرارُ...) فنبذناه... نحن الله أمرنا الحوت بلفظه... في مكان حدّدناه للحوت... وكما حفظناه في بطن الحوت سنحفظه في العراء...

ثم يختم التجليات بأضوأ الإشعاعات وأشع الإضاءات، فيطبع الكلمات بحبر غامق يقول: يونس كان هارباً... فقُبض عليه... وأُدخل إلى أشدّ سجن في العالم ظلاماً ووحشةً وعذاباً... إنّه بطن الحوت... وهو خارجٌ الآن من بطن الحوت... فهو يستقبل الحياة مرّةً أُخرى (يقصد أنّه ميلاد جديد...) وقد أدّبه ربُّه فأحسنَ تأديبَه (يقصدُ أنّه رجع كيوم ولدته أمُّه... أرأيت؟!) دخل وهو مُليم وخرج وهو يشعر بالمنّة.

والمبحث التالي: وأنبتنا عليه شجرةً من يقطين... أي أنبتناها مُطلّةً عليه... مُظلّةً له (لا تَسلْني كيف مُطِلة...؟!) ثم ذكر عشرة مفسرين أو يزيدون أن النبتة هي الدّبّاء... القرع المعروف. ثم زادنا فائدة: وكان النبي يحبه. وأعاد حكاية رِقّةَ جلْده. واستشكل كيف يُسمّى القرعُ شجراً...

وأجاب أبو حيان: أنبتها الله على ساق لتُظلّه خرقاً للعادة! (الفهم العجيب هو الخارق للمألوف والعادة). ثم أعطانا فائدة لُغويّة أو زراعيّة عن الطبري كما نقل: كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين... وفي رواية أُخرى (عن الطبري يعني) سُئل عن اليقطين: أهو القرع؟ قال: لا (يعني مرة آه ومرة لا) ولكنها شجرة سمّاها الله اليقطين... وقيل شجرة اليقطين الموز (انتظر فستصبح كلمة اليقطين غابة من المعاني المتشابكة...).

ونقل رواية عند أحمد عن وهب (!!): لَمّا خرج من البحر نام نَوْمةً (إنْسَ حكاية أن نومه عميق التي ذكرها الكاتبُ العتيق...) فأنبت الله عليه شجرةً من يقطين... فأظلّته... وبلغت في يومها... فرآها قد أظلته ورأى خُضرتها فأعجبته... ثم نام (غير الأولى) فاستيقظ... فإذا هي قد يبست (سريعاً هكذا) فجعل يحزن عليها، فقيل له: أنت لم تخلقْ ولم تسقِ... تحزن عليها... وأنا الذي خلقت مئة ألف ثم رحمتهم... فشق عليك! (وهي رواية مصيبة!!).

وقَبل الإشعاعات، عمُنا النخجواني، وبعد النخجواني الإشعاعات... أما المذكور فقال: أنبتنا عليه في الحال... شجرةً لها أوراق عظام (عظيمة يعني) وألهمنا وعْلةً وهي المعز الوحشي... حضرت عنده... وهو يشرب من لبنها إلى أن قوي وتقوم مزاجه (حلوة حكاية المزاج!).

ثم جاءت الإشعاعات فارتقبها وانتظر، واستمع له واصطبر: اللطيفة التي تفجرت (يا لطيف) من النخجواني... ذلك الإمام الرباني (هذا وصف حقاني لا من أجل سجعة من الشلباني)... (والذي لفت نظره) كلمة: في الحال... فوقف عندها وأطال، وصال وجال، وقال في الحال أصلح الله الحال: في الحال؟!! (ومن الكاتب علامات التعجب والسؤال ليس مني بحال من الأحوال): ها هنا المفتاح الجميل الجليل (كله عند الشيخ جميل، وفعلاً كن جميلاً تر الوجود جميلاً...) فوراً نبتت شجرة... فوراً أورقت... وفوراً أثمرت... وفوراً جاءت وعْلةٌ...

والمبحث التالي بعنوان: وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون. ثم ذكر في تفسيرها أن الإرسال هو الإرسال الأول قبل التقام الحوت... (وهو كما ترى لا وجه له)، (وسترى دليله في الكلمة الآتية): فآمنوا: أخلصوا الإيمان وجدّدوه... لأن الإيمان الأول كان إيمان يأس (وأمّا هذه فمن عنديات مولانا ذي البأس، فما كان ثم إيمان أول ولا دليل عليه إلاّ ما عند جَهلَة رُواة بني إسرائيل...).

ثم أتحفنا بتحفة أُخرى بشأن "أو" أن ابن عباس اعتبرها بمعنى بل... (ولم يحل لنا بهذا النقل أيَ مُشْكل). ثم نقل عن ابن كمال في معنى "أو يزيدون"، فقال: إن المكلفين بالفعل منهم مئة

ألف... وإذا ضم إليهم المراهقون الذين بصدد التكليف كانوا أكثر. ثم قال: وقيل: بمعنى الواو. وقيل: للإبهام. وقال المبرد: للشك لمن رآهم من البشر (وكله واهٍ فلا أدري لِمَ يُكثّر به سواد الصفحات؟). (بل أدري...).

ثم نقل عن الترمذي عن أُبي بن كعب قال: سألت رسول الله عن قوله تعالى: أو يزيدون قال: "يزيدون عشرين ألفاً". (وأقول: ليس هذا من منهج النبي ﷺ ولا من منهج القرآن، التحديد...).

ثم نقل عن النخجواني، كلاماً كرّر به النقل (الأوّلاني) ولم يزدْ جديداً من المعاني، ثم انتقل إلى الإشعاعات والكلام المشعشعاني، فقال: ما سر أو يزيدون؟ (قلنا هات يا ابن زيدون) قال: السر عجيب... (تعجبات الشيخ لم تعد تثير العَجَب، لأنه يَصرفُها بلا سبب، ممّا يُثير العجب. ثم لا يزيد على كلمة عجيب أيَّ معنى جديد....). ونواصل: ويتلألأ من صيغة المضارع والجمع: يزيدون. هل فهمت؟ (هو يسأل أي أنهم مئة ألف وسيزيدون... ثم يزيدون... ثم يزيدون... (إذا اكتملت ثلاث فالنقل صحيح). كيف يحدث هذا؟ بالقانون الطبيعي... قانون التناسل. (أرأيت السر العجيب والكشف الغريب؟!) الله أكبر...!!! (الشيخ كَبّر وتعجّب وتأثّر...) فالمائة ألف... يزيدون إلى ملايين... فانظر يا يونس حكمتنا... انظر بالعين الكلية... نحن نعلم ما لا تعلم... نعلم أنهم سوف يؤمنون فأرسلناك إليهم مرّةً أُخرى...

ثم مبحث جديد بعنوان: ولا تكن كصاحب الحوت. فاصبر لحكم ربك: وهو إمهالهم... وتأخير نُصرتك عليهم... ولا تكن كصاحب الحوت: يونُس. ثم فرّق الكاتبُ بين "ذي" و"صاحب" بأن "ذا" أبلغ من "صاحب"... قال ابن حجر: لاقتضائها تعظيم المضاف إليها والموصوف بها بخلافه... قال سبحانه في مدح يونس: ﴿وذا النون...﴾ وفي النهي عن اتباعه قال: ﴿ولا تكنْ كصاحبِ الحوت...﴾ إذ النون لكونه جعل فاتحة سورة أفخم وأشرف من لَفْظ الحوت.

ثم قال في معنى فاجتباه: أي اصطفاه... بأن رد إليه الوحي... وقيل: استنبأه... إن صَحَّ أنه لم يَكنْ نبيّاً قبل هذه الواقعة... (وهذا لا يستحق التسجيل) ثم أعاد عن النخجواني... العالم الرباني... ما سبق من المعاني...

ثم جاءت الإشعاعات تشع وتتشعشع وهلّت والظلام تقشّع: قال: فاصْبر لحكم ربك... ماذا في هذا التوجيه الجميل؟! تريّث أيها النبي واصبر: وانتظر حكم ربك... أو نواميسه وسننه... ولا تكن كصاحب الحوت إذ تعجل... فجاءه ما لم يخطر على باله... فنادى... فتقبل الله توبته:

﴿ونجيناه من الغم...﴾ وها هنا إشارة جميلة (كل هذا الجمال من عند الشيخ وليس من لدنا)... أي يا يونس ناديتنا فنجّيناك... فمن أولى بالنجاة فرد أم مئة ألف أو يزيدون؟ لماذا فزعت تطلب النجاة لنفسك ولم تطلبها لقومك؟

وفي مبحث جديد بعنوان: شخصية يونس عليه السلام... وهو المبحث الوحيد -لعله- الذي لم يُعنْوِن بجزء آية... يريد الشيخ أن يقول: إنه من خلال تأمل الآيات يمكن استخراج شخصية يونس. وقبل أن يصل بنا إلى بيت القصيد طفق يستعرض الأنبياء ولعلّه استعرض عشرين منهم قبل أن يقول: وعن يونس قال: ﴿وذا النون إذ...﴾ واستنتج... أنّ يونُس بلغ غاية الكمال في اللحظة التي نادى فيها... وهذا هو مفتاح شخصيته... ثم قال: مفتاح شخصيته يتشعشع (يحب الشيخ شعشاعة الأشعة والشعاعات والشعشعة) من قوله: ﴿لا إله إلاّ أنت سبحانك...﴾ أي أن الله ما زال يضطره حتى استخرج أعلى ما في حقيقته... صهرناه حتى تشعشع.

وعوّدنا الشيخ ابن شلبي أن يَجْعل مسْك الختام الأذخر كلام الشيخ الأكبر الإمام ابن عربي (الذي يُصِرّ الشيخ على تسميته تمويهاً: ابن العربي..) فإلى ختام المسك ومسك الختام... ونسأل الله ألاّ يكون نافخ كير... ولا نافح أثير... ولن تتوقعوا... لا أنتم ولا الجن ولا العفريت الأحمر العنوان الذي افتتح به الشيخ كلامه بعد صفحة: يونس كما يراه ابن عربي: أول كلمة هي: الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر (الكبريت وليس العفريت فانتبه هديت ووقيت ومن الحسد والجن حميت ورعيت ونجيت...). قال الشيخ ابن شلبي: ابن العربي (عربي)... له آفاق عليا... يُحلّق فيها... يَفهَمُها القليل... ولا يفهمها الكثير (ونحن والشيخ شلبي من الكثير).

ثم رأى الشيخ شلبي أن يُزيّن كتابه بشيء ممّا قاله ذلكم الفذ المنقطع النظير، وينبهنا شلبي إلى أن آراء ابن عربي ليست مُلْزِمة لأحد (ليس هنا المشكلة!) المهم. قال الشيخ الأكبر في "فصوص الحكم": فص حكمة نفسية... في كلمة يونسية. قال: اعلم أن هذه النشأة الإنسانية بكمالها... روحاً وجسماً ونفساً خلقها الله على صورته... (هل بدأت الشعشعات والإشعاعات تشع أشعتها السينية و"الفوق بنفسجية"...!!) فلا يهدم البنيان الإلهي إلاّ هو... يعني أن الإبقاء على النفوس المستحقة للقتل شرعاً كالكفار والمشركين أحق بالرعاية... لأنها بنيان الرب من القتل غيرة في الله (هل وصلت؟!). فإن الغيرة لا أصل لها في الحقائق الثبوتية لأنها من الغيرية، ولا غير هناك (يا عقلاء العالم ومجانينه، أيها المفتونون بابن عربي لا أيقظ الله عقولكم. هذا كلام جد خطير أفلا تسمعون؟!).

ثم ذكر قصّة مُصيبة: أن داود أراد بنيان بيت المقدس... فبناه مرارا فتهدّم... فشكى ذلك إلى الله... فأوحى الله إليه: إن بيتي لا يقوم على يَدَيْ مَن سفك الدماء. فقال داود: في سبيلك. فقال: بلى... ولكنّهم عبادي.

والإبقاء على صورة الله أولى (إي والله بالنص!) وأن ذم الصورة الإلهية (يقصد الإنسان... قاتل الله من قال هذا واعتقده!) راجع إلى ذم فاعلها الظاهر (ابن عربي يعتقد أن كل شيء من فعل الله ولا كسب للإنسان بناء على عقيدته في الحلول ووحدة الوجود). ثم بلا مناسبة انتقل ابن عربي إلى الذكر فقال: فيكون الذاكر هو المذكور (!!).

ونكتفي بهذا القدر من مصائب ومصاند ابن عربي لنعود إلى تعليقات ابن شلبي: قلت: نقف عند هذا الحد من كلام ابن عربي وشرح القاشاني، وعلى القارئ أن يسأل نفسه (يقول ابن شلبي): ما علاقة هذا بحياة يونس؟ هل يريد أن يُنبّه إلى أن الإنسان لا يجوز هدم بنيانه؟ (هو بنى كل هذا السيناريو على رواية تافهة إسرائيلية!) وعلى هذا كان ينبغي على يونُس ألاّ يتعجل هلاك مئة ألف...

فكأني بابن عربي (يتعمّد ابن شلبي أن يثبتها بأل التعريف) يريد أن يُوجّه عقولنا إلى تلك الحكمة الغالية... حكمة الإبقاء على النوع الإنساني... وإمهاله ليراجع نفسه ويرجع إلى ربه... فتتحول تلك الألوف إلى أجهزة تسبيح لربها... بدلاً من ابادتها وتدميرها... والله أعلم.

هكذا ختم الشلبي كتابه غير الشلبي. الذي رأينا أنّ ثلثه أوراق بيضاء، وثلثا الثلثين الباقيين نُقولٌ عن النخجواني وابن عربي وأضرابهما...

وبعد فهذه عينة على فكر لا أريد أن أكون سيئ الألفاظ فأقول هابط، ولكنه فكر يحتاج إلى معالجة إن كان ثمة ما يمكن أن يسمى فكراً...

وحرام أن يكون حمى هذا الدين وقصص الكتاب المبين حِمىً مُستباحاً لمن هب ودب من العالمين.

الكتاب السابع والعشرون

أحسن القصص / قصص القرآن الكريم

(٣٦٠ قصة)

تأليف: الأستاذ الدكتور أحمد الكبيسي

الكتابة القصصية: صلاح محمد علي

الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، بغداد-العراق

طباعة تركيا، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

أحسن القصص / قصص القرآن الكريم (٣٦٠ قصة) / د. أحمد الكبيسي.

هذا الكتاب لصديقنا العزيز الأستاذ الدكتور أحمد الكبيسي. وهو الداعية الموفق المؤثر الذي وصل صوته إلى الملايين، وأدخل في قلوبهم الإيمان واليقين.

ولنا على الكتاب ملاحظات:

١- منهجيتنا التي ارتضيناها في القصص ولا نرى سواها: التزام النص القرآني فلا نزيد كلمة ولا نتصرف، وإنما نُحلّل النص، ونستنبط، ونفهم، ونقتبس العبرة، ونستلهم الدلالات من الكلمات والسياق، ومن اللمحة العابرة والإشارة الخاطفة نأخذ الفائدة والحكمة، دون أن نستجيز أن نرسم سيناريوهات لا تُمت للنص القرآني بصلة، اللهم إلاّ أنها ما زالت تُعرض تحت اسم القصة القرآنية.

فالكتاب كان يتصرّف في الأحداث والشخصيات والحوار والزمان أي في كل عناصر القصة. كأن يقول مثلاً إن فرعون موسى هو ثاني فرعون بعد الحاكم الذي كان زمن يوسف وهو ابن ابنه. هذا بالنسبة لنا تصرّف... ولا يجوز مثل هذا التصرّف.

٢- توسّع الكتاب في الإسرائيليات واعتبرها عُمدة تعتمد، ومصدراً موثوقاً يُؤخذ به، ويُعتمد. وهي في الحقيقة ليست كذلك...

كأن يقول: إنّ يعقوب تزوج بنت خاله ثم جمع إليها أُختها وكان جائزاً ذلك عندهم. وأنّ الأولى أنجبت كيت وكيت والثانية كذا وكذا... والثالثة فلاناً وفلاناً...

٣- رُبع الكتاب تقريباً في سيرة النبي ﷺ وهذه لا تُعَد من القَصص القرآني.. فيما نرى ونرتضي.

٤- وَضَع بعد قصة أو سيرة النبي ﷺ عدداً من القصص لا أدري وجهاً لتأخيرها عن حياة النبي ﷺ.

٥- والنقطة الحاسمة والنهائية والأخيرة مسألة الاصطلاح وتحديد ما هو القصص القرآني. والذي نراه أنه هو ما حوت الدفتان لهذا الكتاب الكريم بلا زيادة ولا نقصان. إذا انضبط هذا الاصطلاح أو المصطلح استقام السّيْر بعد ذلك، واطّرد النهج، وحصحص الحق، وانقشع الغمام، وظهرت الشمس.

يقع الكتاب في أربع وثلاثين وسبعمائة صفحة من القطع الكبير. وفيه ما لا يقل عن ٣٠٠ رسم، وقد شارك فيه كل من الرسامين: طالب مكي، وفاخر حسين، وضياء الحجار، وشاكر خالد، وعبد الرحيم ياسر.

وقدم له الدكتور همام عبد الخالق وزير الثقافة وراجعه ودقّقه الأستاذ الدكتور عبد المنعم أحمد صالح وزير الأوقاف.

ومما قال الدكتور وزير الثقافة في المقدمة: هذا الكتاب رحلة مباركة في طريق الإيمان. وهذا السِّفر صورة حية مستقاة من كتاب الله العزيز.

وسترى أول ما ترى في سفر الجهاد الإيماني هذا، موقف آدم... ثم تتتابع بلواه ثم أشار إلى مرافقة الصورة للقصة وأنّ صُور الأنبياء لا تظهر وإنما هو الإيماء، وفي كل هذا السِّفر ستجد أن القصة أقربُ ما تكون إلى القرآن والسنة. (وأزعم أنّ في الكتاب الكثير من الروايات الإسرائيلية سنُنبِّه عليها في محالِّها).

ثم أشار إلى أنّ العمل في هذا الكتاب استمر سنتين، وأنّ الكتاب ثمرة للحملة الإيمانية في العراق، وأن وزارة الثقافة هي الناشرة له.

ويبتدئ الكتاب بعد المقدمة السابقة مباشرة بقصة آدم التي يبتدئها بعنوان:

١ – بدء الخلق:

ومما جاء في هذا العنوان: كان الله ولم يكن شيء فلم تكن أرض ولا سماء وكان عرشه على الماء، وعرش الله قدرته المطلقة (!!) (لو ترك الكلمة مُطلقةً عن التحديد لكان أولى). وشاء الله أن يخلق الخلق. فخلق الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي، وبارك فيها بما أودع فيها من الكنوز، وقدّر فيها أقواتها في يومين آخرين، فأكمل الله خلق الأرض وأقواتها في أربعة أيام. وخلق الله السماوات في اليومين الأخيرين من أيام الخلق الستة. (القرآن يقول: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسوّاهُنّ سبع سماوات في يومين... ﴾ويقول: ﴿... أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما...﴾)

وبعد أن أتمّ الله الخلق، استوى على العرش، أي أحْكَم هذه المخلوقات كُلّها بحكمته وعدله، ورحمته ولطفه (!!) (كذلك هنا لو لم ينعطف الكاتب إلى تحديد وترك النّصَّ كما هو في القرآن المجيد لكان أبعدَ عن الخلاف والإشكال).

ثم يسأل الكاتبُ عن حكْمة الخلق، ويذْكُر الجواب من القرآن: ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً﴾ فالكون الفسيح معبد لتوحيد الله وعبادته.

٢- خلق الملائكة والجن:

ثم خلق الله الملائكة، وعرّف الكاتب بهم، وأنّ لهم وظائف وعدّدها... والجنُّ خلقٌ آخر. خُلقوا من نار وهم أُممٌ كالبشر، وعدّد بعض أعمالهم.

٣- خلق آدم:

قال: خلقه الله ليقود الحياة، وليكون خليفة. وقد أخبر الله الملائكة بمشيئته في خلْق آدم. وحمّل الله آدم أمانة التكاليف ثم خَلَق زوجه حوّاء.

٤- تكريم آدم:

جاء الأمر الإلهي للملائكة بالسّجود علامةً على تكريم آدم. وتمرّد إبليس فقضى الله عليه بالإبعاد.

٥- مع آدم في الجنة:

عرف آدم حقوقه وواجباته في الجنة. وراح يحيا آمناً مطمئناً مع زوجه، ومرّ الزمن. ثم طرأت لآدم وزوجه فكرة الخلود (!!).

٦- الخلافة في الأرض:

بعد سجود الملائكة واستقرار آدمَ وزوجه في الجنة، أخبر الله الملائكة أنّه شاء وقدّر أن يجعل في الأرض خليفة غيرَهم. وخمّن الملائكة أنّ الخليفة هو آدم. فسألوا مُتعجبين: ﴿أتجعل فيها من يُفسد فيها... ونحن نُسبّح بحمدك ونقدس لك...﴾ وكأنّهم يقارنون أنفسهم بآدم، ويرون أنّهم أحقُّ بالخلافة.

(وهنا أكثر من مخالفة من وجهة نظري، فأولاً: الإخبار من الله للملائكة كان من قبْل الخلْق، بشارةً به وتهيئةً للأذهان، وليس بعد أن استقر آدمُ في الجنة، وثانياً: من أين لأستاذنا الكريم أنّه طرأت فكرة الخلود لآدم وزوجه؟ إنّ الذي في القرآن أن إبليس هو الذي أثار الفكرة في أذهانهما حين قال: ﴿هل أدلك على شجرة الخُلْد...﴾ ، وثالثاً: أن الملائكة سألوا ما سألوا لا للمنافسة ولا لأنّهم يرون

أهم أحق، وإنّما خشية التقصير حتى يتداركوه، وعن حكمة جعل هذا الوافد الجديد هو الخليفة حتى يُذعنوا للأمر الحكيم).

ونعود إلى سياق حديث الأستاذ وسرده للقصة بلغته وأُسلوبه وتبسيطه ليتابع القارئ، يقول: وكان الملائكة يكتمون في أنفسهم أنّ الله لا يخلق خلقاً أفضل منهم. (وأظن أن الردّ سهل فهذا ممّا كتموه فكيف عرفه؟).

ثم يقول: وهكذا فاز آدم بوظيفة الخليفة، وفاز باعتراف الملائكة بمنصبه. وكان آدم مثال الأدب مع الله والاستسلام لمشيئة الله.

٧- الغواية والخطيئة:

نَعم آدمُ بالتكريم الإلهي بخلقه بيدي الله، وسجود الملائكة، وإسكانه الجنّة، وطَرْد إبليس. وتسلّل إبليس إلى حيث يسكن آدم في الجنة. (لولا حكاية التسلّل ما توقفنا، فانّ التسلّل مغافلة الرقباء والنّجاء من عيونهم، وهذا ما لا يُمكن تصوّره في ما نحن بصدده).

والكلمة التي نفذ منها إبليس إلى نفس آدم هي "الخُلْد" التي لها مثل رنين الذهب. وهي أجمل الكلمات وقعاً في نفس آدم...!

وواصل إبليس الوسوسة وبالقسم غرّ آدم وزوجه، وقال الكاتب إنّ إبليس "عرّف لهما الشجرة". (وأقول: إن الله لمّا نهاهما عن الشجرة نهاهما عن محدّد مُعرّف ولم ينههما عن مجهول مُبْهم).

ووقع الزوجان في الخطيئة الأولى. ووقعت في الجنة نفسها على هذه الأرض. (الآن يوضح الكاتب أن الجنة ليست هي المتبادرة في أذهاننا، والآن نفهم التسلّل. وقد نخالف الأستاذ في الجنة كذلك ومكانها. وإن كان الأمر فيه مندوحة).

٨- الندم:

ما إن أكل آدم وحواء من الشجرة حتى خبا ذلك النور الذي كان الله ألبسهما إيّاه (!!) فبدت لهما سوءاتهما، وأخذا يلزقان من ورق الجنة لسترهما. وأخذا يحاولان الاختباء بين أغصان الشجر. (هنا ملاحظتان سريعتان: حكاية النور لا دليل عليها والذي قاله القرآن: ﴿ينزع عنهما لباسهما...﴾ ولم يكن النور لباسهما. والثانية: الاختباء. هذه من التوراة ولا دليل عليها عندنا).

ويتابع الكاتب: لقد خلعا ثوب الطاعة وبدت منهما سوءة المعصية ! (وهذا انعطاف آخر، إن كان الكاتب يريده إضافة إلى خلع اللباس فمعنى جميل، وإن كان يريده البديل عن ظاهر النص فهو غير جميل).

وعندما سمع آدم وزوجه النداء الإلهي استحوذ عليهما الحياء وألهما الاستغفار وكانت هذه أول عبادة للإنسان على الأرض (!) وبقي آدم وحواء في تضرّع ودعاء. وتفوّق آدم مرة أخرى على إبليس إذ تاب ولم يتب.

٩- التوبة:

ألهم الله آدم كلمات الاستغفار. وقبل توبتهما. وأدرك آدم وحواء أن الإنسان خطّاء، وأن لا ييأس الإنسان من المغفرة.

١٠- الخروج من الجنة:

كان الخروج أمراً محتماً. وكان أمامهما مهمات كثيرة صعبة، فلا عيش رغيد، بلا سعي وكد، وعلى الأرض سيتولى آدم منصب الخلافة (والجنة كانت في الأرض، فتأمل !). واصطفى الله آدم للنبوة. وهذا يعني أن وقت الرحيل إلى الأرض قد أزف (ألم نقل إن الجنة في الأرض !؟). وخرج آدم وزوجه تتبعه (!) إلى حيث بدأت مسيرة الإنسان الشاقّة، وإبليس يطاردهما.

١١- الحياة خارج الجنة:

كانت الأرض هي الوطن الجديد (!) ويعلم الزوجان أن مُدة الإقامة محدودة. ﴿ولكم في الأرض مُستقرٌ ومتاعٌ إلى حين﴾ .

وكانت خُطّة خلافة آدم على الأرض مستقيمة وواضحة: أن يتبع منهج الله.

١٢- نبأ ابني آدم

وأخذ آدم يسعى في الأرض ويُصلحها لتكون أكثر ملاءمة لحياة الإنسان. ثم تَكلّم عن حمل حوّاءَ وَولادتها للتوائم (!) وسمّيا الولد (قابيل). (ليس في القرآن ولا في السنة أنه بهذا الاسم، وإنّما هي بضاعة بني إسرائيل). ثم جاء هابيل (من القال والقيل) واختص قابيل بزراعة الأرض، وهابيل بالرعي (!!) وكان أبوهما مُعلّمهما. وكانت البنتان قرتي أعين أبويهما. (ليس في القرآن حكاية البنتين ولا الزواج منهما ولا التنافس عليهما وإنما كل ذلك من الإسرائيليات...) ويواصل القصة بالإيحاء

إلى آدم بأن يزوج فلانا من توأمة فلان... الخ. (ولسنا نرى هذا. ونلتزم النص الكريم: ﴿قرّبا قربانا...﴾.

١٣- الحسد الإنساني:

عاد الكاتب إلى قضية الزواج وجمال إحدى البنتين، وحيرة آدم في قضية ولديه، وأنّ الله أوحى إليه أن يقرّب الأولاد قرباناً، وعلامة قبول القربان أن تنزل من السماء نار بيضاء فتأكله. وقبل الشقيقان، فقرّب قابيل حُزمةً من رديء زرعه، أمّا هابيل فقرّب جملاً سميناً فترلت نار فأكلت جمل هابيل... (وكل هذه التفاصيل من روايات بني إسرائيل، أمّا أحسن التتريل، فلم يذكر لا قابيل ولا هابيل). المهم أنّ الكاتب يقول: إنّ حسد قابيل زاد وهدّد أخاه بالقتل لئلاّ يتزوج من أخته.

١٤- جريمة الإنسان الأولى على الأرض:

يذكر الكاتب الحوار الذي دار بين الأخوين، وليس يقف عند حدود النص القرآني بل يزيد من عنده بعض زيادة ويتصرّف بعض تصرّف. كان يقول: إن هابيل لم يأخذ تهديدات أخيه مأخذ الجدّ، وكان هابيل قوياً شجاعاً حكيماً، وكان أقوى من قابيل (!!).

١٥- الورطة:

وقتل قابيل هابيل فوقع في أسوأ ورطة. فهو أمام أول موت شهدته الأرض وكان هابيل الشهيد الأول. ثم يقول: حمل قابيل جثة أخيه في جراب فوق ظهره (!!) وراح يدور بها حائراً، والجثة تتعفن وتتغير رائحتها... (وتعليقنا البديهي أن القرآن لم يذكر لا التعفن ولا التغيّر. وليست هذه بالإضافة التي تخدم القصة.)

ويتابع الكاتب: أراد الله أن يريه عجزه، فبعث الله غراباً اقتتل مع آخر فقتله، وفي الحال حفر له فدفنه (ولا خبر عندنا عن الاقتتال). فأدرك قابيل أنه أهون من الغراب، وندم لأنه لم يعرف كيف يدفن أخاه ولم يندم على قتله. (وأظن أن الندم ليس لأجل هذا وإنما على القتل).

وبعد أيام عاد قابيل إلى أبيه، فسأله أين هابيل، فرد بحقد: لست وكيلاً عليه، ثم عرف آدم أن هابيل قُتل على يد قابيل (كل هذه التفاصيل لم ترِدْ في التتريل). المهم أن آدم تلقّى المصيبة بصبر جميل.

١٦- شيث هبة الله لآدم:

فر قابيل هارباً من وجه أبيه، وأخذ معه توأمته (الإسرائيليات المعروفة!!) وتوجّه إلى اليمن وهناك أفسد. أما آدم فبقي حزينا هو وزوجه بعد أن خسرا ثلاثة من أولادهما. ولم يدع الله عبده على حزنه، فرزقه ولداً صالحاً بعد خمس سنين من مقتل هابيل (هذه التفاصيل ما عليها من دليل !) هذا الولد هو شيث (ولا الاسم مذكور في علم ثابت). فصارت الرياسة إلى شيث الذي شب صالحاً ورزقه الله آنوش أكبر أولاده، وولد لآنوش قينان (توسعنا في الأسماء والنقل...) وولد لقينان مهلانيل، الذي ولد له اليارد وإليه صارت الوصية، وولد لهذا خنوخ الذي هو إدريس (كل هذه الأسماء والتتابع عن الإسرائيليات للأسف). وهو أول من خط بالقلم ولبس المخيط (وهنا إشكال أيضاً، فقد علم الله آدم ضمن ما علمه اللباس)، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة (لا دليل ولا علم عندنا !)، وأمر إدريس بالصوم والجهاد (ضد من؟) وجعل لهم (أي لناس زمانه) أعياداً كثيرة. ومن أولاده متوشلخ، وإليه الوصية ومن بعده لمك، ومن أولاده نوح.

١٧- نوح عليه السلام:

يرسم الشيخ سيناريو للقصة الكريمة إذ يقول: كانت المدينة تحتفل بيوم من أيام أعيادها وكان احتفالاً كبيراً بالآلهة... ووسط المدينة انتصبت خمسة أصنام ضخمة، يحيط بها الكهنة، يتقدمهم الكاهن الأعظم! وكان الناس يقبلون على الأصنام يسجدون لها... وهكذا يسير الشيخ في التفصيل... تفصيل المشهد، بطريقة رسم السيناريو، فهو يذكر لنا تقديم الناس القرابين وتشجيع الكهنة... وفي غمرة الاحتفال ارتفع فجأة صوت قوي اسكت أصوات الحفل: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره...﴾ . فالتفت الحشد إلى صاحب الصوت الجهير، فقال في حنان: ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ ، (ولست أرى جواز التصرف في النص إلى هذا المدى، وتحويله إلى سيناريو مثقلة بالتفصيلات من خارج النص القرآني، فهذا نص على النص، وقصة على قصة، وقول على قول...) وذهل الحفل الحاشد، وسأل من لا يعرفونه: "ومن يكون هذا الشاب المتحمس؟" واتجه نوح نحو الكاهن الأعظم قائلاً: ﴿اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ .

ويسير الشيخ في القصة على هذا النحو والشاكلة يتصرف في السرد والعرض، فيقول: وكاد الكاهن يفقد صوابه. وانفض الحفل، وقد أُهينت آلهتهم. لقد هز نوح القلوب هزاً وأدرك الجميع أن آلهتهم لا تضر ولا تنفع.

١٨- فشل الاحتفال:

ما يزال الشيخ مصراً على حكاية الاحتفال، وفشله، وفشل الكاهن في إعادة الجمع إلى تعظيم الأصنام (وهذا وغيره كثير مما لا نعلم له أصلاً ولا سنداً ولماذا هذه الإضافات؟) ويرسم الشيخ سيناريو آخر لحوارات دارت بين عبدة الأصنام عن جدوى الآلهة، ولماذا لا تدافع عن نفسها.

١٩- الصراع بين الحق والباطل:

كان الفقراء أول الناس إصغاء لنوح. ورأى الملأ الأكابر أنه سيكون لذاك اليوم ما بعده، فبدأوا بحرب نوح، فقالوا: ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾. ثم قالوا: ﴿وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا﴾... الخ.

٢٠- نوح يشكو أمره إلى الله:

وظل نوح يدعو قومه، فرغبهم في المغفرة، وعلمهم النظر في عجائب الكون. لقد كانت معركة نوح مع قومه أطول معارك الإيمان. واتهمه قومه بالجنون، وهددوه بالقتل فما بقي إلاّ أن يدعو ربه: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾.

٢١- نوح يبني السفينة:

أمر الله نوحاً أن يبني سفينة من ألواح الخشب وألياف الشجر (لا ندري لم إضافة الألياف؟).

وأوحى الله إلى نوح أن لا يشفع في قومه، وشرع نوح يصنع السفينة في مكان مرتفع (ولا دليل على هذا التفصيل !) وصار القوم يهزءون به: كنت أمس نبياً، واليوم أصبحت نجاراً. فيرد سخريتهم.

٢٢- الطوفان:

بعد ما انتهى نوح من بناء السفينة، بدأ يترقب أمر الله. وفار الماء من التنور، وكان ذلك علامة هلاك الكافرين، فصارت الأرض عيوناً وهطلت الأمطار... وحمل نوح في السفينة كل ما كان يعيش في أرض قومه من حيوانات ذكراً وأنثى... وحمل نوح أولاده ونساءه إلاّ ابنه وزوجه أي (كنعان وواعلة). (ولا دليل من كتاب ولا سنة على كنعان ولا واعلة !). ولم تتحطم السفينة مع أن الموج كالجبال، فهي معجزة لنوح كما كانت عصا موسى معجزة وزيت عيسى (لا ندري حكايته) وبراق محمد عليهم الصلوات أجمعين.

٢٣- عاطفة نوح الأبوية تتأجج:

مضت السفينة تشق الأمواج. واشرف نوح من فوق ظهر السفينة، فوقعت عينه على كنعان فجاشت في نفسه عاطفة الأبوة. وامتزج واجب الرسالة بعاطفة الأبوة فقال: ﴿يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ إنه نداء الأبوة للنجاة من الغرق ومن الكفر في الوقت نفسه.

وقد علم الله مدى شفقة نوح على ابنه، فأرسل موجة عالية، حالت دون نوح وابنه، لكي لا يرى الأب غرق ابنه، وذلك رحمة بنوح.

(وهذه التفصيلات الكثيرة التي يستجيز الأستاذ سردها ليست من القصة القرآنية).

٢٤- نوح يتلقى درساً من ربه:

وبعد أن حال الموج بين نوح وابنه كنعان (يصر الأستاذ على حكاية كنعان) وبعد أن ذهب الماء، اتجه نوح بقلبه إلى ربه وناداه. إن ابني كنعان من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ووعدك حق... (وأرى أن ترتيب الأحداث ليس كما قال الأستاذ. بل كان في وقت لم يغرق فيه الولد فدعا لتتدخل العناية بالهداية لهذا الولد لينجو، أما أن القرآن ذكر الغرق قبل الضراعة فهذا من اجل أن يتواصل السرد. وأما الضراعة فمحلها قبل الغرق، وإلاّ كان الدعاء بعد فوات الوقت كمن يدعو لمريض بالشفاء بعد موته !).

لقد كان موقف نوح صعباً. وكان الجواب درساً حاسماً فريداً في دروس العقيدة. فهذا الولد ليس من أهلك لأنه كافر. ووعى نوح الدرس وطلب المغفرة واستعاذ أن يكون من الخاسرين.

٢٥- السفينة ترسو بالمؤمنين:

استجاب الله دعاء نوح فلم يترك على ظهر الأرض من الكافرين أحداً، وأنجى الله المؤمنين، وتم أمر الله، وأصبحت الأرض مهيأة لاستقبال المؤمنين.

٢٦- ذرية نوح:

هبط المؤمنون الأرض. وكان من بينهم ثلاثة رجال: سام، وحام، ويافث. وتفرق الأخوة في جهات الأرض، (وهنا نقطة الخلاف المنهجية أن الأستاذ يضيف إلى القصة ما يرويه بنو إسرائيل يعتبره شيئاً واحداً أو مكملاً، وليس كذلك. فمعلومات هؤلاء شابها الباطل، والقصة القرآنية من معدن الحق، فكيف نلبس الحق بالباطل؟).

ومن نسل أبناء نوح تكاثرت أمم الأرض: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ وتكونت قبائل. ولكن الشيطان المترصد أغوى كثيراً من الذرية، وراح يزين الباطل.

٢٧- هود عليه السلام:

كان عاد من ذرية أبناء نوح. وكانوا أي عاد يقيمون في شمالي جزيرة العرب (بل الراجح الجنوب) عند بئر ارم، عند الأرض المسماة الأحقاف. وكان القوم مترفين وحباهم الله قوة الأجسام (هذا من نص القصة القرآنية)، فراحوا يعبثون، ويبطشون، وعبدوا الأصنام، وكان لهم صنم يقال له "صمود" وآخر "الهتار" (رجعنا إلى التفصيلات التي ما عندنا فيها في القرآن من أخبار...) فأرسل الله هوداً يدعوهم إلى عبادة الله، وكان من أوسطهم وأشرفهم نسباً، وأصبحهم وجهاً (!!). فقالوا: ﴿من أشدّ منّا قوّة﴾.

ولم يكتفوا بهذا بل اتهموه بالسفاهة، وبالجنون، وأصروا على أوثانهم، وتحداهم بجرأة النبي فقال ﴿فكيدوني جميعاً ثمّ لا تنظرون﴾ وكان هذا الموقف من أعظم المعجزات (!).

٢٨- التّذير:

ازداد قوم عاد (الأصل القول: عاد قوم هود) عناداً وتكذيباً. وثابر هود على الدعوة وحذر قومه، وتعلل هؤلاء بعبادة الآباء: ﴿أجئتنا لنعبد الله وحده، ونذر ما كان يعبد آباؤنا﴾ فانقطع المطر وجفّت الأرض ويبس الزرع (تفصيلات زائدة على النص القرآني والقصص الحكيم). فأمرهم هود بالاستغفار لعودة الأمطار: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً، فأمعنوا في السخرية وأصروا على الكفر ، فتضرّع هود: ﴿رب انصرني بما كذّبون﴾ فاستجاب الله: ﴿قال عما قليل ليصبحن نادمين﴾.

٢٩- العذاب:

ظل هود يدعو قومه حتى يئس منهم فقال: ﴿واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾. وتحداهم، ثم صحب المؤمنين وفارق الكافرين، فجاءت سحابة سوداء، ففرح القوم بها، وأوضح هود لهم الحقيقة، وفجأة انقضت العاصفة على القوم فأخذت تحمل الرجال والمواشي فترفعهم إلى السماء ثم تضربهم بالأرض. فدخلوا بيوتهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم. (تفصيلات لا داعي لها ولا سند ولا دليل عليها).

واستمرت سبع ليال وثمانية أيام متواليات (هذا النص القرآني، لكن استمع التالي): فكانت عاتية، تجاوزت الحد في هبوبها وبرودتها، وكأنها عتت على خزّانها الملائكة فلم يستطيعوا ضبطها...

(أظن أن هذا زيادة!) وهلك القوم. وقيل كانوا أربعة آلاف أو ثلاثة (ولا يهمنا عددهم ولا معلومة عندنا عن هذا موثقة). أما هود والمؤمنون فقد نجاهم الله.

٣٠- صالح عليه السلام وثمود:

أورث الله ثموداً أرض عاد وديارهم (!!)، وكانت مساكن ثمود بالحجر وموقعها بين الحجاز والشام إلى ساحل البحر الأحمر. وهي غير بعيدة عن ديار عاد (!) والمكان الذي كانت فيه ديارهم يعرف اليوم بـ "فج الناقة". وقد بنى قوم ثمود (الأصح ثمود) في أرض الحجر قصوراً، واتخذوا الجبال بيوتاً ينحتونها، وذلك لطول أعمارهم فكانت الأبنية تبلى قبل فناء أعمارهم (لا داعي ولا دليل على هذه الدعاوى ولا فائدة). عاشت ثمود في جنات وعيون ورغد، فصاروا يتفننون في المآكل والمشارب (!) ولم يشكروا الله بل عبدوا الأصنام.

٣١- الرسول والرسالة:

بعث الله صالحاً نبياً إلى ثمود، وهو من أشرفهم نسباً وأوسعهم حلماً وأصفاهم عقلاً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وحذرهم من الاستسلام لكبرائهم المجرمين، وذكّرهم بنعم الله، وحذرهم من الفساد، ودعاهم إلى الاستغفار. ويمضي الزمن، فما آمن إلاّ الضعفاء، فأما أهل السلطان فأمعنوا في البغي، واتهموا صالحاً بالخلل في عقله وبأنه سُحر.

٣٢- التحدي:

أخذ الملأ يشعرون أن حججهم ضعيفة، فخشوا زوال سلطانهم فحاولوا التقليل من شأن صالح في أعين القوم، فقالوا إنه بشر، وطلبوا منه أن يخرج لهم من صخرة عظيمة ناقة حقيقية (ليس في القرآن مثل هذا !) فأجابهم واثقاً بالله أنه سيخرج لهم.

٣٣- الناقة المعجزة:

ها هي الصخرة الصماء تلد ناقة ضخمة، مثيرة الهيبة (ليس في القرآن تفصيلات عن الناقة، ولكن الشيخ يفصل أوصافها فيقول:) وكانت فخمة مهيبة سوداء الحدق، حمراء الوبر، أرعبت أنعامهم، وذهل القوم، فآمن قليل، وبقي الأكثر كافرين، وراح صالح يذكر بنعم الله.

٣٤- الناقة والماء:

راحت الناقة تشرب الماء من بئر ثمود الوحيدة (!) يوماً كاملاً لها، فلم يعد الماء يكفيهم (!!) وكانت الناقة تصيف إذا جاء الحر بظهر الوادي، فتهرب منها مواشيهم، وتهبط إلى بطن الوادي في

الحر، وتشتو في بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برد وجدب (كل هذا ليس من القصة، وكأنه يلتمس العذر لهم، وكأن الناقة اضطرقم لقتلها...) فأجمعوا على عقرها.

٣٥- الاعتداء على الناقة:

حسم تردد القوم امرأتان (لا أساس لهذا في القصة العظيمة في الكتاب العظيم) كانت لهما إبل ومال وجَمال (بفتح الجيم طبعاً) أحدهما تسمى (صدوق)، (لا معلومة عندنا من مصدر موثوق ولا من راوٍ صدوق !!) وقد عرضت نفسها لمن يقتل الناقة (هذا لا يعقل ولا دليل عليه مما ينقل من صحيح النقل لا من عليله وسقيمه ودخله !) وكانت الثانية اسمها "عنيزة". (لا عنيزة ولا بريدة!) وكانت لها بنات حسان جميلات، فعرضت إحدى بناتها على شقي اسمه (قدار بن سالف). (معرفة الاسم لا تقدم ولا تؤخر في القصة، لا بل تؤخر!) وكان قدار شريفاً (!) مطاعاً ثم أغوى هذان سبعة آخرين ليشاركوهم في قتل الناقة. فرمى (مصدع) الناقة بسهم، وقدار بسيفه، وأكل أهل القرية لحمها (تفصيلات نحن في غنى عنها) وتجرأوا على الله وطلبوا من صالح أن يأتيهم بالعذاب.

٣٦- المهلة القصيرة قبل العذاب:

رأى النبي الناقة قتيلة، ورأى الطغاة تصطبغ سيوفهم بدمائها، فملأ الحزن قلبه (لا داعي لهذا السيناريو التفصيلي!)، فأدرك أن عذاب الله نازل بهم فقال: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾. (وأقول: هذا غيب لا يعلمه الرسول إلاّ بوحي لا يقوله من عند نفسه...) وأنذرهم أنهم يصبحون في اليوم الأول وجوههم مُصفرّة (لا معلومات من الوحي عندنا عن هذا) وفي الثاني مُحمرّة، وفي الثالث مُسودّة، أما التسعة فبيتوا مؤامرة قتل صالح، فأتوا شاهرين سيوفهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم (هذه قصة على القصة).

٣٧- العذاب:

انتهت المهلة، ولم يتوبوا، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون، جاءتهم في وضح النهار وزلزلت الأرض تحت أقدامهم، فأصبحوا هامدين، وتولى صالح متحسراً على قومه، وكان الذين نجوا مئة وعشرين أما الهالكون فخمسة آلاف بيت (معلومات تفصيلية لم يرد بها وحي).

٣٨- إبراهيم عليه السلام في العراق:

هذه أور، مدينة كبيرة في جنوب العراق (مصدر كل هذا بنو إسرائيل) إنها مملكة قوية، وأهلها منعمون، ولكنهم لم يعرفوا ربهم ولم يشكروه، فعبدوا حجارة، وغرقوا في الفساد. وهذا نمرود

بن كنعان بن كوش (لا أدري لماذا في قصة كل طاغية يرد اسم كنعان، فابن نوح الطاغي كنعان، وهذا نمرود بن كنعان!) ملك الغرور جوانب نفس نمرود، فأقام نفسه إلهاً لأهل أور، وفي أور ولد إبراهيم بن تارخ أو آزر (لماذا هذه الأو؟ ومن أين جاء تارخ؟ وهل كلما ذكرت التوراة اسماً تبعناهم إلى جحر ضبهم!).

لقد أنعم الله على إبراهيم بالعقل الرشيد، فيرفض الأصنام، ويشفق على الناس.

٣٩- إبراهيم يبحث عن الرب الحقيقي(!!):

(والعنوان مشكل شديد الإشكال، فإبراهيم لم يكن يبحث وإنما كان يقيم الدليل والحجة على قومه بالنص الكريم...) قال: وينظر إبراهيم حوله، فيتأمل بعقله، ولا يقتنع بما يرى من تماثيل، ويرفع بصره إلى السماء ليرى ملكوت السموات وليكون من الموقنين، فقد فرجت له السموات فرأى الملكوت الأعلى (!!).

وبهذا اليقين بدأ يدعو قومه، فسأل: ما هذه التماثيل؟ وأعلن موقفه، واصطفاه الله خليلاً. (واضح أن العنوان موهم وليس تحته ما يتصل به فلو غيّر الشيخ عنوانه هذا!).

٤٠- إبراهيم يحاوره أباه:

وآزر هو لقب تارخ (لنوفق بين القرآن والتوراة هذه هي الحكاية). وكان آزر يعبد الأصنام مثل قومه، ويبيعها (معلومة زائدة لا نحتاجها!). وبدأ إبراهيم بدعوة أبيه، وحاوره، وسجّلت الحوار آيات سورة مريم، وفي كل مرة يبدأ الحوار بهذه الكلمة الحنون يا أبت، فهدّده آزر وطرده. فاعتزل إبراهيم وواصل الدعوة بالحجة القاطعة.

٤١- خطوة عملية:

يقصد بالخطوة العملية تحطيم الأصنام، ولا يفوته أن يرسم السيناريو على ما هو معهود، مثل: قال آزر لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا. فخرج إبراهيم فلمّا صار ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم فتركوه. وقيل: إنّه تظاهر بالمرض.

وعاد إلى الأصنام فحطّمها وعلّق الفأس برأس الكبير (هذه زيادة على القصّة ولا تزيد في عبرتها).

وحين رجع القوم إلى معبدهم كانوا آملين أن يلتهموا الطعام الذي تركوه عند الأصنام لتباركه (هذا كلّه مما لا دليل عليه!)، فلمّا جاءوا إبراهيم قالوا: ويحك نحن نعبدها وأنت تكسرها.

٤٢- إبراهيم يحاور قومه:

وجاءوا بالفتى أسيراً مقيّداً (!) وقلبه قلب النبيّ ذي العزم الراسخ. (مع أنه ليس نبيًا بعد بدلالة قولهم: فتى...).

وبدأت محاكمة ابراهيم، فقال: حطّمها الكبير لأنّه غضب من عبادتكم إيّاها معه فاسألوهم. وكانت حجّة ساطعة. فالأصنام لا تتكلّم. ولكنّهم لم يُذعنوا لعتوّهم.

٤٣- المحنة الأولى: الحكم على إبراهيم بالحرق:

بدأ نمرود الطاغية المتكبر وكهنته يفعل بإبراهيم ما عجزت عنه آلهتهم المهانة المحطمة (ولا دليل عندنا على اسم نمرود إلاّ الروايات غير الموثقة... ولا يهمنا). ثم نقلنا الكاتب إلى العالم النفسي لهذا النمرود وكهنته فكأنهم قالوا: إن الذي حطم آلهتنا التي كنا نحتمي بقوتها، قادر على أن يحطم ملكنا. ثم تكلم عن تهديد مصالحهم أي الكهنة فلا بد من مواجهته بعنف وقسوة. فأصدروا بحقه حكم الموت حرقاً. وانطلق الجميع يجمعون الحطب، طيلة شهر كامل (تفصيلات لا نفع فيها ولا دليل عليها، وإنما هو سيناريو يسمح الكاتب لنفسه فيه بالتصرف، فيما لا ينبغي التصرف فيه...).

ثم ذهب في التفصيلات أبعد إذ قال: بلغ من ضلالهم أن المرأة كانت تنذر حزمة حطب لحريق إبراهيم قرباناً للآلهة. وأعدوا حفرة وبنوا حظيرة واسعة... حتى إن الطائر ليحترق إذا مر فوقها (لم لا يبتعد؟!). ثم أوثقوا إبراهيم ورموه بالمنجنيق إلى النار وهو يردد حسبنا الله ونعم الوكيل. ويقول: "اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك!" (وهو دعاء عجيب غريب ما عليه من دليل).

ثم أعاد قصة جبريل وسؤاله عن حاجة. وحكاية: حسبي من سؤالي علمه بحالي (مع أن الضراعة والدعاء حين النوازل من تمام العبودية). والنار لم تحرق إلاّ وثاقه. وبعد المعجزة آمن نفر وكتموا إيمانهم خوفاً من البطش (القرآن لم يقل هذا، وإنما قال:﴿رجعوا إلى أنفسهم...﴾ ، وقال: ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم...﴾).

٤٤- الملك يحاور إبراهيم:

اهتز نمرود لمعجزة إبراهيم، فدعا إبراهيم ليحاوره، وقف إبراهيم أمام نمرود بن كنعان (حكاية كنعان في كل شخصية شريرة حكاية!)، ثم قال: حمله البطر على إنكار وجود الله. فقابل الإحسان بالكفر والطغيان. فأظهر إبراهيم أسطع دليل على وجود الله فقال: ﴿ربي الذي يحيي

ويميت﴾، قال الطاغية: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ (حتى الآن والنص ملتزم). ثم قال الكتاب وقيل: دعا برجلين حكم عليهما بالإعدام فقتل واحداً وأطلق الآخر. (وهي حكاية واهية لا حاجة اليها، ثم لم المحكومان بالإعدام؟ أحرصاً على عدم الظلم؟).

ثم ذكر فوز إبراهيم الساحق حين ذكر الشمس ونظام الكون الذي أبدعه الله. فبدأ الطاغية يضيق على ابراهيم (وهذه حكاية على النص)، فقرر أن يهاجر من أور (لا نعتمد التوراة بحال!).

٤٥- إبراهيم في فلسطين:

وصل إبراهيم من حران الشام (ليس عندنا ذكر لحران وإنما هذا كله عند بني إسرانيل). ومعه زوجه سارة، ولوط ابن أخيه وزوج لوط. وكانت معهما أموال كثيرة (هذا لا شيء عندنا عنه وإنما المال محل اشتغال بني إسرانيل).

فافترقا... لوط إلى سدوم وعمورة في الأردن، وإبراهيم حيث كان وبينهما مسيرة يوم وليلة (تفصيلات لا غناء فيها). وبعد مدة حدثت مجاعة في الشام وفلسطين فهاجر إلى مصر. وحاور إبراهيم قومه ثم سرد الكاتب قصة النجوم والقمر والشمس، ولا أعتقد أن محلها المناسب هنا، وإنما هذا كان قبل مهاجره!.

٤٦- المحنة الثانية: إبراهيم في مصر:

كان ملك مصر حين وصلها إبراهيم ملكاً مستبداً... ثم قص علينا الشيخ قصة سارة وجمالها الذي نقل خبره إلى الملك، وقوله أختي... ولن ندخل في هذه المتاهة التي لا نظن لها سنداً إلاّ روايات الإسرانيليين.

٤٧- إبراهيم يتزوج هاجر:

أعاد حكاية جمال سارة (ولا علاقة للقصص القرآني بهذا) وكانت تحب زوجها، ولكنها كانت عقيماً. فأشارت سارة على إبراهيم أن يتزوج خادمتها الوفية هاجر التي وهبها لها الملك، وفعل إبراهيم ما أشارت به زوجته، ثم ولدت هاجر.

٤٨- محنة إسماعيل وهاجر:

بعد أن كانت هاجر خادماً صارت زوجته وضرة لسيدها. وامتلكت من قلب إبراهيم مكاناً واسعاً (!!) ملأت الغيرة قلب سارة فتمنت على زوجها أن يبعد عنها هاجر وإسماعيل (هذا كله لا يصح، بل الأمر بإسكان هاجر وابنها أمر من الله). فترك إبراهيم زوجه وابنه بواد غير ذي زرع،

فصارت تناديه: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم (وهذا يؤيد قولنا). ورجع إلى فلسطين فوجد سارة غادرت الغيرة قلبها.

٤٩- إسماعيل يفجر ماء زمزم:

نفد الماء مع هاجر فطفقت تسعى بين الصفا والمروة تفتش عن ماء... ثم فجر الله الماء لإسماعيل وأمه، بعد أن خيل لها أن الله تخلى عنها (هذا لا يليق بمؤمن ولا مؤمنة أن يظنه بالله). فطفقت من فرحها تقول: زم الماء... زم الماء... فسميت العين زمزم. ثم خاطبها الملك: "لا تخافي الضيعة، فإن هنا بيتاً لله يبْنيه هذا الغلام وأبوه..." (وهذا كله مما لا دليل عندنا عليه، وإن كان معناه صحيحاً).

٥٠- دعوة إبراهيم تستجاب:

مرت جماعة مسافرين من الوادي من قبيلة "جرهم" فسكنوا بجوار الماء فاستجيبت دعوة إبراهيم، بأن هوت إلى المكان أفئدة، ونشأ إسماعيل في "جرهم" وتعلم العربية، وكان إبراهيم يزور هاجر بين وقت وآخر.

٥١- المحنة الثالثة: إبراهيم يذبح ولده إسماعيل:

رأى إبراهيم في الرؤيا أنه يذبح ولده، والرؤيا حق، فلما عزم على ذبحه، ونص الكاتب: أخذ إبراهيم يحرك السكين على حلق ولده إسماعيل ولكن السكين لم تقطع (وهذه تفصيلات بلا مستند) المهم أن الله فدى إسماعيل بكبش عظيم. وصار ذبح الضحايا سنة للمسلمين.

٥٢- إسماعيل يتزوّج:

(ليس في قصص القرآن شيء من هذا). احب بنو "جرهم" إسماعيل، فلما بلغ مبلغ الرجال زوّجوه امرأة منهم...

٥٣- هاجر تموت:

(ولا هذا من قصص القرآن. هي ماتت بالطبع، لكن القرآن لم يذكر هذا، ونحن نقف عند النص. ونتعامل معه بالتحليل وأخذ العبر، لا بتأليف نص على النص). قال: ماتت الأم العظيمة. كان موت هاجر أكبر من الألم وأكبر من الحزن. (هذا وصف قصصي لا علاقة له بالقصص القرآني، وإنما هو تأليف من جو القصص القرآني).

٥٤- إبراهيم يشير على ابنه بزواج جديد:

يذكر القصة المتداولة عن زيارة إبراهيم، وسؤاله لزوج إسماعيل عن حياقم، فوجدها متذمرة شاكية، فترك إبراهيم عندها وصية لإسماعيل بتغيير العتبة فطلقها. وتزوج غيرها فنجحت في اختبار ابراهيم.

٥٥- سارة تلد اسحق:

يرسم سيناريو لنزول الضيفان بإبراهيم، وكانوا كما يقول المؤلف: شباناً ثلاثة حسان الوجوه عليهم مهابة (القرآن العظيم لم يتكلم في هذا كلمة واحدة ولا السنة).

ثم تحدث عمّا في الآيات من كرم إبراهيم ومسارعته إلى قرى الضيف... ثم كشف الملائكة مهمتهم، ومنها بشارته بولد، فأقبلت سارة في صيحة وضجة عظيمة، تريد أن تستفسر عن الخبر، إذ يستحيل على امرأة جاوزت التسعين (!!) أن تتخيله. ثم تحققت البشرى فولدت سارة اسحق. ثم شد ابراهيم الرحال إلى مكة حيث أمر هناك ببناء البيت.

٥٦- إبراهيم ولوط عليهما السلام:

تكلم عن قوم لوط وأهم كانوا يتخذون الرجال كالزوجات ويتركون زوجاقم من النساء. وكانوا يحذفون الحصى على من مر بهم مع الفحش في المزاح وحل الإزار والصفير(!!) ثم تواصوا على إخراج لوط ومن آمن معه. ثم جاءته الملائكة من عند إبراهيم، ويصور الشيخ جدال الملائكة مع ابراهيم في حوار لا سند له ولا أساس.

٥٧- الملائكة عند لوط في سدوم:

يحدد الشيخ أن الملائكة هم جبريل وميكائيل وإسرافيل، ووصلوا "سدوم" عند نصف النهار وكانت ابنة لوط تستقي الماء لأهلها وكانت له ابنتان (الرواية الإسرائيلية!) فسألوها: هل من منزل؟ فقالت: نعم. مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم. فأتت أباها فقالت: فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم (هذا الحوار وهذه المشاهد مما لا سبيل إليه ولا دليل عليه ولا يغني فيه النقل عن بني التيه).

ثم أكمل القصة على ما هو معلوم في القرآن من هلاك القوم الظالمين. ولكنه خلط إذ قال: امرأة لوط التفتت. والذي يفهم من النص أنها ما خرجت أصلاً. وتوجه لوط بابنتيه إلى الشام (حكاية البنتين إسرائيلية محضة).

٥٨- البناء المقدس:

غاب ابراهيم عن ولده. ثم قدم بعد ذلك إلى مكة فوجدها ماهولة، ومشى إبراهيم حتى بلغ زمزم فوجد إسماعيل جالسا تحت دوحة (لعلها دومة بالميم) وارفة الظلال يبري سهاما لـه... (هـذا السيناريو ليس من القص القرآني... ولكنه نص على النص). ثم أخبر ابراهيم اسماعيل بأن الله أمـره ببناء البيت... فبنى البيت...

٥٩- وفاة سارة:

توفيت حبيبة ابراهيم الجميلة وأولى أزواجه (..!!) ماتت وقلب ابراهيم مملوء بالرضا عنها. ثم مر الزمن فتزوج امرأة من الكنعانيين وهي "قطورا" ابنة "يقطن" (بالله أين يمكن أن نجد هذه الأسماء وهذه التفصيلات وما الفائدة منها ؟) فولدت له ستة أولاد وسماهم الكتاب: بتسان وزمران ومديان ويسبق وسوح (ولم يذكر الشيخ السادس... وهذه الأسماء كذلك لا دليل عليها ولا نفع من ذكرها. والقرآن لم يشر إلاّ إلى بشارتين وكانا بخارقة فما بال هؤلاء؟!).

٦٠- وفاة إبراهيم:

والمنهج القرآني لم يذكر مثل هذا، لكن الكتاب يقول: مات ابراهيم وعمره نحو مائتي سـنة (!!)، وقد أنزل الله على ابراهيم صحفاً، وذكر نماذج مما في هذه الصحف، ومنها: "على العاقـل أن تكون له ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يفكر فيها في صـنع الله، وسـاعة يحاسـب فيهـا نفسه...".

ثم تطرق الكتاب إلى قصة الطير. وخرّجها تخريجاً لطيفاً إذ قال: أراد ابراهيم أن يزداد بصيرة وسكون قلب برؤية ذلك. (أقصد أنه لم يصنع كباقي المؤلفين الذين جعلوا ذلك من باب مطاردة بقايا شك...). ثم سمى الكتاب الطيور ما هي وأنها كانت: طاووساً وغراباً وحمامة وديكاً. وأنـه احـتفظ بالرؤوس عنده بعد ذبحهن. وهذا مما لا سبيل إلى معرفته. ثم دعاهن، فصار الريش يطير إلى الـريش واللحم إلى اللحم والدم إلى الدم... الخ، وهذا كذلك ما عندنا منه خبر. ثم كذلك لا أدري لم وضع هذه القصة عند وفاة ابراهيم أو تحت عنوان وفاته.

ثم روى رواية فيها مبالغة فيما اعتقد إذ قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجل حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير في الهواء.

٦١- أولاد اسحق:

تزوج اسحق من رفقة بنت بتويل (ولا أدري أين هذا في القرآن أو السنة؟ أو أين الفائدة الكامنة فيها؟) ولدت له توأمين: عيص ويعقوب (النقل الكامل عن بني إسرائيل) ثم تزوج عيص من نسمة وهي بنت عمه إسماعيل ورزقا: الروم بن عيص. ثم تزوج يعقوب ليّا بنت خاله لابان بن بتويل وأنجبت عدة أولاد وتوفيت. ثم تزوج أختها راحيل وولدت يوسف وراحيل وماتت، (وكل هذا كما ترى من الإسرائيليات لا أدري لم يسردها الشيخ وهي أولاً غير موثقة وثانيا لا دخل لها بقصص القرآن، وثالثاً لا عبرة فيها ولا نفع). ثم أضاف أن يعقوب كان يحب الأخيرين لأنهما حرما من حنان أمهما ساعة ولادتهما.

٦٢- يعقوب:

كان يعقوب أحب إلى أبيه من عيص. وخاف اسحق على يعقوب من غدر عيص. فأوصاه أن يرحل، فرحل إلى آرام (العراق) ثم وصاه أن يتزوج إحدى بنات خاله لابان لينال العز والمنعة ثم قال اسحق: ثم عد بعدها إلى هذه الأرض. (وأعتقد أن هنا مشكلة، ودعك الآن من تفاصيل الزواج و"الخلفة"، وإنما المسألة الآن تأصيل فكرة أرض الميعاد).

٦٣- يعقوب عند خاله لابان:

لابان في بلاد ما بين النهرين. ولابان هو أخو رفقة زوج اسحق (!!) وصل يعقوب موطن جده الأول إبراهيم. وبينما هو يسأل عن دار خاله وإذ بنت خاله راحيل مقبلة وراء غنمات وكانت فتاة جميلة (!!) كاملة الخلق يعلوها وقار يزيدها فتنة (!!) فقال لها: يا فتاة أنا يعقوب بن اسحق النبي أنا ابن رفقة عمتك. فاطمأنت وانطلقت به إلى منزلها (هذا كله ليس من قصص القرآن أحسن القصص لا من قريب ولا من بعيد!!).

٦٤- أولاد يعقوب:

تزوج يعقوب ليّا ثم أختها الصغرى راحيل وكان جائزاً الجمع بين الأختين (ولا دليل عندنا ولمَ هذه التفاصيل؟) وأنجبت ليّا ستة وراحيل ماتت في النفاس (وهذا كذلك مما لا نملك عليه دليلاً، والكتاب من أسف يسير على هذا النهج ويظن أنه ما زال في نطاق قصص القرآن. ونحن قد خرجنا من المجال القرآني إلى قصص التوراة...). وكان لابان وهب ابنتيه جاريتين هما "بلهة" و "زلفة" وتزوج يعقوب من هاتين فولدتا له أربعة (ليكمل الاثنا عشر!) وكل أولاده مواليد العراق.

٦٥- عودة يعقوب إلى فلسطين:

عاد في قافلة مهيبة بزوجاته الثلاث وأولاده الاثنا عشر وكان إسماعيل قد مات عن ١٣٧ سنة (تفاصيل التفاصيل...). ثم مات اسحق بعد أن بلغ ١٦٠ سنة ودفن بالخليل.

٦٦- يوسف في حضانة عمته:

يبتدئ الكاتب قصته من جماله الذي ورثه عن راحيل (والجمال ليس هو المهم). ثم تنازع حبه يعقوب وأخت يعقوب. ثم عرض القصة الإسرائيلية إياها، حكاية الحزام (منطقة اسحق) وزعم السرقة لتحتجز يوسف عندها. فاحتفظت بيوسف سنة كاملة. (وهذا ليس قصصاً دينياً حتى فهو تدليس وغش وكذب وظلم فكيف يقع في بيوت النبوة؟!).

٦٧- يوسف بين أخوته وأبيه:

بعد سنة عاد يوسف، وظهرت مكانته. فبدأ حسده من إخوته.

٦٨- رؤيا يوسف:

ولا بد من وصف وسرد إضافي ونص على نص، حيث قال الكتاب: ذات صباح مشرق من نهار جميل. أقبل يوسف يمشي مطمئناً مثل ملاك، فقال يعقوب: ما الذي جاء بولدي الحبيب في هذه الساعة المبكرة؟ (وأين كان هو أصلاً؟). ثم ذكر الكتاب الرؤيا كما هي في القرآن.

٦٩- المؤامرة:

كلما ازدادت محبة يعقوب ليوسف، ازداد الأخوة كراهية له. ثم عرض تآمرهم على ما قصه القرآن.

٧٠- الحيلة:

يرسم هنا سيناريو، والمصوّر بالصور المرافقة جسّد السيناريو. فقال: لم يجدوا إلاّ الحيلة، فقاموا يركضون ويتبارون بالسهام. فحين رأى يوسف هذا تمنى أن يكون معهم. ثم أكمل القصة على ما في القرآن.

٧١- الغدر بيوسف:

لا بد من رسم سيناريو، قال الكتاب: وفي الصباح خرج يوسف مع اخوته. وصحبهم يعقوب بعض الطريق. وقلبه غير مطمئن. (ولا أعلم لم يستجيز سادتنا أن يؤلفوا نصاً على النص؟)

ثم ذكر وصية يعقوب لأولاده وهو يودعهم. ثم روى الكتاب عجيبة إذ قال: وأوحى الله إلى يوسف كما أوحى إلى جده ابراهيم من قبل... حين ألقاه نمرود في النار عارياً، فأتاه جبريل بقميص من

حرير الجنة وألبسه إياه، هذا هو القميص نفسه أخرجه جبريل وألبسه ليوسف وهو في الجب... وأخذ جبريل يؤنس وحشة يوسف. وكان ماء الجب يغنيه عن الطعام ببركة الله. (ولا يحتاج الأمر إلى تعليق، فبهذا ينتهي البلاء !! ومن أين أتى جبريل بقميص إبراهيم؟!).

٧٢- التزوير:

يقصد الدم الكذب على قميص يوسف. ولكن لا بد أيضاً من سيناريو وتصرف. فقال: غابت الشمس ولم يعد يوسف. ويعقوب ينتظر. وحل العشاء، وفجأة اندلعت أصوات بكاء، ونظر يعقوب فإذا هم أبناؤه العشرة، فإذا يوسف ليس معهم. وقبل أن يسألهم سبقوه بالقول. ثم شرح أن الدم دم سخلة ذبحوها ولطخوا بدمها قميص يوسف.

٧٣- جبريل مع يوسف في الجب:

يرسم الكتاب سيناريو مناداة من يوسف لأخوته فلم يسمعوه، ثم أشرق البئر بنور جبريل حيث علّم يوسف دعاء: اللهم يا مؤنس كل غريب... فقالت الملائكة: اللهم إنا نسمع دعاء، الصوت صوت صبي والدعاء دعاء نبي، وكان هذا الدعاء في الليلة الثالثة. (وكل هذا مما لا سبيل إليه ولا دليل عليه ولا داعي له).

٧٤- استجابة الدعاء:

لا جديد يستحق التوقف عنده.

٧٥- يوسف في مصر:

رسم سيناريو لبيع يوسف بثمن بخس أنه كان أغضب من في القافلة لاعتراضه على عبادتهم الأصنام، فباعوه ليتخلصوا منه، (وهو تبرير غير موفق فيما أرى). ثم اشتراه فوطيفار رئيس وزراء مصر. ووصفه بالهادئ الوديع الكريم.

٧٦- الحب المجنون:

إليك هذا السيناريو: ذات يوم في قصر العزيز. هذه راعيل "زليخا" امرأة العزيز الجميلة الفاتنة تسبح في الترف والدلال. هذه راعيل وقد ازداد جمالها فتنة وإغراء بعد أن تزينت بأحلى زينتها وتعطرت بأطيب عطرها تتبختر مشرقة فاتنة... وراعيل تنتظر هذا الجمال مدة ثلاثة عشر عاماً (كيف عرفنا هذا التحديد؟). امتلأ قلب راعيل بالحب، وصارت تحدثه عن جمال عينيه، وفتنة ابتسامته، ويوسف لا يأبه، ثم غلقت أبواب القصر السبعة (!!) وكانت المراودة فهمّ يوسف أن يضربها،

واختصر الوصف والسرد الذي تفنّن فيه الكتاب، (والضرب لم يكن وارداً أصلاً فيما أرى). المهم أن يوسف فتح الباب وإذ بزوجها العزيز وابن عمها!!.

٧٧- التهمة الباطلة:

صرخ العزيز: ما هذا يا راعيل بحق الآلهة؟! وما هذا يا كتّابنا وماذا يدفعكم إليه؟! وتحيز العزيز إلى راعيل، واختار ابن عمها دور الشاهد (تمثيلية كأنها!) وكان رجلاً مسناً ذا خبرة (هو مسرة في كتبنا طفل رضيع ومرة شيخ كبير!).

٧٨- الحكم العادل:

اقتنع العزيز بحكم الشاهد، واقتنع بأن راعيل مذنبة. وخرج يوسف بريئاً.

٧٩- الشائعات تملأ مصر:

قد ملأ الرسام صفحتين بصور سبع نساء. وقال في الشرح: خمس خادمات في قصر العزيز كن يسترقن السمع وهن نشرن خبر الفضيحة، وبدأت النساء المترفات يتسلين بحديث الفضيحة.

٨٠- ...

٨١- ...

٨٢- ...

٨٣- يوسف والسجينان:

وهكذا تستمر قصة يوسف إلى الفقرة (١٠١) وفي كل ذلك كان الكتاب يرسم سيناريوهات ويحدد أسماء فالساقي بيوص والثاني مجلب وهو طباخ الملك. وأحب السجينان يوسف، ودعا يوسف ألاّ يبتليه الله بسبب هذا الحب، يريد أن يقول إن حب أبيه جلب بلاء الرمي في الجب وحب المرأة أودى به إلى السجن فما يصنع حب هؤلاء؟ والذي لا نقبله بحال زواج يوسف من راعيل بعد موت العزيز، وأنها أنجبت له (ليؤكد الكتاب القصة): افرانيم ومنشا.

ثم في عنوان: "يوسف يدير اقتصاد مصر" أعاد الكتاب ما قلته في بحث لي عن سورة يوسف، قال الكتاب: نجحت الخطة نجاحاً هائلاً إلى حد أن بعض المختصين من الدارسين في عصرنا هذا قدر نسبة الإنتاجية في تلك السنوات قد بلغت ٤٠٠% [١].

---

١ - راجع سورة يوسف دراسة تحليلية ص٤١٤.

ومن طريف ما أورد الكتاب أن يوسف صحب يعقوب في جولة فدخل وإياه في مخزن الدفاتر والكتب والقراطيس، فقال يعقوب يمازحه: يا ولدي... عندك كل هذه القراطيس وما كتبت إليّ شيئاً؟ قال يوسف: أمرني جبريل ألاّ أكتب إليك يا أبت. المهم أنهم سألوا جبريل فقال: أمرني الله بذلك بسبب قولك: وأخاف أن يأكله الذئب (عجيب جداً!!). ثم يحدّد مدة إقامة يعقوب في مصر بأربع وعشرين سنة. ومات يعقوب ووضع جسده في صندوق ليدفن في فلسطين (!!) ودفن يوسف أباه في فلسطين ورجع. وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة.

ثم كان يوسف أول من تمنى الموت (!!) فاستخلف يهوذا على بني يعقوب. فوضع في صندوق من المرمر ودفن في نهر النيل (!!). ثم نقله موسى إلى مدافن آبائه في الخليل.

٨٤- ...

١٠١- ...

١٠٢- أيوب بطل الصبر:

عاد بنا إلى عيص ونسمة واستقر في أرض الروم. ولم يكن في ذرية عيص نبي إلاّ أيوب ابن أموص بن تارخ بن روم بن عيص. وكانت أم أيوب ابنة لأحد أبناء النبي لوط (كل هذا مما لا دليل عليه وحدثتنا الكتب أن لوطاً ذريته بنتان... فانظر كيف تتناقض الكتب والنقل والنقلة!!).

ملك أيوب العقبة كلها وكان عنده عبيد وعديد من الأولاد. ولم يؤمن معه إلاّ أهله وثلاثة أنفار.

١٠٣- أيوب حبيب الملائكة.

١٠٤- إبليس يغتاظ من أيوب.

١٠٥- إبليس يتمثل لأيوب.

١٠٦- محاولة أخرى لإبليس.

١٠٧- إبليس يكرر التجربة.

١٠٨- دعوة مستجابة... الخ...

أثنت الملائكة على أيوب بأنه ما على الأرض خير منه. فاغتاظ إبليس. فحاول أن يوسوس لأيوب فلم يفلح، فراح ينادي الله، بجنون وتمرد: يا رب عبدك أيوب لا يعبدك تطوعاً ولا حباً ولكن لأنك أسبغت عليه... ولو ابتليته لكفر. ويسير الكتاب في السيناريو، فتحول أحـــد الـــشياطين إلى إعصار نار فأحرق كل ما يملك أيوب. ثم قال لأيوب: لقد أهلك ربك كل مالك. فظل يردد الحمـــد لله.

(ولو كان الكتاب يكتب قصة من عنده لكان ممكناً له أن يتصرف أما أن نتصرف في قصة قرآنية فلا...) يقول الكتاب: ثم انطلق إبليس فزلزل قصر أيوب. (ولا ندري هذا الخرق للناموس لم؟ ولماذا يسلط إبليس على العباد والقاعدة أنه: ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾). فلما يئس من أيوب ذهب إبليس إلى زوجته "رحمة"، (والاسم كما نعلم جميعاً ليس من قرآن ولا من سنة). كما جاء آدم مـــن جهة حواء!! المهم أن "رحمة" صارت تخدم وتطعم أيوب. ثم رسم الكتاب سيناريو لمحاولات إبلـــيس زحزحة رحمة عن يقينها... حتى قالت: حتى متى يعذبك ربك؟ فقال: سول لك الشيطان يا امرأة. ثم طردها أيوب. فباعت ضفيرتها. (هذا تحول إلى قصص شعبي لا قصص قرآن).

ثم عاود إبليس أيوب بالمكر فحاول أن يتمثل له صنماً وهو يصلي، فـــدعا: ﴿أني مـــسني الشيطان بنصب وعذاب﴾. (وأعتقد أن الخروج على النص الكريم اتسع جداً ، وتصرف فيه بشكل كبير). المهم أن الله استجاب دعاءه وفجر له ماء وألبسه حلة من الجنة. ورجعت الزوجة إلى أيـــوب فرأت رجلاً في الطريق يفيض قوة وشباباً، فسألته: أيها الرجل. هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان هنا؟ فسألها الشاب: هل تعرفينه إذا رأيته؟ قالت: نعم. قال: أنا هو. فعرفته "رحمة" ببسمته وبرّ أيوب بقسمه.

ولما بلغ خمساً وتسعين سنة حضرته الوفاة وهو في الشام. وبعد موته بعث الله ولده: بشر بن أيوب نبياً وسماه: ذا الكفل.

١٠٩- ...

١١٠- ...

١١١- شعيب عليه السلام:

عاد بنا الكتاب إلى قطورة الزوجة الثالثة لإبراهيم وابنها الرابع من إبراهيم: مدين. وزواج مدين من ابنة لوط. ومدين شمالي الحجاز قريبة من معان. واسم المدينة على اسم ابن إبراهيم. أرســـل

الله فيهم النبي: شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم (هذا كله لا وثيقة عندنا تحفظه ولا معلومة موثقة تشهد له).

١١٢- العناد يستحوذ على القوم.

١١٣- الهلاك:

١١٤- أصحاب الأيكة:

أرسل الله شعيباً إلى هؤلاء وكانوا قرب مدين. فكذبوا النبي فأخذهم العذاب وهو غمامة جهنمية.

١١٥- فرعون موسى:

مات فرعون الذي في زمن يوسف (سامح الله الشيخ. فإن القرآن لم يسم الحاكم الذي كان زمن يوسف إلاّ الملك تمييزاً له عن الفراعنة) وجاء بعده قابوس. وكان زمن يوسف ولم يؤمن. ثم جاء فرعون ثالث وكان كأبيه قابوس كافراً. وكانت له زوجة فاضلة اسمها "آسية"...

١١٦- رؤيا فرعون:

وأرى أن من يرون موضوع الرؤيا كأنهم يعتذرون لفرعون. فما عندنا دليل على الرؤيا الفرعونية. المهم أن فرعون رأى ناراً تخرج من بيت المقدس تحرق بيوت القبط.

١١٧- الحمل المبارك:

حملت "يوكابد" زوجة عمران بعد أن أنجبت هارون. ولما جاء الميلاد جاءتها القابلة الجاسوسة... وسمته أمه موسى. (من أين علمنا أن القابلة مخبرة؟).

١١٨- رؤيا يوكابد:

ثلاثة أشهر مضت وأم موسى تكتم أمر رضيعها. وتلك القابلة ألقى الله على قلبها محبة موسى. ثم رأت رؤيا أن تلقي ابنها في اليم.

١١٩- الطفل في قصر فرعون.

١٢٠- الطفل يرجع إلى أمه.

ويسير بالقصة على ما هي في كتب القصص المعتمد على الإسرائيليات... إلى أن يصل إلى ما سماه في فقرة (١٢٨) خفقة حب. وهذا تصرف أكثر من أن يحتمل. يقول الكتاب تعقيباً على قول

البنت: يا أبت استأجره: فطن الشيخ إلى ما يخفيه هذا الاقتراح من خفقة حب في قلب ابنته التقي... الخ.

واستمرت قصة موسى إلى الفقرة (١٦٤) أي خمسين فقرة بالتمام.

ثم نبوة يوشع (كما قال الكتاب). ثم قصة طالوت. وداود يتزوج بنت طالوت. وداود الملك. ثم قصة سليمان الحكيم. ثم فقرة (١٨٠) خراب بيت المقدس. وكيف استولى بختنصر على بيت المقدس مرتين. ثم عزير الميت الحي. ثم رؤيا دانيال. فقد رأى كبشاً قوياً متوثباً للنطاح، ولكن تيس معز خرج من الغرب له قرن وحيد بين عينيه. وتحققت الرؤيا فكان الكبش ملك فارس، والتيس ملك اليونان. وتحققت الرؤيا بحكم ذي القرنين ثم تغلب الاسكندر المقدوني بعد ذلك !! ثم قصة ذي القرنين ثم يونس. ثم زكريا ومريم. ومقتل زكريا. وقصة يحيى.

ثم عيسى، وقد حدد الذين أحياهم عيسى فالأول العازر صديق عيسى، والثاني ابن العجوز والثالث ابنة الذي يأخذ عشور الأموال، ويرى الكتاب أن عيسى صلب فقد ألقي القبض عليه ووضعوا في رقبته صليباً ضخماً وكلما انهار المسيح تحت وطأة الصليب الثقيل انهال الجنود عليه يؤازرهم اليهود... ضرباً بالسياط، فهوى إلى الأرض، والفريسيون يقولون: هيا خلص نفسك.

وفيما كان جسد عيسى يتألم وينهار كانت روحه مستمسكة بربها. فتوفاه الله ولم يمته. أي أن الله أدخله في البعد الزمني الآخر (ما هو؟!) ثم شبه لهم شخص فقتلوه... فظنوه المسيح. ورفع الله عيسى إليه. (والرد على هذا الرأي بمنتهى البساطة أن الله نفى الصلب عن عيسى إذ قال: ﴿وما قتلوه وما صلبوه...﴾).

ثم أصحاب الكهف. ويسميهم ويعرض قصتهم على المتداول في الكتب التي تتصرف. ثم سيل العرم وأصحاب الفيل.

ثم من الفقرة (٢٢٦) عبد الله بن عبد المطلب إلى الفقرة (٣٥١) في سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، (وهذا ما لا نراه معدوداً في قصص القرآن. إذ قصص القرآن أخبار من مضى).

ثم يتكلم عن قصة أصحاب الجنة، ويبدو أنه اخر قصص من ليسوا بأنبياء، لكن ينقض هذا أنه ذكر إلياس. ثم قصة البقرة، وكان يمكن ضمها إلى قصة موسى. ثم شقيقان وجنتان. والقرآن قال: صاحبه لا شقيقه. ثم قصة من يس. ثم إلياس. ثم قصة ذي الكفل وأصحاب الرس. ثم الختام فقرة (٣٦٠) حديث في الجنة.

هذا عرض سريع موجز لأكبر كتاب في القصص القرآني.

الكتاب الثامن والعشرون

الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية

تأليف: محمود السيد حسن مصطفى

تقديم: الأستاذ الدكتور حسن عون

ط١ الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨١م.

الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية / محمود السيد حسن مصطفى:

هذا كتاب في الإعجاز، محض بحث في الإعجاز، وإنما يفترق في أن شواهده على الإعجاز في غالبها مُنتزعة من القصص. وهو بحث في اللغة جيد. ويخوض في قضايا متخصصة تتعلق بالنحو والصرف والبلاغة وصيغ الكلام... وكل ذلك في نطاق القصص القرآني. وفي عدّة فصول منه استفاد من التصوير الفني لسيد قطب، ولم يشر إليه في غالب مواضعه.

وهو كتاب ضمن كتب المنهج التحليلي، وإن كان لم يتعاط مع القصة كبناء، وإنّما تعاطى معها كمفردات واردة في سياق هذا البناء، أو تراكيب جُزنية في هذا البناء ومن النّاحية اللُّغوية والبلاغية (الإعجاز) البحتة.

يقع الكتاب في ست وسبعين وثلاثمائة صفحة، وثمانية فصول: أسلوب القصة الأدبية، أسلوب القصة في الكتاب المقدس، الخصائص التعبيرية لأسلوب القصة القرآنية، التكرار، الجملة الخبرية، الجملة الطلبية، أسلوب الاستفهام، بعض الظواهر اللغوية في القصة القرآنية.

وهذا الكتاب هو أطروحة ماجستير، لقسم اللغة العربية، أشرف عليها الدكتور حسن عون الذي قدم للكتاب والذي قال في المقدمة: إن الكاتب شغوف بالدراسات القرآنية، وهذا الشغف هو الذي دفعه لخوض هذا الموضوع، وأن الباحث يُركِّز في بحثه على الجانب اللغوي التحليلي. وأن الباحث تناول التكرار.

وقال الباحث في مُقدمته إن القصة القرآنية لقيت اهتماماً بالغاً من الدارسين وأن محور الاهتمام كان السرد القصصي، دون أن يتطرقوا إلى الأثر اللُّغوي. لذا آثر الباحث أن يكون بحثه في هذا الميدان بالذات. وأنه اعتمد المنهج الوصفي، وكان للمنهج الاستنتاجي مكانه... وأنه ذكر الأصول الاشتقاقية، والتوجيهات الإعرابية، وأنه اعتمد على أئمة اللغويين والنحويين وأئمة التفسير...

وأشار إلى أنه قَسّم البحث إلى ثمانية فصول. وهذه هي بالإيجاز:

الفصل الأول: أسلوب القصة الأدبية عند العرب:

استغرق الفصل قرابة العشرين صفحة. وابتدأ الفصل بالإشارة إلى القصّة ودورها الكبير في الأدب العربي... وأنّ القصّة سارت سيراً متوازياً مع الأدب العربي، تزدهر بازدهاره والعكس...

والقصّة (كأنّه يعرفها ولو من طرف خفي): وسيلة للتعبير عن الحياة أو قطاع معيّن من الحياة يتناول حادثة واحدة أو عدداً من الحوادث بينها ترابط سردي ويجب أن تكون لها بداية ونهاية.

والفن القصصي يضم القصّة والأقصوصة والرواية والحكاية: والقصّة تدور في ميدان أرحب من الأقصوصة. والحكاية واقعة أو وقائع حقيقيّة أو خياليّة لا يلتزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة، بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه.

وينقل عن جورجي زيدان أن القصّة أضعف فروع الأدب عند العرب ويسأل الباحث عن السبب، ويراه في الظروف السياسيّة من حروب وقلاقل. هذا في الوقت الذي لقي فيه هذا الفن عند الإفرنج رواجاً وإقبالاً، وشهد التمثيل المسرحي إقبالاً بعكس العرب.

وينقل عن عبد الكريم الخطيب أننا لا نجد في أدب العرب الملاحم التي تحكي عن الحروب.. وقد تأثر العرب بالفرس والهنود في نقل الروايات أكثر من تأثرهم باليونان، ولذلك اشتهر ابن المقفع... ومما نقله العرب عن الفرس: كليلة ودمنة وغيره، وعن الهنود: سندباد الكبير وغيره، وهناك قصص شعبية وهي قريبة من الأسماع والقلوب.

وكما يقول محمود تيمور عن ألف ليلة وليلة: "ونحن واجدون في هذه القصص الخيال الفارسي واليهودي والعربي الصميم (دراسات في القصة والمسرح ص٤٣). ثم نقل عن الخطيب أن اعتزاز العربي بشخصيّته منعه من الإغراق في المبالغة والتهويل.

وذكر بعض القصص العربية المشهورة والمتداولة كعنترة والزير... الخ.

ثم تعرّض للأسطورة الشعبية وهي قصة خرافية صاغها الإنسان على ما تقتضيه الطبيعة من حوله أو خياله الضعيف.

ثم القصص المنقولة كالإلياذة لهوميروس الذي أطلق عليه (أبو الشعراء). ولكل شعب ملحمته أو إلياذته، فللهند (المهابهاراتا)، وللفرس (الشاهنامة)، وللطليان (كوميديا دانتي)، وللفرنسيين (أغاني رولان).

الفصل الثاني: أسلوب القصة في الكتب المقدسة:

يستغرق هذا الفصل ثلاثين صفحة. إذا عدنا إلى الأسفار فإننا نلاحظ أنها عرضت لبـدء الخليقة، ويشير إلى نص التوراة: "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا..."، وقال الكاتب إن هـذا الأسلوب ليس فيه جمال بل ولا قبول، ثمّ قارنه بالنص الكريم: ﴿ولقد كرمنا بني آدم...﴾.

وقارن بين نص التوراة: "لمجدي خلقته وجبلته وصنعته"، والآية: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾.

وقارن بين نص التوراة على شجرة الحياة، والقرآن الكريم: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة... ﴾. فلغة التوراة فيها ركاكة وابتذال، وضرب مثلاً: "وللمرأة قال: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين... الخ". بينما لغة القرآن تمتاز بالتركيز والإشارة الخاطفة، بعكس عبارة التوراة المسهبة.

وينقل عن سفر التكوين قصّة ابني آدم: "... لماذا اغتظت، ولماذا سقط وجهك...؟ ...الخ"، وذكر نص القرآن الجميل الجامع للدروس والعبر.

ثم يعرج على الإنجيل (Gospel) بالإنجليزية القديمة، و(Evangelion) باليوناني ومعناه باليونانية البشارة أو الخبر السار. وتكلم عن الأناجيل، ومما قال: متّى، بوصفه يهودياً، كتب بشارته لليهود، فتكلم عن المسيح كملك إسرائيل الموعود. وقد أكثر من الاستشهاد بالعهد القديم.

ومرقس كتب إنجيله بعد متّى فخص الشعب الروماني صاحب السيادة، فدخل في بشارته بطريق مباشر، وتكلم عن يسوع كعظيم حاز كمال الحياة.

ولوقا، كتب بعدهما، فكتب للمفكرين وخص بشارته بأهل العلم، وكان لوقا طبيباً رومانياً.

وأما يوحنا فقد كتب بعد زملائه بعشرين أو ثلاثين سنة.

ثم تكلم عن قصة المسيح كما ذكرت الأناجيل، وأنه شتان بين حوار تحدث به الإنجيل والمذكور في سورة مريم...

وينقل بعض النصوص عن الأناجيل ليقفنا على أسلوبها، ومن ذلك أن واحداً تقدم من المسيح فقال: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعونا صالحاً؟ ليس أحد صالحاً، إلاّ واحد هو الله...الخ".

ثم يذكر قصة المائدة في القرآن. وفي الأناجيل، حيث التفاصيل... والمغالاة.

الفصل الثالث: الخصائص التعبيرية اللغوية لأسلوب القصة القرآنية:

يستغرق هذا الفصل أربعين صفحة. قال في مطلع الفصل: ينفرد القرآن بأسلوبه المعجز في عرض قصص الأنبياء والأمم السالفة، ويتميز هذا الأسلوب بخصائص جليّة تعطي للنسق القصصي روعة ووضوحا وتكون لها آثارها العميقة في النفس...

ثم نقل عن الرافعي في إعجاز القرآن حول هذا المعنى. وقال إن تركيب القرآن يمثل روح الفطرة اللغوية عند العرب.

ثم نقل عن الباقلاني في إعجاز القرآن تعليقه على آيات من سورة النمل وضرورة تأملها كلمة كلمة، وقال: إن القرآن تصرّف في وجوه التعبير وأتى بذكر القصة على ضروب ليعلمهم عجزهم... ثمّ أشار إلى التناسق بين أجزاء الكلام، أو "النظم" بتعبيره، وأن أوصاله لا تتقطع كالقصيدة إلى أبيات بل يتلاحم تلاحماً شديداً...

ثم تكلم عما اسماه "روح التركيب" ثم عن دور الألفاظ في القصة القرآنية، وضرب مثلا من سورة النمل قول الملأ لملكة سبأ: ﴿والأمر إليك...﴾ ، وكذلك: ﴿فانسلخ...﴾ . وكذلك ﴿يترقّب...﴾ وهو كأنه كلام التصوير الفني. ومن الألفاظ التي ضربها مثلاً: ﴿فأكله الذئب...﴾ .

ومن بعد تكلم عن النسق القرآني في القصة. وأن القرآن يتخير الأسلوب المناسب للفكرة، وينوع في نظام الفواصل والقوافي، بتنوع الموضوع. وضرب مثلاً من سورة مريم. وكلامه كلّه كان مُنصبّاً على ما يمكن أن نسمّيه الإعجاز الموسيقي. وهو كلام وإن لم يشر إلى مرجعه مستفاد من التصوير.

وضرب مثلاً آخر من قصّة نوح في سورة هود: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال... ﴾والمثل والكلام عنه عن التصوير الفني وإن لم يسمّه.

ثم انتقل إلى موضوع الانتقال من معنى إلى معنى أو حسن التخلص. وعدّه من خصائص الأسلوب القرآني، وضرب مثلاً عليه من سورة الإسراء كيف انتقل من الإسراء إلى بني إسرائيل وذكر الوجه وأنه: "أطلعناه على الغيب عياناً، وأخبرناه بوقائع من سلف بياناً لتقوم أخباره على معجزته برهاناً، أي: سبحان الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكراً، وأمرك بما جرى لموسى لتكون آية أخرى. وضرب أمثلة أخرى من قصة إبراهيم في سورة الشعراء. ومن قصة موسى في الأعراف، وغيرها.

وروح الفكرة من التصوير والكاتب لا يشير، وهكذا يوالي الأمثلة والشواهد على التصوير ودور اللفظة في التصوير وكل ذلك نقلاً عن التصوير. ورسم الشخصيات نقل كامل عن التصوير ولا إشارة.

الفصل الرابع: التكرار وأثره في لغة القصة:

يقع هذا الفصل في أربعين صفحة، بدأها بذكر التكرار اللفظي. ثم نبّه إلى أسرار التكرار ونقل عن عبد الكريم الخطيب وأشار. وذكر التكرار في سورة الرحمن. وكرّر القول أن التكرار إعجاز. وقال: وكان من جراء خصائص الأسلوب القرآني أنه يعرض الحدث الواحد في أكثر من موقع.

وروح الفكرة من التصوير. وقسم منها أو تفاصيلها من عبد الكريم الخطيب، ومما نقله عن هذا: أن التكرار إنما هو للشخصية لا للحدث.

ثم ذكر ما أسماه أسرار التكرار وكله مكرر عما في الكتب. وضرب أمثلة من عدة سور وبم امتازت كل سورة، وهي فكرة مكرّرة كذلك.

وفجأة انتقل إلى الاشتقاق اللغوي للقصة، وقص الأثر وقص الخبر. والقصة تتبع أحداثاً ماضية. وأظن أن موقع الكلام غريب وغير منسجم.

ثم انتقل إلى أغراض القصص القرآني، ص١٤٥، ونقله عن التصوير. وقطعاً لا يشير. وموقعه غير مناسب.

الفصل الخامس: من صور التركيب الإسنادي في القصص القرآني: الجملة الخبريّة في القصّة القرآنيّة:

يقع الفصل في خمسين صفحة. يقول في مطلعه: إن اللغة العربية لها وجوه وأحكام ومعان وأقسام.

وللأسلوب أثر في النفس، والأثر الأقوى للأسلوب الأجود. فقد يعرض المعنى الواحد عدة كتّاب، فتختلف قيمة أقوالهم تبعاً لاختلاف أساليبهم. وللأسلوب غرضان:

١- نقل المعاني أو الحقائق إلى ذهن القارئ أو السامع.

٢- نقل شعور الكاتب أو المتكلم إلى نفس القارئ أو السامع.

وتختلف الأساليب باختلاف البيئات. وأساليب كتاب العصر تختلف باختلاف الموضوعات. ومن هذا انتقل الى الجملة الخبرية في القصة القرآنية.

وعرّف الخبر فقال: معنى الخبر: كل قول أفدت به مستمعه ما لم يكن عنده.والخبر كلام يحتمل الصدق والكذب.

ولا يخلو الخبر أن يكون عمّا مضى، أو عمّا يستقبل أو الحاضر. ولا يخلو أن يكون عامّاً كلّياً: ﴿كل شيء هالك إلاّ وجهه﴾. أو خاصّاً جزئيّاً: ﴿ومن الأعراب...﴾ وما لم يظهر فيه العموم والخصوص فهو مهمل.

وصور الخبر تختلف باختلاف أحوال المخاطب. فيتجرّد الخبر من التوكيد إن كان المخاطب خالي الذهن: ﴿المال والبنون زينة...﴾ . ويؤكّد بمؤكّد واحد إن كان المخاطب شاكّاً، ويؤكّد بمؤكّد أو أكثر إن كان المخاطب منكراً: ﴿ولتعلمُنّ نباه...﴾ .

ويقع التوكيد بـ "إن" و...، وبلام الابتداء: ﴿لأنتم...﴾ ، وبأحرف التنبيه: ﴿ها أنتم...﴾، وبالقسم: ﴿تالله...﴾ ، وبنون التوكيد: ﴿ثم لتنبؤن بما عملتم...﴾ ، وبالحروف الزائدة: ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ ، وبالتكرير: ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا...﴾ ، وبـ "أمّا" الشرطية التفصيلية: ﴿فأمّا من أعطى...﴾ .

وكما يكون التوكيد في الإثبات يكون في النفي.

ثم حصر أغراض الخبر في اثنين:

أ- إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنته الجملة.

ب-إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم.

وتحت عنوان: من صور التركيب الإسنادي في القصة القرآنية، قال: الإسناد معناه ضم كلمة أو ما يجري مجراها إلى أخرى، أو ما يجري مجراها على وجه يفيد الحكم بإحداهما على الأخرى ثبوتاً أو نفياً.

ثم استشهد بنص من "الأعراف"، وقام بتحليل النص القصصي تحليلاً لغويّاً مشيراً إلى صور التركيب فيها، وبيان وجهات نظر المفسرين، واستعراض آرائهم وما للنحاة من آراء في التوجيهات الإعرابية...

ولكنه بدأ بمثال من سورة الأنعام، والمشهد القصصي الذي فيها من قصة ابراهيم، وعلق على كلمة ملكوت، فقال إن زيادة الواو والتاء للمبالغة في الصفة...

ثم انتقل إلى قصة نوح في الأعراف وقول قومه له: ﴿إنّا لنراك في ضلال مبين...﴾ ونفيه هو: ﴿ليس بي ضلالة...﴾ .

ثم تعرّض للمساكن ونقل خارطة، وأتصور أنه بعيد عن الموضوع.

ثم انتقل إلى قصة صالح وكيف توالت فيها الجمل الماضية، وتكرّر حرف العطف الفاء الذي يفيد التعقيب والتوالي لمجرى الأحداث...

ثم انتقل إلى الحديث عن التركيب الإسنادي في قصة أصحاب الكهف.وبيّن أن قصده بهذا العنوان إنما هو ما يدخل في إطار الأسلوب الخبري.

والتركيب الإسنادي يتضمن الأسلوب الخبري المتعدد في هذه القصة، وترتبط الجمل القرآنية ببعضها عارضة لمجمل الأحداث عرضاً دقيقاً ووصفاً بديعاً.

ثم انتقل إلى التركيب الإسنادي في قصة يوسف (الجملة الخبرية)، وكان في أثناء تفسيره للآيات وتعرضه لموضوعه الذي يبحث من الإسناد، ينقل بعض الإسرائيليات والتفصيلات، ومن ذلك قوله أن "هيت" حورانية، والأرجح أنها قبطية. ويتعرض أحياناً للقراءات ما صح وما شذ ولا يذكر شذوذه ومن ذلك: "شعفها". وأغرب الكاتب إذ قال إن الذي قال: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه...﴾ إنما هو يوسف. والحق والصواب أن القائل امرأة العزيز قولاً واحداً كما نعتقد... لا يحتمل غيره.

ثم انتقل إلى الأسلوب الخبري في قصة إبراهيم عليه التسليم. وقال إن الزمن الماضي هو الذي يتحكم في سياق الآيات.

ثم انتقل إلى موضوع آخر هو تكرّر الفعل "آتينا" في قصص الأنبياء. وذكر أكثر من عشر شواهد. ومنها ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني...﴾ .

ثم تعرّض لذي القرنين استطراداً على قوله تعالى: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً...﴾ . فذكر الأقوال العديدة فيه وهو فيما أعتقد خارج الموضوع.

وقد لاحظ أن هذه اللفظة "آتينا" تدل على العطاء الجزيل وأهمه العلم والحكمة، وبهذه الآيات التي استقصت "آتينا" في القرآن ختم الفصل الخامس.

الفصل السَّادس: الجملة الطلبية في القصة القرآنية:

استغرق الفصل أربعين صفحة. وقال في بدايته إنه عرض للأسلوب الإنشائي، وخص بالحديث الجملة الطلبية من بين ألوانه. وأنه أراد أن يبين الدور الفعال الذي تلعبه هذه الصيغ وما يتبعها من أغراض، وإظهار الأثر اللغوي والبياني لما تشتمل عليه تلك الصيغ من ألفاظ ومعان.

ثم عرّف الأسلوب الإنشائي بأنه الكلام الذي لا يحتمل الصدق والكذب. ثم نقل عن قدامة بن جعفر "أن الطلب كل ما طلبته من غيرك، ومنه الاستفهام، والدعاء، والتمني...". والإنشاء نوعان: طلبي وغير طلبي.

وابتدأ بالجملة الدُّعائية في قصص القرآن... وابتدأها بقصة إبراهيم: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾، ﴿ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم، ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا...﴾ ، ﴿ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم...﴾ ، ﴿ربّ اجعلني مُقيم الصلاة ومن ذريتي ربّنا وتقبّل دعاء﴾. وذكر أمثلة أُخرى من قصة زكريا وامرأة عمران وقصة موسى، ونوح وسليمان، ولوط، وامرأة فرعون وعيسى ثم علّق: وهكذا تتكرر الجمل الدعائية على لسان الأنبياء والمُرسلين والصالحين.

ثم انتقل إلى صيغة الأمر في قصص القرآن. واستشهد بأمثلة من عدّة قصص من قصّة موسى وآدم وغيرها. ثم تكلّم عن تراكيب مجرّدة من النّداء في صيغة الأمر. ومن أمثلة ذلك: ﴿قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي...﴾، ﴿وقلنا اهبطوا...﴾ ، ﴿فاذهب أنت وربّك فقاتلا...﴾ ، ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا...﴾ ، ﴿وأدخل يدك في جيبك...﴾، ﴿فأت به إن كنت من الصادقين﴾.

ثم استقصى الفعل "اذكر" في العديد من المواطن، و "استغفروا". وواصل أمثلة الأمر المجرد من النداء: ﴿اركض برجلك﴾، ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث...﴾ ، ﴿قالوا حرّقوه وانصروا...﴾ .

وتحت عنوان: من صيغ الأمر الأخرى في قصة يوسف، ذكر أمثلة على الآيات: ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه...﴾ ، ﴿أرسله معنا...﴾ ، ﴿نبئنا بتأويله...﴾ ، ﴿اجعلوا بضاعتهم...﴾، ﴿فأوف لنا...﴾، ﴿وتصدّق علينا...﴾، ﴿اذهبوا بقميصي هذا فالقوه...﴾ ، ﴿وقال ادخلوا مصر...﴾ .

الفصل السابع: أسلوب الاستفهام والنهي في قصص القرآن الكريم:

والاستفهام طلب حصول صورة الشيء في الذهن. ومن الاستفهام ما يكون سؤالاً عمّا لا تعلمه لتعلمه، فيخصّ باسم الاستفهام. ومنه ما يكون سؤالاً عمّا تعلمه ليقرّ لك به، فيسمى تقريراً. ومنه ما يكون ظاهر الاستفهام ومعناه التوبيخ: ﴿ألم يأتكم رسل منكم...﴾.

ومن السؤال ما هو محظور، ومنه ما هو مفوّض، فالمحظور ما حظرت فيه على المجيب بأن يجيب إلاّ ببعض السؤال، والهمزة تكون لطلب التصوّر، أي إدراك المفرد. والمستفهم عنه في التصوير يلي الهمزة مباشرة: ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا...﴾.

وهل تكون للتصديق. وكم لطلب بيان العدد. وكيف للسؤال عن الحال. ومتى للزمان مُطلقاً: ﴿متى نصر الله...﴾، وأيّان للمستقبل، نحو: ﴿أيّان مُرساها...﴾. وأين للمكان. وأنّى بمعنى كيف أو بمعنى من أين: ﴿أنّى لَك هذا...﴾، والجواب في الجميع بالتعيين.

وقد تُخرّج تلك الأدوات إلى غير الاستفهام كالاستبطاء، والتقرير نحو: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾، والتعجّب نحو: ﴿مالي لا أرى الهدهد...﴾ ، ولمجرد الإنكار نحو: ﴿أإله مع الله...﴾، أو للإنكار مع التوبيخ: ﴿أتأتون الذكران...﴾ ، أو للتوبيخ مع التكذيب: ﴿أفأصفاكم ربّكم بالبنين...﴾ . وللنفي مع التوبيخ: ﴿وماذا عليهم لو آمنوا...﴾ ، وللتحقير، وللتنبيه على الضلالة: ﴿فأين تذهبون...﴾ ، وللتّهكّم: ﴿أصلاتك تأمرك...﴾ ، وللاستبعاد نحو: ﴿أنّى لهم الذكرى...﴾ .

ثم ابتدأ بعد هذا التقعيد باستعمالات "أنّى" الاستفهامية في قصص القرآن. وذكرت في قصة مريم: ﴿أنّى لَكِ هذا...﴾ ، ﴿أنىّ يكون لي ولد...﴾ ، وعلى لسان زكريا: ﴿أنّى يكون لي غلام...﴾ ، وفي قصة الذي مرّ على قرية (قال الكاتب عُزَير، ولا دليل): ﴿أنّى يُحيِي هذه الله بعد موتها...﴾ ، وفي قصة طالوت: ﴿أنّى يكون له المُلْك علينا...﴾ .

وأنّى الاستفهامية تعني التعجّب والتهويل في كثير من الأحيان. والتعجّب الذي تشير إليه "أنّى" يعني الاستبعاد والاستحالة لعظم الأمر وارتقائه فوق المستوى البشري. وذكرت "هل" الاستفهامية في قصة المائدة: ﴿هل يستطيع ربُك...﴾ .

ثم ذكر مواقع همزة الاستفهام وغيرها في قصص القرآن: ﴿أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب...﴾ ، ﴿استكبرت أم كنت من العالين﴾، ﴿أتحاجّوني في الله...﴾ ، ﴿أفلا تتذكرون...﴾ ، ﴿أتعبدون ما تنحتون...﴾ .

وكان يقارن موارد صيغ السؤال في المواطن المختلفة ويعلّل للاختلاف، ومن الاستفهام التعجّبي: ﴿أألد وأنا عجوز...﴾ ، ﴿أبشّرتُموني على أن مسّني الكِبَر...﴾ .

وفي قصة نوح جرى الاستفهام على لسانه في قوله تعالى: ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكْر من ربكم على رجل منكم...﴾ ، فُتحت الواو في ﴿أوَعَجبتم﴾ لكونها عاطفة ودخلت عليها همزة الاستفهام للإنكار عليهم، والمعطوف عليه مُقدّر، كأنه قيل: أستبعدتم وعجبتم، أو كذبتم وعجبتم، أو أنكرتم وعجبتم. وقد أراد نوح بهذا الاستفهام أن ينهاهم عن تعجّبهم بأن يوحي الله إلى رجل منهم رحمةً بهم ولطفاً وإحساناً إليهم ليَتقوا...

وفي سورة هود قال نوح: ﴿أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي وآتاني رحمةً من عنده فعمّيت عليكم أنُلزِمُكُمُوها وأنتم لها كارهون﴾ ، قال الرازي: ذكر نوح الطريق الدال على إمكان النبوة. أما قوله: ﴿أنُلزِمُكُمُوها﴾ ففيه ثلاث مضمرات: ضمير المتكلم وضمير المخاطب وضمير الغائب. وقول نوح في الشعراء: ﴿ألا تتقون﴾ الاستفهام للإنكار. وقول قومه: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ الاستفهام للإنكار أيضاً.

ثم انتقل إلى التركيب الاستفهامي في قصة هود. وقد ورد الاستفهام الإنكاري التعجّبي على لسان هود في أعقاب قصة نوح فقال: ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم...﴾ ، ورد قومه: ﴿أجئتنا لنعبد الله وحده...﴾ ، ورد هود: ﴿أتجادلونني في أسماء...﴾ ؛ وتوبيخه لهم في قوله: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون..﴾ ، فهو استفهام تقريع وتوبيخ، ومحل التوبيخ هو الجملة الحالية ﴿تعبثون...﴾

ثم انتقل إلى قصة صالح في سورة هود، وقصة لوط في الأعراف والشعراء وقصة شعيب في سورة هود.

ثم عرّج على قصة موسى وفرعون في سورة يونس ومنها: ﴿أتقولون للحق لمّا جاءكم أسحرٌ هذا...﴾ ، وردّ القوم: ﴿أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا...﴾ . وفي قصة سليمان: ﴿أتُمدّونن بمال...﴾ ، ﴿أيّكم يأتيني بعرشها...﴾ ، ﴿أهكذا عرشك...﴾ .

ثم انتقل إلى أسلوب النهي في قصص القرآن. وهو كل أسلوب يطلب به الكف عن شيء على طريق الإلزام. وله صيغة واحدة هي المضارع المقرون بلا الناهية. قال ابن هشام: من أوجه "لا" أن تكون موضوعة لطلب الترك، وتختص بالدخول على المضارع، وتقتضي جزمه واستقباله. ومن النهي: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة...﴾ . وفي قصة نوح: ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ . ﴿ولا تُخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرقون﴾ ، ﴿يا بُنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ . وفي قصة صالح: ﴿ولا تمسّوها بسوء...﴾ . واستشهد من قصة إبراهيم: ﴿لا تخف...﴾ ، ﴿لا توْجل...﴾ ،

﴿فلا تكن من القانطين...﴾ . وفي قصة شُعيب: ﴿ولا تبْخسوا الناس أشياءهم ولا تعْثوا في الأرض مفسدين...﴾ ، ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون...﴾ ، ﴿لا تنقصوا المكيال...﴾ ، ﴿ولا تكونوا من المخسرين...﴾ . وفي قصة موسى: ﴿فلا يصدّنّك عنها...﴾ ، ﴿ولا تخف...﴾ ، ﴿لا تخافا... ﴾، ﴿لا تفتروا...﴾ ، ﴿لا تخف انك أنت الأعلى...﴾ ، ﴿لا تأخذ بلحيتي...﴾ ، ﴿لا تقتلوه... ﴾، ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا تُرهقني...﴾ . وفي قصة يوسف: ﴿لا تقصص...﴾ ، ﴿لا تقتلوا يوسف...﴾ ، ﴿فلا تبتئس...﴾ . وفي قصة لقمان، وفي قصة قارون...

الفصل الثامن: اثر بعض الظواهر اللغوية في القصة القرآنية في الدراسة البلاغية:

يقع هذا الفصل في خمسين صفحة. بدأه بتقرير أنّ هناك ارتباطاً بين النحو والبلاغة، ولعلّ هذا ما أشار إليه عبد القاهر في عرضه لنظرية النظم في القرآن.

وابتدأ الأمثلة بالحذف وصوره في قصص القرآن. وفي الحذف فوائد جليلة منها الاختصار مع عدم الإخلال بالمعنى.

وتكثر أنواع الحذف في قصص القرآن، والمحذوف يفهم غالباً من السياق. ومن أمثلته: ﴿ناقةَ اللهِ...﴾ ، أي ذَروا ناقةَ الله. ﴿أنا أُنَبئكم بتأويله فأرْسلون، يوسُفُ أيّها الصدّيق...﴾، أيْ فأرْسلوه. ﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً، قالوا أتجعَلُ فيها من يُفسد...﴾ وتقدير الكلام: أي، وإنّي عالمٌ أنّه سيكون من ذريته من يُفسد، قالوا...

ومن أمثلة حذف جواب "لمّا": ﴿فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غَيابَة الجُبِّ...﴾، ﴿فلمّا أسلما وتلّه للجبين...﴾ . وحذف المبتدأ في قوله: ﴿فَصبرٌ جميلٌ...﴾ أي فصبري.

وهناك حذف المفعول وهو كثير، وحذف الجملة. وحذف المنادى وحذف الحروف. وذكر من أمثلة حذف حرف الاستفهام، من قصة إبراهيم: ﴿قال هذا ربّي...﴾ وليست تسلم بسهولة. وحذف حرف النداء، وغالبه في نداء الرب تعالى.

وفي الخاتمة لخّص نتائج البحث، وذكر سبع عشرة نقطة، ومنها:

١- الرواية العربية من أضعف فروع الأدب.

٢- امتزج الأسلوب القصصي عند العرب بكثير مّا نقلوه عن الأمم الأخرى كالفرس.

٣- الأساطير الشعبية لاقت رواجاً لدى الجماهير من العامّة.

٤- تخضع القصة الأدبية لعدد من المقوّمات المهمة مثل دقة الأسلوب وجودة السبك وإحكام دور الشخصيات.

٥- هناك اختلاف جوهري في طريقة العرض والأسلوب والمضمون في قصص الكتاب المقدس عنها في قصص القرآن.

٦- هدف القصة القرآنية إلى تحقيق عدد من الأغراض السامية.

٧- التكرار يثبت الحجة ويرسخ الغرض المنشود.

٨- الجمل الدُّعائية (بضم الدال) التي اشتمل عليها القرآن تكاد تنحصر في القصص.

٩- تنوع الأغراض المذكورة في التراكيب الاستفهامية تبعاً لمجرى الأحداث.

الكتاب التاسع والعشرون

القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف -الكتاب الأول-

تأليف: محمد محمد المدني

ط١، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف / محمد محمد المدني:

يقع الكتاب في إحدى وستين ومئتي صفحة من القطع المتوسط. قدم له الكاتب -رحمه الله- بمقدمة من أربع صفحات بيّن فيها أن سورة الكهف حوت ثلاث قصص عجيبة ومثلين رائعين. ثم يذكر وجه المناسبة والربط بينها إذ يقول: "وكان لكل من هذه الخمسة دلالته على قدرة الله وعظمته، وسعة علمه. وعظيم حكمته... وأن هناك أسباباً غير مألوفة، وراء الأسباب المألوفة، وأن الهدى هدى الله...".

ثم لخّص قصة فتية الكهف وركّز على مغزاها وكيف أن لله عباداً يهجرون المتاع الحسن إذا تعارض مع العقيدة.

ثم لخص قصة موسى والعبد الصالح، وهي قصة الرحلة في سبيل العلم، وهي قصة الموازنة بين ما نُدرك من الأسباب، وما لا نُدرك.

وقصة ذي القرنين وهي قصة التمكين الإلهي. وسكت الشيخ عن قصة آدم عليه السلام.

وأما المثلان فهما: مثل الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين... وكيف أعماه هذا المال عن نصح صاحبه... فأهلك الله جنتيه. والمثل الثاني مثل الحياة الدنيا وكيف يُدرِكها اليباس بعد اخضرار. (ولا بد من التنبيه إلى أن المثل الأول هو قصة مثل. وليس مثلاً فحسب. والفرق أن المثل لا يشترط وقوعه بل هو صورة ذهنية. والذي هنا قصة واقعية لكنّها لوضوحها وعبرها كأنها المثل. والقصص الذي غدا أمثالاً في القرآن كثير).

وفي ختام مقدمته تعرّض لأسلوب القرآن وخصائصه، وذاك الذي أعطاه الجِدّة التي لا تبلى والرَّوْعة التي لا تزول.

ثم يبين في المقدمة أنّ هذا تفسير للسورة لكنه لما استغرق ثمانين آية من مئة وعشر آيات، فقد اكمل السورة تفسيراً. ويقول أنه حرص أن يكون التفسير جامعاً بين الأصيل القديم العريق والحديث المُيسّر.

وبعد المقدمة ابتدأ بتعريف سورة الكهف وأنها إحدى السور المكية التي موضوعها أصول العقيدة، وأُمّهات الأخلاق، والأمم لا تُبنى إلاّ على هذين. وأبرز ما عنيت به سورة الكهف من العقائد أمر البعث، وهو أصل طالما أبدأ فيه القرآن وأعاد، وضرب له الأمثال، وحكى فيه القصص.

ثم ذكر الكاتب في استقصاء مستوعب جيد الأسباب أو الشبهات التي تجعل البعض يُنكر البعث. وذكر منها:

١- إما لأنه يخالف ما ألفه من السنن، فلم يألف ميتاً بُعث.

٢- الاستبعاد والاستعظام.

٣- أو أنه أمر لا تدعو إليه حاجة البشر. ثم طفق يُفنّدها واحدةً واحدة.

وأمّا مُخالفة السنن فإن إحياء الأرض سنّة مألوفة. والناس يستيقظون من نومهم وهـذا سنّة مألوفة، وهو بعثٌ أصغر. وأمّا الذين يستعظمونه فالإعادة أهون من الإنشاء، ولله المثل الأعلى. وأمّا أن حاجة البشر لا تدعو إليه فلا بل العكس هو الصحيح إذ الجزاء مطلـب مهـم. وأمّـا المعاندون فرد عليهم كذلك، وذكر الآيات في كل قسم.

ثم بيّن أن صلاح العالم يترتّب على عقيدة البعث. وكيف أن الإلحاد والمادّية تفشّت معهما الشرور.

ثم دخل في أسلوب السورة بعد المضمون، فقال: وقد كان أسلوب السورة في إثبات هذه القضية والحجاج عنها جامعاً لكثير من طرائق الجدل، ونجمل ذلك فيما يأتي:

بدأت السورة بحمد الله وتحدثت في البدء عن الدار الآخرة وما فيها من بـأس وأجـر. وختمت السورة بالتوحيد والبعث كما بُدئت. وهكذا يتلاقى أول السورة مع آخرها. ويُلاحظ أن آية البدء ذكرت الذين قالوا اتخذ الله ولداً، وآية الختام قرّرت ﴿أنما إلهكم إلهٌ واحدٌ﴾.

وما بين البدء والختام جاء البعث عدّة مرّات. فجاء أمر البعث في قصة فتية الكهف. وفي ثنايا السورة عندما قررت أن الحق من الله. فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر وذكرت جزاء كل منهما. وجاء أمر البعث في المثل الذي ضربه الله لصاحب الجنتين. (وأقول بل هـو قصة ذهبت مذهب المثل. والأمر في القصة والمثل واضح فيما أعتقد. فالقصة واقعة والمثـل تخييل). وجاء أمر البعث في المثل الذي ضربه الله للحياة الدنيا، وعقّب المثل بـذكر وَضْـع الكتاب وإشفاق المجرمين...

وجاء في السورة قصة آدم وإبليس، ثم حذّر عقبها من اتخاذ الشركاء حيث تـبرُز الجحيم فيراها المجرمون. وفي هذا جمع بين المنشأ والمعاد.

وجاءت قصة موسى وفتاه والعبد الصالح مُتصلة ببراهين البعث.

وجاءت السورة بقصة ذي القرنين وانتهت القصة بأمر البعث، وتخلّصت إليه في براعة، مُذكَرةً به مُنذرة...

ثم تأخذ السورة في تهديد الكافرين الذين اتخذوا من دون الله أولياء لتختم بقوله: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل...﴾ بهذا يتجلى أن السورة نَسَقٌ، متماسكةٌ، يجول فيها معنى واحد، تلتقي عليه الآيات والأمثال والوعد والوعيد، ولذلك يقول الله: ﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل...﴾.

ثم في فقرة ثانية استعرض القصص الثلاث، وأنّ لكل منها عِبرة خاصة، وإن التقست في المعنى العام.

ثم ذكر المغزى الخُلقي لقصة الكهف، كثبات المؤمن على إيمانه، والمعنى العام هو إثبات قُدرة الله على مُخالفة السنن.

وأما قصة موسى فلُبابُها ومغزاها إثبات قصور الخلق مهما سمت عقولهم، فإذا أنبأ الله أنَّ وراء هذه الحياة حياة أُخرى يجب أن يُصدّقَ الناس.

وأمّا قصّة ذي القرنين فمغزاها تمكين الله لبعض عباده من العمل المُجدي المُثمر، ثم سينتهي كل شيء في هذه الحياة...

وفي فقرة ثالثة يقول إن طابع الثورة على الباطل يبدو في هذه السورة في صورة عنيفة ظاهرة العنف. فالكتاب فاصل بين فريقين. والنبي ﷺ لا ينبغي أن يهتم بالمُبطلين، فلهؤلاء نهاية. وأصحاب الكهف يثورون على الباطل. والله يأمر رسوله ﷺ أن يصبر مع الذين يدعون ربهم. والرجل المؤمن يقاوم صاحب الجنتين، إلى غير ذلك... فالسورة تُعلن الثورة في كثير من جوانبها على الباطل والمبطلين.

وفي فقرة رابعة يُبيّن أن السورة مكّية نزلت جملة، وأنّ هناك روايات باستثناء بعض الآيات. ثم ذكر أنّ هذا الأمر في كثير من السور موضع خلاف. ثم ذكر سبب نزول السورة وهو ما رواه ابن اسحق أن اليهود لقّنوا المشركين أن يسألوا عن مسائل... ثم عقّب على الرواية بقوله: "ويبدو لي أنّ هذه الرواية مصنوعة ككثير مما يذكر من أسباب النزول في كتب التفسير". وذكر أنّ في سند رواية ابن اسحق "شيخ من أهل مصر" وهذا راوٍ مجهول يُضعّف السند، ثم ذكر الملاحظات على المتن.

وأطال الكاتب في مسألة الروح التي سُئل عنها الرسول ﷺ، وزعم أن المقصود بـــالروح هو القرآن. وقال: "ولم يأت في الكتاب العزيز تعبير بلفظ الروح عن الشيء الخفي الذي هو مدار البدن ومبدأ الحياة". (ولا أدري أين ذهبت من ذهن الكاتب الآية الكريمة: ﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي...﴾.)

ثم ينفي قصة احتباس الوحي، (وهذه يطيب لنا موافقته فيها) ثم يخلص إلى أنه: "لا يصح الاعتماد على هذه الرواية في معرفة سبب نزول السورة...".

ثم بدأ الكاتب القسم التفسيري بعد المقدّمات التي استغرقت نيفاً وأربعين صفحة. ويبدأ التفسير بمعنى الحمد وسور الحمد، ومناسبة خاتمة كل سور الحمد الخمس لموضوعها، وينقل عن ابن كثير قوله إن القرآن يُثبت الحمد عند فواتح الأمور العظيمة وخواتيمها.

ثم تطرّق لسر التعبير بلفظ العبودية، والكتاب ونفي العوج عنه، والإنذار والتبشير غرضا الكتاب، ووصف البأس بالشدّة وهو ما يُشعر بالهول، وأنّ "لدن" تفيد التمكن أكثر من "عنـــد". واستشهد بالآيات، واستغرقت مقدمة السورة ثلاث عشرة صفحة، ثم بدأ بتفسير آيات قصة فتّية الكهف. وبيّن أنها تبتديء بالاستفهام الإنكاري، وكيف انتقل من استفهام إنكاري سابق: ﴿فلعلك باخع نفسك...﴾ والرابط بينهما تثبيت الرسول ﷺ.

وهكذا يمضي مع الآيات آية آية كلمة كلمة... ويبتدئ بأصل المعنى اللُّغوي، ثم المعـــنى حسب السياق. ومن توقفاته عند "أحصى" ذكر أنه قيل في معناها إما أنها فعل ماضٍ، وقيل هو من باب أفعل التفضيل، ولا يرجح الثاني، لأنه يثبت الإحصاء، إنما يريد أن يَصل هو إلى أن العلم بهم قد اندرس ثم لخّص القصة، وقارن بين لجوء الفتية إلى الكهف ولجوء النبي والصّدّيق إلى الغار، بل إنه يقول إن قصة محمد ﷺ وصاحبه أي أبو بكر ﷺ أعجب بإزاء قوم عُرِفـــوا باقتفـــاء الأثـــر، ووقوفهم على باب الغار... الخ.

ثم يتعرض لذكر الخوارق، وأنّ ما أَلِفَهُ الناس هو بحد ذاته خارق، لكن الإلْـــف جعلـــه مُعتاداً.

ثم يُشير إلى الإسرائيليات في قصة فِتية الكهف، "ومن ذلك ما يتعلّق بأسماء الفتية، واسم الجبار الذي كانوا على عهده، واسم الكلب، وأنّه كان كلب طباخ الملك..."، ثم يذكر الكاتـــب كل هذه الأسماء، وأنهم طردوا الكلب فأبى، ثم قال لهم: "لا تخشوا جانبي، فأنـــا أحـــب أحبـــاب الله...". ثم علّق على أقوالهم بأنها لا أصل لها ولا حاصل...

ثم تكلّم عن كيف روى القرآن قصة أصحاب الكهف.

ثم تكلّم عن تفصيل القصة بعد الموجز، وقال في معنى القصص عند تفسير ﴿نحن نقص...﴾ القصص: الأخبار المتتبعة، من قولهم: قصصت أثره أي تتبعته. والنبأ: الخبر ذو الشأن. والحق: المطابقة والثبوت... وهكذا كلمة كلمة بتتبّع لُغوي. ثم المعنى التركيبي، والتحليل القصصي...

ثم بيّن أن القرآن وصف الفتية بثلاثة أوصاف: الفتوة والهدى والربط على القلوب. وشرح كل واحدة من هذه، وأفاض بتوفيق، وبخاصة في الربط على القلوب، وذكر أهميته للدعاة، وأمثلة عليه من القرآن وقصصه المختلفة...

وفي تفسير الآية التالية وقف مُطوّلاً عند السلطان البيّن، ومنزلة البرهان في نظر القرآن. ثم في وصف الكهف كما ذكرته الآية قال: هذا الوصف يدل على أنه كان مُطلاً على ناحية الشمال، وينقل مثله عن ابن كثير. وبعد أن حَدّد موقع الفتية، بيّن النص القرآني موضع الفتية... وأن الشمس لا تَمسُّهم. ثم أفاض في معنى الهداية والإضلال وأجاد، وملخصه: أن فعل العبد وما يختاره لنفسه هو السبب فيما يعامله الله به. ثم نفى بعض الروايات، ومعه حق، من مثل أنهم كانوا يقلبون في عاشوراء من كل عام!! ثم في الآية التالية بيّن أن معنى "التلطف": حُسْنُ التأتي واللباقة في تناول الأمور. وبيّن أن الرجم كثيراً ما استعمل بمعنى القتل. وفي قوله ﴿ليتساءلوا...﴾، ذكر أن اللام للتعليل أو العاقبة، وأن القولين محتملان. ثم يحلل كلمات الفتية، وكيف تدل فلتات اللسان على ما انطوى عليه القلب من الإيمان.

ثم في آيات تالية يُبيِّن أن الرجم بالغيب معناه: القول بالظن دون تحقيق، وهي عبارة مستعارة لهذا المعنى. وفيها تصوير بديع للذي يهجم على ما لا يعلم بصورة الذي يرجم حجارة أو نحوها، على غير شيء محدد يهدف إليه. ثم يرد قول من قال، أو يضعّفه، أن القول الأول: ﴿ثلاثة رابعهم كلبهم...﴾ قول اليهود وأن الثاني قول المسيحيين (النصارى) وأنّ الثالث قول المسلمين. وذلك أنه لا شيء في الآية يدل عليه.

وتعرّض بعد ذلك للآداب التي تدل عليها الآية ومنها أن العلم الصحيح هو الصادر عن الله. والنهي عن المراء. والنهي عن استفتاء غير المسلمين. وتعليق الأمور بمشيئة الله. والحذر من اعتماد الظنون... الخ.

وفي رواية سبب نزول: ﴿واصبر نفسك...﴾ ذكر النقد للروايات ثم خَلص إلى القول: "ولا ينبغي للناظر في كتاب الله أن يتقيّد بتلك الروايات الظنّية... نعم إن أسباب النزول تُعين المفسر... ولكن ينبغي التوثّق".

ثم يتطرق للقصة المثل: صاحب الجنتين وصاحبه. ويشرحها بعبارة مُشرقة ومعانٍ جميلة. يقول في وصف صاحب الجنتين: "كان هذا الرجل الذي ضربه الله مثلاً للطغيان والاستكبار... بَهَرته نعمته فأعْشت عينيه، وغشّت على قلبه، فملأ فاه فخراً، وأمال عطْفَيه كبراً، وتجاوز كلّ حد... الخ" ثم يقرن بينه وبين قارون. ثم يختم تفسير الآية بقوله: "وليس في الوجود أسخف من زعم الإنسان بأنه ممتاز في ذاته وتكوينه على من سواه...".

وفي تفسير كلام المؤمن في ردّه على صاحب الجنتين قال: "فالخالق الذي استطاع أن يُحوِّل التراب إلى نطفة، والنطفة إلى إنسان كامل تام الخلق، ذي فكر وعلم وعَقل وبطش وتصرّف، كيف يَستبعد على قدرته أن يبعث الخلق بعد أن يصيروا تراباً...!؟". ثم يُفسِّر المثل الذي عقّب به القرآن على القصة، مثل الحياة الدنيا... ويُفسِّر ﴿الباقيات الصالحات﴾ بأنها "لفظ جامع لكل معنى من معاني الخير والعمل الصالح، واختار الكاتب، وبحق، أنها ليست "عَلَماً" على شيء معيّن... وإنما كل ما ذكر من روايات هو أمثلة...

وفي الآية التالية يُفسِّر تسيير الجبال بأنه ذهابها وتحوّلها عن أماكنها إلى حيث الفناء والزوال بعد التحطم والتفرّق. ثم يعقّب على مشاهد القيامة التي تضمنتها الآيات: فأيّ قلب لا ينخلع لهذا التهديد وأيّ بال لا يقلق؟".

وفي آية: ﴿اسجدوا لآدم...﴾ ذكر الخلاف بين من يرى أنّها من المتشابه وبين من يرى أنّها تمثيل وتصوير، ويُسمّيهم أهل التأويل أو طريقة الخلف، ولم نجده يذكر من يأخذون النص على معناه... وهم جمهورُ الأمة وجمهور علمائها.

ثم يتكلم في الآيات التالية عن تصريف الأمثال بعد ضربها، أي نوّعْنا لأصحاب العقول والأفهام جميع أساليب العظَة والتعليم... ولكن من طبائع الإنسان أنّه يحب الجدل... وطبيعة التمرّد المسيطرة على أهل الكفر.

ويُعلّق على قصة موسى وفتاه والعبد الصالح بأنها قصة مليئة بالعبر مشحونة بالفوائد، والإشارات النافعة... وأنها ترشد إلى خُلُق كريم لو استقر في مجتمع من المجتمعات لكان له آثار قوية في صلاح هذا المجتمع، واستقامة أحواله، ورُقيِّ شأنه. ذلك هو ما ينبغي أن يشعر به كل إنسان

مهما علا منصبه من أنه محدود، وسعيه نحو الكمال آنّي وجده. ثم يشير إلى أن القصة –من طرف خفي– تشير إلى اليهود المغترّين بما عندهم من العلم. والعرب المُستكبرين على البسطاء.

ثم يُبيّن من آداب الصحبة دُرراً انطوت عليها القصة. وكيف أن الأمم الحية تعنى بالرحلات العلمية. ثم عرّج على الخلافات في من هو موسى ومن فتاه؟ ولا يهم، بل لا يستحق هذا الخلاف تسجيلاً. والكاتب نوّه إلى هذا.

ثم يُعلّق على رواية البخاري عن رحلة موسى وفتاه بأنها تفاصيل لم يأت بها القرآن، فهي زيادة عليه ليست متعلقة بأمور عملية تشريعية حتى يجب التعويل عليها والعمل بها.

ثم ينقد نقدات عدة بعض ما ورد. ويُرجّح أن الحوت دخل البحر لأنّه كان ما زال حيّاً... وهو ما لا يُساعد عليه النص بحال. ولو كان كذلك –أي كما قال الشيخ– لما كان ثمة ما يُتعجّب منه "عجباً". ويرى أن الذي اتخذ سبيله في البحر هو فتى موسى، وهو أعجب من سابقه. ثم تكلّف أكثر إذ قال: إنّ البحر ليس هو الماء، بل هو اسم للمجرى الواسع الذي فيه ماء. وما بنا حاجة لهذا كلّه. ثم يُعلّق على كثير ممّا رُوي عن الخضر بقول ابن كثير: ولا يصح شيءٌ من ذلك.

وفي تفسير الآيات المتحدثة عن قصة موسى وفتاه، والتي أطال فيها، لا يفوته أن يتوقّف عند: ﴿فأردت﴾، ﴿فأردنا﴾، ﴿فأراد ربك﴾. فأمّا الأولى ففي إتلاف السفينة فنسبها لنفسه، والثانية في قتل الغلام، وهو أخطر، فلم ينسبه إلى الله، بل نسبه إلى نفسه بضمير الجمع، وأمّا الأخير فهو بمحض قدرة الله.

وفي قصة ذي القرنين ذكر الخلاف –بإيجاز– في من هو؟ وذكر قول الرازي أنّه الاسكندر، وقول بعض المُفسّرين أنه نبي، ومن عجب أنه رجّح رأي من قال إنّه الاسكندر. ومن عجب أنه صَرَفَ النصوص المفيدة لخيرية ذي القرنين عن ظاهرها، وجعل الكلام ﴿قلنا يا ذا القرنين...﴾ من باب الخواطر والأحاديث النفسية، وهو من أعجب آراء الشيخ في كتابه ويقول: إن أسلوب الحديث النفسي كثيرٌ في القرآن. ويقيسه على قول الهدهد في قصة سليمان. والجنّ في قصته كذلك. ويقول إنه لا يقول إنه لم يصدر من الجن قول، وإنّما هو تصوير وتمثيل. ثم يتعرض للسائلين مَن هم؟ فيرى، وهو صحيح، أنهم اليهود. ثم يتعرّض للسد ويقول: لعله مع الوقت اكتسب شكل الموانع الطبيعية، فعاد كمنظر الجبال المحيطة به.

ثم تعرّض للروايات في يأجوج ومأجوج، وأنّها غرائب وعجائب، ثم قال: يأجوج يشبه أن يكون مُشتقّاً من أجيج النار، تقول "أجت النار تؤجّ أجيجاً إذا سمعت صوت لَهَبِها. أو من أجّ في

سيره إذا أسرع. أما مأجوج فكأنّه مأخوذ من الماء الأُجاج وهو الشديد الملوحة، الذي يُمَـــجُّ ولا يساغ. ثم ذكر قول ابن منظور في ذات المعنى.

ثم يفسر آيات الختام المتحدثة عن التوحيد والقيامة. ويتوقف عند آية: ﴿قل لــو كــان البحر مداداً لكلمات ربي...﴾ وأنّها في مَوضعها بعد انتهاء السورة من قصصها وبيانهـا، ومـا احتوت عليه من العلم، وما صرفته للناس من مثل، فكانت كالتذييل لكل ما تقدم.

ويختم الكتاب وتفسير آيات السورة بقوله: "وبهذا انتهت السورة الكريمة، واختُتمت بما ابتُدئت به من إفادة الناس بأن مرجعهم إلى الله في حياتهم وبعد مماتهم، وأنّ الدين والشريعة إنّمـا جاءت لإنذار قوم وتبشير آخرين بيوم عظيم يكون بعد هذه الحياة الأولى، يجب عليهم أن يحسبوا حسابه، ويعملوا له، وأساس ذلك هو معرفة الحق في شان الألوهية، والإذعان للواقع في جانـب القدرة والعظمة اللتين تظهَرُ في الكون آثارُهما واضحةً جليّةً. والله اعلم".

الكتاب الثلاثون

النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين

تأليف: نعمة الله الجزائري

ط١، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين / نعمة الله الجزائري:

هذا كتاب عجب، غاية في السوء، والخرافاتية، واللاعلمية. لا يكتفي بالإسرائيليات، بل يضيف إليها ما هو أعرق منها في الضلال والبعد. وصاحبه شيعي غال إلى أقصى درجات الغلو، لا نبالغ إذا قلنا إنه جعل قصص الأنبياء يدور حول آل البيت. كأن يقول إن الأنبياء يُبعثون مع المهدي ليقتصّوا للحسين. وإنّ آدم عندما نهض من طينته رأى اسم الحسن والحسين منقوشان على عرش الرحمن... وهكذا.

ولستم بآخذيه ولا آخذين ما فيه إلاّ أن تُغمضوا فيه، وتُلغوا العقول أثناء قراءة ما فيه، وما فيه إلاّ كلّ مُكْرِب منغص وكل مضلّل، آخذ بالمسلمين إلى مزيد من الضلال والتيه.

ولا ترتيب في الكتاب، في القصة الواحدة، فقد يتكلم عن نهاية القصة ثم يعود إلى أولها ويكرّر ويعيد، في الموطن الواحد، وفي المواطن المختلفة. ولا يفوتنا أن نُنوّه إلى زمان الكتاب وأنه ألّف سنة ألف ومئة وعشرة (١١١٠هـ) كما في آخر صفحة بل آخر سطر من الكتاب.

واسمه جميل ولا جميل فيه إلاّ اسمه، ولا علاقة للمسمى بالاسم. ولو سمّينا باقلاً سحبان ما أفاده اسمه شيئاً من البيان.

والكتاب نموذج ومثال على العقل إذا خرج عن مساره وإطاره، والفكر إذا اشتطّ وانفلت من مداره، وانحطّ وانطفأت كل أنواره.

هذا الكتاب عيّنة على التعصّب والتمذْهب والتحزّب وكيف يخرّب المنهجية، ويتلف الذائقة والروح العلمية.

والكتاب يعد خير شاهد على الإتلاف الذي أحدثته الإسرائيليات في العقل، نسوقه لمن لا يزالون يدافعون عنها وينظرون للأخذ بها والاستشهاد بها والاستئناس بها. وما الاستئناس بها إلاّ كالاستئناس بجوار الضبع أو الأفعى، فنعم الأنيس والجار!! ونعمت رواية الأخبار!! عن نعمة الله الجزائري أو لا أدري من أي الأقطار...!!

يقع الكتاب في ست وثلاثين وخمسمائة صفحة. قسّمه إلى أبواب عديدة، كان يبتدئ القصة بعنوان باب في قصة كذا...

وبيّن في المقدمة أن وهب بن منبه صنّف كتاباً مبسوطاً في "قصص القرآن"، وأن الراوندي من علمائهم (الشيعة) كتب كتاباً في قصص الأنبياء... وأنّ شيخه المعاصر (لم يقل من هو، ومعلوم أن

"بحار الأنوار" للمجلسي) ألَف كتاب "بحار الأنوار" وجعل الكتاب الخامس في أحوال الأنبياء وسمّاه كتاب "النُبوّة"، إلاّ أنه مُطوّل جدًا.

وأحبّ كاتبُ الكتاب الذي نُعرّف به أن ينسج كتابه على "طرازٍ غريبٍ ومنوالٍ عجيب" بأن يذكر روايات الخاصّة (الشيعة) وبعضَ روايات الجمهور، ويكون صغير الحجم غزير العلم (!!) قمشّ إليه الألباب، وتستلذّه الطلاب.

ثم يدخل فوراً في خزعبلات تثبت أن الكتاب غزير العلم (الخرافاتي). فأول رواية بعد ما نقلناه من مقدمته تقول: روى الثقة علي بن إبراهيم في الصحيح (لا ندري أي صحيح!)، عن أبي عبد الله عليه السلام: ما بعث الله نبياً من لدن آدم فهلمّ جرّا إلاّ ويرجع إلى الدنيا وينصر أمير المؤمنين، وهو قوله تعالى: ﴿لَتُؤمِنُنّ به...﴾.

ثم يقول: جاءت الأخبار مستفيضة في أن "القائم" إذا خرج، يخرج في زمانه النبي، وأمير المؤمنين وهو صاحب العصا والميسم، ويخرج الأئمة والأنبياء ليأخذوا بثأر الحسين(!!). وكأن الكون كلّه والدين كلّه قائم على نصرة الحسين. وما من شك أن الحسين قُتل مظلوماً، وقُتل النّبيّ يحيى مظلوماً فلماذا لا تبعث الأنبياء للأخذ بثأر النبي؟!

ثم فسّر الآية ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ بأنها الرَّجْعة، أي رَجْعة الأنبياء فيما سمّاه "القيامة الصغرى" (!) ويُبعث بنو أمية ليُقتصّ منهم.

ثم قال إن عدد الأنبياء (١٢٤ ألف) نبي، وعدد الأوصياء (١٢٤ألف) وصي. ولم يقل لنا ما مهمة الوصي. والمرسلون (٣١٣) رسولاً.

ثم ذكر روايةً أن عدد الأنبياء (١٤٠ ألف) نبي، وفي رواية (٣٠٠ ألف)، ثم جمع بين الروايات بأن الزائد عن الرواية السابقة كان قبل آدم (!!). ويجوز أن يُراد أن ذُرّية الرسول وآله العلويين داخلون في عداد الأنبياء، فهذا يُفسر الزيادة.

فتأمّل هذه التُحفة النادرة من كاتبنا، ويرحم الله العقل المسلم، إن ظلّ بمثل هذا الانحطاط.

ثم روى في كتاب الإقبال لابن طاوى عن من قال (!) سمعت علي بن الحسين يقول: من أحب أن يصافحه (١٢٤ ألف) نبي فليزر الحسين ليلة النصف من شعبان فإن أرواح الأنبياء تستأذن الله في زيارته فيأذن لهم!!.

(لم يقل لنا أين الحسين؟) ثم يقول: إن بعض الزوّار ملائكة تتصوّر بصور الرّجال ويصافحون (!).

وعن العسكري في "مشارق الأنوار" أنه زاره علي بن عاصم وقد كفّ فمسح بيده على وجهه فارتد بصيراً ثم أراه بساطاً عنده فيه آثار أقدام الخلائق من آدم إلى المهدي، وعدّد عشرات من الأنبياء وغيرهم ومن ضمنهم الإسكندر. ثم أثر الأوصياء. (لاحظ الجنون وليس الخلط، فأين أثر المهدي وهو لمّا يظهر، وما الذي حشر الإسكندر وهو شيطان مع الأنبياء؟!. وكيف يميز آثار هذه الجماهير على سجادة واحدة؟ ألم أقل لك، إذا أردت أن تقرأ الكتاب فاخلع العقل وضعه على الباب...!!).

ثم فرّق نقلاً عن الكافي بين الرسول والنبي، فقال إن النبي الذي يسمع الصوت ولا يرى الملك، والرسول الذي يرى في المنام ويسمع الصوت ويعاين الملك. والإمام، يسمع الصوت، ولا يرى ولا يعاين. واستشهد بما زعم أنه آية من رسول ولا نبي ولا محدث". (﴿من رسول ولا نبي... ﴾واضح أنها آية. أما زيادة محدث فهي من عنده).

وفي الاختصاص للمفيد ذكر الأنبياء السريان وأنهم خمسة (آدم، شيث، إدريس، نوح، إبراهيم) ولسان آدم العربية فلما عصى أبدله السريانية.

وخمسة أنبياء عبرانيون (فقط !!!؟): اسحق، ويعقوب، وموسى، وداود، وعيسى. وخمسة من العرب. وإن بين آدم ونوح عشرة آباء كلهم أنبياء... إلى أن أرسل الله موسى إلى فرعون الذي كان يقتل كل يوم نبيين وثلاثة وأربعة، حتى أنه كان يُقتَل في اليوم الواحد سبعون نبياً (سبعون: نائب فاعل) ... (أو خطأ من الكاتب إن كان يَقتُل مبنياً للمعلوم...).

ونقل عن الكافي أن الله جعل اسمه الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً أعطى آدم منها خمسة وعشرين، ونوحاً خمسة وعشرين، وإبراهيم ثمانية، وموسى أربعة وعيسى حرفين وكان يُحيي بها الموتى وأعطى محمداً اثنين وسبعين حرفاً واحتجب حرفاً (!) لئلاّ يعلم ما في نفسه ويعلم ما في نفس العباد...!!.

وهذا فيما أرى كلام في منتهى الخطورة، يعني أنه بين النبي ومقام الربوبية خطوة واحدة فيعلم ما في نفوس العباد...!!.

ثم أسند إلى الصادق أن آدم عاش (٩٣٠ سنة)، وأن نوحاً عاش (٢٤٠٠ سنة)، وإبراهيم (١٧٥ سنة)، واسحق (١٨٠ سنة)، وهرون (١٣٣ سنة)، وسليمان (٧١٢ سنة).

ثم تكلّم في العصمة فقال إن الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة معصومون مُطهّرون من كل دنس، ولا يذنبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً...

ثم يذكر مناظرة في العصمة بين علي بن الجهم وعلي بن موسى الرضا فسأله عن آدم ويونس وداود... فأفحمه الرضا (كما قال).

الباب الأول: في قصص آدم وحواء وأولادهما وفيه فصول:

يقع هذا الباب في حوالي خمس وأربعين صفحة، من ص٢٦-ص٧٠، وفيه أربعة فصول

الأول: في فضلهما، والعلة في تسميتهما، وبدء خلقهما، وسؤال الملائكة.

وذكر في التسمية أنه سُمّي آدم لأنه خلق من أديم الأرض أو من الأدمة السمرة. وحوّا من حي أو الحيوان.

ثم ذكر قصة خلقه من جميع أديم الأرض ونزول الملك جبريل لأخذ القبضة... وماء من جميع مياه الأرض.

ثم ذكر أن كنية آدم أبو محمد تعظيماً لمحمد ﷺ. وأنه بقي أربعين سنة مُلقى... ثم روى روايات في خلق حوّاء، فمرةً هي من سنخ ماء آدم (!)، ومرةً هي من فضلة طينه، ومرةً من ضلعه، ونقل عن قصص الراوندي أن طول آدم كان من ثنية الصفا إلى ما دون أفق السماء، فلما شكا من حر الشمس صيّره سبعين ذراعاً... وحوّا (٣٥)!!.

الفصل الثاني: سجود الملائكة وأي جنة كانت وتعليمه الأسماء:

وفيه أن إبليس من سبي الملائكة (!) وقيل إنه قبل المعصية كان ملكاً. ونقل عن كتابه هو "زهر الربيع" أن إبليس كان من الأشاعرة في العقيدة لأنه قال ﴿ فبما أغويتني ﴾ فنسب الإغواء إلى الله (!).

ونقل عن كتاب من كتب الشيعة أنه ما من أحد من أتباع علي ينظف قلبه من الغل إلاّ كان أطهر من الملائكة...

وذكر الأقوال في معنى السجود ولِمَ سَجدوا لآدم؟ وما أفضلية محمد مع السجود لآدم؟ فقال إنّ الله وملائكته يصلون عليه فهذا أفضل.

ثم ذكر مسائلَ سألها إبليس من الله، ومسائلَ سألها آدم فحقق لكل سُؤلَه.

وذكر أن إبليس وصل ما وصل بركعتين صلاهما في أربعة آلاف سنة(!). ثم نقل عن كتاب "فضائل الشيعة" تفسير ﴿العالين﴾ أنهم الذين هم أعلى من الملائكة، قلت يا رسول الله من هم؟ قال:

أنا وعلي وفاطمة والحسن والحسين كنّا في سرادق العرش نسبّح وتسبّح الملائكة بتسبيحنا قبل خلق آدم بألفي سنة...(!!). ثم ذكر الخلاف في الجنة، على ما هو معروف.

ونقل عن تفسير العسكري أن الحسين قال قبل مقتله: إنّ الله لمّا خلق آدم جعل محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين أشباحاً خمسة في ظهر آدم، وكانت أنوارهم تضيء آفاق السموات والأرض... ثم قال الله لآدم: يا آدم هؤلاء أفضل خلائقي، بهم آخذ، وبهم أُعطي، وبهم أعاقب، وبهم أُثيب، فتوسّل بهم..!!

الفصل الثالث: الذنب والكلمات والنزول:

في كتاب النبوة، يقول الكاتب، إن الله خلق آدم من الطين، وخلق حوّاء من آدم، فهمّة الرجال ما خلقوا منه، وهمّة النساء الرجال.

ثم في حديث طويل مسند إلى الحسن بن علي إلى الرسول ﷺ أن نفراً من اليهود سألوه عن الصلوات الخمس، العصر: الساعة التي أكل فيها آدم من الشجرة، واختارها لأمتي وهي أحسب الصلوات إلى الله (!). والمغرب: الساعة التي تاب فيها الله على آدم. ومن بين الأكل وتوبة الله ثلاثمئة سنة من أيام الدنيا (!)، وفي أيام الآخرة كألف سنة (!). (ما الأطول منهما؟؟).

وأما الوضوء فلأن الوجه نظر إلى الشجرة، واليد تناولت الثمرة، والرجل سعت، والصوم لأن الطعام بقي في بطن آدم ثلاثين يوماً.

ثم ذكر محاجّة آدم وموسى وقال: وهذا من فروع مسألة القضاء والقدر وراجع إلى العلم القديم وهي المعركة العظمى بين علماء الإسلام، وضلّ به خلق كثير، وطوائف لا تُحصى، فوردوا النار بهاتين المسألتين.

ثم ذكر حديثاً (!!) أن آدم عندما فتح عينيه وجد مكتوباً على العرش: لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله، علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وزوجته فاطمة سيدة نساء العالمين، والحسن والحسين سيّدا شباب الجنة، فقال آدم: يا رب من هؤلاء؟ فقال: من ذريتك وهم خير منك ومن جميع خلقي، ولولاهم ما خلقتك ولا خلقت الجنة ولا النار ولا السماء ولا الأرض...الخ.

(وهذا فيما اعتقد الشرك الجلي لا الخفي. فإن الله ما خلق الخلق إلاّ لعبادته. ولم يخلق الخلق من أجل بعض الخلق).

ثم روى عن الباقر لولا آدم ما أذنب مذنب. (وهو قطعاً لا يصح لا إلى الباقر ولا في الدين).

ثم فسر لماذا الميراث للمرأة حصة وللرجل حصتين، فقال إن حواء أكلت حبّة من السنبلة وأعطت آدم حبتين، فمن أجل ذلك...

وفي حديث (!) آخر أن آدم جاء من الهند وما بين القدم والقدم صحارى...

ثم فسّر لِمَ الأيام البيض سمّيت بهذا فبيّن بأن آدم لّما نزل نزل مسوداً فبكت الملائكة، ثم قيل لآدم صم فصام الثالث عشر فذهب ثلث السواد، (والباقي معلوم أظن..).

ثم قال: إن الله خلق الأرواح قبل الأبدان بألفي عام فجعل أعلاها أرواح محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة... (وهكذا تسير مع الكتاب من فرية إلى فرية ومن ظلمة إلى ظلمة ومن خبر مُلفَّق إلى آخر مُختلق).

وفي تفسير العسكري أن شجرة آدم هي شجرة العلم وهي محمد وآل محمد آثرهم به على سائر خلقه. ثم دخل الكاتب في قصة الحيّة...

ثم ذكر أن آدم بكى حتى صار في وجهه مثل الأودية، ثم ذكر البكائين، وروى رواية أُخرى أنه خرج من عيني آدم مثل دجلة والفرات. (فلسفة البكاء في المذهب الشيعي معروفة، فهو مذهب يقوم على البكاء والحزن).

ثم بيّن قصة الحجر الأسود (بزعمه) وأنه الميثاق الذي أخذه الله على آدم فنسيه آدم فأنزل الله الميثاق في صورة حجر أبيض، وأنّ آدم حمله على عاتقه، فإذا تعب كان جبريل يحمل عنه حتى بلغ الكعبة... الخ.

وبيّن أن حوّاء لّما نزلت المروة حلّت مشطها فانتشر من مشطها العطر الذي كان من الجنة فطارت به الريح فألقت أثره في الهند فلذلك صار العطر بالهند. (جيّد أن الشيخ لم يحضر الصناعات الفرنسية، وإلاّ لجعل للرواية مسرباً آخر).

وتأمّل هذه الأسطورة الرائعة (!) أن إبليس حرّش السباع على آدم وحوّاء، فوقع بزاق من فم إبليس فخلق الله منه كلبين أحدهما ذكر والآخر أنثى يحرسانهما، الكلبة بجدّة، والكلب بالهند، فلم يتركا السباع تقربهما.

ثم فصّل في الخيمة التي أهبطت من الجنة مكان البيت..

الفصل الرابع: (زواج آدم وحوّاء والنسل وقابيل وهابيل)

بيّن كيف خطب آدم حواء من الله عز وجل فزوجها له. ثم ذكر قصة زواج الأخوة من الأخوات، وهي القصة المعروفة.

ثم قال إن ولد آدم سبعون بطناً في كل بطن غلام وجارية، إلى أن قُتل هابيل، فجزع آدم عليه جزعاً قطعه عن إتيان النساء خمسمئة عام، ثم تخلى ما به من الجزع فغشي حوّاء فوهب الله له "شيثاً" (بالثاء)، ثم أنزل الله بعد العصر يوم الخميس حوراء اسمها "نزلة" فتزوجها "شيث"، ثم بعد عصر الغد حوراء أخرى اسمها "منزلة" فزوجها من "يافث"، ثم تزوج ابن هذا بنت هذا فولد الصفوة من النبيين. ومعاذ الله أن يكون ذلك على ما قالوا من زواج الأخوات..

وذكر في زواج قابيل قصصاً، ولا في الخيال، ولا في ألف ليلة. كما يُقال. فقد أمر الله (بزعم الكاتب) أن يزوّج قابيل من جنّية في صورة إنسيّة...

وفي كل سطر له متاهة كمتاهات الأعراب، فقد فسّر ﴿يوم يفر المرء من أخيه...﴾، بأنه قابيل يفر من هابيل. وقال عن يوم الأربعاء إنّه يوم يتطير منه، فيه قَتل قابيلُ هابيلَ.

ثم ذكر قصة عناق (بالتاء) بنت آدم. (وهي من الأساطير الغليظة). ثم قصة عوج بن عناق (بالنون) الذي كان يشوي السمك على الشمس من طوله...!!

ثم ذكر عن الباقر أن ما بين الركن والمقام لمشحون من قبور الأنبياء (!). (وهل الناس إذاً يمشون على قبور الأنبياء؟؟).

ثم ذكر حلفاً بين قابيل وإبليس ضد آدم باتخاذهما المعازف... وأنس آدم بالنخلة وطلبه جريداً منها يوضع منها على قبره إذا مات.

ثم ختم القصّة بباقعة أن نوحاً طاف بالبيت أسبوعاً وقت الطوفان، ثم نزل في الماء فاستخرج تابوتاً فيه عظام آدم فحمله إلى جوف السفينة.

وذكر أن آدم عمّر ألف سنة، وأن حوّاء عاشت بعده سنة ثم مرضت أسبوعين وماتت، وأنه دفن في جبل أبي قبيس، ودفنت حواء إلى جانبه. وهذا حاصل قصص (!) آدم وحواء كما قال!.

الباب الثاني: في قصص إدريس (!).

قال الطبرسي: هو جد أب نوح واسمه في التوراة أخنوخ وسمي ادريس لكثرة درسه. (ليس الإشكال في كل سطر وإنما في كل كلمة). وهو أول من خط وخاط. ورفع وهو حي. وعن وهب أنه ضخم البطن (!) عريض الصدر.

وقص علينا وهب كيف نبئ، فقد دعا ألفاً من قومه، ثم اختار سبعة فدعوا الله أن يعرفهم كيف يعبدونه، فنبئ إدريس. (وكأن العبادة انقطعت والدين تلاشى!).

ثم يقص علينا تخريفاً يسميه هو قصصاً، كيف بعث إدريس في زمن ملك جبّار، وأنه مر بنزهة فأعجبته أرض "لرافضي" (تأمل !)، فأبى الرافضي أن يبيعها وكانت امرأة الملك من الأزارقة (!) الذين يرون قتل الرافضة (!). (تأمّل هذا الجنون وكأن فكر الخوارج وفكر المتشيّعة موجود من بدء الخليقة (!!) وكأن لإدريس أصحاباً من الرافضة...!!)

ثم يروي خرافات أبلغ من كل هذا عن دعوة لإدريس بكف المطر وطلب الله من إدريس أن يدعو بنزول المطر ويرفض إدريس!! وهذا كله ينقله بزعمه عن أبي جعفر عليه السلام من كتاب الكافي (!).

ثم يفصّل في تخريف بالغ الغاية كيف قبضت روح إدريس بين السماء الرابعة والخامسة، ويزعم أن هذا هو تفسير قوله تعالى: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾.

ثم ذكر لنا بعض ما في صحف إدريس، فمن شاءها فليرجع إلى الكتاب العظيم!!

الباب الثالث: في قصص نوح وفيه فصلان:

الفصل الأول: عمره ووفاته وعلل تسميته ونقش خاتمه! ومكارم أخلاقه:

وفيه أن الله قال له: يا نوح إن خفت الغرق فهللني ألفاً!! فهبت ريح فلم يتمكن من ذكر الألف مرة فهتف بالسريانية (هللوليا الفاالفا يا ماريا اتفن) فجرت السفينة..!!

ثم فصّل أعمار نوح وأنه عاش ألفين وخمسمئة سنة (قال قبل صفحات ٢٤٠٠، وهكذا الباطل يتناقض سريعاً). المهم، منها (٨٥٠ سنة) قبل البعثة، وألف إلاّ خمسين في الدعوة، ومئتا سنة في عمل السفينة، وخمسمئة بعد النزول من السفينة. (الجمع صحيح). فلما جاءه ملك الموت طلب التحول من الشمس إلى الظل، ثم قال: كان ما عشته كتحولي من الشمس إلى الظل (أي في القصَر، يا سلام حكمة عظيمة!!).

ثم إن "ساماً" ورث عن أبيه الاسم الأعظم والعلم دون سائر الأخوة (هل لاحظت السامية !؟). وأن نوحاً دعا على حام لأنه أغضبه فصار لا يلد له إلاّ السودان (!!)، والترك والصقالبة والصين من يافث (!). وجعل ذرية هؤلاء خدماً لذرية سام (!)، وزعم أن هذا رواه الطبرسي في كتاب النبوة. (الدس اليهودي ظاهر واضح، وهذه الثمرات المرة للإسرائيليات، فاعتبروا يا أولي الأبصار!!).

وفي الفصل الثاني: ذكر نسبه واسمه:

وأنه بعث وعمره أربعمئة سنة (قبل أسطر كان الرقم ٨٥٠). ثم فصّل لنا فيمن ركب السفينة من البشر والحيوانات، وكيف كانت النساء تحيض كل سنة (يزعم أنه ينقله عن الباقر)، فعاقبهن الله على معاصيهن فصارت كل شهر.

ثم فصّل لنا عدد مسامير سفينة نوح، وأن منها خمسة دقها نوح باسم النبي وآل علي. وبيّن لنا أن قبر نوح بالنجف إلى جانب قبر علي... وعن الصادق قال: يوم النيروز هو اليوم الذي استوت فيه السفينة على الجودي. (هذا تخريج ديني لعيد جاهلي).

الباب الرابع: في قصص هود عليه السلام وقومه عاد:

بدأ بذكر نسب عاد. ومن أساطيره عن هؤلاء القوم أن الواحد منهم كان إذا ضرب الجبل هدم جزءاً منه!!

وروى لنا عن وهب (!) أن الريح (التي سخرت على عاد) تحت هذه الأرض التي نحن عليها قد زمت بسبعين ألف زمام من حديد، وقد وكل بكل زمام سبعون ألف ملك، فلما سلطها الله على عاد، استأذنت خزنة الريح... الخ. وأن قوم هود لما قحطوا جاءوا هوداً فخرجت إليهم امرأة شمطاء عوراء (!!)... الخ.

وملأ الصفحات بأساطير عن قصور مسحورة عمدانها من الزبرجد والياقوت ونقل عن كعب (!) أن هذه المدينة بقايا عاد...

الباب الخامس: في قصص نبي الله صالح.

في بداية حديثه عن القصة يذكر أحاديث تقرن بين عاقر الناقة وقاتل علي. فمنها ما زعم أنه قاله ﷺ: "أشقى الأولين والآخرين من عقر ناقة صالح ومن ضربك يا علي حتى تخضب من دم رأسك لحيتك". وتواتر (!!) عنه ﷺ تشبيه قاتله بعاقر الناقة. وذكر أوجه الشبه أن علياً آية لله أظهرها على يدي رسول الله ﷺ.

ونقل عن ابن أبي الحديد أنه من الطوفان إلى اليوم "ما بلغنا في هذه المدة الطويلة أن رجلاً من العرب والعجم والترك والهند والروم... يدانيه في الشجاعة (أي علي)، ولم يقاربه أحد (لاحظ أحد) في خصلة من خصال الكمال» (ونقول: لا ريب أنه صحابي عظيم وهو لا يقر قطعاً هذه المبالغات والتهويلات، ولا يقبل أن يفضّل على الأنبياء!).

ثم زعم حديثاً عن جبريل أنه قال للنبي ﷺ: إنّ الله بعث علياً مع الأنبياء باطناً وبعثه معك ظاهراً. (لم يقل لنا المعول عليه ماذا: الباطن أو الظاهر؟!).

ثم زعم ولادة علي في الكعبة كما كانت خرجت الناقة من الصخرة، ولم يتفق ذلك لنبي أو وصي (!)، وكان علي يمير الناس العلوم والحكم كما كانت الناقة تميرهم السقيا.

ثم بعد أن انتهى من سيرة علي، ذكر نسب صالح عليه السلام حتى أوصله إلى نوح، ثم زعم أن صالحاً بعث وهو ابن ست عشرة سنة (!).

وزعم حديثاً آخر أنه لا يبعث راكباً يوم القيامة إلاّ أربعة: النبي على البراق، وفاطمة على العضباء، وصالح على الناقة، وعلي على ناقة من نوق الجنة... الخ. وعندما يراه الملائكة والنبيون (يرون علياً) يقولون: ما هذا إلاّ ملك مقرب أو نبي مرسل...!!

ثم ذكر عن كعب ما كان للنساء من دور في عقر الناقة. (لاحظ العقلية الإسرائيلية في نسبة الشر إلى النساء!) وأقول: فمن أراد الاستزادة من هذا الغيث أو العيث أو العبث، فليرجع إلى "النور المبين"...!!

الباب السادس: في قصص إبراهيم:

يذكر في مطلع حديثه عن قصته أن الله ذكر قصته في عديد من السور. وهذا صحيح. ثم بدأ فوراً في تحريفاته وتخرّصاته كقوله بزعمه إلى رسول الله ﷺ: "ما على دين إبراهيم غيرنا وغير شيعتنا". وعن العسكري أن الله اتّخذ إبراهيم خليلاً لكثرة صلواته على محمد وآل محمد.

ثم يتابع الخرافات كالمطر كيف أن إبراهيم كان غيوراً يقفل بابه ويأخذ المفتاح، وكيف جاءه ملك الموت (!) يخبره أن الله اتّخذه خليلاً...

وامتحنه جبريل في يوم ضيافة الملائكة فنجح فقال جبريل: حق لله أن يتخذ هذا خليلاً. وكيف تلقّاه وهو يهوي إلى النار فسأله... الخ. وكيف تحوّل له الرمل دقيقاً. وكيف يأتي النبي بحلّة وردّية عن يمين العرش، ثم إبراهيم بحلّة بيضاء عن يسار العرش، وعلي بحلّة وردّية عن يمين النبي!! ثم الحسن والحسين عن يمين علي... الخ. وكيف دعا الله فكان أول من شاب!! وكيف أن رجلاً اسمه ابن آوى (!) عاش أكثر من (٦٦٠) سنة لا يخرج إلى الناس إلاّ كل ثلاث سنين، وكيف مشى هو وإبراهيم على الماء...

ثم ذكر عن الراوندي أن أول من قاتل إبراهيم، إذ أسرت الروم لوطـا (!!) فاسـتنقذه... وهكذا تسير مع الخرافات تعج من حواليك ومن كل جانب.

ثم ختم الفصل الأول بخرافة أن الأطفال الذي يموتون يربيهم إبراهيم في الجنة حتى يكـبروا فيعيدهم إلى آبائهم وفي رواية أن فاطمة تربي أولاد العلويين...

وفي الفصل الثاني: بيّن ولادته وكسره الأصنام:

ويذكر فيه كيف اعتزلت أُمه لَمّا حملته وكيف وضعته في غار ثم سدّت باب الغار، ويكمل الخرافة المعروفة... ويذكر كيف آمن بالكوكب والقمر... (على الحقيقة كما يزعم). ثم لَمـا كـسّر الأصنام تحاجّ الملك مع الأم، ثم يذكر حواراً بين الملائكة والله عز وجل يستغيثونه لإبراهيم، فيُسكت الله كل ملك ويقول له: اسكت، إنما يقول هذا عبد مثلك يخاف الفوت...الخ.

ثم عاد مرة أُخرى إلى تفسير من يفر من أخيه وأنه قابيل، وموسى من أمه، وإبراهيم من أبيه، ولوط من صاحبته، والذي يفر يوم القيامة من ابنه نوح، يفر نـوح مـن كنعـان (سمعـتم أيهـا الكنعانيون!!؟).

وعاد إلى حكاية أن أبا إبراهيم آزر هو عمّه... وهو كلام لا دليل عليه ويخالف نص القرآن.

ثم فصّل في مشاهد الآخرة وكيف أن حيّة في بطنها سبع صناديق فيها خمسة من الأمم !!

ثم زعم أن إبراهيم لَمّا أُلقي في النار -قال الرضا- دعا الله بحقنا!! وأن الله ألبس إبراهيم لَمّا قُذف في النار قميص فضة!! وأن إبراهيم ورّثه اسحق وهذا ليعقوب وهذا ليوسف. (لاحظ خـروج إسماعيل).

ثم يذكر حكاية النسور والنمرود، ومن أراد الاستمتاع بها فليرجع إلى الكتاب.!!

الفصل الثالث: إراءته ملكوت السموات والأرض وإحياء الموتى:

وفيه يذكر كيف أن إبراهيم دعا على رجل وامرأة على فاحشة فأهلكهما الله، ثم دعا على آخرين فقال الله: يا إبراهيم اكفف عن عبادي. وأن إبراهيم رأى جيفة في البحر (!) فقال رب أرني كيف تحيي الموتى!!

ثم فصّل في الطير... وعرّج على بناء الكعبة.

وفي الفصل الرابع: عاد لبناء البيت:

وفي كل ذلك يسير على النهج الذي سار عليه والذي رأينا عيّنة تكفي شاهداً للمنهج وللعقلية ولطريقة المعالجة.

الفصل الخامس: قصّة الذبح وتعيين المذبوح:

ذكر الخلاف في الذبيح ورجّح أنه إسماعيل (ما شاء الله!) ثم ذكر أن الكبش الذي فدي به هو الذي قدمه هابيل... وكيف أن ابراهيم تمنّى أن يكون ذبح ولده، ولم يُؤمر بذبح الكبش مكانه!! (أعوذ بالله من الضلال، وهذا يؤيّد ما قلنا من رائحة التهوّد!).

ثم سأل إبراهيم ربه: من أحب الناس إليك؟ فقال محمد. ثم قال الله لإبراهيم: هل هو أحب إليك أم نفسك؟ فقال: بل هو. فقال: فأحب إليك أم ولدك؟ فقال: بل ولده... إلى أن قال الله - بزعم هذا الكاتب-: إن طائفة ستقتل الحسين!! (وهذا عندهم بيت القصيد).

فالكتاب كما ترى يوظّف القصة القرآنية في تسريب التخريفات الغالية من التشيّع الذي يرفضه الشيعة أنفسهم بالتأكيد، فليس من عاقل يقبل أن يتحوّل القصص القرآني إلى خرافات وإلى تشيّع، وما من عاقل يقبل أن يكون آل البيت مقدمين على الأنبياء عليهم السلام.

الباب السابع: في قصص لوط وقومه:

يذكر نسبه في بداية القصة، فيذكر أنه قيل إنه ابن أخي إبراهيم، وقيل ابن خالته! وسارة كانت أخت لوط...!!

ثم فسّر الآية ﴿وتقطعون السبيل...﴾ أي سبيل الذرّية باختياركم الرجال (وهذا قطعاً لا يصح) .

ثم ذكر من علامات القائم أن يخرج الماء الأسود في (قم). (رجعنا إلى حكايات التشيّع ولقد تعوّد الرجل أن لا يدوم في أجواء القصّة لبضعة أسطر).

وزعم أن إبليس هو الذي علّمهم هذه الفعلة، وأنه تصوّر في صورة غلام...الخ. وزعم أن قوم لوط كانوا خيار خلق الله... حتى أفسدهم إبليس، ويذكر تفاصيل وأساطير لا يستسيغها عقل ولا ذوق، بله دين وقرآن كريم !!

ثم يبين كيف بكت الأرض من فعل قوم لوط حتى بلغت دموعها السماء (كيف؟) وبكت السماء حتى بلغت دموعها العرش (!)... الخ. (يعني كله طالع لفوق!).

الباب الثامن: في قصص ذي القرنين:

اسمه عياشيا (!!) وكان أول الملوك بعد نوح (تأمّل...!!). ثم ذكر شربه من عـين الحيـاة (خرافات الشعب الملعون!). ثم يذكر أن عياشيا هذا كان نبياً، وذكر آراء بخلاف ذلك!!

ثم أسند إلى الباقر (!) أن أول اثنين تصافحا إبراهيم وذو القرنين. (نسي أنه قال قبـل قليـل إن ذا القرنين من زمن نوح).

ثم يذكر لنا في سرد القصة، قصة جبل محيط بالأرض (!) (كأن تقول: إصبعك تحيط بك. أو ورقة من شجرة تلتف حول الشجرة!).

ثم ذكر حج ذي القرنين في ستمائة فارس!! (هل هي معركة؟!)

ثم دخل في متاهة من الأساطير لا تُعقل ولا مُستند لها، وذلك كيف وصل ذو القـرنين إلى عين الحياة، والظلمة التي لم يطأها من قبل أحد (!!) (فيلم هندي أو هوليودي!!). وكيف نزل قـاع البحر ومدوا له حبلاً سار به أربعين يوماً (تحت البحر لا تنس!!).

ثم ذكر الأقوال في ذي القرنين وأنه الاسكندر!! ولماذا سمي ذا القرنين؟!

الباب التاسع: في قصص يعقوب ويوسف:

بدأ القصة بذكر أسماء الكواكب، التي رآها يوسف!! والشمس هي أمه والقمر أبـوه(!!) وكان عمر يوسف تسع سنين وقت الرؤيا (أشهدوا أحداث القصة؟!).

وكان يعقوب يؤثره على سائر الأولاد. وأكثر المفسرين على أن اخوة يوسـف أنبيـاء(!) (وهذا لا يصح بطبيعة الحال فهل يُعقل أن يُبعث ثلاثة عشر نبياً في وقت واحد في مكان واحد؟!). ولم يفت الكاتب أن يقص علينا رُؤيا ليعقوب أنه رأى عشرة أذؤب تشد على يوسف.

ثم لخّص أزمان القصة بقوله: ألقي في الجب ابن عشر وجمع بينه وبين أهله في الأربعين ويروي أن الأخوة حضروا إخراج يوسف من البئر، وأنهم باعوه بعشرين. وهي قيمة كلـب الـصيد (!!) (التهافت الذي لا يحتاج إلى تعليق لأنه لا عقل فيه مُطلقاً ولا ذوق!).

ثم يزعم قصصاً ما أنزل الله بها من سلطان كان يقول إن الجماعة كانت في دين إبـراهيم لا تصلي إلاّ إذا كانوا أحد عشر، وأن اخوة يوسف لما ظلوا عشرة جعلوا الله إمامهم...!! الخ.

ثم ذكر أن امرأة العزيز لّما راودت يوسف غطّت صنماً حتى لا يراها، فقال يوسـف أفـلا أستحي من ربي!!. وأن الشاهد هو صبي في المهد هو ابن أختها (وليس كذلك بالطبع!).

ولا نستطيع أن نتتبع رواياته لئلا يطول المقام، وإلاّ فإن له في كل فقرة فكرة لا سند لها ورواية لا أصل لها.

لكن من أطرف خرافاته أو زرافات الخرافات هذه الأسطورة: أن إخوانه لّما دخلوا عليه جلس أحدهم مبتعداً عنهم فسأله لماذا؟ فقال: إن إخوانه أبعدوا أخاه عن أبيهم وأنه هو تزوج وأنجب ثلاثة أحدهم سمّاه الذئب والآخر قميص والآخر الدم...الخ. وكلما دعوت واحداً من ولدي ذكرت أخي... ولم يفته قياس حزن يعقوب وأنه بلغ سبعين ثكلى بأولادها، بمقياس الكاتب ومن ينقل عنهم.

ولم ينس أن يذكر لنا مراسلات بين العزيز ويعقوب. وأتحفنا بقصة في ثنايا القصة كيف مات العزيز وافتقرت امرأته حتى تسوّلت وقعدت ليوسف على الطريق وهي هرمة تتسوّل، وحوار طويل دار بينهما ثم دعا الله أن يردّ شبابها فردّه فتزوّجها!!.

وكيف كان يوسف يدعو ربه: اللهم بحق الشيخ يعقوب!!.

وأساطير الكتاب تتجدد كالماء النبع، لا تتوقف، ولا تنضب، وكالمطر الغزير، يصب فوق رؤوسنا صباً، لا تدري كيف تتلقاه أو تتقيه. وأشهد أن الخيال الذي يتمتع به الكاتب يؤهله أن يكتب القصة، لكن فات هذا: فان الكاتب لم ينبهه أحد في زمانه إلى استغلال موهبته. فبدل أن يفتري بها على الله ورسله، وكتابه وقصص هذا الكتاب فليسخرها في خيال قصصي حر طليق ليس مرتبطاً بالكتاب الأكرم!!

ويذكر الكاتب حواراً بين يوسف وأخيه الشقيق، وكيف أن يوسف أمر اخوته أن يجلس كل أبناء أم إلى طاولة طعام، فبقي بنيامين واقفاً، المهم أن يوسف سأله عن حزنه فأخبره أنه أنجب اثنا عشر ابناً اشتق لهم جميعاً أسماء من اسم يوسف، فسأله يوسف: أراك عانقت النساء؟ فأجاب... الخ...

ثم عاود تذكيرنا بالبكّائين وأنهم خمسة: آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة وعلي بن الحسين.

ثم يعود القهقرى فيذكر لنا حواراً بين يوسف وامرأة الملك (العزيز طبعاً) وأن يوسف مكث سبع سنين لا يرفع رأسه ولا يراها!!. فقالت: ارفع طرفك وانظر إليّ. قال: أخشى العمى... الخ.

ثم فسّر وفصّل في قصة ولا كقصص ألف ليلة، كيف أن سائلاً صاح بباب يعقوب: أطعموني، فلم يجبه، فعاقبه الله بما حصل، في قصة طويلة هذا موجزها. وفي سياق القصة فسّر الآية: ﴿ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى...﴾ بأنه فراق الأحبة !!.

ثم يذكر لنا حواراً آخر بين يوسف والمرأة تقول: ما أحسن وجهك، فيقول: كيف لو رأيت نبياً يقال له محمد (!!). وللحوار بقية إن كنت تحب الغرائب فارجع إلى الكتاب!! وقد أتحفنا بتحف

كثيرة يعز عليّ تجاوزها جميعاً فاقبس لكم من كل روض منها زهرة (!!)، ومن ذلك رثاؤه ليوسف لّما ألقوه في الجب...

وفي الثنايا سؤال لأبي عبد الله عليه السلام: هل خرج أبناء يعقوب من الإيمان؟ قال: نعم. وذكر قولاً آخر أنهم خرجوا من درجاته العالية.

ثم ينتقل بنا بين الرياض النضرة من الأساطير والأحافير، فينقل من (العرائس) حواراً بين الملك ويوسف وكيف سلّم عليه بالعربية ثم كلّمه بالعبرية (حكاية أبناء ابراهيم من زمان، والتطبيع قديم!) وكيف أن الملك كان يتقن سبعين لغة (!!) فكلّما كلّمه الملك بلسان رد عليه يوسف بلسانه (!).

ويذكر تفاصيل في رؤيا الملك فليرجع إليها عشّاق العجائب وطلاّب الغرائب والمصائب والنوائب.

ثم بلا ترتيب ولا مراعاة زمن يعود إلى طفولة يوسف وكيف أحبّته عمّته سارة. وذكر قصة الحزام المشهورة، وكيف احتجزت يوسف.

وعاد للبكّائين... (ألم اقل لك إن مذهباً يقوم على العواطف والحزن والبكاء يحتاج إلى تركيز مثل هذه المشاهد!).

ثم يعلن الحرب على من قال بوقوع الهم من يوسف وأنّهم من جند إبليس بل زادوا عليه في السفاهة، كما قال الحروري:

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى	بي الأمر حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أحسن بعده	طرائق فسق ليس يحسنها بعدي

ثم أفاض في "البرهان" ما هو. ومن هذا قفز إلى موقف السجود. وقد تكلّم فيه من قبل.

فلا منهجية ولا ترتيب، وكرّرنا أن الكتاب ليس يقوم إلاّ على الأساطير والإسرائيليات والاختراعات والغلو في المذهب والتشيّع.

وبالسجود ختم القصة التي استغرقت منه أربعاً وأربعين صفحة.

الباب العاشر: في قصص أيوب:

لا جديد في نهج الإسرائيليات وتكثيف الروايات المخترعات فهو ماض على سننه لا يحيد، ولا يبدّل. فيروي أن مدة مرضه سبع سنين. وأنه ابتلي به مقابل نعمة أنعمها الله عليه وأدّى شكرها

(إذاً فيمَ يبتليه؟!)، وأن إبليس اتفق مع امرأته على علاجه شرط أن تعترف بأنه هو الـذي شـفاه، فحلف لذلك أيوب ليَضْربنّها... الخ.

الباب الحادي عشر: في قصص شعيب:

يرى أنه أرسل مرتين: إلى مدين، وإلى أصحاب الأيكة. وهذا قاله غيره. ثم في النسب يذكر لنا أن مدين بن إبراهيم تزوّج بنت لوط فولدت حتى كثر أولادها... وزعم النقل إلى رسول الله ﷺ أن شعيباً بكى حتى عمي، فرد بصره أربع مرات، فقال الله: يا شعيب إلى متى؟ قال: يا رب خوفاً من النار. قال: أمّنتك. فقال: ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنتك (تأمّل بالله!) ولكن من حُبك. فقال: لأخدمنّك كليمي موسى... الخ.

ونقل عن علي بن الحسين أن أول من عمل المكيال والميزان شعيب عمله بيده (!). ثم نقـل عن الراوندي (قال: من علمائنا، يقصد علماءهم) أنه أمر هشام بن عبد الملك بحفر بئر في الرصافة، فحفروا مائتي قامة (يعني قرابة ٤٠٠ متر!) فبدت جمجمة فحفرنا وإذ رجل قائم على صخرة عليـه ثياب بيض، وكفّه اليمنى على رأسه على موضع ضربة برأسه، فنحوا يده فسالت الدماء فأعادوهـا، وإذا في ثوبه مكتوب: أنا شعيب بن صالح رسول رسول الله شعيب... وأن قومه ضربوني وطرحوني... الخ. وذكر عدة روايات على هذه الشاكلة...

ولم ينس أن يخبرنا أن شعيباً كان بكّاءً (مرة أخرى). وأن شعيباً مات عن (٢٤٢ سنة). (لو غير الرقم حتى لا يوافق القرار المعهود ٢٤٢!! طالما أن المسألة اختراع في اختراع!).

الباب الثاني عشر: في قصص موسى وهرون:

فسّر لنا في البداية اسم موسى وأنه بالقبطية كلمتان: الماء والشجر (مو، سى) وأنه وجدتـه جواري آسية (وجدنه في إفريقيا طبعاً!).

ولم يبخل علينا باسم الوالدة. فقيل نخيب، وقيل افاحية، وقيل يوخابيد، واعتمده السيد.

وأعلمنا في ثنايا شرحه أن موسى كان يضع خده على التراب بعد الصلاة، وشنّع على من شنّع على الرافضة سجودهم على التراب، وأخبرنا أن أول من سجد سجدة الشكر هو علي ليلـة المبيـت في فراش الرسول. وأخبرنا أن هرون مات قبل موسى واتهمه اليهود بقتله... الخ.

وأتحفنا بأسماء أبناء هرون وأنهما: شبير وشبر، أي الحسن والحسين. (هكذا قال وأنت صدق أو...).

والتشيّع هو بوصلة السير في الكتاب، فلا يسري ليلاً في ظلمات الكتاب إلاّ وهذا الأمر هاجسه، فقد أخبرنا أن بني إسرائيل بعد يوسف وقعت فيهم "الغَيْبة" (بفتح الغين) وظلّوا ينتظرون قيام القائم (لاحظت المصطلحات!؟) أربعمئة سنة. فلما طلع موسى ورآه الفقيه (!) عرفه بالنعت، فانكب على قدميه وسجد الشيعة شكراً (هكذا!) (أرأيت كيف يُسقط المذهب على التاريخ والقصص القرآني ليكتسب أسانيد ودعائم وجذوراً...؟!).

ثم غاب موسى في مدين، فكانت الغَيْبة الثانية أشد من الأولى (!!). فلما طلع راكباً حماراً ورآه الفقيه (!) فأراد أن يعرف الشيعة (!).

وأتحفنا بعد ذلك أن شعيباً كان يزور موسى كل سنة... فإذا أكل قام موسى على رأسه يكسر الخبز.

ثم نقل عن تفسير العسكري أن الله أخبر موسى أن يخبر قومه ألاّ يبدأوا عملاً إلاّ بالصلاة على محمد وآله الطيّبين (!).

ثم ذكر لنا بعد ذلك حكّام مصر، وأن الذي كان زمن يوسف الريان بن الوليد، وأعقبه قابوس بن مصعب، وكان جبّاراً فأعقبه أبو العباس الوليد... (!) إلى أن وصل بنا إلى فرعون(!).

ثم تفنّن في روايات تعذيب بني إسرائيل. وينقل لنا عن وهب أنه ذُبح في طلب موسى سبعون ألف طفل.

وانظر هذه الفاقعة من أخباره: أن أم موسى لّما داهمها الجند وضعت ابنها في التنور وهو مسجور فلم يروه فلما ذهبوا سألت: أين الولد؟ فقالت أخته لا أدري، ثم سمعت بكاءه من التنور وقد جعل الله عليه النار برداً وسلاماً... الخ.

ويذكر لنا في السرد أن فرعون أطلق على موسى مجموعة من الآساد... وأن جبريل قتل بالسيف ستة من رجال فرعون... الخ. وأن موسى لّما عبر الماء ذكر الله ونبوة محمد وولاية علي... الخ.

وهكذا يسير في القصة خرافة وراء خرافة وخبراً مُختلقاً وراء خبر... ويضيع الحق في ركام من الأساطير...

ووسط ركامه البغيض الثقيل زاد الطين بلّة والداء علّة إذ عرض بالمصحف العثماني (المصحف) إذ قال: بربط آية البقرة: ﴿اهبطوا مصراً...﴾ بآية المائدة: ﴿أدخلوا الأرض المقدسة...﴾، قال: فنصف الآية في سورة البقرة وتمامها وجوابها في سورة المائدة، وهذا التبعيض في

الآية الواحدة. الظاهر أن منشأه ما وقع في مصحف عثمان الذي سمّوه (!) إمام المصحف، ولم يكن له ربط بترتيب القرآن، فكانت الآية الواحدة مقطّعة في السورتين.!؟! (صفحة ٢٩٧ لتتأكد. والكلام لا يحتاج إلى تعليق، فقد كشف كل مستور للكاتب، وأنه بعد هذا لم يعد له في المسلمين موقع...).

ثم سمّى الشياطين الموجودين في عهد كل نبي...!!

ثم أتى بعجيبة من عجائبه المفجعة أن موسى سأل العجل: يا أيها العجل أكان فيك ربّـــك؟ فنطق العجل: عز ربنا أن يكون العجل حاوياً له. (أي أن العجل عرف ما لم يعرفه موسى... حاشا!! إنما العجل من قال هذا، أقصد من اخترعه).

ثم وجّه سؤالاً: ما تقول الشيعة في علي وموسى؟ (هكذا بالترتيب!). ثم تكلّـــم في قـــارون والبقرة ثم في قصّة الخضر. وفي كل ذلك يأتي بعجائب. وقد استغرقت قصّة موسى عنده أكثر من مئة صفحة أي حوالي خُمس الكتاب.

ثم قصّ قصّة بلعام بن باعوراء، وقصّة إسماعيل وإلياس وذا الكفـــل ولقمـــان، ثم طـــالوت وجالوت، فداود، وأطال في قصّة المرأة وفصّل وتمهّل (٨ صفحات)، ثم سليمان وبالطبع لا بـــد أن يذكر الخاتم!! وكيف أنه مر بشجرة فسألها ما اسمها فقالت: الخروبة فعلم أنه الخراب!!.

ثم باب في قصّة سبأ. ثم باب في قصص زكريا ويحيى عليهما السلام. وباب في قصص عيسى وأمه عليهما السلام. وباب في قصص يونس عليه السلام

وقص علينا قصّة بختنصر!! وأصحاب الكهف، وأصحاب الأخدود، ثم ختم الكتاب بنوادر أخبار بني إسرائيل.

ولم نحب أن ننقل شواهد على (إتحافاته) خشْية الإطالة، ولكنك علمت نمط الروايات ومقدار عراقتها في عالم الخرافة، ولك أن تتصوّر ما اختصرناه على قياس ما ذكرناه.

الكتاب الحادي والثلاثون

حياة يحيى

تأليف: محمود شلبي

ط٢، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

حياة يحيى / محمود شلبي:

هذا الكتاب واحد من سلسلة طويلة من الكتب عن حياة الأنبياء، وقصص القرآن للكاتب محمود شلبي. وهذا الكتاب خصّصه لحياة نبي الله الشهيد: يحيى بن زكريا عليهما السلام. وقد حدثنا القرآن عن يحيى في سطور معدودة لن تصل صفحة بطبيعة الحال، فكيف حوّلها الكاتب الشلبي إلى أحد عشر ومئتي صفحة؟

هذا السر الخطير سنكتشفه في إيجاز هذا الكتاب والتعرف على منهجه. وإن كانت خبرتنا السابقة بالكاتب وكتبه تجعل المهمة سهلة ميسورة.

فخبرتنا أن الكاتب يكرر مرات، ولا نريد أن نحكم الآن قبل أن نقرأ. والكاتب ينقل عن الإسرائيليات، والكاتب ثالثاً يملأ ثلث الصفحة أو أقل كتابة والباقي يمتلئ بالنقاط وعلامات التعجب والاستفهام. والكاتب رابعاً يترك ربع الكتاب إلى ثلثه أوراقاً بيضاء، فهل هذه الرباعية يحتفظ بها الكاتب في كتابه هذا؟ سنرى. والحكم بعد المداولة.

يبتدىء الكاتب كتبه في العادة بإهداء لا يأخذ صفحة واحدة بل اثنتين لأنه لا بد أن يكون قبله صفحة وبعده صفحة. والإهداء "أكليشيه" ثابت: "اللهم منك وإليك". هذه الكلمة أخذت صفحتين. ليس مهماً، وإنما الإهداء موهم أن الكلام طالما هو من الله وإليه، فلا بد أن يكون حقاً، وفي الحقيقة إن قسماً كبيراً من الكلام سيصدم الحقيقة... على ما عوّدنا الشيخ شلبي، وأيضاً...

دعونا لا نستبق الأحداث. فنحكم بعد المعاينة والمشاهدة والمطالعة. وإن كان السماع بالمعيدي خيراً من مطالعة كتبه، كما في المثل العربي.

في المقدمة، وبعد حمد الله، يقول الكاتب: هذا كتاب فريد... (أما أن الكتاب فريد فلا نسلمها للكاتب، ولا ينبغي له أن يحكم على عمله، وليس بالضرورة أن من يكتب عن تجربة فريدة يكون كتابه أو كتابته فريدة، ولا نقشه فريداً. وهنا الخلط المتعمّد والاستغفال المتقصّد، والإيهام المبرمَج. فطالما أن تجربة النبي متفردة فالكتاب الذي يتناولها متفرّد، يا عم شلبي دعنا نحكم نحن لا أنت من فضلك).

نعود والعود شلبي... يقول عمُنا شلبي: هذا كتاب فريد... عن نبي فريد... عن موجة فريدة أشير إليها (الموجة خلّي بالك!) في قوله تعالى: ﴿لم نجعلْ له من قَبلُ سميّاً﴾... ثم تعجب: أي موجة كهذه الموجة! بلبل له صوت فريد (دخل بنا على عالم فريد...)... من بين بلابل الحضرة. (ولا تسل ما بلابل الحضرة فهذا مقام لم تبلغه حتى تسأل ولن تفهمه لو أجابك الشيخ). البحر اليحياوي. (بدأنا من أول

الشوط، وأخذنا الموج) يموج بتلكم الأمواج. ثم ذكر الآية وقطّعها: ﴿وحناناً من لَدُنّا وزكــاةً وكــان تقياً﴾ حناناً لا يتناهى. زكاةً لا تتناهى. تقوى لا تتناهى. كل أولئك كان في يحيى مجموعاً. وغير أولئك من الصفات العلى.

كان فيه متلألئاً. ومن أولئك المتلألئات (هكذا لألأت لك ونقلت لك): ﴿وسلام عليه (كتبها بلا واو) يومَ وُلد ويومَ يموتُ وَيوم يُبعثُ حيّاً﴾ وقطّع الآية على أربعة أسطر ووراء كل كلمة نقاط... وانتهت المقدمة نقلتها لك بالتمام تقريباً. واستغرقت صفحتين.

ثم كلمة في صفحتين: كهيعص... لنبتدئ في الصفحة الحادية عشرة. في بدء الصفحة الحادية عشرة عاود تقطيع كهيعص في خمسة اسطر... ووراء كل حرف النقاط المعهودة. ولو جمعنا النقاط التي يستخدمها الشيخ في كل كتاب من كتبه لكفت عشر مؤلفين عشر سنين...!! نعود للكاتب ليعلّق على الحروف: تلكم الجميلة الجليلة... فاتحة سورة مريم. (عظيم)... إنها بحر موّاج بالأسرار (ومــا أدراك!) زخّار بالأنوار (المهم من يلتقط وكيف يستقبل هذه الأنوار. لا بمرآة مُشوّشة مُهشّمة أو مُشحّمة). فما سرها... وما نورها... (السؤال من العم شلبي). وما هذا الجمال السرمدي في ثنايا ترتيلها... (والقران اعظم مما يقول ولسنا بحاجة إلى مثل هذه التهويمات). كأنما هي صفوف من الملائكة المكــرمين... قــد جاءوا من عليين... يرنمونها أبدع ترنيم... إنها موجات علوية قدسية... تتشعشع إلى الفؤاد (ستتشعشع عليك أنوار المؤلف وشعشعاته حتى ترهق عينيك وتخطف أبصار المشاهدين. فانتظر حتى تــشع أنــوار الشيخ شلبي) فتتفتح أمامه معاريج السماء... فيسمع النداء... هذه بعض آياتي في خلقــي... هلــم فاسمعوا: ﴿ذكرُ رحمة ربِّك عبدَه زكريّا﴾... رحمة ربك تجلت في عبده الذي اسمه زكريا...

ثم تتلألأ جميلة أخرى... فما هي تلكم الجميلة؟! (كل هذا اللألاء والأسئلة والفكر الوضّــاء من الشيخ شلبي أبي ضياء)، وترك سؤاله بلا جواب. ثم ثلاث صفحات من الفراغ إلاّ من كلمة هــي آية: ﴿إذ نادى ربه نداءً خفياً﴾ جعلها كالعنوان. ثم قال في الصفحة الخامسة عشرة: ليس معنى خفيّاً... أي همساً... كلاّ... فالأنبياء فوق هذا المستوى... (طيب هات يا سيدي، قل ما عندك) إنهــم عنــد مستوى... يسمع صريف الأقلام (بالله عليك ده كلام؟). وحتى الآن لم يجبنا علــى معــنى خفيــاً. ثم تداركنا فقال: أي خفيّاً عن السائل نفسه (مفهوم؟!) إن لم تفهم فقد أردف الكاتب النحرير والجهبــذ الكبير في كلام غير فطير، أردف بسؤال جديد ليزيد التشويق ويزيد، حتى تستعد لتلقي الكلام المفيد: فهل يستخفي الإنسان عن نفسه؟ (فعلاً سؤال محيّرنا...!!) فأجاب: نعم (وقطعت جهيزة...) هــؤلاء

هكذا... أي وهو في مقام الفناء (بالفاء) حيث لا يرى سوانا... هناك دعانا... (يا أخانا ما زدتنا شيئاً بل عوّصت علينا وأبعدت الطريق والنجعة).

﴿قال رب إني وهن العظم منّي...﴾ أي تفككك من الكبر (وهن غير تفكـك يـا مولانـا). واشتعل الرأس كله كأنه شعلة واحدة بيضاء (هكذا التفسير يا أهل الفن...!! ويا دافع البلاء).

﴿ولم أكن بدعائك رب شقيّاً...﴾ أشقى بردّ دعائي وعدم إجابتـه... وإنمـا عـوّدتني أن تستجيب دعائي فأسعد مرتين: مرة حين أناديك... ومرة حين تستجيب الدعاء... وانتـهى الـشيخ ليضعنا أمام عنوان جديد: وكانت امرأتي عاقراً...

ثم صفحات فراغ لنبتدئ الآن من الصفحة التاسعة عشرة. وأنا أنقل لك نقلاً حيّاً ومباشراً... دون إسقاط شيء فهل عرفت كيف ينفخ أقصد يملأ الكتاب؟! يبدأ صفحته بالآية... والمشكلة أننا نبدأ بشيء وننتهي بشيء آخر. عسى ألاّ أكون باختيار هذا الكتاب لعرضه عليكم ثقيلاً... الآية التي بدأ بها مبحثه: ﴿وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً...﴾ .

ثم قال الكاتب أو يقول: ما زلت أقول (هو يقول)... وسأظل أقول (ما زال يقول!)... إلى ما شاء الله لي أن أقول (القول له على طول!)... إن الجناية الكبرى (اللهم احفظنا... يا لطيف)... الـتي يرتكبها كثير من الذين يكتبون عن الأنبياء (وأغلب الظن أن مولانا من الكـثير لا مـن القليـل)... نواصل: أنهم يكتبون عنهم... على أنهم وقائع وحوادث... وتواريخ وسير تروى وأحاديث تسرد (فما عندك أنت؟)... يقول الشيخ: فيطفئون بذلك الشمس (لا أنت ولا هم تطفئون شيئاً!)... بما كتبـت أيديهم... فويل لهم مما كتبت أيديهم (وويل لهم مما يكسبون... فاهم يا عم شلبي!)... وإنما الأنبياء... أنوار مكنونة (والشيخ سيكشف المكنون والمضنون على المضمون!)... في بشر(أي الأنوار)... يجب أن تفجر (او ع!) فتتشعشع.. بما لا يحصى من الإشعاعات... (ألم نبشرك بالشعشعة؟ فما كانت إشاعة!).

وإن كانوا لا يريدون أن يفهموا (الكتبة إياهم حاشا للشيخ!) (فلا فهموا)... فليتدبروا قوله في إمامهم... والممثل لهم جميعاً (بالنص): ﴿وسراجاً منيراً...﴾ أي شمساً... أنوارها لا نهايـة لهـا... (فجماع شخصيّة الأنبياء هو هذا. فإذا مسستهم من هنا سطعت لقلبك مراتب من الأنـوار تتـوالى وتتعالى إلى ما لا يتناهى. وإني لأرجو الله أن يكون هذا سبيلي إليهم صلى الله عليهم... الله أعلم!).

وواصل الشيخ ونواصل معه: وإني خفت: طيلة حياتي... وما زلت أخاف... الموالي: الورثة... أولئك الأفاكين... (هذه من عند الشيخ) سدنة البيت الذين أفسدوا كل شيء... من ورائـي: بعـد موتي... عاقراً: في الأزل... (لو كانت كذلك يا عم شلبي لم تحمل!). فأنا أطلب المستحيل... (لا يا عم

شلبي إنما هو يطلب الممكن. فالمستحيل ما لا تتعلق به إرادة الله، وإنما يطلب زكريا أمراً خارقاً لا مستحيلاً. فاعرف هداك الله). ولكن قدرتك تذيب المستحيل... (يواصل عم شلبي الجميل).

﴿يا زكريا إنا نبشرك...﴾ عنوان جديد، والفراغ العتيد، والشرح المفيد، يقول مولانا الشلبي الرشيد: يا زكريا... الله المنادي (عظيم... معنى مهم وكشف جليل!)... وزكريا المنادى (تتمّة الكشف!)... أي شرف وضع على رأسك يا زكريا... (واضح أن المسألة إنشاء انطباعي في تعقيب الشيخ على ما تنفعل به نفسه من الآيات أو يتكلفه)...

إنا: نحن الله... من محض الجود... نبشرك بغلام فريد (مصر على حكاية فريد)... اسمه يحيى: نحن اخترنا له هذا الاسم... ثم يبدو أن الشيخ لم يرق له ما كتب، أو لا أدري ماذا حدث له، إذ قال: هذا في الظاهر... وهو إشارة إلى معنىً باطنٍ بعيدٍ (اللهم احمنا من باطن معاني الشيخ أو باطن من ينقل عنهم من الباطن دون أن يظهر مصادره). هو موجة فريدة (رجع إلى الفرادة والتفرد)... فجعلناه تركيباً فريداً... (هكذا يكرر الشيخ بتفرد لا يحسب عليه)... ليس نسخة مكررة... (ما من أحد نسخة مكررة يا شيخ شلبي، فالله يقول: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه...﴾).

هو بلبل من بلابل الحضرة... انفرد بصوت خاص... ونغم فريد... لم يغرّده أحد قبله... (أخشى أن الشيخ من المستمعين لفريد، فما زال يكرّره ويكرّر النغمة والبلبل حتى ظننا أنه يعنيه).

ثم الفراغ المعهود... ثم عنوان جديد... فنادته الملائكة... ويكتشف الشيخ (الكشاف!) أن لا تناقض بين آية مريم وآية آل عمران في بشارة زكريا فمرّةً المبشّر رأساً هو الله... ومرّةً يتكلم عن حملة البشرى وهم الملائكة... واستمتع بالنص الكريم التالي من الكاتب الكريم أيها القارئ الكريم، يقول الشيخ الكريم: فما أكرمها بشرى من رب كريم... يحملها ملائكة مكرمون... إلى نبي كريم... في حال كريم... وهو قائم يصلّي في المحراب... (أرأيت إلى السجع الكريم كم هو عزيز وكريم؟!).

طلب وليّاً فأعطاه "غلاماً" ﴿لم نجعل له من قبل سميّاً...﴾ . ثم زاده: ﴿مصدقاً بكلمة من الله...﴾ مبشراً بظهور المسيح... ثم زاده: ﴿وسيداً...﴾ . ثم زاده: ﴿وحصوراً...﴾ عازفاً عن الدنيا... ثم زاده: ﴿ونبياً...﴾ . طلب زكريا ولياً فأعطاه نبياً. وشتّان بين النبي والولي، فالنبوة تطوي في مطاويها الولاية، والنبي يخرج من موجته ألوف الأولياء. وتلك إحدى عجائب الأنبياء.

ثم واصل: ثم زاده: ﴿من الصالحين...﴾ من قمة قمم الصالحين... من أعلى أعالي الصالحين... ثم زاده: ﴿وحناناً من لدنّا...﴾ هو مجلى الاسم الحنّان... ثم زاده: ﴿وزكاةً...﴾ ورقيّاً... وسموّاً شامخاً... ﴿وكان تقيّاً...﴾ فهو مجلى الجلال... ثم زاده: ﴿وبرّاً بوالديه...﴾ بأمه اليصابات أو اليزابيث

(ارحمنا يا مولانا!!) وأبيه زكريا... ثم زاده (زوّدْها يا عم الشيخ!). ﴿ولم يكن جباراً...﴾ : دكتاتوراً (لا تنزعج من المصطلحات، فهذا من التحديث والتطوير...!!).

ثم ثلاث صفحات فارغة ثم عنون: هنالك... دعا زكريا... ربه... (قال فيه الشلبي كلاماً ملآناً) فقال: زكريا... ليس أمراً هيّناً (يا سلام يا جدعان!)... وإنما هو نبي عظيم... وذكره الكتاب... (القرآن يعني) ثماني مرات... تنويهاً بشأنه وتسجيلاً لفضله... ﴿وكفّلها زكريا...﴾ قام بتربية مريم... فأنبتها أحسن نبات... فاختيار زكريا من دون أحبار بيت المقدس... لأنه أحسنهم عند الله... وقرعة الأقلام تدبير إلهي...

﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب...﴾ مشاهد الجمال تتوالى... قال الشيخ الشلبي. كل مرة يدخل المحراب يفاجأ بعجائب الإكرام... وإكرام الكريم لعباده المكرمين فوق إدراك العقول... وهل الرزق ظاهر أم باطن؟ دنيوي أو أخروي؟ مادي أو روحي؟ كلا ثم كلا... (هكذا قال الشيخ). لا سبيل لنا إلى علمه... إنه شيء يكرم به الكريم من اصطفاها... زكريا لا ينقضي عجبه... ومريم ترقّى وتتلقّى... ثم تترقّى وتتلقّى (ونحن مع الشيخ نترقّى ثم من علمه نتلقّى ما نتلقّى!!)... من أين ومتى وكيف؟ (يسأل ويجيب!) ولكن لا أين ولا متى ولا كيف حيث لا أين ولا متى ولا كيف (يردّد ويكرّر وهذا صدى صوته)... فاطمعه ما رأى طمعاً عظيماً... أن يطلب من الله طلباً مستحيلاً (المستحيل لا يطلب!)... حيث لا استحالة بالنسبة إلى الله... (إذاً ليس مستحيلاً يا شيخ!!) وإنما الاستحالة بالنسبة إلى عقولنا الضعيفة. (ما أجمل الاعتراف بالحق والإقرار به والتصريح).

﴿هنالك دعا زكريا ربّه...﴾ هذه الكلمات التي تموّجت من قلب زكريا تحولت إلى موجات عند الله... (يقول الشيخ ولا ندري كيف عرف كيف تحوّلت الكلمات إلى موجات؟!). وهذه الموجات (الشيخ يقول على الموجة القصيرة!) وهذه الموجات هي التي تخلّق منها يحيى (كيف يا شيخ وإلاّ... لا كيف؟)... هي التي تكوّنت منها صفات يحيى العليا...

ونية الأبوين تؤثر في صفات الجنين (فكيف تكوّن ابن نوح؟ وكيف تكوّن ابن آزر؟)... والخلق أسرار.. وختم الشيخ مبحثه.. وأطفأ الأنوار... وأسدل الستار... ثم الفراغ المعهود باستمرار..

ثم عنوان: ﴿أنى يكون لي غلام...﴾ قال فيه: التعبير القرآني يستحيل الإتيان بمثله (مفروغ من هذا!). ﴿أنّى يكون لي غلام...﴾ فيها إعجاز الإعجاز (ما المعنى؟!)... متى قالها زكريا؟ ثم أجاب: إن مفاجأة المعجزة... أحدثت صدمة... دكّت العقل دكّاً (عقل الشيخ طبعاً لا عقل زكريا... فاعقل!)... فجعل عقل زكريا يردّد: ﴿أنىّ يكون لي غلام...﴾ ؟ ثم جعل يضع الحيثيات: ﴿وكانت امرأتي عاقراً وقد

بلغت من الكبر عتيًا...﴾ العقل يقول: رجل في المئة والعشرين من عمره (الإسرائيليات تقول هـذا، العقل لم يقل شيئاً. خاصّة في حالة غياب العقل كما عند...) وامرأته فوق التسعين (بكم يـا مولانـا؟ التحديد مطلوب!)... هذا هو العقل وما يقول... ولكن الله يقول: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمـه يحي...﴾ هناك تخلخل العقل... ثم تبدّد... ثم تلاشى (كيف سنفهم يـا عمنـا الـشيخ إذا العقـل تلاشى؟!)... وهذا ما حصل من مريم حين فوجئت بالمعجزة... فجعلت يتلاشى عقلها... ويتلاشى وهو يردّد ويردّد (التكرار والترديد من الشيخ... وعقل مريم حاشا أن يتلاشى!). إنها تحتج بأنها لم يمسسها بشر... في الحلال... ولم تك بغيًا... ليمسها بشر في الحرام (ومعـنى لطيـف مـن الـشيخ عبـد اللطيف!!)... ثم عاد لموضوع الاستحالة... فقال: استحالة أمام عقل زكريا... واستحالة أمام عقـل مريم... (لا نعيد القول بأن لا استحالة ولا غيره، المسألة أن هؤلاء على يقين من قدرة رب العالمين).

ثم في ثنايا استفاضته في الاستطراد قال: ولولا أن تتخلخل عقول الناس.. لأريناهم ما لا يحصى من أساليب قدرتنا.. فبدلاً من اتخاذ خلق عيسى آية.. قال كثير منهم إن الله هو المسيح ابن مريم.

وعاد إلى زكريا ومريم ليفيدنا بأنهما يعلمان قدرة الله، ولكن يستفهمان عن الكيفية... وإنمـا هو الغيب المحجوب عنهما... وتحولت البشرى إلى حمل... فحملت اليصابات بيحيى... وحملت مـريم بعيسى... معجزتان تحدثان في وقت واحد... (لا أعلم مصدراً يثبت أنهما في وقت واحد! أمـا أنهمـا متعاصران فمؤكد).

ثم مبحث جديد: ﴿اجعل لي آية...﴾ قال فيه: هذا اللسان الذي تجادلنا به... لنعتقلنه... فلا يستطيع الكلام... ليتفرغ باطنك لنا... وذكر الآيات. (وحكاية تفرغ الباطن هذه... لا دليل ظـاهراً عليه. وإنما المسألة أن بني إسرائيل لا يجاذلون -بفتح الدال- فلا تكلمهم).

ونعود للشيخ قال: لا تستطيع الكلام إطلاقاً... ثلاث ليال بأيامهن... سوف نحبس لسانك... (أعتقد أن المسألة ضبط ذاتي والتزام الأمر الربّاني لا حبس لسان).

ثم مبحث جديد: ﴿فخرج على قومه من المحراب...﴾ ... ونحن قد تجاوزنا الصفحة الخمسين من الكتاب. ذكر في هذا ما أشار إليه سابقاً من تطابق المعجزتين بين زكريا ويحيى ومريم وعيسى وحبس اللسان، ثم قال: هذه المشاهد الجميلة الجليلة (الشيخ يكثر من هذين الوصفين جميلة وجليلة)... سجّلها القرآن... ثم نقل عن إنجيل لوقا حكاية اليصابات (وشتّان بين قصة وقصة!) ولكن الشيخ يحشر الكلام حشراً إذ يقول: "كانت اليصابات عاقراً" (كما في الإنجيل) ثم يقول عن هذه المقولة: إنها تدخل تحـت إشعاع قوله تعالى: ﴿وكانت امرأتي عاقراً...﴾ يقول: ونتأمّل: "وكانا كلاهما متقدمين في أيامهمـا"

فنجدها تدخل تحت مظلة: ﴿وقد بلغت من الكبر عتيّاً...﴾ . (ولا أدري وجهاً لإدخال نص الإنجيل تحت المظلة القرآنية).

ثم يقول إنجيل لوقا: "فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر". (ونحمد الله أن الشيخ لم يبحث عن مظلة قرآنية لهذا القول أيضاً فهو غير قابل "للاحتواء"!).

وواصل الإنجيل: "فظهر ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور... الخ" (!!) ويمشي الكاتب في عرض الموافقات، فيقول: يقول القرآن: ﴿وآتيناه الحكم صبيّاً...﴾ ويقول الإنجيل: "من بطن أمه يمتلئ من الروح القدس"... ويقول القرآن: ﴿وكان تقيّاً...﴾ ويقول الإنجيل: "وخمراً ومسكراً لا يشرب"... ويقول القرآن: ﴿رب اجعل لي آية...﴾ ويقول الإنجيل: "كيف أعلم هذا؟"... وفي القرآن: ﴿آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام...﴾ وفي الإنجيل: "ها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا"...

ثم يتكلم عن التعبير القرآني فيصفه بأنه: "من بدائع روائع جوامع موانع الكلم"... (أرأيت التعبير الناصع الساطع اللامع الرائع المانع الماتع من الشيخ شلبي في كتابه الإمام الجامع...!!)

ثم عنوان: ﴿وآتيناه الحكم صبيّاً...﴾ يبتدئ بنقل عن الإنجيل لا أدري له محلاً، فهو يتعلق بمريم، قال: "وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف. واسم العذراء مريم...الخ". وقارن بالقرآن كما صنع من قبل. ثم يقول الشيخ شلبي: ثم يقول الإنجيل: "وأما اليصابات فتم زمانها لتلد، فولدت. وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا. فأجابت أمه وقالت: لا بل يسمى يوحنا. ثم أومأوا إلى أبيه ماذا يريد أن يُسمّى فطلب لوحاً وكتب: اسمه يوحنا. فتعجب الجميع. وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم (من؟) فوقع خوف على كل جيرانهم. وتحدث بهذه الأمور جميعها. فأودعها جميع السامعين في قلوبهم... وامتلأ زكريا أبوّةً من الروح القدس وتنبأ" (بالله هذه صياغة كلام الله؟).

ثم يقول الإنجيل: "أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح (!!) وكان في البراري إلى يوم ظهوره (!) وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر، إذ كان بيلاطس النبطي والياً، وهيرودس رئيس ربع على الجليل (هل الله يتكلم عن رؤساء البلديات وجباة الضرائب...؟! يا عقلاء العالم أو مهابيله...!؟) وفيلبس أخوه رئيس ربع على ايطورية وكورة تراخونيتس، وليسانيوس رئيس ربع على الابلية" (هكذا بهذا التفصيل عن الموظفين... يشرح الإنجيل!!).

ويتابع الشيخ الجليل النقل عن الإنجيل، (ونحن نحمد الله على العطاء الجزيل المتمثل في هذا القصص القرآني العظيم الذي أغنانا عن القال والقيل ونقل التفاصيل. وظهر هذا النص الأصيل من المصنوع الدخيل... وليحكم من كان عنده ذوق أو نظر أو أدنى مراتب التأمل والميز بين الحق والأباطيل). نواصل مع الشيخ والإنجيل: "في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا في البرية (يعني إيه؟) فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعبودية (لعلها بمعمودية) التوبة لمغفرة الخطايا"...

ثم استدرك الشيخ وأدرك أنه أطال فقال: طال ما ننقل عن الإنجيل (طال... طال...) لنضع أمام القارئ آفاقاً فسيحة في معنى قوله تعالى: ﴿وآتيناه الحكم صبياً...﴾ فانظر إعجاز القرآن (الطريق طويل يا مولانا... على كل حال لم نخسر!)

ثم عنوان: اسمه يحيى... (وما عاد بنا حاجه إلى التنبيه على الفراغات المتعمدة). ابتدأه بقوله: اليزابيث تحيا بيحيى وعلامة حياتها يحيى... (أرأيت البلاغة؟!). ثم أعاد ما سبق أن قاله، على طريقة الشيخ في التكرار ثم تكرار التكرار... وهكذا... يتكلم عن آية زكريا بألاّ يكلم الناس... ويسأل لماذا هذا؟ ويجيب: لرفع مستوى زكريا رفعاً عظيماً... لأن هناك تجربة عظيمة... تحتم رفعه إلى مستواها... وما التجربة؟ (ونحن لا بد أن نرتفع لنصل إلى مستوى تجربة قراءة كتب الشيخ الشلبي...!!) المهم أن التجربة هي كينونة طفل... من شيخ تجاوز المئة... وعجوز قاربت المئة... وأعاد حكاية تفكك العظام، (والوهن غير التفكك، لمن كان عقله غير متفكك).

ثم أعاد حكاية يُمنع من الكلام لتعطيل الطاقات الظاهرة، وتوجيه الطاقات الباطنة "كلها فوراً إلينا" (تعبير شيخنا الشلبي)... لترتفع موجات زكريا الروحية... ولماذا ترتفع الموجات؟... لأنه من هذه الموجات سوف يرث الطفل جميع الصفات.. (ومر بنا هذا قبل موجات أقصد قبل صفحات...).

وأعاد: هناك شيخ غادر المئة وزوجة قاربت المئة (أعادها مئة مرة!) وعاد الشباب إلى اليصابات أو اليزابيث (جيد أنه لم يتصرف بالاسم أكثر من مثل ليزا وليز)... أعدناها إلى الشباب فصارت صالحة للإنجاب... (ليت العقول العقيم أو العظيمة أقصد العقيمة يمكن أن يصلح شأنها بنفس الطريقة إذاً لأرشدنا الشيخ إلى...).

ثم عاد الموج ليرتفع مع الشيخ ويرفع ضغطنا مع رفع وتيرة تكراراته فقال: ارتفعت أمواج زكريا... وارتفعت أمواج اليصابات... هنالك التقى الزوج بزوجته... هنالك وقع الحمل بيحيى... فجاء على صفات أبيه... وصفات أمه... زكريا وزوجه أحياهما الله مرتين... مرة حياتهما الطبيعية...

ومرة بيحيى... إن أعظم النعم أن يتحقق لك المستحيل... (مستحيل الشيخ أن يسمع الكلام! قلنا له منة مرة المستحيل لا يقع ولا يتحقق، وإنما الممكن هو الذي يقع). (قال محمد عبده: وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود، فإن العدم من لوازم ماهيته، فهو ليس بموجود قطعاً، ولا حتى في الذهن"[١]).

اسمه يحيى... سوف تذوقان الحياة بيحيى... سوف تمتد حياتكما بيحيى... فإذا جاء يحيى فسوف يحيا... ليحيي الموتى... فكان يحيى حياة لوالديه... وكان يحيى حياة للناس... إن من كان اسمه يحيى فالفعل يحيا أي استمراره حيا... فكيف؟ بأن يكون شهيداً... إذاً فليستشهد يحيى... ليحيا... قتل يحيى ليحيا... يحيى... (تكرار في تكرار). ((ستار))

ثم عنوان جديد، وكل عناوينه مشتقة من أجزاء آيات أو آيات كاملة: ﴿لم نجعل له من قبل سميّاً...﴾ . يبتدئ مبحثه هذا بنداء يطلقه الشيخ يرفع به صوته على أعلى ما يستطيع التصويت: يا أيها الخلق... تعالوا واسمعوا... هناك سر خطير... خطير... خطير... فقوموا جميعاً لتسمعوا (هل سمعتم الشيخ يناديكم؟! هل لبيتم؟!... والآن لا تسألوا عن السر الخطير مع التكرير، فقد تعوّدنا على الشيخ أنه لا سر ولا خطير ولا استخراج المعاني من حقل أو بير... وإنما هو التهويش وملء الصفحات والمبالغة وما ثم ما يحتاج إلى رفع العقيرة ولا الصراخ ولا...). ثم سرعان ما كشف الشيخ السر غير الخطير فقال: إن كلمة حناناً لم ترد في كتاب الله إلاّ مرة واحدة في قصة يحيى...

ثم قال الشيخ الكبير: هذا هو السر الخطير... (بالله هل هذا مستوى مقبول أو معقول في التعامل مع عقول القراء؟ وهل الاستخفاف أو الخفة وصلت إلى هذا المنحدر؟!).

ثم واصل الشيخ واعترض على (حاله) بالنيابة عنا فقال: وكأنكم تقولون (بالنيابة عنا هو يقول): هذا غير صحيح... فما من نبي إلاّ وآتاه الله حناناً... وأقول (هو): لا تعجلوا... فإليكم القضية... غضّة طرية (أي القضية!).

ثم أبعد بنا وطار وحلّق، وصفّق بجناحيه... وأطلق... فقال وقد تحقق وتوثق: الأنبياء... مرايا... تنعكس عليها صفات ربهم... (!!). ثم فسّر المفسر: أي مجالي... تتجلى عليها... أسماء الله الحسنى... ولكن هذا التجلي يقع بتفاوت... ثم طوّف بعيداً فتكلّم عن كليم الله وخليل الله... ثم أعاد فقال: فالأنبياء يشتركون في كونهم مجالي للأسماء... ثم يتفاوتون بعد ذلك في نسب التجلي... (حكاية

---

١ - الأعمال الكاملة لمحمد عبده: ج٣، ص٣٦٧.

مجالي للأسماء... المعنى في بطن الشيخ، فلا نستطيع أن نحاكمه قبل أن نستخرجه من بطنه!). فإذاً تقررت تلك القضيّة (الغضّة الطريّة!).

انتقلنا إلى يحيى فوجدنا أمراً عجيبا... وجدنا أن الله يقول: ﴿وحناناً من لدنا...﴾ ثم أعاد نسب التجلي... وقال بعد التكرار: فكان يحيى مظهراً أكبر لظهور صفة الحنان... فيمكن أن يقال إن الصفة الغالبة على صفات يحيى... هي صفة الحنان... (ولا يزال الشيخ يطحن ويعجن...). يحيى أوتي نسبة أكبر... فكانت فيه أظهر...

ثم كرر وكرر وتكرر فقال: ومن هنا انفرد يحيى بقوله تعالى: ﴿وحناناً...﴾ (فهمنا والله!). وكنت أحاول الانفلات من جاذبية كلمات الشيخ حتى لا أكرّر عليكم بما يملّكم، ولكني لم أستطع الانطلاق ولا الانعتاق ولا الانفلات فأحببت أن أُتحفكم بحنان من كلام الشيخ وحفنة من تكراراته سوى ما تكرّر فتحمّلوا... وتحمّلوا... وتحمّلوا: إبهام الحنان... إشارة إلى أنه حنان وراء العقول... من لدنا رأساً... باسمنا الحنّان نتجلى على عبدنا يحيى ليكون آية منفردة... ومتى تجلّى الحنّان على يحيى امتلأ يحيى بالحنان... فأفاض عليه من حنانه... حناناً يموج إليه موجاً... وحنانه يموج إليكم موجاً... فلما انفرد يحيى بـ "حناناً" أي كان الحنان الصفة الغالبة لم نجعل له من يشترك معه في صفة الحنان...

إذاً (يواصل الشيخ ولا يمل): لا مثل له من قبله في ظهور صفة الحنان فيه... لا أحد يماثله في غلبة صفة الحنان... ليس له سمياً (الصواب سميّ) في صفة الحنان... سوف نختصه بتجلّي صفة الحنان... فهو يتكلّم حناناً... ويعمل حناناً... ويدعو حناناً... ويتحرّك حناناً... ويبشّر الناس حناناً... وكذلك استبان السبيل... (الحمد لله أن رزقنا الله الشيخ حتى يجلّي السبيل لنا بعد غيم...!! سبيل سر ورود كلمة حناناً مرّةً واحدة... هل اقتنعتم بعد هذا العجن أقصد الجهد العلمي الممل الثقيل الطويل أن السر خطير!! إشارة إلى انفراد يحيى بظهور صفة الحنان فيه... وكونها الصفة الغالبة).

فلما انفرد بها يحيى كان هو الوحيد الذي نسب إليها. فلما انفرد بتجلّي صفة الحنان... لم نجعل له من قبل سمياً... لم نجعل له من قبل شبيهاً يماثله في ظهور صفة الحنان! (التعجب من الشيخ، يتعجب من حاله وصبره على نفسه).

وأقول بعد هذا: أليس الكتاب الإسلامي في أزمة؟ أليس الكاتب الإسلامي في مشكلة؟ أليس الفكر الإسلامي في ورطة؟ وأنا أزعم أن هذا الكتاب قد طبع بعد طبعتنا هذه عدّة طبعات، دلالة على أن الأزمة موجودة في القارئ والكاتب.

لقد صرف الكاتب أربع صفحات وثلاثاً قبلها وثلاثاً بعدها من الفراغ ليقول كلمة واحدة: يحيى تميّز بالحنان.

ثم عنوان: المسيح يصف يحيى... وعلى نفس النهج من التهويل والتكرير والألفاظ الفخيمة الجوفاء من المعاني يواصل الشيخ كتابته أو إنشاءه، ويمكن أن نلخّص ما قاله كما صنعنا من قبل في جملة واحدة. لكن نعرض عليك كنوزه أولاً: ثلاثة أوصاف تتطابق تمام التطابق في وصف يحيى عليه السلام... أحدهما من الله والثاني من المسيح... والثالث من أحد الصحابة (!!) أما الذي من الله: ﴿اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً...﴾ . وأما الذي من المسيح: "أنبياً؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبي (وما أفضل من نبي يا شيخ شلبي؟!). الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان". (وهذا الذي تنقله ليس للمسيح أن يقوله! فهذا حكم الله وهو أعلم بالخلق!). وأما الذي من الصحابة فهو ما قاله ابن عباس في البخاري: "سمياً: مثلاً".

ثم طفق الشيخ يعلّق ويحلّق ويصفّق ويطير فرحاً بما أنجز وحقق فقال: ما هذا التطابق العجيب؟ (الحقيقة أنه لا تطابق!) ثم قال: معناه خطير... خطير... (وكاد الشيخ من الفرحة بالكشف يطير...). وقال: يكشف أمراً على غاية من الخطورة (لم تكف الشيخ تكرارات خطير حتى أعادها من جديد!) ثم قال: أمراً حارَ (بالحاء) فيه الأقدمون والمحْدثون... (بتسكين الحاء) حتى قال العيني في عمدة القاري شرح البخاري، قال: "فإن قلت: ما وجه المدحة باسم لم يسم أحد من قبله ونرى كثيراً من الأسماء لم يسبق إليها؟ قلت: لأن الله تولّى تسميته، ولم يكل ذلك إلى أبويه، فسماه باسم لم يسبق إليه".

ثم قال الشيخ شلبي يعلّق على العيني (يا عيني!): وهذا الجواب من الإمام العظيم... يدل على الحَيرة (بفتح الحاء) في فهم الإشارة المكنونة في قوله: ﴿لم نجعل له من قبل سمياً...﴾.

ويكفي في الرد على الإمام الكبير... أن يقول القائل: إن الله تولّى تسمية المسيح ومع هذا لم يقل: لم نجعل له من قبل سمياً...

إذاً. قال الشيخ شلبي: هناك سر عميق... وهذا السر يكشفه لنا... التطابق العجيب... ثم يدلنا الشيخ العجيب على الجواب المصيب فقال: وكان الجواب... من عالم الإشارة... لا من عالم العبارة... وجه المدح أن يحيى موجة منفردة... (ونحن ما صدقنا أن نخرج من تكراراتك السابقة لتعيدنا إليها، ولن نعود، فقد أعاد حناناً. فهذا المبحث إذاً ملخصه كسابقه كلمة واحدة: تميّز يحيى بالحنان... وفيمَ اللف والدوران؟!).

ثم عنوان جديد: قتل زكريا... وهو خارج الموضوع... لكن نلخصه كذلك ونعلق عليه... الكلمة الأولى التي افتتح بها الكاتب المبحث وبخط أسود وبنط عريض وعنوان منفصل: أعظم المصائب... وفي السطر التالي أكمل فقال: أن تكون السلطة في أيدي الأوباش... ثم شرح الأوباش: وأنهم الأراذل الذين يرتفعون إلى كراسي الحكم وأولى بهم أن يكونوا في صناديق القمامة! وهؤلاء حين يتسلطون فويل للناس مما سوف يكون!.

ثم قال: سوف نرى في هذا الفصل... كيف قُتل نبي عظيم... لمجرد وهم قام برأس أفاك أثيم... (هو يظن أنه يعرض علينا قصصاً قرآنياً، وهو في تسعة أعشار ما يعرض قصص إسرائيلي!).

(قال ياما قال): كان هناك عتل اسمه هيرودس... توهم الخطر من مولد طفل سيكون ملكاً... (رؤيا أو أحلام سمّها ما تشاء متكررة في عديد من القصص، والقرآن وقصصه لا علاقة له بكل هذا، فهي تتردد في قصة موسى، وقصّة إبراهيم من قبل، وقصة زكريا وقصة عيسى...). ونخلص إلى المفيد من الشيخ الشلبي المفيد: أمر هذا الحاكم بعبقريته الإجرامية بقتل كل طفل حتى سن السنتين (لم أفهم حتى!)... وكان أمر يحيى قد شاع وذاع... فأمر بقتله... ففرت به اليصابات (لم تنسوا اليزابيث بعد)... فجاء الزبانية يسألون زكريا أين ابنه؟ فقال لا أدري أين ذهب (ابن السنتين لا يذهب!)... فقتل زكريا بين الهيكل والمذبح... هكذا فعل هيرودس... وهكذا ألف الشيخ شلبي قصة لا علاقة لها بقصص القرآن. ثم أعاد حكاية الأوباش...

ثم أعاد ما قاله في قتل زكريا، لكن يبدو أنه ينقل عن الإنجيل بخط أسود ثقيل ويروي التفاصيل، ويقول في إشارة إلى بدء مسرحيته المؤلفة أو قصته المنسوجة التي لا علاقة لها كما قلنا بقصص الكتاب الكريم قال: وإليك تفاصيل القصة الدامية الرهيبة... قصة مصرع زكريا... ولكنه حولها هذه المرة إلى بحث عن عيسى وليس يحيى... وكيف أخذ يوسف (!!) عيسى إلى مصر... ثم قال الكاتب الفذ: الأحداث تتحدث عن المسيح... وكما أُخذ المسيح ليلاً إلى مصر (كان الوصول إلى مصر يتم في ساعة!)... فإن اليصابات فرت بيحيى... مولودان عظيمان...

ثم كرر وأعاد حكاية العتل والقتل والإجرام، وأعاد حكاية الأوباش والسلطة... فالتكرار يزيد الأنوار ويعلم الصغار والكبار و...!!

وعاد لتفصيل التحقيق مع زكريا وهو لا يعترف ولا يكذب لأنه لا يعرف أين (يا سلام!)... وأعاد مكان القتل بين الهيكل والمذبح (إلى أيهما كان أقرب؟!)... ثم انفعل الشيخ شلبي، فصار يكرر وهو لا يدري ما يقول مما أصابه من الذهول، استمع له يقول: اقتلوا زكريا... فقتل زكريا بين الهيكل

(هذه عاشر مرة!)... قُتل زكريا النبي... (كل جملة في سطر ليس كما تقرأ الآن!)... قُتل زكريا الشيخ الذي تجاوز المئة... قتل زكريا في المحراب... قُتل زكريا في المحراب (لا غلط في الطباعة!)... وترشش دمه الزكي... جريمة... وأي جريمة أكبر من قتل الأنبياء... جريمة وأي جريمة أعظم من قتل نبي... في المحراب يُقتل زكريا (نسي بين الهيكل والمحراب!)... ليتهم إذ قتلوه... قتلوه في بيته... ولكن في المحراب بين الهيكل والمذبح (لم ينس الشيخ!).

ثم نقل نقلاً مطولاً عن المسيح في ذم الحيات أولاد الأفاعي (يهود) قال: "لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل الصدّيق إلى دم زكريا ابن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين".

ثم أعاد للمرة المئة قتل الأطفال... وأن زكريا لم يرشد إلى مكان الطفل...

ثم عنوان جديد: يتيم في الصحراء... بدأ مبحثه هذا بالآية: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر...﴾.

ثم قال تعقيباً: آية محكمة... إذا ألقيت في بحارها السموات والأرض... لابتلعتها كأنها ذرة واحدة... إنها ناموس جامع مانع... ثم طفق يفصل ويطيل القول ليصل إلى تعليق على قصة إعدام زكريا ونشأة يحيى يتيماً وهو ما لا دليل عليه ولا علاقة للقصة القرآنية به، وليقول إنه الترتيب أن ينشأ يحيى في البراري، ترتيب ظاهره العذاب وباطنه الرحمة والحنان...

ثم عرّج استطراداً إلى قصة موسى... ثم عاد إلى اليصابات وفرارها إلى الجبال، وأعاد بلا ملل ولا كلل قول عيسى في يحيى... هذا على افتراض بل اعتقاد عند الشيخ أنه قول ثابت صحيح! ثم وصف يحيى بأنه: روح ملائكية علوية قدسية في جسم بشر... ولو قد ظهر المسيح من غير أن يتقدمه زهد يحيى لشق على النفوس...

ونقل عن الإنجيل في وصف يحيى: "الذي يهيئ الطريق قدامك". إنها عملية تدرج بالمجتمع من ظلمات المادة إلى نور الروح... ﴿وروح منه...﴾. فالمطلوب أن يكون يحيى ملاكاً... ﴿وحناناً من لدنا وزكاة...﴾.

ثم ينقل عن الإنجيل لباس يحيى وأكله، وقد أعاده أكثر من... يقول: "كان يوحنا يلبس وبر الإبل ومنطقة من جلد على حقويه، ويأكل جراداً وعسلاً برياً وأوراق الشجر". قال ابن الأثير: قال له الصبيان يوماً (في البراري والصحاري أم في المدن يا مولانا؟!) هيا بنا نلعب، فقال: ما للعب خُلقت. ومر به إبليس ومعه رغيف شعير فقال: تزعم أنك زاهد وقد ادخرت رغيف شعير؟ فقال: يا ملعون هو

القوت... وكررها الشيخ. وقال ابن الأثير: نُبِّئ صغيراً. (ومن أين جاءت هذه المعلومة لابن الأثير أو ابن كثير أو غير ذلك؟).

ونقل عنه أنه بكى حتى أكلت الدموع لحم خدّيه وبدت أضراسه للناظرين... (هذا التهويل وهذه المبالغة وهذا التشويه للنبي لمَ ينقله الشيخ؟). ثم أجابنا الشيخ على سؤالنا فكأنما سمعه قال: أقاصيص رواها ابن الأثير في كتابه الخالد "الكامل في التاريخ"... لا نصدق... ولا نكذب (عظيم يا شيخنا الخالد. أنت صدّقت أعجب من هذا!)... وكتاب الله رسم الخطوط العامة (التي لم تلتزمها يا سيدنا!) من شخصية يحيى...

ثم عنوان جديد: ﴿يا يحيى خذ...﴾. (ولم يكملها الشيخ طلباً للاختصار وهو الذي يجعل الحبة قبة طلباً لعدم الاختصار!). والكلمة الأولى من مبحثه: لست أدري... ثم أردف: لماذا أحب يحيى؟ (بالله هذا سؤال؟!). ثم استدرك: فرض على كل مؤمن أن يحب الأنبياء جميعاً... ولكن يحيى شغفني حباً... ثم قال: والذي يميل إليه قلبي (المسألة ميل قلبي!): أن يحيى نُبئ صغيراً (ما العلاقة؟ لا نفهم!). ثم قاس على قول عيسى في المهد: ﴿وجعلني نبياً...﴾. فلا تعجبوا (يقول الشيخ شلبي لكم)... لقد أعطانا الله مثالاً جميلاً في عيسى... فلا غرابة أن ينبأ يحيى صغيراً: ﴿وآتيناه الحكم صبياً...﴾ أي النبوة... (وأقول يا شيخ إنها العقل والحكمة قبل النبوة!).

ثم ختم الفصل بالقول الفصل: اعلم أن أحوال الأنبياء لا تقاس بالعقول وإنما تفهم بالتسليم... فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى... (طبعاً لمن لم يدرك -سامحونا- الشيخ يقصد بنعليك عقلك الذي في رأسك. لا نعلك الذي في رجلك. فافهم وُقيت من زخّات علم الشيخ!).

ثم عنوان جديد: شخصية يحيى... يبتدئ مبحثه بعنوان: فتح جديد... في هذا الباب... (ليس فصلاً وإنما باب) من هذا الكتاب... منّ به المنّان الوهاب (سنرى يا مولانا ونحكم نحن!)... هذا الفتح... (يقول الشيخ أبو الفتح: خلاصته استخلاص شخصية يحيى من منبعين: دعاء زكريا، واستجابة الدعاء... ويقول باب جديد... طريف غاية الطرافة في تحليل الشخصية. ويزيده جمالاً أنه مسجل في كتاب الله...).

والآن ندخل (مع الشيخ) إلى المنبع الأول... وهو الخطوط العريضة من شخصية يحيى كما حددها دعاء زكريا:

١- ﴿وإني خفت الموالي من ورائي...﴾ والطرافة التي استطرفها واستظرفها واستكشفها الشيخ وسجلها في براءات الاختراع: زكريا يخاف الورثة من رجال الكهنوت لأنهم غير أمناء... فهو يريد غلاماً أميناً... هذا عنصر... (يا سلام عنصر مشع!).

٢- ﴿فهب لي من لدنك ولياً...﴾.

٣- ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب...﴾ يرث النبوة... والصفات العليا... ويرث التراث الذي تركه الأنبياء من قبلي: يوسف... موسى... هارون... داود... سليمان... أيوب... يونس... أي شخصية جامعة... (ومن قال إن أيوب ويونس في السلسلة؟!).

٤- ﴿واجعله رب رضياً...﴾ وكرر الشيخ الصفات... (فهل من مفاجأة في قولنا: كرر؟!).

وأعاد إنه يلبس من وبر الإبل... الخ. ثم سأل: فهل جاء يحيى طبق الأصل مما دعا زكريا؟ نعم بنص القرآن... (عظيم... وكشف خطير!!).

وأعاد حكاية وراثة الصفات عن زكريا واليصابات وأعاد آيات سورة مريم: ﴿وسيداً وحصوراً...﴾ ... الخ. وجعلها كل كلمة صفة "فطلعت" معه سبعة عشر عنصراً من عناصر شخصية يحيى... واسمع مثلاً:

١٦- ﴿ويوم يموت...﴾ (هكذا): وسلام عليه يوم يموت... سوف يموت في مرتبة... ودرجة... وموجة السلام... (وانتهى الكلام!).

١٧- ﴿ويوم يبعث حياً...﴾ هنالك سيكون يحيى... في الأنبياء ضمن موجهم... موج السلام... استجاب الله لزكريا... ثم تجلى بمنّه... فزاده... سألتنا غلاماً... حسب تصورك... ولكن دعنا نحن نصوره أحسن تصوير... وليس مثل تصويرنا تصوير... إنا قادرون... ليس فقط أن نهبك غلاماً... ولكن... لم نجعل له من قبل سمياً... (وانتهى المبحث! وقد سبق أن سجّلت كما قلنا براءة الاكتشاف حتى لا يدّعيها مدّع...!).

ثم مبحث جديد: ﴿من لدنك...﴾ من لدنا... (إنشاء من جديد في كلام قيل وكرر... ثم قيل ثم كرر... إلى ما لا نهاية... وكل العجن والدندنة من حول الكلمة الكريمة: ﴿من لدنك...﴾ وحاشا لجلال كلمات الله. ولكنا نعترض على الطريقة المفتعلة والمط المصطنع...)

جاء يحيى تحققاً للعناصر (حتى تصدق أن لا جديد)... ما طلب زكريا... وزيادة... (فهمنا يا مولانا ففيم الزيادة منك؟!) وسأل الشيخ الجميل: وها هنا سؤال جميل: مثل ماذا هذه الزيادة؟ فأجاب (حتى نفهم زيادة: طلب زكريا في دعائه: من لدنك ولياً والمفتاح في كلمة من لدنك... وبالطبع لا جديد...)

قال: وفق قانون التناسل... هناك استحالة (وقلنا للشيخ مئة مرة: المستحيل لا يكون... استحالة)... وجاءت الاستجابة: وحناناً من لدنا... (انتظر... سنعيد عليك مرة أخرى وأخرى)... أين الزيادة؟ ها هي الزيادة: وحناناً من لدنا... فأعطاه الغلام... وزاده من لدنه حناناً... (هل يعقل هذا؟! يا مولانا حنانيك بنا... كلام الله لا يمل... لكن تكرارك لا يحتمل. وحاشا للكلام الأجل والأجمل... إذا أُلِف من حوله كلام هو الأثقل!!)... وهذا ما لا خطر على قلب زكريا... (ولا على بال أحد من القراء أن أحداً يكتب بهذه الطريقة...!!).

واستمع أيها القاريء وتحمّل وتجلّد... فأنت تحتاج صبر أيوب: فوهب لـه غلامـاً... وزاده حناناً... من لدنه... لا يتناهى... فجاء الغلام... من مرتبة... من لدنك... لا كما حدد زكريا... لكن كما أكرمه ربه: وحناناً من لدنا... ما كان زكريا يطمع أن يزيده تلك الزيادة... هل ذهب بالـك إلى شيء من أولئك؟ (الشيخ يسأل) ويجيب: خذ مع الغلام... لم نجعل له من قبل سمياً... وخذ معه: وآتيناه الحكم صبياً... وحناناً من لدنا... هل خطر على بالك؟ (ما زال الشيخ يسأل، وأنا أسألك: هل خطر ببالك أن تعيش لترى التأليف المتهالك يصل إلى هذا المستوى؟).

ثم جاءت الطامة الكبرى! وحاشا لمقام يحيى، وحاشا لقصص الكتاب المجيد أحسن القصص... وإنما الطامة لمن لم يتعود على قوارع الشيخ وهزاته وزلازله نقول: عودنـا الـشيخ أن يجعـل قمـة الطامات... وخاتمة النهايات... كلام ابن عجبي (اقصد ابن عربي الذي يصر الشيخ عن سبق التعمـد والتصميم أن يسجله ابن العربي... ولا أظنه على هذه الدرجة من العبط!) المهم: مبحث جديد: يحيى... كما يراه... ابن عربي (العربي على رأي الشيخ شلبي... وعجبي!): وعلى عادة الشيخ ابن شلبي... ينبه القاريء العربي... أن ما ينقله عن ابن عربي... هو رأي ابن عربي... فمن شاء أن يستضيء به فقد فاز (بالميدالية من العيار الذهبي!)... ومن شاء أن يعرض فلا تثريب (مشتق من فيزيوثيربي!)... لأن علـم الأذواق لا يدركه إلاّ القليل... (والشيخ شلبي من الكثير... والف عجبي!).

ثم عنوان بين تاجين لا هلالين: فص حكمة جلالية في كلمة يحياوية... وبدأ ابن شلبي بكـلام الكاشاني شارح ابن عربي قال: إنما خصت الكلمة اليحياوية بالحكمة الجلالية... لأن مشربه من حضرة ذي الجلال... فكان دائماً تحت القهر... فخدت الدموع في خده أخاديد... ولذلك قُتل... وقُتـل في دمه سبعون ألفاً (حكايات... حكايات) قال الإمام الأكبر: هذه حكمة الأولية في الأسماء، فإن الله سمّاه يحيى أي يحيى به ذكر زكريا...

ثم قال ابن شلبي: ثم يقول الإمام الأكبر (وليته سكت واحتبس لسانه وليت الشيخ شلبي الأصغر انكسرت أقلامه واحترقت أوراقه): اسمع ما يقول: فإن الذي انخرقت فيه العادة في حق عيسى إنما هو النطق... ولا يلزم التمكن من النطق على أي حالة كان الصدق فيما به نطق (واضح؟!!)، بخلاف المشهود له كيحيى. فسلام الحق على يحيى من هذا الوجه ارفع للالتباس الواقع في العناية الإلهية، من سلام عيسى على نفسه (!!). واستمع الداهية الآتية: نطق في معرض الدلالة على براءة أمه في المهد، فهو أحد الشاهدين... والشاهد الآخر هو هز الجذع اليابس، فسقط رطباً جنياً، من غير فحل ولا تذكير... كما ولدت مريم عيسى من غير فحل ولا ذكر ولا جماع عرفي معتاد... (اسمع): ولو قال نبي: آيتي ومعجزتي أن ينطق هذا الحائط، فنطق الحائط وقال في نطقه: تكذب، ما أنت رسول الله، لصحّت الآية، وثبت بها أنه رسول الله، ولم يلتفت إلى ما نطق... (طيب يا شيخ شلبي إذا قال ابن عربي هذا الكلام التعس، فما الذي يلزّك أنت إلى نقله، ويدفعك إلى اجتراره؟ وهل ضاقت الدنيا بابن عربي في الأمثال إلاّ أن ينطق الحائط بكذب النبي؟! هل هو يتكلم عن الأنبياء أم يستغل الفرصة ليسرب التشكيك؟!).

واستمع كيف يواصل مسلسل ضلاله: فلما دخل على هذا الاحتمال، في كلام عيسى بإشارة أمه إليه وهو في المهد، كان سلام الله على يحيى أرفع من هذا الوجه (وكذب والله). ثم عقب ابن شلبي على كلام ابن عربي فقال: فرغنا من إثبات ما قاله ابن العربي (عربي يا عم شلبي) وما قاله القاشاني... (يقصد فرغنا من النقل الطويل الممل البالغ سبع صفحات "ملزوزة" على غير عادة الكتاب وهي في تقديري تزيد عن نسبة ٥٠% من الكتاب). ثم قال: الهدف من إثبات ذلك... فتح آفاق جديدة (هذه الآفاق تطل على ماذا يا عم شلبي؟! هل إذا كانت تطل على مكرهة... تظل آفاقاً؟!)... آفاق في الفهم والذوق لمن شاء أن يستزيد (لا نريد من هذه البضاعة زيادة... بل لا نريدها أصلاً)... أما من يفزع من تلك الآفاق... فحسبه أن يقف عند الظاهر (!!) ففيه ما يكفيه...(!!).

ولم يكتف الشيخ بأن يتحفنا بنظرة ابن عربي (العربي كما ينقل الشيخ شلبي بإصرار وعناد عربي) بل يواصل فينقل لنا: زكريا كما يراه ابن عربي... (والعنوان مستفز... فمن ابن عربي حتى يرى أنبياء الله كما يريد وعلى هواه؟!).

وفي عنوان ابن عربي بين تاجين (من شوك طبعاً... حاشا لنبي الله): فص حكمة مالكية... في كلمة زكرياوية... ولا نطيل بكلام الشارح الكاشاني فنذهب إلى رأس النبع: قال الشيخ الأكبر: اعلم أن رحمة الله وسعت كل شيء وجوداً وحكماً... وأن وجود الغضب من رحمة الله بالغضب (افهم يا أخا

العرب!)، فسبقت رحمته غضبه أي سبقت نسبة الرحمة إليه نسبة الغضب إليه (هل وصلت برقية السيد أبو الفلسفة أو أبو الزندقة؟). وقد قال الشارح كلاماً أشد إيلاماً من كلام المعلم: الغضب ليس بذاتي للحق، بل هو حكم عدمي ناشيء من عدم قابلية بعض الأشياء لظهور حكم الرحمة !!.

ثم يصعد الإمام الأكبر عالياً (هكذا يخبرنا الراصد الجوي من برج المراقبة في مطار الشلبي) ويقول: "ولما كان لكل عين وجود يطلبه من الله، لذلك عمت رحمته كل عين. فإن برحمته التي رحمه بها قبل رغبته في وجود عينه فأوجدها. فلذلك قلنا إن رحمة الله وسعت كل شيء وجوداً وحكماً". (التلاعب بالألفاظ والتعويص مقصودٌ ليسرب من ثنايا التعقيد من الهرطقة ما يريد).

ثم يصعد الإمام الأكبر إلى أفق أعلى (الآن وصل إلى أربعين ألف قدم!!) يقول: والأسماء الإلهية من الأشياء... (هل تفهم يا عم شلبي ما يقول؟ طيب كنت شرحت لنا بدل النقل الموصول ما دمت فاهماً ما يقول!) وهي -أي الأسماء- ترجع إلى عين واحدة (افهم!). فأول ما وسعته رحمته أزلاً شيئيته تلك العين الموجدة للرحمة بالرحمة (يا ليت الشيخ الذي يقيس الارتفاعات شرح لنا بعض الكلمات وأخرجنا من المتاهات، بدل أن نتهم ابن عربي بالاتهامات، وهو يراه من أصحاب الكرامات!) فأول شيء وسعته الرحمة نفسها، ثم الشيئية المشار إليها. (ويا عم شلبي ما أدرى ابن عربي عن أول ما وسعته الرحمة أزلاً؟ هل كان هناك أزلاً؟ أم عنده أثارة من علم؟ وإذا سمح لنفسه أن يتكلم عن الله وأسمائه وصفاته بهذا الخرص فماذا يبقى من حرمة لشيء؟ هل تدرك يا عم شلبي ما يقول ابن عربي؟ أم أن الإعجاب يعمي ويصم ويخفي كل عيب ويبعد كل الرِّيَب؟! ويا عم شلبي... عجبي منك عجبي!).

أما الشارح القاشاني فقال: إن الأسماء الإلهية من الأشياء فيجب أن تكون مرحومة!! (ماذا تقول عين الرضا يا عم شلبي؟ اسمع يا عم شلبي ما يقول العجمي عن أسماء الله): فإن حقائقها التي تتميز بها عن الذات، وينفصل كل منها عن الآخر، أشياء غير الذات، فلها أعيان ترجع إلى عين واحدة، هي حقيقة اسم الرحمن. (هل هذه عقيدة أهل القرآن يا عم شلبي؟ هل هذا الكلام مسند إلى النبي ﷺ. أم من ضلالات ابن عربي وشارح ابن عربي؟!). ولولا الإطالة لنقلت لك ما هو أذهب في العجب مما قيل مما أثبته في كتابك لتملأ صفحات وأخشى أنك تسوّد بها صحائفك... اسمع مثلاً: فتفصلت العين الواحدة إلى الأعيان الكونية... اشرحها يا عم شلبي لو سمحت... ثم ما علاقة كل هذا العجن بيحيى وزكريا؟! وما علاقة هذه الباطنية بالقصة القرآنية؟ والكلام الذي نقلته وما عقلته... ولو عقلته ما نقلته، إنما نحسن بك الظن فنخرج لك هذا التخريج حرصاً أن تظل في سجلات المسلمين. واسمع التالية يا عم شلبي من فصوص ابن عربي: "وقد ذكرنا في الفتوحات المكية أن الأثر لا يكون إلاّ للمعدوم لا

للموجود وإن كان للموجود فبحكم المعدوم. وهو علم غريب، ومسألة نادرة لا يعلم تحقيقها إلاّ أصحاب الأوهام. وأما من لا يؤثر الوهم فهو بعيد عن هذه المسألة. قال الشارح: الأعيان الثابتة المعدومة في أنفسها هي المؤثرة في الوجود (فاهم يا عم... يا شلبي؟!).

ثم قال... الأكبر... الذي علمهم الباطنية: إن الحق المخلوق في الاعتقادات أول شيء مرحوم بعد رحمتها (!) بنفسها في تعلقها بإيجاد المرحومين. ويسأل المحجوبون الحق أن يرحمهم في اعتقادهم، وأهل الكشف يسألون رحمة الله أن تقوم بهم (مفهوم؟! هذا كلام ملغوم!) واسمع: فهو الراحم على الحقيقة (أي من يسأل الله الرحمة هو الراحم وهو لا يدري!). ومن لم يذق هذا الأمر (يواصل)، ولا كان له فيه قدم ما اجترأ أن يقول إنه عين الرحمة أو عين الصفة. (لا لف ولا دوران المسألة واضحة. الحلول. فالراحم والمرحوم واحد!).

ثم بعد النقل السمج الممل الطويل، يحاول الشيخ أن يخرج من ورطته فيقول: تم إثبات ما قاله الشيخ الأكبر... وما ذهب إليه القاشاني شرحاً عليه (ثم نقله الشيخ شلبي وما درى جملة مما قيل!) المهم. شلبي يقول: وها هنا يثور (يثور نعم يثور!) سؤال خطير: ما علاقة زكريا بهذا الفصل من أوله إلى آخره؟ واستمع إلى عبقرية الجواب التي تأخذ بالألباب: وأقول (الشيخ شلبي الذي يقول): علاقة زكريا بذلك قوله تعالى: ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا...﴾. (ما شاء الله تبارك الله. عظيم يا شيخ شلبي...! يعني كل هذا اللت والمط والفتّ الذي كان أطول فصل في كتابك والذي بلغ سوى النقل الأول ما يزيد على ١٥٪ من الكتاب ليشرح لنا كلمة "رحمة". وهل تظن أنا فهمنا شيئاً يا عم عجبي! وإذا كانت التجلّيات قد تجلّت لك فهلاّ تجلّيت علينا بشيء مما تُجلّيَ عليك به، ومن الفتح الذي فتح عليك ولا تتركنا في الإغلاق).

يقول الشيخ وقد تفجرت ينابيع الحكمة بين جنبيه، وفاضت على يديه، وانهمرت وهطلت، وطلّت، وتجلّت. المهم أنه يقول: فمن قوله: رحمة ربك... انفجر ما انفجر (يا لطيف!!)... ففي زكريا تجلّيات... (هذا مستوى ما يدرك الشيخ!).

أما أن يقول لنا ما تجلّيات التجلّيات الفصوصية الكاشانية و"العربية" فهذا خارج القضية. يقول الشيخ ويتجلّى: زكريا مثال جامع لرحمتنا... رحمة الوجود ورحمة الامتنان. فهو مثال جامع لرحمتنا وجوباً وامتناناً (هل تصدق؟) ثم قال: وأخيراً... والله كما أقول لك ويبدو أن الشيخ قرأ تعليقاتنا عليه فسبقنا بإثبات سؤاله القادم: هل فهمت شيئاً مما قاله الشيخ الأكبر...؟ وما قاله الشارح (وما نقله الناقل) إن كنت قد فهمت فنعم العبد أنت. وإن كنت لم تفهم فاسأل الله أن تفهم...

(هل تصدق أنه هكذا ختم الفصل على طريقة الأمريكان الذين أنزل بعضهم في الإعلان: هل تريد أن تكسب مليون دولار؟ إن كنت تريد حول لنا مئة دولار نرسل لك الجواب، فجمع المعلنون المبلغ ثم وضعوا إعلاناً آخر في الجريدة: افعل مثلنا تجمع مليون دولار... هل فهمت صنيع الشطّار وتجّار الأفكار وأصحاب الاستثمار... افهم..).

وفعلاً لقد لقينا من سَفرنا في "سفْرنا" هذا نصباً... ولوددت أن الشيخ شلبي ما كتب كتباً... ولا أتعبنا معه ولقينا مثل هذا.. فأختصر ما تبقى من الكتاب فهو يمكن عصره إن كان ثمّة ما يُعصر في كلمتين: تهويم ونقل غير مفهوم.

فصله الجديد: يحيى مصدقاً بكلمة من الله... أعاد فيه وكرّر ما قيل وفي كل سطر يضع كلمة أو كلمتين... على ما تيسّر ليمط الكتاب... خلاصة القول إن الله أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمن كل نبي بمن يأتي بعده... ففيم التطويل والتهويل؟

وهل تصدق أنه أعاد: وأفضل من نبي للمرة العشرين (ربما)... وأعاد كورة الأردن...

ثم ختم بأفضل من نبي كما أقول لكم...

ثم مبحث: يحيى نبياً... ولا جديد عند الشيخ ولا مفيد... أعاد حكاية ترعرع في البرية وحكاية قتل الأطفال ... وأعاد الصوت الصارخ في البرية ثلاثين مرة ... وأسماء موظفي الدولة الرومانية ... كما ذكرناها لك ... ثم أعاد كورة الأردن للمرة... وانتهى المبحث بأن هيرودوس حبس يحيى .

ثم فصل أو مبحث أو عنوان: الملك العاشق... ولا أدري ما علاقة هذا بقصص القرآن. ملخص القول أن هيرودوس عشق بنت أخيه وأراد الزواج بها وأنه قتل أخاه، وزوج أخيه كانت متآمرة معه، وكان يحيى يدعو هيرودوس إلى التوبة ثم أعلن يحيى بالصوت العالي أن هذا الأمر لا يجوز، فاعتقله هيرودوس. فحنقت هيروديا على يحيى... وتكرّرت قصة قابيل وهابيل (كلام...).

ثم مبحث: سالومي تراود يحيى... والشيخ ينسج قصة يتصور أن قصة هيرودس وهيروديا وفيلبس وسالومي حقيقية، بل أكثر من هذا هو يعتقد أن هذه هي القصة القرآنية. المهم أنهم خططوا أن تراود سالومي يحيى. وختم الكاتب مبحثه: هذه السالومي... في عيني يحيى مجرد جرثومة هائمة في الظلام.

ثم عنوان ذبح يحيى... ثم قال الكاتب: عنوان هذا الفصل غليظ (غَيّره يا مولانا. حد جبرك؟!)... من تحف الشيخ: الشعوب المسكينة تدفع من كدحها إلى الملوك تكاليف عبثهم ولهوهم

وإجرامهم (عظيم!)... المهم أن الشيخ حكى لنا قصة رقصة سالومي التي طلبت من الملك المخمور هي وأمها: رأس يوحنا... ثم قال الشيخ يصف: ها هو السيّاف يهوي بسيفه في سرعة فائقة على رقبة النبي يحيى... فيفصل الرأس عن الجسد. ثم لعن الشيخ هيرودوس وهيروديا وسالومي والسيّاف القبيح والحاضرين (في الحفلة يعني)...

ثم وصلنا خط النهاية: وعنوان: وسلام عليه يوم ولد... ويوم يموت... ويسأل أين هو السلام على يحيى يوم ولد وقد بحث عنه ليقتل؟ وأين هو السلام يوم يموت وقد مات مذبوحاً؟ وأجاب: المراد سلام عليه منا. ثم ختم بحديث البخاري أن النبي ﷺ ليلة الإسراء اجتمع بيحيى وعيسى في السماء الثانية، فسلّم فردّا. ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح... والنبي الصالح...

ابن عربي:

وأحب بعد أن أتممت استعراض كتاب شلبي وعرضه عليكم، أن أعرّف بإيجاز بابن عربي حتى لا يظل هذا الرجل لغزاً غامضاً، ولتتراح عن وجه الحقيقة حجب غطتها. خاصة وأن كثيرا من المخدوعين ما زالوا يرون ابن عربي من أهل الدين والصلاح، والشيخ شلبي ما فتيء في كل كتبه ينقل فصلاً مطولاً عن ابن عربي. فإلى يسير من القول حول ابن عربي:

وأول الملاحظات: "الباطنية" التي يسميها الدكتور أحمد الطيب: "الغموض الشديد الذي يستحكم وراء تعبيرات من أجمل التعبيرات وأكثرها دقة وتحديداً على المستوى اللغوي أو الدلالي، مما يثير في ذهن القارئ ظنين متناقضين: فقد يحسن الظن... وقد لا يحسن الظن... ثم يقول عن ابن عربي: وهو يقص علينا أنه أذاع سراً من أسرار الحب الإلهي في فاس سنة ٥٩٤هـ فعوتب على ذلك، وكان يتمثل بقول الشاعر:

ومستخبر عن سر ليلى رددته	بعمياء من ليلى بغير يقين
يقولون خبّرنا فأنت أمينها	وما أنا -إن خبّرتم- بأمين [١]

ابن عربي ووحدة الوجود:

١ - علي شودكفيتش: الولاية والنبوة عند ابن عربي، ترجمة أحمد الطيب: مقدمة المترجم، ص٧، ط١، مراكش- المغرب: دار القبة الزرقاء، ١٩٨٦م.

قال سميح عاطف الزين في كتابه[1] عن ابن عربي: "يعتبر ابن عربي المؤسس لمذهب وحدة الوجود بشكله الكامل، إذ إن جميع الذين سبقوه كانت لهم اتجاهات متفرقة حول وحدة الوجود. وإن جميع الذين أتوا بعده كانوا متأثرين به، أو ناقلين عنه...

ويقوم مذهب ابن عربي في وحدة الوجود، على أن الوجود كله واحد. وأن وجود المخلوقات عين وجود الخالق. ولا فرق بينهما من حيث الحقيقة.

أما الفرق الظاهر بين الوجودين فلا يعدو كونه أمراً يقضي به الحس الظاهر، والعقل القاصر عن إدراك الحقيقة على ما هي عليه من "وحدة ذاتية" تجتمع فيها الأشياء جميعاً. ويدلل على نظريته هذه بالبيتين التاليين:

يا خالق الأشياء في نفسه ... أنت لما تخلقه جامع

تخلق ما لا ينتهي كونُه ... فيك فأنت الضيق الواسع

ثم يبين لنا أن ذلك الفرق بين وجود الله ووجود المخلوقات إنما يتراءى للإنسان، لأنه ينظر إلى الله بوجه، وإلى المخلوق بوجه آخر، ولو نظر إليهما بوجه واحد من عين واحدة، لزال ذلك الفرق، ولأدرك "الذاتية الواحدة" التي لا جمع فيها ولا تفرقة. وهو يعبر عن ذلك بقوله:

فالحق خلْق بهذا الوجه فاعتبروا ... وليس خلقاً بهذا الوجه فادكروا

من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته ... وليس يدريه إلاّ من له بصر

جمع وفرق فإن العين واحدة ... وهي الكثيرة لا تبقي ولا تذر

والسند الذي يعتمده ابن عربي من القرآن الكريم للقول بوحدة الوجود[2]، إنما هو الآية المباركة: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد...﴾ فاطر:١٥، إذ يفسر هذه الآية الكريمة بحسب تأويله فيقول: "فوجودنا وجوده، ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا، وهو مفتقر إلينا [3]، من حيث ظهوره لنفسه. فأنت غذاؤه بالأحكام، وهو غذاؤك بالوجود، فتعين عليه ما تعين عليك (!!)، والأمر منه إليك، ومنك إليه، غير أنك تسمى مكلفاً:

---

١ – الزين، سميح عاطف: ابن عربي، سلسلة أعلام التصوف، ص٨٤–ص٨٥، ط١، بيروت: الشركة العلمية للكتاب، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

٢ – تعبير الأستاذ الزين: "السند..." تعبير غير مناسب، ولو قال الشبهة، أو ادعاء الشبهة أو الاشتباه، فالرجل يفتعل الأمور، وابن عربي من أدهى الناس، وأحرصهم على إثارة الالتباس وبلبلة الناس، والإغماض والتعويص.

٣ – تعالى الله عما يقول هذا المجرم المتصنع اللابس ثوب التصوف زوراً.

فيــحمـدني وأحمــــده ويــــعبــــدني وأعبـــده
وفي حــــال أقـــر بـــه وفي الأعيـــان أجـــحـده
فـــيعرفني وأنـــكـــره وأعـــرفـــه فـــأشـــهده[1]

فابن عربي يؤمن بوحدة الوجود إيماناً مطلقاً مع تشويه قبيح عقلاً لذلك الرأي الذي يقول به الناس من وحدة الوجود (ولا ندري مَنْ من الناس يقول بوحدة الوجود؟! وسامح الله الـزين علـى الكلام غير الزين) إذ جعل الله تعالى مفتقراً إليك، كما أنك مفتقر له! ناسياً قوله عز من قائل: ﴿سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض...﴾[2]. ولا تنفعه طاعة من أطاعه. ولا تضره معصية من عصاه: ﴿وهو يجير ولا يجار عليه...﴾ المؤمنون: ٨٨.

ومن العجيب أن ابن عربي يبرهن عن إيمانه بالوحدة بكثير من التصريح والوضوح، كما ظهر في تفسير آية فاطر، أو كما يظهر في قوله: "فما يعرف شيء إلاّ وهو حد الحق . فهو (أي الله تعـالى) الساري في مسمى المخلوقات والمبدعات، فهو الشاهد من الشاهد، والمشهود من المـشهود. فالعـالم صورته، وهو روح العالم المدبر له، وهو الإنسان الكبير. فلله في خلقه شؤون.

إن ابن عربي بعد صف كلام ورصف جمل في تعليل وحدة الوجود توصل إلى أن يقول عن الله عز وجل بأنه الإنسان الكبير". (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) .

ثم يقول الزين: يؤكد ابن عربي نظرته إلى وحدة الوجود عندما يقول: فسبحان مـن أظهـر الأشياء وهو عينها، ثم أنشد:

فما نظـرت عيني إلى غير وجهه ولا سمعـت أذني خلاف كلامه

أو قوله: ما في الوجود إلاّ الله[3].

ونحن وإن كنا موجودين، فإنما كان وجودنا به، فمن كان وجوده بغـيره، فهـو في حكم العدم. ومما قاله في ذلك شعراً:

ممـن تفر وما في الكون إلاّ "هو" وهل يجوز عليه "هو" أو "ما هو"

---

١ – ابن عربي لسميح الزين، ص٨٥–٨٦.

٢ – المسألة يا أستاذ سميح ليست نسياناً من ابن عربي الفصيح بل هو كفر وقح قبيح، وتضليل للناس متعمد صريح.

٣ – الزين: ابن عربي، ص٨٧–ص٨٩. وارجع إلى كتاب الولاية والنبوة، ص٨، تجده يقول: "وهو تعالى صانع العالم وأوجده على صورته، فالعالم كله في غاية الجمال ما فيه شيء من القبح (!) فما رأي العازمون فيه إلاّ صورة الحق، فهو المتجلـي في كـل وجه، والمعبود في كل معبود" (!). وراجعه في: الفتوحات المكية، ج٣، الباب ٣٧٢، ص٤٤٩–ص٤٥٠.

إن قلت "هو" فشهود العين تنكره		أو قلت "ما هو" ليس إلاّ "هـــو"

فـــلا تـــفرّ ولا تركن إلى طلب		فـــكل شيء تـــراه ذلـــك الله

ثم علق الزين: على أن هذه الصراحة التي يظهرها هنا، ليست هي طريقته، ولا أســـلوبه في التعبير عن افكاره وإظهار آرائه بصورة دائمة. إذ كان غالباً ما يلجأ إلى التورية، والأحاجي. ويتخفى وراء الرموز والرسوم وغيرها لكي يشرح معتقداته [١]. ولا يتحرج من الاستعانة بالخرافات والأحلام، من أجل غايته. أما غاية ابن عربي فهي إبعاد الجماهير عن مقاصده. يقصد الزين أن لا تعرف الجمـــاهير حقيقة خبيثته.

ثم يذكر الأستاذ الزين من الأمثلة والشواهد على الغموض والألغاز الذي يتعمده ابن عـــربي هذه الأبيات لابن عربي.

فـــنحن لـــه كما نـــثْبتْ		أدلتنـــا ونحـــن أنـــا

وليـــس لـــه ســـوى كوني		فنحـــن لـــه كـــنحن لنـــا

فـــلي وجـــهان هـــو وأنا		وليـــس لـــه أنـــا بـــأنـــا

ولـــكن فيّ مـــظـــهـــرُه		فـــنحن لـــه كمثل أنـــا

هذا مجمل آراء ابن عربي في وحدة الوجود، لا فرق بين الله الخالق، والإنسان المخلوق، بـــل والمخلوقات كلها، وما يرى الناس من فرق فمنشؤه عقل الإنسان القاصر.

ومن هنا كانت نظرته إلى الحساب نظرة إنكار تقوم على نفي الجحيم والنار، وعلى وجـــود جنة في عذابها لذة ونعيم. أي أنه يخلط المفاهيم، فيتساوى عنده العذاب والنعيم، يقول:

فلم يبق إلاّ صادق الوعد وحده		ومـــا لـــوعيد الحـــق عين تعاين

وإن دخلـــوا دار الشـــقاء فـــإنهم		على لـــذة فيها نـــعيم مبايـــن

نعيم جنان الخلـــد فالأمر واحـــد		وبينهما عـــــند التجلي تباين

يسمى عذاباً من عذوبـــــة طعمه		وذاك له كالقشر والقشر صائن [٢]

---

١ – قلت: إنها المرحلية يا أستاذ سميح. فالقوم يظهرون الورع والزهد والتقشف والتصوف، فـــإذا علقـــت الجمـــاهير بشباكهم أظهروا قبح معتقداتهم، بعد أن تكون "شبكت الصنارة"، وعلقت السمكة، وظن المغفلون بهم أحـــسن الظنون. هكذا بدأ مؤسس دعوة القرامطة، وهكذا صنع كل دعيّ وزنديق، يتمسكنون ثم يتمكنون.

٢ – الزين: ابن عربي، ص٨٩–ص٩٢.

وفي الفتوحات المكية قال ابن عربي تحت عنوان: الباب الخامس والثلاثون ومائة: "في معرفة ترك الإخلاص وأسراره"

من أخلص الدِّين فقد أشركا   وقيَّدَ المطلق من وصْفِه
من يجهل الأمر فذاك الذي   يدرك ذات المسكَ من عَرْفه

ثم قال: رؤية الإخلاص منك في العمل مجوسية محضة. و "العين واحدة وهو على صراط مستقيم".

وتحت هذا العنوان كان مما قال: "... فإذاً، لم يكن الإخلاص إلاّ عبادةً عن رؤية في مشهد ما معين، لا في كل مظهر، ولا يقدر صاحب هذه الحال أن يرى حجاباً بينه وبين مشهوده، فلا يتمكن له أن يميز شيئاً من شيء، فإن العين واحدة، وهي "على صراط مستقيم" ..."[1].

ابن عربي:

قال فيه الدكتور الفيومي: "ولد سنة ٥٦٠هـ وفق ١١٦٥م في مدينة "مرسية" بالأندلس، وكان يتردد على إحدى مدارس الأندلس التي تُعلّم سراً علوم الأوائل (!). وكانت هذه المدرسة هي الوحيدة التي تدرس لتلاميذها المبادئ الباطنية والتأويلات الرمزية، وتلك هي مدرسة ابن مسرة المتوفى بقرطبة سنة ٣١٩هـ والذي لم يعرف المستشرقون مؤلفاته إلاّ عن طريق ابن عربي. وكان أشهر أساتذة تلك المدرسة في ذلك القرن ابن الصريف (ت ١١٤١م) فلم يره محي الدين. ولكنه تتلمذ على مؤلفاته..."[2].

ثم تكلم الدكتور الفيومي عن رحلاته، فقال إنه سنة ٦٠٠هـ كان بمكة، وسنة ٦٠١هـ ببغداد وفي نفس السنة في الموصل، يتلقى خرقة الخضر (!!) وفي رمضان من نفس السنة في ملطية، وسنة ٦٠٢هـ في مسجد الخليل، وسنة ٦٠٣هـ في القاهرة.

أما عن كتبه فيقول: له نحو أربعمئة كتاب وقيل ألف بين كتاب ورسالة، وعد نحو خمسين منها. ويقول ابن عربي عن تآليفه: "منها ما ألّفته عن أمر إلهي أمر به الحق لي في نوم أو مكاشفة".

---

١ – ابن عربي، محي الدين: الفتوحات المكية، ج١٤، ص٣٣٠–ص٣٣٢. تحقيق: د. عثمان يحيى، مراجعة: د. إبراهيم مدكور، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٤١٢هـ–١٩٩٢م.

٢ – الفيومي، د. محمد إبراهيم: ابن عربي، صاحب الفتوحات المكية، ص١٣–ص١٤، ط١، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٩هـ–١٩٩٨م. هذا وينبغي ملاحظة أن الدكتور الفيومي ليس متحاملا بل من المعجبين بابن عربي.

وقد قابل ابن رشد وأفرح ابن رشد الموافقة الكلية بين نتائج التصوف والفلسفة العرفانية [1].

ابن عربي ومصادره الثقافية:

عد الدكتور الفيومي عدداً من الثقافات شكلت روافد ومصادر ابن عربي ونحن نذكرها باختصار:

١- الثقافة الهلينية.

٢- التراث الفارسي: وكان التراث الفارسي يقول بالرجعة والتناسخ والتنبؤ ودعوى الألوهية، والإمام المعصوم والحقيقة المحمدية، ولا شك أن هذه القضايا تتخلل تراث ابن عربي، مما يشهد بأن ابن عربي دخل بطن التراث الفارسي فتذوق نظرية الحق الإلهي، و...، وعن طريق المشرب الفارسي تأثر به جلال الدين الرومي، والعطار، وهما فارسيان، كما كلف ابن عربي بشيخه الحلاج والسهروردي المقتول، وهما أعاجم، ومن أئمة الرمزية.

٣- التراث الهندي: يرى جولدزيهر أن عدداً من الأفكار الحلولية والاتحادية (الهندية) كان لها أثرها على ابن عربي. وقال فون كريمر: إن عنصر الثقافة الهندي البوذي واضح في المحاسبي وذي النون المصري، وإليه ترجع فكرة وحدة الوجود التي ظهرت على يد الحلاج واكتملت على يد ابن عربي.

٤- التراث اليهودي: وقد ظهر في الأندلس كثير من أعلام اليهود الذين نبغوا في دراسة الفلسفة، وكان إسلام بعضهم يمثل حلقة وصل بين التراث اليهودي واليوناني والإسلامي مثل ابن جبرول، وابن صوريا، وابن ميمون. واسحق الإسرائيلي، ... الخ، ومع أن ابن ميمون وابن جبرول ظهر أثرهما الواضح على اتجاهات الرمزية مثل قول ابن جبرول: الواحد مواز للصورة، والاثنان موازيان للكثرة... الخ. ويمثل أبو البركات البغدادي حلقة وسطى بين مذهب ابن سينا الفلسفي ومذاهب التصوف المتفلسفة عند السهروردي وابن عربي" [2].

٥- التراث اليوناني والشرق: وقد عرف ابن عربي نظريات الفلاسفة اليونان على وجه مفصل ودقيق، حتى لقد غالى بعضهم في وصف ابن عربي بأنه ابن أفلاطون. ويرى البعض بأن ابن

---

١ - الفيومي: ابن عربي، ص١٦-ص٢٢.

٢ - الدكتور الفيومي: ابن عربي، ص٢٣-ص٢٧.

عربي تأثر بالأخلاق الرواقية، ولا سيما نظرية الخلق، ووحدة الوجود، وفكرة الجسمية في الإسلام [١].

٦- التراث المسيحي: انتهى الصراع حول طبيعة المسيح إلى مجمع "نيقيا" سنة ٣٢٥م الذي قرر القول بالتثليث وألوهية المسيح. وأما اليعاقبة فرفضوا كل ما قيل عن تجزئة طبيعة المسيح واعتبرته أقنوماً واحداً. وهكذا افترست الفلسفة جسد المسيحية وانشبت فيها وثنيتها وعناصر الغُنُوص من هندي وفارسي ومصري، ودخل منها عناصر كثيرة إلى التصوف، كالرهبنة والحلول. وعلى هذا الضوء يُنظر إلى تيار الحلاج ممثلاً في ابن عربي. ومذهب جولدزيهر ونيكلسون والنشار أن التصوف مرتبط بالرمز، (وهذا متأثر بالاتجاه الرمزي الروحي في المسيحية)، ويقدمون الرمزية عند ابن عربي والسهروردي آية على ذلك.

٧- الاتجاه العرفاني (الغُنُوصي **Ghnostic**): الغُنُوص كلمة يونانية تعني المعرفة الحدسية المباشرة التي لا تعتمد على وسائل العقل المستدل، مستهدفة وحدة العارف والمعروف.

٨- الاتجاه الصّابئي: تراثهم مزيج من التوحيد والخرافة والسحر وتعظيم الشياطين ويتخذون الكواكب واسطة بين الله والناس، وكان لفكرهم أثر كبير على ابن عربي، وتحديداً عن إمكان أخذ الإلهام عن الكواكب الأمر الذي كُفّر ابن عربي على أساسه.

٩- التراث الهلّينستي: دخل التراث اليوناني الشرق منذ إنشاء مكتبة الإسكندرية، وتلقته مدارس السريان، حتى وصل مدرسة بغداد. واشتغل بها كثير من الفلاسفة، وكان أول من اشتغل بها الكندي. والفارابي مشّائي عرفاني، وقد جعل رئيس المدينة الفاضلة نبياً فيلسوفاً، مما جعل المسلمين يرمونه بالزندقة. وابن سينا حذا حذو الفارابي ودعا إلى إنشاء فلسفة خاصة، وله رمزيته. وأبو البركات البغدادي، اليهودي الذي أسلم، وأهميته ترجع إلى إحياء التراث الإشراقي الذي ظهر عند ابن سينا (في الإشارات والتنبيهات). ثم جاء السهروردي (بعد ضرب الغزالي للفلاسفة) ويتلخص مذهبه في "الإشراق" وهو عنده ليس مصدره العقل الفعال كما عند الفارابي وابن سينا، وإنما مصدره التخلص من البدن. وجو السهروردي هو جو ابن عربي...[٢].

---

١ - الدكتور الفيومي: ابن عربي، ص٢٧-ص٢٩.

٢ - الفيومي: ابن عربي، ص٢٩-ص٣٢. بتصرف يسير واختصار كثير.

هذه صفحات عن ابن عربي كتبها غير متحامل أحببت أن أعرضها حتى تتجلى الحقيقة لمن لا يزالون في العمى وللمخدوعين والمُضللين.

ونزيد على كل ما نقلناه وقاله وقلناه ما قاله في الفتوحات وكله خطير. وهذه عيِّنة منه: "وشاهدت جميع الأنبياء كلهم من آدم إلى محمد ﷺ، وأشهدني الله تعالى المؤمنين بهم كلهم حتى ما بقي منهم أحد ممن كان ويكون إلى يوم القيامة خاصهم وعامهم. ورأيت مراتب الجماعة كلها فعلمت أقدارهم". وقال تلميذه وربيبه صدر الدين القونوي: "كان شيخنا ابن عربي متمكنا من الاجتماع بروح من يشاء من الأنبياء والأولياء الماضين على ثلاثة أنحاء: إن شاء الله استترل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسدا صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العصرية التي كانت له في حياته الدنيا، وإن شاء الله أحضره في نومه. وإن شاء انسلخ عن هيكله واجتمع به"[1].

ولعل ما سيقوله أو سننقله عنه الآن من أخطر ما قال، وكل ما قال ملغم ملغز وخطير. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ الله ولي الذين آمنوا...﴾، وننقله عن علي شودكيفتش، قال: "الذين آمنوا في الآية الكريمة وردت عامة، مما يعني أنها منطبقة على كل من آمن وليست قاصرة على المؤمنين بالمعنى الخاص، أعني المؤمنين الموحدين، ويستخلص ابن عربي من فهمه للآية أن "ولاية الله" -بهذا المعنى- تنسحب على المشرك أيضا. إذ المشرك مهما توجه اعتقاده إلى حجر أو صنم أو كوكب فإنه في نفس الأمر معتقد في الله تعالى -كما يقول ابن عربي-: "فإن كل جزء في العالم مسبح لله تعالى من كافر وغير كافر، فإن أعضاء الكافر مسبحة لله. غير أن العالم لا يفقهون هذا التسبيح، وهذا من توليه سبحانه". ويرى ابن عربي أيضاً أن الولاية بمعنى النصرة الإلهية العامة -التي تشمل المشركين- هي التي تفسر لنا انتصار المشرك -أحياناً-. وغلبته على المؤمن بالمعنى الخاص لهذه الكلمة، أعني المؤمن الموحد، ويستنبطه (!) من قوله تعالى: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾، ويراه من أسرار الولاية التي لا يشعر بها كل عالم، فإن هذا لسان خصوص...الخ""[2].

وقد رأيت أن أقتصر على هذه النقول فكلما قرأت شيئاً قلت: هذا أخطر ما قال... فرأيت أنه لا بد من وضع القلم. وفيما ذُكر بُلغة لمن أراد البلاغ والتبلغ.

---

١ - ارجع إلى: والولاية والنبوة، ص٢٥. والفتوحات المكية، ج٣، ص٣٢٣. وشذرات الذهب، ج٥. ص١٩٦.

٢ - علي شودكيفيتش: الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي؛ ترجمة: أحمد الطيب، ص٦١، ط١، مراكش: دار القبة الزرقاء، ١٩٨٦م.

الكتاب الثاني والثلاثون

إبراهيم خليل الله

تأليف: ألن هوايت.

بيروت: دار الشرق الأوسط، ١٩٦٤م.

إبراهيم خليل الله / ألن هوايت:

هذا الكتاب استثناء بين كتب القصص القرآني التي نتصدّى لدراستها ونقدها وتحليلها وتلخيصها، فهو يتكلّم عن قصة نبي من أعظم أنبياء الله، هو خليل الله، إبراهيم، كتبته مُبشّرة، أو قل كاتبة ودارسة غربية تعرضه أو تعرض قصة هذا النبي الكريم من وجْهة نظر العهد القديم والرؤية المسيحية الإنجيلية بالتّبع للعهد القديم.

وقد وجدْتُ في بعض الدوريات العربية تعريفاً بهذه الكاتبة فأحْببتُ أن أبتدئَ به هذا التقرير عن هذا الكتاب ليعطينا فكرةً توضيحيةً أكثر عن الكتاب وكاتبته وعن المنطلقات والأغوار البعيدة لها.

والسؤال بالتالي لكنائسنا الشرقية في بلادنا العربية: وهي تُروِّج لهذا الكتاب ولكاتبته: هل تعرف هذه الحقائق؟ فإليكموها بإيجاز: ألن هوايت مؤلفة كتاب إبراهيم الخليل. ألن هوايت من السبتيين، ومن ضلالات السبتيين الادعاء بأنّ السيدة "هوايت" نبيّة، وأنّ الله أعلن لها أموراً كثيرة، بل إنهم أصدروا كتاباً كاملاً عن نُبوّتها، والذي يضمُّ أقوالها التي عادةً تمتلئُ بهذه الكلمات: "قد أعلن الله لي..."، و "قد رأيت..."، و "أُعطيت نوراً خاصّاً..."، و "قد أعطاني الربُّ أن أقول...". إنهم يطرحون على طالب العمّاد ١٨ سؤالاً منها: هل تقبل الروح النبوية بواسطة رسولية ألن هوايت؟

ولم تكن ألن هوايت في البداية ترى تقديس السبت، ولكنها عادت فأعلنت أنه قد ظهرت لها رؤيا أُخذت فيها إلى السماء ونظرت القدس ومعداته (!) ورفع يسوع غطاء التابوت فرأت تحته لوحَي الشريعة، فاندهشت إذ رأت الوصية الرابعة منها الخاصة بحفظ السبت اليهودي مُحاطةً بهالة من النورِ في وسط باقي الوصايا العشر.

وتذكر المقالة المتحدِّثةُ عن ألن هوايت وقصّتها وكيف بدأت الحركة السبتية وكيف واجهت عثرات في البداية، ثم قالت المقالةُ: إلاّ أن فتاة نحيلة في السابعة عشرة من عمرها، تُدعى "ألن هارمون" كانت قد تزوّجت من أحد المبشّرين اسمه "جيمس هوايت" وكانا يحضران مؤتمراً دينياً في منزل "أوتس نيكولز" بمدينة "دورشيستر" بولاية "ماساشوستس" الأمريكية وأُغمي عليها، وعند إفاقتها زعمت للحاضرين أنها كانت في رؤيا سمائية (سماوية)[١] أعلنت فيها أنّ السيد المسيح

---

١ - روز اليوسف، العدد (٣٩٠٠) ثلاثة آلاف وتسعمئة، بتاريخ ٢٠٠٣/٣/١٤ م.

قد جاء إلى العالم في هيئة غير منظورة. وبدأ الملك الألفي الذي ورد ذكره ست مرات في سفر الرؤيا بالكتاب المقدّس، وذلك حسب ما جاء في كتابهم: كنوز الشباب، ج٢، الصادر عن جمعيات الشبيبة السبتية في الشرق الأوسط.

وقد دلّلت ألن هوايت النبية الكاذبة على صحة رأيها هذا بما حدث في يوم ١٦ مايو سنة (١٧٨٠م) نحو الساعة العاشرة صباحاً من احتجاب نور الشمس وإطباق الظلام على الأرض وإسراع الدواجن والمواشي إلى حظائرها كعلامة سابقة على مجيء السيد المسيح الذي تمّ فيما بعد (!).

وبما حدث أيضاً في فجر يوم ١٣ نوفمبر سنة (١٨٣٣م) حين أمطرت السماء وابلاً من النيازك والأجرام السماوية بشكل لم يسبق له مثيل حتى غمر مساحة كبيرة من الأرض شوهدت من أواسط المحيط الأطلنطي شرقاً ومن الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية حتى مناطق غير محدودة من الممتلكات البريطانية شمالاً.

وهاتان هما العلامتان اللتان استندت إليهما ألن هوايت في التدليل على صحة نبوتها ورؤياها عن المجيء الثاني للسيد المسيح حتى تطرّف أتباعها في تقديرها، واعتبروها نبيةً مُلهمةً معصومةً من الخطأ، وأنَّ كل الكنائس المسيحية التي لا تصدقها تكون مُرتدّةً عن المسيحية.

وأذاعت هوايت ما رأته (أو زعمت) بشأن الوصية الخاصة بالسبت وهالة النور (المزعومة) فنشأ عند أتباعها هذا الحماس الغريب لتقديس السبت. وراحوا يبحثون في الكتاب المقدّس عن آيات تدعم هذه العقيدة اليهودية... وتكسبُها صفة الشرعية الكتابية. وفي مطبوعات عديدة نشرتها ألن هوايت عن رؤياها بمدينة "روكي هل" بولاية "كونيتيكيت" انتشرت الأفكار السبتية، رغم أن طبيبين من أتباعها كانا يعملان في مصحة للأمراض العقلية، أحدهما هو دكتور وليم راسل قام بفحصها سنة (١٨٦٩م)، والآخر هو دكتور هيرفيلد قام بفحصها سنة (١٨٨٧م)، فقرّرا أن هذه السيدة كانت تعاني من نوبات عصبية لا يُحتمل أن تشفى منها.

ثم يُكمل كاتب المقال مقالهُ بذكر تكفير الكنيسة القبطية للأدفنتست السبتيين وشهود يَهْوَه والمورمون وأنهم يعملون لحساب الصهيونية، وأنَّ الرسالة الدينية ستارٌ يُخفي وراءه الأغراض السياسية، وهم يحيون يوم السبت الذي أبطله المسيح كما يقول مرقس عزيز[١].

---

١ - روز اليوسف عدد (٣٩٠٠) بتاريخ ٢٠٠٣/٣/١٤م.

هذا الكتاب "نحشره" في موضوعنا عن مناهج التأليف في القصص القرآني حشراً إذ هو ليس كتاباً في القصص القرآني، ولكنه كتابٌ تبشيريٌّ كتبته مُبشِّرة، ويُروِّج له المبشِّرون في العالم العربي. وهو يتعلق بقصص الأنبياء ولكن من وجْهة نظر كتابيَّة، وهو يتناول حياة نبيَّين كريمين: إبراهيم، ولوط.

ومن قراءة الكتاب نستشعر فضل الله علينا بما أكرمنا من كتاب فيه الحقُّ المُصفَّى لا شائبة باطل فيه، ونستشعر كم القوم يغرقون في بحار من الجهل، وهم يحسبون أنهم على شيء.

ولما كان الإنجيل لا قصص تاريخياً فيه، ولا تشريع فيه، فإنه اتَّكأ كُلِّياً على التوراة في هذه المسائل، ولما كانت التوراة قد حُرِّفت بأيدي المجرمين قتلة الأنبياء، وأعداء الدين والرسالات، فإنك واجد حجم الإساءة إلى أنبياء الله. فهم ينسبون لإبراهيم الخداع، والشك في وعد الله.

ولن نتوقف طويلاً عند "اذبح ابنك... وحيدك... إسحق..."، فالتزوير فيها واضح كالشمس. فإسماعيل أكبر من إسحق بأكثر من عشر سنين فكيف يكون إسحق وحيده؟

ولكن القوم على إسفافهم في حق إبراهيم- قد انحدروا في الحديث عن لوط إلى حد أنك تشعرُ أنهم يتكلمون عن شخصية يهودية لا عن نبي كريم. فالتعلق بالدنيا والبيت الجميل، والأنانية والبحث عن المال، وحسد لوط لإبراهيم... حاشا لأنبياء الله.

والكتاب يُظهر حجم فرية من افتروا أن قَصصَ القرآن مُستفادٌ من قَصص أهل الكتاب. وهي فريةٌ لا يكاد يَسْلمُ منها غربي بإطلاق[1].

إبراهيم

ولم أرَ مانعاً من عرض هذا الكتاب، وإيجازه، والتعليق عليه، وإن كان معروضاً من موقف وموقع تبشيريين. فالكتاب كتبته مُبشِّرة. ويوزِّعه المبشِّرون. وهو معروض على أرضية النص التوراتي "العهد القديم" إذ من المعلوم أن العهد الجديد لا قَصصَ فيه ولا تشريع... وإنما هو معتمد في هذا كله على العهد القديم. والعهد القديم عدَت عليه العوادي من قديم... فما عاد له من عهد لا عند الله ولا عند عباد الله، وتناقضه مع ذاته، ومع التاريخ ومع العلم، ومع الذوق، ومع العدل، ومع العقل... يقطع بأنه من وضع البشر، بل كتب بيد أسوأ البشر...

---

١ - ارجع على سبيل المثال إلى كتاب المهتدية: مريم جميلة (مارجريت ماركس) سابقاً، فقد ذكرت مثل هذا في مقدمة كتابها: الإسلام بين النظرية والتطبيق. وارجع الى د. سيد القمني في كتابه السيء: إسرائيل .. المقدمة.

أقول: برغم هذا كله لم أر مانعاً من عرض الكتاب، حتى نعلمَ ما عند القوم، وحتى نحمدَ ربَّنا على ما أكرمنا من حق، فقد كان فضله علينا عظيماً إذ قصَّ علينا في القرآن العظيم قصص النبيين، وأبرز من بينهم نبياً من أعظمهم هو إبراهيم عليه الصلوات والتسليم.

أقول: بضدها تتميَّز الأشياءُ. فلن نعلم عظمة ما عندنا إلاّ بمعرفة فهاهة وتفاهة حجج القوم وتواريخ القوم. فهي فرصة لمزيد من تجلّي الحق وسُطوع شمسه وأُفول تخرُّصات المبطلين...

قلت: هذا كتابٌ في الدعاية للديانة المسيحية، تأليف ألن هوايت، التي يقول عنها مُقدِّمو الكتاب: الكاتبة الملهمة. والكتاب حلقة في سلسلة دراسية منهجية تتابع التبشير، يقول المبشِّرون الذين يُروِّجونه: هذا الكتاب نُقدِّمه هدية خاصة للذين أكملوا بنجاح سلسلة دروس: "نور لهذه الأيام من الأنبياء".

ويقول مقدمو الكتاب إنهم اختاروه لما وجدوا فيه من وفير المتعة وغزير الفائدة. ثم يمضون خطوة في تقريظ الكتاب إلى الأمام إذ يقولون: لئن سُطِّر بقلم كاتبة أجنبية فهو يتضمن أجمل وأكمل وأنفع ما نشر بلغة الضاد عن حياة الأنبياء (ما حدا بيقول عن زيته عكر، باللبناني!).

ثم يقولون: إن إبراهيم يبرز كتابع أمين لله... (هم لا يعرفون كيف يتكلمون عن الله ولا عن رسل الله ولا ما يليق، ولا ما لا يليق من الألفاظ لا بحق الله ولا بحق رسله).

وبعد التقديم يبتدئ الكتاب بعنوان: دعوة إبراهيم... والعنوان لا يعني شيئاً فهم يكتبون كما تهوى أنفسهم. نعود إلى نص الكتاب: بعدما تشتت الناس من بابل (حكاية بابل التوراتية ما غيرها...) كادت عبادة الأوثان تشمل العالم (وتنسى الكاتبةُ أنها جزءٌ من عبدة الأوثان)، فترك الله العصاة القساة القلوب يسيرون أخيراً في طرقهم الشريرة، بينما اختار إبراهيم الذي هو من نسل سام (الرؤيا التوراتية الإسرائيلية العنصرية القبلية...) وجعله حافظاً للشريعة للأجيال القادمة.

لقد عاش إبراهيم وسط الوثنية، وحتى بيت أبيه الذين حفظوا معرفة الله كانوا تحت تأثير المؤثِّرات المضلّة المحيطة بهم. (شتان بين من يصدر عن علم يقيني كما يصدر المسلم وبين من يصدر عن ظنون وتخمين...). ثم تنقل الكاتبة نصاً عن التوراة سفر يشوع: "وعبدوا آلهة أخرى..". (وهل يعرف هؤلاء من يعبدون؟ ومن هي الآلهة الأخرى؟ وهل يعرفون لماذا كانت مرفوضة الآلهة الأخرى؟ ولماذا ينسبون هم مع الله ابناً وشريكاً وثالوثاً وأقانيم؟ أليست هذه آلهة أخرى؟.. ﴿وقل الحمد لله..﴾).

وتواصل كاتبتنا "ألن": ولكن الإيمان الحقيقي (!) لم يكن لينقرض... (ولو سـألناها مـا تحديد الإيمان الحقيقي؟ وكيف يكون؟ وما منهج الوصول إليه؟ ومن أي كتاب يمكن أن يُـستقى؟ وهل إيمان الكاثوليك أصوب وأكثر حقية أم إيمان الأرثوذكس؟ هل المثلثون مصيبون أم مصيبة ما يقولون؟ وهل من يدعون البنوة والتجسد إيمانهم حقيقي؟ الحقيقة أنكم أضعتم الحقيقة...).

تواصل الكاتبة حكاية الإيمان الحقيقي فتقول: فلقد حفظ الله دائماً بقيةً يعبدونه، فـآدم وشيث وأخنوخ ومتوشالح (بالحاء والخاء لا يهمنا) ونوح وسام في صف متصل، ومـن جيـل إلى جيل، حفظوا إعلانات إرادة الله الثمينة (لا تسل عن التعبيرات: إعلانات... إرادة الله الثمينة...)، وقد صار ابن تارح (تقصد إبراهيم) وارثاً لهذه الأمانة المقدّسة. كانت الوثنية تستهويه مـن كـل جانب، لكن عبثاً... فقد كان أميناً ومؤمناً بين الملحدين. (واضح أن للكاتب الحرية الكاملة يكتب ما يشاء ويغضي عما يريد ويختزل ما يختار... فليس من نص مرجعي مُعتَمد مُوثَّق ولا قاعدة ينطلق منها أو يعود إليها...).

ثم تقول الكاتبة: إن الرب (تعالى عما يتوهمون) أعلن (!) إرادته لإبراهيم وأعطاه معرفة ممتازة عن الخلاص الذي سيتم بالمسيح (لا تسل عن المرجع...). أُعطي إبراهيم الوعد: "أجعلك أمة عظيمة..."؛ سفر التكوين. (واضح أن عقدة اليهود هي القلة، فترجمـوا وعـد الله واختزلـوه بتكثيرهم...). هذا الوعد –تقول الكاتبة– أثمن من كل ما عداه، لأنه من نسله سيأتيَ فادي العالم، ونقلت عن سفر التكوين ما يُؤيِّد قولها: "وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض". (طيب إن كان هـذا النص من سفر التكوين يسند ما قالت من نظرية فادي العالم فلماذا لا يـؤمن أصـحاب سـفر التكوين؟ وإذا كان كل أحد حراً في أن يترجم سفر التكوين لما يلذ له فأين الاعتقاد الحقيقي؟).

وجاءت رسالة الله إلى إبراهيم قائلة: "اذهب من أرضك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك"؛ تكوين. تقول: فلكي يؤهله الله لعمله العظيم كحافظ لكلام الله (!) وجب عليه أن ينفصل عن عشراء شبابه، أو تأثير الأقارب والأصدقاء الذي يعطل التدريب، الذي قصد الله أن يـدرب عبدَه.

ودعك من هذه الركاكات في الصياغة، والضحالة في المعنى، فهم يتكلمون عن إبـراهيم كشاب يتأثر برفقائه ومجتمع الرفقاء والأصحاب، ولذلك وخشية أن يؤثروا عليه عزله الله عنهم. والأنبياء هم الذين يؤثرون في البيئة، ولا تؤثر فيهم، وإلاّ فإن موسى رُبّيَ في بيت فرعون، ويوسف في بيت العزيز، وما كانا إلاّ نبيين عظيمين صاغا البيئة على مراد الله.

وتأمل الصياغة الممجوجة في مثل قول التوراة المحرفة المنحولة: "بالإيمان ابراهيم لما دعي أطاع أن يخرج إلى المكان الذي كان عتيداً أن يأخذه ميراثاً فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي" عبرانيين.

ثم فسرت التوراة ما هو إيمان إبراهيم فقالت: "الإيمان هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى...". المهم أن إبراهيم -تقول الكاتبة- خرج من بيته متبعاً قيادة الله (!) (ولا نحاسبهم على التعبير الذي لا يليق فذاك مبلغ علمهم بربهم... فهم لا يعلمون ما يليق وما لا يليق).

ثم تقول التوراة: "بالإيمان تغرب في أرض الموعد كأنها غريبة (!) ساكناً في خيام مع إسحق ويعقوب الوارثين معه لهذا الموعد عينه" عبرانيين.

وتكرر الكاتبة حكاية أرض الموعد (ليرسخوا قناعات ودعايات اليهود الدينية السياسية عن أرض الميعاد... ولا ميعاد لمجرمين عند الله).

وتقول الكاتبة إن من علامات إطاعة إبراهيم أنه لم يسأل هل الأرض خصبة وهل المناخ صحي، وهل الجيرة مقبولة؟

وتقول الكاتبة: "إن لدى الله عملاً لهم أي لهؤلاء العباد ليعملوه". ثم تحدد المكان الذي كان فيه ابراهيم وأنه أور (وهي دعاوى التوراة الذي يأخذها الناس للأسف مسلّمات)، ومنها انتقل إلى حاران. وإن أهل بيت أبيه كانوا يرافقونه، لأنهم جمعوا بين الوثنية وعبادة الإله الحقيقي. (لم نفهم يا ست ألن كيف كان هذا الجمع وهل هو مقبول؟).

ولاحظ أيضاً كيف يزعم أهل التوراة والإنجيل أن قصص القرآن مستقى من كتبهم، ولاحظ الفرق بين الكتاب الكريم والكتب المحرفة، ولاحظ الخلط الذي عندهم، وتحديد الأماكن. وأن "تارح" أي والد إبراهيم كما يزعمون ظل مقيماً مع إبراهيم في حاران إلى أن مات "تارح"، بينما في القرآن يقول الوالد: ﴿واهجرني ملياً...﴾ .

ونواصل على مضض مع الكاتبة الملهمة، فتقول: إنه بعد موت تارح، وكان إبراهيم عند قبر أبيه، أمره صوت الله (!) بالتقدم إلى الإمام. أما أخوه ناحور (هذه معلومة جديدة) وأهل بيته فقد تعلقوا بوطنهم وأوثانهم. وأن لوطاً وحده ابن هاران (حاران) الذي كان قد مات منذ أمد طويل، بالإضافة إلى سارة، اختار مقاسمة إبراهيم حياة الاغتراب.

(ونحمد الله على المنهج العظيم الذي أكرمنا به ونسأل الله أن نرزق الشكر، فلاحظ: كل هذا العجن اختزله القرآن في كلمة حق واحدة: ﴿إني مهاجر إلى ربي...﴾ لا حاران ولا هاران ولا

تارح ولا غيره... ويبدو أن القوم يكتبون من الذاكرة بعد انقطاع مئات السنين، فالمعلومة مشوشة والصورة غائمة، ورائحة القبلية تفوح من الكلمات، والدين نقيض القبلية العصبية... فكيف يأتي الدين ليعزز العصبية القبلية؟ كما هو الحال في صنيع التوراة في قصصها؟).

ولم تنس الكاتبة أن تؤكد أن إبراهيم أخذ معه كل أملاكه. وتعزز كلامها بالنقل عن التوراة وأن إبراهيم ولوطاً أخذا معهما "كل مقتنياهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران"؛ تكوين.

ولا يفوت الكاتبة أن تذكرنا كل بضعة أسطر بأرض الموعد، وتنقل عن سفر التكوين: "وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى أرض كنعان". يا للصياغة والبيان...! فهي أرض كنعان إذاً يا إخوان...!؟. والمكان الذي نزلوا فيه أولاً كان شكيم (أي نابلس لمن لا يعلم تهويد اليهود المجرمين للأماكن). وتعطينا المكان بالتحديد، وواضح أن خيال قصّاص مبتدئ هو الذي يصوغ، وحاشا لله أن تكون هذه الركاكات من كلماته، أو هذه التحديدات الجغرافية من كتابه!.

وتفصل لنا الكاتبة المكان، وتصوره على الطريقة القصصية وتدمج كلامها بالتوراة، فكله من وضع البشر، فلا بأس عليهم!، تقول: فهناك في ظلال بلوطات مورة (!)، وفي واد فسيح فيه عشب كثير حيث كروم الزيتون والينابيع الجارية، بين جبل عيبال من هنا، وجبل جرزيم من هناك، في ذلك المكان نصب إبراهيم خيامه، وكانت البلاد التي أتى إليها إبراهيم جيدة وجميلة، "أرض أنهار من عيون وغمار تنبع في البقاع والجبال. أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان. أرض زيتون زيت وعسل"؛ تثنية. (وأشهد أن هذه التفصيلات هي طريقة بني إسرائيل الذين طلبوا من الله قائمة طعام مفصلة حين قالوا: ﴿من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها...﴾).

تقول الكاتبة (والتوراة معها): على ذلك السهل الخصيب ظل مزعج، ذلك أنه "كان الكنعانيون حينئذ في الأرض"؛ توراة. (واضحة نظرية بني إسرائيل أو بني صهيون أو بني... أنهم يفضلون الأرض خالية من سكانها، وصدق الله في الكتاب الحق إذ يقول: ﴿فإن يخرجوا منها فإنا داخلون...﴾ .

وتأمل الفجور المجرم من الكاتبة إذ تقول: "لقد وصل إبراهيم إلى مطمح آماله ليجد بلاداً احتلها شعب أجنبي...".

لقد أصبح أصحاب الأرض في نظر الكاتبة المتصهينة "شعب أجنبي"، وحاشا لإبراهيم الذي احتضنه شعب فلسطين ان تكون هذه نظرته. فشعب الأرض هم مادة دعوته. ولا أدري كيف تُروِّج الكنيسة العربية لبنانية أو غيرها مثل هذه الكتابات المتصهينة تحت غطاء التبشير!؟

تقول التوراة والكاتبة الناقلة عن التوراة: "وظهر الرب لأبرام وقال: لنسلك أُعطي هذه الأرض"؛ تكوين.

ولا نسأل الكاتبة ولا التوراة: كيف ظهر الرب؟ فهم لا يعلمون رهم ولا يعرفون قدر الله. ولا نسأل ما الفرق بين وثنيتكم ووثنية الوثنيين من "أصحاب الأرض"؟ ولا نسألهم ثالثاً: أرض الميعاد إذا ميراث مشترك بين كل أبناء إبراهيم بزعم روايتكم– فمن أين جئتم بخصوصية إسحق ويعقوب؟ إن النقاش مع هؤلاء ضرب من العبث لا جدوى تحته ولا طائل...

ثم ركزت الكاتبة على حكاية المذبح الذي يقيمه إبراهيم أينما حل، وهذه قضية من صلب الديانة اليهودية المصطنعة، فيكاد الدين كله يختزل في المذبح وحرق البخور.

ثم بشّرتنا الكاتبة بأن بين الكنعانيين من قبلوا دعوة ابراهيم. (هل يقبل بنو إسرائيل هذا؟).

ثم تتحفنا الكاتبة بأخبار سيئة أن السماء منعت الأمطار، ولم تعد جداول المياه تفيض في الأودية، فجفت مراعي السهول، فلم تجد قطعان الغنم أو الماشية مرعى. وتفسر هي لنا مسلك إبراهيم فتقول: لم يستطع إبراهيم تفسير تصرفات العناية، ولم يحقق ما كان ينتظره. غير أنه تمسك بالوعد القائل: "أباركك (!!) وأعظم اسمك وتكون البركة". (ما شاء الله ما أروع هذا البيان وما أسمى هذا النسق من التعبير!). المهم أن إبراهيم لم يسمح للظروف أن تزعزع إيمانه بالله، فلكي يتقي شر الجوع ضرب في الأرض. وتفسر لنا لمَ فعل الرب ذلك بإبراهيم فتقول: ليعلمه دروساً في التسليم والصبر والإيمان، ونصها: "أن الله يقود أولاده (!) في طريق لا يعرفونه...".

ثم تنقل عن التوراة أسوأ مما قالت هي: "لأني عرفت الأفكار التي أنا مفتكر بها عنكم يقول الرب أفكار سلام لا شر"؛ ارميا (هكذا بالنص، فإذا لم تفهم شيئاً فهو من طلاسم النص...).

ثم أدخلت هدفها التبشيري (أو التبشير المصطنع الذي يغطي التصهين المخفي...) فقالت: إن التجارب تزيدنا اقتراباً من المسيح، حتى نضع كل أثقالنا عند قدميه، ونختبر السلام الذي يمنحنا إياه... إن يسوع يراقب عملية الامتحان، ويعرف ما يلزم لأجل تنقية المعدن الثمين وتصفيته...".

(وجيّد أنه يعرف. ولا أدري هل هؤلاء الناس يؤمنون بفعالية الإنسان ودوره، أم يؤمنون بمركزية دور المسيح في حمل الأخطاء والخطايا عن الإنسان، وبالتالي فلا قيمة للجهد ولا للتزكية ولا للامتحان؟!).

ثم تعود بنا "القصّاصة" إلى مصر في أثناء وجود إبراهيم فيها، فتتحفنا باكتشاف جديد: "إبراهيم في مصر برهن على أنه لم يكن متحرراً من الضعفات والنقائص البشرية، ففي إخفائه لحقيقة كون سارة زوجته كشف عن عدم ثقته في رعاية الله وعنايته، وإلى افتقاره إلى ذلك الإيمان الرفيع والشجاعة النادرة...".

(هكذا هم بنو إسرائيل، يكذبون الكذبة، ثم يبنون عليها ويستنتجون منها الاستنتاجات، ويبنون عليها أهراماً من التحليلات، وهي كلها مبنية على ما افتروا. وهذا النص فسر لنا من اين جاءتنا قصة إبراهيم في مصر وسارة وفرعون.

والقوم يكتبون عن خليل الله قدوة الأنبياء، ومع هذا يتكلمون عما يزعمونه ضعف إيمان ونقص شجاعة، فأين القدوة وأين الأسوة...؟ وهذا يفسر لنا من زاوية أخرى لمَ يصف بنو إسرائيل الأنبياء بهذه الصفات ذلك ليعللوا مسالكهم وخساسهم ونقائصهم).

وتوغل التوراة والناقلة عنها في الضلال إذ تزعم أن سارة كانت أخت إبراهيم لأبيه: "كانت سارة "حسنة المنظر". ولم يشك في أن المصريين السمر البشرة قد يشتهون تلك التريلة الفاتنة، وأنهم لن يتحرجوا في قتل رجلها في سبيل الظفر بها، وقد ظن أنه لا ينطق بالكذب بقوله عنها إنها أخته، لأنها كانت ابنة أبيه، وإن لم تكن ابنة أمه، ولكن إخفاء تلك العلاقة الحقيقية بينهما كان تضليلاً".

(ولنحمد الله على ما أكرمنا من قصص القرآن، وأن أغنانا عن ترهات أتباع الشيطان، ورفعنا من مستوى النقلة للمعرفة إلى متلقيها مباشرة من مصدرها نقية لم تشب... ففي السطور الثلاثة الماضية التي نقلناها عن كتابهم ضلالات تكفي لتقنع من لا يزالون يتلقفون الإسرائيليات بالانقطاع عنها. فإبراهيم -وحاشا- متزوج من أخته لأبيه، ثم هو يضلل الناس ويكذب، وتعالى ربنا أن يكون رسله بينه وبين الخلق على هذا النعت والوصف والخُلق!! وإبراهيم الخليل... ثاني أعظم أنبياء الله يستحيل أن يكون على ما وصفوا... وإن البشرية لفي أمس الحاجة إلى كتابنا.. الذي لم نحسن تقريبه للناس وعرضه لهم... فظلوا في الضلال البعيد).

وتفيدنا الملهمة بأن: "الله لا يمكن أن يرضى عن أقل انحراف..." (قولي لنفسك إذاً كيف يختار رسلاً بهذه الصفات؟ إنما صفات بني إسرائيل، لا أنبياء الله...). ثم تقول: "وبسبب عدم إيمان إبراهيم (!!) (هكذا) وقعت سارة في خطر عظيم، فعندما سمع ملك مصر وصفاً لجمالها أمر بنقلها إلى قصره... لكن الرب حفظ سارة بإرساله الضربات على العائلة المالكة، وبهذه الوسيلة عرف الملك حقيقة الأمر، ووبخ إبراهيم على الخداع، وقال له: "لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لتكون زوجتي؟"؛ تكوين ١٢: ١٨.

وحصل إبراهيم على انعامات من الملك، وكان القانون المصري يحرم على المصريين مخالطة الأجانب، ولو بقي إبراهيم في مصر لكان من المرجح أن ثروته المتزايدة تثير حسد المصريين وجشعهم، وربما لحقه أذى... الخ.

وهو تفسير مادي إسرائيلي للنبوات والأحداث والتاريخ والبشر والشعوب!! ثم تعقد الكاتبة (الواضح تأثرها بالثقافة الإسرائيلية... إن لم تكن...) تعقد مقارنة بين اختبار إبراهيم في مصر، واختبار نسله من بعده بعدة قرون. فكلاهما نزل بسبب الجوع (!!)، وكلاهما تسبب بوقوع ضربات على المصريين، وكلاهما اغتنى من هدايا الوثنيين (وهنا بيت القصيد الإسرائيلي: المال... وحاشا...).

إبراهيم في كنعان

تقول الكاتبة: عاد إبراهيم إلى كنعان (تقصد فلسطين) غنياً جداً (هذا هو المهم عندهم) في المواشي والفضة. وتقول: انظر التكوين (سفر نفسية بني إسرائيل، والشاهد على وضعهم في كلام الله وتحريفهم له...): وعاد هو ولوط إلى بيت ايل، ونصبا خيامهما إلى جوار المذبح (هذه المنهجية التفصيلية الحرفية شبيهة جداً بالعقلية الإسرائيلية الحرفية...)، واكتشفا أن كثرة الأملاك زادت من همومهما (الأنبياء لا تشغلهم الدنيا والأشياء...)، وعاشا من قبل في وفاق ولكن خشيا أن تنشب الخصومة بينهما (أعوذ بالله من هكذا تفكير من هذه الكاتبة الملهمة أو المبهمة...)، وكان لا بد من انفصالهما لصون السلام (ماذا نقول؟ وكل كلمة فيها مجال واسع للتعليق، والذي أخشاه أن صون السلام يحتاج إلى مثل هذا العلاج... فافهم!!).

وتنقل عن الكتاب المشحون بالتحريف: "لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك، اعتزل عني. إن ذهبت شمالاً ذهبت يميناً...".

ومع أن لوطاً كان مديناً بنجاحه لصلته بإبراهيم إلاّ أنه لم يعبر عن شكره لمن أحسن إليه (ويسألونك: من أين أتى ويأتي الانحراف إلى نفسية بني إسرائيل؟ والسؤال: كيف لا يأتيهم مثل هذا وفي كتابهم مثل هذا؟!).

وتأمل العبارة التالية عن النبي الكريم لوط (وحاشاه مما يقول المجرمون المتقولون الزاعمون أنهم يكتبون عن الأنبياء وأنهم يقدرون الأنبياء. فإذا كان الأنبياء أنانيين وكانوا مخادعين، فلم كانوا أنبياء؟ وماذا يكون سائر الناس؟!)، تقول: من أنانيته أراد أن يغتنم الفرصة ويحتفظ لنفسه بكل مزايا الاختيار، "فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الأردن أن جميعها سقي كجنة الرب كأرض مصر..."؛ تكوين ١٣: ١٠-١٣.

وتقول تصف الجغرافيا والطوبوغرافيا والزراعة: كان أخصب إقليم في كل فلسطين هو وادي الأردن، وكان يذكر من يشاهدونه بالفردوس المفقود، وأرض النيل، وأسواقه المزدحمة، وإذ بهرت لوطاً مناظر الأرباح المادية (هكذا بالنص) لم يعد يرى المآسي والشرور الروحية التي سيلاقيها هناك، وكان سكان السهل "أشراراً وخطاة جداً لدى الرب". كم كان قصير النظر (؟!). (ألا قاتل الله من قال هذا فإن الأنبياء يرسَلون بأمر الله إلى حيث يريد الله لا حيث يشاءون).

بعد اعتزال إبراهيم عن لوط أعاد الرب له الوعد بأنه سيعطيه كل الأرض (!!)، وبعد قليل انتقل إلى حبرون، ونصب خيمته تحت بلوطات (لم تقل لنا كم بلوطة؟!) تاركاً للوط وادي سدوم المترف، مقتنعاً بحياة البساطة. كانت الأمم المجاورة تحترم إبراهيم وتوقره كأمير عظيم ورئيس حكيم (يعني أن الشعب الفلسطيني آمن بإبراهيم ووقره أحسن من بني إسرائيل الذين يتهمونه بالخداع).

ثم تدخل الكاتبة في تواريخ وأسماء ملوك وصراعات بين ملك عيلام وكنعان وكيف هزم الغزاة جند السهل وأسروا لوطاً وعائلته!!.

ولم يكن إبراهيم يحقد على لوط (!!) بسبب نكرانه لفضله (!)، فطلب مشورة الله (!!) ومن ثم تأهب للحرب، فجند من عبيده ثلاثمئة وثمانية عشر رجلاً، وإذ كان جند عيلام سكارى، فقد باغتوهم، وانتصر جند إبراهيم، وقتل ملك عيلام، وعند عودة إبراهيم خرج ملك سدوم لاستقباله، وقال لإبراهيم: خذ أنت الأملاك وأعد الأسرى، لكن إبراهيم اشترط فقط أن يأخذ حلفاؤه النصيب الذي يستحقونه (الجهاد صفقات!)، ورحب بإبراهيم أيضاً (ملكي صادق: ملك ساليم) الذي أخرج خبزاً وخمراً لإنعاش جيشه (!!)، فأعطاه إبراهيم عشراً من كل شيء (العقلية

الإسرائيلية الحاسوبية!) رجع ابراهيم فرحا إلى خيامه وقطعانه (حولوا قصة نبي من أعظم الأنبياء إلى قصة بطل غزو وغنائم وتوزيع تركات وثروات ومغانم...).

وفي رؤى الليل عاد ابراهيم يسمع صوت الرب قائلاً: "لا تخف يا ابرام. أنا ترس لك. أجرك كثير جداً": التكوين ١٥ : ١ : ٥ (ولن نتكلم على هذا النص ولا التشبيه الذي فيه...).

ونواصل: ولكن عقل ابراهيم كان متشائما (يعني برغم تطمين الرب لم يتغير تشاؤم ابراهيم!!). والنص صريح إذ يكمل بعد ذكر التشاؤم: كان يطغى عليه التشاؤم بحيث لم يكن يستطيع الاستناد على الوعد بثقة لا يتطرق إليها الشك، كما فعل قبلاً، فتصلب بطلب برهان ملموس على أن الوعد سيتم، وكيف يتحقق عهد الله معه في حين أنه محروم من عطية البنين؟

ثم تأتي الكاتبة على (شاهد زور) لها من الكتاب المحرف: "فقال: ماذا تعطيني وأنا ماض عقيما؟" (أهذا بالله عليكم قصص أنبياء؟ أو قصص ديني؟ أهذا قصص الكتاب المقدس؟ نبي لا يثق بوعد الله. ويطلب دليلا ملموساً حتى يصدق الله؟ ثم يحاج الله: كيف تعدني ولا وارث لي؟!؟).

ونكمل المشوار مع الكاتبة الملهمة (بكل ما ينغص)، تقول: واقترح ابراهيم أن يكون اليعازر عبده ابنا له بالتبني، ووارثا لأملاكه (النبي تشغله الأملاك والأطيان والأنعام!)، تقول: ولكن الله أكد له أن الابن الذي سيخرجه من أحشائه (هذه لا تقال للرجال!!) هو الذي سيرثه.

ثم أخرجه إلى خارج الخيمة. وقال له أن ينظر إلى نجوم السماء التي لا تعد. فإذ نظر جاءه القول الإلهي: هكذا يكون نسلك. (وهنا نقطة حديث يطول. فهل اليهود اليوم الذين يزعمون أنهم من نسل إبراهيم، وما هم من نسل إبراهيم ولكنهم من نسل يهود الخزر الأسيويين. وهل الفلاشا من نسل ابراهيم؟ المهم. هذه بشارة لا تصدق على اليهود الذين هم بعدد سكان القاهرة فقط. ولكنها تصدق على المسلمين الذين هم ربع سكان الكرة الأرضية أو خمسها على أقل تقدير...).

وهل تظنون أن ابراهيم بعد هذا قد صدّق؟ نحن نعتقد انه مصدق قبل هذا ولكن الكاتبة تخبرنا أنه توسل في طلب علامة ظاهرة. واستمع الآتي على سقمه وتحمل وتجرع: "وتنازل الرب ودخل في عهد مع عبده" (هذه المساومات هي طبيعة أصيلة في بني إسرائيل، وحاشا لإبراهيم في صلته بربه، وهو العبد المنيب أن يكون كذلك، ولكني لست أقرأ في كل هذا إلاّ نفسية شيلوك اليهودي لا غير ولا صلة لإبراهيم عليه الصلوات والتسليم بكل هذا الكلام السقيم...).

ونواصل: قدم إبراهيم ذبيحة من عجلة وعنزة وكبش عمر كل منها ثلاث سنين (لاحظ التحديد الإسرائيلي...) وشقها كلها من الوسط، وجعل كل شق مقابل صاحبه. كما أضاف إلى

هذه يمامة وحمامة (علامة يعني) ولكنه لم يشقهما (بالضبط هذا هو الذي حصل!. لكنهم لم يخبرونا عن عمر اليمامة ولا لون الحمامة...). وظل واقفا بجوار الجثث إلى مغيب الشمس يحرسها خيفة أن تنجسها الجوارح، وعند مغيب الشمس وقع عليه سبات عميق. "وإذا رعبة عظيمة مظلمة واقعة عليه"؛ التكوين ١٥ : ٧ وسمع صوت الله يقول له ألاّ يتوقع امتلاك أرض الموعد في زمن قريب...

وضماناً لعهد الله جازت نار كرمز لحضور الله بين تلك القطع. ثم التهمتها كلها النار. ثم سمع إبراهيم صوت الله ثانية مثبتا وعده بأنه سيعطي أرض كنعان لنسله. ثم نقلت الكاتبة العظيمة من التوراة المحرفة (بالفاء لا القاف) بأن الرب سيعطيه ولنسله "من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات" (المسألة نص إذاً. وليست سياسة تخفى وتعلن. والأطماع لها أساس مما حرفت أيديهم وافترت أقلامهم وعقولهم المريضة. وإذا كان شعب إسرائيل عشرين مليوناً فما حاجتهم إلى أرض من النيل إلى الفرات؟!).

المهم. تقول ملهمتنا: بعد خمس وعشرين سنة من سكنى إبراهيم في أرض كنعان ظهر له الرب قائلاً: "سر أمامي وكن كاملا"؛ التكوين. "هو ذا عهدي معك. وتكون أبا لجمهور من الأمم". (اليهود ليسوا جمهوراً فهم في العالم كله جمهور مباراة أو سينما. انما الأمم ذات الجماهير أمة المسلمين لكنها تنقصها القيادة التي تجعلها أمة فاعلة، وأوتي أولئك القيادة التي حولت قلتهم كثرة، وقياداتنا حولت كثرتنا قلة!!).

ثم غير الرب اسم إبرام إلى إبراهيم، وساراي إلى سارة ومعناها أميرة. (هذا مهم جداً...!! ولاحظوا حكاية تغيير الأسماء، فهي مازالت عادة عند جمهور اليهود).

ونواصل: في حر النهار، في الظهيرة. كان إبراهيم (تعبيرها الشيخ القديس) جالساً في باب خيمته يتطلع أمامه في ذلك البر الهادئ (وصف قصصي!!) وإذ بثلاثة مسافرين مقبلين. واحضر لهم ماء ليغسلوا أرجلهم (الوجوه أولى!). وباحترام وقف لديهم حتى تناولوا من تلك المائدة... نص سفر العبرانيين: "أضاف أناس ملائكة وهم لا يدرون". (المهم أن الملائكة أكلوا. تقول توراتهم ويقول كتابنا الحق بخلاف ذلك...). لقد كان هؤلاء رسل غضب (هكذا). وتأمّل هذا التعبير: "ومع كون الله دقيقاً وحازماً في مراقبة الإثم ومعاقبة العصيان فإنه لم يسر بالانتقام. وقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله؟" (سفر التكوين). ونزل الرب وامتحن أهل عمورة قبل أن يعذبهم (!!). وتوسل إبراهيم إلى الرب ألاّ يهلك هؤلاء... إن روح إبراهيم هي روح المسيح... (عظيم

جداً. إذاً المسيح بشر لأن إبراهيم بشر، وبنص الكتاب: وأنا تراب ورماد). المهم أن إبراهيم دعي خليل الله، وأبا لجميع الذين يؤمنون.

محك الإيمان

لقد قبل ابراهيم وعد الله بإعطائه ابناً (وأخيراً؟!) بدون سؤال (لا تفرحوا!). إلاّ أنـه لم ينتظر الله ليتمم وعده في وقته المناسب وبالكيفية التي يريدها، وقد سمح بالتأخير لاختبـار إيمانـه بقدرة الله (عجبٌ لا ينتهي من هؤلاء الناس ومن جُرْأتهم على الله في الوقت الذي يزعمون فيـه التبشير بدين الله وهم أكفر الخلق بالله!).

وتواصل الكاتبة: ولكنه أخفق في احتمال التجربة (!!). (وكانت قالت قبل قليل إنه قبل وعد الله!!). وظنت سارة أنه من المستحيل أن تُعطى ابناً في الشيخوخة (!) فاقترحت خطة ظنتها كفيلة بإتمام غرض الله، وهي أن يتخذ إبراهيم إحدى جواريه زوجة إضافية (سَرِيّة) وكان تعـدد الزوجات شائعاً (هم يقولون). ولكنه كان انتهاكاً لشريعة الله. (امرأة نبي عظيم وحاشاها تقتـرح انتهاك شريعة الله من أجل تنفيذ وعد الله. ميكيافيلي لم يكن وُلد بعد. وهو يهودي).

ولقد نجم عن زواج إبراهيم من هاجر شرٌّ لم يقتصر عليه وحده بل تعدّاه إلى الأجيـال التالية (تفضّل يا عم! نحن شرٌّ على البشرية ومصيبةٌ على البريّة...). وإذ كانت هاجر تُؤمّـل أن تكون أمّاً للشعب العظيم بدأت تتكبر وتُعامل مولاتها باحتقار، وعكّر التحاسدُ صفو البيـت، وإذ كان إبراهيم مُضطَراً لأن يستمع لشكايات كُلٍّ من الزوجتين فقد حاول عبثاً أن يعيد الوفاق (لا أدري أين القدوة في هذا البيت؟ وأين القدوة في هذه الشخصيّات؟ وأين القدوة في سيرة كهـذه السيرة؟ حاشا لصاحبها بطبيعة الحال، إنما هي افتراءات القوم على الله وأنبيائه).

ومع كون إبراهيم تزوج هاجر نتيجة توسلات سارة، إلاّ أن سارة وبخته (!) كأنه هـو المخطِئ، ورغبت أن تنفيَ ضرتها بعيداً عنها، وكان إبراهيم يرجو أن تكون هي أم ابنه الموعود... لكن روح هاجر المتكبرة لم تكن تطيق القسوة التي كانت قد أثارتها على نفسها بوقاحتها (أعـوذ بالله. هكذا والله بالنص. هذه هي القصص الدينية عندهم...!) فأذلتها ساراي فهربت من وجهها!! (تحولت القصة الكريمة العظيمة إلى صراع ضرائر وإبراهيم بينهما عاجز غائب.! حاشا).

سارت هاجر إلى البرية، فظهر لها ملاك الرب فقال لها: هاجر جارية ساراي. ارجعي إلى مولاتك. واخضعي تحت يديها. الرب قد سمع لمذلتك وقال تكثيراً أكثر نسلك (لا تترعج من الركاكة) فلا يعد من الكثرة. وقد أمرها أن تدعو ابنها إسماعيل، "الله يسمع".

وعندما بلغ إبراهيم المئة كرّر له الرب وعده بأنه سيعطيه ابناً. (ولست أدري لِمَ يكسرّر الرب وعده هكذا!)، وأكّد له أن الابن الذي سيرث ستنجبه سارة، إلاّ أن إبراهيم لم يكن يفهم الوعد بعد.

(وتأمّل هذه السفاهات، وتأمّل هذا الأساس للعنصرية العصبية والشوفينية الصهيونية والأساس العقدي للتمييز بين البشر، فلماذا لا يكون ابن الجارية مع الورثة؟ ولماذا ابن الحرة هو المكرم دون غيره؟ أليس هذا هو أساس التمييز الذي أهلك البشرية؟!). (ثم إن الوعد تكرّر مرّات وإبراهيم لم يفهم بعد!!) ولأنه لم يفهم فإن فكره اتجه في الحال إلى إسماعيل، ولكن الرب صوّبه بكلام لا يقبل اللبس فقال: "بل سارة ستلد ابناً وتدعو اسمه اسحق، وأقيم عهدي معه". وأما إسماعيل فأُباركه وأجعله أُمةً كبيرة (يعني أمة بلا أرض ولا وعد!!).

وكانت ولادة سارة انهياراً لكل آمال هاجر (تأمل نفسية الحقد تحت غطاء القصص الديني!!). لقد أُهمل إسماعيل وأُلقي جانباً (هكذا)، ففي فشلهما هو وأمه أبغضا سارة. (مجتمع الكراهية. ورحم الله سعد جمعة. هذا ليس قصص كتاب سماوي. ولكنه قصص كتاب أرضي). وزادت الأفراح في حسدهما (تفسير للحسد المتأصل في النفسية الإسرائيلية. وهذا في علم النفس هو الإسقاط!).

ووجدت سارة في مشاغبات إسماعيل نبعاً مستمراً للمنازعات، فجعلت تلح على إبراهيم أن يطرد تلك الجارية وابنها (ظلت جارية وظل ابنها ابن جارية وسنظل إلى يوم القيامة. هكذا هم اليهود!). واستجاب ملاك الرب لسارة وأخبر إبراهيم بذلك وإجابة طلبها، وأطاع إبراهيم كلام الملاك (يبدو أنه اقتراح شخصي من الملاك...! عجايب). كانت سارة هي الزوجة الحقيقية (طبعاً...! واليهود هم الشعب الحقيقي، وباقي الناس صور بشر وحقانق الحيوان!!).

والرب لم يوبخ سارة لأنها طلبت طرد ضرتها (يعني الرب يقر التمييز والظلم. تعالى الله عما يقولون). واستمع: إن إبراهيم وسارة كليهما لم يثقا بقدرة الله (العياذ بالله. ما هذا القصص الديني؟ وبم يبشر هؤلاء المبشّرون؟ وما هذا الدين القائم على مثل هذه الهرطقات؟).

وكانت هذه (أي عدم الثقة) هي غلطتهما التي أدت إلى زواجه من هاجر (زواج هاجر غلطة. وإبراهيم يُعاقب عليها...!).

ولقد ظهرت (كذا) عدم ثقته بالله حين قال عن سارة انها أخته (يعني معود على هذا. حاشاه)، ولكي يربيه الله، امتحنه أقسى امتحان، ففي رؤيا الليل (هكذا اللغة وإلاّ فلا..!) أمره الله أن يذهب إلى أرض المرايا (ما هي هذه وأين تقع، لا تسل!) ويقدم ابنه ذبيحة محرقة (التعبير المدهش!).

كان إبراهيم قد بلغ العشرين بعد المئة، يسير مترنحاً إلى قبره (!!)، وكان يسكن بئر السبع (لاحظ الإغراق في التفصيلات!)، وكان غنياً جداً (النفسية اليهودية وراء هذا الحديث...).

لقد انتظر طويلاً ميلاد الوارث الموعود، وطرد ابنه إسماعيل، وحين أيقن أن آماله تحققت امتُحن هذا الامتحان (يريدون أن يسرقوا منا الذبيح!) قال الرب: "خذ ابنك وحيدك اسحق. واصعده محرقة"؛ تكوين ٢٢:٢. (وهنا نسأل: أليس إسماعيل ابناً؟ فكيف يكون اسحق وحيداً؟ إن كلمة وحيداً تشهد لاسماعيل، فهو الذي كان وقت أن لم يكن اسحق! ولكن اليهود لصوص، يريدون سرقة هذا الشرف من العرب وأبيهم إسماعيل).

كان الشيطان قريباً من إبراهيم (بل هو قريب من أولياء الشيطان من اليهود والمبشّرين) وظن إبراهيم أنه كان واقعاً تحت وهم أو تضليل، وأراد أن يتحقق من أمر الرب، وكان أمر الله لا يزال يرن في أذنيه: خذ ابنك... وحيدك... الخ. وتردّد إبراهيم بين ابنه النائم اسحق وزوجته سارة النائمة، فهل يوقظها؟ إنه يخاف أن تعطله عن أمر الله، أخيراً استدعى إبراهيم ابنه للذهاب معه إلى جبل بعيد لتقديم ذبيحة (!!)، وكان قد ذهب مراراً مع أبيه فلم يندهش! وأعد الحطب ووضعه على الحمار (مهم جداً!).

إن إبراهيم لا يزال يؤمّل أن يأتيه ملاك السماء بأن قد امتحنت بما يكفي. (يعني امتحان شكلي...!).

وكان الشيطان قريباً (تُطمئننا الكاتبة وكيلة الشيطان أنه قريب منها). وكان إبراهيم يرغب في ألاّ يشاهد أحد منظر الوداع بينه وبين ابنه. فوضع الحطب على اسحق، وأخذ هو بيده النار والسكين، وكان الشاب مندهشاً، وأخيراً قال: يا أبي هو ذا النار والحطب، ولكن أين الخروف؟ ولما عرف الابن تملكه الرعب والذهول (هكذا، وقارن بما في القصص الحق، تعرف الفرق بين الحق المصفّى، والباطل المشوب بشيء من رائحة ما كان الحق!).

وبعد أن سكبت آخر دمعة (!) وبعد المعانقة، رفع الأب السكين ليذبح ابنه، وفجأة توقفت يده. لان ملاك الرب نادى الشيخ: إبراهيم... إبراهيم... لا تمد يدك إلى الغلام. لأني الآن علمت أنك خائف الله. فلم تمسك ابنك وحيدك عني (تكوين). (وتأمل الصياغة وما عندك من آيات بينات، تعرف فضل الله على أمة الإسلام بالقرآن وقصص القرآن).

حينئذ نظر ابراهيم وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه (هكذا). فأصعد الذبيحة عوضاً عن ابنه، وأطلق على تلك البقعة "يهوه يراه" (الله يرى). ثم جدّد الله العهد مرة أخرى (كم مرة حتى الآن؟!).

ثم تُدخل الكاتبةُ كما صنعت مرات، تبشيرها في السياق، فتقول: إن الله لكي يطبع على عقل إبراهيم حقيقة الإنجيل أمره أن يقدم ابنه. (ونقول للأخت الفاضلة! هل كان الإنجيل نزل يا أخت؟!). كان من الصعب على الملائكة أن يفهموا سر الفداء (تسريبه أخرى من تسريبات التبشير وتهيئة الذهن لحكاية الفادي...).

ثم تكلم الكتاب عن هلاك سدوم. ولا ندخل في تفاصيل ما كتبت الكاتبة العظيمة، ولكن ننقل يسيرا مما في الكتاب: أمر الملاكان أن يأخذ لوط امرأته وابنتيه (مُغاير للحق الذي عندنا من هلاك امرأته...) إلاّ أن لوطاً توانى. لأنه لم يكن يدرك الإثم المشين الذي كان يُرتكب في المدينة...!! ولم يكن متحققاً من تلك الضرورة المروّعة لقضاء الله للحدّ من الخطيئةَ...!!

لقد تعلّقت بعض بناته بسدوم، كما رفضت زوجته الرحيل بدونهن، كما كان من الصعب عليه أن يترك بيته الفخم الجميل وكل ثروته... (هذا هو المهم عند بني إسرائيل!! والذين ينقلون عن بني إسرائيل... المال والبيت الجميل!). لقد توانى وهو غير راغب في الرحيل!! ولولا وجود ملاكيْ الرب لهلكوا... فأمسك الملاكان بيده وبيد امرأته وابنتيه وأخرجاهم خارج المدينة. (واضح لا يحتاج إلى تعليق أنّ هذا يتناقض مع طبيعة النبي، وإن كان القوم لا يعتبرونه نبياً. رُبّما. ومناقضٌ كذلك لطبيعة الدين والنفس الإنسانية والاختيار الإنساني! لكن هذه عقائد القوم وهذا فهمهم!).

إن تأخر لوط للحظة ليرى بيته الجميل ويبدي أسفه عليه كان سيهلكهم!! كان لوط مُرتبكاً ومُرتعباً، وتوسّل في طلب الإبقاء على حياته!! (شيءٌ عجيبٌ...!!). وإن واحدة ممن كُنّ مع لوط تجرّأت والتفتت إلى الوراء فصارت تمثالاً... (هذا الدين هو دين العقل والمنطق!!، ودين

الإسلام في نظرهم دين الخرافة والأوهام!! ولا أدري أي الفريقين أحق بالوصف هذا في نظرهم لا في نظرنا، ففي نظرنا الأمور محسومة...!!).

ثم تُعلّق الكاتبة: كم كان البون شاسعاً بين حياة إبراهيم وحياة لوط. مع أنهما كانا يتعبدان أمام مذبح واحد. ولكن ما أعظم شقة البعد بينهما الآن!!. فقد سمح لوط لبناته بالزواج من أشرار، وترك ذبيحة إبراهيم (الذبح في دين اليهود هو كل دينهم...!!).

وختمت الكاتبة كتابها بالحديث عن الشعب الموعود والأرض الموعودة، لترى عُمق ارتباط القوم بالأطروحات اليهودية: "ولكن كلمة الله لم تسقط ولا تمت نهائياً في احتلال الشعب اليهودي لأرض كنعان!!". وقد يبدو كأن الله تأخر كثيراً في إتمام وعده (إنهم لا يعرفون قدر الله ولا يعظّمونه!).

إن الهبة المقدمة لإبراهيم ونسله لم تقتصر على أرض كنعان وحدها، ولكنها شملت الأرض كلها. والكتاب المقدس يخبرنا صريحاً أن المواعيد المقدمة لإبراهيم تتم في المسيح".

(والحقيقة أن أتباع المسيح اليوم ألغوا عقولهم وأصبحوا تابعين في الدين والفهم لنصوص اليهود وتفسيرات اليهود لهذه النصوص. فصاروا مُبشِّرين بمقولات اليهود أكثر مما هم مُبشِّرون بدين المسيح. ولا أدري كيف تُروِّج كتب التبشير الممجِّدة لبني إسرائيل والمتطاولة على الأنبياء في بلاد المسلمين، ومن المسيحيين العرب غيارى على أنبياء الله، وعلى أوطانهم، ومعادين للصهيونية وأطماعها...!!).

الكتاب الثالث والثلاثون

الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل

تأليف: الدكتور الحاج محمد وصفي / بعناية: بسام الجابي
ط١، دمشق؛ بيروت؛ قبرص: الجفّان والجابي ودار ابن حزم، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل / الدكتور الحاج محمد وصفي:

يقع الكتاب في ثلاث وثلاثين وأربعمائة صفحة، وفي أربعة وعشرين مبحثاً. يعرّف الناشر بالباحث في مقدمة الناشر فيقول إنه من مواليد ١٩٠٨م، ومتوفى سنة ١٩٦٩م في القاهرة، عمل مدرّساً بكلية الطب، له غير هذا الكتاب كتاب الإسلام والطب، وكتب أخرى عن الرجل والمرأة والمسيح وغير ذلك... وقال الناشر إن هذا الكتاب طبع سنة ١٩٦٥م، واعتبر تلك الطبعة أصلاً لهذه الطبعة. وفي صفحة الإهداء أهدى الكاتب كتابه إلى محمد ﷺ.

وفي المقدمة قال: إن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية أعلن عن مسابقة لتأليف كتب في موضوع: "الارتباط الزمني..."، ولم يتقدم أحد، فتقدم الكاتب... وقال إن الإخلاص للموضوع جعله لا يحيد عن كتاب الله (سنرى... ونرجو...) حتى لا ينحرف الفكر، ويقول إنه عند كل مبحث يذكر أقوال المؤرخين المسلمين في نسب النبي ﷺ الذي يتناوله (انتهت حكاية لا أحيد!! وسريعاً...!! فالمؤرخون المسلمون عن الإسرائيليات يأخذون...!!).

المبحث الأول: آدم عليه السلام والعقائد المستخلصة من قصته:

١- قال في أول سطر: آدم هو أول مخلوق إنساني خلقه الله، وهو أول الجنس البشري، ومنه ومن زوجه جاء بنوه الذين عمروا الأرض... وهو أول اسم ذكره الله في المصطفين: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً...﴾ . ثم ذكر الآيات المتعلقة بقصته على ترتيب المصحف: سورة البقرة، فـ "الأعراف "، فـ "الحجر"، فـ "الإسراء"، فـ "الكهف"، فـ "طه"، فـ "ص"، ثم ذكر سورة مريم.

٢- آدم نبي مرسل. وذكر أحاديث لا تصح بحال نقلها عن البداية والنهاية والقرطبي ودائرة المعارف الإسلامية والطبقات لابن سعد وابن قتيبة.

٣- العقائد المستخلصة من قصة آدم:

أ- عقيدة التوحيد. واستعرض بعض الآيات وخاصة آيات سورة البقرة.

ب- الإيمان بوجود الملائكة والجن.

ج- خلق الإنسان من طين. وذكر العناصر.

د- خلق زوج آدم. (ذكر حكاية الضلع والخلافات...).

هـ- الرسل والكتب المنزلة؛ ﴿فإما يأتينكم مني هدى...﴾ .

و- جنة آدم، ويرى أنها حديقة في الأرض. وذكر المذاهب والأقوال في موضوع الجنة، وأطال كثيراً.

ز- معصية آدم وتوبته. وذكر الآيات كلها، والخلاف في الشجرة.

ح- الحياة البرزخية والبعث. يقول: تبين قصة آدم أن هناك حياة برزخية، وهي في نظره المعيشة الضنك (في البرزخ).

ط- فناء الحياة الدنيا. ﴿إلى يوم الوقت المعلوم...﴾ .

ي- جهنم وخلود العذاب فيها. (بعض الآيات المذكورة في القصة).

ك- الجنة وخلود الثواب فيها.

ل- العصيان؛ ﴿وعصى آدم...﴾ .

م- الفتنة.

ن- ﴿يا بني آدم...﴾ . (يقول هذه الآية أنزل معناها في كتب الرسل. ويذكر آيات سورة الأعراف وغيرها).

المبحث الثاني: شيث وإدريس عليهما السلام:

يبني قصة شيث على "قيل"، إن آدم ولد له شيث وكان نبياً... وهذا ليس له في مصادرنا أي سند، وهذا هو الوهن. وقد حدّد الكاتب مولده بأنه كان بعد مئة وعشرين سنة على هبوط آدم، وبعد خمس سنين من قتل قابيل (!) لأخيه هابيل (!). وقيل: إن معنى شيث هبة الله. وقيل: إنه كان وصي آدم (ما حكاية الوصي هذه؟)، وإليه ينسب العبرانيون سلسلتهم وعمود نسبهم (وما لنا نحن؟)، وعاش (٩١٢ سنة) !!

وروي عن أبي ذر في حديث عن رسول الله ﷺ أن الله أنزل مئة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة. ويثبت نبوّته بنص من صحيح ابن حبّان كما يقول عن أبي ذر مرفوعاً. وذكر أولاده. ونقل عن وهب بعض أخباره، وقال إنه أول من بنى المدن والقلاع، وهو بنى مدينة بابل، ودامت دولته أربعين سنة!!.

ثم عقّب الكاتب بأن أغلب هذه الروايات أُخذ عن كتب اليهود! وذكر النص من سفر التكوين أن ابن شيث دعي: ابن الرب!!. ثم ذكر جدولاً زمنياً منقولاً عن سفر التكوين عن السن الذي وُلِد فيه كل ولد، وكم عاش الوالد بعد الولد، ولا ندري ماذا في هذا من فائدة...

ثم انتقل إلى إدريس. وقال: إنه لا شك أنه بُعث بين آدم ونوح!! ثم سأل هل إدريس هو أخنوخ الذي في العهد القديم؟ ونقل عن ابن سعد عن ابن عباس: أول نبي بُعث بعد آدم إدريس (وكان قبل قليل يقول الكاتب نفسه إنه شيث! حتى نعلم انعدام المنهجية!). وكان يصعد له في اليوم من العمل ما لا يصعد لبني آدم في شهر!! (مثل هذه الروايات هي السبب في انحطاط العقل المسلم!). ونقل عن ابن قتيبة عن وهب أنه كان ضخم البطن! (يا ناس!). وأنه سُمي إدريس لكثرة ما كان يدرس!! ثُم أتحفنا بجدول زمني آخر بدءاً من أخنوخ إلى نوح... ثُم انتقل إلى إدريس والعقائد الدينية فقال: إنه لا شك أنه بيّن عقيدة التوحيد!.

المبحث الثالث: نوح عليه السلام والعقائد الدينية:

بدأ بذكر الآيات. وقال إنه أُرسل بعد إدريس!! ثم أتحفنا بجدول زمني ثالث. ونقل عن ابن سعد أنه بُعث وهو ابن (٤٨٠) سنة، ودعاهم إلى نبوُته مئة وعشرين سنة، ثُم أمره بصناعة السفينة وركبها وهو ابن ستمئة سنة. ثُم دعا بعد الطوفان مدة ثلاثمئة وخمسين سنة، (وهو كما ترى يناقض القرآن، وسامح الله ابن سعد وكاتبنا، واقرأ الآية من سورة العنكبوت: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾. إن الطوفان كان بسبب كفرهم بعد الزمن الطويل!! فعجيب كيف نؤلّف وكيف نقرأ وكيف يغيب العقل؟!).

وينقل عن ابن سعد عن ابن عباس أن الجودي بالموصل، وأن الذين كانوا على السفينة ثمانين، فسميت المدينة التي بنوها "سوق الثمانين"، وأن نوحاً تزوج امرأة من بني قابيل، ثم انتقلوا من سوق الثمانين فبنوا بابل، وذكر لنا مساحاتها، وعدد سكانها (١٠٠ ألف وكانوا على الإسلام). ثم قال ولم يخرج صاحب "البحر الزاخر" عن الأقوال السابقة إذ قال: إن نوحاً بُعث وهو ابن أربعين، ولبث يدعو قومه تسعمئة وخمسين سنة... (هل تذكرون قبل أسطر أنا نقلنا القول الذي لا يبعد كثيرا وأنه بعث وهو ابن (٤٨٠) ونكتبها حتى لا تقرأ خطأ: أربعمئة وثمانين سنة!!).

ثم تكلم عن الأبحاث العلمية التي أُجريت لمعرفة موضع الطوفان وزمنه. وأشار إلى بعثة سنة (١٨٥٤م) قامت بحفريات بين بغداد والخليج (في منتصف المسافة) فعثروا على مدينة أور. وفي سنة (١٩٢٠م) قامت بعثة من جامعة بنسلفانيا والمتحف البريطاني للبحث في نفس المنطقة. وفي سنة (١٩٢٢م) قامت عمليات تنقيب ضخمة لبثت اثنتي عشرة سنة. يقول إنهم عثروا على طبقة من الطين الخالص الذي ترسبه المياه ويعتقد أنه من الطوفان، ويستنتج الباحثون أن ارتفاع الفيضان كان (٢٥

قدماً. وفي العهد القديم (٢٦ قدماً). (من هذا تفهم أن البحث يراد منه تصديق العهد القديم ونحن ننقل بلا فهم ولا تدبّر...).

وقيل إن الطوفان كان نحو (٣٤٠٠ ق.م) أو (٣٢٠٠ ق.م). وقيل إنه سبقه سلسلة من الفصول المطيرة سنة (٤٠٠٠ ق.م). (وهذه أرقام تصطدم مع الواقع، وتضع القائل بها في موضع حرج. ونحن نضع ديننا في هذا الموضع).

العقائد الدينية في رسالة نوح عليه السلام:

١- الله والوحي والرسالة.

٢- اليوم الآخر والبعث والحساب.

٣- النار والخلود فيها.

٤- الجنة والخلود فيها.

٥- الذنب والجزاء.

٦- الاستغفار والتوبة.

٧- الملائكة.

٨- إنزال عقوبة الله على العاصين.

المبحث الرابع: هود عليه السلام والعقائد الدينية:

ذكر الآيات. ثم ذكر هوداً وزمنه ومكان دعوته، وأنه كان بعد الطوفان وهو من ولد سام بن نوح!! وأن اسمه هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود... الخ، وقيل... وقيل... (وكل الذي قيل لا أساس له ولا سند. ولا ينبني عليه علم ولا فائدة، ولا أمر ذو بال... فلم البحث فيما لا طائل تحته؟!). والأحقاف الرمل بين عُمان إلى حضرموت. وكانوا أصحاب أوثان... قال ابن جرير: أرض عاد مُطلّة على البحر يُقال لها الشحر. وعاد إرم هي عاد الأولى وهم أول من عبد الأصنام بعد قوم نوح عليه السلام.

العقائد في رسالة هود عليه السلام:

١- التوحيد والرسالة. دعوة هود هي التوحيد. وذكر الآيات.

٢- الاستغفار والتوبة.

٣- البعث والقيامة.

٤- عقاب الآخرة.

٥- الملائكة.

٦- نزول العذاب على العاصين.

المبحث الخامس: صالح عليه السلام والعقائد الدينية:

بدأ بالآيات. ثم ذكر اسم صالح وزعم أن اسمه: ابن عبد بن ماسح... الخ، (وهو ما لا دليل عليه ولا نفع فيه). ثم رسم شجرة النسب بينه وبين آدم!! وذكر الدروس أو العقائد كما يسمّيها كما في السابق.

المبحث السادس: إبراهيم عليه السلام والعقائد الدينية:

بدأ بما جاء في كتاب الله عن إبراهيم عليه السلام، وذكر الآيات على مدى عشر صفحات. ثم ذكر لنا زمن ولادته، وذكر لنا نسبه من جهة الأب ونسبه من جهة الأم، فذكر اسم الأب واسم آبائه إلى نوح عليه السلام...

وقيل إنه هاجر من إلى... وقيل إنه من... وقيل إنه مات... وقيل... وهكذا يبنى كتابٌ في القصص القرآني على قيل... ويقول ناشره: إن موضوع الكتاب بكر لم يتطرق إليه قبل المؤلف أحد !! (ولو ولو...).

وذكر أن الزمن بين نوح والطوفان (٢٩٢ سنة)، (لاحظ الدقة...!!، ولقد نسوا الشهور والأيام...!). وفي النسخة اليونانية (٥٩٢ سنة). (المهم الإصرار على الرقم ٩٢). ثم الجدول الذي يتحفنا به بين الفينة والفينة، من الشخصية إلى آدم، فقد جعل بين نوح وإبراهيم عشرة أجيال (كله على ذِمّة التوراة وهي بلا ذمة كما تعلم!).

ثم ينقل لنا عن المؤرخين أن زمن إبراهيم يُحتمل أن يكون زمن حمورابي. ثم استعرض الدروس وهي عين ما ذكر يُكرِّره في كل قصة: الوحي والرسالة، الله والوحدانية، البعث والحساب، الجنة والنار، الاستغفار، التوبة، الشيطان وجنوده، الشفاعة، خطيئة آدم غير موروثة!.

المبحث السابع: لوط عليه السلام والعقائد الدينية:

ذكر الآيات. ثم الزمن والنسب. وكان معاصراً لإبراهيم عليه السلام (هذه صحيحة). ثم ذكر الدروس كالسابق.

المبحث الثامن: إسماعيل واسحق عليهما السلام:

بدأ بذكر الآيات. ثم الدروس عينها.

المبحث التاسع: يعقوب ويوسف عليهما السلام والعقائد الدينية:

وبدأ بالروايات عن الإسرائيليات، لأن الآيات ذُكرت قبل صفحات عند الحديث على اسحق عليه السلام. ثم عرّج على يوسف عليه السلام وذكر الآيات وهي سورة يوسف. وختم بالدروس أو ما يُسمّيه العقائد.

المبحث العاشر: الأسباط:

ذكر الآيات حول الأسباط. ثم نقل عن المصادر من هم، وكما تعلم فلا مصدر إلاّ الإسرائيليات وكفى بها!! ثم يرى هو أن الأسباط هم أولاد يعقوب. ثم رسم شجرة نسبهم وأسماءهم والأمهات.

المبحث الحادي عشر: أيوب عليه السلام:

ذكر الآيات. ثم شجرة النسب والدروس.

المبحث الثاني عشر: ذو الكفل عليه السلام:

ذكر موضع ذكره في القرآن. ثم نسبه وزمنه. ونقل عن بداية ابن كثير أن ذا الكفل ابن أيوب. وكان كغيره من النبيين داعياً إلى الله وتوحيده.

المبحث الثالث عشر: شعيب عليه السلام:

ذكر الآيات. ثم النسب والزمن. ورسم الشجرة من شعيب إلى آزر (سبعة أجداد!) وذكر أنه بُعث إلى أمتين. ثم ذكر الدروس.

المبحث الرابع عشر: موسى وهرون عليهما السلام:

بدأ بذكر النسب. ثم رسم الشجرة. ثم تاريخه عند المؤرخين. وذكر أن الفرعون الذي شهد ولادة موسى هو رمسيس. ثم رسم جداول لحكام مصر وضعّف القول بأن رمسيس هو الذي عذّب بني إسرائيل، ورجّح أنه أحمس (الحمد لله الذي أحق الحق وأنصف رمسيس!!). واسمع هذه العبارة: وكان أحمس "مضطراً" (!) إلى إذلالهم وتعذيبهم لأنهم كانوا (بلا شك!) من أنصار الحكام المطرودين. ثم ذكر من عاصرهم موسى وهم في نظره: أحمس، أمنحتب، تحتمس.

ثم ذكر الآيات. ثم ختم بالعقائد أي بالدروس بلغة أخرى. ولا جديد مطلقاً فيما أرى في الصفحات الأربعين التي استغرقت بحثه عن موسى عليه السلام !.

المبحث الخامس عشر: النبي الذي سأله اليهود أن يبعث لهم ملكاً:

ذكر الآيات، ثم دخل في الإسرائيليات حول نسبه وزمنه. فذكر المصادر الإسلامية (التي هي آخذة عن أهل الكتاب) ثم عطف عليها المصادر الإسرائيلية (وكله واحد).

المبحث السادس عشر: داود عليه السلام:

ذكر الآيات، ثم نسبه وزمنه، ثم شجرة النسب إلى إبراهيم. ثم استخلص الدروس أو ما يسميه الكاتب: العقائد.

المبحث السابع عشر: سليمان عليه السلام:

بدأ بذكره في القرآن، ثم ثنى بنسبه، فالعقائد في دين سليمان أي الدروس...

المبحث الثامن عشر: إلياس عليه السلام:

وصنع الصنيع ذاته بذكر الآيات، ونسبه عن الإسرائيليات، ورجَّح أن إلياس هو ايليا. وأما البعل الذي جاء ليقضي عليه فهو أقانيم الثالوث المكون من: انو، وانكي، وانليل ويسميه الساميون بعلاً. ثم ختم المبحث بالعقائد...

المبحث التاسع عشر: اليسع عليه السلام:

وذكر الأقوال أنه الخضر. وقيل إنه كان قبل طالوت... وقيل... ثم ذكر شجرة نسبه وقول المصادر اليهودية والنصرانية.

المبحث العشرون: يونس عليه السلام:

تُسمّيه المصادر اليهودية يونان بن أمتّاي، وفي سفر مُسمى باسمه يقول: إنه ركب السفينة فراراً من الله...! ولما سُئل عمّن يكون قال: إنه عبراني، وأنه مكث في بطن الحوت ثلاثة أيام... وتلطّف المؤلف فقال لنا: إنه حذف بعض الألفاظ التي لا تليق بالله أثناء سرده لقصة يونان أو يونس. (ولست أدري ألحن نتكلم عن قصص قرآن أم نتكلم عن قصص بني إسرائيل وتوراقم المحرفة؟ متى يفطن المسلمون؟!).

المبحث الحادي والعشرون: زكريا ويحيى عليهما السلام:

بعد ذكر الآيات، ذكر نسبه من روايات أهل الكتاب، واسم زوجته وعلاقتها بمريم... وأن مصادر اليهود تقول إن الله بعثه إلى بني إسرائيل بعد أسر بابل... وفي الإنجيل أنه كان أيام هيرودس. وذكر عن لوقا ما قال في قصة زكريا. ثم قال إن القرآن حدّد زمن زكريا (يقصد قوله عن مريم: ﴿وكفلها زكريا...﴾). ثم قال إن ولادة يحيى كانت قبل ولادة المسيح بستة أشهر. ثم ذكر الدروس.

المبحث الثاني والعشرون: المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام:

قال في نسبه انه ابن خالة يحيى أو ابن بنت خالته، وأنه من ولد داود من سبط يهوذا. وأن هناك خلافاً بين إنجيل متّى ولوقا في نسب المسيح، وفي الإصحاح الأول من متّى قال: يسوع المسيح ابن داود بن ابراهيم. ثم عدّد أولاد إسحق إلى يوسف النجار رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح (١٤ جيلاً من ابراهيم إلى داود) وأما لوقا فيقول: ابتدأ يسوع وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي بن متنات بن لاوى... الخ (في متّى قال: يوسف بن يعقوب بن متّان بن اليعازر... الخ). ففي متّى جعل المسيح من نسل سليمان بن داود، وجعله لوقا من سلالة ناثان بن داود...

وعدّد أوجها من الخلاف لسنا نستقصيها وذكر جدولاً... ولا يهمنا التفصيلات، إنما نأخذ عيّنات من الكتاب تقفنا على منهجه.

ثم ذكر التسلسل الزمني من نوح إلى عيسى. وملخص الجدول الذي ذكره أن ولادة نوح كانت سنة ٢٩٤٨ ق.م، وأن وفاته وهو ابن (٩٥٠ سنة) كانت سنة ١٩٩٨ ق. م، وأن ولادة يوسف بن يعقوب (النبي) ﷺ كانت سنة ١٧٤٥ ق.م. (أي أن بين يوسف ونوح دون المئتين وخمسين سنة!! فتأمّل..!!).

ثم تكلّم عن العقائد في رسالة المسيح، وأنه آخر رسل بني إسرائيل، وأن أول ما دعا إليه المسيح وحدانية الخالق والإيمان برسالة الأنبياء، ثم ذكر معجزاته.

المبحث الثالث والعشرون: الإسلام دين التوحيد وتعاقب الرسل وتواترهم:

إن الدين عند الله الإسلام وإن نوحاً والرسل من قبله ومن بعده كانوا على الإسلام. وذكر الآيات. ثم عدّد الرسل الذين نص الله على إسلامهم. واستمر الإسلام حتى نزول القرآن، وأن محمداً ﷺ كان أول المسلمين بالنسبة لوقته.

ثم بين الحكمة في تسمية أتباع محمد بالمسلمين لأن محمداً هو خاتم النبيين، وأن أتباعه سيحملون لواء الإسلام إلى آخر الزمان. ومن نعم الله على البشر أن أرسل إليهم الرسل عبر التاريخ.

المبحث الرابع والعشرون: محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ:

ولسنا نعد هذا من قصص القرآن. فلا ننقد ولا ننقل منه شيئاً.

الكتاب الرابع والثلاثون

المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة

-الجزء الأول-

تأليف: الدكتور عبد الكريم زيدان

ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، الجزء الأول / د. عبد الكريم زيدان:

يقسم الكتاب كل قصة إلى مبحثين -أو هكذا الغالب-: في المبحث الأول يلخص القصة وبفسّر آياتها. وفي المبحث الثاني يذكر عبرها والمستفاد منها من الدروس المتعلقة بالدعوة والدعاة.

ولا أقول إن الكتاب خلا من الإسرائيليات، ولكنها قليلة فيه. والدروس المستفادة قريبة المنال، بحيث إذا وضعت الخطة للكتاب ورسم المنهج أمكن الإتيان بكل هذا في سهولة ويسر.

يقسم الكتاب إلى فقرات، وصل الجزء الأول إلى (٩٣٣) فقرة، تتراوح الفقرة بين عدة أسطر وعدة صفحات. في المقدمة ذكر ثمانياً من هذه الفقرات منها: قصص القرآن أحسن القصص، وفيه أنه يعني: أحسن الاقتصاص، وأحسن ما يقص.

وفي أسطر أشار إلى التكرار ونقل عن صاحب الظلال أن هناك جديداً مع كل تكرار فلا تكرار.

ثم فقرة عن: "الحكمة في قصص القرآن"، وذكر من ذلك:

١- أن نفقه ما جاء في هذه القصص.

٢- بيان سنن الله في الخلق.

٣- بيان مناهج الأنبياء في الدعوة.

٤- في قصص القرآن نماذج للمؤمنين.

٥- فيه بيان لغرائز الإنسان.

٦- بيان أحوال الإنسان وطغيانه بسبب المال والسلطان.

الفقرة الخامسة: في قصص القرآن فوائد للدعاة: ثم بين منهجه وأنه جمع الآيات الواردة في القصة، ثم خلاصة القصة، ثم ما يستفاد للدعوة. يقول: وجعلت الكتاب في بابين: الأول قصص الماضين والثاني قصص سيدنا محمد، وقسم الباب إلى فصول، والفصل إلى مباحث، والمبحث إلى مطالب، والمطلب إلى فروع، وجعل لكل فصل قصة.

يقع الجزء الأول في ست وعشرين صفحة وستمائة. وليس له فهرست، فقد جعله في الجزء الثاني.

الباب الأول:

الفصل الأول: قصة آدم وإبليس:

المبحث الأول: موجز القصة. المبحث الثاني: ما يستفاد للدعوة.

يبتدئ المبحث الأول: خلق آدم بفقرة رقم (١٠) إذ استغرقت المقدمة تسع فقرات. والفقرة (١١) عن أن إبليس كان من الجن.

وهكذا يسير في موضوعه بصورة متوقعة لا جديد ولا مفاجأة فيها ثم ذكر سبب امتناع إبليس عن السجود، وطرده من الجنة، وهكذا...

وفي الفقرة (١٥): كشف إبليس ما عزم على فعله. وذكر الآيات المتعلقة بهذا وأعطاها تفسيراً موجزاً. ثم بين تعليل أكل آدم من الشجرة: ونقل عن ابن عباس أنه غرهما باليمين. ثم بين الراجح وأنه: النسيان وفسّره وعلّل للنسيان بأنه حصل نتيجة عدة أمور... ويصل بالقصة إلى المعروف من الخروج...

وفي المبحث الثاني: ما يستفاد من القصة قسمه إلى خمسة مطالب:

المطلب الأول: ما يستفاد مما يتعلق بآدم:

١- آدم أصل البشر. ودحض نظرية دارون.

٢- جوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله. وعلى الدعاة التأكيد على هذا المعنى.

٣- قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة. وعلى الدعاة تبصير الناس بهذا.

٤- ضرورة التوبة والاستغفار. والمبادرة إلى ذلك.

المطلب الثاني: ما يستفاد مما يتعلّق بإبليس:

١- الاحتراز من الكبر والحسد. وعلى الدعاة تبيين ذلك للناس.

٢- لا رأي لأحد مع وجود النص. ويلزم الدعاة تبيينه للناس.

٣- لا تبرر مخالفة الشرع. ولا يقال في الجماعة المسلمة أنا خير منه ففيها تزكية للنفس وتكبرّ ومدخل للشيطان، ولا فخر بالأصل والنسب.

المطلب الثالث: ما يستفاد من طبيعة العلاقة بين آدم وإبليس:

إبليس هو العدو الأول لآدم وزوجه وذريتهما. وهي عداوة ثابتة وحقيقية، ولا بد من اتخاذه عدواً وضرورة الحذر منه. وعلى جماعة الدعاة الحذر من الشيطان ومن الإعجاب ومن الرياء.

المطلب الرابع: من مكايد الشيطان للإنسان.

١- التزيين. والابتداع في الدين من تزيين الشيطان.

٢- تخويف المؤمنين بما يخاف منه، كالفقر. وتخويف الشيطان المؤمنين بأوليائه (من أوليائه). وعلى الجماعة اليقين والثقة بأن الله هو الرزّاق، وأنه لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا. وأن من سُنّة الله الابتلاء. والجهاد للمسلم خير عظيم.

٣- إيحاء الشيطان للإنسان بالأماني الكاذبة. وتمني الشيء إذا أحب أن يكون له وإن لم يتخذ لـه أسبابه. والأماني تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال. وأماني الشيطان ووعوده غرور.

المطلب الخامس: وسائل الوقاية من الشيطان.

- الفرع الأول: الإيمان بالله والتوكل عليه.
- الفرع الثاني: ترك المعاصي.
- الفرع الثالث: الزهد في الدنيا. والأمثال القرآنية وضّحت زهادة الدنيا.
- الفرع الرابع: الاستعاذة بالله من الشيطان. وشرح الاستعاذة باستفاضة.
- الفرع الخامس: الكلمة الطيبة والدفع بالتي هي أحسن.
- الفرع السادس: كشف خواطر الشيطان ووزنها بميزان الإسلام. وتكلم عـن أثـر الذنوب.
- الفرع السابع: ضرورة وسائل الوقاية للجماعة...

الفصل الثاني: قصة ابني آدم هابيل وقابيل:

ذكر القصة عن ابن كثير وحكاية الأخوات والزواج والقرابين من الزرع والغنم...الخ. وكل هذا خارج القصة القرآنية. وعاد ليتكلم عن الحسد من جديد، وأطال فيه وفي الوقاية منه.

الفصل الثالث: قصة نوح عليه السلام:

المبحث الأول: خلاصة القصة وما ورد بشأنها من القرآن:

وبين أن دعوة نوح هي دعوة الرسل، وبين أساليبه في الدعوة وتلطفه وشـفقته. وأسـلوب الترغيب والترهيب، والتأكيد على العبودية في جميع أساليب الدعوة. ثم جدال نوح مع قومه. والـرد على ما أثاروه من شبهات. ثم دعاء نوح على قومه. والسفينة، ونداء ابنه، ودعاء ربه بشأنه.

المبحث الثاني: المستفاد من قصة نوح للدعاة:

١- التلطف مع المدعوين. وهو لا يعني النفاق.

٢- الشفقة على المدعو.

٣- التبليغ بكلام مبين.

٤- الدعوة في كل وقت ملائم. وعلى الداعي ألاّ يثقل على المدعو. وتخيّر الصيغة المناسبة.

٥- الترغيب والترهيب.

٦- التأكيد على عبادة الله وحده.

٧- جدال الداعي مع المخالفين. وحلمه معهم. وعلى الجماعة الحذر من مكر المدعوين. وقطع الجدال إذا انتفت الفائدة.

٨- هلاك الأمم بالظلم. وأعظم الظلم الشرك.

٩- العمل الصالح وليس النسب هو وسيلة النجاة. (الابن).

١٠- مصاحبة المؤمنين لا تفيد إذا لم يكن المصاحب مؤمناً. (الزوجة).

١١- الداعي لا يطلب مالاً.

الفصل الرابع: قصة هود عليه السلام:

المبحث الأول: خلاصة القصة وتفسير آياتها:

"عاد" اسم رجل واستمر اسماً لقوم. ثم ذكر المؤلف الآيات وفسرها.

المبحث الثاني: ما يستفاد من قصة هود:

١- التأكيد على توحيد الألوهية.

٢- لا أسألكم أجراً.

٣- الترغيب والترهيب.

٤- البراءة من الشرك.

٥- الحلم على الجاهلين.

٦- وجادلهم بالتي هي أحسن.

٧- الحذر من صفات الكافرين.

الفصل الخامس: قصة صالح عليه السلام:

المبحث الأول: خلاصة القصة وتفسير آياتها:

يصنع الصنيع نفسه بذكر آيات القصة وتفسيرها، ويضع عناوين للفقرات. مثل: صالح يُذكِّر قومه بآلاء الله، سؤال المستكبرين للمستضعفين... الخ.

المبحث الثاني: ما يستفاد من قصة صالح:

١- الدعوة إلى عبادة الله وحده.

٢- المستضعفون هم أكثر أتباع الرسل.

٣- من أساليب الدعوة التذكير بنعم الله.

الفصل السادس: قصة إبراهيم ﷺ:

المبحث الأول: خلاصة قصة ابراهيم وتفسير آياهّا:

بدأ بذكر ولادة إبراهيم في أور الكلدانيين في العراق. وهو مالا دليل عندنا عليه. وأبوه آزر، وكان قومه يعبدون الأصنام. خرج مع ابن أخيه إلى فلسطين، وأقام في نابلس، ثم رحل إلى مصر ورجع إلى فلسطين (ينقل عن عبد الوهاب النجار). وذكر قصة وضع زوجه عند زمزم وعودته. ثم بعد الموجز ذكر الآيات وفسرها.

المبحث الثاني: ما يستفاد من قصة ابراهيم للدعوة:

١- وضوح شخصية إبراهيم الإسلامية. وبعض مظاهر هذه الشخصية.

٢- الأدب في التبليغ مع الصراحة.

٣- تغيير المنكر باليد. ونقل عن الشيباني جواز أن يحمل الرجل على المشركين وإن ظُنّ قتله.

٤- الهجرة من بلاد الكفر.

٥- التأكيد على وصية إبراهيم.

٦- أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٧- أدعية إبراهيم فيها الأسوة الحسنة لمن يدعو الله.

الفصل السابع: قصة إسماعيل ﷺ:

المبحث الأول: خلاصة القصة وتفسيرها.

المبحث الثاني: ما يستفاد من قصته:

١- الانقياد لأمر الله.

٢- في إسماعيل أسوة للشباب المسلم.

٣- تفريج الكرب بإحسان الطاعة.

٤- لابد من التحلّي بأخلاق الإسلام.

٥- القيام بحق الأهل.

الفصل الثامن: قصة لوط ﷺ:

المبحث الأول: خلاصة القصة وتفسير آياهّا.

نقل بعض التفاصيل عن ابن كثير أي الإسرائيليات. ثم ذكر الآيات وفسرها.

المبحث الثاني: ما يستفاد من القصة:

١- للداعي المسلم أن ينكر على الكافر غير الكفر.

٢- التطلع إلى القوة المادية لا يقدح في الإيمان.

٣- الصلة النسبية بالمؤمن لا تنفع الكافر.

الفصل التاسع: قصة شعيب عليه السلام مع قومه:

المبحث الأول: خلاصة القصة وتفسير آياتها:

وضمّنها نهيه قومه عن المنكرات ونهيه عن التطفيف وبخس الناس، والإفساد، وعن قطع الطريق وضمّنها الترغيب والترهيب، وتلطُّفه في تبليغ الدعوة، وجداله مع قومه، وعناصر هذا الجدال: الله هو الذي يحكم بينهم، وقليل الحلال خير من كثير الحرام، إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت... الخ.

المبحث الثاني: ما يستفاد من القصة:

١- موقف الداعي من مفاسد المجتمع.

٢- موقف الملأ من الدعوة والدعاة.

٣- الإصلاح بقدر الاستطاعة.

٤- الابتعاد عن الشبهات.

الفصل العاشر: قصة يوسف عليه السلام:

بدأ بوقائع القصة، وكان يضع عناوين للآيات، ويفسر بإيجاز، ويرجع إلى بعض التفاسير كالرازي والقرطبي والقاسمي... ثم عقَّب بالمبحث الثاني: ما يستفاد من قصة يوسف للدعوة والدعاة:

١- الكتمان والتحذير.

٢- الحسد يحمل على قطيعة الرحم.

٣- لا بد من الامتحان والعاقبة للصابرين.

٤- يوسف هو القدوة في العفة.

٥- شعار المسلم السجن أحب إلي مما يدعونني إليه.

٦- الداعي يدعو إلى الله في جميع حالاته.

٧- العفو عند المقدرة.

٨- الأخذ بالأسباب والتوكل على الله في بلوغ الغايات.

٩- للداعي أن يبين كفاءته.

١٠- حرمة اليأس من روح الله.

١١- ضرورة الصبر للدعاة.

الفصل الحادي عشر: قصة موسى عليه السلام:

المبحث الأول: نشأة موسى إلى بعثته:

وأثناء السرد وجدته يسمي الشيخ الصّالح باسم شعيب، وهو ما لا دليل عليه.

المبحث الثاني: استكبار فرعون وافساده وحال الناس معه.

المبحث الثالث: مجيء موسى إلى فرعون وما جرى له في مصر:

وكان يمكن أن يجعل الكاتب المبحث الثاني مدخلاً للمبحث الثالث، ويقتصر على مبحثين. وفي هذا المبحث يستعرض الآيات وعلى الطريقة يُعنْوِن لها ويفسِّرها.

المبحث الرابع: ما يستفاد من قصة موسى:

١- قد يكون الفرج بعد الشدة وقد يكون بعد حين.

٢- نصرة المظلوم واجبة، ومعونة الظالم حرام.

٣- اشتراك الظالم وأعوانه في العذاب.

٤- عدم الإنكار على الظالم سبب للعذاب العام. وأطال في موضوع الظالم ومعونته...

٥- خروج الداعي من بلده فراراً من عدوه.

٦- مساعدة المحتاج ولو لم يطلبها.

٧- جواز عمل المرأة خارج بيتها.

٨- الخوف من ذي السلطة لا يعيب الداعي.

وذكر غير هذه الدروس...

المبحث الخامس: قصة موسى مع الخضر عنيهما السلام:

نقل عن ابن كثير ما يرويه في سبب القصة، ثم ذكر القصة، وتعرّض في السرد لقضية هل الخضر حي أم ميت؟ وقال إن الجمهور على أن الخضر مات.

المبحث السادس: ما يستفاد من قصة موسى والخضر.

١- الاستزادة من العلم، والرحلة في طلب العلم، والتواضع في طلب العلم.
٢- إذا تعارضت مفسدتان ارتكب أخفَهما لدفع أشدّهما.
٣- صلاح الآباء ينفع الأبناء.

الفصل الثاني عشر: قصة داود عليه السلام:

ذكر ما ورد بشأنها في القرآن، وفسّره باختصار، وذكر العبر والدروس. منها: الطغاة قد يهلكهم ضعاف الناس. فضل الله على داود عليه السلام. ضرورة تعلم الصنائع والحرف. وجوب الحكم بالحق. والنهي عن اتباع الهوى.

وأحسن إذ جعل قضية داود هي إصدار الحكم قبل سماع دفع المدعى عليه وليس الإسرائيليات المعروفة...

الفصل الثالث عشر: قصة سليمان عليه السلام:

وذكر القصة ممزوجة بعبرها ومن ذلك: العلم من نعم الله على سليمان وأبيه عليهما السلام. النظام والتنظيم في جند سليمان عليه السلام. نعم الله على سليمان عليه السلام لم تزده إلاّ تواضعاً وشكراً. أخذ سليمان الأمور بالحزم والعدل. والإمام يقبل عذر رعيته. ومن لوازم الإيمان الدعوة إلى الله. والدعوة إلى الله بكل وسيلة مشروعة.

الفصل الرابع عشر: قصة أيوب عليه السلام:

يقول: أيوب نبي من أنبياء بني إسرائيل، من ذرية يعقوب، وهو النبي المبتلى بجسده وأهله وماله. ويذكر أن مرضه امتد ثماني عشرة سنة، وتخلى عنه الناس. وهذه التفصيلات لا تعنينا أولاً، ولا دليل عليها يعتمد عليه ثانياً.

ثم ذكر سبب ابتلائه أو الروايات في ذلك، ومنها أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه، وعبارة الزمخشري الذي ينقل عنه: كانت مواشي أيوب في ناحية حاكم كافر فداهنه أيوب ولم يغزه، وقيل: أعجب بكثرة ماله. وهذا كله مما لا يليق بعبد صالح لله بنبي كريم صابر!. ونقل عن ابن عطية ما هو بالمستوى ذاته أو أوهى. وعن القرطبي كذلك. وما كان أحراه أن يبتعد عن كل ذلك. ولكنه استدرك وقال: والحق أنه لا وثوق بشيء مما ذكره المفسرون. (كنت استغنيت إذاً...!!).

ثم بين أنه ابتلاء من الله للعبد. وأن الأنبياء هم الأشد في البلاء. ثم نقل عن الزمخشري "الضر" الذي طلب رفعه، فذكر أن صاحبين له وقفا لأبعد لا يقدران يدنوان من نتن ريحه!! والعياذ بالله من كذا

روايات، وينقل المؤلف هذه الرواية دون تعليق كما سبق. ثم كشف الضر رحمة بأيوب وذكـــرى لأولي الألباب.

ثم ذكر في المبحث الثاني ما يستفاد من القصة ومن ذلك: الابتلاء لا يعني هوان المبتلى... والله يبتلي عباده بما يشاء. ومقابلة المصائب بالصبر. والشكوى إلى الله مشروعة ولغيره ممنوعة.

الفصل الخامس عشر: قصة يونس عليه السلام:

ذكر على العادة في مبحث خلاصة القصة وفي ثان عبرها ومنها: ضرورة الصبر. وعمل الدعاة محكوم بالشرع. والعمل الصالح رصيد نافع للدعاة. ونجاة الدعاة من الـــشدائد. وإســـراع الـــداعي بالتوبة...

الفصل السادس عشر: قصة عيسى عليه السلام:

المبحث الأول: في قصة امرأة عمران وبنتها مريم ثم إنجاب مريم لعيسى عليهما السلام. ومر بالقصة على ما في الآيات. ونقل عن ابن عطية في ﴿وروح منه...﴾ أن الله أمسك روح عيسى عنده لمَاَ خلـــق آدم، فلماَ أراد خلقه أرسل ذلك الروح. ولا يسلّم فيما أرى فلا نص ثابت.

ثم في مبحث ثان تكلّم في الدروس وهي في العقيدة ومنها ثبوت المعجزات. وجواز تمثّل المَلَك بشراً. وعدم مجادلة السفهاء. والأخذ بالأسباب. والابتعاد عن الغلو. وتذكر نعم الله. وأهمية الأعوان.

الفصل السابع عشر: قصة لقمان عليه السلام:

ذكر في بداية المبحث الأول الخلاف في نُبوّته ويبدو أنه يرجح قول القرطبي بأنه ليس نبياً. ثم ذكر المستفاد، ويتلخص في: عناية الآباء بأبنائهم. ما يشمله تعليم الآباء للأبنـــاء. وترتيـــب الحقـــوق والواجبات. وحدود الطاعة الواجبة.

الفصل الثامن عشر: قصة ذي القرنين:

يبتدئ بالسؤال عن ذي القرنين ويقول إن القرآن لم يحدده، لأن التـــسجيل التـــاريخي لـــيس المقصود، وإنما المقصود العبرة. وفي قضية نبوته أو غيرها، قال: والقرآن لم يصرّح بنبوته، وهـــذا هـــو الظاهر بطبيعة الحال. ثم بين التمكين ما هو؟ وأنه القوة والرأي والتدبير والعدد والمـــال... الخ. وأمـــا مغرب الشمس فعند مصب أحد الأنهار حيث تكثر المستنقعات.

ثم ذكر عبر وفوائد القصة ومنها: التمكين من نعم الله على العبد. والخروج لقمع الفـــساد. والتفريق بين المسيء والمحسن. ومساعدة المظلومين. ودفع الشر بأيسر ما يمكن. وتذكّر فضل الله.

الفصل التاسع عشر: قصة قارون:

اختلف الناس في قرابته لموسى كما يبتدئ المبحث. ثم ذكر القصة كما في الآيات ومعنى الآيات كما عند المفسرين. وعقب بالدروس التي منها: الغنى والفقر لا يعنيان الرضا والسخط. وكثرة المال قد توقع صاحبها في البغي. والمؤمن ناصح. والنظر إلى أهل الدنيا محظور. وقد يعجّل الله العقاب للمستحق. وكل بني آدم خطاء.

الفصل العشرون: قصة أصحاب القرية:

وهي القرية التي في سورة يس. وأهم دروسها تقوية الداعي بإرسال دعاة معه. وتهديد الدعاة قديم.

الفصل الحادي والعشرون: قصة أصحاب الكهف:

ويقول إنها آية عجيبة، ثم يجمل القصة. ومما قال تعليقاً على ﴿لنتَّخذنَّ عليهم مسجداً﴾: وهم غير محمودين في بناء المسجد، وذكر لعن النبي ﷺ اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد (ينقله عن القرطبي والقاسمي...).

ثم ذكر الدروس: الشباب أسرع في الاستجابة. والإيمان يزيد وينقص ﴿وزدناهم هدى﴾. وتجمع المؤمنين. والصدع بالحق. والعزلة والهجرة. والأخذ بالأسباب. والحذر. والاشتغال بالمهم.

الفصل الثاني والعشرون: قصة أصحاب الأخدود:

يذكر ما في صحيح مسلم من خبرهم تفسيراً للآيات. ثم المستفاد، ومنه: تحمّل الشدائد. ورعاية الشباب.

الفصل الثالث والعشرون: قصة أصحاب الجنة:

لخّص القصة وفسّر الآيات. وذكر دروسها ومنها: المعصية من أسباب العقاب الدنيوي. وخطر البخل.

الفصل الرابع والعشرون: قصة صاحب الجنتين.

والفصل الخامس والعشرون: قصة أصحاب الفيل.

والفصل السادس والعشرون: قصة المنسلخ من آيات الله.

الكتاب الخامس والثلاثون

القصة في القرآن الكريم

-الجزء الأول والجزء الثاني-

تأليف: الدكتور محمد سيد طنطاوي (شيخ الأزهر)

ط١، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٧م.

القصة في القرآن الكريم، الجزء الأول والجزء الثاني / د. محمد سيد طنطاوي:

الكتاب مجلدان في حوالي ألف صفحة. تحدّث في الجزء الأول عن قصة: آدم، وادريس، ونوح، وهود. وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، واسحق، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وهارون عليهم السلام.

وتحدّث في الجزء الثاني عن قصص بقية الأنبياء، فقد تحدَّث فيه عن شعيب، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وأيوب، ويونس، وإلياس، واليسع، وذي الكفل، وعيسى عليهم السلام، ثم "حديث القرآن عن خير الأنام محمد ﷺ". كما قال الكاتب، عاداً سيرته من قصص القرآن.

وتحدَّث فيه كذلك عن أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وذي القرنين، وأصحاب القرية، وأصحاب الجنّة، وأصحاب الأُخدود، وأصحاب الفيل.

وقد حاولت في تعريفي بالكتاب ومنهج صاحبه أن أُلخِّصه وأُوجزه، فكأن القارئ قد قرأ الأصل، لا يفوته ولا ينقصه إلاّ التفاصيل، وخطبها يسير غير جليل.

منهج الكاتب في الكتاب:

الكتاب قريب جداً مما يمكن أن أَعدّه تفسير الآيات المتحدثة عن القصص القرآني. فالكتاب إلى حد بعيد كتاب في التفسير، لكنّه اقتصر على تفسير آيات القصص في سُوَرها... فليس فيه التعرض لفنية القصة، وخصائصها، والدراسات حولها وعنها، وعناصرها، والجوانب التقنية الفنية في القصة، والقصة القرآنية.

ومن ناحية ثانية، وفي الوقت الذي كان الشيخ ينبّه نظرياً إلى تجنّب الإسرائيليات، كان الإلف يشدّه، والتيار يجذبه إلى لجتها من جديد، برغم التنبيه النظري، مع فقد التنبّه العملي. فجاء الكتاب لا أقول مشحوناً بالإسرائيليات، ولكنْ فيه منها أثقالٌ وأحمالٌ.

وأمر ثالث أنه عدّ سيرة النبي ﷺ من القصص القرآني، وهذا -في نظري- خروج منهجي على مصطلح القصص القرآني. فلا أعدُّ في القصص سيرة من أُنزل عليه القصص... وإنما القصص أخبار من غبر تُعرَض لجني العبر على أُمة خير البشر، جاء بها الكتاب الخاتم، لتكون سبباً في الرشد وتجنّب عثرات الأقوام الخالية.

الجزء الأول:

في المقدمة يتحدث الكاتب عن أن قصص القرآن اشتمل على قصص الأنبياء، وعلى قصص غيرهم. وهذا القصص أبرز في السور المكية وأكثر تفصيلاً. والقصة في كل زمان ومكان لها أثرها العميق

في النفوس... ولا تزال على رأس وسائل الهداة والمصلحين. ومن هنا ساق القرآن قصصاً يمتاز بسمو الغاية وشريف المقصد، وفي المقدَمة ذكر بعض أهداف القصص القرآني، قبس قسماً منها مما في التصوير الفني ومن ذلك: أن الرسل أرسلهم الله برسالة واحدة، وبيان أن القرآن من عند الله، وتثبيت فؤاد النبي ﷺ، والاعتبار والاتعاظ. وقال في نهايتها ونهاية المقدمة: وهناك أهداف أخرى يستنبطها كل ذي عقل سليم، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق. ثم ابتدأ بالقصة الأولى:

قصة آدم عليه السلام: (من ص١٤–ص٤٠)

ويذكر في البداية السُوَر التي تحدّثت عن قصته عليه السلام وهي: سورة الحجر، و "ص"، والأعراف، والإسراء، والكهف، والبقرة. ثم يشير إلى أن هناك آيات تحدثت عن خلقه، وأخرى عن السجود له، وثالثة حكت عن موقف إبليس، ورابعة عن استخلافه، وخامسة عن إسكانه في الجنة، وسادسة عن إغواء إبليس له...

وبعض السُوَر وضّحت معظم هذه العناصر في قصة واحدة، وبعضها ذكر عنصراً أو اثنين، ولكن بأسلوب مُتميِّز، يشير إلى عدم وجود تكرار.

ثم يشير في نقطة تالية إلى أن من مزايا القرآن أنه يخاطب الناس بما يعنيهم، فلم يحدّثهم عمّا سبق آدم.

ثم يجمع بين الآيات المتكلّمة عن خلق آدم، وأن كل آية تتحدّث عن مرحلة، فهو خُلق من تراب، أو من طين، أو من صلصالٍ من حمأ مسنونٍ، أو من صلصال كالفخار.

ثم في فقرة ثالثة يتكلم عن مشهد الاستخلاف، ويُفسِّر آيات سورة البقرة ومما يذكره أن سؤال الملائكة كان للاستعلام ولم يكن للاعتراض أو عن حسد.

ثم يُفسِّر الأسماء بأنها الأشياء التي خلقها الله في الجنة ومنافعها وخواصّها. ثم يَخلُص إلى درس مفادُه أن العلم على رأس الأسباب التي هيأت آدم ليكون خليفة.

ثم ينتقل إلى سجود الملائكة لآدم، هذا الذي عرضته عدّة سور، ثم يذكر الأقوال في إبليس وأنه من الملائكة في قول، والثاني أنه ليس منهم، ويذكر الآية التي في سورة الكهف: ﴿إلاّ إبليس كان من الجن...﴾ (ولا أدري –لعمر الحق– كيف بعد الآية نقول بوجود أقوال؟!).

ثم انتقل إلى حديث القرآن عن إغواء إبليس لآدم، فيذكر أن الله أباح لآدم على سبيل التكريم أن يأكل من كل ثمار الجنة وشجرها إلاّ واحدة. ثم يتكلم عن الأقوال في الجنة، وأن الجمهور يرون أن

المراد بالجنة دار الثواب لأنه المتبادر. ويرى البعض أنها بستان مرتفع. ثم ألمح للأقوال في نوع الشجرة وأن القرآن على عادته لم يتعرض لشيء... وينقل عن ابن جرير قوله بعد ذِكْرِه الأقوال: "ذلك علمٌ إذا عُلِمَ لم ينفعِ العالِمَ به عِلْمُه، وإن جَهِلَه لم يضرّه جَهْلُه به". ويفسر على عادته الآيات بإيجاز لكنه كافٍ واضح.

ثم ينتقل إلى بعض العبر والعظات في قصة آدم، ويجعلها في عنوان مستقل ومنها: الدلالة على كمال قدرة الله وبديع خلقه وبليغ حكمته. وأن إخبار الملائكة من باب أن يُعلّم الناس أن يشاوروا لا أنه يشاور الملائكة، (وأرى أنه درس لا داعي له). ثم درس آخر هو الحرص على معرفة الحكمة من الأمر. ثُمَّ بيّن أهميّة العلم. وأن روح الشر إن طغت أعمت عن رؤية الخير. وأن العداوة مع إبليس مستمرة. وضرورة المحافظة على النِّعم. وأن قوة الإيمان تتغلب على كيد الشيطان. وأن خطأ آدم كان لا عن قصد وإنما عن ضعف ونسيان. والدرس العاشر سعة رحمة الله وقبوله التوبة.

قصة ابني آدم:

ويسميها الشيخ بما يعرفه الناس من أسمائهما التي لا دليل يوثق به عليها أو يستند إليه فيها. يذكر في آيات المائدة التي جاءت في أعقاب حديث طويل رذائل قوم موسى. وضمن التفسير يشير إلى أن أحد الأخوين (قابيل!) يؤكّد تصميمه على القتل بالقسم، وأن الآخر (هابيل!) قد أكّد نفوره من القتل أيضاً بالقسم. ويظهر ذلك الفرق بين الأخوين في الطباع.

ثم يذكر جملة نصائح الأخ لأخيه ليردعه... ويقف عند ﴿فطوَّعت...﴾ فيقول: تعبير دقيق بليغ، يشير إلى وجود بواعث مُتعدِّدة تتجاذب النفس...

ثم يختم بعظات أولها أن الرسول ﷺ لم يكن على علم بهذه القصة وإنما هي أخبار من الله. وأن التقوى أساس قبول الأعمال. وأن الناس فيهم الأخيار والأشرار. وأن الحسد يودي إلى المهالك.

ويذكر حديث الشيخين عن ابن مسعود أن الرسول قال: "لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلاّ كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه أول من سنَّ القتل". ثم يختم بأن النّدم الذي تعقبه التوبة الصادقة يرفع العقوبة، ولا يرفعها مجرد الندم لأنه أمر طبيعي يحدث لكثير من الناس.

ثم في صفحة يذكر قصة إدريس ويبدأ بنسبه، وليت الشيخ تجنَّب هذا، ونقل عن الآلوسي أنه قبل نوح بألف سنة، وأرى أن هذا مما لا دليل عليه، وهو عكس المتبادر. ثم ينقل عن الآلوسي أنه وُلِد ببابل وأُرسل إلى أهل بابل. وهذا كذلك لم يكن له من داعٍ إذ لا دليل عليه.

قصة نوح عليه السلام:

يذكرها من ص٩٤–ص٧٤. ويبتدئ بالسور التي ذكرت القصة: الأعراف، يونس، هود، المؤمنون، الشعراء، نوح... وينتهي نسب نوح إلى آدم. ولا أدري ما الجديد في هذا حتى يُذكر. ثم يذكر ما ذكروا من أن المدة بينهما تقارب ألفي عام. وفي هذا ضرب في بيداء بلا معالم ولا صوى ولا كتاب منير ولا سنة موثوقة... ثم يذكر عدد مرات ورود اسم نوح فيقول إنه تكرر ذكره عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعاً.

ثم ينقل عن ابن كثير ما ينقله بدوره عن ابن عباس: أن قومه هم أول من عبد الأصنام: يذكر قصة القوم الصالحين واتخاذ تماثيل لهم، وهي معروفة.

ثم يبتدئ بتفسير الآيات على ما هو دأبه وعادته فيبتدئ بالأعراف، ثم يونس، ثم سورة هود التي جاءت قصة نوح فيها أكثر تفصيلاً.

ومما قال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاّ بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا...﴾ . إن الزعماء والأغنياء من قومه قالوا على سبيل السخرية: ما نراك إلاّ بشراً مثلنا، فليست فيك ميزة تجعلك مختصاً بالنبوة... ثم أضافوا: وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم فقراؤنا. من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك، وما نرى لكم علينا زيادة في العقل، وهنا يرد نوح عليهم رداً حكيماً: أخبروني إن كنت على بصيرة من أمري، وحجة واضحة من ربي، بها يتبين الحق من الباطل، ومنحني الله النبوة التي هي رحمة منه، فخفيت عليكم، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها، أأستطيع أنا بعد أن تبلّدت عقولُكم، وركبكُم العناد، أن أُلزمكم برأيي، وأن أجبركم على اتباع الحق، وأنتم له كارهون؟

ويواصل على هذا النحو الجيد تفسير الآيات، فيفسر آيات "المؤمنون"، ثم الشعراء، حيث يقول: نجد جانباً من هذه القصة، ولكن بأسلوب آخر، تبدو فيه حكمة نوح، ورده الحاسم، وثقته في نصر ربه...

ثم يستعرض آيات سورة نوح إلى آخرها حيث يقول: وهكذا اختتمت السورة الكريمة بهذا الدعاء الذي فيه طلب الرحمة والمغفرة للمؤمنين، وطلب الدمار والهلاك للكافرين.

ثم يختم على عادته أيضاً بذكر العبر والعظات، ومنها أول درس: درس الصبر، ويذكر آيتي العنكبوت: ﴿... فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً...﴾ . ثم يتعرض لتواريخ لا حاجة لها ولا دليل عليها كأن يقول إنه مكث بعد الطوفان ستين سنة ونُبِّئ على أربعين... ودرس ثان: أن الإنسان الحكيم يتلقى الشبهات بصدر رحب. ومن أبلغ الدروس: الشجاعة في الرأي. والمرشد الحكيم من يسوق النصائح بأساليب متنوعة. ومن الدروس: عفافه عما في يد قومه، ويذكر الآيات...

قصة هود عليه السلام: (ص٧٥–ص٨٨)

يذكر في بدء الحديث عن قصته السُّوَر التي ذكرت هذه القصة إن بتفصيل كالأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والأحقاف، وإن بإيجاز كفصلت، والذاريات، والقمر، والحاقة، والفجر.

ثم يذكر نسبه وأنه هود بن عبد الله... الخ. (وهذا مما لا دليل عليه ولا يعنينا). وقبيلة هود هي عاد، وعاد جدهم. ومسكنهم بالأحقاف، والحقف: الرمل الكثير، وهو كما يقول المؤلف: الربع الخالي جنوب الجزيرة العربية. ويقول إن عاداً الأولى هي قوم هود وعاداً الثانية هي قوم صالح.

ثم ابتدأ بتفسير آيات الأعراف، ثم هود، ثم الشعراء، ثم الأحقاف، ثم السُّوَر التي فيها إشارات موجزة يُفسِّر آياتها المتعلقة بالقصة كذلك. ثم يختم بالعبر، ومنها: أن الغرور والبطر والتباهي بالقوة يؤدي إلى أسوأ العواقب وأوخم النتائج. ومداومة التذكير بنعم الله على عباده درسٌ آخر. وأنَّ الداعية الذي يغار على دعوة الله لا يبالي بالتهديد والوعيد.

قصة صالح عليه السلام: (ص٩٨–ص١١٦)

يذكر بدايةً السُّوَر التي ذكرت قصته عليه السلام وهي: الأعراف، وهود، والحجر، والإسراء، والشعراء، والنمل، وفُصِّلت، والقمر. ثم يُثنّي بالنسب الذي كما كررنا لا مستند صحيحاً له، فهو كما ينقل عن ابن كثير: صالح بن عبد بن ماسح... الخ. وسمِّيت ثمود قبيلته بهذا الاسم لقلَّة الماء في أرضها، من قولهم: ثمِد الماء: قَلَّ. والحِجْر موطنهم، والحِجْر بين بلاد الشام والحجاز. وهم من قبائل العرب، وكانوا خلفاء لقوم هود. والحِجْر المكان الذي أحاطت به الحجارة، أو المحجور الممنوع من الناس.

ثم يبتديء التفسير بآيات الأعراف. وفي ثنايا التفسير يُشير –مُوفَّقاً– إلى "الكثير من المبالغات التي لا يؤيدها نقل أو عقل" والتي ذكرها المفسرون وأعرض هو عنها، وخيراً فعل، وليته أكمل، فلَم يذكر في بداية كل قصة النسب الذي لا يمكن التثبّت منه، ولا نفع في ذكره.

ثم فسَّر آيات سورة هود. وفي ثنايا التفسير يحسن صُنعاً إذْ يُعطي المعنى موجزاً في العبارة، مستعيناً بكثرةٍ باللغة، فمثلاً: استعمَرَكم: من الإعمار الذي هو ضد الخراب، فالسين والتاء للمبالغة، يقال: أعمر فلان فلاناً في المكان واستعمره، أي جعله يعمره بأنواع البناء والغرس. والصيحة: الصوت الشديد المرتفع. وأصل ذلك تشقيق الصوت، من قولهم: انصاح الخشب والثوب، إذا انشق فَسُمِع له صوت. وهكذا.

ثم مرَّ بالآيات في السُّوَر الأخرى يفسرها، وختم بالعِبر ومنها: أن صالحاً بذل مع قومه أقصى ألوان الترغيب والترهيب. وأن العقلاء يعتَبرون بآثار الظالمين. وأن الإيمان إذا خالط القلوب ولَّد فيها الشجاعة. وأن العقلاء المخلصين يستعملون في دعوتهم الأساليب المنطقية.

قصة إبراهيم عليه السلام: (ص١١٧–ص١٩٣)

يقول في البداية إن قصة إبراهيم من القصص التي تكرَّرَ الحديثُ عنها في القرآن. ثم ذكر السُّور التي ذكرت قصته عليه السلام وهي حوالي عشرين سورة ، واسم إبراهيم ورد ما يقرب من سبعين مرة [١].

ثم أطال في الذي نأخذه عليه وهو ذكر النسب والتفصيلات التي لا يمكن الاستناد فيها إلى "علم". فقد نقل عن ابن كثير في البداية والنهاية نسبه وأنهاه إلى نوح.

ثم دخل في الحقبة الزمنية بينه وبين نوح وأنه في حدود ثلاثة آلاف سنة، وهو كلام لا مصدر له إلاّ التوراة... وكفى بها مصدراً!!

ثم ذكر مكان ولادته وأنه بابل بالعراق، ونفى أن يكون بغوطة دمشق! ونقل عن ابن كثير عن ابن عساكر أنه كان يُكنَى أبا الضيفان. وواضح أنها ليست كُنْية، وإنما هو لقب أُطلق عليه لمسارعته في إحضار العجل السمين والحنيذ قبل أن يَعرِف من هم ضيوفه...

ثم أوغل بنا في التفاصيل التي لا دليل عليها ولا فائدة منها إذ قال أن " تسارخ" [٢] والد إبراهيم (لاحظ أنه تجاوز ما في القرآن ﴿لأبيه آزر...﴾ ، بحجة أن العم أب... الخ)، وُلد له إبراهيم وعمره خمس وسبعون سنة، وأن إبراهيم كان أوسط ثلاثة، مات الأصغر منهم... الخ. وهي تفاصيل كما ترى لا يمكن بحال التحقق منها.

ثم هاجر إبراهيم مع أبيه!! من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس فنزلوا حرّان، وهناك تزوّج بسارة، ابنة ملك حرّان، وكان أهلها يعبدون الكواكب...الخ!!

(وتأمّل ما يصنع النقل في غَيْبة وَعْي العَقْل، أو في غَيْبة إعمال النَّقْد العَقْلي فيما نقرأ أو ننقل: فإبراهيم –بنص القرآن– هاجر بعد أن اصطدم مع أبيه وقومه، فهو قد هاجر منهم لا معهم. وتأمل هذه الآيات من القرآن: ﴿ونجَّيْناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالَمين﴾ الأنبياء: ٧١، واقرأ آيات الصافّات في قصته بدءاً من ﴿...إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون...﴾ إلى ﴿... فأرادوا به كيداً فجعلناهم

١– والصواب أنها خمس وعشرون سورة. ومرات ورود الاسم: تسع وستون.

٢– في الإسرائيليات الأخرى: (تارح، وتارخ) بلا سين

الأسفلين وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ الصافات: ٨٣-٩٩ فما بعدها. وفي سورة الزخرف ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براءٌ مما تعبدون...﴾ آية: ٢٦).

ثم يقول: ويبدو أنه عاد مرة أخرى إلى أرض بابل، وهناك جرى ما جرى بينه وبين ملكها وأهلها من مجادلات... الخ. وأيضاً، فهذا قول بعيد، ولا ينسجم مع القرآن، وهو مبنيٌّ على أن دعوته كانت بعد النبوة وهو استنتاج خاطئ، فقومه يقولون: ﴿سمعنا فتىً يذكرهم يُقال له إبراهيم...﴾ . وهو باختصار لا أثارة من دليل عليه. فلماذا نقتحم التيه بلا سبب وجيه؟!

وينقله الكاتب بعد هذا إلى الشام من جديد، ومعه هذه المرة ابن أخيه لوط. ثم يذكر إقامته في مصر بعد اشتداد الغلاء في بلاد الشام!! وأنه أقام في مصر ما شاء.الله ثم عاد إلى فلسطين. وينقل عن ابن كثير أنه رجع بأنعام وعبيد ومال جزيل... ورائحة اليهود –أعني الإسرائيليات– واضحة في النص.

ثم يذكر إحضاره هاجر من مصر، وهجرته لها وابنها إلى مكة وبناء البيت. ثم ينقل عن ابن كثير أن قبره وولده إسحق وولد ولده يعقوب بحبرون "الخليل"... وأن هذا متواتر. ثم يُعقّب على هذه الروايات بأنها لمحة عن حياته عليه السلام كما ذكرها المحققون من المفسرين.

ثم يشرع في تفسير الآيات بدءاً من سورة الأنعام. وفي التفسير ينقل عن الآلوسي أن آزر علم أعجمي لوالد إبراهيم وقيل إن لفظ آزر لقب وأن الاسم الحقيقي "تارخ"، وقيل هو اسم جدّه، وقيل هو اسم عمّه. والجد والعم يسميان أباً مجازاً.

هذا الخلاف الرباعي أليس متاهة بلا فائدة ولا دليل؟!. وما كان أجمل لو اقتصر الدكتور الطنطاوي على تفسير الآيات، دون هذه الروايات، لكنه ربما ظنَّ أنه بهذا يتحوَّل إلى كتاب تفسير، ولا يظل كتاباً في القصص إلاّ بهذه المنقولات المتعلقة بالتاريخ والمستندة في الأساس إلى الإسرائيليات...

ولكن الجميل في تفسيره لآيات سورة الأنعام أنه لم يقع في شَرك القول بأن إبراهيم كان يبحث عن ربّه، وإنما قال –وبحق ما قال– إن هذه المناظرة كانت: "على سبيل الفرض وإرخاء العنان للمشركين..."، وإن إبراهيم "أقام الأدلة الحكيمة على أن المستحق للعبادة إنما هو الله..."، "والمتدبر في هذه الآيات يرى ما فطر عليه إبراهيم من إيمان عميق، وعقل سليم، وقوة في إيراد البراهين...".

ثم يفسر آيات سورة مريم المتحدثة عن قصته عليه السلام. وتأمل ما قاله في تفسير الآيات وانظر غياب الوَعْي أو ضعف المنهجية في التأليف، وليسامحنا الأستاذ الكريم، أستاذنا: "إن إبراهيم بعد أن رأى تصميم أبيه وقومه على الكفر قرَّر اعتزالهم والابتعاد عنهم، وارتحل عنهم جميعاً إلى أرض الله الواسعة". ونسي

الأستاذ قبل صفحات قليلة أنه قال إنه هاجر مع أبيه. إلاّ إذا زعم أنها الهجرة الثانية. وهذا لا دليل عليه مُطلقاً أنهما هجرتان.

ثم فسّر آيات سورة الأنبياء، ومن اللفتات الجميلة المبنية على اللغة هذه الوقفة عند قوله تعالى: ﴿ما هذه التماثيل...﴾ قال: وسؤاله لهم بهذا الأسلوب إنما هو من باب تجاهل العارف زيادة في الاستخفاف بهم وبأصنامهم، لأنه كان يعلم علم اليقين، أن هذه الأصنام مصنوعة من الأحجار، أو ما يشبهها. وإنما أراد بسؤالهم، تنبيههم إلى فساد فعلهم، حيث عبدوا ما يصنعونه بأيديهم، وعبّر عن الأصنام بالتماثيل زيادة في التحقير من أمرها، والتهوين من شأنها، فإن التمثال هو الشيء المصنوع من الأحجار أو الحديد أو نحو ذلك. وفي التعبير عن عبادتهم لها بالعكوف عليها تفظيع لفعلهم، وتنفير لهم منه، حيث انكبّوا على تعظيم من لا يستحق التعظيم...

وينقل عن الكشّاف كلاماً جميلاً في تفسير قوله تعالى: ﴿بل فعله كبيرهم هذا...﴾ قال: "هذا من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلاّ أذهان الراضة [1] من علماء المعاني. والقول فيه أن قصد إبراهيم لم يكن أن ينسب الفعل إلى الصّنم، وإنما قصد تقريره لنفسه. على أسلوب تعريضي، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة. وهذا كما لو قال لك صاحبك، وقد كتبت كتاباً بخطّ رشيق، وصاحبك أُمّي لا يقدر إلاّ على خرمشة فاسدة، فقلت له: بل كتبته أنت، كان قصدك بهذا الجواب: تقرير أن هذه الكتابة لك، مع الاستهزاء به...".

وفي ختام تفسير آيات سورة الأنبياء يذكر الرواية المشهورة على الألسن. من سؤال الملائكة وقول إبراهيم: علمه بحالي يغنيه عن سؤالي... الخ. ولا أرى لها محلاً، فأولاً هي تحتاج إلى إسناد ثابت. ثُمّ من دأب الأنبياء والصالحين الدعاء، بل إن سورة الأنبياء تكلمت في هذا المعنى تحديداً، فكيف فات هذا على الأستاذ؟ وتأمّل هاته الآيات من هذه السورة: ﴿ونوحاً إذ نادى من قبْلُ فاستجبنا له...﴾ آية: ٧٦، ﴿وأيوب إذ نادى ربّه... فاستجبنا له...﴾ آية: ٨٣-٨٤، ﴿وذا النون... فنادى في الظلمات... فاستجبنا له...﴾ آية: ٨٧-٨٨، ﴿وزكريا إذ نادى ربه... فاستجبنا له...﴾ آية: ٨٩-٩٠.

ثم علّق السياق الكريم على هذا الموكب الكريم من الأنبياء الدّاعين ربّهم في الشدائد والاحتياج: ﴿إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعونَنا رَغَباً ورَهَباً وكانوا لنا خاشعين﴾ آية: ٩٠.

١- الراضة: من ذُللت لهم المعاني وجمعوها. ارجع للمعجم الوسيط (ج١، ص٣٥٨-٣٥٩. ط٢، القاهرة: ١٩٧٢م). فقد قال راضه: ذلله. أراض المكان: اجتمع فيه الماء.

ثم انتقل الكاتب إلى سورة الشعراء يُفسِّر آياها... ثُمَّ "الصافَات" التي حكت جانباً من الحجاج بين إبراهيم وقومه وتحطيم الأصنام. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم...﴾ يقول: إنه كان بين نوح وإبراهيم نبيّان هما هود وصالح. (وهذا مما لا يقين فيه. والله أعلم).

ثم يستعرض آيات سورة "العنكبوت" التي تحدثت بشيء من التفصيل عن الحجج والبراهين التي ساقها إبراهيم لقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله، ومما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا...﴾ : يا قوم إنكم لم تتخذوا هذه الأوثان معبودات لكم عن عقيدة واقتناع بأحقية عبادها، وإنما اتخذتموها معبودات من أجل المودة فيما بينكم، ومن أجل أن يجامل بعضكم بعضاً في عبادها، على حساب الحق، هذا شأنكم في الدنيا، أما يوم القيامة فهذه المودة ستزول لأنها مودة باطلة. وسيكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً، حيث يتبرأ القادة من الأتباع، والأتباع من القادة، والعابدون من المعبودين، والمعبودون من العابدين... الخ".

ثم يتكلم عن مشهد الحجاج في سورة البقرة. ثم يتحدث عن هجرته إلى ربه وبشارته بإسماعيل كما هي في سورة الصافات. وينقل عن القرطبي قوله: هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة عن أهل الشر والسوء...

وجميل وحق اختياره أن الذبيح إسماعيل، لا كما صنع رواة الإسرائيليات بلا وعي ولا كتاب منير إذ زعموه إسحاق... ليسلبونا هذا الشرف وينسبوه لبني إسرائيل. مع أن المسألة في غاية الوضوح إذ قال الله بعد قصة الذبيح: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ بل إني وجدت الكاتب يقول هذا الذي تبادر إلى الذهن بالنص تقريباً ينقله عن السيوطي: "وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضي القطع على أن الذبيح إسماعيل... الخ".

ثم يستعرض آيات سورة هود في قصته عليه السلام، ثم سورة الحجر التي حكت البشارة بإسحاق، ثم الذاريات. ثم آيات سورة الحج المتحدثة عن بناء المسجد الحرام، وقد ذكر الكاتب أقوال العلماء في البيت، فذكر أن جماعة من أهل العلم ذهبوا إلى أن إبراهيم أول من بناه، ولم يكن له وجود من قبله، والقول الآخر ذكره الكاتب وأن الأساس كان موجوداً، وأن ريحاً كنست ما فوقه من تراب فظهر الذي كان مندرساً... الخ.

ثم استعرض آيات سورة البقرة والتي تحدثت أيضاً عن بناء البيت والدعوات الخاشعات التي كان يتضرع بها إبراهيم عند بنائه. وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى...﴾ نقل عن

ابن كثير أن الحجر الذي يسمى مقام إبراهيم كان ملصقاً بجدار الكعبة. وإنما أخره عمر بن الخطاب ﷺ عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة.

وفي ختام القصة، وعلى ما هي العادة، تكلم عما يؤخذ من القصة من فضائل وأحكام، وكان من ذلك: إمامته للناس. واختار في الكلمات التي أتمها إبراهيم اختيار ابن جرير وهو: التكاليف الشرعية التي كلف الله بها نبيه إبراهيم. وحسناً فعل.

وحسناً فعل إذ قرن بين ﴿فأتمهن﴾ وبين ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي جعلهما مفسرتين كل منهما للأخرى. وفسر الإمامة بالرسالة والنبوة.

ومن الدروس اصطفاء الله له في الدنيا. ومنها كذلك: وفاؤه بالعهود. وجمعه لأطراف الخير. وإجابة دعائه. والدعوة إلى التأسي به. وذكاؤه وفطنته ويستشهد بحواره مع الملك. ومن المستفاد كذلك: كرمه وسخاؤه. وحرصه على زيادة إيمانه ويستشهد بقصة إبراهيم والطير: ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾. وتكليفه ببناء المسجد الحرام، ومنهاجه في دعوته. واعتزاله للشرك والمشركين وما ترتب على ذلك من نعم.

قصة إسماعيل واسحق ويعقوب عليهم السلام: (ص١٩٤–ص٢٠٠)

يقول في بدء الحديث عنهم إن حديث القرآن عنهم قد ارتبط في معظم الأحيان بحديثه عن أبيهم إبراهيم. أما إسماعيل فقد جاء الحديث عنه في اثني عشر موضعاً. ويقول عن وصفه بصدق الوعد، وإن كان غيره من النبيين كذلك، تشريفاً وتكريماً له، ولأن هذا الوصف من الأوصاف التي اكتملت شهرتها فيه.

ثم ذكر قصة هجرة هاجر إلى مكة، فقد قال إن هاجر اتخذت المنطق –أي الحزام– ثم علل بأنها فعلت ذلك هرباً من السيدة سارة التي أشارت على إبراهيم بطردها لشدة غيرتها منها بعد أن ولدت إسماعيل، وكانت سارة عاقراً.

ثم نقل رواية عن ابن عباس قال: فخرج إبراهيم بهاجر وابنها وهي ترضعه وسار بهما حتى وضعهما عند البيت... وختم القصة بقول هاجر: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا.

ووضع هذه الرواية عقب سابقتها يوهم أنه استجاب لطلب طرد سارة لضرتها، وليس كذلك، بدليل أن إبراهيم قال إن الله أمره بهذا. فهو اختبار من الله وليس اختياراً من إبراهيم. وكان ينبغي أن يُنوّه الكاتب لذلك.

وماتت أم إسماعيل وعمرها تسعون سنة. وذكر بناء البيت وأن إسماعيل كان يحضر الحجارة وإبراهيم يبني. والرواية بطولها نقلها عن البخاري.

ثم نقل عن ابن كثير أن إسماعيل أُرسل إلى مكة حتى اليمن وأنه مات عن سبع وثلاثين ومئة سنة ودُفن بالحجر مع أمه هاجر. وموقفنا من الأخبار التي لا يمكن التثبت منها مكرور معروف.

ثم نسب إلى علماء النسب أن إسماعيل أول من ركب الخيل! وأنه أول من تكلم العربية الفصيحة البليغة، وكان قد تعلمها -لاحظ- من العرب العاربة. فهل رأيت: هو تعلمها وهو أول من تكلم بها. كيف؟!

ثم انتقل للحديث عن إسحق الذي ورد ذكره في سبعة عشر موضعاً. ونقل عن ابن كثير تفاصيل عمرية لكل من ابراهيم وسارة حين وُلد إسحق فقال: وُلد إسحق ولإبراهيم مئة سنة، بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة، وكان عمر أمه سارة تسعين سنة حين بُشّرت به (فتزيد سنة إذاً)... وهذا كله قد علقنا على مثيلاته فلا نكرر.

ثم نقل عن ابن كثير أن إسحق تزوج وعمره أربعون سنة وعزا النقل إلى أهل الكتاب، هكذا صريحاً ولأول مرة... فأنجب إسحق من زوجته توأمين: العيص ويعقوب. ثم ينقل أسماء أبناء إسرائيل (أي يعقوب). وواضح أنه لا مستند لكل ذلك إلاّ التوراة، وهي بعد عبث بني إسرائيل بها، لم تعد مصدراً يصلح للتوثيق والنقل منه.

ثم فصَّل كل زوجة ليعقوب كم أنجبت ومَن، وكل ذلك مما لا يدخل في دائرة اهتماماتنا وانشغالنا.

ثُمّ يذكر وفاته عن سبع وأربعين ومئة سنة، وأن يوسف استأذن في دفنه بالخليل من ملك مصر... وكل هذا يتكئ فيه المؤلف على حائط الإسرائيليات وهو منقض أو يريد أن ينقض...

هذا ويختم قصته بقوله إنه: "ضرب صفحاً عن كثير من الأقوال التي لا نرى فائدة من وراء ذكرها". وحسناً فعل، وليته أكمل معروفه وإحسانه بترك الإسرائيليات جملة...!

قصة يوسف عليه السلام : (ص٢٠١-ص٢٨١):

يذكر في البدء مكية السورة وسبب النزول المعروف الذي لا نطمئن إليه، وهو أن الصحابة قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت. علماً بأن القرآن المكي كل سورة فيه فيها مشاهد قصصية

أو هي قصصية بالكامل، فكيف يطلبون هذا الطلب؟! ثم يقول إن نزولها في فترة الشدة بعد الإسراء ووفاة الظهيرين: العم أبو طالب والزوج خديجة رضي الله عنها... فكان نزولها تسلية.

ثم يصف السورة بأنها عرضت قصته عليه السلام -أي يوسف- "بأسلوب مُشوِّق حكيم، يهدي النفوس ويشرح الصدور". ثم يوجز أحداث القصة في نصف صفحة ليدخل في تفسير الآيات.

ومن المحطات التي نقف عندها قوله: "إن هذا المنام قد وقع تفسيره بعد أربعين سنة، وقيل: بعد ثمانين...". وهو بعيد مُتكلَّف لا دليل عليه.

وأحسن إذ لم يقل بنبوة اخوة يوسف.

ومن الوقفات الجميلة عند تفسير قول الاخوة: ﴿اقتلوا يوسف...﴾ قال: "وهكذا النفوس عندما تسيطر عليها الأحقاد، وتقوى فيها رذيلة الحسد تفقد تقديرها الصحيح للأمور، وتحاول التخلص ممن يزاحمها بالقضاء عليه، وتصوّر الصغائر في صورة الكبائر، والكبائر في صورة الصغائر...".

ولولا الهنات البسيطة لكان الكتاب أجمل. فما الذي يدفع الكاتب للدخول في من هو القائل: ﴿لا تقتلوا يوسف...﴾ حيث يقول: ورجَّح المفسرون أن المراد يهوذا... وكيف رجّحوا؟ إن الراجح والمرجوح من التوراة يستقي، فما الفرق بين راجح ومرجوح، وكله من مصدر مجروح؟! ثم كيف عرف أن التسابق كان "عن طريق الرمي بالسهام" في قوله تعالى: ﴿إنا ذهبنا نستبق...﴾ ؟

ونقل عن القرطبي فائدة جميلة في موضوع الدم على القميص فقال: "وقد استدل الفقهاء بهذه الآية في أعمال الأمارات والعلامات في مسائل من الفقه...".

ثم ينقل عن الآلوسي ما لا لزوم له من ذبح ظبي وتلطيخ القميص بدمه وقول يعقوب ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا الذئب!! أكل ابني ولم يمزق قميصه.

ثم لم يصب مرة أخرى إذ قال: إن الذي اشترى يوسف كان رئيس الشرطة، ولقّبه القرآن بالعزيز. وواضح من وصف القرآن أن العزيز يساوي الوزير الأول. ولم يعجبنا تسميته لزوجة العزيز كما في الكتب إذ لا دليل...

وما أحسن الكاتب -فيما نرى-، إذ زعم ليوسف "الهم"، ولكنه فرقه عن هم امرأة العزيز، بأن همها كان هماً بمعصية مقروناً بالعزم، وأن همه كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية، من غير

جزم، وأعاد ما قال الكشاف وغيره: كالصائم يرى الماء البارد في اليوم الحار فتميل نفسه إليه ولكن دينه يمنعه [1].

ونقول بإيجاز: إن الماء البارد في أصله حلال، فالميل إليه طبيعي، أما هذه الفعلة (الهم بالمعصية) فهي في الأصل حرام. ثم ما الفرق بين يوسف وغيره من المؤمنين العاديين الذين يترفعون عن الوقوع في الحرام في مثل هذه المواقف؟! ثم أليست "لولا" حرف امتناع لوجود؟ إذاً امتنع الهم لوجود البرهان... ثم أين العبرة في القصة إذا كان نبي قد مال؟ إذاً فغير النبي سيتوغل إلى الأفعال. ثم أليس الهم من السوء؟ والله تعالى قد صرف عنه السوء.

وأيضاً أليس يوسف من المُخْلَصين الكاملين في خلوصهم لرب العالمين؟ فكيف يستقيم هذا مع الهم؟ والأسئلة كثيرة لو أردنا المتابعة. والذي نختاره، بل لا نرى سواه لائقاً بالمقام أن يوسف عليه السلام ما وقع منه الهم بإطلاق، لا من مستوى خاطرة فما فوقها...

وأحسن الكاتب إذ فسّر "رؤية البرهان" بأنها: كمال إيقانه بربه ومحبته له، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين. وهو نقل عن الآلوسي نقلته بمعناه. وجميل ما نقله عن الآلوسي أيضاً عند تفسير: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً...﴾ قال: "أتت بلفظ عام، تهويلاً للأمر، ومبالغة في التخويف. كان ذلك قانون مطرد في حق كل من أراد بأهله سوءاً".

ولست مع الآلوسي ولا مع الكاتب في قوله: "ثم إن حبها ليوسف حملها إلى أن تبدأ بالسجن وتؤخر العذاب الأليم، لأن المُحب لا يسعى في إيلام المحبوب، وقد يكون المراد بالسجن ليوم أو يومين...".

وأقول: إن المرأة الآن انتقلت من المرأة المُحبة إلى المرأة المنتقمة، وهذه إنسانة أُخرى، صحيح أنها نفس المخلوقة، ولكنها في المشاعر مختلفة إلى حد التناقض المطلق... وأعدى عدوين كما يقول الرافعي: اثنان كانا متحابين [2].

ثم من قال إن السجن ليوم أو يومين؟ ألم يسجن لسنين وما كان من بارقة أمل في خروجه لولا فضل الله برؤيا الملك. ثم إن القرار الأخير هو الذي يوضع للتنفيذ، وذلك كما حدث في اقتراح قتل

١- رددت على هذه الأقوال بتفصيل في كتاب: سورة يوسف دراسة تحليلية، ص٣٥١-ص٣٦٦.

٢- راجع وحي القلم: ج١، ص١١٥-ص١١٧، في حديثه عن امرأة العزيز، وقد ورد هذا القول في الكتاب عينه.

يوسف، فقد كان هو القرار الذي حل محله ما بعده... لكنهم في النهاية اختاروا السجن: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجُنُنّه حتى حين﴾ .

ولم ترقنا الروايات التي ذكرها حول الشاهد، قيل كان ابن خال لها وقيل ابن عم لها وقيل إنه كان صبياً في المهد... كما وردت بذلك بعض الآثار (يذكر حديث أحمد عن الأربعة الذين تكلّموا في المهد). أما لو كان صبيا فيكفي كلامه شهادة لبراءة يوسف، وليس تفصيله الأحكام في صورة منطقية. وما أروع تعبير القرآن وأجمعه: ﴿شاهد من أهلها...﴾ والصغير في المهد ليس شاهداً يُعتد بشهادته... ويكفينا أنه من أهلها، ولا يهمنا إن كان ابن خالتها أو كان ابن خال أبيها..

ثمّ يذكر الكاتب الدروس المستفادة من مشهد المراودة، وكلها قريب المنال، لا يغيب عن البال.

وفي المشهد الخامس مشهد مراودة النسوة ينقل عن المنار قوله: "إن النسوة قلن ما قلن لرؤية يوسف... فهو مكر، وهي قابلت مكرهن بمكر أشد...".

وفي تفسير الآيات ينقل عن ابن كثير ما نعتبره شهادة لرأينا الذي اخترناه قبل قليل في موضوع الهم إذ يقول: "يوسف عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن. وهذا في غاية مقامات الكمال...".

ولم يعجبنا اختيار أستاذنا الكاتب في المشهد السادس مشهد السجن عند تفسير: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه...﴾ : إذ قال ورجح بأن الموصى (بالألف) هو الذي نسي (أي لا يوسف) أن يذكر الملك، وكان نسيانه من جملة مكايدة الشيطان... وقال إن الظاهر عودة الضمير إلى ساقي الملك. (وأقول بل الظاهر عودة الضمير إلى يوسف، والتناسق في الضمائر هو الأولى: ﴿ فأنساه.. فلبث...﴾ ، ثم على قولهم نحتاج إلى تكلف في تفسير ﴿ذكر ربه...﴾ .إذ يكون المعنى على قولهم: ذكر يوسف عند ربه، وعلى اختيارنا يبقى النص على حاله. ولماذا يستكثر الكاتب نسيان النبي؟ ألم ينس آدم؟ ولماذا لم يستكثر الهم وهو أخطر من النسيان؟!).

وفي المشهد السابع: مشهد رؤيا الملك، قال: لم يسمه القرآن فرعون، لأنه لم يكن من الفراعنة. وإنما كان من الهكسوس، وهذا من دقائق إعجاز القرآن العلمي.

وفي المشهد الثامن يعلق على إباء يوسف الخروج من السجن إلاّ بعد التحقيق بذكر حديث الصحيحين: "ولو لبثْتُ في السجن ما لبث يوسُف لأجبت الداعي". ثم عقّب بأن هذا من التواضع.

وأحسن إذ نسب القول: ﴿وما أبرئ نفسي...﴾ إلى المرأة ولم ينسبه ليوسف كما صنع بعض المفسرين.

وفي المشهد التاسع والذي هو بعنوان: اللقاء الأول بين يوسف وإخوانه، ينقل عن الرازي رواية يعقوب أنه قال لبنيه: إن بمصر رجلاً صالحاً يمير الناس، فاذهبوا إليه بدراهمكم. وخذوا منه الطعام... فخرجوا ولم يبق سوى بنيامين...". والقرآن لم يتحدث عن دراهم، وإنما قال: ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم... ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم... هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا...﴾ وهذا كله في المرة الأولى. وفي المرة الأخيرة: ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة...﴾ ومعلوم أنه في ذلك الزمن كانت العملة الرائجة هي البضائع ومقايضتها، والدراهم موجودة في ندرة.

وأضف أن القرآن لم يُحدِّثنا عن هذه المعلومات التفصيلية، فما أجمل أن نتوقف عند الحدود القرآنية، لا نعدوها قيد أنملة. وإنما هو الدرس والتحليل للنص القرآني الكريم.

ولم يُفسِّر لنا الكاتب تبريره لطلب يوسف لأخيه الذي بقي عند أبيه فيقول: "أنا أريد منكم في الزيارة القادمة لمصر، أن تحضروا معكم أخاكم من أبيكم لكي أراه..."، ويكررها ثانية وثالثة: "وقد طلبت منكم أن تصحبوا معكم أخاكم من أبيكم"، "أكد لهم وجوب إحضار شقيقه معهم عند عودهم".

ولم يرقنا تفسيره لأمر يعقوب لهم بدخول مصر من أبواب متفرقة في المشهد العاشر، فيما ينقله عن الآلوسي بأنه كان حذراً من إصابة العين فإنهم كانوا ذوي جمال... وذكر تعليلاً ثانياً هو خوف اتهامهم بأنهم جواسيس... وهذا نص التوراة!!

ومن أسف أن الكاتب في المشهد الحادي عشر. وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فقد سرق أخ له من قبل...﴾ ذكر رواية المفسرين أن يوسف سرق صنماً من ذهب وفضة ثم كسره وألقاه، فعيَّره اخوته. ولم يعلِّق على الرواية، وواضح بُعدها، ومن أين الصنم؟! الأدهى أن الروايات في الكتب الأخرى تزعمه في بيوت ذويه...!! وفسر قوله تعالى: ﴿وما كنا للغيب حافظين...﴾ بأنه: وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك. وأعتقد أن النص يحتمل
تفسيراً آخر أوجه هو ما كُنَّا نعلم حقيقة الذي جرى، أهو تدبير أو كيد أو دسيسة؟

ولا يفوته في المشهد الثاني عشر أن يسمي أسماء الذين تخلَّفوا... وأعجبني استشهاده بأبيات متمم في رثاء أخيه مالك بن نويرة، وكنت استشهدت بها من قبل في كتابي سورة يوسف دراسة تحليلية[1]:

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك

---

١ - ص ٥٢٠.

فقال أتبكي كل قبر لقيته ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له إن الشجى يبعث الشجى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وذلك عند تفسير ﴿يا أسفى على يوسف...﴾ .

وفي المشهد الثالث عشر الذي جعل عنوانه: اللقاء بين يوسف واخوته يستشهد بقول الإمام مالك في تفسير قوله تعالى: ﴿إني لأجد ريح يوسف...﴾ ، قال: "أوصل الله ريح قميص يوسف إلى يعقوب، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه".

وفي المشهد الرابع عشر وتحت عنوان: لقاء يوسف بأهله، ذكر أن المفسرين ذكروا أن وجهاء مصر خرجوا لاستقبالهم. وهذا لا يزيدنا شيئاً ولا يسنده شيء.

ثم ختم بالدروس: الحسد رذيلة إذا سيطرت دمرّت وأفقدت الرشد. وأن أخوة يوسف كانوا مخطئين في حقه. وأن الخلوة بين غير المحارم محرمة. وأن المصطفين الأخيار لا يتغلب عليهم الشيطان. وأن صاحب الرسالة يحرص على تبليغها. وأن سُنّة الله أنه لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. وأن صاحب الكفاءة والمواهب لا بأس عليه لو طلب المناصب. وأن الآباء العقلاء لا يمنعهم خطأ أبنائهم من محبتهم. وأن النفوس الكريمة لا تفقد الأمل. وأن القرآن من عند الله.

قصّة لوط عليه السلام مع قومه : (ص٢٨٢-ص٣١٦):

بدأ بالسُوَر التي ذكرت القصة، وذكر تسع سُوَر. وأن اسم لوط تردد ٢٧ مرة في القرآن. وابتدأ بتفسير آيات الأعراف، وبدأها بنقل عن ابن كثير لنسب لوط، وأن إبراهيم عمُّه، وأن قومه اخترعوا فواحش لم يعهدها بنو آدم من قبل.

ثم ثنّى بآيات سورة هود، وعند تفسير: ﴿هؤلاء بناتي...﴾ اختار أنه يقصد زوجاتهم بنات القرية فإنهن بناته. ولم يفته أن يذكر اسم ابنتَيْ لوط عن الرازي، معتمداً في العدد والأسماء على الإسرائيليات بالطبع!!.

ثم لفتة طيبة نقلها عن القرطبي حول لفظ "أطهر" وأنه "ليس للتفضيل، كقولك: الله أكبر، ولم يكابر الله أحد...".

ثم يروي أن جبريل ضرب المجموعة التي هرعت إلى بيت لوط بجناحه فأعماهم. وليس عندنا مصدر للتفصيل. وإن كان المعنى مُجملاً عندنا.

ثم ينقل حواراً عن الآلوسي بين لوط والملائكة يسألهم عن موعد العذاب ويستعجلهم!!. ثم ينقل عن ابن حزم التوفيق بين الآية والحديث الصحيح: "رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى رُكنٍ شديد..."، بأن لا تخالف، فطلب لوط هو النجدة السريعة...

ثم فسر آيات الحجر، وعند تفسير لفظ "المتوسّمين" قال إنّهم المتأملون في الأسباب والعواقب. ونقل أن الآية أصل في "الفراسة"، وذكر حديث الترمذي: اتقوا فراسة المؤمن، واستشهد بالآية!.

وفسر ﴿لبسبيل مقيم...﴾ : أنها الطريق الثابت الواضح الذي يسلكه الناس ويراه كل مجتاز من الحجاز إلى الشام. وهو تفسير جيد.

ثم أتبع ذلك بتفسير آيات سورة الشعراء، ثم النمل، وكان يرد الآيات إلى بعضها يفسر القرآن بعضه ببعض وهو جيد كذلك.

ثم آيات سورة العنكبوت، وكرَّر بعض الأقوال التي ذكَرها في مقدمة القصة. ثم ختم التفسير بآيات سورة القمر، فهو مُتَتَبِّع الآيات على ترتيب المصحف.

ثم ختم القصة بعظاتها: أن رسل الله أرسلهم الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. وأن النفوس إذا ارتكست رأت الرذائل فضائل. وأن القوم مجاهرون. وأن صاحب الحق يدافع عنه. وأهمية القوة في نُصرة الحق. وأن العقوبة متناسبة مع الجريمة. وأن التكرار لترسيخ المعاني.

قصة موسى وهارون عليهما السلام : (ص٣١٧-ص٥١٦):

يبتدئ القصة الكريمة بأنها على رأس القصص التي تكرر الحديث عنها في أكثر من عشرين سورة، تارة مفصلة وتارة مختصرة ومما فصَّلها: البقرة، الأعراف، طه، الشعراء، القصص. وموسى ينتهي نسبه إلى إبراهيم، ثم يذكر نسبه.

ويذكر ولادته وأنها كانت في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل المسيح. ثم يذكر النبوءة التي جعلت فرعون يقتل الصبيان من بني إسرائيل ويترك البنات. ويذكر الفرعون الذي كان في زمنه موسى وأنه منفتاح ابن رمسيس، وذكر من أسباب نقمة الفراعنة على الإسرائيليين أنهم كانوا عونا للهكسوس الذين حكموا مصر خمسمئة سنة، حتى طردهم احمس.

ثم يذكر تكرارات اسم موسى وأنها أكثر من مئة مرة. وكانت وفاته في التيه. ثم يذكر حديث الصحيحين: أنه طلب من الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة فأجاب الله دعاءه... ثم يذكر عن هارون أنه قيل فيه إنه شقيق لموسى، وقيل أخ لأم. وهذا خبط بلا معالم. وأن وفاته قبيل موسى، ولا يهمنا ولا دليل.

ثم يبتدئ التفسير بآيات القصص وأنها ذكرت قصته في أكثر من أربعين آية. ومما قاله في التفسير ولا نرى له مكانا، ما نقله عن تفسير حاشية الجمل على الجلالين عن آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون، وأنها من بنات الأنبياء!! وأنها أم المساكين!!

وينقل عن الآلوسي عند تفسير: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة...﴾ قال: "بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون، فخافهم وخافوه فاختفى، ودخلها متنكرا". ولا أدري كيف يخافه المصريون؟!

وأحسن الاختيار إذ قال إن الذي قال لموسى: ﴿أتريد أن تقتلني...﴾ هو القبطي وليس الإسرائيلي... وهو اختيار الرازي، وهو الصحيح.

ويتعرض للشيخ الكبير والد الفتاتين أهو شعيب أم غيره ورجّح ترجيح ابن كثير أنه ليس هو. وهو الصحيح.

ويقول أثناء التفسير عبارة تفهم أن موسى تزوج البنت بعد خدمة العشر سنين، وهو ما لا يعقل، وقد كرر العبارة، وهذه هي: "ومضت السنوات العشر. ووفى كل واحد منهما بما وعد به صاحبه، وتزوج موسى بإحدى ابنتي الشيخ..."، "ومكث موسى عشر سنين، فلما قضاها، وتزوج بإحدى...".

قلت: هذا لا يعقل أن يظل عشر سنين مخالطاً أهل الدار دون أن يتزوج، إنما الصحيح أن المهر دَيْن، فقضى موسى دينه، بعد أن تزوج من أول وصوله مَدْين. هذا هو المنطق السليم.

ثم نقل عن ابن كثير تفاصيل ليلة النار: "وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال. في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه... الخ". هذا وصف قصصي، لا قصص قرآني. فمن أين جاءنا وصف المكان، ووصف الطبيعة، وقدحه الزناد؟!

وينقل عن ابن كثير أن فرعون بنى الصرح الذي لم ير في الدنيا بناءً أعلى منه!!

ثم انتقل من تفسير آيات القصص إلى آيات النمل. ولم يتعرض لقضايا التكرار، أو ما ظاهره التكرار! ثم انتقل إلى سورة طه. فالشعراء، فالأعراف، فيونس، فالإسراء. كل ذلك في تفسير موجز لا إضافة فيه. واكتفى بأن ركّز على مشهد المحاورات مع فرعون.

ثم يعود ليستعرض مشاهد أخرى في كل السُوَر فيتكلم عن المبارزة. ثم يستعرض اشتداد ظلم فرعون في السُوَر المختلفة، وهكذا...

وعند تفسير آية: ﴿اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه...﴾ من سورة غافر نقل قول الرازي إن هذا القتل كان غير القتل الذي وقع في ولادة موسى...، ثم يستنتج من قول: ﴿ذروني أقتل موسى...﴾ أن قتله كان يلقى معارضة! ثم تكلم عن مرحلة نزول المصائب بقوم فرعون.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يُبين...﴾ من سورة الزخرف، نقل قول ابن كثير في قول فرعون هذا إنه "كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى بعين كافرة شقية، وقد كان موسى من الجلالة والبهاء في صورة تبهر أبصار ذوي الألباب".

ثم تكلم عن خروج بني إسرائيل، وبدا بتفسير آيات الشعراء. ويرى الكاتب أن لا مانع من أن يكون بنو إسرائيل عادوا إلى مصر بعد الخروج وبعد هلاك فرعون وجنوده، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل...﴾ وقد فسرها تبعاً لعلماء أنها جنات مصر. والذي أراه أن ليس كذلك.

ثُم فسّر آيات طه، والدخان، في الموضوع نفسه أي الخروج. ثُم آيات يونس، ويروي في تفسير ﴿آلآن وقد عصيت...﴾ حديثاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ يرويه ابن كثير أن جبريل أخذ من طين البحر ودس في فم فرعون مخافة أن تناله الرحمة. ثم قال: قال الترمذي: حديث حسن. وأرى أنه في المتن مشكل.

ثم نقل عن ابن كثير ينقل عن البخاري أن الخروج كان يوم عاشوراء. ثُم تكلم في قصة موسى وقومه بعد الخروج، وان الطبيعة المُعوجَّة لم تفارق هذا الشعب.

وفي مشهد إبائهم دخول الأرض المقدسة الذي تقصه سورة المائدة دخل في تفصيلات كيف أن النقباء بعد أن اطلعوا على أحوال فلسطين أبوا الدخول وحرضوا الأسباط على عدم الدخول، عدا نقيبين من اثني عشر...الخ. ولكنه رفض وصف التفاسير للجبارين... وقال ما قال ابن كثير: هي مما يستحي من ذكره.

ثم تكلم عن عبادتهم العجل، كما قصته سورة طه. وفسّر ﴿من أثر الرسول...﴾ بقبضة تراب من اثر حافر فرس جبريل، وهو ما لا دليل عليه!! واسمع ما يقول: فالقيت هذه الحفنة في الحلي المذاب فصار عجلاً...!!

وذكر قول أبي مسلم أن أثر الرسول المعني به موسى ودينه، فنبذته: فكرهته. ويقول: إن ما ذكره أبو مسلم أقرب. (بل هو أغرب، فيما نرى).

وينقل عن الآلوسي في تفسير ﴿لا مساس...﴾ معنى جديراً بالتأمل هو: والسر في عقوبته بما ذكر أنه ضد ما قصده، فهو فعل ذلك ليجتمع عليه الناس، فكان ما فعله سبباً لبعدهم عنه وتحقيره. وقيل: نبذ فنبذ. ثم قال: وهذه الآية أصل في هجر أهل البدع.

ثم عطف بتفسير آيات الأعراف في الموضوع ذاته. ويرى أن الميقات الذي ذهب إليه السبعون من بني إسرائيل غير الميقات الذي ذهب إليه موسى، ويقول: هذا رأي المحققين من المفسرين والسياق يؤيده. وأقول: ولا مانع أن يكون هو عين الميقات الأول لتكون التوبة في المكان الذي شهد فضل الله عليهم بتنزيل التوراة. والله أعلم.

ثم يُفسِّر آيات سورة البقرة وقصة البقرة تحت عنوان: تعنُّتهم في الأسئلة. وذكر قصة الرجل الغني الذي قتله ابن أخيه!! والقرآن لم يحدِّد قرابات، وإنما أثبت القتل فقط. ثم توقف عند دلالات القصة.

ثم فسر آيات الكهف المتحدثة عن لقاء موسى والعبد الصالح. ويفسر البحرين بأنهما البحر الأحمر والبحر الأبيض. والذي أُرجحه أنهما ملتقى طرفي البحر الأحمر (خليج العقبة وخليج السويس عند طرف سيناء)، والله أعلم.

ونقل عن ابن كثير خبر "عين الحياة" وأنه أصاب الحوت رشاش منها فحيي. وهذا لا مجال له بحال.

ثُم ذكر أن المراد بالعبد هو الخضر، وروى عن البخاري أنه "سُمِّي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء" !! ونقل قول ابن القيِّم: إنَّ الأحاديث التي يُذكر فيها أنه حي كُلّها كذب. وهذا صحيح فيما أرى.

وفي خبر السفينة ينقل حديث الشيخين عن ابن عباس أن أصحاب السفينة عرفوا الخضر، فحملوهما بغير أجر! ثُم ينقل عن البخاري عن ابن عباس عن أُبي بن كعب عن الرسول ﷺ قصة موسى والخضر بالتفصيل. وفيه ذكر اسم يوشع فتى موسى. ثُم تكلم في دلالات هذه القصة. ومما ذكره تقسيم العلم إلى مُكتسب ولدنّي!! وذكر غيرها اثنتي عشرة فائدة.

ثُم يتوقف عند مشهد دك الجبل كما في سورة الأعراف...

ثُم يختم القصة كلها بدروسها وعظاتها ومنها: أن الله إذا أراد أمراً هيّأ أسبابه. وأن الحق لن يعدم أنصاراً. والوقوف إلى جانب المظلوم. وأن العقلاء قد يختلفون في مواقفهم من الأحداث (موسى والخضر). وأن من سُنّة الله أن النصر لأولياء الله. وبهذه العبرة وبهذه القصة يختم الجزء الأول.

الجزء الثاني:

قصّة شعيب عليه السلام : (ص١–ص٢٨):

بدأ الجزء الثاني بقصة شعيب، وبدأ قصة شعيب بنسبه فهو عنده: شعيب ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم فهو أخوهم في النسب، وذكر الحديث الذي يصفه بخطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وقوة حجته. وأما نسبه فلم يرد في كتاب ولا سنة، فليس له مصدر إذاً إلاّ الروايات التي لا نعلم لها أصلاً، أمنَ الإسرائيليات هي أم من وضع أعرابنا؟

ثُم نقل عن السدي أنه أُرسل إلى أُمتين: إلى مدين الذين أُهلكوا بالصيحة، وإلى أصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظُّلَّة –أي السحابة–، واستنتج بناءً عليه أنه لم يُبعث نبي مرتين إلاّ شعيب عليه السلام. أقول: هذا لو صح ما بُني عليه الاستنتاج، وقاعدة ذلك إنما هي رواية السدي، والسدي معروف... (أعني أنه معروف بالكذب).

ثم أردف الشيخ أن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحدة، فأهل مدين (الأصح مدين) هم. أصحاب الأيكة، أخذهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظُّلّة، وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر.

.ثم شرع الأستاذ يشرح الآيات شرحاً إجمالياً مُستعرضاً أوّلاً ما ورد في سورة الأعراف. ثم استعرض ما في سورة هود وسار على نفس المنوال من التفسير بالإجمال. وفي أحيان يسيرة كان ينقل عن بعض التفاسير نقلاً مُختصراً، والباقي تفسير عام مُبسّط. ثم انتقل إلى ما في سورة الشعراء...

ثم ختم ببعض الدروس وذكر منها دروساً عادية قريبة من ذلك قوله: الرسل جاءوا برسالة واحدة. والداعية الموفق يبدأ بإزالة أبرز المنكرات. وتنويع الأساليب في الدعوة. والمرشد الفطن يكون قدوة لغيره. والتزام أدب الحوار. ثم قال: "وإنها لدروس بليغة لقوم يعقلون".

قصة داود وسليمان عليهما السلام : (ص٢٩–ص٨١):

وبعد قصة شعيب التي استغرقت ثلاثاً وعشرين صفحة بما فيها صور الآيات التي تحدثت عنه، عرض قصة داود وسليمان عليهما السلام، وبدأها بذكر أن داود ينتهي نسبه إلى يعقوب بن إسحق، وكانت ولادته ببيت لحم، قبل ميلاد المسيح بحوالي ألف سنة... وكل هذا فيما أعتقد مما لا سبيل إليه من مظاننا الإسلامية، فهو اتكاء إذاً على الإسرائيليات وكُتُب مؤرخينا الذين ينقلون عن الإسرائيليات، ولا كبير نفع يعود على القارئ من وراء وجراء هذه التفصيلات التي لا سبيل للتحقق من صحتها ودقتها.

ثم تعرض إلى أن اسم داود ورد في القرآن ست عشرة مرة في سُوَرٍ شتّى، بينما سليمان سبع عشرة مرة.

ثم ذكر بعض الأحاديث في مدح داود كما في صحيح مسلم في مدح صيام داود بأنه أفضل الصيام كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكما في الصحيحين البخاري ومسلم بشأن سليمان وأنه لولا دعاؤه لأمسك النبي ﷺ بشيطان حاول إيذاءه...

ثم طفق يشرح الآيات، كما أسلفنا، بإيجاز وتبسيط، وينقل في أحيان عن بعض المفسرين... وذكر عن ابن كثير مثلاً عن داود أنه كانت تقف له الطير إذا ترنّم بالزبور لطيب صوته... وتأمّل قوله نقلاً عن الكشاف: روي أنه كان يمر بالجبال مُسبِّحاً وهي تجاوبه، وقيل: كانت تسير معه حيث سار. ثم نقل عن ابن كثير في قصة سليمان أنه لبث سنة وهو ميت "مُتوكّئاً على عصاه".

ثم فسَّر فتنة داود في قصة النعاج بأنها ما حاك في صدره بعد أن دخل عليه الخصمان -يقصد الفزع-، وهذا النص: "وظن أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة إنما هو لأجل الاعتداء عليه وأن ذلك لون من ابتلاء الله له، وامتحان لقوة إيمانه، ولمّا لم يتحقق هذا الظن، استغفر ربه من ذلك الظن...". وأظن أن ليس هذا هو التفسير الأنسب بل هو في عدم تحقيق العدل بالسماع من الطرفين، وليس ناشئا عن هوى، معاذ الله، وإنما عن شدة العاطفة ولذلك جاءت وصية الله لداود: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى...﴾ سورة ص آية: ٢٦.

ويُرجِّح أن المتخاصمين من الإنس وينقل قول أبي حيان في تفسيره البحر المحيط، ثم يرد الإسرائيليات التي ينقلها الطبري عن قتل أوريا... وما إليه.

وحسناً صنع الشيخ. وأحسن كذلك عندما فسَّر مسح سليمان سيقان الخيل وأعناقها إعجاباً بها، ورد قصة شغل الخيل له عن صلاة العصر وضرب سوقها وأعناقها بالسيف، وقوله هذا هو الصواب... بينما جمهور المفسرين على الرأي الآخر كما ينقل هذا عن حاشية الجمل. ونقل عن الرازي قوله الجميل: إني أحب الخيل لا لأجل الدنيا وإنما أحبها لأمر الله.

ثم ذكر فتنة سليمان ونقل عن الآلوسي أن أظهر ما قيل فيها أنه قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة[1]، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله. ولم يقل إن شاء الله، فلم تحمل إلاّ امرأة وجاءت بشق رجل. وقد روى ذلك الشيخان الإمام البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعاً وفيه:

---

١ – هذا الحديث رقمه (٣٤٢٤) في صحيح مسلم.

"والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون". وفي البخاري "أربعين بدل سبعين" وأن الملك قال له: قل إن شاء الله، فلم يقل... قال الشيخ: وقد "استنبط" العلماء أن فتنة سليمان هي تركه تعليق ما طلبه على مشيئة الله، يقول الشيخ: وهذا هو الصواب!!"[1]. ولا يفوته أن يدافع بأن هذا من النسيان الذي لا يتنافى مع العصمة. ونقول للشيخ: فلماذا يُعاقب إذاً، طالما أن الأمر نسيان؟!

ثُم ينقل عن الظلال "أنه كان هناك ابتلاء وفتنة في شأن يتعلّق بتصرّفات في الملك والسلطان..." ويرى الشيخ أن لا بأس به لكنه يقدم السابق عليه.

ورد الدكتور إسرائيليات حول القصة كسجود زوجته لتمثال وأن هذه هي فتنته، أو أن سليمان عهد بابنه إلى السحاب لحفظه وتغذيته!! وبالله كم في كتبنا مما يحتاج إلى تنقية... ولا نزيد. والذي نراه تقديم العموم الذي في الظلال بل الذي في نص القرآن.

ثم تعرض لقصة داود وسليمان في سورة سبأ، والأنبياء، والنمل، ومن ضمن ذلك ذكر الأقوال في ﴿الذي عنده علم من الكتاب...﴾ ، فقال: والمراد به: آصف بن برخيا من صلحاء بني إسرائيل، وكان

١- وهذا ليس هو الصواب للأدلة التالية: أولاً: هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة له عدة روايات مختلفة لنفس الحادثة. في صحيح مسلم: (مائة، وتسعة وتسعين، وتسعين، وستين) امرأة، في الأحاديث ذات الأرقام التالية بالترتيب: (٥٢٤٢)، (٢٨١٩)، (٦٦٣٩، ٦٧٢٠)، (٧٤٦٩) وهذا يضعّف الحديث. ثانياً: العلم يرد هذا الحديث لأن طبيعة النساء واستعدادهن للحمل يختلف من امرأة لأخرى بحسب وقت نزول البويضة ويستحيل علمياً أن يتم ذلك لجميع النساء المذكورة في وقت واحد. ثالثاً: من نص الحديث (لأطوفن الليلة...) نستنبط: أن قدرة الإنسان تعجز عن الطواف بسبعين امرأة في ليلة واحدة، والليلة لا تسع ذلك أصلاً مهما كان الوقت ضئيلاً للمرأة الواحدة. وهذا الكلام ذكره الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء، ص٤٤٧، مستبعداً صحة تفسير الحديث المذكور للآية الكريمة رقم٣٤ من سورة ص ﴿ولقد فتنا سليمان...﴾ وذلك ليقينه أن هذا الحديث ليس من كلام الرسول ﷺ. رابعاً: من رواة الحديث (خالد بن مخلد الذي روى عن أبي هريرة) له غرائب= =ذكرها الإمام الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال، وعليه فالحديث لا يحتج به لتفسير الآية. خامساً: سجل الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس رأي الشيخ عبد الوهاب النجار السابق في كتابه قصص القرآن الكريم، ص٦٤٦-ص٦٤٩، وأضاف إليه: إذا كنت قد سمعت قول الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله فلتسمع مني شيئاً آخر: لقد رجعت إلى صحيح البخاري رحمه الله في كتاب التفسير فلم أجده يذكره في تفسير سورة ص عند تفسير هذه الآية: ﴿ولقد فتنا سليمان...﴾ مع أنه ذكر روايات وأحاديث في تفسير آيات من هذه السورة، ولكنه ذكر هذا الحديث في كتاب الأنبياء عليهم السلام. ولو كان البخاري يراه تفسيراً للآية الكريمة لذكره في كتاب التفسير... وهذا يجعلني أرجح أن لا يكون الحديث تفسيراً لهذه الآية الكريمة... ويضيف إلى ذلك تفسير الفتنة في الآية الكريمة بقوله: وقد أرجح ما ذهب إليه بعضهم وهو أن سليمان ﷺ كان له ابن يحبه فأخذه الله فجيء به على كرسي، وحزن عليه كثيراً وكأنما كان ينتظر له مستقبلاً مشرقاً، فكان منه ما كان بعد ذلك، ﴿قال رب اغفر لي...﴾ فحسنات الأبرار سيئات المقربين، والله أعلم بما ينزل.

وزيراً لسليمان، وكان يعلم اسم الله الأعظم. وقيل: المراد به سليمان نفسه. كأنه قال للعفريت على سبيل الاحتقار: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك. وقيل المراد به جبريل. والأول هو المشهور عند المفسرين، أي قال الرجل الذي عنده علم من الكتاب... وفي ذلك ما فيه من الدلالة على شرف العلم... الخ.

أقول: وقوله "الرجل الذي..." أخرج النص عن حدوده، أو عن عمومه، فالنص قال: "الذي" ولم يذكر كلمة الرجل. وقول النص الكريم "الذي" يحتمل أنه من الجن وهذا الذي نراه، فإن هذه القدرة على إحضار العرش من اليمن قبل ارتداد الطرف ليست في طاقة البشر... ولا هي من السنن الجارية للبشر، ولا داعي لخرق الناموس، طالما أن هناك عالماً يملكون قدرات خارقة هم الجن... فلمَ خرق السنن والنواميس؟

ثم ختم الكاتب قصتهما عليهما السلام بالدروس على عادته، ومن الدروس: نعم الله على عبديه داود وسليمان نعَم عظيمة قابلاها بالشكر. وأن سليمان أقام دولة على الإيمان بالله. وأن رسالة سليمان كانت نشر الإيمان. وأن سليمان كان يمثل الحاكم اليقظ، والحازم. وأن الجندي الصغير لا يمنعه صغره في ظل دولة العدل أن يرد على الحاكم. وأن حكمة الله أن يكون حاكمون ومحكومون. وأن الحاكم العاقل من يستشير. وأن الواجب رد الهدية إن كانت للصرف عن الحق. وأن ملكة سبأ عاقلة.

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام : (ص٨٢-ص١٠٢):

وردت في سورة آل عمران، ومريم، والأنبياء. زكريا ورد ٧ مرات، ويحيى ٦ مرات. وبدأ بذكر نسب زكريا. ولا يهمنا... خاصة وأنه لا مصدر لذلك إلاّ الإسرائيليات. وذكر الكاتب من الأحاديث ما في مسلم أن زكريا كان نجاراً.

ومما قاله إن إخفاء زكريا دعاءه كما في قوله تعالى: ﴿إذ نادى ربه نداءً خفياً...﴾ أن الخفاء أبعد من الرياء. وقال تعقيباً على ﴿وهن العظم...﴾ وخص العظم بالذكر لأنه دعامة البدن. ثم قال: فأنت ترى أن زكريا قد أظهر أسمى ألوان الأدب مع خالقه، حيث توسّل إليه سبحانه بضعف بدنه، وبتقدم سنه، وبما عوّده من إجابة دعائه...

ثم فسر الآيات المتكلمة عن قصتهما في مواطنها المختلفة. ونقل عن صاحب الكشاف أن احتباس لسان زكريا كان هو آيته، ولكنه ألمح عقيبه إلى أن عدم الخطاب كان اختيارياً. ونُلخّص نقله عن الكشاف: "فإن قلت: لمَ حُبس لسانه عن كلام الناس؟. قلت: ليُخلِص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه

بغيره، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له: آيتك أن يُحبس لسانُك إلاّ عن الشكر، وأحسن الجواب ما كان مُشتقاً من السؤال".

ونرجع ما يلمح إليه الشيخ من أن الانصراف عن الكلام كان باختياره: "... وعلى هذا يكون انصراف زكريا عن كلام الناس اختيارياً...".

وختم بذكر بعض الدروس: أن العقلاء يلجأون إلى خالقهم. وأن قدرة الله لا يعجزها شيء. وأن الدعاء متى صدر من قلب. كان مرجو القبول.

قصة أيوب ويونس وإلياس واليسع وذي الكفل عليهم السلام : (ص١٠٣-ص١١٦):

يلفتنا الطنطاوي في البدء إلى أن القرآن يفصل قصص بعض الأنبياء ويوجز الحديث عن قصص بعض، ولعل الحكمة أن الله قد حكى لنا ما ينفعنا مما حدث لكل نبي.

ثم يبتدئ بقصة أيوب على ما هي سنته وطريقته من ذكر النسب وينتهي به إلى إبراهيم. وأن بعثته كانت بين يوسف وموسى عليهما السلام.

ومن اللطائف ما ذكره عن الكشاف: ألطف أيوب عليه السلام في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، ولم يصرِّح بالمطلوب، وذلك تعقيباً على قوله تعالى: ﴿... أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١)، ومثلها في الأنبياء: ﴿... أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣).

ثم نفى الإسرائيليات ووصفها بأنها في غاية السقوط وذلك في تفصيلهم عن مرضه، وأنه... وأنه... ثم يدخل الشيخ في متاهة روايات عن نسبه مرة أخرى، وزمن بعثته، فيقول إن أمه بنت لوط، وإن بعثته قبل موسى، وقيل بعد شعيب، وقيل بعد سليمان. وكل هذا مما لا فائدة فيه، ولا دليل عليه.

ثم ينقل عن الآلوسي نقله عن ابن عساكر عن ابن عباس يرفعه أن الله أصلح زوجه حتى ولدت له ستاً وعشرين ذكراً. وهو خبر لا يحتاج الى تعليق، إذ نكتفي بالسابق.

ثم يستفتح قصة يونس بن متى بحديث في الصحيحين أنه ﷺ قال: "ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى".

ثم يذكر زمن بعثته وأنه في القرن الثامن ق.م. وأنه أخبر قومه بنزول العذاب بعد ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الثالث خرج من بلدة قومه... فلما افتقده قومه آمنوا... فلما لم ير يونس نزول العذاب استحيا أن يرجع إليهم.

ثم ذكر قصة السفينة وأن قبطانها قال بوجود رجل مشؤوم... والقرعة التي وقعت عليه، فلما رأى ذلك ألقى نفسه في البحر... الخ. وما بنا حاجة لتفصيلاته، ولا معالم هادية ترشدنا الى صحتها.

ثم عرَّج على قصة إلياس، واليسع. وأنه استخلفه إلياس على بني إسرائيل. ولا دليل على أن إلياس أُرسل إلى بني إسرائيل أو اليسع. ثم يذكر اسم أبيه، وأن وفاته كانت حوالي سنة ٨٤٠ ق.م. وكل هذا موقفنا منه واحد، أنه لا دليل عليه.

ثم يعرج على ذي الكفل، ويطيل فيه الروايات المتناقضة، مما يحير، ولا يخدم الموضوع. وتأمَّل مثلاً قَوْلَه: قيل هو ابن أيوب، وقيل اسمه بشر!! وقيل هو زكريا، وقيل لم يكن نبياً... الخ.

قصّة عيسى وأمه مريم عليهما السلام : (ص١١٧–ص٢٣٦):

قد جعلها الكاتب في مئة وعشرين صفحة، بمعنى أنها في قدر ربع الجزء الثاني. وأما الربع الأخير فقد جعله لقصة النبي محمد ﷺ كما أسماها، ولسنا نرى أن تدخل سيرة النبي ﷺ في القصص القرآني، وهذه مسألة اصطلاح أو مناهج بحث إن شئت سمّيتها، فالقصص فيما نرى هو أخبار الماضين التي أُخبر بها سيِّد النبيين وأمَّته ﷺ: ﴿وكُلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نُثَبِّتَ به فؤادك...﴾ ، ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك...﴾ .

ويبتدئ الدكتور الطنطاوي قصة عيسى عليه السلام بذكر عدد مرات الورود في القرآن، فيبين أن أمه ذُكرت أربعاً وثلاثين مرة وهو خمساً وعشرين مرة، ولفظ المسيح ذُكر إحدى عشرة مرة.

ثُم يعقب بذكر حديث في الصحيحين عن نبينا يقول فيه: "أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم..." ثُم يبين أنه ليس بينه وبينه نبي.

ثم يبين أن القرآن تحدث عن مولده ومعجزاته ودعوته والخصائص التي أكرمه الله بها وجهاده وصبره وبشارته بالنبي محمد ﷺ.

ثم شرع الكاتب يفسر الآيات، ونقل عن الكشاف روايات في ولادة مريم وكفالة زكريا لها. ثم يتعرض للروايات في مدة الحمل. وكل ذلك ليس من همنا.

ثم يذكر الروايات فيمن ناداها من تحتها، ويذكر قول من قال: إنه جبريل، وينقل عن ابن عباس أن عيسى لم يتكلم حتى أتت به قومها تحمله. ثم ينقل عن ابن جرير أنه عيسى ابنها ويُرجّحه. وترجيحه هو الصواب.

ثُم ينقل الأقوال في "السَّرِيّ" ويرجح قول الشنقيطي أنه جدول مـاء أخرجـه الله لتـشرب. ويستشهد ببيتين من الشعر في تفسير ﴿وهُزّي إليك بجذع النّخلة...﴾ :

ألم تـــر أن الله قـــال لمريم وهُزّي إليك الجذع يسّاقط الرطب

ولـو شاء أن تجنيه من غير هَـزِّه جنته ولكن كل شيء لـه سـبب

وينقل عن مسلم وغيره في تفسير: ﴿يا أخت هرون...﴾ عندما اعترض النصارى على بعـض الصحابة. ينقل عن مسلم قول النبي ﷺ للمغيرة بن شعبة: "ألا أخبرهم أنهم كانوا يـسمون بالأنبيـاء والصالحين قبلهم".

ثُم عند التعليق على الآية الكريمة: ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك...﴾ تعـرّض للخلاف في الخطاب هل كان شفاهاً أم بالإلهام، ورجّح الأول. وهو الأولى.

ثُم تعرُض لنبوُة مريم. ونقل عن الآلوسي قوله: "واستدل بهذه الآية مَنْ ذهب إلى نُبوُة مريم. لأن تكليم الملائكة يقتضيها. ومنعها اللقاني وغيره من العلماء لأن الملائكة قد كلّموا من ليس بنبي إجماعاً...".

ثم تعرض إلى أن عيسى بُعث لبني إسرائيل لأنه منهم وإلى من بلغه من الرومان. ثم ذكر معجزاته عليه السلام. ونقل عن ابن كثير أن كل نبي يُبعث بمعجزة تناسب أهل زمانه. وذكر لعيسى خمس معجـزات. وذكر أن شريعته متمّة لشريعة موسى وناسخة لبعض أحكامها.

وتأمّل كيف يقود التساهل في الروايات إلى غير حميد العواقب، تأمّل هذه الرواية: "وقد ذكـر المفسرون أن إبراء عيسى للاكمه والأبرص وإحياء الموتى كان عن طريق الدعاء، وكان دعاؤه يا حيُّ يا قيوم، وكان من بين من أحياهم سام بن نوح..."!!

ثُم تحت عنوان: القول الحق في شأن عيسى رد على مدّعي بنوته.

وتحت عنوان: موقف الحواريين. فسر الآيات التي في سورة المائدة عنهم. ومن اللفتات التي نقلها عن الرازي في ثنايا التفسير قوله: "تأمّل في هذا الترتيب، فإن الحواريين لّما سألوا المائدة ذكروا في طلبـها أغراضاً فقدموا ذكر الأكل وأخّروا الأغراض الدينية الروحانية، فأما عيسى فإنه لّما ذكر المائدة وذكـر أغراضه فيها قدّم الأغراض الدينيّة، وأخر غرض الأكل، وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحيّة، وبعضها جسمانيّة. أقول: لو قال الرازي "النفوس" بدل "الأرواح" لربُّما كان أوفق.

ونواصل النقل: قال: ثُم إن عيسى انتقل من الرزق إلى الرازق ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين... ﴾، وقوله: ﴿تكون لنا عيداً...﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة من حيث إنها صادرة من المنعم. فانظر

كيف ابتدأ بالأشرف نازلاً إلى "الأدون". ثم تأمَّل العروج من الخلق إلى الخالق، وعند ذلك تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية إلى الكمالات الإلهية ونزولها.

ثم أشار إلى الروايات العديدة في المائدة وما عليها من أصناف الطعام بقول: "رأينا من الخير أن نضرب عنه صفحاً". وينقل عن الطبري قوله: "وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة، فأن يُقال: كان عليها مأكول، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به...". ثم ذكر من قالوا بأن المائدة لم تنزل... ويُرجِّح رأي الجمهور بنزول المائدة.

ثم ينقل عن المفسرين أن خبر المائدة مما انفرد القرآن به. وأقول: ولعل الإشارة إلى ما يُسمَّونه العشاء الأخير هو تحريف لقصة المائدة، فتكون مذكورة ولو بشيء من التحريف كثير أو يسير.

ثم تكلم في عنوان مستقل عن كفر الذين نسبوا الألوهية أو البنوة لعيسى. ثم ذكر حديث القرآن عن أتباع عيسى في عنوان مستقل. وفي عنوان آخر يتكلم عن موقف مشركي قريش من عيسى. ثم في عنوان مستقل آخر تحدث عن بشارة عيسى برسالة محمد عليهما السلام. ثم رفع عيسى.

ويتم حديث الرفع بنزوله في آخر الزمان كما في الأحاديث التي "بلغت في قوتها مبلغ التواتر" كما يقول ابن كثير. ثم تكلم عن الصلب، الذي يراه المسيحيون ويراه من زعموا أنهم قتلوه وهم اليهود. ونفاه، كما هو الحق في القرآن المبين.

من قصص القرآن: قصة فتية الكهف:

وتحت عنوان: من قصص القرآن، يقصد الكاتب الدكتور طنطاوي، قصص غير الأنبياء، تكلم عن عشرة قصص، بدأها بقصة أصحاب الكهف، وبدأ هذه برواية الرازي أن قريشاً تعجبوا من قصة أصحاب الكهف، وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان، فنزلت الآيات.

وأقول: إن العرب لا علم لهم بأصحاب الكهف حتى يسألوا عنهم، فإن صحت الرواية، فهو من تلقين اليهود. وهذا ما رواه الكاتب نفسه نقلاً عن مفسرين آخرين أن قريشاً أرسلت النضر وابن أبي معيط إلى اليهود بالمدينة فقالوا: سلوه عن ثلاث... الخ.

ثم على نهجه في كتابه طفق يفسر الآيات، ونقل عن الشنقيطي في أضواء البيان أن "أصحاب الكهف والرقيم طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين"... ونفى أن يكون أصحاب الكهف هم الثلاثة نفر الذين في الحديث، وهم الذين سد عليهم الغار. والحق ما قال.

واكتفى الدكتور الطنطاوي عند تفسير قوله تعالى :﴿لو اطّلعت عليهم لولّيت منهم فراراً ...﴾ بأن قال: "لو عاينتهم وشاهدتهم أيها المخاطب لأعرضت بوجهك عنهم من هول ما رأيت، ولَمُلِئَ قلبُك خوفاً ورعباً من منظرهم".

وأخشى أن يكون الأستاذ قد تبنى أقوال من قالوا بتغيّر أشكالهم، واستطالة أشعارهم، وأظافرهم، وهو ما لا يمكن، لأنهم لو رأوا أنفسهم على تلك الحال لما قالوا: إنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم. ثم إنهم في كنف الله وحفظه، فلا يُتصوَّر أن يدعهم لتُصبح أشكالهم مُنفِّرة. وإنما الذي أراه بإيجاز أنّك لو راقبتهم مليّاً ولفترة من الوقت، لَرأيت أنهم لا يستيقظون، ولكنّهم يتقلّبون، فماذا تعدُّهم؟

ولم يفت الشيخ أن ينقل عن عدد من المفسرين اللطيفة التي مفادها أهمية الصحبة، أخذاً من تخليد الكلب من صُحبة المؤمنين.

ولا يفوته أن يتعرَّض لبناء القبور على المساجد تعليقاً على قوله تعالى: ﴿لنتَّخذنَّ عليهم مسجداً﴾ . ثُم عند قوله تعالى: ﴿ما يعلمهم إلاّ قليل﴾ نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: "أنا من أُولئك القليل، كانوا سبعة، ثُم ذكر أسماءهم.

(أقول: أما أنهم سبعة فهذا من الإشارة القرآنية، إذ قد وصفت الآية الأقوال السابقة على هذا القول بأنها ﴿رجماً بالغيب﴾ ولم تصف هذا القول الأخير بذلك، وأيضاً عقّبت الآية الكريمة على هذا القول الأخير ﴿... ما يعلمهم إلاّ قليل﴾ لتشير بأن هناك عدداً قليلاً من الناس يعلم أن عدد أصحاب الكهف سبعة كما ذكر القرآن الكريم. ومنهم ابن عباس وغيره. وأما الأسماء فمن أين مصدرها؟ وما العلاقة بين العدد والأسماء؟ ولسنا نناقش ابن عباس، بل هي مناقشة للرواية).

ثُم ذكر الروايات التي قالها المفسرون عن مكان كهف أهل الكهف. ولا مستند لشيء من ذلك، ولا فائدة من الدخول فيه.

وختم الأستاذ القصة بعبرها، وذكر منها: إثبات صدق الرسول ﷺ. والكشف عن جانب من بلاغة القرآن الكريم في قصصه. وأن الإيمان يهون كل شيء في سبيله. ولجوء المؤمن إلى الله بالدعاء. وأن التفكير السليم والنية والعزيمة يُؤدي كل ذلك إلى الاهتداء. وأن مباشرة الأسباب لا تنافي التوكل على الله. وأن يقرن الإنسان عزمه بالمشيئة...

قصة صاحب الجنتين:

وهي من قصص سورة الكهف، وكما قال الكاتب: "ساقها القرآن مثلاً للنفس المغرورة المتفاخرة بزينة الحياة الدنيا الجاحدة لنعم الله. وساقها كذلك مثلاً للنفس الإنسانية المتواضعة المعتزة بعقيدتها الشاكرة لربها، لكي يكون في كل ذلك عظة وعبرة".

ثُم نقل عن الآلوسي أن المراد بالرجلين إما المثل وإما الواقع، وهو المعوّل عليه، وأقول: ما كان من داعٍ لذكر القول الأول فهو مما لا يعتد به.

وبعد أن فسّر آيات القصة على نهجه في التعاطي، ختم بقوله: "بينت القصة بأسلوب بليغ أخّاذ، عاقبة الجاحدين المغرورين، وحسن عاقبة الشاكرين المتواضعين، كما بينت الآثار الطيّبة التي تترتب على الإيمان والعمل الصالح، وبينت أن المتفرد بالولاية والقدرة هو الله...".

قصة ذي القرنين:

وهي كذلك من قصص سورة الكهف، وقدم لها الكاتب بقوله: "هذه قصة إنسان أعطاه الله الملك الواسع، والقوة العظيمة. فشكر خالقه، وسخّر حياته لخدمة الحق، وللإصلاح في الأرض...".

ثُم ينقل عن البقاعي وجه التناسب بين قصة موسى والخضر وقصة ذي القرنين، بأن قصة موسى مشتملة على الرحلات من أجل العلم، وهذه مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد، ولَمّا كان العلم أساس الجهاد، تقدّمت قصة موسى والخضر...".

وبين أن السائلين هم العرب بتلقين من اليهود....

ثم نقل عن الآلوسي الأقوال في ذي القرنين وترجيحه نقلاً عن البيروني في كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية" أنه أبو كريب الحميري، وهو الذي افتخر به تُبَّع اليمني. ولسنا مع هذا الرأي...

ويقطع المؤلف الدكتور الطنطاوي بأنه ليس الاسكندر. وحق ما قال. وأما تسمية ذي القرنين فيرى أنها ناشئة عن فتوحاته لبلوغه قرني الشمس من أقصى المشرق والمغرب. واقتصر عليه.

ثم فسر الآيات على ما هو معتاده. ومما قاله من معاني الكلمات: مكنا: التمكين: إعطاء الوسائل التي جعلته صاحب النفوذ. سبباً: سبيلاً وطريقاً يوصله الى مقصوده، كآلات السير، والجند، ووسائل البناء. مغرب الشمس: منتهى الأرض المعمورة من جهة الغرب.

عين حمئة: ذات حمأة وهو الطين الأسود. بين السدين: الجبلين، قالوا: والسدان هما جبلان... من جهة أرمينيا وأذربيجان. ثم ذكر بعض الأقوال في يأجوج ومأجوج ونسبهم ولا داعي لكل ذلك. الردم: الشيء الذي يوضع بعضه فوق بعض حتى يتصل ويتلاصق، ومنه سحاب مركوم: متكاثف.

ثم ختم بدروس القصة التي من أبرزها: التمكين نعمة من الله. وأن السير في الأرض لإحقاق الحق من صفات المؤمنين. وأن الحاكم العادل يردع الظالمين ويحسن للمقسطين. وإعانة المحتاج. وأن من صفات المؤمنين نسبة كل فضل الى الله...

ما أجمل أن تُختم القصة بهذه الخاتمة: ﴿هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكّاء وكان وعد ربي حقاً﴾.

قصة سيل العرم:

هكذا سمّاها المؤلف، وقال في بدء الكلام عنها: في سورة سبأ قصتان متعاقبتان، إحداهما لداود وسليمان نموذجٌ مشرقٌ للشاكرين، والثانية قصة سبأ الذين أعطاهم الله النّعم، فبطروا، فمحق الله هذه النّعم.

وفي التفسير للآيات قال: قال ابن كثير: كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس منهم... ثم نقل عن الإمام أحمد حديثاً مرفوعاً للرسول ﷺ عن سبأ ما هو؟ فقال: رجل له عشرة أولاد، سكن اليمن منهم ستة: مذحج، وكندة، والازد، والاشعريون، وأنمار، وحمير. وسكن الشام منهم أربعة: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان.

وواصل ابن كثير بعد الرواية السابقة: وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ أي جمع السبايا... وكله يحتاج الى تمحيص... وأما المرفوع فيدرس سنده ثم المتن.

ويختم القصة بقوله مُلخّصاً عبرها: الجحود والبطر والانغماس في الشهوات، كل ذلك يؤدي الى زوال النّعم، كما حدث لسبأ.

قصة أصحاب القرية:

ويذكر أن جمهور المفسرين قال إنها أنطاكية، وقيل إنهم رسل الله، وقيل إنهم رسل عيسى. وهذا كله ليس مأخوذاً عن مصادرنا الصافية، وإنما هو من مصادرنا المستقية من مصادرهم. والمقصود هم كما هو واضح القصة الواردة في سورة "يس".

ثم يذكر عن ابن كثير نفيه أن الرسل رسل عيسى بل هم رسلٌ من الله بدلالة: ﴿إذ أرسلنا...﴾، وبدلالة أن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح، وثالثاً أن قصة أنطاكية بعد التوراة، ويذكر عن أبي سعيد الخدري أنه بعد التوراة لم تهلك أمة بعذاب، بل أمر المؤمنين بقتال المشركين. ثم رجّح قول ابن كثير.

ومن عيون التعليقات في تفسير الآيات نقل قول الزمخشري، تعليقاً على: ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾: "كلمة جامعة في الاستجابة لدعوة الرسل، أي: لا تخسرون معهم شيئاً من دنياكم، وتربحون صحة دينكم، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة".

ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم، وليتلطف بهم ويداريهم فقال: ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه تُرجعون﴾.

ثم ينقل قول الآلوسي في تعليقه على قوله تعالى: ﴿قيل ادخل الجنة﴾ أي حقيقةً لا مجازاً، وفي هذا إشارة إلى أنه قُتل.

وتعليقاً على: ﴿يا ليت قومي يعلمون﴾ نقل قول ابن كثير: لو اطّلعوا على ما حصل عليه من ثواب لقادهم ذلك إلى اتّباع الرسل.

ثم ختم بالدروس سوى ما بث في ثنايا التفسير ومنها: إرسال الرسل إلى هذه القرية وللناس عموماً لئلا يكون للناس حُجَّة. من شأن الحكماء أن يقابلوا السفه بالحلم. وكل أمة لا تخلو من أصفياء. وعدل الله يقتضي هلاك الظالمين.

قصة أصحاب الجنة:

ويذكر في التفسير تفاصيل لا دليل عليها ولا داعي لها، من مثل قول "بعض السلف" أنهم كانوا من اليمن قرب صنعاء، وكانوا من أهل الكتاب... ومات أبوهم وورثه أولاده... الخ.

ثم يذكر وجه المشابهة مع أهل مكة: ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة...﴾ يتمثل في أن كُلاً منهم قد منحه الله نعمة عظيمة فقابلها بالجحود.

ويختم بعد تفسير الآيات بقوله: والمتأمّل في هذه القصة، يراها زاخرة بالمفاجآت، وبتصوير النفس الإنسانية في حال غناها، وفي حال فقرها، وفي حال حصولها على النّعمة، وفي حال ذهاب هذه النّعمة من بين يديها، وأن الجحود يؤدي إلى زوال النّعم، وكما قيل: "من لم يشكر النّعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها".

قصة أصحاب الأخدود:

فسر آيات سورة البروج على معتاده، ثُم نقل عن ابن كثير قوله: وقد اختلفوا في أهل هذه القصة فعن علي أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل زواج المحارم، فامتنع عليه علماؤهم !! فعمد إلى حفر أخدود، فقذف فيه من أنكر عليه منهم. وعنه أنهم كانوا قوماً من اليمن، اقتتل مؤمنوهم وكافروهم

فتغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فتغلّب الكفار على المؤمنين فخدوا لهم الأخاديد... ثم قال الكاتب: وعلى أية حال فالمقصود هو تثبيت المؤمنين وتسليتهم... وليته اقتصر على هذا.

ثم ختم بقوله: ومن العبر أن هذه الحياة نزاع موصول بين أهل الحق وأهل الباطل والعاقبة للمتقين.

قصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه:

يذكر الروايات عن شخصه فيقول: قيل هو عزير بن شرخيا، وقيل حزقيال بن بوزي، وقيل غير ذلك. ونقول: لا داعي لكل هذه الترددات بين قيل وقيل، فلو أراد القرآن إخبارنا باسمه لفعل. وهذا الذي "قيل"، ما مصدره، وما الدليل؟ بالطبع لن يكون إلاّ الإسرائيليات... وهي غالباً أباطيل وأضاليل.

ثم ينتقل للقرية فيقول: وقيل هي بيت المقدس وكان قد خرّبها بختنصّر. والكاتب نفسه يُقرِّر المنهج السليم إذ يقول: والقرآن لم يهتم بتحديد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة.

وهنا المشكلة، فالطبري من قبل الشيخ كان يُؤصِّل تأصيلاً رائعاً ثم ينقل الإسرائيليات، فالتأصيل في واد والتطبيق والتفصيل في واد آخر.

ثم نقل أثناء التفسير رواية عن ابن كثير عن السدّي ! "أن عظام الحمار تفرقت يميناً وشمالاً حوله... فنظر إليها وهي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع، ثم رَكَّب كل عظم في موضعه، وذلك بمرأى من العُزَير". وهذه التفصيلات بمنتهى البساطة من أين جاءت؟ إنها لا مصدر لها إلاّ الإسرائيليات، فلا نعتدُّ بها، ولا تلزَمُنا، فلم يذكرها الشيخ؟ ثم إن السدّي يجزم بأنه عُزير، فلمَ يقل قيل وقيل؟!.

ثم يختم بعبرة القصة أنها تُبيِّن بالمشاهدة الحسية قدرة الله على البعث والنشور.

قصة العادين في السبت:

يُلخِّص القصة كما هي في سورة الأعراف ثم يفسِّر الآيات. وفي ثنايا التفسير ينقل عن ابن كثير قوله: وحذر هؤلاء من كتمان صفتك لئلا يحل بهم ما حل بأيلة.

ثم ينقل عن الرازي الذي ينقل قول ابن عباس أن اليهود أُمروا بيوم الجمعة فاختاروا السبت فابتلاهم به.

وينقل قول القرطبي أن القصة كانت في زمن داود. وأظن أن هذا بعيد، أو على الأقل لا دليل عليه.

ثم رجح أن أهل القرية انقسموا ثلاث فرق كما قال الجمهور. ثم ينقل عن القرطبي أعداداً غير معقولة، ولكنها من مبالغات اليهود في أعدادهم دائماً، فيقول: إن الفرقة التي تعدّت كانت سبعين ألفاً. ثم ذكر اختلاف المفسّرين في الفرقة الساكتة ورجّح تفويض أمرها إلى الله.

ثم أشار إلى ابن القيم في إغاثته اللهفان في تحريم الحيل، أخذاً من هذه القصة.

ثم يختم هذه القصص بقصة أصحاب الفيل وهي العاشرة والأخيرة قبل الفصل الأخير.

ثم يفرد الكاتب فصلاً أو باباً خاصاً تحت عنوان: مسك الختام: حديث القرآن عن خير الأنام محمد ﷺ، وهو في مئة وثلاثين صفحة أي ثلث الكتاب الثاني.

ونحن نختلف مع الكاتب في المنهج في هذه المسألة، وهو فيما نرى ليس خلافاً شكلياً. بل هو في صميم المنهج فهل تُعدُّ سيرة النبي من القصص القرآني؟ الذي أراه أنه لا تعد، فسيرة النبي ﷺ هي واقع الأمة وليست قصة تتلى. إنما القصص على الصحيح: أخبار الماضين تعرض على سيد النبيين وأمته.

على كل حال لا نطيل في هذا لأنا نعده خارج الموضوع فنكتفي بسرد العناوين. فهو يتكلم أولاً عن البشارات به، ثم عن إنعام الله على المؤمنين بالرسول ﷺ، ثم تفضيله على غيره، ثم وجوب طاعته وتوقيره، ثم عموم دعوته وختام رسالته، ثم براهين صدقه، ثم وضوح شريعته، وما أدري ما شأن هذا بالقصص؟ وهو أطول مباحث هذا الفصل. ثم درء الشبهات عن رسالته كسابقه في الطول وأيضاً، نقول فيه ما قلنا في سابقه، ثم تسليته وتثبيته، ثم توجيهه وإرشاده، ثم أزواجه أمهات المؤمنين.

ويختم كتابه بقوله: وبعد: فهذه نماذج مشرقة من قصص القرآن، بدأناها بقصة آدم وختمناها بقصة أفضل الخلق، وفي كل ذلك عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتقين، وبشرى للصابرين. وصدق الله: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب...﴾ .

الكتاب السادس والثلاثون

إبراهيم عليه السلام
ودعوته في القرآن الكريم

تأليف: أحمد البراء الأميري

ط١، جدة: دار المنارة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم / أحمد البراء الأميري:

الكتاب في الأصل رسالة ماجستير -دعوة إسلامية- جامعة محمد بن سعود. الملاحظة الأهم على الكتاب -الأطروحة-، أنه يذكر الإسرائيليات ثم ينفيها وما كان به من حاجة لا لذكرها ولا لنفيها.

وملاحظة منهجية أخرى أنه بدأ بتقعيد أوهن من موقفه من الإسرائيليات إذ قسمها التقسيمة المعروفة، وانتهى إلى أنه يمكن رواية أكثر من صنف من الإسرائيليات: ما وافق ما عندنا، وأحيانا ما سكت عنه... ففتح الباب مشرعاً بهذه المقدمة لمواقف من الضعف أوهنت من رسالته.

ولم أره انشغل بتحليل الآيات والاستنتاجات منها كما شغل بذكر الإسرائيلية ثم تفنيدها، وأحيانا قبول بعضها.

كان الأحرى برسالة عن القصص القرآني وهكذا العنوان: "إبراهيم في القرآن" أن يلتزم النص وأن ينشغل بالتحليل ويتعمق في فهم الآيات واستنباط الدروس والنظريات في الدعوة... فإن ذلك أحرى من صنيعه وأجدى.

ورحم الله الدراسات...

ويقع الكتاب الذي هو أصلاً رسالة ماجستير في ثنتين وثلاثين ومئتي صفحة، جاءت في خمسة أبواب... وفي كل باب فصول.

وأخذت عليه أنه لم يراع في الفصول الترتيب الزمني ، فقدم فصل هجرته مع زوجته إلى مصر (!) على فصل: إلقاؤه في النار.

وهناك ملاحظات أخرى تفصيلية سترد تباعاً في ثنايا تلخيص وتحليل الكتاب، فإلى التعريف به ونقده بإيجاز:

مقدمة:

ذكر فيها أهمية الموضوع، فقال إن الحديث عن الأنبياء مهم ومفيد من جوانب... لأن الإيمان بهم أحد دعامات الإيمان. ولأنهم شموس الإنسانية، وإبراهيم خليل الله، فدراسة سيرته ودعوته أمر مهم.

ثم عن مكان دراسته بين الدراسات قال: عسير أن يأتي الإنسان بجديد، فالقران حظي بعناية لم يحظ بها كتاب... والحديث عن الخليل ورد في آيات حظيت كذلك... غير أنه سيتناوله تناولاً خاصاً... خلاصة القول.

ثم في منهاج البحث قال: إنه قيده بالقران ليعيش في ظلاله، ولأنه كره الدخول في متاهات أهل الكتاب (سنرى...)، ثم بين أنه لما اختار الحديث عن القران فإنه تجاوز ما ورد في الحديث عن إبراهيم... وسيعتمد على السنة مفصلة للقران.

والمسألة الأخرى التي شغلته في المنهج: الأخذ عن الإسرائيليات (وطال وقوفي عندها شيئاً ما)، ونظراً لأهميتها البالغة في منهاج البحث، لذلك رأى أن يعرض لها، أي لهذه المسالة، فعرض فقال: تنقسم الإسرائيليات إلى أقسام: أولها من حيث السند والمتن، وتنقسم إلى:

أ- صحيح السند والمتن.

ب- وضعيف السند والمتن.

ج- وموضوع.

وتنقسم باعتبار موضوعها إلى: ما يتعلق بالعقائد، وما يتعلق بالأحكام، وما يتعلق بالمواعظ.

وتنقسم ثالثا من حيث الموافقة لما في شريعتنا والمخالفة لها إلى: موافق، ومخالف، ومسكوت عنه.

ويمكن أن ندخلها كلها تحت الأقسام الثلاثة الآتية: أ- مقبول. ب- مردود. ج- متوقف فيه. وهذا التقسيم متطابق مع التقسيم الثالث.

ثم قال إن ما وافق قبلناه، وهو عندئذ لا يستمد قوته من نفسه... وإن كان مخالفاً رددناه، أما المسكوت فهو محل النزاع بين العلماء.

ثم استعرض أدلة المانعين والمجيزين. وذكر من أدلة المانعين حديث جابر عن عمر أنه نسخ كتاباً عن التوراة... الخ، والحديث في المسند وهو مشهور. وحديث البخاري وأحمد عن أبي هريرة: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم. وحديث البخاري عن ابن عباس: كيف تسألون أهل الكتاب...؟

ثم ذكر أدلة المجيزين: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها...﴾ . قال: وثبت أن النبي دخل معبداً لليهود وسمع التوراة (رواه أحمد). وحديث مسلم عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله بعد أن جمع الناس: "ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً وأسلم وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال..". وحديث البخاري: "وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج...". وخامساً مداومة بعض الصحابة مطالعة أسفار اليهود.

وواضح ميل الكاتب للتجويز، بدليل أنه لم يذكر أدلة القرآن المانعة، وهو ميال للتجويز من حين "فتّى" للأمور، وقسّم التقسيمات التي عرضتها قبل قليل.

ثم حاول التوفيق، وقال: لعل التعارض الظاهري يزول بنظرة متعمقة إلى حديث: "وحدثوا...". ثم فسره بأنه المعلوم صدقه. وبهذا يزول جزء كبير من الإشكال. (أعتقد أن الإشكال زاد وما زال).

ثم وجه توجيهاً آخر أن النهي كان قبل استقرار الأحكام... فلما زال المحظور جاء الإذن.

ثم نقل عن ابن تيمية أن الإسرائيليات تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد... وذكر التقسيم المعروف...

ثم نقل عن ابن كثير قوله في المرويات عن إبراهيم: "عامتها أحاديث بني إسرائيل فما وافق الحق قبلناه، وما خالف رددناه، وما ليس نجعله وقفا...". (وإني لاعتقد أن هذا هو بدء الوهن في الموقف الذي جاء منه الخلل ودخل الكثير من الروايات التي أفسدت العقل والذوق جميعاً...).

ثم ذكر تقسيمه الرسالة إلى خمسة أقسام أو أبواب وقال إنه اختار الإيجاز، وإنه سار في كل فصل حسبما تقتضيه طبيعة الفصل، ولم يتقيد بخطة واحدة.

وفي التمهيد بدأ بتعريف النبي والرسول، ثم عرف الدعوة. واختار الكاتب أغرب وأبعد الاختيارات في التفريق بين النبي والرسول إذ قال: من نبئ ثم أمر بالتبليغ فهو الرسول، وإن لم يؤمر بالتبليغ فهو النبي. (وإذا كان المؤمن العادي مأموراً بالتبليغ فكيف الذي يوحى إليه؟!).

ثم عرف أولي العزم من الرسل، ونقل من القاسمي أنهم: أولو الثبات والجد. وصفوة القول عنده أنه لم يرد من الشارع بيان لأولي العزم، فلا نص على ذلك في كتاب ولا سنة، وإنما هو اجتهاد علماء.

الباب الأول: حياة إبراهيم وعصره وهجرته:

الفصل الأول: إبراهيم الإنسان.

المبحث الأول: اسمه ونسبه.

وكأني بالكاتب يتكلم عن شخصية يدرسها من علماء الفقه أو الأصول، لا عن نبي كريم هو أبو الأنبياء، ولا مصدر عما يتكلم عنه.

وانظر مصداق ما أقول: إبراهيم: لفظ سرياني وعبراني، فهو في السريانية: أب رحيم، وفي العبرية: أب وراهام: جماعة. وقال في القاموس: اسم أعجمي مشتق من البرهمة وهي شدة النظر. واسمه يدل على نشأة دينية فهو يفيد حبيب الله (لم يقل بأي لغة. ربما كانت الصينية!!).

ثم أفادنا أن عمران مركبة من (عم) و (ران) (على وزان عم عبده) ورام تعني المحبة.

وقد سمي إبراهيم بأبي الأنبياء لأنه كان رائد الدعوة، ومنه تناسل الأنبياء.

وفي نسبه قال أن القرآن لم يزد على أنه ابن آزر. غير أن المؤرخين المسلمين اعتمدوا على التوراة (أرأيت التمهيد الذي مهده كيف جاء ليخدم هذه التخريمات...). ثم دخل في التهويمات: ابن تارخ بن نامور بن ساروغ بن ارغو ابن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان، بن ارفخشذ بن سام بن نوح.

(ولو حسبت الزمن على طريقة التوراة لكان بين نوح وإبراهيم ثلاثمئة سنة وهذا مطعن قاتل... ولماذا إذا دخلوا جحر ضب دخلناه؟ ولماذا إذا ناقضت توراهم العقل والتاريخ حملنا معهم ورطتهم؟!).

عروبته:

ذكر لنا خلاف أهل الكتاب فيما بينهم، ومع المسلمين حول دين إبراهيم. فقال ما قال القرآن: ﴿... ولكن كان حنيفاً مسلماً...﴾ . ثم نقل عن العقاد: "أن أصح نسب ونسبة له هي العروبة"، فلا يقال: إنه إسرائيلي.

ويؤيد محمد بيومي مهران عروبة إبراهيم. وأن قومه خرجوا من قلب الجزيرة. ورشيد رضا يرى أنه كان يتكلم العربية القديمة، ويستدل بحديث البخاري عن حديث إبراهيم مع امرأة ابنه العربية الجرهمية.

المبحث الثاني: مولده ووفاته:

أ- مكان ميلاده:

يقول المؤلف: اختلف العلماء في الموضع الذي ولد فيه. (طبعاً سيختلفون باختلاف المصادر التي نقلوا عنها، ولأن الباطل له مئة وجه). ويذكر عدة أمكنة مفترضة منها: السوس بالأهواز، أو بابل بالعراق، وقيل كوثا بالعراق، وقيل الوركاء بكسكر، وقال ابن عباس (!): بغوطة دمشق بقرية برزة في جبال قاسيون (!!).

قال ابن عساكر: والصحيح أنه ولد ببابل (قطعت جهيزة... ومن أين عرفنا هذا الصحيح؟!) قال المؤلف: صحيح ابن عساكر فيه نظر لأنه لم يبنه على نص. (ونقول للأستاذ مبحثك كله لا يقوم على أصل ولا ساق).

ثم ينقل عن بيومي مهران في كتابيه: دراسات تاريخية في القرآن ص١٢٢ وإسرائيل ص١٦٥ أن حاران بالعراق الأعلى في منطقة الجزيرة هي موطنه وليست أور. (أور التي كان سيزورها بابا روما مع مطلع الألفية...)

ب- زمان ميلاده:

أما زمان ميلاده، فيقول: إنه ليس بين أيدينا نص. (جميل). والأحافير على كثرها لا نجد بينها خبراً كما يقول العقاد. ومع هذا فانه ينقل لنا عن نَقَلتنا رحمهم الله أنه كان بين آدم ونوح ألف ومئتا سنة.

ومن نوح إلى إبراهيم ألف ومئة وثلاث وأربعون ويقال (!): ألف ومئة واثنتان وأربعون (يا للدقة ويا للروعة والعظمة. يا عم متدقش!). ومن إبراهيم إلى موسى (٥٧٥) سنة وقيل خمس وستون (للأمانة!) ومن موسى إلى داود (٥٦٠) سنة، ويقال تسع وسبعون. ومن داود إلى عيسى ألف وثلاث وخمسون ومن عيسى إلى محمد ستمائة سنة.

(لو جمعنا كل هذه الأرقام لما تجاوز عمر البشرية كلها أربعة آلاف سنة... وهي مخاطرة عظيمة كان ينبغي النأي بديننا عنها، ولا نزج قرآننا في مزالق بني إسرائيل المهلكة، فإذا أثبت أن عمر الإنسان أضعاف ذلك كان ديننا يتحمل وزر هذه المهزلة، وهو منها بريء).

ثم أتحفنا الأميري بأنه على فرض صحة السند إلى ابن عباس فهو ليس حديثاً (!) والخلاصة أننا لا نملك معرفة تاريخ ولادة الخليل.

(ولماذا الخوض في مخاضة وبعد أن "نتبهدل" من طينها، نقول: ليس من هنا الطريق، وكنا نعرف سلفاً أن ليس من ها هنا الطريق!).

ج- قصة مولده:

روي... ويعيد لنا السيد الباحث قصة المنجمين التي سمعناها في كتب القصص ونقلت لنا ناقلاً عن ناقل وذو نسب في الناقلين غليظ...

ونقل حكاية الأصابع التي تقطر سمناً وعسلاً ثم قال: إن الوضع ظاهر على الرواية. فلِمَ المبحث كله؟ ولِمَ لا نقتصر على ما في القرآن "ونخلص"؟.

د- نشأته:

لم يعرض القرآن ولا السنة لتفاصيل نشأته. (بداية حلوة ونهاية وحشة). غير أن (هنا المشكلة في غير أن، ولكن...) العلماء المسلمين (!) يذكرون أن...

ولا يهمنا نحن... لكن أردت أن أنبه إلى منهج الكاتب... ودخوله في موضوعات ثم ينسحب منها وكان الحري به ألاّ يلجها بالأصل.

هـ- عمره:

ذكر ابن سعد حديثاً عن أبي هريرة أنه اختتن وهو ابن مئة وعشرين. ثم عاش بعد ذلك ثمانين. وهذا القول غير صحيح ! (يا الله... فلماذا تذكره أيها الباحث العظيم وتزعجنا وتزعج نفسك هلا وفرت جهدك للإبداع في تحليل خير الكلام؟!).

ثم عاد ليقول إن المسعودي قال إن إبراهيم توفي بالشام عن مئة وخمس وسبعين. يقول النجــار: فيكون إسماعيل قد عاصر إبراهيم تسعاً وثمانين سنة!.

ثم يعود ليقول: هذه الأرقام لا نقطع بصحتها.

و- وفاتــه:

يذكر رواية عجيبة ما لنا بها حاجة، ثم ينقل قول ابن الأثير فيها ويعجبه قوله. والذي قلناه هناك نقوله هنا، فلماذا إذا تسويد الصفحات بترهات ثم نعتها بأنها كذلك...؟

ز- قبــره:

دفن ابراهيم وولداه إسحق ويعقوب بالخليل. ويقول إن هذا كما قال ابن كثير متواتر.

الفصل الثاني: عصر إبراهيم:

كان الشرك والوثنية منتشرين. ثم كلمنا عن الصابئة الذين ذكرهم القرآن وذكر رأي ابن تيمية أنهم مؤمنون. ثم كلمنا عن مكان الصابئة وأنهم امتدوا من العراق إلى شمال الحجاز. وعن فرقهم. وعــن أخلاقهم ونقل عن ديورانت أموراً في أخلاقهم.

الفصل الثالث: هجرته عليه السلام:

عرّف الهجرة بالخروج. وهاجر: ترك وطنه. ولا تحتاج إلى تعريف. كان لإبراهيم هجرات عديدة كلها لله. وذكر منها ثلاثاً رئيسة وثماني هجرات أو رحلات فرعية. الهجرة الأولى: من بابل إلى حــران. والثانية إلى مصر. والعودة منها إلى الشام (وكان يمكن فصل هذه عن تلك) والثالثة إلى مكة.

وذكر حديث البخاري عن سارة وهاجر وإسماعيل وزمزم، وهو فصل بطوله ليس فيــه إلاّ هــذا النقل... ثم استنتج دروساً أن صاحب الدعوة يمكن أن يسافر ثم يعود إلى المكان الذي تقتضي مــصلحة الدعوة أن يكون فيه ! الخ.

الباب الثاني: الدعوة والمدعوون:

الفصل الأول: الدعوة:

دعوة إبراهيم هي دعوة الأنبياء من قبله ومن بعده. ثم لخص مبادئ الدعوة مــن التوحيــد إلى البعث، وأما دعوته هو على التخصيص فأهم عناصرها تقوى الله، وترك الشرك ومحاربة الأوثان، والإسلام والحنيفية، والتبرؤ من القوم الكافرين، والحكم والأمثال التي في الصحف (وهذه لا دليل عليهــا)، وأمــا النقاط السابقة فهي كلها مشتركة كما أعتقد !

الفصل الثاني: المدعوون:

ابتدأ دعوته لأبيه، واستعرض الكاتب الآيات، ولا جديد. ثم دعوته لقومه. واستعرض الآيات أيضاً وبعض ما فيها من لفتات، كأن يقول تعليقاً على سؤال إبراهيم: ﴿ما هذه التماثيل...﴾ : وهذه طريقة حسنة ناجعة (يقصد السؤال) على الداعية أن يفطن لها. وهو من باب تجاهل العارف.

ثم ذكر تحطيمه الأصنام (وتعليقه الفأس برأس الكبير، وقطعاً لا دليل). ثم استخلص من صحوهم وسكرهم بعدها درساً هو أن الحجة ليست سلاحاً ماضياً مع كل إنسان.

ثم تكلم عن دعوته لعبدة الكواكب... ونقل عن النيسابوري (وهو الصحيح) نفيه أن يكون إبراهيم معتقداً ربوبية الكوكب.

الفصل الثالث: دعوته للملك:

ذكر آية البقرة: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم...﴾ وشرحها، وانتهى الباب.

الباب الثالث: ابتلاؤه وصبره:

الفصل الأول: الابتلاء بالكلمات:

ثم ذكر الخلاف في الكلمات ونقل عن ابن عباس أنها خمس في الرأس وخمس في الجسد أما خمس الرأس: فالمضمضة، والاستنشاق، وفرق الرأس، وقص الشارب، والسواك. (صعبة جداً وخاصة المضمضة...!! إن هذا هو البلاء المبين). (ولم يذكر اللحية ولا حول...).

وأما التي في البدن: فالختان، وحلق العانة، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، والاستنجاء بالماء. ثم قال: ولا يخفى ما في هذا القول من تعسف.

ثم نقل عن محمد عبده أنه مما أدخله اليهود على المسلمين ليتخذوا دينهم هزواً: "وأي سخافة أشد من سخافة من يقول: إن الله ابتلى نبياً بها وجعله بها إماماً للناس...". ثم يوافق الكاتب محمد عبده على الفكرة ويخالفه في الألفاظ القاسية كالجراءة على القرآن وكقوله: السخافة.

وقول محمد عبده بالسخافة وما إليها ليس ينعت به إلاّ اليهود الذين دسوا على ديننا ما دسوا، فلمَ الغضب يا أميري؟!.

ثم نقل عن الطبري أقوالاً شتى منها: ثلاثون خصلة من خصال الإسلام: عشر في براءة وعشر في الأحزاب وعشر في المؤمنون. ومنها: مناسك الحج. ومنها: المناظرات...!! ...الخ.

ثم قال الطبري معلقاً: "فغير جائز لأحد أن يقول: عنى الله بالكلمات شيئاً من ذلك إلاّ بحجة...".

(ونقول: بل جائز أن نقول على سبيل التمثيل: كأن نقول: ابتلي بالهجرة من الوطن، وابتلي بذبح الولد، وابتلي بإسكان زوجه وابنه بواد غير ذي زرع، وابتلي ببناء البيت على كبر سنه... الخ. ولا نقول: ابتلي بالاستنشاق...!!).

وما ذكر سنن تذكر ولا تنكر، أمّا أن نجعلها أساس الإمامة الأكبر فهذا هو المنكر.

وبعد أن كتبت ما كتبت وجدت الكاتب يذهب إلى نفس المذهب (تقريباً) فقال: أميل إلى ما قال القاسمي: ابتلاؤه بالإسلام، والهجرة، والنار، والختان!! وذبح ابنه وهذه قد ذكرها القرآن والسنة...

ثم ذكر قراءة نصب كلمة "ربه" والمعنى على أساسها ورجح قراءة الجمهور. ونقول: بل هذه باطلة، والدخول فيها مغالطة.

الفصل الثاني: الابتلاء بمحاولة الاعتداء على الزوجة:

بدأ الفصل بحديث مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال: لم يكذب إبراهيم النبي قط إلاّ ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله: قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وواحدة في شأن سارة. فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك... ويمضي الحديث بإخبارنا أنه رآها بعض أهل الجبار، فقالوا له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلاّ لك... فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده... الخ الحديث...!!

وفي الهوامش شروح عن الذي أخبر عن سارة وأنه رآها تطحن (وهي أمور مهمة!) ولذلك أهداها الجبار هاجر حتى تخدمها...!!

ونقول: كيف يقول إبراهيم إنه ليس على الأرض مسلم إلاّ هو وهي فأين لوط؟ ثم استخلص الباحث الدروس، ومنها: عظم الابتلاء بالزوجة !! وفي هذا درس للعاملين في حقل الدعوة...

ثم نقل عن فتح الباري تعليلات لماذا قال إبراهيم إنها أخته، وعلق بقوله: إن هذه التأويلات لا تنقع غلة ولا تبل صدى. والأولى منه أن إبراهيم مؤيد بالوحي.

وذكر قول بعض المفسرين أنها أخته على الحقيقة !! ومن هؤلاء النجار. وأن تشريع تحريم الزواج من الأخت لم يكن قد شرع. ثم ينقل عن النجار أنها كانت وقت زيارة معه بنت سبعين.

ويعلق المؤلف الباحث: واعتماداً على التوراة (موضوع الأخت يعني) يرد النجار حديثاً روي في الصحيحين وغيرهما، يفعل ذلك دفاعاً عن إبراهيم، ويكون هذا كمن يهدم قصراً ليقيم كوخاً (ولا أدري أي الفريقين يهدم وأيهما يبني؟!).

ثم ذكر عن ابن كثير أن سنها وقتذاك كان خمساً وسبعين...!!

الفصل الثالث: الابتلاء بالإلقاء بالنار (في النار):

ولو أن الكاتب الباحث قدم هذا الفصل على سابقه لكان أوفق، لأنه زمنياً أسبق، هذا ان سلمنا أن يظل الفصل السابق أصلاً على اعتبار أنه لم يرد في القرآن، فليس من قصص القرآن.

قال الكاتب: إن قصة حرقه في النار وردت مجملة في القرآن. ونقل عن ابن كثير قوله: لما دحضت حجّتهم وبان عجزهم، وظهر الحق عدلوا إلى استعمال القوة... ثم دخل ابن كثير في تفاصيل ما بنا نحن المعلقين من حاجة إليها.

وذكر روايات عديدة عن لحظات ما قبل رميه ولحظات رميه في النار أغلبها لا يصح كحديث يرفعه أبو هريرة: "لما ألقي ابراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك"!.

ولم يفته بالطبع أن يشير إلى حديث عائشة في البخاري عن الوزغ (ابريص) واستخلص الباحث الدروس: إن على الداعية أن يوثق صلته بالله.

الفصل الرابع: الابتلاء بذبح الولد:

بعد إلقائه في النار وبعد كبره شعر بالحاجة إلى الولد، فدعا الله فاستجاب له، وذكر الآيات. وينقل عن المفسرين كالظلال وغيره معنى الآيات.

وينقل عن ابن كثير أن الفداء كان بكبش من الجنة رعى قبل ذلك أربعين خريفاً...(!) وينقل عن ابن عباس أن رأس الكبش ظل معلقاً بالكعبة حتى أول الإسلام... الخ.

وينقل عن ابن القيم في جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام تعليله للأمر بالذبح بأن منزلة الخلة لا تقبل المزاحمة، فغار الخليل على قلب خليله !!.

وفي المبحث الثاني ناقش القضية المقتولة بحثاً: من الذبيح؟ فيذكر أدلة القائلين بأنه إسحق، فيذكر حديث أحمد في المسند عن ابن عباس عن الرسول وحديث الطبري عن العباس عن النبي، ثم قال: وسياق الآيات يقتضي أن يكون الذبيح إسحق، وذلك أنه تقدم قصة الذبح قوله تعالى: ﴿إني ذاهب إلى ربي...﴾ ، واتفق المفسرون على أن المراد ذهابه إلى الشام ثم قال فبشرناه بغلام حليم فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلاّ إسحق، ويؤيد ذلك ما تلا قصة الذبح : ﴿وبشرناه بإسحق نبياً...﴾ ومعناه أنه بشره بكونه نبياً...

والدليل الرابع كتاب يعقوب إلى يوسف (نعم الـدليل...!! ولا أدري أيـن وجـدوا هـذه المكاتبات؟!) يقول له فيه إنه ابن ذبيح الله إسحق.

والدليل الخامس التوراة: "خذ ابنك وحيدك إسحق هناك محرقة على أحد الجبـال فاذبحـه..." (ونقول: نعم الدليل أيضاً...!!).

والدليل السادس الإنجيل: "بالإيمان قدم ابراهيم إسحق". (وأقول: ولا غرابة أن يكون الإنجيـل مخترقاً بدس اليهود. فإذا قدروا على الدس على المسلمين في مصادرهم أفلا يقدرون فعل مثل ذلك مـع النصارى؟!).

ثم رد الكاتب على القائلين بأنه إسحق. ففي رواية أحمد قال: أن فيها عطاء بن الـسائب وقـد اختلط (والحمد لله) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح ولكنه قال إن الخطأ في كلمة إسحق.

والذي رواه الطبري فيه ضعيفان. والاستنتاج من الآيات غير صحيح. ونقل عن الرازي ترجيحه بل تعيينه أنه إسماعيل.

وكتاب يعقوب لم يرو لنا بالسند. ووصف الوحيد الذي في التوراة في الدليل الخامس لا ينطبـق إلاّ على إسماعيل.

والنقطة السادسة مشكلة على النصارى إذ عندهم نص يقول: إسحق يدعى لك نسل فكيـف يؤمر بذبح إسحق. ثم ذكر حل أهل الإنجيل أن الله قادر على بعثه من الأموات...!!

واستدل القائلون بأنه إسماعيل بأدلة منها حديث أحمد عن ابن عباس أن الرسول قال ذلك وذكر الحديث. وما روى الحاكم عن ابن عباس أنه إسماعيل. وما رواه الحاكم عن محمد القرظي. ونقل الكاتب عن ابن تيمية أن البشارة بيعقوب تقتضي أن إسحق يعيش. وما روى ابن جرير وابن كثير أنه ابنه إسماعيل.

ثم نقل عن ابن كثير أن مصدر أخبار أنه إسحق إنما هو كعب الأحبار (!!).

والدليل الخامس الذي ذكره أن الأمر بالذبح كان بمكة والذي كان فيها إنما هو إسماعيل.

ودليل آخر أن الغلام الحليم هو إسماعيل والعليم هو إسحق.

والراجح عند الكاتب في نهاية المطاف أنه إسماعيل... والحمد لله.

الباب الرابع: فضائله وشمائله:

الفصل الأول: الفضائل الوهبية:

١- الخلة. وذكر معانيها.

٢- كونه خير البرية. وذكر حديث مسلم أن رجلاً قال للرسول: يا خير البرية قال: ذاك إبراهيم.

٣- الإمامة.

٤- اجتباؤه واصطفاؤه.

٥- إيتاؤه رشده.

٦- جعل النبوة في ذريته.

٧- اتخاذ مقامه مصلى.

٨- أول من يكسى يوم الحشر !!. ويذكر أحاديث...!!

٩- كونه ولي النبي محمد ﷺ.

١٠- مشابهته لنبينا.

١١- لينه.

١٢- كونه أمة.

الفصل الثاني: الفضائل الكسبية:

١- الحنيفية.

٢- الإسلام.

٣- الحلم. (لِمَ لم يعده كاللين وهبياً. هذا تقسيم قائم على التخليط).

٤- التأوه. وذكر فيه عن ابن الجوزي ثمانية أقوال. (جيد أنها ليست ثمانين!).

٥- الإنابة.

٦- الصديقية.

٧- الشكر.

٨- الدعاء.

٩- القنوت.

١٠- سلامة القلب.

١١- عمارة المسجد الحرام.

١٢- إكرام الضيف.

١٣- إختتانه (!)

١٤- وفاؤه.

وهكذا تكون الأبحاث...!!

الباب الخامس: شبهات مردودة:

الفصل الأول: شبهة الشك في وجود ابراهيم:

وينقل عن "الشعر الجاهلي" لطه. وينقل رد العقاد أنها شبه لا تقوم على سند. وينقل عن النجار أن هناك من يقول: إن وجود إبراهيم اخترعه اليهود بعد الهجرة ورد النجار بأن هذا مضحك لأنه موجود في سفر التكوين.

الفصل الثاني: شبهة الشك في اسم أبي إبراهيم:

في القرآن وفي السنة أنه ابن آزر. وروى بعض المؤرخين أنه ابن تارخ كما ورد في التوراة (وهنا بيت القصيد تساهلكم في الإسرائيليات أبو الورطات...!!).

ونقل عن دائرة المعارف الإسلامية أن اسم آزر لم يرد مطلقا على أنه أبو إبراهيم إلاّ في القرآن. (طيب وماله ؟! فهو وحده الحق).

ثم ذكر الباحث أقوال العلماء المسلمين في التوفيق بين الأقوال (!!) ونقل عن ابن الجوزي في آزر أربعة أقوال. (على عادة ابن الجوزي في تكثير ما لا يتكثر)، أحدها أنه اسم أبيه، والثاني: اسم صنم (!!)، والثالث: أنه سب، الرابع: أنه لقب.

ثم نقل عن الزبيدي أنه عمه وسمي العم أباً. (وهو أكثر من تكلف فيما أرى. كل ذلـك حـتى يتوافقوا مع التوراة بدل أن يردوها. عجيب...). ثم فند الكاتب أقوال ابن الجوزي الثلاثة الأخيرة.

ثم لخص الكاتب المشكلة في أن مردها إلى أمرين: أقوال النسابين. (أقول: أو النصابين) والثاني: كتب أهل الكتب (أقول: كذب أهل الكتاب). أما قول النسابين فلا يعول عليه وأما كتب أهل الكتاب فلا يصح الاعتماد عليها. ثم يختم بحديث البخاري المصرح باسم أبيه أنه آزر.

(ذاك إذ يلقى إبراهيم أباه وعلى وجه الأب قترة وغبرة!!) والمؤرخ المسيحي اليوناني يوسيفوس ذكر أن اسم أبي إبراهيم: آثر. (ونحن نؤثر ما في القرآن ولا يهمنا معه وما بعده شيء!).

الفصل الثالث: شبهة تطور شخصية ابراهيم:

هذه الشبهة أثارتها دائرة المعارف الإسلامية. يقول الكاتب: إن هذه الشبهة تتعلق بمحمد عليـه الصلاة والسلام أكثر مما تتعلق بإبراهيم. وذكر رد محمد فريد وجدي على هذه الفرية. وملخص القول أن إبراهيم تتغير شخصيته تبعا لفترة نزول القرآن في مكة والمدينة.

الفصل الرابع: شك إبراهيم في إحياء الموتى:

واضح أن المقصود هو آية سورة البقرة: ﴿أرني كيف تحيي الموتى...﴾ وسؤال المولى: ﴿قال أولم تؤمن...﴾. ولكن الكاتب قدم بمقدمة في العصمة لا أرى لها محلاً.

ثم قال: واختلف المفسرون في سبب سؤال إبراهيم... وذكر روايات لا معنى لها بل إن في الطبري رواية مفادها أنه سأل لأنه شك في قدرة الله !!.

وعلق الكاتب: كل هذه التأويلات بعيدة عن الصواب. وأبعدها الأخير مع أن الطبري اختاره. ثم استدل لرده بحديث البخاري: "نحن أحق بالشك من إبراهيم".

واختار الكاتب أن السؤال كان عن "التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية" ونقله عن الظلال وأحال إلى عصمة الأنبياء والأمثال للحكيم الترمذي، وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، والنور المبين للجزائري (ولا أدري لماذا ذكره وهو ظلمات متعاقبة متراكمة !!).

الفصل الخامس: شبهة كذب إبراهيم:

أعاد ذكر حديث مسلم. وأن هذه الشبهة أثارت كثيراً من الأخذ والرد. ثم ذكر حديث أحمد عن الشفاعة وفيه أن إبراهيم ينسب لنفسه الكذب.

ثم يتحفنا الكاتب بأن الكذب المنسوب لإبراهيم ليس الكذب المرذول المذموم، بل هو من المباح (أو الحميد إن شئت!!).

ثم يقول: ومع أن النبي وصفها بأنها كذب إلاّ أنها من المعاريض... وذكر الحديث: "إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب"، رواه البخاري.

ونقل عن ابن حزم: ليس كل كذب معصية. وذكر حديث البخاري: ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس.

وذكر في الهامش نفي الطوسي لكذب إبراهيم ونعته الخبر بأنه خبر واحد، وأنه لا يجوز على الأنبياء الكذب لا قبل النبوة ولا بعدها.

ونقل عن التفاسير تعليل كل واحد مما زعم أنه كذب، ونقل عن الظلال: إنها الضيق [1]. وعن الزمخشري: إنه من المعاريض. وأما أنها أخته فهي أخته... الخ.

---

١ – رجعت إلى الظلال فوجدت العبارة: "وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ أقصاه، وأتعب قلبه وقواه... الخ". يقصد الأميري أن قوله عليه السلام: "إني سقيم" أي ضيق الصدر بما عليه وبما عليه حالكم. راجع الظلال، ج٥، ص٢٩٩٢.

(والذين يروون كذب إبراهيم عليه السلام -وحاشاه-، لو قلنا لهم: وهم الـــراوي! أكـــانوا يحتملون؟ ولو قلنا لواحدهم: كذبت أنت... أكان يحتمل؟ أما أن نروي: كذب إبراهيم خليل الله. فمـــا أهونه على ألسنتهم! وهل وهْم الراوي في نظركم أعظم من كذب الخليل؟ عجيب عقلكم. وهل لا يـــتم إيمان المؤمن ولا إسلام المسلم إلاّ إذا اعتقد بكذب الخليل؟ وأين الأسوة في هذا؟! ألا ما أحوجنا إلى تفعيل العقل المعطل! ... حرام!).

خـــاتمـــــــة:

جمع في الخاتمة ما تناثر من الدروس ومن ذلك:

١- على الدعاة أن يبدأوا بأقاربهم.

٢- أعلى الأواصر آصرة العقيدة.

٣- أسلوب إبراهيم في الدعوة يعتمد على الحكمة والموعظة الحسنة.

٤- الظالمون إذا أعوزتهم الحجة لجأوا إلى القوة.

٥- الحق محارَب من الباطل وأهله دائماً.

٦- على الدعاة أن يوطنوا أنفسهم على الابتلاء.

٧- المسلم لا يرتبط بالأرض ولا بالتراب.

٨- خرق الناموس متى شاء الله. (عبارة الكاتب: من حكمة الله ألاّ تترتب المسببات على أسبابها في بعض الأحيان معجزة لأنبيائه).

٩- لقد تحلى خليل الرحمن بكثير من الفضائل وعلى الدعاة أن يأخذوا أنفسهم بها. (ما قول الكاتب في قضية الكذب؟! وعجبي!).

الكتاب السابع والثلاثون

الأنبياء في القرآن الكريم

تأليف: محمود الشرقاوي

ط١، القاهرة: دار الشعب، ١٩٧٠م.

الأنبياء في القرآن الكريم / محمود الشرقاوي:

يقع الكتاب في ثلاث وأربعين وثلاثمئة صفحة من القطع المتوسط. وجاء في خمسة فصول: الأول في عشرين صفحة، والثاني في ست وعشرين، والثالث في أقل من أربعين، والرابع في أقل من ثلاثين، والخامس في مئتين وعشرين صفحة وهو الذي تضمن كل قصص الأنبياء، أو قصص كل الأنبياء. فهذه ملاحظة أولى: عدم التوازن بين الفصول.

يقول الكاتب في مقدمة الكتاب: خلق الله الإنسان مستعداً للخير والشر، فكان في حاجة إلى الوحي، وأرسل الله الرسل في كل الأمم، فكانت رحمته بهم عامة...

وقد بيّن القرآن أخبار الأمم السالفة. وأن كتاب الأستاذ شرقاوي يشرح معنى النبوة، وحاجة الناس إلى الوحي، ويناقش الرأي القائل بتطور الأديان، ويعرض الكتاب القصص كما وردت في القرآن (!!). (كلهم يقولون هذا، وإنّا لنرجو، والفحص الواقعي العملي هو الذي يصدق القول أو يكذبه... وسنرى). إن قصص الأنبياء جدير بإمعان الفكر (والله صحيح!) وقد مضت سنة الأولين بنصر المؤمنين، وإهلاك المكذبين.

الفصل الأول: النبوة:

في الفصل الأول يناقش اشتقاق هذه المادة، وأن النبي مأخوذ من المنبئ المأخوذ من النبأ، والنبي أكثر استعمالاً، أبدلت الهمزة ياء. ويذكر الفرق بين النبي والرسول فيقول إن النبي هو من أوحي إليه بشرع سواء أمر بتبليغه أم لم يؤمر، والرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

(والأصح في نظري أنه لا يعقل أن لا يؤمر نبي بالتبليغ، ولكن الفرق أن الرسول جاء بشرع جديد. والنبي مبلغ ما سبق).

ثم خلط الكاتب بين الأنبياء والرسل، فقال إن إسماعيل نبي وليس برسول ثم عاد فنقض هذا بما في القرآن أنه كان رسولاً نبياً. والقضية أنه غير رسول غير صحيحة، فلماذا ذكرها ثم فندها؟!

ثم ذكر النبوة والنبي في قاموس الكتاب المقدس. وأنها تعني الإخبار عن الله، ولا سيما عما سيحدث فيما بعد...

ثم ذكر أنواع النبوة ومنها الأحلام (!) والرؤى والتبليغ...

وينقل عن كتاب صموئيل: "إنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة وأمامهم ربابة ودف وناي وهم يتنبأون، فيحل عليهم روح الرب فيتنبأ معهم، وتتحول إلى رجل آخر".

وجاء في كتاب الملوك أن "إيزابل" امرأة أحد ملوك إسرائيل قتلت مئات من أنبياء يهوا، فلم ينج منهم غير خمسين خبأهم أحد الوزراء المخلصين للدين ثم ظهر النبي ايليا متحدياً الملك... الخ.

ويتصور بنو إسرائيل أن موسى كان يخاطب الرب عياناً بغير حجاب... والنص: "فما إلى فمٍ وعياناً أتكلم معه لا بالألغاز".

ثم كانت نبوة محمد ﷺ بعد ستة قرون من آخر أنبياء بني إسرائيل. ثم قال: ودليل وجود النبوة وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل، كعلم الطب (!!) والنجوم (!)، فإن من بحث عنها، علم بالضرورة أنها لا تدرك إلاّ بإلهام إلهي، وتوفيق من الله. (وهذا شيء عجيب، فالطب علم كالحساب يتم ويتعلم ولا يحتاج إلى غيب وخصوصيات...).

ثم قال: فتبين بهذا البرهان (!!) أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لا يدركها العقل، وهو المراد بالنبوة. (صعب أن يُفهم!).

وأما ما عدا هذا من خواص النبوة فيدرك بالذوق عن طريق التصوف، لأن هذا فهمته (هو يقول) بأنموذج رزقته (هو)، وهو النوم (ما شاء الله !) ولولاه ما صدقت به (مدد...!)، فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعباناً، فإن ذلك وحده، ربما ظننت أنه سحر.

(أقول إنما أعطى الله مثل هذه الآيات لتثبيت النبوة بها، ولو كانت تثبت النبوة بالنبوة ما احتاج الأمر إلى دليل مادي لدى قوم جاحدين معاندين). ثم ذكر أنه لا يخوض في عدد الأنبياء، وإحصائهم، فإنه لا يعلم إلاّ بوحي، ولم يبين الله ذلك في كتابه، ولا رسوله في حديث صحيح.

وقد اقتصر القرآن على المعروفين من الرسل (معروفين لمن ومنذ متى؟) وقد أكد القرآن مراراً بَشرية الرسل.

الفصل الثاني: الوحي:

وهو مشتق من وحى إليه وأوحى إليه. وهو كما قال الراغب يعني الإشارة السريعة.

فأوحى إليها الطرف أني أحبها   فأثر ذاك الوحي في وجناتها

ووحي الله فيه معنى الخفاء والسرعة. وقد وردت مادة الوحي سبعين مرة في القـــرآن. أربع وستون مكية وست مدنية. أما كلمة الوحي فجاءت ست مرات كلها مكية. والوحي قـــد يكون على وجه النبوة، وقد لا يكون، كما بعث الله روح القدس إلى مريم. ثم ذكر أنواع الوحي إلى النبي وأن بعضهم أوصلها إلى ستة وأربعين نوعاً.

ثم تكلم عن الوحي عند الفلاسفة، ثم عند الإفرنج.

الفصل الثالث: وحدة الرسالات الإلهية: (ص٥٥-ص٩٣)

تعاقبت الرسالات على الإنسان أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وكلها ذات هدف واحد: توجيه الإنسان إلى طريق الكمال. ثم استعرض الآيات المؤيدة لهذا المعنى. والنبي محمد ﷺ على سنة من سبقه من الرسل.

ثم ذكر ما زعمه علماء الأديان من أطوار الأديان وترقيها مع ترقي الإنسان من التعدد إلى الوحدانية. وأن هذا القول خاطئ في نظر الإسلام، فالوحدانية هي الطور الأول. وكـــل الأديـــان دعت إلى الإسلام. وأن كلمة الإسلام لا تدل على اسم شخص أو أمة، والإسلام في لغة القـــرآن ليس اسماً لدين خاص، إنما هو اسم للدين الذي هتف به كل الأنبياء.

وعرج على نقل اليهودية عن اخناتون، ونقل عن ديورانت في قصة الحضارة أن اليهـــود عبثوا بدينهم، وأن أهواءهم لعبت به.

وعرج كذلك على الزرادشتية وثنائية المجوس، بما لا داعي لـــه. وكـــذلك الفلاســـفة اليونانيين ونظرتهم للإله. وعاد إلى أن الإسلام هو دين البشر منذ بدء الخلق.

الفصل الرابع: القصص النبوي في القرآن: (ص٩٤-ص١٢٠)

وردت القصة في القرآن لتحقيق أغراض دينية، وتكاد الأغراض تكـــون هـــي جميـــع الأغراض القرآنية. ثم ذكر الأغراض كما هي في التصوير ولم يشر إلى التصوير، ونقـــل فـــصولاً بتمامها، مثل فصل الأغراض، وفصل خضوع القصة في القرآن للغرض الديني، وقد نقلها بحروفها في هذا الفصل فلا نتعرض لهذا الفصل كله إذ سنراجعه في مصدره الأصلي الذي لم "يعنّ" الكاتب نفسه بمجرد ذكره.

الفصل الخامس: الأنبياء في القرآن: (ص١٢١-ص٣٤٢)

ذكر الله طائفة من الأنبياء ولم يذكر جميع الأنبياء.

ثم ابتدأ بقصة آدم، والسور التي تعرضت لها. ثم ذكر بعض نصوص القرآن وقطّع بعضها كمقاطع الشعر (تعالى الله وتباركت كلماته!)، وفسر الآيات أو قل نثرها بلغته، وعقب فقال: عرض القرآن قصة خلق آدم عرضاً دقيقاً، يقف أمامه العلم خاشعاً، ويستقبله العقل العلمي راضياً...

ثم قال إن الإنسان خلق من الطين، هكذا قال القرآن، ومقررات العلم الحديث أن الحياة أول ما ظهرت على شواطئ البحار، حيث يكون الطين، فالصلصال، ثم حاول أن يقارب ما بين النظريات والعرض القرآني، فقال: القرآن لم يجيء بما ينفي هذه الصلة، بل أشار إلى ما يمكن أن يستقيم منه فهم واضح لهذه الصلة التي بين الإنسان وعالم الحياة كله. وقد نجد عند بعض المفسرين لمحات ذكية تشير إلى شيء من هذا النبأ الذي أصبح من مقررات العلم الحديث. وحاول جاهداً أن يوفق بين قول دارون وأقوال صدرت عن العرب، ونقل عن اخوان الصفا، وابن خلدون...

إدريس عليه السلام:

هو إدريس بن يارد بن مهلائيل بن... إلى آدم (وهذا من الوهن ومن الإسرائيليات). ثم ذكر ما قال أهل التواريخ والقصص وأهل التفسير، واختلف الحكماء في منشئه (وأين الوعد بالاعتماد على القرآن؟!)، فقيل في مصر، وقيل... واسم معلمه قيل وقيل...

وأقام إدريس بمصر يدعو الخلائق وتكلم الناس في أيامه باثنين وسبعين لساناً (!!) وعلمه الله منطقهم (!!).

نوح عليه السلام: (ص١٣٣-ص١٣٦)

ابتدأ بذكر السور التي ذكرت قصته. ثم قال: بذل نوح أقصى جهده لكي يؤمن قومه، فلما يئس من قومه أمره الله بصنع الفلك. ثم نجاه الله وأغرق الآخرين.

قصة هود عليه السلام: (ص١٣٧-ص١٤٠)

ذكر السور التي ذكرت قصته. ثم ذكر اسمه ونسبه والخلاف في ذلك (!)، ونثر معاني الآيات... إلى أن وصل إلى إهلاك عاد الأولى. وأما الثانية فهم سكان اليمن.

صالح عليه السلام:

ذكر السور، ولخص القصة.

إبراهيم عليه السلام: (ص١٤٤–ص١٥٩)

اختلف المفسرون في اسم أبيه (القرآن يذكره ونحن نختلف فيه!). ثم ذكر الآيات التي ذكرت قصته. ثم قال: ثم جاء إبراهيم إلى مصر في عهد ملوك الرعاة، فأهداه الملك هاجر، ثم ذكر ولادة إسماعيل. وقصة الملائكة المرسلين إلى قوم لوط. ونقل في الهامش نص التوراة، ولست أدري لماذا. وقال: لم يرد لوفاة إبراهيم ذكر في القرآن، ولكن ورد في الإصحاح الخامس والعشرين من التكوين، وأن إبراهيم عاش مئة وخمساً وسبعين سنة... الخ، ولا أدري لماذا يلجأ إلى التوراة ذاك الذي وعدنا بالاقتصار على ما ورد في القرآن؟!. ثم شرح لنا عن الحرم الإبراهيمي ووضع رسماً ومخططاً له.

إسماعيل عليه السلام: (ص١٦٠–ص١٧٣)

لم تقص في القرآن قصة إسماعيل، وإنما ذكر اسمه وهذه المشاهد القليلة هي قصته). ثم تعرض للذبيح ونقل عن ابن القيم أنه إسماعيل. والحق ما قيل، ومن ضمن ما قال ابن القيم: ولو كان الذبيح والذبح بالشام لكانت التضحية والنحر بالشام لا بمكة. ثم ذكر عن القاسمي والسيوطي تأييد أن الذبيح إسماعيل.

ثم ذكر أسماء من تزوج بهن إسماعيل (صدا بنت سعد!) وتزوج من مصر (!).

لوط عليه السلام:

علل اسم لوط. وذكر صلة القربى بينه وبين إبراهيم، وأن الملائكة جاءوا بصورة غلمان (!!)، ثم عرض لوط على القوم أن يتزوجوا من البنات... وأخرج الملائكة لوطاً وابنتيه (!!) وزوجه من القرية وأمروهم ألاّ يلتفتوا فالتفتت امرأته فحل بها العذاب (!).

يعقوب عليه السلام:

نقل عن التوراة قصة عيص ويعقوب وهي مما لا يقبل لا نقلاً ولا ذوقاً ولا عقلاً.

يوسف عليه السلام: (ص١٧٩–ص١٩١)

بدأ بتسمية إخوانه، وذكر أنه كان جميل الصورة، وعدد مرات وروده في القرآن. ثم ذكر أن أبناء يعقوب رأوا إيثار أبيهم ليوسف وحرصه عليه ما لم يكن لواحد منهم فغاظهم ذلك (وهذا تخليط لا يليق أن يُنسب لنبي).

ثم ذكر مشهد المراودة وكيف حاول يوسف بردوده أن يعظها وأن يذكرها بالآخرة. فلما قالت: ما أجمل شعرك، قال هو أول ما يبلى إذا مت. (وكل هذا وعظ جيد لو لم يربط بقصة نبي، ولم ينسب حواراً إلى قصص القرآن). وقص القصة ولا جديد فيها.

شعيب عيه السلام: (ص١٩٢–ص١٩٧)

ورد ذكره عشر مرات في القرآن. وأما قومه فمدين، وفي التوراة مديان. ثم ذكر الآيات... ولا جديد كذلك في عرضه للقصة.

موسى عليه السلام (ص١٩٨–ص٢٢٤)

طردت الأسرة الثامنة عشرة المصرية ملوك الرعاة الذين كانوا في مصر، وشغلوا من تاريخها أربعة قرون من الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة. وعاد بنا إلى التاريخ وأحمس والهكسوس وتحتمس وانتصاره على سوريا، وفي أثناء تلك العاصفة الهوجاء ولد موسى.. وعاد يقص علينا ويفصل...

ويذكر اسم بنت الرجل الصالح في مدين (صفورة) (كما زعم!)، وكيف رفع موسى صخرة لا يستطيعها عشرة رجال (وهي إسرائيليات لا وجود لها في القرآن). وأمانة موسى من خلال سيره في الطريق (وهي تفصيلات لا معنى لها...).

ثم انتقل إلى نبوة موسى، وذكر الآيات التي وردت في القصة ووزعها على مشاهد حوارية. وتكلم عن قصة موسى والعبد الصالح في أثناء حديثه عن القصة.

داود عليه السلام: (ص٢٢٥–ص٢٣٧)

أطال في قصة التابوت، وداود ورعي الغنم. وتحدي جالوت لطالوت ونُشدان طالوت أحداً من الجيش يقاتل جالوت (وهذا ما لا دليل عليه وفيه انتقاص لطالوت). ويذكر أن الحرب استمرت أربعين يوماً (من أين؟!).

وغضب داود من عدم إجابة أحد لجالوت... وقال: أنا أقاتلك. ووصف لنا الكاتب حصان جالوت، وسلاح داود، ولكنه ضربه بالمقلاع.

وعيّن طالوت داود قائداً للجيوش وزوجه ابنته (إسرائيليات لا وجود لها في القرآن). ويقص علينا قصة تافهة أن طالوت غار من داود وأراد قتله فهرب منه (!!)، وهذه أخلاق بني إسرائيل الذين وضعوا هذه التفاصيل لا قصص القرآن ولا أخلاق الشخصيات الإيمانية.

ومات ابن طالوت وعين داود... (تفصيلات وروايات لا سند لها).

قصة سليمان عليه السلام: (ص٢٣٨-ص٢٤٢)

ذكر السور التي ذكرت قصته في بداية عرضه. وكان سليمان أبيض جسيماً وضيئاً جميلاً كثير الشعر (بالله من أين في كتاب الله مثل هذه الأوصاف، وهل همنا؟!). وكان يخالط المساكين ويقول: مسكين يخالط مساكين. وبنى سليمان بيت الرب في أورشليم (إعادة لأوهام بني إسرائيل في الهيكل!).

أيوب عليه السلام:

كان أيوب نبياً غنياً من أرباب العقار والماشية... وكان أميراً في قومه، وكان منزله شرق البحر الميت، وقال البستاني في دائرة المعارف: إنه رجل مشهور بالاستقامة والتقوى والصبر... الخ (كأنه ينفي وصف النبوة عنه!). وقال الثعالبي هو أيوب بن... الخ، ولا يعنينا التفصيلات.

واختلفوا في زمانه هل هو معاصر لموسى أو سليمان... ولا يهمنا.

يونس عليه السلام:

ذكر في القرآن أربع مرات، هو يونس بن متّى، ويقول أهل الكتاب يونان بن أمتاي. ثم عرض القصة كغيره بلا جديد يستحق المناقشة.

زكريا عليه السلام:

وفي صفحتين عرض قصة زكريا وقال لم يذكر نسب زكريا في القرآن ولا في كتب الأنبياء عند أهل الكتاب، ولعل والد زكريا اسمه برخيا. ونقول للكاتب ما دام القرآن لم يذكر ولا كتب أهل الكتاب فمن أين جاء به الأخ؟!

ويختم بذكر أن زكريا قُتل في الحادث الذي قُتل فيه ابنه. وبالطبع لا دليل على ما يقول، كما تعلمون.

يحيى عليه السلام:

كان حسن الصورة وكان رقيق الصوت. وقال لأمه وهو طفل صغير: انسجي لي مدرعة من الشعر وبرنساً من الصوف حتى أعبد الله مع الرهبان (!!).

ثم ذكر الحديث: إن الله أمرني بخمس كلمات، أن أعمل بهن...

وذاع في الناس أن نبياً بُعث، فجاء الناس من كل فج إلى الأردن. وأعاد قصة هيرودس... وهيروديا... وقتله بتآمر هذه الفاجرة. وكل هذا إسرائيليات، لا حاجة بنا إليها.

عيسى عليه السلام:

كانت مريم تستمع إلى الحديث عن المسيح الموعود بأذن صاغية، وقلب مفتوح، ولما حملت بالمسيح غادرت الناصرة، وصحبها يوسف النجار في رحلتها إلى بيت لحم، تنفيذاً لمرسوم الإمبراطور الروماني أغسطس قيصر الذي فرض على الأهالي أن يعود كل منهم إلى مسقط رأسه ليسجل اسمه في الإحصاء... (وكل هذا بلا دليل ولا فائدة...)

ثم قص علينا كيف كان المجوس يرقبون نجوم السماء يتوقعون شيئاً فجاءوا إلى اليهودية (!) يهديهم النجم (!) وسمع هيرودس فارتاع...

وولد المسيح في بيت لحم (!!) ورأى يوسف في منامه أن احمل الطفل وارحل إلى مصر... ويواصل في مكائد اليهود وفي تفصيلات لا محل لها.

ويفصل في حصار الرومان وكيف جاء بطرس يحمل سيفاً، وتخلي التلاميذ عن المعلم. وذكر اختلاف المفسرين في معنى متوفيك...

ومن الصفحة ٢٧٤ إلى الصفحة ٣٤٢ أي ما يقارب السبعين صفحة في حياة النبي محمد ﷺ. ولن نناقش ما كتبه عن النبي الكريم ﷺ لأننا نعد سيرته خارج موضوع القصص.

الكتاب الثامن والثلاثون

النبـــوة والأنبياء في ضوء القرآن

تأليف: أبو الحسن علي الحسني الندوي

ط٤، دمشق؛ بيروت: دار القلم، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

النبوة والأنبياء في ضوء القرآن / أبو الحسن علي الحسني الندوي:

هذا الكتاب كتب بروح الداعية لا بقلم الكاتب، وهو دروس ألقيت قبل أن تكون كتاباً يتلى. وإنك لتحس فيها بحرارة عاطفة الكاتب من وراء كلماته. والغيرة على الأمة تطفر من كل عبارة ومن كل سطر. واستحضار الواقع لم يغب عن عين الكاتب ولا عن وعيه أبدا طيلة الكتاب.

وإن من أهم المهام التي سيطرت على الكاتب: الإيمان والروح الإيمانية، وعدم الرضوخ والركون للأسباب والموازين المادية، والشيخ يعد هذا مفرقا في معالم إيماننا ودعوتنا. بل إن مصدر الداء إغراقنا في التعلق بالأسباب. فهذا أمر يكاد يكون محوراً رئيسياً في كل ما استعرض الشيخ من قصص واستشهد من شواهد.

وليس يغض ما قلنا من قيمة الكتاب العلمية والفكرية، فمتى كان اشتعال الروح والتهاب الوجدان وحرارة العرض مأخذاً، أو متى كان ذلك على حساب حصة العقل والتحليل والتحليق والإبداع؟

فأستاذنا وشيخنا الندوي رحمه الله، من المبرزين في هذا وهذا، وهو إنما يكتب من رصيد التجربة لا من رصيد الحفظ والمطالعة.

وفي الكتاب لوحات من البيان، وعقود من اللآلي والجمان، وأزاهير من الشقائق والأقحوان.

إن اللغة المجنّحة المرفرفة المشرقة الصافية التي كتب بها الشيخ، حولت كتابه إلى لوحات من البيان، وقطع من الجنان، ذات أفنان، ونثر كأنه الشعر يهز الوجدان، ويحيي الكيان، ويبعثه بنشوة لا تعدلها نشوة من تعاطى ما في الدنان. فسبحان المعطي المنان، الخالق ﴿الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان...﴾ .

ولقد أحسست وأنا أقرأ كلام الشيخ كأنني أحلق على جناحي طائر، وكأن أقباساً من النور تومض حولي، وأنفاساً من الجنان تعطر الجو... وتذكرت أياماً قضيناها في معية الشيخ وصحبته كانت من أبرك الأيام. رحمه الله رحمة واسعة وجمعنا به في جواره... والسلام.

يقع هذا الكتاب في إحدى وسبعين ومائتي صفحة، وهو عبارة عن ست محاضرات ألقيت في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، أيام كان رئيسها المرحوم الشيخ عبد العزيز ابن باز وذلك في خواتيم سنة ١٣٨٢هـ. ثم أضاف إلى المحاضرات الست في الطبعة الرابعة محاضرة سابعة تتعلق بخاتم النبيين ﷺ وذلك يستغرق نصف الكتاب ويزيد. ولسنا نرى ما يرى الشيخ الندوي رحمه الله من

إضافة سيرة النبي ﷺ إلى قصص الأنبياء، والمسألة اصطلاح، ولا مشاحة في الاصطلاح. لكن على هذا درجت في هذه السلسلة، وأنا مقتنع به تمام الاقتناع.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا الكتاب ألقي محاضرات، وفرق بين أسلوب المحاضرة من التبسيط والإسهاب، وبين أسلوب الكتاب من الإيجاز. ولذلك فإنك تحس أن الكتاب قابل للاختصار بشكل ظاهر واضح، وفيه شيء من الإعادة والتكرار تناسب الدرس ولا تناسب الكتاب.

وفي المحاضرة الثانية ملاحظة طفيفة أن الشيخ جعل، أو كأنه قد فعل، الإيمان بالسنن والإيمان بالغيب في شبه مواجهة، وما أرى من داع لمثل هذه المواجهة، فالكون ماض على ما أودع الله فيه من سنن، وعلى هذا يبني المرء نظام حياته؛ ولكنه يعلم بل يوقن أن الله لا تحكمه السنن وأنه فعال لما يريد، دونما أدنى تعارض بين العمل وفق السنن والإيمان المطلق بقدرة الله المطلقة.

المحاضرة الأولى: النبوة: حاجة الإنسانية إليها وفضلها على المدنية:

حديث من وحي المكان: يقول الشيخ الندوي تحت هذا العنوان: إن أليق حديث بهذا المكان (يقصد المدينة) حديث عن النبوة: حاجة الإنسانية إليها وفضلها على المدنيّة.

ولّما نزلنا منزلاً طلّه النـدى   أنيقاً وبستاناً من النّور حاليا
أجدّ لنا طيب المكان وحسنُه   منى، فتمنينا، فكنتَ الأمانيا

ثم قال: لقد نظر علم المكان إلى النبوة والأنبياء بنظر قاصر محدود، واعتبرها عقيدة جامدة محدودة لا صلة لها بالحياة إلاَ في دائرة محدودة ضيقة من العقائد.

والحق أنه يجب علينا أن ننظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن وبمنظار القرآن. ونستعرض كتاب الله الحكيم لنعرف مداها وآفاقها، وتأسيسها لحضارة متميزة في كل شيء.

إننا نقرأ القرآن لهذا الغرض، فتطالعنا قطع ونماذج وصور لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون، وهي أجمل ما في مجموع الصور البشرية بالإطلاق، ونرى أسلوب القرآن في الحديث عنهم أسلوبا يتدفق بالحياة، ويفيض بالبشر، وينم عن الحب والإيثار، وكأنه حديث أثير حبيب، عن أثير حبيب...

وذكر الشيخ مثالاً من سورة النحل: ﴿إن ابراهيم كان أمة قانتاً...﴾ الآيات: ١٢٠-١٢٣. ومن سورة الأنعام: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه...﴾ الآيات ٨٣-٨٩، فالرسل هم صفوة الخلق والمثل الكامل للإنسانية.

ويذكرهم القرآن تارة بالاصطفاء، وتارة بالاجتباء، وطوراً بالحب والرضا، وتارة بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية... ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده...﴾ ، ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً...﴾، ﴿إن ابراهيم لحليم أواه منيب...﴾ . ويقول عن موسى: ﴿واصطنعتك لنفسي...﴾ . وعن إسماعيل: ﴿وكان عند ربه مرضياً...﴾ . وعن سليمان: ﴿نعم العبد إنه أواب...﴾ . ويفيض الندوي بذكر عدد من الآيات يثني على الأنبياء وكلها معلومة.

ثم يسأل: ما مركز النبوة والأنبياء في هذه الحياة التي تعتمد في استقاء معلوماتها غالبا على الحواس الإنسانية والعقل الموهوب؟ وما ميزة الأنبياء؟ ... الخ.

ثم يجيب: هذا سؤال طبيعي ساور النفوس عند كل بعثة نبوة جديدة، وواجه النبي الخاتم.

ويشرح الندوي بتفصيل واقع العرب الذي واجهه النبي ﷺ في طريق إجابته عن السؤال، ليخلص إلى الإجابة: اعتاد العرب إذا أحس أحد منهم بخطر أو عدو مفاجئ أن يرتقي ربوة ويصرخ: "يا صباحاه" فيفزع القوم لمواجهة الخطر. ولقد أدرك الأنبياء خطر الجهل لصانع الكون وصفاته الحقيقية، فرأى العدو الذي يعبث في نفوسهم وعقائدهم وأخلاقهم، أضر وأفتك من كل عدو. وأن عداوة نفوسهم أشد من عداوة كل قبيلة منافسة، فخرج على الصفا، ونادى بأعلى صوته. وكان أصدق صوت، في أصدق مناسبة، أنه يرى الصفحة الأخرى من الوادي فيحق له أن يخبر دون أن يعترضه أحد، وهو الصادق الأمين الذي خبروه.

لقد نجح رسول الله ﷺ بحكمة النبوة التي خصه الله بها، وبلاغته العربية التي أكرمه الله بها وقد صور لهم مركز النبوة والأنبياء، وأنهم يستطيعون أن يشهدوا ما لا يشاهده أقرانهم وأبناء عصرهم، فقد وقفوا على قمة جبل من النبوة. ولما تمت هذه المرحلة بنجاح، تقدم الرسول خطوة ثانية. فقال: إني نذير لكم... الخ.

إن الأنبياء هم الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة. لذلك يلح القرآن على أن الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته الحقيقية، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله المعرفة الصحيحة، إذ لا يستقل العقل الإنساني بها، ولا يغني الذكاء وحده، ولا الفطرة وحدها.

وقد ختم الله سورة جليلة هي سورة الصافات، بذكر سوء اعتقاد المشركين ورد ضلالهم، وأثنى على الأنبياء: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين﴾ . ثم أشار الندوي -رحمه الله- إلى ضلال الفلسفة اليونانية وسر شقائها وخيبتها وأنهم اعتمدوا في معرفة الله على عقولهم وحدها، فجاءوا بالسخيف المرذول، والمتهافت المتساقط، والمتناقض

المتضاد، والتحكمات والتخمينات التي صدق حجة الإسلام الغزالي في وصفها بقوله: "ظلمات فوق ظلمات..." (تهافت الفلاسفة).

وكذلك قال ابن تيمية عنهم: "إن كلامهم يشبه كلام المجانين" (منهاج السنة)، و(بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول).

ثم انتقل الندوي إلى عثرة الفلسفة التي بدأت في العصر المسلم. ويقول إن فلسفتنا الإسلامية التي نشأت لمحاربة الفلسفة اليونانية الملحدة تسربت إليها هذه الروح الفلسفية العاتية.

ثم عاد الندوي إلى انفراد الأنبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجي. وأشار إلى أن الأمم المتمدنة التي استغنت عن علم الأنبياء، وإن بلغت أوج المدنية فهي في حاجة إلى العلم الذي يحمله الأنبياء حاجة الغريق إلى قارب النجاة والمريض إلى الدواء، فهي على خطر رغم فتوحها العلمية.

ثم ضرب الندوي بطريقته المحببة الجميلة مثلاً لعلم النبوة وعلوم البشر، فقال: يحكى أن فريقاً من التلاميذ ركبوا سفينة للنزهة. وكان الملاح الأمي خير موضوع للتنادر، فسأله تلميذ: هل درست الفيزياء؟ قال: لا، وسأله ثان وثالث فقهقه الشباب، وسألوه ما سنك؟ فقال: أنا في الأربعين، قالوا: لقد ضيعت نصف عمرك. وسكت الملاح. والزمان دوار. وهاج البحر وماج. وارتفعت الأمواج، وبدأت السفينة تضطرب، والأمواج فاغرة فاها لتبتلعها، واضطرب الشباب، وكانت أول تجربتهم في البحر. فقال الملاح في وقار وهدوء: ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟ وبدأوا يتلون قائمة علومهم. فلما انتهوا قال في وقار تمزجه نشوة الانتصار: هل تعرفون إذا انقلبت السفينة كيف تصلون إلى الساحل؟ قالوا: لا. هذا هو العلم الذي فاتنا دراسته.

هنالك ضحك الملاح وقال: إذا ضيعت نصف عمري، فقد أتلفتم عمركم كله. لأن هذه العلوم، لا تغني عنكم في الطوفان.

ثم عقب على قصته أو مثله بقوله: هذه قصة الأمم المتمدنة التي كانت دائرة معارف، وجهلت العلم بالخالق، وهو العلم الذي تنال به النجاة وتبلغ بر السلام وقد حكى الله قصة هذه الأمم التي غلب عليها الزهو والتيه، واستصغرت شأن الأنبياء فقال: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ غافر: ٨٣.

ثم عرج على أمتنا فقال: الأقطار الإسلامية والعربية في خطر عظيم. وفصّل هذا الخطر بأن الأقطار الإسلامية والعربية معرضة عن هذه التعليمات وزاهدة في الاستفادة من علم الأنبياء، ومتهالكة على الحضارة الغربية، والقيم المادية، والأوضاع الجاهلية، والفلسفات القومية، والاشتراكية. وهي

على خطر عظيم لا يدفعه شيء، ولا تزال الأمة معاقبة بالفرقة والاختلاف، والفوضى والثورات، والتحاسد والتباغض، وعدم التعاون والاتحاد، وذهاب الريح والشوكة والهوان على العدو.

ثم ضرب الندوي رحمه الله مثلاً آخر لعلم الأنبياء والمدنية الحديثة فقال: ومثل الأنبياء ومثل الطوائف الأخرى من أهل العلم كمثل مدينة عامرة، يدخل فيها طوائف مختلفة ذات اختصاصات، فمن موضوعهم التاريخ يبحثون تاريخ المدينة، وعلماء الآثار يدرسون الحفائر، وعلماء الجغرافية يدرسون موقعها والجبال والأنهار، وطائفة هوايتها الأدب، فيستهويها المناظر الفاتنة والطبيعة الساحرة، وطائفة من علماء الألسن تتأمل لغة أهل المدينة.

هذه كلها طوائف من أهل العلم لا يستهان بقيمتها وشأنها، ولكنها كلها على خطر لو لم تعرف من يحكم المدينة، وما نظام الحكم، وما القوانين التي عليهم مراعاتها... الخ.

ويواصل الندوي مثله بعنوان: مهمة الأنبياء في هذه المدينة، ليقول بعده: وتدخل طائفة كاملة المواهب، صحيحة القوى، لطيفة الحس، رقيقة الذوق، لا تفقد شيئاً مما يتجمل به البشر. لكن همها غير همّ هذه الطوائف كلها... وهي تهتدي وبالأصح يهديها قيم هذه البلد ويأخذ بيدها إلى مركز هذه المدينة، وإلى مصدر الحياة والقوة والتنظيم في هذه المملكة، تتصل به رأساً، وتتلقى أحكامه، وتبلغها إلى جميع الطوائف. ولا شك أن جميع الطوائف مدينة لهذه الطائفة في حياتها، واشتغالها بعلومها في سلام. وأن هذه العلوم كلها تنشأ في كنف المعرفة التي تحملها وتنشرها تلك الطائفة. فلولا هذه المعرفة، ولولا هذه الطائفة، لوقعت الطوائف الأولى كلها فريسة الجهل ونقض القانون، وألقي القبض عليها وزجت في السجون، وتحولت علومها إلى الأوهام والظنون، أو إلى العبث والمجون. فإن أساس جميع العلوم معرفة المدبر، وهي المعرفة التي اختص بها الأنبياء، واختصت بهم: ﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾. فهم كالروح بالنسبة إلى الجسد، والعقل بالنسبة إلى العمل، والدنيا بغيرهم ظلام في ظلام.

وليس الأنبياء مصدر المعرفة الصحيحة فحسب، بل هم الذين يمنحون الأجيال البشرية ثروة أخرى كذلك، يرجع إليها الفضل في صلاح البشرية وازدهار المدنية، وهي قوة كراهة الشر وحب الخير والجهاد في سبيله، هذه القوة التي كانت العامل الأساسي في كل ما قام به البشر من بطولات.

لقد حول الأنبياء الأمم والنفوس إلى طبيعة إنسانية كريمة رقيقة، إلى رجال تعطرت بأنفاسهم الدنيا، وتجمل بهم تاريخ الإنسانية، ففاضت المحبة وقامت سوق الجنة، وهبت نسائم الإيمان، وتحررت النفوس من ربقة الهوى.

إن المدنية لا تدين لطائفة كما تدين لهذه الطائفة الربانية، إنها تدين لها في حياتها وبقائها وشرفها وكرامتها واعتدالها وسدادها، فلولاها لغرقت سفينة الإنسانية بما فيها من علوم وتراث حضاري وفلسفة وحكمة.

إن كل ما يوجد في هذا العالم من معاني الإنسانية الكريمة، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة، والأخلاق العالية الفاضلة، والعلوم الصحيحة النافعة، ومن القوة على محاربة الباطل، إنما يرجع فضله إلى وحي السماء وتعليمات الأنبياء. وما يزال العالم يأكل من رفدهم، ويمشي في ضوئهم، ويعيش في البناء المحكم الذي بنوه.

المحاضرة الثانية: سمات النبوة وخصائص الأنبياء:

وفي عنوان فرعي قال الشيخ رحمه الله: جناية الأساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على فهم النبوة والأنبياء. وقال في التفصيل: إن الناس أصبحوا لا يتصورون النبوة والأنبياء إلاّ من هذه الزاوية (أي التي سماها الشيخ الأساليب الصناعية...) ولا ينظرون إليها إلاّ بهذا المنظار، وقد بدأ بعض الكتاب الإسلاميين في العصر الأخير يخضعون في كثير أو قليل لهذه المفاهيم، ويفسرون دعوة الأنبياء بمصطلحات سياسية واجتماعية حديثة، مما يحول بين أهل العصر وفهم منصب النبوة على حقيقته وطبيعة الأنبياء ومناهج عملهم، ويتجه بالفكر على درب النبوة وشاكلتها.

لذلك -يقول الشيخ- اشتدت الحاجة إلى دراسة القرآن في هذا الموضوع، دراسة عميقة حرة، مجردة عن الثقافات الأجنبية والتأثيرات الخارجية، فما حدث في عصر من نظرية أو مصطلح لا يجوز أن يسلط على عصر سابق، وعلوم الإنسان ونظرياته كثيب مهيل، لا يصلح عليه البناء ولا أن يحمل عليه القرآن.

ثم أشار إلى الفارق الأساسي بين الأنبياء والمرسلين، والحكماء والمصلحين، وأن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء أن العلم الذي ينشرونه والعقيدة التي يدعون إليها، لا تنبع من ذكائهم أو تألمهم للوضع المزري الذي يعيشه الناس، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يصطفون لها ويكرمون بها. فلا يقاسون على الحكماء والقادة، والذين هم نتيجة بيئتهم، وصدى محيطهم، ورد فعل لما يجيش في مجتمعهم.

والقول الفصل في ذلك قول القرآن: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم...﴾ . ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب...﴾ الخ.

لذلك لا يخضع الرسل لعوامل نفسية أو حوادث وقتية خارجية، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال وشاء المجتمع، ولذلك فإن الرسول لا يستطيع تغييراً في رسالته... هذه هي السمة الفاصلة الأساسية بين الأنبياء والزعماء.

والحكمة والتيسير مرعيان في دعوات الأنبياء، فهم يتحرون الزمان والمكان ونشاط الناس ولكن كل هذا التيسير إنما هو في التعليم والتربية، وليس في العقائد والفرائض...

والسمة الثانية: أن الأنبياء أكبر هدفهم تصحيح العقيدة، وإخلاص الدين، وإفراد العبادة لله.

وذكر الندوي أمثلة عديدة من دعوات الأنبياء كما هي في القرآن. والأمثلة معروفة.

وتحت عنوان: الجاهلية الخالدة العالمية وجنايتها على البشر، قال الشيخ: إن هذه الوثنية هي الجاهلية العالمية التي هي أقدم أدواء البشر، وهي التي تحول بين العبد وتقدمه الروحي والخلقي والمدني.

هذه الوثنية، بجميع أشكالها، كانت موضوع جهاد الأنبياء في كل عصورهم، وهو الذي أثار غضب أهل الجاهلية.

وفي وصية للشيخ الندوي للشباب، استطرد فيها على الحديث الذي كان بصدده، غمز من كتابات المودودي وإن لم يسمه وذكر مصطلحاته الأربعة، ونفى أن تكون بقيت غير مفهومة طيلة القرون، وأن وعد الله بحفظ القرآن يستوجب الفهم والعمل والتطبيق.

ولعله في كلامه عن الفهم السياسي والتفكير السّياسي إنما يقصد المودودي كذلك، ومن هم بالأثر، وعفا الله عنهم جميعاً.

ثم أشار إلى عقيدة الآخرة، واهتمام الأنبياء بها في سيرهم ودعوتهم. وهي السمة الثالثة من سمات النبوة وملامح الدعوة. وذكر من قصة إبراهيم لهجه بالآخرة: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين...﴾ . وكذلك يوسف: ﴿وألحقني بالصالحين...﴾ والإيمان بالآخرة هو الحافز للعمل، أكثر مما يرون من اختلال الأحوال. واستشهد من كلام مؤمن آل فرعون، ومن كلام السحرة الذي سجله القرآن.

وأشار إلى زهد الأنبياء وخاتمهم صلى الله عليهم جميعاً وسلم، وإيثارهم الباقية على الفانية.

وأفاض الشيخ في الحديث عن الآخرة وتأصلها في منهج الأنبياء ودعوتهم، بينما هي في الدعوات الإصلاحية الأخرى، اعتراف وتقرير وقانون مرسوم يتكلم عنها بقدر الضرورة الخلقية والحاجة الاجتماعية، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية.

وأحال الشيخ إلى كتابه تأملات في سورة الكهف. ودعوة الإيمان تشدد على الإيمان بالغيب، الإيمان

بقدرة الله المطلقة، ومشيئة الله القاهرة. وقد ذكر الله من أخبار الرسل ما لا يصدق إلاّ بالإيمان بالغيب... كانفلاق البحر وغيره...

ثم فرق بين هذا الإيمان الغيبي، والإيمان الذي يقوم على الحس والتجربة. ويسير مع المألوف المعروف، ويتقيد بالسنن الكونية، والنواميس الطبيعية، والحوادث التاريخية، ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل... هذا إيمان مقيد محبوس مغلول... لا يتفق مع دعوة الأنبياء. بل لا يصلح أن يسمى إيماناً.

وهذه الفجوة الواسعة بين إيمان الرسل والإيمان القائم على الماديات والاستقراء، قد تقود – أي الفجوة– إمّا إلى التأويل البعيد أو الإلحاد. أما الإيمان بالغيب فهو يؤدي إلى وئام وانسجام مع روح الديانات.

ثم تكلم عن جناية بعض كتابنا الذين حاولوا صياغة عقلية جديدة للدين، يتفق فيها مع العلم الحديث والعقلية الجديدة، جنايتهم على روح الإيمان بالغيب، بحيث صار الشباب الإسلامي المثقف لا ينشط إلاّ للمألوف المقرر، والواقع المتكرر.

ثم نقل الشيخ عن ابن خلدون قوله: "لا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها..." والنقل طويل.

ثم أعاد الشيخ الحديث عن بعد الأنبياء عن الأساليب الصناعية ، واعتمادهم على الفطرة السليمة.

ونقل عن ولي الله الدهلوي في كتابه حجة الله البالغة، نقلاً مطولاً مفاده أن الأنبياء من سيرهم أن لا يكلموا الناس إلاّ على قدر عقولهم التي خلقوا عليها... ونقل عن حجة الإسلام الغزالي قوله من كتابه "إلجام العوام": "فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس...".

ونقل عن الرازي قوله: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي"، عن كتاب النبوات لابن تيمية.

المحاضرة الثالثة: أئمة الهدى وقادة الإنسانية:

عبث القادة والزعماء بالإنسانية:

قال الشيخ الندوي في هذا الفصل أو في هذه المحاضرة، وتحت العنوان الفرعي المثبت أعلاه: لم يزل الجيل البشري في تاريخه الطويل موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء، أو تجربة المجربين والمجازفين من المشرعين والحكماء، وقد عبثوا بأبناء جنسهم ومدنيتهم عبث الوليد بجانب القرطاس[1]، يطويه وينشره، ويمده ويكوره، ويمزقه إذا شاء، ويحرقه إذا شاء، وهانت عليهم الحياة الإنسانية وطاقاتها. ومواهبها وملكاتها، وما أودع الله فيها من طبيعة الطاعة والتقليد والتفاني والاعتماد على القادة. فلم يتقوا الله فيها ولم يراعوا فيها حقاً ولا حرمة... واتخذوها مطية لشهواتهم، وقنطرة إلى سيادتهم ورياستهم وتحقيق أغراضهم، وقد جر عليها جهل القادة وعصبياتهم فردية وقومية، وأنانياتهم شقاء طويلاً وويلاً عظيماً... وشر هذه التجارب ما كان في باب العقيدة التي تشكل المدنية الصالحة والأخلاق الصحيحة والشرائع... فمست الحاجة إلى قادة أمناء مبرئين من كل طمع، ومن النزعات والضلال... والأمانة والإخلاص قاسم بين الأنبياء عليهم السلام.

وضرب المثل من سورة الشعراء، وكيف أن كل نبي كان يؤكد إخلاصه.

ثم أشار إلى الوحدة بين هؤلاء الأنبياء، وقد توحدت حتى المفردات التي تكلموا بها وكيف أن الأمانة وهي الكلمة الجامعة بين معاني الصدق وصحة التلقي من الله، وصحة الإلقاء إلى الأمة. وقد اتفقت الفطر السليمة أن تحب الداعية المخلص.

ثم تكلم عن العصمة وحقيقتها، ونقل عن الشيخ ولي الله الدهلوي، نقلاً مطولاً ليثبت بالحجة الحاجة إلى عصمة الرسل.

ولذلك كان الرسل جديرين بالطاعة والاتباع، لأنها محط العناية الإلهية، والقبول الرحماني. وقد اختار الله طرق حياتهم لتكون نهجاً للصالحين بعدهم، وجعل ذلك علامة حبه: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله...﴾ وسر تفضيل حياة الأنبياء وعاداتهم أنهم على خصال الفطرة وسنن الهدى، وأما عادات الجاهلية فمن وضع الشيطان.

إن الأنبياء كانوا مؤسسي حضارة ومدنية واجتماع، ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر تمتاز بها عن الحضارات الأخرى الجاهلية، امتيازاً واضحاً في الأساس والروح والأشكال والتفاصيل.

---

١ - أشار في الهامش إلى أنه بيت للبحتري:

إن الخطوب طوينني ونشرنني … عبث الوليد بجانب القرطاس.

وتحت عنوان: حضارة إبراهيمية محمدية: قال الشيخ الندوي رحمه الله: وكان الخليل امام هذه الحضارة الحنيفية المؤسسة على توحيد الله، وكان رسول الله هو مجدد هذه الحضارة ومتممها، وهو الذي أفاض عليها الخلود وأرسى قواعدها.

ثم تكلم الشيخ عن خصائص هذه الحضارة، وأنها لا تعرف الوثنية والشرك. ولا تسمح به في لون من الألوان: ﴿واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام...﴾، وهي لا تعرف التهالك على الشهوات، والتكالب على حطام الدنيا، والتقاتل على المناصب: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾.

وهي حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان، والتمييز بين الألوان والأوطان. فالناس كلهم من آدم، وآدم من تراب، وليس منا من دعا إلى عصبية: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم...﴾ .

إنها حضارة تعرف في دائرة العقيدة بالتوحيد، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها، وفي دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله والحياء والتواضع وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة. وفي ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية، والخدمة على الاستخدام، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية، وفي العالم بآثارها الزاهية وخيراتها الباقية. وأن القرآن دعا إلى اتباع الأنبياء، وإلى توقيرهم وطاعتهم طاعة ملؤها الحب. ثم ضرب الكاتب أمثلة عديدة من حب أصحاب النبي للنبي ﷺ.

ثم أشار إلى ضعف عاطفة الحب في العالم الإسلامي ونتائجها عليه من ضعف وتكاسل... هذه العاطفة التي لا زالت مصدر قوة، ومرد عجائب ومعجزات في التاريخ.

وختم محاضرته بوضع العالم العربي والإسلامي اليوم وسببه؛ وأن هذين العالمين كبر عليهما اتباع الرسول، وثقل عليهما إيثار ما أمر به، على ما تأمر به نفوس القادة، واستنكافاً عن الانتساب إليه والافتخار به والظهور بمظهر دينه أمام الأمم والحكومات. وآمن أكثر أقطارنا بالقومية والوطنية والفلسفات الحديثة...

وإلى الآن لم يقضيا وطراً ولم يهزما عدواً. والعالم العربي الموزع على نفسه لم يستطع أن يحل مشكلة فلسطين في هذه المدة الطويلة، ولم يحتل مكانه اللائق في زعامة العالم الإسلامي أو قيادة العالم الإنساني. وصدق أمير المؤمنين عمر: "إنكم كنتم أذل الناس، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله...".

المحاضرة الرابعة: بين الإرادة الإلهية والأسباب المادية:

وتحت هذا العنوان الرئيسي جعل الشيخ عنواناً فرعياً هو: تفاوت ما بين الأنبياء وخصومهم في الأسباب المادية: وفيه قال: إن القارئ للقرآن -وهو الكتاب الوحيد الذي حفظ تاريخ الأنبياء وحوادث حياتهم وأخبار دعوتهم- يلاحظ باستمرار ووضوح أن الأنبياء بعثوا دائماً في بيئة خانقة مظلمة، معارضة لدعوتهم ثائرة عليهم، وكانت الأسباب المادية في كفة أعدائهم، ويبدو لقارئ القرآن أن هذا التفاوت شيء مقصود، وهو مطرد مستمر، وليس من المصادفات، وقدرة الله لا تعرف المصادفات، ليفهم الخلق أن النصر ليس بحاجة إلى الأسباب. وهذا النمط من القصص دعوة إلى التوكل على الله ونصره.

لقد كانت هذه سنة الله مع جميع أنبيائه، ويضرب الشيخ أمثلة من نوح: ﴿أني مغلوب...﴾ وشعيب: ﴿ولولا رهطك لرجمناك...﴾، وفرعون: ﴿أليس لي ملك مصر...﴾.

أما قصة إبراهيم المعادة المكررة في القرآن فهي أعظم تحد لتأثير الأسباب، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها، وكأنه في كل خطوة من خطوات رحلته الإيمانية كان موكلاً بالسخرية منها، ويسجل انتصاراً للإيمان على الشك والروح على المادة.

وقد كان العالم في عصر إبراهيم خاضعاً للأسباب خضوعاً شديداً، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً، حتى أصبح هذا الاعتماد وثنية جديدة.

ثم ذكر الشيخ قصة حرقه في النار وإنجاء الله له. وبينما الناس يرتادون الأماكن المخصبة أسكن إبراهيم ابنه وزوجه بواد غير ذي زرع ففاض الرزق فيه، وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدياً للمادة المسرفة وعبادة الأسباب، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة، وأن إرادته فوق كل شيء، وهكذا كانت سنة الله معه، يخضع له الأسباب، ويخلق له ما تحار فيه الألباب.

وتلي قصة إبراهيم في تحديها الصارخ للعقل المادي المتعلق بالأسباب، قصة موسى. فهو يولد وحياته تحد للأسباب ومنطق الأشياء، ويتربى في قصر فرعون وفي مهاجره يجد الأنيس والزوج والكنف، وفي عودته ذهب يطلب النار فرجع بنور أضاء للناس.

ويدخل على فرعون في أبهته وسلطانه، وملئه وأعوانه، وهو المطلوب بالأمس، ورغم حبسة لسانه، فإنه يقهر فرعون بدعوته وإيمانه. ويستعين فرعون بالسحرة فإذا السحرة خاشعون مؤمنون. ويؤمر بالخروج ببني إسرائيل فيفلق الله له البحر.

وكذا قصة يوسف. وذكر شيئاً من أحداثها... ثم وازن وماثل بين قصة يوسف والنبي محمد ﷺ . وعدد عدة نقاط من المشابهة، الحسد ونية القتل والحبس... الخ.

ثم قال في ختام المقارنة: وهكذا نزلت هذه السورة في جو مكة الثقيل المظلم ليبشر رسول الله بمستقبله العظيم المشرق، فكان قصة يوسف قصته.

أقول: ولعل أول من التفت إلى وجه المقارنة بين القصتين المرحوم الشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي في سفره النفيس: مؤتمر تفسير سورة يوسف، ولا أدري إن كان الشيخ الندوي اطلع عليه، ولا أظنه إلاّ كذلك، لكنه لم يشر إليه، وهو لم ينقل عنه على كل حال... فالفكرة مشاع... والخواطر فيها ملتقية، والملحظ قريب.

يقول الشيخ: ولم تكن هذه القصص تسلية وتقوية لقلب الرسول فحسب بل كانت مصدر القوة والأمل المشرق للدعاة والعاملين على نهج النبوة.

وليعلم الدعاة أن هذه السنة لا تتخلف، وأن الدعوة على منهاج الأنبياء والإيمان والعمل الصالح والصبر والطاعة شجرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها وأن الفرد الضعيف مع هذه الصفات قوي، وأن العدد القليل مع هذه الأخلاق كثير: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله...﴾. فإما الإيمان بدعوة الأنبياء وإما الهلاك والدمار.

وأن سيرة الأنبياء التي حكاها الله في كتابه في إجمال تارة وتفصيل تارة، يجمع بينها نقطة لا تختلف وهي انتصار دعوتهم على جميع المعارضات وفوزهم على أعدائهم.

فلا قيمة للمصالح الفردية والقومية. ولا لحب العلو والكبرياء، ولا الزعامات التي لا تبني خيراً...

إن التفكير السائد الخاطئ مع الأسف اليوم في أنحاء العالم الإسلامي، والمنطق الذي خضعت له الجماهير هو أن الميزان الفاصل هو القوة المادية مع أي عقيدة ومنهج للحياة، وأصبح من عقيدة العاملين حتى الدعاة أن المادة قبل كل شيء. وهذا المبدأ هو الذي تنقضه سيرة الأنبياء.

ثم أعاد التذكير بأن العالم الإسلامي سيطرت عليه العقلية المادية، وأننا آمنا بسيادة الغرب وقيادته، وأن الوضع القائم لا يقبل التحول، وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب بل نردد المثل: "إذا قيل لك إن التتر انهزموا فلا تصدق"، استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا، وسهمنا من المخترعات الحربية والطاقات الذرية، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم، وآمنا بأننا لم نخلق إلاّ للخضوع،

والعيش على هامش الحياة عيالاً على الغرب، مرتبطين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين[1].

وأن الذي قصه علينا القرآن من سيرة الأنبياء يبين لنا بوضوح أن سر انتصارهم والسلاح الذي واجهوا به أعداءهم هو الإيمان والدعوة إلى الله. ولا مستقبل للأمة الإسلامية إلاّ في طريق الأنبياء. وهذه رسالة هذه القصص الحكيمة. فلا أمل للأمم الضعيفة إلاّ في هذا المنهج، ولا مستقبل للأمم التي تؤمن بالمبادئ إلاّ في هذا الطريق.

المحاضرة الخامسة: عظمة البعثة المحمدية:

قلت إننا لا نعد الكلام في سيرة النبي من القصص، ولكني أوجز ما قال الشيخ من باب تتميم الفائدة: يقول الشيخ: إن نكبة العصر الجاهلي فقدان العلم الصحيح، وفقدان الجماعة التي تنتصر للحق، وفقدان الإرادة الخيرة القوية. فكانت الحاجة ماسة لطلوع شمس جديدة. وكانت النبوة هي وحدها القادرة على أن تغير هذا الوضع.

ثم يشير الشيخ إلى ما أسماه: تعاون الفلسفة والوثنية على إضعاف الإيمان وإضلال الإنسان. وأنه لا يغير الوضع الجاهلي إلاّ الإيمان النبوي.

كان الفساد أعظم من أن يتداركه أفراد مصلحون موزعون، لقد اتسع الخرق على الراقع، وطمّ الوادي على القرى، إنما كان ذلك عمل أمة تبعث وتكافح وتتحدى الباطل، وتجتث الشر، ومن هنا فإن مولد النبي ﷺ لم يكن مولد نبي فحسب أو مولد أمة فحسب، أو مولد عصر، إنما كان مولد عالم جديد.

ثم عاد الشيخ إلى تصوير العصر الجاهلي. ليعقب على ذلك بقوله: لقد غيرت البعثة المحمدية هذا الوضع وقلبته رأساً على عقب، فكثر العبّاد والعلماء الربانيون. والحكام العادلون، والملوك الزاهدون، والأبطال المجاهدون، لا يحصيهم كثرة من أحصى رمال عالج وحصى البطحاء، يباهي الله بهم الملائكة ويقف أمامهم التاريخ خاشعاً... فالأمة المحمدية معجزة الرسول. ونقل عن ابن تيمية عبارة بهذا المعنى.

المحاضرة السادسة: مأثرة النبوة المحمدية:

---

١ - هذا الكلام مأخوذ كما في الهامش من كتاب الندوي: ثورة في التفكير.

يقول الندوي في هذا المبحث: إن مصير العالم لم يزل ولا يزال مربوطاً بناصية الإنسان وفيه سر سعادته وشقائه.

وإذا خير هذا العالم بين الإنسان من غير شيء وبين كل شيء من غير الإنسان واستعمل عقله وما وهبه الله من الرشد، لكانت خيرته الإنسان.

ليس شقاء العالم في فقد الآلات، وإنما في سوء استعمالها، وإن سبب كل نكبة هو ضلال الإنسان، والآلات في يده تتمثل أمره وتنفذ إرادته.

إن هذا الكون مليء بالجمال ولكنه إذا قيس بأسرار الفطرة وكنوزها وسعة القلب وسمو الفكر، كان هذا الكون أمامه قطرة من بحر.

إن العالم لا يستطيع أن يقوم عقيدة الإنسان التي لا تعرف الشك. والحب الذي لا يعرف المادة.

إن الإنسان إذا أرسل النفس على سجيتها، ضاق هذا العالم وانضوى حتى أصبح قفصاً صغيراً. إن وجود هذا الإنسان مفتاح كل سعادة وخير، وحل كل مشكل، وإن تقويمه موضوع كل نبوة. وإن وجود هؤلاء الأفراد بهذه الكثرة في صورة لم يسمع بمثلها التاريخ، وتعاونهم على مبدأ واحد وهدف واحد مأثرة النبوة المحمدية ومعجزتها الكبرى. وقد بلغ النبي بهذا العمل إلى مستوى لم يبلغ عمل نبي إليه، بدأ من مستوى تنتهي هنالك الحيوانية، وتبتدئ منه الإنسانية، وبلغ به إلى مستوى هو منتهى الإنسانية، ولا منزلة فوقه إلاّ النبوة... إن كل فرد من هؤلاء معجزة مستقلة وآية من آيات النبوة...

إن شاعراً لم يتخيل أوصافاً أجمل وسيرة أعطر وجمالاً أكمل مما وجد في هؤلاء...

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامي... ولم يكن المجتمع إلاّ صورة مكبرة لأخلاق الأفراد... إن هذا الفرد نجح في كل اختبار ومحنة تظهر مواطن الضعف، وتبرز كوامن النفس، وبرز فيها كالإبريز الخالص. وكان من أدق المواقف موقف الأمير والحاكم الذي ليس مسؤولاً أمام أحد... وذكر عدة صور من الصديق والفاروق وعلي...

وبالجملة، يقول الشيخ، فقد كان هذا الجيل أفضل الأجيال البشرية، وكما وصفهم ابن مسعود: "كانوا أبر الناس قلوباً، وأعمقهم علماً، وأقلهم تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه وإعزاز دينه".

ثم انتقل من سير الصحابة إلى الأثر الممتد للرسالة المحمدية، وعرض نموذج صلاح الدين، ونقل عن ابن شداد في كتابه النوادر السلطانية، ثم عن مؤرخ إنجليزي في كتاب له عن صلاح الدين قال فيه: "إذا لم يتيسر للعالم أن يعرف شيئا عن صلاح الدين غير ذلك الكرم والسماحة التي عامل بها أهل القدس المسيحيين، كان ذلك كافياً...".

ومن تاريخ الهند الإسلامي ينقل صفحة مشرقة مشرفة عن السلطان مظفر الحليم ملك كجرات (ت ٩٣٢هـ). وفي نهاية المحاضرة عرض نماذج صفّها كعقد اللؤلؤ إذ قال: وكم لهذه المدرسة المباركة من أبناء كرام. في بلاد العرب والعجم، وكم لهؤلاء الأبناء من مآثر وبطولات في كل ناحية، وقد تجلى تأثير تربيتها وفضل مؤسسها في: فتوة طارق، وشهامة محمد بن القاسم، وهمة موسى بن نصير، وذكاء أبي حنيفة والشافعي، وصلابة مالك وأحمد، وكرم نور الدين، وعزم صلاح الدين، وعبقرية الغزالي، وروحانية الجيلاني، وتأثير ابن الجوزي، وطموح محمد الفاتح، ومغامرات الغزنوي، ورقة عاطفة نظام الدين الدهلوي، وسماحة فيروز شاه، وتبحر ابن تيمية، وحسن إدارة شير شاه، وقوة إرادة اورنك زيب...الخ.

وما تزال هذه المدرسة تنجب أفذاذاً في التاريخ وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وتغيث الإنسانية بقادة مخلصين وعلماء ربانيين، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ولسان الغيب يهتف: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾.

المحاضرة السابعة: محمد رسول الله آخر الرسل وخاتم النبيين:

وقد استغرقت هذه المحاضرة بقسميها أكثر من ثلث الكتاب، وقرابة التسعين صفحة من ص١٧٣-ص٢٦١، ومما جاء فيها: تمت إرادة الله العليم الحكيم في البلوغ بهذا الدين الذي سماه الإسلام إلى حيث أراد سبحانه بحكمته وإرادته واقتضته حاجة البشرية، فبلغ الرسول هذا الدين، وربى أمة تقلدت مهام النبوة من غير نبوة... وقد وصف هذا النبي بصفات تشير إلى خلود رسالته، وكونه القدوة الصالحة والأسوة الحسنة في كل عصر ولذلك حفظت آثاره، وتجلت العناية الإلهية بكل وضوح في الحديث والسيرة... وذكر الشيخ بعض الكتب التي اهتمت بذلك... هذا الحديث الشريف الذي هو سجل وقائع يومي كان يرينا كيف كان الرسول يعيش، ومن هنا ألف العلماء ما يمكن أن يكون دستور المسلم أخذاً من كتب الحديث. وذكر منها زاد المعاد لابن القيم. وقارن بين أمة نبينا وأمة

المسيح التي لا تعرف عنه إلاّ نتفاً. ثم إن كثيراً من السور كالأحزاب والحجرات والتحريم... الخ وصفت النبي وحياته...

وقد وصفت رسالة النبي بالكمال مما يشير إلى ختم النبوة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم...﴾.

وشهد القرآن بأن هذا الدين سيظهر على الدين كله. ثم أشار الندوي إلى عموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب. وأن الرسالات القديمة لم تكن يوماً عامة للخلق. بل وردت نصوص تمنع من ذلك. ثم نقل عن المهتدية مريم جميلة (مارجريت ماركس يهودية سابقة) في كتابها: "الإسلام إزاء أهل الكتاب ماضياً وحاضراً" قولها: إن اليهود لا يرحبون بالدخول في ديانتهم ولا أعرف إلاّ مثالين في تاريخهم الطويل حين دخل غير اليهود في اليهودية في عدد كبير في اليمن في زمن سبق البعثة المحمدية ببضعة قرون. ومرة ثانية لما اعتنق عدد من غير اليهود الديانة اليهودية في مملكة خزار التتارية الأصل التي عاشت مدة قصيرة في روسيا" أ.هـ.

وكذلك دعوة المسيح كانت لبني إسرائيل. أما البرهمية فأمرها أدهى وأمر، فهم يعتبرون غير البراهمة أنجاساً مناكيد تساوي بينهم وبين الكلاب، وأرجعنا الشيخ الندوي إلى كتابه: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

فالدين الإسلامي ثروة مشتركة لجميع الأمم والشعوب، لا يتميز فيها شعب ولا نسل. وأما الشريعة فجاءت سمحة سهلة توافق الفطرة المستقيمة.

أما الصحف السابقة فلا زالت عرضة للتحريف والتبديل. وثبت ذلك تاريخاً. وذكر ما حصل لليهود عبر تاريخهم. ونقل عن الموسوعة اليهودية قولها: إنه ما زال الربيون يعنون بتناقضات صحف التوراة ويصلحونها بلباقتهم. بل إن سبينوزا يقول: إن الكتب (الأسفار) الخمسة (التي يقول اليهود إنها من تأليف موسى) إنما هي من تأليف عزرا وأن آخر ما وصل إليه البحث العلمي أنها ترجع إلى ثمانية وعشرين مصدراً.

أما الأناجيل فأمرها أغرب. يقول المهتدي "دينيه": الذي لا شك فيه أن الإنجيل ضاع. وجعلوا مكانه تأليفات أربع مشكوكاً في صحتها ونسبتها.

ثم يتعرض لصحف الهند (براهمانا) والفرس المجوس (أوستا) ويقول إنها لا تدعي أنها من الله.

ويعود إلى القرآن الذي قضى الله ببقائه ونقائه، وسخر لهذا الغرض النفوس البشرية، والدواعي الطبيعية، والأسباب الخارجية، والحوادث الكونية...

وأشار إلى جمع الصحابة المصحف وحفظهم له. وقد اتفقت كلمة المستشرقين والمحققين أن القرآن منزل من الله. ثم نقل عن مجموعة من الباحثين الغربيين ومنهم المتحامل كلهم يقول هذا القول. ومنهم (موير) في كتابه حياة محمد، و((وهيري **wherry**) في تفسيره للقرآن، و((بول **poole**)... الخ.

إذاً فلم تعد حاجة إلى نبوة جديدة تزيل الالتباس. والقرآن لم يتحدث عن نبي جديد مع أنه تحدث عن علامات القيامة. بل إن كثيراً من الأحاديث قطعت بختم النبوة، وذكر الندوي مجموعة منها في البخاري: "وأنا خاتم النبيين..."، "لا نبي بعدي...".

وأجمعت الصحابة والأمة على انقطاع النبوة بعد محمد، وأصبحت هذه جزءاً من عقائد المسلمين. وانقطاع النبوة تكريم للإنسانية.

وهذا هو القسم الثاني من هذه المحاضرة: محمد رسول الله آخر الرسل وخاتم النبيين. يشير في هذا القسم إلى أن كثيراً من الأمم كان هلاكها بكفرها بالأنبياء.

وفي انقطاع النبوة توفير للجهود البشرية والطاقات الإنسانية عن أن تمتحن وتستنفد بعد كل فترة زمنية، في التصديق والتكذيب، والإيمان والكفر، وذلك شيء طبيعي إذا استمرت سلسلة النبوة.

ثم أشار إلى كثرة المتنبئين في العهد القديم. وقد جاء في متّى: "إن كثيراً سيأتون باسمي قائلين: أنا هو المسيح...".

ونقل نقولاً عديدة عن كتّاب تشير إلى هذه الظاهرة، ومن ذلك الكثير: إن العارفين الروحانيين (غنوسطيين **Gnostics**) كان لهم أنبياء يختصون بهم. واتخذت الكنيسة موقف الدفاع ضد هذا السيل الجارف من النبوءات... "إن ختم النبوة نتيجة حتمية لوضع الدين الكامل. وقد دلت دراسة الكون وتتبع سنن الله في هذا العالم، وفي ماضي الأمم وحاضرها، أن كل شيء عند الله بمقدار، ولو لم يكن دليل نقلي على ختم النبوة بمحمد لعرفنا بحكم العقل أن النبوة الجديدة التي يمتحن بها البشر بعد النبوة المحمدية إرهاق للبشرية، فيما لا لزوم له...

إن هذا الدين بحيويته وقوة توليده، وإنتاجه للعارفين وأصحاب اليقين والمجددين تكمن فيه قوة حافزة عجيبة على الثورة على كل ما يخالف هذا الدين، ويعرض الإنسانية للهلاك.

إن هذا الكتاب يفرض على المسلمين أن يكونوا شهداء لله، قوامين بالقسط، يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم.

وتاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام متصل، فلم تظهر فترة في التاريخ ليس فيها مصلح. لقد بقيت عقيدة ختم النبوة تحرس هذا الدين من غائلة المبتدعين، وفتنة المتنبين. وبعثت هذه العقيدة في الإنسان الثقة ببلوغه سن الرشد، وكان ذلك حافزاً للإنسان على التقدم.

يقول إقبال في كتابه تجديد الفكر الديني في الإسلام: "إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إنهاء النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق، لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه.

وإن الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو... إن مناشدة القرآن للعقل، وإصراره على النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية، كل ذلك صور مختلفة لفكرة إنهاء النبوة".

ثم كلمنا الندوي عما أسماه: فتنة المتنبين الكبرى، وذكر المرزا غلام القادياني وخليفته المرزا بشير الدين محمود الذي يقول: لقد اعتقدوا أن كنوز الله نفدت، وأنا أعتقد أنه سيكون ألف نبي بعد محمد.

ثم كلمنا عما أسماه: فتنة المكالمات والمخاطبات الإلهية ورؤية الباري في الدنيا. كما ادعى محمد يوسف الحسيني (ت ٩١٠هـ) الذي قال: من لم ير الله بالعين أو القلب في اليقظة أو المنام فليس بمؤمن.

إن البلبلة الفكرية والاضطراب العظيم الذي تحدثه هذه النبوءات الكثيرة المزعومة وما يؤول ذلك إلى تفريق بين المسلمين، وتمزيق الأمة، يبعث في قلب كل مسلم قلقاً...

والحاصل أن عقيدة انتهاء سلسلة النبوات بعد محمد ﷺ من أجلّ مواهب الله ونعمه على هذه الأمة، ورحمة بالإنسانية، وتوفير لجهودها، وجامعة لشمل الأمة حافظة لوحدها. حافزة على الإصلاح والتجديد والجهاد في سبيل الله...

لذلك كان ألدّ أعداء الإسلام وأدهاهم وأمكرهم وأضر على الإسلام والمسلمين وأنفع لأعداء الإسلام والكائدين له من ادعى نبوة جديدة وتولى كبرها.

وختم الشيخ العلامة الندوي كتابه بآيتين من سورة الأنعام: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثلما أنزل الله...﴾ الأنعام: ٩٣-٩٤.

الكتاب التاسع والثلاثون

القصص القرآني

تأليف: السيد محمد باقر الحكيم

ط١، لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

القصص القرآني / محمد باقر الحكيم:

من الملاحظات على الكتاب أن العبارة كانت تخون الكاتب في أحيان عديدة، فتنبو عن اللائق أو الأحسن، وقد يقع في خطأ تعبيري أو نحوي لا أدري مصدره أمن عدم تمكن من اللغة، وهذا مستبعد، أم أن الكتاب محاضرات كان ينقلها التلاميذ فيقعون هم في الأخطاء. وقد نبهت إلى العديد من الملاحظات، وهذه واحدة: "باعتبارهم أنبياء أولو العزم". ص٦٨.

ومن عباراته الدورانية المحتوية على أغلاط تعبيرية قوله ص٨٤: "هذا المقطع من القصة جاء ليوضح أن موقف اليهود من الدعوة بطلبهم المزيد من الآيات والبينات ليس نابعاً من الشك بالرسالة (في الرسالة بالطبع)، وإنما هو موقف شكلي ذرائعي يستبطن الجحود والطغيان...". ونقول: أليس الجحود والطغيان يتضمن الشك، فلماذا ينفيه؟

ومن الأغلاط النحوية الواضحة نصب خبر إن، وعلى سبيل المثال ص١٦٥: "بأن هؤلاء مؤمنين".

يقع الكتاب في ستين وثلاثمئة صفحة. وقد جعله الكاتب في قسمين: الأول ثلاثة فصول هي: خصائص القصص القرآني، وأغراض القصة في القرآن، وظواهر عامة في القصة القرآنية. والقسم الثاني في أربعة فصول وجعل القسم كله تحت عنوان: أنبياء أولي العزم الأربعة (هكذا).

الفصل الأول: قصة نوح. الثاني: قصة إبراهيم. الثالث: قصة موسى. الرابع: قصة عيسى. وللكتاب مقدمتان: أولاهما صفحتان، والتوقيع عليها: المركز العالمي للعلوم الإسلامية. وبينت المقدمة أهمية التعليم ومهمة هذا المركز "الذي يتولى إعداد المئات من الطلاب الذين جاءوا من مختلف بقاع العالم بغية التعلم والتبليغ". ثم قالت المقدمة معرفة بالكتاب: "وهذه واحدة من الدراسات التي زاولت التفسير الموضوعي لقصص القرآن الكريم، ودراستنا المتميزة هذه لباقر الحكيم تشكل خطوة في هذا المضمار".

وفي مقدمة باقر الحكيم قال: موضوع القصة في القرآن من أهم الموضوعات القرآنية التي تحتاج إلى اهتمام خاص وعناية متميزة، لأن القصة ثلث القرآن. وتتناول الأهداف التفصيلية التي استهدفها القرآن. ثم قال إنه درس هذه المادة ضمن مقررات أصول الدين في النجف في العراق، ثم جامعة الإمام الصادق في إيران. ثم عرف بفصول الكتاب وما تضمنه. ثم ذكر أنه أضاف قصص أولي العزم التي هي أهم القصص في القرآن، وأن معرفتها تؤهل الطالب لمعرفة بقية القصص.

ثم سجل عدة ملاحظات حول البحث:

١- أنه اعتمد أربعة مصادر: البحار للشيخ المجلسي، والميزان للطباطبائي، وابن كثير، والنجار. وبرر ذلك بان الأول عن أهل البيت، والثاني (وهو شيعي) قال عنه إنه يمثل آخر مدرسة في تفسير القرآن بالقرآن، والثالث يمثل مدرسة التفسير بالمأثور عند جمهور المسلمين، والرابع يمثل مدرسة الرأي، وتقريب الحوادث القرآنية من الحوادث التجريبية. وذكر أنه كان يستفيد كذلك من مجمع البيان للطبرسي والمنار لرشيد رضا.

٢- عبر في هذه النقطة بلغة غير واضحة فيما أرى إذ قال: حاولت الالتزام بمنهج فرز المدلولات القرآنية في القصة عن المدلولات الأخرى المستفادة من النصوص الدينية كالتوراة والإنجيل. والروايات الواردة عن النبي وأهل بيته. فماذا تفهم من هذا القول؟ هل تفهم منه أنه أخذ بما في التوراة أم لم يأخذ؟ هذا الذي قلت عنه لغة غير واضحة أو غير حاسمة، والذي ألمحه أنه أخذ، والواقع سيشهد.

٣- أحاديث الصحابة لا تقاس بأحاديث النبي وأهل بيته. وواضح أن هذه النقطة من مصطلحات القوم الخاصة. ثم قال: إن القرائن تشهد أن الصحابة أخذوا عن أهل الكتاب، فلا تثبت الحجية لما يذكرونه.

وأقول: إن الصحابة لم يأخذوا، وإنما من بعدهم، ولعل بعض الروايات نسبت زوراً إليهم.

الفصل الأول: خصائص القصص القرآني:

ويقع هذا الفصل في تسع صفحات. وفيه قال: يمتاز القصص القرآني عن بقية القصص (في قضية) الهدف والغرض الذي جاء من أجله القصص في القرآن. وقد أعاد (دون أن يشير) ما قال صاحب التصوير: القرآن لم يتناول القصة على أنها عمل فني مستقل في موضوعه وطريقة التعبير فيها، كما أنه لم يأت بها من أجل أخبار الماضين، أو من أجل التسلية والمتعة، وإنما هو من جملة أساليب القرآن لتحقيق أغراضه الدينية. والتي لخصها بالأمور التالية: (وواضح أن الشيخ يخلط في الحروف، فقال أعلاه: "يمتاز في"، وقال هنا "لخصناها بـ").

١- إيجاد التغيير الاجتماعي.

٢- بيان المنهج الصحيح للحياة.

٣- خلق القاعدة الثورية القادرة على تحمل المسؤولية.

ولقد كان لهذا الهدف آثار ونتائج متعددة انسحبت على أساليب ومناهج القرآن، يمكن أن نلاحظها في الظواهر القرآنية التالية:

١- طريقة نزول الوحي التدريجي.

٢- ربط نزول القرآن بالأحداث والوقائع (أسباب الترول).

٣- طريقة عرض الأفكار والمفاهيم المختلفة (!).

٤- أسلوب القرآن في المزج بين الموضوعات المختلفة في مقطع واحد.

٥- اختلاف أسلوب القرآن بين تفصيل وإيجاز.

٦- الاختلاف في الأسلوب والمضمون بين القرآن المكي والمدني (!).

وذكر أموراً أخرى: كترول القرآن بالعربية وظاهرة الناسخ والمنسوخ... الخ.

ثم خلص إلى الخصائص الأساسية للقصة في القرآن، وأغلبها أو جلها أو كلها من الموجود في التصوير ولو باختلاف يسير:

١- الواقعية: القرآن يريد من القصة إعادة قراءة التاريخ، والقرآن يحاول أن يعالج من خلال القصة الواقع الذي يعيشه المسلمون. ثم نقل من أقوال أئمة أهل البيت: "القرآن يجري مجرى الشمس والقمر". وهو قول عجيب (!).

٢- الصدق: وذلك في مقابل الأكاذيب التي اقترنت بقصص الأنبياء في كتب العهدين السابقين. ثم نقل عن الطباطبائي ما يؤيد هذا.

٣- التربية على الأخلاق الإنسانية العالية. (وقد سماها صاحب التصوير خاصية النظافة...).

٤- الحكمة، وكشف الحقائق الكونية، والسنن التاريخية، والقوانين التي تؤثر في مسيرة الإنسان، وعلاقاته الاجتماعية.

الفصل الثاني: أغراض القصة في القرآن:

ويقع هذا الفصل في ثلاث وعشرين صفحة، من ص٣٣-ص٥٦، وجله من التصوير. قال في فاتحته: لقد جاءت القصة في القرآن لتساهم في عملية التغيير الإنساني فما هي الأغراض الرسالية التي استهدفتها القصة القرآنية؟

ثم أعاد أن أغراض القصص هي ذات الأغراض التي جاء من أجلها القرآن. وهذه كثيرة، لذا فإنه سيركز على الأغراض المهمة، ويقسمها إلى أقسام ثلاثة:

الأول: الأغراض الرسالية:

أ- إثبات الوحي والرسالة، وأنها وحي من الله، وليست من عند النبي. وذلك من خلال أخبار الأمم السالفة بالدقة والتفصيل. وذكر آيات سورة يوسف والقصص في هذا الأمر، وما في آل عمران و ص وهود، ونكتفي بهذه: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك...﴾ هود: ٤٩

ب- وحدة الدين والعقيدة لجميع الأنبياء. واستشهد بآيات، ومنها: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت...﴾ النحل: ٣٦. وهذا الغرض يهدف فيما يهدف إلى:

١- إبراز الصلة بين الإسلام وسائر الأديان الإلهية...

٢- إظهار أن الدعوة الإسلامية ليست بدعاً في تاريخ الرسالات.

واستشهد بآيات سورة الأنبياء ٤٨-٥٣؛ ٧٠-٩٢. وآيات سورة الأعراف في قصص الأنبياء.

جـ- بيان أن وسائل الأنبياء وأساليبهم في الدعوة واحدة، وطريقة مواجهة قومهم لهم واحدة: ﴿وما يأتيهم من نبي إلاّ كانوا به يستهزئون...﴾ الزخرف: ٧

ثم استشهد بآيات سورة هود: ٢٥-٥٥ مكررة فيها طريقة الدعوة كما قال.

د- تصديق التبشير والتحذير، وهو بالنص من "التصوير"، ولكن الحكيم لا يذكر ولا يشير. والشواهد هي عينها التي في التصوير من سورة الحجر.

هـ- بيان نعمة الله على أنبيائه. وهذه كذلك.

و- بيان غواية الشيطان للإنسان، وعداوته الأبدية له. وهي عينها في كتاب التصوير الفني بالنص والحذافير.

ز- بيان الأهداف من إرسال الرسل، وأن ذلك لإرشاد الناس وإبلاغ رسالات الله، وهداية الخلق وتزكيتهم. واستشهد بآيات ومنها: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل...﴾ النساء: ١٦٥.

الثاني: الأغراض التربوية:

أ- تربية الإنسان على الإيمان بالغيب.

ب- تربية الإنسان على الإيمان بالقدرة الإلهية المطلقة.

جـ- تربية الإنسان على الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة.

د- التربية على الاستسلام للمشيئة الالهية.

الثالث: الأغراض الاجتماعية والتاريخية:

أي بيان السنن التاريخية في حركة الإنسان والمجتمع. وأشار إلى بعض هذه السنن:

أ- ارتباط تغيير الأوضاع الاجتماعية بتغيير المحتوى النفسي لهم. وذكر آية الرعد والأنفال والروم: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس...﴾ .

ب- سُنَة انتصار الحق على الباطل. ونلاحظ من قصص الأنبياء أن نهاية المعركة بينهم وبين أقوامهم تكون لصالحهم. واستشهد بآية هود: ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك...﴾ . وآيات العنكبوت ما بين الآيات ١٤-٤٠.

جـ- سُنَة الابتلاء. وهي سُنَة عامة وشاملة. والامتحان له أهدافه:

- التمحيص والتمييز. (آيات آل عمران).
- الكمال والتربية.
- العقوبة والتذكير. (المؤمنون: ٢٣-٣٠).

د- سُنَة أن النصر الالهي لا يتحقق إلاَّ بعد التعرض للبأساء والصبر على البلاء. واستشهد بآيات: البقرة: ٢١٤، يوسف: ١١٠.

الفصل الثالث: ظواهر عامة في القصة القرآنية:

ويقع في سبْع عشرة صفحة. وتكلم عن ظاهرة التكرار، وذكر العلة غير المقنعة من وجهة نظري في تفسير أو تبرير التكرير، إذ نقل عن الطوسي: "أن رسول الله ﷺ كان يبعث إلى القبائل المختلفة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء متكررة لوقعت قصة موسى لقوم وعيسى لقوم... الخ".

ثم قال الحكيم: فالشيخ الطوسي يفسر التكرار بعاملين: معالجة التفرق في القطع القرآنية (تعبيره)، ليكون تكرار القصة موجباً لوصولها إلى الجميع. والثاني: زيادة إفهام الحاضرين.

ثم قال ما كان حاك في صدري من مسألة أن عبارة الطوسي لا تعالج المسألة وأن كلام الطوسي طرح عند القدماء.

ثم ذكر رأيه هو في تفسير التكرار وأنه:

١- بسبب تعدد الغرض الديني.

٢- أن القرآن اتخذ من القصة أسلوباً لتأكيد بعض المفاهيم الإسلامية.

٣- أن التكرار يكون سبباً في فاعلية القصة كمنبه للأمة (عبارته كذلك). وذكر قصة موسى في العهدين المكي والمدني. وفيه لفتة طالما نبهت إليها وهي مهمة فيما أعتقد، وذلك أن قصة موسى في العهد المكي تركز على الصراع مع فرعون، وفي العهد المدني تلتفت إلى الإشكالات مع بني إسرائيل (بعبارتي).

٤- أن الدعوة مرت بمراحل متعددة في سيرها الطولي (عبارته).

٥- أن تكرار القصة لم يأت في القرآن بشكل يتطابق فيه نص القصة مع نص آخر، بل كان فيها شيء من الزيادة والنقيصة. (وهي عبارته وهي غير ملائمة).

ثم قال: وقد ذكر السيوطي في الإتقان أسباباً أخرى ينسبها إلى البدر بن جماعة في كتابه "المقتنص في فوائد التكرار في القصص".

ومن الظواهر التي تحدث عنها الحكيم سوى التكرار، ما سماه هو: اختصاص القصة بأنبياء الشرق الأوسط: أي المنطقة التي كان يتفاعل معها العرب الذين نزل فيهم القرآن. وقد تفسر هذه الظاهرة بأن النبوة هنا، وقال إن ذلك يدل عليه بحوث وآثار وكلام أهل البيت.

ثم قال: ولكن توجد شواهد في القرآن تنفي هذا التفسير، يقصد قوله تعالى: ﴿ولكل أمة رسول...﴾، ﴿بعثنا في كل أمة رسولاً...﴾، ﴿وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير...﴾.

ثم فسر بأن المقصود التأثير في الوسط الذي تواجد فيه النبي (بتعبيره). وفي الوقت نفسه يكون للقصة تأثير عام ضمن المفاهيم العامة والسنن التاريخية والعبر التي تستخلص منها.

وختم مبحثه هذا بقوله: إن الأنبياء مثل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى يمثلون الأصول العامة للنبوات، ولكن نجد أن القرآن تحدث عن أنبياء مثل صالح وشعيب وهود ويونس وإدريس وغيرهم ممن يمثلون نبوات ليست بهذا القدر من الأهمية (بعبارته وهي غير ملائمة بل غير موفقة).

وأما الظاهرة الثالثة فهي بعبارته: تأكيد قصة إبراهيم وموسى عليهما السلام: ويناقش لماذا أكدت (أو قل كررت وفصلت) قصتهم، فيقول: هل لأنهم أفضل؟ ثم يخلص إلى أسباب أخرى سوى التفضيل منها: أن لهؤلاء الأنبياء أقواماً. أما إبراهيم فيعتبر أباً لجميع الأنبياء. ولتأكيد ارتباط الإسلام به، ولإعطاء فكرة التوحيد التي رفضها العرب أصلاً. وربط البيت بإبراهيم وإبراهيم بالبيت،

وإعطاء الرسالة الإسلامية شيئاً من الاستقلال عن اليهودية والنصرانية (بعبارة الكتاب) وأمّا موسى عليه السلام ففسر (تأكيد) قصته بأمور ومنها: موقعه من الديانة اليهودية والشعب اليهودي بل ومن النصرانية. ومشابهة معاناته بمعاناة النبي ﷺ . ولأن العرب كانوا ينظرون إلى علماء اليهود، ولإعطاء فكرة أن الرسالات امتدادها واحد. وأمّا قصة عيسى، فحديث القرآن عنها: لإزالة ما علق في أذهان العرب من تصورات منحرفة عن الأنبياء.

ثم ختم الظواهر بما أسماه: أسلوب القرآن: وأنه جاء متميزاً عن الأسلوب المعروف للقصة في التراث الأدبي والإنساني. والحديث له جانبان كما قال: الجانب الفني لأسلوب القصة وقال: إن القصة القرآنية تشتمل على العناصر الأساسية في هذا العمل الأدبي الفني. وهذا حديث تناولته بعض الدراسات وذكر التصوير الفني.

ثم قال هو مفسراً هذه الظاهرة الأسلوبية: إن أسلوب القصة القرآنية جاء منسجماً مع الأسلوب العام للقرآن، ثم ذكر سمات أسلوبية منها:

١- مزج الموضوعات بعضها ببعض في مقطع واحد من أجل الخروج بصورة متكاملة لهذه المضامين مرة واحدة (بعبارته). وهي فيما أرى: نقل مع التغيير لعبارة التصوير.

٢- تكرار الموضوعات (التعليق السابق نفسه).

٣- اختلاف أسلوب القرآن تبعاً للمراحل.

٤- أسلوب القرآن تأثر بالهدف العام لنزول القرآن. وتعبير التصوير أعلى بكثير: "خضوع القصة للغرض الديني".

٥- القصة ترتبط بالسياق.

الفصل الرابع: قصة عيسى (عليه السلام) في القرآن:

(المراد موسى) وقد كرر عيسى ٤ مرات وهو غلط.

واستغرق أكثر من ثلاثين صفحة من ص٧٩-١١٤. في التمهيد لهذا الفصل قال: أمامنا عدد من المناهج يمكن دراسة القصة من خلالها من مثل: المنهج (التقليدي) الذي سار عليه المفسرون باستعراض آيات القصة في القرآن وتفسيرها، وذكر الحوادث المرتبطة بها مع بيان الآراء فيها.

والمنهج (التحليلي) للمواضع التي وردت فيها القصة من ناحية الهدف العام والخاص وأسباب التكرار والأسلوب.

والمنهج (النظري) الذي يحاول أن يستخلص النظرية العامة في القصة من خلال مفرداتها والجمع بينها في تصور نظري متكامل.

والمنهج (الاجتماعي) الذي يحاول من خلال دراسة القصة تصور الحركة التغييرية السياسية والاجتماعية التي يقوم بها.

والمنهج (التاريخي) الذي يحاول عرض الأحداث التي ذكرها القصة حسب تسلسلها الزمني وكوقائع تاريخية.

ثم قال: وسوف نحاول أن نطبق هذه المناهج ضمن نماذج مختارة وأنه في هذا الفصل الرابع سيتناول قصة موسى لأنها أكثر القصص وروداً وتفصيلاً في القرآن. وأنه سيأخذ في دراسة الأبعاد التالية:

١- التنبيه إلى أسرار تكرار القصة في ذلك الموضع.

٢- تغاير الأسلوب.

٣- العلاقة بالسياق.

٤- تحليل مضمون المقطع.

٥- التنبيه إلى الغرض الذي سيقت من أجله.

وأنه سيكتفي في هذه الدراسة بالإجمال. ثم بدأ بذكر الآيات التي ذكرت قصة موسى في سورة البقرة.

ثم سجل ملاحظات منها:

١- إن هذا المقطع استهل بـ "يا بني إسرائيل".

٢- إنه يتناول أحداثاً معينة أنعم الله بها على بني إسرائيل.

٣- ربط هذا الموقف بالمواقف السابقة، فبعد أن انتهى قال: "أفتطمعون" فالمقطع له غرض مزدوج: تذكير بني إسرائيل. وكشف الخصائص النفسية التي يتصف بها هذا الشعب للمسلمين. وهذا الغرض فرض أسلوباً معيناً.

الموضع الثاني: الآيات التي في سورة النساء. ثم سجل ملاحظاته:

١- أن المقطع جاء ضمن سياق عام لأعداء الأمة: المنافقين، اليهود، النصارى.

٢- يتناول المقطع أحداثاً ذات دلالة على نبوة موسى والمواثيق الغليظة المأخوذة على اليهود بصدد الامتثال والطاعة.

الموضع الثالث: آيات سورة المائدة: ﴿... يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة...﴾. وعلق فقال: يلاحظ أن هذا المقطع جاء في سياق دعوة عامة لأهل الكتاب إلى الإيمان بالرسول الجديد (قبل الآيات السابقة: ﴿قد جاءكم رسولنا يبين لكم...﴾). وثانياً: إن المقطع يكتفي بأن يذكر دعوة موسى لقومه إلى دخول الأرض المقدسة، لأن دخولها كان منتهى آمالهم. ولكنهم يأبون. فيكون مصيرهم التيه. ثم يستنتج الشيخ استنتاجاً أراه بعيداً إذ يقول: نستنتج أن القرآن يبدو وكأنه يريد أن يذكر أهل الكتاب ويفتح الطريق أمامهم ليحققوا أهدافهم الصحيحة من وراء الدين والشريعة باستجابتهم لموقف الإسلام. (والعبارة فوق أنها دورانية فهي فيما أرى وكما أسلفت غريبة وبعيدة).

الموضع الرابع: آيات الأعراف (١٠٣، ١٧١): وأول ملاحظات الكاتب أن القصة جاءت في عرض قصصي مشترك مع قصة نوح وهود ولوط وشعيب، تكاد تتحد فيه صيغة الدعوة والتكذيب والعقاب الذي ينزل بالمكذبين. والملاحظة الثانية أن هذا العرض القصصي يأتي في سياق بيان القرآن لحقيقة حشر المخلوقات. والثالثة: أن القصة تبدأ من حين بدء البعثة. والرابعة: تتناول القصة جوانب من المفاهيم الإسلامية والسنن التاريخية، كوراثة المتقين للأرض... ويستنتج أن القصة جاءت منسجمة مع السياق العام للعرض القصصي.

وهكذا يسير فيذكر الموضع الخامس وهو آيات يونس. ويعلق بنفس الطريقة.

والموضع السادس آيات سورة هود (٩٦-٩٩).

والموضع السابع آيات سورة إبراهيم (٥-٨).

والثامن آيات الإسراء (١٠١-١٠٤).

والتاسع آيات الكهف (٦٠-٦٦).

والعاشر: مريم (٥١-٥٣)، (٥٨-٥٩).

والحادي عشر: طه (٩٧-٩٩).

والثاني عشر: الشعراء.

والثالث عشر: النمل.

والرابع عشر: القصص.

والخامس عشر: غافر.

والسادس عشر: الزخرف.

والسابع عشر: الذاريات.

والثامن عشر: الصف.

والتاسع عشر: النازعات.

وهو لا يزيد على أن يذكر الآيات ويبين بتوفيق أحيانا أو ببعد أحيانا وجه الربط مع السياق القصصي أو العام للسورة. هذا منتهى ما صنع في هذه المواطن التسعة عشر.

الفصل الخامس: قصّة آدم عليه السلام:

من ص١١٧-١٥٢. فهو قرابة الخمس والثلاثين صفحة. يبتدئ الفصل بعنوان: استخلاف آدم (الإنسان):

ويذكر آيات سورة البقرة (٣٠-٣٩). وعلق عليها في سطور فقال: هذه الآيات العشر تتحدث عن قضية استخلاف الله لآدم على الأرض، وقضية الاستخلاف تشتمل على جانبين وفصلين: الأول منهما يتناول معنى الاستخلاف والعلة فيه. والفصل الثاني يتناول العملية التي تم بها إنجاز هذا الاستخلاف، وهذا الجانب تحدث عنه القرآن في مواضع متعددة لا بد من دراستها بشكل عام.

الحكمة في استخلاف آدم:

تحت هذا العنوان قال بطريقته في التعبير، وفيها قدر من التعويض والتدوير، قال: وما يعنينا من دراسته في هذا الفصل من هذا المقطع القرآني هو: الآيات الأربع الأولى، والبحث فيها، وما تضمنته من معلومات ومفاهيم له جانبان:

الجانب الأول: تحديد الموقف العام تجاه دراسة هذا المقطع للقرآن، وتصوير ما يعنيه القرآن الكريم منه.

الجانب الثاني: تحديد الموقف القرآني والإسلامي تجاه بعض المفاهيم التي جاءت في المقطع بالشكل الذي ينسجم مع المسلّمات القرآنية، والظهور اللفظي لهذا المقطع بالخصوص.

(ولست أدري ما المقصود من الظهور اللفظي. ولا ما الفرق بين تحديد الموقف العام، وتحدبد الموقف القرآني والإسلامي...).

على كل حال، فإن الكاتب الحكيم قال: وفيما يتعلق بالجانب الأول نجد الشيخ محمد عبده تبعاً لبعض الدارسين المتقدمين يذكر رأيين مختلفين بحسب الشكل (تعبيره) وإن كانا يتفقان في النهاية حسب ما يقول.

الرأي الأول: هو الذي سار عليه السلف واختاره محمد عبده نفسه أيضاً. حيث يقول: وأما ذلك الحوار فهو شأن من شؤون الله مع ملائكته...

والرأي الثاني: الذي سار عليه الخلف من المحققين وعلماء الإسلام الذين بذلوا جهدهم في دراسة القرآن والتعرف على مقاصده، حيث يرون أن هذه القصة بمواقفها المختلفة إنما جاءت على شكل التمثيل ومحاولة تقريب النشأة الآدمية وأن جميع المواقف والمفاهيم التي جاءت فيها يمكن تحديد المعاني والأهداف التي قصدت منها. وواضح موقف الكاتب من هذا القول من خلال وصف القائلين به بالعلماء والمحققين.

ثم قال بعبارة فيها فيما أرى إبهام وتعمية وتعويص، قال: "فالرأي الأول والثاني، وإن كانا يلتقيان في حقيقة تنزيه الله وعالم الغيب (!!) عن مشابهة المخلوقات المادية المحسوسة، في هذه المواقف المختلفة، وكادا يتفقان في الأهداف والغايات، ولكنهما مع ذلك يختلفان في إمكانية تحديد بعض المفاهيم التي وردت في المقطع.

ثم قال إن السلف انسجاماً مع موقفهم يقفون موقفاً سلبياً. وأما الخلف فقد حاولوا إيضاح بعض المفاهيم التي وردت ليتجلى بذلك معنى استخلاف الله لآدم. (ولا ادري أين يتناقض موقف السلف مع بيان الاستخلاف ومعانيه وحكمه ؟!)

ثم بين معنى الاستخلاف في اللغة، وأن الخليفة من خَلَف من كان قبله، وقام مقامه، ثم طرح احتمالات لماذا سمي آدم خليفة، فذكر منها أنه خلف مخلوقات أفسدوا، وهذه المخلوقات إما أن تكون ملائكة (وهو كما ترى أبعد من بعيد فلماذا يضعه احتمالاً؟!)، أو يكونوا الجن (والذي نراه لا هذا ولا هذا!). والاحتمال الثاني لان أبناءه يخلف بعضهم بعضاً. والاحتمال الثالث ووضع له أربعة احتمالات:

أ- يخلف الله في عمارة الأرض.

ب- يخلف الله في العلم بالأسماء كما ذهب الطباطبائي!.

جـ- يخلف الله في الحكم والفصل بين الخلائق.

د- يخلف الله في الأرض بما نفخ الله فيه من روحه.

وإني أرى الاحتمالات الأربعة الأخيرة لا تستحق الذكر.

ثم علق هو عليها فقال: ولعل المذهب الثالث (الذي استبعدناه قبل سطر) هو الصحيح. (ليس الأصح فقط وإنما الصحيح!)، ويرى المذهب باحتمالاته!

ثم عنون بسؤال: كيف عرف الملائكة أن الخليفة يُفسد؟ وأعتقد أن سؤاله مغلوط. فالذي يفسد ليس الخليفة، وإنما صنف من جنس هذا المخلوق للخلافة، ففي البشر أنبياء، وفي البشر أشقياء، فإذا تكلمنا عن المفسدين قصدنا الأشقياء، فكيف ينصرف الذهن إلى نسبة الفساد للخليفة؟!.

ثم ذكر أن سؤال الملائكة كان عن سبب انتقاء هذا الخليفة الذي يفسد (عجيب إصراره على هذا التعبير)، ثم وضع للإجابة أو نقل عدة آراء:

١- نقله عن الطوسي في التبيان: أن الله أعلمهم.

٢- أنهم قاسوا على المخلوقات السابقة.

٣- إن طبيعة الخلافة تكشف عن ذلك.

٤- إن المزاج المادي والروحي لهذا المخلوق، والأساس الاجتماعي للعلاقات هي التي جعلت الملائكة يعرفون ذلك. ونقل عن الطباطبائي عن تركيب الإنسان من القوى الغضبية والشهوية... الخ. وهذا متأخر، فكيف تفوت هذه الطباطبائي والحكيم من بعده؟!

واحتمال آخر وضعه أن الإرادة الإنسانية بما أعطيت من اختيار يتحكم في توجيهه العقل بمعلوماته الناقصة هي التي تؤدي للإفساد. وهذا مثل سابقه متأخر يعرف بعد التجربة لا قبلها. (وأقول كذلك إن القول الصحيح أن الله أخبرهم. والسلام. بدلالة: ﴿لا علم لنا إلاّ ما علمتنا...﴾.

ثم تطرق إلى الاختلاف في مفاهيم الأسماء، وذكر أن الاحتمال الأول: الألفاظ التي سمى الله بها نفسه. (وهو فيما أرى لا يستحق التسجيل والذكر، بدلالة ﴿ثم عرضهم...﴾ فكيف يعرض الله أسماءه؟ تعالى الله!). ثم قال: وهو المذهب السائد ونسبه الطوسي لابن عباس. والاحتمال الثاني أن الأسماء هي المسميات.

وأطال في النقول عن الرازي وغيره، فيما أرى أنه لا طائل تحته ولا فوقه. ثم نقل عن الطباطبائي أن الأسماء موجودات أحياء عقلاء! (من أين عرف؟). ونقل عن التبيان للطوسي أن الله علم آدم أسماء ذريته...

ومحمد عبده يرى أنها جميع الأشياء المتعلقة بالدين وعمارة الأرض من غير تحديد. ثم قال: لعله رأي الطوسي والرازي والطبري وعليه أكثر المتأخرين، ثم رجحه هو.

ثم عنون بـ: نظرية الاستخلاف:

وذكر صورتين أو احتمالين:

١- عن رشيد رضا ومحمد عبده أن القصة وردت مورد التمثيل، وكأنه أعاد الكلام الذي ابتدأ به حديثه، وذكر كلام الطباطباني الذي ذكر فيه القوى الغضبية والشهوية وما إليه...

٢- ومن ضمن الاحتمالات التي قالها: أن آدم استحق الخلافة لقدرته على تحمل السر الذي هو عبارة عن تعلم الأسماء التي هي أشياء حية عاقلة... الخ.

ثم ذكر عن الطباطبائي أن الخليفة لا بد أن يكون حاكياً المستخلف (الله) بخلاف الملائكة؛ إذ يمكن أن يحكوا المستخلف من خلال تسبيحهم وحمدهم.

ثم قال: وفي هذه النقطة قد يكون الحق إلى جانب العلامة الطباطبائي!!. (وعجيب قول الحكيم!).

ثم عنون بـ: مسيرة الاستخلاف:

وتحته تكلم عن السجود لآدم. ودخل في مفهوم العبادة والنية. (والخطْب يسير كما يقول العلماء، لا يحتاج إلى الخلط الكثير، فالسجود هنا سجود التكريم لا سجود العبادة والتعظيم... ونخلص).

ثم قال: ويمكن أن يكون هذا السجود سجوداً حقيقياً بالشكل الذي يتناسب مع الملائكة، ويكون طلب السجود تعبيراً بهذا السجود عن خضوعهم أو تقديسهم لهذا المخلوق الإلهي المتميز بما أودع الله فيه من روحه... ولعل هذا المعنى -كما يقول الحكيم- هو الظاهر، وهذا من الحكيم قول غير حكيم، وليس له في الشرع مسلك، ولا يسير على صراط مستقيم.

ثم تطرق لموضوع: هل إبليس من الملائكة:

والخَطْب كما أظن أيسر من يسير، فالله حسم الأمر إذ قال: ﴿كان من الجن...﴾ ولكن الحكيم يطيل فيما لا طائل فيه، ولا داعي له. ومن أعجب ما قال: "الطاعة ليست صفة لازمة لعنوان الملائكة، بل نلاحظ في القرآن الكريم حصول التمرد لدى بعض الملائكة، كما في الملكين هاروت وماروت. ثم زعم في الهامش أنه في سورة البقرة، وما صدق! فهي قصة لم يفهمها الحكيم وإنما بنى زعمه على الإسرائيليات التافهة!!.

والعجيب أن الحكيم يذكر أن القرآن الكريم وصف إبليس بأنه من الجن، ومن الشواهد أن الملائكة لا ذرية لهم، ثم يعقب فيقول: ولكن هذه الشواهد لا تكفي في عد إبليس من الجن في مقابل الملائكة. وذلك لأن وصف القرآن لإبليس بأنه من الجن يمكن أن يكون من ناحية أن بعض الملائكة يوصف بأنه جن. (وهذا من الحكيم صنيع غير حكيم، وقول جد عقيم، وتفكير بعيد عن الصواب والحق البين، فمعنى الجن المفيد للاستتار لا ينطبق هنا على الملائكة حين تصنف عوالم الخلق إلى ملائكة وجن وإنس، فهذه ثلاث عوالم مختلفة لا تداخل بينها...).

ثم استدل لكلامه بأن المشركين زعموا الملائكة بنات الله، والقرآن يقول: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً...﴾ . وزعم أن القرآن يصف هؤلاء الملائكة بأنهم جنّة.

والرد على الحكيم بسيط، إذ أن الذين زعموا الملائكة بنات لله غير الذين جعلوا بين الله والجنة نسباً، فهذا قول وهذا قول وهذا فريق وهذا فريق، وهذا اعتقاد وهذا اعتقاد.

ثم وصف الروايات التي ترى أن إبليس لم يكن من الملائكة بأنها لا يعتمد عليها. (والسؤال هل يعتمد على مثل الأقوال التي أتحفنا بها الحكيم).

ثم عنوان جديد: هل خلق آدم للجنة أم للأرض؟

وملخص ما قاله: إن وجود آدم في الجنة هو مرحلة تأهيلية متقدمة تؤهله للقيام بدور الخلافة. وهو كلام لا غبار ولا إنكار عليه.

ثم قال: إنه لا يوجد دليل على أن الجنة جنة الخلد. وهذه مسألة يسعه أن يرى فيها ما يشاء.

ثم سأل: كيف تسنى لإبليس أن يغوي آدم في الجنة؟

ثم سأل: هل كان آدم نبياً حين عصى؟ وكيف والأنبياء معصومون؟ ثم فسر النهي بأنه قد يكون نهياً إرشادياً (وهذا عجيب!). ثم قسم الأوامر الشرعية إلى: مولوي وإرشادي، والمراد من المولوي ما يصدر من المولى (تعالى) وهذه مصطلحات القوم لا أظن لها عندنا نظيراً.

ثم دخل في موضوع العصمة، ومعلوم كم للعصمة عند القوم من اهتمام. ثم نقل عن الطباطبائي ما استنتج منه هو أن المعصية لو لم تصدر من آدم لم يحصل على تلك الدرجات العالية من الرحمة!! ونقل قريباً من ذلك عن الصدر.

القسم الثاني: أنبياء أولي العزم: (هكذا)

الفصل الأول: نوح:

وقال إن نوحاً هو النبي الثالث بعد آدم. وجده الأكبر إدريس. ثم أشار إلى اختلاف قصته في التوراة عنها في القرآن. ثم ذكر موارد القصة في القرآن. وذكر أن قومه من الناحية العقدية عكفوا على عبادة غير الله. ومن الناحية الأخلاقية اتصف قوم نوح بسوء الأخلاق. ومن الناحية السياسية كان قوم نوح يتبعون سادقم. ومن الناحية الاجتماعية كانوا يرتكبون الآثام.

شخصية نوح:

وتحت هذا العنوان قال: لم يتحدث القرآن عن الحياة الشخصية لنوح. (وهـذا معـروف بداهة). ثم يقول: ونستنتج أن نوحاً كان من الأشراف (من أين عرف؟) فنوح أول أولي العزم. وهو الأب الثاني للنسل الحاضر: ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين...﴾ . وهو أول من كلم الناس بمنطق العقل (هكذا).

وتحت عنوان حياة نوح تكلم عن الرسالة والدعوة، وحاول تحليل الآيات وأشـار إلى أن القوم كانوا يثيرون في وجهه الشبهات. وحاصروه اجتماعياً. وهددوه بالعدوان.

ثم عنون باليأس وصنع الفلك. ولا أدري ما محل اليأس ؟! ثم الطوفان وآثاره المـدمرة. ثم زعم أن ابن نوح كان يبطن الكفر ولم يكن نوح يعلم، وهذا مما لا نعلم فمن أين يعلم؟!

ثم ملاحظات حول القصة قال فيها: إن الله أراد أن يضرب مثلاً لهلاك قوم رسول من أولي العزم، وهي أول حادثة هلاك، ثم إن القصة تعبر عن المثل الأعلى للشجاعة والصبر. ثم ذكر بعـد روايات التوراة وردها.

ثم زعم أن بعض الصحابة تأثروا بمعلومات التوراة. ثم نقل عن أهل البيت أن نوحاً كان في الكوفة وأن الجودي قرب الكوفة وأن جبل ابن نوح هو جبل النجف وكان عظيمـاً فتقطـع (أي الجبل). ثم قال: وهذا التفسير التاريخي للحادثة مما اختص به تراث أهل البيت دون غيرهم. ولعـل الأبحاث التاريخية والآثارية تكشف هذه الحقيقة في المستقبل.

وهذا من الحكيم عجيب جداً. وهو ليس إلاّ ترداد اعتقادات لـيس عليهـا أدلـة ولا مستندات ولا تقوم على ساق من بحث علمي أو منطق. فلِمَ تختص مجموعة من الناس من بين أمة في فهم كتاب الله؟

الفصل الثاني: قصة إبراهيم في القرآن:

من ص١٧٧-ص٢٣٢. وابتدأ بالقول: إبراهيم بن آزر هو النبي السادس. ولا أدري كيف عد. وفصلت التوراة قصته!. وذكره القرآن في تسع وستين موضعاً.

وتحت عنوان: قوم إبراهيم. أعاد ما قاله عن قوم نوح في البعد العقدي وعبادة القوم للكواكب. والبعد السياسي يتمثل في وجود ملك.

وتحت عنوان: شخصية إبراهيم. ومن الأبعاد التي تكلم عنها: البعد الرسالي. ويعني بها الصفات التي تشير إلى موقع ابراهيم من الرسالة الإلهية. ثم ذكر (الإمامة). وروى عن الكليني في الكافي عن أبي جعفر قال: "إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً. واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، واتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً". وهذا الترتيب لا أرى له وجهاً، وبالطبع ولا مستنداً. اللهم إلاّ رواية لا ندري لها دعامة.

ثم عدد صفات إبراهيم من الاصطفاء والحلم وكونه من أولي العزم، وشرح معنى ﴿حنيفا مسلماً...﴾ ، و ﴿شاكراً لأنعمه...﴾ ، و ﴿قانتاً لله...﴾ ، ووفاءه بالعهد. ثم بين علاقته بالناس وحلمه وشفقته على الناس ومثّل بموقفه من أبيه.

ثم من معالم الشخصية في بعدها الرابع: التفكير والتأمل والتدبر في الكون.

ثم عنوان: حياة إبراهيم. وقسمها إلى مرحلة الفتوة، والدعوة، والهجرة، والإمامة، وبناء البيت.

١- مرحلة الفتوة: ذكر مولده في "فدان آرام" كما تقول التوراة (رجعنا!). وأن أباه كان نجاراً (كله لا لزوم له!). ثم ذكر عن أهل البيت (بالسند) أنه كان أي آزر منجماً لنمرود بن كنعان (دائما الشتائم على كنعان وذريته!!). وذكر قصة طريفة ذكرها كل الكتب الناقلة عن الروايات الإسرائيلية..

وذكر عن الراوندي في قصص الأنبياء أن آزر كان عمه. (وهذا من أعجب العجب). ثم ذكر آيات الأنعام ومريم وعلق عليها.

٢- مرحلة الدعوة والمواجهة: وفيها يشير إلى تطور موقف ابراهيم من الاحتجاج الكلامي الليّن، وتحمل الأعباء والأخطار، يقصد بذلك تكسير الأصنام، ويبدو ذلك واضحاً من خلال المقارنة بين ما ورد في سورة الأنعام ومريم، وسورة الأنبياء والشعراء، والعنكبوت والصافات. ويعزو هو ذلك إلى مرحلة ما قبل النبوة وما بعدها. والذي أراه أن تكسير الأصنام كان نوعاً من

الحجاج لا الاحتجاج، ودعوة للعقل أن يتفكر لا وسيلة لتغيير المنكر، ولو كان كذلك لكسر الصنم الأكبر. فاستنتاج الحكيم لا نقابله بالتسليم. وقد أطال في هذا، وبنى عليه كثيرا.

٣- مرحلة الهجرة: ويذكر رواية التوراة أن سارة زوجة إبراهيم هي أخت لوط لكن الرواية عن أهل البيت وهي نقية عن شوائب التوراة، وإذ بها قصة مطولة يهون إلى جانبها ما في التوراة، وإليك بعض الإتحافات السّنية: جعل إبراهيم سارة في صندوق محكم الإغلاق غيرة عليها – وذلك وقت الهجرة- ودخل في سلطان رجل من القبط اسمه عرارة، فمر به عاشر (عامل الضرائب) فأبى إلاّ أن يفتش الصندوق، وسار مع القصة صفحات عدة على هذا النحو، فارجع إلى الكتاب إن شئت التفصيل.

ثم عرج الكاتب على قصة لوط وسدوم (ليس في القرآن لا سدوم ولا عمورة). وقد ذكر في أحد الهوامش أن الحنيفية هي العشرة التي جاء بها إبراهيم: خمس في الرأس وخمس في البدن، يقصد قص الشعر والغسل وما إليه... ونقل ذلك عن الطوسي وهذا يردها إلى الروايات، وبشرنا وطمأننا أنها لم تنسخ إلى يوم القيامة.

ويعرج على قصة طلب إبراهيم رؤية إحياء الموتى. ويعلق تعليقات لا أرى لها وجه مناسبة ولا موقعاً، من مثل قوله: "حيث ترسخ هذه القضية فكرة الدار الآخرة بشكل حسي، وتتكامل بذلك العقيدة الإسلامية والملة الحقة من خلال بلوغ درجة الاطمئنان. ولا سيما أن هذه الفكرة لم تكن قد ترسخت في العقل الإنساني حتى في الأوساط الدينية".

ومن ضمن ما عرج عليه ولا يفوته طبعاً: أن رسالة إبراهيم كان لها امتداد من خلال آله وأسرته واستشهد بالآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت...﴾ . وهذا المفهوم لأهل البيت أرى أنه خروج عن سياق القرآن الكريم الذي عنى به زوجات النبي.

٤- مرحلة الإمامة وإيجاد الملة الجديدة (تعبير غريب حكاية الملة الجديدة): وفي هذا الكلام سفرت معان كانت غير سافرة. كان يقول: إن الكلمات التي تلقاها آدم: يا رب أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تُبت عَليّ". ولا يحتاج هذا إلى تعليق.

ومن ضمن ما قال: لا يصلح للإمامة من ارتكب من المحارم شيئاً صغيراً أو كبيراً. أقول: ومن هنا اللجوء إلى فكرة العصمة التي فيها قدر كبير من التكلف بالمفهوم المتوسع فيه عند القوم. وقد صرح هو بذلك إذ قال: لا يكون الإمام إلاّ معصوماً. والعصمة مغيبة. يعني حقيقة غيبية!.

قصة موسى عليه السلام في القرآن: (من ص٢٣٥--ص٢٦٦)

ينبه في الهامش إلى أنه سيذكر من القصة بمقدار ما تعرض له القرآن. وقد رأينا في الفصول السابقة هذا الصنيع، صح أو لم يصح.

ويبتدئ الفصل بسطور عن الإسرائيليين في المجتمع المصري. ثم عنوان: ولادة موسى ورضاعته. ثم خروج موسى من مصر. وموسى في مدين. ثم بعثة موسى ورجوعه إلى مصر.

ومن ضمن تعليقاته التي أقف عندها، عند قوله تعالى: ﴿ألم نربك فينا وليداً...﴾ قال: استغرب فرعون لأن موسى لم يكن عنده شيء من هذه الأقوال. (وأظن أن المسألة في اتجاه آخر. ففرعون يعد هذا الفعل من موسى جحوداً فكيف تكلمني هكذا ونحن قد ربيناك).

ثم فرعون يجادل موسى في ربوبية الله. ولا جديد في العرض. ثم مباراة موسى مع السحرة. إصرار فرعون وقومه على الكفر ومجيء موسى بالآيات. ثم الانتمار بقتل موسى. وفي كل ذلك لا يزيد على شرح يسير للآيات. ولا تخلو عباراته دائماً من إشكالات كان يقول: "وأمام هذه الآيات لم يجد فرعون أسلوباً يعالج به الموقف غير الانتمار بقتل موسى. وادعاء القدرة على مواجهة آلهته"!!. عند ذلك صمم موسى على الخروج ببني إسرائيل. (هو أمر وليس اجتهاداً أو تصميماً من موسى).

ثم موسى مع بني إسرائيل. وفيه يقول: "إن أقسى حادثة في حياة موسى هي ردة بني إسرائيل. فيرجع "غضباناً أسفاً"، هكذا يضع نص الآية. ويعتب بقسوة على أخيه هارون.

ثم يشير إلى أنه يكتفي بسرد القصة هكذا حسب تسلسلها الزمني. ثم يقول إنه يريد بعد ذلك أن يدرس القصة حسب المنهج الاجتماعي. ويبتدئ بمراحل حياة موسى. ويقول إن المركز الاجتماعي المهم ضاع من موسى بقتل الفرعوني. إذ ضيع موسى بهذا العمل الارتجالي فرصة ثمينة كان من الممكن استثمارها... (أخشى أن تكون هذه هي عقلية الحكيم التي أملت عليه مواقفه حين احتلال بلاده).

ويعاود النظر في الآيات في هذا المبحث في ضوء جديد. ولا يخلو كذلك من هنات. كأن يقول: "إن موسى كان يعتمد للحماية من الانتقام الفرعوني على التفاف بني إسرائيل حوله، ومركزه الاجتماعي السابق في البيت الفرعوني. واستجابة بعض الفرعونيين لدعوته كامرأة فرعون ومؤمن آل فرعون...".

وله تعبيرات لا تسوغ عربياً ولا دينياً كان يقول: "إن الأهداف والشعارات الإلهية الرسالية تنطلق من المبادئ ومتبنيات الفطرة الإنسانية...".

وتحت عنوان: موضوعات القصة، قال: تحدثت القصة عن ستة موضوعات رئيسية هي:

١- بعثة موسى ومعاجزه (هكذا).

٢- أساليب الدعوة.

٣- مواجهة الكافرين له من فرعون وأتباعه.

٤- التحريفية في العبادة (هكذا).

٥- الحياة الشخصية لموسى (هكذا).

٦- الأوضاع العامة للشعب الإسرائيلي.

وفي النقطة الأولى قال: من الأهداف الرئيسة للقرآن ربط الإنسان بعالم الغيب، من هنا جاء الحديث عن نجاة موسى من الذبح، والعصا، واليد. فهذا له أثر في تربية المسلم على الإيمان بالغيب.

وفي النقطة الثانية قال: إن الأنبياء اعتمدوا مع المعجزات على مخاطبة العقل والوجدان.

وفي النقطة الثالثة قال: كأن مسيرة دعوة موسى هي مسيرة دعوة النبي وآلامه.

وفي النقطة الرابعة قال كلاماً أظنه كان ملغوماً أو ما كان مفهوماً إذ قال: إن الإنسان حين يؤمن بالله وبالرسول ويحظى بصحبته لا يعني أنه قد تجرد دفعة واحدة عن جميع محتوياته الداخلية.

وفي النقطة الخامسة وهي الحياة الشخصية لموسى كما عبّر هو وأظنه غير موفق، قال: لعل القرآن استهدف من وراء عرض هذا الموضوع هدفين:

١- إن هذه التفصيلات قد تدل على جانب من الإعجاز القرآني، إذ يدل الاطلاع عليها على مدلول يختلف عن مدلول الاطلاع على أحوال موسى الرسول. (وهو كلام فيما أرى غير سليم التعبير وغير موفق).

٢- هذا الجانب يبرز لنا موسى في صورة الإنسان الذي أعده الله للقيام بأعباء الرسالة.

وفي النقطة السادسة قال إن في الإسرائيليين ازدواجية نتيجة مختلف الظروف التاريخية والاجتماعية التي مروا بها.

الفصل الرابع: منهج تحليلي في دراسة القصة القرآنية:

عيسى وقصته:

هكذا بدأ الفصل. ثم قال: هو آخر الأنبياء قبل نبينا. ثم ذكر الأناجيل واختلافها في نفسها ومع القرآن. ولم ترد قصة عيسى في التوراة بالطبع. وذكر أن من المؤرخين من ينكر وجوده. ثم قال بعبارة ضعيفة فيما أرى: "ولذلك يعتبر تأكيد القرآن لوجوده من أهم الأدلة (هكذا) وأوضحها على وجود هذا النبي العظيم".

ثم ذكر أنه ورد ٢٥ مرة في القرآن باسم عيسى. وباسم المسيح ١١ مرة، ثلاث منها مقرونة باسم عيسى، وورد ابن مريم بشكل مستقل مرتين، فيكون مجموع الموارد خمسا وثلاثين مرة. (الجمع غير دقيق. لعله)[1]. ووردت قصته متفرقة ومتناثرة ضمن قصة والدته (عبارة الكاتب!) وأكثر المواطن تفصيلاً: آل عمران، المائدة، مريم...

ثم قسم قصة عيسى إلى ثلاثة فصول:

قوم عيسى عليه السلام:

وفيه قال: قد يظهر من القرآن أن قوم عيسى هم بنو إسرائيل (والصحيح ماذا يا مولانا ؟). وذكر الآية: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل...﴾، وآيات أخرى مثل: ﴿قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم...﴾، ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل...﴾، ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك...﴾ وغيرها من الآيات.

ومع هذا يقول الكاتب: قد يبدو لأول وهلة أن دعوته مختصة ببني إسرائيل كما قد يبدو (هكذا أعاد)، إلاّ أننا سوف نذكر أن دعوته لم تكن مختصة ببني إسرائيل. لكن قومه الذين عاش بينهم هم بنو إسرائيل. (أعتقد أنه -الحكيم- ترك الجادة وسلك في التيه، وترك المحجة ومشى في العماية).

ثم ذكر أحوال بني إسرائيل ببعديها العقدي والاجتماعي وانحرافهم في كل ذلك. وكذا في بعدها السياسي والأخلاقي. وذكر من صفاتهم ما هو معروف مكرور.

ثم انتقل إلى شخصية عيسى:

---

١ ورد ذكر عيسى عليه السلام في القرآن ٣٣ مرة كما يلي: مرتين ابن مريم؛ و ١٣ مرة عيسى ابن مريم؛ و ٣ مرات جمع المسيح عيسى ابن مريم؛ و ٤ مرات المسيح ابن مريم؛ و مرتين المسيح؛ وورد عيسى مستقلاً ٩ مرات.

وابتدأ هذا المبحث بنقل عن الطباطبائي في الميزان، وصف فيه عيسى وعدّد من خصاله ثنتين وعشرين خصلة من مثل: مباركاً. براً، زكياً، نبياً، رسولاً... الخ. ثم قال إن أغلبها مشترك مع سائر الأنبياء.

وتكلم أولاً عما أسماه الكاتب الحكيم: البعد الرسالي، وذكر منها أولاً الإمامة. واستنبطها الحكيم استنباطاً لا نصاً. ثم النبوة والرسالة. ثم الاصطفاء، ثم التصديق بالتوراة والتبشير برسول الله.

والبعد الثاني: العلاقة بالله: ﴿قال إني عبد الله...﴾ وعدد نعم الله عليه.

البعد الثالث: العلاقة بالناس. وفيه قال: هو رحمة من الله للناس. وكان وجيهاً، وبراً بوالدته.

ثم عنوان: معالم الشخصية: وتحته قال: كان مباركاً، صالحاً. ونقل عن نهج البلاغة: كان يتوسد الحجر، ويلبس الخشن ويأكل الجشب. دابته رجلاه، وخادمه يداه.

ثم مبحث: حياة عيسى عليه السلام:

وقسمها إلى مراحل: الولادة والنبوة، الدعوة والرسالة، الانتشار والتنظيم، الوفاة والاختلاف. وفيه قال: تؤكد بعض النصوص أن عمران كان نبياً (وينقله عن البحار وعن الراوندي). ثم تكلم عن إعداد مريم، ثم الحمل والولادة، ثم يذكر روايات في مدة الحمل: ستة اشهر، أو تسع ساعات. وكل ذلك لا سند له فيما نرى.

وهذه المباحث كثيرة الهوامش تختلف عن سائر الكتاب، وأغلبها نقول عن مراجع الشيعة. ومن هذه الروايات عن أبي جعفر: كان عيسى حين تكلم في المهد نبياً حجة لله غير مرسل (!) وفي الرواية قال: إن علياً كان حجة من الله ورسوله على الناس أقامه علماً في حياة رسول الله. وطاعته واجبة في حياة رسول الله.

وقد ذكر الآيات وفسرها أي التي تتكلم عن عيسى عليه السلام.

ثم يتعرض لتحريف الأناجيل وأنه أصاب السنة ما أصابها وذكر فضل أهل البيت في حفظ السنة.

ثم يتكلم عن الوفاة والرفع. وفيه يقول الكلام المكرور المعروف. وفي الهوامش ذكر الشبه بين القائم من أهل البيت وبين عيسى. ومن ضمن أوجه الشبه أنه اختلف فيه.

وفي الهامش ينقل رواية عجيبة عن أهل البيت (!) أن عيسى يطلب من أصحابه متطوعـا ليقتل بدله لأنه سيرفع أي عيسى، فيتبرع واحد، فيقول له عيسى: فأنت هوذا.

ثم يروي حديثاً في تفسير الرهبانية (عن مصادرهم أي الشيعة). ثم ذكر أن عقيدة الصلب عن البوذيين كما ذكر رشيد رضا.

هذا مجمل أو ملخص لما جاء في كتاب الحكيم، وأظنه كان في أغلبه عاديا جدا. وكان في قطاع منه أو قسم منه غير حكيم. وفي كثير من عباراته كان مشكلاً وتعبيره غير سليم ولا مستقيم. وفي عبارته تعقيد لعل دراسته الفلسفية في الحوزة وتأثره بـالمنطق قـد صـبغ تعـبيره وتفكـير

المراجع

١- ابن عربي، محي الدين: الفتوحات المكية؛ تحقيق: د. عثمان يحي؛ مراجعة: د. إبراهيم مدكور، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢- الأميري، أحمد البراء: إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، ط١، جدة: دار المنارة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٣- الجزائري، نعمة الله: النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، ط١، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٤- جميلة، مريم (مارجريت ماركس): الإسلام بين النظرية والتطبيق.

٥- الحكيم، محمد باقر: القصص القرآني، ط١، لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٦- الرافعي، مصطفى صادق: وحي القلم.

٧- زيدان، عبد الكريم: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة -الجزء الأول-، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٨- الزين، سميح عاطف: ابن عربي دراسة وتحليل، ط١، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٩- الشرقاوي، محمود: الأنبياء في القرآن الكريم، ط١، القاهرة: دار الشعب، ١٩٧٠م.

١٠- شلبي، محمود: حياة يونس، ط١، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

١١- شلبي، محمود: حياة يحي، ط٢، بيروت: دار الجيل، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١٢- شودكيفيتش، علي: الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي؛ ترجمة: أحمد الطيب، ط١، مراكش: دار القبة الزرقاء، ١٩٨٦م.

١٣- طنطاوي، محمد سيد: القصة في القرآن الكريم -الجزء الأول والجزء الثاني-، ط١، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٧م.

١٤- عباس، فضل حسن: قصص القرآن الكريم، ط١، عمان: دار الفرقان.

١٥- عبده، محمد: الأعمال الكاملة؛ جمع وتحقيق ودراسة: د. محمد عمارة.

١٦- الفيومي، د. محمد إبراهيم: ابن عربي، صاحب الفتوحات المكية، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٧- قطب، سيد: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق.

١٨- قطب، سيد: في ظلال القرآن، ط١٥، القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٩- القمني، سيد: إسرائيل... التوراة... التاريخ... التضليل، ط١، القاهرة: دار قباء، ١٩٨٨م.

٢٠- الكبيسي، أحمد: أحسن القصص، قصص القرآن الكريم، ط١، بغداد-العراق: وزارة الثقافة والإعلام، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٢١- المدني، محمد محمد: القصص الهادف كما نراه في سورة الكهف -الكتاب الأول-، ط١، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

٢٢- مصطفى، إبراهيم، ورفقاؤه: المعجم الوسيط، تركيا: المكتبة الإسلامية. وط٢ القاهرة: ١٩٧٢م.

٢٣- مصطفى، محمود السيد: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، ط١، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨١م.

٢٤- النجار، عبد الوهاب: قصص الأنبياء.

٢٥- الندوي، أبو الحسن: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ط٤، دمشق؛ بيروت: دار القلم، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٢٦- نوفل، أحمد: سورة يوسف دراسة تحليلية، ط٢، عمان: دار الفرقان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٢٧- هوايت، آلن: إبراهيم خليل الله، بيروت: دار الشرق الأوسط، ١٩٦٤م.

٢٨- وصفي، محمد: الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ط١، دمشق؛ بيروت؛ قبرص: الجفان والجابي ودار ابن حزم، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

فهرس